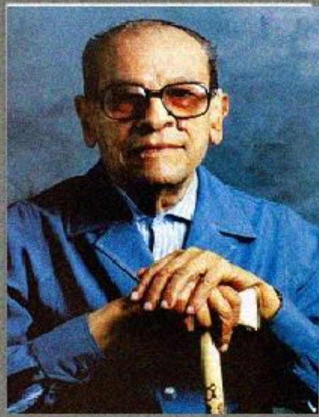
نجيب محفوظ

الأعمال الكاملة

المجلد

1



نبذة عن المؤلف

(11 ديسمبر 1911 - 30 أغسطس 2006)
روائي مصري، هو أول عربي حائز على جائزة
وبل في الأدب كتب نجيب محفوظ منذ بداية
لأربعينيات واستمر حتى 2004. تدور أحداث
جميع رواياته في مصر، وتظهر فيها ثيمة
متكررة هي الحارة التي تعادل العالم.

المؤلفاتُ الكامِلة

المجلّد الأوّل

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

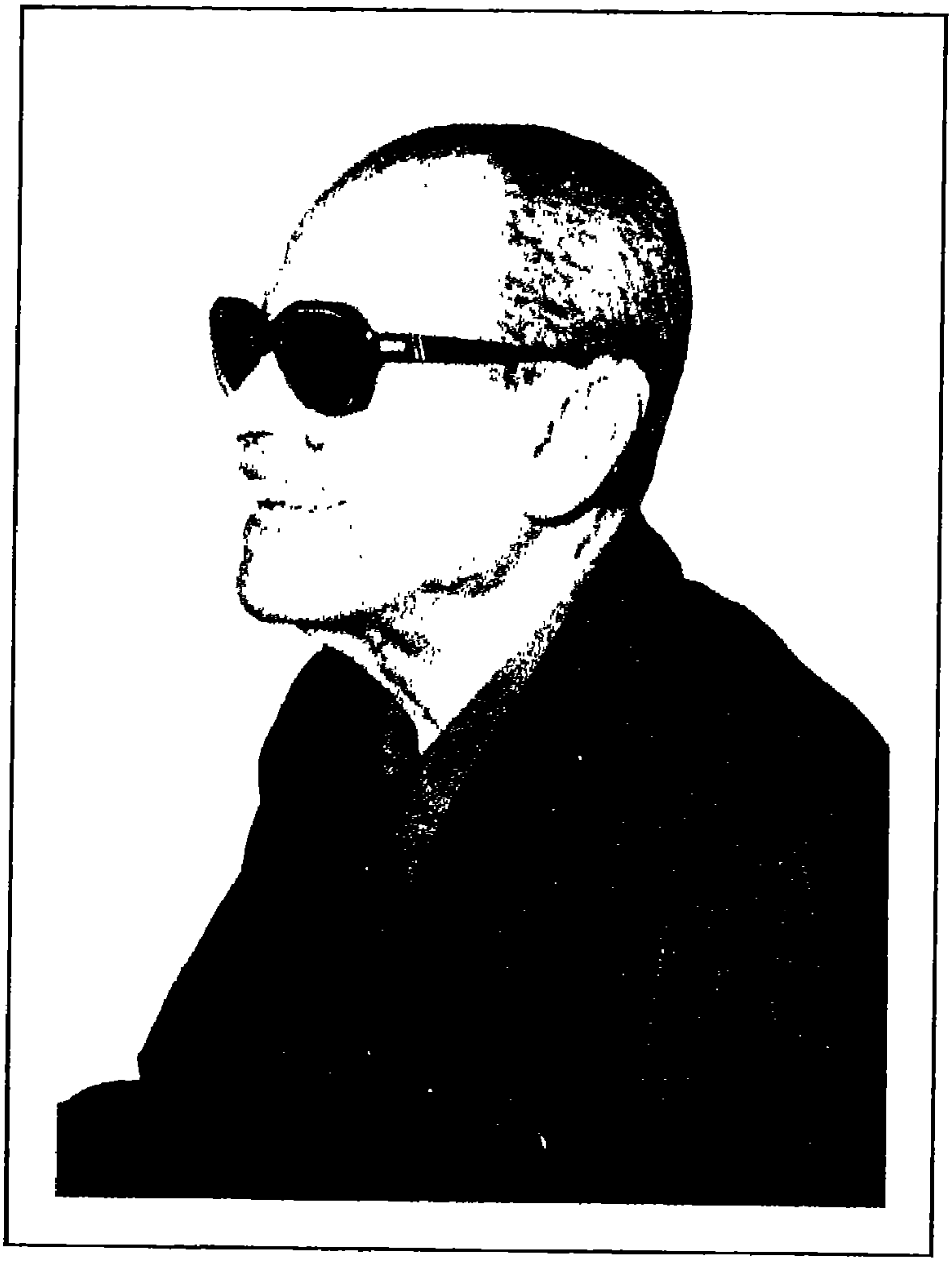
المؤلفات الكاملة

همس الجنون
كفاح طيبة
عبث الأقدار
القاهرة الجديدة
رادوبيس
خان الخليلي
زقاق المدق

مكتبة لبنان

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٠
رقم الكتاب 01 R 160109
طبع في لبنان



المحتويات

نجيب محفوظ

١٩١١ * وُلِدَ نجيب محفوظ في ١١ ديسمبر في بيت القاضي بحيّ الجمالية، وقد سُمِّي عند ولادته باسم أشهر طبيب توليد في مصر، وهو الدكتور نجيب محفوظ الذي أشرف على ولادته. ونجيب محفوظ اسم مُركَّب، أمّا والده فهو عبد العزيز إبراهيم. ونجيب محفوظ أصغر أبناء أسرته، وله من الإخوة والأخوات ستّة توفّاهم الله جميعًا. نشأ في عائلة مُتديِّنة مُحافِظة، وكان أبوه وطنيًّا مُتحمِّسًا للزُّعماء المصريّين الوطنيّين، أمّا أمّه فكثيرًا ما صحبته في طفولته إلى متحف الآثار المصريّة.

كان نجيب محفوظ شديد التّعلُّق بالسينما في مرحلة مُبكِرة جدًّا من طفولته، فكان وهو في الخامسة من عُمْره يَتردَّد على سينما «الكلوب المصريّ» - في شارع خان جعفر بين بيت القاضي والحسين - لمُشاهَدة أفلام رعاة البقر وشارلي شابلن؛ كما كان في شبابه لاعب كُرَة قدم ممتازًا.

١٩١٥ * التحق نجيب محفوظ بكتاب الشّيخ بحيري، ثُمّ تَلقّى دروسه الأولى في مدرسة الحسينيّة الابتدائيّة، وانتقل في المَرْحَلة الثانويّة إلى مدرسة فؤاد الأوّل، وحصل على شهادة البكالوريا.

١٩٢٤ * انتقلت أسرته من حَيّ الجماليّة إلى حَيّ العَبّاسيّة حيث قضى فترتي طفولته وشبابه بها في المنزل رقم ٩ بشارع رضوان شكري؛ ولم يُغادِر نجيب محفوظ هٰذا المكان إلّا بَعْدَ زواجه في الخمسينات.

وقد بدأت قراءات نجيب محفوظ بمُطالَعته للرِّوايات البوليسيّة مثل «سنكلير» و«جونسون» و«ميلتون توب» وغيرها من الرِّوايات التي كان يُترجِمها حافظ نجيب بتَصرُّف. ولم تكن في أيّامه كتب خاصّة بالأطفال، لذٰلك كانت هٰذه الرِّوايات هي بداية قراءاته في أواخر المرحلة الابتدائيّة وأوائل المرحلة الثانويّة.

وقرأ نجيب محفوظ للمنفلوطي، ومُترجَمات الأهرام، وهي روايات تاريخيّة في الأغلب لـ «بول كين» و«تشارلز جارفيس» وغيرهما.

وقرأ فيما بعد في مرحلة اليقظة لطٰه حسين وسلامه موسى والمازني وهيكل، وانضمّ إليهم بعد فترة تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقّي. وقرأ أيضًا «البيان والتّبيين» للجاحظ، و«الأمالي» لأبي علي القالي، و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه، واتّجه بَعْدَ ذٰلك لقراءة الشّعر وبخاصّة أشعار أبي العلاء المعرّي والُمتنبّي وابن الرومي.

١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ * بدأ نجيب محفوظ كتاباته بتأليف الشّعر؛ وكتب في بادئ الأمر شِعْرًا موزونًا، وإن كانت به بعض الأبيات المكسورة، وحينما وجد أنّ الأبيات المكسورة كثيرة، أطلق الشّعر وحَرَّره من الوزن.

١٩٢٨ * اتّجه إلى كتابة القصّة القصيرة وهو طالب في مدرسة فؤاد الأوّل الثانويّة.

١٩٣٠ * اتّجه إلى كتابة المقال، ونُشِرَت أولى مقالاته «احتضار مُعتقَدات وَتولُّد مُعتقَدات» في أكتوبر في «المَجلّة الجديدة» التي كان يُصدِرها سلامة موسى.

١٩٣٢ * اتّجه إلى التّرجمة، ونَشَر له سلامة موسى في مطبعة المَجلّة الجديدة أوّل كتاب مُترجَم عن «مصر القديمة» لجيمس بيلي. وقد نُشِرَت له أوّل قصّة قصيرة بمَجلّة السياسة في ٢٢ يوليو وكانت بعنوان «فترة الشباب». وعن هٰذه الفترة يقول نجيب محفوظ: «كانت المَقالة أسبق في الظهور من الأقصوصة والرِّواية، فما أكثر الأقاصيص التي رُفِضَ نَشْرُها، وكانت أيّام عذاب ومحنة تَتكرَّر مع كُلّ أقصوصة أو مَقال يَرِد. على أنّ المَقال كان أسرع في القبول من الأقصوصة، ولذٰلك فقد انصرفت بعض الوقت إلى كتابة المَقالات..»

١٩٣٣ * التحق نجيب محفوظ بمعهد الموسيقى العربيّة، واختار آلة القانون وانتظم في حضور الدروس، وتَعلَّم النوتة الموسيقيّة، وحفظ عدّة بشارف أثناء دراسته بالسَّنة الثالثة بقسم الفلسفة في كلّية الآداب جامعة فؤاد الأوّل (جامعة القاهرة الآن).

١٩٣٤ * تَخرَّج في جامعة القاهرة وكان ترتيبه الثاني على الدُّفعة. أمّا عن سبب اختياره لقسم الفلسفة بالذات فإنّه يرجع إلى أنّ الأدباء الذين أثّروا فيه ـ وهو في أواخر المرحلة الثانويّة ـ كانوا يُمثّلون ثورة فكريّة أكثر منها أدبيّة، فقد قَدَّم كُلّ من طٰه حسين، وسلامة موسى، والعَقّاد لجيلهم أفكارًا ومناهج فكريّة أكثر ممّا قَدَّموا لهم من النماذج الأدبيّة، كما يَغلب الطابَع الفكريّ أيضًا على الأدباء

والشُّعراء الذين وَجَّهوهم إلى الاهتمام بهم كأبي العلاء المَعرّي، والمُتنبّي، وابن الرومي.

وسُجِّلَ اسم نجيب محفوظ عَقِبَ تَخرُّجه في الجامعة للحصول على درجة الماجستير في موضوع «مفهوم الجمال في الفلسفة الإسلاميّة» بإشراف الشَّيخ مصطفى عبد الرَّزّاق، وظَلّ يجمع مادّة البحث لُمدّة سنتين، ولم يَتمكَّن من إتمامه، فقَطَعَ العمل وهو في منتصف الرسالة، إذ أحَسّ أنّ كُلّ تَقدُّم فيها يَزيد من حدّة التمزُّق المُؤلم في نَفْسه، فقد كان الأدب والفلسفة يصطرعان داخله. وقد عَبَّر عن ذُلك بقوله:

«كنت أُمسِك بيد كتابًا في الفلسفة، وفي اليد الأخرى قصّة طويلة من قصص توفيق الحكيم أو يحيى حقّي أو طه حسين، وكانت المذاهب الفلسفيّة تقتحم ذهني في نَفْس اللحظة التي كان يَدخل فيها أبطال القصص من الجانب الآخَر، ووَجَدْت نَفْسي في صراع رهيب بين الأدب والفلسفة.. صراع لا يُمكِن أن يَتصوَّره إلّا من عاش فيه.. وكان عَليّ أن أُقرِّر شيئًا أو أجنّ.. ومَرّة واحدة قامت في ذهني مُظاهَرة من أبطال «أهل الكهف» الذين صَوَّرهم توفيق الحكيم، والبوسطجي الذي رسمه يحيى حقّي، والفلّاح الصغير الذي لا يَعرف الدنيا أبعد من حدود عيدان الغاب المُنتصِبة على حافة التُّرعة في رواية الأيّام لطه حسين، وأشخاص كثيرون من أبطال قصص محمود تيمور كُلّهم كانوا يسيرون في مُظاهَرة واحدة، قَرَّرت أن أهجر الفلسفة وأن أسير معهم...»

١٩٣٦ * اتَّسعت مُطالَعات نجيب محفوظ في الآداب الأوربيّة الحديثة كأدب انسانيّ واحد، فقرأ الأدب الحديث الواقعيّ والطبيعيّ والقصّة التحليليّة والمُغامَرات الأدبيّة الحديثة كالتعبيريّة عند «كافكا» والواقعيّة النفسيّة عند «جويس» وإلغاء الزمن في القصّة عند «بروست». ومن الأدباء الذين قرأ لهم: تشيكوف، وتورجنيف، ودوستويفسكي وتولستوي ومكسيم جوركي من الأدباء الروس؛ وأناتول وإبسن وفلوبير وبروست ومالرو ومورياك وسارتر وكامي من الأدباء الفرنسيّين؛ وشكسبير وويلز وشو وجويس وألدوس هاكسلي ولورانس من الأدباء الإنجليز؛ وتوماس مان وجوته وكافكا من الأدباء الألمان؛ وهيمنجواي وفوكنر ودوس باسوس وأونيل وتينسي ويليامز وآرثر ميلر من الأدباء

الأمريكيّين؛ وإبسن وسترندبرج من الشمال.

* عُيِّن نجيب محفوظ مُوظَّفًا بإدارة جامعة فؤاد الأوَّل.

١٩٣٨ * نُشِرَت له أوَّل مجموعة قصصيّة بعنوان «همس الجنون».

١٩٣٩ * نَشَر أوَّل رواية وهي: عبث الأقدار، ويَذكر كاتبنا الكبير أنّه كتب قبلها ثلاث روايات فنصحه سلامة موسى بأن يُمزِّقها، فاستجاب له، وعندما كتب روايته الرابعة وكانت بعنوان «حكمة خوفو» نشرها سلامة موسى بعدما طلب تغيير عنوانها إلى «عبث الأقدار».

وكان نجيب محفوظ في رواياته الثلاث الأولى يَصدر عن تأثُّره العميق بالسير والترسكوت في أعماله التاريخيّة، وتأثُّره الأعمق بالمرحلة الفرعونيّة في الثقافة المصريّة من خلال «عبث الأقدار» و«كفاح طيبة» و«رادوبيس». وعُيِّن في نَفْس العام سكرتيرًا برلمانيًّا لوزير الأوقاف حتى عام ١٩٥٠.

١٩٤٣ * نال جائزة قوت القلوب الدمرداشيّة عن روايته «رادوبيس».

١٩٤٤ * نال جائزة من وزارة المعارف عن رواية «كفاح طيبة».

١٩٤٦ * نال جائزة من مجمع اللغة العربيّة عن رواية «خان الخليلي».

١٩٥٢ ـ ١٩٥٧ * تَوقَّف نجيب محفوظ عن الكتابة حين رأى المُجتمَع القديم الذي ينقده يزول، ثمّ عاد إلى كتابة الرِّواية، فكتب «أولاد حارتنا» مسلسلة في الأهرام. وقد أثارت سخط وغضب مشايخ الأزهر وقتها، غير أنّ مُحمَّد حسنين هيكل أصرّ على استكمالها رغم اعتراض الأزهر. ولُكن نجيب محفوظ لم يُقرّ نشْرها في مصر بعْدَ ذُلك احترامًا للأزهر وتبجيلًا لشيوخه.

١٩٥٣ * عُيِّنَ رقيبًا على الأفلام بمصلحة الفنون.

ومن الجدير بالذِّكْر أنّ أعمال نجيب محفوظ لم تجد استجابة ولا رواجًا إلى ما قبْل صدور روايته الشهيرة «زقاق المدق» في الكتاب الذهبيّ عام ١٩٥٣، فقد ظلّ نجيب محفوظ أكثر من خمسة عشر عامًا يكتب وينشر مدفوعًا بتلك الحالة النفسيّة التي وصفها بأنّها أقرب إلى عناد الثيران، فلا يشغله التفات النقد أو تجاهُله بقدْر ما يَشغله التعبير عن قضايا مُجتَمعه وتطوير فنّه في الوقت نَفْسه بدءًا من قبوله تمزيق ثلاث روايات وكتابة أخرى لأنّ سلامة موسى نصحه بذلك.

١٩٥٤ * عُيِّنَ مديرًا للرقابة الفَنّيّة. وتَزوَّج في العام نَفْسه السَّيِّدَة/ عطيّة الله، وله منها أمّ كلثوم وفاطمة.

١٩٥٧ * نال جائزة الدَّولة في الأدب وقَدْرها ألف جنيه عن رواية «قصر الشوق».
١٩٦٠ * عُيِّنَ رئيسًا لمجلس إدارة مُؤسَّسة السينما، فمستشارًا فنّيًا لها.
١٩٦٢ * مُنِحَ وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، وقد رَشَّحه العَقّاد في العام نَفْسه لينال جائزة نوبل حين حَصَلَ عليها جون شتاينبك، حيث قال: «الآن يَحِقّ لنا أن نقول إذا كانت المسألة مسألة بحث بعد مجهود، فلماذا يقف هٰذا البحث دون البلاد العربيّة من أمم العالَمين، فلا تهتدي اللجنة، ولا تريد أن تهتدي إلى واحد منهم.. وهم على هٰذه الطبقة غير قليلين.. إنّني أذكر منهم أربعة من كُتّاب القصص الطوال والمسرحيّات.. وهي مجال شتاينبك الفائز بجائزة نوبل في ذٰلك العام.. يَفضلونه في بعض مزاياه، ولا يُقصِّرون عنه في واحدة من مزاياه، وهم: توفيق الحكيم، محمود تيمور، نجيب محفوظ، ميخائيل نعيمه. ونجيب محفوظ يُضارِعه وقد يَفوقه في تصوير شخصيّاته من أولاد البلد والسُّذَّج والبدائيّين العصريّين.»
١٩٦٣ * عُيِّن رئيسًا للجنة القراءة بالْمؤسَّسة العامّة للسينما والتلفزيون.
١٩٦٥ * صَدَرَ قرار جمهوريّ بتعيينه عضوًا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.
١٩٦٨ * عُيِّنَ مستشارًا لوزير الثقافة د. ثروت عكّاشة، وهو آخِر منصب شغله حتى الستّين.
١٩٧٠ * حَصَلَ على جائزة الدولة التقديريّة.
١٩٧١ * أحيل إلى المعاش وانضمّ إلى هيئة تحرير الأهرام.
١٩٧٢ * نال وسام الجمهوريّة من الدرجة الأولى.
١٩٨٥ * مَنَحَته رابطة التضامن الفرنسيّة ـ العربيّة جائزتها عن الثُّلاثيّة.
١٩٨٨ * حَصَلَ على جائزة نوبل للآداب، وكان مُرشَّحًا معه لهٰذه الجائزة ثلاثة من أعلام الأدب العالميّين هم: ألبرتو مورافيا من إيطاليا، وجراهام جرين من بريطانيا، وميخائيل نعيمه من لبنان.
وفي ٧ نوفمبر من العام نَفْسه منحه الرئيس حسني مُبارَك قلادة النيل العظمى، وهي أرفع وسام في جمهوريّة مصر العربيّة.
١٩٨٩ * مَنَحَته جامعة القاهرة درجة الدكتوراه الفخريّة في الآداب.

انك في قلبي
وليس هناك من يعرفك
ولما فرغ من صلاته نظر نحوي باسما فحضنت
صدره دامع العينين . سألني:
- كيف تيسر لك ان تجئ يا بنتو ؟
فقلت بصوت متهدج:
- سمح لي بابا ان احضن مولاي قبل الرحيل
فقال في هدوء
- اني في خير حال يا بنتو
فقلت بأسى
- جميع الاوفياء اكرهوا على الذهاب
فقال باسما
- أعرف من ذهب باختياره ومن ذهب
على رغمه
فانحنيت حتى لثمت يده وانا أقول
- يعز علي ان تبقى وحدك
فقال بهدوء
- لست وحدي يا ضعيف الايمان

نموذج بخطّ المؤلّف من قصّة العائش في الحقيقة

همس الجنون

هَمْسُ الجُنون

ما الجنون؟؟

إنّه فيما يبدو حالة غامضة كالحياة وكالموت، تستطيع أن تعرف الشيء الكثير عنها إذا أنت نظرت إليها من الخارج، أمّا الباطن، أمّا الجوهر، فسرّ مغلق. وصاحبنا يعرف الآن أنّه نزل ضيفًا بعض الوقت بالخانكة، ويذكر - الآن أيضًا - ماضي حياته كما يذكره العقلاء جميعًا، وكما يعرف حاضره، أمّا تلك الفترة القصيرة - قصيرة كانت والحمدلله - فيقف وعيه حيال ذكرياتها ذاهلًا حائرًا لا يدري من أمرها شيئًا تطمئنّ إليه النفس. كانت رحلة إلى عالم أثيريّ عجيب، مليء بالضباب، تتخايل لعينيه منه وجوه لا تتضح ملامحها، كلّما حاول أن يسلّط عليها بصيصًا من نور الذاكرة، ولّت هاربة فابتلعتها الظلمة. ويجيء أذنيه منه أحيانًا ما يشبه الهمهمة. وما إن يرهف السمع ليميّز مواقعها حتّى تفرّ متراجعة تاركة صمتًا وحيرة. ضاعت تلك الفترة السحريّة بما حفلت من لذّة وألم، حتّى الذين عاصروا عهدها العجيب قد أسدلوا عليها ستارًا كثيفًا من الصمت والتجاهل لحكمة لا تخفى، فاندثرت دون أن يتاح لها مؤرّخ أمين يحدّث بأعاجيبها. ترى كيف حدثت؟! متى وقعت؟ كيف درك الناس أنّ هٰذا العقل غدا شيئًا غير العقل؟ وأنّ صاحبه أمسى فردًا شاذًّا يجب عزله بعيدًا عن الناس كأنّه الحيوان المفترس؟!.

كان إنسانًا هادئًا أخصّ ما يوصف به الهدوء المطلق. ولعلّه ذاك ما حبّب إليه الجمود والكسل، وزهده في الناس والنشاط. ولذٰلك عدل عن مرحلة التعليم في وقت باكر، وأبى أن يعمل مكتفيًا بدخل لا بأس به. وكانت لذّته الكبرى أن يطمئنّ إلى مجلس منعزل على طوار القهوة فيشبك راحتيه على ركبته، ويلبث ساعات متتابعات جامدًا صامتًا، يشاهد الرائحين والغادين بطرف ناعس وجفنين ثقيلين، لا يملّ ولا يتعب ولا يجزع، فعلى كرسيّه من الطوار كانت حياته ولذّته. ولكن وراء ذلك المظهر البليد الساكن حرارة أو حركة في قرارة النفس أو الخيال، كان هدوءه شامل الظاهر والباطن، الجسم والعقل، الحواس والخيال، كان تمثالًا من لحم ودم يلوح كأنّما يشاهد الناس، وهو بمعزل عن الحياة جميعًا.

ثمّ ماذا ؟!

حدث في الماء الآسن حركة غريبة فجائيّة كأنّما أُلقيَ فيه بحجر.

كيف؟!.

رأى يومًا - إذ هو مطمئنّ إلى كرسيّه على الطوار - عمّالًا يملئون الطريق، يرشّون رملًا أصفر فاقعًا يسرّ الناظرين، بين يدَيْ موكب خطير. ولأوّل مرّة في حياته يستثير دهشته شيء فيتساءل لماذا يرشّون الرمل؟ ثمّ قال لنفسه إنّه يثور فيملأ الخياشيم ويؤذي الناس، وهم أنفسهم يرجعون سراعًا فيكنسونه ويلمّونه، فلماذا يرشّونه إذًا؟! وربّما كان الأمر أتفه من أن يوجب التساؤل أو الحيرة، ولٰكنّ تساؤله بدا له كأخطر حقيقة في حياته وقتذاك، فخال أنّه بصدد مسألة من مسائل الكون الكبرى، ووجد في عمليّة الرشّ أوّلًا والكنس أخيرًا والأذى فيما بين هٰذا وذاك حيرة أيّ حيرة، بل أحسّ ميلًا إلى الضحك، ونادرًا ما كان يفعل، فضحك ضحكًا متواصلًا حتّى دمعت عيناه. ولم يكن ضحكه هٰذا محض انفعال طارىء، فالواقع أنّه كان نذير تغيير شامل، خرج به من صمته الرهيب إلى حال جديدة، ومضى يومه حائرًا أو ضاحكًا، يحدّث نفسه

فيقول كالذاهل: يرشّون فيؤذون ثمّ يكنسون . . . ها ها ها!.

وفي صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من حيرته بعد. ووقف أمام المرآة يهيّىء من شأنه، فوقعت عيناه على ربطة رقبته وسرعان ما أدركته حيرة جديدة، فتساءل لماذا يربط رقبته على هٰذا النحو؟ ما فائدة هٰذه الربطة؟ لماذا نشقّ على أنفسنا في اختيار لونها وانتقاء مادّتها؟ وما يدرى إلّا وهو يضحك كما ضحك بالأمس، وجعل يرنو إلى ربطة الرقبة بحيرة ودهشة، ومضى يقلّب عينيه في أجزاء من ملابسه جميعًا بإنكار وغرابة. ما حكمة تكفين أنفسنا على هٰذا الحال المضحك؟ لماذا لا نخلع هٰذه الثياب ونطرحها أرضًا؟ لماذا لا نبدو كما سوّانا الله؟ بيد أنّه لم يتوقّف عن ارتداء ملابسه حتّى انتهى منها، وغادر البيت كعادته.

ولم يعد يذوق هدوءه الكثيف الذي عاش في إهابه دهرًا طويلًا قانعًا مطمئنًا. كيف له بالهدوء وهٰذه الثياب الثقيلة تأخذ بخناقه على رغمه؟! أجل على رغمه. وقد اجتاحته موجة غضب وهو يحثّ خطاه، وكبر عليه أن يرضى بقيد على رغمه. أليس الإنسان حرًّا؟ وتفكّر مليًّا ثمّ أجاب بحماس: بلى أنا حرّ. وملأه بغتة الشعور بالحرّيّة، وأضاء نور الحرّيّة جوانب روحه حتّى استخفّه الطرب. أجل هو حرّ. نزلت عليه الحرّيّة كالوحي فملأه يقينًا لا سبيل إلى الشكّ فيه، أنّه حرّ يفعل ما يشاء كيف شاء حين يشاء، غير مذعن لقوّة أو خاضع لعلّة لسبب خارجيّ أو باعث باطنيّ. حلّ مسألة الإرادة في ثانية واحدة، وأنقذها بحماس فائق من وطأة العلل، وداخلَه شعور بالسعادة والتفوّق عجيب، فألقى نظرة ازدراء على الخلق الذين يضربون في جوانب السبل مسيّرين مصفّدين لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، إذا ساروا لم يملكوا أن يقفوا، وإذا وقفوا لم يملكوا أن يسيروا، أمّا هو فيسير إذا أراد ويقف حين يريد، مزدريًا كلّ قوّة أو قانون أو غريزة. وأهاب به شعوره الباهر أن يجرّب قوّته الخارقة فلم يستطع أن يعرض عن نداء الحرّيّة. توقّف عن مسيره بغتة وهو يقول لنفسه: «هأنذا أقف لغير ما سبب»، ونظر فيما حوله في ثوانٍ ثمّ تساءل أيستطيع أن يرفع يديه إلى رأسه؟ أجل يستطيع، وها هو ذا يرفع يديه غير مكترث لأحد من الناس. ثمّ تساءل مرّة أخرى هل تؤاتيه الشجاعة على أن يقف على قدم واحدة؟ وقال لنفسه: فلِمَ لا أستطيع وما عسى أن يعتاق حرّيّتي؟! وراح يرفع يسراه كأنّه يقوم بحركة رياضيّة في أناة وعدم مبالاة كأنّه وحده في الطريق بلا رقيب. وغمرت فؤاده طمأنينة سعيدة وملأته ثقة بالنفس لا حدّ لها، فمضى يتأسّف على ما فاته ـ طوال عمره ـ من فرص كانت حَرِيّة بأن تمتّعه بحرّيّته وتسعده، واستأنف مسيره وكأنّه يستقبل الحياة من جديد.

ومرّ في طريقه إلى القهوة بمطعم كان يتناول به عشاءه في بعض الأحايين، فرأى على طواره مائدة ملأى بما لذّ وطاب. يجلس إليها رجل وامرأة متقابلين يأكلان مريئًا ويشربان هنيئًا، وعلى بُعْد يسير جلس جماعة من غلمان السبل، عرايا إلّا من أسمال بالية، تغشى وجوههم وبشرتهم طبقة غليظة من غبار وقذارة، فلم يرتح لما بين المنظرين من تنافر، وشاركته حرّيّته عدم ارتياحه فأبت عليه أن يمرّ بالمطعم مرّ الكرام. ولكنْ ما عسى أن يصنع؟ قال له فؤاده بعزم ويقين: «ينبغي أن يأكل الغلمان مع الآخرين». ولٰكنّ الآكلين لا يتنازلان عن شيء من هٰذه الدجاجة أمامهما بسلام، هٰذا حقّ لا ريب فيه، أمّا إذا رمى بها إلى الأرض فتلوّثت بالتراب فما من قوّة تستطيع أن تحرمها الغلمان، فهل ثمّة مانع يمنعه من تحقيق رغبته؟. . هيهات، وربّما كان التردّد ممكنًا في زمن مضى، أمّا الآن. . . واقترب من المائدة بهدوء، ومدّ يده إلى الطبق فتناول الدجاجة، ثمّ رمى بها عند أقدام العرايا، وتحوّل عن المائدة وسار إلى حال سبيله كأنّما لم يأت أمرًا نكرًا، غير عابئ بالزئير الذي يلاحقه مفعمًا بأقذع السباب والشتائم، بل غلبه الضحك على أمره، فاسترسل ضاحكًا حتّى دمعت عيناه. وتنهّد بارتياح من الأعماق، وعاوده شعوره العميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

وبلغ القهوة فمضى إلى كرسيّه واطمأنّ إليه كعادته، بيد أنّه لم يستطع هٰذه المرّة أن يشبك راحتيه حول

ركبته ويستسلم لسكوته المعهود، لم تطاوعه نفسه، فقد فقدت قدرتها على الجمود، أو برئت من عجزها عن الحركة فنبا به مجلسه، حتّى همّ بالنهوض، إلّا أنّه رأى ـ في تلك اللحظة ـ شخصًا غير غريب عن ناظريه وإن لم تصله به أسباب التعارف. كان من روّاد المقهى مثله. وكان جسيًا ضخمًا وأوداجًا منتفخة، يسير مرفوع الرأس في خُيَلاء، ملقيًا على ما حوله نظرة ترفّع وازدراء، تنطق كلّ حركة من حركاته وكلّ سكنة من سكناته بالزهو كأنّما يثير الخلق في نفسه ما تثيره الديدان في نفس رقيقة مرهفة الحسّ، وكأنّه يراه لأوّل مرّة. بدا له قبحه وشذوذه عاريًا، فغالبته هٰذه الضحكة الغريبة التي ما انفكّت هٰذين اليومين تعابثه، ولم تفارقه عيناه، وثبتت خاصّة على قفاه يبرز من البَنيقة عريضًا ممتلئًا مغريًا. وتساءل أيتركه يمرّ بسلام؟؟ معاذ الله، لقد ألف داعي الحرّيّة، وعاهده ألّا يخالف له أمرًا، وهزّ منكبيه استهانة واقترب من الرجل فكاد يلاصقه، ورفع يده، وهوى بكفّه على القفا بكلّ ما أوتي من قوّة، فرنّت الصفعة رنينًا عاليًا، ولم يتمالك نفسه فأغرب ضاحكًا، ولٰكن لم تنته هٰذه التجربة بسلام كأختها السابقة، فالتفت الرجل نحوه في غضب جنونيّ، وأمسك بتلابيبه وانهال عليه ضربًا وركلًا حتّى خلّص بينهما بعض الجلوس. وفارق القهوة لاهثًا، ومن عجب أنّه لم يستشعر الغضب ولا الندم، وعلى العكس من ذلك ألّمت بحواسّه لذّة عجيبة لا عهد له بها من قبل، وافترّ ثغره عن ابتسامة لا تزايله، وفاضت نفسه بحيويّة وسرور يغشيان أيّ ألم، ولم يعد يكترث لشيء غير حرّيّته التي فاز بها في لحظة من الزمان وأبى أن يغيب عنها ثانية واحدة من حياته، ومن ثمّ ألقى بنفسه في تيّار زاخر من التجارب الخطيرة بإرادة لا تنثني وقوّة لا تُقهر. صفع أقفية وبصق على وجوه وركل بطونًا وظهورًا، ولم ينج في كلّ حال من اللكمات والسباب، فحُطّمت نظّارته ومُزّق زرّ طربوشه وتهتّك قميصه، ونغضت ثنيتاه، ولٰكنّه لا ارتدع ولا ازدجر ولا انثنى عن سبيله المحفوف بالمخاطر، ولا فارق الابتسام شفتيه، ولا خمدت نشوة فؤاده الثمل، ولو اعترض الموت طريقه لاقتحمه غير هيّاب.

ولمّا آذنت الشمس بالمغيب عثرت عيناه المتجوّلتان بحسناء مقبلة متأبّطة ذراع رجل أنيق المنظر، ترفل في ثوب رقيق شفّاف، تكاد حلمة ثديها تثقب أعلى فستانها الحريريّ، وجذب صدرها الناهد عينيه فزادتا اتّساعًا ودهشة، وهاله المنظر، وكانت تقترب خطوة فخطوة حتّى باتت على قيد ذراع.

وكان عقله ـ أو جنونه ـ يفكّر بسرعة خياليّة، فخطر له أن يغمز هٰذه الحلمة الشاردة!، إنّ رجلًا ما فعل ذلك على أيّة حال، فليكن هٰذا الرجل، واعترض سبيلهما، ومدّ يده بسرعة البرق، وقرص! آه لقد انهالت عليه اللطمات واللكمات، وأحاط به كثيرون. ولٰكنّهم في النهاية تركوه! لعلّ ضحكته الجنونيّة أخافتهم، ولعلّ نظرة عينيه المحملقتين أفزعتهم. تركوه على أيّة حال. ونجا ولم تكد تزداد حالته سوءًا!! وكان لا يزال به طموح إلى مزيد من المغامرات، ولٰكن لاحت منه نظرة إلى ملابسه فهاله ما يرى من تمزّقها وتهتّكها. وبدلًا من أن يأسى على نفسه راح يذكر ما دار بخلده صباح اليوم أمام المرآة، فلاحت في عينيه نظرة غائبة، وعاد يتساءل لماذا يدع نفسه سجينًا في هذه اللفائف تشدّ على صدره وبطنه وساقيه؟!. وناء بثقلها، وشعر لوطأتها باختناق، فغليت مراجله، ولم يستطع معها صبرًا، وأخذت يداه تنزعانها قطعة قطعة، بلا تمهّل ولا إبطاء، حتّى تخلّص منها جميعًا، فبدا عاريًا كما خلقه الله، وعابثته ضحكته الغريبة، فقهقه ضاحكًا، واندفع في سبيله. .

الـــزيف

كان التياترو مكتظاً بالنظّارة، حيث كانت تمثّل رواية البخيل لموليير، وكان جمهوره كالمعتاد خليطاً من طلّاب التسلية ومحبّي الظهور ومدّعي الفنّ وعشّاق الخيال، وكان عليّ أفندي جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين في الصفوف الأماميّة، وكان يتتبّع التمثيل بين اليقظة والنوم، واضعًا خدّه على يده، ومسندًا مرفقه إلى مسند المقعد، وكان قد طالع في بعض المجلّات عن الرواية ما جعله يظنّها آية من آيات الكوميديّ فجاء التياترو بنفس توّاقة إلى الضحك والسرور، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسته وكاد يستسلم للنعاس، ولكنّ الأقدار أرادت أن تتبرّع بتعويضه عن خيبته؛ ففي أثناء الاستراحة دنا منه النادل وانحنى على أذنه وقال باحترام وتأدّب:

- هل للبك أن يتفضّل بالذهاب إلى البنوار رقم واحد؟

ثمّ ذهب إلى حال سبيله. ونظر عليّ أفندي إلى البنوار رقم واحد فرأى الستار الأبيض مسدلًا عليه فأدرك أنّ به «حريمًا»، وقام من توّه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماسًا في أسداس، وطرق الباب مستأذنًا فسمع صوتًا رخيمًا لا يعرفه يقول:

- تفضّل.

فتردّد لحظة سريعة لأنّه أدرك - لدى سماعه الصوت الغريب - أنّ في الأمر خطأ، ولكنّه كان من الرجال الذين تغلبهم على نفوسهم في محضر النساء جسارة غير محدودة وحبّ للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة، فاقتحم الباب غير هيّاب وصار وجهًا لوجه أمام السيّدة الجالسة. وكانت في الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة الأنوثة، يزيّن وجهها العاجيّ حسن تركيّ ممّصر، ويدلّ على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة وحليّها الثمينة، وقد بُهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول في إشفاق: «واأسفاه ستعلم السيّدة بالخطأ وسرعان ما تنتهي المقابلة!» ولكنّ خاب ظنّه لأنّ السيّدة ابتسمت إليه تحيّيه كأنّه هو المعنيّ، وقالت برقّة تعرّفه بنفسها:

- أرجوك ألّا يسوءك إقلاقي لراحتك.. أنا أرملة المغفور له عليّ باشا عاصم!.

يسوءه! ينبغي أن يعدّ نفسه من المحظوظين في هذه الدنيا لأنّ سيّدة كتلك السيّدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة! ترى لماذا دعته لبنوارها؟ فهو لا يذكر أنّه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنّه قرأ اسمها في بعض الأخبار الخاصّة بالجمعيّات النسائيّة، وخيّل إليه غروره أنّها ربّما رأته من حيث لم يرها وأنّها ربّما وقع في نفسها منه - كما حدث لغيرها وإن كنّ لسن من نوعها - ما علّقها به، فإذا صدق حدسه - والدلائل تجمع على صدقه - فهي تدعوه كما دعت قديمًا امرأة العزيز فتاها!!

وأحسّ بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكلّ رقّة وهو ينظر إليها كما ينظر الإنسان إلى شيء ثمين يملكه:

- العفو يا صاحبة السعادة.. خادمك..

وهمّ أن يقدّم لها شخصه العزيز، واستدلّت السيّدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضّة وقالت بسرعة وهي تبسم عن درّ نضيد:

- وهل أنت في حاجة إلى تعريف يا أستاذ... تفضّل.

وجلس كما أرادت. ولكنّ عبارتها الأخيرة قلبت ما

بنفسه رأسًا على عقب، فعلاه الوجوم، وأطفأ الكدر نور السرور في عينيه، لأنّه من المحتمل أن يكون فاتنًا محبوبًا من النساء، وأن تقع في غرامه حرم عاصم باشا، ولْكنْ ممّا لا ريب فيه أنّه في حاجة إلى تعريف ككلّ إنسان وأنّه لم يكن أبدًا في غنًى عن التعريف، فماذا تعني السيّدة الجميلة بقولها هٰذا؟ إنّه يكاد يهتدي إلى وجه الحقّ، وقد ساعده على ذٰلك قولها له «يا أستاذ» فهل تظنّ السيّدة أنّه شاعر مصر الأكبر بل شاعر الشرق العربيّ جميعًا الأستاذ محمّد نور الدين؟

والحقّ أنّ المشابهة التي بينه وبين سيّد الشعراء معروفة مشهورة، يعلم بها جميع أصحابه، وطالما جعلوا منها موضوعًا للتنكيت والقفش، فكلاهما له هٰذا الوجه المستطيل الذي يحدّ من أعلى بجبهة عالية ومن أسفل بذقن عريضة، وكلاهما له هٰذا الأنف الرومانيّ العظيم والشارب الشركسيّ الغزير ولا اختلاف بينهما إلّا أنّه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء، وهٰذا يدلّ على أنّ السيّدة ـ فيما لو صدق ظنّه ـ لم تر الشاعر إلّا في إحدى صوره التي تظهر أحيانًا في المجلّات والصحف.

وأسفاه، ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة في لحظة واحدة، فهل يتراجع ويرضى بالغنيمة بالإياب؟ ولْكنّ مثل هٰذا التردّد لم يكن ليخالجه إلّا لحظات قصيرة العمر، لأنّه ـ كما قلنا ـ يفقد رشاده في حضرة النساء، ولا يفكّر إلّا في انتهاب اللذّة واقتناص الفرصة، فجلس مبتسمًا على ما به من خيبة مريرة مطمئنًّا كما ينبغي لشاعر مصر العظيم.

وقالت السيّدة:

ـ سيّدي الأستاذ، إنّ معرفتي بك قديمة جدًّا لا كما تظنّ، وإنّ أفضالك على روحي لا تقدّر بثمن ولا يحصيها عدّ، وطالما منّيت نفسي بالتحدّث إليك، وكم كان فرحي عظيمًا حين عثر بصري بك فلم أتردّد عن دعوتك، وإنّي أرجو يا سيّدي أن تغفر لي تطفّلي. .

فقال عليّ أفندي وقلبه يلعن الشاعر:

ـ ما أسعدني بعطفك يا سيّدتي! إنّنا معشر الشعراء لنحرق أرواحنا في سبيل الخلود والشهرة، ومثل إعجابك يا سيّدتي أثمن لديّ من الخلود والشهرة!.

فتورّدت وجنتا المرأة ورنت إليه بعينين ناعستين، وقرأت في عينيه ما حملها على تجنّب حديث العواطف وإن كانت تضمر الرجوع إليه في المستقبل! فقالت:

ـ هل أعجبتك الرواية؟

الرواية التي صدعت رأسه وفرّ منها إلى النعاس!! إنّه كان حكيمًا فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه، ولم تنتظر السيّدة جوابه فقالت بثقة:

ـ لا شكّ أنّك تعجب بها أيّما إعجاب، لأنّها من تلك الفكاهة العالية التي كتبتَ عنها فصلًا رائعًا في كتابك الخالد «فلسفة الجمال» وقد كان هٰذا الفصل سبيلي إلى تذوّق موليير وتوين وشو».

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقيّ، وهزّ رأسه باسمًا وقال باطمئنان عجيب:

ـ البخيل آية فنّيّة رائعة، وهي من الآيات التي لا تمنح كنوزها مرّة واحدة، ولقد قرأتها مرّة وأخرى، وهأنذا أشاهدها للمرّة الثالثة، وفي كلّ مرّة أفوز بحسن جديد!.

فابتسمت السيّدة وقالت:

ـ إذًا أصاب ظنّي!.

فقال عليّ أفندي:

ـ إنّك يا سيّدتي آية في الذكاء.

ولم يأذن الوقت بالاسترسال في الأحاديث إذ دقّ الجرس معلنًا انتهاء الاستراحة، فاضطرّ عليّ أفندي أن يستأذن في طلب الانصراف، وقالت السيّدة وهي تودّعه:

ـ أرجو أن تشرّف قصري بزيارتك.

فقال وهو ينحني على يدها:

ـ لي عظيم الشرف يا سيّدتي.

ـ يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء. . شارع خمارويه رقم ١٠ بالزمالك. .

وتنهّدت المرأة ارتياحًا وظنّت أنّها نالت أمنية من أعزّ أمانيها، وكانت مخلوقة سعيدة الحظّ كأنّ الأقدار تتوخّى راحتها، تزوّجت من رجل من رجال مصر القانونيّين المعدودين. فتمتّعت برجولته وكفاها الموت شرّ شيخوخته، وترك لها مالاً وجاهًا واسمًا عظيمًا،

ولٰكنْ ضايقها ظهور منافسة خطيرة لها هي أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدي، يجري ذكر جمالها ـ مثلها ـ على الألسن، وتتحدّث بثرائها المجتمعات، وقد وضعتهما المصادفات في حيّ واحد وأغرت بينهما العداوة والبغضاء، فكلتاهما تتمتّع بأنوثة ناضجة وجمال فتّان وثروة طائلة، وتملك قصرًا فخمًا يتيه على قصور الأمراء، وكانت كلّ منهما تعتزّ بنفسها وتودّ لو يغلب نورها نور الأخرى فتنافستا في اقتناء السيّارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة، وتسابقتا في ميدان الظهور تعرضان حسنهما وتنثران حديثهما، واتّخذت كلّ منهما بطانة من كرائم الأسر والآنسات المثقّفات. وقد علمت حرم عاصم باشا يومًا أنّ منافِستها دعت إلى تأليف جمعيّة المرأة الحديثة فلم يرتح لها جانب حتّى كوّنت جمعيّة تعليم الأمّيّات، وسمعت يومًا بأنّ الأخرى تبرّعت بمبلغ كبير من المال مساهمة في إنشاء مدرسة كبيرة وأنّ الصحف أثنت عليها جميل الثناء، فأمرت بتشييد جامع كبير في عزبتها ودعت لالتقاط صوره مصوّر أكبر مجلّة في مصر، وطلبت إليه أن يثني على ورعها وتقواها. . !

وكان آخر ما نمى إلى مسامعها من أخبار منافِستها ما لاكته الألسن من أنّ الموسيقار المعروف الأستاذ الشربيني قد شغف بها حبًّا، وأنّه لا يفتأ يتردّد على قصرها، وأنّ الدور الذائع الصيت «حبّيت يا قلبي» الذي يتغنّى به المصريّون جميعًا وتهفو إليه نفوسهم لحّن بوحي جمالها! وما علمت بهٰذه الأخبار حتّى التهبت نفسها التهابًا واحترق قلبها احتراقًا: وتلفّتت يمنة ويسرة تبحث عن عاشق «شهير» تصير بحبّه حديثًا ممتعًا وتغدو له وحيا ملهمًا، فذكرت شاعر مصر محمّد نور الدين، فهو المصريّ الوحيد الذي له ما للشربيني من الشهرة والمكانة، وهو أجدر الناس بتخليدها في قصيدة كما خلّد الشربيني منافِستها في أسطوانة، وفي تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة في التياترو وكانت تفكّر في وسيلة تصل بها إليه، فهل كنّا مغالين إذ قلنا إنّها نالت أمنية من أعزّ أمانيها؟ . .

***

أمّا عليّ أفندي جبر فقد رجع إلى مقعده وهو يلقي على الحاضرين نظرة فاحصة خشية أن يكون الشاعر الأصليّ بين النظارة! وقد ساءل نفسه: «ألا يجدر بي أن أفرّ؟» ولٰكنّه لم يكن جادًّا في سؤاله، لأنّه لم يعتد الفرار من ميدان النساء.

ولم يألُ جهدًا في التأهّب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيّته الجديدة، فطبع بطاقات باسم محمّد نور الدين، ورأى عن حكمة أن يلقي نظرة سطحيّة على مؤلّفات الشاعر فذهب إلى مكتبة وطلب مؤلّفاته، فسأله الكتبيّ:

ـ كلّها؟

فقال:

نعم.

فقال الرجل:

ـ الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأنّ بعضها نفد والبعض غير موجود في المكتبة. فإذا انتظرت إلى الغد. . . .

ولٰكنّه قاطعه متسائلًا:

ـ ما الحاضر بين يديك؟

فقال الرجل:

ـ دواوينه الأربعة: النور والظلام، والجحيم، والرحلة الروحيّة، والسماء السابعة، وكتاب فلسفة الجمال، والرحلة الشرقيّة، والجزء الثاني من كتاب الغد!.

وهاله الأمر وأسقط في يده، ولم ير بدًّا من ابتياعها جميعا، وكانت المرّة الأولى في حياته التي يشتري فيها ديوان شعر؛ لأنّه بطبعه لا يحبّ الشعر ولا يهضمه، ولا يجد مسوّغا مطلقًا للقوافي التي يضمّنها معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيّته؟ وإنّه لينفث في اذان النساء غزلًا يعتقد أنّه أرقّ الكلام وأمتعه، ومع هٰذا لم يشعر بالحاجة إلى تنسيقه في بيت من الشعر، ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوى المحفوظات المدرسيّة وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشتري ديوانًا من الشعر فضلًا عن أربعة دواوين كاملة، ولٰكنْ قدر فكان!.

وقال لنفسه متبرّمًا وهو يحملها إلى بيته: «أعقل أن يكلّفني الحبّ مالًا أو مطاردة خطرة أو صبرًا طويلًا أو شجارًا عنيفًا أمّا الذي لا أعقله أن يتقاضاني قراءة هذه الكتب؛ فهل أنا عاشق أم تلميذ؟».

وأخذ يقلّب صفحات الكتب فغصّ بالشعر كما توقّع ولم يفقه له معنًى؛ ولو كان يسيرًا مثل «إذا نام غرّ في دجى الليل فأسهر» لهان الأمر، ولٰكنّه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ مغلق المعاني!! وهٰذا غزل نور الدين فما بالك لو تطاول إلى الأغراض الأخرى التي يجفل قلبه من مجرّد تلاوة عنواناتها! والأدهى من ذٰلك وذاك أنّ نثره ليس بخير من شعره، فقد قرأ صفحات من كتاب فلسفة الجهال ما كان يظنّ أنّ إنسانًا عاقلًا ينشرها على الملأ، وضاق صدره بنور الدين، شعره ونثره فرمى بالكتب جميعًا ولٰكنّه قال بإصرار وعناد: «سأذهب يوم الأربعاء».

وفي الموعد المسمّى ذهب إلى قصر السيّدة الجليلة بشارع خمارويه، وكان بادي الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقة إلى ربّة القصر، فقاده الخادم إلى صالون رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشي من الصالونات الفخمة، ولٰكنّه لم يدهش لأنّ منظر الحديقة والقصر الخارجيّ سلبه كلّ دهشة، وكان يكره الانتظار لأنّ أمثاله من المغامرين تؤاتيهم النجدة بداهة وارتجالًا، وتشحذ أسلحتهم في أثناء المعمعة، مثله في ذٰلك مثل الخطيب المطبوع الذي يلهمه الجمهور المعاني فيتدفّق، ولذٰلك أحسّ بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون في فستان أبيض غير كتوم، يعلن عن جمال كلّ ثنية من ثنيات جسمها اللدن، ويبين خاصّة عن الخصر الدقيق الذي يتعلّق به كفلاها الثقيلان، فطرد بقوّة إرادته بقيّة قلق كانت عالقة بنفسه وانحنى باحترام، فأعطته يدها فضغط عليها بحنوّ، ثمّ قال وهما يجلسان:

ـ لقد حسبت الأيّام ساعة فساعة!.

فابتسمت السيّدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

ـ هٰذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعريّة الخالدة.

فاحتدم الغيظ في قلبه ولعن الشعر والشاعر، وتذكّر قراءته لبعض المعاني «الخالدة» التي لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التي طالما نصبت الشراك وغزت الحصون، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعاني «الخالدة» عذرًا فلسفيًّا فقال:

ـ معذرة يا سيّدتي، إنّي إذا غشيني لألاء الحسن السامي تركت نفسي على فطرتها، وهجرت إلى حين المعاني التي يبدعها التفكير والتكلّف!.

فاتّسعت عينا السيّدة الجميلتان وقالت بإنكار:

ـ يا عجبًا! ألست القائل يا أستاذ في مقدّمة ديوانك إنّ شعرك شعر الفطرة والطبع؟ أو لست الآخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلّفهم!؟.

فأسقط في يده ووجد أنّ الحذر لم ينفعه، وخشي أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذي يعني ما يقول:

ـ إنّ الشعر يا سيّدتي مزيج من الفطرة والتفكير، والتفكير غير التكلّف، وما أردت قوله هو أنّ الشاعر في حضرة الحسن يستبدّ به الشعور الخالص».

وأشفق من أن تسأله مثلًا عن الفرق بين التفكير والتكلّف أو معنى الشعور الخالص ولٰكنّ السيّدة قالت بإعجاب:

ـ صدقت يا أستاذ، ولعلّ هٰذا يفسّر قولك إنّ الشعر لا يعبّر عن عاطفة إلّا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها.

فهزّ رأسه مبتسمًا وهو يتنهّد ارتياحًا:

ـ وهو الحقّ المبين ياسيّدتي، أرى أنّ رأسك متوّج بتاجي الحسن والأدب!.

فتورّد خداها وقالت بحماس:

ـ إنّي واحدة من قرّائك المعجبين... وقد قرأت مؤلّفاتك بإمعان وشغف.

فقال:

ـ أين لي قرّاء مثلك يا سيّدتي العزيزة؟.. إنّ البلد لا يقدّر الكاتبين.

ـ هٰذا حقّ وأسفاه على وجه العموم، ولٰكنْ يقال

إنّ لك جمهورًا تحسد عليه يا سيّدي الأستاذ.

فأشار بيده إشارة تدلّ على الأسف وقال:

ـ لو أتيح لي أن أكتب باللغة الإنجليزيّة مثلًا.

فسألته السيّدة بقلق:

ـ أو ليس لك الجمهور الذي تحسد عليه؟.

فقال باطمئنان:

ـ جمهور قرّائي يربو على ضعفَي جمهور أيّ كاتب آخر في الشرق الإسلاميّ!.

ـ يا لها من مكانة سامية!.

فهزّ رأسه آسفًا وقال:

ـ لقد دفعت شبابي وقوّتي ثمنًا لها!

ـ أآسف أنت على هٰذا؟.

ـ لا أدري.

ـ لقد خلّدت شبابك في آثارك الباقية.

ـ أيّهما أفضل أن يخلّد شبابي كي يتمتّع به غيري أم يفنى وأتمتّع به وحدي؟.

ـ لا تناقض بين الاثنين، فإنّك تستطيع أن تستهلكه في متعتك ثمّ تخلّده في شعرك، أتسألني وأنت أستاذي؟!.

ـ هٰذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين.

ـ وإنّك لمن المجدودين!.

فنظر إليها نظرة لو تحوّلت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات، وكان يجيد هٰذه اللغة ثمّ قال بخبث:

ـ إنّك يا سيّدتي تتحدّثين عن حظّي كما لو كان مصيره بين يديك.

فتخضّب خدّاها باحمرار طبيعيّ غلب أحمرهما الصناعيّ الخفيف، وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها، ولٰكنّها ادّخرت هٰذا الحديث إلى وقت آخر فغيّرت مجراه وقالت فجأة:

ـ ينبغي أن أنتهز فرصة وجودك معي لأسألك عن معنى بعض الأبيات الشعريّة التي استغلقت عليّ».

فخفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة الغرام، وذعر ذعرًا شديدًا، إذ كيف له بشرح معاني شعر نور الدين المغلقة وهو الذي لا يفهم أيسر الشعر وأسلسه؟ وخشي إن تردّد أن يخسر كلّ شيء بعد أن أوفى على الفوز، فقال بقوّة:

ـ اعفيني يا سيّدتي!.

فسألته دهشة:

ـ ولِمَ؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحيانًا؟.

ـ ليس الأمر كذلك، ولٰكن قد يسمو الشاعر حينًا على شعره فيخاله بعض مَظاهِر العالَم المادّيّ!، وإنّي الآن في نشوة روحيّة من تلك النشوات التي تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير؟. . .

فغمرتها موجة فرح وسعادة وسألت نفسها: «ترى هل أكون غدًا بطلة قصيدة رائعة خالدة؟» سألته في لهفة:

ـ أحقًّا ما تقول يا سيّدي؟.

ـ كيف يداخلك شكّ في هٰذا؟ تالله إذا لم تخلق هٰذه الساعة شعرًا فلا خلق الشعر أبدًا!.

فامتلأ قلب المرأة فرحًا ومنّت نفسها بأسعد الأماني.

وفي تلك اللحظة دخلت خادم تعلن قدوم زائرات، ولم تفاجأ السيّدة ـ كما فوجئ الأستاذ ـ بقدومهنّ كأنّها كانت على موعد معهنّ، وأمرت الخادمة بإدخالهنّ، وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آنسات حسان يحتار ماء الشباب في وجوههنّ وتلقتهنّ بترحاب وقدّمت إليهنّ الشاعر بلهجة فخار قائلة:

ـ الأستاذ محمّد نور الدين سيّد شعراء الشرق!.

وقدّمتهنّ إليه واحدة واحدة قائلة إنهنّ من عضوات جمعيّة تعليم الأمّيّات التي تتشرّف برئاستها، ثمّ قالت:

ـ إنهنّ أديبات مثقّفات، ولٰكن واأسفاه فإنّ ثقافتهنّ قاصرة على الأدب الفرنسيّ الذي يتعشّقنه إلى درجة أن جعلن الفرنسيّة لغة حوارهنّ، وإنّي أرجو أن يكون تعرّفك بهنّ يا سيّدي سببًا لتوجيههنّ إلى الثقافة العصريّة.

فعجب عليّ أفندي وتساءل دهشًا: ترى هل يعلّمن الفلّاحات الأمّيّات مبادئ اللغة الفرنسيّة؟!

استطردت السيّدة تقول للآنسات:

ـ ستجدن في صديقي الشاعر محدّثًا جليلًا، ولٰكنّي

ما لهٰذا دعوتكنّ الليلة، فقد حجزت البنوار الأوّل في تياترو رمسيس لنشاهد معًا رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرّة الرابعة إكرامًا لي!.

والحقيقة أنّ السيّدة ما قصدت بدعوتهنّ إلّا أن تذيع بينهنّ نبأ صداقتها للشاعر لكي يذعنها بدورهنّ في الصالونات الراقية فيتّصل خبرها حتمًا بعلم منافِستها الخطيرة، وما ذهابها بهنّ إلى تياترو رمسيس إلّا لهٰذا الغرض نفسه.

وقد تضايق عليّ أفندي من حضور الزائرات، وتضايق أكثر من دعوته إلى التياترو، وكان يرجو أن تطول خلوته بها ولكنّه كان يبالغ في التشاؤم ولا يدري بالسعادة التي تخبّئها له الأقدار، ففي الاستراحة انتهزت السيّدة فرصة خروج الآنسات من البنوار وقالت له في خفر:

ـ ستعود معي إلى القصر.

ولم يكن للدعوة إلّا معنًى واحد، فتساءلَ عليّ أفندي ترى كيف يتخلّص من الآنسات؟ ولكنّ السيّدة لم تعمل لذٰلك حسابًا، فعند انتهاء التمثيل عادت السيّارة بهم جميعًا، وودّعها الفتيات عند مبتدأ شارع خمارويه ثمّ سارت بهما السيّارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنّه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء وأنّه لم يعرف قبل الآن امرأة مغرمة بالفضائح!

وكانت ليلة..

***

وبعد يومين ذهب عليّ أفندي جبر إلى زيارة المعرض الرابع عشر للفنون الجميلة، ولم يكن من الهواة ولٰكنّه كان من محبّي الظهور والادّعاء وكان حبّه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التي يحتمل وجودهنّ بها، فمضى يسير في الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات، حتّى استرعت انتباهه من بينها صورة فلّاحة عارية تستحمّ في النيل، وقد أجادت الريشة تصوير قدّها النحيف وثدييها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحرًا شهويًّا عجيبًا، فوقف أمامها طويلًا لغير وجه الفنّ، وذكر ـ لرؤيتها ـ ذٰلك الجسد البضّ المكتنز والردفين المكوّرين كأنّهما إسفنجة هائلة مشبعة بالماء والساقين المكورين والبشرة العجيبة ذات الرائحة الزكيّة، ذكر ذاك الحسن الذي رمى به الحظّ بين يديه قضاء وقدرًا.. أيّ ليلة جميلة كأنّها حلم لذيذ، لا يجود بمثلها عالم الحقائق، وكأنّه أراد أن يتأكّد أنّه حقيقة لا حلم فأخرج مذكّرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذي كتبته بيدها الرخصة..!

وكأنّما المصادفة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فإنّه لفي تأمّله وتذكّره إذ أحسّ بيد توضع على كتفه، فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبته الجميلة واقفة بين جماعة من السيّدات الأرستقراطيّات، واستولت عليه الدهشة وعلاه الارتباك، أمّا السيّدة فقد التفتت إلى صواحبها وقالت بتيه:

ـ ائذن لي أن أقدّم إليكنّ صديقي الأستاذ محمّد نور الدين سيّد شعراء الشرق!

فابتسمن إليه بترحيب إلّا واحدة ردّدت النظر بينه وبين الأرملة، وقالت ضاحكة:

ـ يا لها من نكتة بارعة يا سيّدتي!.

فسألتها السيّدة:

ـ أيّ نكتة تعنين يا سيّدتي؟.

فلم تحفل السيّدة بإنكار الأرملة الجميلة، وقالت وهي تحدج عليّ أفندي بنظرة استغراب:

ـ رحماك يا ربّي.. الآن صدّقت قول القائل: يخلق من الشبه أربعين!.

فاحتدمت الأرملة غيظًا وقالت:

ـ إنّي لا أفقه لما تقولين معنًى.

ـ بل تفقهين كلّ المعنى وتريدين أن تضاحكينا، والحقّ أنّ الشبه الذي بين شاعرنا المجيد وحضرة البك شبه عجيب..

فاشتدّ الغيظ بالأرملة والتفتت إلى عليّ أفندي وقالت:

ـ تكلّم يا أستاذ لتعلم عصمتها أنّي لا أهزل!.

وكان عليّ أفندي في حالة يرثى لها، وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيّدة الجريئة التي لا شكّ تعرف الشاعر الأصليّ تمام المعرفة، فلم يجد مناصًا من الهرب، فتظاهر بالدهشة، وابتسم إلى الأرملة البائسة وقال:

ـ معذرة يا سيّدتي. . يخلق من الشبه أربعين!.

وكان يتكلّم بلهجة جدّيّة لا تترك أثرًا للشكّ في نفس السامع، فجحظت عينا السيّدة دهشة وانزعاجًا. وعلا ضحك صاحباتها، وتأمّلنه بإمعان وهي تكاد تجنّ من الدهشة، وسألته:

ـ ألست أنت الشاعر؟

فأجاب بهدوء:

ـ كلّا يا سيّدتي. . أنا موظّف بوزارة الزراعة.

ـ ألم تقابلني قبل الآن؟

ـ لم يحصل لي هٰذا الشرف يا سيّدتي.

قال عليّ أفندي ذٰلك وأحنى رأسه تحيّة وذهب تاركًا السيّدة لصديقاتها الضاحكات، وقالت السيّدة الأخرى:

ـ إنّي أعجب كيف يخدعك بصرك إلى هٰذا الحدّ، ألا ترين أنّي فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى!.

فقالت الأرملة الذاهلة تداري خجلها:

ـ ما أعجب الشبه بينهما!!.

فقالت الأخرى:

ـ ولٰكنْ شتّان ما بين قامتيهما.

وقالت أخرى ساخرة:

ـ سيغضب «صديقك» الشاعر حين يعلم بهذا الخطأ الغريب.

وغادر عليّ أفندي المعرض مضطربًا: ولمّا تنسّم الهواء الطلق انفجر ضاحكًا حتّى دمعت عيناه، على أنّ الموقف لم يكن يخلو من دواعي الأسف ما دام قد خسر الموعد المنتظر وكان يمنّي نفسه بأكثر من ليلة واحدة. .

الشَّـريدَة

الغالب على أحاديث الشبّان في هٰذه الأيّام أن تتّجه نحو غرضين: النساء والسياسة، وحول هٰذين الموضوعين دار الحديث في مجتمع من الأصدقاء كان من حظّي المشاركة فيه محدّثًا ومنصتًا. وقد بدأ الحديث فاترًا مبتذلًا فلم يستطع أن يجذب إلّا بعض انتباهي، حتّى تكلّم ذلك الصديق البارع وتدفّقت الذكريات على لسانه الذَّرِبِ فألقيت إليه بانتباهي كلّه، لأنّ حديثه كان قصّة مستوفاة العناصر، ومثل هٰذا الحديث يستبدّ بمشاعري استبداد المال بقلب اليهوديّ الشحيح، وإليك ما قصّه صاحبي - قال:

لا يكاد يخلو تاريخ شابّ من امرأة، ولٰكنّه قد يخلو من المرأة المؤثّرة التي تترك وراءها شاهدًا عميقًا لا ينال منه طمس السنين كالوشم في اليد أو الصدر. وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهنّ إلّا أثرًا ذاهبًا من اللذّة أو الألم، أو أطيافًا في الظلام والنسيان، إلّا امرأة، بدت في فترة من حياتي كالكوكب الدرّيّ ينير أبدًا ويضيء ما حوله فلا أنا أنساها ولا يغمر النسيان حياتي التي غمرتها بروحها الرقيق. لماذا.. ألأنّها كانت أجمل من عرفت؟.. أو أحبّهنّ إلى قلبي؟.. لا أعتقد هٰذا ولٰكنْ ربّما لأنّها كانت أتعسهنّ جميعًا ولأنّ تعاستها هٰذه كانت السبب الخفيّ في سعادتي بها زمنًا طيّبًا لن يعود أبدًا.

ويرجع عهد معرفتي بها إلى يوم من أيّام عام ١٩٢٠ وكنت آنئذ طالبًا في السنة الأولى بمدرسة الزراعة العليا، استيقظت ذلك اليوم في الصباح المبكّر كعادتي، فجاءتني والدتي وقالت لي:

- حسّونة.. أرى أن أخبرك أنّ ضيفة نزلت ببيتنا، وأنّها ربّما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمًّى..

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها:

- من هي؟..

- زينب هانم زوج اليوزباشي محمّد راضي جارنا.

فاستولت عليّ الدهشة وقلت:

- لٰكنّها ما زالت عروسًا في شهر العسل.. أليس كذٰلك.؟

- هو ذٰلك يا بنيّ، والظاهر أنّها تعسة الحظّ لأنّها اضطرّت إلى هجر بيتها والالتجاء إليّ في الصباح الباكر، وزوجها ولا شكّ رجل غليظ فظّ لا تسهل معاشرته، وإلّا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم أن لا أقارب لها في القاهرة.

وكانت والدتي شديدة التأثّر فقلت:

- مسكينة..

فقالت بانفعال:

- كانت أمّ هٰذه الشابّة صديقة صباي، وإنّي أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة..

ثمّ أردفت بلهجة ذات مغزى:

- وأن تكون لها يا حسّونة أخًا كريمًا..

وبادرت قائلًا:

- طبعًا.. طبعًا.. يا أمّاه.

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكّر كلمة والدتي الأخيرة واللهجة التي قالتها بها، وأحسست بمزيج من الخجل والغضب. ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على ضيفتنا؟ ثمّ خطر لي أن أتساءل: «هل هي جميلة إلى حدّ تبرير مخاوف والدتي؟».. حامت أفكاري حول ذٰلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة. والحقّ أنّ كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيّما إشفاق.

كان جوّ بيتنا غاية في الهدوء، فوالدي كان حينذاك قاضيًا بمحكمة طنطا الأهليّة، وكان يقيم نصف الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محلّ عمله، وكان أخي عليّ في المدرسة الحربيّة، وأخي عادل في بعثة مدرسة الطبّ بالنمسا. وفي ذٰلك الجوّ المغمور بالهدوء والسكينة عرفتُ زينب هانم العروس التعسة.. وقد خيّل إليّ وأنا ألقي عليها النظرة الأولى أنّي أرى صبيّة صغيرة. نعم كانت بضّة ممتلئة بادية الأنوثة، ولكنّي قرأت في عينيها العسليّتين نظرة براءة وسذاجة، بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذي لا تعرفه الطفولة الحقّة..

وكان الشباب في ذٰلك العهد غيرهم الآن، كانوا أعظم استقامة وأدنى إلى العفّة والطهر، وأرعى عهدًا للتقاليد، وكانت المرأة المصونة تبدو دائمًا وكأنّها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة، وكان الحبّ بعيدًا نسبيًّا عن التهتّك والابتذال اللذين صرعاه أخيرًا وأورداه الإباحيّة والجنون، فكانت العواطف تزدهر في القلب وتنبت الآمال والأماني، وتنصهر في العقل وتخلق الأخيلة والأحلام، وتكتسي بحليّ نادرة من صنع الأوهام والأطياف..

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البضّ، لتكون زادي في النهار والليل وفي اليقظة والنوم، وأصبحت وأمسيت في عالم أثيريّ جميل بثّ في وجداني حياة ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين. على أنّ الأمر لم يقتصر على ذٰلك فجرى الحديث بيننا مرّات، ولعبنا الورق مرّة والنرد أخرى. وغالبتني عواطفي فوسوست إلى نفسي أن أتشجّع وتساءلت بخبث لماذا لا أجرّب حظّي. لماذا لا ألمس أناملها في أثناء اللعب مثلًا؟ أو أهدي إليها مجدولين فتكون فاتحة حديث لا يعلم ختامه إلّا الله.. ولكنّي لقيت من التردّد الشيء الكثير، ولم تسعفني الجرأة التي تعلّمتها فيما بعد، وضاع الوقت هباء حتّى رجعت يومًا إلى البيت، فوجدت والدتي وحدها.. وكنت تعوّدت أن أراها إلى جانبها، وأحسست بوحشة وضيق، وكتمت رغبة تلحّ عليّ بالسؤال لأنّ تلوّث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء، وظننت السؤال فاضحي، ولم تدعني والدتي فريسة العذاب فقالت لي:

ـ شكرًا لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر لزوجه وعاد بها لأنّه نقل إلى أسيوط، وقد كلّفتني أن أهدي إليك تحيّاتها.

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي يمنّى بالسقوط في الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة اللائقة به. وضاق صدري ذٰلك اليوم بالبيت ففررت إلى الخارج لأخلو إلى نفسي بعيدًا عن عيني والدتي. على أنّ الصبا دائمًا قادر على جرف الأحزان والهموم فاستطعت أن أبرأ في مدّة وجيزة ونسيت في غمرة الحياة والآمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي أيّامًا فكانت مثل «الزكام» الذي يُفقد الإنسان طعم الحياة حينما يزول سريعًا فكأنّه لم يكن..

ودارت الأيّام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم، ووظّفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥. ثمّ انتقلت إلى تفتيش الإسكندريّة بعد ذٰلك بخمس سنوات. وفي الأيّام الأولى لهبوطي إلى الإسكندريّة آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وَعْثاء السفر وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب، ووقع اختياري على فندق «ريش» لحسن موقعه من البحر لأنّنا كنّا في سبتمبر، وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندريّة يطيب فيه الجوّ ويهدأ البحر ويصفو؛ فحملت حقيبتي ونزلت في حجرة من حجرات الطابق الثاني، وأذكر أنّه لم يكد يتركني الخادم ويغلق وراءه الباب حتّى سمعت طَرْقًا فدلفت إلى الباب وفتحته، ورأيت لدهشتي صديقنا الدكتور أحمد شلبي واستقبلته بشوق وأجلسته إلى جانبي وكان يقول لي:

ـ أحقًّا هو أنت؟..

ثمّ أردف:

ـ كنت تاركًا باب حجرتي مفتوحًا فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال..

ـ هٰذه فرصة سعيدة.

ـ يا حظّك.

ـ أيّ حظّ تعني.. أنت تعلم أنّ موظّفي الزراعة لاحظّ لهم يُحسدون عليه.

فقال ضاحكًا:

ـ أنا لا أتكلّم عن الكادر.. ولٰكنْ عن فوزك بهٰذه الحجرة.. فيا حظّك..

ـ وما الداعي إلى هٰذا الحسد.. هي حجرة دون حجرات الصفّ المقابل التي تطلّ نوافذها على البحر..

ـ هٰذا حقّ، ولٰكنّ شرفتها تمسّ شرفة الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك وحسبك هٰذا..

ـ وما شأن الحجرة رقم ٢٤..؟

فقال وهو يتنهّد:

ـ تقيم بها امرأة حسناء وحيدة.

ـ وحيدة..!

ـ نعم.. وإلى هٰذا يعود السبب في أنّ حجرات هٰذا الطابق مأهولة كلّها.

ـ لعلّها ممثّلة أو راقصة.

ـ هو ما يظنّه الرقم ٢٧.

فقلت مستفهمًا:

ـ الرقم ٢٧..؟

ـ أعني زميلي الدكتور الصوّاف المقيم في الحجرة رقم ٢٧، ولٰكنّي لم أوافقه على ظنّه، لأنّي خبير بالصالات والمراقص جميعًا، والأعجب من هٰذا أنّها تبدو محترمة ولا ينقصها إلّا زوج لتكون من المصونات حقًّا.

فابتسمت وقلت:

ـ عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان.

ـ أوه.. كلّ الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة.

ـ ألم يفز أيّ رقم بطائل..؟

ـ في الظاهر لا، والله أعلم بالسرائر.

ـ وجالسني صديقي ربع ساعة، تحدّث فيها ما شاء له الحديث، ثمّ ودّعني وانصرف إلى حجرته، وكنت تعبًا منهوك القوى فنمت ساعة نومًا عميقًا واستيقظت عند العصر، وفتحت شرفتي وجلست فيها أستروح هواء البحر المنعش، ولاحت منّي نظرة إلى الشرفة التي إلى يميني، فتذكّرت ما قال صديقي الدكتور، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف؛ ولٰكنّي استرددت نظري بسرعة لأنّي سمعت صرير بابها وهو يفتح، ونظرت أمامي، ولحظت بروز شخص، وخيّل إليّ أنّه امرأة، وتأكّد ظنّي عندما عطست، وحافظت على جمودي وتظاهرت بعدم الاكتراث.. وغالبًا ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعزّي عن الخيبة..

ولٰكنّي لم أثبت طويلًا، ونازعني شغف إلى النظر فألقيت ببصري إلى جارتي. ورأيت امرأة أوّل ما راعني منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحوّل إلى يقين بأنّي رأيتها من قبل وأنا أتمتّع بذاكرة لا تخيب قطّ في حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت.. ذكرت جارتنا القديمة.. التي عاشت معي في بيت واحد بضعة أيّام كانت كافية لإنضاج وجداني.. وتملّكتني الدهشة والاهتمام.

ولاحت منها نظرة إليّ فالتقت عينانا وتوقّعت بقلب خافق أن أطالع في وجهها آية التذكّر، وتحفّزت للسلام ولٰكن خاب رجائي، لأنّ نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها، ولم تلبث أن ولّتني ظهرها وعادت من حيث أتت. واأسفاه نسيتني بغير شكّ.. وما من شكّ في أنّها هي جارتنا القديمة وهي ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها، ولٰكن ما لها تعيش وحدها في هٰذا الفندق.. وما الذي يحملها على هٰذه الوحدة الغريبة.. وأين زوجها يا ترى؟

وطال تفكيري في شأنها حتّى قمت لارتداء ثيابي وغادرت حجرتي، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجي مباشرة، فتباطأت في خطاي حتّى حاذتني وهبطنا الأدراج معًا، ووجدت في نفسي رغبة شديدة في محادثتها ولم أكن أحجم في مثل ذاك الموقف فقلت لها بهدوء غريب:

ـ سعيدة يا هانم.. لعلّك تذكرينني..

فحدجتني بنظرة إنكار، ولعلّها ظنّت أنّي أتذرّع بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتي، وأسرعتِ الخطا فلحقتُ بها عند باب الفندق وقلت لها:

ـ أهٰكذا تنسين جيرانك بسرعة.. ألا تذكرين حرم

حسن بك همّام القاضي؟..

فألقت عليّ نظرة غريبة ولاحت في عينيها الأحلام وسمعتها تتمتم:

ـ عدالات هانم.. شارع الزقازيق..

فقلت بفرح:

ـ نعم، هٰذه هي والدتي.. وهٰذا شارعنا..

فهشّت لي وسارت إلى جانبي وهي تقول:

ـ أأنت ابنها؟.. تذكّرت.. كيف حال عدالات هانم؟..

فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدي القديم بها:

ـ والدتي بخير.. كيف حالك أنت يا هانم؟

ـ عال، ولٰكن أين عدالات هانم؟.. هل أنت وحدك؟.

ـ نعم، الأسرة في رأس البرّ لأنّ والدي يحبّها ويفضّلها على الإسكندريّة، وأنا هنا بحكم عملي.

ـ نسيت اسمك.

ـ حسّونة..

وكنت نسيت اسمها كذٰلك ولٰكنّي نفرت بطبعي من سؤالها عنه، فمشيت إلى جانبها صامتًا وكان وجداني في يقظة قويّة وأصارحكم القول بأنّي من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيًّا كان جمالها، وأنّ رغبتي في النساء عامّة لا تعرف التخصّص، وقد كنت قبل نحو عشرين عامًا ذا استعداد للحبّ، ولٰكنّي فقدت بمرور الزمن واطّراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيرًا من الحيوانات الراقية، وكنت في ذٰلك الوقت خاطبًا، وكنت اخترت خطيبتي من بين عشرات الفتيات ولٰكنّ ذلك لم يمنع قلبي ـ ذٰلك اليوم، من التعلّق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع، قلت لها:

ـ أأنت وحدك هنا؟

فقالت بلا اكتراث:

ـ نعم!

ـ وزوجك..؟

ـ في السلوم.

ـ ولماذا تعيشين وحدك..؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

ـ لا ينقصك إلاّ أن تفتح محضرًا للتحقيق وتطالبني بالشهود.

ـ فخجلت من فضولي، وضحكت أداري خجلي، ولم تكن عواطفي تكفّ عن الطغيان فقلت:

ـ ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس..

فهزّت رأسها وقالت بعناد ظريف:

ـ كلاّ أنا أفضّل المشي لأنّي أريد أن أنحف.

فنظرت إلى جسمها البضّ الممتلئ نظرة معذّب ووجدت في كلامها فرصة ذهبيّة لا ينبغي أن تفلت منّي فقلت بإعجاب:

ـ وما جدوى هٰذا التعب.. إنّ جسمك كامل الفتنة..؟

فألقت عليّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهي تشير إلى جسمها:

ـ هٰذه موضة قديمة.

فقلت بحماس:

ـ هٰذا جميل وكفى.. وما عدا ذٰلك فلا وزن له عندي.

ـ وعند الناس..؟

ـ نعم وعند الناس..

كدت أنسى هٰذا، إذ خيّل إليّ الوهم الساحر أنّي صاحب الشأن الأوحد، وعلى أنّها قالت ما قالت وهي تبتسم إليّ بإغراء. فاستخفّني الوهم مرّة أخرى واشتدّ بي الطمع فقلت:

ـ أنت لم تتغيّري في هذه الفترة الطويلة وكأنّ التي أراها الآن هي السيّدة الجميلة التي أشرقت بغتة في بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام، وغربت بغتة كذٰلك فتركتني أحلم بها أيّامًا وشهورًا.

فنظرت إليّ بخبث وقالت:

ـ يا لك من ماكر...

فقلت ضاحكًا:

ـ ما وجه الغرابة في ذٰلك... من يرى هٰذا الحسن ولا يتمنّاه؟

ـ الظاهر أنّي سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو من أمانيك..

ـ حاشا أن تفعلي.. بل حاشاي أن أتركك تفعلين. إنّ فوزي بلقائك بعد هٰذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشرّير الكفر بها...

ـ إنّك تحدّثني كما لو كنّا عاشقين افترقا ثمّ تلاقيا...

ـ هٰذا شعورك...

ـ هو أدنى إلى الوهم.

ـ أمّا من ناحيتي فلا...

ـ وأما من ناحيتي فنعم...

ولٰكنّها قالت ذٰلك بدلال ورقّة، وهي تبتسم ابتسامة عذبة تسيل إغراء، ولم أدهش لما تبدي من استسلام لأنّ حالتها في الواقع كانت تدعو إلى الريبة، وتذكّرت ما قال صديقي الدكتور شلبي فقلت:

ـ إنّي أعجب لماذا تقيمين وحدك في هذا الفندق؟

ـ أراك تعود إلى التحقيق...

ـ كلّا لا داعي للتحقيق.. ولٰكنّي علمت أنّ المقيمين بالطابق الثاني يضايقونك...

ـ أبدًا لعلّهم يضايقونك أنت...

فتنهّدت وتعمّدت أن أُسمعها تنهّدي ثمّ قلت:

ـ فليكن... ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق ريش...؟

ـ نترك...

ـ نعم... أنا أعني ما أقول، وأعرف فندقًا هادئًا في لوران، فما رأيك؟

ولم تجبني، ولازمت الصمت حينًا، وبدا على وجهها الاهتمام والتفكير فخفق قلبي وساورني الخوف والقلق؛ ولٰكنّي أحسست فجأة بذراعها تلتفّ بذراعي وسرنا مشتبكين كالعشّاق أو الأزواج؛ فأثلج صدري وغمرني الفرح والفوز، وقنعت بذٰلك جوابًا...

وفي مساء ذٰلك اليوم افتتحنا معًا مأدبة الحبّ، فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران ونزلنا في فندق أكس لاشابل، وهو فندق هادئ منعزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولي ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبديّة والأحلام.

وعشت أيّامًا أذكرها دائمًا كما يذكر السقيم عهد الصحّة والعافية؛ كان الحبّ فيها الحاكم القاهر المستبدّ الطاغي الذي لا يترك لشيء مكانًا من عقولنا أو نفوسنا، وكنت أعلم أنّها أيّام وإن طالت قِصار، وإن صفت فإلى انتهاء سريع؛ فاقبلت عليها بنهم وجشع أملأ من حسنها قلبي وحواسّي؛ كيلا أدع زيادة لمستزيد، غير مؤجّل متعة إلى غد أو مُبْق على لذّة إلى حين، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام... وكانت شريكتي سعيدة راضية يسكرها الحبّ وتستخفّها آيات العطف، فتستزيد منها كما يستزيد منها الثمل من الطرب.

وتبيّن لي بغير كبير عناء أنّ آمالنا متباينة، فكنت لا أفكّر إلّا في حاضري، وأودّ لو أمتصّ ما فيه من حلاوة في رشفة واحدة... أمّا هي فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة في أن تطمئنّ إلى دوام السعادة والحبّ. وقد عجبت لذٰلك وعلمت أنّي لم أفهم بعد تلك المرأة؛ وقد ظننتها حينًا امرأة مستهترة متقلّبة الأهواء، تجوب البلاد بعيدًا عن زوجها طلبًا للحبّ الآثم وانتهابًا للذّات... ولٰكنّي وجدتها هادئة الطبع، عظيمة المودّة، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التي تورد أصحابها مهالك الفتن...

وكانت أيّامنا الأولى أيّام حبّ خالص، فلم يكدّر صفوي مكدّر، إلّا أنّ إفراطي الشديد ردّني إلى شيء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكري أن يتناول أمورًا غير الحبّ...

فكّرت في أنّي أعتدي لأوّل مرّة على حرمة الزوجيّة، ولم يكن سبق لي أن اقترفت هٰذا الإثم المنكر فوخزتني شكّة الألم وأحسست بخوف غامض، وزاد من ألمي أنّي كنت على عتبة الحياة الزوجيّة، وساءلت نفسي في رعب: ألا يجوز أن يقتصّ الله منّي ويصيبني يومًا في المقتل الذي طعنت فيه الآخرين.

وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلًا:

ـ وهل صدقت مخاوفك فيما بعد..؟

وضحك البعض ونظر محدّثنا إلى مقاطعه شزرًا ثمّ

استأنف حديثه قائلًا:

ـ ثمّ فكّرت في أمر آخر لا يقلّ عن سابقه خطورة. فكّرت في أمر الزوج الغريب الذي يترك لزوجته الحبل على الغارب. ما الذي عساه يفرّق بينهما؟.. وكيف يرضى عن هٰذه الحياة الغريبة؟.. وألا يمكن أن يظهر بغتة في أفقنا الهادئ فتكون الطامة التي لا تدفع.

وكانت هٰذه الأفكار تساورني خارج الفندق بعيدًا عن ظلّها الخفيف ولٰكنّي وجدت نفسي مسوقًا إلى مفاتحتها بهٰذا الحديث وقد فعلت، فسألتها يومًا:

ـ أما من أخبار عن زوجك...؟

فاكفهرّ وجهها وأظلمت عيناها وقالت:

ـ دع هذا الحديث جانبًا...

فاضطررت ساعتئذ إلى السكوت، وفي نيّتي أن أعيد الكرّة مهما كلّفني ذٰلك. وكانت تتحاشى هٰذا الحديث وتتهرّب منه، ولٰكنّي قلت لها يومًا بإخلاص وحزم:

ـ ينبغي أن تعلمي أنّه ليس الفضول الذي يدفعني إلى معاودة السؤال، ولٰكنّه اهتمام بشخص أعزّه وأحبّه وأرجو دائمًا أن يفتح لي صدره وقلبه...

كم فرحت لكلامي هٰذا... لقد التصقت بي بوجد وحنان وتنهّدت بسعادة وقالت:

ـ يا للسعادة... طالما ضرعت إلى الله أن يهبني قلبًا حنونًا محبًّا...

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدي وقلت:

ـ إذًا هيّا وصارحيني بكلّ شيء.

ـ ولٰكنّه حديث مؤلم كريه.

فقلت:

ـ أنا لا أدري شيئًا، لأنّك لم تريدي أن تطلعيني على شيء. ولٰكنّي كنت أرجّح دائمًا أنّ حياتك الزوجيّة غير سليمة، ومهما يكن من أمر فينبغي أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا...

فهزّت منكبيها باستهانة وقالت:

ـ إنّه لا يعرف مقرّي على وجه التحقيق...

ـ ما أعجب هذا!.. أستطيع أن أفهم أنّكما غير متحابّين، ولٰكنّ الذي لا أستطيع فهمه هو أن تبقيا زوجين بعد ذٰلك.

ـ إنّه لا يطلّقني لأنّه لا يستطيع الاستغناء عن مالي... وسوى ذٰلك فلم يكن زوجًا قطّ وهو لا يطيق أن يكون زوجًا في يوم من الأيّام... على أنّي في الواقع لا أرغب في الطلاق.

فحدّقت في وجهها دهشًا وقلت:

ـ هٰذا أعجب!

ـ لا تعجب لشيء. ألا ترى أنّي هٰكذا مالكة لحرّيّتي؟ ولو كنت مطلّقة ما استطعت أن أذهب إلى حيث أشاء. ولو كان لي من يهمّه أمري ويحنو عليّ بصدق لتغيّر مصيري من بادئ الأمر، ولٰكنّي وحيدة، وحيدة في هٰذه الدنيا الواسعة، أنت لا تدري ما الوحدة... أمّا أنا فقد تجرّعت مذاقها طوال هٰذه السنين.. مات أبواي والتحق أخي الأوحد بوظيفة في قنصليّة اليونان، ونبذني زوجي.. فليس لي مكان آوي إليه أو قلب يعطف عليّ. أنا منبوذة في هٰذه الدنيا...

فوجمت صامتًا وغلبني التأثّر الشديد، ورأيت وجهها الجميل محتقنًا كقطعة من الجمر ولمحت دمعة حبيسة في عينيها فقلت:

ـ إنّك جميلة وغنيّة، فماذا كان يريد هٰذا الأحمق؟

ـ إنّه وحش ضارٍ وقاسٍ جحود، لم أستطع أن أعاشره كزوجة إلّا أيّامًا معدودات ثمّ اضطرّني إلى حياة التشرّد والهيمان... ولو وهبني الله طفلًا لاستعنت به على الصبر والرضا، ولٰكنّي حرمت حتّى من هٰذا العزاء.

وكانت تتكلّم بتأثّر شديد فخيّل إليّ أنّي سأتبعها إلى البكاء، وثرت في نفسي على الحظّ التعس الذي ضيّق عليها الخناق، وخطرت لي فكرة فقلت لها:

ـ ألم يكن في وسعك إصلاح ما أفسد الحظّ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت:

ـ الحظّ التعس لا يصلحه شيء وأنا ما قصّرت قطّ، وأصارحك القول بأنّي كنت أحبّه وما وافقت على الزواج منه إلّا لأنّي أحببته يومًا، ولٰكنّه مضى بعد الأسبوع الأوّل من زواجنا يقضي الليل خارج البيت

ولا يعود إلّا قبيل الفجر، وكنت إذا انبريت لإصلاحه ومدافعة الشقاء الذي يهدّدني به سخر منّي وهزأ بمحاولاتي، ولمّا ضاق بي، ترك السخرية والهزء وعمد إلى الخشونة والفظاظة...

وسكتت عن الحديث دقائق وهي مستسلمة إلى الشعور الأليم الذي أحدثته الذكريات. ثمّ أردفت بصوت أعمق ووجه اشدّ اكفهرارًا:

- وأدركني اليأس منه، ولمّا أتمّ شهرًا كاملًا في بيتي الجديد، وكان ذٰلك لحادثة همجيّة لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي أيأستني من الخير ودمّرت كلّ فضيلة في نفسي؛ ففي ليلة من ليالي شهر العسل كنت مستغرقة في النوم بعد سهاد حزين، وإذا بهزّة عنيفة توقظني من نومي، فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيته جالسًا إلى حافة الفراش، وهممت بتعنيفه، ولٰكنّ لساني لم يتحرّك في فمي لأنّه كان في حالة سكر شديد كما تبيّنت ذٰلك من نظرته الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التي تنبعث من فمه، وكان هناك ما هو أدهى من ذٰلك، كانت تقف قريبة منه امرأة غريبة في مثل حالته من السكر الشديد، كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكاني من فراش العرس، ولم يمهلني حتّى أفيق من فزعي ودهشتي، فقال لي بلسانه الثقيل الملتوي: (تفضّلي خارجًا) ولم تنتظر صاحبته، فذنت من الفراش وارتمت إلى جانبي، ولم أتمالك نفسي ففزعت من مكاني إلى أرض الغرفة وفقدت رشدي، فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سبًّا ولعنًا؛ ولٰكنّه هزّ كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها فغادرت الحجرة في حالة جنونيّة، وأحسست برغبة لا تقاوم في هجر البيت، وكانت ثيابي في الدولاب داخل الحجرة، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلفّعت به وفتحت الباب وولّيت خارجًا، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر، وهرولت في الطريق الموحش لا ألوي على شيء حتّى انتهت قدماي إلى البيت الوحيد الذي تعوّدنا الذهاب إليه.. بيت والدتك.. ولعلّك تذكر الأيّام القلائل التي قضيتها عندكم... إنّي لا أنسى تلك الليلة أبدًا... ولا تزال قائمة في نفسي بجميع تفاصيلها... وقد كانت فاصلة في حياتي بين عهدين...

إنّي أذكر تلك الأيّام بلا ريب... ولٰكن كم كنت أجهل ما تخفي من التعاسة والبؤس...

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذٰلك ثمّ سألتها:

- كيف عدت إليه بعد ذلك؟..

فهزّت رأسها باشمئزاز وقالت:

- في تلك الليلة انتهت حياتي الزوجيّة في الواقع، ولكنّي كنت بلا مأوى وبلا معين، فماذا أصنع؟... عرض عليّ اتّفاقيّة فقبلتها، وهي أن أعطيه من مالي على أن يعطيني حرّيّتي. وقد كان... وغدوت حرّة أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أُسأل عمّا أفعل...

وهالني الأمر فقلت:

- وهل عشت سعيدة؟ ...

فتنهّدت وقالت:

- ليت ذٰلك كان ممكنًا... ما تمنّيت على الله من شيء مثلما تمنّيت أن يسلبني حرّيّتي هٰذه في لقاء أن أحظى بالسعادة التي أحلم بها والعطف الذي أتحرّق إليه، وأنا مستعدّة دائمًا أن أتنازل عن حرّيّتي بائنة لمن يهبني قلبه وإخلاصه.. كم تعبت وكم بحثت.. وكم ضقت بحرّيّتي..

الآن علمت كلّ شيء... لقد صرفت هٰذه المرأة التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبوديّة السعيدة، فهل يا ترى وفّقت إلى ما تريد؟.. كلّا. هي لم توفّق ولا ريب ولو أنّها وفّقت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت بين أحضاني أنا بهٰذه السهولة. لقد انصرمت السنوات العشر في خيبة مريرة وخِدَع أليمة. وما من شكّ في أنّ الكثيرين تلقّفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن، ثمّ ردّوها قهرًا بعد شبع إلى حرّيّتها البغيضة. وهٰكذا فالحرّيّة نفسها تهون وترخص أحيانًا وتعيى في طلب المستبدّ الغاصب.

ولمّا انتهت من سرد قصّتها نظرت إليّ بطمأنينة واستسلام، ثمّ ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها تهمس في أذني قائلة:

- وأخيرًا...

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنّي ألعب في روايتها البائسة دور الأمل الأخير، فإمّا أن أقوم به كما تتمنّى أحلامها وإمّا أن أُشفي بها على اليأس القاتل.

وأحسست بثقل تبعتي ورانَ على صدري همّ عظيم وتساءلت حيران ترى ما هي أحلامها؟.. أن تدوم هٰذه العشرة.. وكيف لي بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج؟.. ومضى تأثّري الشديد لتعاستها يهدأ نوعًا، وأخذت أفكّر في نفسي وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأتساءل في قسوة وأسف عن طريقة للخلاص.. وكانت تأتي عليّ أوقات أعجب فيها من أنانيّتي وأتساءل في اشمئزاز ـ إذن كيف كان شأن من لم يشعر نحوها بغير الشهوة والطمع؟ الحق أنّ عالمنا الإنسانيّ عالم شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهي في الحقّ تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى باذليه بالضنّ به.

على أنّ الذي أزعجني هو أنّ زينب فطنت لمشاعري الخفيّة من غير أن أصارحها بها. وبدا لي ذٰلك في وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش فإنّي من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم، وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم. ولم أكن بَيَّتُّ قطّ نيّة مصارحتها بعاطفة ممّا يعتلج في صدري أو بفكر ممّا يحترق في رأسي، وقد كنت أفكّر في حالتها بعطف ومودّة، ولٰكنّ العطف شيء والحبّ شيء.

وكنت أتوقّع في خوف وإشفاق أن تفاتحني بما يقوم في نفسها من الوساوس، وكان ذٰلك يضاعف آلامي النفسيّة، ورجوت أن تنقشع تلك السحابة من سماء حياتي دون أن تترك وراءها أثرًا لحزن أو ألم أو تأنيب ضمير. وانقلبت حياتنا تمثيلًا ثقيلًا، وكان كلّ منّا يعلم بما يشعر به صاحبه نحوه، ولٰكنّا كنّا نتجاهل كلّ شيء.. لماذا لم تصارحني بشعورها؟.. ولماذا لم تهبّ للدفاع عن سعادتها الموهومة؟ لم يحدث شيء من هٰذا.

وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية، وبحثتْ عيناي عن آثارها اللطيفة التي تعوّدت رؤيتها كالفساتين التي كانت تعلّقها على المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثرًا، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابي، وناديت الخادم وسألته عنها؟ فأخبرني أنّ الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحًا وأنّه أحضر لها بنفسه التاكسي.

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنّي كنت أتوقّع أن تترك لي كلمة، ولٰكنّي لم أعثر على شيء.

لقد تركتني دون كلمة، وانتهى كلّ شيء!

وجلست صامتًا واجمًا تتنازعني العواطف، ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاءني بدون مشقّة وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة في الطعام فقمت من فوري أبحث عن مسكن جديد، لأنّه كان يتعذّر عليّ أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة المهجورة.

وسكت الراوي لحظة ثمّ أردف:

ـ ومضت سنوات لم أرها فيها، ثمّ رأيتها منذ عهد قريب تساير شابًّا أنيقًا في ميدان المحطّة؛ ولٰكنّي لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحبّ والعطف أم أنّها استسلمت إلى القنوط؟!.

خيانة في رسائل

ـ هٰذه أوّل أزمة تصيب حبّنا! نعم طالما آلمني الفراق الهيّن، وأجهدني الشوق إلى اللقاء: وعذّبني الدلال؛ أمّا الوداع. أمّا الرحيل إلى قنا فذا أمر جديد، يدفع إلى نفسي شعورًا بالحزن لا عهد لها به فهلّا عدلت عن السفر..؟

ـ لو كان الأمر إليّ ما رغبت نفسي أدنى رغبة في السفر، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعالي الصعيد بعض احتفالي بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء السعيد! ولٰكن ما حيلتي وهٰذا ما يريده أبي ويفعله منذ أحيل إلى المعاش. ولقد اعتاد أن يمضي شهرًا أو شهرين من الشتاء في قنا عند عمّي الدكتور..

ـ يستطيع عقلي أن يتصوّر المعجزات، ولٰكن لا أستطيع أن أتصوّر ما عسى أن تكون عليه حياتي في هٰذين الشهرين، فهٰذا الحبّ غدا حياة لشعوري، وهٰذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي، أجد فيهما راحة بعد تعب، وعزاء عن شوق دائم، فما عسى أن أصنع؟ بل ما يكون زادي وسلوتي؟.

فوضعت يدًا خمريّة ناعمة على كتفه، وداعبت بأطراف أناملها خدّه، وهمست في أذنه:

ـ هٰذا شعوري وهٰذا حزني، ولولا كراهيّتي للعزاء لنصحت لك بالتعزّي والتلهّي فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتّى ينطوي دهر الفراق ويتّصل حبل اللقاء.. ومع هٰذا فما أسعدك وما أبأسني..!

ـ كيف..؟

ـ لن أسعد بقراءة كلمة طوال مدّة غيابي، لأنّك لا تستطيع أن تكتب إليّ، أمّا أنت فتستطيع أن تطّلع على همسات روحي كلّما مكّنتني الفرص من اختلاس الكتابة إليك.. فأيّنا أسعد حظًّا؟..

ـ من تؤاتيه فرص التعبير فيخفّف من مراجل عاطفته.

وهنا ظلّلت وجهه سحابة كدر، وسألها بعد تردّد:

ـ هل لك أبناء عمّ؟..

فابتسمت ابتسامة دلّت على أنّها سُرَّت للقلق الذي بعثه هٰذا السؤال وأجابته:

ـ نعم لي.. ولٰكنّهم لم يجاوزوا عهد الطفولة، ولو كان الأمر كما تتوهّم ما أوجب أدنى خوف أيّها الرعديد الغيور.. والآن هاتِ فمك أودّعك.. وهيّا نقول معًا هٰذه الكلمة المروّعة التي تفزع لها القلوب:

«أستودعك الله..».

من الغد يصبح لنا في قنا حبيبان عزيزان: حبيبة القلب عائدة، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرّس بمدرسة قنا، ولٰكنّه بينما يتّصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هٰذا الاتّصال الروحيّ بحبيبته، لأنّ حبهما ما يزال سرًّا خفيًّا لّما يَدْرِ بأمره الأهل..

وانقضت أربعة أيّام على سفر عائدة، ثمّ وصله منها كتاب جاء فيه:

حبيبي حسني:

«أعجب لهٰذه الوحشة كيف تجثم على صدري وأنت معي.. نعم أنت معي لم تفارقني لحظة سواء في ضجيج النهار أو في سكون الليل؛ معي وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدّة وأشجار النخيل المبعثرة؛ معي وأنا بين أهل عمّي أتلقّى الأحاديث وأردّ عليها، وأضاحك هٰذا وأسمع لذاك؛ معي في كلّ مكان وكلّ حين، فلا عجب لنفسي بعد ذٰلك أن هزّها الحنين إليك أو استشعرت وحشة وضيقًا

في البعد عنك، أو ألهبها الشوق عذابًا وجوًى».

وأرجو ألّا تتّهمني بالتكاسل عن الكتابة إليك، فبيت عمّي عامر بالأطفال وهم لا يتركونني لحظة أخلو إلى أنفسي؛ وقد انبعثت كلمات هٰذا الكتاب من شعوري وامتلأ بها عقلي وتمثّلت في حواسّي وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتيني الفرص فأسطّرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلّل من نافذة حجرتي والعيون قد أغمضها عنّي المنام.. فاعذرني إن تأخّرت عنك رسائلي وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادي أنّه يملي عليك عن لساني ما أحبّ أن أقوله لك دائمًا.

أمّا عن قنا؛ فجوّها دافئ جميل، وخلا ذٰلك فنحن في منفًى، ولولا ما يربحه أبي فيها من صحّة وعافية ما تركته يسكن إليها لحظة من الزمان».

فأخذ من الكتاب كلّ ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسلوة والسعادة.

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدّة، فهي التحيّات المحفوظة وبثّ الأشواق والتلهّف على إدبار العام الدراسيّ وإقبال العطلة الصيفيّة إلّا أنّه أضاف إلى هٰذه المحفوظات في آخر خطاب ما نصّه:

«طالما قلت لك إنّي أعيش في قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمّنا حواء. لا يقع بصري على وجه امرأة قطّ، وإن كنت أرى أحيانًا بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون: انظر إلى هٰذه المرأة..

ولٰكنْ وقع بالأمس ما يعدّ حدثًا تاريخيًا في حياة قنا؛ إذ حضر الدكتور سامي حسني مفتّش الصحّة إلى البستان العموميّ وفي صحبته غادة جميلة سافرة الوجه فهزّ البلد وزلزل كيانه. إنّه رجل جسور لا يعبأ بآراء المتزمّتين، وتجده دائمًا على استعداد للردّ على تطفّل المتطفّلين بما يجعله مثلًا وعبرة، ولم يلبث أن شاع الخبر وملأ الأسماع فهرع الموظّفون من مدرّسين ومهندسين وكتبة إلى البستان وهم يسوّون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم، فلو رأيت البستان حينذاك لحسبته حديقة غناء في مصر الجديدة أو قصر النيل.

إنّها شابّة جميلة تحمل في طيّاتها عطر القاهرة المعبّق، فليهنأ قفر قنا بهٰذا العطر العذب..».

فخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شكّ في معرفة صاحبة الشخصيّة الجميلة التي أثارت لوعة الشباب في قنا.

يا له من كلام يحمل فرحًا وألمًا، والألم فيه أكثر! أيجوز أن تسعد قنا ومَن فيها بحبيبته ويبقى هو في القاهرة تسيل نفسه حسرات عليها؟

وهمّ أن يكتب لصديقه كتابًا يعلنه فيه بأنّ الفتاة التي هزّ مقدمها قنا هي حبيبته اليوم، ثمّ خطيبته غدًا، ولٰكنّه جفل من هٰذا الإعلان ووجد رغبة خفيّة أن يكتمه إيّاه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحقّ الرواية والحديث.

لقد تردّد لحظة وطرح على نفسه هٰذا السؤال: ألا يُعَدّ هٰذا تجسّسًا منه على حبيبته.؟

وهل يجوز هٰذا في شرع المحبّين؟ أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبته موضع الاتّهام والظنّة!.

ولٰكنّ عاطفة الندم هٰذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجيّاشة السوداء فطردها من نفسه وكتب إلى صديقه بما أملت عليه شكوكه من بادئ الأمر.

وبعد حين وصله كتاب ثانٍ من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلي:

«تغيّر كلّ شيء في قنا وكلّ شيء في حياتي. ولم تعد قنا قبرًا موحشًا فاغرًا فاه مكشّرًا عن أنيابه، ولم تعد حياتي سأمًا ثقيلًا متّصلًا. كيف لا يكون هٰذا وأنا مطمئنّ إلى أنّي سأحظى أصيل كلّ يوم برؤية ذٰلك الوجه السافر المبتسم الذي يُحيي موات النفوس، ويبعث مصفرّ الأمل.. ما أجملها، وما أعذبها!.

علمت الآن أنّها ابنة أخي مفتّش الصحّة، أو هٰذا ما علمته قنا عامّة وعلمه شبابها خاصّة. إنّ جميع العيون تلتهمها التهام الجوع، فلعلّ هٰذه الضجّة تثير الغيرة في نفوس الآباء الموظّفين، فتشجّعهم على

الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه، وإبراز بناتهم للعيان، ومهما يكن من الأمر فنحن الرابحون.

لا تخش على أخيك من قهر، فهو بطل صنديد، وشخصيّة لا يشقّ لها غبار، وإنّ عينيّ لتنفذان من بين العيون جميعًا وتجذبان عينيها إليّ، فصبرًا ولتعلمن بعد حين في أيّ مخبأ من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت!».

ما هذا الذي يقوله مرزوق من أنّ عينيه تجذبان إليه عينيها؟. إن لعيني مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان. . . أمّا عينا صاحبته فما بالهما تنجذبان وتستجيبان؟. . هلّا يكون ذلك مجرّد نظر بريء فسّره صديقه على ما يهوى غروره ويحبّ؟. . إنّه لا يشكّ أبدًا في إخلاص عائدة، ولكن ينبغي ألّا ينسى أنّ لصاحبه عينين جميلتين يحسّ الناظر إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه، وهو ـ إلى ذلك ـ مدرّس محترم من حملة الديبلومات العالية، ومن ذوي المستقبل السعيد. أمّا هو فلم يزد على أن يكون موظّفًا صغيرًا، كلّ مؤهّلاته شهادة البكالوريا، ومستقبله مظلم محدود، أفلا يكون لكلّ هذه الفوارق أثر في الحبّ؟. .

إنّه يشعر بحزن عميق يخيّم على نفسه فيجعلها من الكآبة كنفس هرم متشائم، ويحسّ بسمّ الغيرة ينطلق من قلبه ويلوّث دمه. . أواه. . إنّ أحلامه وآماله تتأرجح على كفّ رجيم. .

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة، فانكبّ عليه بلهفة، وتلاه مرّة بعد أخرى، ولم يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى، فتزعزعت شكوكه، وعاودته الثقة، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء، وحمّل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشكّ والعذاب، ولكنّه تسلّم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع، جاء فيها:

«كن على يقين من أنّ العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد، فعينا الفتاة ـ واسمها عائدة ـ تقتحمان الحاضرين من الشبّان وتستقران عليّ أنا. إنّي أطالع في وجهها عند حضوري سيمى الشوق والتطلّع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل، وأقرأ في عينيها استجابات خفيّة لرسائلي الصامتة الملتهبة، وأستشفّ أحيانًا على فمها ابتسامة خفيفة، ولعلّها تخاطب عمّها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهي تعنيني. لا تدهش لأقوالي فإني أطاردها في اصرار، وأتتبعها في عناء، وأخاطبها بصوت مكتوم تنبئ به عنه شفتاي المتحرّكتان، وأبعث إليها بإشارات الشكوى والرجاء، وقد اقتربت منّي مرّة وهي تلاعب طفلًا من أبناء عمّها وسمعتها تقول له أو لي إن شئت: «دائمًا في أعقابي، فماذا تصنع لو رجعت إلى مصر؟. . .» فقلت لها بصوت مسموع «لعلّك لا تعودين. . .»، إنّها كلمة ذات مغزى خاصّ إذا قالها شابّ أعزب موظّف مثلي. وقد كان لها الأثر الجميل. والآن أفتني فإنّك خبير طبيب عالم بأحوالي، هل أقدم أم حسبي ما ذقت من لذّة بريئة وأولي ظهري ودًّا لن ينتهي بالتئام. . . إنّ ثمرة الحبّ ناضجة دانية تنتظر من يقطفها. ما رأيك؟. . .».

يا للظلام. . يا للألم الساخر. . عبثًا يحاول دفع هذه الآيات بالشكّ والتكذيب، فعائدة بلا ريب هي التي لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستّر وعدم الاكتراث المفتعل، وهي التي تحادث الغير وتعني المجدود من الرجال، هي التي تجيب عيناها الإجابات الخفيّة . . . وهي تسكرها سِيَر الزواج. . .

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة. . . والأدهى أنّه يريد منه أن يكون مستشارًا في مأساة قلبه. . . لعلّه يرجو أن يشير بما يقطع خيط العنكبوت الذي يمسك بكفّه أحلامه وسعادته. . . فيا للسخرية! من المستطاع أن يحاول إنقاذ سعادته فيعلن صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدي شهامته وما يعهد فيه من الإخلاص والمروءة، ولكنّ كبرياءه تأبى عليه أن يكون في حبّه من المسترحمين السائلين، وهو يندفع برغبة جنونيّة نحو جحيم العذاب كأنّما يستطيب النار المُوقدة؛ وأبى إلّا أن يعرّض حبّه لأقسى امتحان. فإمّا إلى نعيم الطمأنينة، وإمّا إلى أهوال العذاب، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه:

«إذا كانت ثمرة الحبّ ناضجة فاقطفها بلا تردّد،

فإنّ حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حبّ ناضجة يزهد فيها الإنسان، أقدم ولا تُبالِ بالنتائج البعيدة، وتمتّع بالحبّ في منفى قنا ولا تحمّلنّ نفسك هموم التفكير في الغد، ولا تغفل عن تزويدي بكلّ جديد فإنّي أصبحت مِن تتبّع حبّك على حبّ شديد».

وانتظر ردّ صاحبه بصبر نافد وجزع لحوح، حتّى وافاه منه كتاب جاء فيه ما يلي:

«بوركت من حكيم سديد الرأي! لقد اتّبعت نصحك أيّها الأخ، وضربت لها موعدًا همسًا، ووافيت إليه صباح اليوم الثاني وأنا حائر بين الشكّ واليقين، بين اليأس والأمل، ولٰكن لشدّ ما كان فرحي عندما رأيتها قادمة، والحقيقة أنّها كانت متردّدة مذعورة على رغم خلوّ المكان الذي يوحي بالطمأنينة في خفية عن أعين الرقباء، وبلغ بها الذعر أنّها مرّت بي غير ملتفتة إلى يدي الممتدّة كأنّها جاءت لغير موعدي. فتتبّعتها وحيّيتها وطمأنتها حتّى قالت لي مضطربة:

ـ لا أدري كيف جئت.. كيف أطعتك.. إنّني مضطربة...

فهدّأت من خاطرها وسكّنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتّى أفرخ روعها واطمأنّت.

لقد تحدّثنا طويلًا، بل طويلًا جدًّا، ولو أردت أن أسطّر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتنى الأسطر؛ فحسبك أن تعلم أنّها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر، مهذّبة الطباع، وإن كانت تغلب عليها حدّة الإحساس وتوقّد العاطفة والذهاب مع الخيال. وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجاريتها بخفّة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عهد الميثاق، وعند الافتراق تناولتُ منها قبلة خلتُ لحلاوة جدّتها أنّها أوّل قبلة تنالها شفتاي...».

انتهى الأمر، وتبدّدت الأحلام وخابت الآمال وقضت على قلبه الذي انتهى طويلًا بأفراح الحبّ أن يتجرّع آلام اليأس والخيبة.

وانقطعت عنه رسائلها ولٰكنّه كان على علم متّصل بأحوالها من رسائل صديقه التي جاءته تترى.

وقد كتب إليه في إحداها:

«وأنا ـ باختصار ـ سعيد جدًّا، فحياتي مليئة بالبهجة والمسرة، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة في هٰذا المنفى السحيق، وإنّي كلّما أذكر أنّي سأُحرم هٰذه المتعة بعد شهر يشيب شعري من الهول، وأضمّها إلى صدري بشغف، وألتهم منها قبلات ملتهبة كأنّي أختزن منها ما أعود إليه عند الفراق. أمّا هي فتعتقد أنّها لن تعود إلى القاهرة أو أنّها تعود لكي ترجع إلى الأبد، فمن يدريها أنّ لي خطيبة تنتظرني في القاهرة من سنوات طويلة...

وبهٰذه المناسبة أقول لك إنّ عائدة من اللاتي وهبهنّ الله دلالًا وفتنة ولٰكنّها على قدر غير هيّن من الاستهتار والنزق؛ أمّا خطيبتي فشابّة حيّية هادئة الطبع وعلى خلق عظيم، وإنّي أدّخرها للزواج وأنا سعيد».

وكتب إليه في رسالة أخرى:

«معذرة أيّها الصديق عن تأخير غير مقصود؛ والحقّ ماذا أقول لك؟ فالحياة الجميلة هي هي... لقاء فأحاديث، فمداعبات فتقبيل وعناق فوداع ولقاء. إنّها غدت مجنونة بي، وكلّما مرّت ساعة اشتدّ بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها: أن أذهبْ إلى والدي وخاطبْه في حبّنا لأكون لك طول العمر.

إنّها أمنية طبيعيّة ولٰكن ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه..».

ثمّ كتب إليه بعد حين.

«قوّمت الألفة تلعثم الحياء وصيّرت التلميح تصريحًا وأمستْ عائدة تلحّ على أن أكلّم أباها لتتّخذ علاقتنا الصيغة الشرعيّة المقدّسة، وكانت حياتي تكون السعادة نفسها لولا هٰذه المنغّصات.

والحقّ أنّي أجد بين يديها سعادة صافية جعلتني شديد العطف عليها، وبعثت في الضمير ألمًا مبرّحًا. وإنّه ليسوءني ما أبيّت لها من نيّة الغدر والهجر لأنّي في الحقيقة لم أرَ فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها في هٰذا المنفى القصيّ. وما أشبه غرامي هٰذا بغرام الرحّالة الجوّاب تتعدّد وعوده تعدّد ما يجوبه من البلدان. وما يثير النفس يا صديقي أنّي أوّل أمس على

أثر عودتي من لقائها ـ جلست إلى مكتبي شاردًا أقلّب بعض الكتب فـما راعني إلّا ديـوان شـوقي تنشقّ صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها، هي صورة خطيبتي بوجهها الصبيح الجميل وقد سطّر على ظهرها بخطّ جميل «تذكار الوفاء» فكأنّه سوط عذاب ألهبني نارًا، ألا فليغفر الله ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر أيّتها الحبيبة! والحقّ لقد اضطرب فؤادي وألقيت على الصـورة نظرة ذعـر سريعة ثمّ أخفيتهـا عن عينيّ أو أخفيت عينيّ عنها لأنّه وقع في نفسي أنّها تعلم بخبيئتي وأنّها تصوّب نحوي نظرة لا تعيش أمامها الخيانة».

وكتب إليه في رسالة أخرى يقول:

«لست فتًى عصريًّا كما كنت أعتقد، ولو أنّي كنت كذٰلك لما هالني الغـدر ولأكبرت عـلى نفسي الخيانـة ولسهُل عليّ اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيّـات الصباح والمساء، ولهٰذا تجدني معذّبًا موزّع القلب فلا أنا بالراضي على نفسي لأنّي نكثت ميثاق خطيبتي ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حبّ عائدة الذي رماني تفانيها في هاوية من الندم.

ولا يخفى عليك أنّ الملل عرف طـريقه إلى نفسي وأنّي بتّ منه في سقام وقد كان ذٰلك مقدورًا ولٰكن ما الذي عجّل به!.. لعلّه ذكرى خـطيبتي أو لعلّه أنّي أقبلت عـلى عائـدة إقبال منهـوم جـائـع فـامتصصت حلاوتها أو ربّما كان ذٰلك لأنّ جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصيّة ذات بهاء وجلال».

ثم كتب:

«أمسى اللقاء غير ذي متعة، لأنّي من ناحيـة بتّ أعاني من السأم وإرهاق الضمير، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصرّ على مخاطبتي في شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هٰذا الموضوع فرمت بي في الحرج والحيرة، وينتهي موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرّب المفضوحين».

وأخيرًا كتب إليه يقول:

«لأوّل مـرّة أخلف الميعـاد، وإنّي لأعـذر نفسي وأغبطها، وأرجو أن تفهم الفتاة أنّ هٰـذا منّي إعلان بالقطيعة، ولم يكن من هٰذا بدّ بعد أن بلغنا في علاقتنا موضعًا ينبغي أن يتقرّر فيه المصير، فإمّا إلى يمين وإمّا إلى شمال، وما كان ينبغي لي أن أختار من جديد، وما أحببت ذٰلك قطّ فإنّ خطيبتي تنتظر أوبتي بفارغ الصبر وهي أكرم على نفسي من هٰذه الفتاة التافهة الـثرثارة التي لم يميّزها الله إلّا بمظاهر الجمال المبتذل لا يلبث أن يتبخّر أثره في الهواء. ومهما يكن من أمر فلن ينقضي أسبوع حتّى تكون الآنسة عائدة في طريقها إلى حيث ألقت».

***

قرأ جميع هٰذه الرسائل ـ رسائل صـديقه وقـاتله ـ بإمعان شديد.

وكانت تتسلّط على نفسه في ذٰلك الوقت عاطفتان: عاطفة حزن عميق وشعور حادّ بالخيبة والغيرة وانهيار الأمـل جعلته لا يـذوق لذّة في اليقـظة ولا راحة في السهاد، وعاطفة تشفٍّ وانتقام أن تنتهي بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهيـار صرح سعادة...

ولم يفرّط في واحدة من هٰذه الرسائل التي سجّلت تاريخ أكبر هزّة عنيفة امتحن بها شبـابه فجمعهـا في رزمة وحفظها في حُقّ عاجيّ جميل ووضعها في مكان أمين وانتظر...

جـاءته رسالة مقتضبـة من عائـدة نفسهـا تعلنـه بقدومها وترجو أن يذهب للقائها في موعدهما المعهود عند العصر...

وفكّر في أمره طويلًا، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتّى انتهى من أمره إلى تدبير، فذهب إلى الموعد في الساعة المعهودة، ولم ينتظر هٰذه المرّة لأنّـه وجـدهـا في انـتظاره، واستقبلته بيـدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة، فضمّها بـين ذراعيه ولثم شفتيهـا وهو يبتسم ابتسـامة كلّفتـه غاليًـا من الجهد وضبْط النفس.

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان في الأيّام الخوالي السعيدة، وسمعها تقول بفرح فائض:

ـ وأخيرًا.

فـردّد قـولهـا: «وأخـيرًا». ثمّ نـظر إليهـا بعينـين

مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه: يا عجبًا! ما أقدركنّ أيّها النساء على إخفاء مشاعركنّ وتكلّف ما ليس بكنّ!

وانطلقت هي تقول:

ـ أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عنّي طوال هٰذه المدّة الثقيلة لا أرجعها الله.

ـ الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن شغلك عن الكتابة إليّ.

ـ أتسخر منّي؟.. آه لو تعلم كم كانت تكلّفني الرسالة التي أكتبها إليك! كنت أتسلّل إلى مكان قصيّ بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمّي... فيجدّون في أثري ويبدّدون عزلتي ويفزعون أخيلتي المنسجمة وعواطفي الحارّة، فإذا انتهيت منها احترت كيف أسلّمها إلى صندوق البريد.

ـ ألم يكن الخروج هيّنًا عليك..

ـ أحيانًا مع عمّي.

ـ لِمَ لَمْ تخرجي في الصباح وعمّك في عمله والجوّ خالٍ!.

ـ لو فعلت لكان أمرًا مثيرًا... والشبّان هناك جائعون أرذال عديمو الشرف.

ـ يا سلام...!

ـ نعم يا عزيزي..

ـ أرى عذرهم بيّنًا... فمن يطالع هٰذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحبّ قلبه؟ ولٰكن ماذا صنعوا معك حتّى استحقّوا عندك هٰذا الحكم القاسي؟

فصمتت لحظة ثم قالت:

ـ إنّها صغائر مألوفة لا يني عنها الشبّان.. ولٰكنّها ليست بذات بال... فلندع هٰذا الآن... فاعتقادي أنّه لدينا ما يلذّ لنا حديثه أكثر من هٰذا..

ـ طبعًا... طبعًا.. ولٰكن واأسفاه قد قُدّر عليّ أن أُحرم هٰذه اللذّة الليلة... لأنّ أمّي مريضة وينبغي أن أكون إلى جانبها سريعًا، فلنؤجّل هٰذا الحديث الممتع إلى المرّة القادمة.

فنظرت إليه قلقة وسألت:

ـ ما لك؟ لست كعهدي بك! تقول إنّ أمّك مريضة؟ لا بأس عليها... أمضطرّ أنت إلى الذهاب إليها حالًا؟

إنّه يحسّ برغبة شديدة تدفعه إلى الانفجار لينفّس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقده المدفون، ويودّ لو يجبه هٰذا الرياء بما يمزّق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة، فمن حقّه أن يصبّ جام غضبه ويثأر لآلام قلبه ويمحق الخيانة والمكر السيّء.

ولٰكنّه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه، وكان بطبعه هادئًا رزينًا كتومًا يبذّ فيه العقل الهوى وتتغلّب لديه الحكمة على الثورة، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتّى أسكنها وقال بهدوء غريب:

ـ إنّي تعب مهموم مكدود الذهن، ولولا شدّة شوقي لرؤيتك، ما هان عليّ أن أغادر أمّي، وهي طريحة الفراش.. فلنفرغ من هٰذا اللقاء ولو على مضض.. والآن اسمحي لي أن أقدّم إليك هديّة جميلة. هٰذا الحُقّ العاجيّ... ورجائي ألّا تمسّيه إلّا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظَيْ بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء... وإلى اللقاء القريب أيّتها الحبيبة...

مِن مُذكّرات شابّ

٢ يونيو:

هٰذا يوم طيّب، حصلت على البكالوريوس وتُوّج كفاحي الأوّل بالنجاح فتنفّست الصعداء، لأنّه من الحقّ أن أقول إنّ حياتي المدرسيّة كانت شاقّة غير مأمونة العثار، وإنّي تحمّلتها على مضض متعوّذًا بالصبر وقليل من أقراني من يصدّق أنّ رئيس فرقة كرة القدم بالخديويّة وبطل السباحة والغلام الشاطر نال البكالوريا فضلًا عن البكالوريوس.

٥ يوليو:

عدنا اليوم - أنا ووالدتي - من الإسكندريّة بعد قضاء شهر في ضيافة عمّتي، وانتقل بي الفكر إلى قريبي سعادة ش. ع. بك ففي جاهه وفي منصبه سحر يفتح لي أبواب الحكومة.

٦ يوليو:

زرت قريبي في قصره..

هنّأني وتحدّث معي مليًّا ثمّ بغتني بهٰذا السؤال: وما هو بكالوريوس اللغة الإنجيليزيّة هٰذا؟» وأجبته عمّا يسأل عنه متذكّرًا قول القائل: إنّ أصعب التعريفات ما خصّ المسائل البسيطة. على أنّه هزّ رأسه استهانةً وقال لي: «كان أَوْلى بك أن تدرس علمًا من العلوم فعصرنا عصر علم وعمل، إنّي لأتساءل كيف يمكنني مساعدتك؟»

وقلت وأنا لا أدري: «أيّ وظيفة يا سعادة البك» فضحك الرجل وقال: «لو كنت مهندسًا مثلًا ما وجدت مشقّة في وضعك في المكان اللائق بك. ولكن ماذا تفعل الحكومة بالأدب والتاريخ؟».

٢١ يوليو:

هل يصبح هٰذا اليوم من الأيّام التي أؤرّخ بها؟

ذهبت إلى حديقة صولت لمقابلة صديق من السعداء (أي الموظّفين) فجلسنا نتحدّث في السياسة والرياضة والزواج - وصديقي من المتزوّجين أيضًا - ثمّ لفت ناظريّ إلى مائدة غير بعيدة جلس إليها كهل وفتاة في مقتبل العمر ثمّ قال لي إنّ الرجل هو: ح. و. بك من كبار موظّفي المعارف وأنّ الفتاة كريمته، ثم قال لي مبتسمًا: «هٰذه الفتاة تعدّ بحق جسرًا ممهّدًا لوظيفة محترمة» واتّجه بصري مرّة أخرى إلى البك وإلى الفتاة خاصّة. لم تكن ممّن حبتهنّ الطبيعة بنعمة الجمال ولكنّها رشيقة معتدلة القوام.. لم أشعر بنفور منها ولا ميل إليها.. ليست جميلة ولٰكنّها ليست قبيحة.. وهنالك الروح والعقل والتربية والأصل الطيّب.. وهنالك الوظيفة..

وعدت إلى منزلي وأنا أفكّر..

٢٥ يوليو:

جذبتني حديقة صولت فاتّخذت منها مجلسًا مختارًا كلّ مساء، وغالبًا ما أقضي سهرة طويلة منفردًا. من التجاوز أن أقول منفردًا فعن يميني أو يساري أو أمامي يجلس البك وكريمته، والحقّ أنّي لم أخترع هٰذا المجلس مدفوعًا برأي رأيته ولٰكن بمشاعر غامضة، لم تتمخّض بعد عن فكرة واضحة، تاركًا توضيحها لمعترك التجربة نفسه، فلم يخْفَ أمري عن عيني الفتاة وإن بدا والدها كأنّه لم يبصرني قطّ، والتقت أعيننا مرارًا، وللأعين لغة معجمها الغرائز والأحاسيس، فباتت هٰذه المغازلة الصامتة عادة جميلة، وإخالها أمست مشغولة بي، أمّا أنا فأحسّ نشوة ظفر واهتمامًا مشوبًا بحبّ الاستطلاع.. ترى هل يمكن أن أحبّ هٰذه الفتاة؟..

لا أجد جوابًا، فالحبّ كما يعرف أحيانًا من أوّل نظرة

قد لا يعرف ولا يكتسب إلّا بطول العشرة..

٢٨ يوليو:

بتنا صديقين صامتين. وقد حرثت الأرض وسمّدتها. فما إن تلقى المودّة حتّى تنبت شجرة الحبّ المورقة. وامتلأت نفسي ثقة فصحّت عزيمتي على السير في الطريق حتّى نهايته، أي حتّى أخطبها إلى والدها.. ولٰكن ينبغي أن أظفر بقلبها حتّى إذا لم أرق في عيني البك وجدت في عاطفتها عونًا لا ينبذ له إرادة.. ولٰكن هل يعدّ عملي هٰذا نذالة؟.. هل.. من الخسّة أن أخطب فتاة لأجد وظيفة؟.. ما وجه الاختلاف بين هٰذا وبين أن أخطبها لأقضي وطرًا أو أنجب ذريّة؟.. فهٰذه الغايات جميعها وسائل في ذاتها لإرضاء غرائز ثابتة، تشبع الوظيفة واحدة منها ليست بأحطّها على الإطلاق.. ترى هل يقوم تفكيري على أساس صحيح من الحقّ أم إنّ عاطفتي تستخدم العقل والمنطق في تبرير هناتها؟..

٦ أغسطس:

ذهبت اليوم لمقابلة حضرة صاحب العزّة ح. و. بك فأدخلني خادم نوبيّ إلى فراندا تشرف على حديقة الفيلّا الغنّاء.

وجاء البك بعد دقائق في ثوب حريريّ فاخر فسلّم عليّ سلامًا حارًّا أذهب عنّي الارتباك وردّ إليّ جناني. وقدّم لي سيجارة. ثمّ تفحّصني بنظرة ثاقبة: وأخذنا في الحديث فسألني عن مؤهّلاتي وعمّا أنتويه لمستقبلي؟ فقلت له: إنّي أروم الاشتغال بالتدريس، فسألني عمّا إذا كنت حاصلًا على دبلوم التربية؟ فأجبته بالنفي.. ولٰكنّي أكّدت له أنّ كثيرين من أقراني اشتغلوا بالتدريس بغير هٰذا الدبلوم ولٰكن بالوصايات التي لا تردّ، فهزّ رأسه هزّة لها معناها وقال: «إنّي أرجو لك كلّ خير» ثمّ أرسل في طلب ابنته، فلم أتمالك أن خفق قلبي وشعرت بحرارة الاضطراب تلفح وجهي. وجاءت الشابّة، مرتدية ثوبًا أبيض يكشف عن ذراعيها ناشرة في الجوّ رائحة طيّبة مخدّرة فراعني جمال جسمها وحيويّته. وقدّمها إليّ قائلاً: «آنسة سعاد.. ابنتي» وقدّمني إليها وأخبرني أنّها متخرّجة من الجامعة الأمريكيّة وأنّها أستاذة في الأدب الإنجليزيّ مثلي، وأنّ أمّها متوفّاة، ثمّ اقترح ضاحكًا أن يكون حديثنا بالإنجليزيّة - وهو من خرّيجي جامعة إكسترا - فتحدّثنا طويلًا، حديثًا قريب التناول ولٰكنّه لذيذ ممتع. والواقع أنّ سحر النساء يتجلّى فيما ينفثن في الحديث التافه من لذّة.. وقد طبت نفسًا.

١٠ أغسطس:

عدت إلى مقابلة البك مرة أخرى فقال لي بلهجة دلّت على الأسف: «لا توجد وظائف خالية لتدريس اللغة الإنجليزيّة» وتريّث قليلًا ثمّ استدرك: «ولٰكن توجد وظيفة مدرّس لغة فرنسيّة.. هل تجيد اللغة الفرنسيّة؟» والواقع أنّ معلوماتي في الفرنسية تعادل معلومات طالب البكالوريا أو هي كانت كذٰلك قبل أربع سنوات. ولٰكنّي وجدت نفسي حيال وظيفة محترمة درجة سادسة وربّما بعثة أيضًا، فأجبته بجسارتي الطبيعيّة: «إنّي أجيد الفرنسيّة يا سيّدي»، فقال الرجل بسرور. «انتهينا يا بطل».

١٤ أغسطس:

يوم جميل اصطحبت «سعاد» للنزهة فتمشّينا في جزيرة الروضة جنبًا إلى جنب. وهٰذه أوّل مرّة آخذ فيها حذري في محادثة فتاة، فلا يخفى أنّها مثقّفة ذكيّة ذات تجارب، كثيرة الاختلاط بأفاضل الرجال من أصدقاء والدها. فقلت لنفسي إنّه يحسن ألّا أتملّقها تملّقًا رخيصًا مبتذلًا. وجرى الحديث بيننا فقلت لها إنّي سعيد بمعرفتها معجب بثقافتها وذكائها. ثمّ شعرت بأنّي لم أقل كلّ ما ينبغي أن يقال وألحّ عليّ شعوري فقلت إنّ لها حسنا يروقني. ولٰكنّها حدجتني بنظرة ذات معنى وقالت لي مبتسمة: «كلّا لست جميلة البتّة» فقلت لها مستعينًا بالجدل على مداراة عواطفي: «سنظلّ نختلف في الجمال كما اختلف الذين من قبلنا.. ولٰكن حسبي ما تقول النظريّة الذاتيّة، فجمال امرأة هو ما يطيب لي منها.. وأهمّ الأشياء جميعًا أن تلقى حياتنا المشتركة قناعة وسعادة». فضحكت ضحكة رقيقة وسألتني كالمتهكّمة: «أقصيدة غزل أم رثاء»! فقلت بلهجة دلّت على الإخلاص والصدق:

«لا استحققتِ الرثاء أبدًا»! ثمّ صارحتها بما زعمت أنّه رأيي في الحبّ والزواج وأسهبت في ذلك إسهابًا وتعمّدت أن تدلّ لهجتي على البساطة والإخلاص.. وأصغت إليّ بكلّ جوارحها، ولم تواصل الصمت فاشتركت في الحديث، وكأنّما تعبنا بعد ذلك فسرنا صامتين وكلانا مغرق في أفكاره، وعلى حين غرّة ضغطت على يدها وقلت لها همسًا بالإنجليزيّة «أحبك» فتورّد وجهها واضطرب جفناها.

والآن ـ وأنا منفرد في حجرتي ـ أذكر حذري بسخرية واستهزاء.

١٥ أكتوبر:

نزلت الميدان ولا سلاح لي إلّا جرأتي والثقة المكتسبة من نفوذ صهري وقد داخلني شيء من الطمأنينة حين أيقنت أنّي سأدرّس مبادئ بسيطة سهلة. أمّا العقبة الحقيقيّة ففي النطق والكتابة ولا أدري شيئًا عمّا يخبّئه المستقبل لي من الصعوبات.. بدأت الدرس بتوجيهات عمليّة كما هو مقرّر في برنامج الدراسة فجعلت أقول لهم بعض العبارات التي حفظتها عن ظهر قلب مستعينًا بتفهيمها بالإشارة مثل: قوموا، اجلسوا، افتحوا الشبّاك، أغلقوا الشبّاك، وقد لاحظت أنّ تلميذًا ـ من الجالسين في الصفّ الأوّل ـ يحسن الفهم، فأثنيت عليه فما راعني إلّا أن وقف وقال لي جملة بالفرنسيّة في وضوح وسرعة، فلم أفهم شيئًا وبهتّ، ولكن لا أظنّ أنّه بدا على وجهي شيء ممّا يقوم في نفسي، وتطوّع تلميذ ساءه ما نال قرينه من الظفر بإخباري بأنّ أمّه فرنسيّة، وساءني الخبر، وأسفت له في نفسي وأردت أن أتّقي شرّه فنهرته قائلًا: إنّه لا يجوز أن يتكلّم قبل أن يؤذن له.

هٰذا رقيب لم أكن أتوقّعه يذكّرني وجوده بالمثل القائل «في كلّ خرابة لنا عفريت».

٢٧ أكتوبر:

الحياة شاقّة لا لذّة فيها. إنّي أدرّس وأنا قلق، وأصحّح مئات الكرّاسات، ثمّ أذاكر كأنّني تلميذ من التلاميذ، فمن يصدّق بعد هٰذا أنّي أوشك أن أختم شهر العسل. وكيف أطمع في أن تطيب لي الحياة.. وما يخفى شيء عن عيني زوجي فهي تعلم بمتاعبي جميعًا. وقد أقنعتها بضرورة سفري في بعثة فاقتنعت ووعدت بدورها بإقناع والدها فكلانا لا يمكن أن يتذوّق طعم الحياة الحلو إذا استغرقني ذاك التيّار العنيف من العمل والقلق وعدم الثقة بالنفس.. ومع هٰذا فلشدّ ما يحسدني أناس على زيجتي وعلى الدرجة السادسة!

٧ نوفمبر:

حضر درسي اليوم مسيو روبير مفتّش اللغة الفرنسيّة..

وكنت أتوقّع حضوره بين يوم وآخر أستفزّ حنانه القلق، لقد أمكنني أن أُلزم التلميذ طاهر ـ ابن الفرنسيّة ـ حدّ الصمت ولُكن كيف أنجو من مخالب هٰذا المفتّش.. وجاء الرجل واختار موقفه في نهاية الفصل وجعلت أشرح الدرس بعناية فائقة مختلسًا ـ بين حين وآخر ـ النظرات من وجهه المعتصم بلحيته السوداء المجلّلة بالمشيب، فلم أستطع أن أنفذ من عينيه الجامدتين إلى حقيقة مشاعره، ورأيته يتحرّك متمهّلًا ويفحص بعض الكرّاسات فمضى قلبي يروح معه ويجيء ثمّ نظر نحوي وقال بصوت مرتفع «مسيو» فأمسكت واتّجه نظري نحوه وقد تملّكني الارتباك، فطلب إليّ أن أوجّه إلى التلاميذ أسئلة عن الموضوع فصدعت بالأمر حامدًا الله على أنّه لم يدعني إلى محادثته علانية، ثمّ وجّهت عدّة أسئلة في لهجة مضطربة، خصّصت التلميذ طاهر بأكثرها.

وفي نهاية الدرس خلا الرجل بي، وحدجني بنظرة ثاقبة ثمّ سألني عن مؤهّلاتي، فأهاج سؤاله دمي وأجبته بالحقيقة، فلم يخف دهشته، واعتذرت عن الواقع بأنّي لا ينقصني إلّا التمرين على الكلام فقال لي بلهجة باردة. «ولكن يا سيّدي ليس المدرّس إلّا معلّم كلام» فغصصت بقوله وسكتّ.

وفي هذه الساعة التي أكتب فيها تجلس زوجي إلى أبيها تلحّ عليه في وجوب سفري بالبعثة.

١٥ يونية:

أمّا هٰذا فيوم عصيب سأذكره ما حييت، ففي

صباحه كان امتحان الإملاء للّغة الفرنسيّة وفي مسائه كان الامتحان الشفويّ وكان عليّ أن أقف على منصّة أنا ونفر من المدرّسين الفرنسيّين لنملي على الممتحنين، فاتّخذت مكاني مضطرب النفس خافق القلب لا أدري كيف يعلو صوتي بنطق كلمات لا أحسن نطقها على مسمع من المدرّسين الفرنسيّين والمراقبين ورئيس اللجنة. وشعرت بحرارة تلفح وجهي ورأسي وأوشكت جسارتي أن تخونني، وكان ترتيبي في الإلقاء الثاني، بعد مسيو بوابيه مباشرة، فقست المسافة التي تفصل بيننا بعينيّ وأرهفت سمعي وألقيت به إليه لألتقط حركاته الصوتيّة التقاطًا دقيقًا. وبدأت الإملاء فاستجمعت انتباهي في أذني اليمنى متناسيًا ما حولي، وأملى الرجل عبارته الأولى فحاكيته مخرجًا مخرجًا، ولٰكنّ الظاهر أنّ صوتي لم يرتفع للدرجة المطلوبة ولم يتّضح كما ينبغي لأنّي سمعت ضجّة من حولي وأصواتًا تهتف بي: «مرّة ثانية من فضلك». فتميّزت من الغيظ والحنق لأنّه لم يبق في رأسي من النطق الصحيح إلّا أصداء واضطررت إلى الاعادة مخاطرًا.

وتكرّر الاملاء فالإصغاء فالترديد فالعذاب وما لبثت أن أدركت أنّ أنظار بعض المراقبين متّجهة صوبي فتضاعف اضطرابي وحرجي، ولمحت واحدًا منهم يبتسم ابتسامة تدلّ على الهزء والسخرية، فغلا دمي، وتركت المنصّة أخيرًا في حالة إعياء وألم شديدين.

ولم يمضِ على عذابي هٰذا بضع ساعات حتّى عدت مرّة أخرى إلى المدرسة لأمتحن الشفويّ، وكان الممتحنون مقسّمين إلى لجان، تتكوّن كلّ لجنة من مدرّسين. وعرفت أنّي في لجنة (جـ) ووجدت زميلي ينتظرني بها وهو شابّ فرنسيّ في مقتبل العمر، فحيّيته بلطف وابتسمت إليه ما وسعني اللطف والتودّد، ولم يداخلني شكّ في عجزي عن لعب هٰذا الدور الجديد فرأيت أن أظفر بوسائل أخرى. . جالست الشابّ وقدّمت له سيجارة فاخرة، وطالعته بنظرة منكسرة حزينة، فسألني عمّا بي فأخبرته بأنّي متعب مريض. وهٰكذا فعلت كما يفعل التلاميذ الكسالى استدرارًا لرحمة الممتحِنين وتساهلهم. ولمّا بدأ الامتحان قدّمت له سيجارة أخرى وطلبت إليه أن يعفيني من امتحان المناقشات رحمة برأسي مكتفيًا بأن أمتحن التلاميذ في المطالعة، وقبل الشابّ بسرور، وأخرجت علبة السجائر الفاخرة، ووضعتها على حافة القِمَطْر مفتوحة ثمّ دعوت فرّاشًا وطلبت القهوة.

ولا أدري كيف انتهى هٰذا اليوم العصيب، وبه أختم أشقّ عام في حياتي. . .

١٥ يوليو:

علمت أنّي اخترت بين أعضاء البعثة وعمّا قليل تعلن أسماؤنا في الصحف فالشكر والحمد لله وسأعود من فرنسا بعد عامين مستردًّا ثقتي بنفسي فلا يضطرب قلبي للقاء مفتّش أو امتحان شفويّ، وحسبت أوّل وهلة أنّي مسافر وحدي ولٰكنّ صهري أخبرني بأنّ زوجي ستسافر معي.

فليكن، لست على أيّة حال شقيًّا، وهبني تزوّجت من أجمل فتاة في مصر فهل كان جمالها بقادر على أن يحتفظ بسحره وأسراره أبد الدهر. . إنّ للعادة سلطانًا لا يقاوَم فهي تجعل من الغريب الذي ينفّرنا شذوذه شيئًا مألوفًا وربّما محبوبًا، كما تهبط بالجمال من عرشه وتُفقده جدّته وفتوّته، السعيد السعيد مَن راضَ نفسه على الواقع والتمس أسباب الرضا والقناعة حيثما كان!

الهذيان

أوشك الفجر أن يطلع، وتصايحت الديكة إيذانًا بطلائع النور، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت، كأنّما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوّه الإشفاق الأليم إلى الهمود. كانت ترقد على الفراش امرأة شابّة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خدّيها وشفتيها وتضعضع كيانها أنّها تعاني وبال مرض يهتصر شبابها. وعلى فراش قريب رقد شابّ في مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد. ويأبى القلق أن تلتقي أهدابها، يطالع وجه المريضة في حزن ثمّ يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الحنان في عينيه الذابلتين ويتمتم في رجاء صادق: «اللّهمّ صن حياة الأمّ المسكينة... وطفلتنا البريئة».

وكان الشابّ من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس النديّة بالرحمة والعطف. وكان على عهد صباه يلذّ لرفاقه أن يدعوه «رجل البيت»، لِما طُبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية، والاشتراك في المظاهرات التي تستهوي أقرانه، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب: فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون، أو في السطح بين الدجاج والحمام؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معًا إلى السينما. ولذلك أخذ يفكّر في الزواج تفكيرًا جدّيًّا منذ اليوم الذي عيّن فيه مهندسًا بمصلحة الأشغال العسكريّة. وراح يقتصد من مرتّبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي. فلم يكد يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتّى تزوّج، ولم يدهش أحد أن تنعطف هٰكذا سريعًا إلى الزواج هٰذه النفس المطمئنّة إلى الحياة البيتيّة منذ نعومة الصبا ولكنّه كان سيّئ الحظّ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتّى أصيبت زوجه بحمّى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئنّ وارتجّت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأوّل للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع، واندفع إلى استدعاء أعظم الأخصائيّين من الأطبّاء من حملة الباشويّة والبكويّة غير مُبْقٍ على مال أو ضانٍّ بثمين، حتّى اضطرّ إلى بيع الراديو وساعته الذهبيّة، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأدّاه إلى آخر قطرة... وبالغ في ذٰلك، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة. وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطبّاء ويسألهم، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ويسأل العرّافين، ويزور أضرحة الأولياء ويفسّر الأحلام، ملتمسًا الطمأنينة في مظانّها جميعًا.

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهدًا قلقًا لا يغمض له جفن ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟... وكانت هي مسكينة تستحقّ الرثاء، تضطرب بين النوم والقلق واليقظة الحائرة، وبين النزاع والهذيان، وما هٰذا الهذيان!... إنّه ظاهرة عجيبة تدلّ على أنّ الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطّع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطّب التهاب عينيه المحمرّتين بنظرة حنان. وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة: «صابر» فهرع إليها متسائلًا: «نعيمة.. هل تحتاجين إلى شيء؟» ولكنّه أدرك أنّه خدع لأنّها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة، فعلم أنّها ماضية في هذيانها الذي لا ينتهي،

فعاد إلى سريره، وما كاد يرقد مرّة أخرى حتّى سمعها تقول وكأنّها تحادثه: «صابر... أنا متألّمة خجلة» فهزّ رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه: «أنت متألّمة بغير شكّ، أعانك الله على ما أنت فيه، ولٰكن مِمَّ تخجلين؟ إنّ هٰذا الابتلاء لا يُخجِل أحدًا وإن كان يحزننا جميعًا» وظنّ أنّها متألّمة لما يتكلّفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هٰذا الشعور من آي اليقظة والشفاء، واستدركت المرأة تقول:

«زوجي أحسن الأزواج؛ أمّا أنا فشقيّة.. لست أهلًا لوفائه».

فتنهّد الشابّ حزنًا وتمتم قائلًا بصوت غير مسموع: «أنتِ أهل لكلّ خير». وأراد أن يناديها لعلّه ينتشلها من تيّار أفكارها المحمومة، ولٰكنّها حرّكت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق: «راشد... كفى وابتعد عنّي... ابتعد ودعني...» وكان يهمّ بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه. وحملقت عيناه المسهّدتان، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل:

«راشد! من راشد هٰذا؟» وكان يشعر شعورًا باطنيًّا بأنّه لا يسمع هٰذا الاسم لأوّل مرّة، وكأنّما سبق أن آذى مشاعره. وأسند جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه، وكأنّ صاحب هٰذا الاسم يعيش في الظلام، فقد رآه وعرفه، وأحسّ لذٰلك رجفة تسري في مفاصله... راشد أمين أو أمين راشد - لا يذكر - شابّ نافسه في طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أنّ والدها فضّله هو واختاره لكان قد تزوّج منها. وقد تذكّر أنّه رآه مرّة وإن كان لا يحفظ من صورته أيّ أثر؛ ورفع رأسه مرّة أخرى ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدّقان؛ ورغب رغبة حارّة في أن يستزيدها ويستوضحها. ولٰكنّه لم يَدْرِ كيف يحثّها على الكلام، ورأى شفتيها تتحرّكان في ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعاني جزعًا مجنونًا فسمع صوتها يقول فيها يشبه الأنين:

«مَن يقول هٰذا.. أفّ.. والخيانة.. راشد.. صابر.. الخيانة شيء قذر..» فشبك كفّيه وشدّهما على صدره بحالة عصبيّة كأنّما يضرع إلى شيء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع، وذهل بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه في وهمه حتّى ملأ الفراغ الذي أمامه فثقل عليه وسمج، ودوّى صدى صوتها في أذنيه، فصار كطنين لا ينقطع، وثقل تنفّسه ويبس حلقه... ما هٰذا الذي تتكلّم عنه؟! وما هٰذه الخيانة التي أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمّى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان!! ولٰكن كيف يصدّق أذنيه وما بذل زوج لزوجه عشر ما بذل من الرقّة والمودّة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله من الصفاء والإخلاص! فكيف انطوى هٰذا على أقذر ما تبتلي به الضمائر والنفوس؟ ربّاه... إنّها تقول أنّ الخيانة شيء قذر، وإنّها لكذٰلك، ولٰكن لا يفزع في هذيانه من قذارتها إلّا من انغمس في بؤرتها. ربّاه... لقد ظنّ أنّ ما ابتلى به من مرض زوجه أقصى ما ابتلي به إنسان، فإذا به بلاء هيّن عابر، لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره. وأحسّ اليأس يحبس أنفاسه، وكان صابر دمث الأخلاق، ليّن الجانب، رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان ولٰكنّه يشلّ حركته، ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه. فيجعله كسيّارة يدفعها محرّكها، وتقيّد الفرملة عجلاتها، ولٰكنّه بالرغم من هٰذا، تحوّل رأسه بحركة عصبيّة إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه في سكون، ودنا منه وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمّج القسمات وأدام إليه النظر، والشكّ والألم يأكلان قلبه بقسوة، ثم تحوّل عنه إلى وجه زوجه كأنّه يسألها ويستوضحها، ودنا من فراشها كالسائر في نومه حتّى التصق به وكانت مغمضة العينين بادية الاصفرار والخور تقلّب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة، جرى فيها بريق القسوة جريان البرق في السحاب الداكن وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هٰذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة، ودمعت عيناه، ولٰكنّ قلبه تحجّر هٰذه المرّة فمال عليها حتّى نسمت عليها أنفاسه وسألها:

«نعيمة.. نعيمة.. ماذا فعل راشد؟» فلم تنتبه إليه ولم تَصْحُ، فرفع صوته وناداها وهو لا يدري: «نعيمة» فبلغ صوته مسمعَيْ أمّها في الحجرة القريبة وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهي تظنّ الظنون وهرعت إليه متسائلة: ما لها.. هل أعطيتها الدواء؟ ولم يكن أعطاها شيئًا وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التي تعانيها ليستنطقها ما يريد فكذب عليها قائلًا في استهانة وقسوة: «نعم هي بخير والحمد لله» وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلّص منها، ولبثت حماته قليلًا: وفي أثناء ذٰلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنّما راحت في نوم عميق فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوّق إلى إيقاظها ولٰكنّه خشي التي في الخارج فمضى بقيّة الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانيّة وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة وبدا عليها أنّها لا تحسّ شيئًا حتّى اهتدت عيناها إليه فدبّت فيها حياة ضعيفة وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير «ما الذي أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هٰكذا؟» فردّ عليها بنظرة جامدة وكانت تبدو ذاك الصباح أشدّ هزالاً وشحوبًا، ولاحت في عينيها نظرة الوداع المخيفة، وكان يشغل باله شيء واحد أسهده الليل ولم يجهل أنّ إثارته خطر يهدّد بالقضاء عليها، ولٰكنّه لم يحسّ سواه ولم يُبالِ غيره. وكان يشعر نحوها ساعته بحنق وكراهية ورغبة في الانتقام فقال بلهجة جافّة: «تكلّمت الليلة الماضية كثيرًا، فشرّقت وغرّبت، وأجرى الهذيان على لسانك كلامًا يحتاج إلى إيضاح» فلم تفهم شيئًا ونظرت إليه بعينين لا تعبّران عن شيء سوى الذهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولٰكنّه منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبث أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضبًا وهو يقول لنفسه: «الطفلة الملعونة تداري فضيحة أمّها وأبيها!» وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدّث نفسه: كان ينبغي أن أعلم كلّ شيء وقد أتيحت لي فرص، لماذا أفرّ من صراخ الطفلة؟ أو من ظهور جدّتها؟ الحقيقة أنّي ضعيف.. ضعيف.. دائمًا يندى قلبي بالحنان والعطف، فما كان أجدر بي أن أكون ممرّضة.. أمّا رجلًا فلا.. لست رجلًا ولست زوجًا... فأمثالي نساء كاملات، أو رجال مغفّلون.. ومع هٰذا هل أنا في حاجة إلى دليل جديد؟ دمّرت حياتي وانتهى كلّ شيء».

وقضى النهار ضالًّا لا يقرّ، يتردّد الألم في صدره مع أنفاسه، وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالًا وأشدّ هزالًا. وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان، وتقصّ عليه ما قاله الطبيب. فلم ينفذ شيء من قولها إلى صدره وعاف الردّ عليها بتاتًا، بل لذّ له أن تقول إنّ الحالة سيّئة، فلتتألّم كما يتألّم، ولٰكن كيف يُفهمها أنّه يعلم كلّ شيء؟ كيف يحادثها في هٰذا الموضوع الخطير وأمّها لا ترضى بمفارقتها في مثل تلك الحال الخطيرة؟. واشتدّ به الحنق، فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعًا فيسمع منه ما امتنع منه سماعه في اليقظة؟ وملأ الفنجان ماء خالصًا ووضعه على فم المريضة فازدردته بامتعاض.. وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة، ولٰكنّ زوجه لم تنم في تلك الليلة ولم تهذ واشتدّ عليها الألم فباتت تئنّ وتشكو وتضطرب. واستدعى الطبيب عند الليل فعاينها ولٰكنّه لم ينصح بشيء، وهمس في أذنه بأنّ الحالة جدّ خطيرة.. وبعد هٰذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها.

وخلا إلى نفسه، وكان الذهول مطبقًا على حواسّه جميعًا؛ لأنّ الموت والخيانة الزوجيّة انتظا تجاربه الشخصيّة معًا في ساعة واحدة دون عهد سابق بهما. وماتت نعيمة ولم يحزن لموتها، ولٰكنّ حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أنّ الحقيقة لم تغب عنه فقال: لم تمت كما يظنّون.. أنا قتلتها.. قتلتها لأنّي منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشدّ ليالي المرض.. «فأنا قتلتها..» وجعل يردّد. «أنا قتلتها». فكان يشعر لها بوقع غريب في نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح.

ثمّ قال مرّة أخرى. «وقتلتني هي حيًّا، وألصقت

اسمي قسرًا بطفلة إنسان سواي.. ولكنّي قاتل فلست إذن مغفّلًا».

وأسند رأسه إلى يده وراح في تأمّل طويل وقد سرى في جسده قشعريرة البرد والخوف.

***

كيف انقضت تلك الأيّام التي أعقبت الوفاة؟.. انقضت في ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثّل لعقل إنسان، ثمّ أعلن عن رغبته فجأة في السفر إلى لبنان انتجاعًا للصحّة والراحة، وكان في الحقّ يفرّ من أفكاره وطفلته. ومضى إلى الإسكندريّة واستقلّ سفينة، والظاهر أنّ نفسه الرقيقة تعرّضت في البحر لأزمة عنيفة هدّت كيانها وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس من الدنيا جميعا وألقى بنفسه في اليمّ خلاصًا من عذابه وآلامه، محتفظاً بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك.

وكان يترحّم عليه المترحّمون فيقولون: «ما رأينا إنسانًا يحبّ زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها، فقضى على نفسه بعد موتها بأيّام.. رحمهما الله».

يقظة المومياء

أجد حرجًا كبيرًا في رواية هٰذه القصّة، لأنّ بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعًا؛ ولو كان مردّها إلى الخيال ما تحرّجت، ولٰكنّها وقعت في عالم الحقيقة وكان ضحيّتها رجل من رجال مصر الأفذاذ المعروفين في الأوساط السياسيّة والأرستقراطيّة. وراويتها الذي أنقل عنه أستاذ كبير بالجامعة، لا يجوز أن يرتقي الشكّ إلى عقله وخلقه، ولم يعرف عنه قطّ مَيل إلى الأوهام والخرافات، ولٰكنّي - والحقّ يقال - لا أدري كيف أصدّقها فضلًا عن أن أحمل الآخرينَ على تصديقها؛ وليس ذٰلك لندرة المعجزات في عصرنا، فممّا لا جدال فيه أنّ عصرنا عصر المعجزات والخوارق، ولٰكنّ العقلاء في أيّامنا هٰذه لا يقبلون أمرًا بغير تعليل، كما أنه لا يستعصي شيء على إيمانهم مع التعليل المعقول. وإنّي حيال قصّة عجيبة لها من دواعي التصديق راوية حكيم وشواهد ملموسة، ولٰكنّ التعليل العلميّ ما يزال يتأبّى عليها، فهلّا أعذر عليّ شعوري بالحرج في تقديمها؟

ومهما يكن من أمر فإليك ما رواه جناب البروفسير دريان «أستاذ الآثار المصريّة القديمة» بجامعة فؤاد الأوّل، قال: في ذٰلك اليوم الأسيف الذي خفق فيه قلب مصر خفقة الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور له محمود باشا الأرنؤوطي في قصره العظيم بصعيد مصر، وأذكر أنّني وجدت عنده جماعة من الأصدقاء الذين كانوا يتردّدون عليه كلّما أسعدتهم الظروف، منهم المسيو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا. والدكتور بيير طبيب الأمراض العقليّة. واحتوانا جميعًا (صالونه) الأنيق البديع الحافل بآيات الفنّ الجميل من لوحات وتماثيل كأنّها احتشدت في تلك البقعة لتؤدّي تحيّة العبقريّة الحديثة إلى ذكرى عبقريّة الفراعين الخالدة تحت أطلال الوادي، يتوهّج نورها خلل ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألّقة في السماء، الساري في تضاعيف الليل البهيم..

وكان المغفور له من أغنى أغنياء المصريّين وأوسعهم ثقافة وأسماهم خلقًا وقد قال عنه مرّة صديقنا الأستاذ لامبير: إنّه ثلاث شخصيّات تقمّصت رجلًا، فهو تركيّ الجنس مصريّ الوطن فرنسيّ القلب والعقل، فأدّى تعريفه أتمّ أداء. والحقّ أنّه كان أكبر صديق لفرنسا في الشرق، وكان يعدّها وطنه الثاني، وكان أسعد أيّامه تلك التي قضاها تحت سمائها، واتّخذ أصدقاءه جميعًا من أبنائها سواء منهم من يعيش على ضفاف النيل أو في جنّات السين. وكنت أخال نفسي وأنا في (صالونه) أنّي انتقلت فجأة إلى باريس؛ فالأثاث فرنسيّ والجالسون فرنسيّون ولغة الكلام فرنسيّة والطعام فرنسيّ. وإنّ كثيرًا من الفرنسيّين المثقّفين لا يعرفونه إلّا كهاوٍ فذّ من هواة الفنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجدانيّ الجميل بالفرنسيّة، أمّا أنا فقد عرفته - إلى هٰذا - محبًّا لفرنسا متعصّبًا لثقافتها وداعية لسياستها..

أخذت مجلسي في ذٰلك اليوم إلى جانب الباشا وكان المسيو سارو يقول وهو يتأمّل بعينيه الواسعتين الجاحظتين تمثالًا نصفيًّا برنزيًّا لأنشتَيْن:

- إنّ قصرك يا صاحب السعادة يحتاج إلى تغيير طفيف لكي يصير متحفًا كاملًا.

وقال الدكتور مؤمّنًا على كلامه وهو يتخلّل لحيته بأنامله:

- صدقت فهو معرض دائم لجميع العبقريّات

والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنّانين الفرنسيّين.

فقال الباشا:

ـ الفضل في ذٰلك يرجع إلى ذوقي المعتدل الذي يساوي بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء المدارس، ويهوي تذوّق الجمال سواء أكان بديعه براكستليس أو رفائيل أو سيزان. مع استثناء البدع الحديثة المتطرّفة.

فقلت ناظرًا بطرف خفيّ إلى المسيو سارو وكان يحلو لي دائمًا أن أداعبه:

ـ لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هٰذا الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا..

فضحك المسيو سارو وقال موجّها الخطاب إليّ:

ـ بل لعلّها تستغني عن ناظر المدرسة الفرنسيّ أيضًا..

ولكنّ الباشا قال جادًّا:

ـ اطمئنّ يا عزيزي سارو، فإنّه إذا قدّر على هٰذا المتحف أن يترك الصعيد فسيتّخذ طريقه رأسًا إلى باريس.

فنظرنا إليه نظرة استفهام ودهشة وكأنّنا لا نصدّق آذاننا.

فالواقع أنّ مجموعة الباشا الفنيّة كانت تقدّر بمئات الألوف من الجنيهات، وقد تسرّبت جميعها إلى جيوب الفرنسيّين، فكان غريبًا أن يفكّر في إهدائها إلى فرنسا، وكان يحقّ لنا أن نفرح ونبتهج ولٰكنّي لم أتمالك أن أسأله متعجّبًا:

ـ أحقًّا ما تقول يا إكسلنس؟

فقال الباشا بهدوء:

ـ نعم يا صديقي دوريان.. ولم لا..؟

فقال المسيو سارو:

ـ يا له من حظّ سعيد حقيق باغتباطنا نحن الفرنسيّين، ولكنّي أقول لسعادتك مخلصًا إنّي أخشى أن يسبّب لك متاعب كثيرة..

وأمّنت على رأي المسيو سارو.

وردّد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيهما نظرة ساخرة وسألنا متجاهلًا:

ـ ولِمَه؟..

فقلت بلا تردّد:

ـ ستجد الصحافة في ذٰلك موضوعًا أيّ موضوع!

وقال الدكتور بيير:

ـ وما من شكّ في أنّ الصحافة الوطنيّة عدوّ لك قديم... وهل نسيت يا صاحب المعالي حملاتها المغرضة عليك واتّهاماتها إيّاك بأنّك تبعثر أموال الفلّاح في فرنسا بلا حساب؟!

فصاح الباشا بإنكار:

ـ أموال الفلّاح!

فبادر الدكتور يقول معتذرًا:

ـ معذرة يا باشا... هذا قولهم!

فهزّ سعادته منكبيه استهانة وزمّ شفتيه احتقارًا وقال وهو يثبّت نظّارته الذهبيّة على عينيه:

ـ أنا لا آبه لهٰذه الأصوات المنكرة الوضيعه، وما دام ضميري الفنيّ لا يرتاح لبقاء مثل هٰذه الآيات وسط هذا الشعب الحيوانيّ، فلن تقبر هنا أبدًا.

وكنت أعرف رأي صديقي الباشا عن المصريّين واحتقاره لهم؛ وممّا يُحكى في هٰذا الصدد أنّه تقدّم له منذ عام طبيب مصريّ نابغة حاصل على رتبة البكويّة طالبًا يد ابنته، فطرده شرّ طرد لأنّه فلّاح ابن فلّاح. على أنّي ـ مع موافقتي على كثير من التهم التي يكيلها الباشا لبني وطنه ـ لم أكن أتبعه رأيه إلى النهاية، ولمّا قلت له:

ـ سعادتك شديد النقد.

فقهقه الباشا ضاحكًا وقال:

ـ أنت يا عزيزي دريان رجل وهبت حياتك الثمينة للماضي البعيد، وربّما لاحت لك في غياهبه لمع عبقريّة خلّفها القدماء لا تفتأ توقظ عطفك وحنينك على أحفادهم. ولٰكن شتّان بين الفراعين والفلّاحين، لا يجوز أن تنسى يا صديقي أنّ المصريّين شعب فول...

فضحكت وقلت له:

ـ عفوًا يا صاحب السعادة، ألا تعلم أنّ السير

ماكنزي أستاذ أداب اللغة الإنجليزيّة بكلّيّة الآداب صرّح أخيرًا بأنّه أصبح يفضّل الفول على البودنج؟.

فضحك الباشا، وضحك الحاضرون جميعًا وقال سعادته:

ـ أنت تفهم ما أعني ولٰكنّك تحبّ المزاح، المصريّون حيوانات أليفة طبعها الذلّ، وخلقها التذلّل، وقد عاشوا عبيدًا على فتات موائد الحاكمين منذ آلاف السنين، ومثل هؤلاء لا يحقّ لهم أن يأسفوا على إهداء هٰذا المتحف إلى باريس. . .

فقال المسيو سارو:

ـ نحن لا نتكلّم عمّا يحقّ أو لا يحقّ، ولٰكن عن الواقع والواقع أنّهم سيأسفون (ثمّ قال بلهجة ذات مغزى) وستأسف معهم صحافتهم. . .

ولٰكن لم يبد على الباشا أدنى اكتراث، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتعلة، وربّما كان لأصله التركيّ دخل كبير في تشبّثه بآرائه وعناده واحتقاره للمصريّين. ولم يرد أن نسترسل في ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة بابه، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة الفرنسيّة اللذيذة التي لم أذق مثلها في مصر، ثمّ نظر الباشا إليّ باهتمام وقال:

ـ ألم تعلم يا مسيو دريان أنّي بدأت أنافسك في اكتشاف الكنوز؟

فنظرت إليه مستفهمًا وسألته:

ـ ماذا تعني يا إكسلنس؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون:

ـ على بُعْد أذرع منّا تجري عمليّة حفر جليلة الشأن في حديقة قصري.

فبدا علينا الاهتمام جميعًا، وتوقّعت سماع خبر مثير، وكان لكلمة حفر تأثير خاصّ في نفسي، لأنّي قضيت شطرًا كبيرًا من عمري ـ قبل أن أشتغل في الجامعة ـ أحفر وأنقّب في أرض مصر الغنيّة الساحرة.

وقال الباشا وهو ما يزال يبتسم:

ـ أرجو ألّا تسخروا منّي يا سادة فقد فعلت ما كان يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والمشعوذين ولا أدري كيف رضخت وأذعنت؛ ولٰكن لا داعي للأسف فقليل من الخرافة يريح العقل الكلف بالحقائق والعلوم. ومجمل الحكاية أنّه جاء قصري منذ يومين رجل معروف في هٰذا البلد يدعى الشيخ جاد اللّه، يحترمه العامّة ويقدّسونه، وكم ذا بمصر من المقدّسين، وألحّ في طلبي وأذنت له وأنا أعجب لشأنه، وحيّاني الرجل على طريقته، وبشّرني بأنّه استدل بعلمه الروحانيّ وبكتبه القديمة عن وجود كنز ثمين في باطن حديقتي، وطلب إليّ بتوسّل أن آذن له في الكشف عنه تحت إشرافي، ومنّاني بالذهب واللآلئ في مقابل أن أعده بالحلوان. وضقت به وهممت بطرده ولٰكنّه ضرع إليّ وتوسّل حتّى استعبر وقال لي: لا تهزأ بعلم اللّه ولا تستهن بعباده المقرّبين. فضحكت طويلًا، ثمّ خطر لي خاطر سريع فقلت لنفسي لماذا لا أجاري الرجل في وهمه وأسايره على اعتقاده؟! لن أخسر شيئًا وسأفوز حتمًا بنوع من التسلية، وقد فعلت يا أصدقائي، وأذنت للرجل، وأنا أتظاهر بالجدّ، وها هو ذا يحفر في حديقتي ويعاونه في عمله الشاقّ اثنان من خدمي المؤمنين، فما رأيكم؟

قال الباشا ذٰلك وضحك عاليًا، فضحك الجميع، أمّا أنا فكرّت بي الذاكرة إلى الماضي إلى حادثة مشابهة فقلت:

ـ طبيعيّ أنّكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد اللّه، ولا أنا أستطيع أن أومن به واأسفاه، ولكنّي لا أستطيع كذٰلك أن أنسى أنّي اكتشفت قبر الكاهن «قمنا» بفضل خرافة كهٰذه!.

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألني الباشا:

ـ أحقًّا ما تقول يا سيّدي الأستاذ؟

فقلت:

ـ نعم يا باشا، لقد دلّني يومًا شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض في وادي الملوك وقال لي: إنّه استدلّ بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها، فضربنا فيها بمعاولنا ولم نلبث أيّامًا حتّى اكتشفنا مقبرة «قمنا». . . وهٰذا بلا شكّ من عبقريّات المصادفات.

فضحك الدكتور بيير وقال متهكّمًا:

ـ ولماذا تعلّل ذلك بالمصادفات فتجحد العلم القديم؟... ألا يجوز أنّ الفراعنة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفيّة كما يورثونهم سحنتهم وكثيرًا من تقاليدهم؟

ومضينا نتفكّه بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ومضى الوقت لذيذًا ممتعًا، وعند الأصيل استأذن الضيوف في الانصراف، وأمّا أنا فأعلنت عن رغبتي في مشاهدة عمليّة الحفر التي يجريها الشيخ جاد اللّه، وغادرنا جميعًا الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجيّ لتوديع الأصدقاء، ولم نكد نقطع خطوات حتّى وصلت إلى مسامعنا ضجّة عظيمة واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يمسكون بتلابيب صعيديّ ويوسعونه ضربًا ولكمًا، ثمّ ساقوه بشدّة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم:

ـ يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللصّ وهو يسرق طعام بيميش.

وكنت أعرف بيميش حقّ المعرفة، فهو كلب الباشا العزيز وآثر مخلوقات اللّه بقلبه بعد زوجه وأولاده، وهو يعيش في قصر الباشا منعّمًا مكرّمًا، يقوم على خدمته خدم وحشم، ويكشف عليه طبيب بيطريّ مرّة كلّ شهر، ويقدّم له كلّ يوم لحم وعظام ولبن وثريد، ولم تكن هذه أوّل مرّة يسطو فيها الصعايدة على غذاء بيميش... وكان السارق صعيديًّا قحًّا، يتميّز بالسحنة المصريّة العتيقة، ويبدو على هيئته البؤس والفقر. وقد حدجه الباشا بنظرة قاسية وقال له بعنف:

ـ كيف سوّلت لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟

فقال الرجل بتوسّل وهو يلهث من أثر الجهد الذي بذله في مقاومة الخدم:

ـ كنت جائعًا يا صاحب السعادة ورأيت اللحم المسلوق مبعثرًا على الحشائش فخانتني قوّتي ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى!

فالتفت الباشا إليّ وقال هازئًا:

ـ أرأيت الفرق بين بائسنا وبائسكم؟.. إنّ بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف، أمّا بائسنا فالرغيف ليس عسيرًا عليه، ولكنّه لا يرضى إلّا باللحم المسلوق...

ثمّ التفت مرّة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدّة، وشدّه وصاح بالخدم:

ـ خذوه إلى الخفير..

وضحك الدكتور بيير وهو يسلّم وقال للباشا:

ـ ماذا تفعل غدًا إذا شمّ الصعايدة رائحة الذهب المكدّس في كنز الشيخ جاد اللّه؟

فقال الباشا فورًا:

ـ سأحيطه بسياج من الخفراء كخطّ ماجينو.

وعُدنا ـ أنا والباشا ـ وتبعته صامتًا إلى حيث يشتغل الشيخ جاد اللّه الذي يوشك أن يصير أثريًّا عظيمًا، وكان الرجل منهمكًا في عمله هو ومعاونوه. يضربون الأرض بفؤوسهم ويرفعون الأتربة في المقاطف ويلقونها جانبًا، وكان الشيخ جاد اللّه، تلمع عيناه ببريق حادّ يدلّ على العزم والأمل، وتنبعث في ساعديه النحيلتين قوّة غير طبيعيّة، كان يدنو حقًّا من هدفه الذي هداه إلى سبيله عمله الإلهيّ، فتمثّل لي في شخصه العجيب الإنسان بنشاطه، وإيمانه وأوهامه، والحقّ أنّنا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهامًا ولكنّا نؤمن بها إيمانًا عجيبًا، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية في البداعة والجمال، ألم يخلق أجداد الشيخ جاد اللّه ـ الذي يذكّرني وجهه بتمثال الكاتب المعروف ـ الحضارة الأولى للإنسان؟.. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفي بطنها على السواء؟... أو لم يستوحوا في عملهم وتفكيرهم أوزوريس وآمون؟ وما أوزوريس وآمون؟. لا شيء في الغالب.. أمّا حضارتهم فكانت شيئًا أيّ شيء... بل هي حضارتنا الراهنة...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن، أمّا الباشا فيبتسم ابتسامة ساخرة، وأمّا أنا فأستغرق في أحلامي، وكلانا لا يدري بما يخبّئه له القدر تحت آكام ذلك التراب، وكان العمل يبدو عقيمًا فتململ الباشا واقترح على أن نجلس في الفراندة فاتّبعته صامتًا، ولكنّا لم نكد نصعد السلالم الأولى حتّى لحق بنا الشيخ جاد اللّه عَدْوًا وصاح بفمه المُثرّم:

ـ مولاي.. مولاي.. تعال انظر..

فالتفتنا إليه بحركة أتوماتيكيّة، وكان قلبي يخفق خفقانًا غريبًا على أثر نداء الشيخ وذكّرني بشبيه له قديم كان يفصل في حياتي بين الفشل والنجاح واليأس والأمل وهبطنا السلّم دون إبطاء لأنّ الرجل كان قد عاد أدراجه، وتبعناه وكلانا يغالب رغبة في العدو...

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزحون صخرة كبيرة، مساحتها متر مربّع على وجه التقريب، فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة في مثل اتّساعها، فنظرت إلى الباشا، ونظر إليّ بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، ثمّ نظرنا إلى داخل الفوهة فرأينا سلّمًا صغيرًا ينتهي إلى دهليز يتّجه إلى الداخل موازيًا لسطح الأرض، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب فقلت للباشا «إلينا بمصباح» فأرسل الباشا أحد الخادمين لإحضار مصباح، وعاد الرجل بالمصباح فأمرته أن يتقدّمنا، ولكنّه تردّد وانكمش فهممت بأخذه منه، ولكن كان الشيخ جاد الله أسرع منّي إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من القرآن وتعاويذ غريبة ثمّ نزل بقدمين ثابتتين فتبعته وتبعني الخادمان المضطربان...

ووجدنا أنفسنا في دهليز مستطيل لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، ويعلو سقفه عن هامتنا بعدّة أشبار، وكانت أرضه متربة أمّا جدرانه فمن الجرانيت، وتقدّمنا جميعًا في خطوات بطيئة حتّى اعترض سبيلنا باب حجريّ يأخذ على المقتحمين طريقهم، ولم يكن منظره غريبًا عليّ ولا الرموز المحفورة في وسطه، فجرى بصري عليها، ثم التفتّ إلى الباشا وقلت بصوت متهدّج:

ـ لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة أثريّة... فها هنا يرقد القائد حور من عظام الأسرة الثامنة عشرة.

ولكنّ الشيخ جاد الله قال بعنف وغضب:

ـ بل وراء هذا الباب كنز... هٰكذا يقول الكتاب الذي لا يكذب.

ـ فهززت كتفي قائلًا:

ـ سمّه كيف شئت، المهمّ أن نفتحه...

فعاد الشيخ يقول:

ـ فتح الكنز عمل يسير، فهٰذا الباب لا يطيع ويرضخ إلّا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق حتّى مطلع الفجر... هل أنتم مطهّرون؟

وتأثّر بأقواله الخادمان ونظرا إلى مولاهما بارتباك لأنّهما اعتقدا أنّهما على وشك المثول في حضرة القوّة الخفيّة، ولم يكن في الوقت متّسع للتطهّر والقراءة فقلت للشيخ بحزم:

ـ إنّنا لم نبلغ هذا الباب بقراءة فينبغي أن نقتحمه بمثل ما اقتحمنا الذي قبله.

وهمّ الشيخ أن يعترض ولٰكن لم يُجْده اعتراضه وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقني شزرًا، واستأنفوا العمل من جديد، وتيقّظت غريزتي فعملت معهم، حتّى أزحت العقبة الكؤود، ووجدنا أمامنا منفذًا إلى مثوى حور الأبديّ...

وكنت خبيرًا بتلك الأعمال، فأمرتهم أن يتريّثوا في أماكنهم وقتًا قصيرًا ريثما يتجدّد الهواء، وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعًا. وكان الباشا صامتًا ذاهلًا كمن هو في حلم عجيب، وكان الخادمان ينظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذي يؤمنان به، وكان الشيخ يحمّلني تبعة ما قد يحدث لاستهانتي برأيه، أمّا أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه بصري. وساءلت نفسي ترى هل من المستطاع أن أفوز بتحفة أثريّة أزيّن بها عقد متحفنا الخالد في باريس...؟

ثمّ دخلت، ودخل خلفي الأرناؤوطي باشا ثمّ الشيخ جاد الله وآثر الخادمان أن يلبثا في الدهليز الخارجيّ. فلمّا اختفى عنهما نور المصباح وأظلم المكان اندفعا إلى الداخل وانكمشا في ركن، وكانت حجرة تابوت كما يدلّ مظهرها، وقد شاهدت أمثالها مرّات عديدة، وكان التابوت موضوعًا في مكانه وعلى غطائه صورة ذهبيّة لصاحبه، وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعيّ أحدها لرجل ـ من المرجّح أنّه حور نفسه ـ والآخر امرأة يستدلّ من وضعها إلى جانبه أنّها زوجه، وأمامها تمثال صغير لغلام، وفي الناحية المقابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملوّنة ومقاعد ومناضد وعدد حربيّة، وكانت الجدران ملأى بالرسوم والنقوش

والرموز.

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم المبعوث، ولكنّ الباشا لم يدعني لتأمّلاتي فقال لي ولم أكن أعلم أنّها آخر أقواله في هذه الدنيا:

ـ الأوفق يا أستاذ دريان أن نبلغ الأمر إلى الحكومة في الحال...

فأحسست بخيبة أمل وقلت:

ـ انتظر قليلًا يا باشا ريثما ألقي نظرة عجلى...

ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا إلى يميني ومضيت أفحصها بعين خبيرة مشوّقة، ونفسي تحدّثني بفتحها ومشاهدة ما بداخلها، وكنت أؤمن بأنّها تحوي طعامًا وثيابًا وحليًّا ولكن أنّى لمثلي أن يملك إرادته حيال تلك المخلّفات الجليلة التي تستحوذ على منبض التأثّر من قلبي ووجداني.. ثمّ لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء.. يا لها من مفاتن..!

وقطع عليّ تأمّلاتي أن سمعت صوت الشيخ جاد القبيح وهو يهتف «هش» فالتفتّ إليه منزعجًا مغضبًا لأنّ أيّة همسة آنئذ تثير أعصابي، ولكنّ الشيخ قال ببلاهة «عصفورا!».

فانتهرته قائلًا:

ـ أيّ عصفور هذا يا شيخ.. أهٰذا وقت هزل؟

فقال الرجل:

ـ رأيت عصفورًا يرفّ بجناحيه فوق التابوت.

فالتفتنا إلى التابوت ولكنّا لم نرَ شيئًا، وكان من العبث أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ:

ـ دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله.

ثمّ ضحكت وقلت للباشا بالفرنسيّة:

ـ عسى أن يكون العصفور روح الميت (كا) جاء لزيارته معنا...

ثمّ عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التي تحادث قلبي بلغة صامتة لا يعيها سواي. ولكنّي لم أستطع التأمّل بتاتًا لأنّا سمعنا الخادمين يصيحان بذعر:

ـ يا سعادة الباشا!

فالتفتنا إليهما بسرعة وقد امتلأت غيظًا وحنقًا ولكنّي شاهدتهما في حالة غريبة من الرعب، التصق كلّ منهما بصاحبه، واتّسعت عيناهما وجحظتا وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت، وتصلّب الشيخ جاد الله في وقفته ويده قابضة على المصباح وعيناه لا تتحوّلان عن الهدف نفسه. فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبي. فرأيت غطاءه مرفوعًا والمومياء ممدّدة أمامنا في لفائفها..؟

ما هٰذا.. كيف فُتح التابوت؟.. هل أثّرت فيّ إقامتي الطويلة في الشرق فغدت عيني تتأثّر إلى هٰذا الحدّ المضحك بأوهامه وسحره؟..

ولٰكن أيّ سحر هناك!.. إنّي أرى المومياء أمامي، ولست الوحيد الذي يراها، فها هو ذا الباشا قد تحوّل إلى تمثال، وها هم الرجال الثلاثة يكادون يموتون من فرط الهلع والذعر.. فأيّ وهم هٰذا؟

والحق أنّني أحسّ بالخجل كلّما اضطرّتني الظروف إلى سرد ما حدث بعد ذلك، لأنّي أحدّث في العادة أناسًا عقلاء مثقّفين درسوا تيلور وليفي برول ودركيم ولكن ما حيلتي؟.. إنّ ديكارت نفسه لو كان في مكاني تلك الساعة ما أتته الشجاعة على الهزء بحواسّه..

ماذا رأيت؟

رأيت المومياء تتحرّك وتقعد في التابوت في حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم فضلًا عن المبعوث من عالم الأموات، ثمّ قفزت قفزة غاية في الرشاقة انتصبت قبالتنا أمام التابوت..

وكنت موليًا ظهري الخادمين والشيخ جاد الله فلم أرَ ما حلّ بهم ولكنّ ارتعاش النور الذي يضيء الحجرة دلّ على كهربة اليد التي تمسك به، وكنت في حالة يتعذّر وصفها. وأعترف أنّ مفاصلي تفكّكت من الرعب الذي لا يوصف، وذعرت ذعرًا لم أحسّ بمثله في حياتي على الإطلاق ولا تكاد تذكر إلى جانبه أهوال الأيّام الشديدة التي قضيتها في الجبهة الشرقيّة ومعركة المارن..

يا للعجب!.. ألم يكن حيال مومياء؟.. أو حيال جثة رُدّت إليها الحياة بطريقة خفيّة؟.. أو أمام قائد مصريّ كان يرتجف هولًا وخشوعًا إذا اجتاز عتبة

القصر الفرعونيّ؟.. ولكن هل كان من الممكن أن يخالج نفسي في تلك الساعة فكر من هٰذه الأفكار؟.. بل هَبْ أنّه خالجها فهل كان يستطيع أن يهدّئ من رعبها شيئًا؟.. فزعت فزعًا قاتلًا.. على أنّ عينيّ استطاعتا أن تريا كما استطاعت ذاكرتي أن تحفظ ما رأت عيناي..

ولم أجد أمامي مومياء بل رجلًا حيًّا كامل الرجولة والحياة، وكانت هيئته تذكّر بتلك الصور التي تُرى بكثرة على جدران المعابد، فكان يرتدي ثوبًا أبيض ووزرة قصيرة ويغطّي رأسه الكبير بقلنسوة أنيقة، ويحلّي صدره العريض بنياشين كثيرة زاهية، وكان مهيبًا رهيبًا متعاليًا، ولٰكنّي بالرغم من جلاله خيّل إليّ أنّي رأيته من قبل، وذكرت بالفعل الصعيديّ الذي ساقه الخدم إلى الباشا واتّهموه بسرقة غذاء الكلب بيميش، كان شبهًا غريبًا ولٰكنّه اقتصر على الطول واللون والقسمات دون الروح والحياة، ولولا ما كان يبدي الماثل أمامي من النبل والتعالي لربّما خالجتني شكوك..

وكان يحدج الباشا بنظرة قاسية لا يحوّلها عنه كأنّه لا يرى سواه..

ماذا أقول يا سادة؟.. لقد سمعته يتكلّم.. أي والله لقد تكلّم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف من السنين، وتكلّم بتلك اللغة القديمة التي طواها الموت منذ آلاف السنين. وسوف أنسى كلّ شيء في دنياي قبل أن أنسى كلمة واحدة ممّا نطق به لسانه..

قال لصديقي الباشا السيّئ الحظ بصوت لم أسمع مثله جلالًا لأنّي لم أتشرّف بعد بمخاطبة الملوك.

ـ ألا تعرفني أيّها العبد..؟ لماذا لا تجثو ساجدًا بين يديّ..؟

ولم أسمع للباشا صوتًا ولا استطاع بصري أن يتحوّل إليه، ولٰكنّي سمعت العظيم ذا الصوت العظيم يقول مرّة أخرى:

ـ لم أشعر بقهر أسر الموت إلّا حين شاهدت روحي هٰذه العجائب التي تحدث في الدنيا وأنا مقيّد بأصفاد الأبديّة لا أستطيع حراكًا، ولم أقدر أن أذهب إليك لأنّ حياتي انتهت كما قضى أوزوريس.. ولٰكنّك سعيت إليّ بقدميك.. وإنّي لأعجب كيف سوّلت لك نفسك هٰذا الفعل الأحمق.. أبلغ بك البطر الجنون..؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بيني وبينك بالموت.؟ ماذا جئت تفعل أيّها العبد. ألم يقنعك أن تنهب أبنائي فأتيت تنهب قبري..؟ تكلّم أيّها العبد..

ولٰكن أنّى للمسكين أن يتكلّم.. إنّه لا يفقه شيئًا.. ولا يبدي حراكًا.. لقد دبّت الحياة في المومياء.. وفارقت قلب الباشا الحيّ.

أمّا المومياء فعادت تقول:

ـ ما لك لا تتكلّم؟.. ألست حور؟.. ألست عبدي شنق؟.. ألا تذكر أنّي جئت بك من الشمال في إحدى الغزوات الظافرة؟.. أتتجاهلني أيّها العبد؟.. إنّ جلدك الأبيض الذي يرمز إلى العبوديّة يفضحك مهما تنكّرت.. ما هٰذه الملابس المضحكة التي ترتديها؟.. وما هٰذه الأبّهة الكاذبة التي تختفي وراءها؟.

وظنّ حور أنّ الباشا لا يريد أن يتكلّم فانتفخت أوداجه وتقطّب جبينه وصاح غاضبًا:

ـ ما الذي دهاك؟ ما الذي دهى الأرض فجعل أعزّتها أذلّة وأذلّتها أعزّة، وخفض السادة عبيدًا ورفع العبيد سادة؟ كيف تملك أيّها العبد هٰذا القصر ويعمل أبنائي فيه خدمًا؟ أين التقاليد المتوارثة؟ والقوانين المقدّسة؟ ما هٰذا العبث؟

واشتدّ الغضب بحور فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر وصاح بصوت كالرعد:

ـ كيف تتجاسر على ابني أيّها العبد؟ لقد سمته الذلّ بقساوة دلّت على العبوديّة التي تنضح بها نفسك، ضربته بعصاك لأنّه جائع ودفعت إخوته إلى ضربه، أيجوع في مصر أبناؤها؟ الويل لك أيّها العبد..

ولم يكن يتمّ كلامه حتّى تقدّم نحو الباشا مزمجرًا كأسد هصور يهمّ بفريسته.

ولٰكنّ الباشا التعس لم ينتظره، لأنّه كان قد فقد قوّة الاحتمال، فسقط على الأرض لا حراك به، وكأنّ تهديد حور قد أشاع في الحجرة رعبًا جديدًا أتى على البقيّة الباقية من التّماسك في النفوس، فما لبث الشيخ

جاد الله أن سقط على وجهه وسقط معه المصباح فانطفأ نوره وساد الظلام. وانكمشت بغتة كأني أتّقي ضربة قاتلة لا أدري من أين تقع على رأسي، وحملقت في الظلام وأنا أنتفض فرقًا وذعرًا، ثمّ خارت قواي، وشاء حظّي الحسن أن أفقد شعوري وأغيب عن العالمين..

* * *

سادتي.. إنّه لتأتي عليّ أوقات يصيبني فيها ذهول وتخامرني شكوك فأسائل نفسي مرتابًا: هل كان حقًّا ما رأيت أم كان وهمًا؟.. وربّما ملْتُ أحيانًا إلى تكذيب نفسي، ولكن كلّما أميل إلى الشكّ تصدمني حقائق لا قبل لي بها... فما قولكم مثلًا في شهادة الشيخ جاد الله وهو حيّ يرزق ويستطيع أن يعيد لكم ما حكيت.. وما قولكم في جنون الخادمين التعيسين.. ومقبرة حور.. والقصر المهجور؟... بل ما قولكم في حادثة موت المغفور له محمود باشا الأرناؤوطي التي ما يزال يذكرها جميع قرّاء الصحف ويعجبون لها أشدّ العجب..؟

كيدهنّ

هل يتمنّى الإنسان على الله أكثر من أن يهبه زوجة حسناء وثروة طائلة، ويمتّعه بصحّة سابغة وبنين، ويبوّئه مركزًا اجتماعيًّا فذًّا؟ وقد فاز حضرة صاحب العزّة جمال بك ذهني بأولئك جميعًا؛ كانت له زوجة شابّة حسناء يعزّي وجهها الحسن عن أحزان الدنيا جميعًا، ووهبه الله أربعة من الأبناء كالورود صحّة وجمالًا، وترقّى في مراتب الدولة حتّى ولي كرسيّ الاستشارة في أكبر هيئة قضائيّة، وورث عن والديه ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع، ومع ذلك فمن كان يطّلع على وجهه ذلك اليوم إذ هو جالس في شرفة قصره المطلّة على شارع السرايات يأخذه العجب لهذا الاكفهرار الذي يظلّه وتلك النظرة القلقة التي تحار في عينيه منذرة بالشقاء!

ولا سبيل إلى إبطال هذا العجب ما لم نلمّ بماضيه لأنّ حاضر الإنسان يقع غالبًا من ماضيه موقع النتيجة من المقدّمات، وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما في الحياة بما تدعم به في المنطق من الضرورة والأحكام، ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضي صاحب العزّة حافلًا بالشباب المرح السعيد والعقل النزيه والذكاء الوقّاد والمغامرات التي تجعل من الشباب ديوان شعر غنيًّا بالذكريات العذبة، لأنّه كان من الرجال القليلين الذين يصادفهم أجمل التوفيق وأسعده في دنيا النساء، فعشق عددًا وافرًا من الممثّلات والراقصات وربّات القصور المصونات غير متردّد ولا حرج، ورشف من كؤوس الهوى خمرًا صافية، أعمته نشوتها عن طيّ الأعوام، فما يدري يومًا إلّا وهو يصحو على عادل يقول: «أتبلغ الخامسة والأربعين ولمّا تتزوّج؟» الخامسة والأربعون.. أحقًّا ذهب الشباب الناضر وولّى؟ أحقًّا تسنّم ذروة الكهولة؟.

ووجد نفسه يفكّر في مسألة الزواج تفكير شابّ يهدف للثلاثين، ويكاد الزواج أن يكون كالموت نهاية كلّ رجل، وإلّا فلمن يترك هذه الثروة الطائلة التي يمتلكها؟ ومن يؤنس وحشته إذا احتجزه البيت يومًا؟ ومن يعينه على متاعب الشيخوخة وأهوال الكبر إذا تألّبت عليه عوامل الفناء؟

ولكنّه لم يغفل عن أنّه مغامر عشّاق، ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب المفتوح، ويعرف طبيعتها معرفته لبديهيّات الحساب، لذلك رأى أنّ الحكمة تملي عليه ألّا يختار زوجة شابّة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام، وصحّت عزيمته على الزواج من أرمل أو مطلّقة في الثلاثين على أدنى تقدير، حذرًا من أن يُقضى عليه بما قضى به على ضحاياه الكثيرين..

ولكنّه شاء غير ما شاءت الأقدار، وما حيلته في ذلك؟ لم يكن هو الذي يبرم الأقدار حين دُعِيَ يومًا إلى حفل زفاف فراح مالكًا لفؤاده وعاد مسلوب الفؤاد والإرادة، ولم يكن هو الذي يخلق الأعمار إذ كانت التي سلبته فؤاده في العشرين من عمرها، ربّما قلت إنّه ينبغي له أن يغلّب الحكمة والعقل على الهوى، ولكن واأسفاه فإنّ هذا القول وأمثاله لا يجدي فيمن تسيطر عليهم الشهوات، فجميعهم ـ أيًّا كانت الشهوة التي تتحكّم فيهم ـ لا يرون في العقل سوى وسيلة لتحقيق شهواتهم، يستوي في ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء، فلم يتردّد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الآنسة حياة إلى والدها الأستاذ محمّد عويس الخبير بالمجلس الحسبيّ وتمّت الزيجة

وأثمرت على الأيّام أربعة من الأبناء أكبرهم في المدرسة الثانويّة وأصغرهم في الروضة. . .

ولٰكنّ للزمن حكمه الصارم كـذٰلك، فقـد أحيل المستشـار في هٰذا الأسبـوع إلى المعاش وأذن النـذيـر بمجيء الخامسة والستّين بكوارثها المعهودة من نضوب الأعصـاب وبرودة الاضمحـلال وتنكّر معـالم الدنيـا وتألّب أمراضها، وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملًا من متاعها الغرور، ولٰكن دبّ بقلبه دبيب القلق الـذي تعـود بواعثـه إلى تلك الزوجـة الحسناء التي يعـطيها الزمن - الآخذ منه - نضجًا وكمالًا ويزيدها كـلّ يوم حسنًا على حسن، وما كانت مخاوفه أوهامًا ولا محض حذر تمليه مغامراته الماضية، ولٰكنّه شاهد هٰذا الصباح في شرفة الفيلّا التي تواجه قصره ضابط بوليس شابًّا، يتألّق جماله في بذلته الرسميّة المزدانة بالنجوم الذهبيّة، وتنفـخ صدره قـوّة الشباب وغـروره، وتعبث أنـامله بشاربه الأنيق الصغير، فانقبض صدره لمرآه وتوجّس منه خيفة لغير سبب بيّن. عجب كيف أنّه لم يره قبل اليوم، وهل يقيم في هٰذه الفيلّا يا ترى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوّج أو أعزب؟ وكان يستطيـع أن يسأل زوجه عمّا يحيّره ولٰكنّه نفر من هٰذا نفورًا عجيبًا وآثر عليه الجهل والحيرة.

وكان قلقه غريبًا لدرجة أنّه ودّ لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النـوم إلى الجهة الأخـرى من القصر المـطلّة على شـارع القشلاق وإحـلال المكتبـة محلّها، ولٰكنّه لم يَدْرِ كيف يعلّل طلبه وأبت كـبرياؤه عليه أن يفاتحها بشأنه.

ووجد في حياة الفراغ الجديدة فرصة طيّبة لمـراقبة «غريمه» في صمت وحذر، فلاحظ أنّه يتناول الشاي كـلّ صباح في شرفتـه، وأنّه يعـود فيجلس بها عنـد الأصيل ساعة أو نحو ذٰلك، وفي تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشابّ النظر إليها، وخيّل إليه أنّ بصرها يتّجه أحيـانًا إلى شرفتـه، نعم يحتمل ألاّ يكون وراء هٰذه النظرات أيّ معنى سوء. ولٰكن يتعذر عليه أن يتصوّر أنّه من الممكن أن ينظر شابّ إلى مثل زوجه الحسناء نـظرة بريئـة لا يشوبهـا طمع.

وضاق بصمته المرهق فأشار يومًا إلى شرفة الضابط وسألها:

- من يقيم في هٰذه الفيلّا؟

فقالت:

- جار جديد، أظنّه مفتّشًا في الداخليّة.

فسألها بلا اكتراث في الظاهر:

- ومن الضابط الذي يظهر أحيـانًا كثـيرة في هٰذه الشرفة؟

- أيّ ضابط؟. . لا أدري لعلّه ابن المفتّش.

فوقع تجاهلها من نفسه موقعًا أليمًا؛ واشتدّ غضبه اشتدادًا لا يستند إلى أسباب معقولة فقال:

- لا أشكّ في أنّه ضابط أحمق وقح.

فبدت الدهشة على وجهها وسألته:

- ما الذي يغضبك عليه؟

فقال بحدّة:

- رأيته مرارًا ينـظر إليك نـظرات وقحة سـافلة، جعلتني أفكّر جدّيًّـا في نقل حجـرة النوم إلى الجهـة الأخرى.

فقالت بلهجة استياء:

- ولٰكنّه تعب لا مبرّر له، وأرى أنّه يتضمّن إهانة قاسية لي يا بك.

- كلّا يا هانم، ما أردت هٰذا قطّ ولٰكنّي أحبّ أن تتمتّعي بحرّيّتك بعيدًا عن تطفّل العيون.

فهزّت منكبيها استهانة وقالت:

- افعل ما بدا لك.

وتحقّقت مشيئته، ولٰكن آلمته استهانتها واعتقد أنّه تسرّع تسرّعًا معيبًـا ورّطه فيـه الغضب، وأحسّ من تصرّفه بخزي أليم وكبر عليه أن يمتلىء رعبًا من نظرة يرسلها هٰذا الشابّ المغرور، وما عسى أن يفيده نقل حجرة من مكان إلى مكان؟ وهل يعني هٰذا زحزحـة الحبّ من موضعه إذا كان أنشَبَ أظافره في لحم قلبها الطريّ؟. . هيهات. .

ولم تهادنه شكوكه ومخاوفه. وقد ثقلت عليه وطأتها

يـومًا وكـان يجلس في قهوة لـونابـارك مع محام كبير فاستأذن بغتـة وقام إلى سيّـارته التي انـطلقت به إلى قصره وبلغت شارع السرايات وكـان الوقت أصيـلًا ونظر خلل زجاج النافذة فرأى زوجته في شرفة المكتبة ونظر الناحية الأخرى فرأى الشيطان. .

وكان يعهد في زوجه البرود والرزانة والسيطرة على الأعصـاب وكانت كعهـده بها فلم تفـاجـأ بحضـوره وسألته بإنكار:

ـ خير. . ما الذي أتى بك قبل ميعادك؟

فانفجر غاضبًا وسألها بغيظ وحنق:

ـ قولي لي أنت ما الذي أتى بك إلى هٰذه الشرفة؟

فقالت بغضب وإباء:

ـ إنّك تهينني يا بك إهانة لا تُحتمل.

فاشتدّ به الغيظ وقال بعنف:

ـ أنت تحـاولين تضليـلي بـاصـطنـاع هٰـذا الإبـاء الكاذب.

ـ عهدي بك أعظم أدبًا من هٰذا.

ـ ما شاء الله وددت لـو يستمع إليـك أبناؤنـا إذ تعلّمين أباهم الأدب.

ـ أمّا أنا فلا أودّ أن يستمعوا إلى أبيهم وهو يكيل التهم لشرف أمّهم.

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن يطلعه على خبيئة نفسها وجعل يتساءل في حيرة: تـرى هل هي صادقة في غضبها؟ هل هي حقًّا بريئة ممّا رماها به، وتنهّد حزينًا شقيًّا وقال وكأنّه يحادث نفسه:

ـ حقًّا إنّ الشكّ مسٌّ من الجنون.

فقالت باستياء:

ـ ألا ترى أنّك تعترف بأنّك شككت فيّ؟

فعاوده الغضب وقال لها بمرارة:

ـ لماذا تعودين إلى الظهور بهٰذه الشرفة؟ وفي هٰذه الساعة المعهودة؟ أصغي إليّ يا هانم، أنا لا أسمـح لامرأة بأن تتغفّلني أبدًا.

ـ هٰذا كلام لا يليق برجل له مكانتك وأخلاقك، ويجدر بك أن تنادي عقلك الذي غرب به الغضب، فـماذا ينفعك إغـلاق الأبواب والنـوافـذ إذا أنـا بيّـتّ الغدر؟. . وما يضيرك ظهوري بكلّ مكان إذا انطوى قلبي على الإخلاص والأمانة؟

فقال بذهول:

ـ الإخلاص. . الأمانة. . ما عدت أفقه معنى لهٰذه الكلمات لأنّ عقـلي تسمّم فينبغي أن تفهمي ذٰلـك جيّدًا، قد يكون المرض لعلّة وقد يكون لغير العلّة إلّا الوهم، فاعملي على إعادة الطمأنينة إلى نفسي، ودعي الوعيد جانبًا. . فأنا رجل لا يمكن أن تتغفّله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء.

ـ أهٰكذا تتغيّر بعد العشرة الطويلة وتنقلب إنسانًا غير الإنسان لأنّك رأيت شابًّا ينظر إليّ من بعيد؟

وأيّ امرأة لا تلتهمها العيون كلّما بدت للناظرين؟

نظرة من بعيد. كلّا ليس الأمر كذٰلك، إنّها تكذب وتجدّ في الكذب وهي تعلم بمـا يعذّبـه ويشقيه، إنّها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلّا معنى واحد، إنّها تتغفّله ولٰكنّها لن تفوز بطائل. .

ـ أصغي إليّ يا هانم لا بـدّ من وضع حـدّ لكلّ هٰذا.

فنظرت إليه بارتياع وقالت:

ـ يا له من قول خطير.

فقال:

ـ لا خطورة هنالـك، إنّي أقرّ بـأنّي أخطأت فيـما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا، وأقرّ بأنّه ليس لي الحقّ في الحجر عليك لأنّه ينبغي أن أكون أرفع من العوامّ، فاذهبي إلى حيث تشاءين وتنقّلي كما تشتهين ولٰكنّي لن أفارقك وأظنّ أنّ هٰذا من حقّي أيضًا.

فلم تتمالك نفسها من الضحك وسألته:

ـ أبدًا؟

فقال بهدوء:

ـ سألازمك كظلّك.

ـ يا له من أسر مرهق.

ـ لك؟

ـ كلّا. . فإنّه يسعدني ولا شكّ أن يظلّ زوجي إلى جـانبي، ولٰكن كيف لك أنت بـالصبر عـلى هجـر لونابارك وسنت جيمس؟

ـ هٰذا شأن يعنيني وحدي.

فلم تزد على أن قالت:

ـ افعل ما فيه راحتك.

ومضى البك يحقّق وعيده دون إمهال، فخلع ثيابه وارتدى البيجاما والروب دي شامبر وجلس إلى جانبها، وتسلسلت الأيّام على منوال واحد، فكانا يقطعان النهار معًا يتحادثان حينًا ويطالعان حينًا آخر، فإذا سئمت من جلستها وقامت إلى الشرفة أخذ مقعدًا إلى جانبها، أو نزلت إلى حديقة القصر تتريّض في مماشيها رافقها حتّى إذا ولّى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أويا معًا إلى مخدعهما فنام ملء جفنيه. . .

وكانا يخرجان كثيرًا لزيارة الأصدقاء والأقارب ويغشيان الملاعب والملاهي والسينمات فلا يفترقان دقيقة: وثابر على حياته الجديدة مثابرة الصابرين ولازمها حقًّا كظلّها، وحافظ على كلمته أن يتركها تفعل ما تشاء على أن تتركه يفعل ما يشاء كذٰلك، ولم تظهر السيّدة أيّ تذمّر وقضت أيّامها مرحة ضاحكة كأنّها أسعد الأزواج حقًّا. وفي يوم من الأيام اقترحت عليه أن يذهبا إلى شيكوريل لشراء حاجاتها وحاجات الأولاد، فذهبا معًا ودخلا المحلّ الشهير، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد البضائع وتسأل البائعين، وصعدا إلى الطابق الثاني وجالا هنا وهناك، وهو يتبعها صامتًا يقف حيث تقف ويسير حيث تسير، فمرّ على تجوالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتّى لهث من شدّة التعب، وعلا صدره وانخفض، وسال عرقه باردًا، واشترت ذٰلك اليوم شريطًا من الدانتلا!

ثمّ عادا إلى السيّارة فارتمى الرجل على مقعده منهوك القوى وقال لها:

ـ لم تشتري شيئًا ذا بال.

فقالت:

ـ ينبغي التريّث في الشراء، سنعود غدًا.

وعادا في الغد ودارت به كما فعلت بالأمس ولٰكنّه لم يحتمل المشي والوقوف ولحقه الإعياء فقال لها:

ـ سأنتظرك في السيّارة.

وانتظرها ساعة أو يزيد، ثمّ حضرت يتبعها غلام يحمل المشتريات فسألها البك:

ـ هل انتهيت والحمد لله؟

فقالت بهدوء:

ـ هٰذه كسوة حسني.

فقال الرجل دهشًا:

ـ حسني فقط؟. . وإخوته. . وأنت؟

فقالت:

ـ لِسَّه يا بك. . لِسَّه. . أرجو ألّا تنكر عليّ تباطئي فهٰذه طريقتي في الشراء وإن كنت تطلّع عليها لأوّل مرّة.

وجاءا معًا في اليوم التالي ودخلت الزوجة إلى المحلّ وانتظر البك في السيّارة وفات على دخولها ساعة ثمّ ساعة أخرى فتململ البك في جلسته وأحسّ برغبته في الحركة فغادر السيّارة ودخل إلى المحلّ، وبحث عن زوجته بعينيه، ومضى يسير هنا وهناك ولٰكنّ الظاهر أنّها كانت بالطابق العلويّ فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهابًا وإيابًا ولٰكنّه لم يعثر لها على أثر، فعاد أدراجه وهمّ بالبحث مرّة أخرى في الطابق الأوّل ولٰكنّه رآها مقبلة من أقصى المحلّ والغلام يتبعها يحمل المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها* إلى السيّارة. . وتساءل في صمته كيف لم يعثر بها مع أنّ المحل لم يكن مزدحمًا؟ هل لأنّه لم يحسن البحث يا ترى؟. . ولذعه الشكّ. . هل من الممكن. . ولٰكن هٰذا بعيد عن التصوّر.

وجاءت معه في غداة اليوم التالي ودخلت المحلّ ولبث هو في السيّارة كما فعل بالأمس ولٰكنّه لم يمهلها إلّا دقيقة واحدة ثمّ تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطا منعطفة إلى يمين الداخل فظنّ أنّها قاصدة إلى المصعد ولٰكنّها واصلت السير إلى باب المحل الجانبيّ وخرجت منه، فخفق قلبه بشدّة وتبعها بخطى سريعة، وبلغ الباب، ثمّ نظر إلى الطريق فرآها تدخل «لاكلير» المواجهة لباب المحلّ وشاهدها تدخل إلى المصعد ثمّ صعد بها، فاجتاز الطريق ودخل العمارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البوّاب عن الطابق الذي صعد إليه

فرفع الرجل بصره وقال: «الطابق الرابع» فدخل المصعد وضغط الزرّ رقم ٤ وخرج منه فوجد نفسه في ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول: ترى في أيّها دخلت، واقترب من أوّلها فقرأ عليه المسيو فالديمير كراوس المحامي بالمحكمة المختلطة، وقرأ على الباب الثاني اسم هـ. ليفي متعهّد راديو تلفنكن، وكتب على الثالث «مدموازيل فلورا خيّاطة للسيّدات»، ووقف أمام الباب الأخير لا يريم، وقد انحصر فيه ارتيابه، وضغط على الجرس ففتح الباب، ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول فتراجعت أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة، وألفى نفسه في ردهة متوسّطة الحجم تحيط بها حجرات أربع، منها ثلاث مغلقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيّدات والأوانس منهنّ من تطمئنّ إلى مقعدها ومنهنّ من تقف أمام المرآة لتلقي النظرة الأولى على فستانها الجديد. وانتبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها الإنكار وسمعها تسأله:

ـ هل المدام مع البك؟

فالتفت إلى مغزى السؤال وتحيّر كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده، لأنه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعًا لم يتدبّر أمره، وألقى على الأبواب المغلقة نظرة ارتياب وقهر، وودّ لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها. ولٰكنّه لم يفعل شيئًا لأنّه لم يكن فقد عقله. ولأنّه هو رجل القانون ـ لم تكن تخفى عليه مغبّة عمله فيما لو أخطأ تقديره وحسبانه: وكأنّه أراد أن يقامر بما تبقّى لديه فسألها:

ـ أليست هٰذه شقّة مدموازيل فلورا!

فقالت الخبيثة:

ـ بلى، ألم تقرأ اللافتة يا مسيو؟

فقال:

ـ إنّ زوجتي سبقتني إلى هنا

فسألته.

ـ ما اسمك يا سيّدي؟

فقال:

ـ جمال ذهني.

صاحت بصوت عالٍ لدرجة مزعجة:

ـ مدام جمال ذهني.

ولٰكنّ سيّدة من الموجودات لم تلبّ النداء، فقالت:

ـ المدام غير موجودة بلا شكّ.

قالت ذٰلك بلهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هٰذا الحدّ، فلم ير بدًّا من الخروج، وأغلق الباب خلفه، ولٰكنّه لم يتحرّك من مكانه ولبث يرمق الباب بعين متّقدة، ترى هل أخطأ البوّاب حسبانه؟ أم إنّ الشيطانة موجودة بداخل شقّة الخياطة؟؟ ولماذا صرخت الفتاة الملعونة بهٰذا الصوت المزعج وهي تنادي مدام جمال ذهني! ألا يجوز أنّها فعلت ذٰلك لتحذّر الغافلين؟ وهل يجوز أن يبقى في مكانه لا يحرّك ساكنًا وزوجه في داخل الشقّة في خلوة غراميّة؟ فما عسى أن يفعل وكيف يضبط الآثمة متلبّسة بجريمتها؟...

وعند ذاك فتح الباب، فتقهقر خطوتين، وخرجت سيّدة، وأوصلتها الفتاة الإفرنجيّة وقد رأته ولٰكنّها لم تباله، وأغلقت الباب مرّة أخرى.

فمضى يروح ويجيء في حيرة شديدة. من المؤكّد أنّها في هٰذه العمارة فقد رآها وهي تدخل ورآها وهي تندسّ في المصعد، وأكّد البوّاب أنّها صعدت إلى الطابق الرابع وهٰا هو ذا الطابق الرابع، ولا مكان يصحّ افتراض دخولها إليه إلّا شقّة الخياطة، فالشيطانة لا شكّ في الداخل، ولٰكن ما عسى أن يفعل؟ هل يظلّ يروح ويجيء؟ أم ينتظر إلى ما شاء اللّٰه؟ وممّا يزيد ارتباكه أنّ وقوفه هٰكذا قد يريب الصاعدين والهابطين وتيّارهم لا ينقطع. ومرّت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته جميعًا. ونال منه التعب والقهر كلّ منال. فاضطرّ إلى مغادرة مكانه وفي نيّته أن ينتظرها لدى الباب الخارجيّ، ولٰكن خطر له خاطر أزعجه فسأل البوّاب:

ـ هل للعمارة مدخل آخر؟

فأجابه الرجل بلهجته البربريّة بأنّ للعمارة ثلاثة أبواب فأحسّ باليأس وذاق مرارة الخيبة وعضّ شفتيه من الحنق والغيظ، وكبر عليه أن تتغفّله الشيطانة وتمثّل

به هٰذا التمثيل المزري، وكان ما عاناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ في سنّه، فعاد خائر القوى إلى سيّارته، وكم كانت دهشته عظيمة حين همّ بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة مطمئنّة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت إليه بإنكار وسألته:

ـ أين كنت يا بك؟

فأنعم في وجهها النظر فرآها تبتسم ابتسامتها المألوفة، ولٰكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب لونها ونظرتها الدالّة على الإثم بقدر دلالتها على الطهارة المصطنعة، فهي شيطانة بلا ريب ولٰكنّها لم تتعوّد الإجرام بعد.

وجلس إلى جانبها صامتًا وانطلقت بهما السيّارة.

وكان مقهورًا مغلوبًا على أمره، يعاني مرارة الهزيمة ويحسّ كأنّ يدًا تخنق كبرياءه خنقًا. وكان يسوؤه أن يجلس هٰكذا إلى جانب المرأة التي تغفّلته وهزأت بكرامته ولوّثت عرضه.. ولم يرتب قطّ أنّها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها. ومن يعلم؟ فلعلّها تضحك في سرّها الآن من خيبته وهزيمته. يا له من تصوّر لا يحتمل!

لقد أنذرها بأنّه لن يتركها لحظة، ثمّ اضطرّ إلى تركها أو هي اضطرّته إلى ذٰلك، ولٰكن لم يخطر له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سبيلًا إلى مقابلة عشيقها.

واستسلم للتفكير الحزين، وذكر طريقة عامّة الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه ـ في محنته ـ يقرّها، وهل تستحقّ الأفعى إلّا تهشيم رأسها... أمّا هو البك الوجيه المثقّف فيجلس إلى جانب معذّبته يعاني آلامه في صبر، ويشيّع كبرياءهُ إلى القبر وهو كظيم. وكيف يفعل غير ذٰلك وهو القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون؟

ولاحت منه التفاتة إلى الطريق فرأى بعض المارّة يحدجون السيّارة بنظراتهم المتطفّلة، فسأل نفسه ترى هل ينفسون عليه السيّارة الفخمة والزوجة الحسناء؟

حقًّا إنّه يستحقّ الرثاء، وسيكون أحقّ بالرثاء في مستقبله حين يخلي يده منها ـ وهو ما صدقت نيّته عليه ـ فكيف تكون حياته بلا زوجة؟ وكيف تكون حياة أبنائه بلا أمّ؟

وهل تزوّج يوم تزوّج إلّا إشفاقًا من أن يلحقه الكبر وهو وحيد فيعاني مرارة الشيخوخة ووحشة الوحدة..

روض الفرج

اعتدل الأسطى شلبي في جلسته وجعل يفتل شاربه الغزير ويرفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشابّ الجالس إلى يمينه على الكنبة:

ـ وما الداعي إلى التعجيل بالسفر؟

فقال له صاحبه وهو شابّ في الثالثة عشرة من عمره تدلّ قوّة بنيته وسذاجة نظراته على ريفيّته القحّة:

ـ وما الداعي إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحاني؟

فقال الأسطى شلبي يتفلسف:

ـ وهل الغاية من الدنيا تنتهي بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانويّة؟ ينبغي أن تروّح عن نفسك قليلًا فما العيشة التي أنت ذاهب إليها إلّا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للّهو والمرح..

فقال الشابّ:

ـ أخشى أن يقلق والدي لتأخّري.

ـ وماذا يضيره لو تأخّرت يومًا آخر وقد غبت عنه عامًا مدرسيًّا كاملًا؟ تعال نذهب معًا هٰذا المساء إلى روض الفرج والعشّاق لمشاهدة رواية «اشْمعْنى» وهي كوميديا في غاية الإضحاك والبهجة.. ما رأيك؟

وضحك الأسطى شلبي وهو ينظر إلى عبد المعزّ بإغراء فابتسم الشابّ وقال بتسليم:

ـ فليكن.. سأؤجّل السفر إلى غد.

فابتسم الأسطى مسرورًا وقال له بخيلاء:

ـ نِعم الرأي، وسترى بعد قليل عشيقتي تقوم بتمثيل الدور الأوّل في رواية «اشمعنى».

وارتدى عبد المعزّ ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة الطلبة الريفيّين الذين يندر أن تنسجم (البدلة) مع قامتهم ويبدو الطربوش غريبًا على رءوسهم. أمّا الأسطى فقد وقف أمام المرآة في دلّ وتيه وارتدى قفطانه الزاهي وجبّته البَنّيّة الأنيقة، وأمال الطربوش حتّى مسّ حاجبه الأيمن، وأمسك بعصاه المذهّبة اليد، وتقدّم قريبه يختال في مشيته كالطاووس.

والأسطى شلبي هٰذا بدأ حياته كصبيّ حلّاق بسيط ثمّ استقلّ بصالون جميل أتاه منه رزقه رغدًا، ثمّ اشتغل بالسمسرة وصادفه فيها توفيق كبير فنمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديدات من نجوم روض الفرج.

أمّا عبد المعزّ فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبي المدعوّ الشيخ طه، شيخ كتّاب وواعظ بالعريش؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائيّة متأخّرًا ممّا دعا ولاة الأمور إلى التجاوز عن شروط سنّ القبول فالتحق بها عبد المعزّ وهو ابن ثلاثة عشر عامًا، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائيّ أرسله أبوه إلى قريبه شلبي ليتمّ تعليمه الثانويّ، مؤثرًا بُعْدَ القاهرة، مع الاطمئنان عليه في بيت قريبه، على قرب الزقازيق مع إقامته وحده.

على أنّ الأسطى شلبي لم يكن عند حسن ظنّ الشيخ طه فكان يدعو أحيانًا عبد المعزّ إلى المقهى، واقترح عليه مرّة أن يعلّمه النرد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ. وكان الشابّ حكيمًا مجتهدًا فلم يستسلم لإغراء قريبه، وكانت هٰذه هي المرّة الأولى التي يسلّمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية «اشْمعْنى». وبدا الشابّ بطيئًا في فهم النكت و«القفشات» وأخذ يقلّب عينيه بين الضاحكين في استغراب وحيرة، ولٰكن

جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثّلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل، وكانت امرأة فارعة طولًا وعرضًا مزجّجة الحاجبين مكحّلة العينين محمّرة الخدّين والشفتين، تنوء بحمل ردفين ثقيلين ولا ريب يرهقانها ثقلًا، بل ما أحراهما أن يميدا بها لولا أن وازنتها العناية بثديين كبطّيختين وإن كانا ـ بقدرة قادر ـ ناهضين، وكانت تتثنّى وتتمايل وتتخنّث في كلامها وتتكسّر وكأنّها تتأوه وتتوجّع والنظّارة لا يكفّون عن إبداء الإعجاب يرقونها من أعين الحسّاد. وفتل الأسطى شلبي شاربيه بقوّة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلًا:

ـ هذه عشيقتي نور الحياة.. انظر!

وكان عبد المعزّ ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك مسرّة الرجل فعاد يقول:

ـ إنّ بعض الظرفاء ممّن يعرفون أنّي المالك لقلب هٰذه المرأة يقولون لي: «حقًّا إنّك لمن كبار ذوي الأملاك».

وقهقه الرجل ضاحكًا تيّاهًا فخورًا.

وفي أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المعزّ الممثّلة الحسناء آتية صوب الركن المتعزل الذي يجلسان فيه، تتبختر كأنّها ترقص، وتوزّع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة؛ ثمّ رآها تسلّم على الأسطى شلبي وتقول له ضاحكة:

ـ كيف حالك يا رجل؟

وسمع قريبه يحيّيها قائلًا:

ـ وما جدوى سؤالك عن حالي ما دمت تلتهمين مالي وصحّتي بلا رأفة؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأسًا من الويسكي، وكبر على عبد المعزّ أنّها لم تباله؛ ورأت المرأة ارتباكه، فمدّت يدها المكتنزة وقرصته في خدّه وهي تقول:

ـ وكيف حالك يا نونو؟

فاحمرّ وجه عبد المعزّ استحياء، وأحسّ باستياء، وشغل بشعوره عمّا حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها الممتلئ فأحسّ نحوها بانجذاب عجيب، والظاهر أنّ المرأة لم تهمله لأنّها عادت تداعبه فسألته:

ـ كم عشقت من النساء يا غلام؟

وكان عبد المعزّ يشعر بميل إلى التحدّث إليها فأغضى من سخريتها وسألها بدوره:

ـ وهل يهمّك أن تعرفي ذٰلك؟

ـ كيف لا؟

ـ ولمه؟

ـ الأسباب كثيرة أقلّها أن أعرف عمرك.

ـ وما علاقة العمر بالعشق؟

فغمزت بعينيها وقالت:

ـ نحن معشر أهل الهوى نقدّر الأعمار بحساب الحبّ، مثلنا مثل العرّافة التي تهتدي إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم.

فضحك الأسطى شلبي وقال:

ـ إذًا فعبد المعزّ لم يولد بعد على تقديرك.

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بإنكار:

ـ ربّاه.. ولم تحرم نفسك من الحبّ يا بنيّ؟.. ألا ترى الأسطى شلبي لا يفيق من الهوى وإن ردّ إلى أرذل العمر؟

فتغاضب شلبي وقال محتجًّا:

ـ أيقال عنّي أنا مثل هٰذا الكلام (وفتل شاربه واستمرّ قائلًا) أهٰذا شارب رجل ردّ إلى أرذل العمر؟

فعبثت أناملها المخضبة بالحنّاء بشاربه وقالت:

ـ أقسم أنّك سرقت هٰذا الشارب من زبون شارد الفكر!

ولم يكن لدى الممثّلة متّسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها، فشربت كأسها وحيّت الأسطى وقرصت عبد المعزّ مرّة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة.

واختتم التمثيل عند منتصف الليل، وانتظر الأسطى شلبي السيّدة نور الحياة حتّى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه، وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة. وفي أثناء الطريق كان عبد المعزّ يختلس من الوجه الممتلئ الجميل نظرات جائعة،

وكانت المرأة بعينين نصف مفتوحتين لا تخفى عليها خافية، وقد وجدت لذّة غريبة في مشاهدة قلقه وتحيّره، وأرادت أن تغضي عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها، وأخيرًا أحسّت نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسي ميدان المحطّة فأمر الأسطى السائق بالتوقّف ريثما يودّعها عبد المعزّ الذي قدّر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة. وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت:

ـ يا عيني.. أتعود إلى البيت وحدك.. خذ هٰذه القبلة لتؤنس وحشتك.

ومالت نحوه بسرعة وقبّلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب.

ووقف الشابّ ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بها في جوف الليل إلى حيث لا يعلم، وكان ذاهلًا محمومًا يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق إلى الترمومتر، ويحسّ بالقبلة على شفتيه ويدوّي رنينها في أذنيه ويشمّ رائحة الفم المعطّر بالقرنفل، واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فجعلت تخلق له الأحلام وتدني إليه الأماني، وأنامت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروي اشتهاءه بفنون الحبّ جميعًا.

ولدى ضحى اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته، وقد أدهشه أن يرى عبد المعزّ ما يزال قابعًا به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين، فقال له:

ـ ظننت أنّك سافرت إلى العريش.

فسأله الشابّ بقلق:

ـ أيضايقك أن أبقى مدّة أخرى؟

ـ كلّا وألف مرّة كلّا.. على الرحب والسعة دائمًا.. ولٰكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك؟

فقال الشابّ مبتسمًا مرتبكًا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض:

ـ روض الفرج دون غيره: ليتني أستطيع أن أشبع من ملاهيه!

وقال الأسطى شلبي لنفسه: ترى هو روض الفرج حقًّا أم نور الحياة؟ على أنّه لم يبال هيامه واعتقد أنّه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية. فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلّق الغلام بنور الحياة بيّنًا لا يحتاج إلى دليل، أمّا الذي لم يدر بخلد إنسان أبدًا ولا كان محلّ احتمال قطّ فهو أن تعلق المرأة بالغلام، ولو أنّه من المسلّم به دائمًا أنّ عالم الحبّ حافل بالمفاجآت غنيّ بالغرائب والعجائب.

وكانت الظواهر تجمع على حبّ تلك المرأة الهائلة لذاك الغلام الغرير فكانت تأنس به وتخفّ إلى محضره وتعاطيه نظرات حنان وعطف ومودّة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارّة في الانفراد به، وكانا يطلبان غفلة من الأسطى شلبي ليتناجيا بغمزة عين أو ينفّسا عن صدريهما بلمسة يد، وفي أثناء ذلك لا تكفّ ركبته عن تحسّس فخذها المكتنز.

وحاول الأسطى شلبي أن يهزأ به في حضرتها أكثر من مرّة، فكانت تغضب وتنهره حتى ضاق صدره وجعل يفتل شاربه بعنف ويقول لنفسه بغيظ: «أيُغلب هٰذا الشارب الذي يقف عليه الصقر؟ هيهات ثمّ هيهات».

وفي أثناء ذٰلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطابًا يحثّه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبيّة فنصح الشابّ بإطاعة والده، ولٰكنّه أجاب ـ أو قلبه أجاب «لا أستطيع». وانفجر حقد الأسطى شلبي في كتاب حرّره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الحضيض والفساد وصارحه بهيامه بإحدى غانيات روض الفرج، وأهاب به أن يدركه أو يتردّى في الهاوية إلى الأبد.

وجنّ جنون الشيخ الواعظ فشدّ رحاله إلى القاهرة فبلغها عصرًا، واستقبله الأسطى شلبي استقبالاً يدلّ على الإخلاص والمحبّة، ولم يتردّد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس في صدره بما يزيد مخاوفه ويهيج بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الستار مرفوعًا فسار إلى مكان يطلعان منه على الركن الأيمن الذي يجلس به عبد المعزّ يشاهد التمثيل في الظاهر وينتظر نور الحياة في الحقيقة، ومال الأسطى على أذن

الشيخ وقال هامسًا:

ـ ستوافيه إلى هٰذه المائدة بعد قليل.

فضرب الرجل حجره بيده في حالة عصبيّة وقال بتأثّر:

ـ ألا يكفيه أن يغشى هٰذه البؤرة الفاسدة؟

فقال الأسطى شلبي بلهجة دلّت على الحزن والأسف:

ـ إنّ ما ينفطر له القلب حقًّا أنّ عبد المعزّ كان شابًّا طاهر الخلق.

فتنهّد الرجل بحسرة وقال كالداهش:

ـ ولٰكن من أين له المال الذي ينفقه على ممثّلة؟

ـ أظنّ أنّ العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى، ولهٰذا أهبت بك أن تدركه ولمّا يَهْوِ.

فقال الشيخ بلوم وحزن:

ـ لقد سكتّ عنه يا شيخ شلبي أكثر ممّا ينبغي، كان يجب أن تحذّرني من بادئ الأمر. . .

فقال الأسطى بيقين:

ـ أقسم بالله أنّي ما علمت بسقطته حتّى بادرت إلى الكتابة إليك.

وعند ذٰلك نزل الستار فوجّه الرجلان انتباههما إلى الشابّ الموليهما ظهره. وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه في مشية الأوزة العصريّة وتجلس قبالته، ونظر الأسطى شلبي إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة، وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف:

ـ يا رحمة الله!

ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة التهوّر وقال له بتوسّل:

ـ هدّئ من روعك يا شيخ طه.

ولٰكنّ الشيخ طه لم يستطع أن يهدّئ روعه، وسار كالمترنّح حتّى وقف خلف ابنه الذي لا يحسّ به وألقى على الممثّلة نظرات وحش مفترس، وألقت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التي تدّخرها للمتطفّلين، ولٰكنّها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبثًا حاولت أن تحوّل عينيها عنه كالمستهوي، وعجب الأسطى شلبي لمّا رآها تتلبّسها حالة دهشة وفزع كتلك التي تلبّست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها، فحار لأمرها وقال لنفسه بقلق «ليست هٰذه مسألة عبد المعزّ».

وفي تلك الأثناء التفت عبد المعزّ إلى الوراء فوقعت عيناه على أبيه فجمد في مكانه كالصنم، ولٰكنّ أباه لم يباله كما توقّع واكتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها في يد شلبي وقال بشدّة لا تحتمل المراجعة:

ـ اسبقاني إلى البيت.

فمضى الأسطى شلبي مع الشابّ المرتعب وهو يتمتم:

«خلصنا من الابن طلع لنا الأب».

ولمّا خلا الشيخ والممثّلة قال الرجل باحتقار:

ـ السلام عليك أيّتها الفاجرة التي ما كنت أظنّ أنّ الله سيبتليني برؤيتها مرّة أخرى.

ولم تردّ عليه المرأة الهائلة بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق، وتعلّق عقلها بالشابّ الذي ذهب فعاد الرجل يقول باللهجة نفسها:

ـ حقًّا هٰذه البؤرة التي أُعدّت لأمثالك، لقد كنت يومًا ريفيّة بسيطة ولٰكنّ نفسك كانت ملوّثة تبرأ منها نفوس الريفيّات جميعًا. كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتّم أن ينتهي بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشدّ وعورة، أيّتها الفاجرة.

وكانت نور الحياة تفكّر في أمور أخرى ألهتها عن الإصغاء إليه، فسألته بخوف وإشفاق وهي تشير إلى الناحية التي ذهب إليها الأسطى شلبي وعبد المعزّ:

ـ هل هو. . .؟

ولم تَقْوَ على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشيّة:

ـ نعم. . نعم. . هو ابني. . بل هو الطفل الذي تركته في القماط وفررت مع ذٰلك القصّاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجيّة. . هو ابنك أيّتها الفاجرة فقولي ماذا صنعت به. . .

وابيضّ وجه المرأة وعلاه الكُرْكُم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة:

ـ هل وقعت الجريمة النكراء! هل حدث الإثم

الأكبر؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب؟ والله ما كنت أحبّ أن يشارك ابني في هذه الجريمة الشنعاء ولكنّه الانتقام الإلهيّ الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك المذلّة والهوان إلى أبد الآبدين.

وكانت المرأة في حالة ذهول شديد حجب من حواسّها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه، فغلبت هواجس ضميرها صوت الرجل المرغي المزبد وجعلت تحدّث نفسها.

- ابني.. ربّاه.. أهذا إذًا سرّ حبّي له وعطفي عليه؟.. ابني.. لكأنّه حلم بعيد التحقيق.

فقال الرجل الغاضب:

- فلتموتي كمدًا جزاء إثمك الشنيع.

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت:

- كفى هذيانًا، فإنّه لم يقع بيني وبين ابني ما يخجل منه أحدنا أو كلانا.

فاشتدّ غضب الرجل للهجتها وصاح بصوت انفجاريّ:

- إيّاك وأن تقولي ابنك. لقد ماتت أمّه حين ولادته. أفاهمة أنت؟

ودوّى صوته فالتفت النظّارة إلى ناحيتهما من كلّ صوب، وكادت تفقد الممثّلة صوابها، ولم تر بدًّا من الانسحاب السريع، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت الأسطى شلبي، ولم يطمئنّ به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطّة مصر، وفي أثناء الطريق قال له:

- لن ترى القاهرة مرّة أخرى إن شاء الله.. وسأحوّلك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان.

وضمت عبد المعزّ فلم تنفرج شفتاه عن كلمة، وظلّ جامدًا كالتمثال حتّى آوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضبًا على أبيه، ولعلّه لو رأى الشيخ وهو يختم صلاته ذاك المساء فيبسط يديه، ويدعو ويتوسّل ويذرف الدموع الساخنة لربّما سكت عنه الغضب وأجبرته حناياه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنّه كان لا يرى من الدنيا جميعًا سوى وجه ممتلئ مستدير حلو الابتسامة جمّ المحبّة والحنان يراه في النور والظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح مخيّلته ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان، ولم يفكّر قطّ في النسيان أو التعزّي ولكنّه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلّفه الأمر.

ولاحت الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطرّ أبوه إلى سفر يقتضيه التغيّب بضعة أيّام، ولم يدع الفرصة تفلت لأنّه كان عازمًا عزمًا أكيدًا أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه، ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر - كما قدّر - على خمسة جنيهات دسّها في جيبه وفرّ من البيت.

وبلغ القاهرة ظهرًا، وكان مضطربًا متعبًا فاستراح في مقهى حتّى العصر، ثمّ ركب إلى روض الفرج فإلى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود، ولكنّه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالسًا إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة، فغلى الدم في عروقه، وودّ لو يخسف به الأرض، وحار لحظة قصيرة ثمّ لم يتردّد، فقصد رأسًا إلى حجرات الممثّلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتّى يؤذن له فاقتحم بابها.

وكانت مفاجأة غير متوقّعة، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات المكياج والتواليت تسقط من يديها، ويبدو على أسارير وجهها فرح قهريّ وكادت تفتح له ذراعيها وتضمّه إلى صدرها الخفّاق وتعاطيه قبل الحنان والأمومة. ولكنّها تنبّهت إلى نفسها فتصلّبت في وقفتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول، ولم يكن لديها متّسع للتفكير والتقدير، ولكنّها أحسّت بأنّ الطريق التي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه.

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأوّل وهلة، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنّها أغضت عنه وسألته بلهجة غريبة:

- عبد المعزّ... ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيّرها إشفاقًا:

ـ أنت تعلمين بما أتى بي؛ فكيف تتجاهلينه!

ونفذت لهجته التوسّليّة إلى سويداء قلبها فخفق بشدّة وكاد يطير من بين يديها، ولٰكنّها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل، وسكتت هنيهة لتضبط عواطفها كي لا يظهر اضطراب وجدانها في نبرات صوتها ثمّ قالت:

ـ لا أفقه لما تقول معنى.

فتنهّد الشابّ بحرقة وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبه وقال:

ـ أتيت لأنّي لا أحتمل البعد عنك، وليس بي من قوّة أستطيع بها التصبّر أو التعزّي، فعبثًا حاولت أن أقيم لرجاء والدي وزنًا، وعبثًا حاولت أن أصرف نفسي عن التفكير فيك، وانتهزت فرصة سفر والدي لألوذ بالفرار، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفي في غاية القسوة فأخذت نقود أبي.

وأسكته عن إتمام حديثه صرخة فرّت من فم المرأة الخائفة المشفقة، وسمعها تسأله بألم:

ـ هل سرقت؟

فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثّر شديد:

ـ نعم سرقت ولست آسفًا على ما فعلت لأنّه كان سبيلي الوحيد إليك، ولن أتردّد عن أيّ تضحية في سبيل أن أحظى بقربك؛ وها هي ذي نقودي فافعلي بها ما تشاءين.

ولٰكنّها أشارت إليه بيدها فأسكتته، وسألته بجفاء يعلم الله كم كلّفها من جهد وعذاب.

ـ هل يعود أبوك من سفره سريعًا؟

ـ بعد يومين أو ثلاثة.

فتنهّدت المرأة ارتياحًا وقالت:

ـ ينبغي أن ترجع في الحال إلى بلدك لتردّ النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك.

ولٰكنّه قال بجزع وخوف:

ـ هٰذا مستحيل. أنا لا أستطيع مفارقتك أبدًا.

ـ هٰذا كلام فارغ وعبث طائش والحبّ سريع الزوال، أمّا أثر الجريمة فلا يزول.

فقال بإصرار:

ـ لن أفارقك أبدًا.

وخشيت إن هي لانت له وطاوعت قلبها أن تقضيَ عليه فقالت بصرامة:

ـ ينبغي يا هذا أن تذهب سريعًا وإلّا وجّهت إليّ تهمة تحريضك على السرقة.

فبغت الشابّ وأحسّ بخيبة مريرة وسألها:

ـ أهٰذا كلّ ما يهمّك من أمر عودتي؟

ـ طبعًا..

ـ أتجدّين في القول؟

ـ وهل هٰذا وقت هزل؟!

ـ وفيمَ كانت مودّتك لي؟

ـ وأي مودّة هٰذه التي تهون على النفس ما تهدّدني به جريمتك؟

فقال الشابّ بانفعال شديد:

ـ ولٰكنّي ارتكبت هٰذه الجريمة من أجلك أنت!

ـ لقد جئت أمرًا نكرًا، وإنّ عشّاقي الكثيرين ليتودّدون إليّ بغير ارتكاب الجرائم.

فتنهّد عبد المعزّ تنهّد اليائس المغيظ وقال:

ـ وإذا كنت تكذبين؟

فقالت وكانت في حالة من الإعياء شديدة:

ـ أنت الذي أخطأت فهمي... نعم إنّي لا أنكر أنّي ذكرت في حديثي معك الحبّ ولٰكنّه كان حبًّا بريئًا كحبّ أمّك مثلًا.

وكان دم عبد المعزّ يغلي في عروقه غليانًا، وكان الغضب يفور في قلبه وينفث أمام عينيه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات:

ـ لا تشبّهي نفسك الآثمة بأمّي الطاهرة فتقلقي رقدتها الآمنة أيّتها العاهرة...

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها ـ في غيبوبة الغضب ـ وبصق عليها...

ثمّ ولّى الأدبار فلم يقدّر له أن يرى بشاعة الألم الذي قلّص أساريرها ولا الحزن الذي طفر بالشيخوخة على وجهها، ولا رآها تمسح بصقته بيدها ودمعها ينهمل..

ومضى في طريقه لا يلوي على شيء، هائجًا، ثائرًا كالزوبعة، وركب الترام ونزل منه واستقلّ القطار وهو يحدّث نفسه ويتهدّد ويتوعّد ويتجرّع غصص الندم والأسف.

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شرّ عظيم.

وقد ظنّ أنّ الدرس القاسي الذي تعلّمه كفيل بأن يجتثّ من نفسه كلّ ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعًا، ولٰكنّه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولٰكنّه وجد عقله مجبرًا على التفكير والتذكّر. فساءل نفسه ماذا فعلت نور الحياة ممّا استحقّ من غضبي؟ ألأنّها تودّدت إليّ؟ فهٰذه صناعتها وفنّها، أم لأنّها أشفقت على نفسها من عواقب جريمتي! فهٰذا ما ينتظر من أيّ إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه. وربّما كان من الطبيعيّ أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتي هباء، ولكن لم يكن طبيعيًّا قطّ أن أصبّ عليها جام غضبي، وماذا فعلت هي تلقاء ذٰلك؟ لا شيء، لقد لطمتها وبصقت عليها، فماذا فعلت وهي القادرة على «البهدلة»؟

ومضت الأيّام تلو الأيّام وانتظر على رجاء أن يمحو الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد في أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قطّ وطالما غالط نفسه فيها، ولٰكن ربّما غلبته على أمره أحيانًا فيتنهّد حزنًا ويقول لنفسه آسفًا محسورًا: «ليتني لم أمدد لها يدي بسوء»!

هـذا القـرن

انتصف الليل، وخيّم السكون، وشمل الصمت الدور والطرقات، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة كأنّها تؤنس وحشة الأشجار المغروسة في الأفاريز.

وقد مزّق السكون الآمن بوق سيّارة أتت مسرعة من مبتدأ شارع العبّاس، ثمّ وقفت أمام الباب الحديديّ المغلق لفيلّا آية في الأناقة والجمال. ونفخ السائق في البوق مرّات، فخرج البوّاب من كوخه الخشبيّ وفتح الباب، واندفعت السيّارة إلى داخل الحديقة التي لا يبدو منها إلّا أشباح الأشجار، ودارت دورة غير كاملة، وصعدت منحدرًا ثمّ وقفت أمام الباب الداخليّ للقصر، ونزل السائق مسرعًا وضغط على مفتاح كهربائيّ على كثب من الباب فأضاء مصباحًا وأرسل نورًا أزرق هادئًا، ثمّ فتح باب السيّارة ووقف كالتمثال..

وانتظر لحظات وثواني ودقائق، ثمّ أخذه العجب فأرسل ناظريه إلى داخل السيّارة، فرأى الباشا وزوجه مستغرقين في نوم ثقيل، وكانت السيّدة ملقية برأسها إلى الركن، وجسمها الضخم الهائل ممدودًا، يبدو في الفستان اللامع الملتصق به، كفرس البحر، وكان الباشا مسندًا رأسه إلى كتفها يحسبه من رآه لضآلة جسمه ونحافته وقصر قامته ـ غلامًا صغيرًا. لولا شاربه الغليظ الطويل الذي يرسم مع جسمه الدقيق صورة صليب متساوي الأطراف على وجه التقريب..

ولم ير السائق بدًّا من إيقاظ سيّده فقال بصوت خافت:

ـ سعادة الباشا.. سعادة الباشا..

فلم يبعث نداؤه فيهما أيّ أثر للحياة، فرفع الرجل صوته قائلًا:

ـ سعادة الباشا..

واستطاع نداؤه في هذه المرّة أن يوقظه فتحرّك رأسه، واضطرب شاربه كأنّه جناحا نسر يخفقان، قال بلسان ثقيل متلعثم:

ـ من..؟

ـ وصلنا يا صاحب السعادة..

ـ وماذا تريد؟

ـ عفوا يا صاحب السعادة. تفضّل بالنزول لتصعد إلى مخدعك.

ففتح الباشا عينيه المحمرّتين وكأنّ النور اللطيف الذي ينير المكان آذاهما، فأغمضهما بسرعة وتحسّس بيده ذراع زوجه العاري كأنّه قربة مملوءة بالمياه وقال بصوته الثقيل:

ـ يا هانم.. زينب هانم..

فشهقت المرأة شهقة قويّة لو أصاب تيّارها الباشا لابتلعته، وقالت بتبرّم وسخط:

ـ من..

ـ وصلنا..

ـ وماذا تريد يا باشا؟

ـ تفضّلي لنصعد إلى مخدعنا.

ـ أصعد؟!.. أنا لا أستطيع أن أتحرّك فكيف لي بالصعود!

ـ ما العمل.. هل نقضي الليل في السيّارة؟

ـ ولم لا؟.. المقعد وثير ليّن كالفراش، وهاك ضجعة مريحة فما معنى التعب؟

فقال الباشا للسائق وهو ما يزال مغمض الجفنين:

ـ يا حسن.. اذهب أنت.. سننام ها هنا.

فارتبك السائق وقال بتحرّج:

ـ العفو يا صاحب السعادة.. هٰذا غير طبيعيّ. وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم..

فانثنى إلى زوجه قائلًا:

ـ يا هانم هٰذا غير طبيعيّ وسيرى البوّاب في الصباح ويرى الخدم!

ـ ومن الذي يكلّمك؟

ـ السائق.

ـ أفّ.. لا تضايقني.. ماذا يهمّنا من البوّاب أو الخدم أو السائق.

فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة:

ـ أفّ.. لا تضايقني.. ماذا يهمّنا من البوّاب أو الخدم أو السائق.

فسكت الرجل ولٰكن لم تطاوعه نفسه على الذهاب فوقف ينتظر، أمّا الباشا فأخرج منديله وجفّف عرقه، وقال وهو يفكّ ربطة عنقه:

ـ الدنيا شديدة الحرارة..

فاعتدلت المرأة في جلستها، ولم تلبث أن صاحت:

ـ يا لطيف!

ـ مالك...؟

ـ المقعد يميد بي كأنّي في أرجوحة!

وأرادت أن تمسك بشيء، فوقعت يدها المتخبّطة على شارب الباشا فتألّم الرجل ونزع شاربه من كفّها وهو يقول ضاحكًا:

ـ دعي شاربي.. وهل تحسبينه حبل الأرجوحة؟

ـ أنا في غاية التعب.

ـ شربت كثيرًا يا زينب هانم.. شربت أكثر ممّا ينبغي لك!

ـ وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذٰلك؟ الكلّ كان يشرب رجالًا ونساء... أنت نفسك شربت كثيرًا يا باشا.

ـ أنا متعوّد على الشرب يا هانم.. أنا أستطيع أن أشرب حانة كاملة في ليلة واحدة!

ـ ومع ذٰلك لم تتمالك أعصابك الليلة.. وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك، بل وضحكت منّي أنا يا ناقص!

ـ كيف ذٰلك؟... هٰذا مستحيل.

ـ مستحيل! ألا تذكر ساعة خروجنا من البوفيه؟... كنت تسير ورائي فنظرت إلينا عديلة هانم تلك المرأة الوقحة وقالت: «كان اللّٰه في عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروّض» وضحك جميع المدعوّين وضحكت أنت أيضًا!

ـ أنا لا أذكر هٰذا.

ـ طبعًا لأنّك لم تكن في وعيك، ومع ذٰلك فأنت تزعم أنّك تستطيع أن تشرب حانة في ليلة واحدة... أليس كذٰلك؟ ولٰكنّي انتقمت منك فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذٰلك مباشرة.

ـ وكيف كان ذٰلك؟

ـ كان جماعة من الحاضرين يتعجّبون لنحافة قدّك فاعتذر الأمير الاي فتحي بك عن صغر حجمك بقوله: «إنّ شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النموّ» فضحكت مع الضاحكات والضاحكين.. وواحدة بواحدة.

ـ يا له من ضابط وقح!

ـ أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة في كلّ مكان.. لماذا لا تقصّ شاربك؟

ـ أقصّ شاربي هل جننت يا هانم!؟

ـ وما وجه الجنون في هٰذا؟!.. إنّه حمل ثقيل على جسمك الرقيق.

ـ أيكون الرجل رجلًا بجسمه!

ـ أيكون رجلًا بشاربه؟

ـ معلوم، انظري إلى مثلك، فأنت امرأة ولك جسم فيل... ولٰكن هل توجد امرأة بشارب؟

ـ الحق أقول لكَ إنّي هممت مرّة بقصّ شاربك في أثناء نومك... لولا الخوف!

ـ وما الذي أخافك؟

ـ أشفقت من أن يصبح زواجنا لاغيًا.

ـ وله؟ هل أنت زوجي أم زوج شاربي؟

ـ الحقيقة أنّك بغير هٰذا الشارب، تغدو غلامًا لم يبلغ السنّ القانونيّة للزواج!

ـ هٰذا هذر سكارى، والأولى بك أن تتخفي

جسمك المائل، فضخامته الشاذّة هي المدعاة الحقيقيّة إلى السخرية.. ألم تريْ صديقاتك الليلة؟.. كلّهنّ نحيفات اللّهمّ إلّا راضية هانم وهي على كلّ حال لا تزن نصف وزنك.

ـ أنت المسئول عن وزني.

ـ أنا!

ـ نعم.. لأنّك كنت دائمًا تؤكد لي أنّك تحبّ اللحم العجاليّ والبقريّ.. وأنّك تحتقر الوزن (الهايف)!.. وها أنت ذا تتملّص من تبعاتك كما كنت تفعل وأنت وزيرا!

ـ ما شاء الله!.. هٰذا قول أعدائي السياسيّين، وأرى أنّي أجحد في بيتي كما جحدت من قبل في ميدان السياسة الملعون وأنّي خسرت الدنيا جميعًا.

ـ بل ربحت شيئًا مؤكّدًا...

ـ وما هو؟

ـ أنّك صاحب مقام رفيع!

ـ يا هانم أنت في سكرك كالحشّاشين، والحقّ أنّك تستأهلين رتبة.. ولكن لا أدري أيّ رتبة تناسبك.. فلأفكّر قليلًا.. ما رأيك في لقب الصدر الأعظم؟!

.. وهنا قطع حديث الزوجين طرق عنيف على باب القصر الخارجيّ، وشقّ الصمت المخيّم صوت منكر يصيح:

ـ يا بوّاب... يا عمّ محمّد...

فسكت الزوجان دهشة واعتدلا قليلًا في جلستهما وأرهفا السمع، وخفّ السائق مسرعًا إلى الباب ليرى ما هناك..

* * *

كان الشرطيّ المكلّف بالحراسة الليلة يسير الهوينى في شارع العبّاس، ولمّا بلغ قصر الباشا سار بحذائه وعرّج ملازمًا للسور إلى شارع الإلهامي وانتبه من سهوه إلى حركة في أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى رجلًا يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه، وقد تولّاه الذعر لظهور الشرطيّ المفاجئ فتسمّرت قدماه بالأرض.. وأسرع الحارس إليه وقبض على ذراعه بقسوة وهو يصيح به:

ـ يا ابن الملعون! أتحسب البلد بلا حكومة؟

وكان المقبوض عليه أفنديًا، أنيق الملبس، كشف نور المصباح الخافت في وجهه عن ملامح وديعة ونظرة أدنى إلى الرقّة والجبن منها إلى الشرّ أو التحدّي، ففحصه الشرطيّ بنظرة شديدة وهو يتحسّس جيوبه وقال له متهكّمًا:

ـ أخالك لم تسرق سوى هٰذه البذلة!

فقال الشابّ وهو يلهث من الاضطراب والخوف.

ـ أتركني يا حضرة الشاويش أنا لست لصًّا كما تتوهّم.

ـ عفارم عليك.. فمَن تكون يا مولانا؟

ـ أقسم بالله العظيم أنّي لست لصًّا.. ولم أسرق في حياتي قطّ وهاك جيوبي فتّشها كما تشاء.

ـ آه... هل كنت في القصر زائرًا إذًا؟

ـ أنا.. من أهل القصر؟

ـ فهمت يا سيّدي فهمت.. أنت ابن الباشا بلا شكّ، وما قفزك من السور إلّا رياضة بدنيّة كنت تقوم بها في هٰذه الساعة المتأخّرة من الليل!

ـ بل أردت أن أخرج بسرعة.

ـ وما الذي يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل؟

ـ سفر لا يقبل التأجيل.

ـ أو ليس للقصر باب؟

ـ لم أجد وقتًا لإيقاظ البوّاب.

ـ يا مغيث.. هٰذا حقًّا عصر السرعة.. وليس ببعيد أن أرى غدًا مَن يقفز من نافذة الطابق الثالث أو الرابع لأنّه ليس لديه متّسع من الوقت يهبط فيه السلّم.. عوفيت يا سيّدي عوفيت..

ـ أراك لا تصدّقني يا حضرة الشاويش.. أؤكّد لك أنّي من أهل القصر.. غير أنّي استسهلت أن أقفز على هٰذا السور الصغير.

ـ معلوم.. معلوم.. وليس الذنب ذنبك.. ولٰكن ذنب مَن يحتّم تعليم الألعاب الرياضيّة والتدريب العسكريّ.. على أنّي أجد نفسي مضطرًّا إلى تأخيرك يومًا أو عدّة أيّام وربّما عدّة أشهر.

قال ذٰلك ودفعه أمامه.. ولٰكنّ الشاب ألصق

قدميه بالأرض وقال يتوسّل:

ـ لست لصًا. لست لصًا والله.. أنا من أهل القصر.

ـ إذا كان ما تقوله حقًّا فما عليك إلّا أن تدخل القصر مرّة ثانية فأصدّقك.

ـ حسن اترك ذراعي وسترى..

ـ أدخل البيت من بابه.. تعال.

وساقه إلى باب القصر وطرقه. وهو ينادي البوّاب..

وأتى السائق على صوته مسرعًا وأيقظ البوّاب فقام الرجل ساخطًا وفتح الباب، وأحدث ظهور الشرطيّ والمقبوض عليه دهشتهما، ونظرا إليهما متسائلين، فقال الشرطيّ:

ـ قبضت على هذا الشابّ وهو يقفز من سور القصر، فادّعى أنّه من أهل الدار فهل تعرفانه؟

فأضاء البوّاب المصباح الكهربائيّ، ونظر السائق إلى وجه الشابّ الشاحب وقال مسرعًا:

ـ هذه هي المرّة الأولى التي تقع عليه عيناي.

وسأل البوّاب الشرطيّ:

ـ هل وجدت معه شيئًا؟

ـ سيفتّش في القسم.

وفي تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح في سكون الليل:

ـ يا حسن، من عندك؟

فهرع السائق إلى الباشا، وطمع الشرطيّ في سماع كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشابّ أمامه وتبع السائق، وقال حسن لسيّده:

ـ قبضوا يا صاحب السعادة على لصّ يقفز من سور القصر.

فقام الباشا واقفًا وغادر السيّارة، وهو يقول:

ـ كيف؟ دي لولو كانت في البيت وحدها.

وهرع نحو الباب الداخليّ وتبعته زوجته في تعثّر ظاهر وكان الباشا يصيح:

ـ لولو.. لولو!

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة في لباس النوم الأبيض الشفّاف، أشرقت في الظلماء كالشمس ناشرة في الجو عطرًا يفعل في الأعصاب فعل الموسيقى العذبة، فصاح الوالدان:

ـ الحمد لله.. هل أنت بخير يا لولو؟

فأجابت بصوت له في الأذن وقع العطر في الأنف:

ـ نعم يا ماما ماذا حدث؟

فقال الباشا:

ـ قبضوا على لصّ يقفز من سور القصر.

فخفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدّج:

ـ لصّ!

ـ ألم تسمعي حركة؟

ـ كلّا..

ـ الحمد لله..

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللصّ والشرطيّ والسائق والبوّاب وتبعته زوجته ولولو، ورأت الفتاة وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهادئ فاشتدّ خفقان قلبها، وزاغت عيناها، وخفضت بصرها ذاهلة مضطربة.

وقال الشرطيّ:

ـ يدّعي هٰذا المجرم أنّه من أهل البيت يا صاحب السعادة.

فأنعمت زينب هانم النظر في وجه الشابّ بعينين أطفأت الخمر نورهما وقالت:

ـ كذب.. هٰذا لصّ جريء.

ولٰكن ساورها الشكّ في صحّة بصرها فمالت إلى زوجها وسألته بصوت خافت:

ـ أليس كذٰلك يا باشا؟

فنظر الباشا إلى الشابّ بعينين ذاهلتين كعيني زوجه وقال:

ـ بلى.. بلى.. هٰذا لصّ ولا شكّ.

ثمّ مال على أذن لولو وسألها:

ـ أليس كذٰلك يا لولو؟.

ولم تجب الفتاة أو على الأصحّ لم تسمع السؤال.

فسأل الباشا السائق:

ـ هل تعرف هٰذا الشابّ يا حسن.. هل هو من

أهلنا؟!

وكان السائق يختلس من لولو نظرات ملتهبة ويراقبها بارتياب، فقال بانفعال:

ـ هٰذا لصّ مجرم يا صاحب السعادة.

فقال الباشا للشابّ بلسان متلعثم ثقيل:

ـ كيف تسوّل لك نفسك ادّعاء قرابتي!

ـ لست لصًّا يا صاحب السعادة.

ـ فما كنت تفعل هنا؟

ـ لا أدري يا صاحب السعادة.

ـ ما شاء الله.. هل سقطت من طائرة في حديقتي؟

ـ كلّا يا سعادة الباشا.. ولٰكنّي وجدت نفسي بغتة في الحديقة.. لا أدري كيف ساقتني قدماي إلى هنا!!

فقال الشرطيّ:

ـ ستجد نفسك في السجن إن شاء الله.

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطيّ وقال له بعنف:

ـ يا عسكريّ.. لا تقطع عليّ التحقيق..

فقال الشرطيّ بسرعة:

ـ حاضر يا أفندم.

وسأل الباشا الشابّ:

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أنا آسف يا صاحب السعادة، كنت سكران وقادتني قدماي إلى هنا من غير أن يراني أحد، ونمت على الحشائش بضع ساعات، ثمّ استيقظت في حالة أدنى إلى الوعي والانتباه، فأدركت خطئي، وحاولت إصلاحه بالهروب فوقعت في يدَي الشرطيّ.. لست لصًّا.. فتّشوني فلن تعثروا على شيء.

ـ وماذا شربت؟

وكان السائق في حالة سيّئة من الغيظ والحنق فقال:

ـ هٰذا لص كذّاب يا صاحب السعادة وينبغي أن نسوقه إلى القسم.

ولٰكنّ الباشا انتهره قائلًا:

ـ لا تقاطع التحقيق.

وسأل الباشا وهو يهزّ رأسه بدهاء:

ـ ماذا شربت؟

ـ ويسكي يا صاحب السعادة.

فسألته زينب هانم:

ـ بالصودا؟

ـ نعم.

فمالت المرأة على زوجها وهمست:

ـ أنظر إلى فعل الويسكي بالصودا.

فردّ عليها بصوت خافت:

ـ نعم.. الويسكي بالصودا شراب ملعون.

ثم دنا من الشابّ وهو يقول:

ـ دعنا نفتّشك أوّلًا..

فاستسلم الشابّ إليه، ودسّ الباشا يديه في جيوبه ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها، ولٰكنّ الشابّ لم يمكّنه منها، وأثارت مقاومته شكوك الحاضرين، فقبض الشرطيّ على يديه بقسوة وأخذ الباشا الحافظة، وكانت لحقت به زوجته وابنته، وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة من ذات الجنيه، وعدّة بطاقات وصور صغيرة، ولاحت منه نظرة عارضة إلى الصور، فأيقظت انتباهه وشحذت بصره فنظر إليها بإمعان فرأى صورة لولو، ولولو بذاتها، هل يصدّق عينيه؟.. أم إنّها الخمر؟.. ونظر إلى زوجته يستعين بعينيها فرأى بهما دهشة وإنكارًا، والتفت إلى لولو فرآها تنسحب بخفّة وتعود إلى القصر تسير بخطوات متّئدة غير مبالية بشيء..

وسمع الشرطيّ يسأل بصوته الغليظ:

ـ هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة؟

فردّ محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم:

ـ كلّا ما بها يخصّه دون غيره..

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت عيناه الحادّتان أن تريا، فارتدّ إلى حالة جنونيّة من الغضب والغيظ وقال لسيّده بصوت متهدّج:

ـ إنّ عدم العثور على شيء معه لا يبرّئه بحال وهو ولا شكّ قد حاول السرقة فلم يفلح.

فقال الباشا:

ـ سأتحقّق ممّا إذا كان سكران..

ومال على فم الشابّ يشمّه ثمّ قال:

ـ الآن حصحص الحقّ.. هٰذا الشابّ سكران بغير

شكّ. .

فكاد السائق يجنّ وقال بغضب:

ـ العفو يا صاحب السعادة، العادة أنّ الإنسان إذا كان شاربًا لا يشمّ الخمر في أفواه الآخرين!

فانتفخ الباشا غضبًا، وفتل شاربه بغطرسة وصاح بالسائق:

ـ أنا شارب يا كلب!

ـ العفو يا صاحب السعادة. . أنا أعني. .

ـ لا أقبل منك كلامًا يا سفيه، لقد قضت سفاهتك على أسباب رزقك في هٰذا البيت. يا عسكريّ دع هٰذا الشابّ لي الآن وخذ هٰذا الوقح خارجًا. .

وصدع الشرطيّ بما أُمر، وخلا المكان إلّا من الباشا وزوجته والشابّ.

قال الباشا للشابّ بلهجة تنمّ عن التهديد والوعيد:

ـ ألا تعرف من أنا؟.

ـ أعرف طبعًا يا صاحب السعادة. .

ـ فكيف إذًا تسوّل لك نفسك انتهاك حرمة بيتي؟

ـ أنا غايتي شريفة يا صاحب السعادة. .

ـ وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل؟

وسألته السيّدة:

ـ ما صناعتك؟

ـ موظّف. .

ـ هٰذا يعني أنّك صعلوك.

ـ صعلوك!

ـ نعم. . إنّ الكاتب الحقير الذي لا يجد له وظيفة تشرّفه يطبع على بطاقته كلمة موظّف، وهي لا تعني في الواقع إلّا أنّه كاتب حقير. . أليس كذٰلك!. .

ـ . . . ؟

ـ في أيّ وزارة؟

ـ المساحة. .

ـ ما شاء الله؟ . . وما هي مؤهّلاتك!

ـ . . . !

ـ ما هي مؤهّلاتك؟. أجبني ؟!

ـ البكالوريا. .

ـ بس يا خبر أسود. . وماهيّتك؟.

ـ . . . !

ـ وماهيّتك. . أتوسّل إليك أن تجيبني؟

ـ ستّة جنيهات !

ـ عال. . ولماذا تحبّ ابنة الباشا؟

ـ سيّدتي. .

ـ لماذا لم تحبّ ابنة كلب من طبقتك؟

وتنهّد الباشا من قلب مكلوم وقال للشابّ:

ـ تفضّل مع السلامة. .

وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب منهما كلّ منال فارتمى الباشا على «الشيزلنج» واستلقت السيّدة على الفراش وكانا واجمين حزينين. .

وتنهّد الباشا وقال لها:

ـ أيعجبك هٰذا؟

ـ أنت دائمًا تلقي عليّ تبعة كلّ شيء. .

ـ أنا رجل ينوء بعبء ثقيل سواء في الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات، فأنت وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك!

ـ لا تتكلّم يا سيّدي عن بناتي بهٰذه اللهجة التي لا أقبلها بحال. . إنّي أعلم أنّهنّ أشرف النساء جميعًا!

ـ إذًا أنت ترضين عن هٰذه الأفعال الشائنة؟. .

ألا ترين أنّ مأساة الأخت الكبرى تتكرّر؟ تلك الفتاة البائسة التي أردت أن أزوّجها من طبيب كبير فوقعت في غرام صعلوك متشرّد ممّن يسمّونهم بالموسيقيّين؟

ـ لا تتكلّم عن صهرك بمثل هٰذه الألفاظ فليس هو الآن بالصعلوك ولا المتشرّد، ولكنّه مفتّش موسيقى محترم بوزارة المعارف!

ـ أنا الذي عيّنته في هذه الوظيفة التي هو غير أهل لها بحال. . أنا الذي خلقته.

ـ اخلق هٰذا أيضًا من أجل لولو.

ـ ولكنّه غير قابل للخلق. . لقد كان الأوّل مغنيًّا فاستطعت أن أصنع منه مفتّشًا للموسيقى وإن كان لا يفقه شيئًا في الموسيقى، ولكن ما عسى أن أصنع بهٰذا وكلّ مؤهّلاته البكالوريا؟. الأوفق أن نطرده!

ـ ليت ذٰلك ممكن! . . ولٰكنّك تعلم أنّ لولو عنيدة صلبة الإرادة، فلنوار سوأتنا ونصنع منه شيئًا . .

ـ مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب.

ـ حنانيك يا باشا، هل شحّ الزمان حتّى تتزوّج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (ووزير لاحق إن شاء الله) من كاتب؟!.

ـ وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة مثل لولو؟

ـ دع أحاديث الغضب جانبًا، وقل لي ألا يمكن إلحاقه بأيّ وظيفة في مفوّضيّة أو قنصليّة؟

ـ مفوّضيّة أو قنصليّة؟ . . أهٰذا كلام يقال على واحد كلّ مؤهّلاته البكالوريا؟

ـ أفّ . . أنا أعلم جيّدًا أنّك متعب، ومهما يكن من أمر فينبغي ألّا تكون درجته أقلّ من السادسة وألّا تقلّ ماهيّته عن خمسة عشر جنيهًا . . وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أيّ واحد منهم سكرتيرًا له.

ـ ليس الأمر سهلًا يا هانم كما يبدو لك، فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيّات والاستثناءات.

ـ وهل يرضي الصحف أن تتزوّج ابنة واحد باشا من كاتب بستّة جنيهات؟

ـ إنّ للصحافة همومًا لا تدع لها وقتًا للتفكير في مسألة زواج لولو!

ـ وإنّ مستقبل لولو لفوق الصحافة وهمومها، فينبغي أن تخلق هٰذا الشابّ من جديد.

ـ هل كتب عليّ أن أخلق كلّ يوم شابًّا من جديد؟

ـ أرجو أن تذكر أنّك كنت موظّفًا بائسًا حين تزوّجتك وأنّه لولا المغفور له والدي . .

ـ إنّ أباك لم يخلقني ولٰكنّه أتاح الظروف المناسبة لعظمتي الكامنة!

ـ صه . . لولا أبي لكنت الآن موظّفًا بالدرجة السابعة على أكثر تقدير.

ـ أبهٰذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القذر؟

ـ مَعْلهش يا باشا، إنّهنّ ورثن عنّي ذٰلك الذوق الذي حملني فيما مضى على الزواج منك.

***

وكان السائق هائجًا غاضبًا، يلعن ويتوعّد، والشرطيّ يهدّئ روعه ويعزّيه عن «قطع عيشه» بكلمات لا تغني، وقد قال له:

ـ أنت مخطئ يا حسن . . لماذا تدخل فيما لا يعنيك؟ .

فقال محتدًّا:

ـ أهٰذا رجل؟

ـ وما الذي يغضبك أنت؟ . . إنّها ابنته لا ابنتك!

ثمّ غمز بعينه وتساءل:

ـ أم هناك سبب آخر لهٰذا الغضب؟ . . أهو غضب أم غيرة يا شيطان؟!.

فلمّا لم يردّ عليه الجواب قال له وهو يودّعه:

ـ مَعْلهش يا حسن. فالحقّ أن الباشا لم يعرف يربّي غير شنبه.

الجـــوع

انتصف الليل ولمّا يصادف حظّ الوجيه محمّد عبد القويّ غير العبوس، وما انفكّت خسارته تنمو وتتضاعف حتّى بلغت نيّفًا وأربعين جنيهًا في أقلّ من ثلاث ساعات، وكان هٰذا دأبه في أكثر لياليه، فلم تعد الخسارة تهزّ أعصابه أو تكرب نفسه. كان يتعاطاها بغير مبالاة بين رشف الكؤوس وقذف الدعابات. ثمّ ينساها بمجرّد الانفصال عن المائدة الخضراء. ولٰكنّه كفّ تلك الليلة عن اللعب بغير إرادته لخمار دار برأسه، فرغب في تنسّم هواء الخريف الرطيب في الخارج ومراودة نشاطه بالمشي والحركة، فنهض معتذرًا، وغادر النادي، وكان الطريق كالمقفر والجوّ لطيفًا منعشًا، فسرت منه إلى رأسه الساخن الدائر قرّة وسكينة، فجدّ في السير مصفرًا صفيرًا خافتًا وأحيانًا مترنّمًا، لغير غاية، وانحرف إلى الطريق المؤدّي إلى قنطرة قصر النيل، وبصر بها في نهايته فانشرح صدره وحثّ خطاه، فلمّا بلغها مضى يسير الهوينا التماسًا لمزيد من الراحة والانتعاش، ولم يكن يقطعها في تلك الساعة إلّا السيّارات المنطلقة في فترات متقطّعة، إلّا أنّه حين بلغ ثلثها الأخير لاحت منه التفاتة إلى الجانب الأيسر منها فرأى رجلًا رثّ الهيئة في جلباب قذر ينحني متقوّسًا على سور القنطرة ملقيًا برأسه إلى النهر فلم يلق إليه بالًا، ومضى إلى نهاية القنطرة، ولم يجد رغبة للتوغّل فيما وراءها فتحوّل إلى الجانب الأيسر ليعود من حيث أتى، وكان الرجل ما زال في تقوّسه واستغراقه إن لم تكن أسكرته نسائم الهواء الرطيب فتسلّل النوم إلى جفنيه... ولمّا صار منه على بعد قريب رآه يقفز بحركة مباغتة إلى أعلى السور ثمّ توثّب كأنّما ليلقي بنفسه إلى النيل، فاندفع نحوه بسرعة جنونيّة وأدركه في اللحظة الفاصلة، فأمسك بيسراه وجذبه إلى الخلف بشدّة فسقط على الإفريز عوضًا عن أن يسقط في النهر، وبلغ منه الانفعال وتدافعت أنفاسه وتفرّس وجه الرجل الذي هانت عليه الحياة فرآه يحدجه بنظرة جامدة ووجه مكفهرّ، وقد لاح لعينيه هزاله ورثاثته وشدّة اصفرار وجهه، فصاح به:

ـ ماذا كنت فاعلًا بنفسك؟

فلم ينبس بكلمة وظلّ على جموده واكفهراره، وتمالك الوجيه عواطفه فعجب لما يدفع مثل ذٰلك الرجل إلى الانتحار وهو لا يعلو على الحيوان ـ والحيوان في العادة لا ينتحر ـ فسأله:

ـ هل كنت حقًّا تروم الانتحار؟ لماذا؟.. دعني أشمّ فمك، هل أنت ثمل أم مجنون؟.. تكلّم يا حيوان.

فقال الرجل بصوت مبحوح دلّ على الحقد والاستهانة:

ـ أنا جائع.

فنظر إليه كالمرتاب وقال:

ـ كذبت... إنّ الكلاب الضالّة تجد قوتها... ولن أصدّق أنّ إنسانًا يموت جوعًا في هٰذا البلد.. ولٰكن هل تدمن الحشيش أو المنزول؟

فقال بنفس اللهجة:

ـ لك عذرك.. فإنّك لم تعرف الجوع.. هل ذقت الجوع؟... هل بتّ ليلة بعد ليلة تتلوّى من عضّ أنيابه؟ هل ثقب أذنيك عويل أطفالك من نهشة أمعدتهم؟.. هل رأيت صغارك يومًا يمضغون عيدان الحصيرة ويأكلون طين الأرض!.. تكلّم يا إنسان... وإذا لم يكن لديك ما تقوله فلماذا تحول بينهم وبين

الخلاص من غائلة الجوع؟

فامتعضت نفسه وسأله بلهجة لم تخلُ من شك:

ـ أتعني حقًّا أنّ لك زوجًا وأطفالًا؟

ففطن الرجل إلى بواعث شكّه وعبس وجهه امتعاضًا وقال:

ـ كنت يومًا قادرًا على الزواج والإنفاق.. كنت عاملًا بمصانع عبد القويّ شاكر.

وأحدث الاسم في نفس الوجيه هزّة عنيفة لأنّه اسم والده، وكان يوشك أن يسأم ويضجر فاسترجع اهتمامه وسأل الرجل:

ـ هل حقًّا كنت عاملًا مرتزقًا؟!

ـ نعم.. وبلغت يوميّتي ستّة قروش.. وكنت محترمًا ومحبوبًا. وكفلت الحياة لزوجي وأمّي وأطفالي السّتّة. بل كنت أعظم جلدًا من البك صاحب المصانع العظيمة لأنّي تعوّدت الرضا والقناعة حيث جعل يتذمّر ويشكو سوء الحال ويعتلّ بالعلل لقطع رزق البعض والتقتير على البعض الآخر.. لم تكن الحياة رغدًا ولا يسرًا.. ولكنّها كانت مشفّقة بالرجاء والأمل.

وأمسك الرجل عن الكلام كأنّ استرجاع الذكريات الحلوة استنفد البقيّة الباقية من حيويّته وقواه فجزع الوجيه وقال له:

ـ هيه.. وكيف انقلب بك الحال إلى هذا المصير؟

فرفع يمناه إلى أعلى فتدلّى كم الجلباب الممزّق كأنّه لا يوجد فيه ما يمسك به، وبرز من أحد خروقه بقيّة عضده كأنّه رِجْل أريكة تداعت وأكلها التقادم، وأشار إليها بيسراه وقال:

ـ أرأيت إلى هذا.. لقد هوت الآلة الجبّارة على ذراعي وأنا منشغل عنها بما بين يديّ فلم تبق منه إلّا على ما ترى وأطاحت بالجزء النافع الذي أكسب به قوتي فجعلتني في ثانية شيئًا تافهًا عن الحاجة.. ولمّا تماثلت للشفاء مضيت إلى البك صاحب المصنع منكسر الفؤاد مفعم النفس بالقنوط فتلقّاني آسفًا وأعلن أنّي قطعت ذراعي من جرّاء إهمالي، فقلت له إنّه القضاء الذي لا يردّ فهزّ رأسه آسفًا وتصدّق عليّ بمبلغ يسير.

فقلت له إنّ هذا المبلغ لا بدّ نافد عاجلًا أو آجلًا، وإنّي وأسرتي سنموت جوعًا إذا لم تدركنا رحمته... فوعدني أن يتصدّق عليّ بثلاثين قرشًا كلّ شهر... وكان هذا أقصى ما ظفرت به منه. وأدركت أنّ حياتي دمّرت تدميرًا، وأنّي وأمّي وزوجي وأطفالي الستّة قد ألقي بنا إلى الفقر والجوع.. ولشدّ ما وجدت الحياة قاسية لا رحمة فيها.. فتجرّعت مرارتها قطرة فقطرة وهمت على وجهي في الطرقات أسائل السابلة مستدرًّا رحمتهم بعرض بقيّة عضدي على أنظارهم، متلهّفًا على الملاليم وكسر الخبز، وعلم الله أنّي كنت ذا حياء وأنفة وأنّ إماتة هذه العاطفة النبيلة كلّفني ما لا أطيق من الألم والخجل، واشتدّت وطأة العيش فبعت الضروريّ من أثاث حجرتنا بثمن بخس. وتمزّقت ثيابنا وتعرّى الأطفال.. وتهالكنا من الجوع.. وكان أقسى ما في حياتنا صراخ الأطفال وعويلهم وشكواهم، فجوع دهر طويل أخفّ على نفسي من قول طفلي وهو يتطلّع إليّ كالمستغيث ودموعه منهمرة «أبتي.. أنا جائع». ولاحقتني هذه الآلام فجعلت صدري جحيمًا وبغّضت لي الدنيا وولّدت في قلبي شعور المقت والحقد. وتضاعف إحساسي بعجزي وهواني حتّى قال صاحب ممّن جمعنا الجوع في ميدان واحد: «ما لك تكلّف نفسك ما لا تطيق من الهمّ كأنّك امرأة مترفة تأكل كلّ يوم رطل لحمة.. سيتحجّر قلبك ويصبح الجوع مستملحًا فتجيب ابنك إذا شكا اليك الجوع كما أجيب ابني.. بلطمة تنسيه الجوع».

وسكت الرجل وقد بلغ منه الإعياء والتأثّر، وبدأ الوجيه يضجر مرّة أخرى ويفكّر في حلّ للعقبة التي اعترضت سبيله ليتخلّص منها على وجه مُرْضٍ فسأل الرجل:

ـ أهذا ما دفعك إلى محاولة الانتحار؟

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه كأنّه يقول له بل أكثر وأكثر:

ـ في مساء هذا اليوم رجعت إلى الفناء الذي نأوي إليه صفر اليدين عجزًا وإعياء. فلقيت الأطفال نائمين هادئين فاستولت عليّ الدهشة كيف نزلت عليهم

السكينة؟ هل تعوّدوا الجوع فما عاد يقرصهم!؟.. وكانت زوجي وأمّي نائمتين أيضًا. فأيقظت أكبر الأطفال.. وأدنيته منّي، وما إن أفاق من ذهول النوم حتّى اندفع يقول لي فرحًا: «أكلنا عيشًا ساخنًا». فسألته: «من أتى به»؟ فقال: «عمّ سليمان الفرّان» فنفذ الاسم إلى صدري المتهالك كالرصاصة، وشددت قبضة يدي على ساعده وسألته وقد طالعت في وجهه أثر ما لاح في وجهي من التغيير «وهل الرجل دعا أمّك إلى الفرن أم أتى بنفسه إلى هنا؟» فقال: «أرسلها مع غلامه» فلم أرتح إلى جوابه على الرغم أنّه لم يحقّق شكوكي ودفعته ساخطًا غاضبًا، واستقرّ بصري على وجه زوجي وقد تملّكني الحنق وتخايلت لعينيّ أشباح مخيفة. لقد امتلأت عيناها بالنوم بعد أن امتلأ بطنها.. بعد أن ملأها الوغد الذي خطب ودّها فيما مضى وراجعه هواه فسعى بحذق إلى استغلال ما تعاني من الشقاء والجوع. إنّي أدرك كلّ شيء. وأدركه بمشاعري التي نشأت عليها ولم يظفر الجوع بإماتتها بعد.. إنّها ما تزال حيّة في صدري تبعث في نفسي الغيرة وفي قلبي الغضب.. وتشبّعت أفكاري بروح الجريمة والعدوان.. هل أنقضّ على المرأة النائمة فأكتم أنفاسها؟ كانت رغبتي في الفتك عظيمة جبّارة. ولٰكن لاحت منّي التفاتة إلى الأطفال فتردّدت. من لهم بعد أمّهم وأبيهم؟. وتخاذلت وتداعت إرادتي.. ونفّست عن غضبي فركلتها بعنف وغادرت الفناء وصراخها الفزع يلاحقني. ثمّ همت على وجهي في الطرق التي أتسوّل فيها.. وجعلت أتخبّط على غير هدى.. وعاودتني أفكار العدوان.. هل أرجع إلى الفرن وأثب على عمّ سليمان وثبة الهلاك؟ أم أرصد عبد القويّ بك وأطعنه طعنة قاتلة؟.. ولٰكن ما أعجزني.. فقدت يمناي ودبّ الإعياء في جسمي وأطرافي وتضعضعت حواسّي. ثمّ بلغته بي قدماي هٰذا المكان ورأيت النهر الجاري في وحشة الليل فانجابت عنّي الوساوس: وأدركت للحال كيف ينبغي أن أنهي الحياة وخلت أنّ النيل ضالّتي المنشودة. وكأنّ قضاء إلٰهيًّا هداني إليه ليدلّني على سبيل الخلاص والراحة. واستولت عليّ فكرة الموت واستبدّت بي. وتفكّرت في عجزي وضعفي وجوعي. وفي عذاب أطفالي وشقائهم. فحمدت الله على أنّي لم أطع غضبي وأقتل زوجي. وقلت لنفسي إنّني إذا اختفيت من حياتها فلن يعييها إطعام الأطفال. ليكن عمّ سليمان أو غيره أمّا أنا فلا. وما عليّ إلّا أن أوجّه غضبي إلى نفسي فتكون الضحيّة.. وألقيت بناظريّ إلى النهر طويلًا واستسلمت لليأس. ثمّ توثّبت لألقي بنفسي. ولٰكنّك حلت بيني وبين ما أريد. هٰذا كلّ ما هنالك. فهل أدركت الآن أيّ شرّ فعلت؟

وكان الوجيه يصغي إلى الرجل مصطبرًا ويعمل فكره فسأله:

ـ هل إذا تركتك الآن تعود؟

فقال الرجل بهدوء وتصميم:

ـ إن شاء الله.

فضحك الوجيه وكان قد بتّ في المسألة برأي قاطع، وبحث في جيوبه عن نقود فضّيّة فعثر بقطعة ذات عشرة قروش فدسّها في يد الرجل وقال:

ـ استعن بهٰذه على إصلاح أمرك، وإذا طلع عليك صباح الغد فتوجّه من فورك إلى المصنع الذي كنت تعمل فيه وستجدني هنالك في انتظارك، وهاك بطاقة تقدّمها لمن يعترض سبيلك.

وأعطاه البطاقة ودفعه عن السور وهو يقول:

ـ أجّل عزمتك فما يزال لديك متّسع من الأمل وسأجد لك عملًا كبوّاب أو خادم أو ما شاكل ذلك.. تقدّم وعد إلى رشدك.. ولٰكن خبّرني قبل أن أنسى ما اسمك؟.

وجعل الرجل ينظر إليه بعينين ذاهلتين كأنّه لا يصدّق أذنيه، ولمّا سأله عن اسمه قال بصوت غريب «إبراهيم حنفي» فدفعه الشابّ مرّة أخرى:

ـ افعل ما أمرتك به يا إبراهيم.. سلام عليك.

وتحوّل عنه ومضى في طريقه متفكّرًا.. يعجب كيف أنّه أتى في الوقت المناسب ليعفي أباه من وزر ثقيل: وكان ينطوي في قرارة نفسه على سذاجة فأيقن أنّ ما ساقه إلى الرجل في الوقت المناسب شيء أكبر من

المصادفة، فأثلج صدره وشعر بارتياح وطمأنينة.

ولكنّ فكرة خطرت له بباله فقطّب جبينه وتساءل كالحالم وهو يجدّ في السير.

«ترى كم أسرة من الأسر التي يشقى بها أمثال إبراهيم حنفي يمكن أن تسعدها النقود التي أخسرها كلّ ليلة في النادي؟!».

بذلة الأسير

كان «جحشة» بائع السجائر أوّل السابقين إلى محطّة الزقازيق حين اقترب ميعاد قدوم القطار. وكان يعدّ المحطّة بحقّ سوقه النافقة، فيمضي على الإفريز في نشاط منقطع النظير يتصيّد الزبائن بعينيه الصغيرتين الخبيرتين. ولعلّ «جحشة» لو سئل عن مهنته للعنها شرّ لعنة، لأنّه كغالبيّة الناس برمٌ بحياته، ساخط على حظّه. ولعلّه لو ملك حرّيّة الاختيار لآثر أن يكون سائق سيّارة أحد الأغنياء فيرتدي لباس الأفنديّة ويأكل من طعام البك، ويرافقه إلى الأماكن المختارة في الصيف والشتاء مؤثرًا من أعمال الكفاح في سبيل القوت ما هو أدنى إلى التسلية والملهاة. على أنّه كانت له أسبابه الخاصّة ودواعيه الخفيّة لإيثار هٰذا العمل وتمنّيه من يوم أن رأى «الغرّ» ـ سائق أحد الأعيان يتعرّض للفتاة نبويّة خادم المأمور في الطريق ويغازلها بجسارة وثقة. بل سمعه مرّة يقول لها وهو يفرك يديه حبورًا: «سآتي قريبًا ومعي الخاتم» ورأى الفتاة تبتسم في دلال وترفع طرف الملاءة عن رأسها كأنّها تسوّيها، والحقيقة أنّها أرادت أن تبدي عن شعرها الفاحم المدهون بالزيت.. رأى ذلك فالتهب قلبه وأحسّ الغيرة تنهشه نهشًا موجعًا: وكان به من عينيها السوداوين أوجاع وأمراض. وكان يتبعها عن كثب ويقطع عليها السبيل في الذهاب والإياب، حتّى إذا خلا بها في عطفة أعاد على أذنيها ما قال لها الغرّ: «سآتي قريبًا ومعي الخاتم»، ولكنّها لوت عنه رأسها وقطّبت جبينها وقالت باحتقار: «هات لك قبقاب أحسن». فنظر إلى قدميه الغليظتين كأنّهما بُطّنا بخُفَّيْ جمل، وجلبابه القذر، وطاقيّته المعقّرة وقال: «هٰذا سبب شقائي وأُفول نجمي». ونفس على «الغرّ» عمله وتمنّاه.. على أنّ آماله لم تقطعه عن مهنته، فثابر على كدّه قانعًا من آلامه بالأحلام. وقصد في ذٰلك الأصيل إلى محطّة الزقازيق يحمل صندوقه وينظر القادم. ونظر إلى الأفق فرأى القطار قادمًا من بُعد كأنّه سحابة دخان، وما زال يدنو ويقترب وتتميّز أجزاؤه ويتصاعد ضجيجه حتّى وقف على إفريز المحطّة. وهرع «جحشة» إلى العربات المتراصّة، فرأى ـ لدهشته ـ على الأبواب حرّاسًا مسلّحين ووجوهًا غريبة تطلّ من النوافذ بأعين ذاهلة منكسرة. وتساءل الخلق: فقيل لهم بأنّ هؤلاء أسرى الإيطاليين الذي تساقطوا بين أيدي عدوّهم بغير حساب، وأنّهم يساقون الآن إلى المعتقلات.

فوقف «جحشة» متحيّرًا يقلّب عينيه في الوجوه المغبّرة؛ ثمّ أدركته الكآبة لأنّه أيقن أنّ تلك الوجوه الشاحبة الغارقة في البؤس والفقر لن يكون في وسعها إشباع نهمها من سجائره.. ووجدهم يلتهمون صندوقه بشراهة وجوع؛ فألقى عليهم نظرة سخط واحتقار، وهمّ أن يوليهم ظهره ويعود من حيث أتى. ولكنّه سمع صوتًا يصيح به بالعربية بلهجة إفرنجيّة قائلًا:

ـ سجائر.

فحدجه بنظرة دهشة وريبة ثمّ فرك سبّابته بإبهامه: أي نقود. ففهم الجنديّ وأومأ برأسه، فاقترب محاذرًا ووقف على بُعد لا تبلغه يد الجنديّ. فخلع الجنديّ جاكتته بهدوء وقال له وهو يلوّح بها:

ـ هٰذه نقودي.

فتعجّب «جحشة» وتفرّس في الجاكتة الرماديّة ذات الأزرار الصفراء بين الدهشة والطمع. ووجب قلبه،

ولكنّه لم يكن ساذجًا أو مغفّلًا فأخفى ما قام بنفسه أن يقع فريسة جشع الإيطاليّ، وأبرز في هدوء ظاهريّ علبة سجائر، ومدّ يده ليأخذ الجاكتة. فقطب الجنديّ جبينه وصاح به:

- علبة واحدة بجاكتة؟. هات عشرًا

فذعر جحشة وتراجع إلى الوراء وقد غاض طمعه، وأوشك أن يأخذ في غير السبيل. فصاح به الجنديّ:

- أعطني عددًا مناسبًا. . تسعًا. . أو ثمانيا.

فهزّ الشابّ رأسه بعناد. فقال الجنديّ:

- إذا سبعًا.

ولكنّه هزّ رأسه كما فعل في الأولى، وتظاهر بأنّه يعتزم المسير فقنع الجنديّ بستّ ثمّ هبط إلى خمس؛ فلوّح جحشة بيده متظاهرًا باليأس، وتراجع إلى المقعد وجلس فصاح به الجنديّ المجنون:

- تعال. رضيت بأربع.

فلم يلق إليه بالًا، وليدلّه على عدم اكترائه أشعل سيجارة ومضى يدخّن في تلذّذ وهدوء. فثارت ثائرة الجنديّ وأهاجه الغضب، وبدا وكأنّه ليس له غاية في الوجود سوى الاستيلاء على سجائر، فهبط بطلبه إلى ثلاث ثمّ إلى اثنتين ولبث «جحشة» جالسًا يغالب اضطرام عواطفه وأوجاع طمعه ولمّا نزل الجنديّ إلى اثنتين أبدى حركة بغير إرادة رآها الجنديّ فقال له وهو يمدّ يده بالجاكتة:

- هات.

فلم يرَ بدًّا من النهوض ودنا من القطار حتّى أخذ الجاكتة، وأعطى الجنديّ العلبتين. وتفرّس الجاكتة بعين جذلة راضية، وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ظفر. ووضع الصندوق على المقعد وارتدى الجاكتة، وزرّرها، فبدت فضفاضة ولكنّه لم يعنَ بذلك وتاه عجبًا وسرورًا واستردّ صندوقه، وأخذ يقطع الإفريز فخورًا طروبًا. وارتسمت لعينيه صورة نبويّة في ملاءتها اللفّ فقال متمتمًا: لو تراني الآن! نعم لن تتجافاني بعد اليوم ولن تلوي وجهها عنّي احتقارًا، ولن يجد «الغرّ» ما يفخر به عليّ. ولكنّه ذكر أنّ الغرّ يرتدي بذلة كاملة لا جاكتة مفردة فكيف السبيل إلى البطلون؟ وفكّر مليًا. وألقى على رءوس الأسرى المطلّة من نوافذ القطار نظرة ذات معنى. ولعب الطمع بقلبه من جديد فاضطربت نفسه بعد أن أوشكت أن تستقرّ. ودلف إلى القطار ونادى بجرأة:

- سجائر. سجائر. العلبة بمنطلون لمن ليس معه نقود. . العلبة بمنطلون.

وأعاد نداءه مثنى وثلاثًا، وخشي أن يغيب عن الأفهام مقصده فمضى يومئ إلى الجاكتة التي يرتديها ويلوّح بعلبة سجائر. وأحدثت إيماءته الأثر المرجوّ، فلم يتردّد جنديّ أن يهمّ بخلع جاكتته ولكنّه سارع نحوه وأومأ إليه أن يتمهّل، ثم أشار إلى بنطلونه يعني أنّ ذلك بغيته، وهزّ الجنديّ منكبيه باستهانة وخلع البنطلون وتمّ التبادل. وقبضت يد «جحشة» على البنطلون بقوّة يكاد يطير من الفرح، وتقهقر إلى مكانه الأوّل وأخذ يرتدي البنطلون. وانتهى في أقلّ من دقيقة فصار جنديًا إيطاليًا كاملًا. . . ترى هل ينقصه شيء؟. . المؤسف حقًّا أنّ هؤلاء الأسرى لا يغطّون رءوسهم بالطرابيش. . . ولكنّهم يضعون أقدامهم في أحذية. ولا غنًى عن حذاء ليتساوى بالغرّ الذي يكرب حياته. وحمل صندوقه وهرع إلى القطار وهو يصرخ:

- سجائر. . العلبة بحذاء. . العلبة بحذاء.

واستعان على التفاهم بالإشارة كما فعل في المرّة الأولى. ولكنّه قبل أن يظفر بزبون جديد آذنت صفّارة القطار بالمسير فتمخّضت عن موجة نشاط شملت الحرّاس جميعًا. وكانت سحائب الظلام تغشى جوانب المحطّة، وطائر الليل يحلّق في الفضاء، فتوقّف جحشة وفي نفسه لوعة. وفي عينيه حسرة وغيظ. ولمّا أخذ القطار يتحرّك لمحه حارس في عربة أماميّة فبدا على وجهه الغضب وصاح بالإنجليزية ثمّ بالإيطالية:

- إصعد بسرعة. إصعد أيّها الأسير.

فلم يفهم «جحشة» ما يقول وأراد أن ينفّس عن صدره فجعل يقلّده في حركاته مستهزئًا مطمئنًا إلى بعده عن متناول يده. فصاح به الحارس مرّة أخرى والقطار يبتعد رويدًا رويدًا:

- اصعد. . إنّي أحذّرك. . اصعد.

فزمّ جحشة شفتيه احتقارًا وولّاه ظهره وهمّ بالمسير فكوّر الحارس قبضة يسراه مهدّدًا وصوّب بندقيّته نحو الشابّ الغافل... وأطلق النار. ودوّى عزيف الرصاصة يصمّ الآذان وأعقبتها صرخة ألم وفزع.

وتصلّب جسم «جحشة» في مكانه فسقط الصندوق من يده، وتناثرت علب السجائر والكبريت. ثمّ انقلب على وجهه جثّة هامدة.

نحن رجال

كانت عطفة شنكل من زينتها في حلّة باهرة، فسماؤها أعلام خضراء وثريّات حمراء وبيضاء، وأرضها رمال صفراء وعلى مدخلها أقيم قوس من سعف النخل والورد والرياحين، وقد راحت جماعات الغلمان الحفاة تعدو لاهية عابثة بين قوس الاستقبال وباب آخر بيت في العطفة أسبغت الزينات على جدرانه الباهتة المتداعية بهاء وجدّة، فدلّ الحال على أنّ القوم يحتفلون بعرس أو ختان أو عودة حاجّ. وقبيل الغروب بدت عند منعطف الطريق طلائع موكب مكوّن من عربات ثلاث عقدت على مقدّم أولاها هالات الورود والأزهار وطوّقت أعناق جيادها بأهلّة من الرياحين، واقترب الموكب يتهادى حاملة عرباته الرجال الأشدّاء ذوي العمائم البيض والجلابيب الفضفاضة والعصيّ الغليظة حتّى وقف أمام العطفة، وكان يتوسّط القعود في العربة الأولى شابّ في مقتبل العمر غزير الشارب يرتدي جلّابية حريريّة بيضاء ويعصب رأسه بلاسة وقطائم، فنهض في خيلاء وغادر العربة معتمدًا على عصًا عجراء فأقبل نحوه المنتظرون محتفين يسلّمون عليه ويقولون بلسان واحد:

ـ مبارك يا معلّم جعدة.. ربّنا يزيد ويبارك يا معلّم.

وانطلق الغلمان يهتفون منشدين: «يا ابن عطفتنا يا جعدة..» وقد تعالت الزغاريد من أبواب البيوت المتداعية ومن وراء خصاص النوافذ وتلقّى القادم التحيّات بابتسام وزهو وسار في شبه دائرة من الصحاب متبخترًا مرحًا لا تسعه الدنيا من السرور والغبطة.

لم يكن المعلّم جعدة عريسًا ولا مختونًا ولا حاجًّا، كان في الحقيقة عائدًا من السجن، وليس عليه في ذلك من بأس فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلّا وقد زار السجن مرّة أو أكثر ولكنّ جعدة وحده الذي شقّ سبيله إلى الجاه والثروة، فإذا كانت شنكل قد أنجبت شطّارًا وفتوات عديدين فلم تنجب في الواقع إلّا غنيًّا واحدًا هو جعدة.

كان قبل الحرب بائع بطاطة يسوق عربته الصغيرة حاسرًا جلّابيته الزرقاء إلى ما فوق ركبته، ولم يكن يملك من حطام الدنيا شيئًا حتّى عربته كان يكتريها بقرش في اليوم، فلمّا كانت الحرب وجد له عملًا في المعسكر البريطانيّ بالعبّاسيّة، وسرعان ما خلع جلّابيّته وارتدى قميصًا وبنطلونًا كاكيّين وحذاء أسود أنيقًا واستطاع في مدّة وجيزة أن يتقن السباب باللغة الإنجليزيّة وباللهجة الإسكتلنديّة.. وتنقّل في عمله بين معسكرات عديدة حتّى رمت به النوى إلى التلّ الكبير، وهناك ابتسم له الحظّ فترامت الأخبار بأنّه يتاجر في المهمّات والأغذية. بل قيل إنّه تعهّد بالغسل في المعسكر جميعه، وتناثرت عنه حكايات كالأساطير مؤدّاها أنّه أثرى ثراء فاحشًا، وأنّه أمسى يلعب بالجنيه لعب عابث مقتدر. ثمّ قال الرواة يومًا إنّه ضبط متلبّسًا بالاتّجار في أغذية الجيش، وقضي عليه بالسجن عامًا ولكنّه على أيّة حال دخل السجن من المثرين وكذلك فارقه. وقد زفّ شقيقه إلى الأهل والأحباب خبر الإفراج عنه وأقام الزينات وأتى بالزمّار والمنشدين وأقسم ليجعلنّ من يوم أخيه يومًا مشهودًا. وهكذا عاد جعدة إلى عطفته كالعرسان واستقبل بالزغاريد والدفوف والمزامير، ومضوا به إلى منظرة بالفناء حيث كان يبيت وعربة البطاطا قبل أربعة أعوام ـ فرشت

بالحصر ورصّت إلى جوانبها أرائك، فجلس في الصدر يحيط به الإخوان الأقربون، ومدّت المقاعد في الفناء وتصدّر المكان الزمّار وأعوانه، وزمّرت المزامير وأنشد المنشدون واستبق الفتيان إلى الرقص ودارت أكواب الشربات والجوزة والبوري، وشمل الفرح البيت والناس جميعًا، أمّا في المنظرة فقد جيء بزجاجات الكونياك حيث جمع الصفاء بين الأحباب فأترعت الأكواب ودارت على الأفواه النهمة المشتاقة، وجرى اسم جعدة على الألسنة وتعالى له الدعاء، ومال الشابّ على أذن شقيقه وقد ألحّت عليه شهوة الظهور والإعلان عن النعمة وقال له: ابسط يديك حتّى تروي العطاش وتشبع الجياع وتسرّ القلوب: «هذا يوم أخيك».

ومضى يشارب الجالسين ويضاحكهم ممتلئ النفس ثقة وطمأنينة وسعادة، وكان بين ساعة وأخرى يبرز حافظته الكبيرة ويستخرج منها ورقة ويرمي بها إلى حجر أخيه قائلًا: «هات الشيء الفلانيّ.. هات الشيء الفلانيّ.. أنا خادم الإخوان.. لا بدّ أن ينبسط الإخوان».

ومضت ساعات الليل الأولى في رقص وزمر وأكل وشرب، وقد شرب جعدة حتّى سكر وانبعثت النشوة في دمه فاهتزّ طربًا وقهقه ضاحكًا وداخلته رقّة فملأت نسائم الأريحيّة فؤاده، ولم يلبث أن نازعه شوقه القديم إلى الرقص وكان في زمانه الأوّل يهوى الرقص ويحبّه وربّما تقدم الزفّة شارعًا بعد شارع بشغف لا يعرف التعب والملل. فلم يَعْصِ شوقه ونهض بجسمه الفارع ودعا الزمّار فجاءه الرجل وتبعه رفاقه وأقاموا على عتبة المنظرة متأهّبين، ووقف جعدة وسط الحجرة قابضًا على عصاه بيمناه ومدّ يسراه إلى شقيقه فأعطاه كوبًا ممتلئًا إلى نصفه ولكنّه صاح به في خيلاء وقد سرت بأطرافه حمية الخمر «املأه حتّى آخره».. وأخذ الكوب المترع وهو يكفي أربعة أشخاص ثمّ ردّد عينيه في الجمع المحيط به وأنشأ يقول:

ـ نحن رجال، نحن إخوان، نذلّ من يتنكّر لإخوانه، نذلّ مَن ينسى أصله، يعيش الوفاء.

ورفع الكوب إلى فمه فأفرغه دفعة واحدة، والتفت إلى الزمّار وأومأ له برأسه فنفخ الرجل في مزماره ونقروا على الدفوف وبقدرة عجيبة انتقل الإيقاع من المزمار والدفّ إلى وسط جعدة ورقبته وسيقانه وعصاه فحال إلى موجة مترنّحة تذهب وتجيء وتجيء وتذهب، والإخوان يرجّعون النقر بأكفّهم هاتفين مع الإيقاع «يعيش الوفاء.. يعيش الوفاء». وشعر جعدة وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال بأنّه ينبعث من جوفه لسان لهب ثمّ ينطلق في عروقه نافخًا نارًا وطربًا وجنونًا وما زال في رقص وخيلاء حتّى اكتفى، فلوّح بعصاه للزمّار فأمسك. ووقف جعدة لاهثًا حتّى تمالك أنفاسه ثمّ مدّ يده إلى شقيقه فأعطاه كوبًا آخر، وقلب وجهه في القعود، كما فعل أوّل مرّة، ثمّ استدرك قائلًا:

ـ نحن رجال، والبيوت للنسوان، القابع خاسر والجسور فائز، انطلق يا جعدة، إلى العبّاسيّة يا جعدة، إلى الأهرام يا جعدة، إلى حلوان يا جعدة، إلى التلّ الكبير يا جعدة، اشتغل يا جعدة، الحذق والشطارة يا جعدة، عاد القرش يا جعدة.. يعيش القرش يا جعدة.

وأفرغ الكوب في فيه كسائل الجحيم وغمز للزمّار بعينيه فدقّت الطبول وأسلم نفسه لشيطان الرقص يذرع به الدائرة في رشاقة القيان، والإخوان يهتفون مع الدفوف «يعيش القرش.. يعيش القرش» وقد تصاعدت أبخرة الخمر إلى رأسه فخال في رقصه أنّه يسبح في عباب مصطفق أو يطير على جناحي ريح مجنونة، وما زال يرقص ويرقص حتّى أعياه الرقص فتوقّف وقد احمرّت عيناه وتشعّث شاربه، ولبث برهة يستريح ثمّ مدّ يده ناحية شقيقه وتناول الكوب الثالث بعنف وشره وصاح بإخوانه:

ـ نحن رجال.. هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناتي سَلِمَ؟ هل عنتر سلم؟ زلّت بنا القدم وما يقع إلّا الشاطر، ودفعونا إلى السجن.. السجن للرجال.. ما عيب إلّا العيب، يعيش السجن للرجال.

وصبّ الكوب في جوفه وقد فقد إحساس الذوق

وانقلب وحشًا لو أفرغوا فيه حانة لابتلعها، وزمّر الزامر، وصفّقت الأيدي وتعالى الإنشاد: «يعيش السجن للرجال» واندفع يرقص بغير وعي وكأنّ نبض قلبه يرسل موجات كهربائيّة إلى أطرافه، وتركّزت في رأسه أوهام غريبة بثّت في نفسه خيلاء الخالقين، وطال به المطال حتّى أمسك الزمّار رحمة به فكفّ مترنّحًا ثملًا، وجعل يبتسم ابتسامة بلهاء وينظر ببصر زائغ، وعلى حين غرّة طالعت عينيه من عالم الذاكرة صورة ذات حسن وبهاء فأهاجت قلبه كوحش رأى فريسة شهيّة، وخال أنّه يسمع فرقعة قبقابها وتمطّقها باللبان فدغدغت قلبه لسعات الهيام، ومدّ يده نحو أخيه في ثورة فائرة، ولكنّ الرجل اقترب منه مشفقًا ومال على أذنه وهمس له: «أسرفت يا معلّم» فتولّاه الغضب وصاح به «نحن رجال هات» وأخذ الكوب المترع وقال بلسان ملتوٍ وقد عاودته الصورة الجميلة:

- نحن رجال.. الرجل بغير زواج ناقص.. الزواج فرض وسنّة، شلبيّة المصونة بنت عمّ طلبة جارنا وعمّنا.. يا عمّ طلبة اقرأ الفاتحة..

وأنشد الرجال «يعيش الحبّ.. يعيش الحبّ» واشترك معهم عمّ طلبة نفسه وقد لعبت الخمر. وشرب جعدة الكوب فاستولى عليه السكر والذهول وما عاد يدري أقائمًا أم قاعدًا، راقصًا أم واقفًا، في البيت أم في الخلاء، وصار رقصه أشبه بالترنّح وثقلت جفونه واحتقن الدم في وجهه. وأمر أخوه الزمّار أن يكفّ فخمد جعدة في مكانه معتمدًا على عصاه، وتحوّل نحو أخيه ومدّ إليه يسراه كعادته ولكنّه لم يستطع أن يحمل ذراعه هذه المرّة فردّت إلى جنبه وقال له شقيقه:

- أسرفت على نفسك يا معلّم.. هلمّ معي إلى الخارج تنشّق الهواء الرطيب.

ولكنّه هزّ رأسه غاضبًا، وسار مترنّحًا إلى المائدة وملأ الكوب حتّى فاض منه الكحول وسال، ورفعه إلى فيه بيد مرتعشة وهو يتمتم بلسان ثقيل:

- نحن رجال..

وأفرغه حتّى الثمالة ورمى به إلى الأرض فتحطّم عند قدميه، ونظر في وجوه السكارى بعينين لا تريان شيئًا وقال بلسان ثقيل ملتوٍ لا يكاد يبين:

- نحن.. رجال.. افرحوا ابتسمت لكم الدنيا.. مالي وما أملك لكم.. حظّي حظّكم.. لن أنسى الإخوان.. يعيش الحظّ.

ونقروا على الدفوف وأنشدوا مهلّلين: «يعيش الحظّ.. يعيش الحظّ» وأراد أن يرقص، أن يخطو إلى الأمام، ولكنّه كان قد فقد كلّ قوّة يمسك بها نفسه فاندفع مترنّحًا وسقط على وجهه فاصطدم رأسه بالأرض في عنف وشدّة. وأمسك المنشدون ونهض القوم فزعين ورفعوه بأيديهم وحملوه إلى الأريكة التي كان يجلس عليها، ومال عنقه على مسند الأريكة وانحلّت مفاصله جميعًا، وجاء قوم ونضحوه على وجهه، فرفع جفنيه الثقيلين لحظات ولمّا رأى الأعين المحدّقة به همس بصوت ثقيل متعثّر:

- دعوني... نحن رجال.. افرحوا. الحظّ!

ثمّ شعر في رأسه بدويّ هائل وكأنّ مائة مطرقة تدقّ مخّه، وفقد الحركة والإرادة والكلام.

وكان المعلّم بيومي في الحاضرين. كان إذا سكر حمله أصحابه إلى بيته وطرحوه على لحافه فيروح في نوم عميق لا يفيق منه إلّا ضحى اليوم الثاني. فقال للقوم ناصحًا:

- دعوه ينم، فالنوم دواؤه وسوف يصحو غدًا صحيحًا معافًى، وبادروا إلى حمله وأرقدوه على فراش أخيه وتركوه في سلام.. وعاد القوم إلى لهوهم يشربون ويسمرون.

وراح جعدة في نوم عميق كما قدّر المعلّم بيومي، ولكن حدث ما لم يقدّر أحد من السكارى ولا دار لهم بخلد، انفجر شريان ونزف دمه وتسلّلت الحياة من جسمه نقطة فنقطة حتى تركته جثّة هامدة، فنام نومًا عميقًا ثقيلًا لا يقظة بعده ولا إفاقة، وكان ذلك قبيل انبثاق الفجر وقد تصايحت الديكة، فاختلط صياحها بهتاف الهاتفين وإنشاد المنشدين..

الشَّـرّ المَعْـبُود

قبل أن يستولي أوّل ملك على عرش مصر، كان الوادي مقاطعات مستقلّة لكلّ واحدة إلّه ودين وحاكم، وقد اشتهرت من بينها مقاطعة (خنوم) لما توفّر لها من خصوبة الأرض واعتدال الجوّ وكثرة السكّان، ولكنّها كانت تدفع نصيبها كاملًا من ضريبة الشقاء والأحزان، ففسق بها المترفون وتضوّر الفلّاحون جوعًا وعاث الأشرار في الأرض فسادًا، وفتكت الأمراض والأوبئة بالضعاف والبائسين، وشمّر للإصلاح رجال المقاطعة المسئولون وعلى رأسهم القاضي «سومر» وحارس الأمن «رام» والطبيب «تحب» وكافحوا الجريمة والعيوب مكافحة شديدة صارت مضرب الأمثال على الجهاد والصدق والعزم.

وفي أحد الأجيال التي مرّت على تلك المقاطعة ظهر بها رجل غريب، كان شيخًا طاعنًا في السنّ حليق الرأس والذقن كعادة الكهنة المصريّين؛ وطويل القامة نحيل الجسم، تلوح في عينيه نظرة حادّة تهزأ من فعل السنين يشعّ منها نور الفطنة والحكمة. وكان رجلًا غريبًا حقًّا، فما لمست قدماه بلدًا حتّى تساءل أهله عجبًا.. مَن الرجل؟.. وأيّ بلد قذفه؟ وما الذي يريد؟ وكيف يضرب في الأرض حين ينبغي أن يخلد إلى السكينة والراحة في انتظار الانتقال إلى عالم أوزوريس؟.

ولم يقف به شذوذه عند حدّ. كان يثير وراءه عواصف الضجيج وزوابع الفتنة أينما حلّ وحيثما يتّجه. فكان يغشي الأسواق ويزور المعابد ويدعو نفسه إلى الحفلات على غير معرفة بأصحابها، ويضع نفسه فيما لا يعنيه. فكان يحادث الأزواج عن زوجاتهم والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم ويجادل السادة والنبلاء، ويكلّم الخدم والعبيد، ويترك خلفه أثرًا عميقًا قويًّا يهيّج في النفوس ثورة جامحة يشتدّ من حولها الجدل والخصام.

وأثارت حياة الغريب مخاوف «رام» حارس الأمن فاتّبعه كالظلّ وراقبه عن كثب وارتاب في أمره فقبض عليه وقدّمه إلى القاضي لينظر في شأنه العجيب. وكان القاضي سومر رجلًا طاعنًا في السنّ عظيم التجارب؛ قضى أربعين عامًا من حياته الجليلة يجاهد جهاد الأبطال تحت راية العدل والحقيقة. فأنفذ القضاء في حيوات المئين من المتمرّدين، وملأ السجون بالآلاف من الأشرار والمجرمين، وكان يعمل صادقًا مخلصًا على تطهير المقاطعة من أعداء السلام والطمأنينة..

ولمّا مثل بين يديه الرجل الغريب أخذه العجب واستولت عليه الحيرة، وساءل نفسه عمّا يرتكبه هذا الشيخ الفاني. ثمّ سأله بصوته المتّزن وهو يلقي عليه نظرة فاحصة:

- ما اسمك أيّها الشيخ؟

فصمت الرجل ولم يجب، وهزّ رأسه كأنّه لا يريد أن يتكلّم أو لا يدري ما يقول.

واستاء القاضي من لياذه بالصمت بغير سبب معقول وسأله بلهجة خشنة:

- لماذا لا تجيب؟.. قل ما اسمك؟

فقال الرجل بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة خفيفة غامضة:

- لا أدري يا سيّدي..

فتضاعف استياء القاضي وقال منتهرًا:

- ألا تدري ما اسمك حقًّا؟

- بلى يا سيّدي.. نسيته.

- أتقول أنّك نسيت اسمك.. بمَ يدعوك الناس؟

- لا أحد يدعوني، لقد مات أهلي وذويّ، ولبثت في الدنيا دهرًا طويلًا لا يدعوني أحد، ولا يناديني إنسان، وكان رأسي مفعمًا بالأفكار والأحلام فنسيت اسمي.

واتّهم القاضي الشيخ بالبله والخرف، وتحوّل عنه يائسًا إلى حارس الأمن وسأله:

- ما الذي حملك على سَوْق هٰذا الرجل إلى المحكمة؟

فقال «رام»:

- إنّه يا سيّدي رجل لا يستريح ولا يريح، يتطفّل على الناس ويجادلهم في الخير والشرّ، ولا يدعهم إلّا وقد فرّقت بينهم الفتنة والشقاق.

فالتفت إليه القاضي وسأله:

- ما الذي تريده من وراء ذلك؟

فحدجه الشيخ بنظرة حادّة، وقال بصوت قويّ النبرات يهزأ بالسنين التي عاشها في هٰذه الدنيا:

- أريد أن أصلح هٰذه الدنيا البشعة يا سيدي.

فابتسم القاضي وسأله:

- أليس يوجد مَن يهب حياته لهٰذا العمل النبيل وهو قادر عليه؟ ماذا يفعل القاضي وحارس الأمن والطبيب؟ اطمئنّ أيّها الشيخ وأرح نفسك ولا تحمّل شيخوختك ما لا طاقة لها به من بلوغ هذا المطلب العسير، وغيرك عليه أقدر.

فهزّ الرجل رأسه بعناد وقال:

- جميع مَن ذكرت قد وجدوا منذ الأزل. ولكنّهم لم يقدروا بعد على تغيير هٰذه البشاعة التي تشوّه وجه الدنيا. ولا نزال نرى في كل بقعة من الأرض نذر الشر وآثار الجريمة.

- وهل تنجح أنت إذا أخفقت جميع هٰذه القوى المؤتلفة؟

- نعم يا سيّدي.. أمهلني وسوف ترى..

فابتسم القاضي في استخفاف وسأله:

- وماذا تدّخر من الوسائل ممّا ليس لديهم؟

- إنّهم يا سيّدي يطاردون الأشرار ويعالجون الأمراض ويضمّدون الجراح.. أمّا أنا فسبيلي أن أقضي على الداء. إنّ الداء كمين في مخبئه آمنًا؛ وهم لا يكترثون إلّا لآثاره. وقد أنعمت النظر فوجدت أنّ المعدة أصلًا بلاء هذه المقاطعة. وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملأوا منها فراغًا فيعيوا جوعًا، وآخرين لا يتركون بها فراغًا قطّ فيهلكوا نهمًا، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل. فالداء بيّن والدواء بيّن.

فقال القاضي:

- على العكس ممّا ترى هٰذا داء لا دواء له!

- هٰذا قولهم يا سيّدي. وما يقولونه إلّا لأنّه ينقصهم شيء متّعني الربّ به: هو الإيمان بالخير. إنّهم لا يؤمنون بالخير حقّ الإيمان، ويجاهدون في سبيله جهاد الآلات الصمّاء التي لا تحسّ، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد.. فإذا خلوا إلى أنفسهم تهالكوا على ما يجاهرون بمقته من الإثم. هٰذا شأنهم يا سيّدي، أمّا أنا فمؤمن حقًّا بالخير، فدعني أعمل على طريقتي وأمهلني رويدًا..!

وأهاج كلام الرجل الغضب في نفس حارس الأمن، إذ حسبه يلمزه من قريب، ولٰكنّ القاضي كان أوسع صدرًا وألين قلبًا، فأغضى عن قول الرجل. ولمّا لم يجد في عمله ما يستحقّ عقوبة أطلق سراحه بعد أن أسدى إليه النصح..

وغادر الرجل المحكمة وهو يحسّ بنشوة الظفر، وكان على وجه اليقين مؤيّدًا بروحٍ سامٍ لأنّه كان يسير في الأرض بقوّة مارد، ويتدفّق في الحديث بحماسة شابّ، ويفيض عليه قلبه بتفاؤل نبيّ، وكان لسانه ينفث سحرًا حلالًا وحجّة تلزم المتكبّرين، فاستطاع في مدّة وجيزة أن يستأثر بآذان القوم ويسحر قلوبهم ويهيّج عاطفة الخير في نفوسهم ويوجّههم إلى حيث يريد، فاتّبعه الفقير وخضع له الغنيّ وذلّ له المتمرّد العاصي. وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش في ظلّهما الفقير بالقناعة والغنيّ بما فيه الكفاية. ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيبًا صادقًا بارعًا فتعلّق بمثله واعتنق مبادئه. وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها

الأبصار ويذهل عقول العقلاء، فسحقت الجريمة وهزم الشرّ وأدبرت الأمراض، وأظلّت السعادة بجناحيها المقاطعة، فهلّل الحكّام وكبروا وآمنوا بالرجل الذي كانوا فيه يمترون. وسعدوا جميعًا لبلوغ الغاية النبيلة التي أنفقوا أعمارهم عبثًا في سبيل بلوغها.

وتقدّم الزمان بخطاً هادئة في جوّ صافٍ وطريق معبّد، وتحوّلت الأمور إلى غير ما عهد الناس.

وكان الحكّام أوّل من أحسّ بالعهد الجديد، والحقّ أنهم وجدوا أنفسهم عاطلين، والراحة لذّة لا يذوقها إلّا العاملون، فثقل الفراغ على ظهورهم، وشاهدوا بأعين جزعة مجدهم ينهار وريحهم تذهب ونورهم ينقلب ظلامًا.

كان حارس الأمن قوّة ترهب أينما يحلّ، فردّ إلى شيء تقتحمه العيون وتستهين به القلوب، وأضحى تمرّ به العامّة وكأنّها تمرّ بصنم محطّم.

وكان القاضي قوّة قدسيّة ومهابة إلهيّة، فأصبح يقلب كفّيه آسفًا حزينًا لا يسمع تحيّة ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يهابه. فأحسّ بعزلة ووحشة، وبات كمعبد مهجور في الصحراء. وأنّ الطبيبُ بشكوى مكتومة، وحبس نفسه في داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنسانًا، وكان يكنز المال في القدور فأصبح ينفق ممّا جمع وقلبه واجف.

اطمأنّ الإقليم جميعًا إلى الخير إلّا أولئك الذين وهبوا أنفسهم «صناعة الخير». كانوا حيارى يائسين يتلفّتون يمينًا وشمالًا فلا يجدون لأنفسهم مخرجًا ممّا هم فيه، وكان حارس الأمن أشدّهم عذابًا، لأنّه كان أعظمهم جراءة، ولكنّه كان يخشى أن يقدم على التصريح بمخاوفه فيجد آذانًا صمّاء وقلوبًا مطمئنّة إلى الخير. ولمّا نفد صبره انتهز فرصة اجتماعه بإخوانه وأقرانه وقال بشيء من التهيّب متسائلًا:

ـ ماذا نفعل لو استغنى الحاكم عن خدماتنا غدًا؟

فاصفرّت الوجوه وسأله سائل بلسان ملعثم:

ـ أمن المحتمل أن يستغني عنّا حقًّا؟

فقال رام وهو يهزّ كتفيه استهانة:

ـ وماذا نفعل حتّى نستحقّ البقاء؟

وكأنّه بقوله هٰذا رفع صمامًا عن مرجل يغلي ففاض كلٌّ بما في قلبه، فقال واحد منهم:

ـ هٰذه حال لا يمكن السكوت عليها.

وقال آخر وهو يهزّ قبضة يده:

ـ لقد أفسد الشيخ الخَرِفُ المقاطعة.

وقال ثالث:

ـ إنّه يحطم القوى الإنسانيّة العالية بهٰذه الدعوة الفاسدة التي تعوق التقدّم وتقتل الهمم.

وسرت النجوى من لسان إلى لسان، وأبان كلّ عمّا بنفسه إلّا القاضي فإنّه لزم الصمت، وسها إلى الأفق البعيد كأنّه لا يسمع ممّا يدور حوله شيئًا، وكاد مظهره يجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين من أعوانه إلّا أنّ رام همس لهم خارجًا:

ـ لا تخشوا القاضي فقلبه معنا، ولٰكنّ لسانه الذي مرن على الكلام عن العدالة لا يطاوعه على ما نحن بسبيله.

واتّفقت كلمتهم..

وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى، وبحث عنه مريدوه في كلّ مكان وفتّشوا عنه في كلّ بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر.

وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجًا، وأثار أقاويل متباينة، فمن قائل إنّه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأنّ إلى ثبات عقيدته؛ ومن قائل إنّه صعد إلى السماء بعد أن أدّى رسالته. وشمل الحزن المقاطعة كلّها ووجفت القلوب جميعًا..

وتنفّس السادة الصعداء وانتظروا على أمل سعيد وكلّهم يحلم بالمجد الآفل والنعيم الذاهب ويمنّي نفسه ويستنظرها..

ولٰكنّ النفس يلحقها الجزع كلّما دنت من الأمل المرتقب، فباتت أعصاب القوم ثائرة وقلوبهم حائرة، وكان يقضّ مضاجعهم أن يروا عامّة الناس ما تزال متمسّكة بالدعوة، مخلصة لذكرى الشيخ الغريب.

واهتاج الغضب حارس الأمن فصاح:

ـ ينبغي ألّا تدوم هٰذه الحال.

ونظرت إليه أعين أحياها الطمع، وأضناها الأمل،

فاستدرك قائلًا همسًا:

ـ أعرف في مقاطعة «بتاح» راقصة فاتنة أولتها الآلهة حسنًا لا يقاوم. فلماذا لا نستعيرها أشهرًا؟ وإنّي أعلم أنّ حاكم الإقليم راغب في نفيها لما يهيّج جمالها من الفتنة والملاحاة. فليكن إقليم خنوم منفاها إلى حين؛ وهي بغير شك حقيقة بأن تفرّق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه، وبأن تغري الأغنياء بالانقضاض على السلاسل التي وضعوها في أعناقهم طائعين.. انتظروا خيرًا قريبًا..

وحقّق ذلك العبقريّ فكرته الخطيرة.

وشاهدوا جميعًا بأعين مشرقة بنور الفرح ذلك النظام يتقوّض بنيانه ويتهاوى حجرًا على حجر، وردّت المعدة إلى عرشها تتحكّم في الرقاب والعقول، وعادت الحياة الشيطانيّة تملأ جوّ «خنوم» الهادئ، وتعصف بالسلام المخيّم على ربوعه. واستأنفت عصبة الحكم جهادها، ووجدت نفسها مرّة أخرى تكافح وتناضل عن الخير والعدالة والسلام..

الورقة المهلكة

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربيّ، وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولّى عنها تيه الفتوّة وزهو الشباب، ومضى شعاعها الشاحب يوغل شرقًا مودّعًا رمال الصحراء المتاخمة للعبّاسيّة موسّعًا وراءه للسمرة الزاحفة.

ولم يكن في الطريق الذي يخترق الصحراء ـ في تلك الساعة ـ سوى سيّارة بيضاء صغيرة تسير على مهل، كأنّه لا غاية لها سوى المسير؛ ويسوقها شابّ تدلّ نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث.

وتقدّمت السيّارة في الطريق حتّى حاذت أبنية المصانع الجديدة التي تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء، ثمّ وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة في أعلى واجهته «مطعم وقهوة الزملاء» وكان البناء مكوّنًا من قسمين: واحد مسقّف رصّت به موائد الطعام الخشبيّة التي يتناول عليها الطعام عمّال المصانع القريبة، والآخر مكشوف معشوشب الأرض، وضعت به الكراسي حول نافورة من ماء آسن، أقيمت حولها عمد خشبيّة علقت برءوسها الكُلُبّهات.

ألقى الشابّ نظرة على البناء وقد لاحت في عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه الممتلئتين، وغادر السيّارة فبدت قامته الرشيقة وبذلته الأنيقة، ودخل إلى القهوة واختار ركنًا قصيًّا، وكان المكان خاليًا ساكنًا، لأنّه لا تدبّ فيه الحياة عادة إلّا بعد انصراف العمّال في المساء فجلس يحتسي فنجانًا من القهوة والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة.

ولم تكن هٰذه أوّل مرّة يهبط فيها إلى هٰذه القهوة التائهة في الصحراء فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن في الحسبان منذ أمد قريب. وما دفعه إليها تلك المرّة إلّا الملل الراكد على نفسه التي شبعت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مرّ العناء. وتركته يتخبّط حائرًا ما بين الميادين والأزقّة لا يهتدي إلى مستقرّ. وما عاد به إليها هٰذه المرّة إلّا ما طالع خياله من أطياف الذكريات الحلوة. .

وجلس يلقي على المكان نظرة تذكّر وحنين، ولم يكن يرىٰ منظرًا غريبًا، فإنّه يذكر ولا شكّ تلك الأبنية العالية التي يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوّي قرع الآلات في داخلها، وهٰذه الصحراء المترامية التي تنتهي شطئانها البعيدة إلى مآذن القاهرة المعزّية، ولٰكن ما له يلتفت يمنة ويسرة، هل يفتقد منظرًا يذكره ولا يجده؟. .

نعم إنّ الصورة التي انتزعها رأسه من المكان في تلك الليلة القمراء ناقصة. . ولا تنقص شيئًا تافهًا، بل تنقص مدينة كاملة. . مدينة الصفائح الغريبة. . كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها، وكانت مبانيها أكواخًا من الصفائح التي علاها الصدأ، تأوي رجالًا ونساء وأطفالًا، وترعى في عرصاتها المعز والكلاب. . أين يا ترى هٰذه المدينة، أم تراه اشتبه عليه الأمر؟.

ولكي يقطع الشكّ باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذي أحدث ارتيابه:

ـ ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح؟

فهزّ الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال:

ـ بلى، يا بك.

ـ فأين ذهبت؟

ـ هدمتها الحكومة.

قطّب الشاب جبينه وسأله:

ـ متى.. ولأيّ سبب؟

ـ منذ ثلاثة أشهر، بعد أن تأكّد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة.

لم يكن في الخبر ما يثير الدهشة، ولٰكنّه ذكر شخصيّة عزيزة فقال:

ـ كان يوجد هنا رجل مغنّ يدعى أبو لبة.. أو أبو رنة لا أذكر.. ألا تعلم أين هو؟

فتفكّر الغلام دقيقة ثمّ قال:

ـ لعلّه أبو سنة يا بك.

ـ أظنّه هو، كان يغنّي غناء جميلًا وينشد إنشادًا ساحرًا..

ـ نعم هو يا بك. ولٰكنّه شنق واأسفاه!

وانزعج الشابّ وسأله:

ـ أتقول إنّه شنق؟

ـ نعم شنق بغير شكّ.

ـ ولماذا شنق؟

ـ لسبب تافه جدًّا.

فاستولت الدهشة على الشابّ وسأله:

ـ كيف يشنق لسبب تافه.. ماذا فعل؟

فقال الغلام بهدوء:

ـ قتل..

فابتسم الشابّ بالرغم من انزعاجه وقال:

ـ ولٰكن ليس هٰذا بالسبب التافه.

ـ قتل بغيًا..

ولم يستطع الغلام أن يتمّ حديثه، لأنّه قطعه عليه دخول جماعة من العمّال ونداء المعلّم له فحيّا الشابّ وانصرف إلى عمله..

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه القهوة..

دمّرت مدينة، وتشتّت أهلها، وشنق رجل كانت حنجرته تنفث سحرًا وبهجة، فما أتعس مجيئه هٰذه الليلة! جاء يطلب لهوًا ومسرّة فوجد خرابًا وموتًا!

ولبث كئيبًا، وراح يفكّر في زيارته الأولى تلك الليلة القمراء السعيدة...

كان في مساء تلك الليلة جالسًا في سانت جيمس يشارب جماعة من صحبه كما هي عادته كلّ مساء، وقد تركوا الحانة في الساعة العاشرة، ورأى بعضهم أن يمضوا الليل في صالة رقص أو غناء أو نساء، ولٰكنّه لم يجد من حواسّه ميلًا إلى تلك المتع.

كان ضيّق الصدر من طول ما فعل به الملل والفراغ، وكان يعاني شبعًا ثقيلًا صرف هواه عن الدنيا جميعًا، فأمسى الرقص والغناء والنساء ألفاظًا لا معنًى لها؛ وانقلب جسد الأهواء الفاتن في عينيه جثّة هامدة، فودّع صحبه وتركهم يذهبون.

وتلفّت يمنة ويسرة في حيرة.. إلى أين يذهب؟ ولم ينقذه من حيرته إغراء.. فترك لله ووحدته وسكره.

ثمّ استقلّ سيّارته الصغيرة وانطلق بها على غير هدًى، وساقه التخبّط إلى العبّاسيّة، ودفعته العبّاسيّة إلى صحرائها الشرقيّة، ولفتت ناظريه ـ في الطريق الصحراويّ الملتوي ـ أنوار خافتة تنبعث من القهوة المنعزلة، فهدّأ من سرعة السيّارة ونظر صوبها فسرّه منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق، وحمل الهواء إلى أنفه رائحة «التمباك المعسّل» فتسرّبت إلى مخّه وأطربت أعصاب رأسه، فانقشع عنه كابوس السقم، وأدار السيّارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف، وحسب أنّ جلسة في هٰذه القهوة ونفسًا من هٰذه «الجوزة» يساويان نعم الدنيا الذي أنهك قواه وأضنى قلبه.

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين، ولٰكنّه لم يجد حرجًا ولم يستشعر خجلًا، إذ أخفت الخمر عن عينيه نظرات الآخرين، وقصد إلى ركن خالٍ واطمأنّ إلى كرسيّ، وطلب جوزة.. وكان القمر بدرًا والسماء صافية، كأنّها تعرّت تستحمّ في نوره البهيّ، فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القائمة وكأنّه يرى القمر لأوّل مرّة، بل لعلّه كان يراه لأوّل مرة حقًّا، لأنّه كان في العادة يمرّ على محاسن الكون ومفاتنه بعينَي أعمى وأذنَي أصمّ. أمّا تلك الليلة ـ والخمر في رأسه و«الجوزة» في فمه ـ فقد نظر، وقلّب وجهه الذاهل في أقطار السماء والفضاء. وخال الأنوار الهادئة

ترقص طربًا والقمر الساطع ينشد نشيدًا ترتّله السموات والأرض، وأحسّ كأنّه متعلّق بأطراف النور الفضّيّ كمن يتقلّب على بركة من الزئبق. أيّ حسن.. وأيّ شعور.. في تلك الساعة السعيدة نسي مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره، وذهب عنه شبعه المزمن، وأحسّ بجدّة وبعث ومتعة وحبّ. فأنشد الصامت في أذنيه، وابتسم العابس لعينيه، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغنّي وينشد طربًا وفرحًا. وبالغ صاحب القهوة في إكرامه والترحيب به، وأحضر له «الجوزة» بنفسه وهو يقول بتودّد:

ـ آنست وشرّفت.

وكان شيخًا في الستّين، قصير القامة، بطينًا، ضخم الوجه والرقبة، فلم يسع دانش ـ اسم الشابّ ـ إلّا أن يشكره.

وأراد الرجل أن يبالغ في إكرامه فقال:

ـ أتحبّ يا بك أن تسمع غناء بلديًّا؟

فسرّ دانش وقال لنفسه: ليلة قمراء وخمر وجوزة وغناء بلديّ! يا لها من ليلة سعيدة حقًّا.. وقال بحماس للرجل:

ـ نعم.. نعم.. أين المغنّي؟

فنادى الرجل:

ـ أبا سنة.. تعال.

وتقدّم من بين صفوف الجالسين شابّ طويل القامة عريض المنكبين، لم يجل نور القمر الشاحب قسمات وجهه، وأسدل ظلًّا على أسماله البالية.

دنا من صاحب القهوة وقال:

ـ نعم؟

فقال له الرجل:

ـ أقعد يا عمّ.. يريد البك أن يسمع غناءك.

وقال دانش:

ـ نعم.. أسمعنا.. أسمعنا.

ثمّ التفت إلى صاحب القهوة وقال:

ـ يا معلّم.. هات «للأستاذ» جوزة.

وانبسطت أسارير الشابّ فرفع يده إلى رأسه تحيّة: وتربّع جالسًا على الأرض أمام البك، وسعل مرّات متوالية يسلك حنجرته، ثمّ أسند رأسه إلى كفّه ومضى يغنّي «ليالي» في صوت جميل ظنّ دانش في نشوته أنّه أجمل من أصوات الحور في الجنان، ثمّ أنشد:

بكره وبعده وبعد اللي وراه بعده
وإن غاب حبيبك ما لكش في البلد بعده

وكان رأسه يهتزّ وجسمه يتمايل، وكان جميعه في حركة وجدانيّة تمثيليّة غريبة. وكان صوته يتهدّج ويتوجّع، يعلو تارة حتّى يملأ الفضاء، ويخفت أخرى حتّى ينفذ إلى أعماق القلب، وما إن انتهى من إنشادة حتّى صعدت آهات الإعجاب من كلّ فم، وكان الشابّ أوّل المعجبين، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكلّ واحد من الجالسين «جوزة» وصاح بالمغنّي:

ـ لا أسكتَ الله لك صوتًا.. أسمعنا موّالًا آخر..

فهزّ الرجل رأسه مختالًا فخورًا ووضع يسراه على أذنه، ويمناه على الجوزة، وأنشد:

بيني وبين الحبايب جبل عال وتلّ حشيش
وبحر خمرة ونفسي في النبيذ ولا فيش

ولمّا انتهى المغنّي من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانش مبلغًا ظنّ أنّه لن يذوق الملل بعده أبدًا، وأحسّ بالرضى والغبطة، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير. فودّ لو يستطيع أن يغمر كلّ محزون بفيض من سعادته، ومال بقوّة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذي مسّ روحه بنفثة من سحر صوته، فدسّ يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهات، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة، ثمّ نظر إلى المغنّي مليًّا ووضع الورقة في يده وهو يقول:

ـ هذه لك..

لم يداخله التردّد مطلقًا، وما كانت ثمة قوّة في الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك الساعة، أمّا الرجل فسهم ووجم وأدنى الورقة من نور المصباح وتأمّلها بإنكار، ولمح الورقة في يده أحد الجالسين فاقترب منه ونظر إليها لحظة ثمّ قال بلهجة خبير:

ـ ورقة قديمة من ذات العشرة قروش، كانت متداولة أيّام السلطان.

فتضاحك دانش وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون ممّن حوله:

ـ جزاك الله على ما أسعدتني خيرًا.. هٰذه ورقة من ذات العشرة جنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئًا تافهًا إلى ما أحسست به من سعادة.. السلام عليكم يا سادة..

على أنه رأى منظرًا عجيبًا ـ زاد من مسرّته ـ قبل أن يغادر القهوة: رأى أبا سنة يهبّ واقفًا فزعًا، وسمع همسًا تتناقله الشفاه، ثمّ علا ضجيج، ثمّ ساد صمت ثقيل، وقد كفّت كلّ يد عن اللعب وكلّ فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعًا عند المغنّي السعيد.

ولبس طربوشه وسار إلى سيّارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفض عنه راكد السقم والملل، وعاد إلى المدينة، ثمّ ألهته الحياة عن الصحراء وقهوة الصحراء وأبي سنة حتّى وجد نفسه فيها هٰذا المساء.

فما أشدّ ما نزل بالدنيا من تغيّر! اندثرت مدينة الصفائح العامرة.. وفتك الحبل بعنق أبي سنة الجميل وحنجرته الذهبيّة.. يا للعجب! كان أبو سنة مطربًا فكيف صار قاتلًا؟ ووجد رغبة صادقة في السؤال والتحرّي عنه، وكان صاحب القهوة جالسًا بمكانه المعهود عند مدخل المطعم. فأشار إليه وناداه قائلًا: «يا معلّم» وحدّق الرجل في مصدر الصوت وهو يضيّق عينيه، ثمّ سار إليه، فلمّا دنا من صاحبه ورأى هيئته المميّزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام. ولٰكن لم يبد عليه أنّه عرفه أو تذكّره، وطلب إليه دانش أن يجلس ثمّ قال له:

ـ أراك لا تذكرني يا معلّم.

فحدجه الرجل بنظرة إمعان وارتباك وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة:

ـ أهلًا وسهلًا..

فأردف دانش:

ـ ألا تذكر تلك الليلة القمراء!.. والمغنّي أبا سنة؟.. وموّال بكره وبعده! كم مضى على تلك الليلة؟.. ثمانية أشهر أو يزيد ألا تذكر؟

ونظر الرجل إليه نظرة غريبة، كان الشابّ يتوقّع أن يقرأ فيها الدهشة والترحاب، ولٰكنّه وجدها جامدة ثقيلة..

ـ ألا تذكر يا معلّم؟..

ـ فهزّ الرجل رأسه وقال:

ـ بل أذكر يا بك.

ـ سمعت خبرًا عجيبًا مزعجًا.. هل حقًّا شنق أبو سنة؟

ـ نعم شنق الرجل التعس.

ـ وكيف شنق؟

ـ أتحبّ أن تعرف يا بك؟

ـ طبعًا يا معلّم.

فقال الرجل بصوت غليظ:

ـ ألا تذكر الثروة التي رميته بها في تلك الليلة؟

فهزّ الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للهجة الرجل، أمّا المعلم فاستطرد قائلًا:

ـ في تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظرًا عجبًا، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكانًا خاليًا وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة، ولم تكن عادته أن يجلس صامتًا فهو إمّا أن يضاحك القوم أو يغنّيهم وينشدهم. أمّا في تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطربًا وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق، ويمعن في الورقة نظرًا يتنازعه الشكّ واليقين والذعر والأمل ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعني على الورقة، فأطلعني عليها وهو قابض على طرفها، فعرفتها، وأمّنت على قولك له دهشًا متعجّبًا، وقلت له: لقد أتتك ثروة واسعة. وكان محطّ الأنظار ومثار الاهتمام والهمس، وكنت أتوقّع أن يغادر المكان سريعًا ولٰكنّه ظلّ ذاهلًا يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتماع ذعر مريب؛ ولعلّه كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب، فهو آمن وسط الجميع ولٰكن أنّى له الأمان إذا انفرد في الطريق أو آوى إلى كوخه في مدينة الصفائح؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلوها من العملة سوى الملاليم ولا يغمض لها جفن إذا علمت أنّ بين حدودها ورقة من ذات العشرة جنيهات، فما العمل؟ بات خائفًا مذعورًا وأمسى الجميع أعداءه.

وسكت الرجل دقيقة ثمّ رمق الشابّ بعينين أحرق الاحمرار أشفارهما واستطرد:

ـ وأغلب الظنّ أنّ القلق أثار أعصابه وحرّضه على الاستهتار، فما كان منه إلّا أن قام بغتة، وقال بصوت مبحوح: «السلام عليكم يا إخوان» وغادر القهوة على عجل، ولٰكنّه بدلًا من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجه وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتّى ابتلعته الظلمة. وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمنًا يسيرًا ثمّ كرّ راجعًا وهو يصيح ضاحكًا: «ألا تعلمون.. إنّ الرجل المعتوه يعدو بقوّة كأنّما يطارده مطارد عنيف» وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسحر واللعن، وهكذا غادرنا أبو سنة..

وذاع الخبر حتّى بلغ مدينة الصفائح، فجاءت أسرة المغنيّ على عجل، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولمّ الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلمّا أن صحّ بينهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة، وظنّوا أنّ المغنّي ذهب ليدفن كنزه في مكان أمين فقعدوا ينتظرون، وطال بهم الانتظار على غير جدوى، فجزع الأكثرون وتفرّقوا ولم يبق إلّا أفراد أسرته، ولبثوا طويلًا يترقبون ولٰكنّ أبا سنة لم يعد.

وهنا غلب السعال على «المعلّم» فمنعه عن إتمام حديثه، وانتظر دانش حتّى ردّ إليه النفس واستحثّه بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل:

ـ كلّا لم يعد أبو سنة.. وما كان ليعود.. لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد. باعهم جميعًا بتلك الورقة السحريّة، ولمّا طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته، فخرج في طلبه والبحث عنه. ومن ذٰلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة، فقيل إنّ المغنّي التائه قادته قدماه إلى الأزبكيّة، وإنّ بغيًّا وقعت في هواه وأوقعته في شراكها، ثمّ قيل إنّه اشتغل بالغناء في قهوة بلديّة بالأحياء الموبوءة، وأخذ الكثيرون يتحدّثون عنه بلغة الأساطير والخرافات، فقالوا: إنّ الدنيا تبسم له، وإنّها في إقبال عليه يتزايد يومًا بعد يوم، فالأموال تتقاطر عليه من كلّ يد والنساء يتهافتن عليه من كلّ باب، وإنّه بطر وطغى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب..

وكانت أخبارًا غريبة يعزّ تصديقها، ولكنّها فتنت شباب مدينة الصفائح وأثارت الطمع في قلوبهم، فلحق به نفر منهم إلى مهاوي الفجور، ومدّوا إليه يد الأخوّة، وقاسموه الخير والشرّ، فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب.

ولبثت تلك الحياة ما لبثت، ثمّ انقطعت على أسوأ حال، وقيل في ذلك إنّ الرجل رجع يومًا إلى مخدع عشيقة له على غير موعد، فوجدها بين يدي أحد أتباعه، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستلّ خنجره وقتل به الاثنين، وقُبض عليه وعلى عصابته، وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذاك الشرّ، وانتهى الأمر فشنق أبو سنة، وسجن أتباعه، وهدمت المدينة المظلومة.. وسبحان مَن له الدوام يا بك..!

كان دانش يصغي إلى محدّثه في ذهول، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريرة ساخطة، فسرت في جسمه هزّة عنيفة، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجًا، وغادر القهوة دون أن يلقي عليها نظرة وداع..

كان كئيبًا منقبض الصدر.

وكان يتذكّر تلك الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب، ويتعجّب! كان ليلتها سعيدًا فرحًا ينشد السعادة للجميع، فكيف انقلب غرضه عليه؟.. كيف خانه الهدف فدمّر مدينة وشرّد أهلها؟

وأسفاه!.

ثمن السّعادة

دخل الأستاذ الحجرة التي قاده إليها الخادم فلم يلق تلميذه الصغير في انتظاره كمألوف عادته، فجلس على كرسيّه يقلّب عينيه في الصور المعلّقة على حيطان الحجرة، وكانت المرّة الأولى التي ينتظر فيها تلميذه منذ جيء به له لعشرة أيّام خلت، وأوشك أنّ يدعو الخادم حين سمع وقع أقدام خفيفة، ورأى الغلام مقبلًا عليه يتأبّط كتبه وكرّاسته، فحدجه بنظرة تعنيف ولٰكن راعه أن يرى عينيه محمرّتين من البكاء وذقنه الصغير يرتعش من التأثّر، فسأله باهتمام:

- مالك؟.

وكأنّ السؤال أثار مكظوم شجون الغلام فاندفعت الدموع إلى مآقيه قال وهو ينتحب:

- تيزة... ضربتني. وتشاجرت مع بابا وما زالا يتشاجران.

فسأله باقتضاب:

- من تيزة هٰذه؟

- امرأة بابا.

فدلّته هاتان الكلمتان على معانٍ كثيرة بغير حاجة إلى مزيد من السؤال، على أنّ الغلام تطوّع من نفسه فسرد قصّته الصغيرة الحزينة على مدرّسه، قال: إنّ والدته ماتت لعهد ولادته، وإنّ أباه تزوّج من تيزة بعد ذٰلك بعام أو عامين، وإنّه يعيش بمفرده تحت رعايتها بعد أن تزوّج أخواته الأربع في الأعوام الثمانية التي أعقبت وفاة الأمّ، وإنّ أسباب الخلاف لا تنتهي بين تيزة وأبيه، فلن يزالا يصطدمان ويشتجران، وأقسم أنّ الحق دائمًا مع أبيه، وأنّه لا يشتبك معها حتّى يضطرّ إلى ذٰلك اضطرارًا، ثمّ لا يلبث أن يكفّ عنها يائسًا قانطًا، فلا تسكت هي عن الغضب والحنق والسباب. وأصغى المدرّس إلى تلميذه بغير اهتمام ظاهر، وواساه بكلمة تافهة، ثمّ تناول الكرّاسة وبدأ عمله، ولم يطرقا الحديث مرّة أخرى ولا عادا إليه فيما أعقب ذٰلك من الأيّام، حتّى كانت ساعة درس فاقتحمت عليهما الغرفة بغير استئذان شابّة حسناء في ريعان الشباب فوضع الأستاذ الكتاب على المكتب وقام واقفًا في تأدّب واحترام. وألقى على الزائرة نظرة حييّة، فراعه ما رأى - لا من حسنها وشبابها فحسب - ولٰكن من انطلاقها على سجيّتها وعدم تكلّفها، الأمر الذي أخرجها - بغير قصد طبعًا - عن الاحتشام، فكانت ترتدي (روب دي شامبر) من نسج حرير رقيق يكشف عن ذراعيها ونصفَي ساقيها وأعلى الصدر، وكان الأستاذ يظنّ أنّه لا يجوز لشابّة أن تبدو هٰكذا لعيني رجل غريب ولذٰلك غلبه الارتباك والاستحياء، وحدس أنّها إحدى أخوات تلميذه المتزوّجات، وتأكّد حدسه حين رآها تمدّ يدها في رفق إلى ذقن توتو تداعبه، ثمّ جلست باطمئنان تجاه المدرّس وهي تخاطبه قائلة:

- تفضّل بالجلوس... هل يعجبك عمل توتو؟

فجلس أنيس وهو يقول:

- توتو مجتهد، وقد تقدّم في هٰذين الأسبوعين في الأجرومية والمطالعة، ولا ينقصه إلّا المثابرة على حفظ الكلمات.

فابتسمت ابتسامة حلوة وطلبت إليه أن يستمرّ في عمله، فعلم أنّها ترغب في أن تشهد درسه، فلم ير بدًّا من متابعة الدرس متلعثمًا برمًا، واختلس منها نظرة فوجدها تنظر إليه بإمعان، فاعتقد أنّها تتابع كلامه. فوجّه انتباهه إلى ما يقول ليخرج صحيحًا عذبًا، ومرّة

أخرى وقع نظره على جيب الروب وقد انفرج عن أعلى الصدر فزاغ بصره وارتدّ في اضطراب وذعر.

ولم تمكث الشابّة طويلًا فحيّته وانصرفت، فشيّعها بنظرة غريبة وقال لتوتو مستفهمًا:

- أهي أختك؟؟

فهزّ الغلام رأسه سلبًا وقال بجفاء:

- تيزة.

فتملّكت الشابّ الدهشة وتساءل متعجّبًا:

- تيزة؟!

فنظر الغلام إليه بإنكار وقال:

- نعم.

فتمالك أعصابه ولم ينبس بكلمة، ولكنّه لبث مشغولًا دائم التفكير، وفي أثناء عودته إلى مسكنه بشارع ماهر بالجيزة استدعى صورة والد توتو - كما رآه يوم قدّم إليه - ببدنه المترهّل وكرشه الكبير ورأسه الصغير المستدير الأصلع قد علا المشيب قذاله وقلق المنظار على أنفه الغليظ المجدور. ثمّ تمتم قائلًا: «الآن فهمت كلّ شيء... فرضوان بك حكمدار في المعاش جاوز الستّين وزوجته لا تعدو الرابعة والعشرين، وتوتو غلام بائس تضافرت عليه أسباب التنغيص الظاهرة والخفيّة.. ولكن لماذا تلطّفت بالغلام أمامي؟!» ولم يعتور أفكاره سوء، لأنّ أنيس كان طالبًا - وإن كان أستاذًا لتوتو - طاهر النفس، على أنّه تأثّر بحسنها وشبابها وخلاعتها غاية التأثّر.

وفي الدرس التالي لم يكد يطمئنّ إلى مقعده أمام تلميذه حتّى كانت (تيزة) ثالثتهما، وكانت كما رآها أوّل مرّة، جميلة خليعة مبتذلة في ثوبها ولم تلازم مكانها طول الوقت، فكانت تخرج لبعض الشئون ثمّ تعود إلى جلستها. وفي مرّة عادت فجلست إلى جانبه دون أن يبدو عليها أنّها تعمّدت ذلك، فخال أنيس أنّ ساقها - لدنوّها - تلامس ساقه. وعند انصرافه سلّمت عليه باليد، فراح يضوع من كفّه أريج معطّر، ومضى مبلبل الفكر تضطرم في وجدانه يقظة عاطفيّة حارّة، وما زال مشغول البال يحاول أن يتفهّم محاضراته عبثًا حتّى ضرب مكتبه بقبضة يده وصاح جزعًا مكروبًا: «لا أحسبني إلّا مجنونًا أو مسحورًا».

وفيما أعقب ذلك من أيّام كان يذهب إلى بيت رضوان بك شغفًا بها قبل كلّ شيء، وأحسّ أن تفضّلها بحضور درسه هو السعادة الحقيقيّة التي تبذلها له الدنيا جميعًا، فاستلذّها واستطابها وجنّ بها جنونًا. وجعلت الشابّة الفاتنة تتودّد إليه، وتعرض لعينيه المشغوفتين محاسنها العارية، وتداعبه بنظرات من عينيها حلوة فاتنة، أو لفتات من لحظها قاتلة فاتكة.. والشابّ يذهل عمّا حوله بسرعة جنونيّة. وذهب يومًا إلى بيت الحكمدار فوجد الشابّة في الحجرة دون الغلام، فسأل عنه لا يحفل به في باطنه. فقالت له المرأة: «ذهب مع والده إلى شقيقته في الزمالك لأنّها مريضة» فأحسّ خيبة وحنقًا لأنّه سيضطر إلى مغادرة البيت وقام واقفًا كئيبًا فسألته: «إلى أين؟» فأشار إلى الباب وقال: «سأعود من حيث أتيت» فصوّبت إلى عينيه نظرة ملتهبة وتمتمت بجرأة وهي تهزّ رأسها الصغير «كلّا..» فخفق قلبه وتدافعت أنفاسه ووقف حيالها كالمسحور المذهول، ثمّ تبعها على الأثر لا يلوي على شيء.

وتخلّفت بعد ذلك عن حضور دروسه، ولكنّها سمّت له الأيّام التي يستطيع أن يلقاها فيها في أمن من الرقباء. فاندفع في سبيله كمياه الشلّال الجارفة في فورة عاطفة مشبوبة تصمّ الآذان وتعمي البصر وتغرق هواجس النفس، مستكينًا لنوازع شهوته وجنونه. وإنّه ليغادر بيتها ذات أصيل من أصائل الحبّ إذ لاحت منه التفاتة بغير قصد إلى شرفة البيت المطلّة على الطريق، فرأى مشهدًا تجمّد له الدم في عروقه، وتصلّب شعر رأسه من الهول، فتعثّر وأوشك أن يقع على وجهه، وهرع إلى الإفريز تحت الشرفة كأنّما يداري نفسه؛ وتقدّم في خطى مضطربة لاهثًا حتّى بلغ منعطف الطريق وأراد أن يستوثق ممّا رأى فصوّب بصره في خوف وإشفاق نحو الشرفة، فرأى عند مدخلها رضوان بك برأسه الأصلع المستدير يجلس مطمئنًّا إلى كرسيّه في جلباب فضفاض يطالع جريدة ويهشّ الذباب عن وجهه بمذبّة.. فأيس من تكذيب عينيه،

ولهث قائلًا بفزع لا يوصف «ربّاه إنّه هو هو.. نعم في جلباب البيت فكيف كان ذلك..؟ هل عاد إلى البيت أثناء وجوده مع زوجه؟ فكيف لم يشعرا به؟ ولماذا لم يقصد إلى حجرة نومه ليبدّل ثيابه؟ أم إنّه كان في البيت قبل ذهابه هو إليه؟ فكيف استقبلته المرأة باطمئنان؟ وكيف لا تعلم بوجود زوجها في البيت؟ بل كيف لم يشعر به ربّ البيت مع أنّه غادر المخدع في خطئ مطمئنّة غير محاذر؟. ربّاه..! لقد نجا من شرّ فادح.. وداخله إحساس الذي يستيقظ بغتة فيجد أنّه قد اجتاز سورًا شاهق العلوّ في نومه.. وتخايلت لعينيه أشباح الإثم والجريمة والسجن، فعزم على أن يضرب بغرامه عرض الحائط متّعظًا بالهاوية التي أوشك أن يتردّى فيها. ولكنّه لبث يذهب لإعطاء دروسه للغلام توتو، وكان يعاني آلام قلبه وجموح عواطفه ولكنّ المرأة لم تمهله حتّى يتناسى ويتعزّى، فعادت إلى اقتحام حجرة الدرس عليه وسألته بعينيها في عتاب وكدر.. وحين انتهاء الدرس تبعته إلى الباب الخارجيّ وسألته بحدّة: «لماذا لا تأتي؟» فقصّ عليها همسًا ما رأته عيناه آخر مرّة، ونظر في وجهها ليمتحن أثر كلامه، فهاله ألّا يرى الانزعاج الذي كان يتوقّع. وسمعها تقول بلهجتها الغاضبة: «كذبتك عيناك..» فأكّد لها أنّ ما رآه حقّ بغير ريب، فاستهانت بتأكيده وقالت له: إنّها ستنتظره وترى ما هو فاعل.. فأبدى لها مخاوفه.. فقالت وقد نفد صبرها: «أنت مخطئ واهم، فتعال ولا تتعب نفسك بالنظر إلى الشرفة.. تعال ولا تخف» فوعدها بالعودة لكي يتخلّص من إلحاحها، ثمّ انطلق على نيّة ألّا يعاود ذلك البيت إلى الأبد..

ولبث على ذلك أسبوعًا كاملًا. وفي مساء يوم الجمعة، وكان في الشقّة ـ التي كان يشاركه فيها بعض الأقران ـ بمفرده، سمع طرقًا على الباب، فمضى إليه وفتحه، فرأى أمامه رضوان بك بجسمه المترهّل متوكّئًا على عصاه ذات المقبض العاجيّ. فسرت في جسده رعدة شديدة زلزلت قلبه زلزالًا عنيفًا، ووثب إلى ذهنه خاطر سريع: إنّ المرأة ربّما وشت به كذبًا عند زوجها لتكيد له، وإنّه جاء للتأديب والانتقام.. فاستولى عليه اليأس والقنوط وصعّد في وجه الرجل نظرة ارتياع ليقرأ ما تدلّ عليه أمارات وجهه وما ينذر به حضوره، فرآه هادئًا مبتسمًا كأنّه جاء لسلام لا لقتال. ومدّ يده بالسلام، فمدّ الشابّ يده، ولمّا يفق من دهشته.. ثمّ تنحّى عن الباب وهو يقول مزدردًا ريقه: تفضّل بالدخول يا سيّدي.. فدخل البك وهو يتحدّث قائلًا: إنّه لا داعي للجلوس لأنّه على عجل، وأنّه جاء ليسأل عن صحّته وعمّا اعتاقه عن متابعة دروسه.. واعتذر أنيس بأنّ موعد امتحانه اقترب وأنّه في حاجة إلى كلّ دقيقة من وقته.. ولكنّ البك لم يقتنع بحجّته ورفض أن يقبل عذره، وطلب إليه برقّة ألّا يحرم توتو من دروسه. فعاود الشابّ الاعتذار، وكرّ الرجل إلى الإلحاح، ثمّ أدنى رأسه من أنيس وقال له: لا بدّ من حضورك، فهٰذا ضروريّ جدًّا لتوتو.. تعال حينما تشاء وكيفما تشاء.. لا بدّ من حضورك، فهٰذا ضروريّ جدًّا... وكان لا يحوّل بصره عن الشابّ، فوجد في نظرته ونبرات صوته ما أثار فضوله ودهشته.. أمّا الشيخ، فصمت لحظة متردّدًا، ثمّ استدرك قائلًا: هٰذا ضروريّ لتوتو ولسعادتي ولسعادة الأسرة... بل لسعادتنا جميعًا.. فأصغِ لي، لا بدّ من حضورك..».

واحتقن وجهه بالدم، وارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم بالبكاء، ثمّ تحوّل عنه.. ومضى دون أن ينتظر موافقة الشابّ، ولبث في مكانه متفكّرًا مذهولًا تتجاذبه شتّى العواطف..

وكان الأسبوع الذي اعقب هٰذه الزيارة معترك أزمة نفسيّة عنيفة أخذت بتلابيب أنيس، فتقاذفته الغرائز والشهوات، وتجاذبته نوازع اللذّة ومغريات السلامة والطمأنينة، وكان ذا عزيمة وسريرة طاهرة وقلب نقيّ، فآثر السلامة. فلمّا استدار الأسبوع أحسّ قواه تتماسك وتشتدّ، فأطرى إرادته وجعل يتناسى بيت رضوان بك السيّئ الحظّ وزوجته الحسناء القلقة الغضوب، ويودع ذاك العهد زاوية من زوايا الذكريات الغريبة المنسيّة..

.. وانتصف مايو، فقصد أنيس يومًا إلى الكلّيّة ليسأل عن موعد ظهور نتيجة الامتحان، ولمّا بلغت

قدماه باب مقهى المثلّث شعر بإنسان يعترض سبيله بعصاه كالمداعب، فرفع رأسه إليه، فرأى رضوان بك يغادر المقهى يسبقه أحد أصدقائه إلى سيّارة تنتظر عن كثب، فارتبك ورفع يده بالتحيّة، وابتسم البك ثمّ سأله عن حاله، وتحدّث معه قليلًا دون أن يعرّج إلى الذكريات القديمة. وحين همّ بمفارقته غيّر لهجته وقال بصوت دلّ على الضراعة والمضض:

ـ أيّها الشابّ.. إيّاك والسخرية من الناس أو الهزء بالبؤساء، فأنت تجهل الدور الذي تعدّه لك الأقدار غدًا. واذكر أنّ أغرب تصرّفات الإنسان لا تعوزها أسباب تبرّرها: فصن لسانك عن الأذى وحاول ما استطعت أن تتّعظ بما يصادفك من العبر ـ كتب الله لك حظًّا سعيدًا..

ورفع يده بالسلام وسار في طريقه منتصب القامة يدلّ مظهره على أنّه رجل عسكريّ بغير جدال.

حلم ساعة

من عجيب الأمور أنّنا قد نحيا حياة سعيدة نخالها طويلة في حلم قصير الأجل، وما تعتّم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدّرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء، وما يجد يده قابضة إلّا على هواء. على هٰذا المثال مضى ذٰلك اليوم من حياته، كان يومًا أو بضع يوم ولٰكنّ قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة وحلّق في آفاق بعيدة من أحلام المنى وخفق خفقة فرح سماويّ جاوز به عالم الزمان والمكان، ثمّ أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد على نحو بالغ في القسوة والوحشة.. كيف كان ذٰلك؟..

كان اليوم السعيد الخميس، وكان الأستاذ بهاء الدين علمًا عائدًا من سماع محاضرة علميّة في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة عن الغدد الصمّاء، وكان يسير في ميدان الإسماعيليّة متفكّرًا في تلك الأدوات الإنسانيّة العجيبة، المسيطرة على الفرد أيّما تسيطر، وكيف يزعم العلماء أنّهم بالتحكّم في إفرازاتها يستطيعون أن يحوّلوا الطيّب إلى شرّير والشرّير إلى طيّب، والشاعر إلى رياضيّ والرياضيّ إلى شاعر. وكيف يفسّرون أخيلة جيتة وأحلام شيلي بعصاراتها المتدفّقة في الدم!.. وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هٰذه الأفكار فهي مادّة عمله ومادّة حياته معًا، وفي الواقع يندر أن نجد بين شباب المعيدين بكلّيّة العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين في حبّه العلم وحرصه على تحصيله.

وكأنّما أرهقه القعود والسكون ـ في أثناء إلقاء المحاضرة ـ فأحسّ بارتياح إلى المشي، واعتزم السير على الأقدام إلى شارع فؤاد الأوّل، واتّجه إلى شارع قصر النيل في خطًى وئيدة يدخّن لفافة من التبغ ويجترّ أفكاره وتأمّلاته في لذّة ويسر، وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيما يشبه العدو، فتوقّف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل وتوقّفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرآها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار، ثمّ مضت في سبيلها حتّى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة، وكأنّها تحاول تذكّره ولا تدري كيف، ثمّ أدركت بأنّ نظرها إليه هٰكذا من الغرابة فأدارت رأسها عنه وما روت غلّة، وقصدت إلى سيّارة تنتظر إلى جانب الإفريز، فأدرك من وهلة أنّ صورته اشتبهت عليها، وعلت لذٰلك فمه ابتسامة. وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظرة إلى السيّارة ـ وكان جاوزها بأمتار ـ فرآها تتابعه بنظرة تعلو وجهها آي الحيرة والغرابة، فغمرته موجة انفعال مضطرب لذيذ، وتعثّر بأذيال الارتباك والحيرة، ثمّ تحرّكت السيّارة مندفعة في الاتّجاه الذي يسير فيه وما تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحيّر بماذا يصفها.. ودّيّة؟.. حنونة؟.. حتّى باعدت بينهما المسافة..

وعجب الأستاذ أيّما عجب، على أنّ عجبه كان شيئًا يسيرًا إلى ما أحسّ به ساعتئذٍ من ثورة الوجدان، وكانت الفتاة شابّة حسناء مدمجة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسمات، يزيّن وجهها عينان زرقاوان لنظرتها وقع السحر في الحواسّ والقلب والأعصاب. فانبعث في قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة. ثمّ لسعته حسرة أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان. وكانت حياته في الواقع خالية من الحبّ مثل كهف رطب لا تزوره الشمس لأنّ تفانيه في طلب العلم لم يدعْ له وقتًا لشيء سواه، ولعيبين

طبيعيّين كبرا في وهمه واشتدّا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنّه «ثقيل الدم»، وكان إلى هٰذا عييًّا حصورًا لا يكاد يبين، فلم يكن في وسعه قطّ أن يحسن خطاب فتاة فضلًا عن أن يغازلها، ودعاه هٰذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منهنّ، وحزّ لذاك الألم في نفسه، وسكب في قلبه امتعاضًا ومرارة، فتبدّى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهدًا طويلًا بائسًا بين الرغبة في الحبّ والخوف من المرأة، والتشوّق إلى النساء والحقد عليهنّ، فكانت تلك النظرة الحلوة أوّل نسمة تهبّ عليه من دنيا الوجدان فترتوي بها نفسه الظمآنة ويندى بها قلبه الجافّ، ولٰكنّه ارتواء كالظمأ وندى أشدّ حرقة من الجفاف، فتحيّر وتعجّب وتساءل وهو يقلب كفّيه ترى ما خطب هٰذه الفتاة؟.. وما معنى هٰذه النظرة الفاتنة التي أذابت الوجد والهيام والحنوّ المتجمّد في قرارة نفسه؟.. إنّه لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنّه رآها من قبل، وهي بغير ريب لا تعرفه أيضًا فلا هي قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلّيّة العلوم. لعلّه التبس عليها شبهه، ولٰكن كيف طال بها الشكّ تلك المدّة السعيدة التي أدامت فيها النظر إليه؟!.. ومضى يتفكّر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعًا.

وكان في عزمه أوّل الأمر أن يعود إلى بيته، فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع ساعة قبل النوم، ولٰكن عافت نفسه ذٰلك. ومضى يضرب في الأرض على غير هدًى تاركًا محرّك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدّرة حتّى أعياه التعب وتعنّاه المشي، وكان سرى عنه بعض الشيء وأخذ يفيق من أثر النظر فاتّجه إلى قهوة روجينا. وجالس بعض صحبه حتّى شارفت الساعة التاسعة، ثمّ خطر له أن يقضي سهرة المساء في سينما رويال ـ وكان قليلًا ما يجذبه مزاجه إلى ذٰلك ـ فسار بلا تردّد إلى السينما وقطع التذكرة، وكان يكره الانتظار جالسًا فدلف إلى الصور المعلّقة بالردهة الخارجية وقلّب فيها عينيه، ثمّ أدارها ظهره ملالًا وأرسل بناظريه إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين، فرأى سيّارة فخمة تقف أمام مدخل السينما، وفتح بابها ونزلت منها سيّدة بدينة بادية النعمة والثراء تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه في صدره، وأحسّ بفرح عجيب تمازجه دهشة فلم تتحوّل عنها عيناه، وفاته في ذهوله أن يرى ضابط بوليس شابًّا يبرز من الباب الثاني للسيّارة ويدور بسرعة ويلحق بالسيّدة والفتاة، وانعطف رأس الفتاة إليه، وكانت فتاته دون سواها كأنّما جذبتها قوّة بصره المشوق، والتقت عيناهما، ولاح على محيّاها الجميل الاهتمام والدهشة، ورقّت نظرتها بالحنان الذي حيّره وفتنه منذ حين، فتبعهم في خطًى مضطربة ملبّيًا نداء قوّة عاتية، وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثاني، فوقف في الردهة يتابعها بعينيه، ورآها قبل أن يغيّبها عن ناظريه منعطف السلّم تلقي عليه نظرة أخرى.. يا لها من نظرة!.. فاستخفّه طرب جنونيّ عذب لا يتأتّى لغير الموسيقيّ وصفه. واندفع إلى الداخل لا يلوي على شيء، فلمّا اطمأنّ به مقعده مضى يصعّد نظره في الألواج والبناوير باحثًا عن الوجه الحبيب ذي النظرة الفاتنة الحنون، حتّى وجد ضالّته في البنوار رقم ٣، وكانت تتقدّم السيّدة بقامتها الهيفاء، والتقت نظرتها بوجهه هٰذه المرّة أيضًا، وكأنّها تتوقّع أن تجده مجدًّا في العثور عليها فارتسمت على شفتيها القرمزيّتين شبه ابتسامة أضاء لها وجهها بنور بهيّ، وجلست وهي ترنو إليه بعينيها فبدت وهي تنحني قليلًا وكأنّها تحنو عليه، وأنقذه من سعادته التي لا تحتمل انطفاء الأنوار وانهماك الشاشة في عرض أخبار الدنيا!..

كان قلقًا مجنونًا إلى غير حدّ، فرحًا سعيدًا بغير حساب، يشعر برغبة عنيفة لا يدري ما كنهها إلى القتال أو الرقص أو الصياح أو البكاء، وتندّت أهدابه بدمعة أحسّ بتفجّرها من أضلعه. كان بمعنى آخر عاشقًا يتلقّى قلبه لأوّل مرّة أمواج الحبّ الكهربائيّة الغامضة غموض الأثير، وأغمض عينيه في الظلام وهو يتنهّد في ارتياح وغبطة مستسلمًا للذّة الأحلام، وتساءل في استسلامه السعيد ترى ما الذي ساقه هٰذا المساء إلى السينما ولم يكن أعدّ نفسه لذاك؟!.. إنّ كلّ شيء

يبدو وكأنّه يؤكّد أنّ القدر يرسم خطّة رائعة بدأها في شارع قصر النيل وما زال ينسج فصولها في سينما رويال، نعم إنّه لم يرها عبثًا، ولم تلتق عيناهما مصادفة كلّا ولم يأت إلى السينما اتّفاقًا، ولكنّ الحب يخلق الحوادث والظروف، وإلّا فما معنى هٰذه الحلقة المتقنة؟ وما معنى هٰذه النظرة الحنونة العذبة الذي دلّ تكرارها على أنّها مغرضة، أليس هٰذا الذي يسمّونه الحبّ من أوّل نظرة؟!.. بلى هو هو.. ويشهد عليه قلبه ومشاعره ونظرتها الفاتنة النافذة التي لن ينمحي أثرها من نفسه. كيف حدث هٰذا؟.. هل كان القدر في قسوته عليه وازوراره عنه يدّخر له هٰذه المفاجأة السعيدة وهو لا يدري؟!.. وهل وجدت أخيرًا من لا تستثقل دمه كما يستثقله كثير من الناس؟!.. ومن تتعرّف نفسه بالنظرة الملهمة لا بتغرير الألفاظ وسحر البيان؟.. كم سخط على الدنيا ظلمًا، وكم أدان القدر جهلًا.. والساعة الساعة ينتهي الجفاء وتتبدّد الوحشة، ويندى قلبه المحروم ويرطب حلقه اليابس، وفكّر الأستاذ بهاء الدين إلى هٰذا في أمور غاية في الأهمّيّة والجدّ. تناولت حاضره ومستقبله، ولم يفته أن يحسب حساب الوسيلة إلى التعرّف والخطبة، ولا فاته ـ في تلك الساعة ـ أن يقدّر المهر ويحدّد تاريخًا للزواج السعيد.!؟

ولم يحسّ بالوقت كالسعداء. وجعل يتأمّل بعين مخيّلته الوجه النضير والنظرة المضلّة للقلوب، مستسلمًا للأحلام استسلام الحرّان إلى برد النسيم، حتّى ظنّ أنّ أشهى الأماني دانيًا لا يكلّفه جنيها أن يمدّ يده فيقطفها في يسر واطمئنان.

وانتهت الشاشة من عرض فصولها الأولى وأضيئت الأنوار، ففتح عينيه وكأنّه يصحو من نوم سعيد، وصعّد رأسه إلى البنوار رقم ٣ فرأى فتاة في أجمل صورة ترشقه بنظراتها الفاتنة كأنّما كانت تنتظر انقشاع الظلمة مثله، ورآها تميل برأسها نحو السيّدة البدينة ـ التي تدلّ الظواهر على أنّها أمّها ـ وتهمس في أذنها، ثمّ شاهد السيّدة تنظر إلى أسفل باحثة بعينيها عن ضالّة حتّى استقرّتا عليه!.. فارتبك وتعجّب وتساءل ترى لماذا تدلّ أمّها عليه!؟.. على أنّ عجبه ازداد إلى غير حدّ لأنّه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحادث شخصًا لا يرى سوى أعلى طربوشه. ومال هٰذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس.

فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام، ولٰكنّه تذكّر هٰذا الضابط وذكر أنّه كان من زملاء فرقته في الخديويّة وأنّه يدعى عليّ سالم وأنّه كان مبرّزًا في الألعاب الرياضيّة. وظنّ أنّه أخو الفتاة ولٰكنّه تحيّر في فهم الدواعي التي بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكلّ جسارة وفيما عسى أن حدّثتها به عنه!.. وغلبه الشوق وحبّ الاستطلاع فرفع بصره إلى البنوار مرّة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدّقة فيه. وخيّل إليه أنّ زميله القديم يحيّيه فلم يصدّق بصره وظلّ جامدًا ولا يتحرّك، فأعاد الضابط تحيّته برفع يده إلى رأسه وردّ عليه الأستاذ التحيّة مرتبكًا، وشاهده يدعوه أن يصعد إليه فخفق قلبه خفقة عنيفة، وقام واقفًا وقد لفّته الدهشة والارتباك وغادر المكان في ذهول شديد. وصعد السلّم والتقى بصاحبه عند مدخل البنوار واستقبله هٰذا استقبالًا ودّيًّا وشدّ على يده بحرارة ـ ولعلّه فعل ذٰلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك ـ ثمّ أوسع له وهو يقول هامسًا:

ـ تعال أقدّمك إلى أهلي.

ووجد نفسه في البنوار أمام السيّدة والفتاة الجميلة، وقال هو يقدّمها له وهو يشير بيده:

ـ حرم الأمير الاي محمّد بك جبر، الآنسة زينب كريمتها وخطيبتي!

ثمّ التفت إليه وقدّمه لها مكتفيًا بذكر اسمه وزمالته القديمة لأنّه كان يجهل حاضره، ودوّت كلمة «خطيبتي» في أذنيه دويًّا مزعجًا أطفأ نشوة الفرح في حواسّه جميعًا وسكب مكانها خيبة مُرّة، فجلس كما طلب إليه ذاهلًا مرتبكًا قانطًا عاجزًا العجز كلّه عن حصر انتباهه فيما حوله، وكانت السيّدة ترحّب به وتشارك الضابط في التودّد إليه ومجاملته، ولٰكنّه لم يدر ممّا قالا شيئًا، واكتفى قهرًا بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفتيه يردّ بها عليهما ردًّا صامتًا كئيبًا، وكان يتخبّط في حيرة عمياء لا

يدري لماذا دلّت الفتاة عليه، ولا كيف دعاه زميله، ولا لأيّ سبب عرّفه بها وعرّفها به.. ولاحت منه نظرة إلى الفتاة فوجدها تبسم إليه ابتسامة حزينة فشعر بامتعاض، ووجّه عينيه إلى أمّها كأنّما يفرّ منها فرارًا فرأى المرأة ترنو إليه بعينين مغرورقتين بالدموع، فازدادت دهشته وبدا عليه الانزعاج والتفت الى صاحبه متسائلًا متحيّرًا، ودقّ الجرس في تلك اللحظة منذرًا بإطفاء الأنوار فقام الشابّ واقفًا وأحنى رأسه تحيّة، ودعته السيّدة إلى زيارة البيت فوعدها قائلًا:

ـ إن شاء الله.

وهو لا يعني ما يقول. وغادر البنوار، ولحق به صاحبه وكان يدرك ما يقوم بنفسه من الدهشة والانزعاج فقال له وهو يشدّ على يده مودّعًا:

ـ أنا آسف جدًّا على ما أحدثته دعوتي لك من الارتباك والإزعاج، وحقيقة المسألة أنّك تشبه شبهًا عجيبًا ابنًا شابًّا كان، فقدته الأسرة منذ عامين، ولعلّ هٰذا يفسّر لك كلّ شيء أيّها الصديق...

وهبط السلّم في خطًى بطيئة جدًّا، وكان يتوقّف كلّ درجتين ويتأمّل فيها أمامه بعينين لا تريان شيئًا، وعلت شفتيه الشاحبتين ابتسامة هازئة مريرة، وقد بدا له كلّ شيء كريهًا كئيبًا تعافه النفس..

الثمن

أخذت زينتها وسارت على غير هدًى، كيفما ساقتها قدماها وغيرها من النساء لا يتصدّين للمرآة حتّى يفرغن من المهامّ والواجبات، وغيرها من البشر لا يسير على غير هدًى عادة إلّا إذا ركنّ إلى اللهو والعبث واستقبل الراحة والفراغ.

هي بخلاف هٰؤلاء وأولئك، إذا توثّبت للعمل وانبرت للواجب أخذت زينتها وسارت على غير هدًى!.. وقريبًا من الطوار الذي تسير عليه رأت بمؤخّر عينها سيّارة تدنو ثمّ تقف على بعد أذرع إلى الأمام، سيّارة كبيرة بحجم الحجرة التي تنام فيها إذا رقدت بمفردها، وقد غادرها سائق زنجيّ مارد وفتح الباب ووقف جانبًا كالتمثال، فبرزت حسناء هي الجمال وهي الجلال، فما يمنع من الاندفاع نحوها إلّا أنّ نورها يغشي العيون، كلسان من لهب بهيّ المفاتن ساحر الألوان ولكن هيهات أن يجرؤ إنسان على لمسه، فخطفت بصرها، وسرعان ما دبّت اليقظة في عينيها الساهمتين ولاحت فيهما نظرة تفحّص واهتمام، وفي لمح البصر أقرّت لها قهرًا بالتفوّق المطلق وغلبها الإعجاب على أمرها، ثمّ تحفّزت للنقد بغلّ فما عتّمت أن باءت بمرارة الخيبة والسخط. وتهادت الحسناء إلى المحلّ الذي وقفت تجاهه السيّارة فخطر لها أن تتبعها، ولم تر في ذٰلك من بأس، فسيّان أن تمضي إلى الأمام أو أن تعرّج إلى اليسار، فوجدت نفسها في محلّ رائع أنيق تطالعها من جوانبه وأركانه زجاجات الروائح العطريّة مختلفة ألوانها وأشكالها، فسارت على مهل في جراءة وثبات فمنذ أمد بعيد تناست أنّ في الدنيا شيئًا يخاف غير الشرطيّ، وتظاهرت بأنّها تتفحّص المعروضات النفيسة في أقسام المحلّ، وتبعت في الحقيقة الفاتنة الحسناء. سارت رأسًا إلى صدارة المتجر الأنيق، وأقبل نحوها البائع بترحيب، فطلبت إليه حاجتها، وساعدها البضّة تشير إلى الرفّ البلّوريّ رصّت عليه الزجاجات الفاخرة، فأدركتها ووقفت إلى جانبها ومضت تقلّب عينيها في الرفوف اللألاءة، وأتى البائع بزجاجة زرقاء بديعة الصورة فتناولتها الحسناء ورنت إليه بعينين متسائلتين، فقال الرجل بأدب وإجلال «عشرون جنيهًا يا هانم» فأومأت برأسها دلالة على الارتياح والموافقة، فاستردّ الرجل الزجاجة، وكتب لها قائمة بثمنها وقدّمها لها، فأخذتها ومضت بها إلى صندوق الدفع. وخفق قلب الأخرى بعنف لسماع الرقم، فكانت كمَن يسمع اسمًا قديمًا رهيبًا يثير في النفس كوامن الشجن ويستدعي ذكرى قاتمة موجعة الصدى.. ربّاه!.. أيّ دور لعبه في حياتها هٰذا الرقم المشؤوم الذي لا تعرف الحسناء عنه إلّا أنّه ثمن زجاجة رائحة عطريّة فريدة!.. لو وجد يومًا في يدها لكان الحال غير الحال والحياة غير الحياة ولكفاها شرًّا فظيعًا، وهو ليس بالطلب العزيز يشترى بالمهج، ألم تر كيف يُبذل عن طيب خاطر ثمنًا لرائحة زكيّة يتبخّر معها من ثنايا المناديل ومفارق الشعور؟!.. ومع ذٰلك فآه لو وجدته قبل عشرة أعوام؟.. ولٰكنّه لم يوجد وخاب مسعاها وردّت راحتها الممدودة، سدّت في وجهها السبل وضيّق عليها الخناق، فتجرّعت غصص القنوط ثمّ هوت وقُذف بها إلى دنيا أخرى منكرة. وهٰكذا الدنيا قاسية لا قلب لها، والناس لا يرحمون، والحياة أشدّ وحشيّة من البحر الهائج والنار المضرمة، فقد لا يعدم الإنسان إذا أشرف على الغرق أن يسبح وراءه السابحون، أو إذا اشتعلت النار في أطرافه أن يهرع

إليه ذوو النجدة، أمّا في معترك الحياة فالضحايا لا عداد لهم، تعركهم الرحى وإخوانهم سكارى بأطماعهم ومشاغلهم، فلكم استصرخت بغير طائل، بل كانت ملهاة للنظارة، ثمّ بعد ذلك متعة للمتمتّعين، والدنيا تضيق بمَن ينشدون صيدهم بين الضحايا البائسة شرّدها الجوع والحرمان والأمراض. فوجدت نفسها في دنيا الشذوذ والعناد حيث تقتتل الضحايا من كلّ نوع، ضحايا الطموح الكاذب والشهوات البهيميّة والفقر المذلّ للأعناق، عالم البؤس حيث لا عودة لَمن مضى إليه ولا إفاقة لَمن نهل من سمّه، قذراته لا تمحى فليس على القذر إلّا المزيد من القذارة والتمرّغ في التراب. وكيف صارت بعد ذلك؟!.. وارحمتا.. فؤادًا قاسيًا وقلبًا كافرًا ولسانًا دنسًا ونفسًا تنضج بالخبث واللؤم والكراهية، على وجهها الطلاء وفي جسمها المرض وملء روحها الشرّ ومن مراتعها السجون..

مرّت صور الذكريات بمخيّلتها مرًّا سريعًا مضطربًا. لم يستغرق زمنًا يذكر، فاختلط في وعيها أشتاتًا من ذكريات متناثرة ومشاعر مهوّشة أسبغت على خيالها لونًا أسود، فشعرت بامتعاض وانكسار. وكانت عيناها لا تزالان عالقتين بالحسناء فاتّجهت نحوها في خطًى متثاقلة غير ملقية بالًا إلى البائع وقد وقف قبالتها ينتظر أوامرها!.. اندفعت نحوها برغبة قويّة وجعلت تحدّث نفسها كالهاذية «عشرون جنيهًا.. كم كان مقدارًا جسيمًا.. وكم علمت فيما بعد أنّه شيء زهيد في متناول يدي، وها أنا ذا أراه ولا قيمة له. أمّا هي فامرأة حسناء.. ولْكن لا يجوز أن توردها نفسها المهالك؟.. كما أوردتني نفسي أنا وقطيع البائسات؟.. هٰذا جائز.. ولْكن ما هو سمّ لأناس قد يكون غذاء لآخرين، وما يوجب علينا الشقاء قد يتيح ألوانًا من اللذّات والسعادة؟.. وأوشكت أن تلاصقها، وتحوّلت الحسناء إلى شبّاك التسليم فتأثّرتها، وأعطاها الرجل الزجاجة ملفوفة، ورأت الأخرى اللفّة فثارت ثائرتها وخطر لها أن ترمي بها إلى الأرض مهشّمة.

جاءها الخاطر مباغتًا بغير إصرار سابق ولا نيّة مبيّتة، فسرعان ما تملّكها بقوة شيطانيّة واستولى على عقلها وإرادتها، فكأنّها ما تبعت المرأة إلّا لتحقّقه مهما كلّفها ذٰلك من ثمن، ولم تدر لذلك سببًا واضحًا ولا هدفت إلى غاية ظاهرة ولْكنّها كانت كثيرًا ما تأتي بأفعال صبيانيّة وأحيانًا جنونيّة بغير مقاومة ولا فطنة لبواعثها، وكان الاستهتار من سجاياها الراسخة التي اكتسبتها في أعوامها العشرة الأخيرة، فلم يكن شيء يوقفها عند حدّ أو يعطف بها عن شهوة، فاندفعت إلى جانب السيّدة المتّجهة نحو الباب كأنّما تريد أن تسبقها إليه واحتكّت بها وهي تلوّح بذراعها فصدمت يد الأخرى فأفلتت اللفّة الثمينة وسقطت على الأرض. ولم تلتفت الحسناء إليها ولكنّها انحنت على عجل نحو الزجاجة، والأخرى تنظر إليها متسائلة هل نالت المرام؟!.. وجاءها الجواب سريعًا، أو جاء أنفها على الأصحّ، قبل أن تلمس أنامل الحسناء حملها النفيس، فتصاعد شذًا طيّب، جماله لا يوصف، عطّر الجوّ، ونفذ إلى الحواسّ والروح، فانتشت ثملة، كأنّه بثّ فيها غرامًا ووفاءً وسحرَ هوًى!. واعتدلت السيّدة وقد تضرّج وجهها بالاحمرار وصوّبت نحو الأخرى نظرة ثاقبة، ولبثت هٰذه في مكانها جامدة الملامح ولْكنّها راضية النفس مستسلمة كأنّها تقول بأفصح لسان «افعلوا بي ما شئتم»، وانتظرت السيّدة أن ترتبك الأخرى أو تعتذر، ولْكنّها ثابرت على جمودها وصمتها ورنت إليها بعينين هادئتين مستسلمتين، ومرّت لحظة دقيقة فتساءلت ترى هل تساق إلى القسم؟.. هل تشتبك في شجار مع السيّدة أو سائق سيّارتها أو باعة المتجر؟!.. ولْكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، فقد تغيّر وجه الحسناء، فانبسطت أساريرها، ثمّ أغرقت في الضحك.. إنّ أفدح المواقف أدعاها للضحك، فقد أضحكها أن تخسر الزجاجة النفيسة في غمضة عين، وأن ترى تلك المرأة البلهاء وقد أذهلتها جريمتها ورباطة جأشها، وكان صاحب المتجر يهرول نحوها يلوح في وجهه الاهتمام، فهزّت منكبيها استهانة وتحوّلت عن البلهاء وعادت القهقرى إلى صدارة المحل

دون أن تنبس بكلمة، واندفعت المرأة نحو الباب كأنّما تفرّ من المكان، ولمّا بلغت الطريق نظرت وراءها فرأت الأخرى بمكانها الذي أدركتها فيه حين تبعتها أوّل مرّة، فتساءلت ذاهلة «ربّاه هل تبتاع زجاجة أخرى؟!» ولكنّها لم تقف بل أسلمت قيادها لقدميها، وكانت فريسة انفعال طاغٍ تولّاها بغتة، فمضت مقطّبة الجبين زائغة البصر، إلّا أنّها لم تدم على ذلك طويلًا فما لبثت أن عادت إلى رشدها، خافت أن تبدو في هيئة قبيحة تنفّر الأعين، فطاردت همومها الطارئة، وألقت نظرة على ما حولها، ثمّ أخذت تسير الهوينى متثنّية الأعطاف وقد ابتسمت أساريرها...

نكث الأمومة

عندما دخل قطار الصعيد يهدّئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلّة فضّيّة من ضوء الصباح المنير، وقد فتحت السيّدة روحيّة هانم عينيها مع بزوغ أوّل شعاع من أشعّة الشمس، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخي النوم، ثمّ اعتدلت في جلستها في الصالون وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين في أنحاء الصالون حتّى استقرّتا على وجه الأستاذ عاصم الذي كان يغطّ في نوم عميق، فلاحت فيهما نظرة حبّ وحنان، وكان من الضروريّ إيقاظه لدنوّ القطار من محطّة مصر إلّا أنّها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجا ممنون، فتسوّي شعر رأسها وتمسح خدّيها وجيدها بالبودرة المعطّرة. وتنبّه النائم على لمس أناملها ذات الأضافر الأهراميّة الحمراء.. وكان أوّل ما مسّ إحساسه في عالم اليقظة رائحة أنفاسها الذكيّة وهي تطبع على شفتيه قبلة شهيّة.. وفتحت النافذة وأطلّت منها برأسها الذهبيّ كأنّها شمس تشرق من الأرض فرأت بناء المحطّة يدنو من بُعد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهي تتنهّد:

ـ واأسفاه انتهت سفرتنا.

فقال لها وهو يتمطّى:

ـ هٰذه نهاية كلّ رحلة. أمّا الحبّ فلا نهاية له.

فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة:

ـ أين أسوان أين؟.. أين خلوة الصحراء تحتوينا معًا؟ أين جدران المعابد تستر علينا؟ أين زورق النيل يجري بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفترق ونشهد معًا وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثمّ المساء.. واها..

فتنهّد الشابّ تنهّدة هادئة لا كتنهّدتها الحارّة وقال:

ـ سنعود إلى أسوان في الشتاء القادم. أمّا الغد فإلى عشّ غرامنا المعهود في شارع سليمان باشا.

ـ هيهات أن تعوّضنا هذه الساعات التي ننتهبها انتهابًا من ذٰلك الشهر السعيد الذي كنّا فيه جسمًا واحدًا وروحًا واحدة.

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها، ولكن خذلته نفسه الهادئة الملولة فقنع بقوله:

ـ صدقت يا عزيزتي.

ثمّ قام إلى النافذة الأخرى ففتحها، وكان القطار قد بلغ المحطّة وأخذ يرسل صفيره المدوّي في جوفها العظيم، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال. وكان مزدحمًا بالجمهور. وسمعت الأستاذ يقول:

ـ ها هم أولاء.. زوجك وحياة ومدحت.

فقلقت عيناها بين الرءوس المشرئبّة حتّى اطمأنّتا إلى رأس حياة الذهبيّ فرقّ قلبها حنانًا وتحوّلت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ في أثرها، وعلى الإفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان: «ماما» فتعانقوا عناقًا حارًّا، ولمّا تخلّصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو في عباءته الفاخرة، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدي عن شعره الخفيف، فجمدت عيناها وتقدّمت إليه ومدّت يدها فسلّم عليها واجمًا ووضع يده أيضًا في يد الأستاذ عاصم.. وساروا جميعًا إلى الخارج، الزوج في المقدّمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ.. واستقلّوا السيّارة التي انطلقت بهم في طريق الزمالك..

وجلس الزوج وزوجه وحياة في ناحية وجلس في

الناحية الأخرى المقابلة الأستاذ ومدحت، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأوّل مرّة، إذ إنّها تقابله في زياراته المتكرّرة لوالديها، يا للعجب للشبه العظيم الذي بين الأمّ وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلّا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة في الغصن، وأمّا الأمّ فكالوردة الناضرة في الزهريّة..

وظلّوا جميعًا حتّى قال الزوج:

- كيف كانت الرحلة؟ لعلّ صحّتك تحسّنت يا هانم؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت «الحمد لله» وقال الأستاذ:

- قل أن تغيب الشمس في أسوان، وهي أنجع دواء للهانم...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبيّة صناعيّة وقال:

- يسرّني أن أسمع هٰذا، وعسى أن تسرّا بدوركما لأنبائنا، فتهنّئا حياة بخطوبتها القريبة.

واحمرّ وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء، والتمعت عينا الأمّ وبدا عليها الاهتمام، وردّدت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة:

- وهل تمّت الخطوبة؟

فقال الرجل:

- لا يجوز أن تتمّ خطوبة فتاة في غياب أمّها... ولٰكنّها ستتمّ قريبًا بإذن الله...

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسمًا، «مبروك». أمّا الأمّ فسألت:

- مَن هو؟

وأجابها الرجل:

- طلعت، ابن شريكي.

وسأل المحامي:

- هل هو موظّف؟

فقال الرجل بزهو:

- نعم وكيل نيابة!

وأطبقت روحيّة هانم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن الحاضرين، وانتهت السيّارة إلى الفيلّا ودخلوا جميعًا ومعهم الأستاذ عاصم.

ولٰكنّه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب.

كان السيّد محمّد بك طلبة من كبار تجّار الشاي المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدّر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين في حسن التدبير وعلوّ الهمّة والحرص؛ وبالرغم ممّا تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات، وبالرغم ممّا صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح، فإنّه ما يزال يعدّ زواجه أخطر حادث في حياته، وهٰذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرّح به؛ وقد وقع هٰذا الحادث الخطير منذ عشرين عامًا - وهو في الخامسة والأربعين - إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجاريّة بسوريا، وقد التقى هناك بأسرة زوجه وتعرّف إلى والديها، وكان الأب سوريًّا والأمّ أمريكيّة. ورأى ابنتها الشابّة الفاتنة ساعة فوقع في حبّها وجنّ جنونًا وتحرّكت في أعماق غريزته التجاريّة غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها، ولم يستدر ذٰلك الشهر حتّى تمّ زواجه منها، وعاد إلى مصر «بأعظم ربح وأجمل امرأة في الوجود» كما قال لنفسه حينذاك.

وبدأت الحياة الزوجيّة بنجاح لا بأس به. وأثمرت على مرّ الأيّام طفلين جميلين مدحت وحياة. فبشّر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والعشرة... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنّه أخذ يجتاز الحلقة السابعة، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة، ويكتفي من الحبّ بتذكّر أحلامه المنطوية.. وأمّا المرأة فألفت نفسها في مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب، فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام، إذ كان شبابها عنيدًا جبّارًا دائب الثورة على الزمن.. فتصدّع ائتلاف الزوجين، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هٰذه الحيويّة الثائرة فانكمشت أمام سيلها العارم، وخلّت لها المنحدر وانزوت مطعونة باليأس مذعنة بالتسليم.

واتّفق أن كان الأستاذ عاصم المحامي - صديق الزوج وجاره - السبب المباشر في انفجار هٰذه الثورة

الحيويّة العنيفة، وقد تحيّرت (صالونات) الزمالك في تحديد علاقته بروحيّة هانم، فمن قائلة إنّ هٰذا المحامي الجميل ليس إلّا صديقًا للأسرة، ومن هامسة بأنّه عشيق الزوجة ومتغفّل الزوج، ومن مؤكّدة أنّه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو ـ على الأقلّ ـ تغاض من الزوج، وظلّ كلّ فريق على رأيه حتّى ذاع خبر تلك الرحلة الشتويّة إلى أسوان التي قيل في تعليلها إنّ الأطبّاء نصحوا للهانم بانتجاع الصحّة في مصر العليا، وإنّ الزوج ـ الذي تمنعه أعماله في مثل هٰذا الوقت من السفر ـ عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامي الذي يسافر عادة في يناير كلّ عام إلى أسوان.. هنالك قطع الشكّ باليقين وارتفعت الآراء..

وكانت روحيّة هانم لا تهتمّ بشيء اهتمامها بشبابها، فكانت لا تني عن العناية به والتفكر فيه حتى غدا ذٰلك وسواسًا ومرضًا ينغّصان حياتها بالمخاوف والأوهام، وكانت كلّما تقدّم بها العمر يومًا تزايدت مخاوفها، ذٰلك أنّها كانت تحسّ في أعماقها ببلوغ قمة الشباب التي لا يعقبها إلّا الانحدار، وكانت تعلم أنّ شبابها هو سعادتها لأنّها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذي تحبّه والذي تعلم ـ مع الألم الشديد ـ أنّها تكبره بما لا يقلّ عن عشرة أعوام..

ولطالما تذكر ما قالت مرّة امرأة ـ تعلن لها الودّ وتكتم العداوة ـ في مجلس لأخرى وهي تعنيها بالذات من أنّ النساء اللاتي يحافظن على شبابهنّ بعد فوات عهده يهرمن مرّة واحدة بلا تدرّج... واها... كم سخرت من رأي هٰذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد الذي تحمله لها، ولٰكن لا سخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفاد شيئًا في مغالبة الذعر الذي استولى عليها والرجفة التي استحوذت على أعصابها.. فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعًا وإشفاقًا كلّما طرقت أذنيها دقّات الساعة.

وجعلها ذٰلك في حيرة بين حبّها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما، فهما بلا شكّ لذّة الأمومة التي تخفق في صدرها ولٰكنّهما آيتان على كذب شبابها، أمّا حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطًى سريعة تدلّ عليها معاني العينين ونهوض الثديين، وأمّا مدحت فتعذيبه لها أشدّ إذ إنّ هٰذا الشابّ ـ الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نموًّا خطيرًا، فهو فارع الطول جاهر الفتوّة عريض المنكبين والأدهى من هٰذا كلّه غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له، فالشابّ يحبّ الرجولة ويستزيد منها حبّ أمّه للشباب واستزادتها منه.. وقد كانت حريصة على استصحابه كلّما خرجت حتّى قالت لها مرّة امرأة من صاحباتها: «ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدهما زوجين!» ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تغمزه، وعلى كلّ حال لم تستصحب فتاها بعد ذٰلك أبدًا..

على أنّه لاح في أفقها الآن ما يستخفّ بجميع همومها السابقة إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر؟!

لقد بغتها الخبر، وكانت البغتة من الشدّة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبير ولا التفكير ولا حتّى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هم بالسيّارة.. فلمّا ذهبوا إلى الفيلّا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالت عليها الفروض والتصوّرات، فهي لا تشكّ في أنّه لولا الحياء لغنّت حياة فرحًا وسرورًا، وأيّ فتاة لا تفرح للزواج؟ وخاصّة إذا كان الشابّ في عنفوان شبابه وجيهًا في بحبوحة من الغنى والجاه سيّدًا في وظيفة تتيه على جميع الوظائف، فلعلّها باتت تغرّد في قلبها أطيار الحبّ وتحلّق في جوّها الطاهر أحلامه العذبة، فهي جدّ سعيدة بحاضرها، جدّ آملة في مستقبلها، ولا شكّ أنّها تنتظر الآن أن تستعيد أمّها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدّها الورديّ قبلة التهنئة فتعلن رضاها وموافقتها فتتمّ الخطوبة وتكمل السعادة.

ولٰكنّها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أمًّا فتسمع عن قريب ممّن يناديها بقوله «جدّتي، جدّتي!» لقد نطقت بهٰذه الكلمة الشنعاء فدوّت في أذنيها دويّ التصويت والنواح فارتجّ لها جسمها البضّ وخفق لهَوْلها

قلبها العاشق.. وأحسّت ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب.. وخيّل إليها الوهم أنّها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام كأنّها تسمعه بأذنيها يهتف بها: «يا جدّتي» ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضّن جبينها وغارت عيناها ورقّ خدّها وابيضّ شعرها فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها، وهزّت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة، حتّى إذا عاودها اطمئنانها صاحت «أبدًا.. أبدًا.. لن يكون هٰذا» ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها العزيزة، حتّى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادّتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث، ولمّا لم يدع له إصرارها أملًا قال:

ـ أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك.

وأغضبها قوله. وظنّت أنّه يتهكّم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء، ولمّا شاهدت عينيه الحادّتين وقرّ في نفسها أنّه هو الذي سعى إلى هٰذه الخطوبة وأنّه سعى إليها تأديبًا لها وانتقامًا منها، فهو أعرف الناس بها وأعرفهم على وجه الخصوص ـ بما يسرّها وما يسوؤها، واشتدّ بها ـ عند ذاك ـ الغضب، فعضّت على شفتها السفلى، وأهملت الردّ عليه، فقال كالداهش:

ـ ما لك؟ لست كعادتك.. والأعجب من هٰذا أنّك لم تفرحي لما بشّرتك به؟

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة:

ـ لن تتمّ هٰذه الخطوبة..

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال:

ـ ما تقولين يا هانم؟

وأجابته بصوت صارم:

ـ أقول إنّه لن تتمّ هٰذه الخطوبة..

ـ كيف؟.. ولمه؟..

ـ إنّ (حياة) ما زالت صغيرة السنّ.

ـ ولٰكنّها بلغت سنّ الزواج القانونيّة.

ـ ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكّر يؤذي صحّتها؟

ـ لقد تزوّجت يا هانم في مثل سنّها ومع هٰذا فإنّ كلّ من يراك يشهد لك بالصحّة والنضارة...

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة مغيظة:

ـ أنا دائمًا أشكو من أعصابي...

فضيّق عينيه ورفع حاجبيه وقال في تهكّم:

ـ ربّما كان ذٰلك لعلّة غير الزواج..

فغلبها الغضب واشتدّ بها الانفعال وقالت بصوت متهدّج:

ـ باختصار لن تتمّ هٰذه الخطوبة...

ولٰكنّ الزوج صرّ على أسنانه الصناعيّة وقال:

ـ لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملّكتك حرّيّتك الكاملة وقلت لك منذ عامين «أنت وشأنك».. ولٰكنّي لم أتنازل عن حقوقي كوالد ولا أفكّر في التنازل عنها، وإنّي لأشفق من أن تضيع على ابنتي مثل هٰذه الفرصة الذهبيّة، ولذا فإنّي أعلمك ـ وإنّي أعني ما أقول ـ بأنّي سأعقد هٰذه الخطوبة...

فقالت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت:

ـ وأنا أؤكّد لك بأنّها لن تتمّ...

فهزّ الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول:

ـ سنرى.

وصبرت الهانم حتّى عاودها شيء من هدوئها ثمّ دعت إليها ابنتها، وحدّثتها حديثًا طويلًا عن حبّها لها وحدبها عليها وتوخّيها ما ينفعها وإشفاقها ممّا يضرّها، ثمّ خلصت إلى ما دعتها ـ في الحقيقة ـ من أجله، فأعلنتها بأنّها لا توافق على زواجها وأنّها ترغب في تأجيله بضع سنين خوفًا على صحّتها، ورجتها رجاء حارًّا أن ترفض يد ذٰلك الشابّ ولا تذعن لإرادة والدها...

وصمتت الفتاة صمتًا بليغًا، ولاذت به من الرفض أو القبول، وعبثًا حاولت المرأة أن تخرجها من صمتها ولٰكنّها فهمت منه، وممّا طالعت في وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط...

ولبثت الفتاة في حضرتها ما لبثت ثمّ غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيّتين... تحيّة اللقاء التي نطقت بها في مسرّة وفرح، وتحيّة الوداع التي قالتها

في صوت خافت بارد... وجنّ جنون الأمّ وازدادت تشبّثًا وعنادًا، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدّي.. فلمّا جاء الشابّ الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد. واضطرّ البك إلى انتحال الأعذار الكاذبة لها، وبذل الرجل ما في وسعه لإقناعها بالتحوّل عن عنادها وتوسّل إليها باسم ابنتها، ولكنّها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتّى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الإفضاء بالحقيقة إلى شريكه - والد الخطيب - وشكا إليه قسوة امرأته التي تضحّي بسعادة ابنتها في سبيل شبابها الكاذب.. وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج - رغم إرادة الأمّ - إنقاذًا للفتاة من أنانيّة أمّها المتوحّشة..

وذاعت هذه الكلمة التي قيلت سرًّا في جميع الأوساط الراقية. وتحدّثت بها (الصالونات) حتّى بلغت أذني الأستاذ عاصم المحامي الذي بلّغها بدوره إلى روحيّة هانم نفسها، ولكن لم يكن هذا - ولا ما أصبح بيديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلّا ليزيدها عنادًا وإصرارًا... ووجدت المرأة أنّ كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلًا في عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج، وكانت ترى في نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت - في قنوطها - إلى فكرة جهنّميّة شرّيرة لا تخطر على قلب أمّ ابدًا، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب، فقصدت يومًا إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج، وقد دهش الرجل وحقّ له أن يدهش وقال لها:

- وما أنا ولهذا؟... ثمّ إنّه لم تسبق لي معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدري والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم حياتها الخاصّة؟...

ولكنّ المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت:

- حقيقة أنّك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنّها تعلم أنّك صديق والديها، وقد سمعت في بعض المجالس ثناء كثيرًا على نبوغك في المحاماة فهي لا شكّ تقدّر رأيك حقّ قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية.

فتورّد وجه الشابّ وذكر وجه الفتاة الجميل الذي سعد برؤيته ساعة في السيّارة صباح العودة من أسوان، فلم يستطع أن يرفض ولكنّه قال متسائلًا:

- فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها في هذا الشأن الخطير؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به؟.

فتنهّدت المرأة ارتياحًا وقالت:

- لقد دبّرت كلّ شيء، سأصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات، وعليك أن تقابلنا - مصادفة طبعًا - في شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء، وتقترح علينا التنزّه قليلًا على جسر قصر النيل فأتركها معك وأعدك بأن ألحق بكما بعد دقائق، وتنتظراني ساعة على الأكثر فإن لم أعد تأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانني، وفي أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامي وتفضي إليها برأيك في الزواج المبكّر.. ما رأيك الآن؟.

وقبل الشابّ بسرور خفيّ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلّا على عجل وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلمًا وكتبت ما يلي بيد مضطربة وبخطّ جهدت أن تخرج به عن مألوف خطّها:

«سيّدي الأستاذ..

أنت شارع في الزواج من كريمة محمّد بك طلبة ولكن ينبغي قبل ذلك أن تذهب بنفسك كلّ يوم إلى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساء وخصوصًا أيّام الآحاد».

ثمّ كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه، وتردّدت لحظة رهيبة ثمّ نادت خادمًا وأمرته بوضع الخطاب في صندوق البريد..

وجاء يوم الأحد وخرجت الأمّ وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ، وتمّ لها ما أرادت من تركها معه، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتّى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة:

- أوه.. لقد تأخّرت عليكما لأنّ المحلّ مزدحم كما

تريان. لا بأس، أظنّ أنّه ينبغي أن نذهب الآن، نستودعك الله يا أستاذ..

وفي الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلًا أن تفاتحها الفتاة بالكلام، ولٰكنّها ظلت واجمة كأنّها تجهل اللغة التي تتكلّمها أمّها واختلست المرأة منها نظرة فألفتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكّرت ـ آسفة حزينة ـ كيف كانت في حضرتها لا تملّ الحديث والضحك والمداعبة، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الكلام:

ـ كيف كان التنزّه..؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة:

ـ تحدّثنا أحاديث عامّة تافهة لا تستحقّ الإعادة.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ هو جنتلمان.

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي تركه حديث الأستاذ في نفسها، ولٰكنّها لم تستطع أن تدرك شيئًا..

ولمّا خلت إلى نفسها ذٰلك المساء تنهّدت وقالت: «إنّ (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها منّي».

نفورها! وما النفور إلى جانب ما صنعت هي؟ أيّ فعلة شنعاء! أيّ منكر! إنّها تعرف نفسها أكثر ممّا يعرف الناس، وهي تعلم أنّها سيّئة التصرّف، كثيرة الأخطاء متسرّعة هوجاء، ولٰكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأً منكرًا كهٰذا الخطأ، وما لها تسمّيه خطأ؟ ولماذا لا تسمّيه باسمه الحقيقيّ فتقول إثم وجريمة؟ فهو جريمة شنعاء لأنّه ليس أقلّ من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها في سبيل شهواتها هي، يا للفظاعة! لو أمكن فقط أن يبقى هٰذا سرًّا مكتومًا، ولٰكنّه لن يبقى كذٰلك لأنّها في الحقيقة وإن كانت فكّرت تفكير شيطان إلّا أنّها دبّرت تدبير أطفال؛ فالرسالة التي كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولٰكن من يضمن لها ألّا يتّصل خبرها بزوجها؟ ومن يضمن لها ألّا يسأل الرجل ابنته عمّا جاء فيها وإذا صارحت الفتاة أباها بأنّها هي ـ أي أمّها ـ التي تركتها مع المحامي ذٰلك اليوم، فما عسى أن يحدس الرجل؟

أواه! قد لا تكترث لغضب زوجها ولٰكنّها على وشك أن تفقد محبّة ابنتها إلى الأبد، بل ابنها وابنتها معًا لأنّه لا مدحت ولا أيّ ابن في الوجود يستطيع أن يبرّ بمثل هٰذه الأمومة المتوحّشة، وأحسّت عند ذاك بقشعريرة تسري في جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف..

ولأوّل مرّة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة حياة اتّجه تفكيرها نحو الخير فودّت لو تستطيع أن تكفّر عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية، وظلّت تفكّر صادقة مخلصة حتّى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند أصيل يوم من الأيّام رأت المرأة ابنتها ترتدي معطفها وتتأهب للخروج، فسألتها برقّة:

ـ إلى أين؟

وأجابت الفتاة قائلة:

ـ إلى السينما.

فسألتها بتعجّب:

ـ بمفردك؟

فأجابتها ببرود قائلة:

ـ مع الأستاذ عاصم.

وأصاب الجواب منها مقتلًا فاستولى عليها ذهول شديد، وقالت دهشة:

ـ ولٰكنّك لم تستأذني أحدًا؟.

فقالت الفتاة بشيء من الجفاء:

ـ استأذنت بابا وأذن لي.

ـ وهل طلب الأستاذ إليك أن تذهبي معه إلى السينما؟.

ـ نعم.

ـ متى.. وأين؟.

ـ على جسر قصر النيل ذٰلك اليوم...

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت في مكانها لا ترى شيئًا. ولمّا أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت.

وتيقّظت غريزتها مرّة أخرى، فطغت على عواطف الخير التي تحرّكت في قلبها منذ حين قليل، وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع، فذهبت توًّا إلى زوجها

وقالت له غاضبة:

ـ لِمَ أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ؟

فقال الرجل بلهجة تهكّميّة:

ـ ولِمَ لا؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمّها وأبيها؟

فاهتاجها الغضب لتهكّمه وقالت وهي تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية:

ـ إنّي أعجب من تصرّفك هٰذا، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر؟

فهزّ الرجل كتفيه وقال:

ـ فسخ الرجل الآخر خطوبته.

فخفق قلبها واصفرّ وجهها وتساءلت: ترى هل علم شيئًا عن الرسالة؟

واستطرد الرجل قائلًا:

ـ عليك تقع تبعة ذٰلك يا هانم، فرفضك ـ وما ذاع عنه ـ زهّد الشابّ في الفتاة.

ترى هل اكتفى الشابّ بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب؟ ليت ذٰلك يكون!!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها:

ـ وقد أخبرتني حياة بأنّك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة في قصر النيل فظننت أنّك تفضّلينه على الشابّ الآخر، فلمّا استأذنتني في الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسي لا عليّ من هٰذا فعاصم شابّ جميل ونابغ في فنّه.

عند ذٰلك لم تستطع صبرًا فولّت مدبرة ترنّح في مشيتها كالمصاب في مقتل..

وتذكّرت المثل القائل: «على الباغي تدور الدوائر» فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حبّ الرجل وها هي ذي توشك أن تفقد ـ بمسعاها هي دون غيرها ـ الرجل وحبّه.

يا له من ألم ساخر! ليتها أبقت على الخطيب الأوّل أو ليتها تستطيع أن تستردّه بأيّ ثمن.

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة. وعند الصباح حدّثت المحامي بالتليفون وقالت كما تعوّدت أن تقول دائمًا:

ـ مساء اليوم في عشّنا.. هه.

فأجابها بغير ما تعوّدت أن يجيبها به قال:

ـ آسف جدًّا يا عزيزتي.. أنا مشغول جدًّا هٰذه الأيّام.

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيّب آمالها، ولم يفتها مغزى قوله «هٰذه الأيّام» ولٰكنّها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة:

ـ ومع هٰذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما؟

ماذا يستطيع أن يقول؟ قال إنّه بالأمس فقط كان لديه متّسع من الوقت أمّا الآن فلا!..

ورأت أنّه لا يكلّف نفسه حتّى الاعتذار المقبول. ولِمَ يكلّف نفسه؟ إنّما يهتمّ بانتحال الأعذار من يهمّه شخص المعتذر.. وقد غدت عنده شيئًا رخيصًا أو لا شيء مطلقًا. أواه! أهٰكذا تتقلّب القلوب؟ أهٰكذا ينسى الإنسان؟ أمِنَ الممكن أن يضحى حبّ كحبّها ذكرى وحلمًا في لحظة سريعة؟ ألا مِن تدّرج؟ ألا مِن رحمة؟

ولم تنقطع منذ ذٰلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم، وشاهدتهما معًا متنزّهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتّى توقّعت الأيّام يومًا بعد يوم أن يتقدّم الشابّ لطلب يد الفتاة، ولٰكنّه كان أحزم من أن يرتكب مثل هٰذه الهفوة لأنّه كان خبيرًا بأخلاق روحيّة هانم عليمًا بطباعها وعنادها وغرامها به، فرسم في عقله خطّة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يثنيه عنها شيء: ولبثت روحيّة هانم في حيرة من أمرها تعاني أشدّ الآلام النفسيّة والقلبيّة، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحدّيها لعواطفها وتتمزّق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة، حتّى كان مساء لا يُنسى إذ دخل عليها زوجها يهزّ خطابًا في يده ثمّ يرميه في حجرها وهو يقول في لهجة الغاضب:

ـ اقرأي وانظري.. أي جراءة؟..

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطيّر. وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية:

سيّدي المبجّل:

يصلك هٰذا الكتاب ونحن نستقلّ القطار الذاهب إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوروبا أنا وعروسي ـ كريمتكم ـ لقضاء شهر العسل، وإنّي أقرّ آسفًا بأنّه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هٰذا المثال الغريب، ولٰكنّ الظروف الدقيقة التي لا تجهلونها لم تدع لي فرصة للاختيار، وإنّي كبير الأمل أن تقدّروا سلوكي تقديرًا عادلًا، ولست أقلّ أملًا في نيل عفوكم القريب.

ودمتم للمخلص
عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلّت منكّسة الرأس لا ترى شيئًا ولا تعي شيئًا والقنوط يتسرّب إلى قلبها كالغاز السامّ، ولم تحاول قطّ أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنّها نسيت وجوده نسيًا تامًّا، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفّية، فلمّا وجدها تتهدّم وتضمحلّ ولّاها ظهره وذهب.

ولبثت في غيبوبة حينًا طويلًا ثمّ رفعت رأسها المثقل فوقع بصرها على صورتها في المرآة فارتاعت وجفلت، لأنّه خيّل إليها أنّها ترى جمالها يذوي وينضب وتغشاهما سيما الهرم . .

حياة للغير

ساعة الأصيل هي الساعة المختارة التي يهبط فيها عبد الرحمٰن أفندي إلى حديقة البيت الصغير، وهي عادته التي يلازمها أو التي تلازمه أغلب شهور السنة، لأنّه من القلّة النادرة التي لا ترتاح إلى ترك البيت إلّا لعمل أو ضرورة. وقد نزل إلى الحديقة ذٰلك اليوم من أيّام سبتمبر المعتدلة، وألقى عليها النظرة المعهودة، وتمشّى بين طرقاتها الملتوية يسرّح بصره بين شجرات الورد وأصص الزهور، ثمّ جلس على أريكة على كثب من السور المقام من الأسلاك الشائكة الذي يفصل بين حديقة بيته وحديقة البيت المجاور، وبسط جريدة من جرائد المساء كانت مطويّة تحت إبطه ومضى يطالع.

وكان في مشيته كما كان في جلسته آية للرزانة، فمن كان يراه لا يشكّ لحظة في أنّه بإزاء ربّ بيت وعاهل أسرة، فحركاته وإيماءاته تقرن دائمًا بالهدوء والاتّزان، ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة والمسئوليّة، ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلّان على أنّه ابن أربعين وإن كان في الحقيقة لم يجاوز الخامسة والثلاثين إلّا بشهور قلائل. وكان مستغرقًا في مطالعته حين استيقظ فجأة على صوت رقيق يهتف به قائلًا:

ـ سعيدة يا عمّي..

فأزاح الجريدة عن وجهه ونظر إلى حديقة البيت المجاور نظرة التمع فيها الابتهاج، فرأى وجهًا مشرقًا يرنو بعينين سوداوين صافيتين يطالعانه بالبراءة، فأحسّ إحساس الحرّان هبّ عليه نسيم بارد معطّر بالياسمين، وردّ تحيّتها قائلاً:

ـ أهلًا بالآنسة سمارا.

فابتسمت إليه ووقفت تلاعب كلبها الأبيض الصغير. كانت في السادسة عشرة. يتجاذب وجهها الصبيح وقدّها الممشوق براءة الصبا وأنوثة الشباب.

وأشار إلى كلبها وسألها:

ـ كيف هو اليوم؟

ـ تمّ شفاؤه.. الحمدلله..

فضحك قائلًا:

ـ لعلّ هواء الإسكندريّة لم يوافق مزاجه؟!

ـ على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا لا تسعه من الفرح.. فنظر إلى وجهها الذي كسا الشاطئ بياضه حمرة كأنّه غمسه في الشفق وقال برقة:

ـ لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سمارا!

فاستضحكت، وعدا الكلب في تلك اللحظة فولّته ظهرها وعدت وراءه..

وبدا عليه تغيّر ظاهر، فغاضت من عينيه نظرة الجدّ والرزانة وخلّفتها نظرة حنان وأحلام. وطاب له أن يختلس منها نظرات طويلة سعيدة، فشاهدها وهي تجلس على الكرسيّ، وتنحني لتلاعب كلبها الصغير. وجعلت أناملها تتخلّل شعره الأبيض الطويل، ومضى الكلب يلعق يدها مسرورًا ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طربًا، وفي أثناء ذٰلك تدلّت خصلات شعرها الحريريّ وحامت حول عنقها وخدّيها، وكان في مشاهدته سعيدًا مبتهجًا، ولٰكن انقبض صدره فجأة، فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئًا، لأنّه تذكّر أنّ سلوكها نحوه لم يتغيّر منذ كانت تدرج في الطفولة والصبا، وأنّها ما تزال تناديه بقولها «عمّي» كما كانت تفعل وهي صغيرة تلعب بالعرائس، وكان فيما مضى يفرح بهٰذا النداء ويعدّه آية على ما له في نفسها ونفس أبيها من المودّة والصداقة، أمّا الآن فهو يضيق به ويتأذّى منه ولا يكاد يسمعه حتّى ينقبض صدره

وتتولّى عنه المسرّة.

واتّجه بصره إليها مرّة أخرى وتساءل ـ ولم يكن يفعل ذٰلك للمرّة الأولى ـ أمن المستحيل أن تصير سمارا زوجي يومًا من الأيّام؟

وهزّ رأسه في إنكار واستغراب كأنّ الفرض من المستحيلات حقًّا، ولٰكنّه لم يسلّم بلا جدال فتساءل مرّة أخرى: ما وجه الاستحالة؟.. العمر... فهو ابن ستّة وثلاثين وهي بنت ستّة عشر، فعشرون عامًا تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرّر «عمومته» لها فكيف يتأتّى للعمّ أن يصير زوجًا وحبيبًا؟! حقًّا إنّ الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر، ولا ينزلون عند حكمها ويذلّلونها بغير مبالاة، ولٰكن كلّ تضحية من هٰذا القبيل بثمن، فما عسى أن يكون الثمن الذي يبذله لمثل هٰذه التضحية الغالية؟. هو في الواقع ليس إلّا موظّفًا منسيًّا في وزارة الداخليّة لا يتجاوز مرتّبه الخمسة عشر جنيهًا فلا مكانة له يعتدّ بها، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترًا من الرواء والجلال! ومع ذٰلك فهو يحبّها ويبدو له أن لم يكن من حبّها بدّ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يومًا بعد يوم ستّة عشر عامًا؟.. وكانت إلى ذٰلك الإنسانة الوحيدة من الجنس الثاني التي رمته بها الأقدار في عزلتها القاسية.. فتسرّب الحبّ إلى قلبه خفية، في أناة وهدوء، وبلا قصد أو حذر، تسرّب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبّات النسيم اللطيفة في جلسة طويلة هادئة على شاطىء النيل...

وكان في أوّل عهده بها يتمتّع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذًا لحنان صدره المكتوم، فلمّا أن انقلب عاشقًا أنشبت فيه الحيرة أظافرها، وحرم القناعة السعيدة وصار يعذّبه كلّ شيء حتّى عطفها عليه وحديثها، لأنّها كانت تقبل عليه ببراءة، ولم تشعر حياله شعور امرأة بإزاء رجل، وقد حدجها مرّات بنظرات نفذ منها لهيب الهوى قهرًا فلم تستجب له ولم تحسّ به وأصرّت على أنّه «عمّها العزيز» لا أقلّ ولا أكثر. ما عسى أن يكون ردّها لو طلب يدها؟... كيف يكون شعورها؟... وكيف تكون دهشتها؟... وماذا تقول لأبيها؟.. وماذا تقول لنفسها؟.. وهل يمكن أن يراها بعد ذٰلك كما يراها الآن في حديقتها وأن يتمتّع برؤيتها مقبلة مدبرة محدّثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد؟

وهب أنّه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفاتح أباها ـ صديقه العزيز ـ في هٰذا الشأن الخطير؛ فما عسى أن يقول له؟. يا له من قول عسيرا.. وفكّر طويلًا، ثمّ أغمض عينيه وحدّث نفسه وكأنّه يحدّث صديقه: «صديقي العزيز لقد جئت أحدّثك في أمر خطير لم تكن تتوقّع أن أحدّثك فيه أبدًا، وربّما لم أكن أتوقّع ذٰلك أنا أيضًا، ولست واثقًا من موافقتك ولا من أهليّتي للطلب الذي أتقدّم به، ولٰكنّي لم أرد أن أضيّع فرصة ذهبيّة لمجرّد توهّمي الإخفاق.. سيّدي.. وصديقي...».

ولم يتمّ حديثه لأنّ صوتًا عذبًا أيقظه من حلمه قائلًا:

ـ أنائم أنت؟

فانتبه خافق القلب وقد تولّاه ما يشبه الرعب، وقال:

ـ كلّا..

ـ معذرة.. رأيتك مغمض العينين...

ـ كنت أفكّر.؟

ـ وفيمَ تفكّر.؟

حدّق في وجهها بعينين حائرتين وتساءل بماذا يجيب؟.. أيقول لها فيك أنت؟.. ولٰكنّها مجازفة سابقة لأوانها، فلازم الصمت، وأحسّ رغم ارتباكه بلذعة سخرية لاضطرابه أمام هذه الطفلة، وكان ينعم النظر في عينيها السوداوين، ومرّت دقيقة على جموده، فشعر بسريان تخدير لذيذ، ولم يعد يرى إلّا سوادًا جميلًا، ثمّ لاحظ تغيّرًا فجائيًّا يطرأ عليها، فرأى وجنتيها تتورّدان وشفتيها تقلقان، وعينيها تتحوّلان إلى هدف وراءه.. وشاهدها تفرّ نافرة إلى داخل البيت، ونظر خلفه دهشًا فرأى أخاه نور يقف مبتسمًا ويمدّ له يده للسلام. وأحسّ بكآبة لم يدر ما سببها، وخفق قلبه خفقان الخوف والخيبة، ولٰكنّه سلّم عليه مبتسمًا وقال له:

ـ أهلًا كيف حالك يا دكتور؟

فضحك الشابّ وقال بصراحة:

ـ كم أنت سعيد يا أخي!

وأدرك ما يعني من اتّجاه بصره ولهجته، وآلمه ذٰلك غاية الألم، ولٰكنّه تجاهل الأمر وقال بإنكار:

ـ سعيد؟!

ـ طبعًا، مَن يحدّث سهارا ينبغي أن يكون سعيدًا.

فابتسم ابتسامة صفراء وقال لنفسه: إمّا أنّ هٰذا الشابّ خبيث ماكر وإمّا أنّه غبيّ لا يفقه لما يقول معنًى. ليس السعيد حقًّا من تحدّثه سهارا ولٰكنّه مَن تخجل من محادثته ومَن يتورّد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلّا أن تفرّ هاربة... هٰذا هو السعيد حقًّا.. أفلا يفهم ذٰلك هٰذا الشابّ أم إنّه يتغابى ويمكر؟!

على أنّه كان يحرص على ألّا يبدو عليه شيء ممّا في نفسه. فقال يغيّر مجرى الحديث:

ـ كيف كانت ليلتك بالأمس؟

فجلس الشابّ إلى جانبه وقال:

ـ كان قصر العيني أمس حافلًا بالحوادث المزعجة ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر.

وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلّم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير. كان ذا قلب كبير يفيض حنانه، فهو يحبّ شقيقه وقد أمدّه هٰذا الحبّ الأخويّ بالعون والصبر فربّاه ورعاه كما ربّى أخوين له من قبل، ولٰكن يداخله أحيانًا من ناحيته خوف وجفول وربّما أكثر من ذٰلك. نعم هي الحقيقة فهو يكرهه أحيانًا، وهو أشدّ ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سهارا على لسانه، فبمجرّد نطقه لذاك الاسم الحبيب يؤذيه ويعذّبه؛ وتستحيل هذه الكراهية المؤقّتة مقتًا إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل... على أنّ هٰذا لا يعني أنّ هٰذه الكراهية عاطفة ثابتة فهي مجرّد انفعال عنيف، وغير ذٰلك فهو يحبّه، وينظر إلى مستقبله كشيء جميل من صنع قلبه وكدّه، فأيّ حيرة وأيّ عذاب..! ترى هل يفطن الشابّ إلى ما يحدثه في نفس شقيقه الأكبر من الشقاء..؟ كلّا... هو بلا شكّ لا يتصوّر أنّ مثله يمكن أن يحبّ هٰذه الصبيّة الجميلة.

وكان الدكتور الشابّ يفكّر في تلك اللحظة من حياته السعيدة في أمور هامّة فقال لأخيه:

ـ لديّ أمور هامّة أريد أن أفضي إليك بها.

ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هٰذه الرغبة فقال:

ـ اخلع ملابسك أوّلًا وارتح قليلًا...

ولٰكنّ الشابّ قال بإصرار:

ـ استمع لي أوّلًا يا أخي فإنّ حياتي في مفترق الطرق... فسكت الرجل وأردف الشابّ:

ـ ستنتهي بعد أشهر مدّة تمريني كطبيب امتياز في القصر، وقد أخبرني أستاذي الدكتور براون بأنّ النيّة متّجهة إلى اختياري عضوًا في بعثة كلّيّة الطبّ.

فأحسّ الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح:

ـ مبارك. مبارك. أنت أهل لذاك بغير شكّ.

والظاهر أنّه كان لدى الشابّ ما يقوله غير ذٰلك لأنّه قال بارتباك بصوت خافت:

ـ ولٰكنّي.. أعني.. أريد أن أقول.. إنّي إذا سافرت فلن أسافر منفردًا.

ـ لا أفهم شيئًا..

في الواقع إنّه يفهم كثيرًا، أو يفهم على الأقلّ ما جعل قلبه يرتدّ إلى الجفول، وكان الشابّ قد تغلّب على ارتباكه فقال:

ـ سأسافر زوجًا إن شاء الله.

ـ يا لها من مفاجأة!.. إنّه لم يسبق لك التحدّث إلى أحد في هٰذا الموضوع.. أليس كذلك؟

ـ كلّا.

ـ هل نبت في رأسك على حين غرّة؟

ـ كلّا ولٰكنّي أوثر الصمت حتّى أخرجني عنه السفر المنتظر!

وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثمّ قال:

ـ هل أفهم من ذٰلك أنّك وفّقت إلى الاختيار؟

فأحنى الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت الجار وقال:

ـ سهارا..

وساد الصمت، وقلق الشابّ لسكوت أخيه، فسأله

بلهفة:

- ما رأيك يا أخي؟.. ألا تعجبك؟

فقال الآخر بسرعة:

- نِعْم الاختيار.. نِعْم الاختيار..

فابتهج الشابّ وقال:

- أشكرك يا أخي.. وأرجو ألّا نتوانى، فعدني أن نذهب غدًا إلى مقابلة والدها ولعلّي لا أصدم هناك بما يخيّب أملي.

- حسن.. ولٰكن ما الداعي إلى هٰذه السرعة؟

- لا بدّ من السرعة، فليس أمامي سوى شهور قلائل ينبغي أن يتمّ في أثنائها الاتّفاق، والاستعداد للسفر إلى إنجلترا.

ثمّ ضحك الشابّ وقال وهو يهمّ بالوقوف:

- ألا ترى أنّي سأمضي شهر العسل خارج القطر كالوجهاء؟ فابتسم الرجل، وحيّاه الشابّ وذهب إلى داخل البيت..

وتبعته عيناه حتّى غيّبه الباب ثمّ عادتا تنظران إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تعي التفاصيل، فأحسّ إحساسًا غامضًا بالسمرة التي أخذت تشوب الكون والسكون الساري في مفاصله، وضاق بجلسته فقام يتمشّى في الحديقة الصغيرة بائسًا محزونًا مختنقًا، ودار دورتين ثمّ رجع إلى الأريكة وارتمى عليها بشيء من العنف كأنّه يسلّم إليها حظّه التعس لا جسمه المنهوك.

ووجد في تلك اللحظة رغبة خفيّة قاهرة في الفرار إلى الماضي.. فطار خياله في الزمان عشرين عامًا في غمضة عين، إلى تلك الفترة من العمر التي تبدو فيها الحياة كقطعة من العجين في يد الخيال يعبث بها كما يشاء ويصنع منها ما يملي عليه هواه بعيدًا عن قساوة الواقع. في ذٰلك الوقت البعيد كان هٰذا الرجل الممتلئ رءانة وهمًّا وحزنًا صبيًّا مرحًا مدلّلًا يفيض قلبه بالأفراح والآمال؛ وقد ميّزته الطبيعة منذ رأى النور، فكان أوّل مَن خفق له قلب والديه بالأبوّة والأمومة من الأبناء. ثمّ كان من بعد ذٰلك غلامًا مجتهدًا تضيء حياته المدرسيّة استعدادات عالية ومواهب نامية تبشّر بالنبوغ والتفوّق والمستقبل البسّام، ولٰكنّ الحقيقة أنّ ما خفي من فضائله كان أعظم، وأنّه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور في أبهى الحلل، وقد جاءت هٰذه الفرصة ولٰكنّها لم تكن وا أسفاه سوى وفاة والده..

ترك الوالد المتوفّى أسرة بائسة مكوّنة من أرملة وأربعة أبناء أكبرهم - عبد الرحمن - في مستهلّ الشباب، وأربعة جنيهات معاشًا، وهكذا تصدّت الحياة للشابّ السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس، استأدته الواجبات، وحتّمت عليه أن يخلع رداء الطفولة ليحمل على عاتقه اللذين أثقل التبعات.. وكان عليه قبل كلّ شيء أن يتناسى أطماعه، ويدرج في الأكفان آماله، ويقبر مواهبه لكي يهيّئ للأسرة حياة سعيدة، ويوليها بعض العناية التي كان يوليها إيّاها الأب الراحل، ورضي كارهًا بوظيفة بائسة لم يتصوّر قطّ أن تنتهي إليها آماله..

كانت تلك الأيّام في بدئها مؤلمة شديدة المرارة تبعث في النفس الأسى والحسرة واليأس؛ ولٰكنّها لم تبلغ به قطّ حدّ الثورة أو الغضب الهائل. لماذا؟ كان قلبه كبيرًا ينضح بالحنان والأخوّة. فوهبه أمّه وإخوته، وهانت لذٰلك تعاسته، وخففت الأيّام من وقع الخيبة في نفسه، وتحدّدت في قلبه آمال أخرى لا تتعلّق بمستقبله هو، ولٰكن بسعادة إخوته ومستقبلهم، وذاق سعادة جديدة: هي السعادة التي يُحْدِثُها بذلّ النفس والعمل من أجل سعادة الغير، وبذٰلك شغل الشابّ مكان أبيه، ودخل في طور الرجولة الحقّ قبل الأوان..

وذكر هنا كيف أنّه كان يشعر بالفراغ الأليم رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال، ولٰكنّه كان ينجح دائمًا في إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حبًّا في أسرته وإيثارًا لإخوته، واستوصى بالصبر، ولٰكن أثبتت له الأيّام أنّ إخوته أقلّ صبرًا وأعنى بنفوسهم منه، وربّما كان للزمن في ذٰلك شأن وأيّ شأن، فما كاد أكبرهم يتخرّج ضابطًا في مدرسة البوليس حتّى تزوّج وترك العبء له وحده. وتبعه بعد قليل أخوه الثاني المهندس فاضطرّ إلى البقاء أعزب حتّى هٰذه السنّ..

ثمّ ذكر كيف أنّه كاد يختار أخيرًا ما يكمّل به حياته، وكيف جاء الاختيار بعيدًا عن التوفيق. وكيف

أتته الطعنة النجلاء من يدٍ طالما آثرها بالحبّ والعطف، وفد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة بالأمل والسعادة كأنّه ذاك الحكيم الذي يترنّم بأنشودة السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التي لا تراها العين..

وفيما هو في أحلامه إذ سمع صوتًا ينادي قائلًا:

ـ عبده لماذا تبقى في الظلام؟

هٰذا صوت أمّه الحبيب.. ربّاه.. لقد لفّه الليل وهو لا يدري.

وقام من جلسته متثاقلًا، وسار ببطء إلى الداخل وبادرته أمّه قائلة:

ـ هل حدّثك أنور؟

فقال:

ـ نعم..

ـ ما رأيك؟

ـ اختيار جميل يا أمّاه، سأذهب غدًا لمقابلة جارنا وطلب يد ابنته الجميلة لابننا النابه!

فقالت بحنان:

ـ لم يبق إلّا أنت!

ولازم الصمت هٰذه المرّة..

مَن يعلم؟.. ليس الذي يلقى الآن بأشدّ قساوة ممّا لقي في ماضيه، وما هٰذه بأوّل كارثة يمتحن بها قلبه الكبير، وقد علّمته الحياة فضيلة الصبر كما علّمته حقيقةً أَجَلَّ: هي أنّه يستطيع أن يسعد وهو يحقّق السعادة للآخرين..

مُفترَق الطّرُق

زماننا عاثر الحظّ أو نحن به عاثرو الحظّ، فأينما تُوَلّ وجهك تسمع تنهّد شكوى أو تَرَ تجهّم كدر. ولن تعدم قائلًا إنّ هٰذا الزمان أضيق رزقًا وأنضب حياء وأفسد خلقًا وأقلّ سعادة وأنسًا من الزمان الماضي، ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأنّنا نتحامل عليه لا لعيب اختصّ به دون غيره من الأزمنة، ولٰكن تبرّمًا بقساوة الحياة وفرارًا من جفاف الواقع ولياذًا بظلام الماضي الذي يشبه ظلام المستقبل: بعث أمل وطبّ آلام. ومهما يكن من هٰذا السخط فما من شكّ في أنّ جلال أفندي رغيب كان على حقّ في شكواه التي يردّدها بغير انقطاع. كان مُراجع حسابات في وزارة المعارف وفي السادسة والأربعين من عمره، وقد وسّع الله في إحدى زينتي الحياة الدنيا وقتّر عليه في الأخرى. فرزق ستّة أبناء يسعون ما بين حجر الأمّ والسنة الرابعة الثانويّة. وأمّا مرتّبه فسبعة عشر جنيهًا، فناءَ بأثقال العيش ومتاعب الحياة. وقصمت ظهره المصاريف المدرسيّة. وكان كثيرًا ما يقول متبرّمًا حانقًا كلّما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم «رجل مثلي ـ أب لستّة ذكور، اثنين في المدرسة الثانويّة، واثنين في المدرسة الابتدائيّة، وواحد في المدرسة الأوّليّة، وواحد في البيت، غير زوجة وأمّ، ولا تراه الوزارة حقيقًا بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف، فمتى إذًا تجوز المجّانية! .. ولمن تجوز؟». وكان كغالبيّة أهل هٰذا البلد يائسًا من العدالة قانطًا من الخير، يعتقد اعتقادًا كالإيمان الراسخ أنّها لا يصيبان إلّا المجدودين من ذوي القربى والأصهار والأصدقاء فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاقّ، ومعاناة الشدّة عامًا بعد عام، والتصبّر على مرارة الحياة.

ولبث على حاله لا يطمع في رجاء حتّى تولّى وزارة المعارف معالي حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة في الصحف، فومض في أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه: «ينبغي أن أقابله.. وأن أشكو إليه.. هل يرفض رجائي؟.. لا أظنّ»، وقصد يومًا إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على ورقة ليوصلها إليه، فمضى الشابّ بها وتركه في حالة من القلق والإشفاق لا توصف. وعاد مسرعًا يقول لجلال أفندي:

ـ معالي الباشا مشغول جدًّا اليوم فلتتفضّل بالمجيء ضحى الغد. فعاد إلى حجرته مسرعًا واجدًا متألّمًا، وكان ألف طول مدّة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهاز المديرين، ولٰكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أي شيء، وجعل يتساءل ترى هل يذكرني؟.. ولم يكن شيء ليصدّه عن هٰذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلًا حتّى قال له الشابّ:

ـ تفضّل.

فقام مسرعًا خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالي الباشا كما يدعونه يطالع في شيء بين يديه، فلمّا أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومدّ له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:

ـ أهو أنت!.. لقد اشتبه عليّ الاسم.. أو ما تزال حيًّا؟

فسرّ جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنّت نفسه وقال بخضوع وإجلال:

ـ نعم يا صاحب المعالي ما أزال أكابد حظّي في

الدنيا.

فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلًا وهو يتمتم:

- أفندم.

فقال جلال:

- يا معالي الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيّام. لي أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتّبي صغير، ولست طامعًا في علاوة أو درجة، ولٰكنّي أضرع إلى معاليكم أن تعفي ابنين لي في مدرسة شبرا الثانويّة من المصروفات.

- الاثنين معًا؟!

- نعم يا معالي الوزير إنّ آمالي مشرقة بمعاليكم، لقد جاورت معاليكم عهدًا طويلًا من سنيّ الدراسة، وينبغي لمن حظي بذاك الجوار أن يربو حظّه على حظوظ الناس جميعًا، خاصّة إذا علمتم أنّ لي غيرهما أربعة آخرين.

فقال الوزير باقتضاب:

- قدّم لي مذكّرة.

وكان الرجل محتاطًا لذٰلك، فأخرج من جيبه التماسًا أعدّه لهٰذه الساعة وقدّمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثمّ أمسك قلمه ووقّع عليه بكلمة وقال للرجل:

- اطمئنّ...

فانحنى جلال أفندي تحيّة، فتكرّم الآخر بمدّ يده له، ثمّ غادر الحجرة مغتبطًا مثلج الصدر. ولٰكنّه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتّى قال لنفسه متعجّبًا: لم يتغيّر «حامد شامل» البتّة، ولا تقدّم به العمر، وكأنّه في ريعان الشباب... هل يصدّق إنسان أنّ كلينا ابن خمس وأربعين؟... تالله إنّي لأبدو لعين الناظر في سنّ والده!... وقضى وقته يفكّر في الوزير، في حاضره وماضيه، وفي صلته القديمة به... ثمّ اضطجع بعد غدائه في بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات... فألوت به إلى عهود الماضي المنطوي.. إلى الوقت الذي كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ «حامد شامل» على مقعد واحد، لا يكاد يفرّق بينهما فارق جوهريّ.. وكان التلميذ «حامد شامل» يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار وجهه. ويلازمه عبد متهدّم طويل يرتدي بذلة سوداء في الطريق إلى المدرسة وفي طريق العودة، يتبعه كالظلّ إذا مشى. ويطمئنّ إلى مكانه إلى جانب حوذيّ العربة إذا ركب ولذٰلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه «حامد آغا»، على أنّه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتدم بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنّهما أخوا حظّ واحد.. والأعجب من هٰذا أنّهما جريا معًا وراء تلك العاطفة - التي تهيّج الجدّ والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم - منذ أوّل عهد تجاورهما! وكانا في كفاحهما كأنّهما يعيشان منفردين في فصل واحد، فكانت الغاية التي يهدف إليها كلّ منهما أن يتفوّق على قرينه بغير مبالاة الآخرين، وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصيّة يتلقّاها على أنبه مدرّسي المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالًا، وكانت كفّة جلال الراجحة.. وكانا في ملعب كرة القدم مثلهما في الفصل لا يريحان ولا يستريحان. وكان كلاهما يزعم أنّه أحقّ من صاحبه بقلب الدفاع، فكان مدرّس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتّى بدا تفوّق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة.. يا لله!.. كانا يستبقان كأنّما الدنيا تضيق عنهما معًا، وكأنّما كان مستقبلهما ينذر بحرب مستمرّة تشمل ميادينها الجدّ واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفّته بعد ذلك؟؟ كيف سقط من عيون الغربال وضاع في الحثالة؟.. كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيرًا والآخر مراجعًا للحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل.

ثمّ تمتم قائلًا وهو يطفئ سيجارته ويرمي بالعقب إلى المنفضة: تالله ما يستحقّ أن يكون وزيرًا ولا وكيل وزارة ولا شيئًا من هٰذا، وخشي أن يكون متجنّيًا عليه أو مائلًا مع عواطفه القديمة فتساءل باهتمام وجدّ كأنّما يزمع كتابة ترجمة له كيف اعتلى كرسيّ الوزارة؟.. لقد انفصلا في نهاية الدراسة الثانويّة فاضطرّ هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة في فمه إلى الانقطاع عن

الدراسة، والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثمّ حصل على الليسانس، وكان أبوه محمّد باشا شامل وزيرًا للحقّانيّة فعيّنه سكرتيرًا له في الدرجة الخامسة فكانت القفزة الموفّقة الأولى. وقرأ بعد ذلك في الصحف أنّه اختير لبعثة في فرنسا لا يعلم كم أمضى بها وما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكنّ كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذي تولّى الوزارة مرّات فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديرًا لإدارة التشريع، وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتّى علم بتوليته مديريّة أسوان، ثمّ بترقيته محافظًا للقنال بعد ذلك بقليل، ثمّ باختياره وزيرًا للمعارف، ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلّات لا تكفّ عن الاشادة بمواهبه القانونيّة ومقدرته الإداريّة ومشروعاته عن إصلاح التعليم، وكاد جلال أفندي أن يصدّق ما يقال لولا أنّه قرأ مقالًا عن تفوّق الوزير في عهد الدراسة ـ في العلم والرياضة البدنيّة معًا ـ وكيف أنّ مفتّشًا من مفتّشي الوزارة تنبّأ على أثر مناقشته بأنّه سيكون يومًا وزيرًا، فأغرق الرجل في الضحك وقال ساخرًا: «الآن فهمت سرّ المواهب القانونيّة والإداريّة!».

وتنهّد جلال أفندي رغيب وتمتم قائلًا: «دنيا!» وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلّة يقلّب صفحاتها المصوّرة، والظاهر أنّ ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه فرأى صفحة من المجلّة مخصّصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة، ما إن بصر بها حتى صاح في دهشة وغرابة: ربّاه هذه صورة فصلنا القديم».

وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف في الصفّ الأوّل وراء المدرّسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصوّر في ابتسام وثقة؛ وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلاً وذكر قصّة الذبابة، وكانت في الأصل من نصيبه هو وتنبّه لها والمصوّر يهمّ بالتقاط الصورة فهشّها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطّت عليه؛ وقد أحسّ أسفًا لذبّة الذبابة فلعلّها كانت ذبابة الحظّ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدّخر؛ ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه في آفاق الماضي حتّى شعر بأنّ روح الطفولة تحلّ فيه مرّة أخرى، وأنّ شعيرات قذاله البيضاء تسودّ، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين، ونظرة عينيه تصفو وترقّ، ويمسح على ما فيها من همّ وبلبال.. أحسّ قلبه يخفق مرّة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف صار هؤلاء جميعًا؟.. وعاين أوّل صورة في الصفّ الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه (عبد الملك حنّا)، وذكر كيف كانت تتتابه نوبات الصرع في الفصل حتى انقطع عن المدرسة.. أمّا بقيّة الصفّ فتذكّر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصائرهم، وعرف في الصفّ الثاني وجهًا كأنّما تركه بالأمس. كان ابنًا لأحد كبار المستشارين، فكان يتمتّع لذلك بنفوذ وصَوْلة فيحيّيه الناظر إذا بصر به، ويلاطفه المدرّسون، وقد علم فيما بعد أنّه عيّن وكيلًا للنيابة وترقّى قاضيًا، ولعلّه يتأثّر الآن خطى أبيه الكبير. أمّا من يليه من الصغار فجلّهم من المغمورين وبعضهم معه في المعارف وهو يعرفهم حقّ المعرفة. وأمّا آخر هذا الصفّ ـ الذي ينظر إلى المصوّر بتحدّ غريب ويشبك ذراعيه على صدره ـ فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرّسين. ومن العجيب أنّه احترف فيما بعد «البلطجة». وطاف بالسجن مرّات.

وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئًا إلّا الدكتور المعروف (حنا عبد السيّد)، وإلّا هذا الذي يتوسّط الصفّ الأوّل، كان من أنبغ التلاميذ جميعًا، وكان أوّل الابتدائيّة ثمّ أوّل البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمّة سخيّ المواهب، ولكنّه أصيب أوّل عهده بها بداء الصدر فاضطرّ إلى ترك المدرسة والكفّ عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتبًا في الصحّة.. فلا يقلّ حظّه شذوذًا عن حظّ الوزير نفسه.

نال كلّ منهم نصيبه وخضع لحكم حظّه وسعيه. كانت تجمع بينهم جدران واحدة، لا يكاد يتميّز

وراءها إنسان إلّا بجدّه وخلقه، ففرّقت بينهم الحياة، فرفعت وخفضت، وأحبت وأماتت، وأذاقت الفقر، ومتّعت بكرسيّ الوزارة، وكلّ بما قسم له غير راضٍ ولا قانع.

ونظر جلال أفندي عند ذاك في الساعة فوجدها تدور في الرابعة، فعلم أنّ موعد الصغار آن واقترب، وأنّهم عمّا قليل يملأون البيت حياة وقلبه نورًا، فرمى المجلّة بعيدًا وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال، وقال لنفسه متعزّيًا:

ـ من الخطأ أن يفكّر الإنسان في شئون الناس ما دام هٰذا لا يورث إلّا الضيق، وحسبي أنّ معاليه قال لي: «اطمئنّ».

إصلاح القبور

قضى من بيده القضاء أن يكون ليل ١٦ أغسطس تاريخًا فاصلًا تهتزّ له جوانحها ويتصدّع به فؤادها، فلم يعد مجرّد وحدة من الزمان الذي لا ينتهي ولٰكنّ شيئًا من ذكريات سود يجمع بينها غشاء من الحزن واللوعة، وشاهد ذاك الليل صدرًا ضعيفًا يعلو وينخفض ورأس صاحبه مسندًا إلى صدرها، وسمع حشرجة ما يزال صداها يمزّق مسمعيها، وفي لحظة رهيبة كأنّما جفّت فيها ينابيع الرحمة في السماوات والأرض صارت أرملة في نضارة الصبا وشرخ الشباب، فأغمضت عينان ألفت أن تطالع في نظرتها الحنان والمودّة، وسكت لسان جعل يناغيها عامًا وبضع عام المناغاة الحلوة السعيدة، ويدلّلها فيناديها نعّومة مرّة ونعمات أخرى، وجمد الساعدان اللذان كانا يضمّانها إلى مرتع الوداد والهوى. انتهى تاريخ وبدأ تاريخ على عجز منها ورغم؛ لأنّه كان قد قدّر لها أن تلقى نصيبها الكثيف من الحزن والبكاء والحسرة، وأن تجلّل شبابها النضير بسواد الحداد أو سواد اليأس. ثمّ هجرت البيت الذي كانت سيّدته وربّته فأخليت لها حجرة وعاشت عيشة لا تجد فيها أسباب الترحيب إلّا ما تقضي به تقاليد المجاملة الظاهريّة...

استوحشت دنيا الأحياء ولاحت لها معالمها غارقة في ظلال الكآبة والقنوط، فأغلقت دونها نفسها، وولّت عنها بقلب يأبى حبّه أن يستسلم للموت. ورمت بناظريها بعيدًا إلى حيث ترقد القبور في سكون الأبديّة ووحشة الفناء، فعند ذاك القبر سحّت عيناها دمعًا غزيرًا ساخنًا فروت جفاف قلبها ورطّبت حرارته. ولٰكن أيّ قبر كان ذٰلك القبر؟..

قبرًا قديمًا انتبذ ركنًا من فناء واسع موحش خال، وعلاه البلى فتهدّم «شاهده» وتشقّق بنيانه.. وأسفاه كان المرحوم في نضرة الشباب فلم يعنَ يومًا بهٰذا القبر الذي لم تمدّ له يد بإصلاح ما يقرب من نصف قرن من الزمان، حتّى توارى بين ركامه شبيبة ناضرة في حفرة شائخة.. فكانت إذا رأت الفناء المعفّر و«الشاهد» المهدّم راحت زائغة البصر مكلومة الفؤاد، وأفحمت في البكاء. ووجدها التربيّ يومًا تندب القبر المهدّم وتبكي بكاء مرًّا فانتظر حتّى رآها تهمّ بالانصراف فدنا منها وقال لها برقّة ولباقة:

- ألا ترين يا سيّدتي أنّ هٰذا الفناء مترامي الأطراف! فهلّا بعت نصفه أو بعته كلّه وجدّدت بماله القبر وأصلحت حجرته؟..

واستهواها قوله فأصغت إليه برغبة ولهفة وقد تفتّحت لها سبل الأمل، ولٰكنّها ذكرت أنّ مكافأة زوجها لم تصرف بعد فما الداعي إلى التفريط في الفناء؟.. كلّا لتبق المقبرة على ما هي عليه، وحين تأخذ المكافأة - ولو بعد ستّة أشهر كما قيل لها - تجدّد القبر وتصلح الفناء وتغرس في أرضه شجيرات يانعة تستدرّ الرحمة وتطرد الوحشة، وعادت يومئذ وقد تخايل لعينيها في الأفق حلم من أحلام العزاء. فغدًا عندما يجدّد القبر وتطلى الجدران ويفوح المكان بشذا الريحان يتنسّم قلبها المحزون نسائم العزاء البارد وتجد في الأنس بالوفاء سلوى عن وحشة الوجود.

ومضى يوم ويوم وأسبوع فأسبوع وشهر ثمّ شهر والقبر غايتها وسلوتها وأجمل موعد يتيحه لها الزمان، إلّا أنّها كانت تتغيّر - بطبيعة الحال - ككلّ شيء في الحياة في بادئ الأمر كانت تبكي ليلًا ونهارًا، ثمّ مضت تبكي سحابة النهار وتهدأ بالليل، ثمّ صارت تبكي كلّما

خطرت ذكراه على فؤادها الحزين، ثمّ انشغلت بالحياة طوال الأسبوع واستأثر بها الحزن كلّ صباح جمعة. وكانت أوّل عهدها تمضي إلى المقبرة لا تلوي على شيء فلا ترى من الدنيا شيئًا، أمّا بعد الأشهر الأولى فلم يمنعها الحزن من أن تسير كبقيّة الخلق بعينين مفتوحتين، وفي ذاك الهدوء النسبيّ استطاعت أن ترى ـ في ذهابها إلى المقبرة وعودتها منها ـ رجلًا يجلس عادة كلّ صباح جمعة أمام الفيلّا التي تشرف على مبدأ الطريق الصاعد إلى المقابر يرتدي جلبابًا ومعطفًا، ويقطع الوقت بقراءة الجريدة وتدخين غليونه، كانت تراه دائمًا بمجلسه هٰذا، فإذا مرّت به صعّد إليها عينين ثاقبتين وحدجها بنظرة يلوح فيها الاهتمام الشديد. هٰكذا يستقبلها وهٰكذا يودّعها ولعلّه كان يطاردها بنظراته منذ أوّل عهدها بهذا الطريق الموحش، وعلى أيّة حال لم يغيّر من عادته ولا وهنت مثابرته، وبرمت بعينيه، وكرهت تفحّصه لها.. لماذا ينظر إليها هٰكذا؟!.. وهل هو يتابع كلّ زائرة لهٰذا الطريق بهٰذا النظر العنيد؟!.. أيتسلّى الرجل بهٰذا النظر الوقح إلى الثاكلات والأرامل؟!.. إلّا أنّها وجدت نفسها ـ بمضيّ الأيّام ـ كلّما شارفت مبدأ الطريق مضطرّة إلى تذكّره وتمثّل نظراته العابرة التي سيلقاها بها.. بل جعلت تتذكّره بعد ذٰلك صباح كلّ جمعة وهي تتلفّع بسوادها وتأخذ أهبتها لمغادرة البيت فقد صار هٰذا الرجل العنيد وكأنّه جزء لا يتجزّأ من طريق القبر، ولم ينفعها الغضب ولا أغنى عنها السخط ولا وجدت عن سبيله حولًا، ويومًا رأته مرتديًا بذلته فحسبت أنّه مزمع المسير إلى بعض شأنه، وأملت ألّا تجده عند إيابها، ولٰكنّه كان بمجلسه حين عودتها كأنّه ينتظر في صبر وأناة، وما كادت تجاوزه بخطوات حتّى نهض قائمًا وتبعها متمهّلًا!.. وحسبت أنّها أخطأت الظنّ ولٰكنّه انعطف وراءها إلى شارع البراد.. ثمّ إلى شارع الجميل.. ودخلت البيت مضطربة لاهثة فمرّ به في خطاه الوئيدة وألقى عليه نظرة جامعة!.. تبًّا له؟.. ماذا يبغي من وقاحته هٰذه؟!.. أما يحترم السواد الحزين الذي يجلّل وجهها، وفي الزيارة التالية لم تجده بمكانه المعهود!

وكانت توعّدت وجوده بما شاعت من السخط المكتوم.. فلمّا لم تجده لم تر بدًّا من الارتياح والسرور.. لٰكنّها تساءلت ترى هل اختفى لأنّ شاغلًا قطعه عن رؤيتها أم إنّه عدل عن سيرته الأولى؟!

وجاءها شقيقها وزوجه يومًا، وكان مضى على تاريخ الوفاة ـ ١٦ أغسطس ـ خمسة أشهر، وقال لها الرجل برقّة:

ـ أرى أنّه ينبغي أن ينتهي هٰذا الحزن بمشيئة الله!

فنظرت إليه بعينيها الصافيتين متسائلة حيرى، فقال لها الرجل باقتضاب مفيد:

ـ جاءك رجل يطلب يدك!

وذكرت لتوّها رجل الفيلّا، ودقّ قلبها بعنف ولاحت في عينيها نظرة ارتياع فهتفت به منكرة:

ـ يا خبر!.. كيف تفاتحني بهٰذا يا أخي؟!

فقال الرجل بهدوء ووقار وحزم:

ـ ولِمَ لا.. أصغي إليّ.. أين أبونا وأين أمّنا؟ الحزن إذا زاد عن حدّه صار معصية لإرادة الله، فلينظر الأحياء إلى حياتهم، أمّا الأموات فلهم رحمة الله عوض عن الدنيا وما فيها. فليس هو في حاجة إلى حزنك. كلّا ولن يغني عنه وفاؤك فتدبّري أمرك بعين الحكمة.

وضمّت زوج شقيقها صوتها إلى صوته وتكلّمت بمثل حماسته وأكثر فقالت نعيمة لنفسها: لقد تحالفا معًا، ولعلّهما يرحّبان بالرجل كي يريحهما منها فما من شكّ في أنّها عالة ثقيلة عليهما وأنّها ضيّقت عليهما البيت، فاستمسكت بهٰذا الخاطر وادارته في نفسها حتّى ملأها، وكانت في الحقيقة اقتنعت بكلّ ما قاله أخوها من أنّها لن تقيم على الحزن إلى الأبد، وأنّ حياتها أولى بالرعاية من موت الآخرين، ولٰكنّها أبت أن تفكّر في غير هٰذا الخاطر الذي توهّمته توهّمًا أو فرضته فرضًا وآمنت به بعناد، بل جعلت ـ فيما بينها وبين نفسها ـ تلوم أخاها على برمه بها، الأمر الذي ربّما أجبرها على اختيار ما لا تودّ، أمّا شقيقها فاستدرك يقول:

ـ ولا تخشي لومة لائم فالرجل على استعداد تامّ لتأجيل الزواج حتّى ينتهي العام.

وتركها بلباقة إلى أفكارها ثمّ كرّ عليها مرّة أخرى صباح اليوم الثاني وسألها عمّا ترى؟.. ورأت نعيمة أن تلوذ بالصمت فطاب أخوها نفسًا وأدرك أنّها وافقت، وسارت الأمور في مجراها الطبيعيّ. ولمّا جاء أوّل يوم جمعة بعد الخطوبة ذكرت القبر والزيارة المعتادة وتساءلت حيرى: هل يجوز أن يراها في الطريق الذي تعوّد أن يراها فيه؟!.. أليس الوفاء للقبر خيانة له؟.. لشدّ ما يشقّ على الإنسان قطع عادة عزيزة ولٰكن ما جدوى الزيارة الآن؟.. لقد رضيت باستقبال حياة جديدة فأوْلى لها أن تأخذ نفسها بالرضاء والقبول، نعم حسبت يومًا أنّ ذاك القبر سيكون قبلتها إلى الأبد ولٰكنّها لم تعمل حسابًا للزمن. الزمن الذي يذيب الصخور ويفتّت الصروح ويغيّر وجه البسيطة، أليس بقادر أن يمسح عن قلبها شجونه؟ وقرأت هٰذه المرّة الفاتحة على البعد وقالت لنفسها إنّ البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوي في قبره، ومضت الحياة في يسر فانتصف العام وتوجّه قلبها وجهة جديدة فاطّرح الحزن وأشرق بنور أمل جديد وتطلّع للغد بعين ملؤها الرجاء والحبّ. وجاءتها المكافأة وهي على تلك الحال فلم تفكّر في تجديد القبر المهدّم ولا في غرس الفناء المعفّر ولا عاتبتها نفسها على إهمالها. والحقّ أنّها كانت عن ذٰلك في شغل من أمر جهازها الجديد وإعداد ثياب الحياة الزوجيّة الجديدة، وزاد من انشغالها عجز أخيها عن مساعدتها المساعدة الجدّيّة التي تريدها فناءت بحمل ثقيل رفعت المكافأة عن كاهلها بعضه لا كلّه. حتّى ذكرت يومًا فناء المقبرة الذي اقترح الدافن عليها مرّة أن تبيعه أو تبيع نصفه.

... وغلبها الوجوم للذكرى العابسة إلّا أنّ الوجوم ذهب لحال سبيله، ولبثت تفكّر في ذاك الاقتراح القديم، وتمنّت لو تستطيع أن تسرق خطاها إلى الدافن وتحدّثه بأمره!.. ولكنّه كان تفكيرًا عقيمًا لأنّ المدفن لم يعد ملكًا لها فلا تستطيع التصرّف في قرش من ثمنه.. ولعلّ هٰذا ما ملأ نفسها أسفًا إلّا أنّها التمست أسبابًا أخرى لهٰذا الأسف فجعلت تلوم نفسها على قسوة أفكارها وتلعن الحياة التي تقضي سنّتها بأن يكون موت الوفاء عين الحكمة أحيانًا!

وقبل أن ينتهي العام بأربعة أشهر قال لها الرجل الصبور وقد اطمأنّ إلى ظفره بقلبها:

ـ ما جدوى الانتظار هٰذه الأشهر الأربعة؟! ألا ترين أنّنا في أواسط الصيف وأنّه يحسن بنا أن نمضي شهر العسل في رأس البرّ؟

فخفضت عينيها كي لا يقرأ فيهما ما أرادت كتمانه، وصمتت لحظات كأنّها مغرقة في تفكير عميق ثمّ تمتمت بصوت خافت:

ـ ليكن ما تشاء!

المرض المتبادل

فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس في صباح ذلك اليوم، ولبث ينتظر المريض السادس، فدخلت سيّدة مقنّعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غاب جماله البهيّ خلف تجعّدات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين، وقد بادرته هاتفة:

ـ الغوث أيّها الطبيب!

فدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها:

ـ ما بك يا سيّدتي؟..

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروي له قصّة ذلك المرض الوبيل الذي فاجأها لدى الصباح فاضطرّها إلى أن تقصد إليه دون أن تتريّث لحين أوبة زوجها من الوزارة. واستمع الطبيب إليها في دهشة وحيرة وهو يحاول عبثًا أن يوفّق بين ما يروى له، وبين هيئة السيّدة المتزوّجة التي تنطق بالحشمة والصون.

ثمّ أدّى واجبه الدقيق بعناية فثبت لديه ما كان منه في ريب واكفهرّ وجهه وهو يقول:

ـ سيّدتي.. إنّه لأمر مؤثّر.. لقد أصبت بمرض خبيث.. بمرض سريّ..

فانقبضت المرأة قائمة وجحظت عيناها من الهلع والذعر، وقد ضاع ألمها المبرّح في تيّار الخوف الجديد وصاحت به:

ـ مرض؟..

ـ نعم يا سيّدتي.. إنّي أعني ما أقول، ولكن هدّئي من روعك واملكي زمام نفسك حتّى لا تجرّ هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشدّ إيلامًا. أقلت إنّك متزوّجة؟.

فأحنت رأسها أن نعم وهي لا تدري، فاستطرد الطبيب قائلًا:

ـ واأسفاه، إنّ الشهوات تعمي الرجال حتّى المتزوّجين منهم! ومهما يكن من شيء فالواجب يحتّم عليك أن تجابهي زوجك بالحقيقة وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته. أمّا وقد وقع المحظور فلا محيد من تنبيهه واصطحابه إليّ وإلّا ذهبت محاولة علاجك سدًى.

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبحوحة وقالت بسرعة وهي تلهث:

ـ كلّا.. كلّا.. لا يمكن أن يكون ذلك.. بادر إلى علاجي ودع أمر زوجي.

ـ ولكن...

ـ بالله لا تجادلني.. لا ينبغي أن يعلم زوجي من الأمر شيئًا.. أدّ واجبك وسينتهي الأمر إلى خير إن شاء الله..

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر في الوجه القلق الذي طغت آلام نفسه على آلام جوارحه. فطالع فيه الألم والرعب والإثم.. يا للهول! أيمكن أن يكون ما لم يقع له في حسبان أبدًا.. أيمكن أن تكون هي الجانية على نفسها، وربّما على زوجها أيضًا..؟

وما من شكّ في أنّ الزوج مهدّد بخطر عظيم، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه، وربّما وقع في متناول الأذى أطفال أبرياء يحبون.. فما العمل؟ وكيف يتأتّى له أن ينقذ هذه النفوس ممّا يوشك أن يحيق بها من غير أن يهتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألّمة..؟

وأحاط به همّ التبلبل والحيرة حتّى ضاق صدره

فحدّث نفسه: لماذا أزجّ بنفسي في شئون الناس وآلامهم..؟ إنّي طبيب وما ينبغي لي أن أجاوز حدود مهنتي.. وبين يديّ امرأة ملوّثة فلأشرع في معالجتها والأمر من بعد ذلك لله.

واطمأنّت نفسه إلى هذا الرأي وهمّ بمباشرة عمله، ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرته نفسه على مراجعة التفكير في أمر هذه الأسرة المهدّدة فرأى أن يتّخذ طريقًا وسطًا فقال:

ـ سيّدتي. ينبغي أن تعلمي أنّ زوجك في خطر عظيم.. وأنّ إخفاءك الأمر حينًا لن يمنع الحقيقة من الظهور.

فاختلجت عيناها كالزئبق المترجرج وقالت:

ـ كم يقتضي العلاج من الزمن..؟

ـ أسبوعين على أقلّ تقدير ومع أكبر عناية.

ـ أواه.. إنّه الدمار.

ـ فإصابة زوجك محتومة..

ـ من الميسور أن أدّعي توعّك المزاج هذه الفترة وأن أباعد ما بيني وبينه حتّى أبرأ.

ـ فإن كان قد سبق السيف العذّل...؟

ـ أوّاه يا سيّدي.. لا يمكن أن أنتحر مختارة، ثمّ إنّ زوجي رجل مستقيم يصعب عليّ صكّه بالحقيقة المروّعة.. فدع الأمور تجري على مشيئة الله فلعلّ الله حفظه من الأذى، وعسى أن يجعل من بعد عسر يسرًا.

وساد سكون عميق مؤلم.. وكأنّ المرأة تذكّرت شيئًا فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته:

ـ سيّدي. هل يبقى هذا سرًّا مكتومًا..؟

ـ طبعًا.. طبعًا.. اطمئنّي إليّ كلّ الاطمئنان، فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبدًا.

فتنهّدت من قلب مقروح وقالت:

ـ إذن فلنبدأ من الساعة.. وسأوالي الحضور إلى هنا كلّ صباح إلّا يوم الجمعة.. ولأنتظر ما قُدّر لي.

ولمّا انتهى من عمله وهمّت بالخروج استمهلها لحظة وجلس إلى مكتبه وسألها:

ـ ما اسم السيّدة..!

فبدا على وجهها الرعب وسألت:

ـ ولمَ هذا..؟

فقال يطمئنها:

ـ لا تخافي ولا تحزني.. إنّها تقاليد متّبعة.. انظري إلى هذا الدفتر تجديه مزدحمًا بأسماء المرضى وعناوينهم.. لا تخشيْ شيئًا واذكري أنّي طبيب لا أكثر ولا أقلّ..

فقالت وهي تتنهّد:

ـ حرم محمّد عبّاس أفندي موظّف بوزارة الأشغال.

* * *

وفي صباح اليوم الثاني جاءت السيّدة وقد قالت للطبيب إنّ ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء والصحّة ينعش الأمل المحتضر في صدرها.

فلمّا أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد في الثلاثين، مليح القسمات طويل القامة، تسم وجهه آيات الذكاء والجسارة، فحيّا الطبيب قائلًا:

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير.

فضحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحة طبيعيّة، ولكنّها لم تستطع أن تخفي القلق المساور لنفسه وقال:

ـ أُصبت يا دكتور.

ـ بِمَ..؟

ـ بالذي يصاب به من يقصدونك.

ـ واأسفاه.

ـ أتأسّف حقًّا يا دكتور.. أيرضيك أن يزدجر الناس عن الهوى وأن تخسر جمهور المتردّدين عليك..؟

ـ لا أظنّك قد جئت إلى هنا لتتفلسف.. اتبعني إلى هذه الحجرة.. ولكن انتظر لحظة، أرجو أن تملي عليّ الاسم الكريم.

ـ محمّد عبّاس.. أنا جارك يا دكتور. وإن شئت أن تعرف صناعتي فأنا مهندس بوزارة الأشغال.

يا للمفاجأة! كادت تفلت من بين شفتيه آهة دهشة وانزعاج، وهمّ أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبيّة

تنمّ عمّا يضطرب في صدره، ولٰكنّه ذكر تحرّج الموقف واشتماله على ما يهدّد بالويل، فصرّ بأسنانه وأحنى رأسه حتّى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفي معالم وجهه عن القاعد تجاهه.

إذن هٰذا هو الزوج المنكوب، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجه عليه وعليها منه.. ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما.. كيف اكتشف المرض وكيف تحسّس مصدره..؟ وماذا جرّ ذٰلك على حياتهما الزوجيّة؟ وأين يا ترى المرأة الآن..؟ وكيف قرعتها الفضيحة وكيف تتجرّع عواقبها. ليته يعرف كلّ شيء..

أمّا الآن فما عليه إلّا أن يؤدّي واجبه. وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخليّة ولٰكنّه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة:

ـ إنّي أخشى يا دكتور أن تعقب هٰذا المرض مأساة أليمة.

فسأله وهو ما يزال شارد اللبّ.

ـ ولِمَ؟.

ـ لأنّي زوج.. وربّ أسرة.

فقطّب الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة، وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال:

ـ هٰكذا ترى أنّه ليس العزّاب فقط هم الذين يأثمون...

ـ أتعني أنّ زوجك مهدّدة؟..

ـ طبيعيّ يا دكتور... إنّ موقفي غاية في الحرج.. والذي يضاعف لي الآلام أنّها سيّدة طيّبة لا تستحقّ أن تجزى هٰذا الجزاء السيّئ... فما العمل؟...

يا عجبًا!.. لقد وضح وبرح الخفاء: كلا الزوجين آثم، وكلّ منهما ينحى باللائمة على نفسه. وكاد يستسلم لتيّار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلحّ عليه في السؤال ويكرّر قائلًا:

ـ ما العمل يا سيّدي الطبيب؟..

فقال له:

ـ بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقّدة إلى خير العواقب. فحاول أن تصحبها إليّ من غير أن تثير شكوكها.

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه:

ـ أحاول.

وحدّث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظريه: إنّ الله يريد الخير بهٰذه المرأة.. وكأنّ الأمور تسير وفق مشيئتها، فسيأتي بها إليّ، وأكشف عليها وأعلنه بإصابتها. فيوقن في نفسه أنّها ضحيّته دون سواه، ويبرآن على يدي ويعود الرجل بزوجه رافعًا يديه حمدًا لله وطلبًا لغفرانه. وهو يجهل أنّ زوجه فرّطت في حقّه أضعاف ما فرّط في حقّها.. فيا لرحمة الله..

ولٰكن أليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيئة هٰذه المرأة الآثمة؟.

فيا لحكمة الله.

* * *

وحان موعد مجيء المرأة ولم تحضر، فترجّح لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء، ولٰكنّ المهندس أتى وحده وكان بادي التغيّر، منكفئ الوجه، مصفرّ اللون، منطفئ البصر كأنّه تقدّم في الكبر أعوامًا، فتوقّع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله:

ـ ما بك..؟

فهزّ رأسه بحزن وقال:

ـ ماذا تحدس...

ـ لعلّك راودتها على المجيء فأبت وعصت...

ـ كان يهون..

ـ آه.. إذًا قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك... ونلت جزاءك على يديها.

فسها الرجل لحظة ثمّ قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس:

ـ يا بؤس هٰذه الدنيا...

فهزّ الطبيب كتفيه استهانة وقال:

ـ كثيرًا ما أسمع هجاء مريرًا يصبّ على رأس الدنيا، ولٰكنّي أعتقد أنّ الإنسان هو الخالق الأوّل لهٰذه

الآلام التي يتملّص من تبعتها ويلقيها على عاتق الدنيا...

ـ كما تشاء... اعلمْ يا سيّدي الطبيب أنّي في الفترة القصيرة التي تغيّبنها عنك أحدثت في حياتي حدثًا هائلًا، فقد فصل الطلاق بيني وبين زوجي، وحرمني نور أطفالي حينًا سأخاله دهرًا مديدًا...

يا للهول... ترى ما الذي حدث؟.. وكيف حدث؟.. فإنّ قلبه يهمس له بفحواه، ولٰكنّه لا يدري تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطق الحوادث وجعل عاليها سافلها...

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحّان بالسؤال بأفصح ممّا يبين اللسان... فقال المهندس:

ـ إليك قصّتي بكلّ ايجاز: غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيّتي على دعوة زوجي إلى زيارتك كي يطمئنّ قلبي، ولٰكنّي كنت مضطربًا لا أدري كيف أبدأ باقتراح الأمر عليها ولا علم لي إن أنا اقترحته بما أبرّره به، فاتّخذت مكاني على مقربة منها بادي الهمّ والفكر. وللحال لاحظت طوارئ الهمّ والاضطراب تزحف عليها زحفًا، فظننته صدى لاضطرابي وهمّي واستجابة لهما. وتلبّثت أنتظر أن تبدأ بسؤالي عمّا يساورني فلم تفعل، فضقت بالأمر ضيقًا استفزّني إلى طرح هٰذا السؤال: «ألا تشكين من شيء.. ألا تحسّين بألم ما..؟) فحملقت في وجهي بعينين هالعتين وقالت باضطراب: (كلّا.. كلّا.. والحمد لله) فتمالكت نفسي وقلت كاذبًا: (ألاحظ عليك هٰذه الأيّام بعض الاصفرار والتغيير، وقد رأيت أن أقترح عليك زيارة طبيب.. فما رأيك..؟) فردّت بحدّة وبلهجة من يتحمّس لدفع خطر مروّع: (كلّا.. كلّا.. أنت واهم ولا لزوم لذٰلك ألبتّة.. إنّي أكره الأطبّاء ويهيّج وساوسي الاستماع لنصائحهم).

فطال طلابي وطال رفضها، فألححت عليها فأصّرت، فرجوت وتوسّلت فعنّدت وازدادت تشبّثًا، وعبثًا حاولت أن أثنيها على رأيها حتّى دهشتُ لإصرارها وضقت صدرًا بها، وبنفسي، فاهتاجني المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلني أستهتر بكلّ شيء: يجب أن تصغي إليّ.. تعالي معي إلى الطبيب لأنّي مصاب وأريد أن أعرف..) ولم أتمّ كلامي لأنّها انتفضت قائمة متصلّبة كالأفعى المتوثّبة للافتراس وجحظت عيناها ولم تتمالك نفسها فسرت في جسدها رعشة شديدة فأدهشني ذٰلك وسألت نفسي: ما لها..؟ وهممت أن أعاود الكلام في ملاطفة مصطنعة ولٰكنّها قطعت عليّ الطريق بهزّة عصبيّة ما زالت تكرّرها بعنف جنونيّ حتّى تلبّست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل، فازدادت بي الحيرة وسألتها: (ما الذي يرعبك؟ لم تخشين الطبيب؟) فصاحت بصوت ملتوٍ لا تكاد تميّز نبراته: (الرحمة.. الرحمة) ولكن عاودني الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوي إلى مستقرّها في قلبي: فخطوت نحوها أهدر غاضبًا ساخطًا فصرخت: (محمّد... الرحمة.. الرحمة.. لقد كشف الله خبيئتي.. أنا الجانية على نفسي وعليك.. أنا أعرف أنّك تعلم ذٰلك ولٰكنّي استحلفك الله بألّا تمسّني... طلّقني ولا تمسّني) ثمّ ارتمت بين قدميّ مغمًى عليها.

ما معنى هٰذا..؟ لقد تسابقت الظنون إلى قلبي. وانصبّت الشكوك في عقلي، واكتظّ بها رأسي فانصهر من الحرارة والالتهاب، وخلت أن شعر رأسي يقف ويتصلّب كشعر القنفذ.

إنّ المرأة لتبهظ الرجل وتثقل كاهله وهي تؤمن بأنّها لم تجاوز بعض حقوقها، أمّا إذا اعترفت بأنّها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشيًّا عليها فلن يكون ذٰلك إلّا لأمر واحد.

يا عجبًا... فقد ذهبت جانيًا آثمًا فإذا بي مجنى عليه. رحت أكفّر عن ذنبي فإذا بي ضحيّة تعسة! ماذا يمكن أن يفعل رجل في مكاني؟..

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت، وسقطت في الهاوية التي ابتلعتها فهل من المستطاع أن أسدل ستارًا كثيفًا على تاريخ الإثم كلّه! وأن أتحمّل عقاب الله الصارم في صبر، وأروّض نفسي على العفو والصفاء؟..

إنّه حلّ روائيّ قد يستحسنه غيري ويعطف عليه نفر قليل من الناس، أمّا أنا فقد انسقت مع طبيعتي وأصخت إلى صوت الغضب في قلبي، فهويت بالطلاق على رابطة الزوجيّة: فخرب بيتي وانتزعت الحضانة منّي أطفالًا أعزّة، كانوا نور حياتي المشرق، فسبحان الله أحكم الحاكمين.

حيَاة مُهرِّج

توفّي بالأمس السيّد حسن شلضم بمنزله الكائن في حارة جعيصة بالخرنفش وانتقل من مقرّه الدنيويّ إلى مثواه الأبديّ في جنّاز متواضع اقتصر على أبنائه الثلاثة وشرذمة من الأصحاب عدا عربة كارو حملت بناته الثلاث وأمّهنّ وامرأتين أو ثلاث أخريات.

لم يكن السيّد المتوفّى إلّا مهرّجًا. أو كان أشهر المهرّجين الذين جمعت حياتهم بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأوّل من القرن العشرين.. ومن حسن الحظّ أنّ الفنّ لا يأخذ بمقاييس المجتمع في تاريخ الرجال وإلّا ما كان للمتوفّى حظّ من الذكر. وما أجمل الفنّ في شموله هٰذا، فقد كانت حياة السيّد حسن ينبوعًا دافقًا من ينابيع اللذّات والشهوات، كان قطب حياة كاملة من الأفراح والمسرّات، ومعينًا فيّاضًا للضحك والبهجة والحبور، وعزاء لنفوس لا عداد لها.

ولد في عام ١٨٧٩ واستقبل الشعاع الأوّل في الحياة في حارة جعيصة ثمّ في فناء بيت آل شلضم وأخيرًا في كتاب الشيخ هريدي.

كان منذ صغره ميّالًا إلى المزاح نزّاعًا إلى العبث ولٰكن توجد حادثة في تاريخه يصحّ أن نعتبرها مبدأ لحياته التي عُرف بها فيما بعد: إذ كان يمرّ في طريقه إلى الكتّاب بقهوة خضراء الباب والنوافذ فراقه لونها وجذبه إليه وما يدري إلّا وهو يمسك بحاشية جلبابه ويبلّها بقليل من الماء ويمسح بها رقعة من باب القهوة حتّى امتصّت لونها. ثمّ لطخ به وجهه ورقبته وقفاه. ويداه الصغيرتان ترتجفان من الفرح. ثمّ هرع إلى رفاقه الصغار لا يلوي على شيء وصاح بهم: «إليّ.. إليّ.. انظروا» والتفّوا حوله دهشين وأغرقوا في الضحك حتّى دمعت أعينهم. ولم يقنع بهٰذا الفوز فتقدّمهم في الحارة وتبعوه وهم يصفّقون تصفيقًا توقيعيًّا وهو يرقص ويقفز ثملًا بخمر الفوز والفرح.

كان يستلهم ألاعيبه غريزة حيّة توحي إليه. وكان قلبه الصغير لا يذوق السعادة إلّا حين يضحك ويهيّج ضحك الآخرين ولو من نفسه بل إنّ نفسه ليجود بها في سبيل الضحك.

هٰكذا تفتّقت موهبته الخارقة في حارة جعيصة. ثمّ لم تقف من بعد ذٰلك عند حدّ. فمن آياته في ذٰلك العهد البعيد أيضًا أنّه كان يحاكي بمهارة فائقة أصوات الكلاب والقطط والبقر والحمير والبوم والغربان. وأنّه حفظ على حداثة سنّه أغلب القفشات والنكات البلديّة التي تلقى جزافًا في القهاوي و«الغرز»؛ بل كان إذا أعوزه سبب لإثارة الضحك يمدّ قفاه للرفاق فيصفعونه ويضحكون.

وكان يندفع في سبيله بقوّة غريزة مستحكمة قهّارة كأنّه فنّان صادق أمين. ولم يقصد قطّ أن يتقاضى عن فنّه أجرًا. ولٰكنّ المجد أتاه طوعًا يجرّ أذياله. وإذا به يشغل مكانًا عاليًا بين الرفاق الصغار. وإذا به قطب يهدفون إليه ويطوفون به ويبذلون في سبيل مرضاته الدوم وأبو النوم وغزل البنات.

ولٰكنّ للطفولة نهاية ككلّ شيء في هٰذه الدنيا. وقد ودّع عهدها الجميل واستقبل عهد الشباب واشتغل في حانوت والده في أوّل شارع الخرنفش يبيع الخردوات.

وأراد أبوه أن يزوّجه فتزوّج وكانت زيجة سعيدة وصلت ما بين آل شلضم الكرام وآل الأعمش معلّم العربات الكارو الشهير وسيّد موقف النحّاسين. وعمرت بيت شلضم الفتاة المهذّبة حميدة ربيبة

الحجرات المغلقة، التي لم تقع على وجهها عين غريب أو لم تَرَ نور الدنيا إلّا خلل خمار كثيف ألقي على وجهها ساعة انتقالها في الزفّة من العطوف إلى حارة جعيصة. وقد وجد فيها حسن أوّل شخص يحترمه ويهابه على ظهر البسيطة. كانت تدعوه «سيّدي» ولا تقعد في حضرته إلّا إذا أذن لها، فإذا أذن جلست عند قدميه على شلتة واستلقى هو على الكنبة في كبرياء. ولٰكن مع الأيّام بعد أن صارت أمًّا لحسّونة ومتولّي وأبو سريع وزينب وخديجة ونبويّة طمعت في مجالسته في طمأنينة وثقة.

صار السيّد حسن شابًّا عاملًا وزوجًا. ولٰكنّه لم يقلع عن لهوه وعبثه. كان يقضي نهاره في الحانوت، أمّا ليله فكان يلاحق أصحابه في قهاوي الخرنفش ومرجوش والغوريّة ويساهرهم الليل يشربون الزنجبيل والقرفة ويدخّنون الجوزة ويتسامرون ويتضاحكون. كان يجلس على أريكة متربّعًا ويضع إلى جانبه مركوبه وعلى المركوب عِمّته ويقذف بنكاته وقفشاته ذات اليمين وذات الشمال غير مُبْقٍ على إنسان، والجمع من حوله يضحك ويقهقه ويسعل. وشهدت تلك الفترة من شبابه أبدع وأكبر مجموعة من النكات البلديّة التي سارت مع الزمن سير الأمثال وصارت من محفوظات أهل البلد وآدابهم التقليديّة يلوذون بها في مناظراتهم اللطيفة ويستعيرون منها في معاركهم الهزليّة ويستشهدون بها كلّما لجّ بهم الشوق إلى الفكاهة والمرح. فكان فنّانًا إلى درجة ما. وكان من الفنانين المغمورين. ولٰكن من حسن الحظّ أنّه لم يكن يفهم من معاني الخمول ما يمكن أن تذهب نفسه معه حسرات على خموله النسبيّ. والحقّ أنّ آيات السيّد حسن شلضم التي ألّفها في تلك الفترة البعيدة لا تزال جارية على الألسن وستظلّ محتفظة بفكاهتها إلى أن تتغيّر العقليّة البلديّة أو أن يضعها مكتب الآداب في قائمة المحرّمات..

ولبث الشابّ يحيي السهرات الساذجة في ذاك الحيّ بضع سنين، ثمّ ولّى وجهه وجهة أخرى. كان كثير من رفاقه لا يفتأ يذكّره بأنّ المرجوش والخرنفش ليسا بالميدانين الصالحين لعبقريّته الفذّة، وأنّه ينبغي أن يهاجر إلى شارع الأنس والطرب ومجمع العشّاق وأهل الهوى. وأصاخ الشابّ إلى إغراء الهمس وأسلم قياده لَمن دلّه على الطريق وهنالك اطّلع لأوّل مرّة على ذٰلك العالم الفائر الذي تتجاوب فيه الأنوار ما بين المصابيح والكؤوس وتمتزج به آهات الدلال وآهات المواويل وتتّصل حركات البطون بقفزات السكارى وتلويح العصي. ولم يعدم في تلك الدنيا العامرة صديقًا لأنّها كانت مبيت عدد عديد من أثرياء الجهاليّة، فتلقّوه بترحاب وأوسعوا له حول موائدهم. وإلى هنا اختتم الشابّ حياة واستقبل حياة. اختتم حياة ساذجة طاهرة قوامها الفنّ واستقبل حياة ترف وعربدة أساسها الاحتراف. وقد أكرمه أهل الهوى فنزعوا عنه الجلباب والعمامة والمركوب وخلعوا عليه جبّة وقفطانًا وحذاء أصفر لامعًا وطربوشًا أنيقًا. وأكل ممّا يأكلون لحمًا مشويًّا وعصافير محمّرة ونقلًا لذيذًا وشرب ممّا يشربون خمرًا معتّقة ونبيذًا أحمر وأبيض. وفي مقابل ذٰلك كان يقطع لياليهم الهانئة بالنكات الممتعة والملح النادرة والقفشات البارعة. وتنقّل من حانة إلى حانة ومن ملهى إلى ملهى وهو يكتسب في كلّ مكان أصدقاء ومعجبين ومريدين. وامتدّت شهرته من ذاك الشارع المنير إلى جميع حلقات الغناء والسمر والطرب في القاهرة الخالدة الحالمة وعلا نجمه وشعّ نورًا بهيجًا، وطغت عبقريّته واستحكم ظرفه حتّى أصبح حبيبًا إلى كلّ نفس عزيزًا على كلّ قلب. تشتهيه الأنفس، وتتلهّف عليه المهج، كان لكلّ داء دواء طاردًا للهمّ. كاشفًا للكرب، أو كان روح كلّ مجلس أنيس، ينقلب إذا غاب عنه كئيبًا واجمًا.

كانت غاية حياته أن يضحك ويُضحك الآخرين ولو من نفسه، ولم تكن هٰذه الغاية فلسفة حياة ولٰكنّها طبْع وغريزة يندفع في سبيلها كالأعمى وكأنّها صادرة من أعماقه لا يمكن أن يوقفها شيء. وكان ظاهر حياته يدلّ على أنّه يربح من وراء هٰذه الموهبة جاهًا عريضًا وسعادة متّصلة وطعامًا وشرابًا. ولٰكنّه كان في الحقّ يدفع الثمن غاليًا ويبذله من كرامته وكبريائه، لأنّ همّه

الأوّل كان في التحبّب إلى الناس وإدخال السرور على قلوبهم، وقد علم بغريزته أنّه ينبغي لذلك أن يكون خفيفًا لطيفًا فلا يجوز أن يعارض رأيًا ولو خالفه بقلبه. ولا أن يغضب ولو مُسّت كرامته، ولا أن يقاوم وإن هوجم وضيّق الخناق عليه، فنال ما يشتهي من الحبّ وفق ما يشتهي ولكنّه خسر الاحترام إلى الأبد.

ومهما يكن من أمرٍ فقد تسنّم السيد حسن شلضم ذروة المجد للحبّ. ويسلّط سوط الإرهاب على رءوس آله جميعًا ولا يتكلّم إلّا آمرًا أو منتهرًا أو سابًّا، وكانت حميدة ترتجف رعبًا في محضره، وكان أبناؤه إذا سمعوا صوته فرّوا إلى ركن قصيّ وانكمشوا فيه.

ومهما يكن من أمرٍ فقد تسنّم السيد حسين شلضم ذروة المجد ونال من الشهرة قسطًا لم ينله أحد ممّن سبقوه ولن يتأتّى لمحدّث أو مهرّج بعده أن يناله، ومضت لياليه سعيدة هانئة راضية، يحياها آكلًا شاربًا ضاحكًا.

واصطدم وجه الأرض بأحداث مروّعة فوقعت الحرب وتوالت النكبات على الدنيا ثمّ قامت الثورة في مصر. وطفت بين مَن طفت بهم إلى السطح بالزنفلي أفندي الذي ظهر في أفق السيّد حسن وإخوانه بعد عهد الانقلاب فأضافه السيّد حسن إلى أعاجيب الثورة كيدًا وحقدًا، وقد أتى به ذات مساء أحمد بك فائق وقدّمه إلى جماعة السيّد حسن قائلًا: إنّه شابّ مثقّف ومن أظرف الظرفاء، وما كان يسوء السيّد حسن أن تزيد جماعته واحدًا، فما كاد يطمئنّ به المجلس حتّى جرت النكت على لسانه كالسيل، ومضى يعلّق على آراء القوم وأحاديثهم بما تخترعه نفسه الذكيّة من الصور الساخرة والنوادر الأخّاذة فتبعث تعليقاته وراءها عواصف من الضحك والقهقهة. ولبث السيّد حسن صامتًا لا يتكلّم يرمق صاحبه بعين فاحصة ويقول لنفسه: ترى هل هو زائر عابر أم قضي عليّ أن ينافسني طفل على آخر الزمن.

والظاهر أنّه قضي عليه حقًّا أن ينافسه الأطفال في النهاية؛ لأنّ الزنفلي لم يكن زائرًا عابرًا، لكنّه أصبح بسرعة عجيبة عضوًا لا يبتر من الجماعة، وكان يمتهن المزاح كالسيّد حسن ولكن على طريقته الخاصّة الجديدة، فما كان يفحش في القول ولا يقذف بالسباب والهجر، ولا يحاكي الأصوات والأشكال ولكنّه كان يفتنّ ويتفوّق في إرسال النكتة الخاصّة الأدبيّة والملاحظة الساخرة والتهكّم اللاذع.

وكان يصف نكاته فيقول إنّها مِلَح أدبيّة وفكاهة عالية، ويغمز السيّد حسن فيقول عن الفكاهة القديمة إنّها سباب وفحش، ويحمل على «قافية أهل البلد» فيقول إنّها أقوال مكرّرة مبتذلة ونوادر محفوظة وجناس سخيف لا روح فيه.. وكان السيّد حسن يصغي إلى هٰذه الأقوال في عدم اكتراث وهزء وربّما نال من قائلها على طريقته باستهانة، ثمّ لم يلبث أن حقد عليه وكرهه لأنّه كان إذا قال نكتة ظريفة بادر الشابّ إلى تعكير الصفو بسعال أو حمحمة أو بطرحه فجأة سؤالًا جدّيًّا عسى أن يهيّج اهتمام القوم ويلهيهم عن أثر النكتة. ورأى فيه عدوًّا حقيقيًّا فشمّر للكفاح والمنافسة في ميدان المزاح واللهو، وانقضّ على الزنفلي وانقضّ الزنفلي عليه واشتبكا في معارك حامية واستعمل كلّ ما وهبه الله من الذكاء والبداهة والفكاهة وصنع المستحيل ليربح الأنصار والمعجبين والمصفّقين.

فإذا صاحت الديكة مذكّرة اللاهين بأنّ الفجر انبثق انفضّ القوم فرحين وعاد العدوّان مهمومين مفكّرين يحصي كلّ منهما ما أثاره من ضحك وما أهاج من مسرّة وما ابتدع من فكاهة ويذكر أسيفًا حزينًا ما ظفر به عدوّه من آي النصر والتفوّق ومَن ضحك له من الرفاق. وظلّ كبار التجّار وأهل البلد على ولائهم القديم للسيّد حسن شلضم أمّا الزنفلي فقد اكتسب الكثيرين من الأفنديّة والبكوات. وكان لذلك وقع شديد في نفس السيّد حسن فقد كانت الدنيا جميعًا له يمرح فيها كيف شاء فقنع مضطرًّا مقهورًا بنصفها.

ولٰكن عَلامَ الأسف والحزن؟ إنّ هٰذا العالم الجديد لا يستحقّ أسفًا ولا حزنًا. أين السادة الكرام الأجلّاء؟ مات أكثرهم وانزوى مَن بقي منهم على قيد الحياة، إمّا لمرض أو فقر.. أين السيّد جلال الشابوري رحمه الله الذي كان ينقده جنيهًا ذهبيًّا للنكتة

الحلوة؟ أين الشيخ طلعت الإسلامبولي الذي كان يهديه كلّ ثلاثة شهور جبّة وقفطانًا لا يقدّران بثمن؟. هٰذا إلى الفواكه المختلفة في إبّان نضوجها؟ ذهب الجميع، ذهبت دنياهم الحلوة وبقيت هٰذه الدنيا العجيبة التي يخطب فيها النساء في المحافل العامّة ويهدّد التلاميذ معلّميهم بالإهانة والضرب. ويغنّيها عبد الوهّاب بعد عبده الحامولي ومحمّد عثمان، ويباع فيها قنطار القطن بريالين، فهل هٰذه دنيا يأسف السيّد حسن شلضم على أنّه ليس فارس ميدانها؟

وكان يداعبه بعض معارفه أحيانًا فيقولون له «راحت عليك يا سيّد شلضم». فكانت تقع من نفسه موقع السمّ الزعاف وكان يصرّ على أسنانه المترّمة ويتصنّع الاستهانة ويقول:

ـ سامحك الله يا غلام، أتحسب أنّ شلضم من الهوان بحيث يرضى أن يهرّج في هٰذا الزمان البائس المأزوم؟ أو أن يمازح هٰذا الجيل الذي لا يتذوّق النكتة! فَشَر وألف فَشَر! إنّ مثلي ومثل الزنفلي فكالحمولي في الزمن القديم، وهٰؤلاء المغنيّن النائحين الذين يتستّرون على عيوب حناجرهم بالإكثار من الآلات والموسيقيين.

والحقيقة أنّ ظلّه أخذ يتقلّص بسرعة ومضى الموت يقتنص رفاقه أو المعجبين به واحدًا بعد واحد، وتزايد على الأيّام شعوره بالوحشة والغربة.

تغيّر كلّ شيء. حتى موطن اللهو القديم الذي كان ملهى الكبراء والأثرياء أصبح مباءة السوء وسوق الأوباش واللصوص والبلطجيّة، ولم يعد للمهرّج مكانة خاصّة في جماعات الهوى فقد ابتذلت صناعته وبات كلّ يهرّج لحسابه الخاصّ.

وفي ذات مساء، وكان السيّد حسن يحتسي كأسًا من الكونياك في حانة بسوق الخضار سقط بغتة فاقد النطق.

ورقد أخيرًا على الفراش، مسلّمًا جسمه الهائل إلى قبضة المرض الجبّار، وقد تمرّدت أعضاؤه جميعًا على إرادته وبات عاجزًا عن تحريكها إلّا عينيه يقلّبهما ذاهلًا في سقف الحجرة ذي العمد الخشبيّة العتيقة يبرز من شقوقها ذيل البرص أو رأسه ويغشي ما بينها نسيج العنكبوت.

إنّ تلك الحياة العامرة بألوان اللذّات والسرور والأفراح قد اختتمت بهٰذا الرقاد الأليم. وإنّ النور والغبطة والرفقاء قد تفانوا في هٰذه الظلمة الموحشة. وانتهى كلّ شيء كما ينتهي الحلم الحلو وانتهى في لحظة قصيرة كأنّه لم يدم سنين وسنين، وجاءت الساعة الرهيبة التي يتساءل فيها الإنسان في حسرة مريرة.. أحقًّا كان هٰذا الجسم سليمًا؟.. أحقًّا كان هٰذا القلب حيًّا؟.. أحقًّا كانت الدنيا حلوة سعيدة لذيذة الطعم؟.. أحقًّا ذهب كلّ هٰذا إلى غير رجعة؟

وقاوم جسمه المرض بضعة أشهر. قضاها في وحدة ووحشة وقنوط. لم يزره فيها سوى أبنائه وبناته، ذٰلك الرجل الذي كان يومًا قلب القاهرة السعيد وثغرها الضاحك، حتّى وافاه الأجَل بالأمس القريب في ذٰلك البيت العتيق بحارة جعيصة الذي شاهد مولده وعرسه ومجده وأخيرًا.. مماته.

عبث أرستقراطي

في ذلك المساء من شهر مارس أزين قصر الوجيه حامد بك عرفان بحلّة لألاءة من الأنوار المتموّجة ذات الألوان. مدّت أسلاكها الكهربائيّة على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج. وتعلّقت بأفرع الأشجار والنخيل، وتوّجت بها شجيرات الورود المنثرة على هيئة أهلّة ونجوم. وكان أعجب ما في القصر هو ذاك البهو المتّسع الأنيق الذي فُرش بفاخر الأثاث وحليّت جدرانه وأركانه برائع الفنّ من صور وتحف، وترك في وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين، أمّا في صدر المكان فقد امتدّت ردهة إلى منتصف مقصف حافل، وإلى يمينها فيما يلي الشرفة المطلّة على الحديقة احتلّت فرقة الموسيقى الإيطاليّة مكانًا جميلًا.. وانتشر فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوّات والمدعوّون الذين لبّوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجيه عرفان بك وزوجه أنجي هانم عرفان ... وكانوا يجلسون أزواجًا وجماعات يتجاذبون أطراف الأحاديث حينًا بالعربية وأحيانًا بالفرنسيّة ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة. وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق. وقد شاع في الجو عطر وأنس وحرارة كأنّها أنفاس المودّة نفثتها الأعين والشفاه والصدور والأماني الهامسة.

وكانت الأحاديث متنوّعة، ولكنّها تدور في الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة، وهو المرأة، ولا يستثنى من ذلك الجماعة التي كان محدّثها الأوّل الأستاذ عليّ الجميل الصحافيّ المعروف والنائب المحترم، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة، أمّا الوجيه نور الدين فكان يتوسّط حلقة أخرى يروي فيها ما اتّفق من قصص مغامراته الغراميّة في العواصم العالميّة ذوات الشهرة في الحبّ والجمال؛ وفي ركن منعزل امتاز بوفرة من حوى من الشابّات والشبّان أقيمت مسابقة سرّيّة لاختيار أقبح امرأة بين المدعوّات. واتّجهت أبصار المحكّمات والمحكّمين إلى امرأة اتّخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها «لفيجيه لوبرين» وكانت عجوزًا إلّا أنّها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال ما تظنّ أنّه يغني عما استردّه الدهر من حياة شبابها. فبدت تحت طلاء الأصباغ في هيئة مضحكة، وكانت تتجنّب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتّى تعود إلى مجالستها ربّة الدار أنجي هانم كلّما تاقت نفسها إلى الراحة. أمّا اسمها فدَوْلَت هانم، وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفّقة، وكادت تيأس من الرجال والحبّ، وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس، فصارت معجمًا لتواريخ السوء. وكانت في تلك اللحظة التي اختيرت فيها سرًّا ملكة للقبح.. تجالس أنجي هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسرًا بعد أن لم تبقَ على أحد من الحاضرات والحاضرين، حتّى أتيحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجيه الأستاذ محمّد جلال المحامي وزوجه الحسناء صفيّة هانم جلال. وكانا يلفتان الأنظار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدّان في الصعيد، وجمال الزوجة ورشاقتها، وقد استقبلتهما أنجي هانم بمودّة ظاهرة وباطنة، ولمّا عادت إلى جوار دَوْلَت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح:

ـ يا لهما من زوجين سعيدين جميلين!

فقالت السيّدة بحماس:

ـ الأستاذ جلال شابٌ يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثريّ.. ألا تعلمين أنه مرشّح لكرسيّ النيابة؟.. وأمّا صفيّة فهي آية للجمال والصفاء.

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

ـ نعم، نعم،.. لا شيء يعيبه إلّا أنّه يقال إنّه قد يتبارز من أجل راقصة، أمّا إذا استثيرت غيرته الزوجيّة فقد يغضي..

وضاقت أنجي هانم ذرعًا بحديث صاحبتها، فلم تسألها إيضاحًا وتشاغلت عنها بمشاهدة بعض الراقصين، ثمّ استأذنت لاستقبال بعض صواحبها.

وسلّم الأستاذ محمّد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات، ثمّ اختارا أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلهما هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسناء هدى هانم العارف، وكان الأستاذ جلال يبدي إعجابًا خاصًّا نحو السيّدة هدى. فلمّا عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه، وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك..

وطرب الجميع طويلاً وشربوا كثيرًا، فدارت رءوس وثرثرت ألسنة كتومة، وفاضت الأحاديث، وامتلأ الجوّ برنين الضحكات ووميض الابتسامات وإيماءات الغزل، والتقت أعين وتماسّت أنامل وارتعشت شفاه. حتّى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسّطت المدعوّين السيّدة أنجي هانم، وقالت بصوتها الرخيم:

ـ اسمحوا لي سيداتي سادتي أن أقدّم إليكم مفاجأة العيد السعيد.

تطلّعت الوجوه إليها من كلّ صوب، وتجمّع حولها المبعثرون ما بين الشرفة والمقصف ينتظرون فرحين. وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة، ثمّ أضيئت الأنوار مرّة أخرى فرأى القوم منظرًا بديعًا: مهدًا على قوائم أربع طويلة، مسقّفًا بستار من حرير على هيئة هرميّة، وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين في قميص أبيض كأنّها وردة بيضاء يانعة، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية! فصفّق الجميع تصفيقًا رقيقًا وهتفوا باسمها، وقبّل الأنسات يدها الصغيرة، ثمّ قدّمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشدّ نزوعًا للصبا والمسرّة. على أنّ فترة الظلام القصيرة لم تمرّ بسلام كما توهّم الجميع. فقُبَيْلها بدقائق كان الأستاذ محمّد جلال يجالس هدى هانم في المقصف وقد دلّ عبثهما المرح على أنّهما ثملان، فلمّا أطفئت الأنوار لم يتردّد الشابّ فدنا برأسه منها حتّى كادت تمسّ شفتاه أذنها وهمس قائلًا: «هدى» وارتجفت المرأة كالمذعورة ولم تردّ عليه، فقال لها همسًا وهي تحسّ بلمس شفتيه لأذنيها: «هذه فرصة طيّبة. قومي واتبعيني».

وكان بودّها لو تتباله كما يقضي الدلال ولكنّها خشيت أن يضاء النور بسرعة، فقالت همسًا:

ـ إلى أين؟

ـ إلى حجرة التدخين في الطابق العلويّ؟

ـ قد يفتقدوننا.

ـ وماذا يهمّ؟.. سيظنّون أنّنا في الشرفة أو في الحديقة أو في المقصف أو هنا أو هناك وسنعود من طريقين متباعدين..

وأمسك بكفّها وقام واقفًا فقامت بدورها، واتّجه نحو السلّم وهي تتبعه وارتقياه بسرعة، فوجدا نفسيهما في ردهة مضاءة بنور بنفسجي هادئ تطلّ عليها أبواب متباعدة، فسارا إلى هدفهما ودخلا معًا، ثمّ ردّا الباب في سكون، وكان الجوّ مظلمًا شديد الظلمة، ولكنّه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين وتقدّما خطوات حتّى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة، فجلس وجلست، وتنهّد من أعماق صدره وقبض على كفها فوجدها ترتعش كالمقرورة، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزًا لم يبرأ منه حتّى ضمّها إلى صدره بعنف وانهال على وجهها يقبّله بشغف وجنون، كم لبثا منفردين إنّه لا يدري، ولكنّ المحقّق أنّ تلك الخلوة السعيدة لم تخل ممّا

ينغّصهما فقد خيّل إليهما أنّ أقدامًا خفيفة كالمحاذرة تدنو من باب الحجرة، فتباعدا واقفين وأرهفا السمع واتجهت أعينهما في الظلام ناحية الباب، وخالا أكثر من هٰذا بأنّ يدًا تعالج الباب بلطف.. ترى أحقّ هو أم وهم!؟ ولٰكنّ الباب تحرّك ونفذ إلى الحجرة شعاع هادئ كروح محتضرة فاشتدّ بهما الرعب وودّا لو تبتلعهما الأرض. وما لبث أن تسلّل شبح في حذر وتبعه آخر، ثمّ ردّ الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرّة أخرى، وكان الداخلان شديدي الحذر فلم يبديا حركة ولم يصدرا أصواتًا وكأنّهما ذابا في الظلمة الجاثمة.. فسكن ذعر الآخرين وأحسّا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة، وخطرت لهما فكرة معًا هي أنّ الضيفين الجديدين مثلهما وأنّ لا خطر عليهما منهما، وتأكّد هٰذا الظن حين شعرا بهزّة تصيب الكنبة فعلما أنّ صاحبيهما اختارا كنبتهما مقعدًا لهما أيضًا، وتريّثا في قلق صار بعد حين ضيقًا وكدرًا لأنّهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن يتنبّه الآخران فيفزعا وربّما حدث ما لا تحمد عقباه!

أمّا الجديدان فكانا يظنّان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يحاذرا إلّا بمقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همسًا وهمهمة وأن يسمعا الرجل يعانق صاحبته وهي تعانقه، ولم يكتفيا بذٰلك بل قال بصوت استطاع الآخران أن يميزاه:

ـ حبيبتي... صفيّة.

وارتجف محمّد بك جلال كأنّما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره؛ وأحسّ بارتجاف يد صاحبته في يده.. كان الصوت صوت طه بك العارف. ومن هٰذي؟ أليست زوجه هو؟.. أيّ كارثة تجمّعت في هٰذه الحجرة المظلمة! ودقّ قلبه بعنف وغلى دمه غليانًا كاد يفجّر الشرايين في دماغه، ولٰكنّه لبث ساكنًا صامتًا وزوجه على قيد ذراع منه في أحضان خليلها! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل ـ فمثل هٰذا العمل يثير فضيحة حريّة بالاستياء على مستقبله السياسيّ ومعركة الانتخابات على الأبواب ـ ولٰكنّه كان مغيظًا محنقًا لأنّ غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أنّ زوجه بين يديه هو أيضًا.

وانتظر دقائق كالأجيال؛ وشعر أخيرًا بحركة استدلّ بها على قيام الرجل وسمعه يقبّل زوجه بحرّيّة ويقول لها:

ـ لو تعدل الدنيا.. زوجك الغبيّ ليس أهلًا لك وزوجتي ليست أهلًا لي، ولٰكن، ولٰكن، ما العمل؟! ثمّ تسلّلا خارجين كما أتيا..

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجًا، وبحث عن سترته حتّى عثر عليها وأخذ بيد صاحبته وخرجا في حذر ثمّ افترقا في الردهة.

ولبث ضيّق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة، يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهترة، ولم تكن هٰذه أولى خياناتها، ولٰكنّها وقعت على كثب منه بحال بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة.. فسحقًا لهما!.. وقام يتمشّى في الحديقة فارًّا بوجهه الممتقع من الأعين جميعًا. ولفحه هواء الليل البارد فرطّب جبينه الساخن وأنعش فؤاده المضطرم، وصحّ عزمه في تلك اللحظة على أن يسلّم قياده لمغامرات الغرام الجنونيّة غير مُبْقٍ على شيء، ولو أدّى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامّة وميادين السباق. وتملّكته هٰذه الخواطر فأحسّ بارتياح ومضى يفيق من همومه ويتنبّه إلى نفسه. فاستطاع عند ذٰلك أن يشعر بتغيّر غريب. فعجب لشأنه وتناسى انشغاله، وبحث عن أسباب هٰذا التغيّر فوجد يديه تجسّان السترة وكأنّها أوسع ممّا كانت.. ماذا حدث لها! يا للعجب.. إنّها أوسع ممّا يتصوّر. وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده، ولكي يتحقّق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة، لم تكن حافظته، ووجد بها بطاقة مكتوبًا عليها «طه بك العارف».

ووضح الأمر، وعاوده القلق والحنق، ولم يكن ثمّة خوف من الفضيحة فسترات بدل السهرة متشابهة، لكنّه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه: «كيف يمكن أن تُتبادل السترتان»؟!.

مرض طبيب

قبل عامين تفشّى وباء التيفود في مديريّة الغربيّة تفشّيًا مخيفًا فتك بنفوس الكثيرين، وصادف ذٰلك انقضاء بضعة أشهر على تعيين الدكتور زكي أنيس طبيبًا بمستشفى طنطا وفتحه عيادته الخاصّة، وكان في تلك الأيّام يلاقي الشدائد المقضيّ على كلّ مبتدىء في فنّه أن يلقاها أوّل عهده بالحياة العمليّة؛ فكان ينتظر طويلًا وعبثًا توارد الزوّار والمرضى مستوصيًا بالصبر والتجلّد حتّى كاد يلحقه الجزع. فلما تفشّى ذاك الوباء الخبيث تضاعف عمله بالمستشفى وشحذ نشاطه ومضى يراقب حركة السيّارات التي تطوف بالبيوت وتعود محمّلة بالضحايا بعينين كئيبتين وعزيمة متوثّبة، وأحسّ بالرغم من كلّ شيء بسرور خفيّ وأحيا قلبه الأمل في أن يدعى يومًا لعلاج مصاب من الذين تثقل بهم جيوبهم عن الانتقال إلى المستشفيات العامّة، ولم ييئسه تقاطر الناس على كبير الأطبّاء وبعض الأطبّاء القدماء بالمدينة وأصغى إلى هاتف تفاؤل ما انفكّ يهمس لقلبه بأنّ دوره لا محالة آتٍ.

وصدق أمله، وإنّه ليجلس إلى مكتبه يومًا يقلّب صفحات كتاب وتجري عيناه على أسطره جريان الشرود والملل إذ طرق بابه كهل يدلّ منظره الوجيه وزيّه الريفيّ الثمين على أنّه من الأعيان؛ ولعلّه قصده بعد أن يئس من العثور على سواه، فطلب إليه بلهجة تنمّ على القلق أن يصحبه إلى العامريّة على مسير ربع ساعة بالسيّارة. وكان الشابّ يعدّ العدّة لمثل هٰذا اللقاء فلم يبد على وجهه أثر ممّا اضطرب في صدره من الفرح والظفر فألقى على القادم نظرة رزينة وقام من فوره فخلع معطفه الأبيض وارتدى الجاكتة والطربوش وأخذ حقيبته وتقدّمه إلى الطريق. والتقى أمام الباب بسيّارة فخمة فخفق قلبه مرّة أخرى، وتريّث حتّى فتح الرجل الباب وقال له:

ـ تفضّل.

وجلسا جنبًا إلى جنب وانطلقت بهما السيّارة، وحافظ على هدوئه ورزانته وصرّ بأسنانه ليطرد ابتسامة خفيفة تحاول أن تعتلي شفتيه؛ وكأنّه أراد أن يداري عواطفه فسأل الرجل عن مريضه وتكلّم الرجل في إسهاب فقال إنّ المريض ابنه وإنّه لم يجاوز العشرين من عمره، وإنّه أحسّ منذ أيّام بتوعّك وخور ورغبة عن تناول الطعام، ثمّ ارتفعت حرارته واستسلم للرقاد؛ فسأله:

ـ هل حقن بالمصل الواقي؟

فأجاب الرجل بالنفي، وأعلن عن رجائه الحارّ ألّا يكون الشابّ أصيب بالحمّى الخبيثة، فصمت الطبيب مليًّا يفكّر في هٰذه الأعراض ويزنها بميزان اختباراته وعلمه، وكانت السيّارة في أثناء ذٰلك تخترق الطريق الزراعيّ بسرعة البرق حتّى بلغت العامريّة وانعطفت إلى حاراتها الضيّقة ثمّ وقفت أمام دار كبيرة، فدخلا معًا واستقبلتهما أوجه كثيرة بأعين يقتتل بها الخوف والأمل، فساوره القلق وتلبّسه شعوره حين تعرّض لأوّل مريض بدأ به حياته التمرينيّة في قصر العيني منذ ثلاثة أعوام، فاستصرخ قوّة إرادته ليضبط بها وجدانه ويجتاز هٰذه التجربة الجديدة بالنجاح، وأغضى عمّن حوله وسدّد انتباهه إلى الشابّ الراقد بين يديه، وكشف عليه بعناية فائقة وفحصه فحصًا دقيقًا فترجّح لديه أنّه مصاب بالتيفود، وأبدى رأيه في تحفّظ وقال إنّه ينبغي أن يفحص المريض في اليوم التالي ليستوثق من رأيه، فلا آمنهم من خوف ولا أفقدهم الأمل، وظنّ

أنّه ضمن لنفسه أن يتردّد على المريض حتّى يبلغ به الشفاء بفنّه أو يودعه القبر بأمر اللّه. ثمّ أخذ حقيبته واتّجه نحو الباب بخطى وئيدة كأنّه يريد شيئًا، فلحق به والد المريض وهمس في أذنه قائلًا:

ـ تفضّل.

فخفق قلبه لثالث مرّة ذاك اليوم ومدّ يده وهو يقول:

ـ شكرًا.

فأحسّ بثلاث قطع من ذات العشرة القروش توضع بها، ثمّ جلس في السيّارة منفردًا هذه المرّة، وانطلقت به في طريق العودة، وكانت هٰذه أوّل مرّة يدعى فيها إلى زيارة مريض في بيته، فاغتبط ورضي وأشعل غليونه وراح يدخّن بحالة من السرور ولم تخل من اضطراب عصبيّ فأخذ «أنفاسًا» سريعة فتوهّج التبغ وسخن الغليون، ولم يستمرّ في التدخين طويلًا فوضعه في جيب الجاكتة الأعلى وأرسل بناظريه خلل زجاج النافذة يشاهد الحقول الممتدّة على جانب الطريق الغارقة في الأفق البعيد، وكانت تنتهي عند الطريق الزراعيّ بجدول من الماء ينساب صافيًا تستحمّ فيه أشعّة الشمس المائلة للغروب وتغشاه بنور لألاء بهيج يخطف الأبصار؛ فاستسلم لسحر الرؤية، وشعر بتخدير لذيذ حتّى انتبه إلى تغيّر غريب يسري في صدره وجسمه فتحوّلت أفكاره من الخارج إلى الداخل فأحسّ بسخونة تنتشر في أعضائه جميعًا كأنّ حرارته ارتفعت بغتة، فتململ في جلسته وحرّك رقبته بعنف، ثمّ لم يحتمل شدّتها فخلع طربوشه وفكّ أزرار الجاكتة وأخرج منديلًا يروّح به على وجهه وهو يعجب أشدّ العجب لأنّ الجوّ كان معتدلًا لطيفًا، واشتدّت وطأة السخونة والتهب جسمه بالحرارة، فجسّ خدّيه وجبينه وشعر بثقل في جفنيه ورأسه وضيق في التنفّس، وتساءل في حيرة عمّا أصابه، وخطر له خاطر مخيف: هل يكون مريضًا؟!.. وذكر لتوّه الحمّى الشيطانيّة التي تفتك بأهل المديريّة فتكًا جهنّميًا.

وكان قد حقن نفسه بالمصل الواقي، فكيف انتقلت إليه العدوى؟!.. هل سبقت الميكروبات المصل إلى دمه؟! ولفّه الذعر، وكان في الحقيقة جبانًا رعديدًا شديد الهواجس سرعان ما يستسلم للتشاؤم ويقع فريسة سهلة للمخاوف، فعاد يجسّ خدّيه وجبينه فوجدها ساخنة وأحسّ بجسمه يكاد يلتهب التهابًا فاستولى عليه الفزع وارتعدت فرائصه وقال بذهول «يا للويل... لقد أصبت وانتهيت...».

وقطعت السيّارة مرحلتها وانتهت إلى عيادة الطبيب الشابّ ـ وكانت عيادته ومنامه في شقّة واحدة ـ فتركها على عجل وصعد إلى حجرة نومه واستدعى التمرجي وقال له: «نادِ الدكتور سامي بهجت بسرعة وقل له إنّي أصبت بالتيفود» فجرى الرجل مرتعبًا وأخذ الدكتور يخلع ثيابه بيدين مضطربتين وارتدى البيجامة وارتمى على الفراش في حالة يأس ورعب وغمّ شديد وقد خيّل إليه أنّ شرايينه ستنفجر من الحرارة وكان يستحضر في ذاكرته أعراض المرض فلم يعد لديه ثمّة شكّ في أنّه مريض؛ وثبت في وهمه بقوّة أنّ هٰذا المرض سيختم حياته، وكان شديد الجبن متهافت الأعصاب فلم يستطع أن يأمل قطّ في النجاة وبات في يأس عظيم، وظلّ يعدّ الدقائق الثقيلة المرهقة ويصيح غاضبًا: «هيهات أن يجد الدكتور في عيادته. وسأجنّ هنا وحدي...».

وفي أثناء الانتظار فزعت أفكاره المجنونة إلى القاهرة، إلى أمّه، ووجد حاجة شديدة إليها، وإلى وجودها إلى جانبه لتسهر عليه، وفكّر فعلًا في أن يبعث إليها ببرقيّة، ولكنّه لم يقبل هٰذه الفكرة بسهولة، وأشفق من إرهاقها وإزعاج حياة والده وإخوته الصغار وربّما عرّضها للخطر أيضًا ـ وكان هٰذا أوّل شعور طيّب يخالط قلبه منذ قَدِمَ طَنْطا ـ فصدقت نيّته على أن يطلب إلى الدكتور بهجت نقله إلى المستشفى. وربّما تمكّن من رؤيتها هناك ليودّعها إذا اشتدّ عليه الحال. وقد حنّ إليها في تلك الساعة حنينًا موجعًا... وأغمض جفنيه هنيهة يلتمس الجمام ويطرد عن قلبه الوساوس والهواجس، ولكنّ وجدانه الثائر أبى أن يدعه في راحة أو طمأنينة، أو أن يصرفه عن الانشغال الأليم بمرضه؛ ولم يكن دار له بخلد أنّ الطبيب بمأمن

من الأمراض، ومع ذٰلك أحسّ بمرارة وسخط وحنق وساءه أن يفتضح مرضه الغادر في أثناء عودته من زورة مريض. أما كان الأجمل أن يجزى غير هٰذا الجزاء!... وقرّ في نفسه أنّ العدوى انتقلت إليه في أثناء قيامه بواجبه في المستشفى بالرغم من حذره ويقظته فتضاعف سخطه وحنقه، وأسى على حياته التي لم يتح له التمتّع بها وكان يدفع إلى فكرة الموت دفعًا عنيفًا؟ ويقسر على الاستغراق فيها بقوّة شيطانيّة... وحدّثه قلبه الرعديد بأنّ نهايته حُمّت، فعطف رأسه إلى المرآة وأدام النظر إلى وجهه. فخيّل إليه أنّه محتقن بالدم الفاسد؛ ولٰكن كان ما يزال محتفظًا بنضارة الحياة وأثر الصحّة الآخذة في الانحلال، فألقى عليه نظرة أسيفة حزينة، كأنّما يودّع آخر صورة للحياة والصحّة عالقة به.. ثمّ أدار رأسه قانطًا، وأسلمه القنوط إلى الاستسلام، وأسلمه الاستسلام إلى الاستهانة، ولاذ بها من مخاوفه، وقال لنفسه علام الخوف والذعر؟ الموت آتٍ لا ريب فيه، إن لم يكن اليوم فغدًا... هو النهاية المحتومة على أيّة حال لمهزلة الحياة... وماذا يضيره أن يقصّر دوره في هٰذه المهزلة؟ فلعلّ في قصره اختزالًا لآلام مروّعة. على أنّ تعزّية لم يدم طويلًا.. وألحّت على قلبه الآلام مرّة أخرى... فذكر آماله وأطماعه في المجد والثروة وارتسمت على شفتيه لهٰذه الذكرى ابتسامة مريرة ساخرة... وشعر بامتعاض يفوق الوصف... وذكر الثلاثين قرشًا التي طرب لها فرحًا قبل حين قصير: فازداد امتعاضه، ولعن رزقه الذي يناله من أيد شحيحة. لا تفرّط فيه حتّى يهزلها المرض، فتراخى عن الضنّ به ولعلّ النظام الذي يجعل سعادة القوم منوطة ببؤساء آخرين... يا لها من مهنة مخيفة، يستمدّ رجالها حياتهم من النفوس المريضة كالجراثيم سواء بسواء... وسخر في ذعره وتشاؤمه من الإنسانيّة والتضحية والرحمة، تلك الألفاظ الصمّاء التي حفظها عن ظهر قلب ولم تختلج له في شعور قطّ... فهو لم يشمّر أبدًا لغير المجد والثروة، ولم يتصوّر ساعة أنّه يبلغهما بغير معونة المرض... فعبده وهو لا يدري، ونصبه إلٰهًا يقدّم له القرابين البشريّة كبعل القديم، حتّى سقط هو أخيرًا قربانًا له، فأيّ حياة هٰذه؟.. وذكر أيضًا في هذيانه وتشاؤمه قرويًّا بسيطًا عرض له في العيادة الخارجيّة بالقصر العيني، وكان يريد أن يكشف على حلقه، فأمره أن يفتح فمه... وكان كلّما أدنى منه المجهر يرتجف الرجل الساذج ويغلق فمه، وتكرّر ذٰلك منه حتّى اشتدّ به الضيق، وكان مرهق الأعصاب من كثرة العمل، فضرب جبين القروي بالمجهر، فشجّه وأسال دمه... وقد أسف لذٰلك حقًّا ولٰكنّ أسفه لم يخفّف عن الرجل شيئًا... وذكّرته هٰذه الحادثة بما يقع خلف جدران القصر العيني من أعمال القسوة التي تفزع من هولها النفوس البشريّة، فذكر أنّه تكاسل مرّة عن إجراء عمليّة لمريض، لأنّه كان أجرى هٰذه العمليّة مرّات عديدة بنجاح، فلم يشعر بحاجة إلى تمرين جديد، واسودّت الدنيا في عينيه، وعافت نفسه كلّ شيء في تلك الساعة الخبيثة.

ثمّ سمع وقع أقدام في الردهة وصوت التمرجي يحادث الدكتور، فتمشّت في أعصابه موجة نشاط ونسي وساوسه، وفزع إلى القادم بأمل جديد، ودعا ربّه بصوت متهدّج قائلاً:

«آه يا ربّ. خذ بيدي! هبني حياتي مرّة ثانية، أهب الناس أشرف ما في نفسي حتّى الموت».

وما انتهى من دعائه حتّى برز الدكتور بهجت من باب الحجرة وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ مساء الخير يا دكتور. مالك؟

فقال الشابّ بهدوء وإن كان في الحقّ يستغيث:

ـ أصبت.

ففحصه الدكتور بعينين نافذتين وأصابعه تفتح الحقيبة ثمّ قال:

ـ لعلّها الإنفلونزا.

فقال بيأس:

ـ كلّا... لا أشكو زكاماً ولا صداعًا...

ـ ولٰكنّك لم تَشْكُ تعبًا أو فقدان شهيّة في هٰذه الأيّام أليس كذٰلك؟!

وتفكّر الشابّ قليلاً متحيّرًا ثمّ تمتم قائلاً:

ـ حرارتي فظيعة... إنّي أشعر بالمرض شعورًا مخيفًا...

ـ هل قست الحرارة؟!

فعجب كيف فاته ذلك، وهزّ رأسه نفيًا ولاذ بالصمت؛ فابتسم الدكتور بهجت ابتسامة ساخرة، ودنا منه والترمومتر في يده. ثمّ وضعه في فمه وانتظر هنيهة، أخذه ثانية ورفعه إلى مستوى عينيه، ونظر إلى وجه الشابّ رافعًا حاجبيه وقال ببساطة:

ـ حرارتك طبيعيّة.. انظر!

وقرأ الشابّ الترمومتر وهو لا يصدّق عينيه، وجسّ خدّه ثمّ قال:

ـ هٰذا عجيب! خدّي ما زال ملتهبًا. كيف هبطت الحرارة؟

وأتى الدكتور بسمّاعة وطلب إليه أن يفكّ أزرار الجاكتة ففعل.

ووقع بصر الرجل على الفانلّا فبدت على وجهه الدهشة وصاح بسرعة وهو يشير إليها:

ـ انظر!

فأحنى الشابّ رأسه ناظرًا إلى الفانلاّ فرأى فوق القلب دائرة مسودّة من أثر احتراق خفيف، فاستولت عليه الدهشة وجلس في فراشه وهو يتساءل:

ـ ما الذي صنع بي هذا!!.

فضحك الدكتور بصوت عال وقال:

ـ ها أنت ذا تكتشف حمّى جديدة يا دكتور!

وخطر للشابّ فكرة فالتفت إلى المشجب وقفز من الفراش واتّجه نحوها ووضع يده في جيب الجاكتة الأعلى متناولًا غليونه، وفحص الجيب بعينيه فرأى آثار التبغ الذي أكل البطانة وحرق القميص وأثّر هٰذا التأثير في الفانلّا، ووقف مرتبكًا ينظر إلى الدكتور بعينين تسألان الصفح، وقد أحسّ بحرارة جديدة هي حرارة الخجل والارتباك.

وبعد دقائق وجد الشابّ نفسه وحيدًا مرّةً أخرى، وكان ما تزال تعلو شفتيه ابتسامة الارتباك والخجل، ولٰكنّه كان يحسّ بغبطة وسلام، وكان قلبه يشكر اللّه الذي وهبه حياته مرّة أخرى.

وبرّ الشابّ بوعده واعتزم أن يكون إنسانًا قبل كلّ شيء. وعاد إلى عمله تنبض في قلبه أشرف العواطف وأنبلها، وكان يظنّ أنّه سيصمد للتجارب لا ينكص على عقبيه مهما امتدّ به الزمن، ولٰكن واأسفاه إنّ انقضاء الليل والنهار يُنسي، ومن ينغمر في الدنيا يذهل على نفسه، وللحياة جلبة تبتلع همسات الضمير. فقد أخذ يتناسى محنته ودعاءه ووعده حتّى نسي ولم يعد يذكر إلّا عمله ومستقبله وآماله وأطماعه، ثمّ ارتدّ إلى ما كان عليه، وكانت تلك الأيّام القلائل في حياته كهدوء البحر الذي يصفو ويرقّ حتّى يشفّ عن باطنه ثمّ لا يلبث أن تهيجه الرياح والعواصف فيرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. ولعلّه لا يذكر هٰذه الحادثة الآن إلّا كدعابة يتندّر بها ويقصّها على صحبه إذا دعى داعي الحديث أو السمر!

فلفل

في قهوة السعادة أشياء كثيرة تستثير الاهتمام. منها فلفل وهو غلام في الثانية عشرة أو جاوزها بقليل اسمه الحقيقيّ طه سنقر ولكنّه اشتهر بفلفل، وهو يسعى بجمرات النار إلى مدخّني النارجيلة والجوزة من طلوع الصباح حتّى انتصاف الليل. على أنّ الاصطلاحات لا تخلق اعتباطًا فللغلام من اسمه الجديد نصيب. كان خفيف الحركة متحفّز النشاط فما إن يدعى حتّى يندفع نحو داعيه كالنحلة ويقطع النهار كلّه ونصف الليل لا يقرّ له قرار أو يسكت له صوت وقد اشتغل في القهوة منذ عام نظير قرش في اليوم غير جوزة وفنجان شاي يقدّمان له في الصباح ومثلهما بعد الغداء وكان بذلك جدّ سعيد، يتيه فخارًا كلّما ذكر أنّه صار قوامًا على نفسه وصاحب قرش وأخا «كَيف ومزاج». وفوق ذلك لم تكن حياته منحصرة في الحاضر، كان يرمق بعين الطموح ذلك اليوم حين يأذن له «المعلّم» بتقديم النارجيلة والجوزة أسوة بالنار والماء فينتقل من درجة غلام إلى درجة صبيّ ومن يعلم بعد ذلك أين يقف به الترقّي؟! وهو في سبيل طموحه لا يكفّ عن تمرين حنجرته بالهتاف والنداء على الطلبات لأنّ أهمّيّة الحنجرة في القهوة البلدي تضاهي أهمّيّتها في نادي الموسيقى...

ومن أعجب ما رأى فلفل في قهوة السعادة جماعة من طلّاب العلم، تجتذبهم القهوة في أماسيّ العطل والإجازات فيأوون إلى ركن منها يسمرون ويلعبون النرد ويحتسون الشاي والزنجبيل، وكانوا كبقيّة روّاد القهوة من جمهور الشعب الفقير، ولكنّ المدرسة سمت بهم إلى طبقة معنويّة عالية، فانتبذت الكبرياء بهم ركنًا منعزلًا وإن كانوا يرتدون عادة الجلابيب بل وينتعل بعضهم القباقيب. فإذا اجتمع شملهم وفرغوا من احتساء الشاي والزنجبيل قرأ أحدهم جريدة من جرائد المساء وأنصت له الآخرون ثمّ يندفعون إلى المناقشة والتعليق فيحتدم الجدل وتستمرّ المناقشة.

وجاء مساء فاستطاع أن يفهم ما يقولون لأوّل مرّة، بل سرّ به سرورًا لا مزيد عليه، في ذلك المساء قرأ قارئهم - فيما يقرأ - خبر قضيّة رشوة موظّف كبير ثمّ أخذ الصحاب كعادتهم في النقاش والتعليق فقال واحد منهم متحمّسًا:

- هذا واحد أمكن يد العدالة أن تصل إليه مصادفة، ويوجد غيره كثيرون لا ينأى بهم عن غيابات السجون، إلّا أنّ العدالة ما تزال ضالّة عنهم.

وقال آخر أشدّ تطرّفًا وأبعد عن وزن كلامه:

- ليس الداء قاصرًا على الموظّفين، فغيرهم - وأنتم تعلمون من أعني - أفظع وأضلّ سبيلاً. هذا بلد لو أقيم به ميزان العدالة كما ينبغي لامتلأت السجون وخلت القصور!

واستبق الناقدون وتناولوا أسماء كثيرة فمزّقوها إربًا ولوّثوها بكلّ منكر بأصوات مرتفعة لا تبالي شيئًا فقال بعضهم:

- أضرب لكم مثلًا بفلان... أتدرون كيف جمع ثروته الطائلة؟!.

ثمّ جعل يعدّد وسائل الإجرام التي ابتزّ بها أموال الناس كأنّه كان كاتم سرّه أو مرجع رأيه، ثمّ تتابع النقّاد والمشرّحون واختار كلّ شخصيّة من الشخصيّات الكبيرة يروي تاريخها كما يشاء ويكشف عن مثالبها مفتتحًا كلامه بهذه العبارة المثيرة: «وفلان هل تدرون كيف جمع ثروته الطائلة؟!» وما زالوا في حملتهم حتّى

صاح أحدهم غاضبًا:

ـ هٰذا بلد السرقة فيه حلال!.

فهم فلفل هٰذا الحديث فلم يعقه عن فهمه لفظ غريب أو تعبير معقّد، وكان بما يتقن من أنواع القذف والسباب أشبه؛ فطرب أيّما طرب ووافق منه هوًى دفينًا؛ فما أجمل أن يقال إنّ هٰذا بلد لصوص!. ما أجمل أن يقال إنّ السرقة في هٰذا البلد حلال! فهو لص بحكم نشأته تربّى بين أحضان السرقة فعرفها في المهد: فأمّه ـ وهي بائعة دوم ـ تنفق أوقات الفراغ في اصطياد الدجاج الضالّ، أمّا أبوه عمّ سنقر بائع الفول السودانيّ فمولع باختلاس القمصان والسراويل من أسطح البيوت وله في ذٰلك حيل يخطئها الحصر ولٰكن ماذا أفادت أسرته من جهادها؟

وانتهت تلك الليلة بغير ما يحبّ فلفل، فحين عودته إلى بيته، أو إلى الحجرة التي يبيت بها أبواه وأخواته، وجد أمّه لا تزال مستيقظة يعلوها الوجوم والانكسار، وأخواته من حولها باكيات، فانزعج الغلام وتولّاه الخوف ورأته أمّه فقالت له قبل أن يسألها «أخذ الشرطيّ أباك» فأدرك الغلام ما هنالك وتحوّل إلى أخته الكبرى فقالت له إنّهم اتّهموه بسرقة بعض الثياب وساقوه إلى القسم، ثمّ استدركت بعد لحظة سكوت قائلة: إنّهم لن يردّوه قبل أشهر أو أعوام؛ وكان فلفل في العادة لا يلتقي بأبيه إلّا نادرًا؛ لأنّه كان ينام قبل أن يرجع من تجواله، ويخرج إلى القهوة صباحًا قبل أن يصحو. ولٰكنّه على رغم ذٰلك تأثّر بالجوّ الحزين فداخله الحزن وبكى، ثمّ ذكر ما سمعه في المساء فجعل يقول لأمّه إن البلد كلّه لصوص وإنّ السرقة فيه حلال، وقصّ عليها نحوًا عمّا بلغ مسمعيه. فلم ترتح المرأة إلى ثرثرته وأعرضت عنه ونهرته أن يسكت.. ثمّ لطمته على وجهه.. في صباح اليوم الثاني استيقظ فلفل وقد نسي أمس كلّه، وكأنّه ولد من جديد فانطلق إلى القهوة بخطاه الواسعة لا يحمل بين جنبيه همًّا، والواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة يُساق فيها أبوه إلى السجن..

صوت من العالم الآخر

- ١ -

يا إلهي ماذا يعوز هذا القبر من طيّبات الحياة الفانية؟! إنّه قطعة من صميم الحياة حافلة بما لذّ وطاب. لقد حليت جدرانه بصور الجواري والخدم، وفرش بأفخر الأثاث، وأجمل الرياش. وبه ما أشاء من أدوات الزينة والعطور والحلي؛ وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفاكهة، وها هي ذي مكتبتي حملت إليه بمجلّداتها الحكميّة، وما يحتاجه الكاتب من الأوراق والأقلام. هي الدنيا كما عهدتها. ولكن هل ثمّة طعم للدنيا في حواسّي الآن؟! أبيّ حاجة إلى متعة من متعها؟! جهد ضائع ذلك الذي بذله الذين هيّأوا هذه المقبرة. بيد أنّي لا أستطيع أن أنكر أمرًا غريبًا هو أنه ما فتئت نفسي تنازعني إلى القلم. يا عجبًا؟! ما لهذه الأوراق تناديني بسحرها المحبوب؟! ألا يزال بي موضع لم يمح منه الموت مَنازع الضعف والهوى؟ أقضي علينا - معشر الكتّاب - أن تشقى بضاعتنا في الحياتين؟! على أيّة حال لا يزال أمامي فترة انتظار أبدًا بعدها رحلتي الأبديّة. فلأشغل هذا الفراغ بالقلم. فلطالما زان القلم الفراغ الجميل.

ربّاه! ألا زلت أذكر ذلك اليوم الذي فصل بين الحياة والموت من عمري؟! بلى. في ذلك اليوم غادرت قصر الأمير قبل الغروب، بعد عمل شاقّ، تعنّاني فيه الجهد، حتّى قال لي الأمير: «توتي ... كفّ عن العمل ولا تشقّ على نفسك». . وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق الغربيّ في سياحتها الأبديّة إلى عالم الظلام، ولآلئ من أشعّتها المودّعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود. فأخذت في طريقي المعهود متسمّتًا شجرة الجمّيز في طرف القرية الجنوبيّ حيث يقوم بيتي الجميل.

يا آمون المعبود، ما هذا الألم في العظام والمفاصل؟ ليس ما بي أثر من جهد العمل، فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع، ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الإعياء بالقوّة والعزم. أمّا هذا الألم المضني، أمّا هذه الرعشة المزلزلة، فطارئ جديد، امتلأت منه رعبًا. أيكون ذاك الخبيث الذي لا ينزل بجسم حتّى يورده التهلكة؟ انطوِ يا طريق القرية بحسنك فما في جوارحي قوّة تقبس من جمالك. واغربْ يا طير السماء فما في صدر توتي المسكين حنان يناديك. وأخذت في الطريق قلقًا متأوّهًا. وعند عتبة البيت طالعني وجه زوجي رفيقة شبابي وأمّ أبنائي. فهتفت بي: «توتي أيّها المسكين. مالك تنتفض. ما لعينيك مظلمتين. . ؟!» فقلت لها محزونًا مكتئبًا «يا أختاه. . وقع المحظور. . وحلّ الخبيث بجسم زوجك. هيّئي الفراش ودثّريني. ونادي الحكيم والأبناء والأحباب. قولي لهم إنّ توتي على فراشه يضرع إلى ربّه. فاضرعوا معه. واسألوا له الشفاء!» وحملتني التي تهواني على صدرها، وجاء الحكيم يجرّعني الدواء وأشار بإصبعه إلى السماء وقال لي: «توتي. . أيّها الكاتب الكبير! ياخادم الأمير الجليل! أنت في حاجة لرحمة الربّ، فادعه من أعماق قلبك». ورقدت لا حول لي ولا قوّة. يا آمون المعبود جلّت حكمتك! ألم أصحب سيّدي الأمير إلى الشمال في جيوش فرعون؟ ألم أشهد القتال في صحارى زاهي؟ ألم أحضر قادش مع الغزاة البواسل؟ بلى أيّها الربّ ونجوت من الرماة والعجلات والمعارك. فكيف يتهدّدني الموت في قريتي المحبوبة الآمنة بين أحضان زوجي وأمّي وأبنائي؟! وغرقت في أبخرة الحمّى،

واشتدّ الدوار برأسي، وسال بلساني الهذيان، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبي. وما أقساك أيّها الموت! أراك تتقدّم إلى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخريّ، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم، لا تهزّك الدموع، ولا تستعطفك الآمال. تدوس حبّات القلوب، وتتخطّى الأماني والأحلام. ثمّ لا تبدّل سنّتك ولو كان الفريسة في ربيع العمر الزاهر. توفي في السادسة والعشرين ذو بنين وبنات، ألا تسمع؟ ماذا يضيرك لو تركت أنفاسي تتردّد في صدري؟ دعني ريثما أشبع من هٰذه الحياة الجميلة المحبوبة. إنّها لم تسوءني قطّ ولم أزهد فيها أبدًا. أحببتها من أعماق الفؤاد ولا أزال على العهد. كانت الصحّة طيّبة والمال موفورًا والآمال كبارا. ألم تحط بكل أولئك خبرًا؟ ومن حولي قلوب محبّة ونفوس وآلهة، أفلا تنظر إلى الأعين الدامعة؟ كأنّي لم أعش ساعة واحدة في هٰذه الحياة الجميلة المحبوبة. ماذا رأيت من مشاهدها؟ ماذا سمعت من أصواتها؟ ماذا أدركت من معارفها؟ ماذا ذقت من فنونها؟ ماذا جرّبت من ألوانها؟ أيّ فرص ستضيع غدًا؟ أيّ نشوات ستخمد؟ أيّ عواطف ستهمد؟ أيّ المسرّات ستبيد! ذكرت ذٰلك جميعه. ودارت بخلدي أشياء أخرى لا حصر لها ولا حدّ، ما بين مفاتن الماضي وسحر الحاضر وأماني المستقبل. وجرت أمام حواسّي الورود والحقول والمياه والسحاب والمآكل والمشارب والألحان والأفكار والحبّ والأبناء وقصر الأمير وحفلات فرعون والرتب والنياشين والألقاب والفخر والجاه. وتساءلت: أيمضي كلّ هٰذا إلى الفناء؟ وانقبض صدري أيّما انقباض، وامتلأت حزنًا وكمدًا وهتفت كلّ جارحة بي: «لا أريد أن أموت». وتتابعت جحافل الليل. فغلب النوم الصغار. ولبثت زوجي عند رأسي وأمّي عند قدميّ، وانتصف الليل ونحن على حالنا ثمّ استدار وأوغل في الرحيل، ثمّ بهتت ذوائبه بزرقة الفجر. هنالك داخلني شعور غريب بالرهبة وتولّاني إحساس بالخوف. وأطبق السكون وأنذر بشئ خطير، ثمّ شعرت بيد أمّي تدلك قدميّ وتقول بصوت متهدّج: «بنيّ.. بنيّ!» وهتفت زوجي المحبوب: «توتي.. ماذا تجد؟» ولٰكنّي لم أستطع جوابًا. لاشكّ أنّ أمرًا استثار جزعهما. ترى ماذا يكون؟ هل لاح في وجهي النذير؟ وتحوّلت عيناي على غير إرادة منّي نحو مدخل الحجرة. كان الباب مغلقًا بيد أن الرسول دخل. دخل دون حاجة إلى فتح الباب. فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه. واقترب منّي في خطىً غير مسموعة. كان مهيبًا صامتًا مبتسمًا ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحوّل عنه عيناي، ولم أعد أرى من شئ سواه. وأردت أن أضرع إليه ولٰكن لم يطاوعني اللسان. وكأنّي به قد أدرك نيّتي الخفيّة. فازدادت ابتسامته اتّساعًا. فآنست منه رفقًا. ولم أعد أبالي شيئًا. انجابت عنّي وساوس الليل وأحزانه وحسراته. وغفلت عن دموع من حولي، ووجدت نفسي في حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهدها من قبل. سلّمت في محبّة لا نهائيّة وتركت جسمي في المعركة وحيدًا! رأيت ـ دون مبالاة البتّة ـ دمي يقاوم في عروقي. وقلبي يدقّ ما وسعه الجهد، وعضلاتي تنقبض وتنبسط وأنفاسي تتردّد من الأعماق، وصدري يعلو وينخفض. وشعرت بالأيدي الحنون تسند ظهري وتحيط بي. رأيت ظاهري وباطني رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث. وقد تحوّل الرسول عنّي إلى جسمي وأخذ في مباشرة مهمّته في ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجميلتين. وشاهدت نسمة الحياة المقدّسة تذعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر، والدم من ورائها يجمد والأعضاء تهمد والقلب يسكت، حتّى غادرت الفم المفغور في زفرة عميقة. سكن جسمي وصمت إلى الأبد وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد. وغمرني شعور عجيب بأنّي فارقت الحياة، وأنّي لم أعد من أهل الدنيا..

ـ ٢ ـ

غمرني شعور عجيب بأنّي فارقت الحياة، وأنّي لم أعد من أهل الدنيا، ماذا حدث؟! وما الذي تغيّر فيّ؟! ما زلت في الحجرة، والحجرة كما كانت؛ فأمّي وزوجي تحنوان على جسمي، ولٰكن حدث شئ بلا ريب، بل أخطر الأشياء جميعًا، لم أوخذ على غرّة. ولو

كان بي قدرة على الكلام لأجبت زوجي - حين سألتني: «توتي ماذا تجد؟» بأنّي أموت. ولٰكنّي فقدت قدرتي على الكلام وغيره فلم أوخذ على غرّة كما قلت، وشعرت بزورة الموت كما يشعر المضطجع بدبيب الكرى وتخدير النعاس ثمّ رأيته جهرة. والذي لا شكّ فيه أنّ الموت ليس مؤلمًا ولا مفزعًا كما يتوهّم البشر، ولو عرف حقيقته الحيّ لنشده كما ينشد الخمر المعتّقة، وفضلًا عن هٰذا وذاك فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئًا تافهًا حقيرًا إذا ما تخايل في الأفق ذاك النور الإلٰهيّ البهيج. كنت مكبّلًا بالأغلال فانفكّت أغلالي. كنت حبيسًا في قمقم فانطلق سراحي. كنت ثقيلًا مشدودًا إلى الأرض فخلصت من ثقلي وأرسلت وثاقي. كنت محدودًا فصرت بغير حدود. كنت حواسّ قصيرة المدى فانقلبت حسًّا شاملًا كلّه بصر وكلّه سمع وكلّه عقل، فاستطعت أن أدرك في وقت واحد ما فوقي وما تحتي وما يحيط بي، كأنّما هجرت الجسم الراقد أمامي لأتّخذ من الكون جميعًا جسمًا جديدًا. حدث هٰذا التغيير الشامل الذي يجلّ عن الوصف في لحظة من الزمان، بيد أنّي ما برحت أشعر بأنّي لم أغادر الحجرة التي شهدت أسعد أيّام حياتي السابقة. كأنّ العناية وكّلتني بجسمي القديم حتّى ينتهي إلى مستقرّه الأخير، فجعلت أتأمّل ما حولي في سكون وعدم اكتراث. وقد غشي جوّ الحجرة حزن وكآبة، وأخذت أمّي وزوجي تتعاونان على إنامة جسمي - صاحبي القديم - بملابسه المعهودة راقدًا لا حراك به، وقد ابيضّ لونه وشابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه، ونادتا أبنائي والخدم.. وراحوا جميعًا يعولون وينتحبون. ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمدًا وحزنًا وغمًّا. ومضيت أنظر إليهم بعدم اكتراث غريب كأنّه لم تربطني بهم يومًا آصرة قربى! ما هٰذا الجسم الميت؟ لماذا تصرخ هٰذه المخلوقات؟ ما هٰذا الأسى الذي جعل من سحنهم دمامة شوهاء! كلّا لم أعد من أهل هٰذه الدنيا، ولم يردّني إليها صراخ أو بكاء، ووددت لو تنقطع أسبابي بها لأحلّق في عالمي الجديد. ولٰكن واأسفاه، إنّ بقيّة من حرّيّتي لم تزل عزيزة عليّ، أسيرة إلى حين فلآخذ نفسي بالصبر وإنّ شقّ عليّ. وجاءت أمّي بملاءة وسجّت الجثّة ثمّ أخرجت العيال والخدم. وأخذت زوجي من يدها، وغادرتا الحجرة وأغلقتا الباب. لم يغيبا عن ناظريّ لأنّ الجدران لم تعد حائلًا يحجب شيئًا عن بصري، فرأيتهما وهما تغيّران ملابسهما وترتديان السواد، ثمّ اتّجهتا نحو فناء الدار وهمّا تحلّان ضفائرهما وتحثوان التراب على رأسيهما، وخلعتا النعال وهرعتا إلى باب الدار، وانطلقتا تصوّتان وتلدمان، ومضت أمّي تصرخ «واابناه» فتصرخ زوجي «وازوجاه» ثمّ تهتفان معًا: «يا رحمتا لك يا توتي المسكين! خطفك الموت ولم يرحم شبابك» وتركتا الدار على تلك الحال من العويل والنواح، وأخذتا في طريقهما، حتّى إذا مرّتا بأوّل دار تليهما برزت لهما ربّة الدار في ارتياع وصاحت بهما: «ما لكما يا أختي!» فأجابت المرأتان: «خربت الدار، تيتّم الصغار، وثكلت الأمّ، وترمّلت الزوج، يا رحمة لك يا توتي..» فصوّتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت: «واحرّ قلباه.. يا خسارة الشباب.. يا ضيعة الآمال..» وتبعت المرأتين وهي تحثو التراب على رأسها وتلطم خدّيها، وكلّما مررن بدار برزت ربّتها وانضمّت إليهنّ، حتّى انتظم الحشد نساء القرية جميعًا، وتقدّمتهنّ امرأة دربة بالنياحة، فجعلت تردّد اسمي وتعدّد فضائلي، وذهبن يقطعن طرقات القرية باعثات الحزن والأسى في كلّ مكان. هٰذا اسمي تردّده النائحات، ما له لا يحرّكني؟!

أجل، لقد صار الاسم غريبًا غرابة هٰذه الجثّة المسجّاة، وبتّ أتساءل متى ينتهي هٰذا كلّه؟! متى ينتهي هٰذا كلّه؟ وعندما أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثّة إلى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا، ووضعوها على السرير بالحجرة المقدّسة، وكانت الحجرة مستطيلة ذات اتّساع كبير، وليس بها من نافذة إلّا كوّة تتوسّط السقف، وفي الصدر قام السرير وعلى الجانبين رفعت رفوف رصّت عليها أدوات الكيمياء، وفي الوسط - تحت الكوّة - حوض كبير ملئ بالسائل

العجيب، وخرج الرجال فلم يبق إلّا رجلان، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما في فنّهما فأخذا في عملهما دون إبطاء، وقد جاء أحدهما بطست، ووضعه على كثب من السرير، وتعاونا معًا على تجريد الجثّة من ملابسها حتّى بدت عارية لا يحجبها شيء. فعلا ذٰلك في هدوء وعدم اكتراث، ثمّ قال الذي جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدري وذراعي: «كان رجلًا قويًّا.. انظر!»؛ فقال الآخر: «كان توتي من رجال الأمير، يؤاكله ويشاربه، وفضلًا عن ذٰلك، فقد خاض غمار الحروب!» فقال الذي جاء بالطست متحسّرًا: «لو أنّ الأجسام تُعار!»؛ فأجابه الآخر ضاحكًا: «أيّها العجوز، ما جدوى جسد ميت؟!» فقال وهو يهزّ رأسه: «وكان قويًّا حقًّا».

فقال الآخر ضاحكًا وهو يتناول خنجرًا طويلًا حادًّا من أحد الرفوف: «فلنختبر قوّته!» وطعن الجانب الأيسر فيما يلي الصدر بخنجره. حتّى غاب نصله، وشقّه حتّى أعلى الفخذ، وأعمل في الداخل يده بمهارة ودربة، ثمّ استخرج الأمعاء والمعدة، وأودعهما الطست، وقفاهما بالكبد والقلب، فسرعان ما رأيت باطني جميعًا، ولم يستغرق ذٰلك إلّا دقائق معدودة، فالرجل من مهرة المحنّطين الذين أتقنوا عملهم أيّما إتقان، ورحت أنظر إلى باطني بعناية، وبخاصّة إلى معدتي التي عرفت بقوّتها ونشاطها، ولم يَحُلْ غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوّة السحريّة التي اكتسبها بصري، فرأيت فيها مضغ الأوزّة والتين وبقايا النبيذ التي تناولتها على مائدة الأمير مساء الأمس، وذكرت قوله حين عزم عليّ بالطعام: «كلْ يا توتي واشرب، وتمتّع بالحياة أيّها الرجل الأمين!».. رأيت وذكرت دون أن يعروني أيّ أثر أو انفعال، ودون أن يزايلني عدم الاكتراث العجيب، ثمّ حوّلت بصري إلى قلبي فرأيت عالمًا حافلًا بالعجائب، رأيت بشغافه آثار الحبّ والحزن والسرور والغضب، وصور الأحبّة والرفاق والأعداء، وقد ترك الهيام بالمجد به فجوة عمّقها ما خضت من معارك في بلاد زاهي والنوبة، ولاحت على رقعته مشاهد مروّعة لميادين القتال، وأجزاء ملتهبة دامية من أثر ذٰلك الطمع العنيف الذي بعثني للكفاح بلا رحمة حتّى ضممت إلى أرض أسرتي قطعة أرض تجاورها نازعني عليها جار بضع سنين. رأيت فيه جلّ حياتي وما عانيت من الأهواء، أمّا الرجل فمضى في عمله يحدوه الهدوء، والمران، فأتى بكلّاب دقيق وأولجه في أنفي باحتراس حتّى تمكّن من هدفه، ثمّ وجّهه بدراية وعنف وجذبه بسرعة، فسال مخّي الكبير من منخريّ مادّة رخوة تذرو في الهواء ما تجمّع فيها من لوامع الفكر ولآلي الآمال ودخان الأحلام. هٰذه أفكاري منقوشة أمام عينيّ، فإذا قارنتها بنور الحقّ الذي يتخايل لروحي بدت تافهة مشوّهة، لقد قاتلها المثوى الذي أوت إليه: رأسي ومخّي. ها أنذا أقرأ القصيدة التي صغتها في وصف قادش! وها هي ذي الخطب التي ألقيتها بين يدي الأمير في المناسبات المختلفة، وهٰذه آرائي في آداب السلوك، وهٰذه الحكم التي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب قاقمنا! كلّ أولٰئك أزاحه الرجل مع فتات المخّ فاستقرّ بين الأمعاء والمعدة في الطست الدامي، غير ما تناثر على الأرض فداسته الأقدام. قال الحكيم وهو يعيد الكلّاب إلى موضعه: «الآن صارت الجثّة نظيفة!» فقال صاحبه ضاحكًا: «ليتك تجد بعد موتك يدًا ماهرة كيدك!» وحمل الحكيمان ما تبقّى من جسمي إلى الحوض الكبير، وأناماه فيه، فامتلأ بالسائل الساحر وغرق فيه، ثمّ غسلا أيديهما وغادرا المكان، وقد أدركت أنّ الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يومًا ـ مدّة التحنيط ـ فمسّني الجزع. وقع في نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم لألقي عليه نظرة الوداع..

ـ ٣ ـ

استرق إلى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم فانطلقت، لم تحدث حركة في الواقع. وإنّما كان يكفي أن يتّجه فكري إلى شيء حتّى أجده ماثلًا أمامي، بل الواقع أعظم من ذٰلك؛ فقد صار بصري شيئًا عجيبًا، لا يعصي أمره شيء، صار قوّة خارقة تشقّ الحجب

وتتخطّى السدود، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق. بيد أنّي - وقد حمّ الوداع - نازعني الفكر إلى أهلي فوجدت نفسي في داري. أمّا الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه مكدّر. وأمّا زوجي وأمّي فقد افترشتا الأرض، ولاح في وجهيهما الهمّ والغمّ. لشدّ ما أعياهما الحزن والبكاء! وغدًا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مثواه الأبديّ. وقد تغلغل روحي في فؤاديهما فتحرّك رأساهما وتمثّلت لهما في الأحلام، ورأيت القلبين المحزونين يخفقان في كمد وألم، فيم كان كلّ هذا الكدر؟! بيد أنّ شيئًا استرعى بصري! رأيت في سويداء القلبين نقطة بيضاء. فعرفتها - فما عاد يخفى عليّ علم شيء - فهي بذرة النسيان! آه.. ستكبر هٰذه النقطة وتنتشر حتّى تشمل القلب كلّه. أجل أدركت هٰذا حقّ الإدراك، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشيء، وتساءلت مسوقًا بلذّة المعرفة متى يمكن أن يحدث هٰذا؟ فأرتني عيناي العجيبتان صورة من المستقبل: رأيت أمّي تمسك غلامًا بيمناها وتشقّ طريقها وسط زحام شديد ملوّحة بزهرة اللوتس. فعلمت أنّها خرجت - أو أنّها ستخرج - للمشاركة في أسعد أعياد قريتنا، عيد الإلٰهة إيزيس، كان وجهها متهلّلاً وكان ابني يهتف ضاحكًا. ورأيت زوجي تهيّئ مائدة - والطعام خير ما تصنع في دنياها - وتدعو إليها رجلًا أعرفه، فهو ابن خالها ساو، ونِعْم الزوج هو. ولو أنّ ميتًا يُسَرّ لسررت لها، لأنّ ساو رجل فاضل، وهو خير مَن يسعد زوجي ويرعى أبنائي. وانصرفت روحي عن داري، فمرّت في سبيلها بقصر أميري المحبوب، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسّفًا لفقدي وهو الذي قدّرني أجل التقدير وجازاني خير الجزاء. ووجدته مشغولًا باختيار خلف لي، فقرأت في ذاكرته اسم المرشّح الجديد «آب رع» وكان من مرؤوسيّ النابهين وإن لم تتّصل بيننا أسباب المودّة.

كلّ هٰذا جميل. ولٰكن الإلٰهَ أبقى في قريتي واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيّين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام. رأيت منف - في لمح البصر - تعجّ بجمهورها الحاشد، والقصر في أروع منظر. وقد اجتمع في بهو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقوّاد. هٰؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد. وهٰذا فرعون المظفّر يحدّث رسول الحيثيّين الجبابرة في جوّ بالمودّة عامر. أمّا صدر الملك فقد امتلأ احتقارًا، وتردّدت بأعماقه هٰذه العبارة: «لا بدّ ممّا ليس منه بدّ» وأمّا صدر الرسول فقد بضّ كراهية، وتحيّرت به هذه الفكرة: «صبرًا حتّى يموت هٰذا الملك القويّ». ونشطت عيناي، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون. رأيت عالَمي الظاهر والباطن بغير حجاب. وتسلّيت زمنًا بتفحّص ما في البطون من طعام فاخر وشراب معتّق، حتّى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم! وهما محرّمان على الكهنة. وتساءلت: ترى كيف غافلَ هذا الرجل الورع أقرانه ودسّ هذا الطعام في جوفه؟! ولمحت في ناحية من معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذي أودى بحياتي، وكان الرجل يحاور قائدًا في سرور وانشراح فقلت له في نفسي: «على الرحب والسعة!». ثمّ وقع بصري على الحاكم تيتي الذي اشتهر بالقسوة والبطش حتّى ليوالي فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه، فنظرت إليه بإمعان وسرعان ما تكشّف لي عن جسم مهزول، مريض الأعضاء، لا يفتأ يشكو مرّ الشكوى أسنانه ومفاصله. وكلّما ألحّ عليه الألم تمنّى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه. ولذٰلك تملّكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردّد عن بتر المعوجّ من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة. وإلى جانب تيتي شاهدت الوزير مينا، ذٰلك الرجل العنيد الذي حارب فكرة الصلح بكلّ قواه، وطالما حرّض على القتال، وتساءلت: ترى ما سِرّ عناد هٰذا الوزير الخطير؟! رأيت عقله نيّرًا ولٰكنّ أمعاءه ضعيفة فستبقى فضلات الطعام طويلًا فتلوّث دمه في دورته فيذهب إلى عقله فاسدًا ويغشى نور أفكاره، حتّى إذا خرجت من فمه كانت ذات شرّ كبير! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحًا مستقيمًا كما أرى مخّه مسودًّا ملوّثًا! ثمّ دار بصري بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء بسمات الثغور. هٰذا صدر ثقل عليه الملل فهمس صاحبه: «متى العودة إلى القصر حيث السماع

والقيان؟» وهٰذا صدر يتوجّع قائلًا: «لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائدًا على فرقة الرماح!» وذاك صدر يقول في جزع متسائلًا: «متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشيّة فأهرع إلى زوجه الحسناء المحبوبة... آه..» وقال صدر لصاحبه من الأعماق: «لا يدري إنسان متى يحين الأجل. فلا يجوز بعد اليوم أن أؤخّر بناء مقبرتي. أو فما فائدة المال إذن؟!» وتولّت الحيرة صدرًا كبيرًا فجعل يقول لصاحبه: «قال أخناتون إنّ الربّ هو آتون. وقال حار محبّ إنه آمون. وهناك قوم يعبدون رع فلماذا يتركنا الربّ في شقاق؟» ولم أواصل الاستطلاع طويلًا في هٰذا الحفل الفرعونيّ الجليل إذ سرعان ما أدركني الملل. فتحوّلت عنه ووجدت نفسي مرّة أخرى في الدنيا الواسعة.

ومرّت أمام ناظريّ مشاهد كثيرة من الأرض والسماء، لمست حقائقها جهرة، ونفذت إلى صميمها. حتّى وقع البصر على جنين يتكوّن في رحم، فرأيته يكتسي لحمًا وعظمًا. وشهدت مولده. وجرى البصر معه في المستقبل فرآه طفلًا وصبيًا وغلامًا وشابًا وكهلًا وشيخًا وميتًا. وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحّة ومرض وحبّ وملل. رأيت ذٰلك جميعه في دقيقة من الزمان. حتّى يختلط في أذنيّ بكاء الميلاد وشهقة الموت! وغلبتني على أمري رغبة جامحة في اللعب فسايرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى المات. واستلذّذت كثيرًا وقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن! فهٰذا وجه يضحك ويقطّب ثمّ يضحك ويقطّب عشرات المرّات في جزء من الثانية! وهٰذه امرأة تتيه حسنًا وتعشق وتتزوّج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمج في لحظة من الزمان! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن. هٰذا وغيره ممّا لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة. فلو أنّ ميتًا يضحك لأغرقت في الضحك، وبدا لي كأنّه لا حقيقة في العالم إلّا التغيّر! رغبت نفسي عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصري. ورنوت إليهم من بعيد جمعًا غفيرًا لا يحدّه شيء. تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت الفوارق. فصاروا كتلة واحدة. ساكنة صامتة. لا حياة فيها ولا حركة. رحت ألقي البصر في دهشة وحيرة حتّى ألفت المنظر. فتكشّف لي عن جانب جديد كان من قبل خافيًا.

رأيت ذاك الظلام الساكن يشعّ نورًا شاملًا؛ فإنّ الأنوار الخافتة المتهافتة التي تخفق في كلّ مخّ - على حدة - ضعيفة خابية، اتّصلت في المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نورًا قويًا باهرًا. رأيت في لمعتها حقًّا باهرًا وخيرًا صافيًا وجمالًا متألّقًا فازددت دهشة وحيرة. ربّاه لشدّ ما تعاني الروح وتتعذّب ولٰكنّها تبدع وتخلق على رغم كلّ شيء. ربّاه لقد رأى توتي أمورًا جليلة وليرينّ أمورًا أجلّ وأخطر. وأيقنت أنّ ذٰلك النور الذي بهرني إنْ هو إلّا نقطة من السماء التي سأعرّج إليها. وغضضت البصر وولّيت الدنيا ظهري فوجدت نفسي في حجرة التحنيط المقدّسة، وقد ملأ روحي سرور إلٰهيّ لا يوصف..

وانتهت أيّام التحنيط السبعون. فجاء الرجال مرّة أخرى، واستخرجوا الجثّة من الحوض وأدرجوها في الأكفان، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتي الشابّ ووضعوا فيه الجثّة، ثمّ رفعوه إلى أعناقهم وساروا به إلى الخارج، فتلقّاه المشيّعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم، وعاد النواح كأفظع ممّا كان يوم النعي، وذهبوا إلى شاطئ النيل وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الأبديّة على الشاطئ الغربيّ، والتفّوا بالتابوت يصوّتون وينوحون: قالت أمّي: «لا جفّ لي دمع، ولا اطمأنّ لي قلب من بعدك يا توتي!». وصاحت زوجي: «لماذا قضي عليّ بأن أعيش بعدك يا زوجي!».

وقال حاجب الأمير: «توتي أيّها الكاتب المجيد. لقد تركت مكانك شاغرًا!».

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكّرتا لماضيهما، وكأنّ سببًا لم يصلني بهٰذه الدنيا، ولا بهٰؤلاء الناس، ورست السفينة إلى الشاطئ فرفعوا التابوت مرّة أخرى، ومضوا به إلى المقبرة التي أنفقت في تشييدها

جلّ ثروتي، وأحلّوه موضعه من الحجرة. وفي أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى يلقّنونني التعاليم الهادية من أقوم سبيل؟ ثمّ جعلوا ينسحبون تباعًا حتّى خلا القبر، ولم يعد يسمع من شيء إلّا العويل الآتي من بعيد. وأغلقت الأبواب وهيلت عليها الرمال، فانقطعت كلّ صلة بين العالم الذي ودّعت، والدنيا التي أستقبل..

* * *

ملاحظة: هنا انقطعت الكتابة في المخطوط الهيروغليفيّ، ولعلّ فترة الانتظار التي أشار إليها الكاتب في أوّل كتابته كانت قد انتهت. ولعلّ رحلته الأبديّة كانت قد بدأت، فشغل بها عن قلمه المحبوب، وعن كلّ شيء.

عَبَثُ الأقْدار

-١-

جلس صاحب العظمة الإلْهيّة والهيبة الربّانيّة «خوفو بن خنوم» على أريكته الذهبيّة، بشرفة مخدعه التي تطلّ على حديقة قصره المترامية الغنّاء - جنّة منف الخالدة ذات الأسوار البيضاء - بين رهط من أبنائه وخاصّته المقرّبين، وكانت عباءته الحريريّة تلمع حاشيتها الذهبيّة تحت أشعّة الشمس التي بدأت برحلتها نحو الغرب، وكانت جلسته هادئة وديعة، فكان يسلّم ظهره إلى وسادة محشوّة بريش النعام، ويتّكىء مرفقه على نُمْرُقَة ذات غطاء من الحرير المنمنم بالذهب، وقد تجلّت آي عظمته في جبهته العالية ونظرته الرفيعة، ونبدّت قوّته الخارقة في صدره الواسع وساعديه المفتولين وأنفه الأشمّ، فأحاطت به مهابة من سنّ الأربعين، وهالة من مجد الفراعنة.

وكان يقلّب عينيه الثاقبتين بين أبنائه وصحابته، ويرسل بناظريه إلى الأمام حيث يغيب الأفق خلف رءوس النّخيل والأشجار، أو ينحرف بها ذات اليمين فيشهد عن بعد تلك الهضبة الخالدة التي يرقب مشرقها أبو الهول العظيم، ويسكن جوفها رفات الآباء والأجداد، ويملأ سطحها مئات الألوف من الخلق يزيلون كثبانها ويشقّون صخورها، ويحفرون الأساس الهائل لهرم فرعون، الذي أراد أن يجعله آية للناس على كرّ الأيّام وتوالي الأزمان.

وكان فرعون يحبّ تلك الجلسات العائليّة التي تعفيه من أثقال الرسميّات، وترفع عن كاهله أعباء التقاليد، فيغدو فيها أبًا رفيقًاوصديقًا ودودًا، ويخلص وصحبه إلى النجوى والحديث، ويطرقون تافه المواضيع وهامّها، فتلوك ألسنتهم الفكاهات وتبرم الأمور وتقرّر المصائر.. في ذلك اليوم المدرج في طوايا الزمان - الذي أرادت الآلهة أن تجعله مبدأ لقصّتنا - بدأ الحديث بالهرم الذي شاء خوفو أن يقيمه مثوًى لخلده ومستقرًّا لجثمانه. وكان ميرابو، المعمار النابغة الذي تسنّمت به مصر ذروة المجد الفنّيّ، يتولّى شرح عمله المجيد لمولاه الملك فأسهب في تبيان دلائل العظمة المرجوّة لذيّاك العمل الخالد الذي يشرف على بنائه وابتكار خططه. ومضى الملك يستمع إلى صديقه الفنّان، ثمّ ذكر السنوات العشر التي تقضّت على البدء في العمل فلم يخف تململه، وقال للفنّان:

- أيْ ميرابو العزيز، إنّي مؤمن بنبوغك، ولكن حتّامَ تستنظرني؟ إنّك لا تفتأ تحدّثني عن عظمة الهرم الذي لم أر من بنيانه مدرجًا واحدًا، وقد مضت على بدء العمل عشرة أعوام طوال حشدت لك فيها الملايين من الرجال الأشدّاء وعبّأت لك خير الكفايات الفنّيّة من شعبي العظيم، ومع ذلك فلا أرى لذاك الهرم الموعود أثرًا على ظهر الأرض، وكأنّي بهاتيك المصاطب التي تحفظ أجساد أصحابها، ولم تكلّفهم عشر معشار ما نكلّف أنفسنا، تسخر من جهدنا الضائع وعملنا العابث.

فبدا الجزع على وجه ميرابو الأسمر الأقتم، وارتسمت تجاعيد الارتباك على جبهته العريضة، وقال بصوته الرفيع الناعم:

- مولاي! حاشى أن أصرف الوقت عبثًا أو أضيّع الجهد لعبًا، فإنّي لمقدّر التبعة التي تحمّلتها حين أخذت على نفسي موثقًا أن أشيّد لفرعون مثوى خلده، وأن أجعله آية للناس تنسيهم ما تقدّم من آيات مصر وعجائبها. ونحن لم نُضع الأعوام العشرة عبثًا بل صنعنا فيها ما تعجز عن صنعه الجبابرة والشياطين، فشققنا في الصخر الجلمود مجرى ماء يصل ما بين النيل وهضبة الهرم، وقطعنا من الجبل صخورًا شاهقة

كالتلال وسوّيناها فكانت في أيدينا أطوع من العجين.. ونقلناها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، فانظر يامولاي إلى السفن كيف تمخر النهر حاملة أكوام الصخور كأنّها جبال عالية تسيّرها تعاويذ ساحر جبّار.. وانظر إلى العمّال المنهمكين كيف يكبّون على أرض الهضبة كأنّ ظاهرها انشقّ عمّن يحتويهم منذ آلاف السنين!

فابتسم الملك وقال متهكّمًا:

ـ يا عجبًا.. أمرناك أن تشيّد لنا هرمًا فشققت نهرًا. فهل تظنّ مولاك ملكًا على الأسماك؟

وضحك الملك وابتسم الصحابة، إلّا الأمير رعخعوف وليّ العهد، فقد جدّ في الأمر، وكان على حداثة سنّه جبّارًا صارمًا شديد القسوة ورث عن أبيه جبروته دون رقّته، فقال يسأل الفنّان:

ـ الحقّ أنّي أعجب لتلك السنين التي ذهبت في التمهيد والتحضير، وقد علمت أنّ هرم المقدّسة روحه الملك سنفرو بلغ كماله في أقلّ من هذا العهد الطويل..

فوضع ميرابو يده على جبهته وقال بأدب جمّ:

ـ ها هنا يا صاحب السموّ الملكيّ يسكن عقل عجيب دائب على الثورة، نزّاع إلى الكمال، خلّاق للمثل العليا، وقد أبدع لي بعد جهد جهيد خيالاً جبّارًا أنا باذل روحي لتجسيمه وتحقيقه، فصبرًا يا صاحب الجلالة.. وصبرًا ياصاحب السموّ!

وساد الصمت لحظة لـمّا شاع في الجوّ نغم موسيقا الحرس الفرعونيّ، التي كانت تتقدّم فريقًا من الحرس إلى أماكن حراستهم وتعود بإخوانهم إلى الثكنات، وكان فرعون يفكّر في كلام ميرابو، فلمّا خفتت أصوات الموسيقا نظر إلى وزيره خوميني كاهن المعبود بتاح ربّ منف، وسأله والابتسامة الجليلة لا تفارق شفتيه:

ـ هل الصبر من شِيَم الملوك يا خوميني؟

. فتخلّل الرجل لحيته بأنامله وقال بصوته الهادىء:

ـ مولاي، يقول فيلسوفنا الخالد قاقمنا وزير الملك حوتي: إنّ الصبر ملاذ الإنسان من القنوط ودرعه ضدّ الشدائد.

فضحك فرعون وسأله:

ـ هذا ما يقول قاقمنا وزير الملك حوتي.. فما عسى أن يقول خوميني وزير الملك خوفو؟

فبدا التفكير على وجه الوزير الخطير وتأهّب للكلام. ولكنّ الأمير رعخعوف لم يمهله حتّى يتكلّم، وقال بحماس أمير في العشرين من عمره:

ـ مولاي إنّ الصبر فضيلة كما قال الفيلسوف قاقمنا، ولكنّه فضيلة لا تليق بالملوك، لأنّ الصبر تحمُّل للأرزاء وإذعان للشدائد، وعظمة الملوك في التغلّب لا في التصبّر، وقد عوّضتهم الآلهة عن الصبر فضيلة القوّة.

فاعتدل فرعون في جلسته، ولمعت عيناه لمعانًا خاطفًا لولا الابتسامة المرسومة على شفتيه لكان قضاء مبرمًا، ومضى يتذكّر ماضي حياته على ضوء هذه الفضيلة مليًّا، ثمّ قال بصوت حماسيّ كرّ به من الأربعين إلى ذروة العشرين:

ـ ما أجمل قولك يابنيّ، وما أسعدني بك! حقًّا إنّ القوّة فضيلة الملوك بل فضيلة الناس كافّة لو يعلمون.. لقد كنت أمير ولاية صغيرة ثمّ خلقت ملكًا من ملوك مصر، وما سما بي من الإمارة إلى العرش إلّا القوّة، وكان الطامعون والمتمرّدون والحاقدون لا يفتأون يتربّصون بي الدوائر ويتحفّزون للقضاء عليّ، فما أشلّ ألسنتهم وقطع أيديهم وأذهب ريحهم إلّا القوّة. وهمّ النوبيّون مرّة بشقّ عصا الطاعة، وزيّن لهم الجهل التمرّد والعصيان، فهل كسر شوكتهم وألزمهم الطاعة إلّا القوّة؟ بل ما الذي رفعني إلى مرتبة القداسة فجعل كلمتي قانونًا نافذًا ورأيي حكمة إلهيّة وطاعتي عبادة؟ أليست هي القوّة؟

هنا بادر الفنّان ميرابو يقول كأنّه يكمل حديث الملك.

ـ والألوهيّة يامولاي؟

فهزّ فرعون رأسه استهانة وسأله:

ـ وما الألوهيّة ياميرابو؟ إنْ هي إلّا قوّة.

قال المعمار بثقة وطمأنينة:

ـ ورحمة ومحبّة يامولاي.

فقال الملك وهو يشير بسبّابته إلى الفنّان:

ـ هكذا أنتم أيّها الفنّانون! تروّضون الصخور العاتيات وقلوبكم أندى من نسيم الصباح. وما أحبّ أن أجادلك، ولكنّي ألقي عليك سؤالًا ستجد في الجواب عليه فصل الخطاب: إنّك يامِيرابو تخالط ـ منذ عشرة أعوام ـ جيوش هٰؤلاء العمّال الأشدّاء، وإنّك لذٰلك حقيق بأن تطّلع على خبايا ضلوعهم وما تختلج به نفوسهم في السرّ والنجوى.. فما الذي تظنّ أنّه يلزمهم طاعتي ويصبّرهم على أهوال العمل؟ قل الحقّ صراحة يامِيرابو..

فصمت المعمار ساعةً يُعمل فكره ويدعو الذكريات. وقد اتّجهت إليه الأنظار في اهتمام شديد، ثمّ قال بتؤدة بلهجته الطبيعيّة المفعمة حماسةً ويقينًا:

ـ العمّال يامولاي طائفتان: طائفة الأسرى والمستوطِنين، وهؤلاء لايدرون ماذا يفعلون، ويروحون ويغدون بلا شعور سامٍ كما يدور الثور حول الساقية، ولولا قسوة العصا ويقظة الجند ما وقفنا لهم على أثر.

أمّا طائفة المصريّين، وأغلبيّتهم من مصر العليا، فهم أناس ذوو عزّة وكبرياء وجَلَد وإيمان، تحمّلهم للعذاب عجيب وصبرهم على الشدائد صارم، وهم يعلمون ماذا يفعلون، وتؤمن قلوبهم بأنّ العمل الشاقّ الذي يهبونه حياتهم واجب دينيّ جليل وزلفى للربّ المعبود، وطاعة لعنوان مجدهم الجالس على العرش، فمنحتهم عبادة، وعذابهم لذّة، وتضحياتهم الجبّارة فرض لإرادة الإنسان السامي على الزمان الخالد.. تراهم يامولاي في وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس المحرقة يضربون الصخر بسواعد كالصواعق وعزائم كالأقدار، وهم ينشدون الأغاني ويترنّمون بالأشعار.

فانبسطت أسارير السامعين وسرت في دمائهم نشوة الفرح والفخار، وتبدّى الرضا على قسمات فرعون البارزة القويّة، وقام عن أريكته ـ وقد بعث قيامه الجالسين قيامًا ـ وسار في الشرفة الواسعة على مهل واتّزان حتّى بلغ حافتها الجنوبيّة، وألقى النظر بعيدًا إلى تلك الهضبة الخالدة التي ترسم على رقعتها المقدّسة خطوط العمّال الطويلة، وتأمّل منظرها الجليل ومشهدهم الرائع. أيّ مجد وأيّ جلال! أيّ عذاب وأيّ جهاد في سبيله هو! هل ينبغي أن تشقى ملايين النفوس الشريفة من أجل مجده! هل ينبغي أن يولي ذلك الشعب النبيل وجهه قبلة واحدة هي سعادته هو؟

كان ذلك الوسواس هو القلق الوحيد الذي يضطرب أحيانًا في ذٰلك الصدر المليء بالقوّة والإيمان، مثله كمثل قطعة من السحاب التائه في سماء زرقاء صافية، وكان يعذّبه ـ إذا اضطرب ـ فيضيق به صدره وينغّص عليه صفوه وسعادته. وقد اشتدّ به العذاب فولّى الهضبة ظهره وطالع صحابته بوجه غاضب دهشوا له، وطرح عليهم هٰذا السؤال:

ـ من الذي ينبغي أن تبذل حياته لصاحبه؟ الشعب لفرعون أم فرعون للشعب؟!

فوجموا جميعًا واستولى عليهم الارتباك، وكان القائد أربو أربطهم جأشًا، فقال بصوته القويّ النبرات:

ـ إنّنا جميعًا ـ شعبًا وقادة وكهنة، فداء لفرعون!

وقال الأمير حرسادف أحد أبناء الملك بحماس شديد:

ـ والأمراء أيضًا.

فابتسم الملك في غموض ولبث القلق واضحًا على وجهه الجليل، فقال وزيره خوميني.

ـ مولاي صاحب الجلالة الربّانيّة! لماذا تفرّقون بين ذاتكم العالية وبين شعب مصر وأنتم منه كالرأس من القلب والروح من الجسد؟ إنّكم يامولاي عنوان مجده وآي فخاره وحصن عزّته ووحي قوّته، ولئن وهبكم حياته فإنّما يهبها لمجده وعزّته وسعادته، وما في هذه المحبّة ذلّ أو عبوديّة، إنْ هي إلّا وفاء جميل وحبّ عتيد ووطنيّة سامية.

فابتسم الملك ارتياحًا، وعاد بخطًى واسعة إلى الأريكة الذهبيّة وجلس فجلس القوم، ولم يكن الأمير رعخعوف وليّ العهد بمرتاح إلى وساوس والده فقال له:

ـ لماذا تكدّرون صفوكم يامولاي بأمثال هذه الوساوس؟ لقد وليت الحكم بمشيئة الآلهة لا بإرادة

إنسان، ولك أن تحكم الناس كيف تشاء لا تُسأل عمّا تفعل وهم يُسألون!

فقال خوفو:

ـ أيّها الأمير، إنّ أباك إذا تفاخرت الملوك يقول «أنا فرعون مصر».

ثمّ تنهّد بصوت مسموع وقال وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ إنّ كلام رعخعوف حريّ بأن يوجّه إلى حاكم ضعيف لا إلى خوفو الجبّار.. خوفو فرعون مصر.. وما مصر إلّا عمل عظيم لا تقام لبناته إلّا على تضحيات الأفراد، وما قيمة حياة الفرد؟ إنّها لا تساوي دمعة جافّة لمن ينظر إلى المستقبل البعيد والعمل المجيد.. لهذا أقسو دون تردّد، وأضرب بيد من حديد، وأسوق مئات الألوف إلى الشدائد لا لبلادة طبع أو تحكّم أثره، وكأنّ عينيّ تنفذان خلل سجف الأفق فتطلعان على مجد هذا الوطن المنتظر. لقد اتّهمتني الملكة مرّة بالقسوة والظلم. كلّا، ما خوفو إلّا حكيم بعيد النظر، يرتدي جلد نمر مفترس ويخفق في صدره قلب ملاك كريم.

وساد صمت طويل. وكان الصحابة يمنّون أنفسهم بسمر طريف ينسيهم أثقال تبعاتهم الجسام، وكانوا جميعًا يرجون أن يقترح عليهم الملك رياضة جميلة أو يدعوهم إلى مجلس شراب وغناء بعد أن شبعوا من أحاديث الأعمال والمهامّ، ولكنّ الملك كان في تلك الأيّام يشكو من ملل أوقات الفراغ على قصرها وندرتها، فلمّا علم أنّه قد آن له أن يستريح وأن يلهو ران على قلبه السأم، ونظر إلى صحبه في حيرة، وقد قال له خوميني:

ـ هل أملأ لمولاي كأسًا من الشراب؟

فهزّ فرعون رأسه وقال:

ـ شربت اليوم وشربت بالأمس..

فقال أربو:

ـ هل ندعو العازفات يامولاي؟

فقال بملل:

ـ إنّي أستمع إلى موسيقاهنّ صباح مساء.

فقال ميرابو:

ـ ما رأي مولاي في الخروج إلى الصيد؟

فقال الملك بنفس اللهجة:

ـ شبعت من صيد البر والبحر.

ـ إذًا فهل من سَيْر بين الأشجار والأزهار؟

فقال:

ـ وهل في الوادي مشهد جميل لم أره؟

وساءت شكوى الملك خلصائه وتكدّرت نفوسهم، إلّا الأمير هورداديف فإنّه كان يدّخر لوالده مفاجأة سارّة لا عهد له بها، فقال:

ـ أبي الملك، إنّي أستطيع أن أقدّم بين يديك لو تشاء ساحرًا عجيبًا يعلم الغيب ويميت ويحيي، ويقول للشيء كن فيكون.

فصمت فرعون ولم يسارع هذه المرّة إلى الرفض والتململ، ونظر إلى ابنه باهتمام. وكان الملك يسمع كثيرًا عن أخبار السحرة ومعجزاتهم، ويتسلّى بما يروى عن نوادرهم، فسرّه أن يوعد برؤية واحد منهم محضرًا بين يديه، وسأل ابنه:

ـ ومن هو هذا الساحر أيّها الأمير هورداديف؟

فقال الأمير:

ـ هو الساحر ديدي يامولاي، وقد بلغ من العمر مائة عام وعشرة ولايزال محتفظًا بقوّة الشباب وفتوّة الصبا، وله قدرة عجيبة يتسلّط بها على الإنسان والحيوان، وبصيرة نافذة تهتك حجب الغيب.

فازداد اهتمام الملك وسرى عنه الضيق والملل وقال:

ـ هل تستطيع أن تأتي به الآن؟

فقال الأمير بفرح:

ـ أمهلني دقائق يامولاي.

ثمّ قام واقفًا وحيّا والده بانحناءة طويلة، وذهب ليحضر الساحر العجيب..

ـ ٢ ـ

وبعد حين قليل رجع الأمير هورداديف يسير بين يدي رجل طويل القامة عريض المنكبين، حادّ البصر نافذ النظرات، يكلّل رأسه شعر أبيض هشّ وتغطّي

صدره لحية كثّة، وقد تلفّع بعباءة فضفاضة وتوكّأ على عصًا طويلة غليظة، وانحنى الأمير وقال:

ـ مولاي! أقدّم بين يديك عبدك القانت الساحر ديدي.

فسجد الساحر بين يدي الملك وقبّل الأرض بين قدميه، ثمّ قال بصوت ذي نبرات مؤثّرة خفقت لوقعه القلوب:

ـ مولاي ابن خنوم، نور الشمس المشرقة وربّ العالمين، دام له المجد وحلّت به السعادة!

فرعاه الملك بالعطف وأجلسه على كرسيّ قريب منه، وقال له:

ـ كيف لم أرك من قبل وقد سبقتني إلى نور هٰذه الدنيا بسبعين عامًا؟

فأجابه الساحر المعمّر بامتنان قائلًا:

ـ وهبك الربّ الحياة والصحّة والقوّة، إنّ مثلي لا يحظى بالمثول بين يديك إلّا إذا دعوته.

فابتسم الملك، ثمّ نظر إليه باهتمام وسأله:

ـ أحقًّا أنّ لك معجزات يا ديدي؟ أحقًّا أنّك تستطيع أن تذعن لإرادتك الإنسان والحيوان، وأن تجلوَ عن وجه الزمان غشاوة الغيب؟

فأحنى الرجل رأسه حتّى انثنت لحيته على صدره، وقال:

ـ هذا حقّ وصدق يا مولاي.

فقال الملك:

ـ أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات يا ديدي.

وجاءت الساعة الرهيبة، فاتّسعت العيون وبدا الاهتمام على الوجوه، ولم يبادر ديدي إلى عمله ولٰكنّه جمد مليًّا كأنّما تحوّل إلى تمثال، ثمّ ابتسم عن أنياب حادّة وألقى نظرة سريعة على الوجوه.

وقال للملك:

ـ عن يميني يخفق قلب لا يؤمن بي.

فدهش الصحابة وتبادلوا نظرات الحيرة، وسرّ الملك لفراسة الساحر وسأل رجاله قائلًا:

ـ هل من بينكم من ينكر على ديدي معجزاته؟

وهزّ القائد أربو منكبيه استهانة، وتقدّم بين يدي الملك وقال:

ـ مولاي، إنّي لا أومن بألاعيب السحر. وأرى أنّها نوع من المهارة يحذقه المتفرّغون له.

فقال الملك:

ـ ما جدوى الكلام وأمامنا الرجل؟ هاتوا له أسدًا مفترسًا نطلقه عليه، ولنر كيف يروّضه بسحره ويذعنه لإرادته.

ولٰكنّ القائد لم يقتنع وقال لمولاه:

ـ عفوًا يا مولاي لا شأن لي بالأسود، وهأنذا واقف بين يديه فليجرّب فيَّ سحره وفنّه، وله إن شاء ـ وشاء أن يجعلني أومن به ـ أن يخضعني لإرادته ويتسلّط على قوّتي..

وساد صمت ثقيل، واعتلى الوجوم وجوهًا، وتبدّت الغبطة وحبّ الاستطلاع على وجوه أخرى. ونظر كلا الفريقين إلى الساحر ليروا ما فعل به تحدّي القائد العنيد، فألفوه هادئًا ساكنًا لا تفارق ابتسامة الثقة شفتيه الرقيقتين الحادّتين.

وضحك الملك ضحكة عالية وقال لأربو بلهجة لم تخل من السخرية:

ـ أهانت عليك نفسك يا أربو؟

فقال القائد بثبات عجيب:

ـ إنّ نفسي يا مولاي عزيزة على عزّة عقلي الذي يهزأ بألاعيب السحر.

وتجلّى الغضب على وجه الأمير هورداديف، فوجّه كلامه للقائد قائلًا بلهجة حادّة:

ـ فليكن ما تريد. وليتفضّل مولاي الملك ويأذن لديدي بالردّ على هذا التحدّي.

ونظر الملك لابنه الغاضب، ثمّ إلى الساحر وقال:

ـ هيّا أرنا كيف يقاوم سحرك جبروت صديقنا أربو.

ولحظ القائد أربو الساحر بعين متعالية، وأراد أن يولّي عنه وجهه باحتقار، ولٰكنّه أحسّ بقوّة تجذبه من عينيه إلى الرجل. ولفحه الغضب وشدّ بقوّة على رقبته، وحاول أن ينتزع عينيه من القوّة الهائلة التي

تجذبها فآب بالخيبة والعجز، وثبتت عيناه على عيني ديدي الجاحظتين البرّاقتين اللتين كانتا تلتمعان وتلتهبان كبلّورتين تعكسان أشعّة الشمس.

كسف نورهما عيني أربو فأظلمتا وغاب عنهما نور الدنيا، وخارت قوى الرجل الجبّار فألقى السلم والإذعان.

ولّما اطمأنّ ديدي إلى فعل قوّته الخارقة، قام واقفًا وأشار إلى مقعده وصاح بالقائد بلهجة آمرة شديدة «اجلس».. وصدع القائد بالأمر في خنوع فسار يترنّح كالثمل وارتمى على الكرسيّ في استسلام المشفي على الهلاك. فصدرت من أفواه الناظرين آهة دهشة، وابتسم الأمير هوردادیف ابتسامة ارتياح وتشفّ، أمّا ديدي فقد نظر إلى فرعون باحترام وقال بأدب جمّ:

- مولاي أستطيع أن آمره بما أشاء ولن يخالف لي أمرًا، ولكنّني أشفق من أن أمثل بقائد من قوّاد الوطن العظام وحواريّ من حواريّي فرعون، فهل يقنع مولاي بما رأى؟

وهزّ فرعون رأسه دلالة الموافقة.

فبادر الساحر إلى القائد المذهول وجرى على جبهته بأصابعه الخفيفة، وقرأ بصوت خافت تعويذة غريبة، فأخذ الرجل يفيق رويدًا رويدًا، ومضت الحياة تدبّ في حواسّه حتّى استعاد وعيه، ولبث زمنًا كالحائر ينظر فيما حوله وكأنّه لا يدرك ممّا يرى شيئًا، ثمّ استقرّت عيناه على وجه ديدي فتذكّر والتهب جبينه وخدّاه بالاحمرار، وتحاشى النظر إلى الرجل الرهيب، وقام إلى مقعده يرسم على أرض الشرفة خطى الارتباك والقهر المتعثّرة.

وابتسم الملك إليه وقال برقّة:

- ما صاحبك بكاذب!

فأحنى القائد رأسه وقال بصوت خافت:

- جلّت قدرة الآلهة، وتعالت معجزاتها في السماوات والأرض!

ثمّ قال الملك للساحر:

- أحسنت أيّها الرجل القادر. ولكن هل لك على الغيب سلطان كالذي لك على الخلق؟

فقال الرجل بثقة واطمئنان:

- نعم يا مولاي.

وفكّر الملك مليًّا، وساءل نفسه عمّا عسى يطرح عليه من الأسئلة، وأضاء وجهه بنور الهدى فقال للساحر:

- تستطيع أن تقول لي حتّامَ يجلس على عرش مصر ملوك من ذرّيّتي؟

وبدا على الرجل القلق والتهيّب، ففطن فرعون إلى ما يختلج في صدره فقال:

- إنّي أطلق لك حرّيّة القول، وآمنك من عاقبة ما تقول.

فألقى الرجل بنظرة عميقة على وجه مولاه، ثمّ صعّد رأسه إلى السماء واستغرق في صلاة حارّة ولبث ساعة لا يتحرّك ولا يتكلّم، فلمّا أن عاد بوجهه إلى الملك وصحابته كان شاحب اللون ممتقع الشفتين حائر النظرة، فجفلت قلوب القوم وأحسّوا بدنوّ شرّ مستطير، ونفد صبر الأمير رعخعوف فقال له:

- ما لك لا تتكلّم وقد أمّنك فرعون؟

فكتم الرجل أنفاسه اللاهثة وقال للملك:

- مولاي، لن يجلس على عرش مصر من بعدك أحد من ذرّيّتك!

وأحدث قوله في النفوس اضطرابًا كأنّه هبّة ريح مباغتة أصابت دوحًا ساكنًا، فحدجوه بنظرات قاسية كأنّها عيون حمئة يتطاير منها الشهب، وقطّب فرعون جبينه واربدّ وجهه فحاكى وجه أسد ضارٍ أجنّه الغضب، واصفرّ وجه الأمير رعخعوف وأطبق شفتيه القاسيتين فأنذرت هيئته بالويل والهلاك.

وكأنّ الساحر أراد أن يخفّف من وقع نبوءته فقال:

- سوف تحكم يا مولاي آمنًا مطمئنًّا حتّى نهاية عمرك الطويل السعيد.

فهزّ فرعون كتفيه استهانة وقال بصوت رهيب:

- إنّ من يعمل لنفسه فكأنّما يعمل للفناء، فدع عنك تعزيتي وخبّرني: هل تعرف من تدّخره الآلهة ليخلفها على عرش مصر؟

فقال الساحر:

ـ نعم يا مولاي، هو طفل حديث العهد بالوجود، لم ير نور الدنيا إلّا صباح اليوم.

ـ فمن أبواه؟

ـ أمّا أبوه فهو «من رع» الكاهن الأكبر لرع معبود أون، وأمّا أمّه فالسيّدة الشابّة رده ديديت التي تزوّجها الكاهن على كبر لتلد له هذا الطفل الذي كُتب في سجلّ الأقدار من الحاكمين.

فقام فرعون هائجًا كالأسد المتوثّب وقام لقيامه القاعدون، ودنا من الساحر خطوتين فزاغ بصر الرجل وكتمت أنفاسه، وقال له:

ـ أواثق أنت ممّا تقول يا ديدي؟

فردّ الساحر قائلاً بصوت مبحوح:

ـ لقد كاشفتك يا مولاي بما طالعتني به صفحة الغيب!

فقال له الملك:

ـ لا تخفْ ولا تحزن، فلقد بلّغتَ رسالتك وستنال ما تستحقّ من الجزاء الحسن.

ونودي على حاجب من حجّاب القصر، وأمر أن يكرّم الساحر ديدي ويعطيه خمسين قطعة من الذهب، فاصطحبه الرجل ومضيا معًا..

وكان الأمير رعخعوف في حالة من البلاء شديدة، وقد طفحت عيناه بقسوة قلبه وبدا وجهه الحديديّ كرسول للموت. وأمّا فرعون فلم تتبدّد غضبته انفعالات وزئيرًا، ولكنّها كُتمت وصُبّت في دفين إرادته فتحوّلت إلى وثبة عزيمة تدكّ الجبال دكًّا وتحرّك الأهوال، وقد تحوّل إلى وزيره خوميني وسأله بصوت عظيم:

ـ ما رأيك أيّها الحكيم خوميني، هل يغني الحذر عن القدر؟

فرفع خوميني حاجبيه في تأمّل ولكنّ شفتيه المنطبقتين لم تنفرجا حيرة وحزنًا، فقال الملك معاتبًا:

ـ أرى أنّك تخشى في قولة الحقّ وتهمّ بإنكار الحكمة لترضيني، كلّا يا خوميني، إنّ مولاك أجلّ من أن يضيق بقول الحقّ..

وما كان خوميني جبانًا ولا مداهنًا، ولكنّه كان مخلصًا للملك ووليّ عهده ويشفق من إيلامهما، فلمّا لم ير بدًا من القول قال بصوت خافت:

ـ مولاي! لقد اتّفقت كلمة الحكمة المصريّة التي لقّنتها الأرباب للسلف وأذاعها قاقمنا على الخلف، بأنّ الحذر لا يغني عن القدر.

فنظر خوفو إلى وليّ عهده وسأله:

ـ وأنت أيّها الأمير ما رأيك في القدر؟

فنظر الأمير إلى والده بعينين متّقدتين كأسد في شَرَك، فابتسم فرعون وقال:

ـ أيّها السادة، لو كان القدر كما تقولون، لسخف معنى الخلق، واندثرت حكمة الحياة، وهانت كرامة الإنسان، وساوى الاجتهاد الاقتداء، والعمل الكسل، واليقظة النوم، والقوّة الضعف، والثورة الخنوع. كلّا أيّها السادة، إنّ القدر اعتقاد فاسد لا يخلق بالأقوياء التسليم به..

فاشتعل الحماس بقلب القائد أربو وصاح:

ـ تعالت حكمتك يا مولاي..

فابتسم فرعون وقال باطمئنان:

ـ أمامنا طفل رضيع على بعد منّا يسير، فيا أيّها القائد أربو أعدّ حملة من العربات الحربيّة سأقودها إلى أون، لأشهد بنفسي مخلوق الأقدار الصغير..

فقال خوميني دهشًا:

ـ هل يذهب فرعون بذاته؟

فضحك الملك وقال:

ـ إذا لم أذهب للدفاع عن عرشي فمتى يحقّ لي الذهاب؟.. هيّا أيّها السادة.. إنّي أدعوكم إلى ركابي لتشهدوا معركة هائلة بين خوفو والأقدار..

-٣-

وخرجت الحملة الفرعونيّة في مائة عربة حربيّة، عليها مائتا فارس من فرسان الحرس الفرعونيّ الأشدّاء، يتقدّم صفوفهم الملك وسط هالة من الأمراء والصحابة، وإلى يمينه الأمير رعخعوف وإلى يساره القائد أربو.

وقد انطلقت تعدو شمالًا شرقيّ فرع النيل الأيمن صوب مدينة أون، تنهب الأرض نهبًا وتزلزل الوادي زلزالًا، وتبعث من صلصلة عجلاتها ما يشبه الرعد، وتثير من خلفها جبالًا من الغبار تحجب عن عيني منف الجميلة العربات المنطلقة والجياد المطهّمة والراكبين الجبابرة الذين ينتصبون كالتماثيل متقلّدين سيوفهم، مدجّجين بقسيّهم ونبالهم، مدرّعين بتروسهم، يذكّرون نائم الأرض بجنود مينا الذين أثاروا غبارها منذ مئتين من السنين، حاملين إلى الشمال نصرًا مبينًا ووحدة عزيزة وتاريخًا مجيدًا.

ساروا بقضّهم وقضيضهم يقودهم الجبّار الذي تخشع القلوب لذكر اسمه وتنكّس الأبصار، لا لغزو بلد ولا لقتال جيش، ولكن لحصار طفل رضيع ما يزال طاهرًا قماطه، وتجفل عيناه من رؤية نور الدنيا، وقد غدا بكلمة ساحر يهدّد أكبر عروش الدنيا ويزلزل أشدّ قلوب الخليقة..

وكانوا يقطعون أرض الوادي بسرعة جبّارة، ويمرّون بالقرى والدساكر، مرّ السهم الخاطف، ويرسلون بأبصارهم إلى الأفق الزهيب المنطبق على الطفل الرضيع الذي اصطنعته الأقدار لتمثيل دور خطير..

وتبدّى لهم في الأفق البعيد غبار ثائر لم تستطع أعينهم رؤية ما يظلّه من الخلائق، ومضت المسافة بينه وبينهم تقصر رويدًا رويدًا فاستطاعوا أن يروا شرذمة من الفرسان تعدو في اتّجاههم فلم يشكّوا في أنّها فرقة من مقاطعة رع.

وازدادوا منهم قربًا، فوضح لأعينهم أنّهم فوارس يعدون خلف واحد منهم، إمّا أنّه يتقدّمهم وإمّا أنّهم يطاردونه. فلمّا أن دنا من هدفهم صحصح لهم ما كانوا منه في شكّ مريب، فإذا بالمتقدّم امرأة على ظهر جواد عارٍ، وقد انحلّت ضفائرها وبعثرت وطارت خلفها مع الهواء كأنّها أعلام في رأس شراع، وقد أنهكها التعب فخارت قواها، ولحق بها العادون خلفها وأحاطوا بها من كلّ جانب..

وتصادف حدوث ذلك مع وصول فرعون وجنوده، وكان الركب الفرعونيّ قد اضطرّ إلى تهدئة عدوه تفاديًا للصدام، ولم يحفل فرعون ولا أحد من رجاله بالمطاردين والمطاردة، وظنّوا أنّهم شرطة يؤدّون واجبًا من واجباتهم، وكادوا يمرّون بهم مرّ الكرام لولا أن صاحت بهم المرأة قائلة:

ـ الغوث أيّها الجنود.. الغوث! إنّ هؤلاء يقطعون عليّ الطريق إلى فرعون..

هنا توقّف فرعون فتوقّفت العربات من ورائه، ونظر إلى الرجال المحيطين بالمرأة وصاح بهم بصوته الآمر:

ـ دعوا هذه المرأة.

ولكنّهم لم يصدعوا بالأمر الذي جهلوا آمره، وتقدّم فارس منهم برتبة ضابط إليه وقال بخشونة:

ـ نحن قوّة من حرس أون جئنا ننفّذ أمر كاهنها الأعظم فمن أيّ مدينة أنتم، وماذا تريدون؟

وتبدّى الغضب على الوجوه لحماقة الضابط، وهمّ أربو بانتهاره وتحذيره، ولكنّ فرعون أشار إليه إشارة خفيّة فسكت وهو كظيم، وصرف ذكر كاهن رع فرعون عن الغضب إلى التفكير والتأمّل، وأراد أن يستدرج الضابط إلى الكلام فسأله قائلًا:

ـ ولماذا تطاردون هذه المرأة؟

فقال الضابط بصلف:

ـ أنا لا أؤدّي حسابًا عن مهمّتي إلّا أمام رئيسي.

فصاح فرعون غاضبًا بصوت كالرعد:

ـ أطلقوا سراح هذه المرأة.

وذعر الجنود وأيقنوا أنّهم أمام رئيس خطير، فتركوا التي هرولت إلى عربة الملك وارتمت تحتها في خوف ووجل وهي تصيح:

ـ الغوث.. يا سيّدي الغوث..

وترجّل القائد أربو عن عربته وتقدّم من ضابط القوّة، فلمّا رأى هذا علامة النسر والشارة الفرعونيّة على كتفه تولّاه الرعب، ووقف وقفة نظاميّة وسلّ سيفه وأدّى عليه التحيّة العسكريّة، وصاح بجنده:

ـ حيّوا قائد الحرس الفرعونيّ.

فسلّ الجنود سيوفهم ووقفوا كالتماثيل.

ولـمّا سمعت المرأة قـول الضابط علمت أنّها أمـام رئيس حرس فرعون، فقامت إليه وقالت له بتوسّل:

ـ سيّدي.. أأنت حقًّا رئيس حرس مولانا الملك؟ بحقّ الأرباب ألا قدتني إليه، لقد فررت يا سيّـدي مـولية وجهي نحـو القصر الفرعـونيّ.. إلى أعتـاب فـرعون التي لا يعجـز عطفـه شفتي أيّ مصـريّ أو مصريّة لثمها ـ فسألها أربو:

ـ ألك حاجة يا سيّدتي تريدين قضاءها؟

فقالت المرأة وهي تلهث:

ـ نعم يا سيّدي، في صدري سرّ خطير أريد أن أبوح به لذاته المعبودة.

فأرهف فرعون السمع، وسألها أربو:

ـ وما هذا السرّ الخطير يا سيّدتي؟

فقالت بتوسّل:

ـ سأبوح به إلى ذاته المقدّسة.

ـ إنّي خادمة المخلص الأمين على سرّه.

فتردّدت المرأة وقلق بصرها بين الحاضرين، وكانت شاحبة اللون زائغة العينين مضـطربة الصـدر، فرأى القائد أن يستدرجها بالتي هي أحسن فسألها:

ـ ما اسمك؟ وأين تقيمين؟

ـ أدعى سرجا يا سيّدي، وكنت إلى صباح اليوم خادمة في قصر كاهن رع الأكبر.

ـ ولماذا كانوا يطاردونـك؟ هل وجّـه مولاك لـك إحدى التهم؟

ـ إنّي امرأة شريفة يا سيّدي، ولكن كان سيّدي يسيء معاملتي..

ـ وهل هربت فرارًا من معاملته لك؟ هل تلتمسين رفع شكواك إلى فرعون؟

ـ كلاّ يا سيّدي، إنّ الأمر لأعظم خطورة ممّا تظنّ، لقد وقفت على سرّ خطير فيه ما ينذر مـولاي الملك بالخطر، فهربت لأحذّر ذاته المعبودة كما يقضي الواجب عليّ، فأرسل سيّدي هؤلاء الجنود ورائي ليقبضوا عليّ ويحولوا بيني وبين واجبي المقدّس!

فارتعدت فرائص الضابط وقال بسرعة يـدفع عن نفسه التهمة:

ـ لقد أمرنا صاحب القداسة بالقبض على امـرأة فارّة على ظهر جواد في طريق منف، فصدعنا بما أمرنا دون أن نعلم مِن أمره ولا أمرها شيئًا.

فقال أربو لسرجا:

ـ إنّك تكادين أن تتّهمي كاهن رع بالخيانة!

فقالت المرأة:

ـ دعني يا سيّدي أصـل إلى أعتاب فـرعون كي أبوح له بما يضيق عنه صدري.

ونفد صبر فرعون وأشفق من ضياع الوقت الثمين، فقال للمرأة فورًا:

ـ هل رزق الكاهن بطفل هٰذا الصباح؟

فتحوّلت إليه المرأة مدهوشة ذاهلة وتمتمت:

ـ ومن أدراكم بهذا يا سيّدي وقد تكتّموا الخبر؟ حقًّا إنّ هذا عجيب!

وبدا الاهتمام على حاشية الملك وتبادلـوا النظر في صمت، أمّا الملك فسألها بصوته المهيب:

ـ هل هذا هو السرّ الذي تريدين إبلاغه لفرعون؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة ولم يفارقها ذهولها:

ـ نعم يا سيّدي، ولكن ليس هذا جميع ما أريد قوله.

فقال لها فرعون بحدّة وبلهجة آمرة شديدة الوقع لا تبقي على التردّد:

ـ فما الذي ينبغي أن يقال؟ تكلّمي.

فاندفعت المرأة إلى الكلام بخوف قائلة:

ـ لقد أحسّت مولاتي السيّدة رده ديديت بـدبيب آلام الـوضع منـذ الفجر، وكنت ضمن الـوصيفـات اللائي أحطن بفراشها يخفّفن عنها العذاب بـالحديث تارة وبالعقاقير أخرى، وقبيل الوضع بزمن يسير دخل علينا الكاهن الأكبر، وبارك سيّدتي وصلّى للربّ رع صلاة حارّة، وكأنّه أراد أن يشرح صدر سيّدتي المعذّب ويخفّف عنها ويلات الساعة، فبشّرها بأنّها ستلد طفلًا ذكرًا، وأنّه سـوف يرث عـرش مصر المكين، ويحكم وادي النيل خليفة للإله رع أتوم.

وقال لها وهو لا يملك نفسه من الفرح حتّى لكأنّه نسي وجودي، أنا التي لا تحظى مثلي غيرها بثقته، إنّ

تمثال الربّ المقدّس زفّ إليه هذه البشرى بصوته الربّانيّ. ولمّا وقع بصر سيّدي عليّ انقبض صدره وارتسم القلق على وجهه، ولكي يأمن شرّ الوساوس قبض عليّ وحبسني في مخزن الحبوب، ولكنّي تمكّنت من الفرار، وامتطيت جوادًا وانطلقت به في الطريق إلى منف لأبلغ الملك ما سمعت. والظاهر أنّ سيّدي أحسّ بفراري، فأرسل في طلبي هؤلاء الجنود الذين لولاكم لقادوني إلى حتفي.

وكان الملك وصحابته يستمعون إلى قصّة سرجا بانتباه وإمعان ودهشة، فتحقّقت لديهم نبوءة الساحر ديدي العجيبة، وكان الأمير رغخعوف شديد الجزع فقال لفرعون:

ـ لن يذهب تحذيرنا سدًى!

فقال فرعون:

ـ نعم يا بنيّ.. ولكن ينبغي ألّا نضيّع الوقت.

والتفت إلى المرأة وقال لها:

ـ سوف يجزيك فرعون عن إخلاصك خير الجزاء، وما عليك الآن إلّا أن تقولي لنا عن الوجهة التي تولينها؟

فقالت سرجا:

ـ أرجو يا سيّدي أن أذهب آمنة إلى قرية قونا حيث يقيم والدي.

فقال فرعون للضابط:

ـ أنت مسئول عن حياة هذه المرأة حتّى تبلغ دارها.

فأحنى الضابط هامته طاعةً، وأشار فرعون إلى القائد أربو فصعد إلى عربته، ثمّ أمر الملك قائد عربته بالسير فانطلقت كالقضاء ومن ورائها العربات إلى أون، التي بدا للعين سورها المحيط ورءوس أعمدة معبدها الكبير: معبد رع أتوم.

ـ ٤ ـ

كان كاهن رع في تلك الأثناء يجثو إلى جانب سرير زوجه ويصلّي صلاة حارّة، ويقول:

ـ رع، أيّها الربّ الخالق الموجود منذ الأزل، والوجود بَعْدُ ماءٌ جارٍ في فضاء محيط يجثم عليه ظلام ثقيل، فخلقت أيّها الربّ بقدرتك كونًا جليلًا جميلًا، شملته بنظام فاتن يسري حكمه الواحد على الأفلاك الدائرة في السماوات، وعلى ذرّات الثرى المنتثرة على وجه البسيطة، وجعلت من الماء كلّ شيء حيّ: فالطير يحلّق في السماء، والسمك يسبح في الماء، والإنسان يضرب في الأرض، والنخل ينبت في جوف الصحراء القاحلة، وبثثت في الظلمات نورًا بهيًّا يتجلّى فيه وجهك ذو الجلال والإكرام، يبعث الدفء وينشر الحياة. أيّها الربّ الخالق أبثّ إليك همّي وحزني، وأضرع إليك أن تكشف عنّي الضرّ والبلوى، أنا عبدك المؤمن خادمك الأمين. اللهمّ إنّي ضعيف فهبني من لدنك قوّة، اللهمّ إنّي خائف على الطمأنينة والسلام، اللهمّ إنّي مهدّد بشرّ عظيم فاشملني برعايتك ورحمتك. اللهمّ إنّك وهبتني على الكبر طفلًا باركته وكتبت له في سجلّ الأقدار ملكًا وحكمًا، فادفع عنه السوء وقِهِ شرّ العِدا.

نطق من رع بهذا الدعاء بصوت متهدّج، وقد سحّت عيناه دمعًا ساخنًا انحدر على خدّيه الناحلين وبلّل لحيته البيضاء، ثمّ رفع رأسه الكبير ونظر بعطف إلى وجه زوجه النفساء الشاحب اللون، ثمّ نظر إلى الطفل الصغير وكان ساكنًا هادئًا يرفع جفنيه عن عينين صغيرتين سوداوين، ويسبلهما جفولًا من ذلك العالم الغريب.

ولمّا أحسّت زوجه رده ديديت بفراغه من الصلاة قالت له بصوت ضعيف خافت:

ـ أما من خبر عن سرجا؟

فتنهّد الرجل وقال:

ـ سيلحق بها الجنود بأمر الربّ.

فقالت بقلق:

ـ أوّاه يا مولاي! أتعلّق خيط حياة طفلنا باحتمال قد يصيب وقد يخيب؟

ـ كيف تقولين هذا يا رده ديديت؟ إنّي لم أنفكّ ـ مذ هربت سرجا ـ أفكّر في وسيلة تقيكما السوء، وقد

هداني الربّ إلى حيلة، ولكنّي أخشى عليك وأنت نفساء لا تحتملين الشدّة.

فمدّت إليه يدًا ضارعة وقالت بتوسّل:

- افعل يا زوجي ما فيه نجاة طفلنا، ولا يهولنّك ضعفي فإنّي أستمدّ من أمومتي قوّة دونها قوّة الأصحّاء..

فقال الكاهن المتألّم:

- اعلمي يا رده ديديت أنّي أعددت عربة وملأتها بالحنطة، وجعلت لك في ركن منها مكانًا ترقدين فيه مع الطفل، وجهّزت صوانًا من الخشب ونزعت قعره، فإذا وضع عليكما أخفاكما عن الأنظار، وستسير بها وصيفتك الأمينة كاتا إلى عمّك في قرية سنكا..

- نادِ الخادمة زايا لأنّ كاتا نفساء كسيّدتها، وقد ولدت طفلًا ضحى اليوم..

فدهش الرجل وقال:

- أولدت كاتا؟ وعلى كلّ حال فزايا لا تقلّ إخلاصًا عن كاتا..

- وأنت يا زوجي؟! هب أنّ الحظّ عثر وباء، وأنّ سرّ طفلنا بلغ فرعون فأرسل إليك بجنده، فبِمَ تجيبهم لو سألوك عن الطفل وأمّه؟

ولم يكن الكاهن قد أعدّ العدّة لنفسه فيما لو وقع المحذور، ولكنّه لم يقم لذلك وزنًا لأنّ همّه كان محصوراً في إنقاذ الطفل وأمّه. ولذلك كذب على زوجه قائلًا:

- اطمئنّي يا رده ديديت فلن تفلت سرجا من رسلي، وما تهريبي لك خفية إلّا حذرًا وحيطة، ومهما يكن من أمر فلن تباغتني الطوارئ ولسوف تصلك أخباري عمّا قريب.

وخشي أن تزداد مخاوفها فأراد أن يصرفها عن التفكير، فقام واقفًا ونادى بصوته الجهوريّ على زايا، فأتت الخادمة سريعًا وانحنت له في احترام، فقال لها:

- سأعهد لك بسيّدتك والطفل المولود لتسيري بهما إلى قرية سنكا.. وعليك بالحذر فأنت تعلمين بالخطر الذي يتهدّدهما.

فقالت الخادمة بإخلاص:

- إنّي فداء لمولاتي وطفلها المبارك.

وطلب منها الكاهن أن تعينه على حمل سيّدتها إلى مخزن الحبوب، ودهشت الخادمة لذاك الطلب، ولكنّها صدعت بما أمرت، ووضع الرجل زوجه على اللحاف الوثير، ووضع يده تحت منكبيها ورأسها، ورفعتها زايا من تحت ظهرها وفخذيها، وسارا بها إلى البهو الخارجيّ، وهبطا الدرج إلى الفناء ودخلا إلى المخزن وأرقداها في المكان الذي أعدّه لها الرجل في العربة، ثمّ صعد الكاهن وأتى بطفله وكان يعول ويصرخ، فقبّله قبلة حارّة ووضعه في حضن أمّه، وأطلّ عليهما هنيهة من جدار العربة، ورأى رده ديديت تنتحب وتضطرب فقال لها وقلبه يتقطّع:

- ثبّتي قلبك من أجل طفلنا العزيز ولا تدعي للخوف إلى نفسك سبيلًا.

فقالت المرأة وهي تبكي:

- إنّك لم تسمّه بعد..

فقال وهو يبتسم:

- ادعه باسم أبي الراقد إلى جوار أوزوريس.. ددف.. ددف رع.. ددف بن من رع، اللهمّ اجعل اسمه مباركًا وادفع عنه كيد الكائدين.

وأتى الرجل بالصوان ووضعه على العزيزين، وأقعد زايا مقعد السائق ووضع زمام الثورين بين يديها، وقال لها: سيري على بركة الربّ الحافظ.

وما إن تحرّكت العربة حركتها البطيئة حتّى فاضت عيناه بالدمع الغزير، وجعل يرقبها خلال دموعه وهي تقطع أرض الفناء حتّى غيّبها الباب عن ناظريه، وهرول إلى السلّم وصعده بقوّة شابّ، وذهب إلى النافذة التي تطلّ على الطريق وراقب العربة التي تحمل قلبه ووجدانه..

وبغتته باغتة مخيف لم يكن يتوقّع حدوثه بمثل السرعة التي حدث بها، فلمّا أن نفذ قضاؤه ملأه رعبًا يعجز البيان والتعبير، فنسي حزن الفراق وجوى الوداع وحنين الأبوّة، واحترق رعبًا وخوفًا حتّى فقد الشعور والإدراك، فشبك كفّيه وجعل يضرب بهما صدره وهو

يقول بذهول: «أيها الربّ رع. أيها الربّ رع» ويكرّرها بلا وعي وعيناه تنظران إلى كتيبة العربات الفرعونيّة التي ظهرت فجأة من منعرج طريق المعبد، وتقدّمت إلى قصره وهي تقوم بحركة حصار بديعة في سرعة ونظام دقيقين، حالا بين العربة وبين التقدّم خطوة أخرى.

يا ربّ السماء، لقد جاءت جنود فرعون بأسرع ممّا دار له بخلد، ينبئ مجيئها عن توفيق سرجا في مهمّتها وهربها من جنوده، وإلّا ما استطاعت أن ترسل رسل الموت الزؤام بمثل هذه السرعة.

وجاء جند فرعون كالمردة الجبابرة تصهل جيادهم وتصلصل عجلاتهم وتتوهّج خوذاتهم في شعاع الشمس المائل. ماذا جاءوا يفعلون؟ جاءوا ليقتلوا الطفل البريء والابن الحبيب الذي شرح الربّ به صدره على الكبر واليأس.

وكان من رع ما يزال يضرب صدره بكفّيه المشتبكتين ويهزّ رأسه هزّات الذهول والبله، ويقول بلهجة الثكلى التي تندب ولدها: «أيّها الربّ.. إنّ جماعة منهم تحيط بالعربة، وواحدًا منهم يطرح الأسئلة الصارمة على زايا البائسة. ترى عمَّ يسألها! وبِمَ تجيبه؟ وما عسى أن تكون عقبى هذا التحقيق؟ وإنّ حياة طفلي وزوجي لرهن بكلمة واحدة تنطق بها زايا. ربّاه! يا رع المعبود!.. ثبّت قلبها وطمئن نفسها وأجْر على لسانها كلمة الحياة لا الموت، وأنقذ طفلك الحبيب لتقضي قضاءك الذي قضيت به وبشّرت..».

وجنّ جنونه من الجزع، وخيّل إليه أنّ ساعات طويلة تمرّ ثقيلة متباطئة على هذا الجنديّ وهو لا يفتأ يسأل زايا ويسدّ عليها المنافذ. أوّاه لو يحرّك واحد منهم الصوان أو يداخله شكّ فيما يشتمل عليه؟ بل أوّاه لو يعلو صوت الطفل بآهة أو صراخ.

ـ صه يا بنيّ.. اللهمّ ألهم أمّه أن تضع ثديها في فمه.. صه يا بنيّ.. إنّ آهة تخرج من فمك كفيلة بالقضاء عليك.. ربّاه إنّ قلبي يتفتّت وروحي تصعد في السماء..

وسكت الكاهن فجأة، واتّسعت عيناه وصاح ولكن بفرح شديد في هذه المرّة:

ـ الحمد لرع.. إنّهم يتقدّمون والعربة تسير في طريقها آمنة من غير سوء.. باسم رع مَسيرها وحَطُّها.. الحمد لك أيّها الربّ الرحيم..

ـ ٥ ـ

تنفّس الكاهن الصعداء وأحسّ ـ لفرحه ـ بحنين إلى البكاء لولا أن تذكّر ما ينتظره من الأهوال والشدائد، فلم ينعم بالطمأنينة إلّا لحظات سريعة، ودلف إلى منضدة عليها إبريق من الفضّة صبّ منه من الماء القراح ما روى به غلّته.

وما لبث أن صكّت أذنيه جلجلة القوّة التي صارت بفناء قصره، والتي جاءت خصّيصًا للقضاء على المولود الذي كان خطر الموت منه قاب قوسين أو أدنى.

وجاءه خادم يسعى مضطربًا خائفًا، وأخبره بأنّ قوّة من حرس الملك تحتلّ القصر وترقب منافذه، وجاء آخر يبلغه أنّ رئيس القوّة أرسله في طلبه سريعًا، فتظاهر الكاهن بالثبات ورباطة الجأش، ووضع العباءة المقدّسة على منكبيه والقلنسوة الكهنوتيّة على رأسه، ثمّ غادر حجرته في خطوات وئيدة تحفّ به المهابة والجلال الحقيقان بشخصيّة أون الدينيّة الكبرى. ولم يتهاون الكاهن في حقّ هيبته فوقف على عتبة بهو الاستقبال ووجهه إلى الفناء، وألقى نظرة سطحيّة على جنود القوّة الواقفين في أماكنهم لا يبدون حراكًا كأنّهم تماثيل منصوبة من العهد القديم، ثمّ رفع يده تحيّة وقال بصوته الجليل دون أن يقرّ نظره على وجه بذاته:

ـ يا بَنِيّ.. حللتم أهلًا وسهلًا. وليباركم رع المعبود باري الكون وخالق الحياة.

فسمع صوتًا مهيبًا يردّ عليه قائلًا:

ـ الشكر لك يا كاهن رع المعبود.

فانتفض جسمه لدى سماعه كما ينتفض الحمل لزئير الأسد، وذهبت عيناه زائغتين تبحثان عن صاحب الصوت العظيم حتّى استقرّتا على قلب القوّة، فتولّاه العجب والرعب أن يأتي فرعون بذاته إلى بيته. ولم

يتردّد عن أداء واجبه، فهرع إلى سدّته لا يلوي على شيء، فلمّا بلغ عربته سجد بين يديه وقال بصوت متهدّج:

- مولاي فرعون ابن الربّ خنوم، نور الشمس المشرقة وواهب الحياة والقوّة، إنّي يامولاي أضرع إلى الربّ أن يوحي إلى قلبك الكبير بالإغضاء عن سهوي وجهلي، كي أفوز بعفوك ورضاك.

فقال له الملك:

- إنّي أعفو عن هفوات الصادقين.

فخفق قلب الكاهن وقال:

- أمّا وقد تفضّل مولاي بزيارة قصري الوضيع فليتفضّل ويحلّ أشرفه.

فابتسم فرعون وترجّل عن عربته، وتبعه الأمير رعخعوف وإخوته الأمراء وخوميني وأربو وميرابو، وسار الكاهن بظهره يتبعه الملك ويتبعه الأمراء والصحبة حتّى حلّوا بهو الاستقبال وجلس الملك في الصدر وحوله حاشيته، واستأذن من رع في الذهاب لإعداد ما يجب إكرامًا لهم، ولكنّ فرعون قال له:

- نحن نعفيك من واجب ضيافتنا لأنّنا جئنا في أمر خطير لا يحتمل الأناة.

فانحنى الرجل وقال:

- إنّي رهن إشارة مولاي.

اعتدل الملك في جلسته وسأل الكاهن بصوته النفّاذ المهيب:

- أنت رجل من صفوة رجال المملكة ومقدّم عليهم بالعلم والحكمة، فهل تستطيع أن تقول لي لماذا تولّي الآلهة الفراعنة على عرش مصر؟

فقال الرجل بثبات وإيمان:

- إنّها تختارهم من بين أبنائها وتبعث فيهم روحها الإلهيّ ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد.

- أحسنت أيّها الكاهن، فكلّ مصريّ يسعى في الحياة لنفسه أو لأسرته، أمّا فرعون فينهض بحمل أعباء الملايين ويسأل عنها جميعًا أمام الربّ، فهل تستطيع أن تقول لي عمّا ينبغي لفرعون نحو عرشه؟

وأجاب من رع بشجاعة فائقة:

- إنّ ما ينبغي لفرعون نحو عرشه هو ما ينبغي للإنسان الأمين نحو وديعة الآلهة المكرّمين بين يديه، أن يقوم بواجباته ويؤدّي له حقوقه ويحافظ عليه محافظته على شرفه.

فهزّ فرعون رأسه راضيًا وقال:

- أحسنت أيّها الكاهن الفاضل، والآن خبّرني، ماذا ينبغي أن يفعل فرعون لو هدّد عرشه مهدِّد؟

فخفق قلب الكاهن الشجاع وأيقن أنّه يحكم على نفسه بجوابه، ولكنّه - وهو رجل الدين والتقوى والعزّة - أبى إلّا أن يقول الحقّ، فقال:

- ينبغي لجلالته أن يبيد الطامعين.

فابتسم فرعون والتمعت عينا الأمير رعخعوف ببريق قاسٍ، وقال للملك:

- أحسنت.. أحسنت.. لأنّه إن لم يفعل، خان عهد الربّ وفرّط في وديعته الإلٰهيّة وأضاع حقوق العباد.

ثمّ تصلّب وجه الملك وبدا عليه عزم يميد الجبال، وقال بصوت رهيب:

- أيّها الكاهن، لقد وُجد الذي يهدّد العرش.

فنكّس الكاهن عينيه وغلبه الصمت، فاستطرد فرعون:

- وهزأت الأقدار كعادتها فجعلته طفلًا.

فتساءل الكاهن بصوت خافت:

- طفلًا يامولاي؟

فطفر الغضب من عيني فرعون شررًا وصاح:

- كيف تتجاهل أيّها الكاهن؟ لقد حرصت على الصراحة والصدق في حديثك فلم تترك الكذب يتسلّل إلى قلبك في حضرة مولاك؟ وإنّك لتعلم علم اليقين أنّك أبو الطفل ونبيّه!

فتدفّق الدم إلى وجه الكاهن وعصر الألم قلبه الكبير، وقال بتسليم وحزن:

- ابني رضيع لم يجاوز عمره بضع ساعات.

فقال فرعون:

- لكنّه آلة في يد الأقدار، والأقدار إذا أرادت أن تفعل استوى لديها الطفل والرشيد..

وساد الصمت والسكون هنيهة، وتولّى الجميع رهبة غريبة فكتموا الأنفاس في انتظار الكلمة التي ستطلق سهم الموت إلى الطفل البائس. ونفد صبر الأمير رعخعوف فقطّب جبينه وازدادت قساوة وجهه الطبيعيّة شدّة وصلابة..

ثمّ قال فرعون:

- أيّها الكاهن، لقد أقررت منذ لحظة بأنّه ينبغي لفرعون أن يُهلك من يهدّد عرشه، أليس كذٰلك؟

فقال الكاهن بقنوط:

- بلى يامولاي.

- ولا شكّ أنّ الآلهة قست عليك بخلقها هٰذا الطفل. ولٰكنّ القسوة عليك أخفّ من القسوة على مصر وعرشها.

فقال الكاهن:

- هذا حقّ يامولاي.

فقال فرعون:

- إذًا فأدِّ واجبك أيّها الكاهن!

فوجم من رع وأرتج عليه القول، أمّا فرعون فقد استطرد:

- إنّ لنا - معشر الفراعنة - تقاليد موروثة في احترام الكهنوت ورعايته. لا أحبّ أن تضطرّني إلى خرقها.

ياعجبًا! ماذا يريد فرعون بقوله هذا؟ أيريد أن يفهم الكاهن أنّه يحترمه ولا يحبّ أن يقتل ابنه، وأنّه لذٰلك ينبغي أن يقوم هو بالمهمّة التي يجفل منها الملك؟ وكيف يتأتّى له أن يذبح طفله بيده؟ حقًّا إنّ الإخلاص الذي يكنّه لفرعون يقضي عليه بتحقيق رغبته الربّانيّة دون أدنى تردّد، وإنّه ليعلم علم اليقين أنّ أيّ فرد من شعب مصر لا يتوانى عن إزهاق روحه لو أحسّ بأنّ موته يلقى رضاء فرعونيًّا ساميًا، فهل يلحق بطفله العزيز ويغمد خنجره في قلبه؟

ولٰكن من الذي قضى أن يكون ابنه خليفة خوفو على عرش مصر؟ أليس هو الربّ رع؟ أو ليس يعدّ سعيه لقتل الابن البريء تحدّيًا لإرادة الربّ الخالق؟ ومن إذن يجب أن يؤثر بطاعته خوفو أم رع؟ لا يحتاج الجواب إلى رويّة. ولٰكن ما عسى أن يفعل وفرعون وزملاؤه ينتظرون كلمته؟ ماذا ينبغي أن يفعل وقد بدأوا يتململون ويغضبون؟

وتراءى له خاطر سريع وسط لجّة الحيرة والارتباك كما يلتمع البرق في السحاب المظلم المكفهرّ، تذكّر كاتا وطفلها الذي ولدته في الصباح!! وتذكّر أنّها نائمة في الغرفة التي تواجه غرفة سيّدتها على كثب منه، حقًّا إنّها فكرة جهنّميّة شيطانيّة يبرأ منها قلب كاهن مثله، ولٰكنّ القلب لا يتيقّظ إذا تسلّط عليه ما يتسلّط على قلبه من الانفعالات والاضطرابات، وهيهات أن يصحو ضمير أمام رهبة فرعون ورجاله، كلّا لا يستطيع أن يتردّد.

وأحنى الكاهن رأسه المثقل احترامًا، وذهب ليرتكب أشنع جريمة، فتبعه فرعون، وتبع فرعون الأمراء والكبراء، وصعدوا خلفه إلى الطابق الأعلى، ولٰكنّهم حين رأوا الكاهن يهمّ بولوج باب الحجرة وقفوا في الردهة وهم سكوت، وتردّد من رع لحظة ثمّ التفت إلى مولاه وقال:

- مولاي، ليس لي سلاح أقاتل به. فأعرني خنجرًا..

ونظر إليه فرعون دون أن يبدي حراكًا..

وضاق صدر الأمير رعخعوف، فاستلّ خنجره وأعطاه الكاهن بعنف، فأخذه الرجل بيد مرتجفة وأخفاه في عباءته ودخل الحجرة لاتكاد تحمله قدماه..

وانتبهت إليه كاتا فابتسمت ابتسامة امتنان وشكران، واعتقدت أنّ سيّدها جاءها يباركها، فكشفت عن وجه الطفل البريء، وقالت له بصوت ضعيف:

- اشْكُرِ الربَّ بقلبك الصغير، الذي عوّضك عن موت أبيك حنانًا مقدّسًا..

فجفل الكاهن مذعورًا وخذلته نفسه فانقلب مدحورًا، وفاضت عواطف قلبه فجرف سيلها زبد الإثم.. ولٰكن أين المفرّ؟ وكيف الخلاص؟ إنّ فرعون واقف بالباب وليس لديه مهلة للتفكير والرويّة،

واشتدّت به الحيرة حتّى أذهلته عن وعيه، فزأر زئيرًا مخيفًا، ونفّس عن صدره بتنهّدة عميقة، واستلّ الخنجر يائسًا قنوطًا وطعن به نفسه فاستقرّ في قلبه، وانتفض جسمه انتفاضة هائلة، وسقط على أرض الحجرة جثّة هامدة..

ودخل الملك الحجرة غاضبًا وتبعه رجاله، وجعلوا ينظرون إلى جثّة الكاهن والنفساء المرتعبة بعيون من زجاج.. إلّا الأمير رعخعوف فلم يلهه شيء عن هدفه، وأشفق من ضياع الفرصة السانحة فاستلّ سيفه من غمده ورفعه بقوّة في الهواء، وهوى به على الطفل.. إلّا أنّ الأمّ أدركت بغريزتها غرضه. فألقت بسرعة البرق نفسها على طفلها.. ولكنّها لم تمنع القضاء، فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة جبّارة واحدة..

ونظر الأب إلى ابنه ونظر الابن إلى أبيه، وغلبهما وجوم شديد، لم ينقذهما منه إلّا الوزير خوميني إذ قال:

ـ فليتفضّل مولاي بمغادرة هذا المكان الدامي.

خرجوا جميعًا وهم سكوت.

واقترح الوزير على مولاه أن يشدّوا الرحال إلى منف ليبلغوها قبل جثوم الليل، ولٰكنّ الملك قال:

ـ إنّي لا أفرّ كالمجرمين، ولٰكن سأدعو كهنة رع وأقصّ عليهم قصّة الأقدار التي ختمت بفاجعة رئيسهم البائس، ولن أعود قبل ذٰلك إلى منف.

ـ ٦ ـ

سارت العربة على خطى الثورين البطيئة تقودها زايا، فقطعت طريق أون في ساعة من الزمان، ثمّ اجتازت باب المدينة الشرقيّ وانحرفت إلى الطريق الصحراويّ الذي يؤدّي إلى قرية سنكا، حيث يقيم أصهار سيّدها الكاهن.

وما كانت زايا تستطيع أن تنسى تلك الساعة الرهيبة التي أحاط بها الجند فيها يسألونها ويمعنون النظر في وجهها، ولٰكنّها تشعر ـ فخورًا ـ بأنّها حافظت على رباطة جأشها رغم هول الموقف، وأنّها أقنعتهم بثباتها فتركوها تسير بسلام، وآه لو أنّهم علموا بما تحمل عربتها!

وإنّها لتذكر أنّهم جنود أشدّاء، ولن تنسى ما حييت عظمة ذلك الرجل الذي يتقدّمهم ولا هيبته ولا جلاله، حتّى لكأنّه تمثال إله ودبّت فيه حياة إنسانيّة.

ولكن يا للعجب! لقد أتى ذلك الرجل الجليل لقتال طفل لم يرَ نور الدنيا إلاّ هذا الصباح!

وهناك نظرت إلى الوراء لترى سيّدتها، ولكنّها وجدتها كما أنامها سيّدها الكاهن تحت الصوان.. يا لها من امرأة بائسة لم يدر بخلد إنسان أن تنام هذه النومة الشنعاء وهي نفساء! وما كان زوجها العظيم يحلم بتلك المتاعب التي ساقتها الأقدار بين يدي طفله، ولو تكشّف له الغيب ما تمنّى الأبوّة، ولا تزوّج من السيّدة رده ديديت التي تصغره بعشرين عامًا!

ولكنّها أحسّت بحسرة وحزن، وتنهّدت قائلة: ليت الربّ يهب لي غلامًا ولو يحمل إليّ مولده بؤس الدنيا جميعًا!

كانت زايا زوجًا عاقرًا تذهب نفسها حسرات على طفل تتمنّاه على الآلهة، كما يتمنّى الأعمى رؤية النور، وكم استشارت من أطبّاء وكم سألت من سحرة، وكم لجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى أو أمل، وكانت إلى ذلك تشفق من بأس زوجها كاردا، الذي يحزنه أشدّ الحزن أن يرى العمر يتقدّم به عامًا بعد عام دون أن يوهب غلامًا يحبو في داره ويدفىء صدره بالأمل والخلود، وقد ودّعها آخر مرّة وهو يشدّ الرحال إلى منف حيث يشتغل في بناء الأهرام ـ وهو ينذرها بالزواج مرّة أخرى إذا هي لم تلد. وانقضى على سفره شهر وشهران وعشرة أشهر وهي ترقب نفسها وتتحسّس آيات الحمل ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم دون جدوى وبلا أدنى أمل، ربّاه! لماذا تحرمها الآلهة من الأمومة! ما حكمة خلقها امرأة إذًا؟ إذ ما امرأة بلا أمومة؟ إنّ امرأة بلا أمومة كخمر بلا نشوة، أو وردة بلا رائحة، أو عبادة بلا إيمان فوايأساه!.

وعند ذاك سمعت صوتًا ضعيفًا ينادي «زايا» فأسرعت إلى الصوان ورفعته ووضعته جانبًا، ورأت

سيّدتها والطفل في حضنها نائمًا، وكانت متعبة مجهدة والاصفرار يعلو وجهها الأسمر الجميل فسألتها: «كيف حالك يا سيّدتي؟ فأجابتها بصوتها الضعيف:

ـ بخير بفضل الأرباب.. أما من خطر يتهدّدنا الآن يازايا؟

فقالت الخادمة:

ـ اطمئنّي يامولاتي لقد بعد الخطر عنك وعن مولاي الصغير.

فتنهّدت المرأة تنهّدًا عميقًا وسألتها:

ـ هل يبقى أمامنا سفر طويل؟

فقالت زايا برقّة:

ـ يبقى أمامنا مسير ساعة على أقلّ تقدير.. والأولى لك ياسيّدتي أن تنامي في حمى الربّ رع.

فتنهّدت المرأة والتفتت إلى الطفل النائم وقد اكتسى وجهها الشاحب الفتّان بالمحبّة والحنان، ثمّ أغمضت عينيها طلبًا للنوم. ومضت زايا تنظر إليها وإلى الطفل، تنظر إلى صورة الأمومة الحلوة السعيدة رغم الآلام والمخاوف.. ما أجمل منظرهما! الا ليتها تذوق الأمومة ولو مرّة واحدة ولو تدفع حياتها ثمنا لها!

ربّاه! لا الربّ يرحم ولا الطبّ بنفع ولا كاردا يعذر.. ولعلّه لا يفوت وقت طويل قبل أن تضحي مطلّقة شريدة تعاني آلام الوحدة وعذاب العزوبة!

وحوّلت زايا نظرها عن الأمّ السعيدة إلى الثورين وتنهّدت قائلة:

ـ لو كان لي مثل هذا الطفل؟ لو آخذ هذا الطفل وأصطنعه ابنًا بعد أن أبت عليّ الآلهة ابنًا طبيعيًّا!

ولم تكن تضمر بقولها سوءًا ولكنّها تمنّت، والنفس تتمنّى المستحيل، وتتمنّى ما تمتنع عن فعله خوفًا أو رهبة أو إشفاقًا.

وقد تمنّت زايا وحلّقت في سماوات السعادة بجناحي الأحلام، ورأت نفسها تسير بهذا الطفل الجميل إلى كاردا وتقول له: «لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل»، ورأت زوجها يتهلّل ويطير من الفرح ويقبل عليها وعلى ددف الصغير يحتضنهما ويقبّلهما معًا! وانتشت بنشوة السعادة الخياليّة فتمدّدت على جنبها الأيمن، وأمسكت زمام الثورين بيد ووضعت رأسها على الأخرى واسترسلت في عالم الأحلام، وجرت ـ في غفلة منها ـ أنامل النوم على عينيها بخفّة ورشاقة فحجبت عنها نور اليقظة، كما أخذ أفق الغرب يحجب نور الشمس عن الدنيا..

ولمّا عادت زايا إلى عالم الشعور ظنّت أنّها نائمة على سريرها بقصر سيّدها كاهن رع تستقبل الصباح، ومدّت يدها لتسحب اللحاف عليها لأنّها أحست بتيّار هواء بارد، فانغرست يدها فيما يشبه الرمل، ففتحت عينيها دهشة فرأت كونًا مظلمًا وسماء مزدانة بالنجوم. وأحسّت بجسمها يهتزّ اهتزازًا غريبًا.. فتذكّرت العربة والسيّدة رده ديديت وطفلها الصغير الهارب وجميع الذكريات التي انتزعها منها سلطان النوم القاهر..

ولكن أين هنّ؟ وفي أيّة ساعة من الليل؟

ونظرت فيما حولها فرأت فضاء مظلمًا محيطًا يطبق عليها من ثلاث نواح، وتراءى في الناحية الرابعة نور خافت عن بعد سحيق لم تشكّ في أنّه يشعّ من القرى المنثورة على شاطىء النيل.. وسوى ذلك فليس بالمكان الذي ضلّ فيه الثوران ما يدلّ على حياة..

وتسرّبت وحشة الكون إلى نفسها ونفذت ظلمته إلى قلبها، فانكمشت مرتجفة مذعورة، واصطكّت أسنانها من الخوف وجعلت تنظر إلى الظلام بعينين تتوقّعان المخاوف فتخلقها خلقًا مزعجًا.

وقد خيّل إليها أنّها ترى في أفق الظلام أشباح قافلة من البدو، وكانت تذكر أشتاتًا ممّا يروى عن قبائل سيناء وسطوهم على القرى وخطفهم للتائهين والضالّين وقطعهم الطريق على القوافل. وكانت لا تشكّ في أنّ العربة التي تقودها على غير هدى تعدّ غنيمة ثمينة بما فيها من حنطة. وبالثورين اللذين تشدّ إليهما، وبالمرأتين اللتين يحقّ للعاب رئيس القبيلة أن يسيل عليهما. فاشتدّ بها الخوف وجنّ جنونها، فقفزت على رمل الصحراء، واتّجه نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها وكانت ترى وجهيهما على ضوء النجوم الخافت، فمدّت يديها بلا وعي ولا تدبّر إلى الطفل ورفعته بخفّة، وأحكمت لفّ القماط حوله، وأطلقت ساقيها

للريح صوب أنوار المدينة، وخيّل إليها وهي تعدو أنّها سمعت صوتًا ينادي عليها بفزع، فظنّت أنّ البدو أحاطوا بسيّدتها، فازداد بها الرعب وضاعفت سرعة عدوها، لا يعوقها الرمل المكدّس ولا الحمل العزيز ولا التعب الشديد، فكانت كالمتردّي في هاوية يهوي بحكم ثقله دون أن يستطيع لنفسه إمساكًا. ولعلّها لم تكن قد توغّلت في الصحراء توغّلًا بعيدًا، أو لعلّها قطعت بعدوها شوطًا يجاوز تقدير المقدّرين وتصوّر المتصوّرين، لأنّها أحسّت تحت قدميها بأرض ممهّدة كأرض الطريق الصحراويّ، ونظرت خلفها فلم تر إلّا ظلامًا، وكانت عند ذاك قد استهلكت قوّتها الجنونيّة فهدأت من سرعتها وثقلت خطاها، ثمّ ارتمت على ركبتيها وهي تلهث بعنف وشدّة مخيفين، وكانت ما تزال مذعورة مجنونة ولكنّها لم تستطع حراكًا، مثل فريسة الكابوس الذي تطارده الأخطار ولا تطيعه قدماه، فجعلت تتلفّت يمنة ويسرة لا تدري عن أيّ طريق يأتي الفَرَج، ولا في أيّة ناحية يجثم الهلاك.

وخيّل إليها أنّها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل! ترى هي عجلات عربات وخيل فرسان أم نبض الدم بأذنيها ورأسها؟ ولكنّ الأصوات وضحت فتأكّدت وبدت في الظلمة أشباح الراكبين العادين الآتين من الشمال، ولم تدر إن كانوا يحملون لها سلامًا أم هلاكًا، ولم تستطع اختفاء لأنّ ددف علا صوته بالصراخ والعويل، ولم تكن تأمن في ركعتها وسط الطريق أن تلتهمها عجلات العربات المندفعة فرفعت عقيرتها صائحة: «أيّها الراكبون».

واندفعت تكرّرها بصوت المستغيث وقد أسلمت نفسها للمقادير، وأتى الركب سريعًا ووقف على بعد منها قريب، وسمعت صوتًا يسأل عن الصارخ، خيّل إليها أنّه ليس غريبًا عنها. فشدّت يديها على الطفل وتنبّه بها الحذر، فقالت بلهجة ريفيّة قحّة غيّرت بها نبرات صوتها:

ـ أنا امرأة هلكى، قصّر بي الجهد عن متابعة الطريق وغشيني الظلام، وهذا طفلي، يكاد يقتله هواء الليل الرطيب.

فسألها صاحب الصوت الأوّل:

ـ وإلى أين تقصدين؟

فقالت زايا وقد بدأت تطمئنّ إلى أنّها في حضرة جنود مصريّين.

ـ أقصد ياسيّدي إلى منف.

فضحك الرجل وقال متعجّبًا:

ـ إلى منف ياسيّدة؟! ألا تعلمين أنّ الركب يقطع هذا الطريق في ساعتين؟

فقالت زايا بذلّة وبؤس:

ـ إنّي أسير ياسيّدي منذ العصر، وقد اضطرّتني أسباب انقطاع الزاد إلى الهجرة، فتوهّمت أنّي أستطيع أن أبلغ منف قبل جثوم الليل. .

ـ ومن لك في منف؟

ـ زوجي كاردا الذي يشتغل في بناء هرم مولانا فرعون.

ومال الرجل إلى رجل في العربة التي إلى يساره وأسرّ إليه بكلمات، فقال الرجل:

ـ الأوفق أن يعود بها جنديّ إلى بلدتها.

فقال الأوّل:

ـ كلّا ياخوميني فلن تلقى في بلدتها إلّا الجوع والمهانة. فلنحملها معنا إلى منف.

وصدع خوميني بأمر مولاه، فترجّل عن عربته وذهب إلى السيّدة وعاونها على القيام، وسار إلى أقرب عربة وأركبها وطفلها ووصّى عليهما جنديّ العربة.

أمّا فرعون فقد التفت إلى المعمار ميرابو وقال له:

ـ لقد شقّ على قلبك الرقيق ياميرابو أن ترى طفلًا بريئًا وأمّه يذبحان بلا ذَنْب ولا جريرة، فإيّاك أن تتّهم مولاك بالقسوة. انظر إليّ كيف أرضى أن أحمل امرأة جائعة وطفلها الرضيع لأقيهما شرّ البرد والجوع، وأبلغ بهما بلدًا ما كانا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس، ففرعون رحيم بعباده. ولم أك أقلّ رحمة حين خرجت للقضاء على ذلك الطفل السيّىء الحظّ، ذلك أنّ فعال الملوك كفعال الآلهة قد تلبس رداء الوحشيّة، ولكنّها في جوهرها حكمة سامية.

وقال الأمير رعخعوف:

- الأولى لك أيّها المعمار ميرابو أن تعجب بقوّة الإرادة الهائلة التي هزمت الأقدار، وقضت على قضاء القضاء.

وعاد خوميني إلى العربة، وأمر الملك قائد عربته بالمسير، فانطلق الركب صوب منف يشقّ أمواج الظلماء.

- ٧ -

وصلت زايا إلى منف قبيل منتصف الليل بزمن قليل مع الركب الفرعونيّ، وقد نفحها الملك بقطعتين من الذهب فسجدت بين يديه شاكرة ممتنّة، وقد اعتقدت أنّه قائد من القوّاد العظام وودّعته في ظلمة الليل دون أن ترى وجهه أو يرى وجهها.

وكانت زايا في حالة بائسة من الخور الجسمانيّ والفزع النفسيّ، فتاقت نفسها إلى حجرة تخلو فيها إلى نفسها، واستدلّت بشرطيّ على فندق متواضع تبيت فيه بقيّة ليلها. ولمّا وجدت نفسها والطفل لا ثالث لهما تنهّدت تنهّدة عميقة وارتمت على السرير.

وكأنّما أطلقت - باستلقائها - العنان لألم جسمها ومخاوف قلبها، ولكنّ مخاوف القلب طغت على آلام الجسم واستبدّت بشعورها. كانت ذاهبة الفؤاد مذعورة النفس لا تبرح مخيّلتها صورة سيّدتها النفساء التي خطفت طفلها وتركتها على عربة ضالّة وسط الصحراء، تغشاها الظلمات وتحيط بها الوحشة ويطبق عليها رجال سلب ونهب لا تعرف قلوبهم الرحمة ولا الشفقة، ولعلّها الآن أسيرة بين أيديهم يسومونها سوء العذاب ويفرضون عليها الرقّ والعبوديّة، وهي تبثّ الآلهة شجوها وذلّها وتشكو إليها ما لاقت من غدر ويأس وما تلقى من عذاب.

وازدادت زايا عذابًا وخوفًا ومضت تتقلّب على فراشها ذات اليمين وذات الشمال، وأشباح فعلتها النكراء تطاردها مطاردة عنيفة وتنهال عليها بالوخز والألم والرعب، واستصرخت النوم العزيز لينقذها من ويل ليلتها الوبيل ولكنّها تقلّبت كثيرًا وسهدت طويلًا، وذاقت مرّ العذاب والخوف قبل أن يرفق النوم بجفنيها وينتزعها من الجحيم الذي أصلاها نار العذاب، فنامت متعبة منهوكة القوّة مقلقلة النفس.

واستيقظت على عويل الطفل، وكانت أشعّة الشمس تنفذ من كوّة الحجرة وتفرش أرضها بساطًا من الأنوار، فحنت على الطفل وهزّته بلطف وقبّلت فمه بحنان، وكان النوم قد شفى أسقامها وطمأن نفسها وإن لم يخلُ قلبها من قلق ونفسها من عذاب. ولكنّ الطفل استطاع أن يحوّل شعورها إليه فأنقذها من عذاب الليل وويله، وحاولت ملاطفته لكنّه زاد في العويل وواجهت مشكلة تغذيته وتحيّرت من أمرها، ولكنّها فطنت إلى الحلّ الواحد، فقامت إلى باب حجرتها وصفّقت بيديها فجاءتها امرأة عجوز تسألها عمّا تريد، فطلبت منها نصف رطل من لبن الماعز.

وحملت ددف بين ذراعيها وذرعت به الحجرة ذهابًا وجيئة، ووضعت حلمة ثديها في فمه تلهيه وتصبّره، ثمّ نظرت إلى وجهه الجميل وصاحت بنشوة فرح مفاجىء كأنّه تسلّل إلى قلبها خلسة في غفلة عن الهجوم: تبسّم يا ددف.. تبسّم وقرّ عيناً فسترى والدك بعد حين قليل.

وسرعان ما تنهّدت وقالت لنفسها بخوف: ترى هل أفوز به رغم كلّ شيء؟

لقد انتهى أمر أمّه الحقيقيّة وكذا أمر أبيه!.

أمّا أمّه فقد أخذها البدو أسيرة وما كانت تستطيع هي - أي زايا - أن تفعل شيئًا لإنقاذها. ولو تردّدت لحظة أخرى عن الهرب لوقعت معها غنيمة باردة في أيدي البدو المعتدين، فلا يجوز أن تحمّل نفسها وزر جريمة لم ترتكبها ولم تُعِن على ارتكابها. وأمّا أبوه فلا شكّ أن قتله جنود فرعون انتقامًا منه لتهريبه زوجه وطفله.

وارتاحت إلى تفكيرها هذا فعاودته مرّة أخرى لترضي نفسها وضميرها وتقضي على أشباح الخوف ونحس الآلام، فرجعت تحدّث نفسها بأنّها أحسنت صنعًا بالهروب وخطف الطفل، ولو أنّها لبثت إلى جانب سيّدتها ما استطاعت أن تدفع عنها شرّ العدا

ولهلكت معها، وما كان في مقدورها أن تحملها وتدبّ بها. ولم يكن من الرحمة أن تترك الطفل بين أحضانها حتّى يقتله رجال سيناء. فقد أحسنت صنعًا بالهرب وأحسنت صنعًا بخطف ددف ولا خوف عليها ولا ينبغي أن تحزن!

ما أعذب هذا التفكير، بل ما أجمل أن ينتهي بها إلى أنّها أمّ ددف دون شريك!

هي أمّه دون شريك وكاردا أبوه، وكأنّما أرادت أن تطمئنّ إلى هذه الحقيقة فجعلت تناديه نداء منغومًا قائلة: «ددف رع ابن كاردا. . ددف رع بن زايا». .

وجاءت العجوز بلبن الماعز، وبدأت الأمّ الصناعيّة ترضع الطفل رضاعًا صناعيًّا. . حتّى ظنّت أنّه شبع، ولم يبق أمامها إلّا أن تتأهّب للخروج إلى كاردا. . فاستحمّت ومشطت شعرها ووضعت خمارها على منكبيها، وحملت ددف بين يديها وغادرت الفندق.

وكانت شوارع منف مزدحمة كعادتها بالمارّين، راجلين وراكبين، ذكورًا وإناثًا، من وطنيّين ومستوطنين وأجانب. ولم تكن زايا تعرف الطريق إلى الهضبة المقدّسة، فسألت شرطيًّا، فأجابها بأنّ الهضبة «جنوب شرقيّ سور منف يقطعها الراجل في ساعتين أو يزيد، والراكب في نصف ساعة»، وكانت يداها مملوءتين بالقطع الفضّيّة فاكترت عربة ذات جوادين، وجلست باطمئنان وسعادة.

وسرعان ما انتزعتها أحلامها من الدنيا وحلّقت بها في سماء السعادة والغبطة، فسبق خيالها العربة إلى كاردا زوجها الحبيب المفتول الذراعين الأسمر الوجه، فما أجمله في وزرته القصيرة التي تكشف عن ساقيه الحديديتين، وما أحبّ وجهه المستطيل بجبهته الضيّقة وأنفه الكبير وعينيه الواسعتين وصوته الخشن العريض ذي اللهجة الطيبيّة القحّة. وكم ذا تشتاق إلى ضمّ ساعديه وتقبيل فمه وسماع صوته.

وكان في أمثال هذه المقابلات التي يسبقها غياب طويل يقبل عليها بشوق ويقول لها مداعبًا: «تعالي يا امرأة. . كأنّي بك أرض صخريّة تشرب الماء ولا تنبت شيئًا». أمّا هذه المرّة فلن يقولها، وكيف يقولها وهي تلقاه وعلى يديها أجمل ما حملت الأمّهات؟! ولا ريب أنّه سينظر إليها كالذاهل فتلين عضلات وجهه الصلبة وتمتلىء عيناه البرّاقتان بنظرة حنان تذوب رقّة وعطفًا، ويهتف بها وهو لا يمتلك نفسه من الفرح: «وأخيرًا ولدت يا زايا! أحقًّا هٰذا طفلي؟ تعالي إليّ. . تعالي إليّ. .» فتقول له وهي ترفع رأسها بكبرياء وأنفة: «خذ طفلك يا كاردا وقبّل قدمه الصغيرة. . واسجد شكرًا للربّ رع. . إنّه ذكر وقد سمّيته ددف».

وأقسمت لتحملنّ زوجها على العودة إلى طيبة مسقط رأسه. لأنّ قلبها بات يوجس خيفة ـ لا تدري ما كنهها ـ من الشمال وأهله، وفي طيبة الجميلة وتحت رعاية الربّ آمون تربّي ابنها وتحبّ زوجها، وتعيش الحياة التي حُرِمَتْها دهرًا طويلًا. .

وأيقظتها من أحلامها جلبة أصوات وضجيج حياة، فنظرت إلى الطريق ورأت العربة تصعد طريقًا ملتويًا والرجل يلهب الخيل بسوطه، ولم تستطع في جلستها أن ترى ما على سطح الهضبة، ولكن طرقت أذنيها أصوات أحياء ودويّ آلات وأناشيد العمّال، وعرفت من بينها نشيدًا كان كاردا يترنّم به في أوقات الصفاء وهو:

نحن رجال الجنوب نأتي مع مياه النيل،
من تلك الأرض التي اختارتها الآلهة سكنًا والفراعين،
نسوق بين أيدينا الخصب العميم والعمران.
انظر إلى المدن العامرة والمعابد ذات العمدان،
كانت ـ قبلنا ـ خرائب تأوي إليها الأوابد والغربان،
إنّ الصخر لنا يلين ويذعن، وكذا الماء الجبّار.
سَلْ عن بأسنا قبائل النوبة وطور سيناء.
سَلْ عن جهادنا زوجات ينتظرن في وحدة وعفاف.

وسمعت المئين يردّدونها بقوّة وحنان معًا، فهفت نفسها إليهم كما يهفو الحمام إلى صفير صاحبه، وأنشد قلبها مع المنشدين.

وبلغت العربة سطح الهضبة بعد أن اجتازت الطريق المسمّى وادي الموت، ونزلت منها زايا وسارت

صوب الخلق المحشود المنتشر على رقعة الهضبة كأنّه جيش عارم في ميدان. ومرّت في طريقها بمعبد أوزوريس وتمثال أبي الهول ومصاطب الآباء والأجداد الذين أهّلتهم أعمالهم في الدنيا للرقاد في بطن تلك الأرض الطاهرة، وشاهدت النهر الطويل الذي شقّه العمّال ليصل الهضبة بالنيل. وكانت تجتازه المراكب الضخمة تباعًا محمّلة بالصخور الجبّارة حيث ينتظرها عند المرسى جماهير العمّال بالعربات الزاحفة. ورأت عن بعد أساس الهرم الذي لا يحيط بحدوده بصر والعمّال على سطحه كالنجوم المنتثرة في رقعة السماء.. وكانت تختلط أصوات الأناشيد بصياح الرؤساء وأوامر الحرس وطقطقة الآلات، فوقفت زايا حَيْرى وطفلها على يديها تتلفّت يمنة ويسرة لا تدري أين المستقرّ، وترى عبث النداء في ذاك المحيط اللجّيّ، وقد تعبت عيناها قلقًا وتردّدًا بين الوجوه.

ومرّ بها أحد الحرّاس فاستغرب وقفتها، ودنا منها وسألها بصوت أجشّ:

- ماذا جئت تفعلين هنا يا سيّدة؟

فقالت له بسذاجة:

- أبحث يا سيّدي عن زوجي كاردا.

فسألها الجنديّ وهو يقطّب جبينه متذكّرًا:

- كاردا؟ هل هو معمار أم حارس؟

فقالت في استحياء:

- هو عامل يا سيّدي.

فضحك الرجل ساخرًا وقال لها وهو يشير إلى بناية على بعد قريب:

- اسألي عنه في مكتب المفتّش.

فسارت زايا إلى هدفها، وكانت البناية متوسّطة الحجم، جميلة المشهد، ويقف على بابها حارس من الجند، وقد اعترض طريق زايا، ولكنّها أخبرته بما جاءت من أجله فأوسع لها، فدخلت حجرة واسعة تصطفّ في جوانبها المكاتب ويجلس خلفها الموظّفون، وكانت جدرانها ملأى بالرفوف المكدّسة بأوراق البَرْدِيّ، وفي اتّجاه الداخل يرى باب موارب دلّها الجنديّ عليه بعصاه، فاجتازته إلى حجرة أصغر حجمًا وأجمل منظرًا وأثمن أثاثًا، وكان يجلس في ركن منها - خلف مكتب فخم - رجل ربعة القوام بدين الجسم، يميّزه رأس كبير وأنف ضخم قصير في وجه ممتلئ، عظيم الشدقين، منتفخ الخدّين كقربتين صغيرتين، وكانت عيناه جاحظتين وجفناه ثقيلين، وقد جلس جلسة كبرياء وعظمة، وانكبّ على ما بين يديه في تيه وسلطان.

وقد أحسّ بالداخل ولكنّه لم يرفع عينيه ولم يَبْدُ عليه اهتمام حتّى فرغ ممّا بين يديه، فنظر إلى زايا نظرة شوس وتيه وسألها بصوت تيّاه فخور:

- ماذا تريدين يا امرأة؟

فاستولى الارتباك والخوف على زايا وقالت بصوت مضطرب ضعيف:

- جئت أبحث عن زوجي يا سيّدي.

فسألها بنفس اللهجة:

- ومن زوجك؟

- عامل يا سيّدي.

فضرب المكتب بقبضة يده وقال بلهجة حادّة وبصوت كأنّه يرنّ في قبو:

- وما الداعي إلى تعطيله عن عمله وإقلاقنا؟

فذعرت زايا وتفرّق منطقها شعاعًا ولم تُحِرْ جوابًا.. فأدام إليها النظر وشاهد وجهها الخمريّ المستدير وعينيها العسليّتين الساخنتين وشبابها الغضّ، فعزّ عليه أن يجثم الخوف على مثل ذاك الوجه الصبيح، ولم يكن له من السلطان إلّا ظاهر وزهو. أمّا قلبه فطيّب، وأمّا عواطفه فرفيقة، فعطف على المرأة وقال بصوته الأجوف ولكن بلهجة رقيقة ما استطاع:

- لماذا تبحثين عن زوجك يا سيّدة؟

فتنهّدت زايا ارتياحًا وزال عنها الرعب وقالت بامتنان:

- إنّي آتية من أون بعد أن ضاقت بي سبل العيش، وأرجو يا سيّدي أن يعلم بوجودي.

فنظر المفتّش إلى الطفل الذي تحمله على ذراعيها وقال كالمرتاب:

- أمن أجل هذا جئت حقًّا.. أم جئت تبشّرينه بهذا المولود؟

فتورّد خدّا زايا وعلا الحياء وجهها، ونظر إليها الرجل هنيهة ملتذًّا ثمّ سألها:

- حسن.. من أيّ بلد زوجك؟

- من أون يا سيّدي ومسقط رأسه طيبة.

- وما اسمه يا سيّدة؟

- كاردا بن عن يا مولاي.

فنادى المفتّش كاتبًا وقال له بلهجة الأمر والخيلاء، التي تنازل عنها من أجل عيني زايا:

- كاردا بن عن من أون.

فذهب الكاتب وبحث بين الدفاتر واستخرج واحدًا منها وقلّب في أوراقه باحثًا عن حرف الكاف وعن اسم كاردا، ثمّ عاد إلى رئيسه ومال على أذنه وهمس بصوت خافت ورجع إلى عمله.

وأجدّ المفتّش في مظهره ونظر إلى وجه المرأة طويلاً، ثمّ قال بصوت هادئ خافت:

- آسف يا سيّدتي أن أنعي إليك زوجك، فقد مات في ميدان العمل والواجب!

وصكّت كلمة الموت أذني المرأة ففرّت من صدرها صرخة رعب وفزع، ولبثت لحظة كالذاهلة، ثمّ سألت المفتّش بتوسّل أليم:

- أحقًّا مات زوجي كاردا بن عن؟

فأجابها بوجوم:

- نعم يا سيّدتي.. استوصي بالصبر.

- ولكن.. كيف عرفت ذلك يا سيّدي؟

- هٰذا ما أنبأني به الكاتب بعد أن فحص أسماء عمّال أون.

- ومَن أدراك يا سيّدي فقد يخدع البصر وتتشابه الأسماء.

وطلب المفتّش الدفتر إلى مكتبه ونظر فيه بنفسه ثمّ هزّ رأسه أسفًا، ونظر إلى وجه المرأة الذي لوّن الرعب صفحته بصفرة الموت، ورسم الأملَ في عينيه نظرة تضرّع وتوسّل ورجاء، وقال:

- استوصي بالصبر يا سيّدتي، وأذعني لإرادة الآلهة.

فانطفأ نور الأمل الخافت وأجهشت زايا في البكاء، فطلب المفتّش لها كرسيًّا ومضى يقول لها:

- تشجّعي يا سيّدة.. تشجّعي.. هذه إرادة الآلهة.

ولٰكنّ زايا كان يلوح لها الأمل كما يلوح السراب للظمآن في المفاوز، فسألته:

- ألا يجوز يا سيّدي أن يكون الميت واحدًا غريبًا يحمل اسم زوجي؟

فقال لها المفتّش بلهجة اليقين:

- كاردا بن عن هو العامل الوحيد الذي استشهد من عمّال أون.

فصاحت المرأة بذلّ وألم:

- يا لسوء حظّي يا سيّدي.. ألم تجد الأقدار هدفًا لسهمها غير صدري الضعيف؟

- هدّئي روعك..

- ليس لي رجل سواه يا سيّدي.

وكأنّ المفتّش طيّب القلب أراد أن يطمئنها، فقال لها:

- إنّ فرعون لا ينسى عباده المخلصين، وتسع رحمته الضحايا والمستشهدين جميعًا.. أصغِ إليّ: لقد أمر مولانا الملك ببناء بيوت لأسر العمّال الذين قضوا في أثناء العمل، وقد شيّدت البيوت عند سفح الهضبة وأوى إليها العشرات من النساء والأطفال، وقد أجرى عليهم الملك إعانات شهريّة، كما اقتضت إرادته اختيار الرجل من ذوي قرباهم للمعاونة في الحراسة.. فهل لك قريب تريدين تعيينه مراقبًا للعمّال؟

فقالت زايا وهي تنتحب:

- ليس لي في الدنيا غير هٰذا الطفل.

فقال الرجل:

- ستأويان إلى حجرة نظيفة ولن تعرفا ذلّ السؤال.

وهكذا غادرت زايا مكتب مفتّش الهرم أرملة بائسة، تندب زوجها السّيّئ الحظّ وطالعها المنكود.

- ٨ -

وكانت البيوت التي أمر فرعون بإقامتها لأُسَر العمّال

المستشهدين تقع خارج أسوار منف البيضاء شرقيّ الهضبة المقدّسة، كانت بيوتًا متوسّطة الحجم يتكوّن كلّ منها من طابقين، وكلّ طابق من أربع حجرات متّسعة، وقد أقامت زايا في حجرة هي وطفلها، وألفت نفسها تعيش بين أولئك الخلق من الأرامل والثكليات والأطفال، منهنّ من لا تفتأ تندب قتيلها ومنهنّ من اندمل جرحها وعفا الزمان على أحزانها. وكانوا جماعة من ذوي همّة ونشاط، فاشتغل الصبيان بتوزيع الماء على العمّال، واتّجرت النسوة بالأطعمة والجعة، وتحوّل الحيّ البائس إلى سوق ناشئة رخيصة دبّت بها حركة العمران والعمل، وبشّرت بأن تكون جنين قرية يافعة..

وقد أمضت زايا أيّامها الأولى بسكنها الجديد في حزن متّصل وبكاء أليم على الزوج الفقيد، وعذّبها الحزن عذابًا لم يخفّف بلواه عنها ما تلقى من توفّر الرزق وما تنعم به من عطف بشارو مفتّش الهرم العامّ، ولٰكن وا أسفاه! فلو ذكر المصابون في قلوبهم أنّ الموت فناء يطمس الذكرى ويُذهب الأحزان في قلب الحيّ بنفس السرعة التي يفنى بها وجود الميت، لوفّروا على أنفسهم جهدًا ضائعًا وعذابًا مريرًا، فقد تعزّت وأنستها متاعب الحياة مرارة الموت، لأنّها أحسّت بتأفّف في مقامها الجديد وضاقت به ولمّا تمض به سوى شهور قلائل، واقتنعت بأنّه ليس المكان اللائق بها ولا بابنها، ولكنّها لم تر عن الصبر محيدًا فسكتت على الحزن والضيق.

وفي أثناء تلك الشهور زارها المفتش بشارو عدّة مرّات، لأنّه كان يجيئها كلّما ذهب للتفتيش على المساكن وتفقّد أحوالها، حقيقة أنّه كان يزور كثيرات من الأرامل ولٰكنّ زيارته لزايا امتازت برحمة ومودّة، وما من شكّ في أنّ الأخريات لم يكنّ أقلّ بؤسًا من زايا ومنهنّ من يفُقْنها شقاء، ولٰكن لم يكن لواحدة منهنّ عينان عسليّتان ساحتتان كعيني زايا، ولا جسم ممشوق لدن كجسمها. وقالت زايا لنفسها وهي مستغرقة في لجج التأمّل والتفكير: ما أطيبه من رجل، إنّه بدين قصير، غليظ القسمات، في الأربعين من عمره أو يزيد، ولكنّه طيّب القلب عظيم المودّة..! وكانت تلحظ بعين نافذة خفيّة أنّه إذا وقع بصره على جسمها اللدن اضطرب جفناه الثقيلان وانفرجت شفتاه الغليظتان. وحلّ الهوان في طلعته محلّ الخيلاء والكبرياء فتعاطيه تثنّيًا رقيقًا يسمّره في مكانه ثواني كأنّه خنزير محاصر. وتولّدت المطامع في قلب زايا فسلّت سلاحها للاستيلاء على المفتّش العظيم، وقد انتهزت مرّة فرصة حضوره فشكت إليه سوء ما تلقى من الوحشة والكآبة في مقامها البائس، وقالت له:

ـ لعلّي أكون ذات نفع يا سيّدي في غير هذا المكان، فإنّي خدمت طويلًا في قصر أحد سراة أون، ولي خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات.

فارتجّ جفنا الرجل الغليظان، ونظر إلى الأرملة الحسناء بعين طامعة وقال:

ـ فهمت يا زايا، فليس ما تشكين هو العطلة أو الخمول، ولٰكنّ نفسك ألفت نعيم القصور فلا يتأتّى لها الصبر على مثل هٰذه الحياة البائسة.

فابتسمت الماكرة في رقّة ودلال، وكشفت عن وجه ددف الجميل وقالت:

ـ هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن؟

فقال المفتّش:

ـ كلّا.. ولا بك يا زايا.

فاحمرّ وجهها وأسبلت جفنيها حتّى مسّت أهدابها نقرتي خدّيها، فقال الرجل:

ـ إنّ لي ذلك القصر الذي تريدين، ولعلّه يريدك أيضًا.

ـ إنّي رهينة إشارة مولاي.

ـ لقد ماتت زوجتي تاركة لي ابنين، وعندي من الجواري أربع، فهل تكونين الخامسة يا زايا؟

ومنذ ذٰلك اليوم انتقلت زايا وطفلها ددف من حيّ البائسات إلى حريم مفتّش الهرم بشارو بقصره الجميل الذي تمتدّ حديقته حتّى تبلغ مجرى النيل المقدّس، وانتقلت إليه كجارية ذات حظوة ليست لغيرها. ووجدت الجوّ خاليًا لمكرها وسحرها، لأنّ القصر كان بدون ربّة مسيطرة، ولأنّ ابنَي المفتّش كانا حبيبين

صغيرين، فعملت على أسر لبّ سيّدها. ونجحت في مسعاها حتّى حملته على الزواج منها، وسرعان ما صارت زوج المفتّش بشارو وربّة قصره والمشرفة على تنشئة ابنيه خنى ونافا، ولم تكن زايا يخونها المكر أبدًا، فمنذ تسنّمت مكانتها العالية أقسمت فيما بينها وبين نفسها لتحسننّ معاملة الصبيّين، وتكوننّ لهما نعم أمّ الحنون.

وهكذا ابتسم الحظّ لزايا بعد تقطيب، وأقبلت عليها الدنيا بعد إدبار.

- ٩ -

ذلك هو القصر الذي قضت الأقدار بأن يكون مرتع طفولة ددف رع. وقد تمتّع الطفل بطفولة خالصة ثلاث سنوات كاملة - كما جرت العادة بمصر على أيّامه - لم يفارق فيها حضن أمّه إلّا حين النوم، وقد ترك - في تلك السنوات الثلاث - أثرًا على صدر زايا لم يمح منه طيلة العمر، فملأه أمومة ورضع منه حنانًا ومحبّة، ولا نستطيع أن نحدّث عن طفولة ددف الأولى بأكثر من مسّ ظواهرها، لأنّها - ككلّ طفولة - سرّ مغلق وسعادة في قمقم لا يعرف كنهها إلّا الآلهة التي تحوطه بالعناية وتلهمه النجوى، وقصارى ما يقال إنّه كان ينمو سريعًا كما تنمو أشجار مصر تحت أشعّة شمسها المشرقة. وإنّ نفسه كانت تتفتّح كاشفة عن حسنها كما تتفتّح الوردة إذا سرى في عودها دفء الحياة وانبعث فيها روح الجمال. وإنّه كان سعادة زايا ونور عينيها كما كان لعبة نافا وخنى الثمينة المفضّلة، يتخاطفانه ويقبّلانه ويعلّمانه الأسماء والنطق والمشي. وإنّه ختم طفولته الأولى بعلم لا يستهان به فتعلّم كيف يقول لزايا «أمّاه»، وعلّمته المرأة أن يقول لبشارو «أبتاه» وكان الرجل يتقبّلها منه بحبور، وكان يتفاءل بوجهه الصبيح الجميل الذي يكتسب رونقه من بهاء اللوتس. وما زالت أمّه به حتّى تعلّم كيف ينطق رع، وكانت تطلب إليه النطق بها قبيل النوم وعقب الاستيقاظ لتستدرّ عطف الربّ على ابنه الحبيب.

وحين بلوغ الثالثة هجر حضن زايا ومضى يحبو في حجرة أمّه، أو يسير متوكّئًا على المقاعد والدواوين ما بين البهو والحجرات، ودلّته غريزة الاستطلاع على نقوش الوسائد وزخرفة المناضد ورسوم الجدران والتحف المنثورة والمصابيح المدلّاة، فعبثت يده بما استطاعت الوصول إليه ومدّ قبضته للعزيز الممتنع حتّى إذا أعياه القصد صاح «رع»، أو نفّس عن صدره الصغير بآهة عميقة واستأنف السير وأخذ في البحث والاستكشاف، ثمّ أتاه المفتّش بشارو بثروة عظيمة من اللعب: كالحصان الخشبيّ، والتمساح الفاغر فاه، والعربة الحربيّة الصغيرة. فكان يعيش معها في دنيا غير الدنيا، دنيا يخلق فيها الحياة ويسيطر على المصائر ويقول للشيء كُنْ فيكون، فكان للحصان الخشبيّ حياته وآماله، وللتمساح الفاغر فاه حياته وأطماعه، بل كان للعربة نفسها حياتها ومطالبها، وكان يحادثها فتحدّثه، ويأمرها فتطيعه وتكشف له في كلّ حين من أسرار الجماد ما تخفيه عادة عن الراشدين.

وعلى ذلك العهد ولد جاموركا من أبوين عريقين من سلالة أرمنت، وقد استقبله ددف رع استقبالًا حفيًّا، ووهبه حجره يأوى إليه، وتوثّقت عرا المودّة بينهما منذ ذلك العهد المبكّر. وقد قضت محبّة ددف لصديقه أن ينشأ هذا نشأته الأولى في حضنه وأن يتبعه في أثناء نومه كظلّه. وأن يلقّن اسمه «جاموركا» بلسانه الحلو، وأن يكون أوّل نباحه نداء عليه، وأوّل تحريك ذيله القصير حفاوة به، ولكن واأسفاه لم تخل طفولة جاموركا من عذاب، فكان التمساح الفاغر فاه واقفًا له بالمرصاد ينغّص عليه سعادته ويكدّر صفوه، وكان إذا رآه نبح وبرقت عيناه وتصلّب جسمه وكرّ وفرّ، ولا يهدأ حتّى يخفي ددف تمساحه المخيف.

وكانا لا يكادان يفترقان، فإذا أوى ددف إلى سريره رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد ساكنًا - وقليلًا ما يفعل - جلس قبالته وبسط ذراعيه، أو مضى يلعق خدّيه ويديه كيف شاء حنانه واقتضت مودته، وكان يتبعه إلى مماشي الحديقة ويركب معه القارب إذا حملتهما زايا إليه للترّيض في بركة القصر، فكانا يطلّان برأسيهما من حافة القارب وينظران إلى صورتيهما في

الماء، أمّا جاموركا فلا يسكت عن النباح، وأمّا ددف فيعجب لذاك الصغير الجميل الذي يشبهه ويعيش في باطن البركة.

وكانوا إذا أتى الربيع وصدحت السماوات بأناشيد الطير، وانشقّت أردية الشتاء الكثيفة عن نور الشمس البهيج، واحتفى الكون بعيد الشباب، فلبست الأشجار حللًا من سندس، وازّينت الشجيرات بألوان الورود والرياحين، وتدفّق الحبّ في القلوب، كانوا يكثرون من رياضة الزورق على سطح الماء، وكانوا يتركون الأطفال عرايا إلّا ممّا يستر، فكان خني ونافا يقفزان إلى الماء ويسبحان ويتقاذفان بالكرة. ويقف ددف إلى جانب جاموركا يشاهدهما بسرور وغيرة، وربّما طلب إلى أمّه أن يفعل مثلهما فترفعه من تحت إبطيه وتغطّسه في الماء إلى الوسط فيلعب بقدميه ويصيح فرحًا مسرورًا.

فإذا ارتوت نفوسهم لهوًا ولعبًا عادوا جميعًا إلى حجرة الحديقة الصيفيّة. وجلست زايا على الديوان وجلس بين يديها ددف وخني ونافا وأمامهم جاموركا باسطًا ذراعيه، فتقصّ عليهم قصّة البحّار الذي تحطّمت سفينته وقذفت به الأمواج على لوح من الخشب إلى جزيرة مهجورة، وتروي لهم كيف ظهر له الثعبان الهائل صاحب الجزيرة وكيف كاد يفتك به. لولا أنّه علم أنّه رجل مؤمن محمود السيرة وأنّه من رعاية فرعون، فطمأنه ووهب له سفينة من عنده محمّلة بالنفيس من الكنوز عاد بها سالمًا آمنًا إلى وطنه.

وما كان ددف يسمع بأذنيه ولكنّه كان يرى بعينيه السوداوين الجميلتين.

كان سعيدًا محبوبًا، ومَنْذا الذي كان يستطيع ألّا يحبّ ددف ذا العينين السوداوين الدعجاوين والأنف الطويل المستقيم والروح الخفيف الضاحك؟ كان يحبّ إذا تكلّم وإذا سكت، يحبّ إذا لعب وإذا سكن، يحبّ إذا رضي وإذا غضب. وقد تمتّع بنعمة الحبّ واللهو في حياة قوامها الحبّ واللهو والخيال، يعيش كالخالدين دون أن يسأل عن غد.

إلى أن بلغ الخامسة من عمره وبدأت الحياة تكشف له عن بعض خبيئتها.

وفي ذلك الوقت بلغ خني الحادية عشرة ونافا العاشرة واختتما تعليمهما الأوّليّ، واختار خني أن يلتحق بجامعة بتاح ليرقى مدارج علمها المتتابعة ويتفقّه في الدين والأخلاق والعلوم والسياسة، إذ كان الغلام ميّالًا للعلم شغوفًا بالحكمة وكان يرغب في شغل وظيفة دينيّة أو قضائيّة، أمّا نافا فلم يتردّد في الالتحاق بمعهد خوفو للفنون الجميلة، لأنّه كان يهوى الرسم والتصوير.

وجاء الدور على ددف ليلتحق بالمدرسة الأوّليّة، وليقضي عليه بهجر زايا وجاموركا وعالم الأحلام كلّ يوم أربع ساعات كاملة، يصرفها مع الأطفال والأغراب في تعلّم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والهندسة والدين والأخلاق والتربية الوطنيّة.

وكان أوّل ما قيل له ولهم في اليوم الأول: «عليكم بالإصغاء التامّ، ومن يأبَ ذلك منكم فاعلموا أنّ أذني الطفل فوق خديه وهو يرهف السمع كلّما ضرب».

ولأوّل مرّة في حياة ددف اشتركت العصا في التفاهم معه. على أنّه أبدى استعدادًا طيّبًا للتعلّم، وأقبل بشوق عظيم على درس اللغة الهيروغليفيّة الجميلة، وبرع في فهم مسائل الجمع والطرح.

وكان لمدرّس الأخلاق أثر عظيم في نفسه، لأنّه كان ذا شخصيّة قويّة محبوبة، وكان يبتسم ابتسامة حلوة تبثّ في أنفس التلاميذ المودّة والاطمئنان، وزاد من حبّ ددف له أن وجد شبهًا بينه وبين أبيه بشارو في بدانة الجسم وانتفاخ الشدقين وجهارة الصوت وغلظه، فكان يصغي إليه بمجامع وجدانه وهو يقول: «انظروا ماذا يقول حكيمنا قاقمنا، إنّه يقول ـ تقدّست روحه في السماوات ـ: «احذر أن تكون عنيدًا في الخصام فتستوجب عقاب الربّ، ويقول: إنّ قلّة الأدب بلادة ومذمّة، ويقول أيضًا: إذا دعيت إلى وليمة وقدّم لك من أطايب الطعام ما تشتهيه فلا تبادر إلى تناوله لئلا يحسبك الناس شرهًا. فإنّ جرعة ماء تروي الظمأ، ولقمة خبز تغذّي الجسم». ثمّ يأخذ

بعد ذلك في التفسير وضرب الأمثال وقصّ القصص، وكان كثيرًا ما يقول لهم: «يجدر بالطفل منكم ألّا ينسى ما تكلّفته أمّه من المتاعب من أجل راحته، فقد حملته في بطنها تسعة أشهر، وحضنته ثلاث سنوات وغذّته بلبنها. احذر أن تغضبها، فالربّ يستمع إلى شكواها ويستجيب دعاءها».

كان ددف يصغي إلى مدرّسه بوعيه الكامل، ويتلذّذ بأمثاله وقصصه ويتأثّر بقوله غاية التأثّر. وأمضى في تعليمه الأوّليّ سبع سنوات أتمّ فيها مبادئ العلوم وأتقن الكتابة والقراءة.

وفي أثناء تلك الفترة توثّقت أواصر الودّ بينه وبين أخيه نافا، فكان يجلس إلى جانبه وهو يرسم أو يصوّر، يتتبّع بعينيه الفاتنتين هاتيك الخطوط التي يخلق تلاحمها أجمل الأشكال وأبدع المعاني. على أنّ نافا كان يملك قلبه بضحكه الذي لا ينقطع، وبروحه المرحة وبنكاته اللطيفة.

وكان لخنى أثر بيّن في عقله، جعل علمه الناشئ يجاوز المبادئ ويتّصل بالإلهيّات والعلوم العالية في تلك السنّ المبكّرة، وذلك أنّ خنى كان يعجبه خطّ ددف، فكان يملي عليه مذكّراته ومحاضراته فأضاء عقله الصغير قبس من نور قاقمنا ووحي من كتاب الموتى ونفثات من أشعار تايا، وكانت تنساب إلى عقله في لطف، ولكن في هالات من الغموض والإبهام أيقظته من سباته وبثّت فيه القلق والحيرة والحياة.

وقد أحبّ خنى أيضًا ـ رغم رزانته وتجهّمه ـ وكان إذا شبع جريًا ولعبًا هو وجاموركا أوى إلى حجرته ليكتب له محاضراته أو ليقلّب في الكتب المحلّاة بالصور، فتأمّل من صغره صورة بتاح ربّ منف وصولجانه ذي العلامات الثلاث الدالّة على القوّة والحياة والخلود، وصورة العجل أبيس المقدّس الذي تحلّ به روح بتاح المعبود، وكان يمطر خنى بالأسئلة فيجيبه الشابّ عنها بصبر، ويروي له الأساطير وما أعظم ما كانت تستولي عليه!.. كان يجلس القرفصاء مصغيًا إلى أخيه وجاموركا أمامه يوليه وجهه، ويولي الأستاذ وأساطيره الدينيّة ظهره!

وانتهت المرحلة السعيدة الممتعة: وأوفى منها ددف على الغاية وأكثر، بل فاق عقله عمره: فكان مثله مثل شجرة الورد التي تنبت الزهر الجميل ولم تَعْلُ عن الأرض أشبارًا.

- ١٠ -

واهًا! إنّ الزمان يتقدّم غير ملتفت إلى الوراء، وينزل ـ كلّما تقدّم ـ قضاءه بالخلائق، وينفّذ فيها مشيئته التي تهوى التغيير والتبديل، لأنّه ملهاته الوحيدة التي يستعين بها على ملل الخلود، فمنها ما يبلى ومنها ما يتجدّد، ومنها ما يموت ومنها ما يحيا، ومنها ما يبتسم شبابه، ومنها ما يرد إلى أرذل العمر، ومنها ما يهتف للجهال والعرفان، ومنها ما يتأوّه لدبيب اليأس والفناء.

وقد فعل الزمان فعله بأسرة بشارو.

فقد بلغ الرجل الخمسين من عمره، ودبّ الترهّل في بدانته، وخطّ المشيب رأسه، وأخذ يودّع شيئًا فشيئًا القوّة والشباب والفتوّة، وازداد جهازه العصبيّ حسّاسيّة فكثر صياحه وصخبه وانتهاره الحرّاس وزجره الكتبة، ولكنّه كان كالثور المصريّ عظيم الخوار عديم الأذى، لأنّ طبيعته تمسّكت بصفتين لا تتنازل عنهما ولا تخضع فيهما لحكم زمان: فخاره وطيبة قلبه، فهو مفتّش عامّ هرم خوفو وويل لمن يخاطبه فلا يقرن باسمه وظيفته وألقابه، وهو لا يملّ الحديث عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولا يسرّه حديث كحديث الملق والإطراء.

وكان إذا دعي إلى المثول بين يدي فرعون بحكم وظيفته، نشر الخبر في كلّ مكان تصل إليه دعايته، فيعلم به أهل بيته صغيرًا وكبيرًا وأصحابه ومرءوسوه، ولا يكتفي بذلك فيقول لنافا وخنى وددف: «هلمّوا أذيعوا النبأ المجيد بين إخوانكم، وتنافسوا أيّها الصغار لتبلغوا الذروة التي تسنّمها أبوكم بالإخلاص والعمل والمواهب العالية»، ولكنّه ظلّ كما كان الرجل الطيّب الذي ينفر قلبه من الأذى ولا يجاوز غضبه طرف اللسان.

وقد بلغت زايا الأربعين ولم تنل منها السنون إلّا

قليلًا، فاحتفظت بمعالم جمالها وكمال نضجها، وصارت السيادة والكرامة من طباعها الثابتة. فمن يرها تقوم على قصر بشارو لا يَجْرِ لها على بال أنّها تلك التي كانت زوجًا للعامل كاردا وخادمًا للسيّدة رده ديديت. بل هي نفسها أدرجت ذكريات الماضي في أكفان النسيان، ومنعت الذاكرة من التسلّل إلى زوايا التاريخ المنطوي، لتتمتّع بسعادتها الأولى ـ أمومتها لددف ـ متعة خالصة، والحقّ أنّ حناياها كانت تهفو إليه كأنّه سكنها تسعة أشهر، كما أنّ أعزّ آمالها أن تراه رجلًا مجيدًا سعيدًا.

وفي ذلك الوقت كان خنى قد قطع مرحلة طويلة في تعليمه العالي، ولم يبق أمامه سوى ثلاث سنوات للتخصّص، ولمّا كان الشابّ بطبعه ميّالًا إلى الدراسة والتعمّق في أسرار الكون فقد اختار اللاهوت وآثر الانخراط في سلك الكهنوت، ولم يكن الأمر متوقّفًا على محض اختياره، لأنّ الكهنوت علم عزيز لا يلج أبوابه إلّا من يجتاز ـ بعد إتمامه الدراسة العالية بما فيها التخصّص ـ اختبارات نظريّة وعلميّة شاقّة عدّة سنوات في أحد المعابد، ولكن قوبل طلب خنى بالعطف لما أبداه في أثناء حياته الدراسيّة من الذكاء والفطنة والأخلاق النبيلة، وكأنّه لم يرث من والده إلّا صوته الأجشّ الأجوف، وفيما عدا ذلك كان نحيفًا دقيق القسمات هادئ الملامح، تُذكِّر صورته بصورة أمّه التي اتّصفت بالورع والتديّن.

وكان في ذلك على النقيض من شقيقه نافا الذي ورث عن والده جسمه البدين ووجهه الممتلئ والكثير من أعماق روحه، فكان طيّبًا مرحًا، وكان من حسن حظّه أن خرجت قسماته أدقّ من قسمات والده الغليظة الثقيلة، وقد حاز الشابّ أعلى شهادة في فنّ الرسم والتصوير، واكترى بمعونة والده ـ بيتًا صغيرًا في شارع سنفرو ـ وهو أهمّ شوارع منف التجاريّة ـ وجعله محلًّا لعمله ومقامًا لعرض آياته الفنّيّة، وكتب على لافتة بالخطّ الهيروغليفيّ الجميل: «نافا بن بشارو. إجازة معهد خوفو للفنون الجميلة»، ومضى يعمل ويحلم وينتظر صابرًا جمهور الطالبين والمعجبين. ولم يَنْجُ جاموركا من فعل الزمن فنيا وضخم وقصر شعره الأسود الذي كان مسبلًا، وتبدّت على وجهه آي القوّة والشدّة، وعلى أنيابه بيّنات القسوة والويل، وأجشّ صوته واخشوشن، فكان إذا نبح دوّى نباحه دويًّا وبعث الرعب في أفئدة القطط والثعالب والذئاب، وأعلن للملإ أنّ حارس قصر المفتّش ساهر، وكان على صلابته وشدّته أرقّ من النسيم على صاحبه وحبيبه ددف، الذي زادت الأيّام ما بينهما توثّقًا ومودّة، فكان إذا ناداه لبّى وإذا أمره أطاع وإذا انتهره ذلّ وسكن، بل إنّهما استغنيا بنجوى السرائر عن لغة الظاهر، فكان جاموركا يحسّ بمجيء ددف إلى البيت إحساسًا خفيًّا، فيهرع إلى لقائه ولمّا يره. وكان يتعارف على باطنه بقدرة عجيبة قد تخون أقرب الناس إليه، فكان يعرف حالات رضاه فيُقبل عليه ملاعبًا ويقفز واضعًا يديه على منطقة وزرته، كما كان يحسّ بحالات تعبه أو ضيقه فيسكن بين قدميه مكتفيًا بتحريك ذَنَبه.

أمّا ددف فقد بلغ الاثني عشر عامًا من عمره، وجاء الوقت الذي ينبغي أن يختار فيه وجهته التي يوليها في الحياة. والحقّ أنّه إلى ما قبل ذلك بقليل لم يجرِ تفكيره في تلك المسألة الخطيرة، وكان الغلام يبدي نشاطًا عامًّا محمودًا، وقد خدع خنى بتشوّقه إلى الفلسفة حتّى حسبه كاهنًا وحسب الكهنوت مستقبله دون غيره. ولكنّ نافا ـ وكان بحكم فنّه أنفذ بصرًا ـ كان يشاهده وهو يسبح وهو يجري وهو يرقص، وكان يرى جسمه النامي وقدّه المشوق فيقول لنفسه وهو يكسوه بخياله اللباس الحربيّ: «يا له من جنديّ!» وكان نافا عظيم التأثير في ددف للحبّ المتبادل بينهما، فوجّه ذاك التوجيه الذي باركته زايا وتحمّست له، ومنذ ذاك اليوم ولا شيء يجذب عيني زايا في الأعياد مثلما يجذبها منظر الجنود والفرسان وفصائل الجيش.

ولم يكن بشارو ليحفل بما يختار ددف من فنون الحياة فهو لم يتدخّل مطلقًا في اختيار خنى أو نافا لمستقبلهما، ولكنّه وجد ميلًا إلى التأمّل فقال لددف ـ وكانوا جميعًا جلوسًا في الحجرة الصيفيّة ـ وهو يُربّت بلطف على كرشه العظيم:

ـ ددف، ددف الذي كان يحبو بالأمس القريب!، ددف أضحى يجهد رأسه الصغير في التفكير في اختيار سبيـل له في الحيـاة ينهجه كـرجل مسئـول! لقد دار الزمان دورة غادرة، حناك أيّها الزمان ببشارو أو رفقًا به حتّى يكمّل بناء الهرم فإنّك لن تجد له خلفًا صالحًا.

وقالت زايا تعلن رغبتها:

ـ لا داعي لكثرة الأسئلة، فإنّ من ينظر إلى وجه ددف الجميل وقامته الفارعة وقوامه المعتدل لا يرتاب لحظة في أنّـه يـرى ضـابـطًا من ضبّـاط العجـلات الفرعونيّة.

وابتسم ددف إلى أمّه التي وافق حديثها هواه، وذكر فرقة العجلات التي رآها تشقّ طرق منف ـ يوم عيد بتاح ـ في صفوف متحاذية منتظمة لا تشذّ عنها يمينًا أو شمالًا ولا إلى الأمام ولا إلى الخلف، والفرسان على العـربات منتصبـون لا يميلون ولا يضطربـون كـأنّهم مسلّات مشيّدة، ترمقهم الأبصار وترنو إليهم عيـون الحسان.

ولكن خنى لم يرض عن اختيار زايا وقال بصـوته الغليظ الذي يشبه صوت أبيه:

ـ كلّا يا أمّاه إنّ ددف كاهن بالفطرة، وطالما وضح لي استعداده للتعلّم وميله للعلم والمعرفة، وطالما ألحّت عليّ أسئلته الكثيرة الدالّة على الفطنة والذكاء، فمكانه المختار جامعة بتاح لا المـدرسة الحـربيّة. مـا رأيك ياددف؟

وكان ددف شجاعًا صريحًا لا يتردّد عن إبداء رأيه فقال:

ـ يؤسفني أن أخيّب رجاءك هذه المرّة أيها الأخ، ولكنّ الحق أنّي راغب في الجنديّة.

فوجم خنى، أمّا نافا فقد ضحك ضحكـة عاليـة وقال لددف:

ـ أحسنت الاختيـار ياددف. فـما صـورتـك إلّا صورة جنديّ، هكذا أقنعني خيالي.. ولو أنّك اخترت في الحياة فنًّا آخـر لذقت مـرّ الخيبة وتـزعزعت ثقتي بنفسي.

وهزّ بشارو منكبيه استهانة وقال:

ـ سواء لديّ اخترت الجنديّة أم الكهنوت، وعلى كـلّ حال أمـامك عـدّة أشهـر فيهـا متّسـع للتفكـير والرويّة.. إيه لكم أيّها الأبناء! يخيّل إليّ أنّه لن يخلف أحدكم أباه، وأنّ واحدًا منكم لن يعيد تمثيل الدور الخطير الذي قمت به في الحياة.

وفاتت الشهور دون أن تغيّر من رأي ددف، فقرّ رأي الأسرة على إلحاقه بالمدرسة الحربيّة.

وفي تلك الأثناء واجهت بشارو أزمة فكريّة مرّة، هيّأت أسبابها أبوّته المزعومة لددف، وقد تساءل الرجل في حيرة: هل ينبغي أن يحافظ على ادّعاء هذه الأبوّة، أم أنّه آن الأوان لإعلان حقيقتها وفصم عراها؟ وكان خنى ونافا يعرفان حقيقة المسألة، ولكنّهما لم يشيرا إليها بتاتًا لا في السرّ ولا في العلانية حبًّا في الغلام وضنًّا به.

وكان بشارو يقدّر وقع الصدمة عـلى نفس الغلام البريئة السعيدة فيقشعرّ بدنه، ويذكر زايا وما يحتمل من غضبها وسخطها فيحجم إشفاقًا، وهو ما فكّر في ذلك عن سوء قصد أو عن زهد في ددف ولكنّه كان يعتقد أنّ هذه الحقيقة ستعلن عن نفسها إذا لم تجد لسانًا يعلن عنها، وأنّ الخير كلّ الخير أن تكشف له الآن ليخلص من محنتها لا أن تدّخـر له حتّى يكـبر فيضاعف له عذابها، وتردّد الرجل الطيّب فلم ينته إلى عزم، ولمّا كان ينبغي أن ينتهي إلى رأي قبل إلحـاق ددف بالمدرسة الحربيّة، فقد أسرّ الرجل بذات نفسه إلى ابنه خنى، ولكنّ الشابّ هاله الأمر وقال لأبيه بألم وحزن عميقين:

ـ إنّ ددف أخونا، بل إنّ ما يربطنا به من الحبّ لأقوى من الأخوّة الطبيعيّة. وما الذي يضيرك يا أبتي لو أنّك تركت الأمور عـلى ما هي عليـه ولم تفاجىء الغلام العزيز بضربة الذلّ والمسكنة؟

وكان الشأن الوحيد الذي يعمل له حساب في أبوّته هو الميراث، ولكنّ بشارو لم يكن له من حطام الدنيا سوى راتب كبير وقصر ضخم فلن تؤذي أبوّته لددف

أحدًا، ولذلك أشفق الرجل من لهجة خنى الغاضبة وقال يدفع عن نفسه:

- كلّا يا بنيّ لن تقع ضربة الذلّ أبدًا، لقد دعوته يابنيّ وسأظلّ أدعوه بها، ولسوف يكتب اسمه بين طلبة المدرسة الحربيّة: ددف بن بشارو.

ثمّ ضحك الرجل كعادته وقال وهو يفرك يديه:

- ربحت ابنًا جنديًّا.

فقال خنى وهو يمسح دمعة سالت على خدّه:

- بل ربحت رضا الربّ وغفرانه.

- ١١ -

أوشك شهر توت على الفوات، ولم يبق منه إلّا عدّة أيّام هي كلّ ما تبقّى لددف من الزمان في بيت بشارو ثمّ يغادره بعدها إلى المدرسة الحربيّة. وكانت تلك الأيّام أشدّ أيّام زايا العصيبة، غلب عليها فيها الشرود والذهول والتفكير بمرارة في الشهرين الطويلين اللذين سيحتجبها ددف داخل المدرسة.. والأعوام الطويلة التي لن تتاح لها رؤيته فيها سوى مرّة كلّ شهر، فتحرم من رؤية وجهه الجميل وسماع صوته الحبيب، ويغيب عن قلبها الاطمئنان الذي يقرّ فيه لقربه والهناء الذي يشمله لوجوده.. فما أقسى الحياة! وقد غشّى الحزن قلبها قبل حدوث أسبابه، وظلّلت حياتها غشاوات من الألم مثل هاتيك السحائب المنتثرة ساقتها الرياح بين يدي غيم هاتور وكيهك الداكن المكفهرّ.

وحين صاحت الديكة عند الفجر معلنة قدوم اليوم الأوّل من بابه، استيقظت زايا على صياحها وقعدت في سريرها مضطربة حزينة، وتنهّدت تنهّدة حارّة كانت أوّل ما استقبل اليوم من عالم الأحزان، ثمّ تركت فراشها وسارت في خفّة إلى مخدع ددف لتوقظه وتودّعه. ودخلت الحجرة على أطراف أصابعها كيلا تزعجه فاستقبلها جاموركا وهو يتمطّى، وخاب ظنّها لأنّها وجدت الغلام قد استيقظ دون مساعدة، وكان يغنّي بصوت خافت نشيد «نحن أبناء مصر انحدرنا من سلالة الآلهة». استيقظ الغلام وحده يلبّي أوّل نداء للجنديّة، وقد نادته من قلبها «ددف». فانتبه إليها مهلّلًا وجرى نحوها كطائر يستقبل نور الصباح وتعلّق بعنقها ورفع إليها فمه، فقبّلته بحنان، وقبّلت خدّيه ورفعته بين ذراعيها فقبّلت ساقيه، ثم حملته إلى الخارج وهي تقول:

- تعال ودّع أباك.

ووجد بشارو ما يزال يغطّ في نومه ويصعّد أنفاسًا ناشزة من شخيره ونخيره، فهزّته بيدها فانتفض مرتعبًا وصاح: من؟ .. من؟.. زايا!

فضحكت وصاحت به:

- ألا تريد أن تودّع ددف؟

فجلس في فراشه وفرك عينيه ثمّ نظر إلى الغلام على ضوء المصباح الخافت، وقال:

- ددف.. أذاهب أنت؟ تعال أقبّلك.. والآن اذهب محوطًا برعاية بتاح!

وقبّله بشفتيه الغليظتين مرّة أخرى واستطرد:

- أنت الآن طفل ياددف ولكنّك ستغدو جنديًّا ماهرًا.. إنّي أتنبّأ بهذا، ونبوءة بشارو خادم فرعون لا تخيب.. اذهب يابنيّ آمنا وسأصلّي من أجلك في المحراب..

وقبّل ددف يدي والده وخرج مع والدته، وفي الردهة الخارجيّة لقيا خنى ونافا متأهّبين، وضحك نافا وقال:

- هيّا أيّها الجنديّ الباسل، إنّ العربة في الانتظار.

وحنت عليه زايا بوجه غيّره التأثّر، فرفع إليها وجهًا يطفح بالفرح والحبّ.

واهًا.. لقد مرّت الشهور سراعًا وحمت ساعة الوداع، فلا الحضن يشفي ولا القبلة تعزّي ولا الدموع تخفّف البلوى. لقد هبط ددف في السلّم بين أخويه راطمأنّ إلى مكانه من العربة جانبها، وابتعدت العربة بالحمل العزيز وهي ترنو إليها من خلل دموعها، حتّى بلعتها زرقة الفجر.

- ١٢ -

وبلغت العربة «مرعى أبيس» أجمل ضواحي منف حيث تقع المدرسة الحربيّة ولمّا تشرق الشمس، ولكنّهم

وجدوا الميدان الممتدّ أمام المدرسة مزدحمًا بالراغبين في الالتحاق بها وفي صحبة كلّ منهم واحد أو أكثر من أقربائه، وكان كلّ منهم ينتظر دوره في النداء عليه والذهاب للكشف، وبعدها إمّا يبقى داخل المدرسة أو يعود من حيث أتى.

وكأنّ الميدان ـ ذلك الصباح ـ كان مَعْرِضًا للجياد المطهّمة والعربات الفخمة، لأنّه لم يكن يتقدّم إلى المدرسة الحربيّة إلّا أبناء الطبقة الحربيّة والصفوة من أبناء الأثرياء، وتلفّت ددف يمنة ويسرة فرأى وجوهًا ليست غريبة عليه لأنّه زاملها أعوامًا في المدرسة الأوّليّة، فانتعشت نفسه وملئت مسرّة وشجاعة.

وكان صوت المنادي لا ينقطع عن النداء وسيل التلاميذ لا يتوقّف عن الدخول من باب المدرسة الكبير، منهم من يبقى في الداخل ومنهم من يخرج مرّة أخرى بوجه كاسف ونفس أسيفة.

وكان خنى ينظر إلى هاتيك الجموع بوجه جامد، فلم يرتح ددف إلى مظهره وسأله بقلق:

ـ أواجد عليّ يا أخي؟

فربّت الشابّ على منكبيه وقال:

ـ معاذ الربّ ياعزيزي ددف، إنّ الجنديّة حياة سامية على شرط أن تكون واجبًا عامًّا يؤدّي كلّ قسطه منه إلى حين، ثمّ يعود بعده إلى حياته الإنسانيّة، فلا يهمل موهبة من مواهبه السامية ويصون روحه عن التلف، وإنّي مطمئنّ ياددف إلى أنّك لن تطمس التشوّف الذي أنار روحك في حجرتي. أمّا الانغمار في الجنديّة والتفرّغ لها فمعناه النزول عن الإنسانيّة وتدمير الحياة العقليّة والرجوع القهقرى إلى مراتب الحيوان.

فضحك نافا كعادته وقال:

ـ الحقّ أنّك يا أخي تنشد الحياة الطاهرة الحكيمة حياة الكهنوت، أمّا أمثالي فينشدون الجمال والمتعة، ويوجد غيرنا آخرون ـ هم هؤلاء الجنود ـ يمتعضون من التأمّل ويعبدون القوّة. وحمدًا للأمّ إيزيس فإنّها وهبتني عقلًا يستطيع أن يرى جمالًا لكلّ لون من ألوان هاته الحيوات، ولكنّي لا أملك إلّا أن أوثر في النهاية حياتي. والحقّ أنّ الفصل بين هٰذه الحيوات لا يتأتّى إلّا لواحد عليم بها غير متعصّب لإحداها. وهيهات أن يوجد هذا القاضي.

ولم يطل الانتظار بددف فسمع المنادي يصيح: «ددف ابن بشارو» فخفق قلبه، وسمع نافا يقول له:

ـ ودّعنا ياددف فلا احتمال لعودتك معنا اليوم.

فعانق الغلام أخويه وسار إلى الباب الرهيب، ثمّ أدخل إلى حجرة على يمين الداخل حيث تلقّاه جنديّ فأمره بأن يخلع ملابسه، فخلع الغلام ثيابه وتقدّم إلى طبيب مسنّ ذي لحية بيضاء فحصه عضوًا عضوًا وألقى على هيئته نظرة عامّة، ثمّ قال للجنديّ «مقبول»، فارتدى الغلام ثيابه فرحًا مسرورًا، وقاده الجنديّ إلى فناء المدرسة وتركه يلحق بمن سبقه من المقبولين.

وكان الفناء عظيم الاتّساع تربو مساحته على قرية كبيرة، ومحوط من ثلاث جهات بسور ضخم مزخرف بالنقوش الحربيّة ومحلّى بصور الجنود والمواقع والأسرى، وفي الجهة الرابعة تقام الثكنات ومخازن الذخيرة والأسلحة ومكاتب القوّاد والضبّاط وإصطبلات الخيل وحظائر العربات، فهو أشبه بحصن منيع.

وقد ألقى الغلام على المكان نظرة دهشة، وسار إلى حيث لحق بزملائه المتجمّعين، ووجدهم يتفاخرون بالأنساب ويتنافرون بالآباء والأجداد، وقد سأل أحدهم ددف قائلًا:

ـ هل أبوك من رجال الحرب؟

فتضايق الغلام وهزّ رأسه سلبًا، ولكنّه قال بلهجة ملئت كبرياء:

ـ أبي بشارو مفتّش هرم الملك.

ولكنّه لم يبد على وجه محدّثه أنّه اقتنع بعظمة المفتّش وقال:

ـ أبي ساكا قائد فرقة الصقر من حاملي الرماح.

فامتعضت نفس ددف ولم يشترك في أحاديثهم، وتوعّدتهم نفسه الفتيّة بالظفر والتفوّق، واستمرت عمليّة الكشف والاختبار ثلاث ساعات متوالية، وظلّ الناجحون ينتظرون حتّى أتاهم ضابط من ناحية الثكنات ألقى عليهم نظرة صارمة وصاح بهم:

ـ منذ هٰذه الساعة ينبغي لكلّ منكم أن يودّع الفوضى وداعًا أبديًا ويروّض نفسه على النظام والطاعة، كلّ شيء من الآن فصاعدًا يخضع للنظام الصارم ولا أستثني الأكل والشرب والنوم.

ورتّبهم الضابط صفًّا واحدًا وسار بهم صوب الثكنات، وأمروا بالدخول واحدًا فواحدًا، وكان كلّ منهم يمرّ على كوّة مخزن كبير فيعطى صندلًا ووزرة وحلّة بيضاوين ثمّ يتفرّقون إلى عنابر كلّ عنبر يحوي عشرين سريرًا في صفّين متقابلين، وخلف كلّ سرير صوان متوسّط الحجم على سقفه لوح من الورق في إطار خشبيّ، طلب إلى كلّ منهم أن يكتب اسمه عليه بالخطّ المقدّس.

وأحسّوا جميعًا بجوّ غريب يخضع للنظام الصارم وتنبت فيه روح الصرامة والخشونة، فقد لحق بهم الضابط وأمرهم بأن يخلعوا ملابسهم المعتادة ويرتدوا الملابس الحربيّة، ونبّه عليهم بأن يخرجوا إلى الفناء إذا سمعوا صوت النفير.. فصدعوا جميعًا بالأمر، ودبّت في العنابر حركة سريعة كانت أوّل ما أبدى أولئك الصغار من النشاط العسكريّ.. وقد فرحوا باللباس الحربيّ الأبيض وهلّلوا له، وحين نفخ في النفير هرعوا خفافًا إلى الفناء حيث رتّب الضبّاط جمعهم في صفّين مستقيمين.

وحضر على الأثر مدير المدرسة، وهو ضابط كبير برتبة قائد، في لباسه الرسميّ المحلّى بالنياشين والأوسمة، يحيط به كبار ضبّاط المدرسة، واستعرضهم بعناية ثمّ وقف أمامهم وخطب فيهم قائلًا:

ـ كنتم إلى الأمس أطفالًا أحرارًا، وأنتم اليوم تبدءون حياة الرجولة الحقّة الممثّلة في الجهاد العسكريّ، وكانت أنفسكم ملكًا لكم ولآبائكم وأمّهاتكم، أمّا اليوم فهي ملك الوطن وفرعون. واعلموا أنّ حياة الجنديّة هي القوّة والتضحية، فعليكم بالنظام والطاعة لتقوموا بواجبكم المقدّس نحو مصر وفرعون.

ثمّ هتف المدير باسم خوفو فرعون مصر وردّد الجنود الصغار هتافه، ثمّ أمرهم أن ينشدوا نشيد: «يا آلهة احفظي ابنك المعبود، وملكه السعيد، من منبع النيل إلى مصبّه». وامتلأ جوّ الفناء الواسع بأصوات العصافير، تغنّي في حماس دافق وجمال رائع، وتجمع بين الأرباب وفرعون ومصر في نغمة واحدة.

وفي ذٰلك المساء حين رقد ددف لأوّل مرّة على فراش غريب في جوّ جديد، مسّه السهاد وجثمت على قلبه الوحشة، فتنهّد من أعماق نفسه، ونادت مخيّلته إلى ظلمة العنبر أطيافًا سعيدة من بيت بشارو، فكأنّه رأى زايا وهي تحنو عليه ونافا وهو يضحك ضحكته المرحة وخني وهو يحدّث حديثه المنطقيّ المتدفّق.. وخال جاموركا العزيز يلعق خدّه ويحيّيه بذنبه، ولمّا ارتوت نفسه من الأحلام رنّق النوم بجفنيه فنام نومًا عميقًا لم يستيقظ منه إلّا على النفير عند مطلع الفجر، فقعد في سريره دون تريّث، ونظر فيما حوله دهشًا، فرأى أقرانه يستيقظون ويغالبون سلطان النوم بصعوبة، وعلت في المكان أصوات التثاؤب والتذمّر واختلط بها الضحك أيضًا..

لا راحة بعد اليوم، فقد بدأت حياة النشاط والجلاد.

ـ ١٣ ـ

وفي ذلك الوقت طلب المعمار ميرابو الحظوة بالمثول بين يدي فرعون، واستقبله الملك في بهو الاستقبال الرسميّ. وقد جلس جلالته على عرش مصر الذي تربّع عليه خمسة وعشرين عامًا حافلة بجلائل الأعمال، وكان مهيبًا قويًّا صارمًا يرتدّ البصر عن جلاله وهو كليل، كما ارتدّت خمسون عامًا تنفّس فيها الحياة، عن أن تؤثّر في صلابة بنيانه أو تدفّق حيويّته، فأبقت على حدّة بصره وسواد شعره وحكمة عقله.

وقد سجد ميرابو بين يديه وقبّل حاشية ثوبه الملكيّ، فقال الملك بعطف:

ـ السلام عليك يا ميرابو، قم وتكلّم فيما جئت من أجله.

فوقف المعمار أمام ربّ العرش وكان وجهه يتلألأ بأنوار الفرح، ثمّ قال:

ـ مولاي واهب الحياة ومنبع النور؟ اليوم أشبع إخلاصي لذاتكم العليا بالعمل المجيد، وأتوّج حياتي في خدمتكم بالأثر الخالد، فأنال في ساعة سعيدة واحدة ما يتمنّاه المخلص من إخلاصه والفنّان من فنّه. فلقد شاءت الآلهة التي يتعلّق كلّ خلق بمشيئتها أن أزفّ اليوم إلى ذاتكم المعبودة بشرى الانتهاء من أعظم أثر أقيم على أرض النيل منذ عصر الآلهة، وأكبر بناء أشرقت عليه شمس مصر منذ أشرقت على الوادي. ويقيني يا مولاي أنّه سيظلّ باقيًا على الأجيال مقرونًا باسمكم المقدّس، منسوبًا لعهدكم المجيد، حافظًا لروحكم الإلهيّة، معلنًا عن جهاد الملايين من أيدي مصر العاملة وعبقريّة العشرات من رءوسها النابهة، إنّه اليوم لَعمل مجيد لا نظير له، وغدًا هو المثوى لأجل روحٍ حكمت أرض مصر، وبعد غد وإلى أبد الآبدين هو المعبد الذي تأتلف في ساحته قلوب الملايين من عبادك، يسعون إليه من الجنوب ومن الشمال.

وسكت الفنّان الخالد لحظة ريثما شجّعته ابتسامة الملك، ثمّ استطرد:

ـ لقد شيّد اليوم يا مولاي شعار مصر الخالد وعنوانها الصادق، فهو ابن القوّة التي تربط شمالها بجنوبها، وهو وليد الصبر الذي يغمر صدور بنيها جميعًا من الضارب الأرض بفأسه إلى الكاتب على الطرس بقلمه، وهو وحي الدين الذي تخفق به قلوب أهلها، وهو مثال العبقريّة التي جعلت من وطننا سيّدًا على الأرض التي تسبح الشمس حولها في السفينة المقدّسة، وسيظلّ أبدًا الوحي الخالد الذي يهبط على قلوب المصريّين فيؤيّدها بالقوّة، ويلهمها الصبر، ويحثّها على الدين ويدفعها إلى الإبداع.

وكان الملك يصغي إلى الفنّان وعلى فمه ابتسامة رضى، ويرنو بعينيه النافذتين إلى وجهه المكتسي ببهاء الحماس والفرح. فلمّا انتهى قال له:

ـ إنّي أهنّئك أيّها المعمار على نبوغك المنعدم النظير، وأشكرك على العمل المجيد الذي شيّدت لمليكك ووطنك ممّا يوجب لك التقدير والحمد، ولسوف أحتفل بآياتك الكبرى احتفالًا مهيبًا يليق بعظمتها وخلودها.

وكان المعمار يحني الرأس وينصت إلى ثناء فرعون كأنّما ينصت إلى لحن إلهيّ.

واحتفل فرعون بالهرم احتفالًا رسميًّا شعبيًّا مهيبًا، شهدت فيه الهضبة المقدّسة من الخلق أضعاف ما شهدت من جميع العمّال الأشدّاء، ولكنّهم لم يحملوا إليها هذه المرّة الفئوس والعُدَد، ولكن حملوا الأعلام وأغصان الزيتون وسعف النخل والرياحين، وتغنّوا بالأناشيد المقدّسة الطاهرة. وصنع الجند بين تلك الجموع طريقًا عظيمًا يمتدّ من وادي الأبديّة، ويميل شرقًا ثمّ يدور حول الهرم، ويعرّج غربًا حتّى يصبّ في وادي الأبديّة مرّة أخرى. وفي ذاك الطريق سارت الهيئات الرسميّة للطواف بالبناء الكبير، تتقدّمها جموع الكهنة بطبقاتهم المختلفة والنبلاء والسراة، ثمّ اخترقت الطريق فرق الجيش المُعسكِر في منف من ركبان ومشاة، ثمّ بدا للعيان موكب فرعون والأمراء، فولّى العباد وجوههم شطره، وهتفوا له من أعماق القلوب. وانحنوا انحناءة واحدة كأنّهم في صلاة هو قبلتها.

وحيّا فرعون الهرم بكلمة موجزة، وباركه الرئيس خوميني. ثمّ عاد الركب الفرعونيّ وانفضّت الهيئات الرسميّة، أمّا جموع الشعب فجعلت تطوف بالبناء الكبير مهلّلة مكبّرة هاتفة منشدة، ولم تتفرّق جموعها إلّا حين سكب الفجر بهاءه وبثّ روحه الهادئ السحريّ في أرض الوادي الزبرجديّة.

وفي ذاك المساء دعا فرعون الأمراء والصحابة المقرّبين إلى جناحه الخاصّ، وكان الجوّ ميّالًا إلى البرودة فاستقبلهم في بهو استقباله العظيم، حيث جلسوا على مقاعد من الذهب الخالص.

وكان فرعون على صلابته ومتانة بنيانه يبدو على نظرة عينيه شعوره بالتبعات العظيمة الملقاة على عاتقه. وكان ظاهر الملك لم يتغيّر حقًّا، أمّا باطنه فقد طرأ عليه من طوارئ الزمان ما لم يخفَ عن أعين المقرّبين أمثال رعخعوف وخوميني وميرابو وأربو، فلاحظوا مثلًا أنّ الملك يزهد قليلًا قليلًا في الرياضة غير مستثنٍ ما كان منها أحبّها إلى قلبه كالصيد والطرد، وأنّه يميل إلى التشاؤم والتفكير والقراءة، فكان ربّما طلع عليه الفجر

وهو جالس في مخدعه يقرأ كتب اللاهوت وفلسفة قاقمنا، وتطوّرت فكاهته الأولى إلى سخرية لا تخلو من سوء الظنّ والريبة.

كان أعجب ما في ذٰلك المساء ـ وهو ما أعجز الحسبان ـ أن يبدو على الملك آي من الهمّ والقلق، ذاك المساء الذي احتفل فيه بأعظم عمل في التاريخ. وكان أشدّ الناس قلقًا لذلك المعمار ميرابو، ولم يتمالك أن سأل مولاه:

ـ ما بال مولاي بادي الانشغال؟

فنظر إليه الملك بشيء من السخرية وقال له متسائلًا:

ـ وهل عرف التاريخ ملكًا خالي البال؟

ولم يتعزّ الفنّان بجواب الملك فقال:

ـ ولٰكن ينبغي لمولاي أن يفرح هٰذا المساء فرحًا خالصًا.

ـ ولماذا ينبغي لمولاك أن يفرح؟

فوجم الفنّان، وكاد ينسيه تساؤل الملك الساخر جميل ثنائه وعظيم احتفاله، ولٰكنّ الأمير رعخعوف الذي لم يرض عن تطوّر الملك النفسيّ قال:

ـ لأنّ مولانا احتفل اليوم بتبريك أعظم آية فنّيّة في تاريخ مصر الطويل.

فضحك الملك وقال:

ـ أتعني قبري أيّها الأمير؟ وهل ينبغي للإنسان أن يفرح لبناء قبره؟

فقال الأمير:

ـ أطال الربّ بقاء الملك، إنّ العمل المجيد حقيق بالفرح والتكريم.

ـ نعم. نعم. ولكن إذا ذكر بالموت ألا يوجب شيئًا من التأسّي؟

فقال ميرابو بحماس:

ـ إنّه يذكّر بالخلود يا مولاي.

فابتسم فرعون وقال:

ـ لا تنسى أنّي معجب بفنّك يا ميرابو، ولٰكنّ نذير الموت يملأ النفس شجنًا، نعم لا أذكر ما يوحي به عملك المجيد من معاني الخلد، ولكنّ الخلد موت لحياتنا الفانية العزيزة.

فقال خوميني برزانة وتأمّل وإيمان:

ـ مولاي، إنّ اللحد عتبة الحياة الأبديّة. .

فقال الملك:

ـ صدقت يا خوميني، ولٰكنّ المُقبل على سَفَر كثير التدبّر، وهٰذا أحرى بمن يولي وجهه تلك الرحلة الأبديّة. وإيّاك أن تظنّ أنّ فرعون خائف أو آسف. . كلّا. . كلّا. . كلّا، إنّي أتعجّب فقط لتلك الرحى التي تدور وتدور وتطحن كلّ يوم ملوكًا وسُوْقة. .

وتضايق الأمير رعخعوف من تفلسف الملك وقال:

ـ إنّ مولاي الملك يكثر من التأمّل.

وكان فرعون يفهم ذات ابنه فقال:

ـ لعلّ هذا لا يرضيك أيّها الأمير.

فقال الأمير:

ـ العفو يا مولاي، ولٰكنّ الحق أنّ التأمّل وظيفة الحكماء، أمّا الذين عهدت الآلهة إليهم بتبعات الحكم، فما أحرى أن يتفرّغوا لشئونه الصعاب.

فسأله فرعون بسخرية:

ـ أفترى أيّها الأمير أنّي أتردّى في هاوية العجز؟

فارتاع الأصدقاء، وكان الأمير أعظمهم ارتياعًا فقال:

ـ معاذ الربّ يا أبتي!

فقال الملك ساخرًا، ولٰكن بلهجة قويّة:

ـ لا تقلق يا رعخعوف، واعلم أنّ أباك لن يزال قابضًا على السلطان بيد من حديد.

فقال الأمير:

ـ يحقّ لي يا مولاي أن أهنّئ نفسي ولو أنّي لم أسمع جديدًا.

ـ أم أنّك ترى أنّ الملك لا يكون ملكًا إلّا إذا أعلن حربًا؟

وكان الأمير رعخعوف يشير على أبيه دائمًا بأن يجرّد جيشًا لتأديب قبائل سيناء، ففطن إلى تلميح الملك فصمت وهلة يفكّر، وفي أثناء ذٰلك قال خوميني:

ـ إنّ السِّلْم أشدّ حاجة من الحرب إلى الملك القويّ الصالح.

فقال الأمير بلهجة قويّة حاكت ما ارتسم على وجهه من الصلابة والقسوة:

ـ ولكن ينبغي ألّا تعوق سياسة السلم الملك عن خوض غمار الحرب إذا جدّ الجدّ!

فقال الملك:

ـ أراك تحوم حول موضوع قديم.

ـ نعم يا مولاي، ولن أكفّ عنه حتّى تذهب بواعثه، فإنّ قبائل سينا تفسد في الأرض وتهدّد هيبة الحكومة.

ـ قبائل سينا!.. قبائل سينا!.. إنّ قوّات الشرطة تكفي الآن لتأديب شراذمهم، أمّا تجريد جيش لغزو حصونهم فَنيّة في صدري لم تهيّأ الظروف بعد لتحقيقها، نظرًا لأنّ الوطن ينوء بالجهد الجهيد الذي بذله عن طيب خاطر من أجل تشييد هرم ميرابو الخالد.. وسيأتي يوم قريب أقضي فيه على شرّهم وأكفي الوطن عدوانهم.

وساد صمت مقدار دقائق، ثمّ ردّد الملك بصره الحادّ بين الحاضرين وقال:

ـ أيّها السادة إنّي دعوتكم هٰذه الليلة لأكاشفكم برغبة عظيمة تخفق في صدري.

فنظر إليه الملأ باهتمام، فقال:

ـ ساءلت نفسي صباح اليوم: ماذا صنعت من أجل مصر، وماذا صنعت مصر من أجلي؟ ولا أكتمكم الحقّ أيّها الأصدقاء، فقد وجدت أنّ ما صنعه الشعب لي أضعاف ما صنعته له، فأحسست بشيء من الألم ـ وكثيرًا ما أتألّم هٰذه الأيّام ـ وذكرت المولى المعبود مينا الذي وهب الوطن وحدته المقدّسة فلم يهبه الوطن بعض ما وهبني، فاستصغرت نفسي وأقسمت لأجزينّ شعبي إحسانًا بإحسان وجميلًا بجميل.

فقال القائد أربو بحماس:

ـ لقد قسا جلالة الملك على نفسه في الحساب.

فقال خوفو دون أن يعير حديث قائده اهتمامًا:

ـ إنّ الملوك ليظلمون كثيرين وإن توخّوا العدل والإنصاف، وإنّهم ليؤذون كثيرين وإن حرصوا على النفع والخير، وما من عمل سوى عمل الخير الخالد يكفّر عن السيّئات ويمحو الهفوات؛ وقد هداني الألم إلى عمل نافع عظيم.

ونظر إليه الملأ متسائلين، فقال:

ـ إنّي أفكّر أيّها السادة في تأليف كتاب عظيم أضمّنه تجارب الحكمة وأسرار الطبّ الذي ولعت به منذ صباي، فأترك من بعدي إرثًا عظيمًا لشعب مصر يهدي أرواحهم ويصون أجسامهم.

فصاح ميرابو بفرح عظيم:

ـ يا له من عمل مجيد يا مولاي ستحكم به شعب مصر إلى الأبد.

فابتسم فرعون إلى المعمار، وقال هٰذا مرّة أخرى:

ـ ستزيد كتبنا المقدّسة كتابًا جديدًا.

وكان الأمير رعخعوف يزن ما ينوي الملك صنعه في عقله فقال:

ـ ولكنّه يا مولاي عمل يقتضي أعوامًا طويلة.

وقال القائد أربو:

ـ لقد كتب قاقمنا كتابه في عشرين عامًا!

ولكنّ الملك هزّ منكبيه العريضين وقال:

ـ سأهبه ما تبقّى من حياتي.

صمت الملك لحظة ثمّ قال:

ـ أتعلمون أيّها السادة أين هو المكان الذي اخترته لأنشئ فيه كتابي ليلة بعد ليلة؟

ونظر فرعون إلى الوجوه المتسائلة وقال:

ـ حجرة التابوت بالهرم الذي احتفلنا به اليوم.

وبدت على الوجوه الدهشة والإنكار، فقال فرعون:

ـ إنّ قصور الدنيا تغلب عليها جلبة الحياة الفانية، فلا تصلح لإنتاج عمل خالد!

وانتهى الاجتماع عند ذاك، لأنّ الملك لم يكن يحبّ المناقشة فيما بتّ فيه برأي نهائيّ، فانصرف الأصدقاء، وحين ركب وليّ العهد عربته مال على رئيس حجّابه وقال بامتعاض شديد:

ـ إنّ فرعون يؤثر الشِّعْر على الحُكْم!

أمّا الملك فقد ذهب إلى قصر الملكة ميرتيتفس، ووجدها في مخدعها مع الأميرة الصغيرة مرى سي عنخ، شقيقة رعخعوف التي لم تتجاوز العاشرة، وقد جرت الأميرة إليه كالحمامة، والفرح يلمع في عينيها السوداوين الجميلتين. .

مرى سي عنخ ذات الوجه البدريّ واللون الخمريّ والعينين اللتين تشفيان بصفائهما من السقام. ولم يتمالك فرعون من أن يبتسم ابتسامة الحبّ، ويزيح عن صدره الهموم والأحزان، ويتلقّاها بذراعين مفتوحتين.

- ١٤ -

هبّت نسمة من الفرح على قصر بشارو ذلك اليوم، تبدّت آثارها في وجه زايا الضاحك ونافا والمفتّش نفسه، وكأنّ جاموركا قد استبشر خيرًا وأحسّ إحساسًا باطنًا بأنّه ينبغي له أن يفرح، فتمطّى ونبح وعدا في ممّرات الحديقة كالسهم الطائش. .

وكانوا جميعًا ينتظرون، فسمعوا جلبة في الحديقة وعلا صوت خادم يقول بفرح: «سيّدي الصغير»، فهبّت زايا واقفة وجرت نحو السلّم وهبطت الأدراج لا تلوي على شيء، وفي نهاية الردهة رأت ددف، في بذلته البيضاء وقلنسوته الفرعونيّة، بهيًا كشعاع الشمس: ففتحت ذراعيها، إلّا أنّ جاموركا كان أسرع إليه منها، فهجم على سيّده بعنف واحتضنه بيديه وعلا نباحه يشكو إليه ما لقي من عذاب الشوق وآلام الحنين، فأزاحت الكلب جانبًا وضمّت الابن العزيز إلى قلبها وأشبعته لثمًا وتقبيلًا وهي تقول له:

- ردّت الروح إليّ يابنيّ. . كم أوحشتني عيناك وكم هزّني الشوق إلى اجتلاء وجهك الجميل، . . عزيزي، أنت أنحف كثيرًا ممّا كنت وقد لفحت الشمس وجهك، وأنت متعب ياددف!

وأتى نافا مع جلبته وضحكه، وقال يحيّي أخاه:

- أهلًا بالضابط العظيم.

فابتسم ددف وسار بين أمّه وأخيه، وجاموركا يرقص أمامه طربًا ويقطع عليه الطريق من كلّ جانب، واستقبله المفتّش استقبالًا عاطفيًا وقبّل خدّه، ونظر إليه مليًا بعينيه البارزتين اللتين تدّعيان الفراسة وقال:

- تغيّرت يابنيّ في هذين الشهرين وبدت عليك الرجولة حقًّا. وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم، ولكن لا تأسف على هذا فسآخذك لمشاهدته بنفسي. فإنّي ما زلت ولن أزال مفتّشًا على منطقته حتّى أُحال على المعاش. ولكن لماذا أنت متعب يابنيّ؟

فضحك ددف وقال ويده تعبث برأس جاموركا:

- الحياة العسكريّة شديدة قاسية. . وسحابة النهار في المدرسة تمضي عادة بين الجري والسباحة وركوب الخيل. . وإنّي الآن فارس ماهر!

فقالت الأمّ:

- فلتحفظك الآلهة يابنيّ.

وسأله نافا:

- وهل ترمي الرمح وتطلق السهام؟

فقال ددف يشرح لأخيه نظام المدرسة بإسهاب التلميذ المفتون:

- كلّا. . إنّنا نتدرّب في السنة الأولى على الألعاب وركوب الخيل والسباحة، وفي السنة الثانية نتعلّم المبارزة بالسيف والخناجر والمزاريق، وفي السنة الثالثة نتمرّن بالرماح وتلقى علينا دروس نظريّة، والسنة الرابعة للقسيّ والعلوم التاريخيّة، والسنة الخامسة للتدريب على العجلات الحربيّة، أمّا العام السادس فللعلوم الحربيّة وزيارة القلاع والحصون.

فقال نافا:

- إنّ قلبي يحدّثني بأنّي سأراك قائدًا كبيرًا ياددف. . إنّ وجهك يثير في النفس الحماس، لا ريب في هذا فإنّ صناعتي استيحاء السجايا من ملامح الوجه. .

وكأنّ ددف تذكّر أمرًا هامًّا فتساءل باهتمام:

- أين خنى؟

فقال بشارو:

- ألا تعلم أنّه انخرط في سلك الكهنوت؟ وأنّهم يحتفظون به الآن خلف جدران معبد بتاح، ويلقّنونه العلوم الدينيّة ويفقّهونه في الأخلاق والفلسفة في عزلة

بعيدة عن جلبة الدنيا وضوضائها. إنّه ليتدرّب على حياة هي أقرب الحيوات شبهًا بحياة الجنديّة، فهو يغتسل في النهار مرّتين وفي الليل مرّتين، ويحلق شعر رأسه وبدنه، ويلبس الصوف ويصرف عن أكل السمك ولحم الخنزير والبصل والثوم.. إنّه يابنيّ يجوز أشدّ الامتحانات قسوة ويُلقَّن أسرار العلم المحرّمة على غيره من البشر، فلنَدْعُ له جميعًا أن تُثبِّت الآلهة قدمه لتخلق منه خادمًا مخلصًا لها ولعبادها المؤمنين.

فقالوا جميعًا في نفس واحد:

ـ آمين!

وسأل ددف:

ـ ومتى يسعدني الحظّ برؤيته؟

فقال نافا بلهجة أسيفة:

ـ لن تراه قبل أربع سنوات وهي سنوّ التجربة العظيمة.

فاكفهرّ وجه ددف حزنًا وشوقًا إلى معلّمه الأوّل، أمّا زايا فسألته:

ـ وكيف نراك بعد ذلك؟

ـ في أوّل كلّ شهر.

فقطّبت جبينها ولكنّ نافا ضحك وقال:

ـ لا تستحثّي الحزن يا أمّاه.. ولننظر كيف نقضي يومنا هذا.. ما رأيكم في نزهة نيليّة؟

فصاحت زايا منكرة:

ـ في كيهك؟!

فقال نافا ساخرًا:

ـ وهل يهاب الجنديّ قساوة الأنواء؟

فقالت زايا بحدّة:

ـ ولكنّي لا أقدر على جوّ كيهك ولا على مفارقة ددف دقيقة واحدة هذا اليوم. فلنبق جميعًا في البيت.. وإنّي مدّخرة له حديثًا طويلًا لا قِبَل لي بحفظه في صدري بعد الآن.

ولاحظوا جميعًا أنّ ددف فتر مرحه وندر حديثه وغشيته حالة جديدة من الرزانة والجمود، وقد نظر إليه نافا قلقًا بطرف خفيّ وساءل نفسه: ترى هل يتشبّث ددف بطبيعته الجديدة أبدًا؟ إنّه ينفر من الرزانة والجمود، ولعلّه لم يحسّ بوحشة لغياب خني لما عرف به من الرزانة والجفاء، ولكنّه أنكر على نفسه مخاوفها وقال: إنّ ددف ما يزال حديث عهد بالحياة العسكريّة. وإنّه لذلك لن يتمّ له هضمها في وقت قصير، فلن تزال بنفسه جفوة منها وألم حتّى يألفها ويتطبّع بطباعها، وحينذاك تنجاب عن قلبه الوحشة وترتدّ إليه طبيعة المرح والسرور. وظنّ أنّه لو صحبه إلى معرض فنّه، فربّما استطاع أن يعيد إليه انشراحه، فقال له:

ـ أيّها الضابط، ما رأيك في زيارة معرض صوري؟

ولكنّ زايا قالت بغيظ:

ـ لا تفتأ تحاول سلبه منّي! كلّا ياسيّدي لن يبرح اليوم البيت.

فتنهّد نافا وسكت، وخطرت له فكرة، فأحضر لوحة وقلمًا وقال لأخيه:

ـ سأرسم صورتك في هذا الرداء الأبيض الجميل، وسأحتفظ بالصورة ذكرى جميلة تنظر إليها بعيني الحنان والشوق حين تزيّن منكبيك بوشاح القيادة!

وباشر عمله بهمّة ونشاط. وقضت الأسرة يومًا سعيدًا في سمر وأحاديث.

وكانت أمثال تلك الزيارة تقع كلّ شهر مرّة وتفوت كلمح البصر، وقد انجابت وساوس نافا، وفارق الجفاء ددف ورجع سريعًا إلى طبيعته المرحة الجسور، استعاد جسمه القوّة والفتوّة وسار قُدُمًا في طريق النموّ والقوّة والجمال..

وكان الصيف ـ حين تغلق المدرسة أبوابها ـ أسعد أيّام زايا وجاموركا، وكانت تعاود البيت فيه جلبة الحياة ومرح النشاط اللذان سكنا به منذ تفرّق شمل الأخوة كلّ إلى حال سبيله، وكانت الأسرة كثيرًا ما ترتحل إلى الريف أو شمال الدلتا للصيد والقنص، فكانوا يشغلون قاربهم ويمخرون به عباب البحيرات التي تظلّلها نباتات البرديّ وأشجار اللوتس، ويقف بشارو بين ابنيّه نافا وددف وكلّ ممسك بعصا الصيد المعقوفة، حتّى إذا حلّقت بطّة لا تدري بما يخبّئه لها

القَدَر أحكم كلّ منهم تسديد الهدف وقذف بها بما يستطيع من القوّة والمهارة.

وكان بشارو صيّادًا ماهرًا.. وكان صيده أضعاف صيد ابنيه معًا، وكان يحدج ددف بنظرة متعالية ويقول بصوته الأجشّ، ألا ترى أيّها الجنديّ كيف يُحكِم أبوك الرماية؟ لا تعجب، فقد كان والدك ضابطًا في جيش الملك سنفرو، وكانت قوّته كافية لتشتيت قبيلة من الهمج بغير قتال.

وكانت رحلات الصيد تنطوي في متعة وفرح ورياضة لا نظير لها في الأيّام الأخرى، ولكن لم يهدأ بال بشارو حتّى اصطحبه معه إلى زيارة الأهرام، وكان غرضه الأوّل من الزيارة أن يطلعه على نفوذه وسلطانه ويريه استقبال الجند والموظّفين له.

ودعاه نافا لزيارة معرضه وأطلعه على صوره ذات الألوان ورسوماته الجميلة وكان الشابّ ما يزال يعمل جاهدًا بلا طائل على رجاء أن يدعى يومًا للاشتراك في عمل فنّيّ له قيمته في أحد قصور الأغنياء أو الهواة أو أن يشتري أحد الزوّار بعض معروضاته.. وكان ددف يحبّ نافا، فأحبّ آثاره وأعجب خاصّة بالصورة التي رسمها له في بذلته الحربيّة البيضاء. فجاءت آية على ملامحه ونظرة عينيه.

وكان نافا في ذلك الوقت يرسم صورة للمعمار الخالد ميرابو الذي صنع أكبر معجزة فنّيّة في الوجود.

وقد قال لددف وهو يريه الرسم التخطيطيّ للصورة:

ـ لم أبذل من قبل في صورة نصف ما بذلت في هذه، ذلك أنّ بطلها ينزل من نفسي منزلة الآلهة.

فسأله ددف:

ـ هل ترسمها من الذاكرة يا أخي؟

فقال:

ـ نعم يا ددف، لأنّي لا أرى الفنّان الأعظم إلّا في الأعياد والحفلات الرسميّة التي يظهر فيها ركاب فرعون، ولكنّها تكفي لحفر صورته في قلبي وعقلي!

واستدار العام وذهب ددف مرّة أخرى إلى المدرسة، ودارت عجلة الزمان.. وتقدّمت حياة أسرة بشارو في طريقها المقدّر: الأب إلى الشيخوخة، والأمّ إلى الكهولة، وخنى إلى التفقّه في الدين، ونافا إلى اتقان فنّه الجميل.

وأوسع ددف خطاه نحو التفوّق والنبوغ وإتقان الفنون الحربيّة، فاكتسب شهرة في المدرسة الحربيّة لم يفز بها تلميذ من قبل.

ـ ١٥ ـ

سار ددف في شارع سنفرو الذي لا ينقطع تيّار المارّين به يلفت الأنظار ببذلته الحربيّة البيضاء وجسمه الفارع وجماله الجاهر. حتّى انتهى به المسير إلى مدخل بيت «نافا بن بشارو ـ إجازة معهد خوفو للرسم والتصوير» وقرأ اللافتة باهتمام كأنّما يراها للمرّة الأولى وقد ارتسمت على فمه الجميل ابتسامة حلوة مشرقة، ثمّ اجتاز الباب، وفي الداخل رأى أخاه مكبًّا على عمله غير شاعر بما حوله، فصاح به ضاحكًا:

ـ السلام عليك أيّها المصوّر العظيم.

فالتفت إليه نافا بوجهه الحالم الدهش، فلمّا عرف القادم، قام واقفًا وأقبل عليه مرحّبًا وهو يقول:

ـ ددف!.. يا للحظّ السعيد. كيف حالك يا رجل؟ هل زرت البيت؟

وتعانق الأخوان مليًّا، وقال ددف وهو يجلس إلى كرسيّ قدّمه إليه الفنّان:

ـ نعم زرته ثمّ أتيت إليك رأسًا، فأنت تعلم أنّ بيتك هذا جنّتي المختارة!

فضحك نافا بصوته العالي وطفح وجهه بالسرور، وقال:

ـ ما أسعدني بك يا ددف! وإن كنت أعجب كيف تهوى نفس ضابط مثلك إلى هذا المرسم الهادئ الحالم الجميل! أين هو يا ددف من ميدان القتال وقلاع بوسيروس وبريمس!

فقال ددف:

ـ لا تعجب يا نافا فأنا جنديّ حقًّا، ولكن حبّب إليّ الفنّ الجميل كما بثّ في خنى الحكمة والمعرفة.

فرفع نافا حاجبيه إعجابًا وقال:

ـ لكأنّك وليّ عهد المملكة! ألا ترى أنّهم يهيّئونه للعرش بتعليمه الحكمة والفنّ والحرب؟ وإنّها لسياسة سامية جعلت من ملوك مصر آلهة، وستجعل منك قائدًا عديم النظير. .

فتصاعد الدم إلى وجه ددف وقال مبتسمًا:

ـ أنت يا نافا ـ كأمّي ـ لا تراني حتّى تنعتني بسجايا الخير جميعًا.

فضحك نافا ضحكًا عاليًا متواصلًا، واسترسل في الضحك حتّى أشفى على التهلكة وأثار دهشة ددف. فسأله:

ـ ما لك؟ ما الذي يضحكك هكذا؟

فردّ عليه الشابّ وهو ما يزال يضحك:

ـ إنّي أضحك يا ددف، لأنّك شبّهتني بأمّك.

ـ وماذا يُضحك في هذا؟. إنّي أعني . .

ـ لا تكلّف نفسك مشقّة الشرح أو الاعتذار فإنّي أعلم بما تعني، ولكنّ المسألة أنّ هذه هي المرّة الثالثة التي أشبَّه فيها اليوم بامرأة. فقال لي والدي صباح اليوم واجدًا: «أنت كالفتاة سريع التقلّب». وقال لي الكاهن شلبا منذ ساعة، وكان يحدّثني في شأن صورة له: «أنت يا سيّد نافا يتغلّب عليك الوجدان كالنساء». وها أنت ذا تقول إنّي كأمّك! فهل يا ترى رجل أنا أم امرأة ؟؟.

فضحك ددف بدوره وقال:

ـ أنت رجل يا نافا، ولكنّك رقيق النفس حسّاس الوجدان، ألا تذكر أنّ خنى قال مرّة: إنّ الفنّانين جنس بين الرجال والنساء ؟

فقال نافا:

ـ إنّ خنى يعتقد أنّ الفنّ يقتضي إعارة من الأنوثة، ولكنّي أعتقد أنّ وجدانيّة المرأة تناقض وجدانيّة الفنّان في الغاية، لأنّ المرأة بطبعها نفعيّة تتوخّى ما يحقّق غايتها الحيويّة على أكمل الوجوه، أمّا الفنّان فلا غاية له إلّا استكناه ذوات الأشياء.

وهذا هو الجمال، لأنّ الجمال هو استجلاء ذات الشيء الذي يجعل منه ومن بقيّة المخلوقات وحدة ذات انسجام. .

فضحك ددف وقال:

ـ أتظنّ أنّك بتفلسفك هذا قادر على إقناعي بأنّك رجل؟

فحدجه نافا بنظرة تحدّ وقال:

ـ أما تزال محتاجًا إلى دليل؟. إذًا فاعلم أنّي سأتزوّج.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

ـ أحقًّا ما تقول؟

فأغرق في الضحك وقال:

ـ أيبلغ بك إنكار الزواج عليّ؟

ـ كلّا يا نافا. . ولكنّي أذكر أنّك أغضبت والدنا عليك لزهدك في الزواج.

فوضع نافا يده على قلبه وقد تبدّت على وجهه آيات الجدّ وقال:

ـ أحببت يا ددف. . أحببت بغتة!

فتجمّع وجدان ددف في انتباه واحد وسأله في لهفة:

ـ بغتة؟!

ـ نعم، كنت كالطائر الذي يحلّق في السماء آمنًا وما يشعر إلّا وسهم يستقرّ في قلبه فيهوي!

ـ متى وأين؟

ـ ددف، إذا قيل حبّ فلا تسل عن الزمان والمكان!

ـ من هي؟

فقال بإجلال كأنّه ينطق باسم إيزيس:

ـ ماتا ابنة كامادى بوزارة الماليّة.

ـ وماذا أنت فاعل؟

ـ سأتزوّج منها.

فقال ددف بصوت الحالم:

أهكذا تتغيّر الأمور؟

ـ وبأسرع من هذا، سهم وأصاب، فماذا يصنع الطائر؟

حقًّا إنّ الحبّ شيء عظيم، عرف ددف الفنّ والحكمة والسيف. أمّا الحبّ فهذا لغز جديد. وكيف

لا يكون لغزًا وقد فعل في ساعة ما عجز عنه بشارو في سنين! وأحسّ بوجدانه يفور وروحه تهيم في وديان بعيدة الآفاق.

أمّا نافا فقد استطرد يقول:

ـ ويشاء الحظّ السعيد أن أوفّق في حياتي الفنّيّة، فقد دعاني السيد فاني إلى زخرفة بهو استقباله، وغدوت تثمّن بعض صوري بعشر قطع من الذهب فآبى أن أبيعها. انظر إلى هٰذه الصورة الصغيرة!

فحوّل ددف وجهه الهائم إلى حيث يشير أخوه، فرأى صورة صغيرة تمثّل فلّاحة صبيّة على شاطئ النيل عند الغروب وقد خضّب الشفق أفق السماء، وكأنّه ارتاع لجمال الصورة التي جذبته من وديان الأحلام فدلف إليها حتّى صار منها على بعد ذراع، وشاهد نافا إعجابه فسرّ سرورًا لا مزيد عليه، وقال:

ـ ألا ترى أنّها صورة غنيّة بالألوان والظلال؟ انظر إلى النيل والأفق!

فقال ددف بصوت الحالم:

ـ بل دعني أنظر إلى الفلّاحة.

وكان نافا يتأمّل صورته فقال:

ـ إنّ الريشة تخلّد مشية النيل ذات الإجلال.

فقال ددف بلا اكتراث لما يقول الفنّان:

ـ يا للأرباب.. إنّه جسم لدن.. له استقامة الرمح.

ـ انظر إلى الحقول وإلى الزرع المائل، علامَ يدلّ ميله؟

فقال ددف وكأنّه لا يسمع ما يقول صاحبه:

ـ ما أجمل الوجه الخمريّ البدريّ!

ـ إنّه يدلّ على ريح الجنوب.

ـ ما أجمل العينين السوداوين.. إنّ لهما نظرة إلٰهيّة.

ـ ليست الفلّاحة كلّ شيء في الصورة، انظر إلى الشفق فالآلهة وحدها تعلم كم أجهدني في تصويره وتلوينه.

فنظر ددف إليه وقال بحماس جنونيّ:

ـ إنّها حياة يا نافا. إنّي أكاد أسمع غمغمتها.. كيف تعيش معها يا نافا تحت سقف واحد؟

ففرك يديه حبورًا وقال:

ـ رفضت في سبيلها عشر قطع من الذهب الخالص.

ـ لن تباع هذه الصورة أبدًا.

ـ ولِمَ؟

ـ هي صورتي ولو دفعت لها حياتي!

فضحك نافا وقال:

ـ واها يا سنّ السابعة عشرة! إنّك نار تضطرم.. ولهب يندلع. إنّك تبيّن الحياة والأنوثة في الأحجار والمياه والألوان. إنّك لتعشقين الأوهام والأخيلة وتخالين الأحلام حقائق واقعة.. وتصلين ابنك عذاب الجحيم!..

فالتهب وجه الشابّ دمًا وسكت عن الكلام، فأشفق نافا من إغضابه فقال:

ـ لبّيك أيّها الجنديّ.

فقال ددف بتضرّع:

ـ لا تفرّط في هٰذه الصورة يا نافا.

فقام نافا إلى الصورة ورفعها من مكانها وقدّمها إلى أخيه وهو يقول:

ـ هي لك يا ددف العزيز.

فوضعها ددف بين يديه برفق كأنّه يمسك بقلبه، وقال بصوت الممتنّ الشكور:

ـ شكرًا لك يا نافا!

وجلس نافا راضيًا، وأمّا ددف فلازم وقفته لا يريم.. واستغرق في تأمّل الفلّاحة الإلٰهيّة ثمّ قال:

ـ كم يفتن الخيال المبتدع!

فقال نافا بهدوء:

ـ ليست من خلق الخيال.

فزلزل قلب الشابّ وسأل برجاء:

ـ تعني أنّ صاحبتها من الأحياء؟

ـ نعم..

ـ وهل.. وهل هي كصورتها؟

ـ ربّما فاقتها حسنًا..

- نافا!

فابتسم الفنّان، وسأله الشابّ المفتون:

- أتعرفها؟

- رأيتها مرّات على شاطئ النيل.

- أين؟

- شمال منف.

- هل تذهب دائمًا إلى هناك؟

- كانت تذهب كلّ أصيل هي وأخوات لها فيجلسن ويلعبن ويختفين مع اختفاء الشمس.. وكنت اتّخذ مكاني خفية خلف شجرة الجمّيز وانتظر حضورهنّ بفارغ الصبر!

- وهل يواظبن على حضورهنّ؟

- لا أدري، فقد انتهت متابعتي لهنّ بانتهائي من الصورة.

فنظر إليه بارتياب وسأله بخوف:

- وكيف استطعت؟

فابتسم نافا وقال:

- هذا جمال أعبده ولكنّي لا أحبّه.

فلم يعبأ ددف بكلامه وسأله:

- في أيّ بقعة كانت ترى؟

- شمال معبد أبيس.

- ترى هل ما تزال تذهب إلى هناك؟

- وما الداعي إلى تساؤلك أيّها الضابط؟

فتحيّرت في عينيْ ددف نظرة ملتهبة، فقال نافا:

- هل قضي أن يصيب السهم الأخوين في أسبوع واحد؟

فقطّب ددف جبينه وعاد إلى تأمّل الصورة فقال نافا:

- لا تنس أنّها فلّاحة.

فتمتم ددف قائلًا:

- بل ربّة جميلة.

فقال نافا ضاحكًا:

- واها يا ددف العزيز، لقد أصابني السهم فتردّيت في قصر كامادى، وأخشى إن كان أصابك أن تقع على كوخ متهدّم!..

- ١٦ -

كان اليوم يحمل طابع الأحلام، فلدى عصره وضع ددف الصورة على صدره، وذهب إلى شاطئ النيل واكترى قاربًا اتّجه به صوب الشمال..

ولم يكن يعي ما يفعل ولا يقدّر عاقبة تصرّفه، وكلّ ما يمكن قوله إنّه مسّه سحر الافتتان فأطاع وحيه وأصاخ إلى ندائه، فانطلق يعدو إلى غايته المجهولة مدفوعًا بعاطفة قهّارة لا تقاوَم، فقد أصابه مسّ من الافتتان، واستقرّ الافتتان في قلب شجاع لا يهاب الموت، جسور لا يلوي على المخاطر، فكان من الطبيعيّ أن ينطلق لأنّه ليس من عادته أن ينكمش، وليكن ما يكون.

وراح القارب يشقّ الماء مدفوعًا بقوّة التيّار وشدّة الساعدين الفتيّين، وجعل ددف يرسل بناظريه إلى الشاطئ يبحثان عن ضالّته، فما رأتا أوّل الأمر إلّا حدائق قصور أغنياء منف التي تهبط إلى سطح النيل بدرجات رخاميّة. وسار فراسخ لا يرى سوى الحقول المنبسطة حتّى لمح عن بعد حديقة القصر الفرعونيّ، فمال بقاربه إلى وسط النهر يبتعد عن منطقة الحرس النيليّ، ثمّ عرّج مرّة أخرى إلى الشاطئ عند معبد أبيس، ثمّ أوغل شمالًا محاذيًا للبقعة التي لا ترى الناس إلّا في المواسم والأعياد. وكاد يشفي على اليأس والقنوط لولا أن رأى على بعد قريب قطيعًا من الفلّاحات يجلسن على الشاطئ تاركات سيقانهنّ في الماء الجاري، فخفق قلبه خفقة شديدة طردت القنوط طردًا، والتمعت عيناه بنور الأمل البهيج، فاشتدّ ساعده وحوّل القارب إلى الشاطئ، وكان كلّما قطع ذراعًا التفت إليهنّ وأمعن النظر، فلمّا أن دنا منهنّ واستطاع أن يرى وجوههنّ فرّت من فمه صيحة خافتة، كصيحة الأعمى الذي تردّ إليه نعمة الإبصار على حين فجأة. وذاق غبطة الغريق الذي صادفت قدماه صخرة ناتئة وقد أشفى على الغرق، فقد رأى الفلّاحة المنشودة، صاحبة الصورة التي على قلبه، جالسة على الشاطئ وسط هالة من أترابها، وكان كلّ شيء - كما قلنا - موسومًا بروح الأحلام، فرسا القارب

قريبًا منهنّ، ووقف فيه ددف بقامته الفارعة وبزّته البيضاء الأنيقة، يتيه بجسم كأنّه تمثال القوّة المعبودة، وجمال فاتن كأنّه إلٰه النيل انحسرت عنه أمواجه القدسيّة، وجعل يرنو إلى ذات الوجه الملائكيّ بوجه شفّه الهيام والافتتان، فتولّت الحيرة الفلّاحة ومضت تقلّب عينيها في وجوه صويحباتها. ومضين يقلّبن أعينهنّ في وجهها المشرق، وكنّ يظننّه عابرًا، فلمّا رأينه واقفًا سحبن سيقانهنّ من النيل وارتدين صنادلهنّ وتولّاهنّ الإنكار.

فقفز ددف من القارب فصار على بعد ذراع منهنّ، وقال للفلّاحة بصوت رقيق:

ـ طيّب الربّ مساءك أيّتها الفلّاحة الجميلة.

فرمقته بنظرة إنكار وكبرياء، وقال له أكثر من صوت من أصوات العصافير المحيطة بها:

ـ ماذا تريد منّا يا سيّدي؟!.. سِرْ في حال سبيلك! فوجّه إليها نظرة عتاب وقال:

ـ ألا تردّين تحيّتي؟

فولّت عنه برأسها المتوّج بتاج الليل غضبًا، وصاحت به الكثيرات:

ـ سر في سبيلك أيّها الشابّ، نحن لا نكلّم من لا نعرفه!

فقال ددف:

ـ ترى هل عادة البلد الطيّب الذي أنبتكنّ أن يلقى الغريب بمثل هذا الجفاء؟

فقالت واحدة بحدّة:

ـ الذي يبدو على وجهك الاستهتار لا الغربة!

ـ كم تقسينَ عليّ!

ـ إن كنت غريبًا حقًّا، فليس هذا المكان بغاية الغرباء، عد جنوبًا إلى منف أو سِرْ شمالًا إلى حيث شئت ودعنا في سلام، فنحن لا نكلّم من لا نعرفه!

فهزّ ددف كتفيه استهانة وقال وهو يشير إلى الفلّاحة الجميلة:

ـ إنّ مولاتي تعرفني حقّ المعرفة.

فتولّاهنّ الإنكار ونظرن إلى الفتاة الجميلة فألفينها غاضبة، وسمعنها تقول له:

ـ أتفتري عليّ كذبًا!!

فقال الشابّ:

ـ أبدًا وحقّ الربّ، قد عرفتك منذ زمن طويل وما جددت في طلبك إلّا بعد أن خانني الصبر ولجّ بي الشوق.

فقالت الجميلة الغاضبة:

ـ كيف تزعم هذا وما رأتك عيناي قبل الآن؟

قالت إحدى صويحباتها:

ـ ولا تحبّ أن تراك بعد الآن؟

وقالت أخرى بلهجة مرّة:

ـ ما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات!

ولٰكنّه لم يبالهنّ، وقال للتي لا تتحوّل عن وجهها عيناه:

ـ طالما رأيتك وطالما امتلأت بك نفسي.

ـ كاذب.. عديم الحياء.

ـ حاشاي أن أكذب، ولكنّي أحتمل كلامك القاسي بشغف إكرامًا للفم الجميل الذي ينثره.

ـ بل أنت كاذب مدّعٍ يبغي طريقة عوجاء!

ـ قلت حاشاي أن أكذب. وإليك الدليل.

قال ذٰلك ودسّ يده في صدره وأخرج الصورة وواجهها بها وهو يقول:

ـ هل أستطيع أن أرسم هذه الصورة دون أن تمتلئ عيناي بسناك؟

ونظرت الصبيّة إلى الصورة، فلم تتمالك أن تصيح بإنكار وسخط وخوف، وامتلأت نفوس البنات سخطًا، وهجمت عليه إحداهنّ بغتة تريد أن تنتزعها منه، ولٰكنّه رفع بها ذراعه بسرعة البرق وابتسم ظافرًا وقال:

ـ أرأيت كيف أنّك ملء خيالي ونفسي؟

فقالت بغضب شديد:

ـ هٰذه خسّة ونذالة.

ـ ولِمَ؟ ألأنّه راقني حسن فصوّرته؟

فقالت بحدّة لم تخلُ من توسُّل:

ـ ردّ إليّ هٰذه الصورة.

فقال وعلى فمه ابتسامة حلوة:

ـ لن أفرّط فيها ما حييت.

ـ أرى أنّك من جنود المدرسة الحربيّة، فاعلم أنّ سوء أدبك هٰذا يعرّضك إلى أقسى العقوبات.

قال بهدوء:

ـ إنّي أعرّض نفسي بالنظر إليك إلى ما هو أشدّ قسوة.

ـ يا عجبًا لقد ابتليت بك ابتلاء.

ـ وابتليت أنا ابتلاء أحقّ بالرحمة.

ـ ماذا أردت بهذه الصورة؟ وماذا تريد منّي الآن؟

ـ أردت بالصورة أن تشفيني ممّا فعلته بي عيناك، وأريد منك الآن أن تشفيني ممّا فعلته بي الصورة.

ـ لم أكن أحلم قطّ أن يتعرّض لي إنسان بمثل سفاهتك.

ـ وهل كنت أحلم أن أسلب عقلي وقلبي في لحظة عابرة؟

وهنا صاحت به فلّاحة أخرى:

ـ هل سعيت إلينا لتنغّص علينا سعادتنا؟

وصاحت به أخرى وقالت:

ـ يا لك من شابّ وقح سفيه، إنّي أنذرك بأنّي إذا لم تذهب سريعا استصرخت بالناس.

فنظر باطمئنان إلى الفضاء المحيط وقال بهدوء:

ـ لم أعتد أن أطلب شيئًا فيعزّ عليّ.

فصاحت به الفلّاحة الجميلة:

ـ هل تريد إرغامي على الاستماع إليك؟

ـ كلّا ولٰكنّي.. ولٰكنّني أطمع أن يلين قلبك فيهوى إلى الاستماع إليّ!

ـ وإذا وجدت قلبي كالصخر لا يلين؟

ـ وهل يشتمل هٰذا الصدر الرقيق على صخر؟

ـ إنّه يتحوّل إلى صخر حيال سفاهة السفهاء.

ـ وحيال شكوى المحبّين؟

فضربت الأرض بقدمها وقالت بعنف:

ـ يصير أشدّ قساوة.

ـ إنّ قلب أقسى الفتيات كقطعة الثلج، إذا مسّها نفس حارّ ذابت وتدفّقت ماء نميرًا..

فقالت بسخرية:

ـ إنّ هذا الكلام الذي تظنّه رقيقًا دليل على أنّك جنديّ فاسد، يخفي جسم فتاة خلف رداء الجنديّة.. ولعلّك سرقت هذا الرداء العسكريّ كما سرقت صورتي من قبل..

فاحتقن الدم بوجه ددف الجميل وقال:

ـ سامحك الربّ.. أنا جنديّ صادق الجنديّة، وسيحالفني النصر على قلبك كما حالفني في جميع الميادين!

فقالت بلهجة أشدّ سخرية:

ـ أيّ ميادين هٰذه التي تتكلّم عنها؟ إنّ الوطن يتمتّع بالسلام من قبل أن تتشرّف بك الجنديّة، فيا لك من جنديّ يعقد له النصر في ميادين السلام والطمأنينة.

فاعتلاه الارتباك وقال:

ـ ألا تعلمين يا جميلة أنّ حياة التلميذ في المدرسة الحربيّة كحياة الجنديّ في الميدان؟ ولكن لا عليك من هٰذا سيغفر قلبي لك سخريتك منّي..

فقالت بغيظ:

ـ حقًّا إنّي أستحقّ اللوم، لأنّي صبرت على سفاهتك.

وهمّت بالمسير، ولٰكنّه حال بينها وبينه وقال مبتسمًا:

ـ لا أدري كيف أكتسب مودّتك؟ أنا سيّئ الحظّ.. هل لك في نزهة نيليّة في القارب؟

وارتاع البنات لتعرّضه لصاحبتهنّ وأحطن بها. وصاحت به إحداهنّ:

ـ دعنا نذهب فقد لحقنا المغيب.

ولٰكنّه لم يدعهنّ يذهبن، وكانت واحدة منهنّ تطلب منه غفلة، فلمّا لاحت فرصة انفضت عليه كاللبؤة وارتمت على ساقه وتعلّقت بها وعضّته في فخذه، وارتمت عليه الفتيات جميعًا منهنّ من تعلّقت بساقه الأخرى ومنهنّ من احتضنته بقوّة، وجعل يقاومهنّ بالصبر دون المدافعة، ولٰكنّه عجز عن الحركة ورأى ـ وهو يكاد يجنّ ـ الفلّاحة الجميلة تجري ناحية الحقول كالغزال النافر، فناداها وتوسّل إليها وقد اختلّ

توازنه فسقط على الحشائش الخضراء، وما زلن يتشبّثن به ولم يتركنه حتّى اطمأننّ إلى اختفاء صاحبتهنّ. وقام مهتاجًا غاضبًا وجرى في الطريق الذي ذهبت فيه ولكنّه لم يرى إلّا فضاء، فعاد قانطًا وقد رجا أن يهتدي إليها بواسطة صاحباتها، ولكنّهنّ كنّ دهاة فقعدن هادئات لا يبرحن أماكنهنّ.

وقالت له واحدة بسخرية:

ـ ابق الآن أو اذهب كما تشاء.

وقالت أخرى بخبث:

ـ عسى أن تكون هٰذه أوّل مرّة تهزم فيها أيّها الجنديّ.

فقال بغضب شديد:

ـ لم تنته المعركة بعد.. وسأتبعكنّ ولو رحلتنّ إلى طيبة!

فقالت التي عضّته:

ـ سنبيت ليلنا هنا..

ـ ١٧ـ

وكان الشهر الذي قضاه في المدرسة بعد ذاك المساء الجميل أطول الشهور وأشدّها قسوة، وكان في أوّل الأمر كثير التألّم لكرامته وكبريائه يسائل نفسه مغيظًا محنقًا: كيف أخيب هذه الخيبة وما ينقصني الجمال ولا الشباب ولا القوّة ولا الغنى؟! وكان يديم النظر إلى المرآة ويحدّث نفسه ما الذي يعيبه؟ ما الذي ينفّر الحسن منه؟ لماذا أصلته إهانة تلو إهانة وسخرية بعد سخرية! لماذا فرّت منه كما يفرّ السليم من الأجرب؟ ثمّ يجد رغبة شديدة إلى معاودتها وملاحقتها، ولٰكنّه يذكر الشهر الطويل الذي تحجزه فيه المدرسة بين جدرانها فتذهب نفسه حسرات وتسيل جوًى ولوعة، فقد يستطيع لو ثابر على مغازلتها يومًا بعد يوم أن يكبح جماحها ويلين عريكتها ويكتسب مودّتها، وأيّ فتاة تقسو إلى الأبد؟ ولكن أنّى له هٰذا وهو حبيس هٰذه الجدران الضخمة التي ترتدّ عنها القسيّ والنبال؟!

وبالرغم من كلّ شيء ظلّ مفتونًا بها، لا تفارق صورتها صدره، كي يخلوّ إليها كلّما خلا إلى نفسه، ترى من هي تلك الجبّارة الفاتنة؟ فلّاحة صغيرة؟ هذا عجيب، وأين أعين الفلّاحات من عينيها النيّرتين الساحرتين، وأين بساطة الفلّاحات من كبريائها وعنادها؟ وأين سذاجة الفلّاحات من سخريتها المريرة وتهكّمها المتعالي؟ لو أنّه باغت فلّاحة بما باغتها به لربّما فرّت هاربة أو استسلمت راضية ولكن هيهات! وهل يستطيع أن ينسى جلستها وسط صويحباتها كالأميرة بين أفراد حاشيتها ووصيفاتها؟ وهل ينسى كيف دافعته عنها مدافعة المستميت؟ وهل ينسى كيف لبثن بين يديه ـ بعد فرارها ـ لا يبرحن حذرًا أن يتبعهنّ إليها، صابرات على البرد والظلمة؟ فهل يفعلن كلّ هٰذا من أجل فلّاحة مثلهنّ؟! كلّا وكلّا، ولعلّها ريفيّة نبيلة بل عسى أن تكون كذٰلك حتّى لا يقول نافا مرّة أخرى إنّه وقع على كوخ متهدّم؟ ولٰكن هل وفّق معها لكي يقول ذٰلك لنافا مرّة أخرى؟ واأسفاه..!!

ومهما يكن فقد انتهى الشهر الذي خاله لا ينتهي أبدًا، وغادر المدرسة كمن يغادر سجنًا رهيبًا، وذهب إلى البيت بشوق مدّخر لغير أهله، وقابلهم بفرح ليس هم الباعث عليه، وجلس بينهم بقلب غائب، فلم يلاحظ ما طرأ على جاموركا من الجمود والفتور، وانتظر بصبر فارغ، ذٰلك العصر الذي عدّ الدقائق إليه شهرًا كاملًا، ثمّ انطلق إلى بقعة أبيس الطاهرة تنشد عيناه الوجه الحبيب..!

وكان الشهر برمودة والجوّ معتدلًا رطبًا، آخذًا من البرد بقبضة تنعش، وآخذًا من الدفء بنفس حيّ يغري باللهو والهوى، وكانت السماء بيضاء، رقيقة البياض، يشفّ بياضها الرقيق عن زرقة باهتة.

وألقى على المكان العزيز نظرة ملؤها الحنوّ، وساءل نفسه المشوّقة: أين الفلّاحة ذات العينين الفاتنتين؟ ترى هل تذكره؟ أم هل لا تزال تجدّ عليه؟ وهل مايزال رجاؤه لديها عسيرًا؟ أيستحيل أن يلقى حبّه صدًى في قلبها؟ ولكن أين هي؟

إنّ البقعة خلاء لا تجيب، صمّاء لا تلبّي نداء، فما من معين على البلوى أو صارخ على الشكوى، والقلب

يستشعر وحشة ويحسّ بدبيب الخيبة ويجثم عليه روح تشاؤم وقنوط.

والوقت ـ إذا غرّه الأمل لا يزال أمامه متّسع لمجيئها ـ يمرّ ثقيلًا بطيئًا، وإذا خيّل إليه القنوط أنّ موعدها انقضى أحسّ بالزمن ينطلق انطلاق السهم، وكأنّ الشمس تركب عربة سريعة تعدو بها إلى الأفق الغربيّ.

ومضى يحوّم حول المكان الذي رآها فيه أوّل مرّة، وجعل ينظر إلى الحشائش الخضراء طمعًا أن يرى أثرًا لصندلها أو سُحب ذيلها، ولٰكنّ الحشائش لم تحفظ من جسمها اللدن أكثر ممّا حفظ الماء من ساقَيها!

ترى هل تواظب على زيارة هذا المكان كما كانت تفعل من قبل أم أنّها زهدت في نزهتها زهدًا في رؤيته؟ أين هي؟ وكيف السبيل إليها؟ هل ينادي بغير اسم؟ هل يصرخ في الفضاء؟ وجعل يدور حول المكان الحبيب حائرًا، نافد الصبر، يتقاذفه القنوط والأمل.. ولاحت منه التفاتة إلى السماء فرأى الشمس تميل إلى الأفق، ورأى توهّجها يخبت فتقدر العين على النظر إليه كأنّها جبّار مارد أذلّته الشيخوخة وأطمعت فيه الضعفاء، فذوى أمله وغرق في لجّة اليأس، واعتلاه حزن شديد، وولّى وجهه شطر الحقول فرأى هيكل قرية، فشخص إليها وما يدري ما يفعل، وفي منتصف الطريق التقى بفلّاح آئب بعد جهد النهار الواصب، فسأله عن القرية؟ فقال الرجل وهو ينظر إلى بذلته باحترام: «هي قرية آشر يا سيّدي». فكاد من اليأس أن يريه الصورة الساكنة على صدره ويسأله عن صاحبتها.

واستأنف رحلته ولم تكن له غاية محدودة، ولكنّه وجد في السير راحة لم يجدها في الوقوف والدوران، وكأنّ الأمل الخُلّب الذي غرّر به ساعة على شاطئ النيل طار إلى ربوع تلك القرية فاتّبع أثره.. وكان مساءً لا يُنسى، فقد اخترق طرقات القرية يقرأ الوجوه ويسائل الديار، فأثار منظره الفضول ولفت جماله الأنظار، واتّجهت إليه العيون من كلّ صوب، وما لبث أن وجد نفسه يسير وسط أمّة من الفتيات والغلمان والصبيان، وأخذ يعلو الحديث والهتاف وما وجد لضالّته أثرًا، فتحاشى أهل القرية وغادرها سريعًا، وأسرع الخطى نحو النيل في ظلمة من النفس وظلمة من الكون.

كان حزينًا، يائسًا، تحرق اللوعة صدره، وتمزّق الحسرة قلبه، وقد ذكّرته حاله بمأساة الربّة إيزيس حين ذهبت تبحث عن أشلاء زوجها أوزوريس التي نثرها ست في تضاعيف الرياح، وقد كانت الأمّ إيزيس أسعد حظًّا منه، أمّا هو فلو كانت حبيبته طيفًا من أطياف الأحلام، لكان الأمل في العثور عليه أدنى إلى قلبه.

أحبّ ددف الجميل، ولكنّه كان حبًّا غريبًا، بلا حبيبة، حبًّا ليس عذابه الصدّ أو الخيانة أو ويلات الزمن وكيد الناس، لكنّ عذابه أنّه بلا حبيبة. كانت حبيبته كنسمة هائمة حملتها ريح هوجاء وذهبت بها إلى حيث لا يعلم إنسان. فقلبه ضائع لا يعرف له مستقرًا، لا يدري إن كان قريبًا أم بعيدًا، لا يدري إن كان بمنف أم في أقصى بلاد النوبة. فيا لها من أقدار قاسية تلك التي حوّلت عينيه إلى تلك الصورة التي يحتفظ بها على قلبه، كانت أقدارًا قاسية تعرفها الأرواح الشرّيرة التي يطيب لها عذاب البشر.

* * *

وعاد إلى البيت والتقى بأخيه نافا في الحديقة، فقال الفنّان:

ـ أين كنت يا ددف؟ لقد طالت غيبتك. ألم تعلم أنّ خنى في حجرته؟

فقال ددف بدهشة:

ـ خنى!.. أحقًّا ما تقول؟ ولكنّي لم أجده حين مجيئي.

فقال نافا:

ـ جاء منذ ساعتين وهو ينتظرك.

فهرع إلى حجرة الكاهن الذي لم تقع عليه عيناه منذ سنوات، ورآه جالسًا كما تعوّد أن يراه في الأيّام الخوالي والكتاب في يده، فلمّا رآه قام إليه وهو يقول بفرح:

ـ ددف! كيف أنت أيّها الضابط الهمّام؟

وتعانقا طويلًا، وقبّله خنى في خدّيه وباركه باسم الربّ بتاح وقال له:

ـ كم تمرّ الأعوام سريعًا يا ددف! إنّ وجهك هو هو الوجه الجميل.. ولٰكنّك تنمو نموًّا عظيمًا، وكأنّي أرى فيك صورة جنديّ باسل من الجنود الذين يباركهم الملك عقب المواقع الكبرى وتخلّد بطولاتهم جدران المعابد.. يا عزيزي ددف، كم أنا سعيد برؤيتك بعد هذه الأعوام الطوال!

فقال ددف والفرح يغمره:

ـ وأنا سعيد جدًّا يا أخي العزيز، تالله لقد غدوت صورة صادقة من رجال الكهنوت في نحافة جسمك وهيبة محضرك ونفاذ عينيك، هل انتهيت من الدراسة أيّها الأخ العزيز؟

فابتسم خنى وهو يجلس ويفسح له مكانًا إلى جانبه:

ـ إنّ الكاهن لا ينتهي من العلم أبدًا، لأنّه لا نهاية للعلم. وقد قال قاقمنا: إنّ العالِم يطلب العلم من المهد إلى اللحد ويموت جاهلًا. ولٰكنّي أتممت الدراسات التعليميّة الأولى.

ـ وكيف كانت حياتك في المعبد؟

فنظر إليه الشابّ بعينين حالمتين وقال:

ـ واها لك أيّها الزمان، كأنّي أستمع إليك قبل عشر سنوات وأنت تطرح عليّ السؤال تلو السؤال، أتذكر يا عزيزي ددف؟.. لا داعي للعجب فحياة الكاهن تمضي بين سؤال وجواب أو سؤال ومحاولة الجواب، إنّ السؤال خلاصة الحياة الروحيّة. معذرة يا ددف، ما الذي يهمّك من حياة المعابد؟ ليس كلّ ما يعرف يقال، وحسبك أن تعلم أنّها حياة الجهاد والطهر، إنّهم يعوّدوننا أن نجعل الجسم طاهرًا مطيعًا لإرادتنا ثمّ يلقّنوننا العلم الإلٰهيّ، وهل ينثر الحبّ الطيّب إلّا في أرض طيّبة؟

ـ وماذا أنت فاعل أيّها الأخ؟

ـ سأعمل قريبًا خادمًا لقرابين الربّ بتاح تعالى اسمه المبارك، ولقد حزت عطف الكاهن الأكبر، وتنبّأ لي بأنّه لن تمضي عشر سنوات حتّى أنتخب قاضيًا من قضاة منف العشرة.

فقال ددف بحماس:

ـ إنّي أومن بأنّ نبوءة قداسته ستتحقّق قبل ذلك.. أنت رجل عظيم يا خنى.

فابتسم خنى ابتسامته الهادئة وقال:

ـ اشكرك يا عزيزي ددف، والآن قل لي هل تقرأ شيئًا مفيدًا؟

فضحك ددف قائلًا:

ـ إذا حسبت خطط القتال وتاريخ الجيش المصريّ قراءة مفيدة فأنا أقرأ أشياء مفيدة!

فسأله بإشفاق:

ـ والحكمة يا ددف؟!.. لقد كنت تصغي إلى أقوال الحكماء بشغف وشوق في هٰذا المكان قبل عشر سنوات!

ـ الحقّ أنّك زرعت حبّ الحكمة في قلبي، ولكنّ حياتي العسكريّة لا تترك لي فراغًا للمطالعة التي أهواها، ومهما يكن فقد قصرت الشقّة بيني وبين الحرّيّة.

فقال خنى بامتعاض:

ـ إنّ العقل الفاضل لا يستغني عن الحكمة يومًا، كما إنّ المعدة السليمة لا تزهد في الطعام بعض يوم. ينبغي أن تعوّض ما فاتك يا ددف، لا تنس هٰذا مطلقا، إنّ فضيلة علم الحرب أنّه يؤهّل الجنديّ لخدمة وطنه ومولاه بالقوّة، ولٰكنّ الروح لا تفيد منه شيئًا، والجنديّ الذي يجهل الحكمة، كالحيوان الأمين ليس إلّا، وقد ينفع بوحي غيره، فإذا تُرك لنفسه عجز عن إفادة نفسه فضلًا عن الآخرين، وقد ميّزتنا الآلهة عن الحيوان بالروح، وإذا لم تتغذّى الروح بالحكمة هوَتْ إلى حضيض الحيوانيّة. لا تغفل عن هذا يا ددف، لأنّي أشعر من أعماق قلبي بأنّ روحك سامية، وأقرأ على جبينك الجميل أسطرًا باهرة من المجد والجلال، باركك الربّ في روحاتك وغدواتك..

وتسلّل الحديث بينهما عذبًا شهيًّا لقلبيهما، وكان آخر ما تحدّثا به زواج نافا، وعلم به خنى من ددف لأوّل

مرّة، فبارك الزوج والزوجة، وهنا خطر لددف خاطر فسأله:

ـ ألا تتزوّج يا أخي؟

فقال الكاهن للشابّ:

ـ كيف لا يا ددف؟ إنّ الكاهن لا يستطيع أن يخلد إلى طمأنينة الحكمة ما لم يتزوّج، وهل يستطيع المرء أن يتطلّع إلى السماء وفي النفس نزوع إلى الأرض. إنّ فضيلة الزواج أنّه يخلّص من الشهوات ويطهّر الجسد.

* * *

وغادر ددف حجرة أخيه عند منتصف الليل، وآوى إلى حجرته وأخذ يخلع ثيابه ويستعيد حديث الكاهن، ثمّ أخذت تعاوده أحزانه ويتذكّر عذاب يومه وخيبته فيه، وقبل أن يضطجع على فراشه سمع طرقًا خفيفًا، فأذن للطارق بالدخول، فدخلت زايا يبدو على هيئتها الوجوم وسألته:

ـ هل أيقظتك؟

فقال وقلبه يتوجّس خيفة:

ـ كلّا يا أمّاه لم أنم بعد، خيرًا؟

وتردّدت المرأة وهمّت بالكلام فلم يطاوعها لسانها، فأشارت إليه أن يتبعها، فتبعها قلقًا حتّى انتهيا إلى مخدعها، وأشارت إلى الأرض، فنظر فرأى جاموركا ممدّدًا كأنّه أصيب بسهم قاتل، فلم يتمالك نفسه أن صاح بذعر:

ـ جاموركا. . جاموركا. . ما له يا أمّاه؟!

فقالت المرأة بصوت مختنق:

ـ تشجّع يا ددف. . تشجّع يا عزيزي.

فانخلع قلبه في صدره وركع إلى جانب الكلب العزيز الذي لم يلقه كعادته بالقفز والفرح، وربّت على جسمه فلم يبدِ حراكًا، فنظر إلى أمّه بعينين كئيبتين وسألها:

ـ ما له يا أمّاه؟

فقالت المرأة:

ـ تشجّع يا ددف إنّه يحتضر!

فارتاع الشابّ لتلك الكلمة المرعبة وقال محتجًّا:

ـ كيف حدث هذا؟ لقد لاقاني في الصباح كعادته.

ـ لم يكن كعادته يا عزيزي. إلّا إذا كان فرحه بك محا آلامه ساعتئذ، لقد طعن في العمر يا ددف وبدا عليه في الأيّام الأخيرة وهن الوداع. .

فاشتدّ الألم بددف وتحوّل إلى الصديق الأمين وهمس في أذنه بحزن عميق:

ـ جاموركا. . ألا تسمعني؟ جاموركا!

فرفع الكلب الأمين رأسه بصعوبة، ونظر إلى مولاه بعينين لا تريان شيئًا كأنّه يودّعه الوداع الأخير، ثمّ عاد إلى نومه الثقيل. وجعل يئنّ بصوت مبحوح، فناداه مرّة بعد أخرى ولٰكنّ نداءه لم يحرّك به ساكنًا، وخيّل إليه أنّ وطأة الموت تشتدّ على الصديق الأمين. ورآه يلهث ويفتح فاه ويغلقه. ثمّ رآه ينتفض انتفاضة ضعيفة ويسكن إلى الأبد. وناداه من أعماق قلبه قائلًا «جاموركا» فضاع النداء سدًى. . ولأوّل مرّة في حياته العسكريّة ذرفت الدموع من عينيه، وانتحب باكيًا يودّع رفيق الطفولة وحبيب الصبا وصديق الشباب. .

واحتضنته أمّه بين يديها وجفّفت دموعه بشفتيها، وأجلسته إلى جانبها على فراشها وعزّته بكلمات رقيقة، ولٰكنّه لم يسمع إليها ولم تنفرج شفتاه في تلك الليلة إلّا عن قوله: أمّاه أريد أن يحنّط ويحفظ في تابوت في الحديقة في البقعة التي كنّا نلعب فيها معًا، حتّى ينقل إلى قبري حين يدعوني الربّ.

وهكذا اختتم ذٰلك اليوم الحزين.

ـ ١٨ ـ

مضى العام السادس والأخير لددف في المدرسة الحربيّة.

وأقامت المدرسة حفلتها التقليديّة السنويّة التي يتبارى فيها المتخرّجون قبل توزيعهم على فرق الجيش المختلفة. وأشرقت حياة الفرح ـ ذٰلك اليوم ـ على المدرسة العظيمة وأُزينت أسوارها بأعلام الفرق الحربيّة، وصدح جوّها بأنغام الموسيقى الحماسيّة.

وفتحت أبوابها تستقبل المدعوّين نساءً ورجالًا الذين

يتكوّن جمهورهم من أُسَر الضبّاط والقوّاد والمتخرّجين وكبار الموظّفين.

وبعد أن انتصف النهار، حضر كبار رجال الدولة يتقدّمهم الكهنة والوزراء وعلى رأسهم صاحب القداسة خوميني. وقوّاد الجيش العظام وعلى رأسهم القائد أربو، وكثير غيرهم من خاصّة الموظّفين والكتّاب والفنّانين ليكونوا جميعًا في استقبال حضرة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف وليّ عهد المملكة، الذي أنابه صاحب الجلالة الملك عن ذاته في ترؤّس الحفلة.

ولمّا أزفّ موعد الأمير هرع كبار رجال الدولة إلى مدخل المدرسة ووقفوا ينتظرون بين صفوف من الجنود، وما لبث أن ظهر في الميدان الفسيح المنبسط أمام المدرسة موكب وليّ العهد تتقدّمه كوكبة من عربات الحرس الفرعونيّ، فصدحت الموسيقى بالتحيّة، ووقف الجمهور إجلالًا وتعالى هتافه لفرعون ووليّ العهد.

ووصل موكب الأمير إلى مدخل المدرسة، فتقدّم مديرها حاملًا بين يديه نمرقة من الحرير المحشوّ بريش النعام ترجّل عليها صاحب السموّ الفرعونيّ، وكان في صحبة الأمير شقيقته صاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ، وإخوته الأمراء رعباوف وحردف وحرسادف وكاعب وسددف وخوفو خعف وهتا ومراب..

وانحنى الكبراء بين يدي الأمير، وسار سموّه بقامته الربعة ووجهه الصلب الذي زادته الكهولة صلابة وصلفًا، وسارت إلى يمينه الأميرة مري سي عنخ، واتّخذ مجلسه في الوسط، وجلست إلى يمينه الأميرة والأمراء، وإلى يساره خوميني والوزراء والقوّاد وكبار الموظّفين. وبعد وصول الأمير سكت الهتاف وجلس المدعوّون، وابتدأت الحفلة، ونفخ في الصور فصدحت الموسيقى وظهرت فرقة الضبّاط المتخرّجين من ناحية الثكنات تسير أربعة أربعة، يتقدّمها قائد المدرّبين حاملًا عَلَم المدرسة، وقد ارتدوا للمرّة الأولى ملابس الضبّاط ذات الوزرة الخضراء والقميص الأخضر والسترة المصنوعة من جلد النمر، فلمّا أن صاروا بإزاء العرش الجالس عليه صاحب السموّ، سلّوا سيوفهم ومدّوا بها أذرعهم وهي عموديّة أَذِبّتها إلى السماء، فردّ التحيّة واقفًا.

وابتدأت بعد ذلك المباراة العظيمة بسباق الخيل، فامتطى الضبّاط الجياد المطهّمة ووقفوا صفًّا، ثمّ نفخ في الصور فاندفعوا كالسهام المنطلقة عن أقواس مردة، وزلزلت أرجل الخيل الأرض زلزالًا شديدًا، وكادت لشدّة عدوها تغيب عن الأبصار، وثبت البواسل عليها كأنّهم سمّروا في ظهورها تسميرًا. وكانوا صفًّا، ثمّ فرّق بينهم العدو الشديد، ثمّ شذّ عنهم فارس كان لسرعته كأنّما يركب ريحًا مجنونة. وكان أسبقهم في العودة إلى المبتدأ.. وقد أذاع المدرّب اسم الفارس الفائز «ددف بن بشارو» فاستقبل بهتاف شقّ عنان السماء، ولو أتيح للشابّ أن يسمع أباه وهو يهتف «لابن بشارو» بصوت كالرعد لما تمالك نفسه من الضحك!

وبعد مدّة وجيزة بدأ سباق العربات، فركب الضبّاط وانتظروا صفًّا، ثمّ نفخ في الصور فانطلقوا كالعمالقة يبعثون بين أيديهم رهبة ويتركون خلفهم دويًّا كشقّ الصخور وانهيار الجبال. وكانوا على ظهور العربات يتمايلون ولا يتزحزحون، كأنّهم سيقان نخل راسخة هبّت عليها ريح عاصفة تريد اقتلاعها فارتدّت عنها خائبة مولولة.. ثمّ انطلق من بين صفوف العادين راكب سبقهم بقوّة مارد فبدا وبدوا كأنّه عادٍ وهم وقوف، وتوجّه الفوز حتّى النهاية، وأعلن المدرّب اسم الفائز «ددف بن بشارو» وتعالى باسمه الهتاف واشتدّ له التصفيق..

ثمّ أعلن المنادي عن سباق القفز على الحواجز، فامتطى الضبّاط جيادهم، وأقيم في وسط الفناء الطويل المصاطب من الخشب يزداد مع التقدّم ارتفاعها رويدًا رويدًا، ونفخ في الصور فعدت الخيل بعنف وطارت فوق الحاجز الأوّل كأنّها نسور منقضّة، وقفزت على الثاني كأنّها أمواج الشلّال الكاسرة، وتقدّموا يكلّل هاماتهم النصر المبين، ولكن خان الحظّ البعض فعجزت الجياد غير صائحة إلى صراخ فرسانها

البواسل، وسقط آخرون بين أصوات الإشفاق، إلّا فارسًا قفز الحواجز جميعًا كأنّه قدر محتوم أو فوز مجسّم، وأعلن المنادي اسمه «ددف بن بشارو» بين التهليل والتكبير.

وحالفه الفوز في جميع المباريات فكان المبرّز في إصابة الأهداف بالرمح والقوس، وكان المنتصر في المبارزة بالسيف والضرب بالمزاريق، وآتته الآلهة نصرًا مبينًا جعله بطل اليوم دون شريك، ونابغة المدرسة العديم النظير، وأحلّه مكانة الإعجاب والتقدير في كلّ قلب.

وكان على الفائزين أن يذهبوا إلى وليّ العهد ليهنّئهم على نبوغهم، فذهب ددف ـ ذٰلك اليوم ـ وحده، وأدّى للأمير التحيّة العسكريّة، فوضع الأمير يده في يده وقال له:

ـ إنّي أهنّئك أيّها الضابط الباسل: أوّلًا على تفوّقك. وثانيًا على اختياري لك ضابطًا في حرسي الخاصّ.

فطفح وجه الشابّ بالفرح، وأدّى التحيّة للأمير وعاد مثلج الصدر سعيدًا، وسمع في أثناء مسيره المنادي يعلن للحاضرين تهنئة الأمير واختياره له في حرسه، فخفق قلبه وذكر بالفرح أسرته: بشارو وزايا وخنى ونافا الذين يسمعون خطاب المنادي ويفرحون له الفرح الذي يجلّ عن الوصف.

وسارت بعد ذٰلك فرقة الضبّاط الجدد إلى عرش الأمير ليخطب فيهم، وقام الأمير وخطب فيهم قائلًا بصوته الشديد النبرات:

أيّها الضبّاط البواسل:

إنّي أعلن على الملأ إعجابي العظيم بشجاعتكم ومهارتكم وحماستكم وتميّزكم بسجايا الجنديّة الجليلة، ورجائي أن تظلّوا كمن سبقكم من إخوانكم عنوان مجد للوطن ولفرعون ربّ العالمين.

وهتف الضبّاط للوطن ولفرعون، وبذلك أعلن انتهاء الحفلة، وغادر الأمير المدرسة وعاد موكبه الرسميّ إلى القصر الفرعونيّ، وانصرف المدعوّون.

وكان ددف في تلك الأثناء في حالة غريبة من الذهول أشذته عمّا حوله، لا يرجع تفسيرها إلى نشوة الفوز ولٰكنّه إلى أمر أعظم رهبة في نفسه وأمعن أثرًا. إذ كان يسمع مع زملائه إلى خطاب الأمير، وتحرّكت عيناه إلى الخطيب فعثرتا في طريقهما بوجه الأميرة مري سي عنخ، فرأى منظرًا عجبًا انخلع له قلبه في صدره. وكاد لقوّة المباغتة أن يصعق صعقًا ويخرّ على وجهه خرًّا. يا آلهة السموات ما هٰذا الذي يرى! إنّه وجه الفلّاحة التي يحمل صورتها على قلبه! وودّ لو يستطيع أن يديم النظر إليه ولكنّه خشي أن يفتضح أمره، فنظر إلى الأمام لا يلوي على شيء. وانتهت الحفلة ولمّا يفق من وقع المفاجأة والدهشة. فعاد إلى الثكنات كَمَنْ به مَسّ.

ترى هل يمكن أن تكون فلّاحته الجميلة هي صاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ؟ يا له من أمر بعيد عن التصديق، عسير على تصوّر الخيال!

ومع هٰذا هل من الميسور أن يصدّق بوجود وجهين بهٰذا الجمال الفتّان؟ هل ينسى ما لاقته به صاحبة الصورة من كبرياء، لم يكن قطّ من أخلاق الفلّاحات؟ ولكنّ جميع هذا لا يسوّغ له قبول هذا الفرض الغريب، فليته استطاع أن يتحقّق من قسمات وجهها!

أمّا لو كانت هي الأميرة! فقد أتى أمرًا كبيرًا لا يستطيع أن يتنبّأ بعواقبه، لم يتمالك عند ذاك من أن يضحك ضحكة ساخرة مريرة ويقول لنفسه يا للغرابة! إنّ ددف بن بشارو يحبّ الأميرة مري سي عنخ! ثمّ نظر إلى الصورة طويلًا بعينين حزينتين، وتنهّد قائلًا:

ـ هل حقًّا أنت الأميرة الجليلة! كوني فلّاحة بسيطة، فربّ فلّاحة مفقودة أقرب إلى القلب من أميرة موجودة!

ـ ١٩ ـ

وتأهّب ددف لمغادرة قصر بشارو ـ لأوّل مرّة ـ كرجل مستقلّ، تاركًا في النفوس حزنًا ممزوجًا هٰذه المرّة ـ بالفخر والإعجاب ـ وقد قبّلته زايا حتّى بلّلت خدّه بدمعها، وباركه خنى ودعا له ـ وكان يأخذ أهبته أيضًا لترك البيت إلى المعبد، وشدّ نافا على يده بحرارة

وقال له: «إنّ نبوءتي تحقّقها الأيّام يا ددف». وودّعه كذلك عضو جديد في أسرة بشارو هي مانا ابنة كامادي زوج نافا. أمّا بشارو العجوز فقد وضع كفّه الغليظة على كتفه وقال له بخيلاء: «إنّي سعيد يا ددف لأنك تخطو الخطوات الأولى في طريق والدك العظيم». ولم ينس ددف أن يضع زهرة لوتس على تابوت جاموركا قبل أن يودّع بيته في طريقه إلى قصر صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف..

ومن المصادفات السعيدة أنّه وجد أنّ زميله بمخدعه بثكنات قصر الأمير صديق قديم ترجع صداقتهما إلى زمالة الصبا، وكان شابًّا ودودًا مخلص القلب، صريحًا ثرثارًا، ففرح بقدوم صديقه القديم واستقبله استقبالًا وديًّا، وقال له ضاحكًا:

- أدائمًا في أثري؟

فابتسم ددف وقال:

- ما دمت في طريق المجد.

- المجد لك يا ددف، لقد كنت الفائز في سباق العربات، أمّا أنت فجنديّ لم يسبق بمثله، إنّي أهنّئك من صميم قلبي.

فشكره ددف، وفي المساء أحضر سنفر من صوان ثيابه زجاجة من خمر مريوط وكأسين من الفضّة، وقال:

- اعتدت أن أشرب كأسًا من خمر مريوط العذبة قبل النوم، هي عادة مفيدة.. ألا تشرب؟

- إنّي أشرب الجعة، ولكنّي لم أذق الخمر؟

فقال سنفر مقهقهًا:

- اشرب.. إنّ الخمر داء الجنود.

وعلى حين فجأة قال له بلهجة جدّيّة:

- أيّها الأخ ددف، إنّك مقبل على حياة صارمة.

فابتسم ددف بشيء من الاستهانة وقال:

- لقد ألفت نفسي حياة الجنديّة.

فقال سنفر:

- جميعنا يألف حياة الجنديّة، ولكنّ صاحب السموّ شيء آخر.

فبدت الدهشة على وجه ددف وسأله:

- ماذا تعني؟

- إنّي أنصحك أيّها الأخ بدافع الأخوّة لتكون على بيّنة من الأمر ولتأخذ حذرك، فإنّ خدمة الأمير شدّة لا مثيل لها.

- كيف؟

- إنّ سموّه شديد القسوة، له قلب كالحجر أو أشدّ صلابة، الهفوة عنده خطأ مبين، والخطأ جريمة لا تغتفر. وستجد فيه مصر حاكمًا صارمًا لايداوي الجرح بالبلسم كما يفعل جلالة والده أحيانًا. ولكنّه لا يتوانى عن بتر العضو لأهون خلل يعتوره!

- إنّ الملك الحازم يحتاج إلى شيء من القسوة.

- شيء من القسوة.. لا القسوة كلّها، سترى كلّ شيء في حينه، فلا يكاد يفوت يوم لا يصدر فيه عقوبات عدّة يصيب بعضها الخدم وبعضها الجند وبعضها الوكلاء وربّما انصبّت على الضبّاط، وإنّ الأيّام لتزيده صلفًا وخشونة!

فقال ددف:

- العادة أن تلين عريكة الرجل بتقدّم العمر، هكذا يقول قاقمنا.

فضحك سنفر ضحكًا عاليًا وقال:

- لا يجمل بالجنديّ أن يستشهد في كلامه بقول حكيم. هكذا يقول صاحب السموّ!. وإنّ حياة سموّه لتشذّ عن رأي قاقمنا، لماذا؟. إنّه في الأربعين.. ولّي عهد في الأربعين من عمره! ، تأمّل!

فنظر إليه الشابّ بعينين متسائلتين، فاستطرد سنفر بصوت خافت:

- يودّ أولياء العهد لو يحكمون شبّانًا، فإذا قست عليهم الأقدار انقلبوا قساة!

- أليس سموّه متزوّجًا؟

- وله بنون وبنات.

- فالعرش مضمون لنسله.

- هذا لا يغني عن الأسف شيئًا.. وليس هذا ما يخشاه الأمير.

ـ فما الذي يخشاه؟ إنّ إخوته مخلصون لقوانين المملكة.

ـ ما في هذا شكّ، ولعلّهم لا يطمعون في شيء، لأنّ أمّهاتهم من الحريم، وجلالة الملكة لم تلد سوى وليّ العهد وشقيقته مري سي عنخ، فالعرش من حقّ هذين الاثنين قبل أيّ إنسان، ولٰكنّ الذي يقلق له الأمير هو.. قوّة بنية جلالته!

ـ إنّ فرعون معبود مصر جميعًا.

فنظر الضابط إليه وقال:

ـ بلا جدال.. إنّي يخيّل إليّ أنّي أستشفّ أماني النفوس التي تعيش في الأعماق دون أن يسمح لها الضمير الحيّ بأن تطفو، معاذ الربّ أن يوجد خائن في مصر.. كلّا أيّها الأخ، والآن قل ما رأيك في خمر مريوط؟.. إنّي طيبيّ ولٰكنّي غير متعصّب.

فقال ددف:

ـ هي خير ما قدّمت ياسنفر.

واكتفى سنفر بهذا المقدار من الحديث وقام للنوم، أمّا ددف فلم يذق جفنه المنام، لأنّ ذكر مري سي عنخ على لسان صاحبه أثار شجونه ولواعجه كما يثير الطعم الملقى على سطح الماء خافي السمك، فاهتاجت نفسه وتبلبل فكره وقضى سواد الليل يناجي قلبه المحزون.

ـ ٢٠ ـ

وكان في قصر وليّ العهد يحسّ من الأعماق بأنّه قريب من ذٰلك السرّ الغامض، وأنّه يعيش في الأفق الذي يشرق فيه، وأنّ لابدّ أن يشعّ عليه شعاع من أشعّته الوهّاجة، وكان ينتظر على أمل وخوف ولذّة. وإنّه ليتجوّل في مروج القصر المطلّة على النيل، والوقت يسير بين العصر والأصيل، وشمس هاتور تنسكب أنوارًا بهيجة تردّ الزمان الهرم إلى عنفوان الشباب وبهاء الفتوّة، وإذا به يرى سفينة ملكيّة ترسو إلى سلّم الحديقة ولم يكن في استقبالها أحد من الحجّاب، فأسرع ـ كما يقضي واجبه ـ إلى استقبال الرسول الكريم، ووقف تلقاء السفينة كالتمثال الجميل.

ورأى صورة إلهيّة تتخفّى في ثياب الأميرات تنزل من السفينة وتصعد أدراج السلّم في عظمة فرعونيّة ورشاقة خياليّة، كأنّ ثقلها ينجذب إلى أعلى لا إلى أسفل. رأى صاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ!

واستلّ سيفه الطويل وأدّى عليه التحيّة العسكريّة، ومرّت به الأميرة كالحلم الجميل، وسرعان ما غيّبتها متعرّجات الحديقة.

كيف لا تكون هي هي ؟

إنّ البصر يخدع، والسمع يخدع، أمّا القلب فلا يخدع أبدًا. ولو لم تكن هي ذاتها ما خفق هٰذه الخفقة الشديدة التي كاد لها ينخلع، ولما تركه من النشوة كالسكران المترنّح. ولكن ما بالها لا تحسّ به ولا تذكره، وقد جرى بينهما من الأمر ما يستحقّ التذكُّر؟ هل يمكن أن تنسى هٰكذا سريعًا تلك المقابلة الغريبة؟ أم أنّها تتناساها ترفّعًا عن ذكرها؟

وما الفائدة من أن تذكره أو لا تذكره؟ وما الفرق بين أن تكون الأميرة هي صاحبة الصورة أو تكون أخرى تشابهها؟ فالقلب ما خفق بالحبّ إلّا لهذه الصورة البهيّة، وسيظلّ يخفق لها سواء أحلّت بجسم أميرة من البيت الفرعونيّ أم بجسم فلّاحة من قرى منف، وسيظلّ على يأس منها في الحالتين، فما من الحبّ بدّ، وما من اليأس بدّ.

وألقى بنظرة إلى الأشجار المتفرّعة، وشاهد الأطيار تتجاذبها أغصانها وهي لا تكفّ عن التغريد وينبئ مظهرها الفرح عن الهيام والوداد، فأحسّ نحوها بعاطفة لم تزر قلبه من قبل. أحسّ نحوها بالحسد أن تلهو بغير حساب وأن تعشق بلا عذاب وأن تسمو بفطرتها عن الأوهام والشكوك، ثمّ نظر إلى حسامه وإلى بذلته ذات الألوان وإلى قلنسوته ذات الكبرياء، فأحسّ بصغار ووجد رغبة إلى الضحك المرير والهزء الأليم.

لقد أتقن الرماية وبرع في ركوب الخيل وتفوّق في المبارزة ونال كلّ ما يتمنّاه شابّ طموح، ولكن ما أعجزه عن إسعاد قلبه! وقد كان نافا أسعد حظًّا فتزوّج من مانا ذات الجيد الطويل والعينين العسليّتين،

وسوف يتزوّج خنى في هدوء وبساطة لأنّه يرى الزواج واجبًا دينيًّا، أمّا هو فيلبث حاملاً بين أضلعه حبًّا يائسًا مكتومًا، يذوي به قلبه كما تذوي الشجرة الفارعة إذا منعت نور الشمس وماء النيل.

وظلّ ملازمًا لموقفه يعلّل النفس برؤيتها مرّة أخرى، ولم يكن يشكّ في أنّ الزيارة غير رسميّة وإلّا لعلم بها كلّ من في القصر، ولاستُقبلت الأميرة استقبالاً يليق بمكانها في الأسرة الملكيّة وعلى هذا لا يبعد مطلقًا أن تعود إلى السفينة بمفردها. وصدق بعض ظنّه، فعادت الأميرة بعد أن ودّعها صاحب السموّ الملكيّ عند مدخل القصر.

وكان ددف بمكانه عند سلّم الحديقة فوقف مستعدًّا، حتّى إذا صارت بإزائه سلّ سيفه وأدّى التحيّة، وعلى حين فجأة توقّفت الأميرة والتفتت إليه في نبل وكبرياء، وقالت بلهجة ساخرة:

ـ هل تعرف واجباتك أيّها الضابط؟

فقال ددف وقد زلزلت نفسه:

ـ نعم يا صاحبة السموّ.

فسألته بلهجة مرّة:

ـ هل من الواجب أن تخطف الفتيات في غير زمن الحرب؟

فاستولى الارتباك عليه، وتلبّثت لحظة تحدجه بنظرة قاسية ثمّ قالت:

ـ وهل من واجب الجنديّ أن يغدر؟

فلم تحتمل نفسه الألم وقال:

ـ يا مولاتي.. إنّ الجنديّ الشجاع لا يغدر!

فسألته بسخرية:

ـ فما قولك فيمن يتربّص بالآمنات خلف الشجر ويصوّرهن خلسة؟

وغيّرت لهجتها فقالت بصلف:

ـ يجدر بك أن تعلم أنّي أريد تلك الصورة.

وأطاع ددف كما تعوّد أن يطيع، فدسّ يده في صدره وأخرج الصورة من مخبئها الدفين وقدّمها إلى الأميرة.

ولم تكن تتوقّع هذا، فبدت على وجهها بالرغم من كبريائها ـ الدهشة، ولكنّها سرعان ما تمالكت نفسها ومدّت يدها البضّة وأخذت الصورة.

سارت في طريقها إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة.

-٢١-

وظلّت حياة ددف في قصر الأمير لا يشرق في أفقها جديد، حتّى كان يوم عرف فيه قلبه مشربًا للألم جديدًا.

وفي ذلك اليوم خرج صاحب السموّ الأمير رعخعوف في بذلة التشريفة الكبرى، تتقدّمه كوكبة من الحرس كان بين ضبّاطها صديقه سنفر، وعاد الأمير لدى المساء، ورجع سنفر إلى مخدعه في الوقت الذي رجع فيه ددف إليه بعد قيامه بواجب الحراسة وتفقّد الحرّاس، وكان من الطبيعيّ أن يسأل صاحبه عن دواعي خروج الأمير بتلك الحال التي لا تأتي إلّا في الأعياد، ولكنّه كان يعلم بطبعه الذي لا يستطيع السكوت على سرّ، وفي الواقع ما استراح سنفر قليلاً حتّى قال وهو يرتدي منامته:

ـ أتعلم إلى أين ذهبنا اليوم؟

فقال ددف بهدوء:

ـ كلّا.

فقال سنفر باهتمام:

ـ حضر اليوم إلى منف صاحب السموّ الأمير أبوور حاكم مقاطعة أرسينة، وكان وليّ العهد في استقباله!

فسأله ددف:

ـ أليس سموّه ابن خال جلالة الملك؟

ـ بلى؟ ويقال إنّ سموّه جاء يحمل تقريرًا عن قبائل سيناء التي تعدّدت حوادثها في ربوع الدلتا الشرقيّة.

ـ إذًا فسموّه رسول حرب؟

ـ نعم يا ددف، والذي علمته يدلّ على أنّ وليّ العهد كان يميل منذ زمن طويل إلى تأديب قبائل سيناء، وأنّ القائد أربو كان يؤيّده في رأيه، ولكنّ الملك كان يفضّل التريّث ريثما تستعيد البلاد قواها بعد الجهد الجهيد الذي بذله في أوجه العمران وأخصّها

بناء هرم الملك. ولمّا مضت فترة الاستجمام استنجز الأمير فرعون ما وعد، ولكن يقال إنّ جلالة الملك منهمك هٰذه الأيّام في تأليف كتاب عظيم يرجو أن يجعل منه للمصريّين أكبر مرشد للدين والدنيا، فلم يُبد جلالته استعدادًا للتفكير جدّيًا في مسألة الحرب، فاستعان الأمير رعخعوف بقريبه الأمير أبورور، واتّفق معه على أن يحضر بنفسه ليطلع الملك على حقيقة عبث القبائل واستهتارها بهيبة الحكومة، وما يخشى من تماديها إذا طال السكوت عليها، فلا يبعد وقد أتى الأمير أن تسير فرقة من الجيش إلى الشمال الشرقيّ في القريب العاجل.

وساد الصمت فترة وجيزة، ثمّ قال سنفر بدافع من حبّ الكلام:

ـ وقد أولم جلالة الملك وليمة عشاء للأمير حضرها جميع أعضاء البيت الفرعونيّ، وعلى رأسهم جلالة الملك والأميرات.

فخفق قلب ددف لدى ذكر الأميرات، وذكر الأميرة الفاتنة ذات البهاء والكبرياء، فتنهّد وهو لا يدري تنهّدًا جذب إليه سمع سنفر، فنظر الشابّ إليه منكرًا وصاح:

ـ وحقّ بتاح إنّك لا تصغي لما أقول!

فانزعج ددف وقال:

ـ كيف تقسم على هذا؟!

ـ لأنّك تتنهّد تنهّد من أعجزه فكره وفرّ إلى حبيبه.

فاشتدّ خفقان قلبه وحاول أن يقول شيئًا ولكنّ سنفر لم يمكّنه من غايته فضحك عاليًا وقال باهتمام:

ـ من هي؟.. من هي يا ددف؟.. آه.. إنّك تنظر إليّ نظرة إنكار؟! لن ألحّ عليك الآن فسأعرفها يومًا وهي أمّ أبنائك، يا للذكرى! أتدري يا ددف؟.. لقد تنهّدتُ في هٰذا المخدع منذ عامين كتنهّدك هذا، وبتّ ليلي أناجي أطياف الأحلام، وفي العام الثاني صارت زوجي المحبوبة وهي الآن أمّ ابني فانا. فيا لها من حجرة موبوءة بالغرام!.. ولكن ألا تقول لي من هي؟

فقال ددف بحدّة أملتها عليه أحزان قلبه:

ـ أنت واهم يا سنفر!

ـ أواهم أنا! أشباب وجمال وقوّة وجفاف؟! مستحيل!

ـ هو الحقّ يا سنفر!

ـ كما تشاء يا ددف فلن ألحف عليك بالسؤال، وبمناسبة حديث الغرام هذا أقول إنّي سمعت همسًا في أروقة القصر الفرعونيّ، يدور حول ذكر أسباب أخرى لمجيء الأمير أبورور غير سبب الحرب الذي حدّثتك عنه.

ـ ماذا تعني؟

ـ يقولون إنّه ستتاح للأمير فرصة مشاهدة صغرى الأميرات عن كثب، وهي ممّن يضرب بجمالهنّ المثل، فربّما زفّ إلى الشعب المصريّ قريبًا بشرى خطبة الأمير أبورور للأميرة مري سي عنخ.

وكان هذه المرّة شديد الخور، فتماسك وكتم عواطفه وتلقّى الضربة بصبر عجيب، ولم يعلن وجهه عن شيء ممّا يعترك في قلبه، وأمن خطر عيني صاحبه النافذتين ولسانه الثرثار الأليم، وحاذر أن يعلّق على كلام صاحبه بكلمة أو أن يستزيده من الإيضاح خشية أن تفضحه نبرات صوته، فصمت صمتًا ثقيلًا رهيبًا كأنّه جبل شامخ أقيم على فوهة بركان.

ولم يكن يدري سنفر ما بصاحبه، فاستلقى على فراشه وقال وهو يتثاءب:

ـ إنّ الأميرة مري سي عنخ على جمال عظيم. ألم ترها؟. إنّها أجمل الأميرات، وهي كشقيقها وليّ العهد شديدة الكبرياء ذات إرادة من حديد، يقولون إنّها تتمتّع بحبّ لا نظير له في قلب فرعون، فثمن جمالها سيكون عاليًا بلا ريب.. حقًّا إنّ الجمال يذلّ أعناق الرجال.

وتثاءب سنفر مرّة أخرى وأغمض عينيه، وكان ددف يرمقه على ضوء المصباح الخافت بعينين كدّرهما الحزن والأسى فلمّا أن اطمأنّ إلى استسلامه للنوم أطلق لنفسه عنان التألّم والحزن، ونبا به الفراش وأحسّ بضيق شديد يزهق النفوس، فترك الفراش على أطراف

أصابعه وانسلّ إلى خارج الحجرة وكان الجوّ رطبًا والنسيم باردًا والليل حالك الجلباب، تلوح أشجار النخيل في ظلمته كأشباح نائمة أو أرواح تعسة أضناها الخلود.

- ٢٢ -

وبعد انقضاء بضعة أيّام علم كلّ من في القصر أنّ سموّ وليّ العهد دعا الأمير أبوور، وصاحبة السموّ الأميرة مري سي عنخ، وشتيتًا من الأمراء والأصدقاء، إلى رحلة صيد بالصحراء الشرقيّة.

وفي صباح اليوم الموعود جاءت الأميرة مري سي عنخ، وكان وجهها كهالة من بهاء ونور يشرق سناه على القلوب فيغمرها بحياة الأفراح، وجاء على أثرها سموّ الأمير أبوور مصحوبًا بالحاشية، وكان في الخامسة والثلاثين قويّ البنيان مهيب الطلعة يدلّ مظهره على النبل والشرف والبسالة.

وكان كبير حجّاب القصر يشرف بنفسه على إعداد قافلة الصيد وتزويدها بما يلزمها من الماء والزاد والسلاح والشباك. واختار رئيس الحرس لمرافقتها مائة جنديّ من جنود الحرس جعل على قيادتها عشرة ضبّاط من بينهم ددف، وهؤلاء غير الخدم ومساعدي الصائدين. ولدى نزول وليّ العهد إلى حديقة القصر تحرّكت القافلة العظيمة، وكانت تتقدّمها كوكبة من الفرسان الخبيرين بطريق الصيد، وسار خلفهم صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف، وإلى يمينه الأميرة الفاتنة مري سي عنخ، وإلى يساره الأمير أبوور، تحيط بهم هالة من الأمراء والنبلاء، وتبعت ذاك الموكب الجليل عربة تحمل قُرَب المياه، وأخرى تحمل الزاد وأدوات الطهي والخيام، تليها ثالثة ورابعة وخامسة تحمل أدوات الصيد والقسيّ والسهام، تسير جميعًا بين صفّين من الفرسان، وتتبع العربات القوّة الباقية من فرسان الحرس المرافق للرحلة يتقدّمها ضبّاطها الذين كان منهم ددف. وسارت القافلة صوب الشرق تاركة خلفها المدينة العامرة والنيل المعبود تولّي وجهها شطر الصحراء، لا ترى حيثما تلقي الطَّرْف إلّا فضاء وأفقًا رحيبًا يعزّ بلوغه على الإنسان مهما طال به المسير، كأنّه ظلّه الممدود أمامه يتقدّمه كلّما تقدّم.

وكان صباحًا نديًّا. وكانت الشمس طالعة يفرش سناها أرض الصحراء ببساط من أنوار، ولٰكن جعلها النسيم البارد الساري في تضاعيف الهواء بردًا وسلامًا عليهم، فكانوا تحت أشعّتها كأشبال بين أنياب اللبؤة..

وتقدّمت القافلة في طريقها تتبع المرشدين..

وكان ددف إذا أرسل الطرْف يرى عن بُعْد الأميرة الصغيرة، التي استبدّت بقلبه وأصْلَتْه جوًى أليمًا، تمتطي صهوة جوادها المطهّم وتتمايل على متنه كالغصن الرطيب، وكان يبدو على سيماها الجلال والكبرياء، إلّا أنّها كانت تنظر إلى شقيقها أحيانًا تحادثه أو تستمع إليه فيلوح نصف رأسها الأيسر كصورة الأمّ إيزيس على جدران المعابد، وشاهد الشابّ الأمير أبوور يميل بقامته المتينة البنيان ويحادثها ويبتسم، وشاهدها تحادثه وتبتسم، وكانت المرّة الأولى التي يرى فيها ذاك الكبرياء والبهاء يجود بابتسامة كأنّها سماء مصر صفاء وحسنًا وجمالًا وندرة غيث.

ودبّت الغيرة السامّة في قلبه الطاهر النبيل، وأرسل إلى الأمير السعيد نظرة ملتهبة، ذٰلك الأمير المجدود الذي جاء رسولًا للحرب فالتقى في طريقه برسول السلام والحبّ.. وعانى قلبه انفعالات مريرة لم تعهدها نفسه الصافية من قبل، ومضى يحادث نفسه حديثًا ثائرًا غاضبًا..

أيجوز أن يهوى قلبه ويذوب بهواه في برودة القنوط ويخسر الدنيا جميعًا؟.. أيعقل أن يصلي نار الحبّ وعذابه ومن يهوى يسير على بعد قفزة جواد منه؟ فما قيمة الحياة؟ وما قيمة الآمال التي تمدّ نفسه بالقوّة والجلاد؟ بل ما أشبه حياته بحياة وردة غضّة لم تنشقّ عنها أكمامها، عاجلتها ريح صيف عاصف فاقتلعتها من غصنها الحنون ودفنتها في رمال الصحراء الملتهبة..

مَن ذاك العبد الذي يسمّونه بالطاعة؟ ومن ذٰلك الظالم العاتي الذي يدعونه بالواجب؟ ما الإمارة وما العبوديّة: كيف تهصر هذه الأسماء قلبه وترمي به في

هوّة اليأس الأليم؟ لماذا لا يسلّ حسامه ويهجم بجواده البرق على تلك المتعالية القاسية ويحملها قوّة واقتدارًا ويغيب بها في بطن الصحراء، ويقول لها بصوت جهير: انظري إليّ، ها أنا رجل جبّار وأنت امرأة ضعيفة، ابسطي هٰذه التقطيبة التي رسمتها على جبينك تقاليد القصر الفرعونيّ، ونكّسي هٰذا الذقن الذي رفعته عادات الإمارة والسّيادة، وتطهّري من هٰذه النظرة العالية التي تعوّدتِ أن تلقيها من عَلٍ على الرُّكَّع السّجود، وتعاليّ جاثية بين يديّ، فإن شئت حبًّا رويتك بالحبّ، وإن أبيت إلّا استكبارًا..

يا له من هذيان كغليان المرجل المكتوم! ويا لها من غضبة مختنقة عديمة الأثر! وها هي القافلة تسير، وها هو الهوى يلعب بالقلوب فتتمايل لسحره القدود وتفتر الشفاه، وها هي الصحراء الواسعة تشهد في صمتها الأبديّ.. يا لها من صحراء! وقد تأمّل الخلاء مليًّا فانتشلته الرهبة من لجّة أحلامه وآلامه، وأفرغت في قلبه الإعجاب والإجلال، وكأنّ القافلة في ذٰلك المحيط الجليل قبضة من مياه في بحر خضمّ لا ترى له شطئان، وما أحرى الحدأة المحلّقة أن تراها كتلة من الكتاكيت.. واها ما حبّه؟ وما آلامه!. من يحسّ بها في ذٰلك الفضاء الفسيح؟ كم يضيع النداء في ذٰلك الكون اللانهائيّ: فما ددف وما حبّه؟!

وانتبه بغتة على صهيل جواده إلى ما حوله، وكانت القافلة تتقدّم تقدّمًا مطّردًا حتّى بلغت مقدّمتها بقعة الريّان وأناخت عندها، وكانت بقعة الريّان من أصلح نواحي الصحراء للصيد. وكان يمتدّ بها جبل ست من الشمال إلى الجنوب، وهي مأوى للحيوانات المختلفة التي يغرم الهاوون بصيدها، ويمتدّ من سفح جبلها إلى ما يليه شرقًا تلّان عظيمان يحصران بينهما رقعة واسعة من الصحراء ثمّ يضيقان كلّما امتدّا شرقًا حتّى لا يفصل بينهما إلّا عشرون ذراعًا في مكان نادر المثال، أعدّته الطبيعة للصيد والقنص والطرد.

وكان السادة يحسّون ببعض التعب، فسارع الخدم والجنود إلى نصب الخيام، وعني آخرون بتهيئة أدوات الطهي وأوقدوا النيران، وكان العمل يسير بهمّة ونشاط، فما هي إلّا دقائق حتّى تهيّأ معسكر كامل من خيام ومرابط للخيل ومطبخ ميدان، وأخذ الحرس أماكنهم وآوى الأمراء إلى الخيمة الكبرى المرفوعة على عمد من الخشب المكفّت بالذهب الخالص.. واستراح الأمراء ساعة فاستعادوا نشاطهم وقوّتهم، ثمّ قاموا للصيد.

ونصب الخدم شبكة صيد عظيمة عند مقترب التلّين، وتفرّق الجند على أضلاع المثلّث الذي يرسمه جبل ست والتلّان الملتقيان بالشبكة العظيمة، وعدا آخرون إلى سفح الجبل ليثيروا الحيوانات المطمئنّة، في حين امتطى الأمراء جيادهم، وتفقّدوا أسلحتهم، وتوزّعوا في الميدان الفسيح وكلّ على أهبة الاستعداد.

وامتطت الأميرة مري سي عنخ جوادها الكريم، ووقفت به أمام الخيمة الكبرى تشاهد الصراع المرتقب حينًا بعد حين بين الإنسان والحيوان.. وكانت ترقب حركات الأمراء بعينين عظيمتي الاهتمام، والظاهر أنّها استبطأت الصيد والطرد، فسألت بصوت مسموع الضبّاط الذين يقفون وراءها دون أن تلتفت إليهم:

- ما لي لا أرى صيدًا ؟

فأجابها صوت تعرفه حقّ المعرفة:

- ذهب الجنود ينفّرونها، وعمّا قليل ترينها يا صاحبة السموّ إذ تهبط من سفح الجبل وهي تعوي وتخور وتزأر.

وامتدّ نظرها إلى سفح جبل ست. وصدق الضابط في قوله فما لبث أن رأت فصائل من الغزلان والأرانب والأيّل تنحدر في مشياتها المختلفة جاهلة بما تخبّئه لها المقادير. وتحفّز الأمراء على ظهور الجياد، ثمّ انطلق كلّ إلى هدفه وابتدأت المعركة، وكانت همّة الصائدين موجّهة إلى مطاردة الوحوش وتوجيهها إلى مضيق التلّين، حيث تنتظرها الشبكة فاغرة فاها.

وكان الأمير رعخعوف أمهر الصائدين قاطبة. وقد تبدّت للعيان خفّته ورشاقته، وكامل تسلّطه على جواده وحسن توجيهه له، وبراعته في محاورة الوحش وحصاره وسوقه أمامه إلى غايته المنشودة.. فلم يكن يفشل

طراده ولا يخيب تصويبه، فأنهك كلابه تعبًا في طلاب ضحاياه العديدة.

وأظهر الأمير أبوور كذلك مهارة نادرة المثال، فأثار الإعجاب بسرعة انقضاضه ودقّة إصابته الأهداف وخفّة حركاته، وكان فارسًا لا يشقّ له غبار.

ومضى الأمراء في لهوهم العنيف والوقت ينطوي خلسة ساعة بعد ساعة، وكاد الصيد ينتهي في سرور لا مزيد عليه، لولا وقوع حادث كدّر الصفو وأفزع القلوب.. إذ كان الأمير رعخعوف يطارد غزالًا نافرًا تحت سفح الجبل، وإنّه ليمرّ ـ في عدوه ـ بربوة عالية، إذ اعترض سبيله وراءها أسد هائل الهيكل كاشر الأنياب، فصرخ جند كثيرون يحذّرون مولاهم، ولم يكن الأمير متأهّبًا لمثل هذا اللقاء الخطر المفاجئ. ولكنّه كان ثابت القلب صلب العزيمة فوضع يده على رمحه يريد أن يستلّه من قرابه، ولكنّ الأسد لم يمهله فوثب وثبة عظيمة وضرب الجواد بيده الجبّارة على وجهه، وكان يريد فارس الجواد بنفسه فلم يبلغ إليه، وسرعان ما ثقلت أقدام الجواد وخارت قواه وترنّح كالثمل وأوشك على السقوط. وكان الأسد ينكمش استعدادًا لوثبة أشدّ من الأولى.. وتتابعت الحوادث سراعًا فتمكّن الأمير من إشهار رمحه وصوّبه نحو الأسد المتوثّب وقذفه بقوّة، وفي تلك اللحظة سقط الجواد فاقد الحياة من أثر ضربة الأسد، فأخطأ الرمح مرماه ونجا منه الأسد، ووقع الأمير الجليل على ظهره فغدا تحت رحمة الأسد الكاسر، أعزل من كلّ سلاح.

وفي تلك الأثناء كان الأمراء والجند والضبّاط يطلقون لجيادهم العنان نحو الأمير المهدّد، كلّ يودّ لو يفتديه بروحه، وكان ددف يطير بجواده في الهواء طيرًا، فكان يطوي المسافة التي تفصله عن الأمير طيًّا سريعًا، وقد سبق الجميع إليه، وصادف وصوله وثوب الأسد وثبته القاضية، فلم يضع لبّه، وسلّ رمحه الطويل وأمسكه بيديه، ووثب من ظهر جواده المنطلق كالسهم شاهرًا رمحه، فسقط كشهاب ناريّ على الأسد الغاضب، وانغرس رمحه في فم الوحش ونفذ منه إلى الأرض الرمليّة، وصاحبه معلّق به لا تدعه يداه.

ولحق به الأمراء والجند وأحاطوا بالأمير، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحتضر فقضوا عليه. وحضرت الأميرة مري سي عنخ على ظهر جوادها، وكانت مرتاعة مذعورة يكسو وجهها الجميل لباس الخوف والرعب، فلمّا رأت شقيقها واقفًا معافًى سليمًا ترجّلت عن جوادها وهرعت إليه وعانقته، وهي تقول بامتنان صادر من أعماق قلبها:

ـ حمدًا للربّ الرحيم بتاح.

وأقبل الأمراء على وليّ العهد يهنّئونه بالنجاة، وصلّوا جميعًا للربّ بتاح شكرًا وامتنانًا.

وكان الأمير رعخعوف ينظر إلى جواده القتيل بأسف ظاهر، وسار إلى جثّة الأسد الذي كاد يورده حتفه فرآها والسهام تغشاها كشعر القنفذ، ثمّ نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالتمثال الجميل، وسرعان ما تذكّره وعرف فيه البطل الذي اختاره بنفسه ليكون بين ضبّاط حرسه الخاصّ. فكأنّ الآلهة اختارته بيده لهذه الساعة العصيبة. وأحسّ الأمير نحوه بإعجاب وامتنان، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال:

ـ أيّها الضابط الباسل، لقد أنقذت حياتي من الموت المحقّق، وسأجزيك عن بطولتك العديمة المثال بما أنت أهله من الخير.

وتقدّم الأمير أبوور من ددف، وكانت تهزّ نفسه النبيلة أعمال البسالة، فشدّ على يده بحرارة وقال:

ـ أيّها الجنديّ الشجاع، لقد أدّيت للوطن والملك خدمة فوق منال التقدير.

ثمّ عادوا جميعًا إلى المعسكر، يخيّم عليهم صمت ثقيل، ويشتّت نفوسهم الذهول الذي يعقب النجاة من خطر داهم، وفي أثناء الطريق قال أحد رجال حاشية الأمير أبوور له:

ـ لم ترضَ الآلهة أن تفجع قلب الملك الكبير الذي يحبس ذاته العالية في حجرة التابوت الموحشة، يكتب للشعب الذي يحبّه رسالة النجاة من الشرّ والأمراض. وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟!

واستراح السادة الأجلّاء. ثمّ قدّمت لهم مائدة الطعام ودارت عليهم كئوس مترعة بخمر مريوط.

وأمر الأمير الخدم أن يوزّعوا على الجند كئوسًا من خمر مريوط ابتهاجًا بنجاته، فشرب الجند وصلّوا للربّ صلاة الشكر، ثمّ أنشدوا جميعًا نشيد فرعون بأصوات كهزيم الرعد دوّت في فضاء الصحراء، ولبثوا ما لبثوا ثمّ تأهّبوا للرحيل، فرفعت الخيام والأثقال وغنائم الصيد، وسارت القافلة على نفس الترتيب الذي أتت به. إلّا أنّ الأمير أمر الضابط ددف أن يسير في معيّته. فأعان بذلك عن نيّته في جعله من الخاصّة المقرّبين.

فخفق قلب الشابّ الشجاع بنشوة المجد والفرح، لأنّه لا يحظى بهذا الشرف العظيم إلّا الأمراء ورجال الدولة المبرّزين، وأحسّ بسعادة لا توصف إذ يسير في جناح هالة تتوسّطها الأميرة مري سي عنخ، وخالها تسمع دقّات قلبه العنيفة الخافقة بالحبّ والهيام.. وما يستطيع أن يعطف رأسه إليها، ولٰكنّه كان يرى وجهها الجميل رؤية العين، يراه في الفضاء الممتدّ أمامه، ويشاهد سناه بالرغم من السمرة التي شابت الأفق إيذانًا بالمغيب.

لو أنّها جادت عليه بكلمة شكر مع الشاكرين، لكانت حَسْبَه من المجد ومن الدنيا جميعًا!

- ٢٣ -

وكان وليّ العهد جادًّا فيما نوى من مكافأة ددف بما هو أهله، كأنّما الأقدار اختارته من بين الخلق ليمهّد للشابّ السعيد طريق المجد. فلم تمضِ أيّام قلائل على حادث الصيد حتّى استقبل فرعون مصر وليّ عهده وفي معيّته الضابط ددف بن بشارو، وكانت مفاجأة سارّة للشابّ أكثر ممّا تهدف له أحلامه وآماله، ولٰكنّه سار خلف الأمير رعخعوف بقلب تثبّته شجاعة فائقة. واجتازا معًا الردهات الطويلة ذات الأعمدة الشاهقة والحرّاس الجبابرة، إلى أن مثلا بين يدي من يحجب جلاله وجهه عن الأبصار.

وكان الملك رابضًا على العرش، لا يدلّ على السنين التي بلغها سوى شعيرات بيضاء تتلألأ تحت تاج مصر المزدوج وذبول خفيف في خدّيه، وتغيُّر في نظرة عينيه صرفها عن حدّة الفتوّة والجبروت إلى تأمّل الحكمة والعرفان.

وقبّل الأمير يد والده العظيم وقال:

- هو ذا يامولاي الضابط الشجاع ددف بن بشارو الذي أنقذ بشجاعته الفائقة حياتي من بين براثن الموت المحقّق، يمثل بين يدي جلالتكم كما اقتضت مشيئتكم المقدّسة.

فتعطّف الملك ومدّ إليه يده، فقبّلها الشابّ جاثيًا باحترام دينيّ عميق، وقال له الملك:

- لقد استأهلت أيّها الضابط بشجاعتك رضائي عنك.

فقال ددف بصوت متهدّج:

- مولاي صاحب الجلالة، إنّي كجنديّ من جنود الملك لا أعرف لنفسي غاية أسمى من أن أبذل حياتي في سبيل العرش والوطن.

وهنا قال الأمير رعخعوف:

- إنّي ألتمس من مولاي الملك الموافقة على تعيين هٰذا الضابط رئيسًا لحرسي.

واتّسعت عينا الشابّ الذي لم يكن يتوقّع هٰذه المفاجأة، وكان جواب الملك أن سأله:

- ما عمرك أيّها الضابط؟

فقال ددف:

- عشرون عامًا يا صاحب الجلالة.

ففطن الأمير إلى مغزى سؤال الملك وقال:

- إنّ العمر الطويل والحكمة والعرفان فضائل تؤهّل للكهنوت يامولاي. أمّا الجنديّ الباسل فتتخطّى به شجاعته عوائق السنّ.

فابتسم فرعون وقال:

- لك ما تشاء يارعخعوف.. أنت وليّ عهدي ورغبتك عندي لا تُردّ.

فسجد ددف عند أقدام العرش وقبّل الصولجان، فقال له الملك:

- إنّي أهنّئك بثقة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف أيّها القائد ددف بن بشارو.

وأقسم ددف يمين الإخلاص للملك، وانتهت عند

ذاك المقابلة، وغادر ددف القصر الفرعونيّ قائدًا من قوّاد الجيش المصريّ.

وكان يوم فرح عظيم في بيت بشارو لا نظير له في الأيّام. وقد قال نافا للقائد الشابّ:

ـ إنّ نبوءتي تتحقّق أيّها القائد، دعني أصوّرك في رداء القيادة.

ولٰكنّ بشارو صاح بصوته الأجشّ الذي زاده غرابة ضياع أربع أسنان من فمه:

ـ ليست نبوءتك التي خلقت ددف أيّها المصوّر، ولٰكنّه حزم والده، إذ قضت الآلهة أن يكون الابن كأبيه من المقرّبين إلى فرعون.

ولم تعرف زايا يومًا من الأيّام ضحكت فيه وبكت مثل ذاك اليوم السعيد، وقد كرّ بها الفكر إلى غياهب الماضي البعيد المنطوي منذ عشرين عامًا، وذكرت الطفل الصغير الذي أحدث مولده تنبّؤات خطيرة، وأثار حربًا صغيرة ذهب والده طعمة لها.. فيا للذكرى!..

ولمّا خلا ددف إلى نفسه ذاك المساء ارتدّ إلى حالة غريبة من الحزن والوجوم، كأنّها ردّ فعل للفرح العظيم الذي غمره طوال يومه، ولٰكن كانت لها أسباب أخرى ما تفتأ تأكل قلبه كما تأكل النار الهشيم. وقد رنا إلى نجوم السماء من خلل نافذته وقال وهو يتنهّد:

ـ أنت وحدك أيّتها النجوم التي تعلمين أنّ قلب ددف القائد السعيد، أشدّ حلكة من الظلام الذي تعيشين في لجّته الخالدة.

ـ ٢٤ ـ

وفي اليوم الثاني تقلّد ددف بن بشارو منصبه الجليل رئيسًا لحرس وليّ العهد، وقد أحسن الأمير صنعًا فنقل كبار ضبّاط حرسه إلى فرق الجيش المختلفة وأحلّ محلّهم غيرهم. واستقبل الضبّاط الرئيس الجديد بالترحيب والاحترام والإعجاب، ولم يكد يطمئنّ به كرسيّ القيادة بحجرته الجديدة حتّى استأذن الضابط سنفر في الدخول فأذن له، ودخل الضابط يطفح وجهه بشرًا فأدّى التحيّة العسكريّة وقال:

ـ أيّها القائد الرئيس، لم يقنع قلبي بالتهنئة الرسميّة فسعيت إليك لأصرّح لك على انفراد بما يكنّه قلبي لك من الإعجاب والمحبّة.

فابتسم ددف ابتسامة مودّة وقال بلطف:

ـ إنّي أقدّر هٰذا الشعور النبيل حقّ قدره يا سنفر، ولا أجد نفسي في حاجة إلى شكرك عليه.

فقال سنفر بتأثّر:

ـ لعلّ هذا ما يعزّيني عن خسارتي في زوال صحبتك الجميلة.

فقال له القائد الشابّ مبتسمًا:

ـ لن تزول صحبتنا ياسنفر، لأنّي انتويت من اللحظة الأولى اختيارك أمينًا لي.

ففرح سنفر وقال:

ـ لن أبرح جانبك أيّها القائد في السرّاء والضرّاء.

وبعد بضعة أيّام دعي ددف إلى مقابلة وليّ العهد ـ لأوّل مرّة ـ كقائد حرسه، وكانت المرّة الأولى كذٰلك التي ينفرد به فيها الأمير، فطالع عن قرب جدّة أساريره وقسوة ملامحه، وكان من عادة الأمير أن يخلص إلى غرضه رأسًا فقال باهتمام:

ـ أعلنك أيّها القائد بأنّك مدعوّ مع قوّاد الجيش وحكّام الأقاليم إلى الاجتماع بصاحب الجلالة الملك للتشاور في مسألة طور سيناء، وتلقّي الأمر بقتال القبائل. إذ توطّد العزم على خوض غمار الحرب بعد طول التردّد، وستشهدنّ مصر مرّة أخرى أبناءها يحشدون لا لبناء هرم آخر، ولٰكن للانقضاض على بدو الصحراء الذين يهدّدون أمن الوادي السعيد.

وقال ددف بحماس:

ـ اسمح لي يا صاحب السموّ أن أرفع إلى مقامكم العالي التهنئة لنجاح سياستكم.

فابتسمت الأسارير الحديديّة وقال:

ـ إنّي أثق في بسالتك يا ددف ثقة كبرى، وإنّي أدّخر لك مفاجأة سارّة أبشّرك بها بعد إعلان الحرب.

وعاد ددف من مقابلة الأمير سعيدًا مغتبطًا، وكان

يسائل نفسه عمّا عسى أن تكون المفاجأة السارّة التي يعده بها الأمير. والحقّ لقد رفعه الأمير في غمضة عين من ضابط صغير إلى قائد عظيم، فما الذي يخبّئه له من بشريات المجد والسعادة؟ فهل يدّخر له حظّه السعيد أسبابًا جديدة للعلا والأفراح؟

وجاء يوم الاجتماع العظيم، وأتى القوّاد والحكّام من مصر العليا والسفلى، وشهد البهو الفرعونيّ رءوس مصر مجتمعة في صعيد واحد كحبّات العقد الفريد، عن يمين العرش المكين وعن يساره، فجلس الحكّام صفًّا وجلس القوّاد صفًّا، واتّخذ الأمراء والوزراء أماكنهم خلف العرش، وكان وليّ العهد يتوسّط الأمراء، وكان الكاهن خوميني يتوسّط الوزراء، وجلس على رأس الحكّام سموّ الأمير أبوور، وجلس في مقابله على رءوس القوّاد القائد العامّ أربو الذي كلّل المشيب هامته.

وأعلن كبير حجّاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك، فقام الجمع المحتشد واقفًا، وأدّى القوّاد التحيّة العسكريّة، وأحنى الحكّام والوزراء الهامات إجلالًا، وجلس الملك وأذن لملأه فجلسوا، وكان الملك واضعًا على منكبيه وشاحًا من جلد الأسد، فعلم من لم يكن يعلم أنّ فرعون دعاهم من أجل الحرب.

واستغرق الاجتماع زمنًا يسيرًا، ولكنّه كان على قصره رهيبًا حاسمًا، وبدا الملك فيه قويًّا نشيطًا، واستعادت عيناه بريقهما المعروف، وقد قال لكبراء مملكته بصوته العظيم الذي يملأ القلوب إجلالًا وإكبارًا:

- أيّها الحكام والقوّاد، لقد دعوتكم لأمر جلل تتعلّق به سلامة الوطن وطمأنينة شعبنا الأمين، فقد أبلغني صاحب السموّ الأمير أبوور حاكم أرسينه أنّ قبائل طور سيناء لا تنفكّ عن السطو على القرى النائية وتهديد قوافل التجارة، وقد دلّت التجارب على أنّ قوّات الشرطة لا تستطيع القضاء عليها قضاء يكفي البلاد شرّها، وأنّها لا تملك الوسيلة لغزو الحصون التي يمتنع بها رجالها، وقد آن الأوان لدكّ هذه الحصون وتأديب المتمرّدين، لدفع شرّهم عن الشعب الآمن، وإعلاء كلمة الحكومة الفرعونيّة.

وكان القوم ينصتون إلى مولاهم في صمت رهيب وانتباه شديد، فوضح الاهتمام على وجوههم، وتبدّى التحفّز على انضمام شفاههم وبريق أعينهم، والتفت الملك إلى القائد أربو وسأله:

- أيّها القائد، هل الجيش على استعداد للقيام بواجبه؟

فقام القائد الخطير واقفًا وقال:

- صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى ومنبع القوّة والحياة، إنّ مائة ألف جنديّ بين الجنوب والشمال على كامل الأهبة للقتال، تشدّ أزرهم عدد حربيّة لا تعدّ ولا تحصى ويسدّد خطاهم قوّاد مدرّبون، ومن الميسور تجنيد أضعاف هذا العدد في زمن قصير.

فاعتدل فرعون على عرشه وقال:

- نحن فرعون مصر العليا والسفلى: خوفو بن الربّ خنوم، حامي النيل وسيّد بلاد النوبة، نعلن الحرب على قبائل طور سيناء، ونأمر بهدم حصونها وتأديب رجالها وسبي نسائها، وإنّي آمركم أيّها الحكّام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم، وأن يرسل كلّ حاكم فرقة من حامية إقليمه.

وأشار فرعون إلى القائد أربو، فاقترب القائد من مولاه، وقال له الملك:

- أعلم أنّي لا أريد أن يزيد عدد الجيش المقاتل على عشرين ألفًا.

وقام فرعون على الأثر، فقام الجميع وهتفوا باسمه بحماس عظيم وانتهى بذلك الاجتماع الخطير.

وعاد ددف في ركاب وليّ العهد، وكان الأمير مسرورًا مبتهجًا على غير عادته، فلم يشكّ الشابّ في أنّه يفرح لنجاح سياسته ويفوز بالغاية التي طال تربّصه بها، وتذكّر ما وعده فخفق قلبه خفقان الحيرة والفرح وودّ لو يستطيع استنجازه وعده، على أنّ الأمير لم يمدّ له حبل القلق والحيرة فقال له وهو يدخل إلى القصر:

- وعدتك بمفاجأة سارّة، فاعلم أنّي نلت موافقة

والدي الملك على اختيارك قائدًا للحملة الموجّهة إلى سيناء.

-٢٥-

وشملت مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال حركة نشاط عظيم واسعة النطاق، وكان الجند يُحشدون في كلّ مكان، وكانت السفن الكبيرة تمخر عباب النيل آتية من الشمال والجنوب محمّلة بالجند والأسلحة والمؤن قاصدة إلى منف العظيمة ذات الأسوار البيضاء، فازدحمت بهم ثكنات العاصمة وأسواقها، وضجّ جوّها بصلصلة أسلحتهم الثقيلة وأنغام أناشيدهم الحماسيّة، فعلم القاصي والداني بأنّ حربًا على الأبواب، وأنّ أبناء النيل ينشطون للذود عن سلامة وطنهم.

وفي فترة الاستعداد سافر الأمير أبورر إلى مقاطعته لأمور تتعلّق بالحرب والاستعداد لها، وتلقّى القائد ددف خبر سفره بقلب لم تنسه هموم الواجب أشجانه وهواجسه، فساءل نفسه ترى هل فاز الأمير السعيد بأمانيه الخاصّة فوزه في مهمته السياسيّة العامّة، وهل عاد إلى مقاطعته سعيدًا بإعلان الحرب وإبرام ميثاق الهوى؟ ترى ما الذي حدث بينه وبين الأميرة الجميلة ذات الدلّ والكبرياء؟ ماذا شهدت خمائل حديقة القصر الفرعونيّ من مناظر الهوى؟ وماذا سمعت أطياره من مناجاة الحبّ وهمساته؟ هل رأت الأميرة المتكبّرة إذ تذلّ للناموس الذي لا يعرف الرحمة ولا يترفّق بالكبرياء؟ وهل سمعتها إذ تبوح بأنّات الجوى باللسان الذي تعوّد الأمر والنهي؟

ولكن صبرًا فغدًا يذهب للقتال، وإنّه ليذهب بقلب لا يهاب الموت ونفس تهوى المخاطر وروح تتوق إلى المغامرات والأهوال، ليته يحقّق النصر لوطنه ويدفع حياته ثمنًا للنصر والمجد، فيقوم بواجبه كجنديّ ويخلد إلى الراحة التي ينشدها قلبه المعذّب. يا له من خاطر جميل حريّ بأن تنزع إليه النفس الباسلة إذ غرّرت بها أماني الحبّ الغرور، ولكن كيف يودّع الوطن وداعًا لا رجعة منه دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان حبّه لهوًا ولعبًا؟ إنّ قلبه ليشتاق إلى رؤية قلبها اشتياقًا أليمًا وإنّ نظرة من وجهها لأعزّ عنده من نور البصر ونعمة السمع وطيب الحياة، وهل أحسّ بأفراح الدنيا وبهجة الحياة إلّا على ضوء وجهها الحبيب؟ فلا بدّ من رؤيتها ومحادثتها، وهو طلب يعزّ على الأحياء جميعًا ولكن ما أيسره على طالب الموت..

ولم يدر القائد الشابّ كيف يحقّق أمنيته المنشودة، ومرّت أيّام الاستعداد القلائل سراعًا حتّى جاء اليوم الذي تقرّر أن يسير الجيش غداة غده، وأرادت الآلهة أن تهبه بعد عسره يسرًا، وأن تدني إليه ما أرهقه طلبه يأسًا، فجاءت الأميرة تزور شقيقها زيارة من زيارات المفاجأة، وكان الأمير قد ذهب لتفتيش الثكنات الحربيّة. وعلم رئيس الحرس بمقدم الأميرة فخفّ طائرًا إلى انتظارها، ولم تغب الأميرة طويلًا داخل القصر فظهرت بوجهها الفتّان وكان في توديعها كبير الحجّاب، وأقبل عليها الشابّ بجسارة لم تؤاته في محضرها إلّا مرّة واحدة على شاطئ النيل، وأدّى لها التحيّة العسكريّة، ثمّ سار في معيّتها بمفرده بعد أن تخلّف كبير الحجّاب عند مدخل القصر، وكان يتأخّر عنها مقدار خطوتين، فاستطاع أن يملّي عينيه من حسن قامتها ورشاقة قدّها وفتنة حركاتها، والتهب صدره عطفًا ووجدًا، وتمنّى لو يفرش لها قلبه تطأه بقدميها، ليحسّ في سويدائه بوقع خطاها ولمس أناملها وتردّد أنفاسها. يا عجبًا! إنّ حكمة الطبيعة لا تخلو من فكاهة ممتعة. انظر إليها كيف توطّئ الفوز لهذا الفارس على جميع القوى الجبّارة، وانظر إليها كيف تذلّ عنقه لهذا المخلوق الدقيق البديع الذي لم يخلق لطعان!

وكانا يقطعان الممشى الطويل - المزدان جانباه بالورود والرياحين والتماثيل والمسلّات - بخطًى وئيدة. وكانت السفينة الفرعونيّة ترى عن بعد راسية إلى أدراج الحديقة، فتولّى الجزع قلب الشابّ وكبر عليه أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع، وكان قلبه يضيق بكلمة يودّ أن يلقيها إلى مسمعيها المحبوبين، ولكنّ جمودها لم يدع له فرصة للكلام ورأى المسافة

تقصر والسفينة تقترب، فاشتدّ به الجزع وطغت عليه موجة من الاستهتار حلّت عقدة لسانه، فقال لها بصوت متهدّج:

ـ كم أنا سعيد يا صاحبة السموّ لأنّي رأيتك قبل الرحيل غدًا.

فبدا عليها كأنّها بوغتت بقوله، وحدجته بنظرة استغراب قاسية وقالت:

ـ لقد بلغت أيّها القائد مكانة رفيعة.. فما لي أراك تقامر بمجدك ومستقبلك!

فقال باستهانة:

ـ المجد والمستقبل يا صاحبة السموّ؟! إنّ الموت يردّهما إلى الهوان.

فقالت باحتقار:

ـ أرى أنّ والدي جعل على رأس جيشه قائدًا يستحوذ على روحه قنوط الموت لا النصر والظفر!

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل وقال بإباء:

ـ إنّي أعرف واجبي يا صاحبة السموّ وسأقوم به كما ينبغي لقائد مصريّ شرّفته الآلهة بنيل ثقة مولاه، وسأبذل حياتي ثمنًا له.

فهزّت منكبيها وقالت:

ـ إنّ الرجل الشجاع لا ينسى ماضيه ولا يخرق تقاليده لواذًا بالموت.

وكانت روح الاستهتار تستأثر به في تلك اللحظة فقال:

ـ هذا حقّ يا صاحبة السموّ، ولكن ما حياتي إذا كانت هذه التقاليد تعقل لساني عن البوح بما يضطرم في فؤادي؟ أنا ذاهب غدًا، وقد تمنّيت على الآلهة أن أراك قبل ذهابي.. فأدنت إليّ أمنيتي، وما كان ينبغي لي أن أجحد العطف الإلهيّ بالصمت والجبن.

ـ يحسن بك أن تتعلّم فضيلة الصمت!

ـ بعد أن أقول كلمة واحدة.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

فتبدّى على وجهه الجميل الهيام وقال:

ـ إنّي أحبك يا مولاتي. قد أحببتك حين وقع نظري عليك، وهي حقيقة رهيبة ما كانت تؤاتيني الشجاعة على البوح بها لسموّك لولا قوّتها الخارقة في نفسي.. عفوًا يا صاحبة السموّ.

ـ أهذا ما تسمّيه كلمة واحدة؟ ومع هذا فما كان أغناك عن قولها، لأنّي سمعتها يومًا قهرًا على شاطئ النيل.

فاهتاجته الذكرى وهزّته قولتها «شاطئ النيل» فقال:

ـ لا أملّ قولها دقيقة من حياتي يا مولاتي. فهي أجلّ ما نطق به لساني، وأجمل ما سمعت أذناي.

وكانا قد بلغا الأدراج الرخاميّة فتولّاه الجزع وقال بتوسّل:

ـ أما من كلمة وداع؟

فالتفتت إليه وقالت:

ـ أستودعك الآلهة أيّها القائد، سأدعو بتاح العظيم أن يحقّق على يديك النصر لوطننا المحبوب..

ثمّ هبطت أدراج السلّم إلى السفينة في تؤدة ومهابة.

وتركت ددف يرنو إليها بعينين حزينتين، ويشهد بقلب خفّاق السفينة إذ تبتعد عن الشاطئ رويدًا رويدًا.. ولبثت الأميرة على سطحها لا تدخل مقصورتها فعلقت بها عيناه، وما زال يرسل ناظريه حتّى غيّبها عنه منعطف الماء..

وسار بخطّى ثقيلة مهيض الجناح تتجمّع في صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة، على أنّه كان لددف فضيلة لا تخونه في الملمّات، وهي أنّه لا يخضع لانفعال خضوعًا يضلّ به الصواب ويتنكّب به عن السداد، وعلّمه أخوه خنى كيف يراجع نفسه ويلزمها الحقّ والإنصاف، فانتحل للأميرة العذر عن قسوتها وجمودها، قائلًا إنّها إذا لم تصغ جوارحها إلى شكاته، فما ذلك إلّا لأنّها لا تحبّه، ليست هي ملزمة بحبّه، ولا تقع على عاتقها خيبته المريرة، بل ما أحراه أن يقرّ لها باللطف والرحمة، ألم يقل لها ما لا يقال لأميرة من البيت الفرعونيّ؟ فماذا صنعت هي؟ لا شيء إلّا أن أصغت إليه وعفت العفو الجميل، ولو شاءت لقضت عليه بالهوان وردّته أسفل سافلين! فصرفت مراجعته

لنفسه الثورة عن قلبه ولكنّها لم تعزّه عن خيبته شيئًا، فانطوى على ألم حزين صامت..

* * *

وأمضى مساء ذٰلك اليوم في بيت بشارو ليودّع أهله، وحاول ما استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح الذي عهدوه فيه، واجتمعوا جميعًا حول مائدة العشاء: بشارو وزايا وخنى ونافا وزوجه مانا، وتوسّط المائدة القائد الشابّ، وتناولوا طعامًا شهيًّا وشربوا الجعة. ومضى بشارو يتحدّث في أثناء الأكل بلا انقطاع، غير مبال بالفتات الذي يتطاير من فمه الأهتم، وقصّ عليهم كثيرًا من قصص الحروب وخاصّة الحروب التي خاض غمارها في شبابه. وكأنّما أراد أن يطمئن زايا التي دلّ شحوب لونها على ما يعتلج في صدرها من المخاوف، فقال:

ـ إنّ أوزار الحرب تلقى في الأغلب على عاتق الجنود، وأمّا القوّاد فيحتلّون مكانًا آمنًا يفكّرون ويرسمون الخطط.

وفطن ددف إلى مرماه، فقال:

ـ صدقت يا والدي. ولٰكن ترى هل أبليت بلاءك الحسن في حرب النوبة ضابطًا صغيرًا أم قائدًا كبيرًا؟

فاستقام جسم الشيخ فخارًا وقال:

ـ كنت حينذاك ضابطًا صغيرًا في فرقة الرماح.. وكانت سيرتي في الحرب إحدى المزايا التي رشّحتني فيما بعد لمنصب مفتّش عامّ الهرم الفرعونيّ.

ولم تنقطع ثرثرة بشارو، وكان ددف ينصت إليه حينًا ويشرد أحيانًا، وربّما غلبه الألم فتبدو في عينيه نظرة حزينة، وكأنّ زايا كانت تلهم أحزانه إلهامًا لأنّها كانت صامتة ثقيلة القلب، فلم تتناول طعامًا وقنعت من الوليمة بكوب من الجعة.

وأحبّ نافا أن تختتم تلك الليلة ختامًا سعيدًا، فدعا زوجه مانا إلى العزف على القيثارة وإنشاد الأغنية الجميلة: «ظفرت في الحبّ والحرب» وكانت مانا ذات صوت رخيم، وكانت عازفة ماهرة، فملأت جوّ الغرفة نغمًا فاتنًا وصوتًا عذبًا..

واضطرمت في قلب الشابّ نار موقدة لم يصل لظاها في الحاضرين سواه، وكان نافا أمعنهم في الجهل والسذاجة، فقد دنا من ددف وهمس في أذنه:

ـ أبشر خيرًا أيّها القائد، بالأمس ظفرت في الحبّ وستظفر غدًا في الحرب.

فاستولى الذهول على ددف وقال:

ـ ما معنى قولك هٰذا؟

فابتسم المصوّر ابتسامة ماكرة وقال:

ـ أتظنّ أنّي نسيت صورة الفلّاحة الجميلة؟.. آه ما أجمل فلّاحات النيل.. إنّ الواحدة منهنّ لتتمنّى أن ترقد بين يدي ضابط جميل على الحشائش الخضراء التي تكسو شاطئ النيل.. فما بالك لو كان هٰذا الضابط ددف الجميل الفاتن؟!

فقال له باستياء:

ـ صه يا نافا. أنت لا تدري شيئًا.

واهتاجه حديث نافا كما اهتاجه غناء مانا وأحسّ برغبة في الفرار، وهمّ بتنفيذ رغبته لولا تذكّر أمّه، ولاحت منه التفاتة إليها فرآها تديم النظر إليه، فخشي أن تقرأ صفحة قلبه بعينيها الملهمتين فيصيبها من ذٰلك حزن كبير، فابتسم إليها، وأقبل نحوها يختال في حبور وفرح.

ـ ٢٦ ـ

وانبثق نور فجر الغد.

وكان القائد ددف جالسًا في خيمته وسط معسكر الجيش خارج أسوار منف، يطّلع على خريطة شبه جزيرة سيناء وسورها الكبير والطرق الصحراويّة المؤدّية إليها، وكانت تشمل المعسكر حركة حياة صاخبة، فالخيل تصهل والعجلات تصلصل والجند تذهب وتجيء، ويغشى الجميع نور الفجر الأزرق الهادئ.

وقد دخل الضابط سنفر على القائد وحيّاه باحترام وقال:

ـ أتى رسول من لدن صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف، ويطلب الإذن بالدخول على سعادتكم.

فبدا الاهتمام على وجه ددف وقال:

- دعه يدخل.

فغاب سنفر لحظة ثمّ عاد يتقدّم الرسول ثمّ غادر الخيمة، وكان الرسول يرتدي ثياب الكهنوت الفضفاضة التي تغطّي الجسم من المنكبين إلى رسغي القدمين، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء، ويرسل لحيته الكثّة إلى ثغرة صدره، فعجب ددف لمرآه، لأنه كان يتوقّع أن يلقى وجهًا مألوفًا لديه من الوجوه التي يراها عادةً في قصر وليّ العهد، وسمع صوتًا - خيّل إليه رغم خفوته أنّه لا يسمعه لأوّل مرّة - يقول:

- جئت يا صاحب السعادة في أمر خطير، فأرجو أن تأمر بإسدال الستار على الباب ويمنع الدخول إلى الخيمة بغير إذن.

فنظر ددف إلى الرسول نظرة فاحصة وكان يخالجه التردّد، ولكنّه هزّ منكبيه العريضين استخفافًا واستهانة، ونادى سنفر وأمره بإسدال الستار على مدخل الخيمة وبعدم السماح لإنسان بالدنوّ منها، وصدع سنفر بما أمر، وحين خلا المكان نظر ددف إلى الرسول وقال له:

- هات ما عندك.

ولمّا اطمأنّ الرسول إلى خلوّ الخيمة رفع عن رأسه قلنسوته السوداء، فبدا شعر أسود غزير هفّت خصلاته فسقطت على المنكبين في ترنّح ورسمت هالة حول رأس بديع، ثمّ امتدت يد الرسول إلى لحيته فأزالها برشاقة، وفتح عينيه اللتين كان يضيّقهما بمشيئته، فسطع وجه مشرق تلألأ نورًا في جوّ الخيمة مع أوّل شعاع أرسلته الشمس في فضاء الصحراء.

وطار قلب ددف في صدره، وهتف بصوت متهدّج:

- مولاتي مري سي عنخ!

خفّ إليها كالطير المذعور، وجثا عند قدميها ولثم أهداب ثوبها الفضفاض. وكانت الأميرة ترسل بناظريها إلى الأمام في خفر واستحياء، وينتفض جسمها اللدن كلّما أحسّت بأنفاس الشابّ الحارّة تتسلّل من نسج سروالها وتهبّ على ساقها المعطّرة . . ثمّ لمست رأسه بأناملها وهمست بصوت خافت: «قُم». فقام الشابّ تلمع عيناه بنور فرح بهيج لم يسلس قطّ لبيان، وجعل يقول:

- أحقًّا هذا يامولاتي؟ أحقًّا ما أسمع؟ وما أرى؟

فرنت إليه بنظرة استسلام كأنّها تقول له: «غلبت على أمري فجئت إليك» فقال الشابّ:

- إنّ آلهة الأفراح جميعًا تشدو في قلبي هذه الساعة، وقد أنساني شدوها عذاب الشهور وتسهيد الليالي، ورَحَضَتْ أنغامها قلبي من مرارة القنوط وظلمات اليأس، ربّاه! من يقول إنّي أنا الذي هانت عليه الحياة بالأمس؟!

فبدا على وجهها التأثّر وقالت بصوت خافت كتغريد اليمام:

- أهانت عليك الحياة حقًّا؟

فقال وعيناه تلتهمان الشفتين اللتين تنثران الحديث:

- نعم هانت وتمنّيت الموت صادقًا، والموت تشتهيه النفس التي خسرت آمالها، ولم أك جبانًا قطّ يامولاتي فلبثت أؤدّي واجبي، ولكن كان يعذّبني إحساس بتفاهة الغاية وعبث الجهد. وكانت تثقل عليّ وحشة تجثم على صدري وتغشى عينيّ بالظلمات.

فتنهّدت وقالت:

- وكنت أنا أكافح كبريائي وأجاهد نفسي وألقى منهما عذابًا واصبًا.

- كم كنت قاسية عليّ!

- وكنت على نفسي أشدّ قسوة، أتذكّر ذلك اليوم على شاطئ النيل، لقد عدت يومها يدبّ في أعماق قلبي قلق غريب، وعلمت فيما بعد أنّه قدّر لقلبي أن يستيقظ على صوتك من سباته العميق، واكتشفت هذه الحقيقة تتقاسمني لذّة المجازفة والخوف من المجهول، ثمّ ذكرت فخارك واعتدادك بنفسك فثرت وتمرّدت، وكنت كلّما وقع نظري عليك قسوت على نفسي وقسوت عليك.

فتنهّد وقال بلهفة أسيفة:

- كم عذّبني غروري! أتذكرين ثاني لقاء لنا في قصر صاحب السموّ؟ لقد انتهرتني في شدّة وعنّفتني تعنيفًا قاسيًا، وبالأمس لم تسمعي لشكاتي وتركتني دون

كلمة وداع، فهل تعلمين كم تعذّبت وكم تألّمت؟ هيهات.. فليتني اطّلعت على الغيب! كانت أشدّ أوقاتي عبوسًا أحقّها بالسعادة. وكنت أشكو إلى الآلهة عذابي فتضحك من جهلي!

فابتسمت وقالت:

- وكانت تشهد الآلهة كبريائي فتضحك من هواني، فهل رأيت مثلنا ألعوبة من قبل؟

- ولمّا نزل ألعوبة تستحقّ الرثاء، فإنّي كلّما أذكر ما أضعنا من وقت ثمين!

وتنهّد آسفًا حزينًا، فقالت:

- على رأسي يقع وزر ذلك.

فنظر إليها بحنوّ وقال:

- فدتك نفسي من كلّ شرّ.

فابتسمت ابتسامة حلوة وقالت:

- أظنّ أنّ الوقت يقسو علينا هذه المرّة.

فتنهّد آسفًا ونظر إليها بعينين مكتئبتين، فقالت تبثّ فيه روح الأمل:

- أمامنا مستقبل طويل مشرق بالأمل.. فتمنَّ الحياة كما تمنّيت الموت.

فقال بسعادة وابتهاج:

- لن يقدر الموت على قلبي ..

فوضعت إصبعها على فمه وقالت:

- لا تقل هذا.

ولكنه قال بحماس جنونيّ:

- ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحبّ من الخالدين؟

فقالت:

- سألبث بالقصر، لا أبرحه، حتّى أسمع الأبواق تزفّ بشرى النصر والعودة!

- فلندعُ الأرباب أن تقصّر فراقنا.

- نعم سأصلّي إلى بتاح، ولكن في القصر لا هنا لأنّه ليس لدينا متّسع من الوقت.

ووضعت القلنسوة على رأسها، فتألّم لاختفاء الشعر الأسود الحالك عن عينيه وقال:

- أهون عليّ أن أفارق عضوًا عزيزًا من جسمي!

فنظرت إليه بعينين يلتمع فيهما نور الحبّ والأمل، ولكن خيّل إليها أنّ وجهه يكفهرّ وصدره ينقبض وتظلّل جبينه سحابة مظلمة، فساورها القلق وسألته:

- فيم تفكّر؟

فقال باقتضاب:

- الأمير أبوورا!

فضحكت قائلة:

- هل بلغك ما تناقلته الألسن حينًا من الزمن؟ يا عجبًا. لا يخفى شيء في مصر وإن كان من أسرار القصر الفرعونيّ، ولكنّك علمت شيئًا وغابت عنك أشياء، فالأمير إنسان نبيل سامي الخلق، وقد حادثني يومًا - ونحن منفردان - في الموضوع الذي أذيع، فاعتذرت وقلت له: إنّي أوثر أن أبقى صديقته، ولا أشكّ أنّه أحسّ بخيبة، ولكنّه ابتسم ابتسامة نبيلة وقال لي: إنّي أحبّ الصدق والحرّيّة، وتكره نفسي أن تستذلّ نفسًا نبيلة..

فقال ددف بفرح:

- ياله من إنسان نبيل!

- نعم، إنّه كريم..

- ألا يوجد في أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم؟ أعني.. أخشى فرعون!!

فخفضت عينيها خفرًا وقالت:

- لن يكون أبي أوّل فرعون يصاهر أحد أفراد شعبه المقرّبين!

فأطربه جوابها وأسكره خفرها، وحنت ضلوعه إليها حنينًا موجعًا، وامتدّت يده إلى يدها - وكانت تهمّ بلصق اللحية بوجهها - إشفاقًا من مغيب هذا الوجه الحسن المشرق، فأسلمت يدها إلى يده، وكان استسلامها عذبًا ساحرًا، فجثا الشابّ أمامها ولثم يدها هيمان مفتونًا، وقالت له:

- أستودعك الآلهة جميعًا.

ثمّ ألصقت اللحية المستعارة بوجهها، وضغطت على القلنسوة حتّى مسّت حافتها حاجبيها، فردّت إلى هيئة رسول الأمير وليّ العهد، وقبل أن توليه ظهرها وضعت يدها في صدرها وأخرجت الصورة الصغيرة

العزيزة التي اتّخذتها الطبيعة علّة لهذا الغرام الجميل، وأعطته إيّاها بغير كلام، فأخذها بحنوّ وهيام ولثمها بفمه ثمّ دفنها في صدره في مكانها الأوّل المعهود وألقت عليه ابتسامة وداع، وكأنّما أرادت أن تضاحكه، فأدّت له التحيّة العسكريّة، وسارت في مشية الجنود إلى الخارج.

ولم يكن الفتى الذي تركته ذاهلًا من الفرح مشرق الوجه بنور الأمل هو الذي رأته حين مقدمها كاسف البال شارد الخاطر متهافت النفس، فقد بعث الحبّ في نفسه بعثًا جديدًا وأحياها بعد موات، وزارت مخيّلته ـ في تلك اللحظة السعيدة، أطياف من ماضي قلبه، من معرض نافا الجميل، وشاطئ النيل الأخضر الفسيح، وقطيع الفتيات الحسان، ثمّ ذكر حزنه ويأسه وتلف نفسه الجلدة الصبور، ثمّ ذكر الأمل المشرق الذي أدركه في غمرات القنوط والأحزان، فتمثّلت له حقيقة الحبّ والحياة كنهر يسقي بستانًا ناضرًا تتألّق أزهاره وتغرّد أطياره ما جرى ماؤها عذبًا، فإذا نضب معينه خوى البستان على عروشه وذوى حسنه وتجرّد كفلاة مهجورة.

وأعاده إلى اليقظة دخول سنفر، وأخبره الضابط بأنّ كلّ شيء على قدم الاستعداد، فأمره بالنفخ في الصور إيذانًا بالرحيل، فانبثّت على الأثر في المعسكر حركة هائلة، وعزفت الموسيقى، وتحرّكت طليعة الجيش. وركب ددف عربة القيادة التي يتولّى قيادتها سنفر، وركب كبار الضبّاط وسارت جماعتهم إلى قلب فرقة العجلات، ثمّ نفخ في الصور مرّة أخرى، فتحرّكت عربة ددف في الطليعة بين جناحين من عربات الضبّاط العظام، وتبعتهم في صفوف متوازية فرقة العربات المكوّنة من ثلاثة آلاف عربة حربيّة مثقلة بالسلاح، وسارت خلفها فرق المشاة، تحمل كلّ علمها، تتقدّمها فرقة القسيّ وتليها فرقة الرماح ثمّ فرقة السيوف، وتبع الجيش عربات المهمّات الكبيرة محمّلة بالأسلحة والمؤن والعقاقير الطبيّة، تحيط بها قوّة من الفرسان.

اخترق ذلك الجيش الصحراء، يهدف إلى السور المنيع الذي اتّخذته القبائل وكرًا آمنًا.

وقد طلعت عليهم شمس الضحى ولفحهم وهج الظهيرة. وهبّ عليهم نسيم المغيب وهم يضربون في الأرض كالمردة، تكاد الأرض تشكو من حمل أثقالهم ولا يشكون من شيء.

- ٢٧ -

ورؤيت عربة استكشاف تنهب الأرض صوبهم، فتطلّعوا إليها باهتمام شديد، وتقدّم قائدها من القائد وأخبره بأنّ عيونهم عثرت على جماعات من البدو منتشرين حول تلّ الدوما، وكان من رأي الضبّاط أن يسيّروا إليها فرقة من الجيش لقتالهم، وبسط ددف خريطة الصحراء أمامه وبحث باهتمام عن تلّ الدوما، ثمّ قال:

ـ إنّ تل الدوما يقع جنوب طريقنا، والمعروف عن أولئك البدو أنّهم يسيرون جماعات صغيرة للنهب والفرار، وأنّهم لا يخطر لهم على بال مهاجمة جيش جرّار كجيشنا، فلا خلاف علينا من مواجهة حركة التفاف. فقال له أحد الضبّاط:

ـ أظنّ يا صاحب السعادة أنّه ليس من الحكمة تركهم..

ولٰكنّ الشابّ قال:

ـ لا شكّ أنّنا سنصادف في طريقنا كثيرًا من أمثال هٰذه الجماعات، فلو أنّنا سيّرنا إلى كلّ جماعة منها كوكبة من جنودنا لتشتّتت قوّتنا، فلنضع نصب أعيننا الهدف الأوّل، وهو اختراق سورهم الحصين وضربهم في عقر دارهم والقبض على زعيمهم خانو..

ولٰكنّه رأى عن حكمة أن يعزّز القوّة التي تحرس عربات المؤن والأسلحة.

وتقدّم الجيش في طريقه، ولم يروا في أثناء سيرهم أثرًا لرجال القبائل، وأتتهم الأخبار بأنّ كلّ من يضرب في الصحراء منهم ولّى الأدبار، حين سمع بأخبار الجيش الزاحف صوب شبه الجزيرة، فشقّوا طريقًا آمنًا خاليًا حتّى بلغوا أرسينة، فألقوا عصا الترحال ليأخذوا قسطهم من الراحة وحاجتهم من المؤن، وبادر الأمير

أبوور إلى زيارتهم. واستقبل استقبالًا رسميًّا يليق بمكانته السامية، وتفقّد الأمير وحدات الجيش، ومكث مع القائد وكبار معاونيه يتحدّث إليهم في شؤون الحملة، وقد اقترح عليهم أن يوجِدوا حلقة اتّصال بينهم وبين أرسينة ليطّلع على أخبارهم، وليمدّهم أوّلًا بأوّل بما يحتاجون إليه، وقال لهم في ذلك:

ـ واعلموا أنّ جميع قوّات أرسينة مشمّرة للقتال، وأنّ قوّات عظيمة من سرابيوم وذقعة ومندس في طريقها إلى أرسينة.

فقال ددف:

ـ ندعو الآلهة يا صاحب السموّ ألّا نحتاج إلى قوّات جديدة، احترامًا لرغبة صاحب الجلالة الذي يحرص على أرواح العباد.

ونام الجيش تلك الليلة نومًا عميقًا هادئًا، ثمّ استيقظ على نفخ الأبواق عند صراخ الديكة.

واستأنف مسيره شرق أرسينة في جلبة وعظمة، وما زالوا في حلّ وترحال حتّى لاح لهم عن بعد السور الكبير الذي يبتدئ جنوبًا من خليج هيروبوليس. وينعطف شرقًا راسمًا قوسًا عظيمًا، فانعطف الجيش ناحية الشمال، ومال قليلًا نحو الشرق، ثمّ ألقى أثقاله وعسكر في موضع لا تصل إليه سهام المحاصَرين.

واستطاعوا ـ من معسكرهم ـ أن يشاهدوا متانة بنيان السور، وأن يروا الحرّاس الذين يعتلونه والقسيّ في أيديهم، استعدادًا للذود عن حياضهم ضدّ الجيش المغير.

واتّفق رأي ددف والضبّاط على أنّ الانتظار لا يجدي في حالتهم كما قد يجدي في حصار مدينة بتجويع سكّانها، واجتمعت كلمتهم على وجوب البدء بمناوشات خفيفة ليختبروا بها قوّة عدوّهم.

وكان من الخطر أن تهجم العربات في أوّل المعركة خشية أن يخسروا جيادهم المطهّمة، فتقدّم بضع مئات من الجنود المدرّعين حاملي القسيّ في شبه نصف دائرة، يفرّق بين الواحد ورفيقه عشرات الأذرع من الخلاء، حتّى إذا بلغوا موضعًا ظنّ العدوّ أنّه صائبهم فيه أطلق عليهم سهامه فقابلوه بمثلها، وابتدأت أوّل معركة بين الفريقين، وكانت السهام تنطلق جماعات كثيفة كسحب الجراد، ولكن كان أكثرها يضيع هباء لبعد المسافة.

وكان ددف يرقب المعركة باهتمام شديد، ويشاهد بإكبار مهارة الجنود المصريّة في الرماية التي أكسبتهم شهرة تقليديّة لا مثيل لها، ورأى فيما رأى باب السور الكبير، فقال لسنفر:

ـ يا له من باب عظيم كأنّه باب معبد بتاح!

فقال له الضابط المتحمّس:

ـ عسى أن يتّسع لعرباتنا التي ستخترقه بعد حين!

ولم تذهب المناوشة سدًى، فقد لاحظ ددف أنّ رجال القبائل لم يبنوا على السور أبراجًا تقي رماتهم سهام المهاجمين، فلا يستطيعون أن يرموا عن قسيّهم إلّا إذا تعرّضوا لخطر القتال، فوضحت له فائدة الهجوم بالدروع الكبيرة المعروفة بالقباب. . وكان الدرع من هذه الدروع أشبه ما يكون بالمحراب المجوّف في حيطان المعابد، وهو لكبر حجمه يمكن أن يخفي الجنديّ من الرأس إلى القدم، ولسمك جسمه يستطيع أن يردّ السهام، فلا تنفذ منه إلّا إذا أصابت منافذ صغيرة في أعلاه يصوّب منها حامله.

وقد أصدر ددف أمره بأن يتقدّم بضع مئات بهذه الدروع لقتال حرس السور، فاصطفّوا جميعًا خلف دروعهم في شبه نصف دائرة واسعة، ثمّ تقدّموا نحو السور لا يبالون وابل السهام المتساقط عليهم، ثمّ وضعوا القباب على الأرض وراشوا سهامهم، وبدأت بينهم وبين عدوّهم معركة عنيفة دمويّة تطايرت فيها رسل الموت من الجانبين، وكان رجال القبائل يتساقطون بكثرة، ولكنّهم أبدوا جلدًا غريبًا وشجاعة نادرة المثال، فكانوا كلّما سقطت منهم طائفة حلّت محلّها أخرى، وكانوا رغم امتناع المصريّين بدروعهم الغريبة يصيبونهم خلل المنافذ الصغيرة، فسقط من المصريّين قتلى وجرحى كثيرون.

وما زالوا في قتال عنيف حتّى تخضّب الأفق الغربيّ بدم الشفق، وصدرت الأوامر إلى المصريّين بالتقهقر فرجعوا القهقرى وقد نال منهم التعب كلّ منال.

- ٢٨ -

وكانت منف تنتظر أنباء القتال في هدوء المطمئنّ، للثقة العظيمة التي توليها جيشها والاستهانة البالغة التي تشعر بها نحو قبائل البدو الناهبة، ولٰكنّ قلوبًا كبيرة كانت تخفق خفقان المشفق، ويخلق لها الحنان والأوهام ويصوّر لها المخاوف، منها قلب عاهل النيل العظيم الذي تحوّل على الكبر إلى الحكمة ومضى يكتب بمداد قلبه رسالته الخالدة إلى شعبه الحبيب، ومنها قلب زايا الذي أضناه الألم وعذّبه الخوف وأرّقه السهاد، وقلب آخر لم يعرف من قبل معنى الألم ولا ذاق طعم الخوف، وهو قلب الأميرة مري سي عنخ التي وهبتها الآلهة أبهى ما لديها من حسن وهيّأت على الأرض لها أمتع ما فيها من الترف والنعيم، وسخّرت لحبّها أعظم قلوب البشر طرًّا، وأزلّت لها قوى الطبيعة فلا يقرصها برد الشتاء ولا يلفحها حرّ الصيف ولا تهبّ عليها ريح الجنوب ولا ينفذ إليها مطر الشمال، فما زالت تمرح وتلعب حتّى مسّ قلبها الحبّ كما تمسّ أنامل الطفل الطليق ألسنة اللهيب، فاكتوت بناره وفتحت صدرها لعذابه وهوانه. .

ولم تخفَ حالتها على وصيفاتها، وعلى وصيفتها ناي على وجه الخصوص، وقد قالت لها يومًا وهي ترقبها بعين الريبة والإشفاق:

- أتتنهّد مولاتي؟ فما يفعل من لا تحنو عليه الآلهة والفراعين؟ أتجثين ضارعة متوسّلة؟ فمن الذي نتوسّل به ونضرع إليه؟ أتخفضين عينيك يا مولاتي؟ فلمن خلقت الكبرياء؟

ولٰكنّ حلم الأميرة لم يتّسع لمداعبات وصيفتها، فكانت تؤثر في تلك الأيّام الشديدة الخلوة إلى نفسها، وكانت تودّ لو تستطيع أن تحافظ على قولها لحبيبها: إنّها لن تغادر القصر حتّى تسمع أبواق العودة الظافرة، ولٰكنّها وجدت حنينًا إلى زيارة قصر شقيقها وليّ العهد لتلقي تحيّة قلبيّة على المكان الذي كان يلقاها فيه كلّما ذهبت لزيارة أخيها.

وكان وليّ العهد يستقبلها ويتحدّث إليها، ولم يخف عنها عاطفة كانت تجهلها فيه وهي تململه من سياسة الملك، حتّى قال لها مرّة بلهجة الغضب:

- إنّ والدنا يهرم سريعًا.

فنظرت إليه نظرة إنكار، فاستطرد يقول:

- حقًّا إنّه ما يزال يحافظ على سلامة بنيته ووحدة ذهنه، ولٰكن قلبه يشيخ ويهرم. ألا ترين أنّه يولي ظهره سياسة الحكم ويميل بقلبه وعقله إلى التأمّل والرحمة، ويصرف وقته الثمين في الكتابة؟ أين هٰذا من واجب الحاكم القويّ؟

فقالت له الأميرة بامتعاض:

- الرحمة كالقوّة من فضائل الحاكم الكامل.

فقال بسخرية:

- لم يلهمني والدي هذه الحكمة يا مري سي عنخ، ولٰكنّه ضرب لي الأمثال الخالدة بآثار القوّة الخلّاقة لجلائل الأعمال، فسخّر أمّة لبناء الهرم وزحزحة الجبال وترويض الصخور العاتية، وكان يزأر كالأسد الهصور فتخرّ القلوب فرقًا ورعبًا وتأتيه النفوس طوعًا أو كرهًا. فيقتل من يشاء ويغفر لمن يشاء، ذلك هو والدي الذي أفتقده ولا أجده، ولا أرى سوى ذٰلك الشيخ الذي يمضي الليل إلّا قليله في حجرة التابوت يفكّر ويملي، ذٰلك الشيخ الذي ينفر من الحرب ويشفق على الجنود كأنّهم خلقوا لغير القتال.

فقالت مري سي عنخ:

- لا تتكلّم عن فرعون بهٰذه اللهجة أيّها الأمير، لقد خدم والدنا الوطن يومًا بقوّته، وسيخدمه أضعافًا بحكمته.

على أنّ زيارتها لقصر الأمير لم تكن تقطع جميعًا بأمثال هٰذا الحديث المضني، ففي يوم من الأيّام المعدودة في العمر - وكان قد مضى على رحيل الجيش المصريّ عشرون يومًا - وجدت الأمير مغتبطًا راضيًا، ورأت وجهه الصلب يلين عن ابتسامة قليلًا ما تُرى عليه، فخفق قلبها وطار خاطرها إلى الحبيب البعيد. فسألت شقيقها:

- ما وراءك يا صاحب السموّ؟

فقال:

ـ بلغتني أنباء سارّة تقول إنّ جيشنا حاز انتصارات باهرة، وإنّه عمّا قليل يقتحم حصن العدوّ.

فصاحت به:

ـ زدني من هٰذا النبأ السعيد!

ـ يقول الرسول إنّ جنودنا تتقدّم مدرّعة بالقباب حتّى صارت على قيد أذرع من السور، واستحال على رجال القبائل الظهور على السور، ومن تحدّثه نفسه منهم بالمجازفة ترديه نبالنا قتيلًا.

وكان هٰذا النبأ أسعد ما سمعت من شقيقها في حياتها. وقد تركت قصر الأمير قاصدة إلى معبد بتاح، وصلّت إلى الربّ العظيم ودعت للجيش بالنصر ولحبيبها بالسلامة، واستغرقت في صلاتها استغراقًا عميقًا لا يعرفه إلّا المحبّون، وعادت إلى القصر الفرعونيّ يدبّ في قلبها الجزع، الذي يقلّ صبره كلّما دنا من غايته.

ـ ٢٩ ـ

وكانت الجنود المصريّة قد دنت من السور الحصين واستطاعت أن تمسّه بأسنّة رماحها، وأحاط به الرماة من كلّ جانب مسدّدين قسيّهم كلّما ظهر رجل أردوه قتيلًا، ولم يجد العدوّ من حيلة إلّا أن يلقي عليهم الأحجار، وأن يسدّد نباله ليصيد بها من يعتلي السور منهم، وظلّوا على تلك الحال زمنًا يسيرًا وكلّ فريق يتربّص لغريمه، وفي فجر اليوم الخامس والعشرين للحصار أصدر ددف أمره للرماة بالهجوم العامّ، فانقسموا طائفتين: واحدة لمراقبة السور وأخرى تقدّمت مستظلّة بحماها يحمل رجالها السلالم الخشبيّة والدروع الطويلة والقسيّ والسهام، وأسندوا السلالم إلى السور وصعدوا أدراجها ناشرين أمامهم الدروع كأنّها الأعلام، ثمّ أثبتوا الدروع على السور فبدا كحائط الحصون المصريّة المدرّع بالقباب، وتلقّوا بها آلاف السهام التي ترامت عليهم من كلّ حدب وصوب، وتساقط منهم عدد غير يسير، وأجابوا عدوّهم بسهام لا تطيش ملأت الجوّ أزيزًا مخيفًا. وعلا الصياح يشقّ عنان السماء، واختلط هتاف الفوز بأنّات الألم وصراخ الرعب، وفي أثناء القتال المستعر هجم فريق من المشاة يحملون جذوع النخل صوب الباب الكبير، وصكّوه صكًّا شديدًا دوّى دويًّا مرعبًا.

وكان ددف يقف على ظهر عربته الحربيّة يرقب القتال بعينين قلقتين وقلب متحفّز للقتال وكان يقلّب وجهه بين الجنود المعتلية للسور والمتوثّبة لاعتلائه وبين الهاجين على الباب الضخم الذي بدأت تتزعزع أركانه ويضطرب بنيانه.

وبعد زمن ليس باليسير رأى الرماة يقفزون داخل السور، ورأى المشاة من حاملي الرماح يصعدون السلالم ورماحهم مجرّدة ودروعهم مشهّرة فعلم أنّ العدوّ أخذ يخلي مواقعه خلف السور ويتقهقر داخل شبه الجزيرة.

ومرّت ساعة على قتال عنيف وانتظار جزوع، وكانت فرقة العربات ـ وعلى رأسها القائد الشابّ ـ تنتظر صفوفًا، ولم يلبث أن فتح الباب على مصراعيه بعد أن رفع الجنود المصريّون بداخل السور مزلاجه، وأمر ددف سنفر بالهجوم، فترك للجوادين العنان، وانطلقت خلفه العربات تجلجل جلجلة الجبل المنهار، وتثير خلفها ريحًا من النقع والرمال، واجتازت الباب عربة عربة، وكانت تنعطف واحدة إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، فرسمت جناحين مديدين يلتقيان في عربة القائد، وهاجمت العدوّ كقبضة يد هائلة تهصر عصفورًا هزيلًا، وفي أثناء ذلك احتلّ الرماة الأماكن الحصينة والتلال العالية، وتقدّمت فرقة الرماح لتحمي مؤخّرة العربات، وتقاتل من يلتفّ للإحداق بها.

وكان سنفر يقود عربة القائد ببسالة وثبات، وكان ددف يطلق سهامه التي لا تخيب فتعرف مستقرّها في الرقاب والقلوب، وقد ولّى العدوّ الأدبار، ومن تخلّف منهم انقضّ عليه الجنود الزاحفون برماحهم، فلم ينج من الموت إلّا هارب أو أسير أو جريح.

وانتهت المعركة الفاصلة في ساعات قلائل، وباتت قرى القبائل تحت رحمة الجنود المحتلّة، وامتلأ الميدان بجثث القتلى أو الجرحى من الفريقين، وانتشر الجند

هنا وهناك بغير نظام، وأقبل الجنود المصريّون يبحثون بين الجثث عن إخوانهم الأبطال الذين سقطوا في ميدان القتال، ومضوا يحملونهم إلى المعسكر خارج السور، وأخذ غيرهم يجمعون جثث العدوّ ليحصوها عدًّا، وجعل آخرون يقيّدون الأسرى بالحبال ويستولون على أسلحتهم ويجمعونهم صفوفًا صفوفًا. ثمّ أخليت القرى الصغيرة من النساء والأطفال وأحضرن جماعات جماعات وهنّ يصرخن ويعولن إلى جانب الأسرى، وأحاط الحرس بالجميع من كلّ جانب، ثمّ عاد الجنود كلّ طائفة إلى حيث نشر علم فرقتها، ووقفوا صفوفًا كلّ فرقة على رأسها ضبّاطها الذين نجوا من شرّ القتال.

وأتى القائد يتبعه قوّاد الفرق، فاستعرض الجيش المنتصر الذي أدّى له التحيّة بحماس عظيم، وسلّم على الضبّاط البواسل وهنّأهم بالفوز والنجاة، وحيّا ذكرى من سقط منهم شهيدًا، ثمّ سار مع أركان حربه إلى البقعة التي ألقيت فيها جثث الأعداء، وكانت الجثث ممدّدة بعضها إلى جانب البعض وقد سالت دماؤها أنهارًا، ووجد على حراستها ثلّة من الجند على رأسها ضابط، فسأله ددف:

ـ كم عدد القتلى والجرحى؟

فأجاب الرجل:

ـ قتل من العدو ثلاثة آلاف رجل وجرح خمسة آلاف.

فسأله:

ـ وكم عدد ضحايانا؟

فقال:

ـ قتل منّا ألف وجرح ثلاثة آلاف.

فاكفهرّ وجه الشابّ وقال:

ـ كلّفتنا قبائل البدو غاليًا..

وسار القائد إلى حيث يوجد الأسرى، وكانوا جمعًا غفيرًا تنتظمه الحبال الطويلة جماعات، وتقيّد أذرعهم إلى الخلف، وقد نكّست رءوسهم حتّى مسّت لحاهم صدورهم، وألقى ددف نظرة عليهم وقال لمن حوله:

ـ سوف تهلّل مناجم قفط ـ التي تشكو قحطًا في عمّالها فرحًا بهؤلاء الرجال الأشدّاء.

انتقل ومن معه إلى منطقة صاخبة هي منطقة السبايا اللاتي لم يستطعن هروبًا، وكانت أطفالهنّ تصرخ وتعول، وكنّ يلطمن وجوههنّ ويندبن حظّهنّ ورجالهنّ القتلى أو الجرحى أو الأسرى أو المشرّدين، ولم يكن ددف يعلم بلغتهنّ فألقى عليهنّ نظرة غريبة لم تخل من إشفاق، ووقع بصره على طائفة منهنّ تبدو عليها آي النعيم، فسأل الضابط الذي يشرف على حراستهنّ:

ـ من هؤلاء النسوة؟

فقال الضابط:

ـ هنّ حريم زعيم القبائل.

وتأمّلهنّ القائد وعلى فمه ابتسامة، وكنّ ينظرن إليه بأعين جامدة لا شكّ تخفي خلفها نارًا مضطرمة يَوْدَدْنَ لو يسلّطنها على القائد الظافر الذي أسر سيّدهنّ واستذلّهنّ وسامهنّ من بعد عزّة هوانًا.

شذّت واحدة منهنّ عن نطاق أترابها وأرادت أن تتقدّم من القائد، فحال بينها وبين بغيتها جنديّ وأشار إليها مهدّدًا منذرًا، ولكنّها صاحت بالقائد باللغة المصريّة المبينة:

ـ أيها القائد دعني أقترب منك وليباركك الربّ رع.

فدهش ددف ودهش من معه جميعًا لطلاقة لسانها وحسن نطقها المصريّ كأحد الناطقين بها، وأمر القائد الجنديّ أن يتركها تتقدّم منه، فتقدّمت بخطًى وئيدة حتّى دنت من الشابّ وانحنت أمامه في احترام وإجلال، وكانت امرأة في الخمسين من عمرها وقور الطلعة في وجهها أثر لحسن قديم عفا عليه الزمان والشقاء، وفي قسماتها شبه عجيب من بنات النيل، فقال لها ددف:

ـ أراك تعرفين لغتنا أيّتها السيّدة.

فتأثّرت السيّدة تأثّرًا شديدًا حتّى اغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

ـ كيف لا أعرفها وقد نشأت لا أعرف لغة سواها؟ أنا مصريّة يامولاي!

فزاد العجب بالشابّ وأحسّ نحوها بعطف شديد، وسألها:

ـ أحقًّا أنت مصريّة ياسيّدتي؟

فقالت له بيقين وحزن:

ـ نعم يامولاي، مصريّة بنت مصريّين.

ـ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ جاء بي حظّي التعس إذ خطفني على أيّام شبابي هؤلاء الرجال الغلاظ الأكباد الذين نالوا جزاءهم على أيديكم الباسلة، وساموني سوء العذاب حتّى أنقذني زعيمهم من شرّهم ليبتليني بشرّه، فضمّني إلى حريمه حيث عانيت ذلّ الأسر وحسرته عشرين عامًا..

فاشتدّ تأثّر ددف، وقال للمرأة البائسة:

ـ اليوم ينتهي أسرك أيّتها السيّدة التي تربطني بها أخوّة الجنس والوطن، فقرّي عينًا.

فتنهّدت المرأة التي قسا عليها الدهر عشرين عامًا طويلة، وأرادت أن تجثو عند قدمي القائد، ولكنّه أمسك بيدها برقّة وقال لها:

ـ هدّئي من روعك ياسيّدتي.. من أيّ البلاد أنت؟

ـ من أون يامولاي، مقرّ الربّ رع.

ـ لا تحزني لقد ابتلاك الربّ بشرّ عظيم لحكمة يعلمها هو، ولكنّه لم ينْسَكِ. ولسوف أقصّ على مولاي الملك قصّتك وأضرع إليه أن يفكّ رقبتك فتعودي إلى مسقط رأسك راضية سعيدة..

فساور المرأة القلق، وقالت للقائد بتوسّل:

ـ أضرع إليك يامولاي أن ترسلني إلى بلدتي توًّا، عسى أن تمنّ عليّ الآلهة بالعثور على أهلي.

ولكنّ الشابّ هزّ رأسه وقال:

ـ ليس قبل أن أرفع أمرك إلى فرعون، لأنّك الآن ـ شأنك شأن جميع هؤلاء الأسرى ـ ملك للملك ولابدّ من تسليم الوديعة إلى صاحبها، ولكن اطمئنّي ولا تخشي شيئًا، ففرعون ربّ المصريّين لا آسرهم ولا مذلّهم.

وأراد أن يُدخل الطمأنينة على نفسها المعذّبة، فأرسلها إلى المعسكر معزّزة مكرّمة.

وعندما أتى مساء ذلك اليوم كان الجيش قد انتهى من دفن قتلاه وتضميد جراح جرحاه، وآوت الجند إلى الخيام تأخذ قسطها من الراحة بعد نصب اليوم المرهق، وجلس ددف أمام مدخل خيمته يصطلي نارًا ويتأمّل ما حوله بعينين حالمتين، وكان أعظم ما يستولي على مشاعره على الأرض تلك الأعلام المصريّة الخفّاقة المنشورة على السور الحصين، وفي السماء هاتيك النجوم التي كأنّها عيون تتألّق أبدًا إعجابًا بقدرة الخالق وجمال المخلوق.. وكانت تحلّق بسماء خياله أطياف جميلة ـ مثل النجوم ـ تمثّل لقلبه ذكريات منف السعيدة وأحلامها وآمالها، ولم ينس في أحلامه تلك الساعة الرهيبة المقبل عليها حين يقف بين يدي فرعون، ويطلب إليه قلب أعزّ مخلوق إلى نفسه في مصر. يالها من ساعة رهيبة!! ولكن ما أجمل الحياة إذا اطّردت من نصر إلى نصر، وتنقّلت من سعادة إلى سعادة! ليتها تسير كذلك أبدًا، وليت الأقدار ترحم الإنسان! ولكنّ الظاهر أنّ السعادة نادرة الوجود في هذه الدنيا، وهل يستطيع أن ينسى صورة تلك المرأة البائسة التي اختطفها البدو من بين يدي سعادتها واهتصروا شبابها وساموها الذلّ عشرين عامًا! ياللمسكينة!

نعم لم يستطع ددف أن ينسى في سعادته وفوزه بؤس تلك المرأة..

ـ٣٠ـ

وأشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء وكأنّها تستقبل عيدًا من أعياد الربّ بتاح، فالأعلام ترفرف على أسطح البيوت والقصور، والطرق والميادين تموج بجموع الشعب كأنّها عباب النيل إبّان الفيضان، والجوّ يضجّ بالأناشيد تحيّة لفرعون والجيش الظافر والجنود البواسل.

وسعف النخل وأغصان الزيتون تلوح في الفضاء كأنّها أجنحة طير أليف تداعب هامات كلّلها الظفر وأطربها الفرح، وبين تلك النفوس السعيدة المغتبطة

شقّت مواكب الأمراء والوزراء والكهنة طريقها إلى باب المدينة الشماليّ، لاستقبال الجيش المظفّر وقائده الباسل.

وفي الموعد الموعود حمل النسيم أنغام موسيقى الجيش الظافر، وبدت طلائعه في الأفق ترفرف عليها الأعلام، فتعالى الهتاف ودوّى التصفيق ولوّحت الأيدي بالأغصان، وغمر القوم موجة من الحماس الدافق جعلتها كالبحر الخضمّ المتعارك الأمواج.

وتقدّم الجيش بنظامه المعهود تتقدّمه جموع الأسرى مكتوفة الأذرع منكّسة الذقون، تتبعها عربات كبيرة تحمل السبي من النساء والأطفال والمغانم، ثمّ بدت فرقة العربات يتقدّمها القائد الشابّ يحيط به السادة المستقبلون من كبار رجال المملكة، وتتبعه صفوف العربات الحربيّة المهيبة يشملها نظام دقيق رائع، وتأتي على الأثر فرق الجيش من الرماة وحاملي الرماح إلى حاملي الأسلحة الخفيفة، تتقدّم صفوفًا تسير كلّ على أنغام موسيقاها، وقد تركت أماكن من سقطوا في المعركة الظافرة شاغرة تحيّة لذكراهم وذكرى لاستشهادهم النبيل في سبيل الوطن وفرعون.

وكان ددف سعيدًا فخورًا ينظر إلى جموع الشعب المتحمّس بعينين لامعتين. ويردّ التحيّات الحارّة بالتلويح بسيفه العظيم، وقد فتّشت عيناه في الجموع عن الوجوه الحبيبة التي لم يداخله ارتياب في أنّها تراه وتهتف باسمه، حتّى خال هنيهة أنّه يسمع صوت أمّه زايا وخوار والده بشارو المختال الفخور، ثمّ خفق قلبه خفقة شديدة اهتزّت لها حناياه وتساءل ترى هل تشاهده الآن هاتان العينان السوداوان اللتان ألهمتاه الحبّ كما ألهمت الشمس البازغة قلوب المصريّين عبادة الله؟ هل تراه في مجده؟ وتسمع اسمه تهتف به الألوف المحتشدة؟ هل ترى وجهه الذي أضناه الشوق والبعاد؟

وتقدّم الجيش في مسيره إلى القصر الفرعونيّ، وبرز الملك والملكة إلى الشرفة المطلّة على الفناء الواسع المعروف بساحة الشعب، ومرّت أمامهما جموع الأسرى وأثقال المغانم والسبايا وفصائل الجيش، ولدى اقتراب ددف من الشرفة الملكيّة جرّد سيفه ومدّ يده تحيّة ولفت وجهه إلى الملكين، وكانت الأميرات حنوتس ونفر حتيس وحتب حرس ومري سي عنخ واقفات خلف الملك والملكة، فانجذبت عيناه إلى عينين فاتنتين لهما عليه سلطان ليس لشيء في الوجود، وتبادلت الأعين رسالة ناريّة خفق لها القلبان، حملت شوقًا مضنًى وجوًى، فلو أنّها مسّت في سبيلها حاشية علم من الأعلام لأشعلت نارًا موقدة.

* * *

ودُعي القائد ددف للمثول بين يدي فرعون، فذهب بقلب ثابت ونفس مطمئنّة، ومثل في الحضرة الجليلة مرّة أخرى، وقد تعطّف الملك وقدّم له الصولجان، فلثمه ساجدًا، ثمّ وضع على أعتاب العرش مزلاج باب السور الحصين الذي اقتحمه جيشه ظافرًا ثمّ قال:

ـ مولاي صاحب الجلالة فرعون مصر العليا والسفلى، سيّد الصحراء الشرقيّة والصحراء الغربيّة وصاحب بلاد النوبة، مولاي! لقد أيّدتنا الآلهة على عمل عظيم وفتح مبين، فضمّت إلى ملككم السعيد ملكًا جديدًا، وأدخلت في طاعتكم أفواجًا كانوا إلى أمس عصاة طاغين، وطوت تحت جناحي ربوبيّتكم قلوبًا خاشعة أقسمت في ذلّ الأسر يمين الإخلاص لعرشكم العتيد.

فقال له فرعون الذي كلّل هامته المشيب:

ـ إنّ فرعون يهنّئك أيّها القائد الظافر على إخلاصك وبسالتك، ويرجو أن تمدّ الآلهة في عمرك لينتفع الوطن بمواهبك.

وتعطّف فرعون ومدّ يده إلى القائد الشابّ الذي لثمها باحترام عميق وقلبه يدقّ دقًّا عنيفًا، وسأله الملك:

ـ ما عدد جنودي الذين استشهدوا في سبيل الوطن وفرعون؟

فقال ددف بصوت خافت:

ـ استشهد من الأبطال ألف يا مولاي.

ـ وما عدد الجرحى؟

- ثلاثة آلاف يا مولاي.

فصمت قليلًا ثمّ قال:

- إنّ الحياة العظيمة توجب تضحيات عظيمة، فسبحان الربّ الذي يخلق الحياة من الموت.

ونظر الملك إلى ددف طويلًا ثمّ قال:

- لقد أدّيت لي خدمتين جليلتين، فأنقذت بالأولى حياة وليّ عهدي، وأنقذت بالثانية طمأنينة شعبي، فماذا تطلب؟

ربّاه! جاءت الساعة الرهيبة التي طالما منّى نفسه بها وطالما صوّرت لقلبه في الأحلام السعيدة، وكان ددف شجاعًا لا يفقد جنانه في المواقف العظيمة فقال:

- مولاي، ما فعلت في الاثنتين إلّا ما يفرضه الواجب على الجنديّ فلا أطلب لقاءهما ثمنًا، ولٰكن لي أمنيّة أتقدّم بها تقدّم الطامع في رحمة مولاه.

فقال الملك:

- وما هي أمنيّتك أيّها القائد؟

فقال ددف:

- إنّ الآلهة يا مولاي لحكمة تعلمها سمت بقلبي البشريّ إلى سماوات مولاي الملك، فتعلّق بأقدام مولاتي الأميرة مري سي عنخ.

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة وسأله:

- لٰكن ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة؟

فارتبك ددف وخيّم عليه صمت ثقيل، فابتسم فرعون وقال:

- يقولون إنّه لا يدخل إلى قدس الربّ عبدًا إلّا كان مطمئنًّا إلى رضاه، وسنرى ما إذا كان هٰذا حقًّا..!

وكان فرعون راضيًا، وكأنّما أراد أن يلهو قليلًا، فأرسل في طلب الأميرة مري سي عنخ، ولبّت الأميرة نداء والدها وجاءت تسعى في جلال الحسن، ولمّا رأت الماثل بين يديه خفق قلبها وتولّاها الحياء والارتباك، وتردّدت كغزال رأى رجلًا.. فنظر إليها فرعون بحنان وقال بلهجة رقيقة لم تخل من سخرية:

- أيّتها الأميرة! يزعم هٰذا القائد أنّه غزا حصنين: سور سيناء وقلبك!

فقال ددف بتوسّل:

- مولاي..!؟

وأعياه الكلام فسكت مقهورًا مرتبكًا، ورأى فرعون قائده وقد خانته شجاعته، ورأى ابنته وقد تولّى عنها الكبرياء وأضناها الحياء والارتباك، فهوى قلبه إليها، وناداها إلى جانبه، ثمّ نادى ددف، فاقترب الشابّ في تهيّب شديد، ووضع الملك يد الأميرة على يده في تؤدة، وقال بصوته الجليل الذي تقشعرّ له القلوب:

- إنّي أبارككما باسم الآلهة جميعًا.

-٣١-

واستقبل ددف على أثر انتهاء المقابلة الفرعونيّة السعيدة فترة من الزمن مقدارها اثنتا عشرة ساعة. توالت فيها الحوادث الجسام الغريبة التي تزلزل النفوس وتحطّم العقول، فكانت في عمره السعيد الهادئ مثل مسقط الشلّال في مجرى النيل الرزين الجليل..

ماذا فعل ددف في تلك الفترة القصيرة الحافلة بالعجائب؟

خرج من الحضرة الفرعونيّة فطلب مقابلة الوزير خوميني، وعرض عليه موضوع مظلمة المرأة المصريّة الأسيرة التي لا تكاد تغيب عن خاطره، وأخلى الوزير سبيلها وأحضرها إلى القائد:

وقال لها ددف:

- أهنّئك يا سيّدتي باستردادك لحرّيّتك بعد طول الأسر. ولّما كان الوقت متأخّرًا فستنزلين ضيفة عليّ إلى الغد، ثمّ تولّين وجهك شطر أون مصحوبة برعاية الآلهة.

فكان جوابها أن أمسكت بيده ولثمتها بامتنان عظيم، ولّما رفعت وجهها، انحدر دمعها على خدّيها وعنقها، واصطحب السيّدة معه إلى عربته ورأى سنفر ينتظره على مقربة منها فأدّى التحيّة له وقال:

- كلّفني صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير رعخعوف أن أبلّغ القائد رغبته في محادثته في الحال.

فسأله ددف:

- أين يوجد سموّه الآن؟

- في قصره.

فاستقلّ العربة وركب معه الضابط والسيّدة، وحملهم إلى قصر وليّ العهد، وطلب إلى السيّدة أن تنتظره في مكانها، ودخل القصر يتبعه الضابط. وطلب مقابلة الأمير، فدعي إلى حجرته، ووجده الشابّ على غير عادته مضطربًا وإن حاول أن يمسك زمام نفسه، ولم يعن هٰذه المرّة بردّ تحيّته وابتدره قائلًا:

- أيّها القائد ددف، إنّي أذكر دائمًا إخلاصك الذي أنقذ حياتي من موت محقّق، وأرجو أن تذكر نعمتي عليك إذ كنت جنديًّا صغيرًا فجعلتك قائدًا كبيرًا، وكلّلت هامتك بالمجد والخلود.

فقال ددف بحماس:

- إنّي أذكر هٰذا ولا أنساه، وهيهات أن أنسى آلاء مولاي الأمير.

فقال الأمير:

- إنّي أحتاج إلى إخلاصك هٰذه الساعة، فاصدع بما تؤمر واتبع وصاياي بعناية لا تدع للتردّد سبيلًا إلى قلبك. أيّها القائد، لا تسرّح جيشك، بل استبقه حيث هو معسكرًا خارج أسوار منف، وانتظر أوامري التي تأتيك عند مطلع الفجر، وإيّاك أن تتردّد عن تنفيذها مهما كانت غريبة، واذكر دائمًا أنّ الجنديّ الباسل ينطلق كالسهم إلى هدفه دون أن يسأل مطلقه.

فقال ددف.

- سمعًا وطاعة يا صاحب السموّ.

- انتظر رسلي في المعسكر عند الفجر ولا تغفل عن ذكر وصاياي.

قال الأمير ذاك ثمّ وقف معلنًا انتهاء المقابلة، فانحنى ددف لسموّه وغادر الحجرة متعجّبًا شارد الخاطر متحيّرًا من أمره، يقول لنفسه: ترى ما هي الأسباب التي دعت الأمير إلى أمره بإبقاء الجيش في معسكره؟ وما عسى أن تكون الأوامر الغريبة التي ستأتيه بها الرسل عند الفجر؟ ما من عدوّ يهدّد الوطن، وما من عصيان يهدّد الأمن، وكلّ مصريّ يتّخذ وجهته الطبيعيّة تحت رعاية فرعون وحكومته، فما وجه الحاجة إلى الجيش؟

وعاد قلقًا إلى العربة التي انطلقت به والسيّدة التي تصحبه، وكان كلّما اقتربت به العربة من بيت بشارو تخفّ حيرته وتذهب وساوسه ويتحوّل عقله إلى أهله الذين ينتظرونه على الجوى بعد أن طال الشوق به وبهم، ووصلت العربة إلى البيت فأدخل السيّدة حجرة الضيوف، وصعد إلى الأعزّة المشوقين، فتلقّته أمّه زايا بذراعين مفتوحتين، وانهالت عليه بالقبل وضمّته إلى صدرها بشدّة ولم تتركه إلّا حين انتزعه من يديها بشارو وهو يقول:

- أهلًا بالابن الظافر، والقائد الباسل!

وقبّله في خدّه وجبهته. ثمّ عانق ددف أخويه خني ونافا، وسلّم على زوج الأخير وكانت تحمل على ذراعها طفلًا رضيعًا، فقدّمته إليه وهي تقول:

- انظر إلى سميّك ددف الصغير!.. سمّيته باسمك عسى أن توفّقه الآلهة للمجد كعمّه العظيم.

فنظر ددف إلى نافا وحمل الصغير بين ذراعيه وقبّل شفتيه الرقيقتين، وقال لأخيه:

- يا له من صورة جميلة!

فابتسم نافا الذي كان سعيدًا بابنه سعادته بفنّه، وأخذ الطفل بين يديه.

ووجد ددف الفرصة سانحة لإعلان خطبته السعيدة، فقال نافا:

- لن تكون أبًا وحدك يا نافا.

فانتبه الجميع إلى قوله، وصاح نافا بفرح:

- هل اخترت شريكتك أيّها القائد؟

فأحنى ددف رأسه قائلًا:

- نعم.

فنظرت أمّه إليه بعينين يتألّق فيهما الفرح وقالت:

- أحقًّا يا بنيّ ما تقول؟

فقال بهدوء:

- نعم يا أمّاه.

فصاحت به:

- من هي؟

وسألت مانا باهتمام شديد:

- من هي؟

وقال نافا ضاحكًا:

- أنت قادم من ميدان القتال، فهل عشقت إحدى السبايا؟

فقال الشابّ بهدوء وفخار:

- هي صاحبة السموّ مري سي عنخ.

فصاح الجميع:

- مري سي عنخ!.. ابنة فرعون!!

فقال:

- هي دون غيرها.

وملكت الجميع دهشة عظيمة، واهتزّت قلوبهم بسعادة طاغية جعلت الكلام عسيرًا، وقصّ عليهم ددف قصّته وذكر نعمة فرعون عليه ودموع الفرح تشرق بعينيه الجميلتين، ولم تتمالك زايا نفسها فبكت، وكانت تصلّي للربّ بتاح الواهب المنان، واهتزّ بشارو طربًا فجعل يروح ويجيء بجسمه المنتفخ المتهدّل، أمّا نافا فقد قبّل الشابّ السعيد واسترسل يضحك ضحك الفرح والابتهاج، وباركه خنى وأكّد له أنّ الآلهة لا تقضي بهذه الأمور الجليلة إلّا وهي ترسم له غاية مجيدة لم يفز بها إنسان من قبل! ومضى كلّ منهم يعبّر عمّا يختلج في ضميره من الفرح والسعادة.

وذكر ددف السيّدة التي تركها في حجرة الضيوف، فقام من فوره وذكر لهم بسرعة قصّتها، وقال لأمّه:

- أرجو أن تكرمي مثواها يا أمّاه حتّى تترك بيتنا.

فقالت أمه:

- سأنزل يا بنيّ للترحيب بها.

وصحب ددف أمّه ودخلا إلى حجرة الضيوف معًا، وهي تقول:

- أهلًا بك ياسيّدتي.. لقد حللت في بيتك..

ونهضت السيّدة من جلستها وأحنت قامتها المثقلة بهوان السنين وذلّ الأيّام، ثمّ مدّت يدها إلى مضيفتها الكريمة، فالتقت عينا المرأتين لأوّل مرّة، وبسرعة البرق نسيتا ما كانتا فيه من تبادل التحايا، ونظرتا كلّ منهما إلى الأخرى بغرابة وكأنّما تجهد نفسها لاختراق الحجب الكثيفة التي وضعها الزمان على وجه الماضي البعيد، واتّسعت عينا المرأة الغريبة وصاحت في دهشة جنونيّة:

- زايا..!

فتولّى الذعر زايا وجعلت تنظر إليها بذهول شديد، وجعل ددف يقلّب وجهه بينهما في حيرة وهو يعجب للمرأة التي عرفت أمّه مع أنّها قضت عشرين عامًا من حياتها في منفاها، وسألها دهشًا:

- كيف عرفت أمّي ياسيّدتي؟

ولكنّ المرأة لم تأبه لقوله، ولعلّها لم تسمعه قطّ: لأنّها كانت منتبهة إلى زايا بكلّ وجدانها، وقد ضاقت بخرسها فصاحت بها:

- زايا..! زايا..! ألست زايا.. ما لك لا تتكلّمين؟.. تكلّمي.. أيّتها الخادمة الخائنة.. تكلّمي.. وقولي ماذا فعلت بابني!.. أين ابني أيّتها المرأة؟..

ولم تتكلّم زايا ولا تحوّلت عيناها عن المرأة الغاضبة، ولكن أعياها الاضطراب ومزّقها الخوف فجعلت ترتجف وحاكى وجهها وجوه الموتى، فأمسك ددف بيدها الباردة وأجلسها إلى أقرب مقعد، ثمّ تحوّل إلى المرأة في غضب وقال بجفاء:

- كيف تؤاتيك الجرأة على توجيه مثل هذا الكلام إلى أمّي أيّتها السيّدة التي أكرمتها وأنقذتها من عذاب الأسر؟

وكانت المرأة تلهث بشدّة كالمحتضر، فتأثّرت لكلام القائد الذي أنقذها. وأرادت أن تتكلّم، فأعياها الحصر، فما استطاعت إلّا أن تشير إلى أمّه كأنّما تقول له: سَلْها هي.

فانحنى الشابّ إلى أمّه بحنوّ وسألها برقّة:

- أمّاه.. هل تعرفين هذه المرأة؟

فلم تقل زايا شيئًا، ولم تطق المرأة سكوتها فقالت وقد عاودها غضبها:

- سَلْها: هل تعرفين رده ديديت زوج رع؟. سلها: هل تذكر المرأة التي هربت معها حاملة طفلها

الصغير من عشرين عامًا فرارًا من الطغاة؟.. تكلّمي يا زايا، قولي له كيف فررت تحت جنح الظلام، وكيف خطفت ابني الرضيع، وكيف تركتني في مجاهل الصحراء نفساء يائسة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، حتّى عثر بي الوحوش وأخذوني أسيرة وساموني سوء العذاب وذلّ الأسر عشرين عامًا.. تكلّمي يازايا.. وقولي ماذا فعلت بطفلي؟.. تكلّمي..

فاشتدّت الحيرة بددف وهمس في أذن أمّه متألّمًا:

ـ أمّاه.. سامحيني، أنا الذي أحدثت لك هذا العذاب، أنا الذي جئت بهذه المرأة التي أفقدها الحزن رشادها، سامحيني يا أمّاه.. سأطرد هذه المرأة.

ولكنّها أمسكت بيده تمنعه، فسألها بتوسّل:

ـ لماذا لا تتكلّمين يا أمّاه؟.. هل تعرفين هٰذه المرأة؟

فأنّت زايا أنينًا مؤلمًا، وقالت لأوّل مرّة بعد أن غشيها الذهول:

ـ لا فائدة.. تحطّمت حياتي..

فصاح الشابّ بصوت كزئير الأساد:

ـ أمّاه لا تقولي هذا. فدتك نفسي يا أمّاه!

فتنهّدت بحرقة وقالت:

ـ أوه يا ددف العزيز، بالله لم أقترف سوءًا ولم أتعمّد شرًّا، ولكن كان القدر يقضي بما ليس في مقدور إنسان دفعه ربّاه! كيف تنهار حياتي دفعة واحدة!

فكاد الشابّ يجنّ من الألم وقال:

ـ أمّاه! لا تنسَيْ أنّي إلى جانبك أدفع عنك كلّ سوء، ما الذي يؤلمك؟ ما الذي يحزنك؟ سواء لديّ ما يطويه ماضيك من خير أو شرّ، وما يهمّني أن أعلم شيئًا إلّا أنّك أمّي وأنّي ابنك الذي ينصرك ظالمة ومظلومة، شرّيرة وخيّرة. أتوسّل إليك ألّا تبكي وأنا إلى جانبك.

ـ هيهات أن تستطيع معونتي!

ـ محض أوهام يا أمّاه!.. أيّ خطب هٰذا؟

ـ لن تستطيع معونتي ياددف العزيز.. ربّاه! كم بنيت من الآمال ولكنّي أقمتها على شفا جرف هارٍ، فما كادت تستوي حتّى انهارت إلى الحضيض مخلّفة قلبي خرابًا تنعق فيه الغربان.

واشتدّ التأثّر بالشابّ وتحوّل غاضبًا إلى المرأة، ولٰكنّ هذه لم تلن وما انفكّت تسأل زايا قائلة:

ـ قولي لي أين ابني؟ أين ابني؟

وبهتت زايا هنيهة، ثمّ وقفت بحالة عصبيّة وصاحت بالمرأة:

ـ أتظنّين أنّني غادرة يا رده ديديت؟ كلّا لم أك غادرة قطّ. لقد سهرت عليك ذاك اليوم العصيب، ولكن هاجمنا البدو فلم أر مناصًا من الهرب، وأشفقت على طفلك من أذاهم فحملته على ذراعيّ وعدوت به كالمجنونة، فكان فراري ضرورة طبيعيّة، وكان وقوعك بين أيديهم قضاءً محتومًا. ثمّ عنيت بطفلك ووهبته حياتي، ونفعه حبّي فنشأ رجلًا تفخر به الأمم، وها هو ذا يقف أمامك، فهل رأيت مثله إنسانًا من قبل؟

وتحوّلت رده ديديت إلى ابنها وأرادت أن تتكلّم، فلم يطاوعها لسانها، ولم تستطع إلّا أن فتحت ذراعيها وهرعت إليه وشبكتهما حول عنقه وشفتاها ترتعشان بهٰذه الكلمة. «ابني.. ابني». وكان الشابّ ذاهلًا كأنّه يرى حلمًا عجيبًا، فبقي ساكنًا ينظر تارة إلى زايا التي غدا وجهها يحاكي وجوه الموتى، وأخرى إلى المرأة المتعلّقة به التي تعاطيه قُبَل الأمومة وتحتويه بصدرها الخفّاق، ورأت زايا استسلامه، وشاهدت في عينيه نظرة حنوّ وعطف، فأنّت يائسة وولّتهما ظهرها، ثمّ فرّت من الحجرة كالدجاجة المذبوحة.

وأتى ددف حركة، ولكن ازداد تعلّق المرأة به وتوسّلت إليه قائلة:

ـ ابني.. ابني.. هل تترك أمّك؟.

فجمد الشابّ في مكانه وألقى على وجهها نظرة طويلة، فرأى الوجه الذي حرّك قلبه من النظرة الأولى، ورآه هذه المرّة أعظم طهرًا وجمالًا وبؤسًا، فخفق قلبه وفاضت نفسه حنانًا، ومال رأسه نحوها بغير شعور حتّى ضغطت شفتاه على خدّها. وتنهّدت المرأة بارتياح واغرورقت عيناها بالدموع، ثمّ انتحبت باكية، فأخذ يهدّىء من روعها، وأجلسها على ديوان

وجلس إلى جانبها، وكفكفت دموعها، وكان لا يزال موزّعًا بين الذهول وبين هذا الحبّ الجديد.

ونظرت إليه المرأة وقالت:

ـ قل لي: يا أمّاه.

فقال لها بصوت خافت:

ـ أمّاه..

ثم قال بحيرة:

ـ ولكنّي لا أكاد أفهم شيئًا..

فقالت له:

ـ ستعلم كلّ شيء يابنيّ..

قالت ذلك ثمّ سردت عليه قصّتها الطويلة، وحدّثته عن ولادته وما أحاطه بها من التنبّؤات الخطيرة وما أعقبها من الحوادث الجسام، حتّى الساعة السعيدة التي ردّت روحها إلى صدرها برؤيته حيًّا سعيدًا جليلًا.

ـ ٣٢ ـ

وساقت الأقدار بشارو إلى سماع قصّة رده ديديت عن غير قصد، فإنّه أراد أن يبالغ في إكرام ضيفة ددف فنزل لاستقبالها بنفسه، وصادف وصوله خروج زوجه زايا جريًا كالمجنونة، فأخذه العجب واستولت عليه الحيرة ودنا من باب الحجرة في حذر فوصل إلى مسمعيه صوت رده ديديت التي كانت تفيض بالحديث في حالة عصبيّة أنستها أن تخفت من صوتها، فاسترق السمع، وأنصت مع ددف إلى قصّة المرأة من مبتداها إلى منتهاها!

ثمّ انسحب من مكانه في خفّة وحذر وقصد إلى حجرته لا يلوي على شيء، وقد اكتسى وجهه بهيئة جدّ ورزانة واهتمام ندر أن عرفها وجهه إلّا في الملمات، ونبا به مقعده فجعل يروح ويجيء مضطرب النفس مشتّت البال مهتاج الخاطر، وكان يفكّر فيما سمع ويديره في عقله المبلبل ويقلّبه على وجوهه المختلفة، حتّى أضنى التفكير المحموم رأسه وجعله كقطعة الحديد المنصهرة وقال لنفسه بصوت مسموع كأنّه يحدّث شخصًا غريبًا:

ـ بشارو! أيّها الشيخ البائس. إنّ الآلهة تبتليك بمحنة شديدة.

وأيّ محنة!

ددف الجميل العزيز الذي احتضنه طفلًا رضيعًا فأنقذه من الجوع والفقر، ورعاه بعين الأبوّة الرحيمة حابيًا وصبيًّا وغلامًا يافعًا، وربّاه تربية أبناء النبلاء ومهّد له سبيل النجاح فكان رجلًا يزن أمّة من الرجال، ومنحه عطف الأب وقلبه. وتقبّل منه محبّة الابن وبرّه. ددف العزيز الجميل تظهره الأقدار على حقيقته فإذا به عدوّ لفرعون! إذا به الوسيلة التي ادّخرها الربّ رع لقلقلة العرش المكين وطعن ربّه الجليل وسلب حقّ وليّ عهده النبيل، وتأبى الأقدار إلّا أن تطلعه ـ وهو خادم فرعون الأمين ـ على هذه الحقائق الهائلة في ساعة من ساعات القضاء التي يدبّرها من وراء الغيب ويلبسها هيئة المصادفات. فأيّ محنة، وأيّ ابتلاء!

وصاح بشارو مرّة أخرى يحدّث نفسه قائلًا:

ـ بشارو! أيّها الشيخ البائس.. إنّ الآلهة تبتليك بمحنة شديدة.

واشتدّ الكرب بالرجل وثقل على صدره القلق، فمضى يحدّث نفسه بحزن وألم قائلًا:

ـ ددف أيّها العزيز، لتكن ابن العامل الشهيد أو وريث كاهن رع الأعظم، فَلَحَقًّا أنّي أحبك حبّي خنى ونافا، وأنّك لم تعرف أبًا سواي..

ولهذا منحتك اسمي رحمة ومحبّة. والله إنّك لشابّ يفيض الإخلاص من طبعه فيض الشعاع من الشمس، ولكن يا أسفًا لقد ادّخرتك الآلهة وأنت الأمين لأكبر خيانة عرفها التاريخ، خيانة ربّ العرش المكين، خيانة عهد خوفو مولانا العظيم، خوفو الذي نعلّم أبناءنا التسبيح باسمه قبل أن نلقّنهم حروف الهجاء. واها أيّتها الأقدار! لماذا تلتذّين بتعذيبنا؟ لماذا ترمينا بالمحن والويلات في أوقات سعودنا؟ وماذا كان يضيرك لو ختمت حياتي كما بدأت هنيّة سعيدة راضية؟!

وازدادت حالته سوءًا وأحسّ بدنوّ أجله، فدلف إلى

المرآة وألقى نظرة على وجهه الحزين الأسيف، وقال يخاطب صورته:

- بشارو!.. أيّها الرجل الذي لم يؤذ إنسانًا في حياته، هل يكون ددف العزيز أوّل ضحيّة تمتدّ لها يدك بالأذى؟. يا للعجب!. ولماذا كلّ هذا العذاب؟. لماذا لا تطبق شفتيك وكأنّك لم تسمع شيئًا؟. ربّاه. إنّ الجواب حاضر. إنّ قلبك لا يستريح لأنّه قلب بشارو مفتّش الأهرام وخادم الملك، بشارو الذي يعبد واجبه عبادة. هنا الداء. أنت تؤمن بالواجب. حقًّا أنت لم تؤذ إنسانًا ولكنّك لم تَحِدْ عن الواجب قطّ.. والآن أيّهما ترى أَوْلى بالاتّباع؟. الواجب أم تجنّب الأذى؟. يستطيع أيّ تلميذ في مدرسة منف الأوّليّة أن يبتده الجواب ابتداهًا. إنّ بشارو لن يختم حياته بالخيانة، كلّا لن يبيع مولاه.. فرعون أوّلًا.. وددف ثانيًا.. وتنهّد من قلب محزون أليم، ونفس طعنتها الحسرة بخنجر مسموم.. وأبعد عن مخيّلته أطياف ددف وزايا وأخذ يرتدي ثيابه الرسميّة بعزم ثابت.

ثمّ غادر حجرته بخطوات ثقيلة وهبط إلى حديقة البيت، ومرّ في طريقه بحجرة الضيوف، ورأى ددف واقفًا ببابها يدلّ مظهره على التأمّل العميق والاهتمام، فخفق قلبه لرؤياه خفقانًا غريبًا، واضطرب كلّ شيء فيه، اضطربت نفسه وصدره وجفناه، وتحاشى النظر إلى عينيه وأشفق من أن يحادثه فتنمّ لهجته على ثورة قلبه، ونظر الشابّ إلى ثياب أبيه الرسميّة نظرة غريبة، وسأله بصوت ضعيف:

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا.. أبتي؟

فقال بشارو وهو يسرع في خطاه:

- إلى واجب لا يؤجّل يابنيّ.

ثمّ ركب عربته وقال للسائق:

- إلى القصر الفرعونيّ..

وانطلقت العربة في طريقها، وكانت جيوش الليل تتجمّع في الآفاق للانقضاض على النهار المحتضر الذي غاب عنه حارسه فتأمّل بشارو الجوّ بعينين حزينتين ونفس منقبضة وقلب مظلم كالليل الزاحف، وقال لنفسه وهو يتنهّد آسفًا محزونًا:

- عرفت الواجب ذا مشقّة ولذّة، وها أنا أتجرّعه مرًّا لا لذّة فيه كالسمّ الزعاف.

-٣٣-

قصّت رده ديديت قصّتها الحزينة وعيناها لا تكفّان عن البكاء، وكان ددف يجلس إلى جانبها يستمع إلى صوتها المتهدّج ويحسّ بأنفاسها الحارّة تتردّد على وجهه، ويديم النظر إلى عينيها الدامعتين الحبيبتين وقلبه آخذ في الخفقان يكاد يتمزّق من الألم والحنان والإشفاق.

وحين انتهت من سرد مأساتها سألت ابنها:

- من كاهن رع يا بنيّ؟

- شودا رع!

فقالت:

- يا أسفًا قضى أبوك ضحيّة لا ريب في هذا.

فقال ددف بصوت الداهش الذاهل:

- إنّ الدهشة تذهلني عن نفسي يا أمّاه!.. بالأمس القريب كنت ددف بن بشارو وأنا اليوم شخص جديد يحفل ماضيه بالفواجع، ولد الساعة من أب قتيل وأمّ بائسة عانت ذلّ الأسر عشرين عامًا! يا للعجب.. كان مولدي شؤمًا، فمعذرة يا أمّاه!

- لا تقل هذا يا بنيّ الحبيب ولا تحمّل نفسك الطاهرة وزر الشيطان الرجيم.

- يا للتعاسة! أيقتل أبي وتلاقين العذاب عشرين عامًا؟

- فلترحمنا الآلهة يا بنيّ.. إنس أحزانك وفكّر في الخلاص.. إنّ قلبي لا يطمئنّ.

- ماذا تعنين يا أمّاه؟

- الخطر ما يزال محدقًا بنا يا بنيّ. ويهدّدك اليوم مَن أنعمَ عليك بالأمس.

- يا للعجب! أيكون ددف عدوًّا لفرعون؟. أيكون فرعون الذي يهبني كلّ يوم من نعمائه ويضفي عليّ من أفضاله قاتل أبي ومعذّب أمّي؟.

- هيهات أن يسكت العجب عمّن يراقب الناس والدنيا.. فهيّا يا بنيّ إلى الخلاص، لأنّي لا أريد أن أفقدك اليوم وما وجدتك إلّا بعد عذاب السنين.

- إلى أين يا أمّاه؟

- بلاد الربّ واسعة.

- كيف أفرّ فرار الجناة وما اقترفت ذنبًا؟

- وهل كان اقترف والدك ذنبًا؟

- إنّ طبعي يأبى عليّ الفرار.

- أشفق على قلبي الذي يمزّقه الخوف.

- لا تخافي يا أمّاه، إنّ إخلاصي وخدماتي للعرش يشفعان لي عند الملك.

- لن يشفع لك شيء إذا علم أنّك غريمه القديم الذي خلقته الآلهة ليرث عرشه.

فاتّسعت عينا الشابّ دهشة وقال:

- أرث عرشه؟!. يا لها من نبوءة ضالّة.

- أضرع إليك يا بنيّ أن تطيعني ليطمئنّ قلبي.

فأخذها بين يديه وضغط عليها بحنوّ وقال:

- عشت عشرين عامًا لا يعلم أحد بسرّي، ولا أنا نفسي. قد طواه النسيان ولن يُبعث مرّة أخرى.

- لا أدري يا بنيّ لماذا أفرق وأتطيّر. لربّما زايا.

- زايا! لقد دعوتها أمّي عشرين عامًا طويلة، وإذا كانت الأمومة رحمة ومحبّة وبذل نفس فهي أمّي أيضًا يا أمّاه، لن تشي بنا زايا أبدًا. إنّها امرأة بائسة كمملكة مخلصة فقدت عرشها على حين فجأة..

وقبل أن تفتح فاها دخل خادم مسرعًا وأخبر القائد بأنّ أمينه سنفر يرجو لقاءه في الحال وبدون أدنى إبطاء، فعجب الشابّ لأنّ سنفر كان معه منذ زمن قصير، وهدّأ روع أمّه واستأذن منها وخرج لمقابلة سنفر في الحديقة، ووجد الضابط قلقًا نافد الصبر مضطربًا، وحين رآه سنفر أقبل عليه مسرعًا وقال له بسرعة دون تحيّة أو سلام:

- سيّدي القائد.. لقد أطلعتني المصادفات على حقائق خطيرة الشأن تنذر بشرّ مستطير!

فخفق قلب ددف والتفت دون إرادة إلى حجرة الضيوف وهو يسائل نفسه: ترى ما الذي تخبّئه الأقدار من الحدثان الجديدة؟

ثمّ التفت إلى أمينه وسأله:

- ماذا وراءك يا سنفر؟

فقال الضابط بلهجة مضطربة:

- دخلت أصيل اليوم إلى مخزن الخمور لأنتقي زجاجة نبيذ جيّد، وفيها أنا أفتّش عن ضالّتي - وكنت واقفًا إلى جانب الكوّة المطلّة على الحديقة - إذ وصل إلى مسمعي صوت رئيس حجّاب وليّ العهد يحادث شخصًا غريبًا هامسًا فلم أتبيّن حديثه، ولكنّي سمعت جيّدًا ما ختمه به من الدعاء للأمير رعخعوف الذي سيصبح فرعون مصر عند الفجر! فانتفض جسمي هولًا ورعبًا، وأيقنت أنّ جلالة الملك انتقل إلى جوار أوزوريس، ونسيت ما أنا فيه من التفتيش وهرعت خارجًا إلى ثكنات الجند، فوجدت الضبّاط يقصفون ويتسامرون كعادتهم حين الراحة، فظننت أنّ الخبر المشئوم لم يبلغهم بعد. ولم أحبّ لنفسي أن أكون نذير الشرّ فانسللت إلى الخارج واستقللت عربتي وتوجّهت بها إلى القصر الفرعونيّ فلعلّي أقف على حقيقة الخبر، فوجدت القصر هادئًا، وأنواره تتلألأ كالكواكب الزاهرة، والحرّاس يروحون ويجيئون في طمأنينة ودعة، فلم أرتب في أنّ ربّ القصر يتمتّع بالحياة والصحّة. فعجبت لما سمعت بأذنّي في مخزن الخمور، وفكّرت فيه طويلًا فساورتني المخاوف وتوزّعتني الهواجس، ولاح لخاطري شخصك مصادفة فكان لي ما تكون المنارة لسفينة ضالّة تكالبت عليها الأمواج الهوج والرياح العاصفة والظلمات المحيطة فولّيت وجهي نحوك وجئت على عجل أروم عندك حسن التدبير.

فسأله ددف باضطراب وقد نسي همومه الشخصيّة وما صادفه في يومه من العجائب:

- أواثق أنت من أنّ أذنك لم تخدعك؟

- ثقتي بوجودي أمامك الآن.

- أكنت ثملًا؟

- لم أذقها في يومي هذا.

فنظر إليه الشابّ نظرة جامدة وسأله بصوت خيّل إليه أنّه صوت غريب:

- وما الذي فهمته من هٰذا؟

فصمت الضابط صمتًا رهيبًا كأنّه يتحامى بصمته الجواب ويدعه للقائد نفسه، وفهم ددف صمته على

حقيقته فخفق قلبه وسها إليه، وذكر في تلك اللحظة وصايا الأمير رعخعوف الغريبة وأمره إيّاه بعدم تسريح الجيش وانتظاره أوامره عند الفجر واتّباعها مهما كانت غريبة، ورجعت به الذاكرة القهقرى فذكر ما حدّثه به سنفر هذا الواقف أمامه يوم التقائهما الأوّل في حرس الأمير عن أخلاق وليّ العهد ونفاد صبره وتبرّمه. ذكر هٰذا كلّه بسرعة وارتياع. ربّاه! ماذا وراءك أيّها الغيب؟. هل فرعون في خطر؟. هل هنالك خيانة؟!.

وسمع سنفر يقول بحماسة:

- نحن جنود رعخعوف ولٰكنّنا أقسمنا يمين الإخلاص للملك. والجنود جميعًا جنود فرعون إلّا خائنًا.

فعلم أنّ وساوس سنفر تلتقي بوساوسه، فقال:

- أخشى أن يكون الملك في خطر!

- أنا لا أرتاب في ذٰلك، وينبغي أن نفعل شيئًا أيّها القائد.

- إنّ الملك يلبث عادة أغلب ليله في جوف الهرم مع وزيره خوميني يملي عليه كتابه العظيم، فينبغي أن يوجّه انتباهنا إلى الهرم. أخشى أن يغدروا به في حجرة التابوت.

- دون هذا والمستحيل، ففتح باب الهرم سرّ لا يعلمه إلّا ثلاثة: الملك وخوميني وميرابو، والهضبة المحيطة بالهرم عامرة ليل نهار بالحرّاس وكهنة المعبود أوزوريس.

- هل يسير في ركاب الملك أحد من حرسه؟

- كلّا، إنّ العاهل الكبير الذي وهب حياته مصر لا يشعر بحاجة إلى حرس في وطنه وبين رعاياه، واعتقادي يا سنفر - إذا صدقت شكوكنا - أنّ الخطر يجثم في وادي الموت، فهو طريق طويل خالٍ من الآدميّين تغري وحشته الغادر بالتربّص لفريسته.

فسأل سنفر وهو يلهث:

- وما الذي ينبغي عمله؟

- إنّ مهمّتنا مزدوجة يا سنفر: أن ندرأ الخطر عن الملك ونقبض على الخائنين.

- ولو كانوا من الأمراء؟

- ولو كان بينهم وليّ العهد نفسه!

- سيّدي القائد، ينبغي ألّا نعتمد على حرس وليّ العهد.

- نطقت بالحكمة يا سنفر، ولا حاجة بنا إليه، فلديّ جيش باسل لا يتردّد جنديّ من جنودي عن بذل حياته في سبيل مولاه.

فأضاء وجه الضابط وقال:

- فلندعُ الجيش بلا إبطاء.

ولٰكنّ القائد الشابّ وضع يده على كتف أمينه المتحمّس وقال:

- الجيش لا يدعى إلّا لقتال جيش مثله، وعدوّنا - إذا صدقت ظنوننا - نفر قليل يلوذ بالظلام ويدبّر غدره بليل، فينبغي أن نتربّص له ونضربه الضربة القاضية قبل أن يسدّد إلينا ضربته.

- ألا يرى سيّدي القائد أنّه يحسن بنا أن نحذّر فرعون؟

- بئس الرأي يا سنفر، إنّنا لا نملك دليلًا على هٰذه الخيانة المروّعة سوى شكوكنا، وقد تكون محض أوهام فلا نستطيع أن نقيم العذر لفرعون عن اتّهامنا الخطير لوليّ عهده.

- فما العمل يا سيّدي القائد؟

- العمل الحكيم أن أختار بضع عشرات من الضبّاط الذين أثق في شجاعتهم، وستكون من بينهم يا سنفر، ثمّ نقصد فرادى خفية إلى وادي الموت، ونوزّع أنفسنا على جانبيه في حذر وعناية وننتظر. ينبغي ألّا نضيّع الوقت سدًى إذ يجب أن نسبق عدوّنا إلى كمينه فنراه ولا يرانا.

ولم يضع الشابّ وقتًا، ولٰكنّه لم يستطع بالرغم ممّا هو بسببه من أمر خطير أن ينسى أمّه، فذهب بها إلى جناح نافا وعهد بها إلى زوجة مانا، وعاد إلى سنفر وركب معه عربته وانطلقا بها إلى معسكر الجند خارج أسوار منف، وكان يحادث نفسه قائلًا: فهمت الآن لماذا أمرني الأمير أن أنتظر أوامره عند الفجر فهو يدبّر حيلة لقتل والده، وفي نيّته إذا تحقّقت غايته أن يأمرني

بالزحف بالجيش على العاصمة للقضاء على قوّة الحرس الفرعونيّ ورجال الملك المخلصين أمثال خوميني وميرابو وأربو وغيرهم من بطانة الملك، فيخلو له الجوّ ويعلن نفسه الجزوع ملكًا على مصر.. يا للخيانة السافلة!

لا شكّ أنّ صبر الأمير نفد، ولكنّ طمعه سيقضي على آماله وهي قاب قوسين أو أدنى.. فهل تصدق شكوكنا يا ترى أم أنّنا نتخبّط في ضلال الأوهام!

-٣٤-

وطلع الفجر فدبّت الحياة مرّة أخرى في هضبة الهرم المقدّسة، وتجاوبت في السماء نداءات الحرّاس ونفخ الأبواق وترتيلات الكهنة، وعند ذاك فتح باب الهرم وخرج منه شبحان ثمّ أغلق مرّة أخرى، وكان كلّ منهما يتلفّح بدثار سميك أشبه بعباءة الكهنة التي يرتدونها في حفلات القربان، قال أقصر الرجلين قامة:

- إنّك يا مولاي تجهد ذاتك العليّة إجهادًا قاسيًا.

فقال الملك:

- الظاهر يا خوميني أنّنا كلّما تقدّم بنا العمر نردّ إلى الطفولة مرّة أخرى، فما أشبه ولعي بهذا العمل المجيد بانكبابي في زمن مضى على القنص وركوب الخيل. ينبغي أن أضاعف مجهودي يا خوميني، فما تبقّى من العمر إلّا أقصره..

فقال الوزير الأمير ويداه مبسوطتان:

- أطالت الأرباب بقاء الملك.

- فلتستجب الآلهة دعاءك حتّى أتمّ رسالتي.

- لست منّاعًا للخير ولكن أتمنّى أن يخلد مولاي إلى الراحة والدعة.

- كلّا يا خوميني. لقد شيّدت لي مصر مثوى روحي وما أهبها إلّا حياتي الفانية!

وكفّ الرجلان عن الحديث، وصعد الملك إلى العربة الملكيّة، وركب بعده الوزير وقبض على اللجام وسارت الجياد خببًا، وكانت العربة كلّما مرّت بجماعة من الكهنة أو الجنود سجدوا تحيّة واحترامًا، وما برحت الجياد تجدّ في السير حتّى قطعت أرض الهضبة واجتازت حدودها إلى وادي الموت الذي يؤدّي إلى أبواب منف، وكانت الظلمة ما تزال حالكة والسماء ملأى بالنجوم يخالها المتأمّل لشدّة توهّجها هابطة إلى فلك أدنى، وقد شملها جلال ساحر تخبت له القلوب وتفتتن الأفئدة.

وتوسّطت العربة وادي الأبديّة، وكان الملك ووزيره يجلسان هادئين متأمّلين، وسمعا بغتةً أحد الجوادين يصهل بشدّة ويقفز عاليًا ثمّ يسقط على الأرض، وأعاق سقوطه العربة عن المسير فتوقّف الجواد الثاني، وعجب الرجلان وهمّ الوزير بالنزول ليرى ما أصاب الجواد، ولكنّه قبل أن يتحرّك صرخ بألم وصاح:

- الحذار يا مولاي.. لقد أصبت.

فأدرك فرعون أنّ مخلوقًا أصاب الجواد وأردف بوزيره، وظنّه من قطّاع الطرق فصاح بصوت شديد:

- إلى الوراء أيّها الجبان، من يريد أن يغتال فرعون؟

ولكنّه سمع صوتًا كالوعد يصيح: «إليّ يا سنفر». فنظر إلى مصدره - وهو يسند خوميني إلى صدره - فرأى شبحًا قادمًا من جانب الوادي الأيمن كالسهم المنطلق، وسمعه يصيح مرّة أخرى:

- اختبئ يا مولاي خلف سور العربة.

ثمّ رآه يقف في طريق شبح آخر آتٍ من الجهة اليسرى، واشتبك الاثنان في قتال عنيف، وتبادلا طعنات قاتلة بسيفيهما، ثمّ صاح أحدهما وسقط على الأرض قتيلًا بغير شكّ.. ترى من الذي سقط: الصديق أم العدوّ؟ ولم تطل الحيرة بالملك لأنّه سمع صوت المنقذ يقول:

- هل مولاي بخير؟

فأجابه:

- نعم أيّها الشجاع، ولكن أصيب وزيري.

سمع الملك مرّة أخرى صلصلة سلاح وراء العربة، فالتفت بسرعة فرأى ثلّة من الجنود تلتحم في قتال عنيف، ورأى الرجل الشجاع الذي قتل عدوّه ينضمّ إليهم وينصر فريقًا على فريق، فوقف الملك الأعزل يشاهد المعركة وهو كظيم.

ورجحت كفّة رجال الملك وتساقط أعداؤهم واحدًا

فواحدًا، وألقى الرعب في قلوبهم أن شاهدوا عن بعد كوكبة من الفرسان قادمة تعدو من ناحية الهضبة المقدّسة حاملة المشاعل هاتفة باسم الملك الجليل، فزلزلوا زلزالًا شديدًا وركنوا إلى الفرار. ولكن كان الذين يقاتلونهم أشدّاء جبابرة فأمعنوا فيهم قتلًا ولم يبقوا منهم على أحد.

وأحاط الفرسان بعربة الملك، وألقت مشاعلهم ضوءًا على الوادي فظهرت جثث القتلى، وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك وقد سالت الدماء الزكيّة من جباههم وأعناقهم.

وتقدّم رئيس الفرسان من عربة الملك، ولمّا شاهد مولاه واقفًا حمد الربّ وقال وهو يجثو راكعًا:

ـ كيف حال مولانا الملك؟

فترجّل فرعون وهو يسند وزيره وقال:

ـ فرعون بخير بفضل الأرباب وشجاعة هؤلاء الرجال.. ولكن كيف أنت يا خوميني؟

فقال الرجل بصوت ضعيف:

ـ بخير يا مولاي.. إصابتي في ساعدي وليست بذات خطر.. فلنصلّ جميعًا شكرًا لبتاح الذي أنقذ حياة الملك..

ونظر الملك فيما حوله فرأى القائد ددف، فقال له:

ـ أهنا أنت أيّها القائد ددف؟. كأنّك تأبى إلّا أن تدين الأسرة الفرعونيّة جميعًا؟

فانحنى الشابّ في احترام عظيم وقال:

ـ حياتنا جميعًا فداء لمولاي.

فسأل الملك:

ـ ولكن كيف حدث هذا؟.. يبدو لي أنّ ما وقع لم يكن حادثًا تافهًا وليد المصادفات، وأكاد ألمح في الظلام خيانة أُحبطت بإخلاصكم وشجاعتكم.. ولكن دعونا نرى وجوه القتلى أوّلًا. ولنبدأ بهذا الذي سدّد إلينا سهمًا طائشًا..

وسار في اتّجاه العربة وددف وسنفر ورئيس الفرسان يسيرون بين يديه بالمشاعل وخوميني يتبعه في خطوات بطيئة، فعثروا بالجثّة على بعد قريب، وكان صاحبها منبطحًا على وجهه والسهم القاتل في جنبه الأيسر ويئنّ أنينًا أليمًا، فاضطرب الملك لسماع أنينه وسارع إليه وأماله على ظهره وألقى نظرة قلقة، ولمّا تبيّن وجهه صرخ بقوّة:

ـ رعخعوف.. ابني..!

ونسي فرعون جلاله ونظر فيمن حوله كأنّه يستغيث بهم على دفع بلاء لا مردّ له، وأمعن النظر ثانية في وجهه الملقى تحت قدميه، وقال بحزن وفزع:

ـ أأنت الذي حاولت الفتك بي؟

ولٰكنّ الأمير كان يعاني ألم النزع الأخير ويتيه في غيبوبة الاحتضار، فلم ينتبه إلى العيون المرتاعة المحدّقة به، وجعل يئنّ أنينًا موجعًا وصدره يعلو وينخفض بشدّة، فتملّك ددف الرعب والألم وكأنّ تلك الفاجعة تبغته بغير نذير، وساد الجميع وجوم ثقيل نسي فيه خوميني آلام ذراعه وجعل يختلس نظرات الإشفاق من وجه الملك وهو يدعو الربّ أن يكفيه شرّ تلك الساعة: وكان فرعون ينحني على ابنه المحتضر وينظر إليه بعينين جامدتين جعلهما الحزن كبحيرتين راكدتين.. وكانت نفسه جيّاشة مضطربة تعترك فيها العواطف المتناقضة والأفكار المتنافرة، وهو بين هذه وتلك مستسلم للجمود. ولبث يديم النظر إلى وجه ابنه المعذّب الذي ذهب عنه الجلال وسكنت حركة جسمه إلى الأبد.

وظلّ الملك ملازمًا لجموده الغريب زمنًا ليس بالقصير، ثمّ استعاد جلاله وثباته، فاعتدلت قامته، والتفت إلى ددف وسأله بصوت غريب:

ـ أخبرني أيّها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه المأساة.

وأخبر ددف مولاه بصوت متهدّج حزين بما قصّه عليه الضابط سنفر، وصارحه بالشكوك التي وسوست في صدريهما وما دبّرا من حيلة لإنقاذ مولاهما..

يا للآلهة!

كان يروح ويجيئ مطمئنًّا ففاجأه الغدر من حيث لم يحتسب، من ولده الأعزّ ووليّ عهده، وأنقذته الآلهة من الشرّ العظيم، ولكن اقتضت مشيئتها لذلك ثمنًا غاليًا هو الروح التي صعدت الآن ملوّثة بأشنع إثم

حمل وزره إنسان.. فنجا من الهلاك ولكنّه لم يهنأ بالفرح، وقتل وليّ عهده ولم يدر كيف يحزن.. وطالعته الدنيا بأنكد وجوهها وهو في نهاية الطريق..!

-٣٥-

وعاد الملك وصحبه إلى القصر الفرعونيّ، وكان الصباح قد زان الكون بشمس مشرقة، وأحسّ العاهل الكبير بتعب وخور فآوى إلى مخدعه سريعًا واستلقى على فراشه، وانتشر الخبر الأسيف في رحاب القصر فخفقت له القلوب خفقان الأسى والحزن والهلع، وزلزل له فؤاد الملكة ميرتيتفس واضطرمت فيه نار موقدة لا تقوى مياه النيل بأسرها على إطفاء جذوة منها، ولحقت المرأة بزوجها العظيم تستغيث بقربه من ويل هذا الشرّ وتطلب في محضره العزاء والطمأنينة. فوجدته نائمًا أو كالنائم، فلمست بأناملها الباردة جبينه ووجدته ساخنًا كأنّه كتلة من النار يتصاعد منها حمم، فهمست بصوت خافت:

- مولاي!

وانتبه الملك إلى صوتها وفتح عينيه بحالة هياج مستعر، وجلس في فراشه بعنف غريب. ونظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، وقال بصوت جنونيّ لم تعهد سماعه من قبل:

- أتبكين أيّتها الملكة القاتلَ الأثيمَ؟

فقالت بذلّة ودموعها ذوارف:

- إنّي أبكي حظّي التعس يا مولاي.

فصاح بها بغضب جنونيّ:

- لقد ولدت لي مجرمًا أيّتها المرأة.

- مولاي.

- واقتضت الحكمة الإلهيّة أن توردَه حتفه لأنّ العرش لم يخلق ليجلس عليه المجرمون!

فصاحت المرأة مولولة:

- الرحمة يا مولاي! رحمة بقلبي وقلبك! لا تحدّثني بهذه اللهجة التي ترعبني. إنّي بحاجة إلى العزاء، فهلّا تناسيت تلك الذكرى الأليمة، كان ابننا وما أحقّه بالرثاء الآن!

فهزّ رأسه هزّات عنيفة جنونيّة وقال:

- أراك تترحّمين عليه!

- يحقّ لنا أن نبكيه يا مولاي. ألم يخسر الدنيا والأبديّة؟

فأمسك الملك رأسه وقال بذهول:

- ربّاه.. ما هٰذا الجنون الذي يدور في رأسي؟. ما هٰذه الضربات التي تتوالى على رأس فرعون؟. كيف لهٰذا الرأس بحمل تاج المصريّين بعد الآن وهو ينوء بالشعيرات البيضاء التي أبقاها الدهر له. أيّتها الملكة، إنّ فرعون يعاني عهدًا جديدًا بالحياة ولن ينفعك توجّعك، فإليّ بأبنائي وبناتي.. إليّ بأصدقائي جميعًا.. نادي خوميني وميرابو وأربو وددف. هيا..

وغادرت الملكة التعسة مخدع فرعون وأرسلت في طلب الأمراء والأميرات والأصدقاء، ودعت من نفسها طبيب الملك الخاصّ كاري.

ولبّى الجميع النداء وحضروا سراعًا واجمين، ينوءون بصمت مرهق كأنّهم يقصدون إلى مأتم رهيب، ودخلوا مخدع الملك فلم يلبث فراشه أن صار بين صفّين من آل بيته وأصدقائه المقرّبين، وكان الملك ما يزال مهتاجًا عنيفًا زائغ البصر فنظر إلى طبيبه كاري وقال بعنف:

- لماذا أتيت أيّها الطبيب ولَمْ أَدْعُكَ؟ لقد لازمتني أربعين عامًا طوالًا لم أشكُ إليك في أثنائها مرّة، وأحرّ بمن يستغني عن الطبيب في حياته أن يستغني عنه في مماته.

فاضطربت النفوس لذكرى الموت، وهالها ما ترى من هياج الملك واختلاط أعصابه. أمّا الطبيب كاري فقد ابتسم برقّة وقال:

- مولاي يحتاج لجرعة..

وقاطعه الملك صائحًا:

- دع مولاك واغرب عن وجهي.

فبانَ الحزن على وجه الطبيب وقال بصوت خافت:

- مولاي، قد لا يمتثل الطبيب لأمر مولاه أحيانًا.

فاشتدّ الغضب بالملك وقلّب عينيه الزائغتين في وجوه الواقفين الواجمين، وصاح بهم:

ـ ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟. ألا تحرّكون ساكنًا؟. يا للعجب!. هل لوّثت الخيانة القلوب جميعًا؟! هل هان فرعون على جميع أبنائه وأصدقائه؟. أيّها الوزير خوميني قل ما جزاء من يعصي فرعون؟

فتقدّم خوميني في إعياء ظاهر من الطبيب وهمس في أذنه فانحنى الرجل لمولاه وتقهقر إلى الوراء حتّى غادر المخدع، ودنا خوميني من فراش مولاه وقال:

ـ هدّئ روعك يا مولاي، فما يريد الرجل إلّا الخير، أيريد مولاي أن أحضر له كأسًا من الماء؟

وخرج الوزير من الحجرة قبل أن يؤذَن له، وأعطاه الطبيب كاري كأسًا ذهبيّة من الماء المذابِ فيه دواء مسكّن، فحمله الوزير إلى مولاه. وتقبّله الملك من يد وزيره وشربه حتّى الثمالة، وجاء أثره سريعًا فهدأت حركات الملك العنيفة وعاودت عينيه نظراتها المألوفة، وردّ إلى وجهه المحتقن لونه الطبيعيّ، ولكن بدا عليه هزال وخَوَر بالغان.

وتنهّد الملك تنهّدًا عميقًا وقال:

ـ ويل للإنسان من الشيخوخة والضعف!. . إنّهما يهزءان بأشدّ الجبابرة!

ونظر إلى الجمع الملتفّ بفراشه وقال:

ـ أيّها السادة. . لقد كنت حاكمًا جبّارًا، أشهر في يمناي الفاصل بين الحياة والموت، وأنطق بالقوانين والشرائع، وألهم الطاعة والعبادة. ولم أغفل في حياتي لحظة عن توخّي الخير والإصلاح، وأردت ألّا ينتهي انتفاع العباد بي بانتهاء حياتي على الأرض فكتبت رسالة مطوّلة في الطبّ والحكمة سيدوم الانتفاع بها ما دامت الأمراض لا ترحم الإنسان وما دام الإنسان لا يرحم نفسه. . وامتدّ بي العمر كما ترون. وأرادت الآلهة أن تبتليني ببلاء شديد لحكمة أجهلها، واختارت ابني آلة لها وجرّدت جيوش الشرّ في قلبه فانقلب عدوًّا لي وتربّص بي في الظلام يريد اغتيالي، ولكن كتبت لي النجاة ودفع الابن التعس حياته ثمنًا لبضع ساعات يمتدّها عمري. .

فقال الجميع برجاء:

ـ أطال الله بقاء الملك.

فرفع الملك يده فساد سكوت وعاد يقول:

ـ أيّها السادة لقد تمّت النهاية، وقد دعوتكم لتسمعوا كلمتي الأخيرة، فهل أنتم مستعدّون؟

فأشرق خوميني بالدمع وقال:

ـ مولاي. . لا تذكر الموت. . ستنكشف هٰذه الغمّة وتعيش طويلًا لمصر ولنا.

فابتسم فرعون وقال:

ـ لا تحزن أيّها الصديق خوميني، فلو كان الموت شرًّا يُدفع لخَلَدَ مينا على عرش مصر، ولذلك فخوفو لا يحزن للموت ولا يخشاه، وإنّ الموت لأهون من شرور كثيرة تشوّه وجه الحياة. لكن أريد أن أطمئنّ على تركتي العظيمة. .

ثمّ التفت إلى أبنائه ينظر إليهم واحدًا فواحدًا كأنّه حاول أن يقرأ ما يُظهرون وما يُبطنون، ثمّ قال:

ـ أراكم تكاتمون قلقًا خفيًّا ولهفة مستترة، ويرمق الواحد منكم أخاه بعين الريبة والحنق. كيف لا وقد مات وليّ العهد، واحتضر الملك وكلّكم طامع في العرش راغب فيه، وما أنكر أنّكم فتية نبلاء وعلى خلق عظيم ولٰكن أريد أن أطمئنّ على تركتي وعلى إخوتكم. .

فقال الأمير رعباوف وكان أكبر الأمراء سنًّا:

ـ أبتي ومولاي، مهما فرّقت قلوبنا الأهواء فهي تأتلف على طاعتك، وإنّ مشيئتك لدينا لهي الشريعة المقدّسة التي تلزمنا طاعتها بغير قَسَم.

فابتسم الملك ابتسامة حزينة، وسها إليهم بعينيه اللتين جرى بمحجريها الذبول وقال:

ـ أحسنت القول يا رعباوف، والحقّ أقول لكم إنّي في هٰذه الساعة الرهيبة أجد من نفسي قوّة عظيمة على السموّ على العواطف البشريّة، وأحسّ بأبوّتي للعباد تغلب على أبوّتي للأبناء، فأعينوني على قول الحقّ وفعله.

وعاد إلى تفرّس وجوههم ثمّ استطرد:

ـ يظهر لي أنّ كلامي لايقع منكم موقع

الإعجاب، والحقّ أنّي لا أجحد أبوّتي لكم ولٰكنّي أجد بين يديّ مَن هو أحقّ بالعرش منكم ومَن تَوَلّيه للمُلْك حَرِيّ بأن يصون لكم أخوّتكم طاهرة. هو شابّ علت به همّته إلى القيادة قبل الأوان، وحقّقت له شجاعته نصرًا عزيزًا للوطن، وأنقذت بطولته حياة الملك من الخيانة، وإيّاكم أن تقولوا كيف يتولّى العرش مَن ليس يجري في عروقه دم الفراعين، فهو زوج الأميرة مري سي عنخ التي يجري في عروقها دم الملك والملكة معًا.

فبدت الدهشة على وجه ددف وتبادل ومري سي عنخ نظرات الذهول، وبوغت الأمراء ورجال الدولة مباغتة ألجمت ألسنتهم وحيّرت أعينهم. واتّجهوا جميعًا بأنظارهم إلى ددف.

وكان الأمير رعباوف أوّل من خاطر بتمزيق هذا السكون فقال:

ـ مولاي إنّ إنقاذ حياة الملك واجب على كلّ إنسان، وليس هو بالعمل الذي يتردّد عنه مخلوق، فكيف يكون جزاؤه العرش؟

فقال الملك بلهجة صارمة:

ـ أراك تقدح شرر العصيان بعد أن تغنّيت بأناشيد الطاعة منذ حين، أيّها الأبناء إنّكم أمراء المملكة وسادتها، وسيكون لكم الجاه والنفوذ والثراء، وسيكون العرش لددف. هذه وصيّة فرعون يلقيها على أبنائه بحقّ ما له عليهم من واجب الطاعة، فليستمع إليها الوزير ليتعهّدها بسلطانه وكلمته، وليستمع إليها القائد ليسهر على تنفيذها بقوّة جيشه، هذه وصيّة خوفو الأخيرة يتركها بين يدي مَن أحبّهم وأحبوه وعاشرهم بالحسنى فعاشروه بالمحبّة والاخلاص.

وساد صمت رهيب لم يجرؤ أحد على تعكيره، وخلا كلّ إلى أفكاره، حتّى دخل رئيس الحجّاب وسجد للملك ثمّ قال:

ـ مولاي، إنّ مفتّش الأهرام بشارو يضرع إلى جلالتكم أن تسمحوا له بالمثول بين يديكم، فقال الملك:

ـ دعه يدخل فهو منذ الساعة من آل بيتي.

ودخل بشارو بقامته القصيرة وجسمه المتهدّل وسجد بين يدي فرعون، وأمره الملك بالقيام وأذن له بالكلام.

فقال الرجل بصوت خافت:

ـ مولاي، أردت المثول بين يدي جلالتكم ليلة أمس لأمر هامّ، ولٰكن أتى مجيئي بعد ذهاب مولاي إلى الهرم، فاضطررت إلى الانتظار على جزع حتّى الصباح.

فسأل فرعون:

ـ وماذا وراءك يا أبا ددف الباسل؟

فقال الرجل بصوت أشدّ خفوتًا وهو ينظر إلى الأرض:

ـ مولاي لست أبًا لددف ولا ددف ابنًا لي.

فعجب فرعون لإنكار بشارو، وقال بتهكّم:

ـ بالأمس أنكر ابن أباه واليوم ينكر أب ابنه!

فقال بشارو بتألّم وحزن:

ـ مولاي! تعلم الآلهة جميعًا أنّي أحبّ هذا الشابّ محبّة الأب لابنه، وما كنت أقول هٰذه الكلمة لولا أنّ إخلاصي للعرش أكبر في نفسي من شتّى العواطف الإنسانيّة.

فزاد عجب الملك وبدا الاهتمام على وجوه الحاضرين جميعًا، وخاصّة الأمراء الذين تمنّوا للشابّ شرًّا ينقذهم من قضاء الملك، وردّد الجميع أنظاره بين المفتّش بشارو وبين ددف الذي امتقع لونه وجمد بصره.

وسأل الملك مفتّش أهرامه:

ـ ماذا تعني أيّها المفتّش؟

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجرة:

ـ مولاي.. إنّ ددف هٰذا ابن كاهن رع السابق «من رع».

فنظر إليه فرعون نظرة غريبة تلوح فيها الأحلام. وازداد اهتمام الجمع المنصت، وقلقت أعين خوميني وميرابو وأربو، أمّا فرعون فتمتم بذهول وروحه تسبح في ظلمات الماضي البعيد وهو يحدّث نفسه:

ـ رع!.. من رع كاهن رع..!

وكان المعمار ميرابو أشدّ ذكرًا لذاك اليوم الهائل الذي حفرت حوادثه في وجدانه، فقال بغرابة:

- ابن من رع؟!. هذا بعيد عن التصديق يامولاي، لقد مات من رع وقتل طفله في ساعة واحدة.

وأتت الذكرى فرعون في هالة من النيران، فارتجف قلبه الضعيف المتهالك وقال:

- نعم، لقد ذبح ابن من رع على فراش ولادته، فما هذا الذي تقوله أيّها الرجل؟

فقال بشارو:

- مولاي، لا علم لي بالطفل الذي ذبح، كلّ ما أعلمه تاريخ قديم.. أتاني خبره مصادفة أو عن حكمة يعلمها الربّ، فكان ابتلاء لقلبي الذي يتعلّق بهذا الشابّ أيّما تعلّق، ولكنّ إخلاصي للعرش يهيب بي إلى روايته..

ثمّ قصّ بشارو على مولاه - وعيناه تذرفان الدمع الغزير - قصّته مع زايا وطفلها الرضيع من مبتداها إلى الساعة الرهيبة التي وقف يسترق فيها السمع إلى قصّة رده ديديت الغريبة.. ولّما انتهى الرجل الحزين أحنى رأسه على صدره ولازم الصمت.

واستولت الدهشة على الحاضرين، ولمعت أعين الأمراء ببريق أمل خاطف، أمّا الأميرة مري سي عنخ فقد اتّسعت عيناها هلعًا ورعبًا واصطرع في قلبها الخوف والأمل والألم.. وركّزت بصرها على وجه أبيها.. أو على فمه كأنّها تريد أن تمنع بروحها كلمة قد يكون فيها القضاء على سعادتها وآمالها..

والتفت الملك بوجهه الشاحب إلى ددف وسأله:

- أصحيح ما يقول هٰذا الرجل أيّها القائد؟

فقال ددف بشجاعته المعهودة:

- مولاي! إنّ ما قاله السيّد بشارو حقّ لا ريب فيه.

فنظر فرعون إلى خوميني ثمّ إلى أربو ثمّ إلى ميرابو يستغيث بهم من هول هٰذه العجائب، ثمّ قال:

- ما أعجب هٰذا!

وألقى الأمير رعباوف على ددف نظرة ناريّة وقال بتشفٍّ:

- الآن حصحص الحقّ!

ولٰكنّ فرعون لم ينتبه إلى قول ابنه واستطرد يقول بصوت حالم خافت:

- حدث منذ نيّف وعشرين عامًا أن أعلنت عليّ الأقدار حربًا شعواء تحدّيت بها إرادة الآلهة، فجرّدت جيشًا صغيرًا سرت على رأسه بنفسي لقتال طفل رضيع، وكان كلّ شيء يبدو لي كأنّه يسير وفق مشيئتي فلم يزعجني داعٍ من دواعي الشكّ قطّ، وظننت أنّي نفّذت إرادتي وأعليت كلمتي، وإذا بالحقيقة اليوم تهزأ بطمأنينتي، وإذا بالربّ يصفع كبريائي، وها أنتم أولاء ترون كيف أنّي أجزي طفل رع على قتله وليّ عهدي باختياره خلفًا لي على عرش مصر. فما أعجب هٰذا أيّها الناس!

وأحنى فرعون رأسه حتّى استند ذقنه على أعلى صدره وراح في تأمّل عميق. وعلم الجميع أنّ الملك يبرم قضاء لن يردّ فساد صمت رهيب، وانتظر الأمراء على جزع، والخوف والأمل يصطرعان في قلوبهم اصطراعًا عنيفًا، ورنت الأميرة مري سي عنخ إلى والدها بعينين محملقتين أطلّ منها ملاك حسن يتضرّع ويتوسّل، وتردّدت الأعين اللامعة ببريق الاهتمام بين رأس الملك المنكّس وبين الشابّ الباسل الذي وقف في ثبات عظيم مستسلمًا للأقدار. ونفد صبر الأمير رعباوف فقال لوالده بقلق:

- مولاي، إنّك تستطيع بكلمة واحدة أن تحقّق قضاءك وتنصر إرادتك!

فرفع فرعون رأسه كمن يستيقظ من نوم ثقيل ونظر إلى ابنه طويلًا، وأدار عينيه في وجوه الحاضرين ثمّ قال بهدوء:

- أيّها السادة، إنّ فرعون تربة صالحة كأرض مملكته يزدهر فيها العلم النافع، ولولا جهل الفتوّة وعماية الشباب ما قتلت نفوسًا بريئة بغير ذنب.

وساد الصمت مرّة أخرى، ومنيت نفوس بالخيبة المريرة وطعنت بخنجر اليأس المسموم. أمّا الأميرة

الجميلة مري سي عنخ فتنهّدت، تنهّدت من أعماق صدرها بصوت مسموع وصل إلى أذن الملك فعرف مصدره، ونظر إليها بعطف وحنان، وأشار لها بيده فهرعت إليه كحمامة تتعلّم الطيران، وانكبّت على يده.

ونظر الملك إلى وزيره خوميني وقال:

- إليّ أيّها الوزير بأوراق البرديّ لأختم حكمتي بأبلغ عظة تعلّمتها في حياتي. أسرع فما بقي من العمر إلّا لحظات..

وأحضر الوزير ملفّات البرديّ فوضعها فرعون على حجره، وأمسك بالقلم ومضى يكتب حكمته الأخيرة، وكانت مري سي عنخ جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة، وكتمت الأنفاس، فما كان يسمع إلّا صرير القلم.

وانتهى فرعون فرمى القلم في إعياء شديد، وقال وهو يسلم رأسه إلى الوسادة:

- تمّت رسالة خوفو إلى شعبه الحبيب.

ومضى فرعون يتنهّد تنهّدًا عميقًا ثقيلًا، ولكنّه قبل أن يستسلم إلى الراحة نظر إلى ددف وأشار إليه، فاقترب الشابّ من فراش الملك ووقف كالتمثال، فأخذ فرعون يده ووضعها على يد مري سي عنخ ووضع يده النحيلة على يديهما ونظر إلى القوم وقال:

- أيّها الأمراء والوزراء والأصدقاء، حيّوا جميعًا مَلِكَيِ الغد.

فلم يتردّد إنسان، واتّجهوا جميعًا بأنظارهم إلى مري سي عنخ وددف وأحنوا الهامات.

ونظر فرعون إلى سماء الحجرة وسما إليها لا يحرّك ساكنًا. فقلقت الملكة ومالت عليه قليلًا فرأت وجهه وقد اكتسى بنور سماويّ كأنّما يرى بعين بصيرته وجه أوزوريس العظيم يرنو إليه من العلا.

رَادُوبيس

عيد النيل

لاحت في الأفق الشرقيّ تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس، المنطوي في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة. وكان الكاهن الأكبر لمعبد الربّ سوتيس يتطلّع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين، أضناهما التعب طوال الليل.

وإنّه لفي تطلّعه إذ عثر بصره بالشعرى اليمانيّة، يتألّق نورها في كبد السماء، فتهلّل وجهه بالبِشْر، وخفق قلبه بالفرح، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرًا وزلفى، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الربّ سوتيس في أفق السماء، تحمل إلى الوادي بشرى فيضان النيل المعبود، وتسير بين يدي رحمته. وأيقظ صوته الجميل النيّام. فهبّوا من نومهم فرحين، وقلّبوا وجوههم في السماء، حتّى قرّت أعينهم على النجم المعبود، فردّدوا ترتيلة الكاهن، وأفعمت قلوبهم غبطةً وامتنانًا، ثمّ تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل، يشهدون أوّل موجة حاملة للخير والبركة. وردّد جوّ مصر الهادئ صوت كاهن الربّ سوتيس، وأذاع البشرى السعيدة في الآفاق، فعلم الناس أن قد آن أوان الهجرة إلى الجنوب، للاحتفال بعيد النيل المقدّس. فحزموا أمتعتهم، ونشطوا خفافًا وثقالًا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو، يولّون وجوههم شطر آبو العاصمة، فنهبت العجلات الوادي، ومخرت السفن عباب الماء..

كانت آبو عاصمة مصر، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من الصوّان، تؤلّف بينها الكثبان الرمليّة، وقد غشّاها النيل بطبقات من طميه الساحر، بثّت فيها الخصب والخير العميم، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم، وكست سطحها البقول والخضروات والبرسيم. ونشرت فيه الكروم والمراعي، والجنان تجري من تحتها الأنهار، وترعاها القطعان، يطير في سمائها الحمام والطير، ويتضوّع نسيمها بشذا العطر والأزهار، وتتجاوب في جوّها أغاريد البلابل والأطيار.

فما هي إلّا أيّام معدودات، حتّى ضاقت آبو وجزيرتاها: بيجة وبيلاق، بالنازحين، فامتلأت البيوت بالنازلين، وازدحمت الميادين بالخيام، وغصّت الطرق بالغادين والرائحين، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنّين والراقصين، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدي سوتيس والنيل، يوفون بالنذر، ويقدّمون القرابين، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين.. وشاع في جوّ آبو الرزين فرح راقص، وطرب حارّ بهيج..

وجاء يوم العيد الموعود، وقصدت هاتيك الخلائق جميعًا إلى هدف واحد، هو الطريق الطويل الممتدّ ما بين القصر الفرعونيّ والهضبة القائم عليها معبد النيل، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارّة، وناءت الأرض بحملهم، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض، فهبطوا إلى السفن، وأطلقوا الشرع، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار، ويرقصون على توقيع الدفوف..

ووقف الجنود صفّين على جانبي الطريق العظيم شاهري الرماح، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعيّ لملوك الأسرة السادسة، آباء فرعون وأجداده، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين، أسر

كـري، وتيتي الأوّل، وبيبي الأوّل، ومحتـمسـاوف الأوّل، وبيبي الثاني..

وكان الجوّ يضجّ بأصوات القوم المختلفة، فيضيع تمييزها كما تضيع الأمواج في المحيط المصطخب، ولا يبقى منها إلّا دويّ هائل شامـل. ولكن كانت تعلو أحيـانًا أصـوات جهـيرة، تخترق الضـوضـاء، وتبلغ الآذان، يهتف بعضها قائـلًا: «مجّدوا الـربّ سوتيس الذي بشّرنا بـالخير». ويصيـح صوت آخـر: «مجّـدوا النيـل الربّ المقـدّس الذي يجلب إلى أرضنـا الحيـاة والخصب». وبين هذا وذاك، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط، وأنبذة آبو، داعية إلى السرور والنسيان..

وكان جماعة من المشاهـدين يتجاورون ويخلصـون نجيًّا، تبدو عـلى وجوههم آي النيـل والنعيم، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأمّلًا متعجّبًا.

ـ كم من فرعون اطّلع على هذه الجموع الحاشدة، وشاهد هذا اليوم العظيم!.. ثمّ ذهبوا جميعًا كأنّهم لم يكونوا ملء الصدور، ملء الأبصار والأفئدة!.

فقال آخر:

ـ نعم ذهبوا ليحكموا عالمًا أجلّ من هذا العالم، كما سنذهب جميعًا.. انظر إلى هٰذا المكان الذي أشغل.. كم من البشر سوف يشغله في الأجيال المقبلة، ويجدّد الآمال والأفراح التي تخفق في صدورنا الآن.. تـرى هل يذكروننا كما نذكرهم؟

ـ إنّنا أكثر من أن يذكرنا مذكر.. ألا ليت الموت لم يكن..

ـ وهل كان يمكن أن يسع الوادي تلك الأجيال التي ذهبت؟. إنّ الموت طبيعيّ كالحياة.. وما قيمة الخلود ما دمنا نشبع بعد الجوع، ونشيخ بعد الشباب، ونسأم بعد المسرّة؟..

ـ فكيف يعيشون في عالم أوزوريس؟..

ـ انتظر ستعلم ذٰلك بعد حين..

وقال آخر باهتمام:

ـ هذه أوّل مرّة يسعدني الربّ برؤية فرعون.

فقال له صاحبه:

ـ أمّا أنا فقد رأيته يوم التتويج العظيم منذ أشهر في نفس المكان.

ـ انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد.

ـ سترى أنّه قريب الشبه بجدّه محتمساوف الأوّل..

ـ ما أجمل هٰذا!

ـ أجل.. أجل.. إنّ فرعون شابّ جميل، لا نظير له في طوله الفارع، وحسنه الجاهر..

وتساءل أحد المتحدّثين قائلًا:

ـ ترى ماذا يخلّف حكمه؟.. أمسلّات ومعابد، أم ذكريات غزو في الشمال والجنوب؟

ـ إن صدق حدسي فهي الثانية..

ـ ولمه؟

ـ إنّه شابّ عظيم البأس.

فهزّ الآخر رأسه بحذر وقال:

ـ يقال إنّ شبابه من نوع جامح، وإنّ جلالته ذو أهواء عنيفة، يغرم بالحبّ، ويهوى الإسراف والبذخ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة..

فضحك المستمع ضحكة خافتة، وهمس قائلًا:

ـ وهـل في ذاك ما يـدعو إلى العجب؟. مـا أكثر المصريّين الـذين يغرمـون بـالحبّ ويهـوون الإسراف والبذخ.. فما بالك بفرعون.

ـ صه.. صه..، أنت لا تدري من الأمر شيئًا، ألم تعلم بـأنّه اصـطدم برجـال الكهنوت منـذ اليـوم الأوّل لتـوليته العـرش؟. إنّه يـريـد المـال لينفقـه في تشييد القصور، وغرس البساتـين، والكهنة يـطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملًا. لقد منحهم آباء الملك نفـوذًا وثـراءً، والملك الشـابّ ينـظر إلى هـذا بعـين الطمع.

ـ حقًّا إنّه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام.

ـ أجل.. ولا تنس أنّ خنوم حتب، رئيس الوزراء والكـاهن الأكبر، رجـل حـديـديّ الإرادة، شـديـد المراس. وهناك أيضًا كاهن منف، تلك المدينة المجيدة التي لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة.

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التي تصكّ أذنيه لأوّل مرّة، وقال:

ـ إذًا فلندعُ الأرباب جميعًا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأي السديد.

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق:

ـ آمين.. آمين.

ولاحت من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل، فلكز صاحبه بمرفقه قائلًا:

ـ انظر أيّها الصديق إلى النهر.. لمن يا ترى هٰذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة، كأنّها الشمس صاعدة من الأفق الشرقيّ؟..

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر، فرأى سفينة عجيبة، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة، خضراء اللون كأنّها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء، تبدو مقصورتها على البعد متعالية، وإن قصّرت العين عن رؤية ما بداخلها، ولاح في أعلى صاريها شراع متموّج عظيم، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدي.. فاستولت الحيرة على الرجل، وقال:

ـ عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب، فحدجهما بنظرة إنكار، وقال لهما:

ـ أراهن أيّها السيّدان أنّكما ضيفان.

فضحك الرجلان معًا. وقال ثانيهما:

ـ صدقت يا سيّدي المحترم، فنحن من طيبة، واثنان من الآلاف التي ناداها العيد المجيد فلبّت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان.. هل تكون هٰذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين؟.

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذّرًا:

ـ طبتما نفسًا أيّها السيّدان الكريمان، ليست هٰذه السفينة لرجل من رجالنا، ولٰكنّها امرأة.. أجل هي سفينة غانية حسناء يعرفها حقّ المعرفة جميع أهل آبو، وجزيرتيها بيجة وبيلاق..

ـ ومن عسى أن تكون هٰذه الحسناء؟..

ـ رادوبيس.. رادوبيس الفاتنة، ملكة النفوس والأهواء جميعًا.

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة، واستدرك:

ـ وهي تقيم هناك في قصرها الأبيض الساحر.. هدف العشّاق والمعجبين، حيث يستبقون إلى نيل عطفها، واستدرار رحمتها.. وعسى أن يسعفكم الحظّ برؤيتها، صانت الأرباب قلبيكما عن التلف..

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرّة أخرى، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد. وكانت السفينة تدنو من الشاطئ، رويدًا رويدًا، والزوارق توسع لها طريقها على عجل، وكلّما عبرت ذراعًا اختفت شيئًا فشيئًا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل، ومضى يغيب عن الأبصار مقدّمها، ثمّ مقصورتها، فلمّا أن اطمأنّت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمّة شراعها المتموّج، كأنّه علم الحبّ يظلّ القلوب والنفوس..

ومضت فترة وجيزة، ثمّ رُئي أربعة من النوبيّين قادمين من الشاطئ يوسعون في البحر المتلاطم طريقًا، يسير في أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجًا جميلًا فاخرًا، لا يحوزه إلّا الأمراء والنبلاء، جلست فيه غادة حسناء، تستند في طراءة إلى وسادة، وتتكئ على نُمْرُقه، بساعد بضّ، وتمسك في يمناها بمروحة من ريش النعام، تلوح في عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حالمة، تصوّبها إلى الأفق البعيد في كبرياء سامية، تقتحم الخلق أجمعين.

وكان الركب الصغير يسير على مهل، ترمقه العيون من كلّ صوب، حتّى بلغ الصفّ الأوّل من المشاهدين، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلًا بجيد كالغزال، ونثرت من فمها الورديّ كلمات تاقت نفوس إلى سماعها: فتوقّف العبيد عن السير، ولزموا أماكنهم كأنّهم تماثيل من البرنز، وارتدّت المرأة إلى جلستها الأولى، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام، ولبثت تنتظر الموكب الفرعونيّ الذي لا شكّ جاءت لمشاهدته.

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى. فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها الأسود الحالك السواد،

ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع، ويهبط على كتفيها في هالة من الليل كأنّه تاج إلهيّ، ينبلج في وسطه وجه مشرق مستدير، عانقت فيه أشعّة خدّين كالورد اليانع، وفمًا رقيقًا مفترًّا كأنّه زهرة من الياسمين في الشمس في خاتم من القرنفل، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحبّ معرفة المخلوق لخالقه، فما رئي وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنًا ومستقرًّا.

وقد فتن الناس منظرها كافّة، وحرّك قلوب الشيوخ الفانية، فصوّبت إليها من جميع الجهات نظرات ناريّة، لو عثرت في طريقها بصوّان لأذابته. ورمقتها أعين النساء شزرًا ومقتًا، وسرى الهمس بين المحيطين بها، وانتقل الحوار من فم إلى فم.

ـ يا لها من امرأة فاتنة..

ـ رادوبيس.. يسمّونها ربّة الجزيرة!.

ـ هٰذا جمال قهّار، لا يمكن أن يعصاه قلب.

ـ هو اليأس لمن يرى.

ـ صدقت، فما وقعت عليها عيناي حتّى قامت في نفسي ثورة جامحة، ونؤتُ بأعباء ظلم فادح، وأحسست بتمرُّد شيطانيّ، وصدّت نفسي عمّا بين يديّ، وغلبني على أمري الخذلان والخزي الأبديّ.

ـ هٰذا أمر محزن.. لكأنّي بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة.

ـ هي شرّ وبيل!.

ـ نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر.

ـ ألا رحمة للعاشقين..

ـ ألا تعلم أنّ عشّاقها هم صفوة رجال المملكة؟.

ـ حقًّا؟..

ـ إنّ حبّها فُرض على عِلْيَة القوم، كأنّه واجب وطنيّ.

ـ لقد شيّد المعمار النابغة هني قصرها الأبيض.

ـ وأثّثه بآيات منف وطيبة آني حاكم جزيرة بيجة.

ـ مرحى.. مرحى..

ـ وصنع تماثيله، ونحت جدرانه، المثال النابغة هنفر.

ـ نعم، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو، رئيس الحرس الفرعونيّ.

ـ إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون في حبّها فمن السعيد الذي تستخلصه لنفسها؟.

ـ سل عن السعيد في هٰذه المدينة الشقيّة..

ـ لا أظنّ أنّ هٰذه المرأة تعشق أبدًا.

ـ من أدراك؟.. عسى أن تعشق عبدًا أو حيوانًا.

ـ كلّا.. إنّ جمالها هو القوّة الجبّارة.. وما حاجة القوّة إلى الحبّ؟.

ـ انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية.. إنّها لم تذق الحبّ بعد.

وكانت امرأة تصغي إلى هذا الحديث، فضاق صدرها. وقالت بجفاء:

ـ ما هي إلّا راقصة.. تربّت في بؤر الفساد والمجون، ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية، وأجادت فنّ المساحيق، فتبدّت في هذا المظهر الخلّاب الكاذب.

فكبر هٰذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال:

ـ معاذ الربّ يا سيّدتي، ألم تعلمي بعد أنّ جمالها الرائع ليس كلّ ما وهبتها الآلهة من ثراء؟.. وأنّ توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان؟.

ـ بخ.. بخ.. من أين لها بالحكمة والعرفان، وهي تنفق عمرها في إغواء الرجال؟.

ـ قصرها يستقبل كلّ مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنّانين، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهمًا للحكمة، وأدراهم بالسياسة وأذوقهم للفنّ.

وسأل سائل:

ـ كم عمرها؟..

ـ يقولون إنّها بنت ثلاثين.

ـ لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين.

ـ ليكن عمرها ما تشاء، فهذا الحسن يانع قاهر، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدًا..

وعاد السائل يسأل باهتمام:

ـ ما منشؤها، وما أصلها؟.

ـ علم هٰذا عند الأرباب.. وكأنّي بها وُجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض بجزيرة بيجة!.

* * *

وشقّت الصفوف المتراصّة بغتة امرأة غريبة، كانت منحنية الظهر كالقوس، تتوكّأ على عصا غليظة، منفوشة الشعر بيضاءه، طويلة الأنياب صفراءها، مقوّسة الأنف، حادّة البصر، يشعّ من عينيها نور مخيف يرسَل من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، وكانت ترتدي جلبابًا واسعًا طويلًا، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتّان.. وصاح الذين رأوها:

ـ ضام.. الساحرة ضام..

فلم تبالهم، وسارت بقدميها الهزيلتين. كانت تدّعي الاطّلاع على الغيب، وكشف الستار عن المستقبل، وكانت تسخّر قوّتها الخارقة لقاء قطعة من الفضّة، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكّم بها. والتقت الساحرة في طريقها بشابّ حدث، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب، ولم يمانع الشابّ، وكان في الحقيقة ثملًا يترنّح في سيره، لا تكاد تحمله ساقاه، فدفع لها بقطعة من الفضّة، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائمتين، وسألته بصوتها الأجشّ:

ـ كم عمرك ياغلام؟.

فأجابها، وهو لا يعي ما يقول:

ـ اثنتا عشرة كأسًا..

وعلا ضحك الساخرين، فاهتاجت المرأة غضبًا، ورمته بالقطعة التي نفحها بها، واستأنفت مسيرها الذي لا ينتهي. واعترض سبيلها شابّ ساخر وسألها بقحة:

ـ ماذا ينتظرني من الحادثات يا امرأة؟.

فنظرت إليه مليًّا، وهي مغيظة محنقة، ثمّ قالت له:

ـ أبشر.. ستخونك امرأتك للمرّة الثالثة.

وضحك الناس وصفّقوا لها، وانزوى الشابّ خجلًا، وقد رُدّ السهم إلى صدره. وسارت الساحرة حتّى بلغت هودج الغانية، وطمعت في سخائها فتوقّفت بإزائه، وصاحت تحدّث صاحبته وهي تبتسم ابتسامة كريهة:

ـ أيّتها السيّدة المحروسة بالعناية.! هل أقرأ لك الطالع؟.

ولم يبد على الغانية أنّها سمعت صوت الساحرة، فصرخت العجوز:

ـ مولاتي!

وانتبهت إليها رادوبيس فيما يشبه الذعر، ثمّ عطفت عنها رأسها سريعًا وقد لمسها الغضب، وقالت لها العجوز:

ـ صدّقيني ما من إنسان في هذا الجمع الحاشد يحتاج إليّ اليوم حاجتك!.

فتقدّم منها أحد العبيد، وحال بينها وبين الهودج وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين، ولٰكن سُمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء، ووضع على أثره الجند المصطفّون على جانبي الطريق الأبواق في أفواههم، ونفخوا فيها نفخًا طويلًا متّصلًا، فعلم الناس جميعًا أنّ الركب الفرعونيّ بدأ تحرّكه، وأنّه عمّا قليل يغادر فرعون القصر في طريقه إلى معبد النيل، فنسي الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرئبّة، وحواسّ مرهفة.

ومضت دقائق طويلة ثمّ بدأت طلائع الجيش تسير صفوفًا متراصّة على أنغام الموسيقى الحربيّة تتقدّمها حامية بيلاق بعُددها المتنوّعة، تسير وراء علمها المتوّج بصورة الباز، فكانت الجنود تقابَل في كلّ مكان بالهتاف والتصفيق..

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملي الرماح والتروس، تتأثّر موسيقاها، وعلمها المزدان بصورة الربّ حورس، وقد استقامت الرماح في صورة هندسيّة دقيقة، فرسمت في الهواء خطوطًا متوازية طولًا وعرضًا.

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسيّ والسهام. واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن، يتقدّمها علمها الموسوم بصولجان العرش.

ثمّ سمع من بعيد دويّ وصلصلة وصهيل خيل،

ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية دقيقة كأنّما رسمت بالقلم، يجرّ العجلة جوادان مطهّمان، ويقوم على ظهرها فارسان، سائق مزوّد بالسيف والمزراق، ورام مدرّع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد، فذكر المشاهدون لمرآها غزور النوبة وطور سيناء، وخالوا أنّهم يرونها تنتشر في السهول والوديان كالنسور المنقضّة، والعدوّ يتشتّت أمامها، وقد أذهله الرعب، واحاط به الهلاك، فاشتعل الحماس في عروقهم نارًا، وشقّ هتافهم السماوات.

وبدا للناظرين الموكب الفرعونيّ المهيب، تتقدّمه العجلة الفرعونيّة، وتتبعها مباشرة أهلّة من العجلات خماسي خماسي، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقوّاد الجيش وحكّام الأقاليم، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونيّ على رأسه القائد طاهو. .

ووقف فرعون في عجلته منتصب القامة، مهيب الطلعة كأنّه تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة، ويصوّب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعًا، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب.

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج، ويقبض بيد على السوط الملكيّ، وبالأخرى على العصا المعقوفة، وقد ارتدى فوق لباسه الملكيّ كساء من جلد النمر احتفالًا بالعيد الدينيّ.

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة، فتعالى الهتاف، فكاد لشدّته أن يفزع الطير المحلّق في السماء. وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبّت بها حياة فجائيّة، وأضاء وجهها بنور بهيج، وصفّقت يداها الرخصتان. .

وأفلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل: «ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب»، فردّد هتافه عشرات الأصوات، وأحدث هتافه انزعاجًا وأهاج ضجّة شديدة، وتلفّت الناس يبحثون عن الجسور الذي هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشابّ، والجماعة التي ناصرت هذا التحدّي العجيب! . .

ولم يترك الهتاف أثرًا ظاهرًا، ولم يبدُ على أحد من حاشية الملك أدنى تأثّر، وتابع الموكب سيره حتّى بلغ هضبة المعبد، فتوقّفت العجلات جميعًا، وتقدّم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكلّلة بغطاء من نسيج ذهبيّ، فترجّل الملك عليها. ونفخ في الصور، فأدّى الجند التحيّة العسكريّة، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود، وصعد فرعون درجات الهضبة في تؤدة وجلال، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكّام. ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة في استقباله سجّدًا. ولمّا أعلن كبير الحجّاب سوفخاتب وصول الملك، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره، وأخفى عينيه بيديه، وقال في صوت خافت:

ـ يتشرّف خادم الربّ المعبود النيل، بإزجاء تحيّة العبوديّة والإخلاص إلى مولاي سيّد القطرين، ابن رع وربّ المشرقين.

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة، فقبّلها الكاهن في إجلال عميق، وقام الكهنة واصطفّوا صفّين موسّعين لفرعون، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كلّ جانب، وطافوا بالمذبح، وكان الكهنة يحرقون البخور، فينتشر أريجه في جوّ المعبد، وتتنفّسه الرءوس المنعكسة إجلالًا وقنوتًا. وأحضر بعض الحجّاب ثورًا ذبيحًا، ووضعوه على المذبح قربانًا وزلفى، ثمّ تلا فرعون هذه الكلمات التقليديّة:

مثلت في رحابك أيّها الإله المقدّس بعد أن طهّرت نفسي. وقدّمت القربان زلفى إليك، فامنن بالخير على أرض هذا الوادي الطيّب، وأهله الآمنين.

وردّدت الكهنة الدعاء في صوت عال مؤثّر، يفيض بالإيمان والتقوى، رافعين رءوسهم إلى السماء، باسطين أيديهم في الهواء. وردّد الحاضرون جميعًا الدعاء، وسرى الصوت إلى خارج المعبد، فسارع الناس في ترديده، وما هي إلّا هنيهة حتّى لم يبق لسان لم يلهج

بدعاء النيل المقدّس. ثمّ سار الملك وفي معيّته كاهن المعبد، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذي الصحون الثلاثة المتوازية، ووقفوا صفّين بينهما الملك وخادم الربّ، ثمّ رتّلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدّجة، تختلج بخفقات القلوب، فيرنّ صداها في جوّ المكان القاتم المهيب.

وصعد الكاهن الدرجات المؤدّية إلى البهو الخالد، واقترب من باب قدس الأقداس، وأبرز المفتاح المقدّس. وفتح الباب العظيم وانتحى جانبًا، وركع ساجدًا يصلّي. وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدّسة حيث يرقد تمثال النيل في السفينة الإلهيّة، وأغلق الباب، وكان المكان واسعًا: شاهق السقف، شديد الظلمة، قويّ الأثر، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهّاج. ونفذت هيبة المكان إلى قلب الملك الكبير، فوهنت حواسّه، وتقدّم في إجلال إلى الستار المقدّس وأزاحه بيده، وأحنى ظهره الذي لا ينحني أبدًا، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال. وكان ما يزال مهيبًا، ولكن غابت عن وجهه آي مجد الدنيا وكبريائها، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى. . وصلّى فرعون صلاة طويلة، واستغرق في العبادة ناسيًا مجده التالد وعظمته الدنيويّة.

ولمّا بلغ النهاية لثم القدم المقدّسة مرّة أخرى، وقام واقفًا وأسدل الستار الكريم، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الربّ، حتّى تنفّس هواء البهو الخارجيّ ثمّ أغلق الباب.

وحيّا القوم فرعون بالدعاء، وساروا وراءه إلى بهو المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وعرّجوا جميعًا إلى حافة الهضبة المطلّة على النيل. ورآهم الأهلون المتجمّعون فوق أسطح السفن، فتعالت أصواتهم بالهتاف، ولوّحوا بالأعلام والغصون.

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليديّة، فنشر بين يديه ورقة طويلة من أوراق البرديّ، وتلا بصوت قويّ النبرات:

«السلام عليك أيها النيل، يا من يعمّ فيضه الوادي مبشّرًا بالحياة والسعادة. إنّك لتسكن الغياهب أشهرًا، فإذا أصخت إلى توسّلات عبادك، ولان قلبك الكبير رحمة بهم، خرجت من الظلمات إلى النور، وانسبت في بطن الوادي زاخرًا، فتبعث في الأرض الحياة، وسرعان ما تهتزّ النباتات طربًا، وتفضّ الصحراء تحت بساط سندسيّ، وتزدهر البساتين، وتغنّي المغارس، وتصدح الطير، وتهتف القلوب بنشوة الفرح، فيكسى العاري، ويطعم الجائع، ويروى الصديان، ويتزوّج الأعزب، وتتلفّع أرض مصر بالسعادة والمجد. . تعاليت والمجد لك. . تعاليت والمجد لك . .

ورتّل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار والناي، وعلى توقيع الدفوف في ألحان عذبة وأنغام شجيّة.

ولمّا أن ضاعت الأنغام في تضاعيف الفضاء، تقدّم الأمير ناي من فرعون وأسلم إليه قرطاسًا مختومًا من البرديّ، يشتمل على دعاء النيل المعبود، فأخذه الملك ورفعه إلى جبينه، ثمّ تركه يهوي إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة في صخب صوب الشمال. .

وهبط فرعون أدراج الهضبة، وركب عجلته، ورجع الموكب كما أتى تحفّ به العظمة ويحوطه المجد، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين، وقد أهاجهم الحماس، وأسكرتهم نشوة الطرب.

الصّندل

عاد الموكب الملكيّ إلى السراي الفرعونيّة، وظلّ الملك يحافظ على جلاله وهدوئه، إلى أن خلا إلى نفسه، فتبدّى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشيّة، وجبت لها قلوب الجواري اللائي يخلعن ثيابه، فانتفخت أوداجه وتصلّبت عضلات جسمه، وكان سريع الانفعال شديد الغضب، لا تطمئنّ نفسه حتّى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها، وكان يدوّي في أذنيه الهتاف الأخرق، فيظنّه إنذارًا جريئًا موجّهًا إلى رغباته، فيشتدّ به الغضب وينذر بالويل والثبور. .

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميّين، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك في عيد النيل، ولكنّه لم يستطع صبرًا، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة، واقتحم بابها بعنف. وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها، تلوح في عينيها الصافيتين آي السلام والطمأنينة، فلمّا رأى الوصيفات الملك، وشاهدن الغضب يصرخ في وجهه، وقفن مرتبكات مضطربات، وانحنين له وللملكة، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شيء.. ولبثت الملكة جالسة هنيهة، ترمقه بعينين هادئتين، ثمّ قامت في جلال، ودنت منه، ثمّ شبّت على أطراف قدميها وقبّلت كتفه وقالت:

ـ أغاضب أيضًا يا مولاي؟

كان يحسّ بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة في دمائه، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدّة:

ـ كما ترين يا نيتوقريس!

وكانت الملكة تشعر شعورًا قويًّا بعد درايتها بأخلاقه، بأنّ واجبها الأوّل هو أن تذهب عنه حدّة الغضب إذا أهاجه، فقالت بهدوء وهي تبتسم إليه:

ـ الحلم أحرى بالملك.

ولكنّه هزّ كتفيه العريضين استخفافًا وقال:

ـ أتوصينني بالحلم أيّتها الملكة؟ إنّه لثوب زائف يتقنّع به الضعفاء.

فقالت الملكة في تألّم ظاهر..

ـ مولاي.. لماذا تضيق بالفضائل ذرعًا؟

ـ أحقًّا أنا فرعون؟.. وهل حقًّا أتمتّع بشبابي وقوّتي؟.. فكيف إذًا أريد، ولا أستطيع نيل ما أريد؟.. كيف تنظر عيناي إلى أراضي مملكتي فيتصدّى لي عبد ويقول: لن يكون هذا لك؟.

فوضعت يدها على ذراعه، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان، ولكنّه تخلّص منها، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابًا، غاضبًا ساخطًا، فقالت بلهجة تنمّ على الأسف العميق:

ـ لا تصوّر الأمور لنفسك على هذا النحو.. واذكر دائمًا أنّ الكهنة رعاياك المخلصون، وأنّ أراضي المعابد كانت منحًا تنازل عنها أجدادنا ولكنّها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة، وأنت تريد يا مولاي أن تستردّها، فمن الطبيعيّ أن يقلقوا..

قال الملك الشابّ بحدّة:

ـ أريد أن أشيّد قصورًا ومقابر، وأن أتمتّع بحياة سعيدة عالية، ولا يقف في سبيل رغباتي إلّا أنّ نصف أراضي المملكة في أيدي أولئك الكهنة.. أيجوز أن تعذّبني رغباتي كالفقراء؟ ألا سحقًا لهذه الحكمة الفارغة، أو تعلمين ماذا حدث اليوم؟.. لقد هتف نفر منهم في أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب.. أرأيت أيّتها الملكة؟.. إنّهم يتحدّون فرعون عينًا لعين!

فاستولت الدهشة على الملكة، واصفرّ وجهها الوديع، وتمتمت بكلمات غير مسموعة، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة:

ـ ماذا دهاك أيّتها الملكة؟

أحسّت بلا شكّ بانزعاج واستياء، ولولا أنّ الملك غاضب إلى حدّ الثورة لما حاولت أن تخفي غضبها، ولكنّها تسلّطت على انفعالاتها بإرادة من حديد، وقالت بهدوء:

ـ دع هذا الحديث إلى وقت آخر، فإنّك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب، وينبغي أن تقابلهم المقابلة الرسميّة الكاملة..

فنظر فرعون إليها نظرة غامضة، وقال بسكينة مخيفة:

ـ إنّي أعرف ما أريد، وما ينبغي أن أفعل.

وفي الوقت المحدّد، استقبل الملك رجال مملكته في البهو الرسميّ العظيم، واستمع إلى خطب الكهنة، وآراء حكّام الأقاليم، ولاحظ كثيرون أنّ الملك «لم يكن راضيًا»، وحين تفرّق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنًا غير يسير، وملكت الحيرة النفوس، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل، ثمّ ظهر رئيس الوزراء، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه، لعلّهم يعثرون على بيّنة، ولكنّ وجهه كان جامدًا كالصخر لا يبين.

وأمر الملك مستشاريه المقربين، سوفخاتب كبير الحجّاب وطاهو رئيس الحرس، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة، ودار في الممرّات المعشوشبة، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح، كأنّه أرضى الغضب العنيف الذي طالبه بالثأر منذ حين قليل، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيّب الذي تبعث إليه به الأشجار تحيّة وسلامًا، وينقّل ناظريه بين الأزهار والثمار، ثمّ اتّخذ سبيله إلى البركة الغنّاء، فوجد رجليه في انتظاره: سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل، ورأسه الأشيب، وطاهو بجسمه القويّ الفولاذيّ الذي تربّى على متون الخيل والعجلات.

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليَسْتَكْنِهَ باطنه ويطمئنّ على السياسة التي يشير باتّباعها نحو الكهنة، وكانا سمعا الهتاف الجريء الذي عدّ في جميع الدوائر تحدّيًا لسلطة فرعون، وكانا يتوقّعان له رجعًا شديدًا في نفس الملك الشابّ، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات، فخفق قلباهما، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك، لأنّه كان ينصح دائمًا بالتؤدة والأناة والصبر، وبمعالجة مشكلة الأراضي بمنتهى الاعتدال، أمّا طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارًا نهائيًّا..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما، يرجوان، ويكابدان قلقًا أليمًا، ولكنّ فرعون كتم عواطفه، وطالعهما بوجه كأبي الهول. وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما، وكأنّه رغب في أن يمدّ لهما حبل الوساوس، فجلس على أريكة في هدوء، وأمرهما بالجلوس، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجدّ والاهتمام، فقال:

- يحقّ لي اليوم أن أغضب وأن أتألّم.

وفهم الرجلان ما يعني، ورنّ في أذنيهما الهتاف الجريء مرّة أخرى. فرفع سوفخاتب يديه تألمًا وإشفاقًا، وقال بصوت متهدّج:

- تعالى مولاي عن دواعي الألم والغضب!

وقال طاهو بقوّة:

- لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينثلم، ورجال يفتدونه بالأرواح، حقًّا إنّ هٰؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم، يتنكّبون سبيل الرشاد، ويركبون رءوسهم، ويعرّضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها..

فأحنى الملك رأسه ناظرًا إلى ما تحت قدميه، وقال:

- إنّي أتساءل، هل قوبل أحد من آبائي وأجدادي طوال عهد حكمه بمثل ما قوبلت به اليوم من هتاف، وما مضى على جلوسي سوى بضعة أشهر؟..

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف مخيف، وقال بيقين:

- القوّة يا مولاي.. القوّة يا مولاي.. كان أجدادك المقدّسون أقوياء، يحقّقون إرادتهم بعزيمة كالجبال، وسيف كالقضاء، كن مثلهم يا مولاي، لا تتردّد ولا تركن إلى الحلم، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة، تذهل الجبّار عن نفسه، وتخنق في صدره أوهى الأمل.

ولم يرق هٰذا الكلام في عيني الشيخ الحكيم سوفخاتب، وذعر من حماس قائله، وأشفق من عواقبه، فقال:

- مولاي.. إنّ الكهنة منبثّون في أقطار المملكة كالدم في الجسم، منهم: الولاة والقضاة والكتّاب والمربّون، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم، وليس لدينا من قوّة حربيّة سوى الحرس الفرعونيّ وحامية بلاق، فالضربة القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوّة، فقال:

- وما عسى أن نفعل أيّها المشير الحكيم؟.. أنستوصي بالصبر حتّى يقتحمنا عدوّنا، ونردّ في عينيه إلى الهوان؟

- ليس الكهنة بأعداء لفرعون، ومعاذ الربّ أن يوجد لفرعون من شعبه عدوّ، فالكهنة طائفة مخلصة أمينة، وما نأخذ عليهم إلّا أنّ امتيازاتهم أكثر ممّا يقتضي الحال، وأقسم أنّي ما يئست يومًا من إيجاد الحلّ

الموفّق الذي يحقّق رغبة مولاي، ويحفظ للكهنة حقوقهم.

وكان الملك يستمع إليهما في هدوء، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة، فلمّا أتمّ سوفخاتب كلامه، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين:

- أريحا نفسيكما أيّها الرجلان المخلصان، فقد أطلقت سهمي.

واستولت الدهشة على الرجلين، ونظرا إلى الملك في إشفاق وأمل وخوف. وكان طاهو أدنى إلى الأمل، أمّا سوفخاتب فامتقع وجهه وعضّ على شفتيه، وانتظر صامتًا سماع الكلمة الفاصلة. وقال الملك بلهجة نمّت عن الزهو والتشفّي:

- تعلمان أنّي استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعًا، ولمّا أن خلا المكان ابتدرته قائلًا: إنّ الهتاف باسمه تحت سمعي وبصري عمل حقير خئون، وأكّدت له أنّي لا أعدم الهاتفين من شعبي النبيل الأمين، فرأيته يضطرب ويبهت، ويحني رأسه الكبير على صدره الضيّق، وفتح فمه ليتكلّم، ولعلّه كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد..

وقطّب الملك جبينه، وصمت لحظة، ثمّ استطرد قائلًا بعنف:

- ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدي، وصارحته بكلام صارم، مؤكّدًا له أنّه من تفاهة العقل أن يظنّ مثل ذاك الهتاف يردّني عن رأي اعتزمته، ثمّ أخبرته بأنّ نيّتي انتهت إلى ضمّ أملاك المعابد إلى أراضي التاج، وأنّه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلّا ما يقوم بحاجتها من الأراضي والنذور..

وكان الرجلان يصغيان بكلّ حواسّهما إلى حديث الملك، أمّا سوفخاتب فكان ممتقع اللون، منكفئ الوجه، يعاني مرارة الخيبة؛ وأمّا طاهو فكان متهلّلًا فرحًا، كأنّه يستمع إلى لحن جميل، يتغنّى بمجده وعظمته، واستدرك الملك قائلًا:

- لا شكّ أنّ قراري أذهل خنوم حتب، وأخرجه عن طوره، فبدا عليه الجزع، وتوسّل إليّ قائلًا: إنّ أراضي المعابد هي أراضي الأرباب، وأنّ خيراتها تعود في الغالب إلى الشعب والفقراء، وينفق في وجوه التعليم والتربية الخلقيّة، وحاول أن يفيض، ولكنّي أوقفته بإشارة من يدي، وقلت له: إنّ هذه هي إرادتي، وإنّ عليه تنفيذها دون إبطاء، وآذنته بانتهاء المقابلة.

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحًا:

- باركتك الأرباب جميعًا يا مولاي!

فابتسم الملك ارتياحًا، ولاحت منه نظرة إلى وجه سوفخاتب في ساعة خذلانه، فأحسّ نحوه بعطف وقال:

- أنت رجل مخلص يا سوفخاتب، ومشير نصوح.. فلا يحزنك أن خولف رأيك.

فقال الراجل:

- لست يا مولاي من قوم مغرورين، يغضبون أشدّ الغضب إذا خولفت نصيحتهم، لا خوفًا من العواقب، ولكن ذودًا عن كرامتهم، حتّى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنّى لو يقع شرّ كان أنذر به، ليعرف من لا يعرف قدره.. أعوذ بالربّ من شرّ الغرور، فما يدفعني إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزنني حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسي، وما أتمنّى على الربّ من شيء إلّا أن يكذب رأيي، ليطمئنّ قلبي..

وكأنّ فرعون أراد أن يطمئنه، فقال:

- لقد نلت بغيتي، ولن ينالوا شيئًا منّي، فمصر تعبد فرعون، ولا ترضى عنه بدلًا..

فأمّن الرجلان على قول مولاهما بإخلاص، ولكن كان سوفخاتب مضطربًا، يحاول عبثًا أن يقلّل من خطورة الأمر الذي أصدره فرعون، ويذكر في ضيق صدر أنّ الكهنة سيتلقّون الأمر الشديد وهم مجتمعون في آبو، فيتّسع لهم المقام لتبادل الرأي، وتبادل الشكوى، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمّر والحزن، وإنّه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول.. ولكنّه لم يبنْ عن آرائه، لأنه وجد الملك فرحًا راضيًا ضاحك

الثغر، فأشفق من تعكير صفوه، وبسط صفحة وجهه، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية.

وقال الملك بسرور:

ـ لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أبي، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد.

وجاءت الجواري بإبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبيّة، وصببن الخمر، وقدّمن كئوسًا مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين، فشربوا في صفاء وهناء، وعلّوا في نشوة، وجعل سوفخاتب يذبّ عن قلبه الخواطر المقلقة، ليركّز حواسّه في رحيق مريوط، ويشارك الملك والقائد سعادتها، وكانوا جلوسًا صامتين تتبادل أعينهم المودّة والصفاء، والبركة من تحتهم يستحمّ في مائها الطرب شعاع الشمس المائل، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس.. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمنًا غير يسير حتّى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم من أحلامهم بعنف، إذ سقط شيء في حجر الملك من عل، فانتفض واقفًا، وتبعه الرجلان، فسقط الشيء عند قدميه، وإذا به صندل ذهبيّ، ونظروا إلى أعلى دهشين، فرأوا نسرًا هائلًا يحلّق في سماء الحديقة فوق رءوسهم ويبعث في الفضاء صرصرة مخيفة، ويصليهم نظرات ملتهبة من عينين متّقدتين، ثمّ ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلّق بها في آفاق بعيدة..

وعادوا بالنظر إلى الصندل، والتقطه الملك بيده. وجلس يتأمّله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آي الدهشة. ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتياب.

ومضى الملك في تأمّله، ثمّ غمغم قائلًا:

ـ هذا صندل امرأة بلا ريب، ما أجمله وما أثمنه!.

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل:

ـ ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلًا:

ـ لا يوجد في حديقتي شجر يتساقط منه نبت طيّب كهذا.

وقال سوفخاتب:

ـ يعتقد العامّة يا مولاي أنّ النسر يتعشّق الحسان، وأنّه يخطف من العذارى من تهوى إليها نفسه، ويطير بها إلى قمم الجبال، فلعلّ هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبته، ثمّ خانه الحظّ فأفلت من بين مخالبه، وسقط عند قدمي مولاي.

وجعل الملك يتأمّله مسرورًا منفعلًا، ويقول:

ـ ترى كيف خطفه؟.. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام:

ـ أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي، خلعته مع ثيابها على شاطئ بركة، وتعرّت تستحمّ، فجاء النسر وخطفه.

ـ ورمى به إلى حجري.. يا للعجب، لكأنّي به يعلم بحبّي للحسان!..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى، وقال:

ـ أسعدت الآلهة أيّامك يا مولاي.

وتبدّت الأحلام في عيني الملك، وابتسمت أساريره، ولان جبينه، وتورّدت وجنتاه، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه، ويسائل نفسه ترى من صاحبته؟ وما صورتها؟ وهل هي جميلة كصندلها؟ وكيف لا تدري أنّ صندلها سقط في حجر الملك وما شأن الأقدار التي نصبته هدفًا له؟. وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه، فقال وهو يشير إليها:

ـ ما أجمل هذه الصورة.. إنّه فارس وسيم، يقدّم قلبه هديّة على يده المبسوطة.

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فالتمعت أعينهما بنور خاطف، وتطلّعا إلى الصندل باهتمام عظيم، وقال سوفخاتب:

ـ هل يتنازل مولاي عن الصندل لحظة ؟

فأعطاه، ونظر إليه كبير الحجّاب، كما نظر إليه طاهو، ثمّ ردّه الرجل إلى الملك وهو يقول:

ـ صدق حدسي يا مولاي.. هذا صندل رادوبيس غانية بيجة الشهيرة.

فتساءل الملك قائلًا:

ـ رادوبيس.. يا له من اسم جميل.. من عسى أن تكون صاحبته؟!..

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال:

ـ هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعًا.

فابتسم فرعون وقال:

ـ ألسنا من أهل الجنوب؟. حقًّا إنّ الملوك قد تخترق أعينها سجف الأفق القصيّ، وتعمى عمّا يقع عليه ظلّها.

واشتدّ القلق بطاهو، فقال وقد امتقع لونه:

ـ إنّها امرأة يامولاي قد طرق بابها رجال آبو وبيجة وبلاق.

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة:

ـ على أيّة حال هي صورة أنثويّة يا مولاي، جعلتها الآلهة آية على قدرتها وإعجازها.

فردّد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسمًا:

ـ وحقّ الربّ سوتيس إنّكما لأخبر أهل الجنوب بها.

فقال سوفخاتب بهدوء:

ـ إنّ بهو استقبالها يا مولاي ملتقى أهل الرأي والفنّ والسياسة.

ـ حقًّا إنّ الجمال عالم ساحر، يطالعنا كلّ يوم بالمعجزات، هل هي أجمل مَن رأيت؟

فقال سوفخاتب باطمئنان:

ـ هي الجمال عينه يا مولاي، هي فتنة قهّارة، وعاطفة لا تقاوم. لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقرّبين إذ قال يومًا: إنّه من أخطر الأمور في حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس.

وتنهّد طاهو يائسًا، وحدج كبير الحجّاب بنظرة خاطفة فهم معناها، ثمّ قال:

ـ إنّ جمالها يا مولاي جمال شيطانيّ رخيص، لا تضنّ به على طالب!

فضحك الملك بصوت عال، وقال:

ـ كلاكما يغريني وصفه.

فقال سوفخاتب:

ـ ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظلّ من السعادة يا مولاي.

ونزع خيال الملك به إلى النسر، فتولّاه عجب ساحر، أضفى عليه ما سمعه نسيجًا رقيقًا من الفتنة والأحلام. فتساءل وكأنّه يحادث نفسه:

ـ ترى أأحسن النسر في اختيارنا هدفًا له أم أساء؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكبّ على ما بين يديه، وقال في حيرة:

ـ ما هي إلّا مصادفة يا مولاي. وما يُؤسفني إلّا أن أرى هٰذا الصندل الملوّث بين يدي مولاي المعبودتين.

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفّية، وقال بهدوء:

ـ مصادفة؟.. إنّ هٰذه الكلمة يا مولاي مهضومة الحقّ، يظنّ بها التخبّط والعمى، ومع هٰذا فهي المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجلّ الكوارث، فلم يبق للآلهة إلّا القليل النادر من حادثات المنطق، كلّا يا مولاي، إنّ كلّ حادثة في هذا العالم لا شكّ موكلة بإرادة ربّ من الأرباب، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات ـ جلّت أو تفهت ـ عبثًا أو لهوًا.

فجنّ جنون طاهو، وكظم بقوّة تيّار غضب جنونيّ كاد أن يجرف هدوءه في حضرة الملك، وقال لسوفخاتب بلهجة تنمّ على اللوم والتعنيف:

ـ أتريد أيّها المعظّم سوفخاتب أن تشغل بال مولاي، في هذه الساعة الجليلة، بأمثال هذه الأوهام؟

فقال سوفخاتب بهدوء:

ـ إنّ الحياة جدّ ولهو، كما إنّ اليوم نهار وليل، والرجل الحكيم من لا يذكر في أوقات جدّه أسباب لهوه، ولا يعكّر صفو لهوه بأمور جدّه. فمن أدراك أيّها القائد، فلعلّ الآلهة لسابق علمها بحبّ مولانا الجمال، أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب.

وقلّب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلًا:

ـ أدائمًا على اختلاف أيّها الرجلان؟ كما تشاءان.

ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغريًا بالهوى، وفي سوفخاتب الشيخ زاجرًا عنه، وعلى أيّة حال لا مندوحة لي من الميل مع رأي سوفخاتب في الحبّ، كما ملت إلى رأي طاهو في السياسة.

وقام الملك واقفًا، فقام الرجلان، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهي تودّع الشمس المائلة نحو الأفق الغربيّ، وقال وهو يهمّ بالمسير:

- أمامنا ليلة عمل شاقّة. فإلى الغد، ولسوف نرى.

وذهب فرعون والصندل في يده، فانحنى الرجلان في إجلال.

ووجدا نفسيهما منفردين مرّة أخرى فوقف كلّ منهما بإزاء صاحبه: طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض وعضلاته الفولاذيّة، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينيه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة.

وكان كلّ منهما يحسّ بما اختلج في صدر صاحبه، فيبتسم سوفخاتب، ويقطّب طاهو جبينه. ولم يستطع القائد أن يودّع الحاجب بغير قول ينفّس به عن صدره الكظيم، فقال:

- غدرت بي أيّها الصديق سوفخاتب، بعد أن لم تطق منازلتي وجهًا لوجه..

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكارًا، وقال:

- يا له من كلام بعيد عن الحقّ أيّها القائد، ما لي أنا والحبّ؟ ألم تعلم بأنّي شيخ فانٍ، وأنّ حفيدي سنب طالب في جامعة أون؟

- ما أسهل تزوير الكلام عليك أيّها الصديق، ولكنّ الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم.. ألم يمل قلبك الفتى يومًا إلى رادوبيس؟ ألم يسؤك أن تهبني عطفًا لم تظفر به أنت؟

فرفع الشيخ يديه يستعيذ من كلام القائد، وقال:

- إنّ خيالك لا يقلّ عن عضلات ساعدك الأيمن، والحقّ أنّه إذا كان قلبي مال إلى هذه الغانية يومًا، فعلى طريقة الحكماء المبرّأة من الطمع!

- أما كان يجمل بك ألّا تفتن خيال مولانا بحسنها إكرامًا لي؟

فبدت الدهشة على سوفخاتب، وقال باهتمام وأسف صادق:

- أحقًّا أنّك تجد في الأمر جدًّا؟.. أم أنّك ضقت بدعابتي ذرعًا؟..

فقال طاهو بسرعة:

- لا هذا ولا ذاك أيّها المعظّم، ولكن يسوءني فقط أن نختلف دائمًا.

فابتسم كبير الحجّاب، وقال بهدوئه الطبيعيّ:

- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش!

قَصْـــر بيـِجَة

غاب الموكب الفرعونيّ عن الأنظار، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبي الطريق، فتلاطمت أمواجهم، واختلطت أنفاسهم، كأنّهم بحر موسى الذي انشقّ له طوعًا، وانقضّ على أعدائه كاسرًا. فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة. وكانت نشوة الحماس التي انبعثت في قلبها لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب في قلبها نارًا وتندفع إلى أطرافها دمًا حارًّا. وكانت صورته لا تفارق مخيّلتها. لشبابه الغضّ، ونظراته المتعالية، وقدّه الرشيق، وعضلاته المفتولة.

وكانت رأته قبل ذلك في يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل، وكان يقف في عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال، مرسلًا بناظريه إلى الأفق البعيد، وقد تمنّت يوم ذاك كما تمنّت اليوم لو عطف إليها عينيه.

ترى لماذا؟.. ألأنّها تطمع في أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم؟ أم لأنّها تودّ في أعماقها لو تراه في هيئة البشر بعد أن رأته في قداسة الأرباب المعبودة؟ كيف السبيل إلى فهم هذا التمنّي؟.. على أنّه مهما

كانت حقيقته، فقد تمنّت صادقة، وتمنّت مخلصة مشوقة.

لبثت الغانية مستغرقة في غمرات أحلامها، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق المزدحم الذي يجتازه ركبها الصغير بشقّ الأنفس، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها، بنهم وشراهة. وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج في المقصورة، واطمأنّت إلى عرشها الصغير، وهي في شبه غيبوبة تسمع ولا تعي، وتنظر ولا ترى.. وانسابت بها تشقّ وجه النيل الرزين، حتّى رست إلى سلّم حديقة قصرها الأبيض، عروس جزيرة بيجة. وكان القصر يُرى عن بعد في نهاية الحديقة اليانعة التي تنتهي معارجها إلى سيف النيل، تحوط به أشجار الجمّيز، ويحنو عليه النخيل، كأنّه زهرة بيضاء نبتت في أحضان تلك الجنّة الوارفة. فهبطت أدراج السفينة، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة، وصعدت سلّمًا من المرمر المصقول، يمتدّ بين سورَيْن من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلّات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسيّة.

واجتازت بوّابة من الحجر الجيريّ نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدّسة، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعيّ، نحته هنفر، وأفنى فيه دهرًا جميلًا من أسعد أيّام حياته، يُمثّلها جالسة على عرشها الجميل الذي تستقبل عليه المقرّبين، ويكشف في روعة فنّيّة رائعة عن جمال الوجه، وتكعّب الثديين، ورشاقة القدمين. ثمّ خلصت إلى ممرّ وسيط اصطفّت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها، فظلّلت عليه سقفًا من الأزهار والأوراق الخضراء، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب، وكانت توازيه عرضًا من اليمين والشمال ممرّات جانبيّة قدّت على نفس الصورة، تنتهي ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبيّ، وذات الشمال إلى سورها الشماليّ. وكان هٰذا الممرّ ينتهي إلى الكرمة المتفرّعة المتسلّقة على أعراش من عمد رخاميّة، تنبسط إلى يمينها غابة من الجمّيز، وتمتدّ إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال، وانتشرت في جنباتها المترامية التماثيل والمسلّات.

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس، ويسبح على سطحها الأوزّ والبطّ وتغنّي في جوّها الأطيار، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغرّدت البلابل.

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة، فصارت أمام الحجرة الصيفيّة، ووجدت في استقبالها جماعة من الجواري انحنين لها إجلالًا، ثمّ وقفن ينتظرن أوامرها، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلّلة تستريح.. ولم يطل بها المقام فانتفضت واقفة، وقالت لجواريها:

ـ كم ضايقتني أنفاس القوم الحارّة.. وكم أرهقني الحرّ.. اخلعن ثيابي، فقد تقت إلى مياه البركة الباردة.

فدنت الجارية الأولى من سيّدتها، ورفعت بخفّة خمارها الموشّى بالذهب نسيج منف الخالدة.

ثمّ تقدّمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريريّة، فكشفتا عن قميص شفّاف انحسر عمّا فوق النهدين وما تحت الركبتين، ثمّ تبعتهما جاريتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد، وروّعتا الدنيا بجسد طليق، خلقته الآلهة جميعًا، وادّعاه كلّ لقدرته وفنّه!

واقتربت جارية أخرى وحلّت عقدة شعرها الفاحم، فانساب على جسدها، وغشّاه من الجيد إلى الرسغين، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبيّ ووضعته على حافة البركة. ومشت الغانية تتهادى، وهبطت درجات البركة المرمريّة على مهل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين، ثمّ ألقت بجسمها في الماء الهادئ يأخذ منه عطرًا ويعطيه بردًا وسلامًا. واستسلمت لمداعبة الماء في رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح، وسبحت طويلًا تارة على بطنها، وتارة على ظهرها، وثالثة على أحد جانبيها.

وما كانت لتعير شيئًا اهتمامًا لولا أن صكّ أذنيها صراخ فزع يرسله جواريها، فتوقّفت عن السباحة،

والتفتت إليهنّ، فراعها أن رأت نسرًا هائلًا يحلّق من علوّ قريب من شاطئ البركة، ويرفّ بجناحيه، ففرّت من بين شفتيها صرخة فزع، وغاصت في الماء تنتفض فزعًا ورعبًا، وتصبّرت بجهد جهيد، وحبست أنفاسها طويلًا حتّى أحسّت بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهي تخشى، فلم ترَ شيئًا. فنظرت إلى السماء فوجدت النسر يولّي بعيدًا يوشك أن يلج باب الأفق، فسبحت إلى الشاطئ على عجل، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة، ووضعت قدمها في إحدى زوجي صندلها، ولكنّها لم تجد الأخرى، وبحثت عنها طويلًا ثمّ سألت:

- أين الأخرى؟

فأجابها الجواري في قلق:

- خطفها النسر!

وتبدّى الأسف على وجهها، ولكنّها لم تجد متّسعًا من الوقت لإعلان سخطها، فدلفت إلى الحجرة الصيفيّة، والجواري من حولها وبين يديها يجفّفن جسدها الغضّ، تنحدر عليه نقط الماء كأنّها لؤلؤ ينتشر على أديم عاج.

* * *

ولدى الغروب تأهّبت لاستقبال الضيوف، وما أكثرهم في أيّام العيد التي تجذب الناس إلى الجنوب من كلّ صوب، فارتدت أجمل ثيابها، وازّيّنت بأفخر حليّها، ثمّ تركت المرآة إلى بهو الاستقبال، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم.

وكان البهو آية من آيات الفنّ والعمارة، بناه المعمار هني، وجعل صورته على هيئة بيضاويّة، وشيّد جدرانه من الجرانيت كبيوت الأرباب، وكساه بطبقة من الصوّان ذات ألوان تسرّ الناظرين، وكان سقفه مقبّبًا تزيّنه الصور والتهاويل، وتتدلّى منه المصابيح المُكفّتة بالذهب والفضّة.

وزخرف الجدران المثال هنفر، وتنافس العشّاق في تأثيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة، والرياش الجميلة. وكان عرش الغانية أبدع هٰذه التحف جميعًا، فهو من العاج الثمين على قوائم من سنّ الفيل، وقاعدته من الذهب الخالص المحلّى بالزمرّد والياقوت، وقد أهداه إيّاها حاكم جزيرة بيجة.

ولم يطل انتظار الغانية، فدخل عبد من عبيدها، وأعلن قدوم السيّد عانن تاجر سنّ الفيل. ودخل الرجل على الأثر يهرول في ثيابه الفضفاضة، ويزهو بشعره المستعار، يتبعه عبد يحمل صندوقًا من العاج المطعّم بالذهب، وضعه على كثب من كرسيّ الغانية، ورجع من حيث أتى. وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها، فابتسمت له، وقالت بصوتها الحلو:

- أهلًا بك أيّها السيّد عانن. كيف حالك؟. أهٰكذا لا نراك إلّا كلّ دهر طويل!

فضحك الرجل سعيدًا مسرورًا، وقال:

- ماذا أصنع يا مولاتي!.. هي حياتي التي اخترتها أو التي فرضتها الأقدار عليّ، أن أكون أخا سفر، جوّاب أرض، تتقاذفني البلدان، فأقضي نصف عامي في بلاد النوبة، ونصفه الثاني ما بين الجنوب والشمال، أشتري وأبيع، وأبيع وأشتري، لا أعرف لحياتي مستقرًّا!!.

فنظرت إلى الصندوق العاجيّ وهي لا تزال تبتسم وسألته:

- وما هٰذا الصندوق الجميل؟ أخال أنّه هديّة من هداياك النفيسة!.

- ليس الصندوق بالذات، ولٰكن ما فيه.. هو سنّ فيل مفترس، أقسم التاجر النوبيّ الذي ابتعته منه أنّ صيده كلّفه أربعة من رجاله الأشدّاء، فحفظته في مكان أمين، ولم أعرضه على الطالبين. ولمّا ألقيت عصا الترحال في تنيس، دفعت به إلى أيدي صانعيها المهرة، فبطّنوه بقشرة من خالص الذهب، وطلوه من الخارج، فصار كأسًا لا يشرب منها إلّا الملوك.. وقلت لنفسي: أحرى بتلك الكأس التي كلّفت نفوسًا غالية، أن تهدى إلى من تبذل في سبيلها النفوس العزيزة رخيصة، وهي راضية.

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة، وقالت:

ـ شكرًا لك أيّها السيّد عانن.. إنّ هديّتك على نفاستها لا تعدل بجمال حديثك!

فطرب أيّما طرب، ورنا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسّل، وقال بصوت خافت:

ـ ما أجملك!.. ما أفتنك!.. كلّما عدت من سفر طويل أجدك أجمل وأفتن ممّا تركتك، وكأنّي بالزمان ولا عمل له إلّا السموّ بحسنك الفاتن.

وكانت تصغي إلى إطراء حسنها، كمن يصغي إلى نغمة معادة، فطاب لها أن تتهكّم به فسألته:

ـ كيف حال أبنائك؟!.

فأحسّ بشيء من الخيبة، وصمت لحظة، ثمّ انحنى على الصندوق ورفع غطاءه، فبدا الكأس نائمًا على جانبه، ثمّ قال وهو يرفع رأسه إليها:

ـ ما ألذع سخريتك يا سيّدتي!. ومع هٰذا فلن تجدي شعرة بيضاء برأسي، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك!.

فلم تجبه، وما تزال تبتسم، ثمّ دعته للجلوس فجلس قريبًا منها. واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجّار وكبار المزارعين، منهم من يتردّد على قصرها كلّ مساء، ومنهم من لا تراه إلّا في الأعياد والمناسبات، فرحّبت بهم بابتسامتها الفاتنة، ثمّ رأت المثّال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقة، وحنجرته الناتئة، وشعره المفلفل، وأنفه الأفطس، وكان من الرجال الذين تستخفّ ظلّهم، فأعطته يدها، ولثمها الرجل في حبّ عميق. وقالت تداعبه:

ـ أيّها الفنّان الكسول.

ولم يرض هنفر عن هٰذا الوصف فقال:

ـ لقد انتهيت من عملي في زمن قصير.

ـ والحجرة الصيفيّة؟

ـ هي الباقية بلا زخرف، وإنّه ليؤسفني أن أقول لك بأنّي لن أزخرفها بنفسي.

فبدا التساؤل على وجه رادوبيس، فقال الرجل:

ـ سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة، لأنّ أمّي مريضة، وقد بعثت إليّ رسولًا يبلغني رغبتها في رؤيتي، فلم أرَ بدًّا من السفر.

ـ خفّفت الأرباب عنها وعنك.

فشكرها هنفر وقال:

ـ لا تظنّي أنّي نسيت الحجرة الصيفيّة، ففي الغد يأتيك أنبغ تلاميذي بنامون بن بسار، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه، إنّي أثق به ثقتي بنفسي، ولعلّك ترحّبين به وتشجّعينه.

فشكرته على عنايته بها، ووعدته خيرًا.

واطّرد تيّار القادمين، فجاء المعمار هني، وقفاه آني حاكم الجزيرة، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب. وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف، الذي كان في يوم من الأيّام أستاذ جامعة أون الأكبر. وقد عاد أخيرًا إلى آبو مسقط رأسه، بعد أن نيّف على السبعين من عمره، وكانت رادوبيس لا تفتأ تداعبه، فقالت له وهي تستقبله:

ـ ما لي إذا رأيتك أشتهي أن أقبّلك؟

فقال الرجل بهدوء:

ـ لعلّك يا مولاتي من هواة التحف القديمة.

* * *

ودخلت جماعة من الجواري يحملن أواني من الفضّة ملئت طيبًا، وباقات من أزهار اللوتس، فدهنّ رءوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب، وأهدين إلى كلّ منهم زهرة من اللوتس.

وقالت رادوبيس بصوت عالٍ:

ـ ألم تعلموا بما حدث لي اليوم؟

فتطلّع إليها الجميع بانتباه، وساد الصمت، فقالت باسمة:

ـ نزلت أستحمّ ظهر اليوم في البركة، فهبط نسر بغتة وخطف فردة صندلي الذهبيّ، وطار بها.

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه، وقال الشاعر رامون حتب:

ـ إنّ رؤيتك في الماء عارية تهيّج الطيور الكاسرة!

وقال عانن بحماس:

ـ أقسم بالربّ سوتيس على أنّ النسر كان يتمنّى لو يخطف صاحبة الصندل.

فقالت رادوبيس آسفة:

ـ كم كان عزيزًا لديّ.

فقال هنفر المثال:

ـ من المحزن حقًّا أن يضيع شيء تمتّع بلمسك أيّامًا وأسابيع، وما مصيره في النهاية إلّا السقوط، وقد يسقط في حقل ناء فتطؤه قدم ريفيّة بسيطة!

فقالت رادوبيس بحزن:

ـ مهما يكن مصيره، فلن يعود إليّ..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه، فقال يعزّيها:

ـ على أيّة حال إنّ خطف النسر لصندلك فأل حسن، فلا تحزني.

فسأله أحد الأعيان المبرّزين:

ـ وماذا ينقص رادوبيس من السعادة، وجميع هذه الوجوه من عشّاقها؟

فردّ عليه الفيلسوف قائلًا، وهو يحدجه بنظرة ساخرة:

ـ ينقصها أن تتخلّص من بعضهم!

ودخلت جماعة أخرى من الجواري يحملن أباريق الخمر وكئوس الشراب الذهبيّة، ودرنَ بها على الحاضرين كلّما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة، تطفي الظمأ في الفم، وتوقد النار في القلوب. وقامت رادوبيس على مهل، وسارت إلى الصندوق العاجيّ، ورفعت الكأس العجيبة، ومدّت بها يديها إلى الساقية وهي تقول:

ـ لنشرب نخب السيّد عانن لهديّته الجميلة، وعودته السالمة.

فشربوا جميعًا هنيئًا، وشرب عانن كأسه حتّى الثمالة، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران، ثمّ التفت إلى صاحب له وقال:

ـ أليس من كبريات النعم أن يجري ذكر اسمي على لسان رادوبيس؟

فأمّن الرجل على قوله، وتنبّه عند ذاك الحاكم آني إلى وجود السيّد عانن، وكان يعرفه، ويعلم بأنّه كان في رحلة في الجنوب، فقال له:

ـ عود سعيد يا عانن، كيف كانت سفرتك هٰذه المرّة؟

فأحنى الرجل رأسه احترامًا، وقال:

ـ حفظتك الآلهة من كلّ سوء أيّها الحاكم الجليل، لم أتوغّل هٰذه المرّة فيها وراء إقليم الواوايو، وكانت رحلة موفّقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب.

ـ وكيف حال صاحب السموّ كارفنرو حاكم الجنوب؟

ـ الحقّ أنّ سموّه يلقى متاعب جمّة بسبب تمرّد قبائل المعصايو، فهم يضمرون الكراهية للمصريّين، ويتربّصون لهم، فإذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة، وقتلوا رجالها، ونهبوا تجارتها، ولاذوا بالفرار قبل أن تبلغهم القوّات المصريّة.

فبدا الاستياء على وجه الحاكم، وسأل التاجر باهتمام:

ـ ولماذا لا يسير سموّه إليهم بقوّة تأديبيّة؟

ـ إنّ سموّه لا ينفكّ يرسل قوّاته في أعقابهم، ولٰكنّهم لا يواجهون القوّات الحربيّة، ويفرّون في الصحارى والغابات. فتضطرّ القوّات إلى العودة بعد نفاد المؤن. ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل.

وكان الفيلسوف هوف يصغي بانتباه إلى كلام عانن، وكانت له خبرة ببلاد النوبة، وكان على علم وافٍ بقضيّة المعصايو، فسأل التاجر قائلًا:

ـ لماذا يصرّ المعصايو دائمًا على العصيان!.. إنّ البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتّع في ظلّه بالطمأنينة والرفاهية، ونحن لا نتعرّض لعقائد غيرنا، فلماذا يناصبوننا العداوة؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب، وظنّ أنّ نفاسة التجارة هي التي تغري القوم بالانقضاض عليها، ولكنّ الحاكم آني كان متبحّرًا في هذه المسائل، فقال للفيلسوف:

- الحقّ يا سيّدي الأستاذ أنّ المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسيّة أو دينيّة. وحقيقة المسألة أنّ القوم قبائل رحّالة، يعيشون في أرض جدباء، ويهدّدهم الجوع في كلّ حين، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضّة لا تغني ولا تشبع من جوع. فإذا انبرى المصريّون لاستثمارها، هاجموهم ونهبوا قوافلهم.

فقال هوف:

- إذا كان الأمر كذلك، فالحملات التأديبيّة عديمة الجدوى، وإنّي أذكر يا سيّدي الحاكم أنّ الوزير أونا - تقدّست روحه في عالم أوزوريس - منّى نفسه يومًا بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة، فيمدّهم بالغذاء في مقابل أن يؤمّنوا له طرق القوافل.. هي فكرة ثاقبة أليس كذلك؟

فهزّ الحاكم رأسه دلالة على الموافقة، وقال:

- لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيّام، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل، والمتفائلون كثيرون..

وكان الحاضرون ملّوا سريعًا حديث السياسة، فانقسموا حلقات، ومنهم عانن، وشتّتهم شجون الحديث، وحاولت كلّ حلقة أن تجذب رادوبيس إليها، ولكنّ الغانية جذبها اسم خنوم حتب، وذكر الهتاف الذي دوّى باسمه في أثناء سير الركب الفرعونيّ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحسّت بلفحة غضب، فدلفت إلى حيث يجلس آني، وهوف، وهنفر، وهني، ورامون حتب، وقالت بصوت خافت:

- ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب؟

وكان زوّار القصر الأبيض أخوة، لا تقوم بينهم كلفة، ولا يعقل ألسنتهم خوف، وكانت أحاديثهم تتناول كلّ شيء في حرّيّة مطلقة، وطمأنينة كاملة. وقد سُمع هوف مرّات ينتقد سياسة الوزراء، كما سُمع رامون حتب وهو يبدي شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت، ويعلن عن إيمانه باللذّة ويدعو إلى متاع الدنيا.

وتناول المعمار هني جرعة من كأسه، وقال وهو ينظر إلى وجه رادوبيس الجميل:

- إنّه هتاف جريء لم يسمع بمثله من قبل في وادي النيل.

فقال هنفر:

- نعم ولا شكّ في أنّه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشابّ في أوّل عهده بالحكم.

وقال هوف بهدوء:

- لم تجر العادة قطّ بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته، في حضرة فرعون!.

فقالت رادوبيس بلهجة دلّت نبراتها على الغضب:

- ولكنّهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة.. لماذا أقدموا على ذلك أيّها السيّد آني؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- أراك تسألين عمّا يتحدّث عنه الناس في الطرقات.. فكثير من العامّة يعلم الآن أنّ فرعون يرغب في أن يضمّ كثيرًا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج، وأن يستردّ المنح الواسعة التي أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت.

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف:

- كان الكهنة دائمًا موضع عطف الفراعنة، يقطعونهم الأراضي، ويهبونهم الأموال، حتّى صاروا يملكون ثلث الأراضي المنزرعة، وتغلغل نفوذهم في الأقاليم، وبسط على الرقاب، ولا شكّ أنّ هناك وجوهًا من المنافع أحقّ بالمال من المعابد..

فقال هوف:

- يزعم الكهنة أنّهم يصرفون ريع الأراضي على أعمال الإحسان والبرّ، ويصرّحون دائمًا بأنّهم يتنازلون عن املاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- وما هذه الضرورة؟

- أن تشتبك المملكة في حرب مثلًا تحتاج للإنفاق الكثير.

ففكّرت الغانية قليلًا، ثمّ قالت:

- لا يجوز على أيّ حال أن يناهضوا رغبة الملك.

فقال الحاكم آني:

ـ لقد تورّطوا في خطأ بالغ، وفوق ذلك فهم يبثّون دعاتهم في الأقاليم، ويدخلون في روع الفلّاحين أنّهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة..

فتساءلت رادوبيس دهشة:

ـ كيف تؤاتيهم شجاعتهم؟!

فقال آني:

ـ البلاد في سلام، والحرس الفرعونيّ هو القوّة المسلّحة الوحيدة التي يعتدّ بها، والكهنة تؤاتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أنّ قوّة فرعون غير كافية!

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق:

ـ يا لهم من أوغاد!

فابتسم الفيلسوف هوف، ولم يكن يرضى أن يحبس رأيًا فقال:

ـ إذا أردت الحقّ فالكهنة طائفة مطهّرة، تسهر على دين هذه الأمّة وآدابها وتقاليدها الخالدة، أمّا الطمع في السلطان فداء قديم.

فحدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحدّ، وكان مغرمًا بإثارة الزوابع، وسأله في اقتضاب:

ـ وخنوم حتب ؟!.

فهزّ هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب:

ـ هو كاهن كما ينبغي، وسياسيّ نافع، وليس مَن ينكر عليه قوّة الإرادة، ونفاذ البصيرة.

وتململ الحاكم آني. وهزّ رأسه بشيء من العنف، وقال:

ـ لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش!

فقالت رادوبيس بحدّة:

ـ بل أعلن غير ذلك!

ولم يكن الفيلسوف يوافقها، فقال:

ـ أنا أعرف خنوم حتب جيّدًا، وهو بلا شكّ مخلص لمولاه ولوطنه.

فقال آني بغرابة:

ـ لم يبق إلّا أن تصرّح بأنّ فرعون مخطئ..

ـ كلّا.. إنّ فرعون شابّ سامي الآمال، يرغب في أن يكسو بلاده حلّة من البهاء، ولن يأتي ذلك إلّا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة.

فتساءل رامون حتب في حيرة شديدة:

ـ فمَن المخطئ إذًا؟!

فقال هوف:

ـ عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حقّ!

ولكنّ رادوبيس لم ترتح إلى تفسير الفيلسوف، ولم ترضَ عن الموازنة التي يجريها بين فرعون ووزيره، كأنّهما ندّان. وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة، وهي أنّ فرعون سيّد البلاد دون منازع، وأنّه لا تجوز مخالفته بأيّ حال ولأيّ سبب، ونفر قلبها من كلّ رأي يخالف عقيدتها هذه، وصرّحت برأيها لأصحابها، وختمت كلامها بقولها:

ـ إنّي أعجب متى آمنت بهذا الرأي؟!

فقال رامون حتب مداعبًا:

ـ حين وقعت عيناك على فرعون لأوّل مرّة.. لا تفرطي في العجب فالجمال مقنع كالحقّ سواء بسواء.

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع:

ـ أدِرْنَ الكئوس أيّتها الجواري.. وهلمّي أيّتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنًا شجيًّا، أو متّعي أعيننا بحركة من الرقص الرشيق، فإنّ نفوسنا التي أسكرتها خمر مريوط، وهيّأها العيد للفرح والمسرّة، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون.

فضربت عنه صفحًا، وأرادت أن تسترسل في حديثها، ولكن لاحت منها التفاتة إلى التاجر عانن، فرأته كالنائم، وكان منفردًا بعيدًا عن الجماعات فتذكّرت أنّها أطالت المكث في حلقة آني، فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر، وصرخت في وجهه: «اصْحَ» فانتبه الرجل فزعًا، ولكن سرعان ما أشرق وجهه لرؤيتها، فجلست إلى جانبه وسألته:

ـ أكنت نائمًا؟

ـ بل كنت أحلم.

ـ آه.. فيمن؟

ـ في ليالي بيجة السعيدة، وكنت أسائل نفسي

حيران ترى هل أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالي الخالدات؟! أيمكن أن أظفر الآن بمجرّد وعد!

فهزّت رأسها أن لا، فجزع، وسألها بخوف وإشفاق:

- لمه ؟

- قد تطلبك نفسي، وقد تطلب غيرك، فلِم أقيّدها بوعد خائن؟!

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة في الحديث والشراب، فرحّبوا بها فيما يتبه الصياح، وأحاطوا بها من كلّ جانب، وقال واحد منهم يدعى شامة:

- ألا تشتركين معنا في الحديث؟

- وفيم تتحدّثون ؟

- يتساءل بعضنا عمّا إذا كان الفنّانون أهلًا للتكريم الذي يحبوهم به الفراعنة والوزراء.

- وهل أجمعتم على رأي ؟

- نعم يا مولاتي. على أنّهم لا يستحقّون شيئًا.

وكان شامة يتكلّم بصوت مرتفع لا يبالي شيئًا، فنظرت رادوبيس إلى حيث يجلس الفنّانون : رامون حتب، وهنفر، وهني، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنّانين:

- ينبغي أن يكون هذا الحديث عامًّا، ألا تسمعون أيّها السادة ما يقال عنكم.. يقال هنا إنّ الفنّ عرض تافه، وإنّ الفنّانين غير أهل للتكريم.. فما رأيكم؟!

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة، أمّا الفنّانون فقد نظروا إلى الجماعة التي تستهين بهم نظرة متعالية، وابتسم هنفر ابتسامة هزء، أمّا رامون حتب فاصفرّ وجهه غضبًا، لأنّه كان شديد التأثّر، وكان شامة معجبًا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عالٍ قائلاً:

- إنّي رجل عمل وجدّ، أضرب الأرض بيد من حديد، فتذلّ وتبذل لي خيراتها من الأنعم السابغة، فأفيد ويفيد معي الآلاف من المحتاجين، كلّ هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون برّاق..

وأدلى كلّ من الرجال بدلوه، إمّا للتنفيس عن حقد طال حفظه أو لمجرّد الثرثرة والإعلان عن النفس، فقال أحد الكبار يدعى رام:

- من الذي يحكم ويسوس الناس؟.. من الذي يفتح البلدان ويغزو المعاقل؟.. من الذي يجلب الثروة والخيرات؟.. أناس غير الفنّانين بلا ريب..

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر:

- إنّ الرجال يهيمون بحبّ النساء، ويهذون بذكرهنّ في خلواتهنّ، أمّا الشعراء فيبسطون هذيانهم في كلام موزون، وإلى هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلّا أنّهم يضيّعون وقتهم فيما لا طائل تحته، ولكنّ السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنًا من المجد والخلود.

وقال شامة مرّة أخرى:

- ويكذب آخرون كذبًا طويلًا منظّمًا، ويهيمون في وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام، يزعمون أنّهم رسل وحي كريم.. والأطفال تكذب كذبهم، وكثير من العامّة، ولكنّهم لا يزعمون شيئًا.

فضحكت رادوبيس طويلًا، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر، وقالت هازئة:

- ويحك أيّها الرجل.. لماذا إذًا تسير مختالًا فخورًا كأنّك بلغت الجبال طولًا ؟

فابتسم المثّال ابتسامة صفراء، ولكنّه لازم الصمت كصاحبيه تعاليًا منهم عن الردّ على «المتهجّمين بغير علم»، وإن انطوى كلّ منهم على غضب شديد، وكرهت رادوبيس أن تنتهي المعركة عند ذاك، فالتفتت إلى الفيلسوف هوف ووجّهت إليه هذا السؤال:

- وما رأيك أنت أيّها الفيلسوف في الفنّ والفنّانين؟

- الفنّ لهو ولعب، والفنّانون لاعبون مهرة.

ولم يستطع الفنّانون أن يخفوا غضبهم، فلم يملك الحاكم آني نفسه من الضحك. وتصايح التجّار والملّاك فرحين.

وصاح رامون حتب بغضب:

- أتريد أيّها الفيلسوف أن تكون الحياة جدًّا خالصًا؟

فهزّ الشيخ رأسه في هدوء، وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه:

ـ كلّا، ما إلى هذا قصدت، فاللعب ضرورة، ولكن ينبغي أن تذكر أنّه لعب.

فسأله هنفر بتحدّ:

ـ هل الإبداع الملهم لعب؟

فقال الفيلسوف باستهانة:

ـ أنت تسمّيه الإلهام والإبداع، أمّا أنا فأعلم أنّه لعب الخيال.

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هني تحثّه على خوض المعركة، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعيّ. ولكنّ الرجل لم يلبّ إغراءها، لا استهانة منه بالموضوع الذي يثير النقاش، ولكن اعتقادًا منه ـ إن حقًّا كان أو وهمًا ـ أنّ هوف لا يعني ما يقول وأنّه يداعب هنفر ورامون حتب ـ على الأخصّ ـ بأسلوبه القاسي. أمّا الشاعر فاشتدّ به الغضب، ونسي أنّه في قصر بيجة، وسأل الفيلسوف بلهجة حاقدة:

ـ إذا كان الفنّ لعب خيال، فلماذا يكلّف أهله ما لا طاقة لهم به؟

ـ لأنّه يتقاضاهم إغفال ما تعوّدوا عليه من الفكر والمنطق، واللياذ بعالم الطفولة والخيال!

فهزّ الشاعر كتفيه استهانة، وقال:

ـ إنّ هذا الكلام لا يستحقّ الردّ عليه..

وأمّن على قوله هنفر، وابتسم هني موافقًا، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرًا، ولم يطق غضبه السكوت، فجال بناظريه في الوجوه الساخرة، وقال بحدّة:

ـ أليس يخلق الفنّ لكم لذّة وجمالاً؟

فقال له عانن، وهو لا يكاد يدري ما يقول لأنّ الخمر كانت لعبت برأسه:

ـ ما أتفه هذا.

فاحتدّ الشاعر، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال في عنف:

ـ ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنًى. أيجوز أن أذكر اللذّة والجمال، فيقال لي إنّها شيء تافه.. وهل توجد غاية في الدنيا وراء الجمال واللذّة؟!.

وطرب هنفر لقول رفيقه، وأخذته نشوة حماس، فمال برأسه ناحية أذن الغانية، وقال:

ـ صدق وحقّ جمالك يا رادوبيس، إنّ الحياة تمضي كحلم سريع الزوال، فأنا أذكر مثلًا أنّي حزنت لموت أبي حزنًا بالغًا وبكيته مرّ البكاء، ولكنّي الآن إذا عاودتني ذكراه أسائل نفسي: أحقًّا عاش ذلك الإنسان على الأرض؟ أم أنّه وهم خادع يتراءى لي في غبش الظلام؟!. هكذا الحياة. فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوّة؟ وماذا نال العاملون ممّا أنتجوا من مال وثراء؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا. وما ساسوا؟! هباء في هباء.. قد تكون القوّة حماقة، والحكمة خطأ، والثروة غرورًا. أمّا اللذّة فهي لذّة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك. فكلّ ما خلا الجمال باطل!

فبدا الجدّ على وجه رادوبيس الفاتن، وقالت له وقد لاحت في عينيها الأحلام:

ـ ومن يدريك يا هنفر، فلعلّ الجمال واللذّة من الأباطيل أيضًا؟. ألا تراني أمضي العمر في دعة وانتهاب لذّة، وتملّي الحسن والجمال؟. ومع هذا فكم يطاردني الملل والسأم!..

ووجدت رادوبيس أنّ رامون حتب في حالة سيّئة، وطالعت الاستياء في وجه هنفر، وصمت هني، فأشفقت من إيلامهم، وعدّت نفسها مسئولة عمّا أصابهم، فقالت تغيّر مجرى الحديث:

ـ حسبكم أيّها السادة.. فمهما قلتم فلن تنفكّوا تطلبون الفنّ والفنّانين، كم تحبّون يا هؤلاء الخصام. إنّكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعًا للجدل والخصام!..

ضاق الحاكم آني بالحديث ذرعًا، فقال لها بتوسّل:

ـ اطردي الخصام بلحن من أغانيك السعيدة.

وكان الجميع يتوقون للسماع والطرب، فضمّوا توسّلاتهم إلى الحاكم، ووافقت رادوبيس، وكانت شبعت من الكلام، واستولى عليها قلق غريب تردّد عليها مرّات في يومها، وظنّت أنّ الغناء أو الرقص يزيله، فقامت إلى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن

بالدفوف والقيثارة والناي والوَنج والصفّارة ووقفن وراءها صفًّا.

ثمّ أشارت بيدها العاجيّة، فأخذن جميعًا في التوقيع الجميل والنقر الرشيق، يهيّئن لصوتها الرخيم جوًّا فاتنًا من الموسيقى والطرب. ثمّ مضت تخفت أنغام آلاتهنّ حتّى صارت كهمس العاشقين الذاهلين، وأنشأت رادوبيس تغنّي قصيدة رامون حتب:

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء، أعيروني آذانكم لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر في رأس الحالم وقد شبعت ضحكًا من وعدهم ووعيدهم، فأين الفراعنة، أين الساسة، أين الغزاة، هل حقًّا القبر عتبة الخلود، ولكن لم يأت من القبر رسول يطمئن قلوبنا، فلا يفوتكم طرب، ولا تفوتكم لذّة. لصوت الساقي أبلغ حكمة من صراخ الواعظ.

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهيّ حنون، أطلق الأرواح من قيود الأجسام، فهامت في سماوات الجمال والسعادة، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا، وشاركت في التجلّي الأعلى، وظلّ القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهّدون فرحًا وحزنًا ولذّة وألمًا..

وطرد الحبّ من صدورهم كلّ عاطفة إلّاه، فاستبقوا إلى الشراب، وهدفوا بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين، وتداعبهم، وتماجنهم، وتشاربهم، ولمّا دنت من آني همس في أذنها:

ـ أسعدتك الأرباب يا رادوبيس.. جئتك شبحًا مثقلًا بالتبعات وأخال نفسي الآن طيرًا يحلّق في السماء.

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب، وأهدته زهرة لوتس عوضًا عمّا فقد، فقال لها:

ـ يقول هذا الشيخ إنّ الفنّ لعب خيال، ألا سحقًا لرأيه.. إنّه ومضة إلهيّة تشعّ من عينيك، وتدور مع وجيب قلبي، ثمّ تأتي بالأعاجيب..

فقالت له ضاحكة:

ـ أيخرج منّي شيء يأتي بالأعاجيب، وأنا أعجز من الرضيع؟

ثمّ هرعت إلى حيث يجلس هوف، وجلست إلى جانبه، ولم يكن ذاق خمرًا، فحدجته بنظرة فاتنة، فضحك الرجل، وقال متهكّمًا:

ـ يا سوء ما اخترت جليسًا.

ـ ألا تحبّني كهؤلاء؟

ـ ليتني أستطيع.. ولكنّي أجد فيك ما يجده المقرور في المدفأة.

ـ إذًا انصحني ماذا أصنع بحياتي لأنّي اليوم أشكو؟

ـ أتشكين حقًّا.. أنعيم وثراء وشكوى؟

ـ كيف غاب عنك هذا أيّها الحكيم؟

ـ الجميع يشكو يا رادوبيس، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين الذين يتلهّفون على كسرة خبز، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يئنّون تحت عبء التبعات الجسام، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعي بما قسم لك.

ـ وهل يشكو الناس في عالم أوزوريس؟

فابتسم الشيخ وقال:

ـ آه.. إنّ صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير. أمّا الكهنة العالمون فيقولون إنّه عالم الأبديّة، فصبرًا أيّتها الحسناء، إنّك ما زلت قليلة التجارب.

فعاودتها موجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب الفيلسوف، فقالت بلهجة جدّيّة متصنّعة:

ـ أحقًّا أنّي قليلة التجارب.. إنّك لم تر ممّا رأيت شيئًا؟

ـ وماذا رأيت ممّا لم أرَ؟

فأشارت ببنانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة:

ـ رأيت هؤلاء الرجال المبرّزين، وصفوة مصر سيّدة الدنيا، يسجدون عند قدميّ، وقد ردّوا إلى الوحشيّة، ونسوا حكمتهم ووقارهم، كأنّهم كلاب أو كأنّهم قردة!

ثمّ ضحكت ضحكة رقيقة، وجرت في خفّة الغزلان إلى وسط البهو، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهنّ بالأوتار، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها

المختارة التي يبدع فيها جسمها اللدن، ويأتي بالمعجز من الخفّة والتثنّي، وغلب الطرب القوم على أنفسهم، فاشتركوا بكفّهم مع الدفوف، واتّقدت في الأعين أنوار خاطفة، وختمت رقصتها، ثمّ طارت كالحمامة إلى عرشها، وجالت بعينيها في أوجه القوم الجشعة، فرأت ما أضحكها قهرًا، وقالت:

ـ لكأنّي بين الذئاب.

وأعجب عانن الثمل بالتشبيه، وتمنّى لو كان ذئبًا ليقتنص الشاة الجميلة، وحقّقت له الخمر ما تمنّى، وظنّ نفسه ذئبًا حقًّا، فعوى بصوت عالٍ ضجّ له السادة ضحكًا، ولٰكنّه ثابر على العواء، وانكبّ على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف، حتّى صار منها على قيد شبر، ثمّ قال لها:

ـ اجعلي هذه الليلة من نصيبي..

ولكنّها لم تردّ عليه، والتفتت إلى الحاكم آني، وقد جاء يحيّيها تحيّة الوداع، فأعطته يدها، ثمّ تلاه الفيلسوف هوف، وقد سألته ضاحكة:

ـ ألا ترغب في أن أجعل هٰذه الليلة من نصيبك؟

فهزّ رأسه ضاحكًا وقال:

ـ أيسر عليّ أن أُسخَّر مع الأسرى في مناجم قفط!.

ورجا كلّ أن تكون الليلة له، وألحف في الرجاء، وتنافسوا في ذلك تنافسًا شديدًا حتّى حرج الأمر. وانبرى هنفر لإيجاد حلّ له فقال:

ـ ليكتب كلّ منكم اسمه في ورقة، ولنضع الأسماء جميعًا في صندوق عانن العاجيّ، ثمّ تمدّ رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظّ..

واضطرّ الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم، إلّا عانن خشي أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرّع:

ـ مولاتي.. أنا رجل سفر، اليوم بين يديك، وغدًا في بلد بعيد لا أبلغه إلّا بشقّ الأنفس، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها إلى الأبد..

ولٰكن أثار دفاعه ثائرة القوم، وردّوا عليه هازئين، وكانت رادوبيس صامتة. تشاهد عشّاقها بعينين جامدتين، وقد عاودها القلق الغريب، فأحسّت برغبة في الفرار والانفراد. وضجرت من الصراخ، فأشارت لهم بيدها فكفّوا وهم بين الأمل والخوف، فقالت:

ـ لا تتعبوا أنفسكم أيّها السادة، فلن أكون الليلة لإنسان!

وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين، لا يصدّقون آذانهم، ثمّ لم يلبثوا أن ضجّوا بالاحتجاج، وجأروا بالشكوى. فوجدت ألّا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم، فقامت واقفة، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت:

ـ إنّي تعبة.. دعوني أستريح!..

ولوّحت لهم بيدها البضّة وولّتهم ظهرها، وغادرت المكان على عجل..

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت، سعيدة بخلاصها تلك الليلة، وما تزال تطنّ بأذنيها تأوّهات القوم الحارّة.. وشخصت إلى النافذة رأسًا وأزاحت عنها الستارة، ونظرت إلى الطريق المظلم، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان، فلذّ لها منظرهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية.

كيف فعلت ما فعلت؟.. لا تدري! ولٰكنّها تشعر باضطراب وقلق..

واها.. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة؟. لقد حارها الجواب، ولم يروِ غلّتها الحكيم هوف نفسه، ثمّ استلقت على سريرها الوثير، واستسلمت للأحلام، فمرّت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة في أثر الأخرى: فرأت جموع المصريّين المحتشدة.. ورأت عيني الساحرة المتّقدتين اللتين جذبتاها إليها بقوّة قاهرة، وسمعت صوتها البشع الذي يبعث الرعشة في المفاصل.. ثمّ شاهدت فرعون الشابّ في هالة المجد والجلال، ثمّ ذٰلك النسر الهصور الذي انقضّ على فردة صندلها وطار بها إلى السماء. حقًّا كان يومًا حافلًا. ولعلّ هٰذا أيقظ عواطفها، وشرّد خيالها، ووزّع نفسها أشتاتًا، ممّا ذهب ضحيّة له العشّاق البائسون، إنّ قلبها يخفق خفقانًا شديدًا، ونفسها تضطرم بلهيب غامض، وخيالها يتيه بها في وديان غريبة. وكأنّها تودّ أن تنتقل

من حال إلى حال، ولكن أيّ حال هٰذه؟! إنها حَيْرى لا تدري شيئًا، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة؟!

إنّ ما بها لسحرًا مبينًا، فإن لم يكن سحر ساحر، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر.

طاهو

كانت قلقة مبلبلة موزّعة النفس، فيئست من النوم. وغادرت السرير مرّة أخرى، ودلفت إلى نافذة تطلّ على الحديقة، وفتحتها على مصراعيها ووقفت وراءها كالتمثال، ثمّ حلّت عقدة شعرها، فانساب في خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق، وملأت رئتيها بهواء الليل الرطب، ثمّ وضعت مرفقيها على حافة النافذة، وأسندت ذقنها إلى كفّيها. وتاهت عيناها في الفضاء الشامل للحديقة. والنيل الجاري وراءها. كانت ليلة ظلماء معتدلة الجوّ، يهبّ نسيمها متقطّعًا خفيفًا ضعيفًا فيراقص الغصون والأوراق رقصًا رحيًا رقيقًا، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء. أمّا السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع، ترسل شعاعًا باهتًا ما إن يقترب من الأرض حتّى يغرق في بحار الظلمة.

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيا على رأسها القلق ظلًّا من السكينة والطمأنينة؟. هيهات.. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاه، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة، وأسلمت إليها خدّها الأيمن، وأغمضت عينيها.

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف: «فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير، فاقنعي بما قسم لك». وتنهّدت من أعماق قلبها، وتساءلت في حزن.. أما من فائدة ترجى من التغيير حقًّا؟.. أحقًّا أنّ الشكوى تلاحق الإنسان أبدًا؟.. ولٰكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانًا صادقًا يصرف قلبها عن طلب التغيير؟ إنّ ما بقلبها ثورة جامحة، تودّ لو تدمّر بها حاضرها وماضيها، وتفرّ خالصة إلى آفاق غامضة مجهولة. فكيف تجد الراحة والقناعة؟ إنّها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى، ولٰكنّها جزعة برمة بكلّ شيء.

ولم تُترك لأفكارها وأحلامها، إذ سمعت طرقًا خفيفًا على باب مخدعها، فأرهفت أذنيها دهشة، ونادت قائلة وهي ترفع رأسها:

ـ من؟

فأجاب صوت تعرفه حقّ المعرفة:

ـ أنا يا مولاتي.. أتسمحين لي بالدخول؟.

فقالت:

ـ تعالي يا شيث..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها، ودهشت لوقوف سيّدتها، وأنّ سريرها لم يمسّ، وعاجلتها الغانية قائلة:

ـ ماذا وراءك يا شيث؟

ـ ورائي رجل ينتظر الإذن بالدخول.

فقطّبت جبينها، وقالت بصوت ينطوي على الغضب:

ـ أيّ رجل!.. اطرديه دون تردّد.

ـ كيف يا مولاتي.. إنّه رجل لا يغلق دونه باب هٰذا القصر.

ـ طاهو.

ـ هو بعينه.

ـ وما الذي جاء به في هٰذه الساعة المتأخّرة من الليل؟

فلاحت في عيني الجارية نظرة ماكرة، وقالت:

ـ هٰذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتي.

فأشارت لها بيدها أن تدعوه، وغابت الجارية لحظات، ثمّ لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض. وحيّاها بانحناءة من رأسه ووقف أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك. ولم يخف عليها شحوب لونه، وتجعّد جبينه، وظلمة عينيه، فأنكرته، وسارت إلى الديوان، وجلست عليه وسألته:

ـ أراك متعبًا.. هل أجهدك العمل؟

فهزّ رأسه بالنفي، وقال باقتضاب:

- كلا.

- لست كعهدي بك.

- حقًّا!.

- لا شكّ أنّك تعلم هذا.. ماذا بك؟

هو يعلم كلّ شيء بلا ريب، وستعلمه بعد حين سواء أدّاه إليها بنفسه أم لم يؤدّه. وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنّه يغامر بسعادته، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد. ولو أنّه كان يستطيع أن يتسلّط على إرادتها لهان كلّ شيء، ولٰكنّه يكاد أن ييأس من هذا، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها:

- آه يا رادوبيس! لو كنت تبادلينني الحبّ لأمكن أن أتوسّل إليك باسم حبّنا.

ترى ما حاجته إلى التوسّل؟.. عهدها به رجلًا عنيفًا يكره التوسّل والرجاء، وطالما قنع بفتنة جسمها، فما الذي أفزعه!؟. وخفضت عينيها وقالت:

- هذا حديث قديم مُعاد.

فأغضبه قولها على صدقه، واحتدّ قائلًا:

- أعلم ذلك.. ولكنّي أعيده لدواعٍ حاضرة.. آه.. لكأنّ قلبك غار أجوف في قاع نهر بارد..

كانت ألفت أمثال هٰذا المقال، ولٰكنّها قالت متململة:

- هل منعتك شيئًا تشتهيه؟

- كلّا يا رادوبيس. لقد وهبتني جسمك الفاتن الذي خلق عذابًا للبشر. ولكن طالما طمعت في قلبك. يا له من قلب يا رادوبيس.. إنّه يقف وسط زوابع الشهوات جامدًا كأنّه ليس منك، ولطالما ساءلت نفسي متحيّرًا مغيظًا، ماذا يعيبني؟. ألست رجلًا بل أنا رجولة كاملة. والحقيقة أنّك بدون قلب..

وازداد إنكارها له، ليست هٰذه المرّة الأولى التي تسمع فيها هذا الكلام؛ ولكنّه كان يقوله ساخرًا أو غاضبًا غضبًا خفيفًا.. أمّا في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، فإنّه يتكلّم بصوت متهدّج ويتميّز غيظًا وحنقًا. فما الذي أهاجه؟ وكأنّها أرادت أن تستحثّه فسألته:

- أجئت في هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنيّ هٰذا الحديث؟

- كلّا لم أجئ من أجل هذا الحديث.. ولكنّني جئت من أجل أمر خطير.. إن لم يسعفني الحبّ فيه، فلتسعفني حرّيّتك التي تحرصين عليها.

فنظرت إليه في اهتمام شديد، وانتظرت أن يتكلّم، وبلغ به الضيق أشدّه، فعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لفّ ولا دوران، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوّب عينيه إلى عينيها:

- ينبغي أن تهجري قصر بيجة، وأن تفرّي من الجزيرة فرارًا في أقرب وقت.. قبل أن ينبلج الصباح.

فارتاعت المرأة لقوله، ونظرت إليه بعينين لا تصدّقانه وسألته:

- ما هذا الذي تقوله يا طاهو؟

- أقول إنّه ينبغي أن تختفي.. أو تفقدي حرّيّتك.

- وماذا يهدّد حرّيّتي في بيجة؟

فأصرّ على أسنانه، وسألها بدوره:

- ألم تفقدي شيئًا ثمينًا؟

فقالت داهشة:

- بلى. فقدت فردة صندلي الذهبيّ الذي أهديتنيه.

- كيف؟.

- خطفه النسر وأنا أستحمّ في بركة الحديقة.. ولٰكنّي لا أدري أيّ علاقة توجد بين حرّيّتي المهدّدة وصندلي المفقود؟

- مهلًا يا رادوبيس.. لقد خطفه النسر حقًّا، ولكن ألا تدرين أين سقط؟

وجدته يتكلّم بلهجة العارف، فاستولى عليها العجب وتمتمت قائلة:

- من أين لي بهذا يا طاهو؟

فتنهّد قائلًا:

- سقط في حجر فرعون.

وقرعت هذه الكلمة أذنيها في هالة من دويّ هائل، ملأ حواسّها جميعًا، وأذهلها عن كلّ شيء. فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها، وكان القائد يتفرّس بعينين قلقتين مرتابتين،

ويتساءل: ترى ما وقع الخبر في نفسها؟. وما الإحساس الذي يعتلج في صدرها؟. وضاق ذرعًا. فسألها بصوت خافت:

- ألم أكن محقًا في طلبي؟

ولكنّها لم تردّ عليه، ولم يبد عليها أنّها كانت تصغي إليه. كانت غارقة في لجج تلتطم في قلبها الحائر، فهاله جمودها، وكبرت عليه حيرتها، ورأى في ذلك آية نفر منها قلبه، فذهب صبره، واستنفره الغضب، فغشّي بصره، وصاح بها بصوت أجشّ شديد:

- في أيّ واد تتيهين يا هذه؟.. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل؟

فارتجف جسمها من شدّة صوته.. والتهب الغضب بقلبها، وحدجته بنظرة حقد شديدة، ولكنّها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما تريد، وسألته ببرود:

- أترى أنّه كذلك؟

- أرى أنّك تتغابين يا رادوبيس.

- كم إنّك ظالم.. هَبْ أنّ الصندل سقط في حجر فرعون، فهل تراه قاتلي لذلك؟

- كلّا، ولكنّه قلّب الصندل بين يديه، وتساءل عمّن عسى أن تكون صاحبته؟

فخفق قلب الغانية بشدّة وسألته:

- وهل وجد الجواب؟

فأظلمت عيناه، وقال بصوت متهدّج:

- كان هناك إنسان يتربّص بي، جعلته الأقدار صديقًا عدوًّا وعدوًّا صديقًا، فانتهز الفرصة السانحة، وطعنني طعنة نجلاء، فذكرك عند فرعون ذكرًا جميلًا مغربًا، قدح الرغبة في قلبه، وأهاج الشهوة في صدره.

- سوفخاتب؟!

- هو بعينه ذاك الصديق العدوّ، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشابّ.

- وماذا يريد؟

فعقد طاهو ذراعيه على صدره، وقال بشدّة:

- ليس فرعون بالإنسان الذي يرغب في شيء، ويعزّ عليه، وهو إذا هوى شيئًا يعرف كيف يستأثر به.

وساد الصمت مرّة أخرى، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطرمة، وجثم الكابوس على صدر الرجل، واشتدّ به الحنق لصمتها، ولأنّها لم تفزع ولم ترتعب، فقال لها بغيظ:

- ألا ترين أنّ حرّيّتك مهدّدة بالأسر؟ حرّيّتك يا رادوبيس التي تحرصين عليها، ولا تفرّطين فيها. حرّيّتك التي دمّرت قلوبًا وأهلكت نفوسًا، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة تفتك بأهل بيجة جميعًا، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها؟

واستاءت لوصفه هذا لحرّيّتها، وقالت له بسخط:

- أتقذفني بهذا الوصف الذي تقشعرّ منه الأبدان، وكلّ ذنبي أنّي لم أستبح نفسي للرياء، وأقول لإنسان كذبًا إنّي أحبّه؟

- ولماذا لا تحبّين يا رادوبيس؟ لقد أحبّ طاهو الجنديّ الجبّار الذي خاض غمار الحرب في الجنوب والشمال، وتربّى على ظهور العجلات. فلماذا لا تحبّين أنت..؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة، وتساءلت:

- ترى هل أملك جوابًا على سؤالك؟

- لست أبالي هذا الآن، فما لهذا جئت.. أسألك ماذا أنت فاعلة؟.

فقالت بهدوء واستسلام عجيب:

- لست أدري.

فاضطرمت عيناه كجمرتين، والتهمتاها بحنق، وأحسّ برغبة جنونيّة في تحطيم رأسها. وحدث أن نظرت إليه فتنفّس تنفّسًا عميقًا، وقال:

- حسبتك أشدّ حماسًا لحرّيّتك.

- وما عسى أن أفعل؟

فضرب يدًا بيد، وقال:

- تفرّين يا رادوبيس! تفرّين قبل أن تحملي إلى قصر الحاكم جارية من الجواري، وتودعين حجرة من حجراته التي لا عداد لها، ثمّ تعيشين هنالك في وحدة وعبوديّة، تنتظرين نوبتك مرّة كل عام، تعيشين ما بقي من حياتك في جنّة حزينة يطوف بها سجن كئيب... هل خلقت رادوبيس لمثل هذه الحياة؟!

وثارت ثائرتها غضبًا لكرامتها وكبريائها. ترى من

الممكن أن يكون حظّها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة؟

أيقدّر لها في النهاية ـ هي التي يستبق إلى رضاها صفوة الرجال ـ أن تقاسم الجواري قلب فرعون الشابّ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة في الحريم الفرعونيّ؟ أتهوي إلى الظلمات بعد النور، وتتلفّع بالهوان بعد العزّة، وتقنع بالعبوديّة بعد السيادة الجبّارة الكاملة؟.. أوّاه.. ما أبشع التصوّر وأغرب الخيال.. ولكن هل تفرّ كما يريد طاهو؟.. أترضى بالفرار؟. رادوبيس المعبودة التي لم يحظ بحسنها وجه، ولم يشحن بسحرها جسم، تفرّ من العبوديّة؟.. فمن إذًا التي تطمع في السيادة والاستئثار بالقلوب؟!.

ودنا منها خطوة، وقال لها بتوسّل:

ـ رادوبيس.. ماذا تقولين؟

فعاودها الغضب، وقالت بسخرية:

ـ ألا يسوءك أيّها القائد أن تغريني بالهرب من وجه مولاك؟

وأصابته سخريتها في صميم قلبه، فترنّح من هول الصدمة، وقال بسرعة، وقد أحسّ بمرارة في فمه:

ـ لم يرك مولاي بعد يا رادوبيس. أمّا أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد. أنا أسير هوًى جامح لا يعرف الرحمة، يوردني موارد الهلاك، ويطؤني بقدم الذلّ والعذاب، إنّ صدري أتون من عذاب ملتهب، وقد اشتدّ لهيبه اندلاعًا حين أشفق من فقدك إلى الأبد. فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبّي، ولا أخون مولاي المعبود قطّ.

لم تلق بالًا إلى شكواه، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه، كانت ما تزال تثور لكبريائها، ولذلك حين سألها الرجل عمّا تنوي عمله، هزّت رأسها بعنف كأنّما تريد أن تنفض عنها الوساوس الحقيرة وقالت بصوت بارد مليء بالثقة:

ـ لن أفرّ يا طاهو.

وسهم الرجل في ذهول ويأس، وسألها:

ـ هل رضيت بالهوان وأسلمت للذلّ؟

فقالت، وعلى فمها ابتسامة:

ـ لن تذوق رادوبيس الذلّ أبدًا.

فاستشاط غضبًا، وقال:

ـ آه لقد فهمت. تحرّك شيطانك القديم، شيطان الغرور والكبر والقوّة، ذلك الشيطان يحتمي ببرودة قلبك الأبديّة، ويلتذّ بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكّم في المصائر، لقد لاح له اسم فرعون فتمرّد، وأراد أن يجرّب قوّته وسطوته، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين، غير عابئ بما يدوس في سبيله الشيطانيّ من أشلاء القلوب، وذوب النفوس، وأنقاض الآمال.. آه.. لماذا لا أقضي على هذا الشرّ بطعنة من هذا الخنجر؟

فنظرت إليه بعين مطمئنّة، وقالت:

ـ لم أمنعك شيئًا، وطالما حذّرتك من الإغراء!

ـ إنّ هذا الخنجر كفيل بتهدئة نفسي.. كم تكون نهاية طبيعيّة لرادوبيس؟

فقالت بهدوء:

ـ وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنيّ طاهو!

فنظر إليها طويلًا بعينين جامدتين، وكان يشعر في تلك اللحظة الفاصلة بيأس مميت وقنوط خانق، ولكنّ غضبه لم ينفجر، وقال بلهفة باردة قاسية:

ـ ما أقبحك يا رادوبيس!.. أنت صورة بشعة مشوّهة، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر. إنّ صورتك قبيحة لأنّها صورة ميتة، ولا جمال بلا حياة، لم تنبض الحياة بصدرك قطّ، ولم تدقّ قلبك أبدًا.. أنت جثّة وسيمة القسمات، ولكنّها جثّة. لم يبد الحنان في عينيك، ولا انفرجت شفتاك عن ألم، ولا خفق قلبك بالعطف. نظرتك جامدة وقلبك قدّ من حجر.. أنت جثّة ملعونة، وينبغي أن أكرهك، وأن أكرهك ما حييت.. وأنا أعلم أنّك ستطغين كيف شاء لك شيطانك، ولكنّك ستصرعين يومًا محطّمة النفس، وهذه نهاية كلّ شرّ.. لماذا أقتلك إذًا.. لماذا أحمل تبعة قتل جثّة ميتة؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثمّ ذهب.

ولبثت رادوبيس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين، حتّى غمرها سكون الليل..

ثمّ رجعت إلى النافذة. كان الظلام شاملًا، والنجوم ساهرة في مأدبتها الأبديّة، والسكون مخيّمًا رهيبًا، فخالت أنّها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها الدفينة.

كان ما بها قويًّا عنيفًا بالحرارة والقلق، يقسم أن جسمها جسم نابض بالحياة، لا جثّة هامدة..

فرعون

وفتحت عينيها فرأت ظلمة. ترى أما يزال الليل جاثمًا، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها إلى السكينة والنوم؟. ولبثت دقائق لا تعي شيئًا مطلقًا ولا تذكر شيئًا، كأنّها جهلت الماضي كما تجهل المستقبل، وكأنّما ابتلعت شخصيّتها ظلمة الليل الحالكة. وأحسّت هنيهة بذهول وضيق، ثمّ ألفت عيناها الظلمة فبهتت وخفّت وطأتها، واستطاعت أن ترى ضوءًا خفيفًا يشعّ من خصاص النوافذ فتبيّنت أثاث المخدع، ورأت المصباح المدلّى المكفّت بالذهب، وولج الشعور حواسّها، فذكرت أنّها ظلّت يقظة لا يذوق جفنيها نوم حتّى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادئ، وأنّها ارتمت عند ذاك على السرير، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثاني، أو في مسائه.

وذكرت حوادث الليلة الماضية، وعادت إلى مخيّلتها صورة طاهو وهو يرغي ويزبد، ويئن من اليأس ويتوعّد بالمقت، يا له من رجل عنيف! إنّه لرجل جبّار شديد الغضب، وحشيّ الغرام، ولا عيب فيه إلّا أنّ حبّه عنيد مثابر، شديد التغلغل. وتمنّت صادقة لو ينساها أو يمقتها، إنّها لا تجني من الحبّ سوى المشقّة. الكلّ يتلهّف على قلبها، وقلبها زاهد نافر، كحيوان غير أليف. وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثّرة ومآسي أليمة، وهي كارهة. ولكنّ المآسي كانت تتبعها كظلّها، وتحوم حولها كخواطرها، فلوّثت حياتها بالقسوة والآلام.

ثمّ ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشابّ من أنّه يرغب في رؤية صاحبة الصندل، وأنّه سيدعوها حتمًا إلى حريمه العامر.. آه.. إنّ فرعون شابّ ملتهب الدماء، جنونيّ الشباب. كما قيل لها، فليس عجيبًا أن يقول طاهو ما قال، ولا مستحيلًا أن تصدق أقواله، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرًى جديدًا، إنّ ثقتها بنفسها لا حدّ لها.

وسمعت طرقًا على الباب، فقالت بصوت متكاسل:

- شيث.. ادخلي.

وفتحت الجارية الباب، ودخلت تسير في خفّتها المعهودة وهي تقول:

- حمدًا للربّ الذي يسّر لك النوم بعد طول السهاد. وارحمتاه لك يا مولاتي، لا بدّ أنّ الجوع نال منك كلّ منال.

وفتحت النافذة، فانبعث منها نور مكلّل بسمرة، وقالت ضاحكة:

- غابت شمس اليوم دون أن تراك، فباءت من زيارتها للأرض بالخسران.

وسألتها رادوبيس وهي تتمطّى وتتثاءب:

- أأتى المساء؟.

- نعم يا مولاتي، والآن هل تذهبين إلى الماء المعطّر أم تتناولين الطعام؟.. وأأسفاه أنا أعلم بما سهّد جفنيك بالأمس!

فسألتها باهتمام:

- ما هو يا شيث؟.

- أنّك لم تدفّئي الفراش برجل.

- خسئت يا ماكرة.

فقالت الجارية وهي تغمز بعينيها:

- الرجال عادة مستبدّة يا مولاتي، ولولا هذا ما احتملت غرورهم.

- حسبك ثرثرة يا شيث.

وشكت من ثقل رأسها، فقالت لها الجارية:

- هلمّي بنا إلى الحمّام.. فالعشّاق يتقاطرون على بهو الاستقبال، ويؤلمهم أن يروه خاليًا منك.

ـ هل جاءوا حقًّا؟.

ـ وهل خلا بهو استقبالك منهم قطّ في هذه الساعة؟

ـ لن أرى منهم أحدًا.

فبهتت شيث، ونظرت إلى سيّدتها بارتياب، وقالت:

ـ خيّبت بالأمس آمالهم.. فماذا تقولين اليوم؟.. آه. لو تعلمين يا مولاتي كم جزعوا لتأخّر حضورك.

ـ آذنيهم بأنّي تعبة.

وتردّدت الجارية، وهمّت بالاعتراض، ولكنّها صاحت بها بعنف:

ـ اصدعي بما أمرت.

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غيّر مولاتها.

وارتاحت الغانية لما فعلت، وقالت إنّ هٰذا ليس وقتهم، فهي لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغي إلى إنسان، ولا أن تحصر خواطرها في حديث فضلًا عن أن ترقص أو تغنّي.. فليذهبوا جميعًا.. وخشيت أن تعود شيث بتوسّلات القوم، فقامت من السرير وهرولت إلى الحمّام..

وتساءلت في وحدتها: ترى هل يرسل فرعون في طلبها هذا المساء؟. آه أهي لهٰذا تضطرب وتقلق؟. أهي تخشى؟. كلّا.. إنّ هذا الحسن الذي لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حدّ لها، وإنّها لكذٰلك.. ولن يقاوم جمالها إنسان، ولن يذلّ حسنها لمخلوق، ولو كان فرعون نفسه، ولكن لماذا إذًا هي مضطربة قلقة! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذي تلبّسها مساء الأمس، والذي نبض بقلبها أوّل ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشابّ الواقف على ظهر عجلته كالتمثال. يا عجبًا.. أتراها حائرة لأنّها حيال لغز غامض! واسم جبّار هائل! وربّ معبود! أترى أنّها تودّ لو تراه في نشوة البشر بعد أن رأته في جلال الآلهة؟!. أتراها قلقة لأنّها تريد أن تطمئنّ إلى قوّتها بإزاء هذا الحصن المنيع!.

وطرقت شيث باب الحمّام، وقالت إنّ السيّد عانن أرسل معها كتابًا إلى مولاتها، فغضبت الغانية، وقالت بعنف «مزّقيه إربًا»، وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها، فذهبت تتعثّر في الارتباك. وغادرت رادوبيس الحمّام إلى مخدعها في أجمل صورة وأكمل هيئة، وتناولت الطعام وشربت كأسًا مترعة من خمر مريوط. ولم تكد تطمئنّ إلى الديوان حتّى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان، فتلقّتها بنظرة تحذير ووعيد، وقالت الجارية في خوف:

ـ في البهو رجل غريب يلحّ في مقابلتك.

فاستولى الغضب على الغانية، وصاحت بها:

ـ هل أصابك مسّ من الجنون يا شيث؟ أتحالفين أولٰئك القوم المزعجين عليّ؟!.

فقالت الجارية وهي تلهث:

ـ صبرًا يا مولاتي.. لقد دفعت الزوّار جميعًا، أمّا هٰذا الرجل فغريب لم تره عينيّ من قبل.. التقيت به بغتة في الردهة المؤدّية إلى البهو، ولا أدري من أين أتى.. وحاولت أن أعترض سبيله، ولكنّه سار بغير مبالاة، وأمرني أن أبلّغك رجاءه.

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيهة، وسألتها باهتمام:

ـ هل هو من ضبّاط الحرس الفرعونيّ؟

ـ كلاّ يا سيّدتي.. إنّه لا يرتدي زيّ الضبّاط.. وقد سألته أن يعلن لي عن شخصيّته، فهزّ منكبيه باستخفاف، فأكّدت له أنّك لا تقابلين أحدًا اليوم.. ولكنّه استهان بكلامي، وأمرني أن آذنك بانتظاره.. أوّاه يا مولاتي.. إنّي أحرص على رضاك، ولكنّي لم أجد وسيلة إلى دفع هٰذا الثقيل الجريء.

وتساءلت أيكون هو رسول الملك؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتجّ لها صدرها.. وجرت إلى المرآة، وألقت على صورتها نظرة فاحصة، ثمّ دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت في المرآة، وسألت الجارية:

ـ ماذا ترين يا شيث؟

فقالت الجارية، وهي تدهش لتبدّل حال مولاتها:

ـ أرى رادوبيس يا مولاتي!

وغادرت الغانية المخدع، تاركة جاريتها في دهشتها

وحيرتها، وانتقلت كالحمامة من حجرة إلى حجرة، ثمّ هبطت أدراج السلّم المفروشة بفاخر السجّاد، وتريّثت قليلًا عند مدخل البهو. رأت رجلًا يوليها ظهره، ووجهه إلى جدار البهو يطالع شعرًا لرامون حتب.. ترى من هو؟ كان في مثل طول طاهو ولٰكنّه أميل إلى النحافة والدقّة، عريض المنكبين، جميل الساقين، على ظهره وشاح مرصّع بالجواهر يصل ما بين منكبيه ومنطقة وزرته، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرميّ لا تشبه قلنسوات الكهنة، ترى من يكون؟. إنّه لا يشعر بها لأنّها تتقدّم بخفّة على سجّاد غليظ.. ولمّا صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت خفيض:

- سيّدي

فالتفت الرجل الغريب إليها.

ربّاه!. وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام فرعون. فرعون نفسه بعزّته وجلاله، مرتزع الثاني دون غيره من الخلق!

رباه لقد زعزعت المفاجأة كيانها، فأخذت قهرًا، وغلبت على أمرها. ترى أهي في حلم من الأحلام! ولٰكنّها تعرف حقّ المعرفة هذا الوجه الأسمر، والأنف الأشمّ الطويل. إنّها لا يمكن أن تنساه أبدًا، لقد رأته مرّتين، فنفذ إلى ذاكرتها بقوّة، وحفر صفحتها حفرًا عميقًا لا يزول. ولكنّها لم تحسب حساب هٰذا اللقاء، ولا أخذت أهبتها له، لم ترسم له خطّة من خططها البارعة. وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليًا، وهي التي تعدّ العدّة للقاء تجّار النوبة؟!. أخذت على غرّة، فقهرت قهرًا! ومنيت بالهزيمة الساحقة، وبادرت تنحني لأوّل مرّة في حياتها، وتقول بصوت متهدّج: «مولاي».

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة، فتستقرّ على وجهها الجميل، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذّة غريبة، ويشاهد السحر الذي تنفثه قسماتها بنشوة فاتنة، فلمّا حيّته قال لها بصوته ذي النبرات الواضحة واللهجة العالية:

- أتعرفينني ؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقيّ:

- نعم يا مولاي.. هٰكذا شاء حظّي السعيد أمس.

وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها. وأخذ يحسّ بتخدير عامّ يعتور حواسّه وعقله، فلم يعد يأبه لإرادته، واندفع قائلًا:

- إنّ الملوك قوّامون على الناس، يسهرون على أرواحهم، وعلى أموالهم، ولهٰذا جئت إليك لأردّ لك أمانة ثمينة.

ولم يبال الملك أن يدسّ يده تحت وشاحه، فيخرج فردة الصندل ويقدّمها لها وهو يقول:

- أليس هٰذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدّقان ممّا تريان شيئًا، وتمتمت بانفعال شديد:

- صندلي!.

فضحك الملك ضحكة عذبة، وقال وعيناه لا تتحوّلان عنها:

- بعينه يا رادوبيس، أليس هذا اسمك؟

فأحنت رأسها، وتمتمت قائلة «نعم يا مولاي» وكانت مضطربة فلم تزد، أمّا الملك فاستدرك:

- إنّه لصندل جميل، وأعجب ما فيه هٰذه الصورة المنقوشة على باطنه، وكنت أحسبها زخرفًا جميلًا حتّى وقعت عليك عيناي، فعلمت أنّها حقيقة رهيبة، وعلمت حقيقة أجلّ ، وهي أنّ الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له في حسبان.

فشبكت كفّيها، وقالت:

- مولاي.. ما كنت أحلم قطّ أن تشرّف قصري بذاتك، أمّا أن تحمل صندلي.. ربّاه ماذا أقول؟.. لقد فقدت جناني. غفرانك يا مولاي! ويحي نسيت نفسي يا مولاي، وتركتك واقفًا.

وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه، ثمّ انحنت باحترام. ولكنّه اختار ديوانًا وثيرًا، وجلس عليه، وقال لها:

- ادني منّي يا رادوبيس. اجلسي ها هنا..

فدنت الغانية حتّى صارت على بعد قريب، ووقفت

تغالب اضطرابها وذهولها. فأجلسها بيده، وأمسك بمعصمها ـ وكانت أوّل لمسة ـ وأجلسها إلى جانبه.. وكان قلبها يخفق بشدّة، فوضعت الصندل جانبًا، وخفضت عينيها، ونسيت أنّها رادوبيس المعبودة، التي تعبث بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث. غلبتها المفاجأة، وهزّ نفسها الشخص المعبود، كأنّه ضوء متوهّج سلّط على عينيها بغتة، فانكمشت كعذراء تتصدّى لرجلها أوّل مرّة.. إلّا أنّ جمالها الرائع خاض المعركة ـ بغير علم منها ـ ثابت الجنان، عظيم الثقة، وسلّط شعاعه السحريّ على عيني الملك الداهشتين كما تسلّط الشمس شعاعها الفضّيّ على نائم النبت، فيصحو ويرفّ رفيفًا فاتنًا. كان جمال رادوبيس قاهرًا نفّاذًا، يحرق من يدنو منه، ويبعث في نفسه الجنون، ويملأ صدره برغبة لا تروى ولا تشبع..

كانا في تلك الليلة الخالدة ـ رادوبيس المتعثّرة في ارتباكها والملك التائه في الحسن ـ أحوج بشرين إلى رحمة الآلهة.

وأحبّ الملك أن يسمع صوتها فسألها:

ـ كيف لا تسأليني عن وقوع صندلك بين يديّ؟

فساورها القلق، وقالت:

ـ نسيت أمورًا أجلّ يا مولاي.

فابتسم وسألها:

ـ كيف ضاع منك؟

وهدأت رقّة صوته من انفعالها، فقالت:

ـ خطفه النسر، وأنا أستحمّ.

وتنهّد الملك ورفع رأسه كأنّه ينظر إلى تهاويل السقف، وأغمض عينيه يتخيّل ذلك المنظر الفاتن، إذ رادوبيس تلعب في الماء بجسمها العاري، والنسر يهوي من عل فيخطف صندلها. وسمعت الغانية رفيف أنفاسه، وأحسّت بها تلفح خدّها، وعاد إلى النظر إلى وجهها، وقال بوجد:

ـ خطفه النسر وطار به إليّ. يا لَلقصّة الفاتنة!. ولكنّي أتساءل منكرًا: أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيّض إليّ الربّ هذا النسر الكريم؟.. يا له من فرض محزن! ومع هذا فإنّي أحسّ في أعماقي بأنّه كبر على النسر ألّا أعرفك وأنت على قيد ذراع منّي، فرماني بالصندل لأنتبه من غفلتي.

فقالت كالداهشة:

ـ هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاي؟

ـ نعم يا رادوبيس.. هذه هي القصّة الفاتنة.

ـ يا لها من مصادفة كالسحر!

ـ أتقولين مصادفة يا رادوبيس.. وما المصادفة؟.. إنّها قضاء مقنع!.

فتنهّدت وقالت:

ـ صدقت يا مولاي.. إنّها كالعاقل المتغابي.

ـ سأعلن رغبتي على الملأ ألّا يعرض إنسان من شعبي للنسر بسوء!.

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة، ومضت في ثغرها كتعويذة سحريّة. وأحسّ الملك بهيام يملك قلبه، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم في وجد بيّن، وقال وهو يتنهّد:

ـ إنّه هو المخلوق الوحيد الذي أدين له بأثمن ما في حياتي.. رادوبيس! كم أنت جميلة! هذا حسن يزري بأحلامي جميعًا.

وسرّت المرأة لقوله، كأنّها تسمعه لأوّل مرّة في حياتها، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادته هيامًا، فقال وكأنّه يضرع ويشكو:

ـ كأنّ سوطًا تشتعل به النيران يلهب قلبي.

ثمّ أدنى وجهه من وجهها المشرق، وهمس:

ـ رادوبيس.. أريد أن أنغمر في أنفاسك.

فبسطت له وجهها، وأسبلت جفنيها. وجعل يهوي بوجهه حتّى مسّ أنفه أنفها الرقيق، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله، وسها إلى عينيها السوداوين حتّى صارت الدنيا ظلامًا، وأذهله الهوى، فاستولى عليه تخدير ساحر، حتّى تنبّه على تنهّدها العميق، فاعتدل قليلًا، وهمس في أذنها قائلًا:

ـ رادوبيس! إنّي أقرأ أحيانًا مصيري، سيكون الجنون منذ الساعة شعاري.

وأسندت رأسها إلى كفّها إعياء، وكان قلبها يخفق، فجلسا ساعة صامتين يسبعد كلاهما بحديث نفسه، وما

يحادث ـ وهو لا يدري ـ إلّا صاحبه، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة، وقالت له:

ـ هلّا اتّبعتني يا مولاي لتشاهد قصري؟

كانت دعوة سعيدة.. ولٰكنّها ذكّرته بأمور كاد أن ينساها، فوجد نفسه مضطرًّا إلى الاعتذار.. وما يضيره لو أجّل اللقاء ساعة. والقصر وما فيه ملك يمينه.. فقال بأسف:

ـ ليس الليلة يا رادوبيس.

ونظرت إليه بإنكار، وسألته:

ـ ولِمَ يا مولاي؟

ـ هناك قوم ينتظرونني منذ ساعات في القصر.

ـ أيّ قوم يا مولاي؟

فضحك الملك، وقال باستهانة:

ـ كان ينبغي أن أكون مجتمعًا برئيس الوزراء الآن، والحقّ يا رادوبيس أنّني منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاقّ، وكنت أبيّت نيّة زيارة قصرك، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية، ولمّا رأيت هٰذا المساء يكاد يلحق بالذي سبقه، أجّلت اجتماعًا هامًّا ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبيّ.

واستولت الدهشة على رادوبيس، وتمتمت قائلة «مولاي». وكانت تعجب من استهتاره الذي دفعه إلى تأجيل اجتماع هامّ من الاجتماعات التي تبرم فيها مصائر المملكة، لكي يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة.. ووجدت عمله جميلًا ساحرًا لا نظير له بين أعمال العشّاق ولا شعر الشعراء.

أمّا الملك فقام بدوره وقال لها:

ـ أنا ذاهب الآن يا رادوبيس.. واهًا.. إنّ القصر خانق.. إنّه سجن مسوّر بالتقاليد، ولكنّني أمرق منها مروق السهم.. سأترك الآن وجهًا حبيبًا لألقى وجهًا بغيضًا، فهل رأيت أغرب من هٰذا؟.. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة. بل إلى الأبد.

نطق بهٰذه الكلمات ثمّ ذهب بروعته، وشبابه، وجنونه.

الحبّ

ارتدّ بصرها عن الباب الذي غيّبه، فقالت وهي تتنهّد: «ذهب..»، ولكنّه في الحقيقة لم يذهب، لو كان ذهب حقًّا لما استولى عليها ذاك التخدير الغريب الذي جعلها بين النوم واليقظة، تذكر وتحلم، والصور تمرّ أمام مخيّلتها في تزاحم وتسابق وجنون.

حقّ لها أن تسعد، لأنّها بلغت منتهى المجد، وتسنّمت ذروة البهاء وتذوّقت من آي العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض. زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكيّة، وصاح بين يديها أنّ سوطًا من اللهب يلهب قلبه الفتيّ، فتوّجت بهيامه ملكة على عرشي المجد والجمال. وحقّ لها أن تسعد.. على أنّها كانت تسعد سعادة المجد!. ومال رأسها قليلًا، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتّى مسّت شفتاها فارسه..

ولم تنفرد بأحلامها طويلًا إذ دخلت شيث. وقالت:

ـ مولاتي.. أتنوين أن تنامي هنا؟

ولَمْ تردّ عليها.. وحملت الصندل، وقامت في كسل وسارت تتهادى صوب مخدعها. وتشجّعت شيث بسكوتها، فقالت بلهجة حزينة:

ـ واأسفاه يا مولاتي.. إنّ هذا البهو الجميل الذي ألف الطرب واللهو، يقفر الليلة لأوّل مرّة من السمّار والعشّاق.. ولعلّه يتحيّر مثلي سائلًا: «أين الغناء؟ أين الرقص؟ أين الحبّ.. هي مشيئتك يا مولاتي..».

ولم تبالها الغانية، وصعدت أدراج السلّم في صمت وسكون، فظنّت شيث أنّ حديثها ظفر باهتمام سيّدتها، فقالت بحماس:

ـ لشدّ ما وجموا وأسفوا لمّا آذنتهم باعتذارك.. وتبادلوا نظرات الحسرة والحزن العميق، وتراجعوا في ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس.

ولازمت المرأة الصمت، ودخلت إلى مخدعها الجميل، وهرعت إلى مرآتها وألقت نظرة على صورتها، ثمّ ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها: «إذا كان ما حدث الليلة معجزة، فهٰذه الصورة معجزة أيضًا» وغمرتها نشوة سعادة، فالتفتت إلى شيث وسألتها:

ـ من حسبت الرجل الذي جاء لمقابلتي؟.

ـ من هو يا مولاتي؟. إنّني لم أره قبل اليوم. هو شابّ غريب، ولكن لا جدال أنّه من النبلاء، مليح رهيب جسور، يندفع كالريح مجلجلًا، ولقدميه وقع شديد، ولصوته لهجة الآمر، ولولا خوفي لقلت: إنّه لا يخلو من. .

ـ من ماذا؟.

ـ من جنون. .

ـ حذارِ. .

ـ مولاتي. . مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشّاق جميعًا الذين طردتهم اليوم.

ـ حاذري أن تندمي حيث لا ينفع الندم.

فقالت شيث داهشة:

ـ هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آني؟

فقالت بزهو:

ـ إنّه فرعون يا حمقاء. .

وحملقت المرأة في وجه مولاتها. وتدلّت شفتها السفلى، ولم تنطق.

فقالت الغانية ضاحكة:

ـ هو فرعون يا شيث. . فرعون، فرعون بذاته دون سواه، إيّاك والثرثرة. . اذهبي الآن، اغربي عن وجهي، فإنّي أريد أن أخلو بنفسي. .

وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلّة على الحديقة، وكان الليل جثم في مجثمه وأرخى على الكون جناحيه، وبدت طلائع النجوم في كبد السماء، وأنوار المصابيح المعلّقة بأغصان الأشجار في الحديقة، وتبدّى الليل فاتنًا، فتذوّقت جماله وأحسّت لأوّل مرّة بأنّ انفرادها فيه عذب بل أعذب من اجتماعها بالعشّاق جميعًا. . وأصغت في سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها. . وبعثت الذكريات الذكريات، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد، خفق فيه قلبها خفقة طائشة، قبل أن تتوّج ملكة للقلوب على عرش بيجة، وتغدو للأنفس قضاء لا يردّ. كانت ريفيّة حسناء، برزت من بين أوراق الريف المخضلّة، كما تبرز الوردة اليانعة، وكان نوتيًا عذب الصوت نحاسيّ الساقين، ولا تذكر أنّها سلّمت لإنسان بداعي قلبها سواه، وشهدت شواطئ بيجة مشهدًا لم تسعد بمثله في الأرض. ودعاها إلى سفينه فلبّت دعاءه، وحملتها الأمواج من بيجة إلى أقصى الجنوب، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعًا. واختفى النوتيّ من حياتها فجأة، ولم تدر إن كان ضلّ، أو فرّ، أو مات، ووجدت نفسها وحيدة. كلّا لم تكن وحيدة، كان معها جمالها فلم تتشرّد، والتقطها كهل ذو لحية طويلة، وقلب ضعيف. وطابت لها الحياة وأثرت بموته، وتوهّج نورها فخطف الأبصار، فانجذبوا إليها كالفراش المجنون، وألقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوبًا فتيّة، وأموالًا لا تعدّ، وبايعوها ملكة للقلوب في قصر بيجة، فكانت رادوبيس. . يا للذكريات!.

كيف مات قلبها بعد ذلك؟. . هل أماته الحزن، أم الغرور، أم المجد؟. . كانت تصغي إلى حديث الحبّ بأذن صمّاء، وقلب مغلق، فكان منتهى ما يطمع فيه عاشق مدلّه مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد.

استسلمت للذكريات طويلًا، وكأنّما استدعتها لتربطها بأعجب أيّام حياتها، وأسعد أيّامها!.

ومضى الوقت وهي لا تحسّ به إن كانت ساعات أم دقائق، حتّى انتبهت على وقع أقدام، فالتفتت منزعجة، فرأت بابها يفتح، ودخلت شيث لاهثة وقالت:

ـ مولاتي. . إنّه يتبعني. . ها هوذا.

ورأته يدخل مطمئنًا كأنّه يدخل مخدعه الخاصّ، فغمرتها دهشة ممزوجة بفرح وصاحت:

ـ مولاي. .

وانسلّت شيث خارجًا، وأغلقت الباب، وألقى الملك نظرة على المخدع الجميل، وقال ضاحكًا:

ـ هل أطلب المغفرة لتهجّمي هذا؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة، وقالت:

ـ المخدع وصاحبته لك يا مولاي.

فضحك ضحكته الفاتنة. كانت ضحكة رنّانة فتيّة تنبض بالحياة الدافقة، وأمسك بمرفقها، وسار بها إلى الديوان وأجلسها، وجلس إلى جانبها، وقال:

- كنت أخشى أن يسبقني النوم إليك.

- النوم.. النوم لا يهتدي إلى أمثال هذه الليلة، يحسبها من فرط نور السعادة نهارًا.

فتبدّى الجدّ على وجهه وقال:

- إذًا احترقنا معًا..

لم تحسّ بهذه السعادة من قبل، ولم تعهد قلبها في مثل هذه اليقظة والحياة، ولم تشعر بلذّة الاستسلام إلّا أمام هذا الإنسان البديع، فقد صدق، إنّها تحترق، ولكنّها لم تقل شيئًا، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجري فيهما الصفاء والمودّة.. ثمّ قالت:

- لم يدر بخلدي أنّك تعود هذه الليلة..

- ولا دار لي بخلد، ولكنّني رأيت الاجتماع ثقيلًا مرهقًا، وأعياني تركيز فكري، واستخفّني الجزع، وعرض عليّ الرجل مراسيم كثيرة، فأمضيت عددًا يسيرًا، وأصغيت إليه بعقل مشتّت، ثمّ ضقت بكلّ شيء ذرعًا، فقلت له إلى الغد، ولم أكن أفكّر في العودة، ولكنّي رغبت في أن أخلو بنفسي للحديث والمناجاة.. فلمّا خلوت إلى نفسي وجدت الوحدة ثقيلة، والليل موحشًا لا يحتمل. هنالك لمت نفسي قائلًا: لماذا أصبر إلى الغد؟.. وليس من عادتي أن أقاوم عاطفة، فما عتّمت أن وجدتني ها هنا بين يديك..

يا لها من عادة سعيدة.. إنّها تجني أشهى ثمارها، وتحسّ جواره بفرح عجيب، وكان يضطرب حياة ونشوة، فقال:

- رادوبيس.. ما أجمل هذا الاسم، فإنّ له وقع الموسيقى في أذنيّ ومعنى الحبّ في قلبي. وهذا الحبّ شيء عجب، كيف يصرع رجلًا تعمر لياليه الحسان من كلّ لون وطعم؟.. إنّه حقًّا عجيب، ترى ما هو هذا الحبّ؟ إنّه قلق معذّب يسكن في قلبي، وأنشودة إلهيّة ترتّل في أسمى مكان من روحي. إنّه حنين موجع، إنّه أنتِ. أنتِ حالة في كلّ آية من آيات الدنيا والنفس، انظري إلى هيكلي هذا الشديد، إنّه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفّس والهواء..

إنّها تبادله هذا الشعور، وتحسّ بصدقه، فقد تكلّم ليصف قلبًا، فوصف قلبين، إنّها تسمع مثله الأنشودة الإلهيّة، وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس، وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة، فما عتّم أن تماسّت أهدابهما، فسألها برقّة:

- لماذا لا تتكلّمين يا رادوبيس؟

وفتحت عينيها الجميلتين، ونظرت إليه بوجد وحنان، وقالت:

- ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي؟. فطالما كان الكلام يتدفّق على لساني، وقلبي ميت، أمّا الآن، فقلبي يبعث حيًّا، ويمتصّ كلامك كما تمتصّ الأرض حرارة الشمس، وتحيا بها.

فابتسم إليها سعيدًا، وقال:

- اختطفني هذا الحبّ من وسط دنيا عامرة بالنساء.

فقالت وهي تبادله الابتسام:

- واختطفني من وسط دنيا عامرة بالرجال.

- كنت أتخبّط في دنياي كالحائر، وأنت منّي على بعد ذراع، واأسفاه.. كان ينبغي أن أعرفك من أعوام.

- كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا.

فشدّ على قبضة يده بحماس، وقال:

- نعم يا رادوبيس، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطّر في لوحها أجمل قصّة حبّ، وما أشكّ في أنّه كبر على النسر أن يؤخّر حبّنا لأجل بعيد، وما ينبغي لنا بعد اليوم أن نفترق. فأجمل ما في الدنيا أن نرى معًا.

فتنهّدت من أعماق قلبها، وقالت:

- نعم يا مولاي، فلا ينبغي أن نفترق بعد اليوم، وهاك صدري حقلًا ناضرًا ارتع فيه أنّى شئت.

فبسط كفّها بين يديه، وضغط عليها بحنوّ، وقال:

- تعالي إليّ يا رادوبيس، ليغلق هذا القصر على الماضي الغادر، فإنّي أحسّ بأنّ كلّ يوم ضاع من حياتي قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوّبت إلى سعادتي.

كانت كالمخمورة، ولكن ساورها القلق، فسألته:

- أيريدني مولاي على أن أنتقل إلى حريمه؟

فهزّ رأسه قائلًا:

ـ ستنزلين بأعزّ مكان به. .

فخفضت عينيها ووجمت، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها، ووضع أنامل يمناه تحت ذقنها الصغير، ورفع وجهها إليه وسألها:

ـ ما لك؟

فسألته بعد تردّد:

ـ أألأمر هو يا مولاي؟.

فانقبض صدره لذكر الأمر، وقال:

ـ أمر؟. . كلّا يا رادوبيس، إنّ لغة الأمر لا تجدي مع الحبّ، وإنّي ما تمنّيت قبل اليوم لو أجرّد من شخصيّتي!. . وأعود واحدًا من البشر يشقّ طريقه بلا عون، ويلقى حظّه بغير محاباة، انسي فرعون مليًّا، وأخبريني ألا ترغبين في اللحاق بي؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وتردّدها، فقالت بلهجة صادقة:

ـ أرغب فيك يا مولاي رغبتي في الحياة، بل الحقيقة أجمل من هذا. الحقيقة أنّي لم أحبّ الحياة حبًّا صادقًا إلّا منذ أحببتك، وأنّ قيمتها في نظري أنّها تشعرني بحبّك، وتسعد حواسّي بوجودك، أليس للمحبّين غريزة تصدقهم القول؟. . سلها عن قلب رادوبيس يا مولاي تُعِدْ على أذنيك ما جرى على لساني، ولكنّي أتساءل حيرى: لماذا أهجر هذا القصر، ولماذا أغلق أبوابه الى الأبد؟. . إنّه أنا بالذات يا مولاي، فينبغي أن تحبّه كما تحبّني. لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لي، إمّا صورتي أو اسمي أو تمثال لي. كيف لي بهجره وقد هبط فيه النسر الذي طار إليك برسالة الحبّ الخالدة؟. . كيف لي بهجره وقد خفق قلبي فيه بالحبّ لأوّل مرّة؟. . كيف لي بهجره يا مولاي وقد زرتني فيه بذاتك العالية؟. . حريّ بأيّ مكان تطؤه قدماك أن يصير ـ كقلبي ـ لك وحدك، ولا يغلق أبوابه أبدًا.

كان يصغي إليها بحواسّه المرهفة، وقلبه المشبوب الجامح، فتؤمن نفسه بكلّ كلمة من كلماتها. ثمّ لمس بحنوّ جدائل شعرها الفاحم، واحتواها بين ذراعيه، وطبع على شفتيها قبلة رطّبت شفتيه برحيق عذب، وقال لها:

ـ رادوبيس. . أيّتها الحبّ الممتزج بروحي. . لن يغلق هٰذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته، سيبقى ما بقينا مهدًا للحبّ، وجنّة للهوى، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات، سأجعل منه محرابًا للحبّ، وأصيّر أرضه وجدرانه ذهبًا مصفّى.

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة، وقالت تناجيه:

ـ لتكن مشيئتك يا مولاي، وإنّي أقسم بحبّي لأذهبنّ الغداة إلى معبد الربّ سوتيس، وأغسل جسدي بالزيت المقدّس، لأرْحَض نفسي من الماضي الشقيّ، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد، بزهرة تشقّ الأكمام وتتصدّى لشعاع الشمس.

فوضع يدها على قلبه، ونظر إلى عينيها وقال:

ـ رادوبيس أنا اليوم سعيد، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتي، حياتي وحسبي بها من حياة. . انظري إليّ، فسواد عينيك أشهى لقلبي من نور الدنيا. .

في تلك الليلة نامت جزيرة بيجة، وسهر الحبّ بقصرها الأبيض، حتّى انحسر في ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحالمة. .

ظِلّ الحُبّ

استيقظت في الضحى، وكان الجوّ حارًا، والشمس ترسل أشعّتها المتوهّجة، فتبثّ في الدنيا نورًا ونارًا، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن، وشعرها مبعثرًا، منه خصلات نائمة على صدرها، وخصلات ملقاة على الوسادة.

طوبى ليقظة تهيّج في القلب أجمل الذكريات. . كان قلبها مرتعًا للغبطة، والجوّ من حولها معطّرًا بأريج الأزهار، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح، فأحسّت لتجدّد مشاعرها كأنّما تكشف عالمًا جديدًا جميلًا، أو كأنّها تبعث خلقًا جديدًا. .

ومالت في نومتها إلى جانبها، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة، فرأت آثار رأسه عليها واضحًا، فاستلّ من

عينيها منتهى العطف والحنان، وأدنت رأسها منه ولثمته، وقد تمتمت بفرح: ما أجمل كلّ شيء.. وما أسعدني بكلّ شيء..

ثمّ جلست في فراشها هنيهة وغادرته ـ كما كانت تغادره كلّ صباح ـ نشطة مرحة كملحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة، واستحمّت بالماء البارد، وتعطّرت بماء الزهر، وارتدت ثيابها المبخّرة ثمّ عادت إلى مائدة الطعام، وتناولت إفطارها المكوّن من بيض وفطير، وشربت كوبًا من اللبن الحليب، وكأسًا من الجعة..

واستقلّت سفينتها إلى آبو، وقصدت إلى معبد الربّ سوتيس، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل، وطافت بأرجائه، وتبرّكت بجدرانه وعمده ذات النقوش المقدّسة، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى، وسألتها أن تغسلها بالزيت المقدّس لتطهّرها من شوائب الحياة وأحزانها، وتَرْحَض قلبها من الغيّ والعمى. وقد أحسّت، وهي بين يدي الكاهنات المطهّرات، أنّها تودع، بلا رحمة، قبر الفناء جسد رادوبيس الغانية اللعوب، التي كانت تعبث بالرجال وتهلك النفوس، وترقص على أشلاء الضحايا، وذوب القلوب، وأنّ دمًا جديدًا يجري في عروقها، فينبض في قلبها وحواسّها الطمأنينة، والسعادة، والطهر، ثمّ صلّت صلاة حارّة، جاثية على ركبتيها مغرورقة العينين، وضرعت في الختام إلى الربّ أن يبارك حبّها وحياتها الجديدة. وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنّها طائر يرفّ بجناحيه في سماء صافية، واستقبلتها شيث فرحة متهلّلة، تكاد تطير من الفرح، وقالت:

ـ مبارك هٰذا اليوم السعيد يا مولاتي. ألا تعلمين من أتى قصرك في غيبتك..؟

فخفق قلبها باضطراب فرح، وصاحت:

ـ من؟..

فقالت الجارية:

ـ أتى رجال من أمهر الصنّاع بمصر مبعوثين من قبل فرعون، فشاهدوا الحجرات والأروقة والردهات، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيدًا لصنع أثاث جديد.

ـ حقًّا..

ـ نعم يا مولاتي، وسيغدو هذا القصر عمّا قليل أعجوبة الزمان، فيا لها من صفقة رابحة!..

وتحيّرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة، ثمّ خطر لها خاطر، فقطّبت جبينها وسألتها:

ـ أيّ صفقة تعنين يا شيث؟

فغمزت المرأة بعينيها، وقالت:

ـ صفقة الغرام الجديد، وحقّ الأرباب أنّ مولاي ليزن أمّة من الأغنياء، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجّار منف وقوّاد الجنوب..

وغضبت رادوبيس حتّى تخضّب وجهها بالاحمرار، وصاحت بها:

ـ خسئت يا امرأة.. أنا لا أتّجر الآن..

ـ ويل لي.. لو كانت لديّ شجاعة يا مولاتي لسألتك عمّا تفعلين إذًا؟

فتنهّدت رادوبيس وقالت:

ـ أمسكي عن هذرك، ألا ترين أنّي أجدّ في الأمر جدًّا؟.

فحملقت الجارية في وجه مولاتها الجميل، وصمتت دقيقة ثمّ قالت:

ـ باركتك الآلهة يا مولاتي.. إنّي حائرة وأسائل نفسي: لماذا تجدّ مولاتي جدًّا؟..

فتنهّدت رادوبيس مرّة أخرى، واستلقت على الديوان الوثير، وقالت بصوت خافت:

ـ أحببت يا شيث..

فضربت الجارية على صدرها بيدها، وقالت بفزع ودهشة:

ـ أحببت يا مولاتي!..

ـ نعم أحببت، ما لك تدهشين؟

ـ معذرة يا مولاتي، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجري لك على لسان من قبل.. فكيف جاء؟

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة:

- ما الداعي إلى العجب؟ امرأة تحبّ، يا لها من حقيقة مبتذلة.

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها، وقالت:

- أمّا هنا فلا، عهدي به حصنًا منيعًا، فكيف أُخذ؟ . . ألا بالله قولي لي . .

وبدت في عينيها الأحلام، وبعثت الذكرى في نفسها شعورًا فيّاضًا، فقالت بصوت كالهمس:

- أحببت يا شيث، والحبّ شيء عجيب، في أيّ دقيقة من الزمان طرق الحبّ قلبي؟ كيف تسلّل إلى أعماق نفسي؟ لا علم لي بذلك، وإنّه ليحيّرني حيرة شديدة، ولكنّي عرفت الحقيقة بقلبي، لقد خفق بشدّة وعنف، خفق لرؤية وجهه، وخفق لسماع صوته، وما كان عهدي به أن يخفق لشيء من هذا، فوسوس لي صوت خفيّ بأنّ هذا الرجل صاحب هذا القلب دون منازع، فغمرني إحساس قويّ عنيف عذب أليم، وشعرت شعورًا وثّابًا بأنّه ينبغي أن يكون لي كقلبي، وأن أكون له كنفسه، ولم أعد أتصوّر أن تطيب حياة، ويلذّ وجود بغير هذا الامتزاج . .

فقالت شيث لاهثة:

- يا للحيرة يا مولاتي . .

- نعم يا شيث؟ طالما تمتّعت بالحرّيّة المطلقة، كنت أتّخذ مجلسي على ربوة عالية وأسرّح ناظريّ في عالم واسع غريب، وأسامر عشرات الرجال، وأتذوّق متع الأحاديث، وأتملّى آيات الفنّ، وألهو بالمجون والغناء، ولكن كان يرين على صدري سأم لا شفاء له، وتغشى نفسي وحشة لا طمأنينة معها. الآن يا شيث ضاقت آمالي، وانحصرت في رجل واحد هو مولاي، وهو دنياي. ولكن دبّت حياة دافقة طردت من طريق حياتي السأم والوحشة، وأفاضت عليه نورًا وبهجة، فقدت نفسي في الدنيا الواسعة، ووجدتها في رجلي الحبيب . . أرأيت ما هو الحبّ يا شيث؟

فهزّت الجارية رأسها في حيرة، وقالت:

- يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتي . . ولعلّه أعذب من الحياة نفسها! وإنّي أسائل نفسي عمّا أحسّ به من الحبّ، إنّ الحبّ كالجوع، والرجل كالطعام . . وإنّي أحبّ من الرجال قدر ما أحبّ من الأطعمة دون حيرة . . وحسبي هذا . .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر، ثمّ قامت واقفة، وذهبت إلى شرفة تطلّ على الحديقة، وأمرت شيث أن تأتي لها بقيثارة، فأحسّت برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء، كيف لا والدنيا جميعًا تنشد لحنًا بهيجًا . .

وغابت شيث برهة، ثمّ عادت حاملة القيثارة، وأسلمتها بين يدي مولاتها، وهي تقول:

- هل يزعجك أن تؤجّلي اللهو إلى حين ؟

فسألتها ببساطة، وهي تتناول القيثارة:

- ولمه؟ . .

طلب إليّ أحد العبيد أن أخبرك بأنّ إنسانًا يطلب الإذن بمقابلتك.

فلاح الاستياء على وجهها، وسألتها بجفاء:

- ألا يعرف من هو ؟ . .

- يقول إنّه . . يزعم أنّه مرسل من قبل الرسّام هنفر.

وتذكّرت ما قاله لها الرسّام هنفر أوّل أمس عن تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجرة الصيفيّة، فقالت لشيث:

- إيتي به إليّ . .

وأحسّت بمضايقة واستياء، وأمسكت القيثارة بحدّة، ولعبت أناملها بالأوتار في خفّة وغضب، لعبًا لا وحدة بين أجزائه.

وعادت شيث يسير على أثرها شابّ حديث العمر، وقد أحنى رأسه في إجلال، وقال بصوت رقيق:

- أسعد الربّ يومك يا سيّدتي . .

فوضعت القيثارة جانبًا ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة؛ كان غلامًا معتدل القامة، نحيف القدّ، أسمر الوجه، حسن القسمات، واسع العينين إلى درجة تلفت النظر، تلوح فيهما آي الصفاء والسذاجة. فأخذتها حداثة سنّه، وصفاء عينيه، وتساءلت متعجّبة: هل يستطيع حقًّا أن يتمّ عمل

المثّال العظيم هنفر؟ وقد أحسّت بارتياح إلى رؤيته، أذهب عنها موجة الاستياء التي اجتاحتها، وسألته:

ـ أأنت تلميذ المثّال هنفر الذي اختارك لزخرفة الحجرة الصيفيّة؟.

ـ فقال الشابّ بارتباك ظاهر، وكان بصره يتردّد بين وجه رادوبيس وأرض الشرفة:

ـ نعم يا سيّدتي.

ـ حسن، وما اسمك؟..

ـ بنامون.. بنامون بن بسار.

ـ بنامون.. كم تبلغ من العمر يا بنامون، فإنّي أراك صغيرًا؟.

فتورّد خدّاه وقال:

ـ أبلغ الثامنة عشرة في مسرى القادم.

ـ أراك تبالغ في التقدير.

فقال الشابّ بإخلاص:

ـ كلّا يا سيّدتي إنّ ما أقول هو الحقّ.

ـ يا لك من طفل يا بنامون..

واختلجت عيناه الواسعتان العسليّتان قلقًا، وكأنّه خشي أن تعرض عنه لحداثة سنّه. وقرأت مخاوفه، فقالت مبتسمة:

ـ لا تقلق فإنّي أعلم أنّ هبة المثّال في يده لا في عمره.

فقال بحماس:

ـ لقد شهد لي أستاذي الفنّان الكبير هنفر.

ـ هل سبق أن قمت بعمل هامّ؟

ـ نعم يا سيّدتي، زخرفت جانبًا من الحجرة الصيفيّة بقصر السيّد آني حاكم بيجة.

فقالت:

ـ أنت طفل نابغ يا بنامون.

فتورّد خدّاه، ولمعت عيناه بنور الفرح، وغمرته سعادة دافقة، ونادت رادوبيس شيث، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفيّة.. وتردّد الشابّ قليلًا قبل أن يتبع الجارية، وقال:

ـ ينبغي أن تفرغي لي كلّ يوم.. في أيّ وقت تشائين.

فقالت:

ـ لقد ألفت نفسي أمثال هذه الواجبات.. هل تنحت لي صورة كاملة؟

ـ أو نصفيّة، وربّما اكتفيت بتصوير الوجه، وعلى أيّة حال هذا يتبع الصورة العامّة للزخرف.

قال ذلك، وأحنى رأسه، وسار على أثر شيث، وذكرت المرأة المثّال هنفر، وقالت لنفسها في سخرية: هل كان يدور له بخلد، أنّ القصر الذي سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرّم عليه هو دخوله؟..

وأحسّت بارتياح إلى الأثر الذي تركه الشابّ الساذج في نفسها، ولعلّه أثار في قلبها عاطفة جديدة لم تدبّ بها الحياة من قبل، هي عاطفة الأمومة.. وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذي لم ينج منه إنسان، ودعت الربّ مخلصة أن يحفظ له طمأنينته وصفاءه، ويجعله بمنجاة من دواعي الألم واليأس..

بنامون

وبرًّا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثاني إلى الحجرة الصيفيّة بالحديقة، ووجدت بنامون جالسًا إلى منضدة، باسطًا على سطحها ورقة من البرديّ، يرسم عليها أشكالًا مختلفة ويبدو عليه آي الانهماك والتفكير. ولمّا أحسّ بوجودها، وضع قلمه وقام واقفًا وأحنى رأسه لها، فحيّته بابتسامة وقالت:

ـ سأجعل لك هذه الساعة من الصباح، فهي التي أملكها من يومي الطويل..

فقال الشابّ بصوته الخافت الخجول:

ـ شكرًا يا سيّدتي، ولكنّنا لن نبدأ اليوم، لأنّني ما أزال أضع الفكرة العامّة للزخرف.

فقالت:

ـ آه لقد غرّرت بي يا غلام..

ـ حاشاي يا سيّدتي.. بل عنّت لي فكرة رائعة.

فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية، وقالت:

ـ ترى هل يستطيع حقًّا هذا الرأس الصغير، أن يبدع فكرة رائعة؟ . .

فتخضّب وجهه بالاحمرار، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن:

ـ سأملأ هٰذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك.

ـ يا للهول. . أخشى أن يأتي بشعًا مخيفًا. .

ـ سيبدو جميلًا كما هو.

نطق الشابّ بهذه العبارة ببساطة وسذاجة، فحدجته بنظرة فاحصة، فسارع الارتباك إليه، وتحيّرت عيناه الصافيتان، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتّى استقرّ بصرها على البركة خلل الباب الشرقيّ للحجرة. . يا له من شابّ رقيق كالعذراء الساذجة، إنّه يهيّج في صدرها حنانًا غريبًا، ويوقظ الأمومة النائمة في سراديب نفسها، والتفتت إليه، فرأته منكبًّا على عمله، ولكنّه لم يكن متفرّغًا له، وآية ذلك أنّه كان ظاهر الارتباك مورّد الخدّين، أليس ينبغي أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها؟، ولٰكنّها أحسّت برغبة في التحدّث معه، فأطاعت رغبتها وسألته:

ـ أمن أهل الجنوب أنت؟

فرفع الشابّ رأسه، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج، وقال:

ـ أنا من أمبوس يا سيّدتي.

ـ أمبوس؟ . . أنت من شمال الجنوب إذًا، ولكن ما الذي جمع بينك وبين المثّال هنفر، وهو من أهل بلاق؟

ـ كان والدي من أصدقاء المثّال هنفر، ولمّا رأى تعلّقي بالفنّ أرسلني إليه ووصّاه بي.

ـ وهل والدك من طائفة الفنّانين؟

فصمت الشابّ هنيهة، ثمّ قال:

ـ كلّا. . كان والدي كبير أطبّاء أمبوس، وكان نابغة في الكيمياء والتحنيط، وقد تعدّدت اكتشافاته في طرائق التحنيط وتركيبات السموم. .

ففهمت المرأة من سياق حديثه أنّ والده مات، ولكنّها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم، وسألت الشابّ:

ـ ولماذا كان يصنع السموم؟ . .

فقال الشابّ بلهجة حزينة:

ـ كان يستعملها كأدوية ناجعة، ويأخذها الأطبّاء عنه، ولكنّها واأسفاه كانت السبب في القضاء على حياته.

فسألته باهتمام شديد:

ـ كيف كان ذٰلك يا بنامون؟

ـ أذكر يا سيّدتي أنّ والدي ركّب سمًّا عجيبًا، وكان يفاخر دائمًا بقوله: «إنّه أفتك السموم جميعًا، وإنّه يقضي على ضحيّته في ثوانٍ معدودة» وسمّاه لذلك «السمّ السعيد». وفي ليلة أسيفة قضى الليل كلّه في معمله يشتغل بلا انقطاع، وفي الصباح وجد ممدّدًا على مقعده فاقد الروح، وإلى جانبه قارورة سمّ من ذاك السمّ الفاتك مفضوضة السداد. .

ـ يا للغرابة. . هل انتحر؟.

ـ من المحقّق أنّه تناول جرعة من السمّ الفاتك، ولكن ما الذي دفعه إلى الهلاك؟ . . لقد دفن سرّه معه، واعتقدنا جميعًا أنّ روحًا شيطانيًّا تلبّسه، فاضلّته الحكمة فأتى فعلته في حالة إعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعًا. .

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره. فأسفت رادوبيس على إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته:

ـ وهل أمّك على قيد الحياة؟

ـ نعم يا سيّدتي، وهي تعيش بقصرنا في أمبوس؛ أمّا معمل والدي فلم يلج بابه إنسان منذ تلك الليلة. .

وعادت المرأة، وهي تفكّر في موت الطبيب بسار الغريب وفي سمومه المودعة المعمل المغلق. .

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذي يلوح في أفقها الهادئ المنطوي على الحبّ والطمأنينة؛ وكان الوحيد كذلك الذي ينتهب من وقتها الموهوب للحبّ ساعة كلّ صباح. على أنّه لم يضايقها قطّ لأنّه كان أرقّ من الطيف. ومضت الأيّام وهي مغرقة في الهوى وهو منكبّ على عمله، وحياة الفنّ العالية تدبّ في جدران الحجرة الصيفيّة.

وكان يسرّها أن ترقب يده وهي تبثّ في الحجرة روحًا من جمالها الرائع. وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة، ووقر في نفسها أنّه سيخلف المثال هنفر في مستقبل قريب. وقد سألته يومًا وهي تهمّ بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة:

ـ ألا يلحقك التعب أو السأم؟

فابتسم الغلام بفخار وقال:

ـ هيهات..

ـ كأنّك تندفع بقوّة شيطان..

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة، وقال بهدوء وسذاجة:

ـ بل بقوّة الحبّ..

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التي توقظ في قلبها أشهى الذكريات، وتنادى إلى مخيّلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال، ولم يكن يدرك شيئًا ممّا يقوم في نفسها فاستدرك قائلًا:

ـ ألا تعلمين يا سيّدتي أنّ الفنّ هوًى؟

ـ حقًّا؟!.

فأشار إلى أعلى جبينها الذي وضح رسمه على الجدران، وقال:

ـ هاك نفسي خالصة..

وكانت قد ملكت عواطفها، فقالت بسخرية:

ـ يا لها من حجر أصمّ.

ـ كانت حجرًا قبل أن تلمسها يداي، أمّا اليوم فهي نفسي.

فضحكت قائلة:

ـ يا لك من مغرق في حبّ نفسه..

هكذا قالت وهي توليه ظهرها: ولكن وضح على أثر ذاك اليوم أنّ نفسه ليست الشيء الوحيد الذي يحبّه، وكانت تسير في الحديقة على غير هدًى كخاطر حائر في دماغ حالم سعيد، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفيّة، وساقها ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية في غابة الجمّيز، وإرسال النظر خلل نافذة الحجرة وكان وجهها الآخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنّان الشابّ في أسفل الجدار، وكانت تظنّه ينهمك في عمله كعادته، ولكنّها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مشتبكتان على صدره، ورأسه متّجه إلى أعلى كأنّه مستغرق في صلاة، إلّا أنّ رأسه كان متّجهًا إلى ما تمّ نحته من رأسها وجبينها..

ودفعتها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مذعورة، ورأته يقوم واقفًا كأنّه ينفتل من صلاته، ورأته يمسح عينيه بطرف كمّه الواسع. فخفق قلبها، ولبثت برهة لا تبدي حراكًا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرفة البطّ السابح على سطح الماء أو طنينه، ثمّ التفتت إلى الوراء وانحدرت مسرعة في طريقها إلى القصر..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمةً به، وكانت تطالع معناه في عينيه الصافيتين كلّما رنا بهما إليها، وما كانت تستطيع دفع الشرّ، فهل تباعد بينه وبينها؟. هل تغلق باب القصر في وجهه بأيّة علّة تعتلّ بها عليه.. لكنّها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وباتت في حيرة من أمرها.

على أنّ حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شيء في الوجود بقادر على أن يستبدّ بوجدانها أكثر من ساعة عابرة، لأنّ عواطفها وإحساساتها جميعًا كانت نهب الحبّ، وملك يدي حبيب طموح لا يقنع من الحبّ بشيء.. كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرًا قصره ودنياه، غير آسف ولا متردّد، فكانا يفرّان معًا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحبّ، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم في أيّامهما تلك أن تكتشف رادوبيس في الضحى بعد توديعه لها، أنّها لم تسأله أعينيها يؤثر بالشوق أم شفتيها، أو أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنّه لم يقبّل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربّما حمله أسفه على أن يكرّ راجعًا لينفي عن حياته أتفه أسباب الهموم.

كانت أيّامًا لا نظير لها في الأيّام.

خنوم حتب

وكان الزمن الذي يمنح قومًا الصفاء والسعادة، يتجهّم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب. كان الرجل يقبع في دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين، ويستمع إلى ما يقال بآذان مرهفة وقلب حزين، ثمّ يستوصي بالصبر ما أمكن الصبر.

وكان الأمر الذي أصدره الملك بنزع أراضي المعابد ينغّص عليه صفو حياته، ويضع في سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسيّة، لأنّ جمهور الكهنة قابلوه بفزع وألم، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجّاب..

ولاحظ الرئيس أنّ الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل، وأنّه نادرًا ما يحظى بمقابلته والتحدّث إليه في أمور المملكة. وذاع على أثر ذلك أنّ فرعون يهوى غانية القصر الأبيض ببيجة، وأنّه يبيت لياليه في قصرها. ثمّ شوهد الصنّاع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات، ورئيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمين الجواهر. وتهامس الكبراء بأنّ قصر رادوبيس يتحوّل إلى مثوى من الذهب والفضّة والمرجان، وأنّ أركانه تشهد هوًى جامحًا يتقاضى مصر أموالًا لا تعدّ ولا تحصى..

وكان خنوم حتب رأسًا كبيرًا وعينين عميقتين، وقد نفد صبره، وضاق بجموده، ففكّر في الأمر طويلًا، وعزم على أن يبذل ما في وسعه ليحوّل الأمور عن السبيل التي تندفع فيه؛ فأرسل رسولًا من قِبله برسالة إلى كبير الحجّاب سوفخاتب رجاه فيها إلى موافاته بدار الحكومة. وسارع كبير الحجّاب إلى مقابلته، وصافحه الوزير، وقال له:

- إنّي أشكرك أيّها المبجّل سوفخاتب على تلبيتك لرجائي.

فأحنى كبير الحجّاب رأسه وقال:

- إنّي لا أتوانى عن القيام بواجبي المقدّس في خدمة مولاي.

وجلس الرجلان وجهًا لوجه، وكان خنوم حتب صلب الإرادة حديديّ الأعصاب، فظلّ وجهه هادئًا رغم ما يجيش بصدره من الأحزان. وقد استمع إلى قول كبير الحجّاب في سكون، ثمّ قال:

- أيّها المبجّل سوفخاتب، كلّنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص.

- هٰذا حقّ يا صاحب القداسة.

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير، فقال:

- ولكنّ ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هٰذه الأيّام، وبتّ أتعثّر بالمتاعب والمشكلات. وقد رأيت - وأحسبني في رأيي من الصادقين - أنّ مقابلة بيني وبينك لا شكّ تأتي بخير كثير.

فقال سوفخاتب:

- إنّه ليسعدني وحقّ الأرباب أن تصدق في فراستك يا صاحب القداسة.

فهزّ الرجل رأسه الكبير دلالةً على الرضا، وقال بلهجة تنمّ على الحكمة:

- يجدر بنا أن نستوصي بالصراحة؛ فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والإخلاص.

فأمّن سوفخاتب على قوله قائلًا:

- صدق فيلسوفنا قاقمنا.

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره. ثمّ قال بصوت ينمّ على الحزن:

- يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هٰذه الأيّام.

وانتظر الوزير أن يعقّب الرجل على كلامه، ولٰكنّه لازم الصمت، فاستطرد قائلًا:

- وأنت تعلم أيّها المبجّل أنّي كثيرًا ما أطلب تحديد وقت لمقابلته، فيقال لي إنّ ذاته المعبودة خارج القصر.

فبادره سوفخاتب قائلًا:

- ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته.

فقال الوزير:

- ما قصدت إلى هذا أيّها المبجّل، ولٰكنّي أعتقد أنّ

حقّي كوزير يخوّل لي المثول بين يدي جلالته بين آونة وأخرى، لأقوم بواجباتي على الوجه الكامل.

- معذرة يا صاحب القداسة، ولكنّك تحظى بالمثول بين يدي فرعون.

- نادرًا ما تتاح لي الفرصة. وتجدني لا أدري ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة.

فحدجه الحاجب بنظرة فاحصة، وقال:

- لعلّها تمسّ موضوع أراضي المعابد.

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف، وقال:

- هو ذلك يا سيّدي.

فقال سوفخاتب بسرعة:

- إنّ فرعون لا يريد أن يسمع جديدًا حول هٰذا الموضوع. لأنّ جلالته قال فيه كلمته الأخيرة.

- إنّ السياسة لا تعرف كلمة أخيرة.

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدّة:

- هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألّا أشاركك فيه.

- أليست أملاك المعابد تراثًا تقليديًّا؟

واستاء سوفخاتب لأنّه شعر بأنّ الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه، بعد أن أعلن له إباءه، فقال بلهجة لا تَدَع له أيّ احتمال للشكّ:

- سأقف عند كلمة مولاي لا أتعدّاها.

- إنّ أخلص الناس لمولاه مَن يصْدقه النصيحة.

واشتدّ استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول، وثارت كرامته ثورة مكتومة، فقال بشدّة:

- إنّي أعرف واجبي يا صاحب القداسة، ولكنّي لا أسأل عنه إلّا أمام ضميري.

فتنهّد خنوم حتب يائسًا، ثمّ قال في هدوء وتسليم:

- إنّ ضميرك فوق الشبهات أيّها المبجّل، وما داخلني شكّ قطّ في إخلاصك أو حكمتك، ولعلّ هٰذا ما دعاني إلى الاسترشاد برأيك. أمّا وأنّك ترى أنّ هٰذا لا يتّفق وإخلاصك فلا يسعني إلّا العدول عنك آسفًا، وليس لديّ الآن إلّا رجاء واحد.

فقال سوفخاتب:

- تفضّل يا صاحب القداسة.

- إنّي أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة الملكة، رجائي بالتشرّف بين يديها اليوم.

وأخذ سوفخاتب، ونظر إلى محدّثه نظرة دالّة على الدهشة، لأنّه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلّا أنّه لم يكن متوقّعه، فاستولى الارتباك على الحاجب، أمّا خنوم حتب فقال بلهجة دلّت على العزم:

- إنّي أقدّم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة المصريّة.

فقال سوفخاتب بقلق:

- ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علمًا برغبتك؟

- كلّا أيّها المبجّل، إنّي أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقبات التي تعترض سبيلي، فلا تضيّع فرصة ذهبيّة، عسى أن أخدم بها مليكي ووطني.

فلم يسع سوفخاتب إلّا أن يقول:

- سأرفع رجاءك إلى جلالتها في الحال.

وقال خنوم حتب، وهو يمدّ له يده للمصافحة:

- سأنتظر رسولك.

فقال الحاجب الأكبر وهو يودّعه:

- كما تشاء يا صاحب القداسة.

ولـمّا خلا خنوم حتب بنفسه قطّب جبينه، وأصرّ على أسنانه بشدّة، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت، ومضى يذرع الحجرة ويُعمل فكره. وكان لا يشكّ في إخلاص سوفخاتب، ولٰكنّه كان قليل الثقة في شجاعته وعزيمته. وقد دعاه وهو يائس منه، ولٰكنّه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة، ثمّ تساءل قلقًا: هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته؟ إنّ الملكة لا يستهان بها، وعسى أن تحلّ العقدة المستحكمة بذكائها، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكّك. ولا شكّ أنّ الملكة تدرك سوء تصرّف الملك الشابّ، وتألم له أشدّ الألم، فهي ملكة مشهود لها بالفطنة، وهي زوجة تشارك

الزوجات أفراحهنّ وأحزانهنّ. أليس من المحزن أن تُنزع أملاك المعابد ليُبذل ريعها رخيصًا تحت أقدام راقصة؟

إنّ الذهب يتدفّق إلى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه، ومَهَرة الصنّاع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار في صنع أثاثه وحليّ ربّته وأثوابها. وأين.. أين فرعون.. هجر زوجه وحريمه ووزراءه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة!

وتنهّد الرجل في حزن عميق، وتمتم قائلًا:

- ما ينبغي لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو..

وراح في تفكيره العميق، ولكن لم يطل به الانتظار، إذ دخل عليه حاجبه، واستأذن لرسول آتٍ من القصر فأذن. وانتظر الرجل في لهفة، وقد اضطربت شفتاه في تلك اللحظة الفاصلة على قوّة إرادته وصلابة أعصابه، ودخل الرسول، وأحنى رأسه محيّيًا، وقال باقتضاب:

- إنّ حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة.

وحمل من فوره إضبامة الالتماسات، وذهب إلى عجلته التي طارت به إلى القصر، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول بهذه السرعة، فلا شكّ أنّ الملكة تكابد حزنًا وقلقًا، وتعاني من الآلام في وحدتها الموحشة، ولا شكّ أنّها تتصبّر على الإهانة والحرمان قابعة في سياج قاسٍ من الكبرياء والصمت، إنّه يحسّ أنّها من رأيه، وأنّها ترى الأمور بالعين التي يراها الكهنة والعقلاء جميعًا. وعلى أيّة حال فسيؤدّي واجبه، ولتقضِ الآلهة أمرًا كان مفعولًا.

وبلغ القصر: وقصد توًّا إلى جناح الملكة، ولم يلبث أن دعي إلى مقابلة جلالتها في بهو استقبالها الرسميّ. وأُدخل البهو فاتّجه نحو العرش، وأحنى هامته حتّى مسّت جبهته حاشية ثوبها الملكيّ، وقال بإجلال عميق:

- السلام على مولاتي نور الشمس وبهاء القمر.

فقالت الملكة بصوت هادئ:

- السلام عليك أيّها الرئيس خنوم حتب.

واستقامت قامة الوزير، وإنّ ظلّ رأسه منكّسًا، وقال بخشوع:

- إنّ عبدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك العالية، على تفضّلك الكريم باستقباله.

فقالت الملكة بصوتها المتّزن النبرات:

- إنّي أعتقد أنّك لا ترجو مقابلتي إلّا لأمر خطير؛ فلم أتوانَ عن استقبالك.

- تعالت حكمة مولاتي، فالأمر جدّ خطير، وما هو إلّا صميم السياسة العليا.

وانتظرت الملكة صامتة، فاستجمع الرجل قواه الذاتيّة، وقال:

- إنّي يا صاحبة الجلالة أصطدم بعقبات شديدة، حتّى بتّ أخشى ألّا أقوم بواجبي بما يرضي ضميري ومولاي فرعون.

وسكت لحظة، واختطف من وجه الملكة الهادئ نظرة سريعة كأنّه يمتحن أثر كلامه فيها، أو ينتظر كلمة تشجّعه على الاسترسال، وأدركت الملكة معنى تردّده فقالت:

- تكلّم أيّها الوزير فإنّي مصغية إليك.

فقال خنوم حتب:

- اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكيّ بنزع أكثر أملاك المعابد، فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون، فهم يعلمون أنّ أراضي المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفًا، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطًا.

ولاذ الوزير بالصمت هنيهة، ثمّ استدرك قائلًا:

- الكهنة يا مولاتي جنود الملك في وقت السلم، والسلم ينشد رجالًا أصلب عودًا من رجال الحرب، فمنهم المعلّمون والحكماء والوعّاظ، ومنهم حكّام ووزراء. وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبًّا لو دعت إلى ذلك شدّة حرب أو قحط، ولكنّهم..

وتردّد الرجل عن الكلام لحظة، ثمّ استطرد بصوت أشدّ خفوتًا:

- ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق في غير هذه الوجوه..

ولم يُرِد أن يجاوز هذا الحدّ من التلميح، ولم يداخله شكّ في أنّها تفهم كلّ شيء وتعلم كلّ شيء. ولكنّها لم تعقّب على كلامه بكلمة. فلم يرَ بدًّا من أن يتقدّم إليها بالالتماسات، ثمّ قال:

ـ هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبّر عن إحساس رؤساء المعابد، وقد رفض مولاي الملك أن ينظر فيها، فهل لمولاتي أن تطّلع عليها، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحقّ الرعاية..

وقبلت الملكة الالتماسات، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة، ووقف في سكون منكّس الرأس. ولم تعده الملكة بشيء، وما طمع في هٰذا قطّ، ولكنّه تفاءل خيرًا بقبول الالتماسات. ثمّ أذنت له بالانصراف، فتراجع ويداه على عينيه.

وفي طريق العودة حادث الوزير نفسه: إنّ الملكة شديدة الحزن، وعسى أن ينفع حزنها قضيّتنا العادلة.

نيتوقريس

غيّب الباب الوزير، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير، فأسندت رأسها المتوّج إلى ظهر العرش، وأغلقت جفنيها، وتنهّدت تنهّدًا عميقًا، صعّد أنفاسًا حارّةً مكتوية بصورة الحزن والألم، فلشدّ ما تصبّر وتتجلّد، حتّى إنّ أدنى الناس إليها لا يدري بألسنة اللهيب التي تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة.. وقد ظلّت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأبي الهول.

وما كانت تجهل من الأمر شيئًا، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها، ورأت الملك يتردّى في الهاوية، ويذهب فريسة لهواه الجامح، ويهرع إلى تلك المرأة ـ التي شاد بحسنها كلّ لسان ـ لا يلوي على شيء. وأصابها سهم سامّ في عزّة نفسها وسويداء عواطفها، ولكنّها لم تُبد حراكًا، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب، والملكة ذات التاج، وأثبتت التجربة أنّها كأبيها قويّة الشكيمة، فصهر التاج القلب، وخنقت الكبرياء الحبّ، فانطوت على نفسها الحزينة سجينةً خلف الستائر. وهكذا خسرت المعركة، وخرجت منها مهيضة الجناح، وما رمت عن قوسها سهمًا واحدًا.

وكان الذي يدعو إلى السخرية، أنّهما ما زالا يعدّان عروسين. على أنّ تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش، فما عتّم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجواري والمحظيّات من مصر والنوبة وبلاد الشمال. ولم تكن تأبه لهنّ، لأنّهنّ جميعًا لم يصرفنه عنها، ولبثت ملكته وملكة فؤاده. إلى أن ظهرت في أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته إليها بعنف، وملكت عواطفه وعقله جميعًا، واستأثرت به دون زوجه وحريمه ورجاله المخلصين، ولعب بها الأمل الخادع حينًا، ثمّ أسلمها إلى اليأس، يأس مكفّن بكبرياء فأحسّت بقلبها يتجرّع سكرات الموت.

وكانت تأتي عليها أحايين يثب الجنون في دمائها، وتشعّ عيناها نورًا خاطفًا، فتهمّ بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير، ثمّ سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد: كيف يصحّ لنيتوقريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب؟ فتبرد دماؤها، ويتجمّد الحزن في قلبها كالسمّ الفاتك في المعدة.

ولكن ثبت لها اليوم أنّ هناك قلوبًا غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهوّر الملك، وها هوذا خنوم حتب يشكو إليها بثّه ويقول لها بعبارة بيّنة: إنّه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة، ويؤمن بقولها المئون من صفوة الحكماء.. أفلا ينبغي أن تخرج عن صمتها؟ وإذا لم تتكلّم الآن فمتى ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمتها. وقد آلمها أن يرتقي الهمس إلى العرش المكين، وأحسّت بأنّ واجبها يقضي عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة، وهان عليها أن تدوس على كبريائها، وتوطّد العزم على أن تتقدّم بخطًى ثابتة في سبيلها السويّ مستعينة بالأرباب.

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذي أملته عليها الحكمة والدواعي الباطنة، انهار عنادها الأوّل بعد أن ثابر

مثابرة المستميت، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوّة وإخلاص.

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكيّ، وقطعت بقيّة نهارها في التفكير والتأمّل، ونامت ليلها نومًا متقطّعًا شديد العذاب، وانتظرت الضحى على لهفة، وهو الوقت الذي يصحو فيه الملك بعد سهر الليل.. ولم يداخلها التردّد، فانتقلت بخطًى ثابتة إلى جناح الملك، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحرّاس، فأدّوا لها التحيّة، وسألت واحدًا منهم قائلة:

ـ أين جلالة الملك؟

فأجابها الرجل بإجلال قائلًا:

ـ في مثواه الخاصّ يا صاحبة الجلالة.

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التي يخلو فيها بنفسه، واجتازت بابها الكبير. وكان فرعون يجلس في الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعًا، حملت من آي البلهنيّة والفنّ ما لا تصدّقه العيون. ولم يكن الملك يتوقّع رؤيتها، وكانت مضت أيّام عديدة على آخر لقاء، فقام واقفًا دهشًا، واستقبلها بابتسامة دلّت على الارتباك، وقال وهو يشير إليها بالجلوس:

ـ أسعدتك الآلهة يا نيتوقريس.. لو علمت برغبتك في مقابلتي لبادرت إليك!

فجلست الملكة في هدوء وهي تخاطب نفسها قائلة..

من أدراه أنّي لم أرغب في لقائه طوال هذه الفترة! ثمّ وجّهت إليه الخطاب قائلة:

ـ لا داعي لإزعاجك أيّها الأخ، فإنّي لا أجد غضاضة في الانتقال إليك ما دام الذي يحرّكني واجب.

ولم يلق الملك إلى كلامها بالًا، لأنّه كان يحسّ بحرج شديد، وقد تأثّر لمجيئها وجمود وجهها، فقال:

ـ إنّي خجل يا نيتوقريس.

وعجبت لطرقه هٰذا الموضوع، وكان آلمها ألمًا خفيًّا أن تراه في منتهى السعادة والصحّة، كالزهرة الناضرة، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها:

ـ يهون لديّ كلّ شيء إلّا أن تخجل!

وكان أرقّ المسّ يهيجه، ويردّه من حال إلى حال، فعضّ على شفته وقال:

ـ أيّتها الأخت، إنّ الإنسان هدف لأهواء طاغية. وقد يهوي لإحداها فريسة.

وطعنها اعترافه بقسوة في كبريائها وعواطفها، فنسيت حلمها وقالت بصراحة:

ـ يحزنني وحقّ الربّ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية.

وأحسّ الملك الغضوب بوخز كلامها، فأهاجه الغضب، واندفع الدم إلى رأسه، فانتفض واقفًا ينذر وجهه بالشرّ. وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغرض الذي جاءت من أجله، فندمت على قولها، وقالت له برجاء:

ـ أنت الذي سقتني إلى هٰذا الحديث أيّها الأخ، وما لهٰذا جئت، وعسى أن يَفرَخ غضبك، أن تعلم أنّي قصدت إليك لأحدّثك في شئون هامّة تمسّ سياسة المملكة التي نجلس على عرشها سويًّا.

فكظم حنقه، وسألها بلهجة كالهادئة:

ـ ما حديثك أيّتها الملكة؟

وأسفت الملكة على أنّ مساق الحديث لم يؤدّ إلى جوّ صالح لغرضها ولٰكنّها لم ترَ بدًّا من الكلام، فقالت باقتضاب:

ـ أراضي المعابد.

فعبس وجه الملك. وقال بامتعاض شديد:

ـ أتقولين أراضي المعابد؟.. إنّي أسمّيها أراضي الكهنة!

ـ لتكن مشيئتك يا مولاي. فإنّ تغيير الاسم لا يغيّر من الأمر شيئًا.

ـ ألا تعلمين أنّي أكره أن يعاد عليّ هٰذا الاسم؟

ـ إنّي أحاول ما لا يستطيعه غيري، وهدفي الخير والإصلاح.

فهزّ الملك منكبيه بامتعاض وقال:

ـ وما الذي تريدين قوله أيّتها الملكة؟

فقالت بهدوء:

- لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتي إجابة لرجائه واستمعت. .

ولكنّه لم يدعها تتمّ حديثها، وقال بغضب:

- أهٰكذا فعل الرجل؟

فقالت بارتياع:

- نعم. . هل تجد في سلوكه ما يستأهل غضبك؟

فقال وكأنّه يزأر:

- بغير شكّ. . بغير شكّ. . إنّه رجل عنيد، ويأبى أن ينزل عند إرادتي، وأنا أعلم أنّه نفّذ أمري كارهًا، وأنّه يتربّص بي لعلّه ينجح في إلغائه مستعينًا تارةً بالرجاء، وقد رفضت أن أصغي إليه، وتارة بدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير. . إنّ الرجل الماكر يندفع كالأعمى في طريق خصامي.

فهالها ظنّه وقالت:

- أنت تسيء الظنّ بالرجل، أمّا أنا فأعتقد أنّه من أعظم الرجال إخلاصًا للعرش، وأنّه حكيم يتوخّى الوئام. . أليس من الطبيعيّ أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته في ظلّ عطف أجدادنا؟.

واحتدم الغيظ في قلب الملك، لأنّه لم يكن يجد عذرًا لإنسان ألّا يصدع بأمره في السرّ والعلانية، ولا يحتمل بأيّة حال أن يرى إنسان غير ما يرى.

فقال ممتعضًا بلهجة تشفّ عن السخرية المريرة:

- أرى أنّ هذا الداهية استطاع أن يغيّر رأيك أيّتها الملكة.

فقالت باستياء:

- لم يتّجه رأيي قطّ إلى نزع أملاك المعابد، ولا أجد ضرورة لذلك.

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف:

- أيسيئك أن تزداد ثروتنا؟

كيف يقول هٰذا، وهو يعلم أين تنفق هٰذه الأموال؟.

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق، فانتفضت غضبًا وتغلّبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال:

- يسيء كلّ عاقل أن تنزع أراضي قوم حكماء لينفق ريعها في اللهو العابث.

فاشتدّ هياج الملك. وقال وهو يشير بيده مهدّدًا:

- ويل للرجل الماكر. . إنّه يغري بالشقاق بيننا؟

فقالت بتألّم وحزن:

- إنّك تصوّرني لنفسك كطفلة غريرة.

- ويل له. . لقد طلب مقابلة الملكة ليحادث المرأة المستترة في ثوبها الملكيّ.

فصاحت به حزينة متألّمة قائلة:

- مولاي!.

ولكنّه استطرد يقول مدفوعًا بغضبه الشيطانيّ:

- لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة في الوئام.

وأحسّت بطعنة نجلاء تصيب كبريائها. فأظلمت عيناها، ودوّى النبض في أذنيها، وارتجفت أطرافها. ولبثت هنيهة لا تستطيع قولًا. ثمّ قالت:

- أيها الملك! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئًا أجهله فيسعى به إليّ، وما دمت تظنّ هٰذا، فاعلم بأنّي، أعلم، كما يعلم الجميع، أنّك غارق في أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر. فهل رأيتني طوال هذه الفترة طاردتك، أو ضيّقت عليك، أو توسّلت إليك؟. . واعلم أنّ الذي يريد أن يخاطب فيّ المرأة يرتدّ خائبًا، ولا يلقى أمامه سوى الملكة نيتوقريس . .

فاحتدّ قائلًا بعناد:

- ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة.

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة، وقامت واقفة يائسة، وقالت بحنق شديد:

- أيّها الملك. . ليس ممّا تُعَيَّر به ملكة أن تغار على زوجها، ولٰكن ممّا يعيّر به ملك حقًّا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمي راقصة، ويعرّض عرشه الطاهر لخوض الخائضين.

قالت الملكة ذٰلك، وذهبت لا تلوي على شيء.

* * *

واستبدّ الغضب بالملك، وأخرجه عن طوره وكان يعدّ خنوم حتب مسئولًا عن جميع متاعبه، فاستدعى

سوفخاتب وأمره دون أن يمهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنّه ينتظره. وخرج الحاجب الأكبر ينفّذ أمر مولاه حائرًا. وجاء الوزير الأكبر موزّع النفس بين اليأس والأمل. وأُدخل على الملك الغاضب الحانق، ونطق الرجل بالتحيّة ـ التقليديّة، ولكنّ فرعون لم يكن يصغي إليه، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلًا:

ـ ألم آمرك أيّها الوزير بألّا تعود إلى مناقشة مسألة أراضي المعابد؟.

وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التي يسمعها لأوّل مرّة، وأحسّ بآماله تنهار دفعة واحدة، فقال يائسًا:

ـ مولاي.. رأيت من واجبي أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوي طائفة من شعبكم الأمين.

فقال الملك بلهجة قاسية:

ـ بل أحببت أن تثير غبارًا بيني وبين الملكة، لتصيب تحت ستاره غرضك.

فرفع الرجل يديه بتوسّل، وأراد أن يتكلّم فأرتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين:

ـ مولاي.. مولاي.

فقال الملك الغاضب المهتاج:

ـ يا خنوم حتب. أنت تأبى الانصياع لأمري، فلن امنحك ثقتي بعد اليوم.

ووجم الكاهن، واستولى عليه الجمود، ثمّ مال رأسه على صدره في حزن، وقال باستسلام:

ـ مولاي، يحزنني وحقّ الأرباب جميعًا أن انسحب من ميدان خدمتكم المجيد، وسأعود كما كنت من قبل عبدًا صغيرًا من عبيدكم المخلصين..

* * *

وأحسّ الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر، وأرسل في طلب سوفخاتب وطاهو، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان، فقال لهما الملك في هدوء:

ـ انتهيت من خنوم حتب.

وساد السكون العميق، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب، أمّا طاهو فبقي جامدًا.. وكان الملك يقلّب ناظريه في وجهيهما فسألهما:

ـ ما لكما لا تتكلّمان؟

فقال سوفخاتب:

ـ إنّه لأمر خطير يامولاي.

ـ أتراه خطيرًا يا سوفخاتب!.. وأنت يا طاهو؟

وكان طاهو جامدًا ميت الإحساس، لا رجع للحوادث في قلبه، ولكنّه قال:

ـ إنّه عمل يا مولاي من وحي القوّة المعبودة.

فابتسم الملك، وكان سوفخاتب يقلّب الأمر على جميع وجوهه، فقال:

ـ سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرّيّة.

فهزّ فرعون كتفيه باستهانة، وقال:

ـ لا أظنّ أنّه سيلقي بنفسه إلى التهلكة.

واستدرك وقد غيّر لهجته:

ـ والآن بماذا تشيران عليّ فيمن يخلفه؟

وساد الصمت مدّة، ومضى الرجلان يفكّران.

وابتسم الملك قائلًا:

ـ إنّي أختار سوفخاتب فما رأيكما؟

فقال طاهو بصدق:

ـ إنّ من اخترت يا مولاي لهو القويّ الأمين.

أمّا سوفخاتب، فبدا على وجهه الانزعاج وهمّ بالكلام، ولكن سبقه فرعون قائلًا:

ـ هل تتخلّى عن مولاك وقت الحاجة إليك؟

فقال سوفخاتب وهو يتنهّد:

ـ ستجدني يا مولاي من المخلصين.

الرئيس الجديد

وأحسّ فرعون في العهد الجديد بطمأنينة، فسكن غضبه، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يثق به، وولّى وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه وحواسّه، ففي جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس.

أمّا سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه، ويعلم علم اليقين أنّ مصر تستقبل توليته بحذر وتجهّم، وسخط مكتوم. وقد أحسّ بالوحشة منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماه دار الحكومة، فالملك

يرضى من الدنيا بالحبّ، ويولي كشحه الهموم والواجبات جميعًا، وحكّام الأقاليم يوالونه بوجوههم، وقلوبهم تتبع كهنتهم في كلّ مكان. وتلفّت الوزير حوله، فلم يجد سوى القائد طاهو عونًا ومشيرًا، وهما رجلان يختلفان في أمور كثيرة. ولٰكنّهما يأتلفان على حبّ فرعون والإخلاص له. فلبّى القائد نداءه، ومدّ يده إليه، وشاركه في وحشته وجلّ متاعبه، وكافحا معًا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب، وتتجمّع في أفقها السحب والزوابع. على أنّ سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنّك، كان مخلصًا ينضح قلبه بالأمانة والوفاء، حكيمًا تنجلي له حقائق الأمور، ولٰكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم، فرأى الخطأ منذ البدء، ولكنّه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقباه خشية غضب مولاه أو إيلامه، وهٰكذا اطّردت الأمور في السبيل الذي شقّه الغضب..

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هامّ. قالوا إنّ خنوم حتب ارتحل بغتة إلى منف، العاصمة الدينيّة، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد. واحتارا في السبب الذي من أجله رضي الرجل بمشقّة الانتقال من الجنوب إلى الشمال، وتوقّع سوفخاتب شرًّا، ولم يشكّ في أنّ خنوم حتب سيتّصل بكبار رجال الكهنوت، وجميعهم ساخطون لما حلّ بهم من ضنك، ولعلمهم بأنّ الأموال التي ضنّ بها عليهم تبعثر تحت قدمي راقصة بيجة بغير حساب، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرًا في أنحاء القطر، بالتهاني الرسميّة من الأقاليم، أمّا الكهنة فقد انطووا على صمت رهيب، حتّى قال طاهو: «لقد بدأونا بالتحدّي».

ثمّ حملت الرسائل تترى من جميع المعابد، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون إعادة النظر في مسألة أراضي المعابد. فكان إجماعًا خطير الشأن، زاد من متاعب سوفخاتب.

وفي يوم من الأيّام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة، وجاءه القائد يسعى،فأشار الوزير إلى كرسيّ الوزارة، وهو يتنهّد، وقال:

ـ يكاد هٰذا الكرسيّ أن يميد بي.

فقال طاهو:

ـ إنّ رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسيّ.

فتنهّد الرجل حزنًا، وقال:

ـ أغرقوني بسيل من الالتماسات.

فسأله القائد باهتمام:

ـ هل عرضتها على فرعون؟

ـ كلّا أيّها القائد، إنّ فرعون لا يأذن لإنسان بمفاتحته في هٰذا الموضوع، وأنا لا أحظى بالمثول بين يديه إلّا في فترات متباعدة جدًّا.. إنّي أشعر بالارتباك والوحدة.

وصمت الرجلان برهة، فخلا كلّ منهما إلى أفكاره، ثمّ هزّ سوفخاتب رأسه متعجّبًا، وقال وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ إنّه لَلسِّحر بعينه.

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة، وبغته المعنى الذي يقصده الرجل، فسرت في جسده قشعريرة وامتقع لونه، ولٰكنّه كبح جماح نفسه، وكان تعوّد ذٰلك في المدّة الجافّة الأخيرة من حياته، وسأله ببساطة كلّفته جهدًا جهيدًا:

ـ أيّ سحر تعني يا صاحب القداسة؟

فقال سوفخاتب:

ـ رادوبيس، أليست تنفث في فرعون سحرًا، بلى وحقّ الأرباب، إنّ ما بجلالته لسحرًا مبينًا..

واهتزّت نفس طاهو لذكر هذا الاسم، وخال أنّه يسمع شيئًا عجيبًا يلمس بوقعه السحريّ جميع الحواسّ والعواطف، وكان يزيل الصمام الذي أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه، فأصرّ على أسنانه بشدّة وقال:

ـ يقول الناس إنّ الحبّ سحر، والسحرة يقولون إنّ السحر حبّ.

فقال الوزير الحزين:

ـ بتّ اعتقد أنّ جمال رادوبيس سحر ملعون.

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال:

ـ ألم تتلُ الرقية التي مكّنت لهذا السحر؟

فأحسّ الرجل بلوم القائد وامتقع لونه، وقال بسرعة كأنّما يدفع تهمة:

ـ لم تكن أوّل امرأة..

ـ ولكنّها كانت رادوبيس!

ـ رجوت لمولاي سعادة.

ـ فقدّمت له سحرًا واأسفاه!

ـ نعم أيّها القائد، إنّي أشعر بأنّي أخطأت خطأ بليغًا.. ولكن ينبغي عمل شيء.

فقال طاهو وكان لايزال يحسّ بمرارة:

ـ هذا واجبك يا صاحب القداسة.

ـ إنّي أطلب مشورتك.

ـ إنّ الإخلاص يبلغ غايته في النصيحة الصادقة.

ـ إنّ فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسألة الكهنة.

ـ ألا تفضي برأيك إلى جلالة الملكة ؟

ـ هذا سبيل أودى بخنوم حتب إلى التعرّض إلى غضب جلالة الملك.

فلم يجدْ طاهو ما يقوله، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت:

ـ ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرّة أخرى، وانخلع قلبه في صدره، وكادت العواطف التي يبالغ في كتمانها تنفجر، وقال لنفسه: إنّ الشيخ لايدري ماذا يقول، ويظنّ أنّ مولاه هو المسحور وحده.. ثمّ قال له:

ـ لماذا لا تجتمع بها أنت ؟

فقال سوفخاتب:

ـ لعلّك أقدر منّي على التفاهم معها.

فقال طاهو ببرود:

ـ أخشى أن تجد عليّ رادوبيس، وتسيء بي الظنّ فتشوّه مسعاي لدى فرعون.. كلّا يا صاحب القداسة..

وتهيّب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة.

ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأنّ أعصابه ثارت، وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاغبرار، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوي على شيء، تاركًا وراءه سوفخاتب غارقًا في لجّة عميقة من الأفكار والأحزان.

الملكتان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذي تثقل رأسه الهموم.

كانت الملكة تقبع في جناحها، تنطوي على حزن دفين، وألم بارح، ويأس محروم من الشكوى، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير، وتشاهد الأمور التي تقع في الوادي بعينين حزينتين، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها، أو ملكة يتقلقل بها عرشها، وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له اتّصال، ما دام الملك يغرق في هواه، وما دامت هي تلوذ بصمت الكبرياء.

وساءها أن تعلم أنّ الملك يزهد في النظر في واجباته العليا، وأنّ الحبّ أنساه كلّ شيء حتّى تركّزت السلطة في يد سوفخاتب. ولم يكن يداخلها شكّ في إخلاص الوزير للعرش، ولكنّها غضبت من استهتار الملك وذهوله، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلّفها الأمر، ولم تتردّد عن غايتها، فدعت يومًا سوفخاتب وطلبت إليه أن يرجع إليها في الشئون التي تحتاج إلى رأي الملك. وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشيء، وأرضت معه الوزير وهي لا تدري، الذي تنفّس الصعداء، وأحسّ بأنّ حملًا ثقيلًا رفع عن صدره الضعيف.

وعلى أثر اتّصال الوزير بها، علمت بالالتماسات التي بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادي، وقرأتها بصبر وجَلَد، فقرأت الكلمة التي أجمع عليها رأي الصفوة من افذاذ المملكة، وأحسّت بالخطورة المستترة

خلف أسطرها المتّزنة الحازمة.. وتساءلت في حيرة وألم، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أنّ فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط؟.. فالكهنة قوّة عظيمة، وهم يتسلّطون على عقول الشعب وقلوبه، وهو يستمع إليهم في المعابد والمدارس والجامعات، ويطمئنّ إلى أخلاقهم وتعاليمهم إطمئنانه إلى مثله العليا.. فكيف تطرد الأمور إذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون؟... وقنطوا من إصلاح الأمور التي لم يروها قطّ تسير في طريقها التي تسير فيه في أيّ عهد من العهود المجيدة الفخور التي طواها الماضي الخالد ؟.

وما من شكّ في أنّ الأمور تتعقّد تعقيدًا خطيرًا، ويندفع نهر الشقاق، فيفرّق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيجة، وبين شعبه المخلص الأمين، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغني عنه إخلاصه ولا حكمته شيئًا..

وأحسّت الملكة بأنّه ينبغي عمل شيء، وأنّ ترك الأمور تسير إلى غايتها ينذر بمتاعب، فينبغي أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلّص الذي يعتوره، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله.. فما عسى أن تصنع؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحقّ، ولكنّها اليوم لا يعاودها إليه أمل، ولم تنسَ بعد ما وُجّه إلى كبريائها من طعنة نجلاء، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة. وفتّشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها. لكن ما غرضها؟.. لقد فكّرت في ذٰلك مليًّا، ثمّ قالت لنفسها: «غاية ما آمل أن أفوز به، أن يردّ فرعون إلى الكهنة الأراضي التي انتزعها منهم..» ولكن ما السبيل إلى ذٰلك؟.. إنّ الملك غضوب ذو كبرياء عنيف، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان، ولقد أمر بنزع الأراضي في ساعة غضب خطير، ولٰكن ما من شكّ في أنّ أشياء غير الغضب تدعوه إلى الاحتفاظ بالأراضي في حوزته، ومن يعرف قصر بيجة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهيّة هٰذه الأشياء، لقد سمّوه بحقّ قصر بيجة الذهبي، لكثرة ما به من التحف الذهبيّة والأثاث المصنوع من خالص الذهب،

فلو سدّت هذه الفوهة التي تبتلع أموال الملك، لربّما هان عليه أن يفكّر في ردّ أراضي المعابد إلى الكهنة. ولم تكن تطمع في صرف الملك عن غانية بيجة، ولا فكّرت في ذلك، ولكنّها كانت ترجو لإسرافه حدًّا. وتنهّدت عند ذلك وقالت لنفسها: الآن وضح غرضي، فينبغي أن نجد وسيلة لإقناع الملك، بالتحوّل عن الإسراف الشديد، ثمّ نقنعه بعد ذٰلك بردّ الأراضي إلى أصحابها، ولٰكن كيف نقنع الملك؟.. لقد أسقطته من حسابها. ولكنّها تجده وراء كلّ حساب.. لقد فشلت في إقناعه، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظًّا، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه، وقد أفلت منها هذا السؤال: «من القادر على إقناع الملك؟» فسرت في جسدها قشعريرة أليمة، إذ حضرها الجواب سريعًا، ولٰكنّه كان مروّعًا أليمًا، ولم تكن تجهله. ولكنّه كان من الحقائق التي يتجدّد الألم بها كلّما عاودتها الذاكرة، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكّم في الملك، المسيّر له، غريمتها راقصة بيجة، التي حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد.. هذه هي الحقيقة المؤلمة التي تسأم التسليم بها كما يسلّم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال..

وكانت الملكة امرأة حزينة، ولكنّها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق. وكانت تتناسى أنّها امرأة، وإن لم تستطع أن تنسى ذٰلك، فظلّ قلبها يحوم حول زوجها الملك، والمرأة التي خطفته من بين يديها. ولكنّها لم تتناسَ قطّ أنّها الملكة، ولم تغفل لحظة عن واجباتها، وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به في مرتقاه فوق منال الهمس والتذمّر، ترى هل انتهت إلى هٰذا العزم بدافع واجبها فحسب..؟ أم كانت هنالك دوافع أخرى؟. إنّ أفكارنا مسوقة دائمًا للطواف بمن نحبّ ومن نكره، فنجذب إليهم بقوّة خفيّة كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح. ولقد أحسّت من بادئ الأمر برغبة في رؤية رادوبيس التي ترامت إليها أخبارها، ولكن ما معنى هذا؟.. أتذهب إليها لتحدّثها في شئون مصر؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التي

تعرض نفسها في سوق الهوى، وتخاطبها باسم حبّها المزعوم للملك، أن تردّه عن الإسراف وتعيده إلى واجبه؟.. يا لها من صورة بشعة!..

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها، وضغطت عليها عواطفها الخفيّة وواجبها المبين، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل.. فلم تعد تستطيع صبرًا، وأقنعت نفسها بأنّ واجبها يدعوها إلى عمل شيء ما، وإلى بذل محاولة أخرى.. وتساءلت في حيرتها: «أأذهب حقًّا إلى هذه المرأة، وألفتها إلى واجبها، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها..» وأسلمها تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة، وارتباك محزن، هويا بها إلى الهوس والهذيان، ولكنّها لم ترجع عن فكرتها. وما كانت تزداد إلّا تصميمًا، كانت كسَيْل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولًا. ولكنّه يندفع مضطربًا مزبدًا كاسرًا.. فقالت في نهاية المعركة الناشبة: «سأذهب...».

* * *

وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك. واستقبلت الضحى في سفينة ملكيّة، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة، الأبيض الذهبيّ. وكانت تشملها حالة ذهول محزن، ولم تكن ارتدت ثوبًا ملكيًّا، فأحسّت لذلك بسخط واستياء، ورست السفينة على سلّم القصر، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق، فقالت له: إنّها زائرة تطلب مقابلة ربّة القصر، فتقدّمها إلى بهو الاستقبال، وكان الجوّ باردًا، وريح الشتاء ترسل هبّات قارسة خلل أغصان تعرّت كأذرع محنّطة.. وجلست في البهو تنظر وحدها. وكانت تشعر بغرابة وحيرة، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنّه يصحّ أن تخفض الملكة من كبريائها في سبيل واجبها الأسمى، ولكنّها أحسّت بالانتظار يطول وتساءلت قلقة: «هل تدعها تنتظر طويلًا كما تفعل مع الرجال». ولحقها جزع مؤلم، وندمت على تسرّعها بالحضور إلى قصر غريمتها..

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب، فرفعت رأسها المثقل، فوقعت عيناها لأوّل مرّة على وجه رادوبيس. كانت رادوبيس بغير ريب. وقد أحسّت بلذعة ألم ويأس، ونسيت لحظةً همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهَلوك. وبغتت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد.

وسلّمتا باليد وجلست رادوبيس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة، ولمّا وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقيّ:

ـ نزلت قصرك.

فردّت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب:

ـ شكرًا..

فابتسمت الغانية وقالت:

ـ ليت ضيفتنا تؤذننا بشخصها الجليل.

وكان السؤال طبيعيًّا ولٰكنّ الملكة ضاقت به كأنّها لم تكن تتوقّعه. ولم تجد بدًّا من إعلان نفسها، وقالت بهدوء:

ـ أنا الملكة..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها في نفسها، فشاهدت ابتسامة تغيض، وعينيها تلمعان دهشة، وصدرها يمتلئ ويتصلّب كالأفعى إذا هوجمت.. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو، فقد تغيّر قلبها لدى رؤية غريمتها، وأحسّت بدمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعًا، وشعرت بالكراهية والبغضاء، وتواجهتا كغريمتين تتحفّزان للقتال.. واستولت عليها حالة مريرة ملوّثة بالغضب والحقد. ونسيت الملكة إلى حين كلّ شيء إلّا أنّها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها، ونسيت رادوبيس كلّ شيء إلّا أنّها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه..

وتبودل الحديث بينهما بادئ الأمر في ذلك الجوّ المشبع بالغضب والحقد فجرى مجرًى عنيفًا محزنًا، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريمتها، فقالت باستياء:

ـ ألا تدرين أيّتها السيّدة كيف تحيّين الملكة؟..

فجمدت رادوبيس في مكانها ولفحت قلبها هبّة من انفعال شديد، وكادت تنفجر لتنفّس عن صدرها

الكظيم، ولكنّها ملكت أعصابها، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت رأسها وهي جالسة، وقد أسندت رأسها إلى المقعد في تراخ واستهانة، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ إنّه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصري في التاريخ..

والتهب وجه الملكة غضبًا، فقالت بانفعال:

ـ لم تعدّي الحقيقة، فسيُذكر قصرك هذه المرة ذكرًا جميلًا لا كما تعوّد أن يذكره الناس.

فنظرت إليها بسخرية تستر غيظًا وحنقًا، وقالت:

ـ ألا سحقًا للناس.. أيذكرون بالسوء قصرًا يجعله مولاهم مرتعًا لقلبه وهواه!!..

وتلقّت الملكة هذه الطعنة بجلد، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنًى، وقالت:

ـ ليست الملكات كغيرهنّ من النساء يشغلن قلوبهنّ بالحبّ..

ـ أحقًّا يا مولاتي.. كنت أحسب الملكة امرأة بعد كلّ شيء..

فقالت الملكة بلهجة مغيظة:

ـ هذا لأنّك لم تكوني ملكة في يوم من الأيّام..

فامتلأ صدر المرأة وتصلّب، وقالت:

ـ عفوًا يا مولاتي، إنّي ملكة حقًّا.

فحدجتها بنظرة غريبة، وقالت بسخرية:

ـ يا للعجب، وعلى أيّ مملكة..!

فقالت بزهو كبير:

ـ على أوسع الممالك طرًّا.. قلب فرعون..

وأحسّت الملكة بوهن وألم، وخجل، وأيقنت أنّها انحدرت إلى مساجلة الراقصة في القتال، وأنّها خلعت ثوب الجلال والوقار، وتبدّت عارية في جلد المرأة الغيور التي تنافح لاسترداد رجلها، وتمسك بتلابيب غريمتها وتكيد لها كيدًا. ونظرت لموقفها وموقف غريمتها، وهي تجلس منها جلسة متعجرفة، وتردّ سهمها إلى نحرها، وتتيه عليها بحبّ زوجها وسلطانه، فشعرت بغرابة وذهول وحيرة، وتمنّت لو تكون في حلم ثقيل سخيف.

وأماتت عواطفها جميعًا، ودفنتها في أعماق نفسها، وارتدّت سريعًا إلى طبيعتها المتعالية، وجرى في عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء. فذكرت الغرض الذي جاءت من أجله، وصدقت عزيمتها على أن تكفّر عمّا بدر منها.

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرًا وباطنًا، وقالت لها:

ـ أيّتها السيّدة، إنّك لم تحسني لقاء الملكة، ولعلّك أسأت فهم الغرض من زيارتي فثرت وغضبت، ولكن اعلمي علمَ اليقين أنّي ما قصدت إلى قصرك لشأن يخصّني أنا..

فسكتت رادوبيس وحدجتها بنظرة مليئة بالارتياب.

ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب. وتناست الملكة، وقالت في هدوء:

ـ لقد جئتك أيّتها السيّدة من أجل أمور أجلّ، أمور تتعلّق بالعرش المجيد، والسلام الذي ينبغي أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه.

فقالت رادوبيس بانفعال وسخرية:

ـ يا للأمور الجليلة! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتي؟.. ما أنا إلّا امرأة يلذّ الحبّ أن يجعلها شغله الشاغل..

فتنهّدت الملكة، وأغضت عن لهجتها، وقالت:

ـ أنت تنظرين إلى أسفل، وأنا أنظر إلى أعلى.. لقد حسبت أنّك تغارين على مجد مولاك وسعادته، وإذا صدق حسباني، فينبغي أن تهديه سواء السبيل. إنّه يفني في قصرك تلالًا من الذهب، وينتزع من صفوة رجاله أراضيهم حتّى ضجّ الناس بالألم، وجأروا بالشكوى، وقالوا إنّ مولانا يبخل علينا بمال يبعثره على امرأة يحبّها بغير حساب. فواجبك إن كنت تغارين على مجده حقًّا، بَيِّنٌ كالشمس في يوم صافٍ.. أن تصدّيه عن الإسراف، وتقنعيه بردّ المال إلى أصحابه..

ولكنّ رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حقّ الفهم، وكان وجدانها ثائرًا وحقدها شديدًا، فقالت بقسوة:

- إنّ الذي يحزنك حقًّا هو أنّك ترين الذهب يتحوّل مع عطف فرعون إلى قصري.

فانفضّ جسمها، وسرت فيه قشعريرة، وصاحت بها:

- يا للبشاعة..

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء:

- لن يفرّق شيء بيني وبين مولاي.

فغلب الصمت لسان الملكة، وأحسّت بيأس شديد وجرح عميق في كبريائها، ولم تطمع في فائدة من الانتظار، فقامت واقفة وولّت المرأة ظهرها، وسارت في طريقها متألّمة حزينة غاضبة، لا تكاد ترى طريقها من شدّة الغضب.

وصعّدت رادوبيس أنفاسًا مضطربة، وأسندت رأسها الساخن إلى كفّها، وراحت في تفكير قلق حزين..

قبس من نور

وتنهّدت رادوبيس من قلب مقروح، وقالت لنفسها: «واأسفاه إنّي أتناسى العالَم، ولكنّه يأبى أن ينساني أو أن يدعني في طمأنينة بعد أن تطهّرت من الماضي وأوشابه.. ربّاه.. أحقًّا أنّ الكهنة يتّهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة.. أحقًّا أنّهم يسلقون حبّها بألسنة من لهب؟. لقد انكمشت في قصرها راضية، وانقطعت صلاتها بالناس جميعًا. وغاب عنها وجه الدنيا، فلم يدرْ لها بحسبان أن يجري اسمها بالسخط على ألسنة قوم أشدّاء، وأن يتّخذوا منها سلّمًا يرتقون عليه إلى لمز حبيبها المعبود، وهي ما تظنّ أنّ الملكة تبالغ، وإن تنوّعت الدوافع التي تسوقها إلى الكلام، فقد ترامى إليها في زمن مضى أنّ الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم، وقد سمعت بأذنيها في عيد النيل قومًا من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب. فلا شكّ أنّ وراء العالم الهادئ الجميل الذي تعيش فيه عالمًا صاخبًا تغلي مراجله بالأحزان والأحقاد.. وتكدّرت نفسها بعد صفاء دام أشهرًا طوالًا لم تذق مثلها في حياتها جميعًا، وأحسّت بأضلعها تحنو على حبيبها وتدرّ عطفًا وحبًّا، وذكرت في غمرات حزنها الطارئ ما قال آني يومًا من أنّ الحرس الفرعونيّ هو القوّة الوحيدة التي يعتدّ بها الملك، فتساءلت في هلع: لماذا لا تجنّد الجنود؟ لماذا لا يعبّئ معبودها جيشًا عرمرمًا ؟..

وقضت سحابة نهارها في مخدعها كئيبة، ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصيفيّة لتجلس أمام المثال بنامون، لأنّها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان. ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشابّ المنهومتين.. فلبثت وحدها حتّى الأصيل، ولم تذق للراحة طعمًا حتّى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها، يرفل في ثيابه الفضفاضة فتنهّدت من أعماق قلبها، وفتحت له ذراعيها وضمّها إلى صدره العريض كما يفعل كلّ مرّة، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد، ثمّ جلس إلى جانبها على الديوان الوثير، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة آثارها في قلبه مشهد النيل الذي حمل سفينته منذ حين قليل، فقال لها:

- أين الصيف الجميل؟.. أين لياليه الساهرة، إذ تشقّ بنا السفينة جبهته المتجمّدة الدكناء، وإذ نسلم في المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى، ونستمع لعزف العازفات. ونشاهد بأعين حالمة رقص الراقصات ؟

ولم تكن تستطيع أن تجاريه في تذكّره، ولكنّها لم ترض أن يحسّ بالعزلة في عاطفة أو فكر، فقالت:

- مهلًا يا حبيبي، ليس الجمال في الصيف ولا في الشتاء، ولكنّه في حبّنا، وستجد الشتاء دفئًا حنونًا ما دام وقوده.

فضحك ضحكته العظيمة التي يضطرب لها وجهه وجسمه، وقال:

- ما أجمل حديثك.. إنّه أشهى إلى قلبي من مجد الدنيا جميعًا.. ولكن ماذا تقولين في الصيد والقنص؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل، ونعدو في أعقاب الغزلان، ونلهو حتّى نشبع نفوسنا المنهومة..

فقالت وقد غلبها الشرود:

- لتكن مشيئتك يا حبيبي..

فحدجها بنظرة فاحصة، وأدرك لتوّه أنّ لسانها يحادثه وقلبها يتيه بعيدًا، فقال:

- رادوبيس.. أقسم لك بالنسر الذي ألّف بين قلبينا أنّ فكرًا يسلبني اليوم عقلك..

فنظرت إليه بعينين حزينتين وأعياها القول، فقال وقد بدا عليه الاهتمام:

- صدق حدسي فعيناك لا تكذباني، ولكن ماذا تمسكين عنّي ؟.

فتنهّدت من أعماق قلبها، وعبثت يمناها بعباءته وهي لا تدري، ثمّ قالت بصوت خافت:

- إنّي أعجب لحياتنا، فلشدّ ما ننسى ما حولنا كأنّنا نعيش في عالم قفر غير معمور.

- نِعْمَ ما نصنع يا حبيبتي، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب، ولبثنا ضالّين حتّى هدانا الحبّ، فمالك تتذمّرين؟.

فتنهّدت مرّة أخرى وقالت بحزن:

- ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظًا لا يغمض لهم جفن؟

وقطّب جبينه، والتمعت عيناه بنور خاطف، وأدرك بقلبه وساوسها، فسألها بقلق:

- ما الذي يحزنك يا رادوبيس؟.. صارحيني بأفكارك. فحسبنا ما أضعنا في غير حديث الحبّ.

فقالت:

- لست اليوم كأمس، فقد نقل إليّ بعض عبيدي الذين يمشون في الأسواق حديث قوم غاضبين يحزّ في نفوسهم أنّ مولاهم حرمهم من أراضيهم، ويضاعف من آلامهم أنّ أموالهم تنفق على قصري هذا..

فتبدّى الغضب على وجه فرعون، ولاح له شبح خنوم حتب يطلّ على جنّته المطمئنّة، فيكدّر صفوها، ويزعج أمنها. واشتدّ به الغضب فصبغ وجهه بلون النيل في إبّان فيضانه، وقال لها بصوت متهدّج:

- أهذا الذي يحزنك يا رادوبيس؟.. الويل لأولئك المتمرّدين لا يمسكون عن غيّهم؛ ولكن لا تكدّري صفونا. ولا تبالي تباكيهم.. دعيهم لشأنهم، وافرغي لي..

فأحاطت يده بكفّيها، وضغطت عليها بحنوّ، ونظرت إليه بعينين ضارعتين، وقالت:

- أنا قلقة حزينة، ويؤلمني أن أكون سببًا لشكوى قوم منك.. وكأنّي أحسّ بخوف غامض لا أدري ما كنهه.. والمحبّ يا مولاي شديد المخاوف.

فقال باستياء وغضب:

- كيف تخافين، وأنت بين يديّ؟.

فقالت بتوسّل:

- مولاي.. إنّهم يرمقون حبّنا بعين الحسد، وينفسون على هذا القصر والحبّ والطمأنينة والنعيم، ولقد قلت لنفسي في حزني وقلقي: ما للحبّ وهٰذا الذهب الذي ينثره مولاي عليّ؟ ولا أنكر عليك أنّي كرهت الذهب الذي يؤلّب قومًا علينا. ألا ترى أنّ هٰذا القصر سيظلّ جنّتنا ولو تعرّت أرضه ومسخت حوائطه؟.. إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملأ به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم..

- واأسفاه يا رادوبيس، إنّك تذكّرينني بحديث أكره سماعه.

فقالت بتوسّل:

- مولاي إنّه غشاوة في سماء سعادتنا، فامحها بكلمة..

- وما الكلمة هٰذه؟.

فقالت بفرح، وقد ظنّت أنّه يلين ويرضخ:

- أن تردّ إليهم أراضيهم.

فهزّ رأسه بعنف، وقال بلهجة شديدة:

- أنت لا تدرين من الأمر شيئًا يا رادوبيس، لقد قلت كلمتي فلم تُحترم، ونُفّذت على كره، ولم يسكتوا عن الاحتجاج، وما انفكّوا يتحدّونني، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها، وأتمنّى دونها الموت، أنت لا تدرين معنى الهزيمة في نفسي، إنّه الموت، ولو فازوا عليّ بنيل بغيتهم لوجدتني رجلًا غريبًا حزينًا أسيفًا لا قدرة له على الحياة ولا الحبّ.

ونفذت كلماته إلى قلبها، فشدّت على يديه بقوّة، وأحسّت برجفة تسرى في أوصالها. وقد هان عليها كلّ شيء إلّا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحبّ.

ونبذت رغبتها، وأسفت على توسّلاتها، وصاحت بصوت متهدّج:

لن تذلّ أبدًا.. لن تذلّ أبدًا.

فابتسم إليها بحنوّ، وقال:

ـ نعم لن أزلّ.. ولن تكوني القضاء الذي يسومني الذلّ أبدًا..

فقالت وهي تلهث، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارّة:

ـ لن تذلّ.. ولن تهزم.

وأسندت رأسها إلى صدره، واستنامت إلى خفقان قلبه. وأحسّت في غيبوبتها بأنامله تعبث بخصلات شعرها وخدّيها، ولكنّها لم تطمئنّ طويلًا، فقد ازعجها خاطر من الخواطر التي كدّرت يومها، فرفعت إليه رأسها، ونظرت إليه بعينين قلقتين، فقال لها:

ـ ما لك؟

فقالت بعد تردّد:

ـ يقولون إنّهم فئة قويّة، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم.

فابتسم قائلًا:

ـ ولكنّي الأقوى..

فتردّدت هنيهة ثمّ قالت:

ـ لماذا لا تعبّئ جيشًا قويًّا يأتمر بأمرك؟

فابتسم الملك، وسألها:

ـ أرى الوساوس تعاودك.

فتنهّدت في غيظ، وقالت:

ـ ألم يبلغ أذنيّ أنّ الناس تهمس فيما بينها بأنّ فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة؟. همْس الناس إذا تجمّع صار صراخًا.. إنّه كالشرّ يندلع لهيبًا.

ـ يا لك من متطيّرة متشائمة..

فعادت تسأله بإلحاف:

ـ لماذا لا تدعو الجنود؟.

فنظر إليها نظرة طويلة، وقد بدا عليه التفكير، ثمّ قال:

ـ إنّ الجنود لا تُدعى بغير سبب.

وبدا على وجهه الغضب، فاستدرك:

ـ إنّهم يضلّلون الأفكار، ويشعرون بغضبي عليهم. فإذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر. وربّما هبّوا يائسين للدفاع عن أنفسهم..

ففكّرت مليًّا، ثمّ قالت بصوت حالم، وكأنّها تحدّث نفسها:

ـ اخلق العلل وادْعُ الجنود.

ـ إنّ العلل تخلق نفسها بنفسها.

فأحسّت بيأس، وأحنت رأسها الحزين، وأغمضت عينيها. ولم تكن ترجو أملًا، ولكن لاح لها في الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر، فبهتت وذهلت، وفتحت عينيها، فإذا الفرح يتألّق فيهما. ودهش الملك، ولكنّها لم تُبالِهِ، وقالت وهي لا تملك عواطفها:

ـ وجدت سببًا!.

فنظر إليها متسائلًا، فاستطردت:

ـ قبائل المعصايو.

فأدرك قصدها، وهزّ رأسه يائسًا، وتمتم قائلًا:

ـ لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام.

ولكنّها لم تيأس، وقالت:

ـ من يدري بما يجري وراء الحدود؟ إنّ لنا هنالك أميرًا حاكمًا من رجالنا. فلنبعث إليه برسالة سرّيّة مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقتال، ويرسل في طلب النجدة، فتسمع صوته الملأ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب، حتّى إذا اجتمع لواؤها إليك، وصلت بها جناحك، وأشهرتها سيفًا في يدك تعلي به كلمتك وتفرض طاعتك.

واستمع لها فرعون في ذهول ودهشة، وقد عجب أيضًا لأنّها لم تخطر له ببال. على أنّه لم يكن يفكّر كثيرًا في تكوين جيش قويّ لا تدعو إليه الحالة الحربيّة، واعتقد ـ وما زال يعتقد ـ أنّ تذمّر الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدًّا يستدعي معه جيشًا كبيرًا لقمعه. ولكنّه بات يعتقد أنّ عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الالتماسات وإعلان الشكوى، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة، ومال إليها بجامع قلبه. وكان إذا مال إلى

شيء تعلّقه، وانشغل به واندفع في سبيله برغبة جنونيّة لا يلوي على شيء. لهذا نظر إلى عيني رادوبيس بفرح وابتهاج، وصاح بصوت قويّ:

- نِعْمَ الفكرة يا رادوبيس! نِعْمَ الفكرة!.

فقالت بفرح غريب:

- هذا ما يحدّثني به قلبي.. وإنّها لسهلة التحقيق سهولة تناولي هذه القبلة من فيك الحبيب.. وما علينا إلّا الكتمان.

- نَعم يا حبيبتي.. ألا ترين أنّ عقلك كقلبك كنز ثمين؟. وحقًّا ما علينا إلّا الكتمان، واختيار رسول أمين، فدعي هذا لي.

سألته:

- من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفنرو؟

فأجابها ببساطة:

- سأختار حاجبًا من رجالي المخلصين.

وكانت لا تطمئنّ إلى قصره العظيم، لغير ما سبب معقول، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة. ولم تستطع قطّ أن تعبّر عن هواجسها، وتحيّرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر.. وزاد من حيرتها أنّها أدركت أنّ افتضاح السرّ معناه شديد الخطر، حتّى ليكبر ذكره على الخاطر. وهمّت في لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهٰذا، ولٰكنّها ذكرت بغتة الشابّ الطفل ذا العينين الصافيتين الذي يعمل بالحجرة الصيفيّة، وأحسّت إلى ذكره بطمأنينة غريبة، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة، وقلبه معبد تقدّم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء.. فهو رسولها.. وهو الأمين. ولم تتردّد فقالت له بثقة:

- دعني أختار الرسول بنفسي.

فاستضحك الملك وقال:

- يا لك من رعديد اليوم.. لست كعهدي بك.. ومن عسى أن تختاري يا ترى؟.

فقالت بخشوع:

- مولاي.. المحبّ شديد المخاوف، ورسولي فنّان يزخرف الحجرة الصيفيّة، له سنّ الشباب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة، ويخلص لي إخلاصًا لا مزيد عليه. ومزيّته الظاهرة أنّه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء، وإنّه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدري بأمرها الشديد الخطر.. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا المهالك آمنين.

فهزّ الملك رأسه راضيًا. وكان يكره أن يقول لها لا. وظنّت رادوبيس أنّ السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذي قصدت إليه بادئ الأمر، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان، وأيقنت أنّها ستستطيع عمّا قريب أن تذهل عن الدنيا في قصر الحبّ هذا، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح.

وأحنت رأسها بالأحلام، فراق الملك جمال شعرها، وكان يحبّه، فعبث بأنامله في عقدته فانحلّت وسال على كتفيها، فتنشّقه وجمعه بين يديه، وغمر به رأسه ووجهه في دعابة حتّى لم يبد منها شيء.

الرّسُول

وأشرق صباح اليوم الثاني، وكان الجوّ باردًا والسماء متلفّعة بأردية السحب، تبيضّ وتتوهّج فوق منبع الشمس كوجه بريء يعلن ظاهره عن باطنه، وتظلم الآفاق البعيدة كأنّها ذيول ليل نسيها وراءه بعد إدباره..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها، ولا يرضى عنه تطهّرها يوم تطهّرت في المعبد، وأقسمت ليزول الماضي بشوائبه. كان الذي ينتظرها أن تخدع بنامون، وتعبث بعواطفه ليخدم حبّها ويحقّق غرضها. على أنّها لم تتردّد قطّ لأنّه كان ينبغي أن تسبق الزمن، وكانت تحنو على حبّها حنوًّا كبيرًا فلم تبالِ أن تقسو في سبيلها قساوة مرّة.. وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفيّة عظيمة الثقة لأنّ التغرير ببنامون كان أمرًا سهلًا لا يكلّف مكرًا..

وسارت على أطراف أصابعها، فوجدت الشابّ

يتطلّع إلى صورتها، ويترنّم مغنّيًا أغنية كانت تغنّيها في الأماسيّ الخوالي مطلعها:

إذا كان حسنك بصنع المعجزات
فلماذا لا يقدر على شفائي

وأخذت بغنائه، ولكنّها انتهزت الفرصة، وغنّت تتمّ أغنيته:

هل أعبث بما لا علم لي به
والأفق مستتر خلف سحاب
وعسى أن تكون المدّخر لقلبي

فتحوّل الشابّ إليها فزعًا مسحورًا، فتلقّته بضحكة عذبة، وقالت له:

- إنّ لك صوتًا عذبًا، فكيف أخفيته عنّي طوال هذه الأيّام؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيًا، وارتجفت شفتاه ارتباكًا، وقابل تلطّفها بدهشة.

وأدركت المرأة ما يدور بخلده، فقالت تستدرجه:

- أراك تلهو بالغناء، وتترك العمل. .

فبدا عليه الإنكار، وأشار إلى صورتها المحفورة. وتمتم: «انظري».

وكانت الصورة قد استوت وجهًا جميلًا لا تنقصه الحياة، فقالت بإعجاب:

- إنّك لقادر يا بنامون.

فتنهّد الشابّ ارتياحًا، وقال لها بامتنان:

- شكرًا لك يا سيّدتي.

- فقالت تعطف الحديث إلى غايتها:

- ولكنّك قسوت عليّ يا بنامون.

- أنا. . كيف يا مولاتي؟

فقالت:

- خلقت لي نظرة جبّارة، وأنا أشتهي أن أكون كالحمامة.

فلزمه الصمت ولم يبن، ففسّرت صمته على هواها، وقالت:

- ألم أقل إنّك تقسو عليّ. . فكيف تراني يا بنامون. . أجبّارة قاسية جميلة كهذه الصورة؟ يا لها من صورة! إنّي أعجب كيف ينطق الحجر. ولكنّك تحسب أنّ قلبي لا يشعر كهذا الحجر، أليس كذلك؟ لا تهمّ بالفرار فهذا هو اعتقادك. ولكن لماذا يا بنامون؟.

ولم يدر ما يقول، فغلبه الصمت، وكانت توحي إليه بأفكارها، فيصدّقها وينساق إليها ويشتدّ ارتباكه، واستدركت المرأة:

لماذا يا بنامون تحسبني قاسية؟. إنّك تؤمن بالظواهر، لأنّك لا تقدر بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح. أمّا نحن فلنا طبيعة أخرى، والصراحة تضيّع علينا لذّة الفوز، وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا.

وساءل الشابّ نفسه حائرًا: ماذا تعني يا ترى، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدلّ عليه كلماتها. . أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين، لا تحسّ بالنار الملتهبة في كيانه، فما الذي غيّرها؟ لماذا تحدّثه هذا الحديث الحلو؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التي تحرق قلبه؟! هل تعني حقًّا ما تقول! وهل تعني حقًّا ما أفهمه؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت:

- آه يا بنامون إنّك تقسو عليّ بدورك، وآية ذلك الصمت الذي تردّ به عليّ.

فحدجها بنظرة والهة، وكاد من الفرح تفرّ الدموع من عينيه، وقد أيقن صدق ظنونه، فقال بصوت متهدّج:

- الدنيا لا تسعني كلامًا.

فتنهّدت ارتياحًا أن حلّت عقدة لسانه، وقالت بصوت حالم:

- وما حاجتك إلى الكلام؟. فلن تقول شيئًا أجهله. . أيّتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرًا، وتركنا في جسمك أثرًا من قلوبنا خالدًا. . نعم ها هنا عرفت سرًّا رهيبًا. .

وتفرّست في وجهه زمنًا قصيرًا، ثمّ قالت:

- ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سرّ قلبي؟. على حين بغتة عجيبة كانت لديّ رسالة خاصّة أريد أن أبعث بها إلى إنسان في مكان قصيّ، وأن أبعث بها مع

رسول ترتاح إليه نفسي، ويثق فيه قلبي. وكنت جالسة وحدي أستعرض أمام ناظريّ أقوامًا من الرجال والنساء، ومن العبيد والأحرار، وما أحسّ في كلّ مرّة إلّا بالجفاء والقلق. ثمّ لا أدري إلّا وخيالي يتسلّل إلى هٰذه الحجرة، ووجدتني فجأة أذكرك يا بنامون، فترتاح نفسي ويطمئنّ قلبي، بل أحسست بما هو أعمق من هٰذا، وهٰكذا عرفت سرّ قلبي.

فغمر الفرح وجه الشابّ، وأحسّ بالسعادة إلى حدّ الذهول، فجثا على ركبتيه أمامها، وهتف من أعماق قلبه:

ـ مولاتي!

فوضعت كفّها على رأسه، وقالت بحنان:

ـ هكـذا عرفت سرّ قلبي، وإنّي لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل طويل.

فقال بنامون، وكان يتيه في غمرات الذهول:

ـ مـولاتي، أقسم لقـد شهـدني الليـل وأنـا ذوب عذاب، وهاك الصبح يلقاني نسمة من سعادة معطّرة. لقد أخرجتني كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور، ونقلتني من ديـاجير اليـأس إلى سحر السعـادة. لقد أحببت نفسي بعـد أن أشفيت عـلى الفنـاء.. أنت سعادتي وحلمي وأملي.

وكانت تصغي إليه في صمت حزين، وقد شعرت بأنّه يصلّي صلاة حارّة، وأنّه يهيم في جهالة الأحلام السـاذجة المقـدّسة، فـوجمت وعاودهـا شيء من الألم والندم. ولٰكنّها لم تستسلم طويلًا لعواطفها التي أثارها في قلبها بهيامه فقالت في دهاء:

ـ إنّي أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل، بل إنّي أعجب للمصادفـات التي توفّقني إلى سرّه إلّا حين حاجتي إلى إرسالك إلى مهمّة بعيدة، فكأنّها دلّتني عليك، وحرمتني منك في لحظة واحدة.

فقال الشابّ بلهجة العبادة:

ـ سأفعل ما تريدين بروحي وقلبي.

فسألته بعد تردّد:

ـ وإن كان ما أريد سفرًا إلى بلد لا تبلغه إلّا بشقّ الأنفس؟!

ـ لن يشقّ عليّ منه إلّا أنّي لا أراك كلّ صباح.

ـ فليكن غيابًا إلى حين. سأعطيك رسالة تودعها صـدرك، وتذهب إلى حـاكم الجزيـرة بكلمـة منّي، فيدلّك على الطريق، ويذلّل لك الصعاب. وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحـد منها أن يـطّلع على مـا في صدرك حتّى تبلغ حاكم النوبة، فتسلّمها له يدًا بيد، ثمّ تعود إليّ.

وأحسّ بنـامون بسعـادة جديـدة يمـازجهـا شعـور بالنخوة والخيلاء، وكانت يدها على كثب منه، فهوى بفمه عليها ولثمها بشوق ووجد، ورأته يـرتجف بقوّة حين لمست شفتاه يدها.

وفي طريق العودة عـاودها إحسـاس حزين، حتّى قالت لنفسها: أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي يختار رسوله، من أن أعبث بقلب هذا الشابّ؟. على أنّه كان سعيدًا، أسعدته كلمة كاذبة، بل كان في حالة يحسد عليها السعداء حقًّا، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة، حتّى تيأس من لياذها بالكذب!!.

الرّسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهزّ في يده رسالة مطويّة، يشرق وجهه بنور السعادة، فحدجتها بنظرة غريبة وتساءلت: ترى هـل يُكتب لفكرتهـا بالنجـاح والتوفيق، وتسير الأمور وفق أحلامهـا! وبسط الملك الرسالة، وقرأتها بعينين مبتهجتين، وكانت موجّهة إلى الأمير كارفنرو حاكم النوبة من ابن عمّه فرعون مصر. وقد صارحه فيها بمتاعبه، وبرغبته في تعبئة جيش جرّار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذي صفة رسميّة، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبيّة، ولقمع ثورة وهميّة يزعم أنّ قبائل المعصايو أشعلت نيرانها، واجتاحت بها البلدان والقرى.

وطوتها رادوبيس مرّة أخرى، ثمّ قالت:

ـ إنّ الرسول على أهبة الاستعداد.

فقال الملك مبتسمًا:

ـ والرسالة جاهزة.

وبدا على وجهها التأمّل والأحلام، ثمّ سألت:

ـ ترى كيف يقابلون رسالة كارفنرو؟

فقال الملك بلهجة اليقين:

ـ ستهزّ القلوب جميعًا، وقلوب الكهنة أنفسهم، وسوف يدعو الحكّام إلى تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد، فلا يلبث الجيش الذي يناط به أملنا أن يأتينا بعَدده وعُدده.

واستخفّها الفرح وسألته بلهفة:

ـ وهل ننتظر طويلًا؟

ـ أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول في الذهاب والإياب.

ففكّرت هنيهةً، ثمّ عدّت على أصابعها، وقالت:

ـ إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل.

فضحك الملك وقال:

هذا فأل حسن يا رادوبيس، فعيد النيل هو عيد حبّنا، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة.

وتفاءلت هي خيرًا وكانت تؤمن بأنّه لا يمكن أن تفقد أملًا عزيزًا في ذاك اليوم الذي تعدّه بحقّ مولدًا لسعادتها وحبّها. وأيقنت أنّ اقتران عودة الرسول به ليس محض مصادفة، ولكنّه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبّها وتعطف على آمالها.

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار، ثمّ قبّل رأسها وقال:

ـ لله هذا الرأس الثمين.. لشدّ ما أعجب به سوفخاتب، ولشدّ ما أعجب بالفكرة التي أبدعها، فلم يملك نفسه أن قال لي: يا له من حلّ يسير لمشكل عسير، كأنّه زهرة مونقة تخرج من ساقٍ ملتوية، وأغصان شديدة التعقيد.

وكانت تظنّ أنّه كتم الخبر ولم يبح لإنسان، حتّى ذلك الوزير المخلص سوفخاتب، فسألته:

ـ هل علم الوزير بسرّنا؟

فقال ببساطة:

ـ نعم: إنّ سوفخاتب وطاهو بمثابة عقلي وقلبي، فلا أكتمهما شيئًا.

ودوّى اسم طاهو في أذنيها دويًّا شديدًا، فتجهّم وجهها، وبدا القلق في عينيها، وسألته:

ـ وهل علم به الآخر؟

فقال الملك ضاحكًا:

ـ لشدّ ما تحاذرين يا رادوبيس، ولكن اعلمي أنّي لا آمن نفسي على شيء لا آمنهما عليه.

فقالت:

ـ إنّ حذري يا مولاي لا يرتقي لإنسان تثق فيه هذه الثقة.

ولكنّها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه الأخير، ودوّى في أذنيها صوته الأجشّ، وهو يهدر غاضبًا حانقًا يائسًا، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شيء؟!.

ولكنّ الوساوس لم تجد فرصة للعبث بقلبها، لأنّها كانت تنسى نفسها بين يدي حبيبها.

* * *

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفّعًا بعباءته، غارقًا في القلنسوة حتّى الأذنين، وكان خدّاه متورّدين، وعيناه لامعتين بنور فرح سماويّ.. فسجد بين يديها في صمت وخشوع، وقبّل حاشية ثوبها في عبادة، فداعبت رأسه بأناملها، وقالت له بحنوّ:

ـ لن أنسى يا بنامون أنّك لأجلي هجرت الراحة والسكينة.

فرفع إليها وجهه الجميل البريء، وقال بصوت متهدّج:

ـ في سبيلك يهون كلّ شاقّ، فلتعنّي الآلهة على تحمّل ألم الفراق.

فقالت له مبتسمة:

ـ ستعود سعيدًا ناضرًا، وستنسى في أفراح المستقبل أحزان الماضي جميعًا.

فتنهّد قائلًا:

ـ طوبى لمن يحمل في قلبه حلمًا سعيدًا يؤنس وحدته، ويرطّب جفاف طريقه.

فابتسمت له ابتسامة مشرقة، وأمسكت بيدها الرسالة المطويّة وسلّمتها إليه وقالت:

ـ لا أوصيك بالحذر.. أين تودعها؟

فقال:

ـ على قلبي يا مولاتي تحت منطقتي.

فسلّمت إليه رسالة أخرى صغيرة، وهي تقول:

ـ هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آني يمهّد لك السبيل، ويدلّك على أوّل قافلة تقوم.

ثمّ حمّ الوداع، فازدرد ريقه واضطرب، وبدا عليه الارتباك والهيام، فمدّت له يدها، فتردّد لحظة، ثمّ وضعها بين يديه، وكفّاه يرتعشان كأنّما يلمس نارًا موقدة، ثمّ ضمّها إلى صدره حتّى سرت إليها حرارته وخفقاته. ثمّ مضى راجعًا فغيّبه الباب، وقد شيّعته بنظرة حائرة، ولسان يلهج بالدعاء الحارّ.

كيف لا، وقد ربط على قلبه أملًا تتعلّق به حياتها.

طاهو يهذي

وكان الانتظار مرًّا من أوّل عهدها به، لأنّه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة: ليت الملك لم يفشِ سرّ الرسالة لإنسان. كانت تتمنّى هذا بحرقة لم يخفّف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقرّبين. ولم تكن وساوسها ريبة صريحة، ولكنّ ثمّة قلق دفعها إلى التساؤل: ترى ماذا يحدث لو سعى ساعٍ بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت؟ هل يتردّدون في الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشرّ المبيّت.. ربّاه.. إنّ إفشاء سرّ الرسالة أمر خطير.. لا يجرؤ على إدراك كنه خطورته عقل وطنيّ. وأحسّت بقشعريرة تسري في جسمها الرقيق، وهزّت رأسها بعنف تطرد عن مخيّلتها أوهام الوساوس، وهمست لضميرها تسكته قائلة: إنّ كلّ شيء يسير وفق الخطّة التي رسمناها، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف؛ وما هذه الأوهام المرتعبة إلّا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام.

على أنّها كانت لا تكاد تطمئنّ حتّى يحوم خيالها مرّة أخرى حول هاتيك المخاوف، وتخال أنّها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلّص من الألم، وأنّها تسمع صوته الأجشّ ذا النبرات المتألّمة المجروحة. وقد عانت من مخاوفها الآلام، ولكنّها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذي يكتنفها.

ترى هل يحقّ لها أن تخشى طاهو أو أن تسيء به الظنّ؟.. إنّ كلّ الدلائل تدلّ على أنه نسي. ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئًا وامتنع عنه طواعية؟. فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرمًا محرّمًا، وما كان بوسعه إلّا الإذعان والتسليم، ولا يعني هذا أنّه نسي أو برأ.

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقًا بقلبه؟.. إنّ طاهو جبّار عنيد، وقد يستحيل الحبّ في قلبه حقدًا موريًا، فيتحفّز عند سنوح الفرصة للانتقام.. على أنّها لم تنسَ في أحزانها أن تنصف طاهو، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في حبّ مولاه، وأنّه رجل الواجب الذي لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع.

كان كلّ شيء يدعو إلى الطمأنينة، ولكنّ وساوسها لم تدعها في طمأنينتها قطّ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط، فكيف لها بالانتظار شهرًا أو يزيد؟.. لقد لحقها الفزع، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها. وكان خاطرًا لا يخطر لها على بالٍ قبل يوم، أمّا اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة. وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتّقيه ولا يجد سبيلًا إلى دفعه أو الإفلات منه، وفكّرت في ذلك تفكيرًا مضطربًا، وقالت لنفسها: فلأدْعُه ولأحادثه لاستبطان ذاته، وعسى أن أفوز بدفع شرّه ـ إن كان هناك شرّ يدفع ـ فأنقذه من نفسه، وأنقذ مولاي من شرّه، وما لبثت رغبتها أن تحوّلت إلى عزيمة لا تقبل التردّد، فاستمسكت بها بكلّ ما أوتيت من قوّة وقلق.. ودعت من فورها شيث وأمرتها

بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه. وذهبت شيث وانتظرت هي في بهو استقبالها على قلق؛ ولم يكن يداخلها ريب في تلبيته لدعوتها. وذكرت في انتظارها اضطرابها، وقرنت به ما كانت عليه من القوّة والبرود في الأيّام الخوالي. فأدركت أنّها منذ الساعة التي نزل فيها الحبّ بقلبها، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر، أو قلق كاذب..

وجاء طاهو كما توقّعت، وكان مرتديًا لباسه الرسميّ، فوجدت في ذلك معنًى مطمئنًا، فكأنّه يقول لها إنّه نسي رادوبيس غانية القصر الأبيض، وإنّه يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون.

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثّر:

ـ أسعد الربّ أيّامك أيّتها السيّدة الجليلة.

فقالت وهي تتفرّس في وجهه:

ـ وأيّامك أيّها القائد الجليل، وإنّي أشكرك على قبول دعوتي.

فقال طاهو وهو يحني رأسه:

ـ إنّي رهن إشارتك يا سيّدتي.

رأته كما كان قويًّا متين الأسر، دمويّ البشرة، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيّرًا طارئًا لا يمكن لغير عينيها أن تراه. وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها، وأطفأت روحًا شاملًا كان يشعّ من وجه الرجل.. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث في تلك الليلة الغريبة التي فصلت بينهما منذ قريب من عام.. وأسفاه كان طاهو كجوّ عاصف، فأمسى كجوّ راكد.. وقالت له:

ـ إنّي دعوتك أيّها القائد لأهنّئك على الثقة العظيمة التي يوليك إيّاها الملك.

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال:

ـ شكرًا لك يا سيّدتي، هٰذه نعمة قديمة منّت بها عليّ الأرباب.

فابتسمت ابتسامة متكلّفة وقالت بدهاء:

ـ ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتي من جميل الثناء.

وتفكّر الرجل لحظة، ثمّ تذكّر فقال:

ـ لعلّك يا سيّدتي تعنين الفكرة النيّرة التي أوحى بها عقلك الراجح؟.

فهزّت رأسها أن نعم، فاستطرد:

ـ إنّها فكرة رائعة، جديرة بذكائك اللامع.

فقالت وهي لا تبدي السرور:

ـ إنّ تحقيقها يكفل لمولانا القوّة والسيادة، وللوطن السلام والطمأنينة.

فقال القائد:

ـ هذا حقّ لا ريب فيه، وهو ما جعلنا نهلّل لها ونُكبر.

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت:

ـ سيأتي يوم قريب تحتاج فكرتي إلى قوّتك لتحقيقها، وتتويجها بالنجاح والفوز.

فأحنى الرجل رأسه وقال:

ـ شكرًا لك على ثقتك الغالية.

وصمتت المرأة قليلًا. كان طاهو وقورًا رزينًا جادًّا، لا كما عهدته قديمًا، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة. وكانت تلحّ عليها رغبة قويّة في أن تفاتحه في الموضوع القديم، وأن تسأله العفو والنسيان، ولٰكن خانها البيان ولم تدْرِ ما تقول، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة، ورأت في اللحظة الأخيرة أن تعلن له عواطفها الطيّبة بطريقة أخرى، فمدّت له يدها وقالت وهي تبتسم إليه:

ـ أيّها القائد الجليل، إنّي أمدّ لك يد التقدير والصداقة.

فوضع الرجل يده الغليظة في يدها الرخصة الرقيقة، وبدا عليه التأثّر فلم يحرْ جوابًا، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة.

وفي طريق العودة إلى السفينة تساءل محمومًا: «لماذا دعتني هٰذه المرأة؟». ترك العنان لعواطفه التي كبح جماحها في حضرتها فاختلّ توازنه، وانكفأ لونه، وارتجفت أوصاله، ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة. وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنّح

كالثمل، كأنّه عائد من معركة خاسرة أفقدته حكمته وشرفه. وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصًا جنونيًا، والجوّ يعفّره غبار ثائر خانق. وكان الدم يتدفّق في عروقه ساخنًا هائجًا مجنونًا مسمومًا، ووجد إبريقًا من الخمر على خوان المقصورة، فصبّه في فمه حتّى أتى عليه في استهتار جنونيّ، وارتمى على الديوان في حالة يأس قاتل.

وفي الحقيقة لم يكن نسيها، ولكنّها كانت تكمن في سرداب خفيّ من نفسه ما فتئ يسدّه بالعزاء والصبر وشعوره القويّ بالواجب، فلمّا وقع نظره عليها بعد غياب عام، انفجر المستودع المختفي في نفسه، وتصاعد لهيبه حتّى حرق روحه جميعًا، وأحسّ بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح، فذاق الهزيمة والعذاب مرّتين في معركة واحدة منتهية. وأحسّ بدوار في رأسه المختلّ، وجعل يحدّث نفسه في غضب كاسر، إنّه يعلم لماذا عنيت باستدعائه. دعته لتستوثق من إخلاصه، ليطمئنّ قلبها على سيّدها ومولاها الحبيب، وفي سبيل ذلك تكلّفت مودّته وتملّقه، يا للغرابة إنّ رادوبيس العابثة القاسية تجدّ وتحنو وتتعلّم ما الحبّ وما مخاوفه وآلامه، وتشفق من خيانة طاهو، الذي كان يومًا يلتصق بنعلها كالتراب، ثمّ نفضته في حالة تقزّز وملل، الويل للسماء والأرض، والويل للدنيا جميعًا. إنّه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل، وبغيظ خانق يطحن نفسه الجبّارة. إنّه يغضب غضبًا جنونيًا جارفًا، ويشعل دمه نارًا موقدة، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئًا، ويخضّب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء.

وما إن رست السفينة إلى سلّم القصر الفرعونيّ، حتّى غادرها مسرعًا، وسار يترنّح في الحديقة لا يلتفت إلى تحيّات الجنود، متّجهًا إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات، وفي أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب. وكان عائدًا من جناح الملك. وقابله الوزير بابتسامة تحيّة، ولكنّه وقف حياله جامدًا كأنّه لا يعرفه. وعجب سوفخاتب لجموده، وقال له:

ـ كيف حالك أيّها القائد طاهو؟

فقال طاهو بسرعة غريبة:

ـ أنا.. كأسد واقع في شراك.. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة!

فبدا الإنكار على وجه سوفخاتب وقال:

ـ ما هذا الكلام؟.. أيّ شبه بين الأسد والسلحفاة، أو بين الشراك والفرن؟

فقال طاهو في ذهوله:

ـ أمّا السلحفاة فتعمّر طويلًا، وتتحرّك في بطء وتنوء بحمل ثقيل، وأمّا الأسد فينكمش ويزأر ويثب في عنف فيقضي على فريسته.

فتفرّس الرجل في وجهه دهشًا وقال:

ـ أغاضب أنت؟. لست كعهدي بك!

ـ أنا غاضب.. كيف تنكرني أيّها الجليل، أنا طاهو ربيب الحرب والقتال.. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل.. إنّ آلهة الموت عطشى ولا بدّ يومًا أن أروي غلّتها.

فهزّ سوفخاتب رأسه متوهّمًا أنّه عرف ما هنالك، ثمّ قال:

ـ آه.. الآن فهمت أيّها القائد، إنّها خمر مريوط المعتّقة.

فقال طاهو بحدّة:

ـ كلّا.. كلّا.. الحقّ أنّي شربت كأسًا من الدم. ثمّ تبيّن أنّه دم إنسان شرّير، فتسمّم دمي، وزاد الأمر خطورة أنّي صادفت في طريقي إلى هنا ربّ الخير نائمًا في المرج، فأغمدت سيفي في قلبه.. هيّا إلى القتال.. فالدم شراب الجنديّ الباسل.

فقال سوفخاتب ذاهلًا:

ـ إنّها الخمر ولا شكّ، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك في الحال.

ولكنّ طاهو هزّ رأسه استهانةً وقال:

ـ الحذر الحذر أيّها الرئيس، إيّاك والدم الفاسد، فهو السمّ بعينه، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقضّ الأسد.

قال ذلك ثمّ سار في طريقه لا يلوي على شيء، تاركًا سوفخاتب في ذهول وغرابة.

فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونيّ، وقصر بيجة، ودار الحكومة تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر، ولكن في طمأنينة وثقة بالمستقبل، وكان كلّ يوم يدنو يدنيها من الفوز، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل. وما كان لينقطع هذا الشعور الطيّب الجميل، لولا أن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة، أو يقنع مضطرًا بعرضها على الملكة، ولٰكنّه وجد فيها معنًى جديدًا خطيرًا، لم يشأ أن يتحمّل تبعة إخفائه عن مولاه، ولو لاقى في سبيل ذٰلك بعض غضبه، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة، وكانت التماسًا خطيرًا موقّعًا عليه من جميع رجال الكهنوت، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأبيس، يرجون مولاهم أن يردّ أراضي المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التي تـوليه عنايتها، ويؤكّدون أنّهم ما كانوا يتقدّمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضي.

كان الخطاب قويًّا حازمًا، فغضب الملك، ومزّقه إربًا، ورمى به على أرض الحجرة وصاح:

- سوف أجيبهم بعد حين قليل.

فقال سوفخاتب:

- إنّهم يلتمسون جماعة، وكانوا يلتمسون فرادى.

فقال الملك الغاضب:

- وسأضربهم جميعًا، فليحتجّوا كيف شاء لهم الجهل.

على أنّ الحوادث جاوزت هٰذا الحدّ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إنّ خنوم حتب زار مقاطعته، وإنّه استُقبل استقبالًا شعبيًّا رائعًا اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي، وإنّ الهتافات تصاعدت باسمه، وهتف القوم أيضًا لحقوق الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم، وجاوز هذا القدر قوم، فصاحوا باكين: «واحسرتاه! إنّ أموال آمون تنفق على راقصة».

ووجم الرئيس أسفًا وحزنًا، وغلب إخلاصه تردّده هذه المرّة أيضًا، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة، وغضب الملك كعادته وقال آسفًا:

- إنّ حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئًا.

فقال سوفخاتب بحزن:

- ليس لديه يا مولاي إلّا قوّة الشرطة، وهي لا تجدي في مقاومة جموع غفيرة.

فقال الملك بغضب:

- وليس لديّ إلّا الانتظار على مضض، لقد أدميت وحقّ الربّ كبريائي!

وخيّمت سحابة من الحزن على آبو المجيدة، شملت قصورها الشامخة ودور الحكم فيها. وكانت الملكة نيتوقريس تقبع في جناحها رهينة حبس ووحشة، تعاني آلام قلبها المنفطر وكبريائها الجريح، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيفتين. وكان سوفخاتب يتلقّى الأخبار بقلب حزين، ويقول آسفًا لطاهو الصامت الكئيب: «هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرّد؟! واحزناه!».

واستحالت سعادة الملك غضبًا وغيظًا، وكان لا يذوق الراحة إلّا حين يرتمي بين يدي المرأة التي أسلمها نفسه، وكانت تدرك ما به، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتهمس في أذنه: «صبرًا» فيتنهّد ويقول حانقًا «نعم.. حتّى أقبض على ناصية القوّة».

ولٰكن اشتدّ الحرج، فتعدّدت زيارات خنوم حتب للمقاطعات، واستُقبل بالمظاهرات في كلّ مكان، وتعالى الهتاف باسمه في البلدان. وضاق بذلك كثير من الحكّام، ورأوا فيه معنًى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون. فاجتمع حكّام أمبوس، وفرمونتس، ولاتولس، وطيبة، وتشاوروا فيما بينهم، وقرّ رأيهم على مقابلة الملك. وقصدوا إلى آبو وطلبوا المقابلة، فاستقبلهم فرعون استقبالًا رسميًّا حضره سوفخاتب، وتقدّم حاكم طيبة بين يديه وحيّاه تحيّة العبوديّة والإخلاص ثمّ قال:

- مولاي، الإخلاص الحقّ لا ينفع بأن يكون عاطفة في القلب، ولا بدّ أن يقرن بإسداء النصح والعمل

الصالح والافتداء إذا حزب الأمر، ونحن حيال أمر قد يعرّضنا الصدق فيه إلى موجدة، ولكنّا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا، فلا بدّ من قولة الحقّ.

فصمت فرعون هنيهة ثمّ قال للحاكم:

ـ تكلّم أيّها الحاكم فإنّي مصغٍ إليك.

فقال الرجل بشجاعة:

ـ مولاي. الكهنة غاضبون، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم في الصباح والمساء، وكان من جرّاء ذلك أن اتّفقت كلمة الجميع على وجوب ردّ الأراضي إلى أصحابها..

فبدا الغضب على وجه الملك وقال بحنق:

ـ هل يصحّ أن يذعن فرعون لإرادة الناس؟

ـ فقال الرجل بصراحة وجسارة:

ـ مولاي. إنّ سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون، فلا إذعان، لكن تعطّف من مولًى قادر على عبادة.

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال:

ـ لا أرى في التراجع سوى الخنوع.

فقال الرجل:

ـ معاذ الربّ أن أشير إلى مولاي بالخنوع، ولكنّ السياسة بحر لُجّيّ، والحاكم كالربّان يتفادى الريح العاصفة، وينتهز الفرصة السعيدة.

ولكنّ الملك لم يعجبه قوله، وهزّ رأسه باحتقار وعناد، واستأذن سوفخاتب طالبًا الكلام، وسأل حاكم طيبة قائلًا:

ـ هل لديك دليل على أنّ الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم؟

فقال الحاكم بثبات ويقين:

ـ نعم يا صاحب القداسة، لقد بثثت عيوني في الأقاليم، فشهدوا غضب الشعب عن كثب، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه.

وقال حاكم فرمونتس:

ـ وهذا ما فعلته فجاءتني أنباء مؤسفة.

وأدلى كلّ حاكم بدلوه، ودلّت أقوالهم على خطورة الحال، وانتهت بذلك أوّل مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة.

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه في جناحه الخاصّ، وكان غاضبًا مهتاجًا يتهدّد ويتوعّد، وقد قال للرجلين:

ـ إنّ هؤلاء الحكّام مخلصون أمناء، ولكنّهم ضعاف، ولو أخذت بنصائحهم لعرّضت عرشي للهوان..

وسرعان ما أمّن طاهو على رأي مولاه وقال:

ـ إنّ التراجع هزيمة يا مولاي!

كان سوفخاتب يفكّر في احتمالات أخرى فقال:

ـ ينبغي أن نحسب حساب عيد النيل، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيّام معدودات، والحقّ أنّ قلبي لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب في آبو.

فبادر طاهو قائلًا:

ـ إنّنا نسيطر على آبو.

ـ لا ريب في هذا، ولكن لا يجوز أن ننسى أنّه في العيد الماضي تصاعدت بضعة هتافات خائنة، ولم يكن مولانا الملك قد حقّق إرادته، فينبغي أن نتوقّع هتافات أخرى أشدّ صراخًا.

فقال الملك:

ـ إنّ الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد.

ولكن لم ينفكّ سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره، فقال وكان يؤمن في قلبه باقتراح الحكّام:

ـ سيأتي الرسول في القريب، وسيتلو رسالته على الملأ، ولا شكّ أنّ الكهنة الحائزين على عطف مولاهم، المتمتّعين بما يعتقدون أنّه حقّهم، يكونون أعظم اطمئنانًا إلى التعبئة وأشدّ حماسة، حتّى إذا قبض مولاي على ناصية القوّة، أملى إرادته، ولا رادّ لمشيئته.

وضاق الملك ذرعًا برأي سوفخاتب، وأحسّ بوحشة في جناحه الخاصّ، فهرع إلى قصر بيجة الذي لا تلاحقه الوحشة إليه قطّ. وكانت رادوبيس تجهل ما دار في الاجتماع الأخير، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه، ولكنّها لم تلقَ صعوبة في قراءة صفحة وجهه

الحسّاس، والشعور بما يضطرم في قلبه من الغضب والسخط، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها مشفقًا من الظهور، فقال متذمّرًا:

- أما علمت يا رادوبيس؟ إنّ الحكّام والوزراء يشيرون عليّ بردّ الأراضي إلى الكهنة، والرضاء بالهزيمة؟

فتساءلت بانزعاج:

- ما الذي حثّهم على إبداء هٰذه المشورة؟

فروى الملك ما قال الحكّام، وما نصحوه به، وكانت تزداد انزعاجًا وحزنًا، وما تمالكت نفسها أن قالت:

- إنّ الجوّ يغبرّ ويظلم وما حمل الحكّام على المكاشفة بآرائهم إلّا خطر فادح.

فقال الملك بازدراء:

- إنّ شعبي غاضب.

- مولاي، إنّ الناس كالسفينة الضالّة بلا سكّان، تحملها الرياح كيفما تشاء.

فقال بوعيد مخيف:

- سأذهب ريحهم.

وعاودتها المخاوف والشكوك، وخانها صبرها في تلك اللحظة فقالت:

- ينبغي أن نستوصي بالحكمة، وأن نتراجع زمنًا قصيرًا مختارين، وإنّ يوم النصر لقريب.

فنظر إليها بغرابة وقال:

- أتشيرين عليّ بالخضوع يا رادوبيس؟

فضمّته إلى صدرها وقد آلمتها لهجته، ثمّ قالت وقد فاضت عيناها بدمع سخين:

- أحرى بمن يتحفّز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقدامًا، والنصر رهين بالنهاية.

فتأوّه الملك قائلًا:

- آه يا رادوبيس. . إذا كنت أنت تتجاهلين نفسي، فمنذا الذي يمكن أن يعرفها؟ أنا من إذا نزل مرغمًا على إرادة إنسان ذبل كمدًا كوردة سَفَتْها الرياح.

فبدا التأثّر في عينيها السوداوين، وقالت في حزن عميق:

- فداؤك نفسي يا حبيبي، لن تذبل قطّ وصدري يرويك حبًّا صافيًا.

- سأعيش منتصرًا في كلّ لحظة في حياتي، ولن أمكّن خنوم حتب من أن يقول يومًا إنّه أذلّني ساعة!

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت:

- أتريد أن تسوس شعبًا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانًا؟

- التسليم حيلة العاجز، سأظلّ ما حييت مستقيمًا كالسيف تتحطّم على أسنانه قوى الخائنين.

فتنهّدت حزينةً آسفةً ولم تحاول معاودته، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه وكبريائه، ومنذ تلك اللحظة وهي تتساءل جزعة متى يعود الرسول؟. . متى يعود الرسول؟ . . متى يعود الرسول؟. .

ما أشقّ الانتظار. . لو يعلم المتمنّون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد في الدنيا. . كم عدّت الدقائق والساعات وترقّبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتي من الجنوب. وكم حسبت الزمن بتردّد أنفاسها وخفقان قلبها، وكم صاحت وقد نال منها القلق كلّ منال: أين أنت يا بنامون؟! حتّى الحبّ نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم، فلا طمأنينة ولا سلام حتّى يعود الرسول برسالته!؟

وتقضّت الأيّام تجرّ ثقلها جرًّا بطيئًا، حتّى كان يوم تجلس فيه مستغرقة في أفكارها، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة، فرفعت رأسها وسألتها:

- ما وراءك يا شيث؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث:

- مولاتي، جاء بنامون.

وغمرها الفرح، فانتفضت واقفة كطير فزع، وهي تصيح:

- بنامون!.

فقالت الجارية:

- نعم يا مولاتي، إنّه ينتظر في البهو، وطلب إليّ أن أؤذنك بقدومه. كم لوّحه السفر!.

وجرت تتخطّى أدراج السلّم إلى البهو، فألفته واقفًا ينتظر مقدمها وفي عينيه شوق صارخ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل، فوقر في نفسه أنّ فرحها به، وله، فغمرته سعادة إلهيّة وارتمى على قدميها كالعابد، ولفّ ذراعيه حول ساقيها بحنان ووجد، وهوى بفمه إلى قدميها.. وقال:

- معبودتي، حلمت مائة مرّة أنّي أقبّل هاتين القدمين، وهأنذا أحقّق أحلامي.

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقّة:

- بنامون العزيز.. بنامون.. أحقًّا عدت إليّ؟

فلمعت عيناه بنور الحياة، ودسّ يده في صدره فأخرج حُقًّا من العاج صغيرًا وفتحه، وإذا ما فيه تراب.. ثمّ قال:

- هذا تراب ممّا كانت تطأ قدماك في الحديقة، جمعته بيدي واحتفظت به في هذا الحقّ، وحملته معي في سفري، وكنت اقبّله كلّ مساء قبل استسلامي للكرى، ثمّ أحفظه على قلبي..

وأصغت إليه على جزع وتململ، وكان شعورها منصرفًا عن حديثه، ونفد صبرها، فسألته برقّة تداري بها جزعها:

- ألا تحمل شيئًا!

فدسّ يده في صدره مرّة أخرى، وأخرج كتابًا مطويًّا ومدّ لها يده به، فتسلّمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد، وأحسّت بتخدير في أعصابها وخور في قواها، وألقت على الرسالة نظرة طويلة، وشدّت عليها بيدها، وكادت تنسى بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها فتذكّرت أمرًا هامًّا وسألته:

- ألم يأت معك رسول من قِبل الأمير كارفنرو؟

فقال الشابّ:

- بلى يا مولاتي، وهو الذي حمل الرسالة في أثناء العودة. وإنّه لينتظر الآن في الحجرة الصيفيّة.

ولم تستطع أن تبقى في مكانها طويلًا، لأنّ الفرح الذي غمر حواسّها عدوّ للسكون والجمود فقالت:

- أستودعك الربّ إلى حين، وإنّ حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيّام.

وجرت حاملة الرسالة، وكان قلبها ينادي حبيبها ومولاها من اعماقها، ولولا التحرّج، لطارت إليه في قصره كما فعل النسر من قبل، تزفّ إليه البشرى السعيدة..

الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل، واستقبلت آبو المحتفلين من أقاصي الجنوب والشمال، وتعالت في جوّها الأناشيد، وازّيّنت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون، واستقبل الرجال من الكهنة والحكّام شروق الشمس في طريقهم إلى القصر الفرعونيّ، لينتظموا في الموكب الملكيّ العظيم الذي يغادر القصر حين الضحى.

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك في إحدى الحجرات دخل عليهم أحد الحجّاب، وحيّاهم باسم الملك، وقال بصوت جهوريّ:

- أيّها السادة الأجلّاء، إنّ فرعون يريد أن يجتمع بكم في الحال، فتفضّلوا بالذهاب إلى البهو الفرعونيّ.

وتلقّى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية، لأنّ العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم: ترى أيّ أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد؟!.

ولكنّهم لبّوا الدعوة طائعين، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذي الجلال والروعة. واحتلّ الكهنة مقاعد الجانب الأيمن، وجلس الحكّام قبالتهم، وكان يتصدّر المكان العرش الفرعونيّ، وسط جناحين من الكراسي أعدّت للأمراء والوزراء.

وما لبثوا قليلًا حتّى دخل الوزراء يتقدّمهم سوفخاتب، وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالك، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردّون تحيّات الرجال الذين وقفوا تحيّة لهم.

وساد الصمت وبدا الجدّ والاهتمام على الوجوه، وخلا كلّ إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التي دعت إلى هذا الاجتماع الهامّ، حتّى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام، فتطلّعوا إليه في انتباه شامل، وقد صاح الرجل بصوت جهوري يعلن مجيء الملك:

ـ فرعون مصر نور الشمس، وظِلّ رع على الأرض، صاحب الجلالة مرنرع الثاني..

فهبّ الجميع وقوفًا وأحنوا الهامات، حتّى كادت تمسّ الأرض الجباه، وجاء الملك يسير في جلال ومهابة، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو، وحامل الأختام، وكبير حجّاب الأمير كارفنرو حاكم النوبة، وجلس على العرش، ثمّ قال بصوت مهيب:

ـ أحيّيكم أيّها الكهنة والحكّام وآذن لكم بالجلوس.

فاعتدلت القامات المنحنية في رفق، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفّس مجازفة خطيرة، واتّجهت الأنظار إلى صاحب العرش توّاقة إلى استماع كلمته. واعتدل الملك في جلسته، ثمّ قال وهو يقلّب عينيه في وجوه القوم دون أن تستقرّ على أحد:

ـ أيّها الأمراء والوزراء والكهنة والحكّام، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى، لقد دعوتكم لأشاوركم في أمر خطير يتعلّق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد. أيّها السادة: لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجّاب الأمير كارفنرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه، فرأيت أنّ واجبي يقضي عليّ بأن أدعوكم دون إمهال، للاطّلاع عليها، والمشاورة في محتوياتها الخطيرة.

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه، فتقدّم الرجل خطوتين فصار في حذاء العرش، وقال له فرعون:

ـ «اتْلُ عليهم الرسالة».

فبسط الرجل رسالة مطويّة بين يديه، وقرأ بصوت جهوريّ مؤثّر:

ـ «من الأمير كارفنرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر نور الشمس المشرقة، وظِلّ الربّ رع، حامي النيل، وصاحب النوبة، وطور سيناء، وسيّد الصحراء الشرقيّة، والصحراء الغربيّة.

مولاي.. يؤسفني أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدّسة أنباء محزنة، عن حوادث غدر شائنة، وقعت في أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبيّة، وكنت يا مولاي ـ اطمئنانًا منّي إلى المعاهدة التي عقدت بين مصر وقبائل المعصايو، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن ـ كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزّعة في الصحراء إلى قواعدها الأصليّة. وجاءني اليوم ضابط من رجال الحاميات وأخبرني بأنّ زعماء القبائل شقّوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم، وانقضّوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات، وأعملوا فيها التقتيل الوحشيّ. وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس، قوّات تفوقهم مائة مرّة أو يزيد، حتّى سقطوا عن آخرهم في ميدان الاستبسال. واجتاحت القبائل البلاد جميعًا، واتّجهت نحو الشمال إلى بلاد النوبة، فرأيت من الحكمة ألّا أفرّط فيما لديّ من قوّات محدودة، وأن أوجّه همّي إلى تحصين الاستحكامات والقلاع، للتمكّن من صدّ العدوّ الزاحف، ولن تصل مولاي رسالتي حتّى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين، وإنّي في انتظار أمر مولاي سأظلّ على رأس جنودي أقاتل في سبيل مولاي فرعون، ووطني مصر».

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة، وظلّ صوته يدوّي في كثير من القلوب، أمّا الحكّام فقد اتّقدت أعينهم، وتطاير منها الشرر، وسرت في صفوفهم حركة اضطراب عنيف، وأمّا الكهنة فقد تقطّبت جباههم وجمدت نظراتهم، وانقلبوا كتماثيل جامدة في معبد صامت.

وصمت فرعون هنيهة حتّى بلغ التأثّر أشدّه، ثمّ قال:

ـ هذه هي الرسالة التي دعوتكم للمشاورة فيها.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمّسين، فقام واقفًا وأحنى رأسه تحيّة، وقال:

ـ مولاي.. إنّها رسالة خطيرة حقًّا، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة.

ولاقت كلمته ارتياحًا في نفوس الحكّام، فقام حاكم أمبوس وقال:

ـ نِعْمَ الرأي يا مولاي، فالجواب الأوحد هو التعبئة السريعة، كيف لا ووراء الحدود الجنوبيّة إخوان لنا بواسل أوقعهم العدوّ في ضيق.. وإنّهم لثابتون، فلا ينبغي أن نخذلهم، أو نبطئ عليهم..

وكان آني يفكّر في العواقب التي تمسّ واجباته، فقال:

ـ إذا اجتاح أولٰئك الهمج بلاد النوبة هدّدوا الحدود بلا شكّ.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمّسين، وقد ذكر رأيًا قديمًا له طالما تمنّى تحقيقه يومًا، فقال:

ـ كان رأيي دائمًا يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير، يكفل لفرعون القيام بتبعاته في الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود.

واشتدّ الحماس في جناح جميع القوّاد، ونادى كثير منهم بالتعبئة، وهتف آخرون للأمير كارفنرو ولحامية بلاد النوبة. واشتدّ التأثّر ببعض الحكّام، فقالوا للملك:

ـ مولانا.. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد، ووراءنا إخوان بواسل يتهدّدهم الموت. إيذَنْ لنا في الرحيل لنحشد الجنود.

وكان فرعون ملازمًا الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس، فلمّا أن سكت الحكّام.. قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب:

ـ هل يأذن لي مولاي في أن أوجّه إلى رسول سموّ الأمير كارفنرو سؤالًا.

فقال الملك بغرابة:

ـ لك ما تريد أيّها الكاهن الأكبر.

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال:

ـ متى غادرت بلاد النوبة؟

فقال الرجل:

ـ منذ أسبوعين.

ـ ومتى بلغت آبو؟

ـ مساء أمس.

فاتّجه الكاهن نحو فرعون وقال:

ـ أيّها الملك المعبود، إنّ الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة، فبالأمس جاء هٰذا الرسول المبجّل من الجنوب بأنباء تمرّد زعماء المعصايو، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدّموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون، ويرفعون إلى أعتابه المقدّسة آي الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام، فما أشدّ حاجتنا إلى من يميط اللثام عن هٰذه المعميات.

فكان تصريحًا غريبًا لم يتوقّعه إنسان، فأحدث دهشة كبرى وعجبًا، فشملت الرءوس حركة عنيفة، وتبادل الحكّام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة، وتهامس الأمراء. أمّا سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياع، فرآه يقبض بيده على الصولجان بشدّة، وتشدّ عليه بقسوة حتّى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه، فخشي الرجل من تسلّط الغضب على الملك، فسأل الكاهن قائلًا:

ـ ومن أنبأك بهٰذا يا صاحب القداسة؟

فقال الرجل بهدوء:

ـ رأيتهم بعيني رأسي يا سيّدي الرئيس، فقد زرت أمس معبد سوتيس، وقدّم كاهنه إليّ وفدًا من السود قالوا إنّهم من زعماء المعصايو، وإنّهم جاءوا يقدّمون فروض الطاعة لفرعون، وقد باتوا ليلتهم ضيوفًا على رئيسه.

فقال سوفخاتب:

ـ ألا يصحّ أن يكونوا من النوبة؟

ولٰكنّ الرجل قال بيقين:

ـ قالوا إنّهم من المعصايو، وعلى أيّة حال فهاهنا رجل ـ هو القائد طاهو ـ اشتبك مع المعصايو في حروب كثيرة، وعرف جميع زعمائهم، فهل يتفضّل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدّسة، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة؟

وكان الملك في حالة شديدة من القهر والغضب، ولٰكنّه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن،

وأحسّ الوجوه تتطلّع إليه في لهفة ورغبة ورجاء، فقال لأحد الحجّاب!

- اذهب إلى معبد سوتيس، وادعُ زعماء السود.

وصدع الحاجب بالأمر، ولبث الجميع ينتظرون وكأنّ على رءوسهم الطير. وكان الذهول باديًا على وجوه الجميع. وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ودّ كلّ منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه. ولبث سوفخاتب قلقًا مهمومًا دائم التفكّر يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقًا عليه من هول الساعة، ومرّت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلمة، كأنّما تنتزع من جلودهم، والملك على عرشه يشاهد الحكّام القلقين والكهنة المطرقين، لا تكاد تخفي عيناه ما يعترك في نفسه من العواطف. ثمّ خال الجميع أنّهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد، فخلصوا من نفوسهم، وأرهفوا السمع، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف، ومضت بالقرب تشتدّ وتقوى شيئًا فشيئًا حتّى طبّقت الآفاق. وكانت مختلطة غير متمايزة، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل، فأمر الملك حاجبًا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هناك، فغاب الرجل برهة ثمّ عاد مسرعًا، ومال على أذن فرعون وقال:

- إنّ جموع الشعب تملأ الميدان، تحيط بالعربات التي تحمل زعماء السود.

وما هتافهم؟

- يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين، ومعاهدة السلام.

ثمّ تردّد الرجل لحظة واستدرك هامسًا:

- ويهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب!

واصفرّ وجه الملك من الغضب، وأحسّ بالحقد والقهر، وتساءل كيف يدعو الشعب الذي يحيّي زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو! ولبث ينتظر القادمين غاضبًا حزينًا كئيبًا.

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء، وفتح الباب على مصراعيه، ودخل الوفد يتقدّمه رئيسه وكانوا عشرة، ضخام الأجسام، عرايا إلّا من وزرة تستر الوسط، وعلى رءوسهم هالات من أوراق الشجر، وقد سجدوا جميعًا على الأرض، وتقدّموا زحفًا حتّى بلغوا عتبة العرش، فقبّلوا الأرض بين يدي فرعون، ومدّ لهم الملك صولجانه فلثموه في خشوع، وأذن لهم بالوقوف فوقفوا في تهيّب، وقال رئيسهم باللهجة المصريّة:

- أيّها الربّ المعبود، فرعون مصر، وسيّد الوادي، ومعبود القبائل، جئنا إلى رحابك لنقدّم لك آي الخضوع والذلّ والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم. فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيًّا، وشربنا الماء حلوًا سائغًا.

فباركهم الملك برفع يده.

وكانت الوجوه متّجهة إليه كأنّها تضرع إليه أن يسألهم عمّا يقال عن بلادهم، فقال الملك المقهور:

- من أيّ العشائر أنتم؟

فقال الرجل:

- أيّها البهاء المعبود، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد.

وصمت الملك قليلًا، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئًا، وضاق بالمكان ومن فيه، فقال:

- إنّ فرعون يشكركم أيّها العبيد المخلصون ويبارككم.

وقدّم صولجانه فلثموه مرّة أخرى، وكرّوا راجعين، تكاد تمسّ الأرض جباههم.

والتهب الغضب في قلب الملك، وأحسّ إحساسًا باطنيًّا أليمًا بأنّ الكهنة الماثلين أمامه، وجّهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفيّة، لا يعلم بها سواه وسواهم؛ فاشتدّ عليه الحنق. وفاض به الغيظ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات:

- لديّ رسالة لا يرتقي الشكّ إليها، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أم لا تتبعهم، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّه توجد ثورة ويوجد متمرّدون، وأنّ جنودنا الآن محاصرون!

فعاودت الحماسة الحكّام، وقال حاكم طيبة:

- مولاي.. لقد جرت الحكمة الإلهيّة على لسانك،

إنّ إخواننا ينتظرون النجدة. فلا يجوز أن نضيّع الوقت في مناقشات، والحقّ أبلج واضح.

فقال الملك بعنف:

ـ أيّها الحكّام، إنّي أعفيكم من الاشتراك اليوم في الاحتفال بعيد النيل، فأمامكم واجب أسمى. ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا الجند، فربّ دقيقة تضيع تكلّفنا غاليًا.

قال الملك ذلك ثمّ قام واقفًا، معلنًا انتهاء الاجتماع، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات إجلالًا.

الهتاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاصّ، ودعا إليه رجليه المخلصين سوفخاتب وطاهو. فلبّى الرجلان دعوته سريعًا، وكانا شديدي التأثّر، يقدّران حرج الموقف حقّ قدره. ووجدا الملك كما توقّعا مهتاجًا غاضبًا، يذرع حجرته من جانب إلى جانب، ويهدر بوحشيّة جنونيّة، فلمّا انتبه إليهما حدجهما بنظرة زائغة، وقال والشرر يتطاير من عينيه:

ـ خيانة.. إنّي أشمّ رائحة خيانة خبيثة في هذا الجوّ الخانق.

فانكفأ طاهو وقال:

ـ مولاي. لا أنفي عن نفسي التشاؤم وسوء الظنّ، ولكن لا يذهب بي الحدس إلى هذا الفرض الكبير.

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميّز من الغيظ والحنق:

ـ لماذا جاء هذا الوفد اللعين؟.. بل كيف جاء اليوم؟.. واليوم بالذات؟.

فقال سوفخاتب، وكان غارقًا في التفكير والأحزان:

ـ ترى هل هي مصادفة حزينة غريبة؟

فقال الملك في دهشة مروّعة:

ـ مصادفة.. كلّا.. كلّا. هي الخيانة اللئيمة، أكاد ألمح وجهًا يستتر بالإطراق والدهاء. كلّا أيّها الوزير لم يجئ القوم مصادفة لكنّهم دُفعوا إلى هنا عمدًا ليقولوا سلامًا إذا ما قلت أنا حربًا، وهكذا وجّه إليّ عدوّي ضربة شديدة، وهو ماثل بين يديّ يعلن الولاء..

فامتقع وجه طاهو ولاح في وجهه الحزن، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق يائسًا وكأنّه يحادث نفسه:

ـ إذا كانت خيانة فمن الخائن؟

فقال الملك وهو يلوّح بقبضته في الهواء:

ـ نعم.. من الخائن؟. هل هنالك معضلة لا تحلّ؟. كلّا.. أنا لا أخون نفسي، ولا يخون عهدي سوفخاتب ولا طاهو، ولا تخونني رادوبيس، فلم يبق إلّا هذا الرسول الشقيّ.. وا أسفاه لقد خُدعت رادوبيس.

فبرقت عينا طاهو وقال:

ـ سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحقّ.

فهزّ الملك رأسه وقال:

ـ رويدك يا طاهو رويدك.. إنّ المجرم لا ينتظرك حتّى تذهب للقبض عليه، ولعلّه الآن ينعم بثمن خيانته في مكان آمن لا يعلم به إلّا الكهنة. كيف تمّت المكيدة؟. لا أدري كيف، ولكنّي أستطيع أن أقسم بالربّ سوتيس أنّهم علموا بالرسالة قبل تحرّك الرسول فلم يتوانوا، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولي بالرسالة، وجاء رسولهم بالوفد.. خيانة.. نذالة، إنّي أعيش وسط شعبي كالأسير.. ألا لعنة الآلهة على الدنيا وعلى الناس.

ولاذ الرجلان بالصمت، حزنًا وإشفاقًا، وكان طاهو يختلس من مولاه نظرات حزينة، وأراد أن يحاول إعادة الأمل إلى ذلك الجوّ القاتم فقال:

ـ ليكن عزاؤنا أنّنا سنضرب بالضربة القاضية.

فاحتدّ الملك قائلًا:

ـ كيف لنا بتسديد هذه الضربة؟!

ـ إنّ الحكّام في طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود.

ـ وهل تظنّ أنّ الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء الجيش الذي علموا أنّه يحشد لسحقهم ؟!

وكان سوفخاتب ينوء بهمّ ثقيل كان يؤمن بما يقول

الملك، ولكن أراد أن ينفّس عن صدره، فقال وكأنّه يتمنّى:

ـ عسى أن يكون ريبنا وهمًا، ويكون ما نظنّه خيانة محض مصادفة، فتنقشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب.

ولكنّ فرعون ثار على العزاء وقال:

ـ لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين، كانوا بلا شكّ ينطوون على سرّ رهيب، ولمّا قام رئيسهم ليتكلّم، تحدّى حماس الحكّام باطمئنان، وألقى كلمته بثقة لا حدّ لها، ولعلّه الآن يتكلّم بعشرة ألسنة، آه.. الويل للخيانة.. لن يعيش مرنرع الثاني تحت رحمة الكهنة.

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال:

ـ مولاي.. تحت إمرتك حرس قويّ يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم، ويجود بنفسه في سبيل مولاه عن طيب خاطر.

فأعرض فرعون عنه، وارتمى على مقعد وثير مستسلمًا لأفكار رأسه الساخن، ترى هل يمكن أن يتحقّق أمله بالرغم من هذه الأحزان؟. أم يفشل مشروعه إلى الأبد؟. يا لها من ساعة فاصلة في حياته.. هي مفترق الطرق بين المجد والهوان، والقوّة والانهيار، والحبّ والشقاء. لقد رفض مرّة أن يتنازل عن الأراضي حيلة، فهل يجد نفسه يومًا مضطرًا إلى التنازل عنها محافظة على عرشه؟ آه.. لن يأتي هذا اليوم، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدًا. وسيبقى إلى آخر لحظة من حياته كريمًا مجيدًا عزيزًا. وتنهّد بالرغم منه حسرة، وقال لنفسه آسفًا.. آه لو لم يعثر حظّي بالخيانة. وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول:

ـ مولاي دنا موعد الحفل.

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق، وتمتم «حقًّا» ثمّ قام واقفًا وذهب إلى الشرفة وكانت تطلّ على فناء القصر العظيم ـ وقوّة العجلات متراصّة به في الانتظار ـ وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه، ثمّ دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة، ورجع لابسًا جلد النمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج. وتأهّبوا جميعًا للخروج، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجّاب القصر حيّا مولاه وقال:

ـ السيّد طام رئيس شرطة آبو يستأذن في المثول بين يدي مولاه.

فأذن له الملك ومشيراه لما شاهدوه على وجهه من آي الاضطراب. وحيّا الشرطيّ الكبير مولاه، وقال مبادرًا بعجلة واضطراب:

ـ مولاي! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدّسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل!

فخفق قلب الرجلين، وسأل الملك منزعجًا:

ـ وما الذي حملك على هذا؟

فقال الرجل وهو يلهث:

ـ قبضت في هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجّهون هتافات شرّيرة إلى شخصيّة نبيلة يكرمها مولاي وأخشى أن تكرّر هذه الهتافات في أثناء الموكب.

فخفق قلب الملك وغلت مراجل الغضب في دمه، وسأله بصوت متهدّج:

ـ ماذا قالوا؟.

فابتلع الرجل ريقه، وقال باضطراب وارتباك:

ـ قالوا لتسقط العاهرة! لتسقط ناهبة المعابد!!.

فاشتدّ الغضب بالملك، وصاح بصوت كالرعد:

ـ يا للويل.. لا بدّ أن أضرب ضربة تنفّس عن صدري أو ينفجر بنياني.

واستطرد الرجل مذعورًا:

ـ وقد قاوم المجرمون رجالي، فوقعت معارك بيننا وبينهم، وساد الاضطراب والهرج برهة، وفي أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرًّا وأوغل غيًّا.

فسأل الملك قائلًا وهو يصرّ على أسنانه غضبًا ومقتًا:

ـ وماذا قالوا أيضًا؟

فأحنى الرجل رأسه، وقال بصوت خافت:

ـ تجاسر المجرمون على ما هو أجلّ.

فقال الملك في صوت ذاهل:

ـ أنا.. !؟

فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه، ولم يتمالك سوفخاتب نفسه فصاح:

- كيف يمكن أن أصدّق أذنيّ؟

وصاح طاهو بغضب:

- هذا جنون لا يعقل.

وضحك فرعون ضحكة عصبيّة، وقال بسخرية مريرة:

- كيف ذكرني شعبي يا طام؟. تكلّم إنّي آمرك.

فقال الرجل:

- قال الأوغاد.. «ملكنا يلهو».. «نريد ملكًا جادًّا».

فضحك الملك ضحكة كالأولى، وقال متهكّمًا:

- واأسفاه.. ما عاد مرنرع يصلح لعرش الكهنة!.. وماذا قالوا أيضًا يا طام؟..

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- وهتفوا يا مولاي طويلًا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتوقريس!.

فلاح بريق خاطف بعيني الملك، وردّد اسم نيتوقريس بين شفتيه بصوت خافت كأنّما يذكر شيئًا قديمًا طال به عهد النسيان، وتبادل المشيران نظرة الدهشة، وأحسّ فرعون بدهشة الرجلين وتحرّج رئيس الشرطة، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثًا مريرًا، وإن سأل نفسه حيرة: ترى ما عسى أن يكون شعور الملكة حيال هذه الهتافات.. واشتدّ الضيق بصدره، وأحسّ بموجة عنيفة من الغضب والتمرّد والاستهتار، فوجّه كلامه إلى سوفخاتب قائلاً بخشونة:

- هل حان موعد الذهاب؟

فقال طام بذهول:

- ألن يعدل مولاي عن الذهاب؟

فقال الملك بعنف:

- ألا تسمعني أيّها الوزير؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع:

- بعد برهة قصيرة يا مولاي.. حسبت مولاي سيعدل عن الذهاب؟

فقال الملك بهدوء كالذي يسبق العاصفة:

- سأذهب إلى معبد النيل خلل الجموع الساخطة، وسنرى ما يكون.. عد يا طام إلى واجبك.

الأمل والسم

وكانت رادوبيس في صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى الديوان الوثير تحلم، كان يومًا يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدّخر لها من فوز عظيم. فأيّ سعادة وأيّ فرح. كان صدرها في ذلك اليوم كبركة من ماء مصفّى معطّر، تنبت على حفافيها الأزهار وتغنّي في جوّها البلابل شادية نشوى.. فيا لدنيا الأفراح؛ ومتى تتلقّى نبأ الفوز؟.. حين الأصيل، حين تبدأ الشمس رحلتها إلى العالم الثاني ويشرع قلبها في رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال الحبيب، فيا لساعة الأصيل! ساعة الأصيل هي ساعة الحبيب، حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه الغضّ، فيلفّ ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق، يناجي اسمها العذب، يبشّرها بالفوز فيقول انتهت الآلام، وتفرّق الحكّام ليحشدوا الجنود، فهنيئًا لحبّنا. آه ما أجمل الأصيل!..

ولكن كيف تصدّق أنّ هذا النهار ينقضي؟.. لقد انتظرت عودة الرسول شهرًا انطوى ثقيلًا مرهقًا، ولكنّها تخال هذه الساعات المعدودات أشدّ وطأة وأكبر كلفة، على أنّه قلق يخالط طمأنينة، وخوف يمازج سعادة.. وكأنّما أرادت أن تتناسى الانتظار لتتغفّل الزمن، فعطفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك حتّى عثرت في شرودها بالعاشق الجاثي في معبده.. في الحجرة الصيفيّة، بنامون بن بسار، ما أرقّه وأخفّ ظلّه، كانت تساءلت مرّة حَيْرى كيف تجزيه على ما أدّى لها من خدمة جليلة، وقد طار على جناحي حمامة إلى أقصى الجنوب، وعاد بأسرع ممّا ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاقّ الطريق.. بل همست مرّة في ارتباك كيف تستطيع أن تتخلّص منه؟. ولكنّه علّمها بقناعته أنّ من الحبّ حبًّا عجيبًا لا يعرف الأثرة ولا التملّك ولا الطمع، ويرضى بالأحلام والأوهام. فيا له من

شابّ حالم بعيد عن الدنيا. ولو أنّه طمع في قبلة مثلًا لما عرفت كيف تتحاماه، دون أن تمدّ له فمها، ولكنّه لا يطمع في شيء، وكأنّه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض. أو لعلّه لا يصدّق أنّها شيء يُلمس ويُقبَّل. إنّه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بني الإنسان، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة في السموات.

وتنهّدت وقالت: حقًّا إنّ الحبّ عالم عجيب، أمّا حبّها فينبع متدفّقًا من صميم الحياة، فالقوّة التي تجذبها إلى مولاها هي قوّة الحياة الكاملة الرهيبة، وأمّا حبّ بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة، ويضلّ في آفاق سامية، لا يعلن عن أثر محسوس إلّا في يده الماهرة، وأحيانًا في لسانه الملعثم الحارّ.. فيا له من حبّ يرقّ من ناحية فيصير طيفًا من الأحلام، ويقوى من ناحية أخرى فيبثّ في الصخر الأصم حياةً.. فكيف تفكّر في التخلّص منه وهو لا يكلّفها شيئًا، فلتتركه في معبده آمنًا، يصوّر في جدرانه الصامتة أجمل التهاويل التي تكتنف وجهها الجميل.

وعادت تهتف من أعماق صدرها: متى الأصيل؟

... حقًّا لشيث لو لبثت إلى جانبها لسلّتها بثرثرتها وخبثها، ولكنّها أبت إلّا أن تذهب إلى آبو لمشاهدة عيد النيل..

يا ما أجمل الذكريات! ذكرت العيد الماضي، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقّت به الحشد الكبير لترى فرعون الشابّ، ولمّا وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهي لا تدري، وأحسّت بدبيب الحبّ غريبًا لطول عهدها بالجفاء، فحسبته قلقًا غاضبًا أو نفثة ساحر، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها، ولم يكد يبدأ اليوم الثاني حتّى زارها فرعون، ومن ثمّ زار قلبها الحبّ وتغيّرت حياتها وتغيّرت الدنيا جميعًا.

أمّا العام الثاني فها هي تقبع في قصرها، والدنيا تقصف وتلهو في الخارج، ولن يتاح لها الظهور إلّا بحساب فلم تبق رادوبيس الغانية الراقصة، ولكنّها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق، وكانت أفكارها تضلّ هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همّها فتساءلت: ترى ماذا حدث في الاجتماع الخطير الذي قال مولاها إنّه سيدعو إليه ليقرأ عليه الرسالة.. هل التأم ولبّى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن؟. أوّاه.. متى يأتي الأصيل..

وملّت الجلسة، فقامت تتمشّى، ودلفت إلى النافذة المطلّة على الحديقة تسرّح الطرْف في آفاقها المنفسحة. ولبثت ما لبثت حتّى سمعت يدًا مضطربة تطرق الباب، فالتفتت متضايقة برِمَة، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض، وكان وجهها شاحبًا كأنّما تقوم ساعتها من فراش مَرَض طويل، فوجب قلبها، وطالعها نذير شؤم، وسألتها في إشفاق:

- ما لك يا شيث؟

وهمّت الجارية أن تتكلّم، فغلبها البكاء، فجثت على ركبتيها أمام مولاتها، وشبكت يديها على صدرها، وأفحمت في البكاء بحالة عصبيّة شديدة، فاستولى الانزعاج على رادوبيس وصاحت بها:

- ما لك يا شيث؟.. بالله تكلّمي، ولا تتركيني فريسة الحيرة، فإنّ لي آمالًا أخاف عليها الوساوس.

فتنهّدت المرأة تنهّدًا عميقًا، وشهقت شهقة عنيفة، ثمّ قالت بصوت باكٍ:

- مولاتي.. مولاتي.. إنّهم هائجون ثائرون!

- من الهائجون الثائرون؟

- الناس يا مولاتي.. إنّهم يصرخون في غضب جنونيّ، مزّقت الأرباب ألسنتهم.

فخفق قلبها مفزوعًا وقالت بصوت متهدّج:

- ماذا يقولون يا شيث؟

- آه يا مولاتي.. إنّهم قوم مجانين تهذي ألسنتهم المسمومة هذيانًا مخيفًا.

فكادت المرأة تجنّ فزعًا، وصاحت بحدّة:

- لا تعذّبيني يا شيث! صارحيني بما قالوا.. ربّاه.

- مولاتي إنّهم يذكرونك ذكرًا غير جميل.. ماذا فعلت يا مولاتي حتّى تستحقّي غضبهم؟

فضمّت رادوبيس يدها إلى صدرها، وقد اتّسعت عيناها ذعرًا، وقالت بصوت متقطّع:

ـ أنا.. أيغضب الناس عليّ أنا.. ألم يجدوا في هذا اليوم المقدّس ما يشغلهم عنّي.. ربّاه.. ماذا قالوا يا شيث.. أصدقيني رحمةً بي.

فقالت المرأة وهي تبكي بكاءً مرًّا:

ـ تصايح المجانين يا مولاتي بأنّك تنهبين مال الأرباب.

فتنهّدت من صدر مكلوم، وتمتمت بحزن:

ـ أوّاه.. إنّ قلبي ينخلع ويتوجّس خيفة، وأخوف ما أخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب. أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عنّي إكرامًا لمولاهم؟

فصكّت الجارية صدرها بيدها، وولولت قائلة:

ـ إنّ مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم.

وفرّت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة، وأحسّت برجفة تزلزل نفسها، وقالت:

ـ ماذا تقولين؟.. هل تجاسروا على مسّ فرعون؟

فقالت المرأة الباكية:

ـ نعم يا مولاتي وا أسفاه.. قالوا فرعون يلهو. نريد ملكًا جادًّا.

فرفعت رادوبيس يديها إلى رأسها كأنّها تستغيث، وتلوّى جسمها من شدّة الألم، وارتمت بيأس على الديوان، وهي تقول:

ـ ربّاه.. أيّ هول هٰذا.. كيف لا تزلزل الأرض. وتندكّ الجبال! كيف لا تصبّ الشمس نيرانها على الدنيا!

فقالت الجارية:

ـ إنّها تزلزل يا مولاتي زلزالًا شديدًا. فالقوم مشتبكون في قتال عنيف مع الشرطة، والدماء تسيل وتنفجر..

وكادت تطؤني الأقدام، ففررت لا ألوي على شيء، وانحدرت في قارب إلى الجزيرة، وما كان أشدّ انزعاجي إذ وجدت النيل يموج بالسفن، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون، وكأنّهم جميعًا على ميعاد.

وغشيها خور، وطغت عليها موجة يأس خانق، أغرقت آمالها الصارخة بغير رحمة. وجعلت تسائل نفسها المحزونة: ترى ماذا حدث في آبو؟ وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة، وما الذي أثار الشعب وأخرجه عن وعيه، وهل يقدّر للرسالة الفشل ويُقضى على أملها بالموت؟ الجوّ مغبرّ كالح، تتطاير فيه نذر شرّ مستطير، ولن يتذوّق قلبها الطمأنينة، إنّ الخوف القاتل يجثم عليه كقطعة من الزمهرير، وقد قالت بصوت كالبكاء:

ـ العون أيّتها الأرباب.. هل يظهر مولاي لهذا الشعب الهائج؟.

فقالت شيث تطمئنها:

ـ كلّا يا مولاتي.. لن يترك قصره قبل أن يُنزل عقابه بالثائرين.

ـ ربّاه.. أنت لا تعرفين من هو يا شيث.. إنّ سيّدي غضوب لا يتقهقر أبدًا، ولشدّ ما يخاف قلبي يا شيث. لا بدّ أن أراه الآن.

فارتجفت الجارية رعبًا وقالت:

ـ هذا مستحيل.. فالسفن الغاصّة بالهائجين تغطّي سطح الماء، وحرس الجزيرة متجمّع على الشاطئ.

فشدّت على رأسها وصاحت:

ـ ما بال الدنيا تضيق في وجهي، والأبواب تسدّ عليّ؟ إنّي أتردّى في بئر ضيّقة من اليأس، آه يا حبيبي.. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك؟..

فقالت شيث تخفّف عنها:

ـ صبرًا يا مولاتي، ستنقشع هذه السحابة القاتمة.

ـ يمزّق قلبي إربًا أن أشعر بأنّه يتألّم. آه يا سيّدي وحبيبي! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات في آبو!؟

وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة، وشدهت شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادوبيس ربيبة الحبّ والنعيم والترف تذرف الدمع وتتأوّه من الألم واليأس، وفكّرت في غيبوبة الحزن التي غشيتها فيما آلت إليه آمالها التي كانت مشرقة منذ قليل، وأحسّ قلبها ببرود اليأس، وتساءلت خائفة مذعورة: هل يمكن أن يرغموا مولاها فيفقدوه سعادته وكبرياءه أو أن يجعلوا قصرها هدفًا

لغضبهم ومقتهم؟ إنّ الحياة لا تطاق مع تحقيق أيٍّ من هٰذه الوساوس، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها، فإمّا أن تعيش رادوبيس التي حالفها الحبّ والمجد وإمّا أن تموت. وفكّرت في أمرها طويلًا حتّى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان، فاستولى عليها اهتمام شديد، وقامت من فورتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها، وقالت لشيث: إنّها ستتحدّث إلى بنامون في بعض الشئون. وكان الشابّ منهمكًا في عمله كعادته، غافلًا عمّا يكدّر صفو الدنيا من خطير الحدثان. ولمّا أحسّ بها أقبل نحوها فرحًا، ولٰكنّه سرعان ما وجم وقال:

- وحقّ هٰذا الحسن الإلٰهيّ إنّك حزينة اليوم.

فقالت وهي تخفض ناظريها:

- بل تعبة فقط أو كالمريضة.

- الجوّ شديد الحرارة، لماذا لا تجلسين ساعة إلى شاطئ البركة؟

فقالت باقتضاب:

- جئتك برجاء يا بنامون.

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنّما يقول لها هٰأنذا طوع بنانك.

فقالت:

- أتذكر يا بنامون أنّك حدّثتني يومًا عن السموم العجيبة التي ركّبها أبوك؟.

فقال الشابّ وقد بدت على وجهه الدهشة:

- نعم أذكر ذٰلك بغير ريب!

- بنامون، أريد قارورة من هٰذا السمّ العجيب، الذي أطلق عليه أبوك السمّ السعيد.

فازداد الشابّ دهشة وتمتم متسائلًا:

ولِمَ؟

فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت:

- لقد حدّثت أحد الأطبّاء فأبدى اهتمامًا بشأنه، وطلب إليّ أن أوافيه بقارورة منه، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه، فوعدته يا بنامون، فهل تعدني بدورك أن تحضرها لي في أقرب وقت؟

فقال الشابّ بسرور، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء:

- ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل.

- كيف؟ ألا ينبغي أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها؟

- كلّا.. لديّ قارورة في مسكني بآبو.

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها، ورمقته بنظرة دهشة، فخفض عينيه وقد تخضّب وجهه احمرارًا وقال بصوت خافت:

- أحضرتها في تلك الأيّام الأليمة، حين كدت أشفي من حبّي على اليأس، ولولا ما أبديت نحوي بعد ذٰلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس!

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة؛ أمّا هي فهزّت كتفيها استهانة وقالت وهي تهمّ بالمسير:

- قد ألوذ بها ممّا هو شرّ منها!!

سهم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه، فأدّى التحيّة وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف، وظلّ الرجلان واقفين ممتقعي الوجه حتّى خرج سوفخاتب عن صمته، فقال بتوسّل:

- أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد.

ولٰكنّ فرعون لم يتّسع صدره لهٰذه النصيحة، فقطّب جبينه غضبًا وقال:

- أأفرّ لدى أوّل هتاف؟

فقال الوزير:

- مولاي إنّ القوم هائجون غاضبون، فينبغي التروّي.

- يحدّثني قلبي بأنّ خطّتنا سائرة إلى الفشل المحتوم، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيبتي إلى الأبد.

- وغضب الشعب يا مولاي؟

- سيهدأ ويسكن إذا رآني أشقّ صفوفه على عجلتي كالمسلّة الشامخة، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع.

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا ساخطًا شديد التأثر، فسكت سوفخاتب وهو كظيم، وعطف ناظريه إلى طاهو وكأنّه يستغيث به. ولكنّ القائد كان غارقًا في الهموم كما بدا من امتقاع وجهه، وشرود نظرته، وثقل أجفانه. فشملهم صمت عميق، ولم يكن يسمع إلّا وقع أقدام الملك..

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجّاب، وكان متسرّعًا مضطربًا، فانحنى للملك، وقال:

- ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي في المثول بين يديك.

فأذن له الملك، وحدج رجليه بنظرة يفحص بها أثر قول الحاجب في نفسيهما. فوجدهما قلقين مضطربين. فعلت فمه ابتسامة ساخرة، وهزّ كتفيه العريضتين استهانةً. ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب، وكانت ثيابه معفّرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشرّ، فأدّى التحيّة، وقال قبل أن يؤذن له في الكلام:

- مولاي! إنّ الشعب مشتبك مع رجال الشرطة في قتال عنيف، وقد قُتل من الجانبين رجال كثيرون، ولكن سيقتحمنا القوم إذا لم تصلنا نجدات قويّة من الحرس الفرعونيّ.

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعًا، ونظرا إلى فرعون فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب، وقد صاح بصوت أجشّ:

- وحقّ الأرباب جميعًا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد.

فاستدرك الضابط قائلًا:

- وقد آذنتنا العيون يا مولاي أنّ الكهنة يخطبون الناس في أطراف المدينة زاعمين لهم أنّ فرعون يتذرّع بوجود حرب وهميّة في الجنوب ليحشد جيشًا يذلّ به الشعب، والناس تصدّقهم ويشتدّ بهم الغضب، ولولا وقوف الشرطة في وجههم لاقتحموا السبل إلى القصر المقدّس.

فصاح فرعون كالرعد:

- قطع الشكّ باليقين، وافتضحت الخيانة اللئيمة وها هم أولاء يعلنون العداوة ويبدأوننا بالهجوم!

ووقع الكلام من الآذان موقعًا غريبًا لا يصدّق، وبدا على الوجوه كأنّما تتساءل في دهشة وإنكار: أحقًّا أنّ هذا فرعون؟ وهذا شعب مصر؟.. ولم يطق طاهو صبرًا. فقال لمولاه:

- مولاي! هذا يوم كئيب كأنّما دسّه الشيطان خفية في دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء، والربّ أعلم كيف يكون منتهاه، فمرني أن أقوم بواجبي.

فسأله فرعون:

وماذا أنت فاعل يا طاهو؟

- سأوزّع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة، وأقود فرقة العجلات لملاقاة الثائرين، قبل أن يتغلّبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر.

فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليًّا، ثمّ قال بصوت رهيب:

- سأقودها بنفسي.

فانخلع قلب سوفخاتب في صدره، وصاح بالرغم منه.

- مولاي!

فضرب الملك صدره بيديه بعنف، وقال:

- ما زال هذا القصر حصنًا ومعبدًا منذ آلاف السنين، ولن يصير على عهدي هدفًا رخيصًا لكلّ متمرّد.

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء، وأسرع إلى مخدعه ليرتدي لباسه الحربيّ. وفقد سوفخاتب اتّزانه، وتوجّس خيفة وشرًّا، فالتفت إلى طاهو، وقال بلهجة الأمر:

- أيّها القائد لا وقت لدينا نضيّعه، فاذهب وأعدّ الدفاع عن القصر، وانتظر ما يأتيك من الأوامر.

وخرج القائد يتبعه الشرطيّ، ولبث الوزير ينتظر الملك.

ولكنّ الحادثات لم تنتظر، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة، ما زالت تعلو وتشتدّ حتّى طبّقت على الآفاق، فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلّة على فناء القصر وألقى بناظريه إلى الميدان، فرأى جموع الشعب تعدو

قادمة من بعيد هاتفة ملوّحة بالسيوف والخناجر والعصيّ. كأنّها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلّا رءوسًا عارية وسلاحًا لامعًا. فأحسّ الوزير بالفزع ونظر إلى أسفل، فرأى العبيد في حركة سريعة يثبّتون المتاريس خلف الباب العظيم، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام على الجانبين الشماليّ والجنوبيّ، واندفعت قوّات عظيمة منهم إلى ممرّ الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسيّ، أمّا العجلات، فقد ارتدّت إلى الوراء، واصطفّت صفّين طويلين تحت الشرفة استعدادًا للانطلاق في الفناء إذا اقتُحم الباب الخارجيّ.

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه، فالتفت إلى الوراء، فرأى فرعون واقفًا على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا، على رأسه تاج مصر المزدوج، وكانت عيناه ترسلان شررًا متطايرًا، والغضب مرتسمًا على وجهه كلسان من اللهب، ويقول حانقًا مغيظًا:

- حوصرنا قبل أن نبدي حراكًا!

فقال سوفخاتب:

- القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ، يدافع عنها جنود جبابرة، وسيرتدّ الكهنة مهزومين.

وجمد الملك في مكانه، وتراجع الوزير وراءه، وجعلا ينظران في صمت محزن إلى الجموع التي لا يحصيها العدّ، وهي تهدر كالوحوش، وتلوّح مهدّدة بسلاحها، وتهتف بأصوات كالرعد: «العرش لنيتوقريس»، «ليسقط الملك العابث». وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج، فتستقرّ في المقاتل، وردّ الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام.

وهزّ فرعون رأسه، وقال:

- مرحى.. مرحى.. أيّها الشعب الكاسر الذي جاء لخلع الملك العابث، ما هٰذا الغضب، ما هٰذه الثورة، لماذا تهدّد بهٰذا السلاح، أتريد حقًّا أن تغمده في قلبي؟.. مرحى.. مرحى.. إنّه لمنظر حقيق بأن يخلّد على جدران المعابد.. مرحى مرحى يا شعب مصر.

وكان الحرّاس يقاتلون بشدّة وبسالة، ويطلقون السهام كالمطر، فإذا سقط منهم قتيل حلّ مكانه غيره مستهينًا بالموت، والقوّاد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال.

وإنّه ليشاهد هٰذه المناظر الأليمة، إذ سمع صوتًا يعرفه حقّ المعرفة يقول:

- مولاي.

فالتفت إلى الوراء مدهوشًا، فرأى الذي يناديه على قيد خطوتين، فقال بعجب:

- نيتوقريس!

فقالت الملكة بصوت حزين:

- نعم يا مولاي، لقد صكّ أذنيّ صراخ بشع لم يسمع من قبل في هٰذا الوادي، فجئت ساعيةً إليك لأعلن ولائي، وأشاطرك المصير.

قالت ذٰلك، ثمّ ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها، فتقهقر سوفخاتب إلى الخارج. وبادر الملك إلى معصميها ورفعها من ركعتها، ونظر إليها بعينين مرتبكتين. ولم يكن رآها من اليوم الذي جاءت فيه إلى جناحه وردّها أسوأ ردّ، فاشتدّ به الحرج والألم، على أنّ صياح القوم وصراخ المتقاتلين ردّاه إلى ما كان عليه، فقال لها:

- شكرًا لك أيّتها الأخت، تعالي انظري إلى شعبي، إنّه يحيّيني في يوم العيد.

فخفضت عينيها، وقالت في حزن عميق:

- كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

واستحال تهكّم الملك غضبًا وسخطًا وازدراءً، وقال بلهجة تنطوي على الاشمئزاز:

- بلد مجنون، جوّ خانق، قلوب ملوّثة.. خيانة.. خيانة.. خيانة..

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة، وجمدت عيناها من الذعر، وأحسّت بأنفاسها تحتبس في صدرها.

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظنّ؟..

وهل يكون جزاؤها الاتّهام بعد أن طوت فؤادها على أسقامه، وجاءت طوعًا إلى مَن أهانها وأشقاها؟..

وهالها الأمر، فقالت:

ـ واأسفاه يا مولاي، ليس في وسعي إلّا أن أشاطرك المصير، ولٰكنّي أعجب من الخائن، وكيف كانت الخيانة؟!

ـ الخائن رسول ائتمنته على رسالة، فسلّمها إلى عدوّي؟!

فقالت الملكة بلهجة استغراب:

ـ لا علم لي بالرسالة، ولا بالرسول، ولا أظنّ أنّ الوقت يتّسع لإنبائي، وما أتمنّى عليك من شيء إلّا أن أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذي يهتف لي ليعلم أنّي أواليك، وأنّي أعادي من يعاديك.

ـ شكرًا لك يا أختاه، ليس من حيلة، وما عليّ إلّا أن أستعدّ لموت شريف.

ثمّ أمسك بذراعها، وسار بها صوب حجرة اعتكافه، وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معًا إلى الحجرة الفاخرة، وكان يطالع الداخل محراب منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقين، فاتّجه الملكان إلى تمثالي والديهما، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين، وقال الملك بصوت ثقيل، وهو ينظر إلى تمثالي والديه:

ـ ترى ما رأيكما فيّ؟!

وسكت لحظة كأنّه ينتظر أن يتلقّى الجواب، وعاوده انفعاله فغضب على نفسه، ثمّ ثبّت عينيه على وجه أبيه، وقال:

ـ لقد أورثتني ملكًا عظيمًا ومجدًا أثيلًا، فماذا صنعت بهما؟ لم يكد يمضي عام على توليتي حتّى شارفت الدمار، واأسفاه لقد أذللت عرشي موطئًا للنعال، وجعلت اسمي مضغة للأفواه، واكتسبت لنفسي اسمًا جديدًا لم يطلق على فرعون من قبل، هو الملك العابث.

وانحنى رأس الملك الشابّ مثقلًا حزينًا، ولبث ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين، ثمّ رفعهما إلى تمثال والده، وتمتم:

ـ لعلّك وجدت في حياتي ما أخجلك، ولٰكنّك لن تخجل من موتي أبدًا!

والتفت إلى الملكة، وقال لها:

ـ هل تغفرين إساءتي يا نيتوقريس؟

وكان التأثّر قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، فاغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

ـ لقد نسيت همومي في هٰذه الساعة.

فقال بانفعال شديد:

ـ طالما أسأت إليك يا نيتوقريس، لقد تطاولت على كبريائك، وظلمتك وجعلت حماقتي من سيرتك أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة. كيف حدث هٰذا؟.. وهل كنت أستطيع أن أغيّر المجرى الذي تنصبّ فيه حياتي... لقد غمرتني الحياة وتولّاني جنون عجيب، ولا أستطيع حتّى في هٰذه الساعة أن أعلن ندمي، واأسفاه إنّ العقل يستطيع أن يعرّفنا بسخفنا وتفاهتنا، ولٰكن يبدو لي أنّه لا يقدر على تلافيهما. هل رأيت أفدح من هٰذه المأساة التي أرادها؟.. ومع هٰذا فلن يفيد الناس منها إلّا بلاغة كلاميّة، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الناس. بل لو بدأت حياتي من جديد لما تجنّبت الوقوع مرّة أخرى، أيّتها الأخت.. لقد ضاقت نفسي بكلّ شيء، وما من فائدة ترجى. فالخير أن أستحثّ النهاية.

وبدا على وجهه العزم والاستهتار، فسألته حائرة قلقة:

ـ أيّ نهاية يا مولاي؟

فقال بحدّة:

ـ لست نذلًا لئيمًا، وأستطيع أن أذكر واجبي من بعد طول النسيان. ما جدوى القتال؟.. سيُصرع جميع رجالي المخلصين أمام عدوّ لا يحصى له عدد، وسيأتي دوري حتمًا بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودي وشعبي، ولست جبانًا رعديدًا يلوذ بأهداب الحياة قابضًا على خيط واهٍ من الأمل، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسي.

فارتاعت الملكة وقالت:

- مولاي.. أتحمّل ضمير رجالك وزر التخلّي عن الدفاع عنك؟..

- بل لا أريد أن أضحّي بهم عبثًا، وسألقى عدوّي وحيدًا لنصفّي حسابنا معًا.

فأحسّت بامتعاض شديد، وكانت تعرف عناده، فيئست من إقناعه، وقالت بهدوء وحزم:

- سأكون إلى جانبك.

ولكنّه هلع، وأمسك بذراعيها، وقال بتوسّل:

- نيتوقريس، إنّ الشعب يريدك، وحسنًا أراد. فأنت جديرة بحكمه فابقي له. إيّاك وأن تظهري إلى جانبي فيقولوا إنّ الملك يحتمي بزوجه أمام شعبه الغاضب.

- وكيف أتخلّى عنك؟

- افعلي هذا من أجلي، ولا تُقْدمي على عمل يفقدني شرفي إلى الأبد.

فأحسّت المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد، فصاحت يائسة:

- يا للساعة الرهيبة!.

فقال الملك:

- هذه رغبتي نفّذيها إكرامًا لي، لا تقاومي وحقّ والدينا، فإنّ كلّ دقيقة تمرّ يسقط جنود بواسل بغير ثمن. الوداع أيّتها الأخت الكريمة، أنا ذاهب موقنًا بأنّك لن تلطّخيني بالعار في ساعتي الأخيرة، إنّ من يتمتّع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن يقنع بالأسر في قصر. فالوداع أيّتها الدنيا، الوداع أيّتها اللذّات والآلام.. الوداع أيّها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء. لقد مجّت نفسي كلّ شيء، فالوداع الوداع..

وهوى بفمه فقبّل رأسها، والتفت إلى تمثالي والديه، وانحنى لهما، ثمّ ذهب.

ووجد سوفخاتب ينتظر في الردهة الخارجيّة، جامدًا كتمثال أخنى عليه القِدَم؛ فلمّا رأى مولاه دبّت فيه الحياة وتبعه في سكون، وفسّر خروجه على هواه، فقال:

- سيبثّ ظهور مولاي روح الحماس في قلوبهم الباسلة.

فلم يجبه الملك. وهبطا الأدراج معًا إلى ممرّ الأعمدة الطويل الذي يصل ما بين الحديقة والفناء، وأرسل في طلب طاهو، وانتظر صامتًا. وفي تلك اللحظة نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبيّة الشرقيّة، إلى بيجة.. وتنهّد من أعماق قلبه، لقد ودّع كلّ شيء إلّا أحبّ الأشياء إليه، فهل تحمّ النهاية قبل أن يلقي نظرة على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرّة؟..

وأحسّ قلبه بحنين أليم وحزن شديد، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحيّيه، فاندفع بقوّة لا تقهر إلى سؤاله عن طريق بيجة قائلاً:

- هل النيل آمن؟

فأجابه القائد قائلًا، وكان ممتقع الوجه شديد الشحوب:

- كلّا يامولاي. ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلّحة، ولكنّ أسطولنا الصغير ردّهم بغير عناء، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدًا.

ولم يكن القصر الذي يهمّ الملك، لذلك أحنى رأسه، وقد أظلمت عيناه. سيموت قبل أن يلقي نظرة وداع على الوجه الذي باع الدنيا ومجدها من أجله. ترى ماذا تفعل رادوبيس في هذه الساعة المفجعة.. هل بلغها ما أصاب آمالها من الانهيار، أم إنّها ما تزال تتيه في وديان السعادة، وتنتظر عودته بفارغ الصبر؟!

ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه، فطوى آلامه في صدره، وقال لطاهو آمرًا:

- مُرْ جنودك أن تخلي الأسوار، وتكفّ عن القتال، وتعود إلى ثكناتها.

فاستولت الدهشة على طاهو، ولم يصدّق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج:

- ولكنّ الشعب يقتحم الباب توًّا!.

ولبث طاهو واقفًا لا يبدي حراكًا، فصاح الملك بصوت كالرعد دوّى دويًّا مخيفًا في ممرّ الأعمدة:

- اصدع بما أمرت.

وذهب طاهو ذاهلًا ينفّذ أمر مولاه، وتقدّم فرعون

بخطًى ثابتة نحو فناء القصر، فالتقى عند نهاية الممرّ بفرقة العجلات المصطفّة، وقد رآه الضبّاط والجنود، فسلّوا أسيافهم وأدّوا التحيّة، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له:

ـ عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتّى تأتيك أوامر أخرى.

فأدّى القائد التحيّة وجرى نحو فرقته، ونادى في الجند بصوت شديد فتحرّكت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها في الجناح الجنوبيّ من القصر. وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله، ولا تكاد تحمله قدماه الضعيفتان، وقد أدرك ما يريده مولاه، ولكنّه لم يستطع أن ينطق بكلمة.

ومضت الجند تخلي مواقعها الحصينة منفّذة الأمر الرهيب، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوي في نظام إلى ألويتها، ثمّ تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدّمها ضبّاطها. وما لبثت أن خلت الأسوار، وخلا الفناء والممرّات حتّى من قوّات الحرس العاديّ المنوط بها واجب الحراسة في أوقات السلام.

وظلّ الملك واقفًا عند مدخل الممرّ وإلى يمينه سوفخاتب. وعاد طاهو لاهثًا، ووقف إلى يساره، وقد بدا وجهه كالشبح المخيف. وكان كلا الرجلين يرغب في التوسّل إلى الملك برغبة حارّة، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدّة، بدّد شجاعتهما، فلازما الصمت مرغمين. والتفت الملك إليهما، وقال بهدوء:

ـ لماذا تنتظران معي؟

فارتعب الرجلان أيّما ارتعاب، ولم يستطع طاهو إلّا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسّل وإشفاق:

ـ مولاي.

أمّا سوفخاتب فقال بهدوء غير عاديّ:

ـ إذا أمرني مولاي بالتخلّي عنه سأصدع بأمره لا محالة، ولكنّي سأزهق نفسي في الحال.

فتنهّد طاهو ارتياحًا كأنّه ظفر بالحلّ الذي أعياه طلبه، وتمتم قائلًا:

ـ أحسنت أيّها الرئيس.

وسكت فرعون، ولم يقل شيئًا.

وفي أثناء ذلك كانت توجّه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنّهم توجّسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجئ، وتوهّموا أنّه ينصب لهم شراكًا قاتلًا، فوجّهوا كلّ قوّتهم إلى الباب، ولم يحمل الباب ضغطهم زمنًا طويلًا فتزعزعت المتاريس وارتجّ بنيانه وهوى بقوّة عنيفة رجّت الأرض رجًّا، واندفعت الجموع متدفّقة صاخبة، وانتشروا في الفناء كغبار ريح الصيف. وكانوا يتدافعون بعنف، وكأنّهم يتقاتلون، ويتباطأ المتقدّمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور. وما زالوا في تقدّمهم حتّى شارفوا القصر الفرعونيّ، ولمحت أعينهم الواقف عند مدخل الممرّ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيدًا لهم. وتشبّثت أقدام الذين على الرءوس بالأرض، ونشروا أذرعهم يوقفون التيّار الجارف المنصبّ وراءهم، وصاحوا في الجموع:

ـ مهلًا.. مهلًا.

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الذهول يستولي على قادة الثائرين فيشلّ أعضاءهم، ويزيغ أبصارهم، وتوقّع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنّه الأسود. ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون ممّا يرجو قلب سوفخاتب، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة، ويخسروا قضيّتهم إلى الأبد، فامتدّت يد إلى قوسها، ووضعت سهمًا في كبده، وسدّدته إلى فرعون وأطلقته، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقرّ في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوّة أو رجاء، وصرخ سوفخاتب كأنّما هو الذي أصيب، ومدّ يديه يسند الملك فالتقتا مع يدي طاهو الباردتين. وأطبق الملك شفتيه فلم يخرج منها أنين، ولا آهة، وتماسك بما بقي فيه من قوّة ليحفظ توازنه وقد تقطّب جبينه، وارتسم عليه الألم، وأحسّ سريعًا بخور وضعف، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدي رجليه المخلصين.

وساد الصفوف الأماميّة سكون رهيب، وعقد

الألسنة صمت ثقيل: وهلعت الأعين، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذي يعتمد على رجليه تتحسّس يده موضع السهم في صدره فيلطّخها الدم الساخن المتدفّق بغزارة، وكأنّهم لا يصدّقون أعينهم، أو كأنّهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية.

ومزّق السكون صوت من المؤخّرة يسأل:

- ماذا هنالك؟

فقال آخر بصوت خافت:

قُتل الملك!!.

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونيّة، وتصايح بها الناس، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياع.

ونادى طاهو عبدًا وأمره أن يحضر هودجًا، فجرى الرجل إلى داخل القصر، وعاد يحمل هودجًا هو وجماعة من العبيد، فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعًا فرعون وأناموه في رفق. وانتشر الخبر داخل القصر، فجاء طبيب الملك مسرعًا، وظهرت خلفه الملكة، وكانت تسرع الخطى في اضطراب بادٍ، ولمّا وقعت عيناها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعةً، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب، وهي تقول بصوت متهدّج:

- يا للويل.. قد أصابوك يا مولاي كمشيئتك!

وشاهد القوم الملكة، فصاح واحد منهم:

- جلالة الملكة.

وانحنت هامات الشعب الواجم كأنّه في صلاة جامعة. وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى، ففتح عينيه المغمضتين، ومضى يقلّبهما فيمن حوله في هدوء وضعف. وكان سوفخاتب يحملق في وجهه في ذهول وصمت، وكان طاهو جامدًا ووجهه كوجوه الموتى، وكان الطبيب يفحص الجرح، يكشف عنه قميص الزرد. أمّا الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم، وقالت للطبيب:

- أليس بخير؟. قل لي إنّه بخير!

فأدرك الملك ما تقول، وقال ببساطة:

- كلّا يا نتيوقريس. إنّه سهم قاتل.

وأراد الطبيب أن ينتزع السهم، ولكنّ الملك قال له:

- دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب.

واشتدّ التأثّر بسوفخاتب، فقال لطاهو بانفعال شديد غيّر نبرات صوته تغيّرًا تامًّا:

- ادعُ جندك، وانتقم لمولاك من المجرمين.

وبدت على الملك المضايقة، فرفع يده بصعوبة، وقال:

- لا تتحرّك يا طاهو، هل هانت عليك أوامري يا سوفخاتب في رقادي هذا!. لا قتال بعد الآن، قولوا للكهنة إنّهم بلغوا غايتهم، وإنّ مرنرع الثاني على فراش الموت، فليرجعوا بسلام.

وسرت رعدة في جسم الملكة فمالت على أذنه، وقالت همسًا:

- مولاي! لا أحبّ أن أبكي أمام قاتليك، ولكن ليطمئنّ قلبك، فوحقّ أبوينا، وحقّ الدم الزكيّ لأنتقمنّ من عدوّك انتقامًا تتحدّث به الأزمان جيلًا بعد جيل.

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبّر بها عن شكره ومودّته، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكّن، ووضع بعض الأعشاب حول السهم، واستسلم الملك إلى يديه ولكنّه كان يشعر بدنوّ أجَله وباقتراب الساعة الفاصلة، ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذي تمنّى لو يودّعه قبل النهاية المحتومة فلاحت في عينيه نظرات حنين، وقال بصوت خافت بغير وعي منه إلى ما حوله:

- رادوبيس.. رادوبيس.

وكان وجه الملكة قريبًا من وجهه فسمعته، وأحسّت بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها، فرفعت رأسها وقد أحسّت بدوار شديد. ولم يلق بالًا إلى شعور الآخرين، فأومأ إلى طاهو، فبادر الرجل إليه. فقال له برجاء:

- رادوبيس.

فقال القائد:

- هل آتي بها يا مولاي؟

فقال بصوته الخافت:

ـ كلّا.. احملني إليها، في قلبي بقيّة حياة أريد أن تنفد في بيجة.

ووجّه طاهو نظرة إلى الملكة في ارتباك شديد، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء:

ـ نفّذ مشيئة مولاي.

وسمع الملك صوتها، وأدرك قولها، فقال لها:

ـ أيّتها الأخت، طالما غفرت لي الذنوب، فاغفري لي هذه أيضًا.. إنّها رغبة ميّت.

فابتسمت الملكة ابتسامةً حزينةً. وانحنت على جبينه ولثمته، ثمّ أوسعت للعبيد.

الــــوداع

انحدرت السفينة في هدوء متّجهة صوب جزيرة بيجة، والهودج في مقصورتها بحمله الثمين، يقف الطبيب عند رأسه، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه.. وكانت هذه أوّل مرّة يخيّم فيها الحزن على السفينة، فتحمل مولاها نائمًا مستسلمًا، يغشى وجهه ظلّ الموت. وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناهما الحزينتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب،وكان يرفع جفنيه الثقيلتين، وينظر إليهما نظرة ذابلة، ثمّ يعود فيغمضهما في تراخٍ. ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدًا، رويدًا، حتّى رست إلى سلّم حديقة القصر الذهبيّ.

ومال طاهو على أذن سوفخاتب، وهمس قائلًا:

ـ أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتّى لا تؤخذ المرأة بغتةً.

ولم يكن سوفخاتب في تلك الساعة الرهيبة يبالي شعور إنسان، فقال باقتضاب:

ـ افعل ما بدا لك.

ولكنّ طاهو لم يبرح مكانه، ولبسته حيرة التردّد، فقال:

ـ يا له من نبأ لا يدري الإنسان كيف يؤدّيه إليها.

فقال سوفخاتب بحدّة:

ـ ماذا تخشى أيّها القائد؟!. إنّ من يبتلي بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابًا لمحذور.

قال سوفخاتب ذلك، وغادر المقصورة مسرعًا، وصعد درجات السلّم إلى الحديقة، واخترق الممشى مهرولًا حتّى انتهى إلى البركة، فاعترضت سبيله الجارية شيث، وقد دهشت الجارية لمرآه، وكانت تعرفه من تلك الأيّام الخوالي. وفتحت فاها لتكلّمه، ولكنّه قطع عليها السبيل قائلًا بسرعة:

ـ أين سيّدتك؟.

فقالت شيث:

ـ مسكينة سيّدتي لا تعرف اليوم لنفسها مستقرًّا. وما زالت تدور بالحجرات، وتطوف بالحديقة حتّى...

وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلًا بحدّة:

ـ أين سيّدتك؟.

فقالت مستاءة:

ـ في الحجرة الصيفيّة يا سيّدي.

وأسرع الرجل إلى الحجرة. ودخل متنحنحًا، وكانت رادوبيس جالسة على كرسيّ مسندةً رأسها إلى يدها، فلمّا أحسّت بالداخل التفتت إليه، وسرعان ما عرفته، فقامت واقفة وكأنّها تقفز قفزًا، وقالت باهتمام وقلق:

ـ الرئيس سوفخاتب.. أين مولاي؟..

فقال الرجل الغارق في حزنه بذهول:

ـ سيأتي عمّا قليل..

فضمّت يديها إلى صدرها فرحًا، وقالت بصوت بهيج:

ـ لشدّ ما عذّبتني المخاوف على سيّدي، لقد بلغني أنباء العصيان المحزنة، ثمّ انقطع عنّي كلّ شيء، فتركت وحدي إلى وساوس قلبي.. متى يأتي سيّدي؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنّه لم يتعوّد أن يرسل رسولًا بين يديها فاعتورها القلق وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه:

ـ ولكن لماذا بعثك إليّ؟

فقال الوزير بجمود:

- صبرًا يا سيّدتي، فلم يرسلني أحد، والحقيقة الأسيفة أنّ مولاي أصيب.

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعًا غريبًا داميًا، فحملقت في وجه الوزير الكئيب فزعة، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرّى مرتعشة، فقال سوفخاتب الذي أفقده الحزن شعوره:

- صبرًا صبرًا.. سيصل مولاي محمولًا على هودجه كمشيئته. لقد أصيب بسهم في هذا اليوم المنكود الذي غدا عيدًا وأضحى مأتمًا مروّعًا.

ولم تحتمل المكوث في الحجرة، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذّبيح، ولكنّها لم تكد تجاوز العتبة حتّى سمّرت قدماها في الأرض، وثبّتت عينيها على الهودج يحمله العبيد متّجهين صوب الحجرة، فأفسحت لهم الطريق، وهي تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر، ثمّ تبعتهم على الأثر. وقد وضعوا الهودج في حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجًا، وخرج في ذيلهم سوفخاتب، وخلا المكان لها وله.. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه، وشبكت أصابع يديها وشدّت عليها بقسوة وبحالة عصبيّة عنيفة، ونظرت إلى عينيه الساهمتين الذابلتين، وقد انقطعت منها الأنفاس، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب، فرأت بقع الدم والسهم النافذ، فاقشعرّ بدنها بحالة ألم جنونيّ، وصاحت بصوت متقطّع من العذاب والفزع:

- أصابوك.. يا للهول!.

وكان نائمًا في تَراخٍ وهمود، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقيّة قواه الآخذة في الانحلال السريع، ولكنّه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسمات حياة رقيقة، ولاح في عينيه المظلمتين ظلّ ابتسامة خفيفة.

ولم تكن تراه إلّا هائجًا مفعمًا بالحياة كالعاصفة، فكادت تجنّ، وهي تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل، وألقت نظرة ناريّة على السهم الذي أحدث كلّ هذا، وقالت بتألّم:

- كيف تركوه في صدرك؟!. هل أستدعي الطبيب؟!.

فاستجمع قواه الخائرة المشتّتة، وقال بصوت ضعيف:

- لا فائدة.

فلاحت في عينيها نظرة جنونيّة، وقالت بصوت العتاب:

- لا فائدة يا حبيبي.. كيف تقول هذا؟.. هل هانت عليك حياتنا!.

فمدّ يده في ضعف شديد حتّى مسّت كفّها الباردة، وهمس قائلًا:

- هي الحقيقة يا رادوبيس، لقد جئت لأموت بين يديك في المكان الذي أحببته أكثر من أيّ مكان في الدنيا.. فلا تندبي حظّنا، وامنحيني صفاء.

- مولاي، أتنعي إليّ نفسك؟!. يا لساعة الأصيل هذه، كنت أنتظرها يا حبيبي بنفسٍ أضناها الشوق وغرّر بها الأمل، وكنت أرجو أن تجيء حاملًا إليّ بشرى الفوز، فجئت حاملًا إليّ هذا السهم.. كيف لي بالصفاء؟!.

فازدرد ريقه بصعوبة، وقال بتوسّل وبصوت كالأنين:

- رادوبيس تناسي هذا الألم وادني منّي، أريد أن أنظر إلى عينيك الصافيتين.

إنّه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألّق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته، أمّا هي فكانت تعاني آلامًا لا قِبل لإنسان بها، وكانت تودّ لو تنفّس عن صدرها المضطرم بالصراخ والعويل والهذيان، أو تلتمس الشفاء في الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم، فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه بالوجه الذي أحبّه وسكن إليه دون العالمين.. وكان يتابع النظر إليه برجاء، فقال بحزن:

- ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس.

فقالت بأسًى وحزن:

- هما عيناي يا مولاي، ولكن جفّ ما يمدّهما بالنور والحياة.

ـ أوّاه يا رادوبيس، ألا تريدين أن تنسي آلامك هٰذه الساعة إكرامًا لي. . أريد أن أرى وجه رادوبيس حبيبتي، وأن أستمع إلى صوتها العذب.

ونفذ رجاؤه إلى قلبها، فكبر عليها أن تحرمه من شيء يريده في تلك الساعة السوداء، وقست على نفسها قسوة شديدة، فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفتيها المرتعشتين ابتسامة وحنت عليه في سكون واطمئنان كأنّما تحنو عليه، وهو يرقد رقاد غرام، فتبدّى على وجهه الشاحب الذابل الرضا، وانفرجت شفتاه الباهتتان عن ابتسامة.

ولو أنّها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانًا وجنونًا، ولٰكنّها نزلت على إرادته العزيزة، وملأت عينيها من وجهه، وهي لا تصدّق أنّ هٰذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد، وأنّها لن تراه في هٰذه الدنيا مهما تألّمت أو تأوّهت أو سكبت الدمع الحزين، وأنّ صورته وحياته وحبّه ستغدو ذكريات ماضٍ غريب، هيهات أن يصدّق قلبها المكلوم أنّه كان يومًا حاضرها واستقبالها. كلّ هٰذا لأنّ سهمًا مجنونًا استقرّ في هٰذا الموضع من صدره. . كيف يستطيع هٰذا السهم الحقير أن يقضي على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها!. . وتنهّدت المرأة تنهّدًا حارًّا صعّد فتات قلبها، وكان الملك يستفرغ بقيّة الحياة القلقة في صدره، المضطربة في أنفاسه، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه، وماتت حواسّه، وأظلمت عيناه، ولم يبق منه إلّا صدر يضطرب اضطرابًا عنيفًا، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس. وتجلّى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنّما يريد أن يصرخ أو يستغيث، وأمسك بيدها التي امتدّت إليه في فزع لا يوصف، وصاح بقوّة:

ـ رادوبيس أسندي رأسي. . أسندي رأسي.

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمّت أن تجلسه، ولٰكنّه شهق شهقة قويّة، وأسقطت يده إلى جانبه، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت. وأعادت رأسه إلى وضعه الأوّل بسرعة، وصرخت صرخة فزع شديدة عالية، ولٰكنّها كانت قصيرة، ثمّ انقطع صوتها كأنّما مُزّقت مسالكه، وتصلّب لسانها، والتحم فكّاها بشدّة، وحملقت في وجه الذي كان إنسانًا بعينين جامدتين، ثمّ لم تبد حراكًا.

وأذاعت صرختها الخبر الأليم، فهرع الرجال الثلاثة إلى الحجرة دون أن تحسّ بهم ووقفوا أمام الهودج، وألقى طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة، وتقدّم سوفخاتب من الجثّة، وانحنى في إجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع جرى على خدّيه وتساقط على الأرض، وقال بصوت متهدّج مزّقت نبراته الباكية الصمت المخيّم:

ـ سيّدي ومولاي، وابن سيّدي ومولاي، نستودعك الآلهة العليّة التي اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبديّة. وددت لو أفتدي شبابك الغضّ بشيخوختي الفانية، ولٰكنّها إرادة الربّ التي لا تُرَدّ. فالوداع يا مولاي الكريم.

ومدّ سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء، وسجّى الجثّة في أناة، وانحنى مرّة أخرى، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين.

وظلّت رادوبيس جاثية، في غفوة من الذهول لا تفيق ولا تتحوّل عيناها عن الجثّة، وقد سرى في جسمها جمود غريب كالموت، فلم تُبْدِ حراكًا، ولا بكت، ولا صرخت، وظلّ الرجال في وقفتهم منكّسي الرءوس. . إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج، وقال:

ـ وصيفة جلالة الملكة.

والتفت الرجال إلى الباب، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها أثر الحزن الشديد، فانحنوا لها تحيّة، فردّت التحيّة بإيماءة من رأسها، وألقت نظرة على الجثّة المسجّاة، ثمّ ردّت ناظريها إلى سوفخاتب، فقال الرجل بصوت حزين:

ـ انتهى الأمر أيّتها السيّدة الجليلة.

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة، ثمّ قالت:

ـ ينبغي إذًا أن تحمل الجثّة الكريمة إلى القصر الفرعونيّ، هٰذه إرادة جلالة الملكة أيّها الوزير.

واتّجهت الوصيفة نحو الباب، وأومأت إلى العبيد، فهرعوا إليها مسرعين، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج. وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحسّ بشيء ممّا يدور حولها، وتساءلت بصوت مبحوح غريب:

- إلى أين.. إلى أين؟.

وارتمت على الهودج، فتقدّم منها سوفخاتب وقال:

- إنّ القصر يريد أن يؤدّي واجبه نحو الجثّة المقدّسة.

فقالت المرأة الذاهلة:

- لا تأخذوه منّي.. انتظروا.. سأموت على صدره. وكانت الوصيفة تتعالى بناظريها عن رادوبيس، فلمّا سمعت قولها قالت بخشونة:

- إنّ صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحدًا لإنسان.

وانحنى سوفخاتب على المرأة، وقبض على معصمها برقّة ورفعها بهدوء، وحمل العبيد الهودج، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه، وأدارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنّها عرفت أحدًا من الحاضرين، وصاحت بصوت متقطّع كالحشرجة:

- لماذا تأخذونه؟. هٰذا قصره.. وهٰذه حجرته.. كيف تسومونني القهر أمامه.. إنّ مولاي لا يرضى عمّن يسيء إليّ.. أيّها القساة.. أيّها القساة.

ولم تبالها الوصيفة، فشقّت طريقها إلى الحديقة، وتبعها العبيد يحملون الهودج. وغادر الرجال الحجرة في خشوع وصمت. وكادت المرأة تجنّ. وجمدت في مكانها لحظة قصيرة، وهمّت باندفاع وراءهم، ولٰكنّ يدًا غليظة أمسكت بذراعها، فحاولت التخلّص منها، ولٰكن ضاعت محاولتها هباء.

فالتفتت إلى الوراء بعنف وغيظ، فوجدت نفسها وجهًا لوجه أمام طاهو..

نهاية طاهو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنّها لا تعرفه، وحاولت أن تخلّص ذراعها، ولٰكنّه لم يمكّنها من غايتها، فقالت له بعنف:

- دعني أذهب..

فهزّ رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنّه يقول لها: كلّا كلّا.. وكان وجهه رهيبًا مخيفًا ونظرة عينيه جنونيّة، وتمتم قائلًا:

- إنّهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقيهم إليه.

- دعني أذهب لقد خطفوا سيّدي.

فاربدّ وجهه، وقال لها بلهجة عنيفة كأنّه يلقي أمرًا عسكريًا:

- لا تقاومي رغبة الملكة الحاكمة.

فسكت عنها الغضب في خوف وكفّت عن المقاومة. واستسلمت استسلامًا غريبًا، وقطّبت جبينها، ثمّ هزّت رأسها في حيرة كأنّها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتّت الذاهل، وحدجته بنظرة غرابة وإنكار وقالت:

- ألا ترى أنّهم قتلوا مولاي.. قتلوا الملك!

وكانت عبارة «قتلوا الملك» تقع من أذنيه موقعًا غريبًا مروّعًا فسكن هياجه، وقال:

- نعم يا رادوبيس، قتلوا الملك، وما كنت أحسب قبل اليوم أنّ سهمًا يمكن أن يقضي على حياة فرعون.

فقالت ببساطة البله:

- فكيف تدعهم يخطفونه منّي بعد ذٰلك؟!.

فانفجر ضاحكًا ضحكة جنونيّة مخيفة، وقال:

- أتريدين أن تتبعي أثرهم؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس، إنّك تعمين عن العواقب، فقد أذهلك الحزن، اصحي أيّتها الفاتنة، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان، وانتزعت زوجها من بين يديها، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء.. إنّها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبّلة بالسلاسل، ثمّ تدفع بك إلى أيدي جلّادين لا يعرفون الرحمة يحلقون شعرك الحريريّ، ويسملون عينيك السوداوين، ويجدعون أنفك الدقيق، ويصلمون أذنيك الرقيقتين، ثمّ يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوّهة

يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك منادٍ يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشئومة التي أتلفت على الملك نفسه، ثمّ أتلفته على شعبه.

وكان طاهو يتكلّم بلهجة تشفّ عن غِلّ وعيناه تبرقان بنور مخيف؛ ولْكنّها لم تتأثّر بكلامه كأنّما حيل بينه وبين حواسّها، وسهمت إلى شيء غير منظور في هدوء غريب، ثمّ هزّت منكبيها في استهانة وبساطة. فاحتدم في قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشدّ عليها، وشعر برغبة في أن يوجّه إلى وجهها ضربة هائلة جنونيّة فيحطّمه تحطيمًا، ويمتّع ناظريه بتشوّهه، وتفجّر الدم من مسامه ومنافذه، ولبث دقيقة يتفرّس في وجهها الهادئ الذاهل، ويحاور رغبته الشيطانيّة، ولْكنّها رفعت عينيها إليه دون أن يلوح فيهما معنًى من معاني الحياة، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبّسًا بجريمة، فتراخت أصابعه، وتنهّد تنهّدًا عميقًا ثقيلًا، ثمّ قال:

ـ أراك لا تكترثين لشيء.

وكانت لا تلقي إلى ما يقول بالًا، ولْكن تصادف أن قالت وكأنّها تحادث نفسها:

ـ كان ينبغي أن نتبعهم.

فقال طاهو بغضب:

ـ كلّا.. كلّا.. ما عاد كلانا يصلح للدنيا.. ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد.

فقالت ببساطة وهدوء:

ـ أخذته منّي.. أخذته منّي.

فعلم أنّها تعني الملكة. وهزّ منكبيه قائلًا:

ـ لقد استوليت عليه حيًّا، واستردّته ميتًا.

فحدجته بنظرة غريبة، وقالت له:

ـ يا أحمق يا جاهل ألا تعلم.. لقد قتلته الخائنة لتستردّه.

ـ مَن الخائنة؟

ـ الملكة، هي التي أفشت سرّنا وأثارت الشعب. هي التي قتلت مولاي.

وكان ينصت إليها في صمت، وعلى فمه ابتسامة شيطانيّة ساخرة، فلمّا انتهت ضحك ضحكته الجنونيّة المخيفة، ثمّ قال:

ـ أخطأت يا رادوبيس، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة.

وحملق في وجهها ودنا منها خطوة، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار، ثمّ قال بصوت رهيب:

ـ إن كان يهمّك أن تعرفي الخائن، فها هو ذا يقف أمامك.. أنا الخائن يا رادوبيس.. أنا..

ولم يهمّها قوله كما كان يتوقّع، ولا بدت عليها اليقظة. ولْكنّها هزّت رأسها هزّات خفيفة كأنّما تريد أن تنفض عن نفسها الخمول والإعياء. فاستولى عليه الغضب، وأمسك بكتفيها بغلظة، وهزّها بعنف شديد، وصاح بها:

ـ اصحي، ألا تسمعين ما أقول.. أنا الخائن.. طاهو الخائن.. أنا علّة الكوارث جميعًا..

وارتعد جسمها بعنف، وانتفضت انتفاضًا شديدًا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات، وهي تنظر إلى وجهه الفزع بخوف وجنون، فسكت غضبه وهياجه، وأحسّ بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه، وقال بهدوء وبلهجة حزينة:

ـ إنّي أنطق بكلمات هائلة بكلّ بساطة، لأنّي أشعر شعورًا صادقًا أنّي لست من أهل الدنيا. لقد انقطع ما بيني وبين العالم جميعًا، ولا شكّ فيما أحدثه اعترافي لك من الفزع، ولْكنّها الحقيقة يا رادوبيس، لقد تحطّم قلبي بقسوة شنيعة، ومزّق نفسي الألم البالغ في تلك الليلة الجنونيّة التي فقدتك فيها إلى الأبد.

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة، ثمّ استطرد قائلًا:

ـ وانطويت على الألم، واستوصيت بالصبر والتجلّد، واعتزمت صادقًا أن أؤدّي واجبي إلى النهاية، حتّى كان ذٰلك اليوم الذي دعوتني فيه إلى قصرك لتستوثقي من إخلاصي. في ذٰلك اليوم جنّ جنوني، واشتعلت النار في دمائي، فهذيت هذيانًا غريبًا، واستاقني الجنون إلى عدوّ متربّص، فأفضيت له

بسرّنا، وهٰكذا انقلب القائد الأمين خائنًا غادرًا يطعن من وراء الظهور.

وأهاجته الذكرى فتقلّص وجهه ألمًا وخزيًا، ونظر إلى وجهها الفزع بقسوة، فعاوده الغضب والحنق، وصاح:

ـ أيّتها المرأة الهلوك المدمّرة. لقد كان جمالك لعنة على كلّ من رآه. لقد عذّب قلوبًا بريئة، وخرب قصرًا عامرًا، وزلزل عرشًا مكينًا، وأثار شعبًا أمينًا، ولوّث قلبًا شريفًا.. إنّه لشؤم ولعنة..

وسكت طاهو، وما زال الغضب يغلي في شرايينه، ورآها كصورة للعذاب والخوف، فأحسّ ارتياحًا ولذّة، وتمتم قائلًا:

ـ ذوقي العذاب والهوان، وانظري الموت فما ينبغي لأحدنا أن يحيا، وقد متّ منذ زمن بعيد، ولم يبق لي من طاهو إلّا ثيابه المزركشة المجيدة، أمّا طاهو الذي اشترك في غزو النوبة، وأبلى بلاءً حسنًا استحقّ به ثناء بيبي الثاني، طاهو قائد حرس مرنرع الثاني، وصفيّه، ومشيره، فلا وجود له..

وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله. وبدا على وجهه الضيق والجزع الشديد، ولم يعد يحتمل السكون المطبق، ولا رؤية رادوبيس التي استحالت تمثالًا جامدًا. فنفخ في الهواء بقوّة وسخط واشمئزاز، وقال:

ـ ينبغي أن ينتهي كلّ شيء، ولٰكنّي لن أحرم نفسي من العقاب الصارم، سأذهب إلى القصر، وأدعو كلّ من يحسن بي الظنّ، ثمّ أعلن جريمتي للملأ، وأمزّق الستار عن الخائن الذي طعن مولاه وهو يساره، وأنزع النياشين التي تحلّي صدري الآثم، وأرمي بسيفي، ثمّ أطعن قلبي بهٰذا الخنجر.. فالوداع يا رادوبيس، والوداع أيّتها الحياة التي تستأدينا فوق ما تستحقّ..

نطق طاهو بهٰذه الكلمات، ثمّ ذهب..

النهاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتّى رسا القارب الذي يحمل بنامون بن بسار إلى سلّم الحديقة. وكان الشابّ منهوك القوى شاحب اللون معفّر الثياب، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس. وكان بلغ مسكنه بشقّ الأنفس ولاقى في طريق العودة ما هوّن عليه ما صادفه في الذهاب، وتنفّس الصعداء حين وجد نفسه يسير في ممرّات حديقة قصر بيجة الأبيض، والحجرة الصيفيّة تعترض سبيله عن بعد قريب، وانتهى به المسير إلى الحجرة، فاجتاز عتبتها، وهو يظنّ أنّها خالية. ولٰكنّه ما لبث أن أدرك خطأه. ورأى رادوبيس جالسة في استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة، وشيث متربّعة عند قدميها يشملها سكون غريب فتردّد هنيهة، وأحسّت شيث بمقدمه، والتفتت إليه رادوبيس، ثمّ قامت الجارية وانحنت له تحيّة وغادرت الحجرة، وتقدّم الشابّ من المرأة، وقد لفّه الفرح، فلمّا أن تبيّن وجهها عن كثب ركدت حركة نفسه، وأصابه الوجوم والغمّ، ولم يشكّ في أنّ أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته، وأنّ أنباء الآلام التي تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل، فألبسته هٰذا الرداء الغليظ المغبرّ من الكدر. وركع بين يديها، ثمّ مال على حاشية ثوبها فقبّلها بحنان، ونظر إليها بعينيه الصافيتين نظرة إشفاق كأنّه يقول لها:

«فداؤك نفسي»، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح، فخفق قلبه خفقة السعادة، وتخضّب وجهه بالاحمرار، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف:

ـ غبت طويلًا يا بنامون.

فقال الشابّ:

ـ لقد شققت طريقي وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين: إنّ آبو اليوم تغلي وتفور وتنثر الشظايا المحرقة، فتملأ الجوّ حممًا..

ثمّ دسّ الشابّ يده في جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفّها، وأحسّت ببرودتها تسري في جسمها وتستقرّ في قلبها. وسمعته يقول لها:

ـ أرى أنّك تحمّلين نفسك فوق ما تحتمل.

فقالت له:

ـ إنّ الأحزان تنتقل بالعدوى.

ـ ولْكن رفقًا بنفسك، فما ينبغي لك أن تستسلمي كلّ الاستسلام إلى الحزن.. ليتك يا مولاتي تهاجرين إلى أمبوس ردحًا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هٰذه البقاع.

وكانت تسمع إليه في اهتمام خادع، وتنظر إليه بغرابة، نظرتها إلى آخر حيّ من أهل هٰذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرّة، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنّها غريبة عن هٰذه الدنيا. واختنقت عواطفها اختناقًا لم تحسّ معه بأيّ رحمة نحو الشابّ الراكع أمامها، الهائم في عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذي ينتظره عن كثب.. وظنّ بنامون أنها تدير فكرته في نفسها فلعب بقلبه الأمل واستفزّه الطمع، فقال بحماس:

ـ أمبوس يا مولاتي بلد السكينة والجمال، لا ترى العين فيها إلّا سماء صافية، وطيرًا لاهيًا، وبطًّا سابحًا، وأخضر ناضرًا.. وسيمحو جوّها المشرق السعيد الآلام التي أثارتها في نفسك الرقيقة آبو الحزينة الغاضبة.

وسرعان ما سئمت حديثه، واتّجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة، وأحسّت بشرق إلى النهاية. فبحثت عيناها الموضع الذي شغله الهودج منذ حين، وصرخ قلبها أن هاهنا ينبغي أن تختم حياتها، واعتزمت أن تتخلّص من بنامون، فقالت له:

ـ إنّ ما تعرضه عليّ جميل يا بنامون، فدعني أفكّر وحدي رويدًا..

فأضاء وجه الشابّ بالفرح والأمل، وسألها:

ـ هل يطول انتظاري ؟

فقالت:

ـ لن يطول انتظارك يا بنامون.

فلثم الشابّ يدها، وقام واقفًا، وغادر الحجرة.

ودخلت شيث على الأثر، وكانت رادوبيس تهمّ بترك مجلسها، فلمّا رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلّص منها:

ـ إليّ بإبريق من الجعة.

فذهبت الجارية إلى القصر، وكان بنامون قد اتّجه إلى البركة واطمأنّ إلى مقعد على حافتها، وكان في تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة، ويدني إليه الأمل غايته في أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيدًا عن الشقاء المخيّم على آبو فتخلص له، ويسكن إليها، ودعا الآلهة أن تهبط إليها في وحدتها وتلهمها الرأي السديد والحلّ السعيد..

ولم يطق الجلوس طويلًا، فقام يسير الهوينى حول البركة، ولمّا أتمّ دورته رأى شيث تحمل إبريقًا، وتتّجه بسرعة إلى الحجرة، فتبعها بعينيه حتّى غيّبها الباب، وأراد أن يعاود الجلوس مرّة أخرى، ولْكنّه لم يكد يفعل حتّى سمع صرخة مدوّية آتية من داخل الحجرة فانتفض واقفًا، وقد انخلع قلبه في صدره، واندفع جريًا إلى مصدرها، فرأى في وسط الحجرة رادوبيس ملقاة على الأرض، والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها وتنكبّ عليها تناديها، وتجسّ خدّيها وكفّيها.. فهرع إليها بساقين مرتجفتين، وقد اتّسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفزع، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكفّ رادوبيس بين كفّيه، فشعر ببرودتها، وكانت كالنائمة، إلّا أنّ وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها، وانسابت ضفائر منه على البساط، فأحسّ بجفاف حلقه واختناق أنفاسه، وسأل الجارية بصوت مبحوح:

ـ ماذا بها يا شيث.. لماذا لا تجيب؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل:

ـ لا أدري يا سيّدي، فلقد وجدتها عند دخولي الحجرة كما تراها الآن، فناديتها فلم تجب، وأسرعت إليها أهزّها فلم تنتبه، ولم تبد عليها اليقظة، أوّاه يا مولاتي.. ما لك ما الذي اعتورك فحوّلك إلى ما أرى؟.

ولم ينبس بنامون بكلمة، وجعل يطيل النظر إلى

المرأة الملقاة في سكون رهيب، وإنّ عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنّميّة منزوعة السدادة، فشهق شهقة عنيفة، والتقطها بأصابعه المرتعدة، فلم يجد بها إلّا آثارًا لاصقة بباطنها، وردّد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبيّن له الحقّ، وسرت في جسمه النحيل رجفة مزّقت جوارحه، فأنّ أنينًا موجعًا لفت إليه الجارية، وقال بصوت فزع:

- يا للهول.. يا للرعب!

فصوّبت إليه الجارية عينيها، وسألته بلهفة وذعر:

- ماذا يهولك ويرعبك؟.. تكلّم فإنّي أكاد أجنّ من الحيرة!!

ولكنّه لم يأبه لها، وقال يحادث رادوبيس، وكأنّها تسمعه وتبصره:

- لماذا انتحرت.. لماذا انتحرت يا مولاتي؟

فصرخت شيث ودقّت صدرها بيديها، وقالت:

- ماذا تقول، كيف علمت أنّها انتحرت يا هٰذا؟

فرمى القارورة بعنف، فاصطدمت بالحائط وتحطّمت، ثمّ قال بذهول وحيرة:

- لماذا أزهقت نفسك بهٰذا السمّ؟.. ألم تعديني بأن تفكّري جدّيًّا في اصطحابي إلى أمبوس بعيدًا عن أحزان الجنوب.. أكنت تخدعينني ريثما تزهقين روحك؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة، وقالت بدهشة:

- من أين لمولاتي بالسمّ؟.

فهزّ منكبيه يأسًا، وقال:

- أتيت لها به بنفسي.

فتولّاها الغيظ، وصاحت به:

- كيف تأتي به يا شقيّ؟!

- لم أكن أدري أنّها تريده لتزهق به نفسها، لقد خدعتني كما فعلت بي الآن.

فتحوّلت عنه يائسة، وأفحمت في البكاء، وانكبّت على قدمي مولاتها تقبّلهما وتغسلهما بدموعها، وغشي الشابّ ذهول، فتفجّرت عيناه، وثبت على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبديّة، وكان يعجب في ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هٰذا الجمال الذي لم تشرق الشمس على مثله من قبل، وكيف تسكن الحيويّة الفائضة الملتهبة، وتكتسي بهٰذا الإهاب الشاحب الذابل الذي تهمّ به عوامل الخراب؟ تمنّى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردّت إليها نسمة الحياة، فأبدت عن ثنيّتها الرقيق، وأشرقت بوجهها ذي البهاء ابتسامة السعادة، وانبعثت من عينيها نظرة الحبّ والفتون، ثمّ يموت فتكون آخر عهده بالدنيا..

وأزعجه نحيب شيث أيّما إزعاج، فانتهرها قائلًا:

- أمسكي عن هٰذا.

وأشار إلى قلبه، ثمّ استدرك:

- هنا حزن جليل، أجلّ من البكاء والنحيب.

وبقي في نفس الجارية أمل ضعيف يخفق، فنظرت إلى الشابّ خلل دموعها، وقالت بتوسّل:

- ألا يوجد رجاء ياسيّدي؟. عسى أن يكون ما بها غيبوبة شديدة!

ولكنّه قال بصوته الحزين:

- ما من رجاء ولا أمل، ماتت رادوبيس، ومات الحبّ، وتبدّدت الأوهام.. كم عبثت بي الأحلام والأوهام.. أمّا الآن فقد انتهى كلّ شيء، وأيقظني من غفوتي الموت الرهيب..

وانقصف آخر شعاع للشمس، وانغمس وجهها القاني في عين حمئة، فزحفت الظلمة تغشى الكون في ثوب حداد. ولم تنس شيث في حزنها واجبها نحو جثّة مولاتها، وأدركت أنّها لن تستطيع أن توفيها حقّها من الإجلال والصون في بيجة المحاطة بأعدائها والمترّبصين للانتقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشابّ الحزين الذي تحترق نفسه على كثب منها، وطلبت إليه أن يحملا الجثّة إلى بلدة أمبوس، وهنالك يدفعان بها إلى أيدي المحنّطين، ويودعانها مقبرة أسرة بسار، ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه، فنادت شيث بعض الجواري، وأتين بهودج، ووضعن الجثّة عليه وسجّينها. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة الخضراء التي انحدرت به نحو الشمال.

وجلس الشابّ عند رأس الجثّة على مقربة من شيث، وقد شمل المقصورة سكون عميق.. في تلك الليلة الحزينة، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة صوب الشمال، تاهَ بنامون في وديان قصيّة من الأحلام، ومرّت حياته أمام ناظريه في صور متعاقبة، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء، وما ظنّ يومًا أنّه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير. ثمّ تنهّد من أعماق قلبه المكلوم، وثبّت عينيه على الجثّة المسجّاة التي ارتطمت عليها آماله وأحلامه، فتحطّمت وتناثرت، كأوهام بدّدتها اليقظة.

كفاح طيبة

سيكنرع

- ١ -

كانت السفينة تصعد في النهر المقدّس، ويشقّ مقدّمها المتوّج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة، يحثّ بعضها بعضًا منذ القدم كأنّها حادثات الدهر في قافلة الزمان، بين شاطئين انتثرت على أديمها القرى، وانطلق النخل جماعات ووحدانًا، وترامت الخضرة شرقًا وغربًا، وكانت الشمس تعتلي كبد السماء ترسل أسلاكًا من النور إذا غمر النبت رفّ رفيفًا، وإذا مسّ الماء تلألأ لألاء، وقد خلا سطح الماء إلّا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس - رمز الشمال - بعين التساؤل والإنكار.

وكان يتصدّر المقصورة رجل بدين قصير القامة، مستدير الوجه، طويل اللحية، أبيض البشرة، يرتدي معطفًا فضفاضًا ويقبض بيمناه على عصًا غليظة ذات مقبض ذهبيّ، جلس بين يديه رَجلان في مثل بدانته وزيّه، تداني بينهم جميعًا روح واحدة، وكان السيّد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقي على من يصادفه من الصيّادين نظرة شزراء، وكأنّه بَرِم بالصمت فتحوّل إلى رَجليه وتساءل قائلًا:

- ترى هل ينفخ غدًا في الصور فيتبدّد هٰذا السلام الثقيل المخيّم على ربوع الجنوب، وتفزع هٰذه الدور المطمئنّة، ويحلّق نسر الحرب في هٰذا الجوّ الآمن؟.. آه.. ليت هٰؤلاء الرجال يعلمون أيّ نذير تحمل هٰذه السفينة لهم ولسيّدهم..

فهزّ الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيّد وقال أحدهما:

- لتكن حرب أيّها الحاجب الأكبر، ما دام هٰذا الرجل الذي ارتضاه مولانا حاكمًا على الجنوب يأبى إلّا أن يضع على رأسه تاجًا كالملوك ويبني القصور كالفراعين، ويسير في طيبة مرحًا لا يبالي شيئًا.

فجعل الحاجب يصرف بأنيابه، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدلّ على الحنق والغيظ وقال:

- لا يوجد حاكم مصريّ سوى حاكم إقليم طيبة هٰذا، فإذا تخلّصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرّد أحد عليه.

قال ثاني الرجلين بحماس، وكان لا ييئس أبدًا من أن يصير يومًا حاكمًا لمدينة عظيمة:

- إنّ هٰؤلاء المصريّين يكرهوننا..

فأمّن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة:

- نعم.. نعم.. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يُظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية.. لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف..

فابتسم الرجلان أوّل مرّة، وقال ثانيهما أيضًا:

- بورك رأيك أيّها الحاجب الحكيم، فإنّ السوط وسيلة التفاهم التي لا تجدي سواها مع المصريّين..

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة، فما يُسمع إلّا وقع المجاديف على سطح الماء، ثمّ لاحت من أحدهم التفاتة إلى زورق صيد يقف في وسطه فتًى مفتول الساعدين، عاري الجسد إلّا من وزرة تغطّي وسطه، وقد لفحت الشمس بشرته، فقال بتعجّب:

- كأنّ هٰؤلاء الجنوبيّين مشتقّون من صميم أرضهم..

فقال الحاجب بسخرية:

- لا تعجب فإنّ من شعرائهم من يتغنّى بسمرة اللون..

- حقًا.. إنّ لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنيّ..

قال الحاجب:

- حدّثني بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيّين فقال: إنّهم على لونهم وعريهم ذوو صلف وكبرياء، وإنّهم يزعمون أنّهم منحدرون من أصلاب الآلهة، وأنّ بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيّين.. ربّاه.. إنّي أعرف الدواء لكلّ هذا.. لا ينقص إلّا أن تمتدّ ذراعنا إلى حدود بلادهم.

وما انتهى الحاجب من كلامه حتّى سمع أحد رجليه يقول، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق:

- انظر.. أترى طيبة؟ هذه طيبة!..

فنظروا جميعًا إلى حيث يشير الرجل، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم، بدت خلفه رءوس المسلّات عالية كأنّها عمد ترفع القبّة السماويّة، ورئيت في ناحيتها الشماليّة جدران معبد آمون الشاهقة، ربّ الجنود المعبود. فما وقعت العين فيها إلّا على مارد عظيم يتعالى إلى السماء، فأخذ الرجال، وقطّب الحاجب الأكبر وتمتم قائلًا:

- نعم.. هذه طيبة.. وقد أتيحت لي رؤيتها من قبل. وما أزداد على الأيّام إلّا رغبة في أن تعنو الهام لمولانا الملك، وأن أرى موكبه الظافر يشقّ شوارعها.

فقال أحد الرجلين:

- وأن يُعبد بها ربّنا ست المعبود..

وخفّفت السفينة من سرعتها، ومضت تدنو من الشاطئ رويدًا رويدًا مجتازة الحدائق الغنّ، التي تنحدر مُدرَّجاتها المعشوشبة حتّى تسقى من النهر المقدّس. وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشمّ، وأمّا غربيّ الشاطئ الآخر، فتجثم مدينة الأبديّة، حيث يرقد الخالدون في الأهرام والمصاطب والمقابر، تغشاهم جميعًا وحشة الموت..

وتوجّهت السفينة إلى ميناء طيبة، تشقّ سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجاريّة، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها، وصورة اللوتس التي تزيّن مقدّمها، حتّى حاذت الرصيف، فألقت كلّابها الضخم، وقصد إليها بعض الحرّاس، وانتقل إليها ضابط يرتدي فوق وزرته سترة من الكتّان الأبيض. وسأل أحدَ رجالها قائلًا:

- من أين انحدرت هذه السفينة؟.. وهل تحملون تجارة؟..

فحيّاه الرجل، وقال «اتبعني» واصطحبه إلى المقصورة، حيث أدرك الضابط أنّه ماثل بين يدي حاجب كبير من حجّاب قصر الشمال، قصر ملك الرعاة كما يدعونه في الجنوب، فانحنى احترامًا وأدّى التحيّة العسكريّة. ورفع الحاجب يده ليردّ التحيّة في صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية:

- أنا رسول فرعون، ملك الشمال والجنوب، ابن الربّ ست، مولانا أبوفيس، إلى حاكم طيبة الأمير سيكننرع، فارجو أن تبلغ سيّدك أنّي أنتظر دعوتي إلى مقابلته لأؤدّي إليه ما حملته من البلاغ.

وأصغى الضابط إلى الرسول في انتباه ثمّ أدّى التحيّة مرّة أخرى ومضى.

- ٢ -

ومضت ساعة من الزمان، ثمّ جاء السفينةَ رجل وقور، يميل إلى القِصَر، بادي النحافة، بارز الجبهة، فانحنى انحناءة وقور الرسول، وقال بصوت هادئ النبرات:

- إنّ الذي يتشرّف باستقبالك حور رئيس حجّاب قصر الجنوب.

فحنى الرجل رأسه الضخم وقال بصوته الغليظ:

- وأنا خيان كبير حجّاب القصر الفرعونيّ.

فقال حور:

- يسرّ مولاي أن يستقبلك في الحال.

فأبدى الرسول حركة وقال: «هلمّ بنا». وتقدّمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير في خطًا وئيدة، متوكّئًا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان

إجلالًا، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق: «أما كان ينبغي لسيكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبوفيس . . .؟» وضايقه جدّ المضايقة أن يسلك الرجل في استقباله سلوك الملوك. وغادرا السفينة بين صفّين من الجند والضبّاط، ورأى خيان على الشاطئ ركبًا ملكيًا في انتظاره تتقدّمه عجلات حربيّة وتتأخّر عنه عجلات أخرى، وأدّى له الجند التحيّة، فردّها بكبرياء، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور، ثمّ تحرّك الموكب الصغير في طريقه إلى قصر حاكم الجنوب، وتحرّكت عينا خيان في محجريها ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلّات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيّارات القوم التي لا تنقطع من جميع الطبقات: فالعامّة بأجسامهم شبه العارية، والضبّاط بمعاطفهم الأنيقة، والكهنة بأثوابهم الطويلة، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة، والنساء بأزيائهنّ الجميلة، فكأنّ كلّ شيء يشهد لعظمة المدينة، وأنّها تنافس منف نفسها عاصمة أبوفيس. وأدرك الرسول أوّل وهلة أنّ موكبه يلفت الأنظار بقوّة وأنّ الناس تتجمّع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن في برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشعر بثورة باطنيّة وغضب شديد لذاك الاستقبال البارد الذي مني به أبوفيس العظيم في شخص رسوله، وساءه أن يبدو غريبًا في طيبة بعد انقضاء مائتي عام على هبوط قومه أرض مصر وتربّعهم على عرش ملكها. . وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتي عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيّته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس.

ثمّ بلغ الموكب ميدان القصر، وكان ميدانًا فسيحًا مترامي الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقرّ القيادة العليا للجيش، ويبدو في مكانه الوسيط القصر الجليل يبهر الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرًا عظيمًا كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفّون صفّين لدى بابه الكبير، فلمّا اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحيّة، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلًا: هل يستقبلني سيكننرع وعلى رأسه التاج الأبيض؟. إنّه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم، ويتّخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم، فهل يلبس تاج الجنوب أمامي؟. هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سينكننرع؟. . .

وترجّل الرسول عند مدخل ممرّ الأعمدة الطويل، ووجد في استقباله حجّاب القصر ورئيس الحرس الفرعونيّ وكبار الضبّاط، فأدّوا له التحيّة جميعًا، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعونيّ، وكانت الردهة المؤدّية إلى باب البهو مزيّنة الجانبين بتماثيل أبي الهول، وفي أركانها يقف ضبّاط عمالقة من رجال هابو الأشدّاء. وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له، فتقدّمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل، ورأى في صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشًا فرعونيًا يجلس عليه رجل متوّج بتاج الجنوب وبيده الصولجان والعصا المعقوفة، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان. وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال، وقال بصوته الرقيق:

ـ مولاي، أقدّم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبوفيس.

وانحنى عند ذاك الرسول تحيّة، فردّ الملك تحيّته وأشار إليه فجلس على كرسيّ أمام العرش، أمّا حور فقد وقف إلى يمين العرش. وأراد الملك أن يقدّم إلى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه إلى الرجل الذي يلي يمينه وقال: «أوسر آمون رئيس الوزراء» ثمّ أشار إلى الذي يليه وقال: «نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون» ثمّ تحوّل إلى شماله وأومأ إلى من يليه قائلًا: «كاف قائد الأسطول» وأشار إلى من يليه قائلًا: «بيبي قائد الجيش». ولمّا تمّ التعارف وجّه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدلّ نبراته على السموّ والرفعة الطبيعيّتين:

ـ نزلت منزلًا يرحّب بشخصك ويمن أولاك ثقته.

فقال الرسول:

ـ حفظك الربّ أيّها الحاكم الجليل، وإنّي سعيد

باختياري لمهمّة السفارة في بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخيّة..

ولم يغب عن سمع الملك قوله: «الحاكم الجليل» ولا فاته مغزاها، ولكن لم يبد على وجهه أيّ أثر لما اضطرب في نفسه، وكان خيان في تلك اللحظة يلقي عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصريّ رجلًا مهيبًا حقًّا، طويل القامة، مستطيل الوجه جميله، شديد السمرة، يميّز ملامحه بروز في أسنانه العليا، وقد قدّر له الحلقة الرابعة عمرًا. وكان الملك يظنّ أنّ رسول أبوفيس جاء لما كانت تجيء به بعثات الشمال من أجله، أي طلب الأحجار والحبوب، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية، ورآه ملوك طيبة رشوة يكفّون بها شرّ الغزاة، فقال الملك بهدوئه وجلاله:

ـ يسرّني أن أستمع إليك يا رسول أبوفيس العظيم.

فاعتدل الرسول في جلسته كأنّما يتوثّب للنضال وقال بصوته الغليظ:

ـ منذ مائتي عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب، وفي كلّ مرّة تعود راضية.

فقال الملك:

ـ أرجو أن تدوم هذه السنّة الجميلة.

فقال خيان:

ـ أيّها الحاكم إنّي أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونيّة: تتعلّق الأولى بشخص مولاي فرعون، والثانية بربّه المعبود ست، والثالثة بروابط المودّة بين الشمال والجنوب.

فألقى إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام، فاستدرك الرجل قائلاً:

ـ شكا مولاي الملك في الأيّام الأخيرة آلامًا مروّعة تهزّ أعصابه في الليل، وأصواتًا منكرة تصكّ أذنيه الكريمتين ممّا أوقعه فريسة للسهاد والضنى، وقد دعا إليه أطبّاءه وقصّ عليهم ما يلقى بليله فتفحّصوه بعناية، ولكنّهم عادوا جميعًا من فحصه بالحيرة والجهل، وكان الملك في رأيهم جميعًا سليمًا معافًى. ولمّا يئس مولاي فرغ إلى نبيّ معبد ست، فأدرك الحكيم داءه، وقال له: إنّ مبعث آلامه جميعًا أنّ خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرّب إلى قلبه، وأكّد له ألّا شفاء له إلّا بقتلها.

وكان الرسول يعلم أنّ الأفراس الحبيسة في بركة طيبة مقدّسة، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه، ولكنّه وجده جامدًا صلبًا وإن تضرّج بالاحمرار، وانتظر أن يعلّق الرجل على كلامه، ولكنّه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار، فقال الرسول:

ـ وفي أثناء مرض مولاي رأى فيما يرى النائم ربّنا المعبود ست يزوره بجلاله ونورانيّته، وعتب عليه قائلًا: أيجوز أن يخلو الجنوب كلّه من معبد يذكر فيه اسمي؟. فأقسم مولاي أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد في طيبة معبدًا لست إلى جانب معبد آمون..

وسكت الرسول ولكن سيكننرع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرّة أنّه على غرّة، وأنّه فوجئ بما لم يدرْ له في خلد، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعلّه كان مدفوعًا برغبة في إثارته، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب، فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلًا: «الأفضل ألّا يناقش مولاي الرسول الآن». فهزّ الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمي إليه حاجبه، وظنّ خيان أنّ الحاجب يفضي إلى مولاه بما يقوله فانتظر قليلًا، ولكنّ الملك قال:

ـ أعندك بلاغ آخر تفضي به؟

فقال خيان:

ـ أيّها الحاكم الجليل، لقد بلغ مولاي أنّك تتوّج رأسك بتاج مصر الأبيض، فراعه ذلك، ورأى أنّه لا يتّفق وما يربط الأسرة الفرعونيّة بأسرتك التليدة من أسباب المودّة والصداقة التقليديّة.

فقال سيكننرع بدهشة:

ـ ولكنّ التاج الأبيض غطاء الرأس لحكّام الجنوب.

فقال الرسول بيقين وإصرار:

ـ بل كان تاج الملوك منهم، ولذلك لم يفكّر والدك المجيد في لبسه، لأنّه يعلم أنّه لا يوجد سوى ملك واحد في هٰذا الوادي يحقّ له التتويج، وأرجو أيّها الحاكم الجليل ألّا يغيب عنك ما تدلّ عليه ملاحظة مولاي من رغبة صادقة في توثيق الأواصر الطيّبة بين أسرتَي منف وطيبة. . .

وسكت خيان، فساد الصمت مرّة أخرى، وكان سيكننرع غارقًا في تأمّلات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التي تهاجم مَواطن الإيمان من قلبه وموضع العزّة من نفسه، وبدا أثر ذٰلك في امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته. وكان يقدّر نصيحة حور فلم يرتجل جوابًا وقال بصوت احتفظ بالرغم من كلّ شيء بهدوئه:

ـ أيّها الرسول إنّ رسالتك تنطوي على خطب خطير يمسّ عقيدتنا وتقاليدنا، لذلك أرى أن أكاشفك برأيي فيها غدًا.

فقال خيان:

ـ خير الرأي ما سبقته المشورة.

فالتفت سيكننرع إلى الحاجب حور وقال:

ـ تقدّم الرسول إلى الجناح المعدّ له.

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم، وانحنى تحيّة، ثمّ ذهب يسير في خيلاء وعظمة.

ـ ٣ ـ

وأرسل الملك في طلب وليّ عهده الأمير كاموس، وجاء الأمير على عجل دلّ على رغبته في معرفة رسالة حاجب أبوفيس. وحيّا الملك في إجلال واتّخذ مكانه إلى يمينه، والتفت إليه الملك وقال:

ـ لقد أرسلت في طلبك أيّها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال، لترى فيه معنا رأيك، وإنّ الأمر لجدّ خطير فأصغ إليّ. . .

ثمّ روى الملك لوليّ عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبيّن، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محيّاه الحسن الذي يشبه أباه في لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا، ثمّ أدار الملك عينيه في الحاضرين، وقال:

ـ فها أنتم أولاء أيّها السادة ترون أنّه لكي نرضي أبوفيس ينبغي أن نخلع هٰذا التاج، ونذبح أفراس البحر المقدّسة، ونشيد معبدًا لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون، فأشيروا عليّ بما يجب عمله.

وكان الاستياء البادي على وجوههم جميعًا يدلّ على ما يعتلج في صدورهم من الهمّ، وكان الحاجب حور أوّل المتكلّمين، فقال:

ـ مولاي، إنّ الذي أنكره أكثر من هٰذه الرغبات نفسها هو الروح الذي أملاها، فهو روح سيّد يملي على عبده، وملك يتجنّى على شعبه، وما أراها إلّا صورة متجدّدة لذاك النزاع القديم بين طيبة ومنف، هٰذه تسعى لاستعباد تلك، وتلك تتشبّث باستقلالها ما وسعتها الحيلة، وما من شكّ في أنّه يسوء الرعاة وملكهم أن تظلّ مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكّامهم، ولعلّهم لا يقنعون بما يدّعون من أنّ هٰذه المملكة ولاية مستقلّة تابعة لتاجهم، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها، ويتحكّموا في عقيدتها، فيسهل عليهم بعد ذٰلك تدميرها.

وكان حور في إلقائه قويًّا صريحًا، فذكر الملك تاريخ تحرّش ملوك الرعاة بحكّام طيبة، وكيف كان هٰؤلاء يدفعون شرّهم بالردّ الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكي يحفظوا الجنوب من توغّلهم وشرّهم، وكان لأسرته في هٰذا السبيل فضل وأيّ فضل، حتّى استطاع والده سيكننرع أن يدرّب قوّات عظيمة سرًّا ليصون بها استقلال مملكته، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء في صونه. . . ثمّ قال القائد كاف:

ـ مولاي. . . أرى أنّه لا يجوز التسليم بأيّ مطلب من هٰذه المطالب. . . كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه؟. . . كيف نقتل الأفراس المقدّسة إرضاء لعدوّ أذلّ قومنا!. . . وكيف نشيد معبدًا لربّ الشرّ الذي يعبده أولٰئك الرعاة؟.

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون:

ـ مولاي... إنّ الربّ آمون لا يرضى أن يشيَّد إلى جانب معبده معبد لإله الشرّ ست، ولا أن ترتوي أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدّسة، ولا أن ينزل حامي مملكته عن تاجه وهو أوّل حاكم للجنوب توّج به رأسه بأمره... كلّا يا مولاي إنّ آمون لا يرضى بذلك أبدًا، وإنّه لينتظر مَن يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال، وتحقيق وحدة الوطن، فيعود كما كان في عهود الملوك السالفين..

فجرى الحماس في عروق القائد بيبي مجرى الدماء، ووقف بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين، ثمّ قال بصوته الجهوريّ:

ـ مولاي؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا، وإنّي لعلى يقين من أنّه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذلّ والخضوع. وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجيّ الهابط وادينا من أقاصي الصحارى الماحلة إلى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد ربّ الشرّ ويذبح الأفراس المقدّسة؟... لقد كان الرعاة فيما مضى يطلبون أموالًا فلم نبخل عليهم بأموالنا. أمّا الآن فإنّهم يطمعون في حرّيّتنا وشرفنا، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب، إنّ قومنا في الشمال عبيد يحرثون الأرض ويحترقون بألسنة السياط، ونحن نرجو أن نخلّصهم يومًا ممّا يعانون من عذاب لا أن نمضي بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس.

لازم الملك الصمت، وكان يصغي باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل. وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكّن، وكانت ميوله مع القائد بيبي فقال بعنف:

ـ مولاي... إنّ أبوفيس ينظر بجشع إلى عزّتنا القوميّة، ويأبى إلّا أن يذلّ الجنوب كما أذلّ الشمال، ولكنّ الجنوب الذي لم يرض المذلّة وعدوّه في أوج قوّته لن يرضاها الآن... فمن يقول إنّنا نفرّط فيما اشتدّ أسلافنا في صونه ورعايته؟..

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال، وكانت سياسته موجّهة دائمًا إلى تفادي غضب الرعاة أو التعرّض لقوّاتهم الهمجيّة لكي يتفرّغ إلى إنماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقيّة وتدريب جيش قويّ لا يُغلب، وقد خشي مغبّة اندفاع وليّ العهد وقائد الجيش، فقال موجّهًا كلامه إلى رجال المملكة:

ـ اذكروا يا سادة أنّ الرعاة قوم نهب وسلب. ولئن حكموا مصر مائتي عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب، ويستذلّ نفوسهم ويشغل هممهم عن شريف المقاصد.

فهزّ القائد بيبي رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال:

ـ يا صاحب العظمة، لقد عاصرنا القوم عهدًا كافيًا لنعرف نفوسهم، فهم أناس إذا رغبوا في شيء طلبوه بلسان صريح دون التوسّط إليه بالحيلة والمداراة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم، أمّا اليوم فهم يطلبون حرّيّتنا...

فقال الوزير:

ـ ينبغي التريّث الآن حتّى يكمل جيشنا.

فقال القائد:

ـ إنّ جيشنا بحالته الراهنة قادر على صدّ العدوّ.

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس:

ـ ما جدوى الكلام؟... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدّات، ولكنّ أبوفيس لا ينتظر حتّى تستكمل عدّتنا، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال، وليس في الجنوب رجل واحد يفضّل التسليم على الموت، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوي اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التي لم تطهّرها الشمس..

وتأثّر القوم بحماس الأمير الشابّ، وبدا على وجوههم التحفّز والغضب وكأنّما سئموا الكلام ورغبوا في اتّخاذ قرار حاسم، ورفع الملك رأسه ورنا إلى وليّ عهده، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلًا:

ـ أترى أن نرفض مطالب أبوفيس أيّها الأمير؟

فقال كاموس بثقة وعنف:

ـ بكلّ حزم وإباء يا مولاي.

ـ وإذا جرّ الرفض إلى الحرب؟

فقال كاموس:

ـ نحارب يا مولاي..

وقال القائد بيبي بحماس لا يقلّ عن حماس الأمير:

ـ نحارب حتّى نصدّ العدوّ عن حدودنا، وإذا شاء مولانا حاربنا حتّى نحرّر الشمال ونجلي عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوي اللحى الطويلة القذرة.

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله:

ـ وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى؟

فقال الشيخ الوقور:

ـ أرى يا مولاي أنّ من يحاول إطفاء هٰذه الجذوة المقدّسة كافر..

فابتسم الملك سيكننرع راضيًا وتحوّل إلى وزيره أوسر آمون قائلًا:

ـ ولم يبق إلّا أنت أيّها الوزير.

فبادر الرجل يقول:

ـ مولاي، لم أنصح بالتريّث كراهية في الحرب أو خوفًا منها، ولٰكن لنستكمل الجيش الذي أرجو أن يحقّق غاية أسرة مولاي المجيدة، وهي تحرير وادي النيل من قبضة الرعاة الحديديّة، وأمّا إذا كان أبوفيس يطمع حقًّا في حرّيّتنا فأنا أوّل من يدعو إلى الحرب.

فنظر سيكننرع في وجوه رجاله، وقال بصوت دلّ على العزم والقوّة:

ـ يا رجال الجنوب إنّي أشرككم في عواطفكم، وأعتقد أنّ أبوفيس يتحرّش بنا ويطمع في أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب، ونحن قوم لا نذعن للخوف ونرحّب بالحرب. إنّ الشمال فريسة الرعاة منذ مائتي عام، امتصّوا خير أرضه وأذلّوا رجاله. أمّا الجنوب فإنّه يكافح منذ مائتي عام غير غافل عن غايته العليا وهي تحرير الوادي جميعه، فهل ينكص على عقبيه لأوّل تهديد، ويفرّط في حقّه، ويلقي بحرّيّته وديعة بين يدي الطامع النهم؟.. كلّا يا رجال الجنوب، سأرفض مطالب أبوفيس المهينة، وأنتظر ما يردّ به علينا إن سلمًا فسلم وإن حربًا فحرب..

وقام الملك واقفًا، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالًا، ثمّ غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر..

ـ ٤ ـ

وتوجّه الملك إلى جناح الملكة أحوتبي، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها في لباسه الرسميّ أنّ رسول الشمال جاء بأمر جلل، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء:

ـ أحوتبي.. يبدو لي أنّ الحرب تطبق علينا مع الأفق..

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة:

ـ أتقول الحرب يا مولاي؟.

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، وقصّ عليها ما قال الرسول خيان، ورأي رجاله فيه، وما استقرّ عليه عزمه، وكان يحدّثها وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها فقرأ في صفحته ما اضطرم في نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام.

وقالت له:

ـ لقد اخترت السبيل التي ينبغي لمثلك أن يختارها.

فابتسم وربّت كتفها، ثمّ قال لها:

ـ هيّا بنا إلى أمّنا المقدّسة.

ثمّ سارا معًا جنبًا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيري زوج الملك السابق سينكننرع، وكانت في حجرة خلوتها تطالع كعادتها..

كانت الملكة توتيشيري في الستّين من عمرها تبدو على محيّاها آي النبل والمجد والمهابة، وكانت «حيويّتها» دفّاقة فغلب نشاطها الكبر، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلّل فوديها، وذبول خفيف يعلو خدّيها، وظلّت عيناها على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة في بروز

أسنانها العليا، ذٰلك البروز الذي افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافّة، وقد تخلّت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضي القانون، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه، ولٰكنّها ظلّت الرأي الذي يرجع إليه في الملمّات، والقلب الذي يلهم الأمل والكفاح، وقد أقبلت في فراغها على القراءة، وكانت تديم المطالعة في كتب خوفو وقاقمنا وكتب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التي خلّدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة في الجنوب جميعه، فما من رجل أو امرأة إلّا يعرفها ويحبّها ويقسم باسمها المحبوب، وذٰلك أنّها بثّت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيدها كاموس حبّ مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام، ولقّنت الجميع أنّ غايتهم السامية التي يجب أن يعدّوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادي النيل من قبضة الرعاة المستبدّين، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرّسي المدارس أن يذكّروا الناس دائمًا بالشمال المغتصَب والعدوّ الغاصب، وما ارتكبه من آثام أذلّ بها القوم واستعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم إلى مستوى البهائم التي تعمل في الحقول، فإذا كان في الجنوب جذوة نار مقدّسة تلهب القلوب وتحيي الآمال فالفضل في إذكائها لوطنيّتها وحكمتها، ولذٰلك قدّسها الجنوب جميعها ودعاها الناس الأمّ المقدّسة توتيشيري، كما يدعو المؤمنون الربّة إيزيس، وعاذوا باسمها من شرّ اليأس والهزيمة.

هٰذه هي الأمّ قصدها سيكننرع وأحوتبي، وكانت هي تتوقّع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل في طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع.. وكان زوجها يبعث بالسفن محمّلة ليتّقي قوّة القوم الهمجيّة، ويضاعف نشاطه الخفيّ في تكوين الجيش الذي كان أعزّ ما أورثه سيكننرع ابنه وخلفه. ذكرت ذٰلك وهي تنتظر الملك فلمّا جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبّلا يديها، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها، فسألت ابنها وهي تبتسم ابتسامة رقيقة:

ـ ماذا يريد أبوفيس ؟...

فقال بلهجة تنطوي على الحنق:

ـ يريد يا أمّاه طيبة وما عليها جميعًا. بل ما هو أجلّ من هٰذا، إنّه يساومنا هٰذه المرّة على شرفنا.

فرددت رأسها بين الملكين وقد روّعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كلّ شيء:

ـ كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب..

فقالت الملكة أحوتبي:

ـ أمّا هو يا أمّاه فإنّه يريد منّا أن نقتل أفراس البحر التي يقلق صوتها رقاده، وأن نشيد معبدًا لربّه ست إلى جانب معبد آمون، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض.

ووافق سيكننرع على قول أحوتبي، وقصّ على أمّه نبأ الرسول ورسالته.

فبدا الإنكار على وجهها الجليل، ودلّ التواء شفتيها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة:

ـ وبماذا أجبته يا بنيّ؟..

ـ لم أبلغه جوابي بعد..

ـ وهل انتهيت إلى رأي؟..

ـ نعم.. أن أنبذ مطالبه جميعًا..

ـ إنّ من يطلب هٰذه المطالب لا يسكت على رفضها!

ـ ومن يقدر على رفضها جميعًا لا يخشى عواقب رفضه..

ـ فإذا شهر عليك حربًا؟

ـ شننت عليه حربًا بحرب..

ورنّت الحرب في أذنيها رنينًا عجيبًا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة، وذكرت أيّامًا مثل هٰذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بثّه وهمّه ويتمنّى لو كان يملك جيشًا قويًّا يدفع به طمع عدوّه، أمّا ابنها فيتكلّم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة، فقد تغيّر الزمن وتجدّد الأمل، واختلست من وجه الملكة نظرة

فوجدته شاحبًا، فأدركت أنّها تكابد حيرة وأنّ أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة. . وهي نفسها ملكة وأمّ ولٰكنّها لا تستطيع أن تقول إلّا ما ينبغي لمعلّمة القوم وأمّهم المقدّسة أن تقوله. وقد سألته:

ـ وهل تقدر على الحرب يا مولاي؟

فقال بثبات:

ـ نعم يا أمّاه. . لديّ جيش باسل.

ـ هل يستطيع هٰذا الجيش أن يخلّص مصر من الأغلال؟

ـ يستطيع على الأقلّ أن يصدّ عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة. .

ثمّ هزّ منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ:

ـ أمّاه طالما دارينا أولٰئك الرعاة عامًا بعد عام فلم تفلح المداراة في إسكات جشعهم، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع، وقد حمّ القضاء وأرى أنّ الشجاعة أَوْلى بنا من المطاولة والمداراة. سأخطو هٰذه الخطوة وأنظر ما بعدها.

فابتسمت توتيشيري وقالت بفخار:

ـ فليبارك آمون هٰذه النفس الأبيّة العالية.

ـ فماذا تقولين يا أمّاه؟

ـ أقول يا بنيّ: سِرْ في طريقك يرعاك الربّ وتباركك دعواتي، هٰذه غايتنا وهٰذا ما ينبغي للفتى الذي اختاره آمون ليحقّق آمال طيبة الخالدة.

وابتهج سيكننرع وتألّق بالنور وجهه، وهوى على رأس توتيشيري يقبّل جبينها، وقبّلت خدّه الأيسر، وقبّلت خدّ أحوتبي الأيمن وباركتهما معًا، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين. .

ـ ٥ ـ

وأعلن الرسول خيان أنّ سيكننرع سيستقبله غداة غد، وفي الموعد المحدّد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجّابه، وهناك وجد في انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدي الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه، وجلس على العرش وأذن لهم في الجلوس، ثمّ صاح حاجب الباب معلنًا وصول الرسول خيان، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشي مشية الخيلاء، وكان يسائل نفسه: ترى ماذا وراء الشورى؟. أسلام أم حرب؟. . ثمّ بلغ العرش فانحنى تحيّة للجالس عليه، وردّ عليه الملك التحيّة وأذن له في الجلوس وهو يقول:

ـ عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة.

ـ كانت ليلة سعيدة، شكرًا لضيافتك الكريمة.

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه، فانقبض صدره واحتدم الغيظ في قلبه، وكبر عليه أن يتحدّاه كذٰلك حاكم الجنوب، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنّه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب، فأراد أن يقول رأيه صريحًا حازمًا قاسيًا فقال:

ـ أيّها الرسول خيان: لقد درست المطالب التي تحملها إلينا بعناية، وشاورت فيها رجال مملكتي، فاتّفق رأينا جميعًا على رفضها.

ولم يكن خيان يتوقّع هٰذا الرفض الصريح الحاسم، فأُخذ واستولى عليه الذهول، ونظر إلى سيكننرع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجُمان، واستدرك الملك قائلاً:

ـ لقد وجدت هٰذه المطالب تمسّ عقيدتنا وشرفنا، ونحن لا نسمح لأيّ إنسان أن يمسّ العقيدة والشرف منّا.

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنّه لم يسمع ما قال الملك:

ـ إذا سألني مولاي: لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدًا لست، فماذا أقول له؟

ـ قل له إنّ أهل الجنوب يعبدون آمون وحده. .

ـ وإذا سألني، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التي تقضّ مضجعي. . ؟

ـ قل له إنّ أهل الجنوب يقدّسونها.

ـ يا عجبًا.. أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر؟..

فأطرق سيكننرع مليًا كأنّه يفكّر في الجواب، ثمّ قال بلهجة حازمة:

ـ إنّ أبوفيس مقدّس لديكم، وهٰذه الأفراس مقدّسة لدينا.

وسرت موجة ارتياح في نفوس رجال الملك لهٰذا الجواب العنيف، أمّا خيان فقد اشتدّ به الغضب ولٰكنّه لم يستسلم لسلطانه، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء:

ـ أيّها الحاكم الجليل، كان أبوك حاكمًا على الجنوب ولم يكن يلبس هٰذا التاج، فهل ترى لنفسك حقًّا غير ما كان يرى أبوك لنفسه؟

ـ لقد ورثت عنه الجنوب وهٰذا تاجه منذ القدم، ومن حقّي أن أتوّج به رأسي.

ـ ولٰكن في منف رجل آخر يتوّج رأسه بتاج مصر المزدوج، ويسمّي نفسه فرعون مصر، فماذا ترى فيما يدّعيه لنفسه؟...

ـ أرى أنّه اغتصب وأسلافه المملكة...

ونفد صبر خيان فقال بحنق واحتقار:

ـ أيّها الحاكم، لا تظنّ أنّ لبسك التاج يرفعك إلى مصاف الملوك، فالملك من بعد ومن قبل قوّة وسلطان، ولست أرى في أقوالك إلّا استهانة بالوشائج الطيّبة التي ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا، ونزوعًا إلى التحدّي لا تؤمن عواقبه.

فتبدّى الغضب على وجوه الحاشية، ولٰكنّ الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلًا:

ـ أيّها الرسول نحن لا نعجّل بالشرّ، ولٰكن إذا تحرّش بشرفنا متحرّش؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة، ومن فضائلنا ألّا نغالي في تقدير قوّتنا فلا تنتظر أن تسمع منّي مباهاة وفخرًا. ولٰكن اعلم أنّ آبائي وأجدادي حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هٰذه المملكة. ولن أفرّط أنا فيما عاهدوا الربّ والناس على المحافظة عليه...

فعلت شفتي خيان الحادّتين ابتسامة ساخرة تخفي حقدًا مُرًّا. وقال بلهجة ذات مغزًى:

ـ كما تشاء أيّها الحاكم وما عليّ إلّا البلاغ، وستحمل تبعة أقوالك.

فحنى الملك رأسه ولم يتكلّم. ثمّ قام واقفًا مؤذنًا بانتهاء المجلس، فوقف الجميع إجلالًا حتّى غيّبه الباب عن أنظارهم..

ـ ٦ ـ

وكان الملك يقدّر خطر الحال، فأراد أن يزور معبد آمون، ليدعو الربّ المعبود ويعلن الكفاح في الفناء المقدّس، وأعلن إرادته لوزيره ورجاله، فقصدت جموعهم من وزراء وقوّاد وحجّاب وكبار موظّفين إلى معبد آمون لتكون في استقبال الملك. وتنبّهت طيبة الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشمّ، وتهامس كثيرون بأنّ رسول الشمال جاء متعاليًا وآب غاضبًا. وذاع بين الطيبيّين أنّ سيكننرع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأي ويسأله المعونة، فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد، وانضمّ إليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد، وتدافعوا إلى السبل المؤدّية إليه، وكان يبدو على وجوههم الجدّ والاهتمام والتطلّع، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث كلّ يفسّر الأمر على ما يرى، وجاء الركب الفرعونيّ تتقدّمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكيّ، فسرت في نفوس القوم موجة من الحماس والفرح، ولوّحوا لمليكهم بأيديهم وهلّلوا له وكبّروا، فابتسم سيكننرع إليهم ولوّح لهم بصولجانه، ولم يغب عن أحد أنّ الملك يرتدي لباس الحرب ذا الدرع اللامعة، فاشتدّ تشوّق الناس إلى سماع الأخبار، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساءً ورجالًا، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقوّاد بالسجود، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلًا: «أدام الربّ حياة الملك وحفظ مملكة طيبة»، وردّد القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده، فحيّاه الملك برفع يده إلى رأسه وابتسامة من فمه العريض، ثمّ تقدّم الجمع بأسره إلى بهو المذبح، وقدّم الجنود ثورًا ذبيحًا

للربّ، ثمّ طافوا جميعًا بالمذبح وبهو الأعمدة، وهناك وقفوا صفّين، وأعطى الملك صولجانه لوليّ عهده الأمير كاموس وسار إلى السلّم المقدّس فارتقاه إلى قدس الأقداس، واجتاز العتبة المقدّسة بخطًى خاشعة، وأغلق وراءه الباب فكأنّما أدركه الغسق، وحنى رأسه وخلع تاجه إجلالًا للمكان المطهّر، وتقدّم نحو المحراب الثاوي فيه الربّ المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة، ثمّ سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنّه النجوى:

ـ أيّها الربّ المعبود، ربّ طيبة المجيدة، وربّ أرباب النيل، هبني من لدنك رحمة وقوّة، فإنّي اليوم أتعرّض لتبعة خطيرة إن لم تشدّد فيها أزري عييت دونها. هي الدفاع عن طيبة وقتال عدوّك وعدوّنا الذي سقط علينا من صحراء الشمال في جموع همجيّة خرّبت ديارنا وأذلّت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا، هبني معونتك أصدّ جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهّر الوادي من قوّتهم الغاشمة فلا يحكمه إلّا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه إلّا اسمك.

وسكت الملك، وانتظر برهة، ثمّ استغرق مرّة أخرى في صلاة طويلة حارّة مسندًا جبينه إلى قدمي التمثال، ثمّ رفع رأسه في وجل حتّى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنّه ستار الغد يخبّئ وراءه أحداث القضاء.

★ ★ ★

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصّد بالعرق فسجدوا له جميعًا، وتقدّم منه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه بيمناه وقال بصوت جهوريّ:

ـ يا رجال طيبة المجيدة، لعلّ عدوّنا في هٰذه الساعة التي أحدّثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا، فهلمّوا جميعًا إلى الكفاح، وليكن شعار كلّ واحد منكم أن يبذل قصارى جهده في عمله، كي يقوى جيشنا على الثبات والقتال، ولقد صلّيت للربّ وسألته العون، وليس الربّ بناسٍ وطنه وأبناءه. .

فصاح الجميع بصوت اهتزّت له جدران المعبد: «أيّدَ الربّ مليكنا سيكننرع . .» وهمّ الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال:

ـ هل لمولاي أن ينتظر قليلًا لأقدّم إليه هديّة مقدّسة . . ؟

فقال الملك مبتسمًا:

ـ كما تشاء يا صاحب القداسة . .

وأشار الكاهن إلى كاهنين إشارة خاصّة؛ فمضيا إلى حجرة المخلّفات، وعادا يحملان صندوقًا صغيرًا من الذهب تطلّعت إليه الأبصار جميعًا، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق في أناة ورفق، فرأت الأعين بداخله تاجًا فرعونيًّا، تاج مصر المزدوج، فاتّسعت الأعين دهشة وتبودلت النظرات، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدّج:

ـ مولاي هٰذا تاج الملك تيهايوس. . .

فتصايح قوم قائلين: «تاج الملك تيهايوس. . .» فقال نوفر آمون بحماس وقوّة:

ـ نعم يا مولاي، هٰذا تاج تيهايوس آخر فرعون حكم مصر المتّحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا. وقد شاءت حكمة الربّ أن تحلّ نقمته ببلادنا في عهده، فسقط هٰذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى في الدفاع أشدّ البلاء، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه، لذٰلك رفعه أسلافنا إلى هٰذا المعبد ليأخذ مكانة بين المخلّفات المقدّسة، ولقد مات صاحبه بطلًا شهيدًا فهو جدير برأسك الكبير: وإنّي أتوّجك به أيّها الملك سيكننرع، يا ابن توتيشيري الأمّ المقدّسة، وأنادي بك ملكًا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة، وأدعوك باسم الربّ آمون وذكرى تيهايوس وأهل الجنوب أن تنفر إلى قتال عدوّك وتحرير وادي النيل الطاهر المحبوب. .

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلّمه إلى أحد رجال الكهنوت، ثمّ رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعه

على رأسه المجعّد، ثمّ صاح هاتفًا: «ليحيى سيكننرع فرعون مصر». فردّد القوم هتافه، وهرع كاهن إلى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكننرع، فردّد الطيبيّون الهتاف في حماسة مستعرة. ثمّ هتف بقتال الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد، وقد أيقنوا بما كانوا منه في شكّ...

وحيّا فرعون الكهنة، ثمّ اتّجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبيّة...

ـ ٧ ـ

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجّاب القصر وقائدَي الجيش والأسطول وقال لهم:

ـ إنّ سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعًا، وستعرّض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب، فينبغي ألّا نضيّع ساعة من وقتنا.

والتفت إلى قائد الأسطول كاف وقال:

ـ أرجو أن تجد مهمّتك يسيرة على سطح الماء، فالرعاة تلاميذنا في القتال في السفن، هيّئ سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال...

فأدّى القائد كاف التحيّة لمولاه وفارق المكان على عجل. وتحوّل الملك إلى القائد بيبي وقال:

ـ أيّها القائد بيبي، إنّ قوّة جيشنا الأساسيّة معسكِرة في طيبة، فيرْ بها إلى الشمال، وسألحق بك على رأس قوّة من حرسي الأشدّاء، وإنّي أدعو الربّ أن يثبت جنودي أنّهم جديرون بالمهمّة الملقاة على عاتقهم، ولا تنس أيّها القائد أن تبعث برسول إلى بانوبوليس على حدودنا الشماليّة لينبّه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتّى لا تؤخذ على غرّة.

فأدّى القائد التحيّة لمولاه ومضى. وجعل الملك يقلّب وجهه في وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجّاب ثمّ قال لهم:

ـ سيلقى على كواهلكم أيّها السادة واجب الدفاع عن مؤخّرة جيشنا، فليقم كلّ منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والإخلاص.

فقالوا في صوت واحد:

ـ كلّنا فداء للملك ولطيبة.

فقال سيكننرع:

ـ يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان يحثّون قومي على الجهاد، وأنت يا أوسر آمون ادعُ حكّام الأقاليم وأوصهم أن يجنّدوا الأشدّاء والقادرين من شعبي، أمّا أنت يا حور فإنّي أعهد إليك بآل بيتي ولتكن لابني كاموس كما كنت لي.

وحيّا الملك رجاله وغادر المكان قاصدًا إلى جناحه الخاصّ ليودّع أسرته قبل الرحيل، وأرسل في طلبهم جميعًا فجاءت الملكة أحوتبي والملكة توتيشيري والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحمس وابنتها الصغيرة الأميرة نفرتاري، فاستقبلهم استقبالًا وديًّا وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدفّق من بين أضلعه، ومضى يقلّب عينيه في أحبّ الوجوه إلى قلبه وكأنّه يرى وجهًا واحدًا يتكرّر لا يفرّق بينها سوى العمر، فتوتيشيري في الستّين، وأحوتبي مثل زوجها في الأربعين، أمّا كاموس وستكيموس ففي الخامسة والعشرين، وأمّا أحمس فلم يجاوز العاشرة، وأخته نيفرتاري دون ذلك بعامين، ولكن ما من وجه فيهم إلّا وتتألّق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذي يميل إلى البروز أعلاه، وتلك السمرة الخمريّة التي تضفي عليه صحّة وحسنًا، وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال:

ـ تعالوا نجلس معًا ساعة قبيل الرحيل...

فقالت توتيشيري:

ـ إنّي أدعو الربّ يا بنيّ أن يكون ذهابًا إلى النصر المبين.

فقال سيكننرع:

ـ إنّي كبير الأمل في النصر يا أمّاه...

ورأى الملك وليّ العهد في لباس الحرب فأدرك أنّه يظنّ نفسه خارجًا معه فسأله متجاهلًا:

ـ لماذا ترتدي هذا اللباس؟..

فبدت الدهشة على وجه الشابّ كأنّه لم يكن يتوقّع هذا السؤال، وقال باستغراب:

ـ للسبب الذي من أجله ترتديه أنت يا مولاي.
ـ هل جاءك أمري بذلك؟
ـ ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاي.
ـ أخطأت يا كاموس.
فبدا الفزع على وجه الشابّ وقال:
ـ هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاي؟
ـ إنّ ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى، وستبقى على عرشي يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمدّ جيشنا بالرجال والمئونة.
فامتقع وجه الشابّ، وحنى رأسه كأنّما أثقله أمر الملك، وأرادت توتيشيري أن تخفّف عنه فقالت برقّة:
ـ كاموس... إنّ القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهيّن الذي يخزي إنسانًا وهو عمل جدير بمثلك.
وهنا وضع الملك يده على منكب وليّ عهده وقال:
ـ اصغ إليّ يا كاموس إنّنا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الربّ، ونحرّر بلادنا المحبوبة ممّا تقيّد به من الأغلال، على أنّه من الحكمة أن نقدّر جميع العواقب، وقد قال حكيمنا قاقمنا: «لا تضع كلّ أسهمك في جعبة واحدة».
وسكت الملك عن الكلام، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتّى استأنف الملك قائلًا:
ـ فإذا شاءت حكمة الربّ أن يبوء جهادنا بخذلان فما ينبغي أن ينقطع جهادنا قطّ... أصغوا إليّ جميعًا، إذا سقط سيكننرع فلا تيئسوا فسيخلف كاموس أباه، وإذا سقط كاموس خلفه أحمس الصغير، وإذا فني جيشنا هذا فمصر ملأى بالرجال، وإن تسقط بطليبس فلتحارب كبتوس، وإن تُقتحم طيبة فلتثب أمبوس وسيين وبيجة، أو يقع الجنوب في أيدي الرعاة فهنالك النوبة لنا فيها رجال أشدّاء مخلصون، وستتولّى توتيشيري الأبناء بما تولّت به الآباء والأجداد، فلا أحذّركم إلّا من عدوّ واحد هو اليأس..
وكان لكلام الملك وقع شديد في نفوس الجميع حتّى أحمس الصغير ونيفرتاري وجما وعلاهما الارتباك، وعجبا كيف يحدّثهما جدّهما بهذه اللهجة الجدّيّة أوّل مرّة، واغرورقت عينا الملكة أحوتبي بالدموع، فتكدّر سيكننرع وقال بلهجة لم تخلُ من عتاب:
ـ أتبكين يا أحوتبي.. انظري إلى شجاعة أمّنا توتيشيري.
ثمّ نظر إلى أحمس وكان يكلف به كلفًا عظيمًا، وكان الغلام صورة صادقة من جدّه، فجذبه إليه وسأله مبتسمًا:
ـ من العدوّ الذي يجب أن نحذره يا أحمس؟.
فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول:
ـ اليأس...
فتضاحك الملك وقبّله مرّة أخرى. ثمّ قام واقفًا وقال برقّة:
ـ هلمّوا نتعانق..
ثمّ عانقهم جميعًا مبتدئًا بتوتيشيري وزوجه أحوتبي وستكيموس زوج ابنه ثمّ أحمس ونيفرتاري: ثمّ انعطف نحو كاموس، وكان واقفًا في جمود واستسلام، فمدّ له يده فشدّ عليها بقوّة، ثمّ انحنى عليها فقبّلها وقال بصوت خافت:
ـ فلتصحبك السلامة يا أبتاه..
ولوّح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتتين وقد تجلّى على وجهه العزم والبأس...

★ ★ ★

وخرج الملك في رأس قوّة من حرسه والتقى في ميدان القصر بجموع شعب طيبة المتحمّس، فخال أهل طيبة جميعًا رجالًا ونساء وأطفالًا قد انتقلوا إلى ميدان القصر يحيّون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيًا تحرير الوادي، وشقّ سيكننرع طريقه بين موجهم المتلاطم قاصدًا باب طيبة الشماليّ، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجّاب والأعيان وكبار الموظّفين في توديعه، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلًا، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له:
ـ سأستقبلك يا مولاي بعد حين ورأسك مكلّل بالغار.. اللّهمّ استجب.
واجتاز الملك باب طيبة العظيم في طريقه إلى الشمال تاركًا وراءه أسوار المدينة العظيمة، وكان عظيم التأثر لما رأى ولما سمع، وقد شعر بخطر العمل الكبير

المقبل عليه، وكيف أنّه ينطوي على إسعاد شعبه أو إشقائه إلى أمد طويل، لقد وضع مصير القوم في قبضة يده وواجه المخاطر المروّعة التي وقف منها أبوه موقف المتمهّل المتريّث، ولم يكن سيكننرع من الحكّام المترفين ولكن كان خلقه ينطوي على الصلابة والبسالة والتقشّف والتديّن، وكان عظيم الأمل قويّ الثقة بقومه. وقد لحق جيشه بالمعسكر في بلدة سنهور شمال طيبة قبل المساء واستقبله القائد ببيي على رأس قوّاد الفرق، وكان مضعضع الحواسّ لما أصابه من إرهاق ووصب، ولم تغب حالته عن عيني الملك فقال له:

ـ أراك متعبًا أيّها القائد.

فسرّ القائد بملاحظة مولاه وقال:

ـ استطعنا يا مولاي أن نجمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة، فكوّنت جيشًا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل.

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت في نفوسهم موجة فرح وحماس، وتردّد الهتاف له في المعسكر شمال بلدة شنهور، ثمّ كرّ راجعًا إلى الخيمة الملكيّة وفي صحبته القائد ببيي، وكان الملك مطمئنًّا إلى جيشه الذي بذل أجمل عهود شبابه في تدريبه فقال:

ـ جيشنا باسل. . فكيف ترى شعور القوّاد؟

ـ كلّهم متفائلون يا مولاي ومتحمّسون للحرب، وما من واحد منهم إلّا يبدي عظيم إعجابه بفرقة القسيّ ذات الشهرة التاريخيّة.

فقال الملك:

ـ إنّي أشارككم هٰذا الاعجاب، والآن أصغ إليّ، لا يجوز أن نضيّع من الوقت إلّا ما تستلزمه ضرورة إراحة هٰذا العدد من الجنود، فإنّه ينبغي أن نلقى عدوّنا ـ إذا هاجمنا حقًّا ـ في الوادي المنحدر ما بين بانوبوليس وبطلوس، فهو وادٍ شديد الوعورة ضيّق المسالك، والميزة الحربيّة فيه لمن يسيطر على عاليه، ومجرى النيل فيه ضيّق فيمكن أن نساعد أسطولنا في أثناء اشتباكه مع العدوّ. .

ـ سنشرع في المسير يا مولاي قبيل الفجر.

فأومأ برأسه دلالة على الموافقة وقال:

ـ ينبغي أن نَبلغ بانوبوليس ونعسكر في واديها قبل أن يعود خيان إلى منف. . .

ثمّ دعا الملك قوّاده إلى الاجتماع به.

ـ ٨ ـ

وتحرّك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوّة الكشّافة، وتتقدّمه فرقة العجلات المكوّنة من مائتي عجلة على رأسها فرعون، وتتبعها فرقة الرماح، ثمّ فرقة القسيّ والنبال، ثمّ فرقة الأسلحة الصغيرة، وعربات المؤن والسلاح والخيام. وأبحر الأسطول في الوقت نفسه إلى الشمال، وكان الظلام شديدًا لا يخفّف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء المشاعل، فبلغوا مدينة قسي فهبّت جميعًا لاستقبال فرعون وجيشه، وهرع الفلّاحون من أقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة، وساروا مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهيّة، ولم يتركوه حتّى أوغل في المسير، وبهتت ظلمة الليل وانسكب في الأفق الشرقيّ نور الفجر الأزرق الهادئ يتقدّم بشائر النور، ثمّ أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجدّ في السير حتّى بلغ كتوت قبيل العصر، فاستراح فيها وقتًا بين المستقبلينَ من أهلها المتحمّسين. ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش في تنتيرا فأصدر أمره باستئناف المسير، وجدّ الجيش حتّى بلغ تنتيرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق. .

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب في الأرض حتّى حلول الظلام يومًا بعد يوم حتّى عسكر في أبيدوس، وكانت الكشّافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقوامًا تضرب في الأرض، فعدا على رأس ثلّة من رجاله نحو القادمين، وكان كلّما هبط الوادي تبيّن له الأمر فرأى خطوطًا متعرّجة من الفلّاحين يسيرون جماعات يحملون ما خفّ من متاعهم، ومنهم من يسوق غنمًا أو ثيرانًا يدلّ منظرهم على البؤس والتشرّد، فعجب الرجل واعترض سبيل

المتقدّمين منهم وهمّ بسؤالهم، ولٰكنّ رجلًا منهم صاح به:

- الغوث أيّها الجنديّ... أدركونا فقد هلكنا..

فصاح الضابط منزعجًا:

- تطلبون الغوث؟.. ماذا يفزعكم؟

فأجاب كثيرون منهم في نفس واحد:

- الرعاة... الرعاة...

وقال الرجل الأوّل:

- نحن أهالي بانوبوليس وبطلمايس، جاءنا جنديّ من جنود الحدود وقال لنا: إنّ جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوّات عظيمة لن تلبث أن تتدفّق إلى بلدتنا ونصحنا بالهجرة إلى الشمال، فساد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعًا إلى ديارنا ننادي النساء والأطفال ونحمل ما يخفّ حمله، ثمّ تركنا البلاد وراءنا فارّين، فما ذقنا الراحة منذ صباح الأمس..

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم الضابط:

- استريحوا قليلًا ثمّ جدّوا في السير، فعمّا قليل ينقلب هٰذا الوادي الساكن ميدانًا للقتال.

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد في أبيدوس، وأبلغه الخبر، وقام بيبي من فوره إلى الملك وقصّ عليه الخبر، فتلقّاه بدهشة وانزعاج وصاح:

- كيف وقع هٰذا.. هل بلغ خيان منف في هٰذا الزمن اليسير؟...

فقال بيبي بحنق:

- لا شكّ يا مولاي في أنّ عدوّنا حشد جيشه على حدودنا قبل أن يبعث إلينا برسوله، فهو كان يتربّص بنا، وما عرض علينا مطالبه إلّا وهو يرجو أن ترفضها، فلمّا اجتاز خيان حدودنا عائدًا أصدر أمره للجيوش المحتشدة بالهجوم، هٰذا هو التفسير المعقول لذٰلك الهجوم السريع العنيف..

فاصفرّ وجه الملك سيكننرع غضبًا وحنقًا وقال:

- إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس.

- نعم وأسفاه يا مولاي، ولا يجدي في الدفاع عنها بسالة حاميتنا قليلة العدد.

فهزّ الملك رأسه أسفًا وقال:

- خسرنا أوفق ميدان قتال لنا.

- لن يؤثّر هٰذا في شجاعة جنودنا الفائقة..

وفكّر الملك مليًّا ثمّ قال لقائد جيوشه:

- ينبغي أن نخلي أبيدوس وتنشيرا إخلاء تامًّا.

فبدا التساؤل على وجه بيبي فقال الملك:

- لن ندافع عن هٰذه المدن.

فأدرك بيبي ما يعنيه مولاه.

- أيريد مولاي أن يلقى العدوّ في وادي كبتوس؟

- هٰذا ما أريده، فهنالك تمكن مهاجمة العدوّ من عدّة جهات. وتوجد في أنحاء الوادي حصون طبيعيّة، وسأترك له في المدن التي نخليها عصابات تكرّ عليه دون أن تشتبك معه في قتال فتعطّل تقدّمه حتّى نقوّي مراكزنا، هيّا يا بيبي ابعث برسلك إلى المدن ليخلوها، ومُر القوّاد بالتقهقر في الحال: ولا تضع وقتًا فإنّ حبل الأرجوحة التي يترجّح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه في يد أبوفيس.

- ٩ -

وصاح المنادي في أهالي أبيدوس وبرفا وتنشيرا أن احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب، فقد أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة، وكان القوم يعرفون مَن الرعاة وما أعمالهم، فتولّاهم الخوف وبادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكدّسون بها العربات تجرّها الثيران، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجّل، ولـمّوا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنّما تقطّع أوصالهم من الحزن والأسف، وكان كلّما تقدّم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة إلى الوراء تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم، ثمّ تفزعهم المخاوف فيجدّون سراعًا إلى المجاهل التي تنتظرهم، ومرّوا في طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم في صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة أمل، وافترّت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمعت في جوّ

أحزانهم كما تضيء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة في يوم أدكن السماء، ولوّحوا بأيديهم وصاح الكثيرون: «أراضينا وديعة مسلوبة... ردّوها إلينا أيّها البواسل...».

كان فرعون في تلك الأثناء يشرف على توزيع قوّاته في وادي كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيّارهم المتدفّق، وكان يشاركهم آلامهم كأنّه واحد منهم، ويضاعف في ألمه ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له.

وكان القائد بيبي على اتّصال دائم برجال الكشّافة فيتلقّى الأخبار منهم ثمّ يرفعها إلى مولاه، فبلغه هجوم العدوّ على أبيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت على آخر رجل منهم. وغداة اليوم التالي حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال به الرجال المدافعون عنها من فنون الدفاع والمشاكسة لكي يعطّلوا زحف العدوّ ما وسعتهم الحيلة، أمّا تنثيرا فقد ثبّتت حاميتها العدوّ الزاحف ساعات طوالًا حتّى اضطرّ أن يهاجمها بقوّات كثيرة كأنّما يهاجم جيشًا كامل العدد والعدّة، ثمّ قرّر الكشّافة وبعض الضبّاط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوّة أنّ قوّات العدوّ يترجّح عددها بين خمسين ألفًا وسبعين، أمّا فرقة العجلات فلا تقلّ عن ألف عجلة، وقد تلقّى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع؛ لأنّه لم يكن هو - ولا أحد من جيشه - يتوقّع أن يملك جيش أبوفيس هٰذا العدد الضخم من العجلات، وقال لقائده:

- كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هٰذا العدد الهائل من العجلات؟..

وكان بيبي في حيرة من أمره، وكان يلقي على نفسه هٰذا السؤال فقال لمولاه:

- ستنهض فرقة القسيّ بواجبها يا مولاي.

فهزّ الملك رأسه دهشة وقال:

- لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها؟..

- والمؤلم يا مولاي أن تكون الأيدي التي صنعتها مصريّة..

- حقًّا إنّه لمؤلم.. ولٰكن هل تنفع القسيّ في مقاومة سيل من العجلات؟

إنّ جنودنا يا مولاي لا يخطئون أهدافهم، وسيرى أبوفيس غدًا أنّ الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته..

وفي ذٰلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض، وصلّى للربّ صلاة حارّة طويلة ضارعًا إليه أن يشرح صدره، ويثبّت قلبه، ويكتب له ولجيشه النصر.

وأحسّ الجميع دنوّ العدوّ؛ فضاعفوا من يقظتهم، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم في معركة الموت.

- ١٠ -

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير، وأخذ الرجال الأشدّاء من حملة القسيّ أماكنهم الحصينة في الميدان يؤيّد كلّ جماعة منهم قوّة صغيرة من العجلات، ووقف سيكننرع أمام خيمته مع قائده بيبي وسط هالة من رجال حرسه الأشدّاء، وكان يقول لهم: «ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوّات لا قِبل لها بها. ولٰكنّ هٰذه العجلات المبعثرة ستعاون رماتنا المحصّنين على إصابة فرسان العدوّ وجياده، وليس من شكّ في أنّ أبوفيس سيبدأ هجومه بالعجلات، لأنّ فرق الجيش الأخرى لا تلتقي حتّى يفصل في معركة العجلات، فليكن همّنا موجّهًا إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز، حتّى نمكّن لفرق جيشنا التي لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدوّنا».

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدوّ حلمه الذي يهيم به، وكان يدعو ربّه آمون في صدق ورجاء قائلًا: أيّها الربّ المعبود، اقضِ لنا بالغلبة على هٰذه العقبة.. وانصر أبناءك المؤمنين، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك في مثواك المكرّم، وتغلق أبواب معبدك المطهّر..».

وركب الملك عجلته، وفعل القائد بيبي مثله،

وأحاط بها الحرس الفرعونيّ، ووقف خلفهما مائة عجلة حربيّة، ثمّ تقدّمت فرقة الرماح ورصّت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوّات الرماة والعجلات التي تؤيّدها بواجبها الأوّل.

وحين أخذت تبدو بشائر النور، جاء رجل من الكشّافة وأبلغ الملك أنّ الأسطول المصريّ اشتبك مع أسطول الرعاة في معركة حامية شمال كبتوس، فقال الملك لقائد جيشه:

ـ إنّ أبوفيس يدرك ولا شكّ أنّه سيلقى مقاومة عنيفة، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكّن من إنزال جنود وراء مواقعنا.

فقال القائد بيبي:

ـ إنّ الرعاة يا مولاي لا يتقنون فنّ القتال على سطوح السفن، وسيبتلع النيل المقدّس جثث جنودهم، ويبتلع أمل أبوفيس في حصارنا.

كانت ثقة سيكننرع في رجال أسطول طيبة عظيمة، ولٰكنّه أوصى قائد الكشّافة أن يكون على اتّصال دائم بميدان المعركة البحريّة وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر. والميدان يتجلّى للأعين الفاحصة؛ فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسيّ في أيديهم، والعجلات المعدودة تتحفّز إلى جانبهم للقتال، ورأى في الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر. وكان العدوّ ينتظر سفور الصبح، فما عتمت أن تحرّكت قوّات العجلات استعدادًا للمعركة، ثمّ انقضّت قوّات منها على بعض الأماكن المحصّنة الأماميّة فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون، وتدافعت قوّات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريّين وبعض العجلات المصريّة في قتال عنيف، فصاح سيكننرع:

ـ الآن تبدأ معركة طيبة.

فقال بيبي بصوت قويّ النبرات:

ـ نعم يا مولاي، وقد بدأ جنودنا بدءًا حسنًا.

وصُوّبت الأبصار جميعًا إلى الميدان تشاهد سير المعركة، فرأوا عجلات الرعاة تهاجم صفًّا ثمّ تتفرّق جماعات شتّى، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة، وتنقضّ على ما يعترض لها من العجلات المصريّة، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعًا في استبسال وشجاعة، وبدت قوّة الرماة وشدّة بأسهم، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكًا ذريعًا، حتّى صاح بيبي قائلًا:

ـ لو دام القتال على هٰذا النحو، فستتفوّق على فرقة العجلات في أيّام قلائل.

على أنّ قوّات الرعاة كانت تهجم وتقاتل، ثمّ ترتدّ إلى معسكرها وتنقضّ غيرها كي لا تنهك قواها، على حين كان المصريّون يدافعون دون سكون أو راحة وهم ثابتون في مراكزهم، وكان سيكننرع كلّما رأى فارسًا من فرسانه يسقط أو عجلة من عجلاته تتعطّل، يصيح غاضبًا: واأسفاه، ويدرك أتمّ إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة، وأخذ عدد الوحدات التي يهجم بها الرعاة يتضاعف، كانوا يهجمون ثلاثًا ثلاثًا، ثمّ هجموا ستًّا ستًّا، ثمّ عشرًا عشرًا. واشتدّ القتال وحمي وطيسه، واطّرد عدد عجلات الهكسوس في الزيادة، حتّى ساور سيكننرع القلق، وقال لبيبي:

ـ لا بدّ من مواجهة زيادة قوّات العدوّ بما يعيد إلى الميدان اتّزانه.

ـ ولٰكن يا مولاي ينبغي الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطيّة حتّى آخر الموقعة.

ـ ألا ترى أنّ العدوّ يكرّ علينا كلّ فترة يسيرة بقوّات جديدة متحفّزة للقتال؟..

ـ إنّي أدرك الخطّة يا مولاي، ولٰكنّنا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطيّة وقلّة عجلاتنا..

فصرّ الملك بأسنانه وقال:

ـ لم نكن نتوقّع قطّ أن تكون له هٰذه الغلبة في العجلات، ومهما يكن فلا يمكنني أن أترك الرماة بلا نجدة، فليس في جيشي رماة سواهم..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة في خمس وحدات، فانقضّت كالنسور الكواسر، وبعثت في الميدان حياة جديدة، ولٰكنّ أبوفيس راد أن يردّ على حملة سيكننرع الجديدة ردًّا قاسيًا، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كلّ وحدة خمس عجلات، فزلزلت

الأرض بصلصلتها، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر.. وتقدّم الوقت وهي لا تهدأ أو تخفّ وطأتها حتّى توسّطت الشمس كبد السماء. وجاء بعد ذاك رجال الكشّافة وآذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد في الأسر سفينتين، وغرقت له سفينة أخرى، فجاء نبأ النصر في وقته ليشدّ من عزيمة المصريّين ويثبّت قلوبهم، وأذاعه الضبّاط في الفرق المقاتلة والتي تنتظر أن يجيء دورها في الكفاح، فكان له صدى فرح في الصدور، وفورة حماس في القلوب، ولكن صكّ ذاك الخبر آذان أبوفيس كذلك فاستولى عليه الغضب، وغيّر خطّته البطيئة في الحال، وأصدر أمره إلى قوّة العجلات بالهجوم والانتقام.. ورأى سيكننرع سيلًا عرمرمًا من العجلات ينقضّ على رماته البواسل من كلّ مكان، وينشب فيهم أظافره الحادّة. وارتاع الملك أيّما ارتياع، وصاح قائلًا بغضب شديد:

ـ إنّ قوّاتنا التي نهكها النضال الدائم، لا يمكن أن تثبت وحدها لهٰذا السيل من العجلات..

ثمّ التفت إلى قائد جيشه، وقال بعزم وإصرار:

ـ سنخوض معركة فاصلة بالقوّات التي بين أيدينا، فمُرْ ضبّاطنا البواسل بالهجوم بفرقهم، وبلّغهم رجائي أن يقوم كلّ بواجبه جنديًّا من جنود طيبة الخالدة.

وكان سيكننرع يدرك الهول الذي ينتظره وجيشه، ولٰكنّه كان رجلًا باسلًا عظيم الإيمان، فلم يتردّد لحظة ونظر إلى السماء وقال بصوت صافي النبرات: «أيّها الربّ آمون لا تنس أبناءك المخلصين». ثمّ أصدر أمره إلى قوّة العجلات المحيطة به بالهجوم، واندفع أمامها ليلقى عدوّه..

وبدأت معركة من أشدّ المعارك هولًا، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ، وتساقطت الرءوس. وجرت الدماء ولٰكن لم تُجْدِ بسالة المصريّين شيئًا في مقاومة العجلات السريعة المدرّعة، ففتكت بهم فتكًا ذريعًا، وحصدتهم حصدًا كالهشيم، وقاتل سيكننرع قتالًا مجيدًا غير يائس ولا متخاذل، وبدا ساعة كأنّه ربّ الموت يختار له من يشاء من عدوّه.

واستمرّت المعركة حتّى الأصيل وهناك بدت الغلبة في صفّ الرعاة، فتحفّزوا ليضربوا الضربة القاضية، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوّة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل اللحية ناصع البياض، على عجلة سيكننرع، وشقّت إليه الصفوف ببسالة خارقة. وأدرك الملك غرض الفارس الجسور، فهرع نحوه حتّى تواجها، ثمّ تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما، فتلقّى كلّ منهما الضربة الموجّهة إليه بترسه وتحفّز للقتال. ورأى سيكننرع غريمه يسلّ سيفه، فعلم أنّه لم يقنع بتجربة حظّه، فسلّ سيفه واندفع نحوه، وفي تلك اللحظة الرهيبة استقرّ سهم في ساعده، فارتعشت يده وسقط منها السيف.. وصاح كثير من حرس الملك: «حذار يا مولاي.. حذار» ولٰكنّ الغريم كان أسرع إليه من الحذر، فوجّه إلى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوّته، فأصابت هدفها، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم، وتوقّف مقهورًا عن المقاومة. فقبض عدوّه بيمناه على رمح ورشقه بقوّة، فاستقرّ في جانب الملك الأيسر، وترنّح على أثره ذاهلًا وسقط على الأرض.. وتعالى الصياح من كلّ جانب، فقال المصريّون: «ربّاه. لقد سقط الملك.. دافعوا عن مليككم..» وصاح قائد العدوّ وهو يبتسم ابتسامة الظافر: «أجهزوا على المتمرّد العاصي، ولا تبقوا على أحد من رجاله». فاشتدّ القتال حول جسد الملك الملقى، وانقضّ عليه فارس حقود. ورفع بلطة حادّة، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج، وتفجّر منه الدم كالينبوع، وثنّى بضربة أخرى فوق العين اليمنى، فحطّمت العظام وتناثر المخّ في حالة بشعة، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدمويّة ما يشفون به غلّهم، فتكالبوا على الجثّة ووجّهوا إليها طعنات مجنونة قاسية، أصابت العينين والفم والأنف والخدّين والصدر، فمزّقت الجثّة وأغرقتها في بحر من الدماء..

وكان بيبي يقاتل على رأس من بقي من جنوده، مدافعًا قوّات العدوّ المتدفّقة على البقعة التي سقط فيها مولاه. واستيأس القوم في القتال، وهانت عليهم

الحياة، وعزموا جميعًا على الاستشهاد في المكان الذي ارتوى بدماء مليكهم الباسل، فما زالوا يسقطون رجلًا إثر رجل حتّى أدركهم المساء، ولبس الكون الحداد، فكفّ الفريقان عن القتال، وقد نهكهم التعب وأثختنهم الجراح..

- ١١ -

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، وكان القائد بيبي واقفًا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كلّ منال، يتّجه قلبه إلى الجثّة التي خضّبت دماؤها الزكيّة الميدان، فسمع صوت قائد يقول:

- يا للعجب.. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هٰذه السرعة.. من يصدّق أنّنا فقدنا جلّ قوّاتنا في نهار واحد.. كيف أمكن التغلّب على جنود طيبة الأشدّاء...؟!

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالحشرجة:

- إنّها العجلات التي لا تقاوم.. لقد حطّمت آمال طيبة جميعًا..

فناداهم القائد بيبي قائلًا:

- أيّها الجنود... هل أدّيتم ما عليكم نحو جثّة سيكننرع؟... هلمّوا نبحث عنها بين الجثث..

فسرت قشعريرة في نفوسهم المتهالكة، وأخذ كلّ منهم مشعلًا وتبعوا بيبي صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق، وتفرّقوا في البقعة التي سقط فيها الملك، تصكّ آذانهم أنّات الجرحى وهذيان المحمومين، وكان بيبي لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم، ولا يكاد يصدّق أنّه يبحث حقًّا عن جثّة سيكننرع، ويكبر عليه أن يسلّم بأنّ موقعة طيبة قد انتهت هٰذه النهاية الأسيفة، وكان يقول والدموع تطفر من عينيه: «اشهدي يا أرض كبتوس واعجبي.. إنّنا نبحث عن جثّة سيكننرع بين كثبانك.. ألا رفقًا بها، ولتكوني فراشًا وثيرًا لأضلعها المصابة، ألم تسقط فداءً لك ولأرض طيبة!.. واها يا سيّدي.. مَن لطيبة بعدك؟.. من لنا غيرك؟..» وظلّ في حيرته قليلًا ثمّ سمع صوتًا يصيح قائلًا: «أيّها الرفاق تعالوا.. هاكم جثّة مولانا». فجرى صوبه والمشعل في يده. فزعت عيناه من الهول الذي ستراه، ولـمّا بلغ مكان الجثّة فرّت من فمه صرخة مدوّية، امتزج فيها الألم بالغضب. رأى ملك طيبة كتلة مشوّهة من لحم ممزّق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه، فصاح غاضبًا: «يا للغربان الدنيّة.. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثّة الأسد الهصور، ولن يضيرك أن يمزّقوا جسدك الطاهر، فقد حييت كما ينبغي للملك من ملوك طيبة أن يحيا، ومتّ ميتة البطل الباسل..» وصاح فيمن حوله ممّن أذهلهم الحزن: «أحضروا الهودج الملكيّ. هيّا يا نيام» وأتى بعض الضبّاط بالهودج، واشتركوا جميعًا في رفع الجثّة ووضعوها عليه، ورفع بيبي تاج مصر المزدوج ووضعه إلى جانب رأس الملك، ثمّ سجّى الجثّة، وحملوا الهودج في صمت أليم، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح، ووضعوه في الخيمة التي فقدت حاميها وسيّدها إلى الأبد... وكان جميع القوّاد والضبّاط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكّسي الأذقان، ترهقهم كآبة، ويغشى أبصارهم حزن عميق. فالتفت إليهم بيبي بصوت قويّ النبرات:

- أفيقوا أيّها الرفاق ولا تستسلموا للحزن، فليس الحزن بمعيد سيكننرع إلينا، ولعلّه ينسينا واجبنا نحو جثّته ونحو أسرته ونحو وطننا الذي قُتل من أجله، لقد وقعت الواقعة، ولٰكنّ المأساة لم تتمّ فصولها، فينبغي أن نثبت في مراكزنا حتّى نؤدّي واجبنا كاملًا.

فرفع الرجال رءوسهم، وأصرّوا بأسنانهم صرير العزم والقوّة، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأنّما يعاهدونه بها على الموت، فقال بيبي:

- إنّ الشجاع الحقّ من لا تنسيه الكوارث واجبه، وقد يكون من الحقّ أن نقرّ بأنّنا خسرنا موقعة طيبة، ولٰكنّ واجبنا لم ينته بعد، وعلينا أن نثبت أنّنا أهل للميتة الشريفة، كما كنّا للحياة الشريفة.

فصاحوا جميعًا قائلين:

- لقد ضرب لنا مليكنا المثل الأعلى، وسوف نتبع أثره.

فتهلّل وجه بيبي وقال بسرور:

- حييتم من جنود بواسل، والآن أصغوا إليّ؛ لم يبقَ من جيشنا إلّا أقلّه، ولٰكنّنا سنخوض المعركة غدًا على رءوسهم حتّى آخر رجل، وسيكون من جرّاء قتالنا أن نعوق تقدّم أبسوفيس حتّى تتهيّأ فرص النجاة لأسرة سيكننرع، فما دام أفراد هٰذه الأسرة على قيد الحياة، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهي، وإن سكنت في الميادين إلى حين. سأفارقكم بعض يوم لأؤدّي واجبي نحو هٰذه الجثّة ونحو ذرّيّتها الباسلة، ثمّ أعود إليكم قبل مطلع الفجر، لنموت معًا في ميدان القتال.

طلب منهم أن يصلّوا جميعًا أمام جثّة سيكننرع، فجثوا وجثا واستغرقوا في صلاة حارّة، وختم بيبي صلاته قائلًا:

- أيّها الربّ الرحيم، تغمّد مليكنا الباسل برحمتك في جوار أوزوريس، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته. كي نلقاه في العالم الغربيّ بوجوه لا يخزيها لقاؤه.

ثمّ نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج إلى السفينة الفرعونيّة، والتفت نحو رفاقه وقال:

- أستودعكم الربّ وإلى اللقاء القريب.

سار خلف الهودج حتّى وضعوه في المقصورة، ثمّ قال لهم:

- حين تبلغ بكم السفينة طيبة، سيروا به إلى معبد آمون، وضعوه في البهو المقدّس، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتّى أوافيكم.

وعاد القائد إلى عجلته، وأمر السائق بالمسير إلى طيبة، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهبًا..

★ ★ ★

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم، تحت ستار الظلام الذي يغشى معابدها ومسلّاتها وقصورها، في غفلة عمّا يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام، فاتّخذ سبيله رأسًا إلى القصر الفرعونيّ، وأعلن الحرس حضوره، فجاء رئيس الحجّاب على عجل، وردّ تحيّته، وسأله بقلق:

- ماذا وراءك أيّها القائد؟

فقال بيبي بلهجة دلّت على الجزع:

- ستعلم كلّ شيء في حينه أيّها الحاجب الأكبر، والآن استأذن لي في المثول بين يدي وليّ العهد...

فغادر الحاجب الحجرة غير مرتاح البال، ثمّ عاد بعد زمن قصير وهو يقول: «إنّ صاحب السموّ ينتظرك في جناحه الخاصّ». فمضى القائد إلى جناح وليّ العهد وأدخل عليه في بهو الاستقبال. وسجد بين يديه، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقّعة الأمير. فلمّا رفع بيبي رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب، وعينيه الذابلتين، وشفتيه الممتقعتين، ساوره القلق، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلًا:

- ماذا وراءك أيّها القائد بيبي؟... فلا بدّ من أمر جلل دعاك إلى مفارقة الميدان في هٰذا الوقت؟..

فقال القائد بصوت دلّت لهجته على الحزن والكآبة:

- مولاي، ما تزال الآلهة - لأمر تخفى عليّ حكمته - غاضبة على مصر وأهلها...!

فوقع هٰذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق، وأدرك ما يدلّ عليه من الأخبار المحزنة فتساءل في قلق وجزع:

- هل أصيب جيشنا بكارثة؟... هل يطلب والدي مددًا؟.

فأطرق بيبي وقال بصوت خافت:

- وأسفاه يا مولاي، لقد فقدت مصر راعيها مساء هٰذا اليوم الكئيب.

ففزع الأمير كاموس قائمًا، وصاح به:

- هل أصيب والدي حقًّا؟.

فقال بيبي بصوته الثقيل الحزين:

- سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة. وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجلّ أسرتكم العظيمة.

فقال كاموس وهو يرفع رأسه:

- ربّاه... كيف تمكّن لعدوّك من ابنك المخلص... ربّاه ما هٰذه الكارثة التي تنزل بمصر. ولٰكن ما جدوى التشكّي؟ ليس هٰذا وقت البكاء. لقد سقط والدي فينبغي أن أحلّ محلّه... صبرًا أيّها

القائد بيبي حتّى أعود إليك في لباسي الحربيّ.

ولكنّ القائد بيبي قال بسرعة:

- لم أجئ إلى هنا يا مولاي لأدعوك إلى القتال، لقد قضي الأمر وأسفاه..

فحدجه بنظرة حادّة قاسية، وسأله:

- ماذا تعني؟.

- لا فائدة ترجى من القتال...

- هل قضي على جيشنا الباسل؟..

فأطرق بيبي وقال بحزن شديد:

- خسرنا المعركة الفاصلة التي كنّا نرجو أن نحرّر بها مصر، وتحطّمت قوّة جيشنا الأساسيّة، ولن ترجى فائدة حقّة من القتال، ولن نقاتل إلّا لكي نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتًا للنجاة..

- أتريد أن تقاتل حتّى نفرّ فرار الجبناء، تاركينَ جنودنا وبلادنا فريسة للعدوّ؟...

- بل فرار الحكماء الذين يقدّرون العواقب وينظرون إلى المستقبل البعيد، ويسلّمون بالهزيمة إذا وقعت، ثمّ ينسحبون من الميدان إلى حين، ثمّ لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوّهم عودًا على بدء... مولاي تفضّل وادعُ ملكات مصر، وليكن الأمر شورى...

ودعا الأمير كاموس حاجبًا، وأرسله في طلب الملكات، ومضى يتمشّى جيئةً وذهابًا يتناوبه الحزن والغضب، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة، وجاءت الملكات: توتيشيري وأحوتبي فستكيموس مسرعات، وحين وقعت أبصارهنّ على القائد بيبي وقد انحنى لهنّ تحيّة، ورأين الكدر مرتسمًا على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء، شعرن بخوف واضطراب، وزاغت أبصارهنّ، وكان كاموس جزعًا فدعاهنّ إلى الجلوس، وقال:

- سيّداتي.. دعوتكنّ لأقصّ عليكنّ أنباء أسيفة..

وتريّث لحظة كي لا يفاجئهنّ، ولكنّهنّ فزعن، وقالت توتيشيري بقلق:

- ماذا وراءك أيّها القائد بيبي؟.. كيف حال مولانا سيكننرع؟..

فقال كاموس بصوت متهدّج:

- جدّتاه... إنّ قلبك لذكيّ الشعور، صادق الحدس... فليثبّت الله قلوبكنّ، ويعنكنّ على تحمّل الخبر الفاجع... لقد قتل أبي سيكننرع في الميدان، وخسرنا المعركة...

وعطف رأسه عنهنّ حتّى لا يرى آلامهنّ، وقال وكأنّه يحادث نفسه المكلومة:

- قتل أبي وهزمت جيوشنا، وقضي على قومنا أن يعانوا الآلام جميعًا، من أدنى الجنوب إلى أقصى الشمال...

ولم تتمالك توتيشيري فزفرت زفرة حرّى كأنّما مجّت بها فتات كبدها، ووضعت يدها على قلبها وهي تقول:

- ما أشدّ جرح هٰذا القلب العجوز...

أمّا أحوتبي وستكيموس فقد ثقل رأساهما، ووكفت أعينهما دمعًا ساخنًا، ولولا وجود القائد بينهما لانتحبتا انتحابًا عاليًا.

ووقف بيبي وسط ذاك الحزن الشامل صامتًا، مجروح الصدر، مضعضع الحواسّ جميعًا، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدًى، وخشي أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال:

- يا ملكات أسرة مولاي كاموس، تجلّدن وتصبّرن، فإنّه وإن كان الخطب أكبر من العزاء، فإنّ الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن، أستحلفكنّ بذكرى مولاي الشهيد أن تكفكفن دموعكنّ، بالصبر، وتحزمن أمتعتكنّ، فليست طيبة بالمثوى الأمين غدًا...

فسألته توتيشيري قائلة:

- وجثّة سيكننرع؟

- فلتطمئنّ نفسك يا مولاتي، سأؤدّي واجبي نحوها كاملًا...

فسألته مرّة أخرى:

- وإلى أين تريد أن نذهب؟

- مولاتي، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى حين، ولكن لنا وطن آخر أمين في بلاد النوبة، ولن

يطمع الرعاة في النوبة لأنّ الحياة فيها جهاد يشقّ على نفوسهم المترفة، فلتكن لكم مهجرًا آمنًا، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا، وهنالك يعاودكم التفكير في هدوء، فترعون أمل المستقبل الجديد، وتتعهّدونه بالصبر والبسالة، حتّى يأذن الربّ فيشقّ سنا النور البهيج ظلمات هٰذا الليل الدامس...

وكان كاموس يصغي إليه في هدوء وسكينة، فقال له:

ـ فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة، أمّا أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشي أقاسمه حظّه في الحياة أو الموت.

فساور القلق القائد، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسّل، وقال:

ـ مولاي، لن أستطيع أن أثنيك عن إرادة تريدها، فلأكِل الأمر إلى حكمتك، ولا أسألك إلّا أن تصغي إليّ قليلًا...

مولاي، إنّ القتال اليوم عبث ضائع، ومعناه الهلاك المبين، ومصر لن تنتفع بموتك، ولا موتك بمخفّف عنها بعض آلامها، ولٰكنّها بغير شكّ تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوّض... إنّ كلّ أمل في النجاة منوط بحياتك، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة... فاجعلوا «نباتا» هدفكم، وشدّوا إليها الرجال، وهناك يتّسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح. لن تنتهي هٰذه الحرب كما يتمنّى أبوفيس. فلا يتسنّى لشعب كشعبنا عاش سيّدًا كريمًا، أن يطرق على الذلّ طويلًا. ولسوف تحرّر طيبة يا مولاي في تاريخ قريب: ولن تقف بك الحماسة عند حدّ، فتطارد الرعاة القذرين حتّى تطردهم من وطنك.. إنّ سنا ذاك اليوم الأغرّ يتخايل لعينيّ في ظلمات الحاضر الكئيب، فلا تتردّد واعزم عزمة الحكمة. والآن وقد بيّنت لك نهج الحقّ، فاقضِ بما أنت قاضٍ..

وكفّ بيبي عن الكلام، وما كفّت عيناه عن التوسّل والرجاء، وتحوّلت توتيشيري إلى كاموس، وقالت بصوت خافت:

ـ لقد نطق القائد بالحقّ فاتبع قوله.

فأحسّ القائد البائس بندى الأمل، وانتعش فؤاده بالفرح، ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة، فقال بيبي وكان يكذب أوّل مرّة في حياته:

ـ أمّا أنا يا مولاي فسألحق بكم بعد حين.. فأمامي واجبان مقدّسان: أن أعنى بجثّة مولاي، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة، لعلّها بالمقاومة الناجحة تساوم على التسليم بأحسن الشروط.

ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء، وغلب التأثّر بيبي فقال:

ـ ينبغي أن نواجه محنتنا بشجاعة، وليكن لنا في سيكننرع أسوة حسنة، ولنتذكّر دائمًا يا مولاي أنّ العجلات الحربيّة هي سبب هزيمتنا، فإذا كررت يومًا على العدوّ، فلتكن العجلات عتادك. والآن سأذهب لأدعو العبيد إلى حمل الثمين الغالي مِن ذَهب القصر وسلاحه، ممّا لا غنًى عنه..

نطق القائد بيبي بهٰذه الكلمات، ثمّ ذهب..

ـ ١٢ ـ

وانبعثت في القصر حركة نشاط شاملة، وأضيئت حجراته جميعًا، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضّة، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونيّة في سكون محزن، تحت رقابة رئيس الحجّاب، وكانت الأسرة الفرعونيّة في أثناء ذٰلك تنتظر في حجرة الملك كاموس، تشملها الكآبة والصمت، ينكّس أفرادها النبلاء رءوسهم، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن، ولبثوا على حالهم ما لبثوا، حتّى دخل عليهم الحاجب حور، وقال بصوت خافت:

ـ انتهى كلّ شيء يا مولاي.

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق، فخفقت قلوبهم، ورفعوا وجوههم ذاهلين، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد. أحقًّا انتهى كلّ شيء.. وهل أزفّت ساعة الوداع؟.. أهٰذا آخر العهد بالقصر الفرعونيّ، وطيبة المجيدة، ومصر الخالدة؟.. وهل يحرّم عليهم غدًا أن يروا مسلّة أمنمحعت، ومعبد آمون، والسور ذا الأبواب المائة؟.. أتضيق بهم

طيبة اليوم، وتفتح أبوابها غدًا لأبوفيس يعتلي عرشها ويتحكّم في الرقاب؟!. كيف يغدو الهداة ضالّين، والسادة فارّين، وأصحاب الدار مهاجرين؟.

ورآهم كاموس لا يتحرّكون، فقام في تثاقل وتمتم قائلًا بصوت خافت: «هلمّوا نودّع حجرة أبي». فقاموا قومته، وسارت الأسرة في خطًى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيّبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن، ولا كيف يلقونها مهجورة. وتقدّم حور خطوة وفتح الباب، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المتردّدة وزفراتهم الحارّة، وعلقت أبصارهم في رفق وحنان بالديوان العظيم، والمقاعد الوثيرة، والمناضد الأنيقة، وهامت أرواحهم حول مصلّى الملك، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيًا أمام الربّ آمون، فخالوه جميعًا جالسًا على ديوانه، متّكئًا على وسادته، يبتسم إليهم ابتسامته الحلوة، ويدعوهم إلى الجلوس، وأحسّوا جميعًا روحه تغمرهم وتطوف بهم، فحلّقت أرواحهم الحزينة في سماء الذكريات، ذكريات الأمومة والزوجيّة والبنوّة، اختلطت آثارها بتنهّدهم العميق ودمعهم المسيل..

ثمّ تنبّه كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال، ولثم جبينها، وتنحّى جانبًا، فتقدّمت توتيشيري ومالت على الصورة الحبيبة، وقبّلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الثاكل المحزون، وودّعت الأسرة جميعًا صورة ربّها المفقود، ثمّ مضوا إلى الخارج في صمت حزين كما دخلوا..

ورأى كاموس الحاجب حور في انتظارهم، فسأله قائلًا:

- وأنت يا حور؟..

- إنّ واجبي يا مولاي أن أتبعكم كالكلب الأمين..

فوضع الملك يده على كتفه شاكرًا، وتقدّموا جميعًا في الردهات ذات الأعمدة، يسير بين أيديهم القائد بيبي، ويمشي كاموس في طليعة أسرته، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونيفرتاري، فتوتيشيري، فالملكة أحوتبي، ثمّ الملكة ستكيموس، ويتبع الجميع الحاجب حور. وهبطوا الأدراج إلى ممرّ الأعمدة، وانتهوا إلى الحديقة، فسايرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل، فبلغوا السفينة، وانتقلوا إليها واحدًا إثر واحد حتّى شملتهم جميعًا. وحمّ الفراق، فألقوا نظرة الوداع، تاهت أعينهم في الظلام المخيّم على طيبة كأنّه يلفّها في ثوب حداد، فتقطّعت قلوبهم، وتصدّعت صدورهم وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنّهم ذابوا في الظلام ووقف بيبي بين أيديهم لا ينبس بكلمة، ولا يجرؤ على خرق هٰذا الصمت الحزين، حتّى تنبّه الملك لوجوده، فتنهّد وقال له:

- أزفت ساعة الوداع.

فقال بيبي بصوت متهدّج حزين، وهو يغالب عواطفه مغالبةً شديدةً:

- مولاي، وددت لو أدركني الموت قبل أن أقف موقفي هٰذا، فليكن عزائي أنّكم تسيرون في سبيل الربّ آمون وطيبة المجيدة، وأرى أنّ ساعة الوداع قد أزفت حقًّا كما تقول يا مولاي، فسيروا يحفظكم الربّ برحمته، ويكلأكم بعين رعايته، وإنّي أرجو أن يمتدّ بي العمر حتّى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم، كي يسعد قلبي برؤية طيبة العزيزة مرّة أخرى.. الوداع يا مولاي.. الوداع يا مولاي..

- بل قل إلى الملتقى..

- نعم إلى الملتقى يا مولاي..

واقترب من مولاه وقبّل يده، وكان ما يزال يغالب عواطفه كي لا يبلّ يدًا كريمة بدمعه. وقبّل يد توتيشيري، والملكة أحوتبي، والملكة ستكيموس، ووليّ العهد أحمس، وشقيقته الأميرة نيفرتاري، ثمّ شدّ على يد الحاجب حور بمودّة، وحنى رأسه للجميع، وغادر السفينة في سكون وذهول..

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحرّكها وقد ضربت المجاديف في الماء، وأخذت تبتعد عن الشاطئ على مهل وتؤدة كأنّها تحسّ وطأة حزن مَن عليها، وقد تجمّعوا على حائطها، تودّع أرواحهم الخافقة طيبة..

وأفلت منه زمام نفسه فبكى.. واستسلم للبكاء حتّى انتفض جسمه. وما زال يتبع السفينة العزيزة وهي تغوص في الظلمة حتّى ابتلعها الليل.. ثمّ تنهّد من أعماق صدره، ولبث على حاله لا يدري كيف يبرح الشاطئ، وقد أحسّ وحشة كأنّه هوى حيًّا إلى قبر عميق. ثمّ تحوّل عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطًى بطيئة متثاقلة، وكان يتمتم قائلًا: مولاي.. مولاي.. أين أنت؟ أين أنتم يا سادتي؟. يا أهل طيبة، كيف تهجعون والموت يحلّق فوق رقابكم؟. هبّوا.. لقد قتل سيكننرع وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام.. هبّوا.. لقد خلا القصر من سادته.. وودّع طيبة ملوكها.. وسيعتلي عرشكم غدًا عدوّ لكم. كيف تنامون؟. هبّوا.. إنّ الذلّ وراء الأسوار..

ثمّ أخذ القائد مشعلًا، وسار في ردهات القصر حزينًا واجمًا يتنقّل من جناح إلى جناح، فوجد نفسه أمام بهو العرش، واتّجه نحوه واجتاز عتبته وهو يقول: «معذرة يا مولاي عن دخولي دون إذن» وتقدّم بخطًى متخاذلة على ضوء مشعله بين صفَّي المقاعد التي كانت تعقد عليها الأمور وتبرم، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة، وجثا على ركبته، ثمّ سجد وقبّل الأرض بين يديه، ثمّ وقف أمامه حزينًا، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشًا، وقال بصوت جهير:

ـ حقًّا لقد انطوت صفحة جميلة خالدة، وسنكون نحن الموتى غدًا أسعد أهل هٰذا الوادي الذي لم يعرف الليل أبدًا، أيّها العرش.. يحزنني أنْ أبلغك أنّ صاحبك لن يعود إليك، وأنّ وريثك مضى إلى بلد بعيد، وأمّا أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحي الكلمات التي تشقي مصر غدًا، فلن يجلس عليك أبوفيس، ولتطو كما انطوى سيّدك..

وكان بيبي قد اعتزم أن يدعو جنودًا من حرس القصر، ليحملوا العرش إلى حيث يريد.

ـ ١٣ ـ

وحمل الجنود العرش كما أمروا، ووضعوه على عربة كبيرة. وتقدّمهم القائد إلى معبد آمون، وهناك حملوا العرش مرّة أخرى، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدّس. وفي المثوى المقدّس، قريبًا من قدس الأقداس، رأوا الهودج الفرعونيّ محاطًا بالجنود والكهنة، فوضعوا العرش إلى جانبه، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئًا. وأمر بيبي الجنود بالانصراف، وطلب حضور الكاهن الأكبر، وغاب الكاهن زمنًا يسيرًا، ثمّ عاد يتبع كاهن آمون الذي قدّر خطر الزيارة الليليّة فأتى مسرعًا ومدّ يده للقائد وهو يقول بصوته الهادئ:

ـ طاب مساؤك أيّها القائد.

فقال بيبي بلهجة دلّت على الاهتمام والجزع:

ـ وطابت لياليك يا صاحب القداسة.. هل تأذن لي بالانفراد بقداستك؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعًا على تطلّعهم وقلقهم حتّى خلا المكان. وتنبّه الكاهن الأكبر للهودج والعربة، فبدا الانزعاج على وجهه، وقال للقائد:

ـ ما الذي أتى بالعربة إلى هنا؟.. وما هٰذا الهودج؟.. وكيف تركت الميدان في هٰذه الساعة من الليل؟..

فقال بيبي:

ـ أصغ إليّ يا صاحب القداسة، فما من فائدة ترجى من التأنّي، أو من تهوين شأن ما نحن فيه، ولٰكن ينبغي الإصغاء إليّ حتّى النهاية لأفضي إلى قداستكم بما عندي، وأمضي إلى واجبي:

لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد، مصحوبة بالألم والفخار معًا، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر، وقتل مليكنا وهو يدافع عن وطنه، ومزّقت الأيدي الغادرة جثّته الطاهرة، واضطرّت أسرتنا الملكيّة إلى هجر طيبة، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرًا لملوكهم ولا لمجدهم..

مهلًا يا صاحب القداسة مهلًا.. لقد انتصف الليل أو كاد، وواجبي يهيب بي أن أعجّل. إنّ هٰذا الهودج يحمل جثّة مليكنا سيكننرع وتاجه، وإليك عرشه. هٰذا تراثنا القوميّ أعهد به إليك يا كاهن

آمون. لكي تحفظ الجثّة وتودعها مكانًا أمينًا، وتحفظ هٰذه المخلّفات في مستقرّ حريز. . . والآن أستودعك الربّ يا كاهن طيبة، التي لن تموت وإن أثخنتها الجراح.

وكان الكاهن قد همّ أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه، ولٰكنّ القائد لم يمكّنه، فصمت صمتًا ثقيلًا، وجمد جمودًا مطلقًا، فكأنّه فقد حواسّه جميعًا. وأدرك ببيي ما يعانيه الرجل من الذهول والألم، فقال:

ـ إنّي أستودعك الربّ يا صاحب القداسة، مطمئنًّا إلى أنّك ستقوم بواجبك كاملًا نحو المخلّفات العزيزة المقدّسة. .

وتحوّل القائد عنه إلى الهودج. وانحنى إجلالًا حتّى لثم غطاءه، وأدّى له التحيّة العسكريّة، ثمّ تقهقر إلى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه، حتّى بلغ السلّم المؤدّي إلى بهو الأعمدة، فأدار ظهره وسار مسرعًا لا يلوي على شيء إلى خارج المعبد، وشعر بأنّه قد آن له أن يلحق بضبّاطه وجنوده، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدهم.

على أنّ استغراقه في واجباته لم ينسه أمرًا ما تخايل لذاكرته حتّى أحسّ له غمزًا على قلبه لا يسكن، ذكر أسرته، أبانا زوجه وابنه الصغير أحمس، وأهله جميعًا الذين تضمّهم مزرعته في ضواحي طيبة. ما أطول السفر. . إنّه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته في الليل، ولو فعل ما استطاع أن يفي بعهده لجنوده ولظنّوه هاربًا. فسيلقى حتفه دون أن يلقي نظرة وداع على وجه أبانا وأحمس. . وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هٰذا، وكان يتساءل محزونًا: هل يترك الرعاة صاحب أرض في أرضه، أو صاحب مال لماله؟، سيشرّد السادة غدًا أو يقتلون في ديارهم، وستغدو أبانا وأحمس بلا نصير. . وضاق الرجل، ونازعه قلبه طويلًا إلى بيته وآله، ولٰكنّ قلبه كان في سبيل، وإرادته الحديديّة في سبيل سواه. . وتنهّد آسفًا وهو يقول: «فلأكتب لها كتابًا. .» وبسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيّدة أبانا يقرئها السلام ويستودعها الربّ، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة، ثمّ قصّ عليها ما وقع من أحداث، وما صار إليه الجيش ومليكه. وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول ـ ولم يذكر النوبة لحكمة يريدها ـ ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله، وتفرّ وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج طيبة، أو إلى الأحياء الفقيرة، حيث يختلطون بعامّة الشعب ويشاركونهم مصائرهم. ثمّ باركها وبارك ابنه، وختم كتابه بقوله: «سنلتقي حتمًا يا أبانا هنا أو في العالم السفليّ» وأعطى الكتاب سائقه، وكلّفه أن يذهب به إلى قصره الريفيّ ويسلّمه إلى زوجه، ثمّ قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة في الظلام، وهتف من صميم قلبه: «ربّاه. . احفظ بلدك. . الوداع يا طيبة. .».

ثمّ أرخى العنان لجواديه، فانطلقا به يعدوان في طريق الشمال.

ـ ١٤ ـ

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل، وكان الجيش الجريح نائمًا، فمضى إلى خيمته وارتمى على سريره في إعياء وهو يقول: «فلنستجمّ قليلًا لنموت ميتة تليق بقائد قوّات سيكننرع». وأغمض جفنيه. ولٰكنّ بعض أخيلة قامت غشاء كثيفًا بين رأسه وبين النوم، فتخايلت له أشباح الأهوال التي ابتلي بها في نهاره وليله، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبّة عليهم كالسيل، ومولاه سيكننرع يسقط صريعًا والرمح في جانبه، وكاموس يثور غاضبًا، ثمّ يسلّم محزونًا، وتوتيشيري تئنّ من جرح قلبها العجوز، ووداع أبانا وأحمس الصغير، وتلك السحب المتلبّدة التي تتجمّع في أفق الجنوب. . ثمّ اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج، ورقّت وتهافتت بغير شعور منه، فانساب النوم إلى جفونه.

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير، فقام يحسّ نشاطًا غريبًا لا يتّفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف، وبرح خيمته إلى الخارج، فسمع في سكون الفجر حركة تنتفض في أنحاء المعسكر، ورأى أشباح

رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضبّاطه البواسل المخلصين، فاستقبلهم استقبالًا حارًا، وكانوا قد قاموا في أثناء غيبته بعمل عظيم، فقال رجل منهم:

ـ أرسلنا الجرحى في قوارب إلى طيبة، وكذلك المصابين إصابات خفيفة، لكي ينضمّوا إلى قوّات الدفاع عن أسوار طيبة. وما من شكّ في أنّ طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتّى تنال أحسن الشروط.

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة:

ـ إنّنا ـ معشر أهل الجنوب ـ تهون علينا الحياة في أوقات المحن، فما من رجل منّا إلّا نفد صبره في انتظار المعركة الأخيرة.

وقال ثالث:

ـ ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا في هذه البقعة المقدّسة، التي ارتوت بدماء مليكنا الزكيّة. .

فأثنى بيبي عليهم جميل الثناء، وقصّ عليهم ما وقع في طيبة من هجرة الأسرة الفرعونيّة، ولكنّه لم يذكر لأحد المكان الذي قصدت إليه. وقد بلغ التأثّر بالضبّاط مبلغًا عظيمًا، وهتفوا لكاموس الملك، وأحمس وليّ عهده، والأمّ المقدّسة توتيشيري. .

وولّت ظلال الظلام، وانعكس الضياء الوضّاح على سماء الأفق، فانتظمت صفوف الجنود تأهّبًا لمعركة الموت، وكان ملك الرعاة يدرك ما حلّ بجيش المصريّين بعد مقتل مليكهم، فأراد أن يصعقهم بقوّات تشلّ فيهم كلّ مقاومة فتأهّب على رأس قوّاته من العجلات والرماة، ليقضي بضربة واحدة على الجيش الصغير الذي يعترض سبيله. . وحين تراءى الجَمْعان، بدأ القتال واتّصل البحر المتلاطم بالجدول الصافي، وأطبق جيش أبوفيس على الجيش المصريّ، ودارت عجلة الموت، وبذل المصريّون كلّ ما في طاقة البشريّة من بسالة وبطولة، لكنّهم تساقطوا سريعًا بطلًا في إثر بطل، وداستهم أرجل الخيل بقساوة، وبدا لعيني بيبي أنّ المعركة تنتهي سريعًا، ولا سيّما لما شاهده من مصارع كثير من القوّاد والضبّاط، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلًا، والعدوّ يوشك أن يحيط بهم، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام، وجال بنظره في جيش عدوّه، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبوفيس وكبار قوّاده ـ وبينهم قاتل سيكننرع بغير شكّ ـ فجعله هدفه، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره. ثمّ أمر سائقه بالاندفاع، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقّعها العدوّ الحذر نفسه، وتفادت عجلته ممّا تعرّض لها من عجلات، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة، ومضت تدنو من أبوفيس حتّى فطن الأكثرون إلى غرضها، فتصايحوا غضبًا وخوفًا، وقاتَلَ بيبي ومَن معه قتال من جنّ بحبّ الموت، فتدلّل عليهم الموت طويلًا حتّى شقّوا الصفوف إلى جبهة أبوفيس وقوّاده، وهنالك وجد بيبي نفسه محاطًا بفرسان العدوّ من كلّ جانب، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك، فقاتل قتالًا عنيفًا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه، حتّى ظنّ عدوّه أنّه شيء لا يموت، وتكالبت عليه السهام والرماح، والسيوف والخناجر، فسقط كما سقط سيكننرع لاحقًا بحرسه البواسل، وقد ضجّ الجيش من هجمته الهائلة. وكان القتال ـ في الميدان ـ في نهايته، والمصريّون يلفظون آخر أنفاسهم. فأمر أبوفيس بالابتعاد عن جثّة الرجل الذي انقضّ عليه خلال صفوفه المتراصّة! ونزل من عجلته وترجّل دانيًا منه، حتّى وقف على رأس الجثّة، وجعل يتأمّل السهام المنغرسة في كلّ قطعة منه كشعر القنفذ؛ ثمّ هزّ رأسه الكبير ضاحكًا؛ وقال لمن حوله:

ـ لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا. .

ـ ١٥ ـ

واستيقظت هيبة كعادتها لا تدري عمّا سطّر لها في لوح الأقدار شيئًا، وإذا بالقرويّين يحملون الجرحى آتين من الميدان، فتجمّع الناس حولهم، وتكاثروا بالأسئلة عليهم، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إنّ الجيش هُزم وفرعون قُتل، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانزعاج، وذاع الخبر في المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل، ففارق الناس ديارهم، وهرعوا إلى الطرق والأسواق، وتجمّعوا في دور الحكومة ومعبد

آمون ليأنسوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم. أمّا أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين. وفرّوا جماعات إلى الجنوب أو اختفوا في ثنايا الأحياء الفقيرة..

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسي وشنهور، وأنّ جيوش الرعاة تتقدّم نحو طيبة لضرب الحصار حولها، وإجبارها على التسليم. فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون في بهو الأعمدة بمعبد آمون، وتشاوروا في الأمر، وكانوا جميعًا يدركون خطر الحال ويحسّون دنوّ النهاية وعبث المقاومة. ولكنّهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعة، حتّى ينالوا وعدًا بحقن دماء الأهالي، إلّا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائر الغضب، فقال لهم:

ـ لا تسلّموا طيبة أبدًا، ولنقاوم حتّى نموت كمليكنا سيكننرع، إنّ أسوار طيبة لا تقتحم، وإذا هُدّدت حقًّا فلنخرّب المدينة ونشعل فيها النيران، ولا نترك لأبوفيس شيئاً منها ينتفع به.

وكان أوسر آمون يهدر غاضبًا، ويلوّح بيديه كأنّه يخطب، ولكنّ الرجال لم يتحمّسوا لفكرته، وقال نوفر آمون:

ـ نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة، وتدميرها يعرّض الآلاف منهم للتشرّد والجوع والبؤس، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفّف الآلام ونحصر الدمار..

وفي أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشماليّ بغير هوادة، والحرّاس يقاتلون عنه بثبات وبسالة، والقتلى تسقط من الجانبين. وتفقّد الوزراء الأسوار فاطمأنّوا إلى المقاومة، ولكنّ أسطول العدوّ هجم على الأسطول المصريّ بعد أن جاءه مدد جديد، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصريّ. وحاصر أسطول الرعاة غرب طبة، وأنزل جنودًا كثيرين في جنوبها، فضرب حصاره الكامل حول المدينة، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجومًا عنيفًا، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كلّ أمل في إطالة المقاومة، وهدّدت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ؛ فلم يرَ الزعماء بدًّا من التسليم تفاديًا من الكارثة العظمى، وأوفدوا ضابطًا يعلن وقف القتال، ويستأذن في قدوم رسول عن المدينة للتحدّث في شروط التسليم النهائيّة. وعاد الضابط بالموافقة، فوقف القتال في جميع الأسوار، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولًا.

وقبل الكاهن على غضاضة، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأس كسير الفؤاد، ومرّ في طريقه بالفرق المختلفة متراصّة الصفوف في قوّة وصلف وزهو، تخفق عليها الأعلام من كلّ لون. ثمّ وقفت العربة فترجّل في سكون، ووجد في استقباله بعض الضبّاط يتقدّمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية، عرفه من النظرة الأولى، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذي حلّ بحلوله الدمار بمملكة طيبة، ولم يغب عنه ما في استقباله من الشماتة المقصودة. وبدا الرجل صلفًا متعجرفًا مزهوًّا، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخّر عينه، وقال دون تحيّة:

ـ أرأيت أيّها الكاهن إلى أيّ مصير انتهى بكم رأي أميركم؟... إنّكم تتحمّسون كثيرًا وتحسنون الكلام، ولكن لا قِبل لكم بالقتال... ولقد قضي على مملكتكم بالزوال إلى الأبد...

ولم ينتظر الحاجب كلامًا فسار أمامه نحو خيمة الملك، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر، يقف أمامها الحرّاس البيض الغلاظ ذوو اللحى الطويلة.. ثمّ أذن له فدخل، ورأى في الصدر الملك أبوفيس في زيّ الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج، وكان مهيب الطلعة حادّ البصر أبيض مُشرَبًا بحمرة، مسترسل اللحية جميلها، وسط هالة من قوّاده وحجّابه ومستشاريه، فانحنى له الكاهن في إجلال، ووقف صامتًا ينتظر أمره، فقال الملك بلهجة ساخرة:

ـ أهلًا بكاهن آمون الذي لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر.

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة، فضحك الملك ضحكة عالية وسأله بتهكّم:

ـ أجئت تملي علينا شروطًا؟

فقال نوفر آمون:

ـ بل جئت أيّها الملك لأستمع إلى شروطك، كما ينبغي لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم، وليس لي سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما شهر سلاحه إلّا ذودًا عن كيانه..

فهزّ الملك رأسه الكبير وقال:

ـ يحسن بك أيّها الكاهن أن تصغي إليّ، إنّ قانون الهكسوس لا يتغيّر على مدى الأيّام والأجيال، وهو سنّة الحرب والقوّة إلى الأبد. نحن بيض وأنتم سمر، ونحن سادة وأنتم فلّاحون، فالعرش والحكومة والإمارة لنا، فقل لقومك: من يعمل في أرضنا عبدًا فله أجره، ومن تأبَ عليه نفسه فليولّ نفسه وجهة يرضاها في غير هٰذه الأرض، وقل لهم: إنّي أهدر دم بلد كامل إذا امتدّت يد بسوء إلى أحد من رجالي. وإذا أردت أن أحقن دماء الناس ـ فيما عدا أسرة سيكننرع ـ فليأت إليّ سادتكم بمفاتيح طيبة سُجَّدًا.. أمّا أنتم أيّها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه إلى الأبد...

ولم يرد أبوفيس أن تمتدّ المقابلة إلى أكثر من هٰذا، فقام واقفًا إيذانًا بانتهائها، فانحنى الكاهن مرّة أخرى وفارق المكان.

وشربت طيبة الكأس حتّى ثمالتها، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبوفيس وسجدوا له.. وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبوفيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة..

وفي ذٰلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة، وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة، ثمّ احتفل بالنصر احتفالًا عظيمًا اشتركت فيه الجيوش جميعًا، وقسّم الأرض والأموال بين رجاله. فصار الجنوب ملك يده أرضًا ورجالًا.

بعد عشرة أعوام

- ١ -

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة، فتبدّت صفحة النيل تتنفّس نسائم الغسق، تنحدر عليها قافلة من السفن تولي وجهها شطر حدود مصر شمالًا. كان بحّارتها نوبيّينَ، أمّا قائداها - اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدّمة - فكانا مصريّين كما يدلّ لون بشرتها الأسمر، وقسماتها الواضحة. وكان أوّلهما شابًّا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره، حبته الطبيعة طولًا فارعًا، وقدًّا نحيلًا دقيقًا، وصدرًا عريضًا متينًا، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق، وعيناه السوداوان بالصفاء والحسن، وأنفه المستقيم الأشمّ بالقوّة والتناسق، فهو من الوجوه التي أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معًا، يرتدي لباس التجّار الأثرياء، ويلفّ جسمه الرشيق في عباءة ثمينة، قدّت على صورة جسمه. وكان صاحبه شيخًا في الستّين، يميل إلى النحافة والقصر، بارز الجبهة في استواء وارتفاع، تدلّ جلسته على الهدوء الذي يلازم الشيخوخة غالبًا، وأمّا نظرة عينيه فتنفذ إلى الأعماق.. وكان يبدو أنّ همّه منصرف إلى العناية بالشابّ، أكثر ممّا هو منصرف إلى التجارة التي تحملها السفن، فلمّا دنت القافلة من منطقة الحدود، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدّمة السفينة، يتطلّعان بعينينِ مشوّقتينِ جرى فيهما الحنين، ثمّ سأل الشابّ بحماس وجزع:

- هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر؟. قل ماذا نحن فاعلون الآن؟..

فقال الشيخ:

- نرسي القافلة على هٰذا الشاطئ، ونبعث في قارب رسولًا إلى الحدود، يبتغي لنفسه سبيلًا يمهّده بقِطَع الذهب..

- إنّ اعتمادنا كلّه على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب. أمّا لو خاب ظنّنا..

وسكت الشابّ عن الكلام وقد لاح في عينيه القلق، فقال الشيخ:

- ما دام الظنّ سوءًا فإنّه لا يخيب مع هٰؤلاء القوم...

وعدلت السفينة إلى الشاطئ، فتبعتها القافلة وألقت مرساتها. واختار الشابّ أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود، وكان عظيم الحماسة قويّ التصميم، فلم يعترض الشيخ سبيله؛ وانتقل إلى قارب وجدّف بساعدَيْه المفتولتينِ مفارقًا القافلة نحو الحدود، وتبعه الشيخ بعينيه وهو يقول برجاء مؤثّر: «أيها الربّ المعبود آمون.. هٰذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل؛ أن يعزّ سلطانك، ويرفع ذكرك، ويحرّر أبناءك، فأيّده يا ربّ وانصره واحفظه..».

ومضى الشابّ يجدّف في قوّة، وظهره إلى هدفه، يستدير لينظر وراءه كلّ هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين، وأحسّ لهواء الوطن وهو يدنو من جوّه لذّة جديدة، خفق لها قلبه أيّما خفقان، ثمّ رأى في إحدى التفاتاته سفينة حربيّة صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله، فأيقن أنّ حرّاس الحدود تنبّهوا له، وجاءوا يتحقّقون من أمره. ودنا بقاربه من السفينة حتّى سمع صوت الضابط الواقف في مقدّمها يصيح به: «كيف تدنو يا هٰذا من المنطقة الحرام؟..».

فصمت الشابّ حتّى شارف القارب السفينة، ثمّ حيّا الضابط ذا اللحية تحيّة إجلال وتعظيم، وقال متباهًا:

ـ باركك الربّ ست أيّها الضابط الباسل، إنّي قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة.

فقطّب الضابط جبينه وقال بفظاظة:

ـ خسئت أيّها الأحمق، ألا تدري أنّ هٰذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام؟..

فأبدى الشابّ الجميل دهشة، وقال:

ـ وماذا يصنع إنسان مثلي جمع متاعًا ثمينًا ليتقرّب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته؟... هلّا أذنت لي بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النبيل؟.

فقال الضابط بوحشيّة:

ـ بل ستعود من حيث أتيت حيًّا، إن لم ترغب في أن تدفن حيث تثرثر...

فأخرج الشابّ من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب، ورمى بها تحت قدمي الضابط قائلًا:

ـ نحن في بلادنا نحيّي آلهتنا بتقديم الهدايا، فاقبل تحيّتي ورجائي.

فتناول الضابط الحافظة وفتحها، وعبثت أنامله بقطع الذهب، فاختلجت أجفانه، وردّد بصره بينها وبين الشابّ بذهول. ثمّ هزّ رأسه كأنّه لا يخفي حنقه على الفتى الذي ثناه عن رأيه قسرًا، وقال بصوت هادئ:

ـ إنّ دخول مصر ممنوع، ولٰكن قد تستحقّ رغبتك الشريفة استثناءك من أمر المنع، فاتبعني إلى حاكم الجزيرة.

وابتهج الشابّ، واتّخذ مجلسه مرّة أخرى في القارب، وشدّ على المجداف بقوّة ونشاط، وانحدر متتبّعًا السفينة صوب شاطئ بيجة: ورست السفينة ثمّ القارب، ووضع الشابّ قدميه على الأرض في حذر وإشفاق، كأنّما يدوس شيئًا طاهرًا مقدّسًا. وقال له الضابط مرّة أخرى: «اتبعني». فتبعه على الأثر. وبالرغم من تشدّده في التسلّط على أعصابه، أفلت زمامه وتمشّت في حواسّه نشوة، وعصر قلبه حنين سماويّ، فخفق قلبه خفقانًا شديدًا متواليًا، وجعل من شدّة اضطرام عواطفه يذهل سريعًا. إنّه في أرض مصر. مصر التي يحفظ لها أجمل الذكريات، وأفتن الصور وأبهج الآثار. إنّه يودّ لو يُترك وحيدًا فيملأ صدره من نسيمها العليل، ويمرغ خدّيه بثراها.. إنّه في أرض مصر.

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرّة «اتبعني». فنظر فرأى قصرًا جميلًا يقف أمامه رجال مسلّحون، فادرك أنّه أمام قصر حاكم الجزيرة. ودخل الضابط، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادّة التي تصوّب نحوه من كلّ جانب.

ـ ٢ ـ

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر في مظالمهم لغير الذهب، وألقى الشابّ نظرة على الحاكم وهو يمضي، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثّة، وعيناه اللوزيّتان الحادّتان، وأنفه البارز الأقنى كأنّه شراع قارب. وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة، ونظرة تدلّ على الحذر والريبة، فانحنى الشابّ بين يديه بإجلال عظيم، وقال بأدب بالغ:

ـ ندّى الربّ صباحك أيّها الحاكم الجليل.

وكان الضابط حدّثه عن القادم الغريب الذي يرمي في غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهّاج، ويسوق قافلة محمّلة بالهدايا ليتقرّب بها من سادة مصر، فردّ تحيّته بإشارة من يده، وسأله بصوت غليظ أجوف:

ـ مَن أنت ومن أيّ البلاد؟

ـ أدعى يا مولاي اسفينيس، من بلدة نباتا من بلاد النوبة.

فهزّ الرجل رأسه بارتياب، وقال:

ـ ولٰكنّي أرى أنّك لست نوبيًّا، وإن صدق نظري فانت فلّاح..

فخفق قلب اسفينيس لهٰذا الوصف الذي نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار، وقال:

ـ صدقت فراسة مولاي، فأنا حقًّا.. فلّاح. من أسرة مصريّة هاجرت إلى بلاد النوبة منذ أجيال، واشتغلت بالتجارة عهدًا طويلًا حتّى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة، فانقطع رزقها.

ـ وماذا تريد؟..

ـ لديّ قافلة محمّلة بخيرات البلاد التي قدمت منها، أرجو بها التقرّب والزلفى من سادة مصر..

فعبث الحاكم بلحيته، وحدجه بنظراته المرتابة، وقال:

ـ أتعني أنّك تجشّمت مشاقّ السفر، لمحض التقرّب والزلفى من سادة مصر..

ـ سيّدي الحاكم الجليل، نحن نعيش في بلاد ملأى بالوحوش والكنوز، الحياة فيها جدّ قاسية، والجوع والجدب ينشبان أظفارهما في الرقاب، نجيد صياغة الذهب، ونضنى في الحصول على قدح من الحبوب، فإذا تقبّل سادتي هداياي، وأذنوا لي بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان، وبدّلت بؤس قومي أنعمًا..

فضحك الحاكم ضحكة عالية، وقال:

ـ أرى الأحلام تطيح برأسك.. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرّع؟ ولٰكنّك ترجو أن يكلّل مسعاك بإصدار أوامر فرعونيّة لمصلحتك.. حسنًا.. الحمقى كثيرون.. ولٰكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هٰذا؟..

فحنى اسفينيس رأسه إجلالًا، وقال بإغرار التاجر الأريب:

ـ هلّا تفضّل مولاي بزورة قافلتي ليطّلع بنفسه على نفائسها، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها؟

وتحرّكت لواعج النهم والجشع في نفس الحاكم، فاستطاب الفكرة، فقال لاسفينيس وهو يهمّ بالقيام للذهاب معه:

ـ سأمنحك هٰذا الشرف.

وتقدّمه إلى السفينة الحربيّة، ثمّ إلى القافلة، وعرضت لناظريه الحليّ والجواهر والحيوان العجيب، فشاهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف.

وأهدى إليه اسفينيس صولجانًا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلّى بالزمرّد والياقوت فتقبّله بلا كلمة شكر، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطًا ثمينة، وأنشأ يقول لنفسه: لماذا لا أسمح لهٰذا التاجر بالدخول إلى مصر؟.. ليست هٰذه تجارة، ولٰكنّها هدايا تسبي العقول، وسيرحّب بها فرعون بغير جدال، فإن حقّق لصاحبها أمنيته نال ما تمنّى؛ أو رفض مطلبه فلا شأن لي به.. وأمامي فرصة سانحة ينبغي أن أنتهزها، إنّ خنزر حاكم الجنوب مغرم بكلّ نفيس، فلأبعث بالتاجر إليه فيذكر لي صنيعي على ما أهديت إليه من كنز، وما أتحتُ له من فرصة يزداد بها قربًا إلى مولاه.. فإذا أراد يومًا أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكمًا ذكرني بلا ريب:

وتحوّل نحو اسفينيس وقال:

ـ سأعطيك فرصة لتجرّب حظّك، فيرْ توًّا إلى طيبة، وهاك كتابًا إلى حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك، وتسأله الشفاعة في رجائك..

واستخفّ الفرح اسفينيس، فانحنى للحاكم شكرًا وارتياحًا.

ـ ٣ ـ

وكان أوّل كلمة نطق بها اسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته، أن قال للشيخ الذي يلازمه:

ـ منذ هٰذه الساعة لا أحمس هناك ولا حور، ولٰكن اسفينيس التاجر ووكيله لاتو..

فابتسم الشيخ وقال:

ـ نطقت بالحكمة أيّها التاجر اسفينيس..

ونشرت القافلة شراعها، وتحرّكت مجاديفها، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها في أمان وسلام. وكان اسفينيس ولاتو يقفان عند مقدّم السفينة يكابدان شوقًا واحدًا. تكاد عيناهما تشرقان بالدمع. قال اسفينيس:

ـ بدء حسن.

فقال لاتو:

ـ نعم فلنصلّ للربّ آمون شكرًا، ونسأله أن يسدّد خطانا ويكلّل مسعانا بالفوز المبين.

وجثوا على سطح السفينة وصلّيا معًا، ثمّ عادا إلى وقفتهما. وقال اسفينيس:

ـ إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق عهدها، فقد ظفرنا بنصف النجاح، فنعطيهم ذهبًا ونأخذ رجالًا..

ـ اطمئنّ فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب. ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام؟.. إنّ الرجل من الرعاة عظيم العنجهيّة والصلف شديد البأس؛ ولٰكنّه كسلان يستخدم غيره، ويتعالى على التجارة، ولا يحتمل الحياة في النوبة؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلّا بمن يتطوّع مثل التاجر اسفينيس بحمله إليه..

ومضيا معًا يلقيان ببصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد الغارق في مجرى النيل، يقلّبان الطرف في خضرة ناضرة تكتنف القرى والدساكر، تحلّق فوقها الأطيار، وترعاها الثيران والبقر نشاوى؛ والفلّاحون يعملون هنا وهنالك عراة لا يرفعون رؤوسهم عن الأرض، فأثار منظرهم في صدر الشابّ الحبّ والغضب، واستعر قلبه حنانًا وحنقًا، فقال:

ـ انظر إلى جنود أمنمحيت، كيف يعملون عبيدًا للبيض الحمقى المتعجرفين ذوي اللحى القذرة..

وتقدّم المسير بالقافلة، فمرّت بأمبوس وسلسليس ومجنا ونخب وترت، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة، وتساءل اسفينيس:

ـ أين ينبغي أن ترسو السفينة؟

فقال لاتو مبتسمًا:

ـ في الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيّادين، وجميعهم مصريّون خلّص.

فأمّن الشابّ على قوله، ولاحت منه نظرة إلى الأمام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلّق بصره بها وهي تدنو رويدًا رويدًا، حتّى استطاع أن يتنوّرها؛ فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألّق في جوانبها الفنّ الجميل، فخال أنّه رأى مثلها من قبل. ولكز لاتو في ذراعه متمتمًا:

ـ انظر.

فنظر الرجل وقال بسرعة:

ـ ربّاه! هٰذه سفينة فرعونيّة، (ثمّ استدرك) إنّها تسير بغير حرس، فلعلّ راكبها أحد رجال القصر، أو أمير يطلب الخلوة..

ودنت السفينة فكادت تلتقي بالقافلة: وأثار منظر القافلة الغريب تطلّع أصحابها، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجواري، تقدّمتهنّ في أناة كأنّها شعاع من النور الساطع يغشى العيون، شقراء يعبث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبيّة، فأيقنا أنّ صاحبتها أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم..

ورأياها تشير بأنملتها إلى سفينة متأخّرة وقد فغرت من الدهشة فاها، وارتسم العجب كذٰلك على وجوه الجواري الحسان. فالتفت اسفينيس إلى الوراء، فرأى قزمًا من الأقزام التي أتى بها يسير على ظهر السفينة، فأدرك سرّ دهشة الأميرة الجميلة. ونظر إلى لاتو مبتسمًا أن لاقت إحدى الهدايا ما تستحقّ من التقدير. ولٰكنّ لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب. ونادى النسوة نوتيًّا، فتقدّم من حافة السفينة، وصاح موجّهًا خطابه إلى لاتو بلهجة أمر لا يردّ:

ـ قف أيّها النوبيّ وألقِ مرساتك..

وأذعن اسفينيس للأمر، وأصدر أمره إلى القافلة بالتوقّف، ودنت السفينة الفرعونيّة من السفينة التي ظهر بسطحها القزم، وسأل النوتيّ اسفينيس:

ـ ما هٰذه القافلة؟..

ـ قافلة تجارة يا سيّدي.

فأشار بيده إلى القزم، وكان يفرّ إلى باطن السفينة، وقال:

ـ هل يؤذي هٰذا المخلوق؟

ـ كلّا يا سيّدي..

ـ إنّ صاحبة السموّ الفرعونيّ ترغب في مشاهدة هٰذا المخلوق عن كثب.

فهمس لاتو قائلًا:

ـ هٰذا لقب ابنة فرعون..

أمّا اسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال:

ـ حبًّا وكرامة..

وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى السفينة الأخرى، وصعد إلى سطحها ليكون في استقبال الأميرة، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهنّ من السفينة حتّى بلغنها، فصعدن إلى السطح تتقدّمهنّ الأميرة، فانحنى الشابّ بين يديها في إجلال ظاهر، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة، ويتظاهر بالارتباك والاضطراب، فقال بتلعثم:

ـ لقد أوليتِ قافلتي شرفًا رفيعًا يا صاحبة السموّ..

ثمّ رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة، رأى وجهًا تجسّمَ فيه الحسن والكبرياء، ففيه من دواعي الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة، ورأى عينين زرقاوين يتجلّى في صفائهما التعالي والإقدام. فلم تلقِ إلى تحيّته بالًا، ودارت بعينيها في المكان تبحث دون ريب عن القزم، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب في آذان سامعيه:

ـ أين ذهب المخلوق العجيب الذي كان هنا؟

فقال الشابّ:

ـ سيكون بين يديك..

وذهب إلى كوّة تطلّ على باطن السفينة، ونادى قائلًا:

ـ زولو.

وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوّة، وتبعه جسمه، ثمّ أقبل على صاحبه، فأخذه من يده إلى حيث تقف الأميرة وجواريها وكان يسير ملقيًا بصدره إلى الأمام في خيلاء مضحكة، وبرأسه الكبير إلى الوراء، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار؛ أمّا لونه فشديد السواد، وأمّا ساقاه فمقوّستان. قال له اسفينيس:

ـ حيِّ مولاتك يا زولو.

فانحنى القزم حتّى مسّ شعره المفلفل الأرض، فاطمأنّت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم:

ـ أحيوان هو أم إنسان؟

ـ هو إنسان يا صاحبة السموّ.

ـ ولماذا لا نعدّه حيوانًا؟

ـ له لغته ودينه.

ـ يا عجبًا، وهل يوجد مثله كثيرون؟

ـ نعم يا مولاتي، إنّه ينتمي إلى شعب وافر العدد، فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة يسدّدونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير؛ ولٰكنّ قوم زولو يأنسون إلى الناس سريعًا ويخلصون المودّة لمن يصادقهم، ويتبعونه كالكلب الأمين.

فهزّت رأسها المكلّل بخصلات الذهب عجبًا، وافترّ ثغرها عن درّ نضيد، وتساءلت:

ـ وأين يعيش قوم زولو؟

ـ في أقاصي غابات النوبة، حيث يرقد النيل المعبود..

ـ دعه يحدّثني إن استطعت.

ـ إنّه لا يستطيع أن يتكلّم لغتنا، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر، ولٰكنّه سيحيّي مولاته بلغته.

وقال اسفينيس للقزم:

ـ ادعُ لمولاتك دعاءً طيّبًا.

فاهتزّ رأس القزم الكبير كأنّه يرعش، ثمّ نطق بكلمات غريبة بصوت أدنى إلى الخوار، فلم تملك الأميرة إلّا أن تضحك ضحكة عذبة، ثمّ قالت:

ـ حقًّا إنّه غريب، ولٰكنّه قبيح لا يسرّني أن أقتنيه..

فبدا الأسف على وجه الشابّ، وقال بلباقة التاجر الماكر:

ـ ليس زولو يا صاحبة السموّ خير ما في قافلتي.. إليك دررًا تفتن النفوس وتسلب الألباب.

فتحوّلت في استهانة عن زولو إلى المتباهي بنفائسه، وألقت عليه نظرة فاحصة لأوّل مرّة، فهالها طوله الفارع ونضارة شبابه، وعجبت أن يكون هٰذا المظهر لتاجر من عامّة الشعب، وسألته:

ـ هل لديك حقًّا حليّ تستحقّ الإعجاب؟..

ـ نعم يا مولاتي..

ـ إذًا أرني عيّنة . . أمثلة ممّا عندك.

وصفّق اسفينيس، فجاءه عبد فألقى إليه كلمات بصوت خافت، فغاب الرجل هنيهة، ثمّ عاد يحمل صندوقًا من العاج بمعاونة رجل آخر، فوضعاه أمام الأميرة وفتحاه، وتنحّيا جانبًا. ونظرت الأميرة في داخل الصندوق، واشرأبّت أعناق الجواري، فرأت ما يسرّ القلب من لآلئ لامعة، وأقراط وأساور. وتفحّصتها بعين واعية، ثمّ مدّت يدها البضّة الرخصة إلى عقد آية في السذاجة والكمال، قلب من الزمرّد في سلسلة من خالص الذهب، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت:

ـ من أين لك بهذا الحجر النفيس؟ . . ليس في مصر نظيره؟

فقال الشابّ بابتهاج:

ـ إنّه درّة كنوز النوبة.

فتمتمت قائلة:

ـ النوبة . . بلاد زولو . . ما أجمله!

فابتسم اسفينيس وهو ينعم النظر إلى أناملها، وقال:

ـ أمّا وقد حاز إعجاب سموّك، فلا يجوز أن يردّ إلى صندوقه.

فقالت في سهولة:

ـ نعم . . ولكن ليس لديّ ثمنه . . هل أنت ذاهب إلى طيبة؟ . .

فقال:

ـ نعم يا مولاتي.

فقالت:

ـ ما عليك إلّا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه.

فانحنى الشابّ إجلالًا، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو، ثمّ تحوّلت ماضية بقوامها اللدن الرشيق، يتبعها الجواري. وتعلّقت بها عينا الشابّ حتّى غيّبها عنه حائط السفينة، ثمّ تنبّه إلى نفسه، فعاد إلى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع، وقد بادره:

ـ ما وراءك؟ . .

فأجمل له أقوال الأميرة، وتساءل ضاحكًا:

ـ ترى هل هي حقًّا ابنة أبوفيس؟

فقال لاتو بامتعاض:

ـ هي الشيطانة ابنة الشيطان.

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته، وأدرك أنّ التي أثارت إعجابه ابنة مذلّ شعبه وقاتل جدّه، وأنّه لم يشعر في محضرها بما هي أهل له من المقت والكراهية. وتضايق وخشي أن تكون لهجته وهو يروي قولها نمّت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين، وقال لنفسه: ينبغي أن أكون أهلًا للواجب الذي جئت هنا من أجله. ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق، وحاول أن يحقد على الأميرة، وأحسّ أنّها قوّة حقيقة بكلّ مقاومة . . لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد، ولكن . . ربّاه . . إنّها جمال يجري في أعطافه السحر، ولا يسع من يبتلي برؤيته إلّا أن يغمض جفنيه من قوّة نوره . .

وذكر في تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتاري، بقوامها المعتدل، ووجهها الأسمر الخمريّ، وعينيها السوداوين الساحرتين، فلم يزد على أن تمتم قائلًا: «يا لهما من صورتين متناقضتين جميلتين . . ».

ـ ٤ ـ

وبدا سور طيبة الجنوبيّ وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلّات، فبدا الجلال مجسّمًا يروع الناظرين. ورنا الرجلان إلى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن، وقال لاتو:

ـ حيّاكِ الربّ يا طيبة المجيدة . .

وقال اسفينيس:

ـ وأخيرًا يا طيبة . . بعد أعوام طوال في المنفى . .

وانعطفت السفينة نحو الشاطئ، تتبعها على الأثر سفن القافلة، وقد ضمّت الشرع ورفعت المجاديف، فشقّت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسمك، منه ما تزال تدبّ فيه الحياة، ويقف في أوساطها الصيّادون بأجسادهم العارية النحاسيّة وعضلاتهم المفتولة؛ فانبعث في نفس اسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم، وقال لرفيقه:

- عجّل بنا، فنفسي مشوّقة إلى محادثة أيّ من المصريّين..

وكانَ الجوّ معتدلًا لطيفًا، والسماء صافية الزرقة، والشمس مشرقة تغمر أشعّتها النيل والشطئان والحقول والمدن، فنزلا إلى الشاطئ يلتفّان في عباءتيهما، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريّتين ككبار التجّار. وتقدّما خطوات نحو حيّ الصيّادين، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطئ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التي ترميها الزوارق في لجّة النيل، يغنّون وينشدون. وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة إليها صوب الأسواق. وعلى مسير دقائق من الشاطئ أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسّطة الحجم من الآجرّ، مسقوفة بجذوع النخيل، يدلّ مظهرها على السذاجة والفقر..

وكان اسفينيس ينتقل من مكان إلى مكان، مرهف الحواسّ، مفتوح العينين، يتفحّص الصيّادين ويتتبّع حركاتهم ويصغي إلى أناشيدهم، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالإعجاب والإكبار. وخالط قلبه وهو يشقّ جموعهم إحساس ألفة وطمأنينة ومحبّة، فتمنّى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمّهم إلى صدره ويقبّل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر. وذكر ما حدّثته به عنهم توتيشيري؛ فقال لصاحبه:

- يا لهم من رجال أشدّاء صابرين..

فقال لاتو، وكان يشارك الشابّ جلّ عواطفه:

- أحسب هؤلاء الصيّادين أسعد حالًا من الفلّاحين. لأنّ الرعاة يترفّعون عن النزول إلى حيّهم، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم.

وقطّب الشابّ غضبًا وتألّمًا ولم يتكلّم، وجدّا في السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما. ورأى اسفينيس عن كثب شابًّا يافعًا يتّجه نحوهما يحمل سلّة، وكان يرتدي وزرة قصيرة في خاصرته، أمّا بقيّة جسمه فعارٍ، وقد بدا طويلًا رشيقًا ووجهه حسنًا، فقال اسفينيس:

- انظر يا لاتو إلى هذا الشابّ، ألم يخلق ليكون فارسًا في فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه؟.

واقترب الشابّ منهما، فرغب في الحديث إليه، وحيّاه بيده وقال:

- حيّاك الربّ أيّها الشابّ.. هل تدلّنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر؟

فوقف الشابّ عن المسير وهمّ بالردّ عليه، ولكنّه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار، وولّاهما ظهره ومضى. فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار، وتبعه اسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلًا:

- أيّها الأخ، ما الذي جعلك تزهد الردّ علينا وتولينا ظهرك غاضبًا؟

فصاح الشابّ مزمجرًا:

- إليك عنّي يا عبد الرعاة.

وابتعد غاضبًا وهو يوسع الخطى، تاركًا الشابّ في ذهول وحيرة. ولحقه لاتو وهو يقول:

- إنّه لمجنون بلا ريب.

- ليس مجنونًا يا لاتو... ولكن لماذا يدعوني عبد الرعاة؟

- إنّه لدعاء يثير الضحك.

- نعم... نعم... ولكن هبنا صنائع الرعاة، فكيف تؤاتيه شجاعته فيتحدّانا؟... إنّه لشابّ جسور حقًّا يا لاتو، ويدلّ سلوكه معنا على أنّ عشرة أعوام من حكم الرعاة الخانق لم تستطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة.

واستأنفا المسير حتّى جذب انتباههما ضجيج عالٍ، فنظرا يمنة فرأيا بناء كبيرًا ذا مدخل صغير في أعلى حائطه كوّات ضيّقة، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات، فسأل الشابّ صاحبه:

- ما هذا البناء؟

فقال لاتو:

- هذه حانة.

- هلمّ نشاهدها.

فابتسم لاتو وقال:

- هلمّ.

- ٥ -

ودخلا الحانة معًا، فوجدا نفسيهما في مكان متّسع حوائطه عالية، يتدلّى من سقفه مصباح يعلوه الغبار، وفي وسطه وضعت الدنان، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضه ذراع، اصطفّت عليه أكواب الفخّار وأحاط به الشاربون. ويقف في دائرته صاحب الحانة فيملأ الأقداح للملتفّين به، أو يرسلها مع ساقٍ يافع إلى الجلوس في الأركان على أرض الحان. وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا آذاه أحد الشاربينَ بنكتة أو دعابة انتهره بخشونة وسبّ وقذف. فجال الرجلان ببصرهما في المكان، وأراد اسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساقي، فأخذ صاحبه من يده، وشقّ بمنكبيه طريقًا إلى السور حتّى ارتقاه وسط الأعين المحدّقة فيهما دهشة وإنكارًا. وكان أحسّ شيئًا من التعب، فقال للخمّار مسترسلًا:

- أيّها الرجل الطيّب هل نجد عندك مَقعدينِ؟

فازداد إنكار مَن حوله للهجته وغرابة طلبه، أمّا الخمّار فردّ عليه دون أن يعيره التفاتًا:

- عفوًا أيّها الأمير. إنّ روّاد حانتي ممّن يقنعون باقتعاد الغبراء.

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش، فانحنى لهما في هزء، وقال بتلعثم الثمل:

- أيّها السيّدان، إنّي أنزل لكما عن كرشي تقتعدانه.

وأدرك اسفينيس خطأه الذي أساء به إلى نفسه وإلى صاحبه، فقال يصلح منه:

- إنّنا نتقبّل هديّتك شاكرين، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك المعتّقة بغير هذا الكرش؟

وسرّ السكارى بسؤال الشابّ، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش:

- أجب يا طونا.. أجب.. كيف تشرب أقداحك إذا نزلت للسيّدين عن كرشك؟

وقطّب الرجل مفكّرًا، وهرش رأسه متحيّرًا وقد تدلّت شفته السفلى كقطعة كبد دامية، ثمّ أضاءت عيناه المحمرّتان كأنّما وجد الحلّ السعيد، وقال:

- أشرب خمرًا مهضومة...

فضحك الرجال، وسرّ اسفينيس لإجابته، وقال له متلطّفًا:

- إنّي أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم، الذي خلق ليكون زقّ خمر لا مقعد جلوس..

ثمّ نظر اسفينيس إلى الخمّار وقال له:

- أيّها الرجل الطيّب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا..

وملأ الرجل الأقداح وقدّمها إلى اسفينيس، فخطف طونا قدحه وأفرغه في فمه دفعة واحدة وهو لا يصدّق، ثمّ مسح فمه بكفّه، وقال لاسفينيس:

- أنت غنيّ بلا شكّ أيّها السيّد الكريم.

فقال اسفينيس مبتسمًا:

- حمدًا للربّ على نعمائه.

فقال طونا:

- ولكنّكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريّان؟.

- صدقت فراستك، وهل من تناقض بين أن نكون مصريّينِ وغنيّينِ؟

- نعم، إلّا أن تكونا من المقرّبين إلى الحاكمين..

وهنا قال رجل آخر:

- وهؤلاء يقلّدون سادتهم فلا ينزلون إلى مخالطتنا.

فتجهّم وجه اسفينيس، وعاودته صورة الشابّ الذي صاح به غاضبًا منذ حين قائلًا: «يا عبد الرعاة». ثمّ قال:

- نحن من مصريّي النوبة، وجئنا مصر حديثًا..

وساد الصمت، ودوّت كلمة النوبة في الآذان دويًّا غريبًا، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم، فلا يقدرون على جمع شتات أفكارهم، فنظر أحد الرجال إلى كأسَي الرجلين اللذين لم يقرباهما، وقال بلسان ثقيل:

- لماذا لا تشربان، سقاكما الربّ أطيب خمر الجنان؟

فقال لاتو:

ـ قليلًا ما نشرب، وإذا ما شربنا فعلى مهل. .

فقال طونا:

ـ نِعم ما تفعلان، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة؟ أمّا أنا فشقائي بمهنتي جلل، وشقائي بأسرتي وأولادي أجلّ، وشقائي بنفسي أفدح ومناي ألّا أرفع القدح عن شفتي.

فصفّق ثمل مسرورًا بقول طونا، وقال وهو يهزّ رأسه طربًا:

ـ هٰذه الحانة مهجر البائسين، مهجر من يقدّمون موائد الطعام الشهيّة وهم جياع، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة، ومن يهرّجون في أفراح السادة وهم جرحى قلوب، صرعى نفوس. .

فقال رجل غير هٰذين:

ـ اسمعا يا رجلي النوبة، لن تطيب الحياة لشارب حتّى تخذله ساقاه، فيهوي فاقد الوعي، ولأضرب لكما مثلًا بنفسي، فما من ليلة أعود إلى كوخي إلّا محمولًا. .

وانتفض اسفينيس، وأدرك أنّه بين جماعة من مبتئسي البشر، وسألهم:

ـ هل أنتم صيّادون؟

فقال طونا:

ـ جلّنا صيّادون.

وهزّ صاحب الحانة كتفيه استهانة، وقال دون أن يحوّل رأسه عن عمله:

ـ أمّا أنا فخمّار يا سيّدي.

فقهقه طونا، ثمّ أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير القامة، نحيف القدّ، دقيق الأطراف، واسع العينين برّاقهما، ثمّ قال:

ـ وإن أردت التدقيق فهٰذا الرجل لصّ. .

فنظر اسفينيس إلى الرجل بغرابة، فارتبك، وأراد أن يطمئنه فقال:

ـ لا يساورك القلق يا سيّدي، فأنا لا أسرق في هٰذا الحيّ جميعه.

وعلّق طونا على قول الرجل بقوله:

ـ يعني أنّه لمّا كان لا يوجد في حيّنا ما يستحقّ مشقّة السرقة، فهو يعاشرنا كأحدنا، ويمارس فنّه في أطراف طيبة، حيث المال موفور، والسعادة وارفة الظلال. .

وكان اللصّ نفسه ثملًا، فقال بلهجة الاعتذار:

ـ لست لصًّا يا سيّدي، ولٰكنّني سائح يضرب الأرض ويشرّق ويغرّب كما تسوقه قدماه، فإذا عثرت في سبيلي بأوزّة ضالّة أو دجاجة تائهة، هديتها إلى مأوى، وهو كوخي في الغالب. .

ـ وهل تأكلها؟

ـ معاذ الربّ يا سيّدي، إنّ الطعام الحسن يسمّم بطني، ولٰكنّي أبيعها لمن يشتري.

ـ ألا تخشى الخفراء؟

ـ أخشاهم أكبر خشية يا سيّدي، لأنّه غير مسموح بالسرقة في هٰذا البلد لغير الأغنياء والحكّام. .

فأمّن طونا على قول اللصّ قائلًا:

ـ القاعدة المتّبعة في مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء، ولٰكن لا يجوز أن يسرق الفقراء الأغنياء.

وكان يتكلّم وعيناه تحدّقان في القدحين المترعين بنهم وجشع، فغيّر مجرى الحديث وقال باستياء:

ـ لماذا تتركان قدحيكما فتنةً للشاربينَ؟

فابتسم اسفينيس وقال مسترسلًا:

ـ هما لك يا طونا.

فتحلّب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين، مرسلًا لمن حوله نظرات وعيد، ثمّ أفرغهما في جوفه قدحًا إثر قدح، وتنهّد بارتياح. وأدرك اسفينيس معنى الوعيد الذي يهدّد به، فطلب للقريبينَ منه جعةً ونبيذًا ممّا يشتهون، فشرب الجميع وضجّوا فرحين، وانطلقوا في الأحاديث والغناء والضحك. وكان الشقاء والفقر يرتسمان على وجوههم جميعًا، ولٰكنّهم بدوا في تلك الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حسابًا للغد واندمج اسفينيس في جوّهم جذلًا مسرورًا، تعتاده الكآبة بين الحين والحين. وقضى بينهم زمنًا ليس بالقصير، حتّى دخل الحانة رجل تدلّ هيئته على أنّه منهم، فحيّاهم بإيماءة وطلب قدحًا من الجعة، ثمّ قال لمن حوله بلهجة لا تدلّ على شيء:

ـ قبضوا على السيّدة أبانا وساقوها إلى المحكمة. .

ولم يعره الأكثرون التفاتًا لما أذهل الشراب من عقولهم، وسأله آخرون:

ـ ولِمَ؟

ـ يقال إنّ ضابطًا كبيرًا من الرعاة اعترض سبيلها على شاطئ النيل، ورغب في أن يضمّها إلى نسائه، فقاومته ودفعته عنها.

فزمجر الكثيرون، وسأله اسفينيس:

ـ وما عسى أن تصنع بها المحكمة؟.

فحدجه الرجل بنظرة إنكار، وقال:

ـ ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتّى تعجزها، فتأمر بجلدها بالسياط، والزجّ بها في السجن.

فتجهّم وجه اسفينيس وامتقع، وقال للرجل:

ـ هل لك أن تدلّنا على طريق المحكمة؟

فقال له طونا بتلعثم:

ـ الشراب أولى بذهبك، لأنّ من يدفع عن هٰذه المرأة يغضب الضابط الكبير، ويعرّض نفسه لعاقبة غير مأمونة.

وسأله الرجل الذي أذاع الخبر:

ـ هل أنت غريب يا سيّدي؟

فقال اسفينيس:

ـ نعم، وأرغب في حضور هٰذه المحاكمة..

ـ أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت.

وفي أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه، وقال هامسًا:

ـ إيّاك والتورّط في أمر يفسد علينا مهمّتنا الخطيرة.

فلم يجب اسفينيس، واقتفى من فوره أثر الرجل.

ـ ٦ ـ

كانت المحكمة مكتظّة بذوي الحاجات وأصحاب القضايا والشهود، وامتلأت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات، وفي الصدر جلس القضاة ذوو اللحى المرسلة والوجوه البيض، وقد تدلّى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربّة العدالة ثمى. فاتّخذ الرفيقان مقعدين متقاربين، وقال لاتو لاسفينيس همسًا:

ـ إنّهم يقلّدون أنظمتنا في ظاهرها.

وتفرّسا في الوجوه، فأدركا أنّ أغلب الحاضرين من الهكسوس. وكان القضاة يستدعون المتّهمين ويستجوبونهم على عجل، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة، وأصوات الشكوى والعويل تتصاعد من العراة ذوي الأجسام النحاسيّة والوجوه السمر. وجاء دور السيّدة المنشودة، فنادى المنادي قائلًا:

ـ السيّدة أبانا.

وتطلّع الرجلان في لهفة، فرأيا سيّدة تقترب من المنصّة في خطًى متّزنة، يدلّ مظهرها على الوقار والحزن، وتتجلّى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين. وتبعها رجل من الهكسوس يرتدي لباسًا فخمًا، فانحنى للقاضي باحترام وقال:

ـ سيّدي القاضي الجليل، أنا وكيل القائد رخ ـ الذي اعتدت عليه هٰذه المرأة ـ وأدعى خم، وسأنوب عن عظمته أمام القضاء.

فهزّ القاضي رأسه موافقًا، ممّا أثار دهشة لاتو واسفينيس، ثمّ قال:

ـ بماذا يتّهم مولاك هٰذه المرأة؟

فقال الرجل بإنكار وامتعاض:

ـ يقول مولاي إنّه التقى بهٰذه المرأة صباح اليوم، فرغب في أن يضمّها إلى جواريه، فقابلت صنيعه بالإنكار والجحود، ودفعته بوقاحة عدّها اعتداء على شرفه العسكريّ..

فأثار حديث الرجل ضجّة بين الحاضرين واستياء، وتقاربت الرءوس في همس واستنكار. وأشار القاضي للقوم بصولجانه، فساد السكون، ثمّ وجّه سؤاله إلى المرأة قائلًا:

ـ ما قولك يا امرأة؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها، كان اليأس من الإنصاف أكسبها أمانًا من الخوف، فقالت بهدوء:

ـ إنّ قول هٰذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة..

فغضب القاضي، وقال منتهرًا إيّاها:

ـ حاذري أن تقولي قولًا ينال من مقام المشتكي العظيم فتضاعف جريمتك، قصّي ودعي الحكم لنا..

فاحمرّ وجه المرأة ارتباكًا، وقالت وهي ما تزال تحافظ على هدوئها:

ـ كنت أسير في طريقي إلى حيّ الصيّادين، فإذا عربة تعترض سبيلي وينزل منها ضابط فيدعوني إلى الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة. فارتعت وأردت أن أتحاماه، ولٰكنّه أمسك بيدي وقال لي إنّه يشرّفني بضمّي إلى نسائه فقلت له إنّي أرفض ما يعرضه عليّ. ولٰكنّه سخر منّي، وقال لي إنّ رفض المرأة الظاهريّ عين القبول..

وأشار إليها القاضي إشارة أسكتتها، وكأنّما ساءه أن تأتي على تفاصيل تحرج مقام الضابط، فسألها:

ـ أجيبي هل اعتديت عليه؟

ـ كلّا يا سيّدي، لقد أصررت على رفضي، وحاولت التملّص من يده، ولٰكنّي لم أعتدِ عليه لا بيدي ولا بلساني، ويشهد على قولي هٰذا جمع غفير من أهل الحيّ.

ـ أتعنين الصيّادين؟

ـ نعم يا سيّدي.

ـ هٰؤلاء لا تقبل شهادتهم في هٰذا المكان المقدّس.

فسكتت المرأة، ولاحت في عينيها نظرة حيرة وارتباك، فسألها القاضي:

ـ أليس لديك ما تقولينه غير ذٰلك؟

ـ كلّا يا سيّدي، وأقسم أنّي ما آذيته بقول أو فعل..

ـ إنّ المدّعي عليك شخص كبير، وقائد من قوّاد الحرس الفرعونيّ، وقوله حقّ حتّى تقيمي الدليل على نقضه.

ـ وكيف لي بنقضه، وقد رفضت المحكمة الإصغاء إلى شهودي؟.

فقال القاضي بغضب:

ـ إنّ الصيّادين لا يدخلون هٰذا المكان، إلّا إذا سيقوا إليه متّهمينَ..

وأعرض الرجل عنها، وعدل إلى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأي حينًا، ثمّ اعتدل في جلسته وقال موجّهًا كلامه إلى السيّدة أبانا:

ـ أيّتها المرأة، لقد أراد بك القائد خيرًا فجازيته أسوأ الجزاء، والمحكمة تخيّرك بين دفع خمسين قطعة من الذهب، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد..

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدا الرضى على الوجوه جميعًا، إلّا واحدًا صاح بصوت ثائر كأنّما أفلت منه الزمام:

ـ سيّدي القاضي.. هٰذه السيّدة مظلومة بريئة.. فأطلق سراحها.. اعفِ عنها إنّها مظلومة..

ولٰكنّ القاضي استولى عليه الغضب، وحدج الصارخ بنظرة أسكتته، وتوجّهت إليه الأنظار من كلّ صوب فعرفه اسفينيس، وقال لصاحبه دهشًا:

ـ إنّه الشابّ الذي أغضبه حديثنا معه، واتّهمنا بأنّنا عبيد الرعاة..

وكان اسفينيس مغضبًا متألّمًا، فاستدرك يقول:

ـ لن أدع هٰذا القاضي الأحمق يزجّ بهٰذه السيّدة في السجن.

فقال لاتو بقلق:

ـ إنّ مهمّتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة، فاحذر أن ينقلب علينا عملك..

ولٰكنّه لم يصغِ إلى صاحبه، وتريّث حتّى سمع القاضي يسأل المرأة قائلًا:

ـ هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه؟

فقام واقفًا، وقال بصوت جميل عذب النبرات:

ـ نعم يا سيّدي القاضي..

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحّص الكريم الجسور الذي تقدّم لإنقاذ المرأة في آخر لحظة، ونظرت إليه المرأة في ذهول، وكذٰلك الشابّ الذي دافع عنها بالبكاء والاستعطاف. أمّا وكيل القائد فصوّب نحوه نظرة ناريّة برق فيها الوعيد، ولٰكنّ الشابّ لم يبالِ أحدًا وسار نحو منصّة القضاء بقامته الطويلة الرشيقة، ومحيّاه الجميل الفاتن، وأدّى الغرم المطلوب إلى المحكمة..

وتفكّر القاضي مرتبكًا، وهو يسائل نفسه من أين لهٰذا الفلّاح بالذهب؟ ومن أين له هٰذه الشجاعة؟.. ولم يجد بدًّا ممّا ليس منه، فأقبل على المرأة قائلًا:

- يا امرأة.. اذهبي طليقة.. وليكن لك مّما كدت تتردّين فيه موعظة ودرسًا.

- ٧ -

وغادروا المحكمة جميعًا، لاتو واسفينيس والسيّدة أبانا والشابّ الغريب، وفي الطريق نظرت المرأة إلى اسفينيس، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- سيّدي، لقد أنقذتني مروءتك من ظلمات السجون، فملكت عنقي بجميل صنيعك، وحمّلتني دينًا لا أستطيع الوفاء به.

وخطف الشابّ الغريب يده فقبّلها وعيناه مغرورقتان بالدمع، وقال بصوت متهدّج:

- فليعفِ الربّ عمّا سلف من سوء ظنّي، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا بإنقاذك أمّي من غيابات السجن وآلام الجلد.

فغلب التأثّر اسفينيس وقال برقّة:

- لا عليكما من هٰذا، لقد ابتليت أيّتها السيّدة بظلم قبيح، والظلم وإن وقع على نفس بعينها يسيء إلى النفوس العادلة جميعًا، وما فعلت إلّا أن غضبت فنفّست عن غضبي، فلا دين هناك ولا وفاء..

ولم يُقنع هٰذا القول السيّدة أبانا، فظلّت على تأثّرها تتعثّر في ارتباكها وتقول:

- يا له من عمل نبيل.. يا له من عمل يجلّ عن الوصف ويعلو على المديح.

وأمّا ابنها فكان لا يقلّ عنها تأثّرًا، ورأى اسفينيس ينظر إليه فقال كالمعتذر:

- ظننت حين التقينا أنّكما من صنائع الرعاة، لما يبدو عليكما من مظاهر الثراء، فإذا بكما مصريّان كريمان لا أدري من أين جئتما. وقد أقسمت ألّا أفارقكما حتّى تتفضّلا بزورة كوخنا الصغير، لنشرب معًا قدحًا من الجعة احتفالًا بتشرّفنا بمعرفتكما، فماذا تقولان؟..

وراقت الدعوة اسفينيس الذي كان يرغب في الاختلاط ببني جلدته، وكانت شهامة الشابّ وجماله يجذبانه إليه، فقال:

- إنّنا نقبل هٰذه الدعوة ببالغ السرور.

وابتهج الشابّ كما ابتهجت أمّه، ولٰكنّها قالت:

- أرجو المعذرة لأنّكما لن تجدا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع.

فقال لاتو بلباقة:

- إنّ في صاحبَي الكوخ غنًى عن كلّ شيء، ومع هٰذا فنحن تجّار متعوّدون شظف العيش ووعثاء الطريق.

ثمّ ساروا جميعًا يشملهم شعور واحد بالمودّة، كأنّهم أصدقاء من عهد قديم. وفي أثناء الطريق قال اسفينيس لابن أبانا:

- كيف ندعوك يا صاحبي؟. أمّا أنا فاسفينيس، وأمّا صاحبي فيدعى لاتو.

فحنى الشابّ رأسه إكرامًا، مبتسمًا وقال:

- ادعوني أحمس.

فخيّل إلى اسفينيس كأنّ أحدًا يناديه، ونظر إلى الشابّ نظرة غريبة..

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة، وكان ساذجًا كأكواخ الصيّادين، يتكوّن من ردهة خارجيّة وحجرتين صغيرتين متداخلتين، ولٰكنّه كان على سذاجة أثاثه وفقره الواضح نظيفًا حسن الترتيب. فجلس أحمس وضيفاه في الردهة، وفتحا الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره؛ على حين ذهبت أبانا لتُعدّ الشراب، ولبثوا هنيهة صامتين يتبادلون النظرات، ثمّ قال أحمس بعد تردّد:

- إنّه من العجب أن يجد الإنسان مصريّينِ في مثل مظهركما الوجيه، فكيف ترككما الرعاة تثريان ولستما من صنائعهم؟

فقال اسفينيس:

- نحن من مصريّي النوبة، ودخلنا طيبة اليوم..

فصفّق الشابّ بيديه دهشةً وسرورًا، وقال:

- النوبة.. لقد فرّ إليها كثيرون في أثناء غزو الرعاة لبلادنا، فهل أنتما من المهاجرين؟..

وكان لاتو بطبعه شديد الحذر، فقال بسرعة قبل أن يجيب اسفينيس:

ـ بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة. . .

ـ وكيف استطعتما الدخول إلى مصر، وقد أغلق الرعاة الحدود؟

فأدرك الرجلان أنّ أحمس على حداثة سنّه يعرف أشياء كثيرة، وكان اسفينيس يشعر نحوه بمودّة واطمئنان، فقصّ عليه قصّة دخولهما مصر، وفي أثناء حديثه عادت أبانا تحمل أقداح الجعة، وسمكًا مشويًّا، فوضعت الشراب والطعام أمامهم، وجلست تصغي إلى قصّة اسفينيس حتّى ختمها بقوله: «إنّ الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويخلب ألبابهم، وسوف نمضي إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا». . فقدّمت لهما أقداح الجعة والسمك، وقالت:

ـ إذا وفّقتما إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين، فلا الرعاة يرضون بالعمل في التجارة، ولا المصريّون في حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرينَ على المشاركة فيها. .

وكان لدى التاجرينِ ما يقولان في ذلك، ولكنّهما آثرا السكوت عليه. وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان، وأثنيا على السيّدة أجمل الثناء، وأطريا مائدتها الساذجة، فتورّد وجهها، ولهج لسانها بشكر الشابّ على جميل صنيعه. وبلغ منها التأثّر مبلغًا عظيمًا فقالت:

ـ لقد مددت إليّ يدك الكريمة في الوقت المناسب، وكم من مصريّين بائسين تطحنهم رحى الظلم في الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين. .

وبدا أحمس سريع التأثّر. فما كاد يسمع أمّه تقول هذا القول حتّى تضرّج وجهه باحمرار الغضب، وقال بحدّة:

ـ المصريّون عبيد، يُلقى إليهم بالفتات ويُضربون بالسياط. أمّا الملك والوزراء والقوّاد والقضاة والموظّفون والملّاك جميعًا فمن الرعاة. السلطان اليوم للبيض ذوي اللحى القذرة، والمصريّون عبيد في الأراضي التي كانوا بالأمس أصحابها. .

وكان اسفينيس يرمق أحمس في أثناء تدفّقه بالكلام بعينين يلوح فيهما الإعجاب والعطف، على حين ظلّ لاتو خافضًا عينيه ليخفي تأثّره، وسأله اسفينيس:

ـ وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم؟

ـ نعم، ولكنّنا جميعًا نكظم الغضب ونحتمل الإساءة، شأن الضعيف الذي لا حيلة له. وإنّي لأتساءل أما لهذا الليل من آخر؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضي الربّ الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكننرع. .

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة، وامتقع اسفينيس. ونظر لاتو إلى الشابّ دهشًا ثمّ سأله:

ـ كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنّك؟

ـ تحفظ ذاكرتي صورًا قليلة قاتمة، ولكنّها واضحة لا تزول، لأيّام الشقاء الأولى. ولكنّي أدين لأمّي بمعرفة تاريخ قصّة طيبة الأسيفة التي لا تفتأ تردّدها على مسمعي. . .

فنظر لاتو إلى أبانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة، فأراد أن يسرّي عنها فقال لها:

ـ أنت سيّدة فاضلة وابنك شابّ نبيل. .

وقال لاتو لنفسه إنّ السيّدة ما تزال تحاذر بالرغم من كلّ شيء، وكان في نيّته أن يسأل عن بعض أمور تهمّه، فعدل عن هذا إلى المستقبل. وغيّر الشيخ مجرى الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة، فأعاد الطمأنينة إلى النفوس، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعًا شعور المودّة الخالصة، وحين همّ التاجران بمبارحة الدار قال أحمس لاسفينيس:

ـ متى تذهب يا سيّدي إلى حاكم الجنوب؟

فقال اسفينيس وهو يعجب للسؤال:

ـ ربّما ذهبت غدًا.

ـ لي رجاء.

ـ ما هو؟

ـ أن أصحبك إلى ضيعته.

فسرّ اسفينيس لذلك، وقال للشابّ:

ـ أتعرف الطريق إليها؟

ـ حقّ المعرفة.

وحاولت أبانا الاعتراض على ابنها، ولكنّه أسكتها بإشارة عصبيّة من يده، فابتسم اسفينيس وقال:

ـ إذا لم يكن عندك مانع، فستكون الدليل إليها..

ـ ٨ ـ

وانقضى النصف الأوّل من اليوم الثاني في الإعداد لزورة الحاكم، وكان اسفينيس يقدّر قيمة هذه الزورة حقّ قدرها، ويعلم أنّ حياة آماله جميعًا رهينة ببعض عواقبها، وكذلك آمال من خلّفهم وراءه في نباتا يعترك في نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل. فشحن سفينته بصناديق التحف واللآلئ، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو، وعدد كبير من العبيد. وقبيل الأصيل وافاهما أحمس، فحيّاهما بفرح وقال:

ـ أنا منذ الساعة من عبيدكما..

فتأبّط اسفينيس ذراعه، ومضوا ثلاثتهم إلى المقصورة. ثمّ أبحرت السفينة صوب الشمال في جوّ رائق وريح مؤاتية، وقد صمت مَن في المقصورة، واستغرق كلّ منهم في تأمّلاته، مرسلًا بناظريه إلى شاطئ طيبة. وعبرت السفينة أحياء الفقراء، وأقبلت على القصور الشمّ الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجمّيز، تهفو عليها الأطيار من كلّ نوع ولون، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة النضرة، تشقّها الجداول الفضّيّة والوديان والنخيل والكروم، وترعاها الثيران والبقر، ويعكف عليها الفلّاحون العراة الصابرون. وعلى الشاطئ أقيمت المنازف تغرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة. وكانت النسائم تعابث الأشجار حاملة في حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران، وشذا الأزهار والرياحين، فأحسّ اسفينيس أنّ أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق، وذكر أيّام الربيع حين كان يخرج إلى الحقول محمولًا على هودجه الملكيّ، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلّاحون يحيّونه فرحين بطفولته الطاهرة، ناثرين الورد في طريقه السعيد.

وأيقظه صوت أحمس وهو يقول:

ـ ها هوذا قصر الحاكم.

فتنهّد اسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشابّ، ونظر معها لاتو وقد لاحت في عيني الشيخ نظرة دهشة وإنكار.

وعرّجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها، فاعترض سبيلها زورق حربيّ غاصّ بالجنود، وصاح بهم ضابط في عنف وعجرفة:

ـ ابتعد بسفينتك القذرة أيّها الفلّاح.

فقفز اسفينيس من المقصورة، ودنا من حائط السفينة وحيّا الضابط باحترام وقال:

ـ معي رسالة خاصّة إلى صاحب العظمة حاكم الجنوب.

فحدجه الضابط بنظرة حادّة وحشيّة، وقال:

ـ أعطنيها وانتظر.

فأخرج الشابّ الكتاب من جيب عباءته وأعطاه للضابط. وتفحّصه هذا بأناة، ثمّ أمر رجاله فوجّهوا الزورق نحو درج الحديقة، ونادى حارسًا فناوله الرسالة. فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر، وغاب زمنًا يسيرًا وعاد مسرعًا إلى الضابط وأسرّ إليه كلمات، فأشار الضابط إلى اسفينيس أن يدنو بسفينته، فأمر الشابّ ملّاحيه بالجدف حتّى رست السفينة في مرفأ القصر، وقال له الضابط:

ـ إنّ صاحب العظمة ينتظرك، فاحمل إليه بضاعتك..

وأصدر الشابّ أمره إلى النوبيّين، فحملوا الصناديقَ وبينهم أحمس، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو. وقال لاتو للشابّ وهو يودّعه:

ـ فليكتب الربّ لك التوفيق.

ولحق اسفينيس بالقافلة، يقطعون جميعًا أرض الحديقة المعشوشبة في سكون شامل.

ـ ٩ ـ

مضى التاجر لمقابلة الحاكم، فقاده خادم إلى بهو

الاستقبال وتبعه عبيده بأثقالهم. ووجد الشابّ نفسه في بهو فائق الترف عظيم الأناقة، يتجلّى الفنّ في أرضه وحوائطه وسقفه، وفي الصدر منه جلس الحاكم على متّكأ وثير، في جلباب فضفاض كأنّه كتلة من بنيان متين. وكانت ملامح وجهه الكبير قويّة واضحة، أمّا نظرة عينيه الحادّتين فتدلّ على الشجاعة والبسالة والصفاء. فأشار اسفينيس إلى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم، واقترب من وسط البهو خطوات، ثمّ انحنى إجلالًا للحاكم وقال:

- حيّاك الربّ المعبود ست أيها الحاكم الأجلّ.

فألقى عليه الحاكم نظرة من نظراته القويّة النافذة، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع، وبدا على وجهه الارتياح لرؤيته، وسأله:

- أقادم أنت حقًّا من بلاد النوبة؟

- نعم يا مولاي.

- وماذا تبغي من وراء رحلتك هذه؟

- أطمع أن أهدي إلى سادة مصر تحفًا ممّا يوجد في بلاد النوبة، آملًا أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها.

- وماذا تطلب أنت لقاء ذلك؟

- بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال.

فهزّ الحاكم رأسه الكبير، وقد لاحت في عينيه نظرة ساخرة، وقال بصراحة:

- أراك حديث السنّ ولكنّك جسور مغامر، ومن حسن طالعك أنّي أحبّ المغامرين... والآن أرني ما تحمل من التحف..

ودعا اسفينيس أحمس فاقترب الشابّ من الحاكم ووضع عند موضع قدميه صندوقه، وفتحه التاجر فبدا ما بداخله من الياقوت صيغ حليًّا مختلفة أشكالها، فتفحّصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والإعجاب، ومضى يقلّبها بين يديه، ثمّ سأل الشابّ قائلًا:

- هل يوجد من هذه الحليّ كثير في النوبة؟

فأجاب اسفينيس بلباقة، وكان أعدّ الجواب من قبل أن يدخل مصر:

- إنّه لمن أعجب الأمور يا مولاي أن توجد هذه الأحجار الكريمة في أقاصي أدغال النوبة، حيث تأوي الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتّاكة..

ثمّ عرض على الحاكم صندوقًا من الزمرّد، وثانيًا من المرجان، وثالثًا من الذهب، ورابعًا من اللؤلؤ. وتفحّصها الرجل على مهل مبهورًا حتّى بدا في النهاية كالثمل النشوان، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول:

- ما أجمل هذا الحيوان في حديقة القصر!

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه: «يا له من شابّ كالشيطان لا يقاوَم..» وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج، وبدا زولو بخلقه الغريب، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفًا، ودنا من الهودج ودار حوله وهو يتساءل:

- يا للعجب. أحيوان هو أم إنسان؟.

فقال اسفينيس مبتسمًا:

- بل إنسان يا مولاي من شعب جمّ العدد.

- هذا أعجب ما رأيت وما سمعت..

ونادى الرجل عبدًا وقال له:

- ادعُ الأميرة أمنريدس وزوجي وأخي.

- ١٠ -

وجاء الذين دعاهم الحاكم، ورأى اسفينيس أن يخفض بصره تأدّبًا، ولكنّه سمع صوتًا رخيمًا زلزلت له نفسه زلزالًا شديدًا يقول:

- لماذا أزعجت مجلسنا أيّها الحاكم؟..

فاختلس نظرة إلى الداخلين. فرأى في مقدّمتهم الأميرة التي زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمرّديّ، وكان منظرها كما عهده يغشى العيون، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد، فأيقن الشابّ أنّ الحاكم خنزر وزوجه من الأسرة الفرعونيّة لا محالة. على أنّه رأى وجهًا آخر ليس بالجديد عليه، وهو وجه الرجل الذي تبع الأميرة وزوج الحاكم، فقد كان القاضي الذي حكم على أبانا بالأمس، وقد وضح له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شكّ في أنّ

الأميرة والقاضي عرفاه كذلك، لأنّهما ألقيا عليه نظرة ذات معنى. وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت، فانحنى للأميرة وقال:

ـ تعالي يا صاحبة السموّ انظري إلى أنفس ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها. ودار على الصناديق المحمّلة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو، فأقبلوا عليها في شغف ودهشة وإعجاب. ونال القزم قسطه من الإنكار والغرابة، وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجابًا، وكانت مغرمة بالجواهر غرامًا يُضرب به المثل، فأقبلت على صناديق العاج أيّما إقبال. أمّا القاضي فتحوّل إلى اسفينيس وقال له:

ـ كنت بالأمس أسائل نفسي عن مصدر ثروتك، وقد عرفت اليوم كلّ شيء..

فقلّب الحاكم وجهه فيهما، وقال لشقيقه:

ـ ماذا تعني أيّها القاضي سنموت؟.. هل عرفت هذا الشابّ قبل الآن؟

ـ نعم يا سيّدي الحاكم، رأيته بالأمس في المحكمة، والظاهر أنّه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته، فقد تبرّع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلّاحة متّهمة بإهانة القائد رخ من السّجن والجلد، فترى يا سيّدي أنّ القائد أصيب في يوم واحد بفلّاحة تتطاول عليه وبفلّاح يتحدّى غضبه..

فضحكت الأميرة أمنريدس ضحكة رقيقة ساخرة، وقالت وهي تلقي نظرة على وجه الشابّ:

ـ وما وجه العجب في ذلك أيّها القاضي سنموت؟.. أليس من الطبيعيّ أن يشمّر فلّاح للدفاع عن فلّاحة؟..

ـ الحقّ يا مولاتي أنّ الفلّاحين لا يقوون على شيء، ولكنّه الذهب وسحره. وقد صدق من قال إنّك إذا رغبت في أن تنتفع بالفلّاح فأفقره ثمّ اضربه بالسوط.

أمّا الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة، فقال:

ـ إنّ التاجر شابّ جسور، وما اقتحامه حدود بلادنا إلّا آية من آي شجاعته. مرحى.. مرحى.. ليته كان رجل قتال لأقاتله، فقد صدئ سيفي من طول انزوائه في غمده..

فقالت الأميرة أمنريدس بلهجتها الساخرة:

ـ كيف لا تأخذك به الرحمة أيّها القاضي سنموت وهو يديني؟

ـ أتقولين يدينك يا صاحبة السموّ؟.. يا لها من كلمة..

وضحكت من دهشة الحاكم، وقصّت عليه كيف رأت القافلة، وكيف جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل، وكانت تروي قصّتها بلهجة دلّت على ما تتمتّع به من حرّيّة وجسارة، وميل إلى السخرية والفكاهة، فزالت دهشة الحاكم خنزر، وقال لها مداعبًا:

ـ لماذا اخترت قلبًا أخضر يا صاحبة السموّ؟.. فإنّا نعلم معنى القلب الأبيض والقلب الأسود، ولكن ما معنى القلب الأخضر؟

فقالت الأميرة ضاحكة:

ـ وجّه سؤالك إلى بائع القلب.

وكان اسفينيس صامتًا منصتًا تعلوه الكآبة؛ فقال:

ـ القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان..

فقالت الأميرة:

ـ ما أشدّ حاجتي إلى هذا القلب، لأنّي أحسّ أحيانًا أنّي قاسية حتّى ليلذّ لي أن أقسو على نفسي..

وكان القاضي سنموت يطيل النظر في تلك الأثناء إلى زولو، وحاول أن يحوّل انتباه زوج شقيقه إليه، ولكنّها أبت أن تتحوّل عن صناديق الأحجار الكريمة، فقال القاضي وقد تأفّف من منظر القزم:

ـ يا له من مخلوق قبيح.

فقال اسفينيس:

ـ إنّه من شعب من الأقزام، لا تروقهم صورتنا، ويعتقدون أنّ الخالق شوّه ملامحها وقبّح أطرافها..

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة، وقال:

ـ إنّ قولك هذا أعجب من زولو نفسه، ومن كلّ ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس.

وقال سنموت وهو يحدج اسفينيس بنظرة ارتياب:

- أرى هذا الشابّ يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته، فمن المؤكّد أنّ أولئك الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنًى للحسن أو القبيح..

ورنت الأميرة أمنريدس إلى القزم كالمعتذرة، وقالت:

- هل تستقبح النظر إلى وجهي يا زولو؟

فعاد خنزر إلى قهقهته، واختلج قلب اسفينيس لما رآه من روعة حسنها وفتنة دلالها، وقد تمنّى في تلك اللحظة أن يديم إليها النظر. وساد الصمت بعد ذلك، فأدرك الشابّ أنّه قد آن وقت الانصراف وخشي أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذي يهمّه، فقال للحاكم:

- هل من الممكن أيّها الحاكم الجليل أن أطمع في تحقيق آمالي في ظلّ رعايتك الكريمة؟

ففكّر الحاكم وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء، ثمّ قال:

- لقد ملّ قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف والنعيم، وإنّهم ليترفّعون بطبعهم عن التجارة، فلا سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلّا بالمغامرين من أمثالك. ولكنّي لا أحبّ أن أعطيك كلمتي الآن، فينبغي أن أحدّث قبل ذلك مولاي الملك. وسأرفع إلى ذاته العليا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقني على رأيي.

فانشرح صدر اسفينيس وقال:

- سيّدي الحاكم، إنّي أحتفظ لمولانا فرعون بهديّة نفيسة صنعت خاصّة لذاته العليا.

فتفرّس الحاكم في وجهه مليًّا، وخطرت له فكرة يتقرّب بها إلى مولاه فقال:

- في ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارّة للمليك، فتقدّم إليه هديّتك التي لا شكّ أنّها لائقة بالمقام الأعلى.. فأخبرني عن اسمك ومقامك..

- أدعى يا مولاي اسفينيس، وأقيم حيث ترسو قافلتي على شاطئ حيّ الصيّادين جنوب طيبة.

- سيأتيك رسولي في يوم قريب.

وانحنى الشابّ في إجلال عظيم، وبرح المكان يتبعه عبيده. وكانت الأميرة تنظر في وجهه وهو يحدّث الحاكم عن آماله ويصغي إليه، وتبعته بنظرها وهو يبرح المكان، فعجبت لآي النبل والحسن البادية على وجهه وقامته، وأسفت أن يكون حظّه من الدنيا التجارة وحمل الأقزام. أوّاه.. كم تمنّت أن تجد هذه القامة في جسم واحد من قومها الميّالين إلى البدانة والقصر، ولكنّها وجدتها في جسم مصريّ أسمر يتّجر في الأقزام.. وأحسّت أنّ صورة هذا الفتى الجميل تحرّك عاطفة في نفسها.. فبدت كالغاضبة، وولّت الحاكم وآلة ظهرها وفارقت البهو..

- ١١ -

وعاد اسفينيس والعبيد في أثر مرشدهم إلى الحديقة، فتنسّم نسمة من ريح طيبة هدّأت من وجدانه الثائر، وتنفّس تنفّسة عميقة امتلأ بها صدره، وكان يعدّ نتيجة رحلته هذه توفيقًا عظيمًا. ولكنّه كان يفكّر في الأميرة أمنريدس ويتمثّل وجهها النورانيّ وشعرها الذهبيّ وشفتيها القرمزيّتين، والقلب الزمرّديّ المدلّى على صدرها الناهد.. ربّاه!.. ينبغي أن يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظلّ قلبه وقلبها معًا.. وقال لنفسه: إنّها ربيبة النعيم والحبّ، تظنّ من غير شكّ أنّ الدنيا وما فيها رهن إشارة من أصبعها، جسورًا ضحوكًا: ولكنّه ضحك مترف لا يخلو من القسوة، تُضاحِك الحاكم وتهزأ بتاجر غريب ولمّا تبلغ الثامنة عشرة، ولو رأيتها غدًا على متن جواد تريش سهمًا ما حقّ لي العجب..

ثمّ نصح نفسه ألّا يستسلم للتفكير فيها، ولكي يعمل بنصيحته عاود التفكير في توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر. إنّه حاكم جبّار قويّ عظيم الشجاعة، ولكنّه طيّب القلب، وربّما كان عظيم الغباوة أيضًا. وإنّ نزوعه إلى الذهب عظيم كعامّة قومه، وقد هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرّد والياقوت والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة

شكر.. ولكنّ هٰذا الجشع هو الذي فتح له أبواب مصر، ويلغ به قصر الحاكم، وسينتهي به قريبًا إلى قصر فرعون. وكان أحمس يسير على مقربة منه، فسمعه يهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلًا: «شارف» فظنّه يخاطبه. فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلّة أزهار ويضرب في الحديقة بخطًى واهنة، وسمع الشيخ الصوت الذي يناديه، فتلفّت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمّن يناديه.. ولكنّ أحمس تحاماه وولّاه قفاه، فدهش اسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة، ولٰكنّ الفتى خفض نظره ولم ينبس بكلمة.

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو في انتظارهم، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد. فابتسم اسفينيس وقال له:

- وفّقنا بفضل الربّ آمون.

ثمّ رفعت المرساة وتحرّكت المجاديف، فأقبل الشابّ عليه يحدّثه حديث المقابلة، حتّى قطع عليهما الحديث صوت بكاء. فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحمس متكئًا على حائط السفينة ينتحب كالأطفال، فراعهما منظره، وتذكّر اسفينيس ما غمض عليه من سلوكه في الحديقة، فدنا منه يتبعه لاتو، ووضع يده على منكبه وقال له:

- أحمس ما الذي يبكيك؟

ولكنّ الفتى لم يجبه ولم يعِ ممّا قال شيئًا، واستسلم للبكاء في حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما، وأحضر اسفينيس له قدحًا من الماء وقال له:

- ما الذي يبكيك يا أحمس؟.. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذي دعوته شارف؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء:

- كيف لا أعرفه؟. كيف لا أعرفه؟.

فسأله في غرابة:

- من هو؟. ولماذا تبكي هذا البكاء؟.

وأخرجه الحزن عن صمته، فباح بما في صدره قائلًا:

- آه يا سيّدي اسفينيس، إنّ هذا القصر الذي دخلته خادمًا من خدمك هو قصر والدي..

فبدت الدهشة على وجه اسفينيس، وتفرّس لاتو في وجهه باهتمام شديد، أمّا الشابّ فاستدرك قائلًا وهو في غيبوبة الحزن الشديد:

- هذا القصر الذي اغتصبه الحاكم خنزر هو مهد طفولتي ومرتع صباي، وبين جدرانه العالية قضت أمّي البائسة عهد الشباب والنعيم في كنف والدي قبل أن تقع القارعة في أرض مصر، وتطأ أرض طيبة المقدّسة أقدام الغزاة.

- ومن كان أبوك يا أحمس؟

- كان أبي قائد جيش مليكنا الشهيد سيكننرع.

فقال لاتو:

- القائد بيبي؟.. يا إلهي.. حقًّا هذا قصر القائد الباسل.

فنظر أحمس إلى لاتو بدهشة وسأله:

- هل كنت تعرف أبي أيّها السيّد لاتو؟

- وهل وجد في جيلنا من يجهله؟

- إنّ قلبي يحدّثني بأنّك من السادة الذين شرّدهم الغزو..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد بيبي وسأله:

- وكيف انتهت حياة القائد الباسل؟

- استشهد يا سيّدي في الدفاع الأخير عن طيبة، أمّا والدتي فعملت بوصيّته وفرّت بي في جمع من السادة إلى حيّ الفقراء حيث نعيش الآن، لقد تشتّت سادة طيبة الأقدمون. وتخفّى قوم منهم في أسمال بالية وهاجروا إلى حيّ الصيّادين، وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم، وخلا الجوّ للبيض الغرباء ذوي اللحى يمشون في الأرض مرحًا، ويملكون كلّ شيء. وكان خنزر أسعد القوم حظًّا فزوّجه الملك أخته، ووهبه ضيعة أبي وقصره، ونصّبه حاكمًا على الجنوب جزاء ما اقترفت يداه الأثيمتان..

فسأله لاتو:

- وأيّ ذنب اقترفه الحاكم؟

وكان أحمس سكت عن البكاء، فقال بلهجة تنطوي على الغضب الشديد:

- يده الأثيمة التي أردت مليكنا سيكننرع.

وانتفض اسفينيس كمن مسّته نار حامية، ولم يطق قعودًا فانتصب واقفًا متوعّدًا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروّعة تبعث الرعب في الأفئدة، في حين أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس، وردّد أحمس بصره بينهما فوجد أخيرًا من يشاركه عواطفه المضطرمة، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلًا:

- ألا فليبارك الربّ هذا الغضب القدسيّ..

وبلغت السفينة مرفأها، وكانت الشمس تنغمس في النيل والشفق يخضّب الأفق، فقصدوا إلى بيت أبانا، ووجدوا السيّدة تشعل مصباحها. فلمّا شعرت بمقدمهم تحوّلت إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب، فتقدّم منها لاتو واسفينيس وانحنيا لها في إجلال، وقال الشيخ في صوت رزين:

- طيّب الربّ مساء أرملة قائدنا العظيم بيبي...

فغاضت الابتسامة من شفتيها، واتّسعت حدقتاها دهشة وانزعاجًا، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب، وأرادت الكلام فامتنع عليها، فاغرورقت عيناها بالدموع فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه، وقال لها بحنان:

- أمّاه لا تخافي ولا تحزني، وقد علمت ما أولاني هذان السيّدان من الجميل، واعلمي إلى هذا أنّهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذين شرّدهم الطغيان، نازعهما الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرّة أخرى..

فسكنت نفس المرأة ومدّت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص، وجلسوا جميعًا متقاربينَ، وقال اسفينيس:

- إنّ فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا الباسل بيبي، الذي قضى في الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل، وإلى ابنه الشابّ المتحمّس أحمس..

فقالت أبانا:

- وإنّي لجدّ سعيدة أن تلقي إليّ المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال العهد القديم، فنتذاكر معًا أيّامنا الخوالي. ونشعر بحاضرنا شعورًا واحدًا. أمّا أحمس فهو شابّ عظيم الحماسة جدير باسمه، وقد دعاه به أبوه تيمّنا باسم أحمس حفيد مليكنا سيكننرع وابن ملكنا كاموس - وقد ولدا في يوم واحد - طيّب الربّ مساءه حيثما كان..

وبسط لاتو كفّيه مؤمّنًا على قولها، وقال بصدق وإخلاص:

- ليحفظ الربّ صديقنا أحمس، وليحفظ سميّه العظيم حيثما كان...

- ١٢ -

وتوطّدت المودّة بين التاجرين وأسرة أبانا، فعاشوا جميعًا أسرة واحدة لا يفترقون إلّا في الثلث الأوّل من الليل، وعلم الرجلان أنّ حيّ الصيّادين مكتظّ بالسادة المتخفّين من تجّار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين، فسرّ لذلك الرجلان، وأرادا أن يتعرّفا إلى بعض البارزين منهم، وأفضيا برغبتهما إلى أحمس بعد أن استوثقا من إخلاص القوم، ورحّب الفتى برغبتهما، واختار أربعة من أقرب المقرّبين إلى والدته هم: سنب وهام وكوم وديب، وأسرّ إليهم بحقيقة التاجرين، ودعاهم يومًا إلى داره حيث وافاهم لاتو واسفينيس. وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء، وزرة وسترة من الكتّان بالية، فرحّبوا جميعًا بالتاجرين وتبادلوا التحيّات بحرارة دلّت على الصدق والمودّة. قال أحمس:

- إنّ مَن ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين، وجميعهم يعيشون عيشة الصيّادين المنبوذة البائسة، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون..

وسأل هام التاجرين:

- هل أنتما من طيبة أيّها السيّدان؟

فقال لاتو:

ـ كلّا يا سيّدي. ولكنّا كنّا يومًا من ملّاك أمبوس. .

فقال سنب:

ـ وهل هاجر إلى النوبة كثيرون مثلكما؟. . .

فقال لاتو:

ـ نعم يا سيّدي، وفي نباتا خاصّة يوجد مئات من المصريّين، ومن أمبوس وسيين وهابو ومن طيبة نفسها. .

فتبادل الرجال النظرات، ولم يكن يرتاب منهم أحد في التاجرين بعدما قصّ عليهم أحمس ما صنع اسفينيس لأمّه في المحكمة، فتساءل هام:

ـ وكيف تعيشون في نباتا أيّها السيّد لاتو؟

ـ عيشة الضنك كالنوبيّين أنفسهم، ففي النوبة تجود الأرض بالذهب وتشحّ بالغلال. . .

ـ ولكنّكم سعداء ما دمتم لا تمتدّ إليكم أيدي الرعاة.

ـ دون شكّ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبَدين.

ـ ألا يوجد لنا في الجنوب قوّة حربيّة؟

ـ بلى، ولكنّها قوّة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصريّ على حفظ الأمن في البلاد.

ـ وما عسى أن يكون شعور النوبيّين نحونا بعد الغزو؟

ـ إنّ النوبيّين يحبّوننا ويرضون بحكمنا طائعين، ولذلك لا يلقى رؤوم أيّة مشقّة في حكم البلاد بقوّة صغيرة لا يعتدّ بها، ولو شقّوا عصا الطاعة ما وجدوا قوّة تؤدّبهم. . .

فلاحت الأحلام في أعين الرجال، وكان أحمس قد قصّ عليهم كيف تمكّن التاجران من اجتياز الحدود وزيارة الحاكم، وكيف أنّ اسفينيس سيقدّم إلى أبوفيس هديّة يوم الاحتفال بعيد النصر، فتساءل هام بامتعاض:

ـ وما تبغي من وراء تقديم هديّتك إلى أبوفيس؟

فقال اسفينيس:

ـ أن أثير جشعه، فيأذن لي بالاتّجار بين النوبة ومصر وتبادُل الذهب بالحبوب. . .

فسكت الرجال، وسكت اسفينيس ساعة يفكّر، وبدا له أن يخطو خطوة جديدة في سبيل مشروعه، فقال باهتمام:

ـ اصغوا إليّ أيّها السادة، ليس هدفنا الذي نرمي إليه التجارة، وما ينبغي أن تكون التجارة هدف قوم قدموا إليكم في بيت أرملة قائدنا العظيم بيبي، ولكنّا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة، وأن نستعين بقوم منكم كعمّال في الظاهر فنحملكم إلى إخواننا في الجنوب. سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب والرجال، وربّما كررنا يومًا بالرجال فقط. . .

فاستمع الجميع في دهشة ممزوجة بفرح، وأشعّت أعينهم نورًا خاطفًا، وصاحت أبانا قائلة:

ـ ربّاه!. ما هٰذا الصوت الجميل الذي يحْيي في أنفسنا هامد الأمل. !

وصاح هام قائلًا:

ـ يا إلٰهي . . . إنّ الحياة تدبّ في مقبرة طيبة.

وهتف كوم:

ـ أيّها الشابّ الذي يبعث صوته القلوب الميتة، لقد كنّا نعيش حتّى الساعة بلا أمل ولا مستقبل، يشودنا شقاء حاضرنا فلا نجد منه مهربًا إلّا في تذكّر الماضي المجيد والتحسّر عليه، وها أنت ذا تزيح الستار عن مستقبل باهر. . .

فانشرح صدر اسفينيس وأفعم قلبه أملًا، وقال بصوته الجميل المثير:

ـ لا ينفع البكاء يا أيّها السادة، فإنّ الماضي يوغل في القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسّر عليه، وما يلبث مجده أن يصبح قريبًا إذا توثّبتم للعمل له. فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجّارًا، فإنّكم في القريب تصيرون جنودًا تضيق بهم الأرض وتذلّ لهم الحصون، ولكن أصدقوني هل تثقون بإخوانكم جميعًا؟

فقالوا في نفس واحد:

ـ ثقتنا بأنفسنا. .

ـ ألا تخشون العيون؟

ـ إنّ الرعاة جبابرة بغير عقول، وقد اطمأنّوا بقوّتهم إلى استعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون.

فصفّق اسفينيس بيديه فرحًا وقال:

ـ اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشّروا بالأمل الجديد، واجمعوا بيننا وبينهم في كلّ حين لنتبادل الرأي والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب، وإذا كان مصريّو نباتا الآمنون غاضبين، فأولى بكم الغضب.

فأمّن الرجال على قوله متحمّسين، وقال نايب:

ـ نحن غاضبون أيّها الشابّ النبيل، سيثبت لك كفاحنا أنّنا أشدّ غضبًا من إخوان نباتا...

وحيّوا التاجرين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفّز لا تهدأ ولا تسكن، وسمع الرجلان أبانا تتنهّد وتقول:

ـ ربّاه!.. مَن يدلّنا على أسرة مليكنا الشهيد؟.. وفي أيّ ركن من الأرض هو؟..

ومضت أسابيع وكان اسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة. كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفّين في بيت أبانا، وكانا يكاشفانهم بآمال المصريّين المهاجرين فيبثّان في نفوسهم الأمل والحياة، ويصبّان في عزائمهم القوّة والجلاد، حتّى بات حيّ الصيّادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التي يدعى فيها اسفينيس إلى القصر الفرعونيّ.

وتوالت الأيّام حتّى كان يوم جاء حيّ الصيّادين أحد حجّاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعوّ اسفينيس، ثمّ سلّمه كتابًا من الحاكم يجيز له دخول القصر الفرعونيّ في ساعة سمّاها من يوم العيد، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور، وأشرق في نفوسهم الأمل..

وفي ذلك المساء نامت القافلة، ولبث اسفينيس منفردًا على ظهر السفينة في هدأة وجلال الليل السكون، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النبيل دررًا ولؤلؤًا لامعًا متوهّجًا، فدخلته رقّة، وأثلج صدره الرضا، وطاب لخياله أن يتردّد بين الماضي القريب والحاضر الغريب. فتمثّل ساعة الوداع في نباتا، وجدّته توتيشيري تبشّره بأنّ روح آمون أوحت إليها أن ترسله إلى مصر، وقد وقف أبوه كاموس قريبًا منه يوصيه بصوته الجهوريّ المؤثّر، وذكر أمّه الملكة ستكيموس وهي تلثم جبينه، وزوجه نيفرتاري وهي تلقي عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلّة.. فلاحت في عينيه نظرة حنان كنور القمر في صفائه وحيائه.. ونفذت قطرات من الحسن المنبثّ ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه. فانتعش وانتشى بخمر إلهيّة. ولكن طرقت مخيّلته خلسة صورة من النور والبهاء، فاقشعرّ بدنه، وأغمض جفنيه كأنّما يفرّ منها فرارًا، وهمس لنفسه بامتعاض: «يا إلهي.. إنّي أذكرها أكثر ممّا ينبغي.. وما ينبغي لي أن أذكرها بتاتًا..».

ـ ١٣ ـ

وجاء يوم العيد، فلبث اسفينيس في السفينة نهار اليوم؛ وعند المساء لبس أجمل ما عنده من الثياب، ورَجَّلَ جُمّته ومسّ طيبًا، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقًا من العاج، وهودجًا مسدل الستائر، وساروا في طريق القصر. وكانت طيبة ساهرة تضجّ أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغاني، وينير القمر منها سبلًا اكتظّت بجماعات الجنود السكارى المنشدين، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعونيّ يتقدّمها الخدم حاملين المشاعل، فتولّت الشابّ كآبة ثقيلة، وقال لنفسه محزونًا: «قضي عليّ أن أشارك القوم عيدهم الذي يحيون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكننرع». وصوّب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة، وذكر قول الحكيم قاقمنا: «الجنود إذا تعوّدوا الشراب، وهنت سواعدهم وعافوا القتال».

ثمّ تابع تيّار السائرين حتّى شارف ميدان القصر، ولاحت لعينيه أسواره ونوافذه نورًا فوق نور، فشقّت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف، ونسّمت على رأسه المحموم ريح عبقة عاطرة من ذكريات الصبا، وجدت قلبه حزينًا ونفسه والهة. ومضى تزداد شجونه كلّما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا.

واقترب الشابّ من أحد الحجّاب وأبرز له كتاب خنزر. فنظر فيه بإمعان، ثمّ نادى أحد الحرّاس وأمره

أن يقود التاجر وقافلته إلى مكان الانتظار بالحديقة. فتبعه الشابّ وعرّج وراءه إلى أحد ممرّات الفناء الجانبيّة لازدحام الممرّ الوسيط بالمدعوّين والحجّاب والحرّاس. وكان اسفينيس يذكر المكان جيّد الذكرى، وكأنّما فارقه أمس آخر مرّة. وحين بلغوا ممرّ الأعمدة الكبير المؤدّي إلى الحديقة، اشتدّ وجيب قلبه وعضّ على شفته السفلى من شدّة التأثّر، وذكر كيف كان يلعب في هذا الممرّ مع نيفرتاري، فيشدّ على عينيه حتّى تخفي نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة، ثمّ يحلّ العصابة ويجدّ في البحث عنها حتّى يظفر بها. وخال في اللحظة أنّه يسمع وقع قدميها الصغيرتين، ويسمع رجع ضحكتها الحلوة. وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتّى الآن؟.. وقد ودّ لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضي الجميل، ولكنّ الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه.. فبلغوا الحديقة، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشابّ:

ـ انتظر ها هنا حتّى يأتيك الرسول.

وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهّاجة، والنسيم يهبّ من أنحائها بشذى الريحان وريّا الزهور، فبحثت عيناه عن الموضع الذي كان يقوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممرّ المعشب الذي يشقّ الحديقة نصفين، فوجد مكانه تمثالاً جديدًا لا روح فيه؛ يمثّل شخصًا ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوّس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين، فلم يشكّ في أنّه أمام أبوفيس ملك الرعاة. فأدام إليه النظر شزرًا، ثمّ ألقى على الحرّاس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق، وكان كلّ شيء من القصر والحديقة كعهده به. ولاحت لعينيه الحجرة الصيفيّة على هضبة عالية، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة، فذكر أيّامها السعيدة، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعًا في فصلي الصيف والربيع، فينهمك جدّه وأبوه في لعب الشطرنج، وتجلس نيفرتاري بين الملكة ستكيموس وجدّتها الملكة أحوتبي، أمّا هو فيقعد في حجر توتيشيري، ثمّ تمضي الساعات وهم في شغل عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الأشعار وأكل الفاكهة الناضجة. جلس اسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرّات والأروقة، فلم يتململ ولم يجزع، حتّى جاءه الرسول وسأله:

ـ هل أنت مستعدّ؟..

فقام واقفًا وهو يقول:

ـ على تمام الاستعداد يا سيّدي.

فقال وهو يهمّ بالعودة:

ـ اتبعني.

فتبعه ورجاله على الأثر، وارتقوا أدراج السلّم، وقطعوا الرواق الفرعونيّ حتّى شارفوا باب البهو الملكيّ، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية، ووقع الأقدام الراقصة، وسجع الموسيقى العنيف، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار، فأدرك أنّ القوم لا يتحرّجون في لهوهم ولا يعتدلون في أعيادهم، وأنّ الملك يعفيهم من الوقار والتأدّب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشيّة الأولى. ثمّ نادى باسمه أحد العبيد، وتقدّم بخطًى متّئدة، ورأى وسط البهو خاليًا، والقوم جلوسًا حوله في ثيابهم الرسميّة الفاخرة يتطلّعون إليه باهتمام، فدخله شيء من الارتباك، وأيقن أنّ الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدّثهم عنه وعن هداياه لتعظم مآثره في عين الملك، واستبشر بذلك خيرًا. ولمّا جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف، ودنا وحده من العرش وحنى هامته إجلالاً، وقال بصوت الخضوع والعبوديّة:

ـ مولاي الربّ المعبود، سيّد النيل، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين.

فقال له الملك بصوت جهوريّ قويّ النبرات:

ـ إنّي أمنحك السلام أيّها العبد.

واعتدلت قامة اسفينيس، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المتربّع على عرش آبائه وأجداده، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شكّ.

ولكنّه أدرك من شدّة احمرار وجهه ونظرة عينيه

وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنّه ثمل. وكانت الملكة تجلس إلى يمينه، والأميرة أمنريدس إلى شماله، وقد لحظها الشابّ فرآها في لباسها الملكيّ كالكوكب المتألّق، وكانت تنظر إليه في هدوء وكبرياء..

وألقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلًا بصوته الغليظ:

- وحقّ الربّ إنّ هذا الوجه لجدير بأحد رجال النبلاء..

فأحنى اسفينيس رأسه وقال:

- شاء الربّ أن يجعله لمولى من موالي فرعون.

فقهقه الملك ضاحكًا وقال:

- أراك تحسن القول، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا. وهي حكمة ست أن يعطى السيف للسيّد القويّ، وحسن البيان للعبد الضعيف. ولٰكن لا عليك من هٰذا فقد قال لي صديقنا خنزر إنّك تحمل لنا هديّة من بلاد النوبة.. أرنا هديّتك.

فحنى الشابّ رأسه وانتحى جانبًا، ثمّ أشار إلى رجاله فتقدّم اثنان منهم بالصندوق العاجيّ ووضعاه أمام العرش، ودنا الشابّ منه وفتحه واستخرج منه تاجًا فرعونيًّا مزدوجًا من الذهب الخالص مرصّعًا بالياقوت والزمرّد واللؤلؤ والمرجان، ورفعه بين يديه فخطف الأبصار، وانبهر له القوم جميعًا وضجّوا بالدهشة والاستحسان، وأمّا أبوفيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين، وخلع تاجه دون شعور منه، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع، فتبدّى صورة جديدة من الجلال. واغتبط الملك ولاح في وجهه الرضا، فقال للشابّ:

- أيّها التاجر، إنّ هديّتك حازت القبول.

فانحنى اسفينيس إجلالًا، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصّة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج، ورئي الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين. وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة في نفوس القوم جميعًا، فقام أكثرهم واقفين، واشرأبّت الأعناق، وصاح بهم التاجر الشابّ أن حيّوا مولاكم فرعون، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفًّا، ثمّ اقتربوا من العرش في خطًى ثابتة وئيدة، وسجدوا بين يدي فرعون ثلاثًا، ووقفوا ساكتين لا تبين وجوههم عن شيء. وهتف الملك قائلًا:

- أيّها التاجر، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات؟.

- هي أناس يا مولاي تعيش قبائلها في أقاصي النوبة الجنوبيّة، ولا يصدّقون أنّ العالم يشتمل على أقوام سواهم. فإذا رأوا واحدًا منّا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجّبين. وقد ربّيت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم، وسيجدهم مولاي مثالًا للطاعة والعبوديّة، ونوعًا من التسلية والتلهية.

فهزّ الملك رأسه الكبير، وضحك ضحكته العظيمة ثمّ قال:

- جهل من يدّعي العلم كلّه، أمّا أنت أيّها الشابّ فقد أدخلت السرور على قلوبنا، وإنّي أمنحك رضاي..

وحنى اسفينيس هامته، ثمّ ارتدّ بظهره راجعًا. وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما، فقبض على ذراعه. والتفت اسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة، فرأى رجلًا في الثياب العسكريّة الفخمة، جميل العثنون غليظ الشاربين منتفخ الأوداج. دلّ احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون في نظرة عينيه على شدّة سكره، وقد حيّا مولاه وقال:

- إنّه ليسرّ مولاي من غير شكّ أن يشاهد فنون القتال الباسل في الحفلات القوميّة، كما تقضي به تقاليدنا المقدّسة. وإنّي أدّخر لذات مولاي المقدّسة مبارزة دمويّة تسرّ الناظرين.

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفتيه الغليظتين:

- ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هٰذا البهو لتنفض عن النفوس ما ران عليها من سأم، ولكن من السعيد الذي شرّفته بعداوتك أيّها القائد رخ؟

فأشار القائد الثمل إلى اسفينيس وقال:

- هذا غريمي يا مولاي.

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء، وسأله الملك:

ـ كيف استجلب غضبك هٰذا التاجر النوبيّ؟

ـ أنقذ امرأة فلّاحة ـ تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصي ـ من العقاب، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلًا منها.

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة، وسأل القائد:

ـ ولكن أترضى أن يكون غريمك فلّاحًا؟

ـ أراه يا مولاي متين البنيان مفتول العضلات، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإنّي أغضي عن وضاعة جنسه، مرضاة لمولاي ومشاركة في سرور العيد.

ولكنّ الحاكم خنزر لم يرض عن المبارزة، وقد رمق شقيقه القاضي سنموت بنظرة لوم، لأنّه أدرك أنّه هو الذي دلّ القائد على اسفينيس دون تقدير منه للموقف، وأشفق من أن يضيّع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم:

ـ لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلّاح أيّها القائد.

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله:

ـ إذا كان من العيب أن أقاتل فلّاحًا، فمن العار أن أترك عبدًا يتحدّاني دون أن أنزل به العقاب الذي يستحقّه.. ولمّا رأيت فرعون يمنح هٰذا التاجر عطفه، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه..

وظنّ من سمع قول القائد أنّه حقّ وعدل، وتمنّوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتمّوا سرورهم بالعيد. وكان اسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجًا، وكان يشعر بتلهّف القوم على استماع كلمته، ويحسّ نظرة التحدّي والاحتقار التي يصوّبها نحوه القائد الثمل العنيد، فيغلي الدم في عروقه. ثمّ يذكر نصائح توتيشيري ولاتو، وكيف أنّ قتله هٰذا القائد الفظّ قد يضيّع من يديه الثمرة الدانية القطوف، ويفوّت على أسرته الفرصة السانحة، فيبرد دمه وتخذله عزيمته. ربّاه.. لا محيد عن النكوص، ولا محيص عن الهرب، سيتهكّم به القائد، وترمقه الأعين بالاحتقار، ويفارق المكان منكّس الذقن كسير الفؤاد، ولكن يظفر بغرضه الأسمى. وهنا سمع القائد يقول له:

ـ لقد تحدّيتني أيّها الفلّاح، فهل تستطيع مواجهتي؟

فسكت اسفينيس شاعرًا بانهيار وتخاذل، وسمع صوتًا يقول: «دعوا الشابّ إنّه لا يعرف القتال». وقال صوت آخر: «دعوا الشابّ فإنّ الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه..» فدخله الحنق، وأحسّ يدًا توضع على كتفه وصوتًا يقول له: «لست فارسًا ولا عار عليك إذا اعتذرت». فنظر فرأى خنزر. فشعر بقشعريرة تسري في أعضائه من لمس اليد التي فتكت بجدّه. ولاحت منه نظرة في تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمنريدس تنظر نحوه باهتمام، فغلبه الغضب وفقد وعيه، فقال بصوت مسموع:

ـ إنّي أشكر القائد على نزوله لمبارزتي، وأقبل اليد التي يمدّها لي.

وسرى الفرح في النفوس، وضحك الملك وشرب كأسًا أخرى، وتطلّعت الرءوس من كلّ حدب وصوب للغريمين. وبدا الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفّي والانتقام، ثمّ سأل اسفينيس:

ـ هل تضارب بالسيف؟

فحنى رأسه أن نعم، فأعطاه سيفًا. ثمّ خلع اسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القويّ يجذب الأبصار برشاقته واعتدال قامته وجمال وجهه. وأعطي ترسًا، فقبض على السيف بيمناه، ووضع الترس على يسراه، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التي أغلقت عليها أبواب المعابد..

وأذن الملك بالقتال، فشهر كلّ منهما سيفه. وبدا القائد الغاضب الهجوم فسدّد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنّها القاضية، ولكنّ الشابّ تفادى منها بخفّة عجيبة فضاعت في الهواء، ولم يمهله القائد فوجّه إلى رأسه ضربة أشدّ من الأولى بسرعة البرق، فتلقّاها الشابّ بترسه بحركة خاطفة، فتعالت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعًا، وأدرك القائد أنّه يقاتل رجلًا يجيد الطعان، فأخذ حذره، وعاود القتال متّبعًا خطّة

جديدة، فتصاولا، واشتبكا وانفصلا، وكرّا وفرّا، القائد في غضب وعنف، والشابّ في هدوء عجيب. وكان يصدّ هجمات عدوّه بسهولة ويسر وثقة، وكان كلّما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوّه اهتياجًا وجنونًا. وأدرك الجميع أنّ اسفينيس يكتفي بالدفاع ولا يكاد يهجم إلّا إذا أراد بهجومه إفساد خطّة أو تفويت ضربة، فتجلّى فنّه، وبرع على خصمه في الخفّة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذّة القتال فوارق الأجناس. فجنّ جنون رخ، ووالى هجماته عليه بشدّة وعنف لا يني ولا يتوانى، وصوّب نحوه الضربة تلو الضربة، فصدّ بترسه ما صدّ، وتفادى بفنّه ما تفادى منه، ولبث سليمًا مطمئنًّا ذا ثقة لا حدّ لها، لا يغضب ولا يؤخذ، وكأنّه حصن منيع. فأخذ اليأس يستولي على القائد الحانق، وشعر بدقّة موقفه وشدّة حرجه، وحثّه اليأس على المغامرة، فرفع ذراعه بالسيف، وجمع كلّ ما أعطي من قوّة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام، وكان مطمئنًّا إلى خطّة عدوّه المقصورة على الدفاع. فما هو إلّا أن وجّه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفّه، وارتجفت يده، فضرب الشابّ السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدًا، فسقط قريبًا من عرش فرعون. ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده، لا يكفّ عن حنقه. فضجّ القوم مسرورين متعجّبين من بسالة التاجر وجميل عفوه، ثمّ صاح به القائد:

ـ لماذا تبطئ في الإجهاز عليّ أيّها الفلّاح؟

فقال اسفينيس بهدوء:

ـ ليس لديّ من الأسباب ما يحملني على ذٰلك. .

فصرّ القائد بنواجذه وانحنى للملك تحيّة، ثمّ دار على عقبيه وبرح البهو، وعلت ضحكة الملك طويلًا حتّى اضطرب لها جسمه، ثمّ أشار إلى اسفينيس فأعطى الشابّ سيفه وترسه إلى أحد الحجّاب، واقترب من العرش وانحنى للملك، فقال له:

ـ إنّ قتالك لا يقلّ غرابة عن أقزامك. . كيف تعلّمت القتال؟

ـ أيّها الملك المعبود، في بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه. .

فقال الملك:

ـ يا لها من بلاد. . وقد كنّا مقاتلين أشدّاء رجالًا ونساءً حين كنّا نجوب أطراف الصحراء الشماليّة الباردة، فلمّا أن احتوتنا القصور وتقلّبنا في ظلال الترف والنعيم، وشربنا بدل الماء الخمور، طاب لنا السلام، ورأيت واحدًا من قوّاد جيشي ينهزم في قتاله مع تاجر من الفلّاحين. .

وكان الملك يتكلّم متهلّل الوجه ضاحك الفم، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحيّة وقال:

ـ مولاي هذا الشابّ باسل وحقيق بالأمان.

فهزّ فرعون رأسه الثمل وقال:

ـ صدقت يا خنزر، كان القتال عادلًا شريفًا، وإنّي أمنحه الأمان.

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال:

ـ مولاي. . إنّ هٰذا الشابّ لعلى استعداد أن يؤدّي للعرش أجلّ الخدمات، بأن يحمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر.

فنظر الملك إلى الحاكم مليًّا. وذكر التاج الذي يتوّج رأسه، فقال بلا تردّد:

ـ قد أذنّا له في ذٰلك.

فانحنى خنزر شاكرًا، وسجد اسفينيس بين يدي فرعون، ومدّ يده فلثم حاشية ثوبه الملكيّ. ثمّ وقف في خشوع وهو يقاوم رغبة في النظر إلى شمال العرش، ورجع القهقرى حتّى غيّبه باب البهو الكبير. وكان مسرورًا مبتهجًا، ولكنّه كان يسائل نفسه: «ترى ماذا يقول لاتو إذا علم بقصّة المبارزة؟. .».

وبلغ اسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل، فوجدوا لاتو ساهرًا يترقّب، فأقبل على الشابّ قلقًا متشوّقًا إلى سماع أخباره، فقصّ عليه اسفينيس ما صادفه في القصر من النجاح والمتاعب، فقال لاتو:

ـ لنحمد الربّ آمون على ما أولانا من نجاح، ولكنّي أخون واجبي إذا لم أصارحك بأنّك اقترفت خطأً كبيرًا باستسلامك للغضب والكبرياء، وما كان

ينبغي لك أن تعرّض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب. أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك؟.. أوما كان من المتوقّع أن يبطش الملك بك؟.. ينبغي أن تذكر دائمًا أنّنا هنا عبيد وهم سادة، وأنّنا طلّاب فضل هم أصحابه وذووه، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم، وعلى رأسهم ذٰلك الحاكم الذي وجّه إلى جدّك العظيم والي مصر جميعًا الضربة القاضية. افعل هٰذا من أجل مصر، ومن أجل من تركناهم وراءنا في نباتا يخشون ويرجون.

ولم يتمالك الرجل فأجهش في البكاء، ثمّ مضى إلى مخدعه فصلّى صلاة حارّة..

وفي صباح اليوم التالي قصدا إلى كوخ السيّدة أبانا كما وعدا أصحابها من قبل، فاستقبلتهما السيّدة وابنها أحمس وبعض الأصدقاء، بينهم سنب وهام وديب وكوم، وكانوا جميعًا قلقين متلهّفين على سماع الأخبار، فقال لهما هام:

ـ إنّ قلوبنا قلقة يعذّبها الخوف ويلهبها الأمل. وقد تركنا وراءنا في الأكواخ القريبة المئات من الأصدقاء ممّن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية.

فابتسم اسفينيس ابتسامة حلوة، وقال:

ـ أبشروا يا أصدقاء، لقد أذن لنا الملك في الاتّجار بين مصر والنوبة.

فلاح البشر في وجوههم، وتألّقت أعينهم بنور الرجاء، وقال لاتو بحزم:

ـ جاء وقت العمل فلا تضيّعوا الوقت هباء، واعلموا أنّ الطريق طويل فينبغي أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال. لا تتوانوا عن إغراء العامّة بالاشتراك في رحلتنا، ومنّوهم بالربح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة، حتّى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود. وسنجدهم بغير شكّ من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعًا.. هلمّوا جميعًا فاحزموا أمتعتكم..

وانتشرت في الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم في جوانبها الحماسة والإيمان، وهرع الرجال المتخفّون في ثياب الصيّادين إلى السفن، وشغلوا كلّ مكان يمكن أن يشغل من أسطحها وبطونها. ثمّ واجهت اسفينيس مشكلة عسيرة وهي إرحال النساء والأطفال، وشغلهنّ أماكن أحقّ بها الرجال والشبّان، أو تركهنّ وحدهنّ على ما في هٰذا من إيلام لهنّ ولذويهنّ. ورأى الشابّ أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين، وطال الأخذ والردّ، حتّى انبرى أحمس بن أبانا فقال:

ـ أيّها السيّد اسفينيس، نحن في حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال، فلا يجوز أن يؤخّر النساء تجنيد هٰذا الجيش العظيم، وما يضيرهنّ أن يمكثن في طيبة حتّى نعود إليهنّ عودة الظافرين، وإنّه لأدعى إلى حماستنا أن نقاتل وفي البلاد نساؤنا، من أن نخلّفهنّ وراءنا في النوبة، وإذا كان في هٰذا الرأي ألم لنا، فليؤدّ كلّ منّا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية في سبيل غرضنا الأسمى.

وبلغ التأثّر بأبانا مبلغًا عظيمًا فقالت:

ـ نِعْم الرأي الحكيم... إنّ مكاننا هنا، وسنقاسم أهل طيبة حظّهم: إنّ موت فموت، وإن حياة فحياة...

ولم يتردّد أحد عن القبول، ورضي النساء بفراق الأزواج والأبناء، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال..

وكان اسفينيس لا يذوق الراحة في تلك الأيّام القلائل الحافلة بجلائل الأعمال والتفديات الصامتة، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظّم الراحلين. وكان إلى هٰذا يعلّل نفسه بالآمال، ويذكر الحاضر والمستقبل، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة في الانتقام. وكان إلى هٰذا وذاك يكتم أشواقًا تضطرم في فؤاده. ويغالب لواعج الوجدان التي باتت تأكل صدره وكبده، ويضنى بما يعترك في نفسه من أسباب البغضاء وقويّ المحبّة.. فلشدّ ما جاهد وتحمّل في الأيّام القلائل، ولشدّ ما تجلّد وتصبّر...

ـ ١٤ ـ

وأذن أخيرًا حاكم الجنوب لاسفينيس بالرحيل،

وأعطاه جوازًا لعبور الحدود في أيّ وقت يشاء. فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب، وكان اسفينيس ولاتو وأحمس بن أبانا يأخذون مجالسهم في مقصورة السفينة الأولى وفي قلوبهم شوق وحنين، وفي عيني أحمس دموع هي آخر ما ودّع به أمّه. وكان اسفينيس يغرق في أحلامه، فذكر طيبة وأهل طيبة، طيبة أعظم مدن الأرض، المدينة ذات الأبواب المائة، والمسلّات التي تناطح الجوزاء، والمعابد الهائلة والقصور الشمّ، والسبل الطويلة والميادين العظيمة، والأسواق التي لا تهدأ ولا تسكن آناء الليل وأطراف النهار، طيبة المجيدة، طيبة آمون الذي قضي أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر، طيبة التي حكمها الهمج أخيرًا وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقوّاد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهر يمرّغ وجوههم في ثرى من كان بالأمس لهم عبدًا. وتنهّد الشابّ من قلب مكلوم، ثمّ ذكر الرجال الجاثمين في بطون سفنه يحدوهم أمل واحد، ويدفعهم إلى الأهوال حبّ لمصر مكين توارثوه جيلًا بعد جيل. كم يعانون من ألم الفراق لمن خلّفوا وراءهم بين أيدي أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال، وكأنّهم جميعًا هٰذا الفتى الباسل أحمس الذي يكظم شواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوّة.. ثمّ طافت بذهنه في حشد الذكريات صورة ذات بهاء، فأطرق ليخفي عينيه عن لاتو الثاقب البصر، ولو علم الرجل فيما يفكّر لغضب مرّة أخرى، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أوّل مرّة.. وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها، وكيف لا تنفكّ تنزع إليها. وتساءل متحيّرًا: هل يمكن أن يجتمع الحبّ والكراهية لشيء واحد؟. ولاحت في عينيه نظرة حزينة، وقال لنفسه: مهما يكن أمري فلن تقع عيناي عليها مرّة أخرى فلا داعي للقلق، وهل وجد في الدنيا شيء يعزّ على النسيان؟. وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلّت على القلق:

ـ انظر إلى الشمال.. أرى قافلة قادمة على عجل...

فنظر الشابّان إلى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشقّ عباب الماء بسرعة، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنّها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعاين اسفينيس رجلًا يقف في مقدّمة القافلة فعرفه، وقال بقلق:

ـ هٰذا القائد رخ...

فامتقع وجه لاتو، وقال وقد تزايد اضطرابه:

ـ ترى هل يبغي اللحاق بنا؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق:

ـ هل يجيء هٰذا الأحمق ليعوق مسيرنا؟

وأدرك اسفينيس أنّه لم يخلص بعد من عواقب خطئه، وأنّ الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت برّ الأمان والسلامة. وصوّب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتّى جاوزت بعض سفن قافلته. وإذا بها خمس سفن حربيّة يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس، ولم تجئ لخير بلا شكّ. ثمّ اتّجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ:

ـ قف وألق مراسيك.

وغيّرت السفن اتّجاهها لتحاصر القافلة، فأمر اسفينيس بحّارته أن يكفّوا عن التجديف وأن يلقوا المراسي، فأذعنوا لما أمروا، وقد تولّاهم الخوف لمّا رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكي السلاح كأنّهم يتأهّبون لمعركة حربيّة. واشتدّ القلق باسفينيس، وأشفق من أن ينكّل القائد الحقود بقافلته فيئد أمل قومه جميعًا، وقال لرفيقه:

ـ إذا كان هٰذا الرجل يريد رأسي فلا بأس أن أكون أوّل صرعى الكفاح الجديد، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلّا أن تستأنف المسير، دون أن تمكّن للغضب من نفسك فتقضي على آمالنا جميعًا...

فشدّ الشيخ على يده وقد اسودّت الدنيا في عينيه، واستدرك اسفينيس قائلًا بحزم:

ـ إنّي أوصيك يا لاتو بما أوصيتني به بالأمس من تجنّب الغضب غير الحكيم. دعني أدفع ثمن خطئي.

ولئن تعدْ غدًا إلى أبي فتعزّيه عن موتي وتهنّئه بمن حملت إليه من جنود مصر، لخير من أن تعود بي إليه وقد خسرنا أملنا إلى الأبد...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلًا:

- اخرج إلى وسط السفينة أيّها الفلّاح.

فشدّ الشابّ على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته:

- لقد أطحت بسيفي أيّها العبد المفتون وأنا ثمل أترنّح. وهأنذا أنتظرك وقلبي ثابت وساعدي غير مرتعش.

فأدرك أنّ القائد ذو طبيعة انتقاميّة، وأنّه يريد أن ينازله ليغسل العار الذي لحقه منه، فقال له بهدوء وقد دخله شيء من الطمأنينة على قافلته:

- هل ترغب في أن تعيد الكرّة أيّها القائد؟

فقال بقحة:

- نعم أيّها العبد، وسأقتلك بيدي هذه المرّة شرّ قتلة.

فسأله اسفينيس في هدوء:

- وأنا لا أخشى نزالك، ولكن هل تعد بألّا تمسّ قافلتي بسوء مهما تكن عاقبة المبارزة؟...

فقال القائد باحتقار:

- سأترك القافلة احترامًا لمشيئة مولاي فتسير دون جثّتك.

- وأين تريد القتال؟

- على ظهر سفينتي.

فلم ينبس الشابّ بكلمة، وقفز إلى قارب وجدّف بساعديه القويّين حتّى بلغ سفينة القائد، ثمّ ارتقى السلّم إلى سطحها ووقف أمام عدوّه وجهًا لوجه. فألقى عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة، وأشار إلى جنديّ من الجنود فأعطى الشابّ سيفًا وترسًا، وقال له القائد وهو يتحفّز للقتال:

- لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك.

ثمّ هجم عليه كالوحش الضاري فاشتبكا في قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدجّجين بالسلاح؛ وعلى مقدّمة السفينة الأخرى وقف لاتو وأحمس يشاهدان المعركة ببصر زائغ... وتتابعت ضربات القائد فصدّها اسفينيس بمهارته الفائقة. ثمّ وجّه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه فصكّته بعنف بدا عليه أثره، فانتهز الشابّ الفرصة وبدأ هجومه عليه بشدّة وحذق، فاضطرّ القائد إلى التقهقر، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التي يسدّدها له خصمه المقتدر الذي لم يهيّئ له فرصة يستريح فيها أو يعاود الهجوم، وتبدّى الحنق على وجه الرجل وصرّ بنواجذه بغضب جنونيّ، فارتمى على خصمه يائسًا. ولكنّ الشابّ تفادى منه ووجّه إليه ضربة رشيقة أصابت عنقه، فتخاذلت يداه، وكفّ عن القتال، وترنّح كالثمل ثمّ سقط على وجهه يتخبّط في دمه. فصرخ الجنود صرخة غاضبة، وسلّوا سيوفهم الطويلة وتحفّزوا للانقضاض على الشابّ لدى أوّل إشارة تصدر من الضابط الذي على رءوسهم. فأيقن اسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولاسيّما أنّ كثيرين كانوا يسدّدون نحو قلبه قسيّهم، فلبث يترقّب مذاق الموت مستسلمًا وعيناه لا تفارقان القائد الطريح أمامه. وفي تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتًا قريبًا يصيح بغضب:

- أيّها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم..

وخُيّل إليه أنّه يعرف الصوت فانخلع قلبه في صدره، والتفت إلى مصدر الصوت فرأى سفينة فرعونيّة تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكئ الأميرة أمنريدس، تلوح على وجهها الجميل آي الغضب.

★★★

وأغمد الجنود سيوفهم وأدّوا التحيّة، فحنى اسفينيس هامته إجلالًا قبل أن يفيق من دهشته ويصدّق حقًّا أنّه نجا من الموت، وسألت الأميرة الضابط قائلة:

- هل قتل القائد رخ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحّص عنقه، ثمّ وقف قائلًا:

- أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السموّ، ولكن به نفس يتردّد.

فسألته ببرود:

- وهل كان القتال عادلًا؟

- نعم يا صاحبة السموّ.

فقالت الأميرة بغضب:

- كيف إذن سوّلت لكم نفوسكم الهمّ بقتل رجل أعطاه الملك الأمان؟..

ولاح الارتباك في وجه الضابط ولم ينبس بكلمة، فقالت الأميرة بلهجة آمرة:

- أطلقوا سراح هٰذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطبّاء القصر..

وأذعن الضابط لما أمر فترك اسفينيس حرًّا، فهبط الشابّ إلى قاربه ووجهه إلى السفينة الفرعونيّة، وهو يقول لنفسه بارتياح: «كيف جاءت الأميرة في الوقت المناسب؟..». ثمّ صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحرّاس، وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين، وطلب من جارية أن تستأذن له في الدخول. فغابت في الداخل لحظة ثمّ جاءت بإذن، فدخل خافق القلب، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها في رخاوة إلى نُمْرُقَة محشوّة بالقزّ ووجهها يشعّ نورًا سنيًّا، فانحنى بين يديها في إجلال صادق، ورأى وهو يعتدل واقفًا عقده ذا القلب الزمرّديّ حول عنقها، فتورّد وجهه. ولم يغب عنها شيء ممّا ينطق به وجهه وعيناه، فقالت بصوت رخيم عذب وهي تشير بأنملتها إلى العقد:

- أجئت تسألني ثمن هذا العقد؟

فاطمأنّ الشابّ إلى لهجتها العذبة، وسرّ بدعابتها وقال بإخلاص:

- بل جئت يا صاحبة السموّ لأشكر سموّك مخلصًا على ما أوليتني من نعمة الحياة، التي سأظلّ مدينًا لك بها ما حييت..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت في ثغرها كومضة البرق، وقالت:

- نعم أنت مدين لي بحياتك. ولا تعجب إذ أقول هٰذا فلست ممّن يأخذهم الرياء بتصنّع الكذب والتواضع، فلقد علمت صباح اليوم أنّ القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرّض لقافلتك، فلحقت به في السفينة وشهدت جانبًا من قتالكما، ثمّ تدخّلت في الوقت المناسب لإنقاذ حياتك..

فوقع هٰذا المنّ من قلبه موضع الماء من الصادي، ووجد في نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها في إنقاذ حياته، ما جعله ينتشي بخمر السعادة، وسألها:

- هل أطمع في أن تصارحني مولاتي، بما أعهده فيها من كراهية للرياء والتصنّع، بالسبب الذي جعلها تجشّم نفسها تعب إنقاذ حياتي؟..

فقالت في استرسال وكأنّها تسخر ممّا ظنّ أنّه أحرجها به:

- أن أجعلك تدين لي بحياتك..

- هو دين يسعدني ولا يفقرني..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتّى أحسّ أنّه على وشك أن يترنّح ويقع على قدميها، وقالت:

- يا لك من مراء كذوب.. أهٰذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره لسفرة لا رجعة منها؟..

- كلّا يا مولاتي بل لسفرة لها معاد قريب..

فقالت وكأنّها تحدّث نفسها:

- إنّي أسائل نفسي عمّا عسى أن يكون انتفاعي بهٰذا الدين؟..

ووجب قلبه، ونظر إلى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنوّ أعذب من الحياة التي وهبته إيّاها، وأحسّ أنّ ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب إليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا، ففقد لبّه وهوى على قدميها..

ثمّ سألته وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبيّ على جبينها الأغرّ وأذنيها:

- هل تغيب طويلًا؟

فقال وهو يتنهّد:

- شهرًا يا مولاتي.

فلاحت في عينيها نظرة حزن وقالت:

ـ ولكنّك تزمع العودة.. أليس كذٰلك؟

ـ نعم يا مولاتي وحقّ حياتي التي هي لك.. وحقّ هٰذه المقصورة المقدّسة..

فمدّت إليه يدها وقالت:

ـ إلى الملتقى..

فلثم يدها وقال:

ـ إلى الملتقى..

★ ★ ★

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين وضمّه إلى صدره، وتعلّق أحمس بعنقه ولثم جبينه، ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان، ووقفوا يودّعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهي توغل في الشمال وهم يوغلون في الجنوب، حتّى ارتدّت عنها الأبصار وهي كليلة.

وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأنّ شيئًا لم يقع.

وجعل اسفينيس يعلّل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشدّاء ذوي الأجسام النحاسيّة، ولكنّ قلبه كان ينزع به إلى المقصورة، هل يداخل لاتو شكّ؟.. إنّ لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كلّ شيء إلّا حبّ مصر، وهو نفسه لا يخلو من همّ يساوره ولا يدري أأخطأ أم أصاب، ولكن مَنْ مِنْ بني الإنسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدّر له من قبل دون حسبان لما يجد من الأمور؟.. فلربّ قاصد إلى جبل يجد نفسه منحدرًا في واد عميق، ولربّ مزمع صيد أراش له نبلًا يلقى الصيد منقضًّا عليه ومطارده.

ـ ١٥ ـ

واجتازت القافلة حدود مصر في سلام، فصلّى رجالها للربّ آمون صلاة جامعة حارّة، وشكروا ربّهم على ما هيّأ لهم من سبل النجاة، ودعوه أن يدني إليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كلّ سوء. وصعدت القافلة في النهر أيّامًا وليالي حتّى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى أرض الجزيرة، ووقف بينهم واسفينيس إلى يمينه ثمّ قال لهم:

ـ أيّها الإخوان، دعوني أصارحكم بسرّ أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم؛ ألا فاعلموا أنّنا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكننرع إليكم، وأنّ مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن في نباتا...

فلاحت الدهشة في وجوه الرجال، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح:

ـ أحقّ أيّها السيّد لاتو أنّ أسرتنا الفرعونيّة في نباتا؟

فحنى رأسه بالإيجاب مبتسمًا، فسأله آخرون:

ـ هل توجد هناك أمّنا المقدّسة توتيشيري؟

ـ نعم.. وستباركم في الغد القريب.

ـ ومليكنا كاموس بن سيكننرع؟

ـ نعم وسوف ترونه بأعينكم، وتسمعون إليه بآذانكم.

ـ ووليّ العهد أحمس؟..

فابتسم لاتو وأشار إلى اسفينيس، ثمّ حنى هامته قائلًا:

ـ إليكم أيّها السادة وليّ عهد المملكة المصريّة، حضرة صاحب السموّ الفرعونيّ الأمير أحمس.

وتصايح كثيرون:

ـ التاجر اسفينيس وليّ عهد مصر الأمير أحمس؟..

أمّا أحمس أبانا فقد سجد بين يدي الأمير وهو يبكي، فسجد الجميع وراءه، منهم من يبكي ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعًا، يودّ رجالها لو تطير بهم طيرانًا إلى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمّهم المقدّسة توتيشيري.. ومضت أيّام وليالٍ، ثمّ لاحت في الأفق نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتّى رست القافلة إلى مرفئها. وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر الحاكم، وتجمّع حشد النوبيّين على الشاطئ ليشاهدوا السفن والقادمين عليها. ونزل المصريّون إلى الشاطئ يتقدّمهم الأمير أحمس والحاجب حور، ثمّ جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم، فحيّا الأمير والقادمين معه، وأبلغهم تحيّة الملك وأسرته، وأخبرهم

أنّ جلالته ينتظرهم في القصر. وهتف الرجال للملك طويلًا، ثمّ ساروا في جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيّين..

وكانت الأسرة الفرعونيّة تجلس تحت مظلّة كبيرة في فناء قصر الحاكم، وقد غيّرت تلك السنوات العشر منها ما غيّرت، فترك الجدّ والصرامة والحزن في نفوسهم جميعًا آثارًا لا تمحى أبد الدهر، وكان أكبرهم تأثّرًا بالدهر، الملكتان توتيشيري وأحوتبي، فجفّ عود الأمّ المقدّسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلًا، وحفرت الآلام في جبينها الوضّاء تجعّداتها، ولم يبق من توتيشيري القديمة سوى بريق عينيها ونظراتها الدالّة على الحكمة والصبر، وأمّا أحوتبي فقد جلّل رأسها المشيب، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم.

ولـمّا رأى الشعب مليكه، سجد له، ثمّ تقدّم أحمس من أبيه وقبّل يد والدته الملكة ستكيموس وجدّته أحوتبي وتوتيشيري، وقبّل جبين زوجته الأميرة نيفرتاري، ثمّ وجّه خطابه إلى الملك قائلًا:

ـ مولاي لقد تعهّد آمون عملنا بالنجاح، فإلى جلالتكم أقدّم أوّل كتائب جيش الخلاص..

فلاح السرور في وجه الملك، وقام واقفًا ورفع الصولجان تحيّة لقومه، فهتفوا له طويلًا، ثمّ أقبلوا عليه يقبّلون يده رجلًا رجلًا، ثمّ قال لهم كاموس:

ـ حيّاكم الربّ أيّها الطيبيّون الشجعان الذين فرّق البغي بيننا وبينهم، فقضى عليهم أن يساموا الخسف، كما قضى علينا أن نذوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة. ولكن أراكم رجالًا تأبون الضيم وتؤثرون مشقّة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة في ظلّ الذلّ، كما عهدتكم دائمًا وكما عهدكم أبي من قبل، فجئتم تَصِلون جناحي بعد أن تمزّق أو كاد، وتثبّتون قلبي وقد أرعشه جفاء الدهر، وكان من رحمة الربّ آمون أن جاء أطهرنا قلبًا وأعظمنا أملًا الأمّ توتيشيري في المنام، وأمرها أن تبعث بابني أحمس إلى أرض الآباء والأجداد ليأتي بالجنود الذين يخلّصون مصر من عدوّها ومذلّها، فبعثت بابني كما أمر الربّ

وأتى بكم، فمرحبًا بكم جنود مصر وجنود كاموس، وسيأتي غدًا آخرون؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى العمل؛ وليكن شعارنا الكفاح، وأملنا مصر، وإيماننا آمون..

فصاحوا جميعًا كرجل واحد: «الكفاح ومصر وآمون..»

ثمّ قامت توتيشيري واقفة وتقدّمت خطوات متوكّئة على صولجانها، ثمّ قالت للرجال بصوت قويّ سليم النبرات:

ـ يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة، تقبّلوا تحيّات أمّكم الكبيرة، ودعوني أقدّم لكم هديّة صنعتها بيديّ لكم لنعمل جميعًا تحت ظلّها.

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجانها، فاقترب من الرجال وقدّم إليهم علمًا كبيرًا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة، فتلقّفته الأيدي بحماسة، ودعوا لأمّهم دعاءً حارًّا وهتفوا لها ولطيبة المجيدة، فابتسمت توتيشيري وأضاء وجهها نور بهيج، وقالت:

ـ يا أبنائي الأعزّاء، أصارحكم بأنّي لم أستسلم إلى اليأس أبدًا، وقد أوصانا سيكننرع يوم الوداع بأن نحذر اليأس. وما زلت أدعو الربّ أن يمدّ في أجلي حتّى أرى طيبة مرّة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا والسفلى، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أملي بعد أن ضمّت إليّ سواعدكم الفتيّة.

فتعالى هتاف القوم مرّة أخرى، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الربّ، والحاجب يجيبه بما عرف، ثمّ قدّم الأمير أحمس إلى أبيه أحمس أبانا ابن القائد بيبي، فرحّب به الملك وقال له:

ـ أرجو أن تكون لي كما كان أبوك لأبي قائدًا باسلًا، فعاش لواجبه ومات في سبيله..

ثمّ دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء، فأكلوا هنيئًا وشربوا مريئًا، ثمّ مضوا جميعًا يفكّرون في الغد القريب والغد البعيد، وباتت نباتا لأوّل مرّة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل..

كفاح أحمس

- ١ -

لم تكن حياة الأسرة الفرعونيّة في المهجر حياة دعة وخمول، ولكنّها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد، ومدارها جميعًا قلب توتيشيري الذي لا يعرف اليأس أو الراحة. فطلبت منذ بدء قدومها إلى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصنّاع النوبيّين والفنّيين المصريّين المقيمين بالنوبة، فبعث الرجل برسله إلى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة، وجاءوه بالصنّاع والعمّال. وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربيّة، وبناء السفن وعجلات القتال، وقالت له تشجّعه: «ستعمد يومًا إلى الهجوم على العدوّ الذي اغتصب عرشك وامتلك بلادك، فينبغي إذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير، وقوّة عجلات لا تقهر كما فعل العدوّ مع أبيك».

وتحوّلت نباتا في أثناء السنوات العشر إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربيّة بأنواعها جميعًا، ونمت ثمارها على مرّ الأيّام فكانت دعائم الأمل الجديد. ولمّا جاء الرجال مع القافلة الأولى، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد راهنًا موفورًا، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحماسة والأمل الصادق، فانخرطوا جميعًا غداة وصولهم إلى نباتا في سلك الجنديّة، وتدرّبوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوّعة تحت إشراف ضبّاط الحامية المصريّة، فلم تأخذهم في التدريب هوادة، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتّى غروب الشمس.

كانوا يعملون جميعًا لا فرق بين كبير وصغير، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول، يعاونه وليّ العهد أحمس، وأبت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة إلّا أن يعملن مع العاملين، فكنّ يثقّفن السهام ويرشنها، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحربيّة، وكنّ لا يفتأن يختلطن بالجنود والصنّاع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجّعنهم ويثبّتن قلوبهم. وما كان أروع منظر الأمّ توتيشيري وهي مكبّة على عملها بهمّة لا تعرف الملل، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقي عليهم كلمات الحماسة والرجاء، وكان الرجال يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة وإقبالًا، فتبتسم المرأة استبشارًا، وتقول لمن حولها:

- إنّ السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا لم تدفعها قلوب أشدّ صلابة من حديدها... انظروا إلى رجال طيبة كيف يعملون؟ سوف ينقضّ الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوي اللحى القذرة والبشرة البيضاء، فيطيّر أفئدتهم...

والحقّ قد انقلب الرجال بقوّة الحماسة والحبّ والبغضاء وحوشًا ضواري..

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية، فضاعف لها السفن، وملأها بالذهب والفضّة والأقزام وغريب الحيوان، وارتأت الأمّ توتيشيري أن يحمل معه جماعات من النوبيّين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة ليكونوا عبيدًا في الظاهر وأعوانًا في الباطن، يطعنون العدوّ من الخلف إذا اشتغل يومًا باشتباك معهم، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور، وعمل على تحقيقها بغير تردّد..

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن في السفن، وكان الأمير أحمس ينتظر تلك الساعة بقلب

أضناه الشوق وعناه الجوى، فاستأذن في الرحيل على رأس القافلة، ولكنّ الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرّض له من الأخطار، أبى أن يجازف بسفره مرّة أخرى بغير داعٍ، فقال له:

- أيّها الأمير، إنّ واجبك الآن يدعوك إلى البقاء في نباتا..

فبغت الأمير بقول أبيه الذي ألقى على الأمل المضطرم في صدره كما يلقى الماء البارد على الجمرة المستعرة، وقال له برجاء صادق:

- إنّ رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلي بها قلبي..

فقال الملك:

- ستجد الشفاء التامّ يوم تدخلها غازيًا على رأس جيش الخلاص...

فعاود الشابّ الرجاء قائلًا:

- أبي، طالما علّلت نفسي برؤية طيبة قريبًا.

فقال الملك بحزم:

- لن يطول انتظارنا، فاصبر حتّى تأذن ساعة الكفاح.

وأدرك الشابّ من لهجة الملك أنّه قال كلمته الأخيرة، فأشفق من إغضابه إذا عاوده الرجاء، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحسّ الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه، ولكنّه تماسك وتجلّد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرّب الرجال والقلب حزين كئيب، وكان نهاره ينقضي في العمل الشاقّ فلم يظفر من يومه إلّا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادي في خلوته حلو الذكريات، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة في السفينة الفرعونيّة التي شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن وألطف الهوى، فيخال أنّه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلًا: «إلى الملتقى». ثمّ يتنهّد من أعماق قلبه ويقول أسيفًا محزوناً: أين الملتقى؟... إنّه الوداع الذي لا لقاء بعده.

على أنّ نباتا في تلك الأيّام كانت حقيقة بأن تنسي الرجل نفسه وهمّه، وتقصره على الاشتغال بما هو أجلّ وأخطر، وكان الرجال يعملون جادّين يكافحون بغير انقطاع، فإذا نسّمت عليهم ريح طيبة وهزّهم الشوق إلى من خلّفوهم وراء أسوارها، تنهّدوا حينًا ثمّ انكبّوا على ما بين أيديهم بهمّة أعظم وعزيمة أشدّ، ومرّت بهم الأيّام لا يصدّقون أنّ في الدنيا شيئًا غير العمل، أو أنّ في الغد شيئًا سوى الأمل... ثمّ عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهّفين مثلهم: أين مليكنا كاموس، وأين أمّنا توتيشيري، وأين أميرنا أحمس؟... ثمّ ينضمّون إلى المعسكر يعملون ويتدرّبون.

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحيّاه، ثمّ مدّ له يده برسالة وقال:

- عهد إليّ أن أحمل إلى سموّك هذه الرسالة..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشًا:

- من مرسلها؟

ولكنّ حور لازم الصمت في وجوم، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه، وفضّ الرسالة وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتدّ وجيب قلبه، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هي ما يأتي:

أيّها التاجر اسفينيس:

يحزنني أن أخبرك بأنّي اخترت قزمًا من أقزامك ليعيش معي في جناحي الخاصّ، وأنّي عنيت به وأطعمته ألذّ الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة، حتّى أنس بي وأنست به، ثمّ افتقدته يومًا فلم أجده فأمرت الجواري أن يبحثن عنه فوجدته قد هرب إلى أخويه في الحديقة، فآلمني غدره وصددت عنه، فهل لك أن تبعث إليّ بقزم جديد يعرف الوفاء؟..

أمنريدس

وأحسّ أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه، وأنّ الأرض تميد تحت قدميه، ولاحت منه نظرة إلى حور فرآه ينعم النظر كأنّه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه.

فتحوّل عنه وسار في سبيله محزونًا كسير الفؤاد، يقول لنفسه هيهات أن تدري بما يمنعه من العودة

إليهـا، وهيهات أن يستـطيع يـومًا أن يبثّهـا شجـوه وعواطفه، وسترى فيه دائمًا القزم فاقد الوفاء.

وانطوى على آلامه لا يحسّ ما يستعر في فؤاده سوى أقرب الأفئدة إليه: نيفرتاري، وقد تحيّرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده، ونظرة الحزن التي تلوح في عينيه الجميلتين كلّما أرسـل النظر غـير قاصد شيئًا.

فقالت له ذات مساء:

ـ لست كعهدي بك يا أحمس.

فاضطرب لملاحظتها، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسمًا:

ـ إنّه التعب يا حبيبتي، ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهدّ الجبال الرواسي؟...

فهزّت رأسها ولم تقـل شيئًا، وغـدا الشابّ أشـدّ حذرًا...

على أنّ نباتا لم تكن لتترك إنسانًا يغرق في حزنه، لأنّ العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد. فكانت تدرّب الرجال، وتصنع السفن والعجلات والسلاح، وترسل القوافل محمّلة بالذهب فتعود محمّلة بالرجال، ثمّ تردّها فترتدّ إليها. ومضت الأيّام والشهور الطوال إلى أن جاء اليوم السعيـد المرتقب، فقصـد الملك كامـوس إلى جدّتـه توتيشيري وهو لا يتمالك من الفرح، ولثم جبينها وقال بصوت متهدّج:

ـ أبشري يـا أمّـاه، لـقـد تـمّ إعـداد جـيش الخلاص...

ـ ٢ ـ

ودقّت طبول الرحيـل فانتـظم الجيش فرقًـا ورفع الأسطول مراسيه، ودعت توتيشيري إليها الملك ووليّ العهد وكبار القوّاد والضبّاط وقالت لهم:

ـ هذا يوم من الأيّام السعيدة التي طـال انتظاري لها، فأبلغـوا جنودكم البـواسل أنّ تـوتيشيري تضرع إليهم أن يفكّوا أسرها، ويحطّموا الأغـلال التي تغلّ أعناق مصر جميعًا. وليكن شعاركم جميعًا أن تحيوا حياة أمنمحيت أو تموتوا ميتـة سيكننرع. وليباركـكم الربّ آمون وليثبّت قلوبكم..

فقبّل الرجال يدها النحيلة، وقال لها الملك كاموس وهو يودّعها:

ـ سيكـون شعارنـا جميعًا حيـاة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع، وسيموت من يموت منّا أشرف ميتة، ويحيا من يبقى منّا أعزّ حياة.

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونيّة والحاكم رؤوم تـودّع الجيش اللجب. ودقّت الطبـول وعزفت الموسيقى وتحرّك الجيش متّبعًا نظامه التقليديّ. فتقدّمته قوّة الكشّافة تحمل الأعلام، وسار الملك كـاموس في طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجّاب والقوّاد يتبعها الحرس الفرعونيّ في عجلاته الأنيقة، ثمّ تقدّمت فرقة العجلات الجبّارة تسير صفوفًا صفوفًا لا يحدّهـا البصر، تبعث عجلاتها في الجوّ صلصلة تصمّ الآذان وتصهال جيادها كزفزفة الرياح، وتليهـا فرقـة القسيّ الثقيلة بقسيّها ودروعها وجعبات السهام، تتأثّرها فرقة الرماح المدرّبة برماحها وتروسها، ثمّ فرقـة الأسلحة الخفيفة، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان. وأبحر كذٰلك الأسطول بسفنه الجبّارة وقد تهيّأ الجنود عليه بكامـل معدّاتهم من القسيّ والـرماح والسيوف...

وتقدّمت هٰذه القوّات على أنغام الموسيقى تستعـر الحـماسة في قلوبهـا الفتيّة الغـاضبة، ويلقي منـظرها الـراهب الرعب في الأفئـدة والنفوس، تقـطع النهـار ضاربة في الأرض وتهجع إذا ما خيّم الظلام لا تكلّ ولا يصيبها الإعياء، مستعينة على مشاقّ الطريق وطول الـرحلة بعزائم تـزحـزح الجبـال، فمـرّوا في سبيلهم بسمنة وبون وأبسخليس وفنتريس ونافس، وما زالوا يضربـون في الأرض حتّى بلغـوا دابـود آخـر بلدان النـوبة، ونسّمت عـلى وجوههم ريـح مصر الطيّبـة، فعسكروا وأقامـوا الخيام ليستـريحوا من وعثـاء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال..

ودبّر الملك ورجالـه خطّة الغـزو الأولى فأحكمـوا

التدبير. وعهد إلى أحمس أبانا ـ وكان أمهر رجال الأسطول كافّة ـ بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر، باعتباره قافلة ممّا ألف الحرّاس اجتيازها للحدود في العهد الأخير. وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصريّة عند إسفار الصبح. وكان أحمس أبانا يقف على ظهر السفينة في ثياب التجّار الفضفاضة، فأبرز جواز الدخول للحرّاس ودخل بأسطوله في سلام، وكان الضابط يعلم أنّ حرس الحدود مكوّن من سفن قلائل وحامية صغيرة، فكانت خطّته ترمي إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها، ثمّ ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتّى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر، فيسهل عليه ضرب سيين ولمّا تأخذ أهبتها. وتقدّمت القافلة في خطّ أفقيّ، فلمّا دنت من شاطئ بيجة الجنوبيّ حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسيّ، وخلع أحمس عباءة التجّار فبدا في ثياب الضبّاط، وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن، واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة، وانقضّ عليها قبل أن يأتيها مدد من البرّ، وألقى عليها شباكه وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحرّاس القليلين، في معركة صغيرة فأبادوهم في زمن يسير. وفي أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحمس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم في السفن، فتمّ الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلّف المهاجمين ثمنًا غاليًا، وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتّصال بالمدن الشماليّة، وتنبّهت حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة فجرت إلى الشاطئ، ولكنّها وجدت نفسها حبيسة محصورة، وأنّ أسطولها الصغير أسير. . .

ولم يمض إلّا قليل وقت على انتهاء المعركة حتّى بدت وحدات الأسطول المصريّ في الأفق تمخر عباب الماء متّجهة صوب الحدود. ثمّ اجتازتها دون أن تجد مقاومة، وانضمّت إلى أسطول أحمس أبانا، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة، ممّا اضطرّ حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيدًا من مرمى سهام الأسطول التي انهالت عليها من جميع الجهات.

وما هي إلّا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقيّ، تتبعها الفرق ذات اللجب، فأدرك المحاصرون في بيجة أنّ القادمين غزاة لا قراصنة كما توهّموا أوّل الأمر. ثمّ أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة، فانقضّت عليها السفن من جميع الجهات، وأنزلت الجنود المدجّجين بالسلاح تحت حماية القسيّ، وزحف الجنود من جميع النواحي نحو الحامية المحاصرة في الوسط، وكان جنودها ـ إلى وقوعهم في مركز دقيق ـ قد رأوا تدفّق القوّات المصريّة في البرّ والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم، وألقوا السلاح وسلّموا أنفسهم وأخذوا أسرى. وكان أحمس أبانا على رأس المهاجمين، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر، ورفع عليه الأعلام المصريّة، وأمر بالقبض على الموظّفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود. .

ورأى أهل الجزيرة من الفلّاحين والعمّال والخدم الجنود المصريّين فلم يصدّقوا أعينهم، وهرعوا نساءً ورجالًا إلى قصر الحاكم الجديد وتجمّعوا أمامه ليروا ما الخبر، تصطرع في نفوسهم الآمال والمخاوف، فخرج إليهم أحمس أبانا، وقد تطلّعوا إليه صامتين، فقال لهم:

ـ حيّاكم الربّ آمون حامي المصريّين وقاهر الرعاة.

فوقعت كلمة آمون من آذانهم موقعًا جميلًا ساحرًا، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم:

ـ هل أتيتم حقًّا لإنقاذنا؟

فقال أحمس أبانا بصوت متهدّج:

ـ لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا، ألا ترون هذه القوّات الهائلة؟ إنّها جيش الخلاص، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكننرع، الذي جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه.

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين، ثمّ غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له طويلًا، وجثا كثيرون يصلّون للربّ آمون المعبود، وسأل بعض الرجال أحمس أبانا قائلين:

ـ هل انتهت عبوديّتنا حقًّا؟ وهل نردّ اليوم أحرارًا كما كنّا من قبل سنوات عشر؟.. هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأنّنا فلّاحون؟..

فاهتاج أحمس أبانا غضبًا وقال بحنق:

ـ ثقوا أنّ عهد الظلم والعبوديّة والسوط قد مضى إلى غير رجعة، وأنّكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارًا في كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعيّ، وستردّ إليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر في غيابات السجون.

فشمل الفرح النفوس المعذّبة، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء إلى آمون في السماء، وكاموس في الأرض...

ـ ٣ ـ

وفي رونق الضحى نزل الملك كاموس ووليّ عهده أحمس والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعًا إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالًا حماسيًّا، وخرّوا سجدًا يقبّلون الأرض بين يديه، وتعالى هتافهم لذكر سيكننرع ولتوتيشيري وللملك وللأمير أحمس، فحيّاهم كاموس بيديه، وتحدّث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأكل ما قدّموه له من الدوم والفاكهة، وشرب وحاشيته وقوّاده أقداحًا مترعة بنبيذ مريوط، ذهبوا جميعًا إلى قصر الحاكم، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعوّ سهار حاكمًا على الجزيرة وعهد إليه في نشر العدالة وتطبيق القوانين المصريّة. وفي ذلك الاجتماع أجمع القوّاد على وجوب مفاجأة سين عند الفجر، لتُضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها..

ونام الجيش مبكّرًا واستيقظ قبيل الفجر. ثمّ زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسدّ منافذ النيل، فشقّ الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة، والغضب يتأجّج في الصدور فتتلهّف على الانتقام والقتال. واقتربوا من سين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول، وشفّ الأفق الشرقيّ عن طلائع الشمس، وأصدر كاموس أمره إلى قوّات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيّدها قوّات من فرقتي القسيّ والرماح، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربيّ للمدينة، وهجمت القوّات على المدينة من ثلاث جهات في وقت واحد، وكان يقود العجلات ضبّاط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها، فوجّهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة. تبعتها قوّات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدوّ مذبحة سالت فيها الدماء أنهارًا. واستطاع الرعاة أن يقاتلوا في بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبّت عليها ريح عاصفة.. أمّا الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق في طريقه بسفن حربيّة فاستولى على الشاطئ وأنزل قوّات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان، ثمّ اخترقت القوّات الحقول صوب المدينة...

وكانت المفاجأة عاملًا فاصلًا في المعركة قصّر مدّتها وكثّر صرعاها من الرعاة، فما ارتفعت الشمس في الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتّى رئيت جموع الغزاة وهي تحتلّ الثكنات والقصور وتسوق الأسرى، وشوهدت الجثث ملقاة في السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها، وذاع في أرجاء المدينة والحقول القريبة أنّ كاموس ابن سيكننرع اقتحم سين بجيش جرّار واستولى عليها، فاستعرت على الأثر ثورة دمويّة، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلوهم في مخادعهم، ومثّلوا بهم وضربوهم بالسياط ضربًا مبرّحًا، فهام كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريّون حين زحف أبوفيس على الجنوب بعجلاته ورجاله... ثمّ هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام

المصريّة وتسير بين يديه قوّات الحرس بموسيقاها، فهبّ الأهلون يستقبلونه، وكان يومًا مجيدًا. . .

ونقل الضبّاط للملك أنّ عددًا غفيرًا من الشبّان ـ ومنهم مَن كانوا جنودًا في الجيش القديم ـ يقبلون على التطوّع في الجيش بحماسة فائقة، فسرّ كاموس وولّى على المدينة أحد رجاله المدعوّ شاو، وأمره بأن ينظّم المتطوّعين ويدرّبهم لينضمّوا إلى الجيش جنودًا متأهّبين، وأحصى القوّاد للملك ما غنموه من العجلات والجياد، فإذا هو شيء عظيم.

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدّموا دون توانٍ حتّى لا يَدَعوا للعدوّ مهلة للتأهّب وحشد الجيوش، وقال:

ـ سنخوض أوّل معركة حقيقيّة في أمبوس. .

فقال كاموس:

ـ نعم يا حور، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارّين، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن، وسنلقى عدوّنا مستعدًّا، وربّما استطاع أبوفيس أن يلقانا بقوّاته الغاشمة في هيراكونبوليس. . فهيّا إلى المسير. . .

وزحفت القوّات المصريّة ـ البرّيّة والنيليّة ـ صوب الشمال في طريق أمبوس، ودخلت في قرى كثيرة فلم تلق مقاومة البتّة، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة، وعلم الملك أنّ رجال العدوّ يحملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارّين إلى أمبوس، وخرج الفلّاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيّون مليكهم المظفّر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل. وجدّ الجيش في المسير حتّى شارف أمبوس، وهناك جاءت طلائع الكشّافة تقرّر أنّ العدوّ معسكِر جنوب المدينة متأهّبًا للقتال، وأنّ أسطولًا متوسّط العدد يرسو غرب أمبوس، فعلم كاموس أنّ أوّل معركة مهمّة باتت على الأبواب. ورغب الملك في أن يعرف عدد جنود عدوّه، ولكن تعذّر ذلك على جنود الكشف لأنّ العدوّ كان يعسكر في سهل منبسط لا تسهل مراقبته، فقال قائد شابّ يدعى محب:

ـ لا أظنّ يا مولاي أنّ قوّة أمبوس تعدو بضعة آلاف. . .

فقال الملك كاموس:

ـ إئتوني بكلّ ضابط أو جنديّ من أمبوس. . .

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال:

ـ عفوًا يا مولاي، لقد تغيّر وجه أمبوس في عشرة الأعوام المنقضية، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل، رأيتها بعينيّ في بعض رحلاتي التجاريّة، ومن المرجّح أنّ الرعاة جعلوا منها مركزًا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود. . .

فقال القائد محب:

ـ على أيّ حال يا مولاي أرى أن نهجم بقوّات خفيفة، حتّى لا نتكبّد خسارة فادحة. . .

ولم يستحسن الأمير أحمس هذا الرأي، فقال لأبيه:

ـ مولاي أرى خلاف هذا الرأي، أرى أن نهاجم بقوّات كثيفة لا تقاوم، وأن نقذف جلّ قوّاتنا في المعركة لنضرب العدوّ الضربة القاضية في أقصر وقت، فنذهل القوّات التي تحشد في طيبة الآن لقتالنا، ونقاتل من الغد رجالًا يرون الموت ماثلًا في قتالنا. ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا، فسيتضاعف جيشنا بما ينضمّ إليه من المتطوّعين في كلّ بلد نغزوه، ولن يجد عدوّنا لخسارته عوضًا. .

وراق هذا الرأي الملك فقال:

ـ إنّ رجالي يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر في سبيل طيبة. . .

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم في كسب الموقعة، للدور الخطير الذي يلعبه في ضرب الحصار على شواطئ المدن الغنيّة أو إنزال جنود في مؤخّرة العدوّ، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس. . .

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد، ذوي بأس ومقدرة، وكانوا يستهينون بالمصريّين استهانة متأصّلة، فبدءوهم بالهجوم وهم يجهلون قوّتهم، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكوّنة من مائة عجلة حربيّة. وأصدر

كاموس أمره بالهجوم، فاندفعت قوّات من العجلات تزيد على ثلاثمائة، وأطبقت على قوّة العدوّ فثار النقع وصهلت الخيل وعزفت القسيّ. ودار قتال عنيف، وعزم الأمير أحمس على أن يقضي على العدوّ القضاء المبرم فاندفع بمائتي عجلة جديدة على قوّات المشاة التي تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس، وتبعته قوّات من فرقة القسيّ وأخرى من حملة الرماح. وانقضّت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم وألقت فيها الاضطراب والفزع، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر فتشتّت شملهم بين جريح وقتيل وهارب فتلقّتهم قوّة المشاة المهاجمة في كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء الأخير. وذهل العدوّ الذي لم يكن يتوقّع أن يلاقي قوّات بهٰذا العدد، وانهارت قوّاته سريعًا، وتساقط فرسانه وحطّمت عجلاته. وسيطر المصريّون على الميدان في زمن يسير لا يصدّق، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق، وضربوا بسواعد يشدّ أعصابها حقد مؤرّث وسخيمة مستعرة..

واقتحمت قوّات مسلّحة أبواب أمبوس ودخلتها عنوة لتحتلّ الثكنات وتطهّرها من بقايا جنود العدوّ، ومضى الضبّاط في الميدان ينظّمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى. ووقف الملك كاموس في وسط الميدان على عجلته يحيط به القوّاد وإلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور، وكانت الأنباء جاءته بأنّ أسطوله كرّ على سفن العدوّ وهجم عليها بشدّة، وأنّها تقهقرت أمامه دون انتظام... فسرّ الملك وقال لمن حوله مبتسمًا:

ـ بدء موفّق..

فقال الأمير أحمس، وكان معفّر الثياب مغبّر الوجه متصبّب الجبين عرقًا:

ـ إنّي أتوق لخوض معارك أشدّ هولًا..

فقال كاموس وهو يلقي على وجهه الجميل نظرة إعجاب:

ـ لن يطول انتظارك..

ثمّ نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله، وسار خطًى حتّى صار وسط جثث الرعاة، وألقى عليها نظرة وقد انبجست الدماء منها فخضّبت جلدها الأبيض ومزّقتها السهام والرماح، ثمّ قال:

ـ لا تظنّوا هٰذه الدماء دماء أعدائنا، بل هي دماء قومنا التي امتصّوها وتركوهم يتضوّرون جوعًا.

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلًا:

ـ لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة..

ثمّ نظر إلى من حوله وقال بصوت دلّت نبراته على القوّة والبأس:

ـ ستمتحن قوّتنا في معركتين شديدتين في طيبة وهواريس، فإذا آزرنا النصر فيهما طهّرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيت المجيد، فمتى نقف موقفنا هٰذا على جثث المدافعين عن هواريس؟..

وتحوّل الملك ليرجع إلى عجلته، وفي تلك اللحظة انتصبت جثّة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسدّدت قوسًا نحو الملك وأطلقت... ولم يكن في الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق، فأصاب السهم صدر الملك، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسيّ، وهرعوا إلى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والإشفاق، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة، ثمّ ترنّح كالثمل وسقط بين يدي وليّ عهده، وصاح الأمير:

ـ أحضروا هودجًا وادعوا الطبيب.

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدّج:

ـ أبتاه.. أبتاه ألا تستطيع أن تكلّمنا..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج، فحملوا الملك وأناموه عليه في عناية فائقة. وركع الطبيب إلى جانبه، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره، وأحاطت الحاشية بالهودج في سكون، يردّدون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدي الطبيب. وذاع الخبر في الميدان ففشت الضوضاء، ثمّ ساد صمت ثقيل كأنّما لحق الفناء بذاك الجيش العرمرم..

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفّق من الجرح بغزارة، فتقلّص وجه الملك من الألم، فأظلمت عينا

الأمير أحمس من الحزن، وتمتم حور قائلًا:

ـ ربّاه.. إنّ الملك يتألّم..

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش، ولكنّ الملك لم يبدُ عليه أيّ تحسّن، وارتعشت أطرافه بصورة جليّة، ثمّ تنهّد تنهّدة عميقة، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدلّ على الحياة، فازداد صدر أحمس انقباضًا، وقال لنفسه شاكيًا: «لشدّ ما تغيّرت يا والدي..». وحرّك الملك عينيه حتّى استقرّتا على وجه أحمس، فلاحت فيهما ابتسامة، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع:

ـ ظننت قبل حين أنّي بالغ هواريس، ولكنّ الربّ يريد أن تنتهي رحلتي على أبواب أمبوس..

فصاح أحمس بصوته الحزين:

ـ فدتك نفسي يا أبتاه..

فقال الملك بصوته الضعيف:

ـ كلّا صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها.. وكن أشدّ حذرًا منّي، واذكر دائمًا أنّه لا يجوز أن تكفّ عن الكفاح حتّى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير، ويجلو القوم عن ديارنا جميعًا..

وخشي الطبيب على الملك من الجهد الذي يبذله في الكلام وأشار عليه بالسكوت، ولكنّ الملك كان يندمج في إحساس علويّ هو الفاصل بين الفناء والخلود، فقال بصوت تغيّرت نبراته وبدا غريب الوقع:

ـ قل لتوتيشيري إنّي لحقت بأبي باسلًا مثله.

ومدّ يده لابنه، فجثا الأمير على ركبتيه وضمّها إلى صدره، وقبض الملك على منكبه حينًا يودّعه، ثمّ تراخت أصابعه وأسلم الروح...

ـ ٤ ـ

وسجّى الطبيب الجثّة، وسجد الرجال حولها وصلّوا صلاة الوداع؛ ثمّ قاموا وكأنّهم من الحزن سكارى، واستدعى الحاجب حور قوّاد الفرق وكبار الضبّاط، فلمّا مثلوا بين يديه خاطبهم قائلًا:

ـ أيّها الرفاق، يؤسفني وحقّ الربّ أن أنعي إليكم مليكنا الباسل كاموس، فقد استشهد في ميدان الكفاح وفي سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل، وانتقل إلى جوار أوزوريس منتزعًا من صميم نفوسنا، بعد أن أوصانا بألّا نكفّ عن الكفاح حتّى تسقط هواريس ويجلو العدوّ عن ديارنا. وإنّي بوصفي حاجب هٰذه الأسرة الكريمة أعزّيكم في مصابنا الجلل، وآذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحمس بن كاموس بن سيكننرع حفظه الربّ وأيّده بالنصر المبين..

فحيّا القوّاد جثّة كاموس وانحنوا لأحمس الملك الجديد، وأذن لهم الحاجب بالعودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكيّ على الأعناق وقد غلبه الحزن، فقال وهو يجفّف عينيه:

ـ لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام في جوار أوزوريس، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفّر، ولكن قضى الربّ أن تدخلها محمولًا على نعشك، وإنّك لأكرمنا على الحالين...

ودخل الجيش أمبوس في نظامه التقليديّ يتقدّمه نعش الملك كاموس. وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلّها، فجرعت لذّة النصر ولوعة الحزن في شربة واحدة. وجاءت الجموع الغفيرة من كلّ مكان تستقبل جيش الخلاص وتودّع مليكها الراحل بقلوب تحيّرت بين الفرح والحزن. ولـمّا رأى الناس الملك الجديد أحمس سجدوا في سكون وخشوع، ولم يتعالَ في ذٰلك اليوم هتاف قطّ.. وتسلّم كهنة أمبوس الجثمان العظيم، وخلا أحمس إلى نفسه فكتب رسالة إلى توتيشيري كما أوصاه أبوه، وبعث بها مع رسول...

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارّة ومؤسفة عن الأسطول، قالوا: إنّ الأسطول المصريّ هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته، ولكنّ القائد قمكاف سقط قتيلًا، وإنّ الضابط أحمس أدار دفّة المعركة بعد سقوط القائد، وحاز النصر النهائيّ، وقتل قائد الرعاة بيده في معركة عنيفة. وأراد الملك أن يكافئ أحمس أبانا، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول...

واتّبع سياسة أبيه الحكيمة فولّى صديقه هام حكم

أمبوس، وعهد إليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها، وقال الملك لحور:

- ستتقدّم بقوّاتنا سريعًا، لأنّه إذا كان الرعاة يعذّبون قومنا في وقت السلام فإنّهم سيضاعفون لهم العذاب في وقت الحرب، فينبغي أن نقصّر عهد العذاب ما وسعنا الجهد..

واستدعى الملك الحاكم هام، وقال له أمام حاشيته وقوّاده:

- اعلم أنّي آليت على نفسي منذ اليوم الذي سعيت فيه إلى أرض مصر في ثياب التجّار أن أجعل مصر للمصريّين؛ فليكن هٰذا شعارك في حكم هٰذا البلد؛ وليكن رائدك أن تطهّره من البيض، فلن يحكم بعد اليوم إلّا مصريّ، ولن يملك إلّا مصريّ، والأرض أرض فرعون والفلّاحون نوّابه في استثمارها، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه في الصالح العامّ، والمصريّون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلّا فضله، ولا عبد في هٰذا البلد إلّا الرعاة... وأوصيك أخيرًا بجثّة أبي فأدّ إليها واجبها المقدّس...

- ٥ -

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر، وأبحر الأسطول، ومضت الطلائع تدخل القرى، فتستقبل فيها أحرّ استقبال وأجمله حتّى شارفوا أبولبتوبوليس مجنا، فتأهّبوا لخوض معركة جديدة. ولكنّ الطلائع لم تلق أيّة مقاومة ودخلت المدينة بسلام. وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل في ريح مؤاتية فلا تجد أثرًا لسفن العدوّ. فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قوّاته الكشفيّة إلى الحقول الشرقيّة خشية أن يقعوا في كمين. وبات الجيش والأسطول في أبولبتوبوليس مجنا، وفارقاها مع الفجر، وكان الملك وحرسه يسيرون في مقدّمة الجيش وراء القوّات الاستطلاعيّة، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بها رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد، وسأل الملك حور:

- ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس؟

فقال الحاجب:

- بلى يا مولاي، وهي مركز الدفاع الأماميّ عن طيبة نفسها، وستنشب في واديها أوّل معركة شديدة بين قوّتين متعادلتين.

وحين الضحى جاءت أنباء كشفيّة بأنّ الأسطول المصريّ اشتبك مع أسطول للرعاة يظنّ لضخامته وكثرة وحداته أنّه الأسطول الكامل للعدوّ، وأنّ المعركة تدور بقوّة وعنف. فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل، وقال حور:

- إنّ الرعاة يا مولاي حديثو عهد بحرب الأساطيل...

فصمت الملك ولم يجب، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدّم بفرقه ومعدّاته، فاستسلم أحمس للتأمّل والتفكير، وتمثّلت له أسرته وهي تتلقّى نبأ مقتل كاموس، وكيف تفزع أمّه ستكيموس وتنفجع جدّته أحوتبي وتئنّ الأمّ الصابرة توتيشيري وتبكي زوجه نيفرتاري التي أصبحت ملكة مصر. ربّاه... لقد سقط كاموس غدرًا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات. ثمّ سرى خياله إلى الأمام، إلى طيبة حيث يملك أبوفيس ويعاني الشعب ألوان العذاب والذلّ، وذكر خنزر الحاكم الهائل الباسل الذي لن تهدأ نفسه حتّى ينتقم لجدّه الشهيد منه ويرديه قتيلًا، ثمّ لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس وذكر المقصورة التي أصلاهما الهوى فيها نارًا مقدّسة، وتساءل: أما تزال تتعلّق بالتاجر الجميل اسفينيس وتأمل أن يبرّ لها بوعده؟

وهنا سعل حور فذكّره بأنّه لا ينبغي له أن يتشوّق إلى أمنريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها، فأراد أن يطرد الفكر: فألقى ببصره على جيشه العرمرم الذي ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخّرته، فسرّى عنه وعاد إلى التفكير في المعركة الدائرة في النيل.. وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطلاع يقولون: إنّ الأسطولين مشتبكان في قتال عنيف، وإنّ القتلى تسقط بكثرة من الجانبين، وإنّ

القوّتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهّن بنتيجة المعركة. فلاح العبوس في وجه الملك ولم يخفِ قلقه، فقال حور:

ـ لا داعي للقلق يا مولاي فأسطول الرعاة قوّة لايستهان بها، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة في النيل.

فقال أحمس:

ـ إذا خسرناها خسرنا نصف الحرب.

فقال حور بيقين:

ـ وإذا كسبناها يا مولاي كما أتوقّع كسبنا الحرب كلّها.

وأمسى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقّف للراحة والاستعداد، على أنّه ما كاد يمكث وقتًا قصيرًا حتّى جاءت الأخبار بأنّ الطلائع تقاتل قوّات متفرّقة من جيش العدوّ، فقال أحمس:

ـ إنّ الرعاة مستريحون، ولا شكّ أنّهم يرحّبون بالاشتباك معنا الآن.

وأمر الملك بإرسال قوّة من العجلات لتؤيّد قوّات الاستطلاع إذا هاجمتها قوّات تفوقها عددًا، واستدعى قوّاده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة في أيّ وقت كان..

وكان أحمس يحسّ التبعة الخطيرة التي يتحمّلها بقيادته الجيش لأوّل مرّة في حياته، وشعر بأنّه حامي هٰذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد، فقال لحور:

ـ ينبغي أن نوجّه قوّتنا لتحطيم عجلات الرعاة.

فقال الحاجب:

ـ هـذا ما سيحاوله كلا الجيشين. وإذا حطّمنا عجلات العدوّ وسيطرنا على الميدان، أصبح جيشه تحت رحمة قسيّنا..

وفي تلك الساعة وأحمس يتأهّب لخوض غمار المعركة، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أنّ الأسطول المصريّ تلقّى ضربات شديدة، فرأى أحمس أبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسيّة ليعيد تنظيمها، وأنّ القتال مستمرّ على أشدّه. فساور القلق الشابّ وأشفق من ضياع أسطوله العظيم، ولم يجد مهلة للتفكير إذ أُخبر أنّ جيش العدوّ بدأ هجومه. فحيّا حور والحاشية وتقدّم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم؛ فهجم الجيش في قلب وجناحين اندفعوا صفوفًا متراصّة في سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالًا. وما لبثوا أن رؤوا جيش الرعاة يتقدّم منقضًّا كالريح العاصفة في جموع كثيفة من العجلات، فعلموا أنّ عدوّهم يلقاهم بقوّاته الوحشيّة التي طالما سامتهم الخسف، فثار الغضب في نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد، : «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع». وألقوا بأنفسهم في المعركة بقلوب تتعطّش إلى القتال والانتقام، فقاتل الفريقان بقوّة وقسوة ووحشيّة. وخضّبت الأرض بالدماء. واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسيّ. واستمرّ القتال قاسيًا عنيفًا حتّى مالت الشمس نحو الأفق وذابت في بحيرة من دماء. وحلّقت في الفضاء أشباح الظلام، فكفّ الجيشان ورجع كلّ إلى معسكره، وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه الذي دافع عنه في أثناء كرّه وفرّه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم:

ـ كان قتالًا عنيفًا كلّفنا أبطالًا بواسل...

ثمّ تساءل الملك:

ـ ألم تجدّ أخبار عن معركة النيل؟

فقال الحاجب:

ـ ما يزال الأسطولان يعتركان...

ـ أما من جديد عن أسطولنا؟

فقال حور:

ـ قاتل في أثناء النهار وهو يرتدّ، ثمّ التحمت أكثريّة السفن مع وحدات العدوّ بالسلالم فلم تستطع انفصالًا حين خيّم الظلام، والقتال ما يزال مستمرًّا وإنّا لفي انتظار ما يجدّ من الأخبار.

فتجهّم وجه الملك التعب، وقال لمن حوله:

ـ لندعُ الربّ جميعًا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على متن النيل...

- ٦ -

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ في الاستعداد والتأهّب، وجاءت العيون بأنباء مهمّة فقالوا: إنّ الحركة لم تسكن طوال الليل في معسكر العدوّ. وقرّر بعض من جازفوا بالتوغّل في الحقول المحيطة بميدان القتال أنّ قوّات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفّق على هيراكونبوليس طوال الليل وأنّ تدفّقها إلى ما قبيل طلوع الفجر. وتفكّر حور مليًّا ثمّ قال:

- إنّ العدوّ يا مولاي يجمع لنا جلّ قوّاته هنا ليلقانا بجيشه كاملًا، ولا أعجب لذلك لأنّنا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدّمنا سوى أسوار طيبة المجيدة...

وجاءت أخبار سارّة من جانب النيل، فعلم الملك أنّ أسطوله قاتل قتال المستيئس فلم يتمكّن منه عدوّه كما اشتهى، وأنّه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطرّ أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوّته. وكفّ الأسطولان عن القتال ساعات ثمّ اشتبكا في عراك جديد بُعيد مطلع الفجر، وكان أسطول أحمس أبانا البادئ بالهجوم، فانشرح صدر الملك وتوثّب للقتال بقلب جذل...

وحين سفور الصبح تقدّم الجيشان للقتال، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريّون صيحتهم المعروفة: حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع. ثمّ قدموا بأنفسهم في معترك الموت لا يلوون على شيء، فالتقوا بالعدوّ في صدمات قاتلة واشتدّوا عليه كما اشتدّ عليهم، وقاتلوا بالقسيّ والرماح والسيوف. ولاحظ الملك أحمس بالرغم من اشتداد القتال أنّ قلب جيش العدوّ يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوّات هنا وهناك بانتظام ودقّة، فعاين القائد البارع فإذا به غير حاكم هيراكونبوليس، وإذا به الملك أبوفيس نفسه الذي أهدى إليه التاج المرصّع بالجواهر في قصر طيبة بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحادّ فتحفّز أحمس لهجمات شديدة، وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرسه يردّ عنه هجمات العدوّ، فلم يلق فارسًا من القوم إلّا جندله في غمضة عين، حتّى هابوا نزاله ويئسوا من التغلّب عليه. وطال أمد القتال، واندفعت إلى الميدان قوّات جديدة من الجانبين، فاستمرّ القتال على عنفه وشدّته حتّى أوشك النهار أن يزول. وفي تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضّت قوّة من عجلات الرعاة على جناح المصريّين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس، وضغطته ضغطًا شديدًا لم تفد معه المقاومة المنهوكة القوى، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوّة المحاربة أو للهجوم على المشاة؛ فأدرك أحمس أنّ ذاك القائد ذا البأس تحيّن في تعبهم فرصة مناسبة، وأنّه ادّخر قوّته ليضرب ضربة قاضية. وخشي أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب في صفوف جيشه المتراصّة، أو يوقع مذبحة في مشاته؛ فرأى أن يقتحم قلب العدوّ بقوّته ليضيّق عليه، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر. ولم يتردّد لأنّ الموقف كان خطيرًا دقيقًا، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائيّة قويّة، واشتدّ القتال إلى درجة مروّعة مفزعة، واضطرّ العدوّ أن يتقهقر تحت الضغط الشديد. وحينذاك أرسل أحمس قوّة من العجلات لتطويق القوّة التي تشتدّ على جناحه الأيسر، ولكنّ القائد كان داهية بارعًا؛ فعدّل خطّته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوّة صغيرة من عجلاته تهجم على العدوّ، وتقهقر هو وبقيّة القوّة بسرعة إلى جيشه. وفي أثناء هذه العمليّة الدقيقة استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزر حاكم الجنوب الجبّار ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذيّة، وقد كلّفت هجمته الجبّارة المصريّين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات. وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم، وكان أحمس يقول متوعّدًا غاضبًا: «لا بدّ أن نلتقي يا خنزر وجهًا لوجه...» واستقبله رجاله بالدعاء. ووجد بينهم شخصًا جديدًا هو أحمس أبانا، فتفاءل من وجوده في المعسكر وسأله:

- ماذا وراءك أيّها القائد؟

فقال أحمس أبانا:

- النصر يا مولاي، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه، وفرّت سفن لا تغني ولا تعين.

فتهلّل وجه الملك، ووضع يده على منكب القائد وقال:

- لقد كسبت لمصر بهٰذا النصر نصف الحرب، وإنّني بك جدّ فخور.

فتورّد وجه أحمس أبانا وقال بسرور:

- ما من شكّ يا مولاي في أنّنا دفعنا ثمن النصر غاليًا، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل.

فقال الملك بلهجة رزينة:

- كبّدنا العدوّ خسارة كبيرة أخشى ألّا نجد عوضًا منها، والفوز في هٰذه الحرب لمن يقضي على فرسان عدوّه.

وسكت الملك هنيهة ثمّ استدرك:

- إنّ حكّامنا في الجنوب يدرّبون الجند ويبنون السفن والعجلات ولكنّ تدريب فرسان العجلات يتطلّب زمنًا طويلًا، فلن ينفعنا في المعركة التي نخوض غمارها إلّا استبسالنا حتّى لا تواجه مشاتنا عجلات العدوّ مرّة أخرى...

- ٧ -

استيقظ الجيش مرّة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ في التأهّب والاستعداد، وارتدى الملك لباسه الحربيّ واستقبل في خيمته رجاله وقال لهم:

- لقد صحّ عزمي على مبارزة خنزر...

فارتاع حور لهٰذا القول وقال برجاء عظيم:

- مولاي، ينبغي ألّا تشلّ ضربة طائشة عملنا المجيد.

وتوسّل كلّ قائد إلى الملك أن يأذن له في قتال حاكم الجنوب، ولكنّ أحمس شكرهم وقال لحور:

- لن يشلّ عملنا خطب وإن جلّ، ولن يعوقه مصرعي إذا صرعت، فلا يفتقر جيشي إلى القوّاد ولا تعوز بلادي الرجال، وما كان لي أن أضيّع من بين يديّ فرصة أواجه بها قاتل سيكننرع، فدعني أقاتله حتّى أقتله لأوفي دينًا في عنقي نحو روح كريم يراقبني من العالم الغربيّ: ولتنزل لعنة الربّ بالمتردّدين الخائرين...

وأرسل الملك ضابطًا ليعرض على خصمه رغبته، فتوسّط الرجل الميدان وصاح:

- أيّها العدوّ، إنّ فرعون مصر يرغب في مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم.

فبرز له رجل من كتيبة خنزر:

- قل لمن تدعوه فرعون: إنّ القائد لا يحرم عدوًّا شرف الموت بسيفه...

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم، ووضع السيف في حاملته والرمح في قرابه، ونخسه فعدا به إلى الميدان. ورأى عدوّه ينطلق نحوه على جواد أشهب تيّاهًا فخورًا يبدو جسمه كأنّه كتلة جبّارة من الجرانيت، فتدانيا رويدًا رويدًا حتّى كاد رأسا جواديهما أن يتماسّا، وعاين كلّ منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة:

- ربّاه.. من أرى أمامي... أليس اسفينيس تاجر الأقزام واللآلئ؟ يا لها من دعابة، أين تجارتك أيّها التاجر اسفينيس؟

وكان أحمس ينظر إليه في هدوء وسكينة فقال له:

- انتهى اسفينيس أيّها القائد خنزر، وليس لي من تجارة الآن سوى هٰذا...

وأشار إلى سيفه. فملك خنزر عواطفه وسأله:

- فمن تكون إذًا؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء:

- أحمس فرعون مصر.

فضحك خنزر ضحكة عالية دوّت في الميدان، وقال ساخرًا:

- ومن الذي ولّاك مصر وهٰذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذي أهديته إليه ساجدًا؟...

فقال أحمس:

- ولّاني الذي ولّى آبائي وأجدادي من قبل، فاعلم أيّها القائد أنّ الذي سيقاتلك هو حفيد سيكننرع...

فبدا الجدّ على وجه الحاكم وقال بهدوء:

ـ سيكننرع.. إنّي أذكر ذٰلك الرجل الذي قضى سوء حظّه يومًا أن يرغم على منازلتي، وإنّي أكاد أدرك كلّ شيء فاعذرني على بطء فهمي. فإنّنا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف، أمّا أنتم معشر مدّعي الملك من المصريّين فتتخفّون طويلًا في ثياب التجّار قبل أن تؤاتيكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك... فليكن ما تريد، ولٰكن هل ترغب في مبارزتي يا اسفينيس؟

فقال أحمس بحدّة:

ـ فلنرتدِ من الثياب ما نشاء فهي ثيابنا، أمّا أنتم فما تعلّمتم ارتداء الثياب حتّى آوتكم مصر. ولا تدْعني اسفينيس ما دمت تعرف أنّي أحمس بن كاموس بن سيكننرع، أسرة عريقة في النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة، فلم تعرف التشرّد في الصحارى ولا رعي القطعان، وإنّي لأرغب حقًّا في مبارزتك وإنّه لشرف تكتسبه كي أؤدّي دينًا في عنقي نحو أجلّ إنسان عرفته طيبة...

فصاح خنزر قائلًا:

ـ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك، فظننت أنّ انتصارك على القائد رخ مسوّغًا للوقوف أمامي... فوارحمتاه لك أيّها الشابّ الغرير... ماذا تختار أن يكون سلاحك؟

فقال أحمس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة:

ـ السيف إذا شئت...

فقال خنزر وهو يهزّ منكبيه العريضين:

ـ هو أعزّ الأصدقاء.

ونزل خنزر عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه، ثمّ سلّ سيفه وأمسك بترسه، ففعل أحمس مثله ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين، ثمّ تساءل أحمس:

ـ هل نبدأ؟

فقال خنزر ضاحكًا:

ـ ما أجمل هٰذه المواقف التي تتكاشف فيها الحياة والموت، هلمّ يا فتى...

فتوثّب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجّه إليه ضربة شديدة تلقّاها الحاكم على ترسه. ثمّ ردّ عليه الهجوم وهو يتكلّم قائلًا:

ـ يا لها من ضربة صادقة يا اسفينيس، وما أظنّ إلّا أنّ رنين سيفك على ترمي ينشد لحن الموت... مرحى... مرحى أنّ صدري يرحّب برُسُل الموت، فطالما طمع الموت، وأنا ألعب بين مخالبه، ثمّ يرتدّ عنّي خائبًا وقد أدرك آخر الأمر أنّه إنّما حضر لغيري.

وكان الرجل يقاتل دون أن يكفّ عن الكلام كأنّه راقص ماهر يغنّي وهو يرقص، فأدرك أحمس أنّ خصمه عنيد شديد البأس، فولاذيّ العضلات، واسع الحيلة، خفيف الحركة، جبّار في الكرّ والفرّ؛ فبذل كلّ ما لديه من قوّة ودراية، وتفادى من الضربات الموجّهة إليه وهو يعلم أنّها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها. ولكنّه تلقّى ضربة بترسه أحسّ ثقلها، ورأى خصمه يبتسم في ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجّه إليه ضربة هائلة تلقّاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته، فسأل أحمس:

ـ أين صنع هٰذا السيف المتين؟

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذٰلك:

ـ في نباتا في أقصى الجنوب.

فقال الرَّجُل وهو يتفادى من ضربة شديدة وُجّهت إليه بمهارة فائقة:

ـ أمّا سيفي فقد صنع في منف بأيدي صنّاع مصريّين.. وما كان صانعه يعلم أنّه يقدّم لي ما أقضي به على مليكه الذي تاجَرَ وقاتل في سبيله:

فقال أحمس:

ـ ما أسعده غدًا إذا علم أنّه كان شؤمًا على عدوّ بلاده...

وكان أحمس يتحيّن الفرصة لهجوم عنيف، فما كاد يتمّ كلامه حتّى وجّه إلى خصمه الجبّار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة، فتحاماها خنزر بدرعه وسيفه ولكنّه اضطرّ إلى أن يتقهقر خطوات، فقفز عليه الملك وهاجمه هجومًا قاسيًا ووجّه الضربة تلو الضربة إلى

مَقاتله. وأدرك خنزر خطر المصير، فكفّ عن مداعبة خصمه وأطبق فمه، وزال عنه الابتسام فقطّب جبينه ودافع هجمات عدوّه بقوّة جبّارة وبسالة هائلة، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كلّ تصوّر. وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس، فظنّ الرعاة أنّه قضى على عدوّهم العنيد فتعالى هتافهم حتّى تساءل أحمس هنيهة: «ترى هل أصبت؟» ولكنّه لم يحسّ تخاذلًا ولا وهنًا، فاستجمع وضرب عدوّه ضربة قويّة عنيفة عرض لها ترسه فصكّته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضعًا وقد ارتجّ ساعده. وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب، وتوقّف أحمس عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسمًا ابتسامة الظفر، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهّب للقتال بغير ترس، فما كان من أحمس إلّا أن خلع ترسه ورمى به جانبًا، فبدت الدهشة على وجه خنزر ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول:

ـ يا له من نبل حقيق بأخلاق الملوك..

واستأنفا القتال في سكون فتبادلا ضربتين شديدتين، ولكنّ ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقبة خصمه الجبّار فسرت فيه رجفة هائلة، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثمّ سقط على الأرض كأنّه بنيان تهدّم، ودنا الملك منه في خطى بطيئة، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له:

ـ يا لك من جبّار باسل أيّها الحاكم خنزر...

فقال الرجل وهو يصعّد أنفاس الحياة الأخيرة:

ـ بالحقّ نطقت أيّها الملك... ولن يعترض سبيلك من بعدي مقاتل.

وتناول أحمس سيف خنزر ووضعه إلى جانب جثّته، ثمّ امتطى جواده وعاد إلى معسكره، وكان يعلم أنّ الرعاة سيحاربون بحنق ورغبة في الانتقام، فأقبل على فرسانه وصاح بهم:

ـ أيّها الجنود، ردّدوا شعارنا الخالد: «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع». واذكروا أنّ مصيرنا إلى الأبد معلّق بنتيجة هٰذه المعركة الدائرة، فلا ترضوا أبدًا أن يضيع صبر الأعوام وجهاد الأجيال في تخاذل ساعة واحدة...

ثمّ حمل وحملوا ودار القتال عنيفًا حتّى مغيب الشمس.

واستمرّ القتال على هٰذا النحو عشرة أيّام كاملة.

ـ ٨ ـ

وفي مساء اليوم العاشر من أيّام القتال عاد الملك أحمس من الميدان متعبًا منهوك القوى، فاجتمع بحاشيته وقوّاده، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوّض، ولكنّ فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصدّ هجمات المصريّين وتوقع بهم الخسائر الفادحة. فساور الملك القلق، وخشي أن تتحطّم فرقة العجلات الجبّارة يومًا بعد يوم، وكان في ذاك المساء غاضبًا حزينًا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدّون للموت بغير مبالاة، فقال وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ هيراكونبوليس... هيراكونبوليس... ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا؟.

وكان المجتمعون لا يقلّون عن الملك حزنًا أو غضبًا، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال، فقال الحاجب حور:

ـ مولاي... إنّ فرساننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرنا، وغدًا إذا ظهرنا على العدوّ وحطّمنا عجلاته فلن يكون لمشاته قِبل بنا، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارًا من انقضاض عجلاتنا عليهم.

فقال الملك:

ـ كانت غايتي الكبرى أن أقضي على عجلات العدوّ مع الاحتفاظ بقوّة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائمًا، كما فعل الرعاة في هجومهم في طيبة. ولكنّي بتّ أخشى أن يقضى على قوّتينا الراكبتين معًا، فنتعرّض لحرب طويلة الأمد لا تبقي على مدننا ولا تذر...

وطلب الملك أن يطّلع على الإحصاء الأخير للخسائر، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصريّة قد خسرت ثلثي قوّتها من العجلات والفرسان.

فامتقع أحمس ونظر في وجوه رجاله، فإذا بالوجوم يعلوها جميعًا. ثمّ قال:

- لم يبق لدينا سوى ألفي فارس... فكيف تقدّرون خسائر العدوّ؟

فقال القائد ديب؟

- لا أتصوّر يا مولاي أنّها تقلّ عن خسارتنا.. وأرجّح أنّها تزيد عليها...

فحنى الملك رأسه ولبث يفكّر مليًّا، ثمّ نظر إلى رجاله وقال:

- سيعلم كلّ شيء غدًا، فغدًا يوم الفصل دون شكّ، ولعلّ عدوّنا يعاني من الحيرة والقلق ما نعاني وأكثر، وعلى كلّ حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدًا، والربّ يعلم أنّنا نقاتل بقلوب كارهة للحياة..

فقال ديب متسائلًا:

- إنّ أسطولنا لا يحارب الآن، فلماذا لا ينزل جنودًا وراء جيش العدوّ فيما بين هيراكونبوليس ونخب؟

فقال أحمس أبانا:

- إنّ أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة، ولكنّا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدوّ إلّا إذا كان جيشه جميعًا مشتبكًا في القتال. والواقع أنّ القتال مقصور حتّى الآن على فرقتي العجلات، أمّا جيش العدوّ فرابض وراء الميدان مستريحًا يقظًا...

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلًا:

- أليس لنا يا مولاي قوّة احتياطيّة من الفرسان؟

فقال أحمس:

- لقد جئنا مصر بستّة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاقّ وصبر طويل، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل في اثني عشر يومًا من أيّام الجحيم...

فقال حور:

- مولاي... إنّ سيين وأمبوس وأبولينوبوليس مجنا تبني العجلات وتدرّب الفرسان بلا توانٍ.

أمّا أحمس أبانا فقال بحماسه الذي لا يعرف اليأس:

- حسبنا شعارنا الذي لقّنتناه الأمّ المقدّسة توتيشيري: «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع»، وأنّ فرساننا لا يغلبون، وأنّ مشاتنا ليتحرّقون شوقًا إلى القتال، ولنذكر دائمًا أنّ الربّ الذي أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثًا.

وأمّن الرجال على قول القائد الشابّ وابتسم الملك ابتسامة مشرقة، وبات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهّب للقتال. وعند سفور الصباح تقدّمت فرقة العجلات وفي قلبها الملك وحرسه، ونظر إلى الميدان فرآه خاليًا فعجب غاية العجب، ثمّ أمعن في النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة. ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرّروا بين يديه أنّ جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرّارة وترك هيراكونبوليس في الليل وجدّ في السير نحو الشمال، ولم يتمالك القائد محب أن قال:

- الآن حصحص الحقّ... وما من شكّ في أنّ قوّة عجلات الرعاة تحطّمت، وأنّ أبوفيس آثر أن يفرّ إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته...

وقال القائد ديب فرحًا:

- مولاي.. لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة...

وكان الملك أحمس يتساءل: ترى هل انكشفت الغمّة؟.. ترى هل حقًّا زالت المخاوف؟ ثمّ التفت إلى ديب وقال:

- بل قل إنّنا حطّمنا عجلات الرعاة وكفى...

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح في النفوس، وهرع رجال الحاشية يتقدّمهم حور إلى الملك وهنّأوه بالنصر المبين الذي فتح الربّ به عليه. ودخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه، وهرع معه الأهالي إليها من الحقول، فرّوا إليها خوفًا من انتقام الرعاة، واستقبلوا ملكهم استقبالًا حارًّا وهتفوا لجيش الخلاص هتافًا يشقّ عنان السماء...

وكان أوّل شيء فعله الملك أن صلّى للربّ آمون الذي مدّ له يد المعونة بعد أن كاد يشفي على اليأس. . .

- ٩ -

واستراح الجيش في هيراكونبوليس بضعة أيّام بعد قتال عنيف دام اثني عشر يومًا، وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة وإعادة مصريّتها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها. وواسى الأهالي لما تعرّضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرّضت له مدينتهم في أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب.

ثمّ زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب في عصر اليوم نفسه دون مقاومة، وبات فيها حتّى فجر اليوم الثاني. ثمّ استأنف مسيره دون أن يلتقي بأيّة قوّات للعدوّ فاحتلّ القرى ورفع عليها الأعلام المصريّة. وشارف وادي لاتوبوليس بعد ثلاثة أيّام، وكان الملك ورجاله يظنّون أنّ العدوّ سيدافع عنها فأرسل أحمس طلائع جيشه إليها وحاصر أحمس أبانا شطئانها الغربيّة ولكنّ الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنًا. وقصّ عليهم الأهالي كيف مرّ بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم في حالة شديدة من الفزع والفوضى. . .

وتقدّم الجيش بقوّاته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتّى بلغ ترت، ثمّ بعدها هزمنتيس، وكانوا يتوقون جميعًا إلى ملاقاة عدوّهم ليشفوا غلّ صدورهم. ولكن كان السرور يتألّق في وجوههم كلّما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنّهم حرّروا قطعة من الوطن الأثير. وكان خبر الهزيمة التي لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكي في قلوبهم الأمل والحماسة، فمضوا ينشدون الأغاني الحماسيّة، ويضربون في أرض الوادي بسيقانهم النحاسيّة، حتّى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغّلة في منطقة طيبة. وكان الوادي ينحدر نحو جنوبها انحدارًا فجائيًّا شديدًا، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنّها كانت كسابقاتها من المدن بغير حرّاس، فدخلها الجيش في سلام. هزّ دخول هابو قلوب الجنود جميعًا لأنّها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد، ولأنّ كثيرًا من جنود الجيش كانوا من بنيها البواسل، فتعانقت في ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين. ثمّ تقدّم الجيش شمالًا بقلوب متحفّزة وأنفس متوثّبة، وهو يعلم أنّه مقبل على العمل الفاصل في تاريخه والمعركة الخطيرة التي تقرّر مصير طيبة. وانحدر في الوادي العظيم الذي يطلق عليه الطيبيّون «طريق آمون» وكان يتّسع كلّما أوغلوا فيه حتّى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعدّدة يقطع الطريق عليهم ويمتدّ شرقًا وغربًا، تنطلق من خلفه المسلّات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثّل فيها جميعًا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر، فتصايحت جنبات الوادي هاتفة: «طيبة. .» «طيبة. .». وجرى اسمها على كلّ لسان ولهجت به الأفئدة المضطرمة، وما زالوا يهتفون حتّى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ. . .

وعسكر الجيش العظيم، ووقف أحمس في قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذي حاكته توتيشيري بيديها، يرسل ناظريه إلى المدينة وقد لاحت فيها الأحلام ويقول:

- طيبة. . . طيبة. . . يا أرض المجد. . . ومثوى الآباء والأجداد، أبشري فغدًا يطلع عليك صبح جديد. . .

- ١٠ -

واستدعى الملك القائد أحمس أبانا وقال له:

- سأكل إليك أيّها القائد ساحل طيبة الغربيّ فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك، مستلهمًا خططك من الملابسات المحيطة بك.

وأنشأ الرجال يفكّرون في طريقة الهجوم على طيبة، فقال القائد محب:

ـ إنّ أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلّف المهاجمين أرواحًا غالية، ولكن ما من مهاجمتها بدّ، فأبوابها الجنوبيّة هي السبيل الوحيد إليها.

وقال القائد ديب:

ـ إنّ محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها، ولكنّنا لا نستطيع أن نفكّر لحظة واحدة في تجويع طيبة، فلم يبقَ لدينا سوى مهاجمة أسوارها. ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلالم والقباب الواقية؛ ولكنّها ليست كافية كذلك، ونرجو أن تصلنا منها كمّيّات وافرة. وعلى أيّة حال إذا كان ثمن طيبة غاليًا فسنبذله عن طيب خاطر.

فقال أحمس:

ـ هذا هو الرأي، فينبغي ألّا نضيّع وقتنا لأنّ قومنا محصورون داخل أسوار المدينة، ويحتمل أن يتعرّضوا لانتقام عدوّنا الوحشيّ.

وفي ذلك اليوم تقدّم الأسطول المصريّ نحو شاطئ طيبة الغربيّ والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارّة من هيراكونبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان في معركة عنيفة، ولكن كان تغلّب المصريّين في عدد الرجال والسفن كبيرًا، فضيّقوا الخناق على عدوّهم وأصلوه نارًا حامية.

وأرسل أحمس طلائع من فرق القسيّ والرماح لاختبار القوّات المدافعة، فأطلقوا قسيّهم على نقط متباعدة من السور العظيم، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحرّاس الأشدّاء وبأسلحة لا تنفد. وكان القوّاد المصريّون ينظّمون قوّاتهم، فلمّا صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم في أرجاء الوادي لتهاجم السور في نقط متباعدة، محتمية بدروعها الطويلة، فانهالت عليهم سهام العدوّ كالسيل. وصوّبوا قسيّهم نحو منافذ السور المنيع، ودار القتال بلا رحمة، وكان المعسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفّزين للقتال، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غاليًا. وانتهى النهار بمذبحة هائلة، وقد روّع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبًا:

ـ إنّ جنودي لا يبالون الموت، والموت يحصدهم حصدًا.

فقال حور وهو يلقي على الميدان بصرًا زائغًا:

ـ يا لها من معركة يا مولاي. . . أرى الجثث تملأ الميدان. .

وكان القائد محب متجهّم الوجه معفّر الثياب فقال:

ـ ألسنا نهاجم الموت سافرًا؟

فقال أحمس:

ـ لن أدفع بجيشي إلى الهلاك المحقّق، ويحسن بي أن أرسل عددًا محدودًا من الرجال وراء القباب الواقية، حتّى يملأ الموت على العدوّ منافذ سوره.

ولبث الملك مهتاج النفس، ولم يخفّف عنه ما حملته الرسل من أنّ الأسطول المصريّ استولى على بقيّة أسطول الرعاة وأصبح سيّد النيل دون منازع. . . وفي ذاك المساء عاد الرسول الذي كان بعثه إلى أسرته في نباتا يحمل رسالة من توتيشيري، فبسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتي:

«من توتيشيري إلى حفيدي ومولاي فرعون مصر أحمس ابن كاموس، مَن أدعو الربّ الكريم أن يصون حياته الغالية، ويوفّق رأيه للسداد، وقلبه للإيمان، ويده إلى مقتل عدوّه. . جاءني رسولك ينعي إلينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغني كلمته الأخيرة الموجّهة إليّ، ويحسن بي ـ وأنت تقاتل عدوّنا ـ أن أضرب صفحًا عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعًا، فقد قضي على قلبي أن يذوق الموت مرّتين في حياة قصيرة واحدة؛ ولكن لا يعزّ العزاء على من يعيش في أتّون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان إلى الموت، ولا أكتمك ـ على ألمي وحزني ـ أنّ رسولًا يسعى إليّ بموت كاموس ونصر جيشنا، أحبّ إليّ من أن يجيئني كاموس بنبأ الهزيمة. . فسِرْ في سبيلك ترعاك عناية الربّ الرحيم، ويحفظك دعاء قلبي والقلوب الرقيقة المجتمعة حولي، يتنازعها الحزن والتصبّر

والرجاء، واعلم يا مولاي أنّنا نشدّ الرحال إلى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا، لنكون أدنى إلى رسلك، والسلام».

قرأ أحمس الكتاب فاستشفّ ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حارّ، وتمثّلت له الوجوه التي ودّعها في نباتا؛ توتيشيري بوجهها الناحل المكلّل بالمشيب، وجدّته أحوتبي بجلالها وحزنها وأمّه ستكيموس بوداعتها، وزوجه نيفرتاري بعينيها الواسعتين وقدّها الرشيق، وتمتم قائلًا: «ربّاه! إنّ توتيشيري تتلقّى طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل، ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود فلأذكر دائمًا حكمتها ولأتبعها بعقلي وقلبي» . . .

- ١١ -

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة؛ فضرب الحصار حول شاطئ المدينة الغربيّ، وبثّ الرعب في أنفس أصحاب القصور المطلّة على النيل، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ. ولكنه لم يحاول مهاجمة هٰذه الحصون لمناعتها ولارتفاعها بسبب انخفاض النيل في فصل الحصاد، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها. وكان أحمس أبانا تنازعه نفسه إلى شاطئ البلد الجنوبيّ حيث يقيم الصيّادون، ويخفق بحبّه قلب حنون، وظنّ أنّ هٰذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة. ولكنّ الرعاة كانوا أكبر حذرًا ممّا ظنّ فأخذوا الشاطئ من المصريّين، وشغلوا مساحته الممتدّة بالحرّاس المدرّعين. .

أمّا الملك أحمس فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة، وقدّم للميدان نخبة من رجاله المدرّبين وراء الدروع الطويلة، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم في حرب قوامها الفنّ ودقّة التصويب، ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليديّة وكفاءتهم العالية. واستمرّت الحرب على هٰذا النحو بضعة أيّام دون أن تبشّر بأيّ نتيجة أو تنبئ بأيّة نهاية، فتململ الملك وقال:

ـ ينبغي ألّا نعطي العدوّ مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوّة جديدة من عجلاته.

ثمّ شدّ أحمس على مقبض سيفه وقال:

ـ سآمر باستئناف الهجوم العنيف. وإذا لم يكن من بذل النفوس بدّ فلنقدّم أنفسنا كما ينبغي لرجال أقسموا أن يحرّروا مصر من نير عدوّها الثقيل. وسأوجّه رسلي إلى حكّام الجنوب ليحثّوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية. . .

وأصدر الملك أمره بالهجوم. وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسيّ والرماح في الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين، وجعل القائد محب على الميمنة، والقائد ديب على الميسرة. ومضى المصريّون يتقدّمون في موجات واسعة النطاق، لا تلحق الموجة بسابقاتها حتّى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدوّ المحتمي بالسور المرهوب. فلمّا تقدّم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة، واستطاع المصريّون أن يلحقوا بعدوّهم خسارة فادحة كما خسروا عددًا كبيرًا من رجالهم؛ ولكنّ خسارتهم على أيّ حال كانت دون خسارة اليوم الأوّل ودار القتال على هٰذا بضعة أيّام أُخَر، وكثر عدد القتلى من الجانبين، واشتدّ ضغط جناح المصريّين الأيمن للعدوّ حتّى استطاع مرّة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعدّدة، وأن يهلك كلّ من يتصدّى لإطلاق السهام من منافذها. وانتهز بعض الضبّاط البواسل هٰذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم، وأقاموا سلّم هجوم وصعدوا عليه مع قوّة باسلة، وسهام إخوانهم تغشاهم كالسحاب. وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهدّدة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارًا حامية حتّى أبادوهم، وسرّ الملك لهٰذا الهجوم الذي ضرب مثلًا رائعًا لجيشه، وقال لمن حوله:

ـ لأوّل مرّة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودي على سور طيبة.

والحقّ كان لهٰذه الخطوة مغزًى عظيم، فقد تكرّرت في اليوم الثاني، ثمّ وقعت في غداته في نقطتين من السور. ومضى يتزايد ضغط المصريّين للعدوّ حتّى بات

الغزو أملًا مرجوًّا قريبًا. وفي تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سيين على رأس قوّة من الجنود المدجّجين بالسلاح الذين تمّ تدريبهم أخيرًا، ومعهم سفينة محمّلة بدروع الحصار وسلالمه وعدد من القباب الواقية. فاستقبل الملك الجنود بسرور، وقد تضاعف أمله في النصر، وأمر بتسييرهم في الميدان أمام معسكره لتحيّيهم الجنود ويزدادوا بهم أملًا وقوّة. . .

ودار القتال مع الغداة مروّعًا هائلًا، وتوالت هجمات المصريّين الصادقة، ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه، وأنزلوا بعدوّهم خسائر جمّة حتّى بدا عليه الإعياء واليأس، واعتور سواعده النَّصَب، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان:

ـ مولاي. . . سنقتحم السور غدًا. . .

واجتمع رأي القوّاد جميعًا على هذا، فبعث أحمس برسول إلى أسرته يدعوها إلى هابو التي يرفرف عليها العلم المصريّ، ليدخلوا جميعًا طيبة في الغد القريب. . وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل. . .

ـ ١٢ ـ

وطلع فجر اليوم الموعود، فاستيقظ المصريّون نشاوى يتوثّبون، توقّع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر. ثمّ تقدّمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين، فرأوا منظرًا عجبًا لم يتوقّعوا رؤيته، فضجّوا بالدهشة والانزعاج، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول. رأوا على السور المحيط أجسادًا عارية قيّدت إليه، رأوا نساء مصريّات وأطفالهنّ الصغار اتّخذ الرعاة منهم دروعًا تحميهم شرّ نبالهم وقذائفهم. ووقفوا خلفهنّ ضاحكين شامتين. وكان منظر النساء العاريات وقد حلّت شعورهنّ وهتكت أعراضهنّ، والأطفال الصغار وثّقت أيديهم وأرجلهم يفتّت الأكباد جميعًا، فضلًا عن أكباد من هم أزواجهنّ وأبناؤهنّ. فأسقط في أيدي الرجال وشلّت سواعدهم، وسرى الانزعاج في النفوس حتّى بلغ الملك فتلقّاه كأنّه صاعقة من السماء، وصاح غاضبًا:

ـ يا للوحشيّة الهمجيّة. . إنّ الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال. . .

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقوّاده فلم ينبس أحدهم بكلمة. ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال، فاقشعرّت أبدانهم هولًا، واصفرّت وجوههم غضبًا، وارتعشت أطرافهم، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذّبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا في الميدان أمامهم مكتوفي الأيدي، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز، وصاح حور بصوت متهدّج:

ـ يا للبائسات، سيقتلهنّ توالي الليل والنهار إذا لم تمزّق قلوبهنّ السهام. .

ولفّت الحيرة الملك، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتي يحمين بأجسادهنّ وأطفالهنّ عدوّهنّ بعينين ذاهلتين كئيبتين. ما عسى أن يفعل؟. . إنّ كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع، وآمال عشرة أعوام تهدّد بالخيبة واليأس. فما عسى أن يصنع؟. . هل جاء الخلاص شعبه أم للتنكيل به؟. . . وهل أرسل رحمة أم عذابًا؟. وجعل يتمتم في حزنه: «آمون. . . آمون. . ربّي المعبود. . . إنّ هٰذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك، فألهمني الصواب على أن أجد لنفسي مخرجًا». .

وتنبّه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل، عاين ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحمس أبانا، وترجّل القائد وأدّى للملك التحيّة ثمّ تساءل قائلًا:

ـ مولاي. . . لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين؟. . أما كان ينبغي أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن؟. . .

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور:

ـ انظر لترى بنفسك أيّها القائد. . .

ولٰكنّ أحمس أبانا لم ينظر كما كانوا يتوقّعون بهدوء:

ـ آذنتني عيوني بالعمل الدنيء الوحشيّ، ولكن كيف نرضى أن ننساق إلى أشراك أبوفيس ونحن به عالمون؟. .

هل يجوز أن نكفّ عن الكفاح في سبيل طيبة ومصر إشفاقًا من أن تؤذي نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا! . . .

فقال الملك أحمس بمرارة:

ـ أترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهنّ؟ . .

فقال القائد بحماس وثقة:

ـ نعم يا مولاي، إنّهنّ قربان الكفاح، مثلهنّ مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون في كلّ حين، بل مثلهنّ مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس. فلماذا نشفق من ذهابهنّ هذا الإشفاق المعطّل لكفاحنا؟ . . .

مولاي . . . إنّ قلبي يحدّثني بأنّ أمّي أبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات. فإذا صدق شعوري فلا أشكّ في أنّها تدعو الربّ الآن أن يجعل حبّك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات. ولست الجريح وحدي في جنودنا. فليضع كلّ منّا حول قلبه درعًا من إيمانه وعزيمته ولنهجم . . .

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلًا، ثمّ قلّب وجهه في حاشيته وقوّاده، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهّمًا ممتقعًا:

ـ صدق أحمس أبانا العظيم.

وتنفّس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعًا في نفس واحد:

ـ نعم . . . نعم . . . صدق قائد الأسطول ولنهجم . . .

فالتفت الملك إلى القوّاد وقال بعزم:

ـ أيّها القوّاد، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إنّ مليكهم الذي فقد في سبيل مصر جدّه وأباه، ومن لا يتردّد عن الجود بنفسه في سبيلها، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرّع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلّفنا ذلك من بذل . . .

وذهب القوّاد سراعًا ونفخ في الأبواق، فتقدّمت صفوف الجند شاكي السلاح مكفهرّي الوجوه. وصاح الضبّاط بأصوات مدوّية: «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع». وبدأت في الحال أبشع معركة خاض غمارها الإنسان، وأطلق الرعاة السهام فردّ عليهم المصريّون، وانطلقت نبالهم تشقّ صدور نسائهم وتمزّق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة. ولوّحت النسوة برءوسهنّ للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة:

ـ اضربونا ينصركم الربّ وانتقموا لنا . . .

فجنّ جنون المصريّين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطّشت إلى الدماء، ودوّى صراخهم في جنبات الوادي كعزيف الرعد وزئير الأسود، واندفعوا لا يبالون الموت المنصبّ عليهم كأنّما فقدوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنّميّة. وحمي وطيس القتال واشتدّ الطعان، وسالت الدماء كأنّها ينابيع تتفجّر في الصدور والأعناق، وأحسّ كلّ هاجم أنّ في قلبه غمزًا جنونيًّا لا يسكن حتّى يدفن رمحه في قلب واحد من الرعاة. وتمكّن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يُسكت عدّة مواضع دفاعيّة، فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت، فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخليّ واشتبكوا مع العدوّ بالرماح والسيوف وتوالت الهجمات بعنف وبسالة، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى، ويرسل النجدات إلى المواقع التي يشتدّ عليها العدوّ. وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور في مكان الوسط ومكانين في الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسّط في كبد السماء، فقال:

ـ إنّ جنودي يبذلون جهد الجبابرة، ولكنّي أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولي على السور جميعه، فنستأنف غدًا من جديد . .

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم، فاشتدّ ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه. والظاهر أنّ اليأس أخذ يستولي على الرعاة بعد أن أنزل المصريّون بهم خسائر فادحة، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار، فانهارت مواضع دفاعيّة بسرعة

لم يكن يتوقّعها أحد، واحتلّ جنود أحمس نقطًا كاملة من السور، وبدا سقوط السور أمرًا محقّقًا لا يحتاج إلّا لوقت. وكان أحمس لا ينفكّ عن إرسال الإمدادات القويّة، وجاءه في المعسكر ضابط من قوّة الاستطلاع المتوغّلة في الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه، فانحنى للملك وقال:

ـ أخبار جليلة يا مولاي.. إنّ أبوفيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشماليّة كالفارّين.

فعجب الملك وسأل الضابط قائلًا:

ـ أواثق أنت ممّا تقول؟

فقال الرجل بثقة وإيمان:

ـ رأيت بعينيّ ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدجّجة بالسلاح.

فقال أحمس أبانا:

ـ لقد أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه في المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه، ففرّ هاربًا.

فقال حور:

ـ والآن أدرك على غير شكّ أنّ الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شرّ وبيل.

وما كاد حور يتمّ كلامه حتّى جاء رسول جديد من الأسطول فحيّا الملك وقال:

ـ مولاي... لقد شبّت نيران الثورة في طيبة، وشاهدنا من الأسطول عراكًا عنيفًا يقع بين الفلاّحين والنوبيّين من ناحية، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى.

فبدا القلق على أحمس أبانا وسأل الضابط:

ـ وهل قام الأسطول بواجبه؟

ـ نعم يا سيّدي، لقد دنت سفننا من الشاطئ وأطلقت السهام بكثرة على الحرّاس حتّى لا تمكّنهم من التفرّغ لقتال الثائرين..

فلاح الارتياح في وجه القائد، واستأذن الملك في العودة إلى أسطوله ليهجم على الشاطئ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطًا:

ـ لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرّة بأموالهم.

فقال حور بصوت متهدّج من الفرح:

ـ نعم يا مولاي، وعمّا قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها..

ـ ولٰكنّ أبوفيس فرّ بجيشه.

ـ لن نكفّ عن الكفاح حتّى تسقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة.

وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفي أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها. وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كلّ جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح. وما لبث أن رأى جنوده تمزّق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفّاق، ثمّ شاهد أبواب طيبة العظيمة تنفتح على مصراعيها وجنوده تندفع إلى داخلها هاتفةً باسمه، فتمتم قائلًا بصوت خافت: «طيبة.. يا منبع دمي.. ومنبت جسدي.. ومرتع روحي.. افتحي ذراعيك وضمّي إلى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل». ثمّ حنى رأسه ليخفي دمعة منتزعة من ضلوعه، وكان حور إلى يمينه يصلّي ويجفّف عينيه وقد تندّى خدّاه النحيلان..

ـ ١٣ ـ

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغيب، وأقبل الملك والقائدان محب وديب، ثمّ تبعهما على الأثر أحمس أبانا فانحنوا لأحمس في إجلال وهنّأوه بالنصر، فقال أحمس:

ـ ينبغي قبل أن يهنّئ بعضنا بعضًا أن نؤدّي الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا في سبيل طيبة فائتوني بها جميعًا..

وكانت الجثث ملقاة في جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب، وقد عفّرتها الأتربة وخضّبتها الدماء، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديديّة، وشملها سكون الموت الرهيب. فرفعها الجنود باحترام وساروا بها إلى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبًا إلى جنب،

وأتوا بالنساء والأطفال اللاتي مزّقتهنّ سهام جنودهم ووضعوهنّ في مكان منعزل. وتوجّه الملك إلى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقوّاد الثلاثة والحاشية. ولّما دنا من الجثث المتراصّة انحنى في إجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله. ثمّ سار في خطّى بطيئة مارًّا بها كأنّما يستعرضها في حفل رسميّ مشهود، ثمّ عدل إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجّوا أجسادهنّ العارية بأغطية من الكتّان، فأظلّت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه، وتنبّه من كمده على صوت القائد أحمس أبانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلًا:

ـ أمّاه..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألّمًا متفجّعًا أمام إحدى الجثث، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة فعرف السيّدة أبانا وقد ارتسم على محيّاها شبح الفناء المروّع. فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثي خاشعًا حزين الفؤاد، وكان يكنّ للسيّدة احترامًا عظيمًا ويعرف لها وطنيّتها وشجاعتها وفضلها في تربية أحمس خير قوّاده بلا نزاع. ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال بصوت متهدّج:

ـ أيها الربّ المعبود آمون، خالق الكون، وواهب الحياة ومنظّم كلّ شيء بسنّته العالية، هٰذه ودائعك تردّ إليك تبعًا لمشيئتك، وقد كانوا في عالمنا يعيشون لغيرهم وكذٰلك ماتوا. إنّهم قطع عزيزة تناثرت من قلبي، فتغمّدهم برحمتك، وعوّضهم عمّا فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبديّة باقية.

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال:

ـ أيّها الحاجب، أريد أن تُحفظ هٰذه الجثث جميعًا وتودع مقابر طيبة الغربيّة، ولعمري أنّ أحقّ الناس بأرض طيبة مَن استشهدوا في سبيلها..

وعاد في تلك الأثناء الرسول الذي كان أرسله الملك إلى أسرته في دابور وقدّم إلى مولاه رسالة، فعجب الملك وسأله:

ـ هل عادت أسرتي إلى هابو؟

فقال الرجل:

ـ كلّا يا مولاي.

فبسط أحمس الرسالة وكانت موجّهة من توتيشيري وقرأ:

«مولاي المؤيّد بروح آمون وبركته، أسأل الربّ أن يبلغك كتابي هٰذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمّد جراحها، وتسعد روحَي سيكننرع وكاموس. أمّا نحن فلن نبرح دابور، وقد فكّرت في الأمر طويلًا فوجدت أنّ خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذّب وآلامه، أن نبقى في منفانا حيث نحن الآن نعاني آلام الوحشة والغربة، حتّى نحطّم أغلاله وترفع عنه النقمة، فندخل مصر آمنين ونقاسمه السعادة والسلام. فسرْ في طريقك مؤيّدًا بالعناية الربّانيّة تحرّر البلدان وتقهر الحصون. وطهّر أرض مصر من عدوّها ولا تجعل له في أقطارها موضع قدم، ثمّ ادعنا نأتِ آمنين».

ورفع أحمس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرّم:

ـ تقول توتيشيري إنّها لا تدخل مصر حتّى نجلي عنها آخر رجل من الرعاة..

فقال حور:

ـ إنّ أمّنا المقدّسة تريد ألّا نكفّ عن القتال حتّى نحرّر مصر.

فهزّ الملك رأسه بالموافقة، فتساءل حور:

ـ ألا يدخل مولاي طيبة هٰذا المساء؟

فقال أحمس:

ـ كلّا يا حور، سيدخلها جيشي وحده، أمّا أنا فسأدخلها مع أسرتي بعد طرد الرعاة. ندخلها جميعًا كما فارقناها جميعًا منذ عشرة أعوام مضت.

ـ سيمنى أهلها بخيبة أمل...

ـ قل لمن يسأل عنّي إنّي أتعقّب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدّسة، وليتبعني من يحبّني..

ـ ١٤ ـ

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونيّة، وكان في نيّته أن يصدر أمره إلى قوّاده بأن يدخلوا المدينة في نظامهم

التقليديّ على أنغام الموسيقى الحربيّة، ولكن جاء أحد ضبّاط الجيش وقال:

ـ مولاي كلّفني قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم في المثول بين يديك، ليقدّموا لذاتك العليّة هدايا ممّا غنموا في ثورتهم.

فابتسم أحمس وسأل الضابط:

ـ أقادم أنت من المدينة؟

ـ نعم يا مولاي.

ـ هل فتحت أبواب معبد آمون؟

ـ فتحها الثوّار يا مولاي.

ـ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيّتنا؟

ـ يقولون يا مولاي إنّه أقسم ألّا يبرح خلوته وفي مصر رجل من الرعاة إلّا عبدًا أو أسيرًا.

فابتسم الملك وقال:

ـ حسنًا.. ادعُ قومي..

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسيرون جماعات جماعات، تسوق كلّ جماعة هديّتها. واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريّين عراة إلّا من أزر على أوساطهم، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر، ويدفعون بين أيديهم رجالًا من الرعاة تعرّت رءوسهم وتلبّدت لحاهم وتعفّرت جباههم. ثمّ سجدوا للملك حتّى مسّت الأرض جباههم، ولمّا رفعوا وجوههم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور، وقال كبير القوم:

ـ مولانا أحمس بن كاموس بن سيكننرع بن فرعون مصر ومحرّرها وحاميها، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التي استشهدت أصولها في سبيل طيبة المجيدة، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرًا عن إساءة الأيّام إلينا..

فقال أحمس مبتسمًا:

ـ أهلًا بقومي الأعزّة، مَن آمالهم كآمالي، وآلامهم من منبع آلامي، ولون بشرتهم كلون بشرتي..

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج، ووجّه كبيرهم الخطاب إلى الرعاة قائلًا:

ـ اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده.

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة، فقال الرجل:

ـ مولاي.. هؤلاء الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغير الحقّ، كأنّما توارثوها عن آبائهم خلفًا عن خلف، واستذلّوا المصريّين وساموهم الخسف واستأدوهم أشقّ الأعمال بأزهد الأجور، وجعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل. ثمّ كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلّاحون، ومنّوا عليهم أن تركوهم أحياء.. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العليّة عبيدًا من أذلّ عبيدك...

فابتسم الملك وقال:

ـ أشكر لكم يا قومي هديّتكم، وأهنّئكم على استرداد سيادتكم وحرّيّتكم..

وسجد الرجال لمليكهم مرّة أخرى وغادروا الخيمة، وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى. ثمّ دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزّق الثياب، تركت السياط آثارًا واضحة بظهره وذراعيه، فسقط إعياء عند قدمي الملك دون أن يحفل به معذّبوه، وسجدوا لمليكهم طويلًا وقال رجل منهم:

ـ مولانا فرعون مصر ابن الربّ آمون، هذا الشرّير المؤزّر بلباس الذلّ كان كبير شرطة طيبة، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسي لأتفه الأسباب، فمكّننا الربّ منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتّى مزّق جلده، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضمّ إلى عبيده..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند، وشكر لقومه صنيعهم.

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلًا ما إن وقع عليه بصر الملك حتّى عرفه، فهو سنموت قاضي طيبة وشقيق خنزر، فألقى عليه الملك نظرة هادئة، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدّقان، وحيّا الرجال الملك وقال لسانهم:

ـ إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضي طيبة، كان يقسم بالعدالة ويقضي بالظلم في كلّ حين،

فأورد مشرب الظلم ليذوق ما كان يسقي الأبرياء.

فقال أحمس موجّهًا خطابه للقاضي:

- يا سنموت، لقد كنت حياتك تحكم على المصريّين، فَرُضْ نَفْسَك هٰذه المرّة أن يحكموا عليك.

ودفع به إلى جنوده، وشكر رجاله المخلصين.

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب، وتحيط بشخص لفّته في ستار من الكتّان من ذؤابته إلى نعليه، فحيّوا الملك هاتفين، وقال قائلهم:

- يا فرعون مصر وحامي المصريّين والمنتقم لهم، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وادّرعوا بهنّ في موقعه طيبة. وأراد الربّ أن ينتقم لنا من أبوفيس الظالم فهجمنا على حريمه في أثناء انسحابه، وخطفنا دون علمه من هي أعزّ عليه من نفسه، وجئنا بها إليك لتنتقم لنسائنا منها..

ودنا الرجل من الشخص المتخفّي في دثار الكتّان وأزاح عنه الستار، فبدت امرأة عارية إلّا من غلالة على وسطها، بيضاء صافية كالنور، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب، ويلوح في وجهها الفاتن الحنق والغضب والكبرياء، فبهت أحمس، ونظر إليها ونظرت إليه فبدا الانزعاج على وجهه، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والحنق والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق: «الأميرة أمنريدس..».

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها، وصاح أحمس برجاله:

- لماذا تمثّلون بهٰذه المرأة؟..

فقال زعيم القوم:

- إنّها ابنة كبير السفّاكين أبوفيس.

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطّشين للانتقام، فقال:

- لا تمكّنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدّسة، فالفاضل حقًّا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى.

فقال رجل من القوم موتور:

- يا حامي المصريّين، إنّ شفاء صدورنا في إرسال رأس هٰذه المرأة إلى أبوفيس.

فقال أحمس:

- هل تحثّون مليككم على أن يكون كأبوفيس سفك دماء وقتل نساء؟.. كِلوا الأمر لي وانصرفوا بسلام.

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا. ونادى الملك أحد ضبّاط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضي بالأميرة إلى سفينته الفرعونيّة، وأن يحوطها بالعناية.

وكان الملك يكابد ثورة في القلب والنفس فلم يحتمل القعود، فأصدر أمره إلى قوّاده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر والنصر. ولّما تحوّل إلى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين...

- ١٥ -

وخلا الميدان، فاتّجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه، وكان يحثّ سائقي عجلته على السرعة ويغرق في الأحلام والأفكار، أيّ صدمة تعرّض لها قلبه اليوم!.. أيّ مفاجأة كابدها وعاناها؟.. ولم يكن يدور بخلده أنّه سيلقى أمنريدس مرّة أخرى فمني باليأس منها، وتمثّلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثمّ ابتلعته الظلماء. ولكنّه رآها مرّة أخرى على غير انتظار أو حسبان، ألقت بها المقادير إلى رحمته فغدت بغتة في ملكه الخاصّ، لشدّ ما اضطرب صدره وخفق قلبه، لشدّ ما تيقّظت في نفسه عواطف حارّة أحييت من جديد ذكرياته الحلوة: فانغمر في تيّارها الحنون ناسيًا كلّ شيء.

ولكن هي، هل عرفته يا ترى؟.. وإذا لم تكن عرفته، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد اسفينيس؟.. الذي أنقذت حياته من الموت المحقّق، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوارف «إلى اللقاء»؟ ومن حنّت إليه في منفاه فبعثت إليه برسالة كمَنَ الحبّ في سطورها كمون النار في الحجر؟.. أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى في مقصورة السفينة

الفرعونيّة؟.. ربّاه.. ما له يحسّ أنّه مقبل على سعادة لا حدّ لها؟.. هل يصدقه قلبه أم يخدعه؟ وتمثّل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه، فانتفض جسمه القويّ وسرت فيه قشعريرة، وتساءل حزينًا والقوم الغاضبون من حولها يبصقون عليها ويسبّونها ويلعنون أباها؟.. وإنّه ليذكر ما كان يلوح في وجهها من الغضب والحنق والكبرياء، فهل يسكت غضبها إذا علمت أنّها أسيرة اسفينيس، وأحسّ قلقًا لم يساوره في أحرج المواقف، وكان ركبه بلغ الشاطئ فهبط إلى السفينة الفرعونيّة، ودعا إليه الضابط الذي عهد إليه بالأميرة وسأله:

ـ كيف حال الأميرة؟

ـ وضعت يا مولاي في مخدع خاصّ وجيء لها بثياب جديدة وقدّم لها الطعام، ولكنّها رفضت أن تمسّه، وعاملت الجنود معاملة تنطوي على الاحتقار ودعتهم بالعبيد. ولكنّها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك..

فبدا على الملك عدم الارتياح، وسار بخطوات هادئة إلى المخدع، ففتح الباب أحد الحرّاس وردّه بعد دخول الملك. وكان المخدع صغيرًا أنيقًا يضيئه مصباح كبير يتدلّى من سقفه، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة في ثوب بسيط من الكتّان وقد مشطت شعرها الذي بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة. فنظر إليها مبتسمًا فرآها تنظر إليه في دهشة وغرابة وهي لا تصدّق عينيها، وبدت له كأنّما هي في حيرة وشكّ، فحيّاها قائلًا:

ـ طاب مساؤك أيّتها الأميرة.

فلم تجبه، ولكنّها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكًّا، وكان الشابّ يطيل النظر إليها في شغف وافتتان، فسألها:

ـ هل يعوزك شيء؟

فتفرّست في وجهه، ثمّ صعّدت بصرها إلى خوذته وخفضته إلى درعه وسألته:

ـ من أنت؟

ـ أدعى أحمس فرعون مصر.

فلاحَ الإنكار في نظرة عينيها. وأراد أن يزيدها حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه إنّها لا تستطيع أن تصدّق عينيها. ورآها تنظر إلى شعره المجعّد بغرابة، فقال كالداهش:

ـ ما لك تنظرين إليّ هكذا كأنّك تعرفين لي شبيهًا؟

فلم تدر ما تقول ولم تحر جوابًا، واشتاق إلى سماع صوتها والتماس حنانها فقال لها:

ـ هبي أنّني أجبتك أنّي أدعى اسفينيس، فهل تردّين عليّ؟

وما كادت تسمع اسم اسفينيس حتّى قامت واقفة وصاحت به:

ـ إذن أنت اسفينيس!

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان، وأمسك بمعصمها وهو يقول:

ـ أنا اسفينيس أيّتها الأميرة أمنريدس.

فجذبت معصمها بشدّة وقالت:

ـ إنّي لا أفهم شيئًا.

فابتسم أحمس وقال برقّة:

ـ ماذا تعني الأسماء؟.. كنت بالأمس أدعى اسفينيس وأدعى اليوم أحمس، ولكنّي شخص واحد وقلب واحد...

ـ يا للغرابة... كيف تقول أنت شخص واحد؟.. كنت تاجرًا تبيع الحليّ والأقزام، وأنت اليوم تقاتل وترتدي ثياب الملوك.

ـ ولِمَ لا؟.. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفّيًا، وأنا اليوم أقود قومي لتحرير بلدي واسترداد عرشي المسلوب...

فنظرت إليه نظرة طويلة تحيّر في إدراك كنهها. وحاول أن يدنو منها مرّة أخرى، ولكنّها صدّته بإشارة من يدها وجمدت قسمات وجهها وتبدّت القساوة والكبرياء في عينيها، فأحسّ خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بلابل الرجاء المغرّدة في صدره، وسمعها تقول بشدّة:

ـ ابتعد عنّي.

فقال لها برجاء:

ـ ألا تذكرين...

ولكنّها قاطعته قبل أن يتمّ كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذي اشتهر به قومها:

ـ أذكر وسأذكر دائمًا أنّك جاسوس وضيع...

فأحسّ صدمة مروّعة جعلته يقطّب، وقال بغضب:

ـ أيّتها الأميرة... ألا تدركين أنّك تخاطبين ملكًا؟

ـ أيّ ملك يا هٰذا؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدّة:

ـ فرعون مصر.

فقالت بتهكّم:

ـ وأبي أيكون أحد ولاتك؟!

فاشتدّ الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعًا، فقال:

ـ ليس أبوك أهلًا لأن يكون واليًا من ولاتي، ولكنّه مغتصب على عرش بلادي، وقد هزمته شرّ هزيمة وجعلته يفرّ من أبواب طيبة الشماليّة تاركًا ابنته تقع أسيرة بين أيدي القوم الذي ظلمهم، وسوف أتبعه بجيوشي حتّى يلوذ بالصحارى التي قذفته إلى وادينا... ألا تدركين هٰذا؟... أمّا أنا فملك هٰذا الوادي الشرعيّ لأنّي من سلالة فراعنة طيبة المجيدة، ولأنّي قائد مظفّر أستردّ بلادي عنوة واقتدارًا.

فقالت ببرود وسخرية:

ـ طبت من ملك يبرع قومه في مقاتلة النساء...

ـ يا للعجب ألا تعلمين أنّك مدينة لقومي هؤلاء بحياتك؟. لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنّهم قتلوك ما خالفوا السنّة التي استنّها أبوك في تعريض النساء والأطفال لنبال المقاتلين...

ـ وهل تضعني على قدم المساواة مع أولئك النسوة؟

ـ ولم لا؟...

ـ معذرة أيّها الملك.. فإنّه كبر عليّ أن أتصوّر أنّي مثل إحدى نسائكم أو أنّ أحدًا من قومي مثل أحد من قومكم إلّا أن يتساوى السادة والعبيد... ألا تعلم أنّ جيشنا غادر طيبة لا يحسّ ذلّ المغلوب، وكانوا يقولون باستهانة ثار عبيدنا وسنكرّ عليهم...

وجنّ جنون الملك وغلبه الغضب على أمره، فصاح بها:

ـ من العبيد ومن السادة؟.. إنّك لا تدركين شيئًا أيّتها الفتاة المغرورة؛ لأنّك ولدت بين أحضان هٰذا الوادي الذي يوحي بالمجد والعزّة، ولو تأخّر مولدك قرنًا من الزمان لولدت في أقسى صحارى الشمال الباردة، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكًا. من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا وجعلوا أعزّته أذلّة، ثمّ قالوا جهلًا وغرورًا إنّهم أمراء وإنّنا فلّاحون عبيد، وإنّهم بيض وإنّنا سمر، اليوم يأخذ العدل مجراه فيردّ إلى السيّد سيادته، وينقلب العبد إلى عبوديّته، ويصير البياض سمة الضاربين في الصحارى الباردة، والسمرة شعار سادة مصر المطهّرين بنور الشمس.

هٰذا الحقّ الذي لا مراء فيه...

فاحتدم الغيظ في قلب الأميرة واندفع الدم إلى وجهها، وقالت باحتقار:

ـ أنا أعلم أنّ أجدادي هبطوا مصر من الصحراء الشماليّة، ولكن كيف غاب عنك أنّهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوّتهم سادة هٰذا الوادي؟.. كانوا وما يزالون سادة ذوي كبرياء ونخوة، لا يعرفون سوى السيف سبيلًا إلى هدفهم، لا يتخفّون في ثياب التجّار كي يطعنوا اليوم مَن سجدوا له بالأمس القريب...

فحدجها بنظرة قاسية متفحّصة، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف، وتتمثّل فيها صفات قومها الفظّة المتعالية، فاشتدّ به الحنق، وأحسّ رغبة حارّة إلى إخضاعها وإذلالها ولاسيّما بعد أن أذلّت عواطفه بكبريائها وصلفها، فقال بصوت هادئ متعالٍ:

ـ لا أرى سببًا يدعوني إلى الاستمرار في مجادلتك، ولا يجوز أن أنسى أنّي ملك وأنّك أسيرة.

ـ أسيرة كما تشاء، ولكنّي لن أذلّ أبدًا.

ـ بل إنّك تحتمين برحمتي فتؤاتيك هٰذه الشجاعة.

ـ لم تفارقني شجاعتي قطّ... سل رجالك الذين خطفوني غدرًا ينبئوك عن شجاعتي واحتقاري لهم في أحرج الأوقات وأشدّها خطرًا عليّ.

فهزّ كتفيه العريضتين استهانة، وتحوّل إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول:

- لقد قلت حقًّا إنّي أسيرة، وليست سفينتك المكان الذي يصلح للأسرى، فألحقني بأسرى قومي...

فنظر إليها مغيظًا محنقًا وقال يغيظها ويخيفها:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، فالعادة أنّ الأسرى الرجال يسخّرون عبيدًا، أمّا النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر...

فقالت وقد اتّسعت حدقتاها:

- ولكنّي أميرة...

- كنت أميرة... ولست الآن سوى أسيرة.

- كلّما ذكرت أنّي أنقذت حياتك يومًا يجنّ جنوني...

فقال بهدوء:

- فلتحيَ هٰذه الذكرى... فبفضلها أنقذت حياتك من أيدي الثائرين الذين يتمنّون أن يرسلوا رأسك إلى أبوفيس.

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبًا حانقًا، وحيّاه الحرّاس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة، وسار إلى مقدّمة السفينة بخطًى ثقيلة متباطئة مالئًا صدره بهواء الليل الرطيب، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيّار النيل المتدفّق منذ الأزل تشقّ الظلماء إلى شمال طيبة. فأرسل الملك بناظريه إلى المدينة فارًّا إليها من هموم نفسه، وكان النور يشعّ من سفن الأسطول الراسية إلى شاطئ المدينة، أمّا القصور الشاهقة فكانت غارقة في الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارّون، ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التي يحملها الساهرون الفرحون، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد، فجرت على فمه العريض ابتسامة، وأدرك أنّ طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعوّدت أن تستقبل جيوشها المظفّرة وأعيادها الخالدة...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونيّ حتّى حاذته في مسيرها، ورأى الملك القصر مضاءً يشعّ النور من نوافذه وحديقته، فعلم أنّ حور يشرف على تهيئته وتطهيره، وأنّه عاد حقًّا إلى أداء وظيفته الأولى في قصر سيكننرع وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة، ليلة حملت السفينة الفرعونيّة أسرته إلى أقاصي الجنوب والدماء تتفجّر من ورائها...

وعاود الملك السير جيئة وذهابًا على مقدّم السفينة، واتّجه بصره مرّات إلى مخدع الأميرة المغلق ثمّ تساءل متبرّمًا ساخطًا: لماذا جاءوني بها؟... لماذا جاءوني بها؟...

- ١٦ -

وفي صباح اليوم الثاني بكّر حور والقوّاد والمستشارون إلى زيارة الملك في سفينته الراسية شمال طيبة، فاستقبلهم الملك في المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادئ:

- أسعد الربّ صباحك أيّها الملك المظفّر، لقد خلّفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح، ويهزّها الشوق إلى اجتلاء نور جبين مخلّصها ومحرّرها.

فقال أحمس:

- لتفرح طيبة، أمّا اللقاء فحين يقضي الربّ بالنصر.

فقال حور:

- وذاع بين الأهلين أنّ مليكهم في طريق الشمال وأنّه يرحّب بمن يلحق به من القادرين، ولا تسل يا مولاي عن الحماسة التي فاضت بقلوب الشباب، ولا عن تهافتهم على الضبّاط ليضمّوهم إلى جيش أحمس المعبود.

فابتسم الملك وسأل رجاله:

- وهل زرتم معبد آمون؟

فقال حور:

- نعم يا مولاي زرناه جميعًا، وهرع إليه الجنود يتمسّحون بأركانه ويمرّغون وجوههم في ترابه ويعانقون كهنته. وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الربّ المعبود وتردّدت صلاتهم في جنبات المعبد،

فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبيّون جميعًا في صلاة جامعة، أمّا نوفر آمون فلم يبرح عزلته. . .

فابتسم الملك، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس أبانا صامتًا مكتئبًا فأشار إليه أن يقترب، فاقترب القائد من مولاه، ووضع الملك يده على منكبه وقال له:

ـ تحمّل نصيبك من الأذى يا أحمس، واذكر أنّ شعار أسرتك الشجاعة والبذل.

فحنى القائد رأسه شاكرًا وقد دخلته رقّة من عطف الملك عليه، ونظر أحمس إلى رجاله وقال:

ـ أشيروا عليّ فيمن أختاره حاكمًا لطيبة، وأعهد إليه بمهمّة تنظيمها الشاقّة. . .

فقال القائد محب:

ـ إنّ خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور. . .

ولكنّ حور بادر يقول:

ـ إنّ واجبي في السهر على خدمة مولاي لا في التخلّف عنه.

فقال أحمس:

ـ صدقت. . وأنا لا أستغني عنك.

فقال حور:

ـ يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأي هو توتي آمون وكيل معبد آمون، فإذا شاء مولاي فليعهد إليه بشئون طيبة.

فقال أحمس:

ـ قد ولّيناه طيبة.

ثمّ دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته.

ـ ١٧ ـ

ومضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب، استبق الجنود الطيبيّون إلى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس، وصارت طيبة من المودّة والعطف كأنّها قلب الدنيا الخافق. أمّا أحمس فلم يبرح سفينته، ودعا الضابط المكلّف بحراسة الأميرة وسأله عنها. فقال له الرجل: إنّها باتت ليلتها دون أن تذوق طعامًا. وكان يفكّر في وضعها في سفينة أخرى ويعهد بها إلى حرّاس أمناء، ولكنّه لم ينته من تفكيره إلى عزم قاطع، ولم يشكّ في أنّ حور غير راض عن وجودها في سفينته، وأيقن أنّ الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبوفيس هٰذه الحظوة لديه، وكان يعرفه حقّ المعرفة، ويعلم أنّه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة. أمّا هو فكانت عواطفه متعطّشة فائرة، وكان يعيا عن كفّ نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته، أو في صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب، فإنّ الغضب لا يقتل الحبّ ولكنّه يحجبه حينًا من الزمن كما يكدّر الضباب وجه المرآة المصقولة إلى حين، ثمّ ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء. ولذٰلك لم يسلّم لليأس، وجعل يقول لنفسه متعزّيًا: لعلّ ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع في الأسر، ولعلّ غضبها أن يسكت فتجد أنّ ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحبّ فتلين وتذعن وتؤدّي للحبّ حقّه كما أدّت للغضب حقوقه، أليست هي صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته ومنحته العطف والمودّة؟. . . أليست هي التي أقلقها غيابه فكتبت إليه رسالة عذل تضمر أنين الحبّ المكتوم؟. . . فكيف تذوي عواطفها هٰذه من أجل ثورة كبرياء وغضب؟. . وانتظر الأصيل ثمّ هزّ كتفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع، وحيّاه الحرس وأوسعوا له فدخل كبير الرجاء. ورآها تجلس في جمود وهدوء تلوح في عينيها الزرقاوين الكآبة والملل! فآلمته كآبتها وقال لنفسه: كانت طيبة على رحابتها تضيق بها، فكيف وقد حبست في هٰذا المخدع الصغير؟. . ووقف أمامها جامدًا فاستوت في جلستها ورفعت إليه عينين باردتين، فقال لها برقّة:

ـ كيف كانت ليلتك؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوّقة، وأعاد سؤاله قائلًا وقد ظنّ أنّ أمله قريب:

ـ كيف كانت ليلتك؟

وبدا عليها كأنّها لا تريد أن تخرج عن الصمت، ولكنّها رفعت رأسها بحدّة وقالت:

ـ كانت أسوأ لياليّ. . .

فأغضى عن لهجتها وسألها:

ـ لماذا؟. . هل يعوزك شيء؟. .

فقالت دون أن تغيّر لهجتها:

ـ يعوزني كلّ شيء.

ـ كيف؟. . لقد أمرت الضابط المكلّف بحراستك. . .

فقاطعته بتبرّم قائلة:

ـ لا تتعب نفسك في ذكر هٰذا. . فإنّه يعوزني كلّ شيء أحبّه، يعوزني أبي وقومي وحرّيّتي. ولٰكن لديّ كلّ ما أكرهه. . . هٰذه الثياب وهٰذا الطعام وهٰذا المخدع وهٰؤلاء الحرّاس. . .

فمني بالخيبة مرّة ثانية وأحسّ انهيار آماله وذهاب رجائه، فجمدت أساريره وقال لها:

ـ أتريدين أن أفكّ أسرك وأرسلك إلى أبيك؟

فهزّت رأسها بعنف وقالت بشدّة:

ـ كلّا. . .

فنظر إليها متعجّبًا متحيّرًا، ولكنّها استدركت بمثل هٰذه اللهجة قائلة:

ـ كيلا يقال إنّ ابنة أبوفيس ضرعت إلى عدوّ أبيها العظيم أو أنّها استحقّت الرثاء يومًا. .

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها:

ـ إنّك لا تتحرّجين في إظهار صلفك اطمئنانًا منك إلى رحمتي. . .

ـ كذبت. . .

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال:

ـ يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم، هل تعلمين ما تستوجبه إهانة الملك من عقاب؟ هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم؟. . أنا لو شئت لجعلتك تجثين عند قدمَي أصغر جنودي سائلة الصفح والتوبة. . .

أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده في نفسها، فوجدها تتحدّاه بعينيها القاسيتين لا تغضيهما، والغضب يسارع إليها إسراعه إلى بني قومها جميعًا، وقالت بحدّة:

ـ نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سبيلًا، ولا يذلّ كبرياؤنا حتّى تطوي السماوات أيدي البشر.

وتساءل في غضبه هل يجرّب إذلالها؟. . لماذا لا يذلّها ويدوس كبرياءها بقدمه؟. أليست هي أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه؟. . ولكنّه لم يرتح إلى هٰذا الهوى. كان يطمع فيما هو أعذب وأجمل. فلمّا أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واحتدّ غضبه فزهد في استذلالها، على أنّه أظهر غير ما يبطن فقال بلهجة كلهجتها كبرياء:

ـ إنّ مشيئتي لا تقتضي تعذيبك فلن تعذّبي لذلك. . . وإنّه لمن أعجب الأمور أن يفكّر إنسان في تعذيب جارية حسناء مثلك.

ـ بل أميرة ذات كبرياء.

ـ كان هٰذا قبل أن تقعي أسيرة في يدي. .

أمّا أنا فأوثر أن أضمّك إلى حريمي على أن أعذّبك: ومشيئتي هي النافذة. . .

ـ ستعلم أنّ مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا عليّ، وأنّك لن تمسّني حيّة. . .

فهزّ كتفيه استهانة، ولكنّها استدركت قائلة:

ـ من عاداتنا المتوارثة أنّه إذا وقع فرد منّا في أشراك ذلّ ولم يستطع النجاة، امتنع عن الأكل حتّى يقضي كريمًا. . .

فقال متهكّمًا:

ـ حقًّا؟. . . ولكنّي رأيت قضاة طيبة يساقون إليّ فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة. . .

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت، وضاق الملك بحديثها ذرعًا وكان يعاني مرارة الخيبة فلم يطق البقاء، وقال وهو يهمّ بمغادرة المخدع:

ـ لن تجدي حاجة إلى الامتناع عن الطعام. . .

وغادر المخدع مغضبًا ساخطًا وقد بيّت نيّته على أن ينقلها إلى سفينة أخرى، ولكن ما كاد غضبه يسكت

حين خلا إلى نفسه في المقصورة حتّى عـدل عن نيّته فلم يصدر أمره. . .

- ١٨ -

ومثل الحاجب حور بين يدي الملك في مقصورتـه وقال:

ـ مولاي، جاء رسل من قبل أبوفيس يستأذنون في المثول بين يديك.

فعجب أحمس وسأله:

ـ ماذا يريدون؟

فقال الحاجب:

ـ قالوا إنّهم يحملون رسالة لذاتك العليا. . .

فقال أحمس:

ـ ادعهم على عجل. . .

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل، وعاد إلى مولاه ينتظران. ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرذمة من ضبّاط الحرس، وكانوا ثلاثة يتقدّم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقًا من العاج، وكـانوا كـما يبـدو من ثيـابهم الفضفـاضـة من الحجّـاب، بيض الوجوه، طوال اللحى، وقد رفعوا أيديهم بالتحيّة دون انحناء، ووقفوا في غطرسة ظاهرة، فردّ أحمس تحيّتهم في كبرياء وسألهم:

ـ ماذا تريدون؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجميّة متغطرسة:

ـ أيّها القائد. . .

ولكنّ حـور لم يمكّنه من إتمـام عبارتـه، فقال لـه بهدوئه الطبيعيّ:

ـ إنّك تحدّث فرعون مصر يا رسول أبوفيس. . .

فقال الزعيم:

ـ الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد، وما دام لنا رجال وفي أيدينا سلاح، فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له. . .

فأومأ أحمس إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول:

ـ تكلّم فيما جئت من أجله. . .

فقال الزعيم:

ـ أيّها القائد، خطف الفلّاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السموّ الفرعونيّ الأميرة أمنريدس كريمـة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الربّ ست. ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلّاحون؟

ـ هل يذكـر مولاك مـا فعل بنسـائنا وأطفـالنا في حصـار طيبة؟. . . ألم يـذكر كيف عـرّضهنّ لسهـام أبنائهنّ وأزواجهنّ تمزّقهنّ شرّ ممزّق، وجنودكم الجبناء مدرّعون بهنّ؟. .

فقال الرجل بحدّة:

ـ إنّ مولاي لا يتنصّل من تبعة عمله، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة. . .

فهزّ أحمس رأسه بنفور وقال:

ـ بل الحرب نزال بين الرجال، يفصل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء، وهي عندنـا صراع لا ينبغي أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين. . . على أنّي أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهٰذا رأيه في الحرب؟. .

فقال الرسول بإباء:

ـ إنّ مـولاي يستفهم لغايـة في نفسـه، فـلا هـو يسترحم ولا هو يشفق. . .

وتفكّر أحمس مليًّا، ولم يغب عنه الباعث الذي حدا بعدوّه إلى السؤال عن ابنته. ولـذٰلك قـال بوضـوح وبلهجة تنمّ عن الاحتقار:

ـ عد إلى مولاك وقل له إنّ الفلّاحين قوم شرفاء لا يقتالون النساء، وإنّ الجنود المصريّين يترفّعون عن قتل أسراهم، وإنّ ابنته أسيرة تتمتّع بنبل آسريها. .

فبدا على الرجل الارتياح وقال:

ـ لقد أنقذت كلمتك هٰذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالًا ممّن أسرهم الملك، وجعل حياتهم رهينة بحياة سموّ الأميرة.

فقال له أحمس:

ـ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم.

فصمت الرجل مليًّا ثمّ قال:

ـ وقد أُمرت ألّا أعود حتّى أراها بنفسي.

وبدا الإنكار على وجه حور، ولكنّ أحمس بادر الرسول قائلًا:

ـ ستراها بنفسك.

فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجيّ الذي يحمله تابعاه وقال:

ـ وهٰذا الصندوق يحوي بعض ثيابها، فهل تأذن لنا في تركه في حجرتها؟.

فسكت الملك هنيهة ثمّ قال:

ـ لك هٰذا.

ولكنّ حور مال إلى مولاه وهمس قائلًا:

ـ ينبغي أن نفحص الثياب أوّلًا.

فوافق الملك على رأي حاجبه، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدي الملك، ثمّ فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبًا ثوبًا، وعثر بحقّ صغير فأمسك به وفتحه فإذا ما به عقد ذو قلب زمرّديّ.

وارتعد قلب الملك لمرآه: وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآلئه يوم كان يدعى اسفينيس وبيبع اللآلئ فتورّد وجهه، أمّا حور فقال:

ـ هل السجن مكان صالح للزينة؟!

فقال الرسول:

ـ هٰذا العقد حلية الأميرة المفضّلة لديها، فإن شاء القائد أبقيناه، وإلّا أخذناه معنا.

فقال أحمس:

ـ لا بأس بإبقائه.

ثمّ التفت الملك إلى الضبّاط وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة، ومضت الرسل ومضى الضبّاط في أثرهم...

ـ ١٩ ـ

وفي ذات المساء لحقت بالجيش قوّات آتية من الجنوب من مدرّبي أبولينوبوليس وهيراكونبوليس، ورست في ميناء طيبة سفن صغيرة محمّلة بالأسلحة وقباب الحصار موجّهة من أمبوس، وبشّر ربّانها الملك بأنّه عمّا قريب تصله قوّة من العجلات والفرسان المدرّبين. وانضمّ إلى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عمّا فقده من الرجال وأربى عدده على اليوم الذي اخترق الحدود غازيًا. ولم يرَ الملك داعيًا إلى البقاء في طيبة أكثر ممّا بقي؛ فأمر قوّاده بالاستعداد للزحف شمالًا فجر الغد، وتودّع الجنود من طيبة وأهلها، وتحوّلوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد. وعند مطلع الفجر نفخ الجنود في الأبواق فتحرّك الجيش العرمرم صفوفًا كأمواج البحر، تتقدّمه الطلائع ويسير في مقدّمته الملك وحرسه، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى. وأقلع الأسطول بقيادة أحمس أبانا يشقّ مياه النيل بوحداته القويّة. تواثبوا جميعًا للقتال، وشحذ النصر إرادتهم فجعلها كالحديد أو أشدّ صلابة. واستُقبل الجيش في القرى بحماسة دافقة، وهرع الفلّاحون إلى طريقه هاتفين يلوّحون بالأعلام وسعف النخل. واجتاز سبيله آمنًا فأضحى في شنهور ودخلها بغير مقاومة، ثمّ أمسى في قسي ففتحت له أبوابها وباتوا جميعًا في قسي واستأنفوا المسير مع الفجر، وجدّوا في سيرهم حتّى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادي الذي ينتهي بالمدينة، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرءوس، وذكر أحمس الهزيمة التي حلّت بجيش طيبة في هٰذا الوادي لعشرة أعوام خلت أو يزيد، وذكر مصرع جدّه الباسل سيكننرع الذي ارتوت هٰذه الأرض بدمه، وحار بصره في جنبات الميدان وهو يتساءل: ترى في أيّ مكان سقط، ولاحت منه التفاتة نحو حور، فرأى وجهه ممتقعًا وعينيه مغرورقتين بالدموع، فاشتدّ به التأثّر وقال له:

ـ يا للذكرى المؤلمة...

فقال حور بصوت متهدّج وأنفاس لاهثة:

ـ كأنّي أستمع إلى أرواح الشهداء التي يعمر بها جوّ هٰذا المكان المقدّس...

فقال القائد محب:

ـ لشدّ ما ارتوت هٰذه الأرض من دماء آبائنا..

وجفّف حور دمعه وقال للملك:

ـ فلنصلّ جميعًا يا مولاي على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل.

وترجّل أحمس وقوّاده وحاشيته وصلّوا جميعًا صلاة حارّة. .

ـ ٢٠ ـ

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر، فهتف الجنود لذكرى سيكننرع طويلًا. ثمّ زحف الجيش إلى تنتيرا دون أن يجد أدنى مقاومة. وكذٰلك استردّ ديوس بوليس برفا. ثمّ سار في طريق أبيدوس وهو يتوقّع أن يلقى الرعاة في واديها، ولكنّه لم يعثر برجل من العدوّ، فعجب أحمس وتساءل قائلًا:

ـ أين أبوفيس وأين جيوشه الجرّارة؟

فقال حور:

ـ لعلّه لا يريد أن يلقى عجلاتنا بمشاته.

ـ وحَتّامَ تدور هٰذه المطاردة؟

ـ من يعلم يا مولاي؟. . لعلّها تدوم حتّى نواجه أسوار هواريس، حصن الرعاة الحصين الذي شيّدوا أسواره في قرن من الزمان، ولسوف يدمي قلب مصر قبل أن تخترقه جنودنا.

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص، فدخلها دخول الجيش المظفّر، واستراح بها يومه. .

وكان أحمس يتعطّش للحرب لعلّه يلقى عدوّه في موقعة فاصلة، ولأنّه كان يتوق إلى أن ينغمر في القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزانه فؤاده، ولٰكنّ أبوفيس أبى عليه هٰذه الراحة، فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة، وقلبه ينأزعه إليها على ما به من موجدة عليها. وذكر أحلامه حين ظنّ أن أسعد الأقدار هي التي دفعتها إلى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنّة من جنان الحبّ. ثمّ ذكر ما فعل به إباؤها وغضبها، وكيف صيّره مريضًا محرومًا من أشهى الثمار وهي ناضجة دانية، وكانت رغبته إلى الحبّ قويّة لا تقاوم فجرفت بتيّارها الدافق عوائق التردّد والكبرياء، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل، وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفّة في ثوب من أثواب منف الرقيقة. وكأنّها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلّت تنظر إلى ما بين قدميها. وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحسّ رعدة تصدع صدره، ونازعته الرغبة في أن يرتمي عليها ويضغطها بين ذراعيه بكلّ ما أوتي من قوّة وعزم، ولكنّها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة، فلبث حيث هو جامدًا، ثمّ سألها:

ـ هل زارك الرسل؟

فقالت بلهجة لا تنمّ عن عاطفة:

ـ نعم.

فجال ببصره في الحجرة حتّى استقرّ على الصندوق العاجيّ وقال:

ـ لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هٰذا الصندوق!

فقالت باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء:

ـ شكرًا لك. .

فارتاح فؤاده وقال:

ـ وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمرّديّ. .

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلّم، ولٰكنّها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدلّ على الحيرة، فقال أحمس برقّة:

ـ قال الرسل إنّ هٰذا العقد عزيز لديك. .

فهزّت رأسها بعنف وكأنّها تنفي عن نفسها تهمة وقالت:

ـ كنت أكثر من لبسه حقًّا لأنّ ساحرة القصر جعلته تعويذة تقي الضرّ والسوء. .

ففطن إلى تهرّبها، ولٰكنّه لم ييأس وقال:

ـ ظننت أنّ ذٰلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونيّة.

فتضرّج وجهها بالاحمرار وقالت بغضب:

ـ لا أذكر اليوم نزوة الأمس، ويجمل بك أن تحدّثني كما ينبغي لعدوّ أن يحدّث أسيرة.

ورأى وجهها قاسيًا جامدًا فتجرّع الخيبة مرّة أخرى، ولٰكنّه أراد أن يكتم عواطفه فقال:

ـ ألم تعلمي بأنّا نضمّ نساء أعدائنا إلى حريم قصورنا؟

فقالت بحدّة:

ـ إلّا مثلي..

ـ هل تعودين إلى التهديد بالصوم؟

ـ لا حاجة لي به بعد الآن..

فتفحّصها بنظرة مريبة وسألها متهكّمًا:

ـ فكيف تدافعين عن نفسك؟

فأرته في كفّيها سلاحًا صغيرًا لا يزيد طوله عن ظفر، وقالت باطمئنان:

ـ انظر؛ هٰذا خنجر مسموم، إذا خدشت به جلدي سرى سمّه في دمي فقضى عليّ في لحظات، دسّه إليّ الرسول في غفلة من رقبائك، فعلمت أنّ أبي يضع بين يديّ ما أقضي به على نفسي إذا مسّني الضيم أو تحرّش بي إنسان.

فغضب أحمس وعبّس وجهه وقال:

ـ أهٰذا هو سرّ الصندوق؟.. سحقًا لمن يطمئنّ إلى كلمة خنزير من الرعاة ذوي اللحى القذرة. إنّ الخيانة تسري في عروقكم مسرى الدم، ولٰكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك، فقد دسّ إليك هٰذا الخنجر لتقضي به عليّ..

فهزّت رأسها كالساخرة وقالت:

ـ أنت لا تفهم أبوفيس، إنّه يأبى إلّا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة، أمّا عدوّه فسيقضي عليه بنفسه كما تعوّد أن يقضي على أعدائه.

فضرب أحمس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد:

ـ لماذا كلّ هٰذا العناء؟.. فما أزهدني في جارية مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد، لقد توهّمتك فيما مضى شيئًا ليس فيه من حقيقتك شيء، فسحقًا للأوهام جميعًا..

وتحوّل الملك عنها وغادر المخدع، وفي الخارج دعا كبير حرّاسها وقال له:

ـ لتنقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة..

وبرح الرجل السفينة ضيّق الصدر مكفهرّ الوجه، وعاد في عجلته إلى المعسكر..

ـ ٢١ ـ

وضاق الملك بالسكون فأمر قوّاده بالتأهّب. وفي فجر اليوم الثاني زحف الجيش بجموعه الجرّارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس في يومين، ولم يظهر حولها أثر للعدوّ فدخلتها الطلائع في سلام وتبعها الجيش على الأثر. وأوغلت الطلائع شمالًا حتّى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشماليّة ودخلتها بلا مقاومة وزفّت البشرى إلى الملك أحمس أنّ بانوبوليس في أيدٍ مصريّة، فصاح أحمس:

ـ لقد أجلي الرعاة من مملكة طيبة.

فقال حور:

ـ وسيجلون عن مصر قريبًا.

وتقدّم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوًّا ظافرًا على أنغام الموسيقى الحماسيّة، ونفخ في الأبواق إعلانًا للنصر، ورفعت الأعلام المصريّة على سور المدينة، وانتشر الجنود في الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون. وشمل المدينة فرح جنونيّ خفق في كلّ صدر وتردّد مع كلّ نفس وأولم الملك لقوّاد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدّمت في ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتّقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان، وقال الملك لرجاله:

ـ غدًا نخترق حدود المملكة الشماليّة وترفع على أسوارها أعلام مصر لأوّل مرّة منذ نيّف ومائة عام.

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلًا..

ولٰكن في أصيل ذٰلك اليوم رأى الحرّاس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها، فقال أحد رجالها إنّهم رسل الملك أبوفيس إلى أحمس، فمضى بهم الجنود إلى المدينة، وعلم أحمس بأمر الرسل فذهب إلى قصر حاكم المدينة، ودعا إليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب، وجلس على كرسيّ الحاكم يحيط به قوّاده ومن حولهم الحرس في ثيابهم

الفخمة. وأذن للرسل بالدخول، وكان المصريّون لا يدرون ما يحمله الرسل هٰذه المرّة فانتظروا مشوّقين. وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطًا من القوّاد والحجّاب في الثياب العسكريّة والمدنيّة تسبقهم لحاهم المسترسلة، ولم يكن يبدو على وجوههم آي التحدّي والغلظة كما توقّع أحمس، ولكنّهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعًا في إجلال واحترام حتّى كاد الملك أن يعلن دهشته، وقال كبيرهم:

ـ حيّاك الربّ يا ملك طيبة، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك.

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدلّ على شيء ممّا يثور في نفسه، وقال بهدوء:

ـ حيّاكم الربّ يا رسل أبوفيس، ماذا تريدون؟

وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب مليكهم، ولكنّ زعيمهم قال:

ـ أيّها الملك نحن رجال حرب، في ميدانها نشأنا وعلى سنّتها نعيش، شجعان بواسل كما بلوتمونا، نعجب بالبطل وإن كان لنا عدوًّا، وننزل عند حكم السيف وإن كان علينا. ولقد انتصرت أيّها الملك واستردّدت عرش مملكتك فحقّ لك ملكها كما حقّ علينا تسليمها، فهي مملكتك وأنت مليكها. وإنّ فرعون يقرئك السلام، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحًا شريفًا يحترم الحقوق ويصل ما انقطع من علاقات المودّة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال.

وأصغى الملك إلى الرسل في هدوء ظاهر ودهشة باطنة، ثمّ نظر إلى لسان القوم وسأله متعجّبًا:

ـ أجئتم حقًّا تنشدون سلامًا؟

فقال الرجل:

ـ نعم أيّها الملك.

فقال أحمس بصوت يدلّ على العزم والحزم:

ـ إنّي أرفض هٰذا السلام.

ـ ولماذا تصرّ على الحرب أيّها الملك؟

فقال أحمس:

ـ يا قوم أبوفيس.. لأوّل مرّة تخاطبون مصريًّا باحترام، ولأوّل مرّة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات العبوديّة. أتعلمون لماذا؟ لأنّكم غلبتم على أمركم. فأنتم يا هٰؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم، وشاءٌ إذا غلبتم، أتسألونني لماذا أصرّ على الحرب؟.. فإليكم جوابي: إنّي ما أعلنتها عليكم لأستردّ طيبة، ولٰكنّي عاهدت ربّي وقومي على أن أحرّر مصر جميعًا من نير الظلم والاستبداد، وأن أعيد لها حرّيّتها ومجدها؛ فإذا أراد الذي بعثكم السلام حقًّا، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال.

فسأله الرسول بصوت غليظ:

ـ هٰذه هي الكلمة الأخيرة؟

فقال أحمس بثقة وقوّة:

ـ هي ما افتتحنا به الكفاح، وآخر ما نختتمه به.

فقام الرسل واقفين، وقال رئيسهم:

ـ ما دمت تريد الحرب فستكون حربًا ضروسًا بيننا وبينكم حتّى يقضي الربّ فيها بمشيئته.

وانحنى الرجال للملك مرّة أخرى وغادروا المكان في خطًى ثقيلة.

ـ ٢٢ ـ

ولبث أحمس في بانوبوليس يومين كاملين، ثمّ أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبوفيس، فتقدّمت جماعات قويّة شمال المدينة، والتحمت بقوّات صغيرة للعدوّ فمزّقت شملها، ومهّدت السبيل للجيش المعسكر في بانوبوليس، فزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلًا من قبل من عَدده أو عُدده، وأقلع أسطول أحمس أبانا الجبّار بسفنه المظفّرة. وفي طريق الزحف أبلغت العيون الملك أنّ جيش الرعاة معسكر في جنوب أفروديتوبوليس في جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهمّ الملك عدد الرعاة، ولكنّه سأل الحاجب حور قائلًا:

ـ ترى هل ما يزال لدى أبوفيس قوّة من العجلات يلقانا بها؟

فقال حور:

ـ ما من شكّ يا مولاي في أنّ أبوفيس قد فقد

العدد الأكبر من فرسانه، ولو كان لديه قوّة منهم تستطيع أن تفصل في هٰذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام، على أنّ الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات، فقدوا الثقة والأمل..

واستمرّ تقدّم الجيش حتّى دنا من معسكر عدوّه، ولاحت نذر المعركة في الأفق، وتأهّبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك. وصاح أحمس في القوّاد قائلًا:

- سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام ونيّف؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدًّا لآلام الملايين من إخواننا المستعبَدين، ولنُقْدم بقلوب شديدة البأس. فقد حبانا الربّ بالعدد والأمل، وخذل عدوّنا بالانقراض واليأس. وإنّي لعلى رأسكم كما كان سيكننرع، وكما كان كاموس.

وأمر الملك طلائعه بالهجوم؛ فانقضّت كالنسور الكاسرة، وتحفّز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدوّ، فشاهد قوّة من العجلات تقدّر بمائتي عجلة تردّ عليها الهجوم محاولة الإحداق بها. وكان الملك شديد الرغبة في القضاء على عجلات العدوّ فهاجم على رأس فرقة العجلات وانقضّ على العدوّ من جميع الجهات، وأدرك الهكسوس أنّ فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوّات تفوقهم أضعافًا؛ فقذف أبوفيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيّد عجلاته المحدودة. ودارت معركة شديدة، ولكنّ الرعاة لم تنفعهم شجاعتهم وقضي على قوّتهم الراكبة..

وبات الجيش ليلته.. وكان أحمس لا يدري أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيئسًا أم يفرّ بجيشه مؤثرًا السلامة كما فعل في هيراكونبوليس. ووضح الأمر في الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدّم لاحتلال مواقعها والقسيّ والرماح في أيديها، ورآهم حور فقال:

- الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاي، ويتعرّض أبوفيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرّض له مليكنا سيكنزع في جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام.

فانشرح صدر الملك، وتهيّأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيّدها قوّات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى. وانقضّت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجوّ أمامها سهامًا طائرة، فاخترقت الصفوف في مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرّق من العدوّ فيقتلون ويأسرون. وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولٰكنّهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافّة تعرّضت لرياح الخريف العاتية. وسيطر المصريّون على الميدان، وخشي أحمس أن يفلت أبوفيس من يده؛ فهاجم أفروديتوبوليس كما هاجم الأسطول شطئانها، ولكنّه لم يجد أثرًا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوّه اللدود. ثمّ وافته العيون بأنّ أبوفيس فارق المدينة مع قوّات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس، وأنّه ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريّين، وقال حور للملك:

- لن تجدي المقاومة فتيلًا بعد اليوم، ولعلّ أبوفيس يجدّ الآن في طلب هواريس ليحتمي بأسوارها المنيعة.

ولم يأسف أحمس طويلًا، وكان سروره بفتحه بلدًا من بلاد مصر التي حرم دخولها على قومه مائتي عام لا يعادله سرور، فاشتغل بتفقّد أحوالها وأهليها عن كلّ شيء..

- ٢٣ -

وتقدّم الجيش في زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرًا للعدوّ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدّقون أنّ الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذلّ قرنين من الزمان، وأنّ الذي يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوّهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد. ووجد أحمس أنّ الرعاة قد فرّوا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم؛ وسمع في كلّ مكان طَرَقه أنّ أبوفيس مُجِدّ في الهرب بجيشه وقومه إلى الشمال، وهٰكذا استردّ الملك في شهر من الزمان: هبسيل، وليكوبوليس، وكوسي، ثمّ بلغ أخيرًا هرموبوليس، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم في نفس أحمس وجنوده، لأنّ هرموبوليس مسقط رأس الأمّ المقدّسة توتيشيري، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال في بيتها

العتيد، فاحتفل أحمس بتحريرها، واشترك في الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقوّاد البرّ والبحر والجنود جميعًا، ثمّ كتب الملك إلى جدّته رسالة يهنّئها باستقلال وطنها الأوّل هرموبوليس، ويضمّنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه، وقد أمضاها الملك والقوّاد والحاشية وكبار الضبّاط.

ثمّ تقدّم الجيش في زحفه المظفّر؛ فدخل تتنوى وسينوبولس وهبنن ثمّ أرسنوى، وانحدر بين الأهرام في طريق منف العظيمة غير عابئ بمشاقّ السفر وطول الطريق. وكان أحمس في أثناء ذلك يحطّم الأغلال التي يرسف فيها شعبه البائس، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة، حتّى قال له حور يومًا:

ـ إنّ عظمتك الحربيّة يا مولاي لا يضارعها شيء في الوجود سوى مقدرتك السياسيّة وحنكتك الإداريّة، لقد غيّرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة، ورسمت السبل التي ينبغي انتهاجها والسنن التي يجب اتّباعها، وولّيت الحكّام الوطنيّين، فدبّت الحياة مرّة أخرى في شرايين الوادي، وشاهد الناس أوّل مرّة منذ عهد غابر حكّامًا مصريّين وقضاة مصريّين، فارتفعت الرءوس المنكّسة، ولم يعد الرجل يعيا بسمرته ويعيَّر بها. بل صارت موئله ومفخرته.. ألا فليحفظك الربّ آمون يا حفيد سيكننرع.

كان الملك يعمل مخلصًا مجاهدًا لا يعرف اليأس ولا التعب، وكانت غايته التي لا يتحوّل عنها أن يردّ إلى قومه الذين اهتصرهم الذلّ والجوع والفقر والجهل، العزّة والشبع والرغد والعلم.

على أنّ قلبه لم ينجُ على كدّه وانهماكه من همومه الخاصّة، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء، وكان كثيرًا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه: «لقد خدعت.. وما هي إلّا امرأة بلا قلب». وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنّه وجد روحه تسري بالرغم منه إلى تلك السفينة التي يعابثها الموج في مؤخّرة أسطوله..

ـ ٢٤ ـ

واطّرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة؛ فظنّ أحمس أنّ الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت. ولكن أخطأ ظنّه ودخلت طلائعه المدينة في سلام، وعلم أنّ أبوفيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقيّ؛ فدخل أحمس طيبة الشمال في حفل شعبيّ لم يشهد له مثيلًا من قبل، واستقبله الأهلون استقبالًا حماسيًّا مهيبًا، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح. ومكث الملك في منف عدّة أيّام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعيّة، وطاف بالأهرام الثلاثة، وصلّى في معبد أبي الهول، وقدّم القرابين. فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلّا استرداد طيبة، وكان أحمس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف، فقال له القائد محب:

ـ لن يتعرّضوا مختارين لبأس عجلاتنا بعد ما بلوها في هيراكونبوليس وأفروديتوبوليس.

وقال الحاجب حور بثقة:

ـ إنّ السفن لا تفتأ تأتي إلينا محمّلة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب، وليس أمام أبوفيس إلّا الاهتمام بأسوار هواريس.

وتشاوروا جميعًا في الوجهة التي يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم، فقال القائد ديب:

ـ لا شكّ أنّ العدوّ جلا عن الشمال كلّه وانحصر في الشرق وراء أسوار هواريس، فينبغي أن نقصد إليه بقوّاتنا كاملة.

على أنّ أحمس كان شديد الحذر؛ فأرسل جيشًا صغيرًا إلى الغرب عن طريق لنوبوليس، وسيّر آخر شمالًا في اتّجاه أتريبس، وسار بقوّاته الرئيسيّة وأسطوله العظيم شرقًا في طريق أون. وانطوت الأيّام وهم يضربون في الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة، ويكلّلوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم، ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثمّ فاكوسة ثمّ فربيتص وضربوا في الطريق المؤدّي إلى هواريس وكانت أخبار أبوفيس تترامى إليهم فعلموا أنّ الرعاة ارتدّوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافًا من البائسين. وقد أحدثت هذه الأخبار في نفس

الملك حزنًا شديدًا، ورقّ لحال أولٰئك الأسرى المستذَلّين الذين سقطوا في قبضة الرعاة القاسية.

وأخيرًا لاحت في الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخريّة، فصاح أحمس:

ـ هٰذا آخر حصن للرعاة في مصر.

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينيه الضعيفتين:

ـ حطّم أبوابه يا مولاي يخلص لك وجه مصر الجميل..

ـ ٢٥ ـ

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل، ويمتدّ سورها شرقًا مسافة ينقطع دونها البصر. وكان كثير من الأهلين يعرفون المدينة المحصّنة ومنهم من عملوا داخلها أو في أسوارها، فقالوا لمليكهم: إنّه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرة، يليها خندق محيط يجري فيه ماء النيل، وإنّ بالمدينة حقولًا شاسعة تكفي حاجة أهليها جميعًا، وجلّهم جنود ما عدا المزارعين المصريّين، وتسقي المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربيّ وفي حمايته، وتتّجه شرقًا نحو المدينة.

وقد وقف أحمس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقلّبون وجوههم حيارى في الأسوار العظيمة المترامية، بدت الجنود في ذراها كالأقزام. وضرب الجيش خيامه، وامتدّت صفوف الجند بحذاء السور الجنوبيّ، وتقدّم الأسطول في النهر غربيّ السور الغربيّ بعيدًا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار، وكان أحمس يستمع إلى أقوال الأهلين عن الحصن، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجاري غربه وعقله لا يني عن التفكير. وفي أثناء ذٰلك سيّر قوّات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة، فاستولت عليها دون عناء، وأضحى حصاره للحصن كاملًا في زمن يسير؛ ولٰكنّه كان ورجاله يعلمون أنّ الحصار عقيم، وأنّ المدينة مستغنية بنفسها عمّا عداها، وأنّ الحصار لو امتدّ أعوامًا لن يؤثّر فيها شيئًا؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار في غير أمل، وأهوال الجوّ وتقلّباته. وفيما كان يجول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم في الأمر. وقال لهم:

ـ أشيروا عليّ، فإنّي أرى الحصار ضياعًا للعمر وتبديدًا للقوى، وأرى الهجوم ضربًا من العبث وانتحارًا صريحًا، ولعلّ العدوّ يتمنّى أن نكرّ عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم في خنادقه.. فما الرأي؟

فقال القائد ديب:

ـ الرأي يا مولاي أن نحاصر الحصن بجزء من قوّاتنا، ونعتبر الحرب منتهية عند ذاك؛ ثمّ تعلن استقلال الوادي وتباشر واجبك كفرعون مصر المتّحدة.

ولٰكنّ حور اعترض على الفكرة قائلًا:

ـ وكيف تترك أبوفيس آمنًا يدرّب رجاله ويجدّد عجلاته ليكرّ علينا فيما بعد؟

فقال القائد محب بحماسة:

ـ لقد دفعنا ثمن طيبة غاليًا، والكفاح بدل وفداء، فلماذا لا نؤدّي ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة؟

فقال القائد ديب:

ـ نحن لا نضنّ بنفوسنا، ولٰكنّ الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء، تهلكة لجنودنا بلا ثمن...

وكان الملك صامتًا متفكّرًا، فقال وهو يشير إلى النهر الجاري تحت سور المدينة الغربيّ:

ـ إنّ هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع،ولٰكنّها قد تظمأ...

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة، وقال حور بذهول:

ـ كيف تظمأ هواريس يا مولاي؟

فقال أحمس بهدوء:

ـ بأن نحوّل عنها مياه النيل...

فنظر الرجال مرّة أخرى إلى النيل وهم لا يصدّقون

أنه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه، وتساءل حور:

ـ هل يمكن القيام بهذا العمل الجبّار؟

فقال أحمس:

ـ لا يعوزنا المهندسون ولا العمّال. .

ـ وكم يقتضينا من الوقت يا مولاي؟

ـ عامًا أو عامين أو ثلاثة أعوام. . ماذا يهمّ الزمن ما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة. ينبغي أن يتحوّل النيل شمال فربتتس إلى مجرى جديد يتّجه غربًا نحو مندس، كي يختار أبوفيس بين الموت جوعًا وظمأ أو الخروج لقتالنا. وسيغفر لي شعبي أنّي عرّضت مَن في هواريس من المصريّين للخطر والهلاك. كما غفر لي أنّي فعلت ذلك ببعض نساء طيبة. . .

ـ ٢٦ ـ

وتهيّأ أحمس للعمل العظيم فاستدعى مهندسي طيبة المشهورين، وعرض عليهم فكرته فتوفّروا على دراستها باهتمام وشغف، ثمّ قالوا للملك: إنّ فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدّهم بآلاف العمّال. وعلم أحمس أنّ مشروعه لن يتحقّق قبل مضيّ عامين فلم يركن إلى اليأس، ولكنّه بعث بالرسل إلى البلدان يحثّون على التطوّع في العمل العظيم المنوط تحرير الوطن وطرد عدوّه بتحقيقه. وجاء العمّال جماعات من جميع الأنحاء حتّى اجتمع منهم عدد يكفي للبدء في العمل، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسًا وضربه في الأرض معلنًا ابتداء العمل. فتبعته السواعد المفتولة التي تكدّ على سجع الأناشيد والأغاني.

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليوميّ تحت إشراف الضبّاط والقوّاد، أمّا الملك فكان يزجي فراغه بالخروج إلى الصحراء الشرقيّة طلبًا للصيد والطراد والسباق، وفرارًا من نوازع قلبه ونزوات هواه، وفي فترة الانتظار هذه حمل إليه رسول رسالة من الأمّ المقدّسة توتيشيري قالت فيها:

«مولاي ابن آمون. فرعون مصر العليا والسفلى، حفظه الربّ وأيّده بالنصر والفوز. إنّ دابور الصغيرة اليوم جنّة من جنان السعادة والأفراح بفضل ما حمله إليها رسلك من أنباء النصر المبين الذي فتح به الربّ عليك، وإنّ انتظارنا اليوم في دابور غير انتظارنا بالأمس؛ لأنّه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل، وما أسعدنا جميعًا أن نعلم أنّ مصر حرّرت من الهوان والعبوديّة، وأنّ عدوّها ومُذِلّها حبس نفسه بين جدران حصنه، ينتظر خانعًا القضاء الذي تقضي به عليه. .

وقد شاء الربّ القدير أن يحبوك ـ أنت الذي أذللت عدوّه، وأعليت كلمته ـ بعطفه ورحمته، فرزقك بغلام نورًا لعينيك ووليًّا لعهدك، دعوته أمنحتب تبرّكًا بالربّ المعبود، وقد تلقّيته بيديّ كما تلقّيت أباه وجدّه وجدّ أبيه من قبل، وقلبي يحدّثني بأنّه سيكون وليّ عهد مملكة عظيمة متعدّدة الأجناس واللغات والأديان، يرعاها أبوه الحبيب. . ».

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوّة ودرّت أضلعه الحنان، وفرح فرحًا عظيمًا أنساه بعض ما يعاني من آلام الهوى المكبوت، وآذن رجاله بمولد وليّ عهده أمنحتب فكان يومًا مشهودًا.

ـ ٢٧ ـ

ومضت الأيّام بطيئة ثقيلة ولكنّها حافلة بجلائل الأعمال التي اشتركت في إنجازها أكبر العقول وأشدّ السواعد وأعلى الهمم؛ وكانوا جميعًا لا يبالون مشقّة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم إلى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى، ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدّة أشهر أن رأى الحرّاس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدّمها يخفق علم أبيض، فاستقبلها بعض الحرّاس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجّاب؛ فسألوهم عن وجهتهم فقال كبيرهم: إنّهم رسل الملك أبوفيس إلى الملك أحمس. وطيّر الحرّاس النبأ إلى الملك؛ فعقد الملك مجلسًا من حاشيته وقوّاده في سرادقه، وأمر بإدخال الرسل إليه. وجيء بالرجال

يسيرون في تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنّهم من غير قوم أبوفيس، وانحنوا بين يدي الملك وحيّاه كبيرهم قائلًا:

ـ حيّاك الربّ أيّها الملك.

فردّ عليه أحمس قائلًا:

ـ وحيّاكم يا رسل أبوفيس... ماذا يريد ملككم؟

فقال الرسول:

ـ أيّها الملك، إنّ رجل السيف مغامر ينشد النصر ولٰكن قد يدركه الموت، ونحن رجال حرب وقد مكّنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنّا فيهما السادة المعبودين، ثمّ قضي علينا بالهزيمة فغلبنا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا، ونحن أيّها الملك رجال أشدّاء نقدر على تحمّل الهزيمة كما قدرنا على جني ثمار النصر..

فقال أحمس غاضبًا:

ـ أرى أنّكم أدركتم ما يعنيه هٰذا المجرى الجديد الذي يحفره قومي فجئتم تستعطفون.

فهزّ الرجل رأسه الضخم وقال:

ـ كلّا أيّها الملك، نحن لا نستعطف أحدًا ولٰكنّا نقرّ بالهزيمة، وقد أرسلني مولاي لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء: فإمّا الحرب إلى النهاية، وفي هٰذا الحال لن ننتظر وراء الأسوار حتّى نموت جوعًا وعطشًا، ولٰكنّا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفًا، ثمّ نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك في ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلّا كاره للحياة متعطّش للانتقام.

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثمّ استدرك قائلًا:

ـ وإمّا أن تردّوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمّنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا، فنردّ لكم رجالكم ونخلي هواريس، ونولي وجوهنا شطر الصحراء التي جئنا منها، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون؛ وبذٰلك ينتهي الصراع الذي استمرّ قرنين من الزمان.

وسكت الرجل، فعلم الملك أنّه ينتظر جوابه، ولم يكن الجواب حاضرًا ولا ممّا تسعف فيه البداهة، فقال للرسول:

ـ هلّا انتظرت حتّى نقطع برأي؟..

فقال الرسول:

ـ كما تشاء أيّها الملك، فقد أمهلني مولاي نهار اليوم.

ـ ٢٨ ـ

واجتمع الملك برجاله في مقصورة السفينة الفرعونيّة وقال لهم:

ـ أشيروا عليّ برأيكم..

وكانوا جميعًا على رأي بغير تشاور ولا اتّفاق. فقال حور:

ـ مولاي لقد انتصرت على الرعاة في مواقع كثيرة وأقرّوا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة، فمحوت بذٰلك آثار الهزائم التي ابتلينا بها في ماضينا الأسيف، وقتلت منهم خلقًا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين. فلا تثريب علينا الآن أن نشتري حياة ثلاثين ألفًا من رجالنا، ونوفّر على أنفسنا بذلًا للنفوس لا يدعو واجب إليه، ما دام عدوّنا سيجلو عن بلادنا مغلوبًا على أمره، وسيحرّر وطننا إلى الأبد.

وقلّب الملك عينيه في وجوه قومه فوجد منهم حماسة إجماعيّة لقبول الفكرة. وقال القائد ديب: لقد أدّى كلّ جنديّ من جنودنا واجبه كاملًا، وإنّ ارتداد أبوفيس إلى الصحراء لهو أشدّ نكالًا من ذوق الموت...

وقال القائد محب:

ـ إنّ هدفنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة وإجلاؤهم عن ربوعه؛ وقد يسّر لنا الربّ ذٰلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذلّ باختيارنا.

وقال أحمس أبانا:

ـ إنّنا نشتري حياة ثلاثين ألفًا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة.

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال:

ـ نِعْم الرأي، ولٰكنّي أرى أن ينتظر رسول أبوفيس

فترة أخرى حتّى لا يظنّ إسراعنا إلى موافقته على الرأي السلميّ لضعف أو ملل الكفاح.

وغادر الرجال السفينة وخلا الملك إلى نفسه، وكان على توافر دواعي الابتهاج له كئيبًا ضيّق الصدر. لقد كلّل كفاحه بالفوز المبين وجثا له عدوّه الجبّار، ومن الغد يحمل أبوفيس متاعه ويفرّ إلى الصحراء التي جاء منها قومه خاضعًا لإرادة القضاء الذي لا يردّ. فما باله لا يفرح ولا يبتهج؟أو ما بال فرحه ليس صافيًا وابتهاجه ليس كاملًا؟.. لقد حمّت الساعة الخطيرة، ساعة الوداع إلى الأبد. كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسًا حقًّا، ولكنّها كانت هناك في السفينة الصغيرة. فماذا يفعل غدًا إذا رجع إلى قصر طيبة وحُملت هي إلى بطن الصحراء المجهولة؟ أيتركها تذهب دون أن يتزوّد منها بنظرة وداع؟.. وأجاب قلبه أن لا. وحطّم أغلال التجلّد والكبرياء، وقام واقفًا وفارق المقصورة، وأخذ زورقًا إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه: «مهما يكن من استقبالها فسأجد ما أقوله». وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فحيّاه الحرّاس وفتحوا له. واجتاز الباب خافق الفؤاد، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة في الصدر على ديوان، والظاهر أنّها لم تكن تتوقّع عودته فبدت على محيّاها الجميل الدهشة والإنكار. وتفحّصها أحمس بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهده بها، ورأى ملامحها كيوم حفرت في قلبه على ظهر السفينة الفرعونيّة، فعضّ شفته وقال لها:

ـ أنعمي صباحًا أيّتها الأميرة.

فرفعت إليه عينين لم تذهب منها الدهشة وكأنّها لا تدري بماذا تجيب. ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدلّ على شيء:

ـ أنت منذ اليوم طليقة أيّتها الأميرة.

فلاح في وجهها أنّها لا تفهم شيئًا، فعاد يقول:

ـ ألا تسمعين ما أقول؟ أنت منذ هٰذه الساعة طليقة حرّة. انتهى أسرك أيّتها الأميرة وأصبحت الحرّيّة حقًّا لك.

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء في عينيها. فقالت بلهفة:

ـ أحقّ ما تقول؟.. أحقّ ما تقول؟

ـ إنّ ما أقول حقّ واقع.

فأضاء وجهها وتورّد خدّاها، ثمّ تردّدت هنيهة وتساءلت:

ـ ولٰكن كيف كان ذٰلك؟

ـ آه إنّي أقرأ في عينيك آمالك الطموح، ألست تتمنّين أن يكون انتصار أبيك هو الذي ردّ إليك حرّيّتك؟.. إنّي أقرأ هٰذا، ولٰكنّها هزيمته واأسفاه التي أنهت عبوديّتك.

فعقلت لسانها ولم تنبس بكلمة. فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تمّ الاتّفاق عليه، ثمّ قال: وعمّا قليل تُحملين إلى أبيك وترحلين معه إلى حيث يرحل، فمبارك عليك هٰذا اليوم.

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضّت طرفها، فسألها أحمس:

ـ أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحرّيّتك؟

فقالت:

ـ يجدر بك ألّا تشمت بي، فسنغادر بلادكم كرامًا كما عشنا فيها كرامًا.

فقال أحمس بجزع ظاهر:

ـ لست أشمت بك أيّتها الأميرة، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلّمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة.

فقالت بارتياح:

ـ شكرًا لك أيّها الملك...

وسمعها لأوّل مرّة تتكلّم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء، فتأثّر وقال لها وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

ـ أراك تدعينني ملكًا أيّتها الأميرة؟

فقالت وهي تغضّ بصرها:

ـ لأنّك ملك هٰذا الوادي دون شريك، أمّا أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم.

فازداد تأثّر الملك ولم يكن يتوقّع أن تلين شكيمتها على هٰذا النحو. ظنّ أنّها تزداد بالهزيمة صلفًا، فقال بحزن:

ـ أيّتها الأميرة، إنّ ذكريات الدنيا سجلّ اللذّة

والألم، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرّها ولا يزال أمامكم غد.

فقالت بطمأنينة عجيبة:

- نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء المجهولة، وسنلقى حظّنا ببسالة...

وساد الصمت، والتقت عيناهما، فقرأ في عينيها الصفاء والرقّة؛ فذكر صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودّة والحنان، وكأنّه يراها لأوّل مرّة بعد ذاك العهد الطويل، فزلزل فؤاده وقال بجدّ وجزع:

- عمّا قليل يفرّق بيننا البين ولن تبالي ذلك، ولكنّي سأذكر دائمًا أنّك كنت معي فظّة غليظة...

فلاح في عينيها الحزن وافترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت:

- أيّها الملك إنّك لا تعرف عنّا إلّا القليل.. نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان.

- لم أرد بك الهوان قطّ.. ولكن غرّني الأمل إدلالًا بمنزلة كنت أظنّها لي عندك.

فقالت بصوت خافت:

- أليس من الهوان أن أفتح ذراعيّ لآسري وعدوّ أبي؟..

فقال بمرارة:

- إنّ الحبّ لا يعرف هذا المنطق...

فلاذت بالصمت، وكأنّها أمّنت على قوله فتمتمت بصوت خافت لم يسمعه: «لا ألومنّ إلّا نفسي». ورنت بعينيها رنوًا تائهًا، وبحركة فجائيّة مدّت يدها إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمرّديّ ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام. وتتبّعها بعينين لا تصدّقان، ثمّ ارتمى إلى جانبها غير متمالك، وأحاط عنقها بذراعه وضمّها إلى صدره بجنون وعنف، ولم تقاومه ألبتّة، ولكنّها قالت بحزن:

- حذار.. لقد فات الأوان.

فاشتدّ ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدّج:

- أمنريدس.. كيف هان عليك أن تقولي هذا؟.. بل كيف لا أكتشف سعادتي إلّا حين وشك زوالها؟.. كلّا لن أدعك تذهبين.

فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له:

- وماذا أنت فاعل؟

- سأبقيك إلى جانبي..

- ألا تدري بما يقتضيه بقائي إلى جانبك؟.. هل تجود من أجلي بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلًا وكأنّه يحادث نفسه:

- لقد استشهد أبي وجدّي في سبيل قومي ووهبتهم حياتي، فهل يضنّون على قلبي بالسعادة؟

فهزّت رأسها أسفًا وقالت برقّة:

- أصغ إليّ يا اسفينيس، ودعني أدعك بهذا الاسم العزيز لأنّه أوّل اسم أحبّه في دنياي، ما من الفراق بدّ.. سنفترق.. سنفترق.. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبّهم، ولا أنا أرضى بتقتيل أبي وقومي. فليتحمّل كلّ منّا نصيبه من الألم.

فنظر إليها بذهول وكأنّه يأبى أن يكون كلّ نصيبه من الحبّ أن يرضى بالفراق وتحمّل الألم، وقال لها برجاء:

- أمنريدس، لا تعجّلي اليأس وأشفقي من ذكر الفراق. فإنّ جريه على لسانك في يسر يبعث الجنون في دمي.. أمنريدس.. دعيني أطرق جميع الأبواب حتّى باب أبيك، فما يكون لو طلبت إليه يدك؟.

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهي تمسّ يده برفق:

- واأسفاه يا اسفينيس أنت لا تعي ما تقول، هل تظنّ أبي يقبل أن يزوّج ابنته من الملك المظفّر الذي قهره وقضى عليه بالنفي من البلاد التي ولد فيها وتربّع على عرشها؟.. أنا أعرف بأبي منك فليس ثمّة فائدة ترجى، وما من وسيلة سوى الصبر...

وأصغى إليها ذاهلًا وكان يتساءل: «أحقّ أنّ التي تتكلّم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هي الأميرة

أمنريدس التي لم تكن الدنيا تسعها جنونًا واستهتارًا وكبرًا؟». وبدا لعينيه كلّ شيء غريبًا منكرًا، فقال بغضب:

- إنّ أصغر جنديّ من جنودي لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرّق بينه وبين من يحبّ..».

- أنت ملك يا مولاي، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبًا، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيبًا من شعاع الشمس ونسائم الهواء، وأكثر تعرّضًا لثورة الريح واقتلاع الزوابع.

فأنّ أحمس قائلًا:

- آه ما أشقاني.. لقد أحببتك منذ أوّل لقاء في سفينتي..

فخفضت عينيها وقالت ببساطة وصدق:

- وطرق الحبّ قلبي في ذلك اليوم عينه، ولكنّي لم أكتشفه إلّا فيما بعد. وتيقّظت عواطفي ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلّني إشفاقي على دائي، وبتّ ليلتي حائرة مضطربة لا أدري ماذا أصنع بهذا المولود الجديد.. حتّى غمرني السحر بعد ذلك بأيّام ففقدت وعيي.

- في المقصورة؟. أليس كذلك؟

- نعم.

- أوّاه.. كيف تكون حياتي بدونك.

- تكون كحياتي بدونك يا اسفينيس.

فضمّها إلى صدره وألصق خدّه بخدّها كأنّه يخال أنّ التصاقهما ييئس منهما شبح الفراق الماثل أمامهما. وكان يكبر عليه أن يكتشف حبّه ويودّعه الوداع الأخير في ساعة واحدة. وطرق كلّ سبيل من الفكر يبغي حلًّا فاعترضه اليأس والقهر، وكانت غاية سعيه أن يشدّ حولها ذراعيه. وأحسّ كلّ منهما أنّه آن أن ينفصلا، ولكن لم يحرّك أحدهما ساكنًا فلبثا كشيء واحد.

- ٢٩ -

وغادر أحمس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماه، وكان ينظر إلى شيء في كفّه ويتمتم قائلًا: «أهذا كلّ ما تبقّى لي من حبّي؟». وكانت سلسلة العقد الزمرّديّ هي التي تبقّت له من حبّه، أهدتها إليه الأميرة تذكارًا واحتفظت بالقلب لنفسها. وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة، وقصد الملك إلى السرادق ودعا برسول أبوفيس وقال له:

- أيّها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا. ولـمّا كانت غايتي أن أحرّر وطني من سيطرتكم وهو ما رضيتم به، فقد اخترت الحلّ السلميّ حقنًا للدماء. وسنتبادل الأسرى في الحال، ولكنّني لن آمر بالكفّ عن العمل حتّى يغادر آخر رجل منكم هواريس، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء في تاريخ بلادي.

فأحنى الرسول رأسه وقال:

- نعم الرأي الذي رأيت أيّها الملك، فإنّ الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلًا وتذبيحًا.

فقال أحمس:

- الآن سأترككم لتبحثوا معًا في تفاصيل التبادل والإجلاء.

وقام الملك فقام الجميع وقوفًا وانحنوا له إجلالًا، فحيّاهم بيده وغادر المكان.

- ٣٠ -

وفي مساء ذلك اليوم تمّ تبادل الأسرى؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالًا، وكانوا يهتفون لمليكهم مسرورين ويلوّحون بأيديهم، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس إلى المدينة في سكون ووجوم.

وفي غداة اليوم الثاني بكّر أحمس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقيّة ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصريّة، وكانوا لا يخفون جذلهم، وتتألّق وجوههم بنور الفرح والابتهاج، وكان القائد محب يقول:

- عمّا قليل يأتي حجّاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلّموها إلى جلالة الملك، كما سلّمت مفاتيح طيبة إلى أبوفيس قبل أحد عشر عامًا.

وجاء الحَجّاب كما قال القائد محب، وقدّموا إلى أحمس صندوقًا من خشب الأبنوس رصّت به مفاتيح هواريس، فتسلّمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر، وردّ تحيّة الرجال الذين عادوا من حيث أتوا في سكون وصمت.

ثمّ فتحت الأبواب الشرقيّة على مصاريعها فدوّى صريرها في جنبات الوادي، فتطلّع أصحاب الهضبة صامتين. وبرزت أولى جماعات الخارجين، وكانت من الفرسان المدجّجين بالسلاح قدّمها أبوفيس لاستطلاع الطريق المجهول، وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغال والحمير وبعضهنّ يُحملن في الهوادج، وقد استغرق خروجهنّ ساعات طويلة. ثمّ بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرّها الثيران، فعلم الناظرون أنّه أبوفيس وآل بيته، وقد خفق فؤاد أحمس لمرآه وقاوم دمعة حرّى أحسّ انتزاعها من حناياه، وتساءل: ترى في أيّ مكان هي؟ وهل تجدّ في البحث عنه كما يجدّ في البحث عنها؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به؟.. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه؟ وتابع الركب بناظريه لا يلتفت إلى الجنود المتدفّقة على أثره من جميع الأبواب، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوّم حولهم بروحه حتّى غيّبهم الأفق وابتلعهم الغيب...

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول:

ـ في هٰذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس، ويكلّل كفاح طيبة التي لا تعرف اليأس بالفوز المبين.

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبّارة واحتلّ أسوارها المنيعة، وبات فيها حتّى فجر الغداة، وزحف أحمس بفرقة العجلات شرقًا تتقدّمه طلائعه فدخل تنيس ودفني، وهناك جاءته العيون وهنّأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر. فعاد الملك إلى هواريس، وأمر أن يصلّي الجيش صلاة جامعة للربّ آمون؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كلّ فرقة ضبّاطها وقائدها، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته، ثمّ جثوا جميعًا في خشوع وصلّوا للربّ صلاة حارّة.

وختم أحمس صلاته بأن دعا ربّه قائلًا:

ـ أحمدك وأشكر لك أيّها الربّ المعبود، فقد وصلت جناحي وثبّتّ قلبي، وأكرمتني ببلوغ الغاية التي استشهد في سبيلها جدّي وأبي، فاللّٰهم ألهمني الصواب وأيّدني بالعزم والأمل لأضمّد جراح شعبي، وأجعله خير عابد لخير معبود...

ثمّ دعا أحمس رجاله إلى الاجتماع به فلبّوا سراعًا، فقال لهم:

ـ اليوم تنتهي الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا، ولٰكنّ الكفاح لم ينته أبدًا. وصدّقوني إنّ السلام أكبر من الحرب حاجةً إلى يقظة النفوس وتوثّب العزائم، فأعيروني قلوبكم لنبعث مصر بعثًا جديدًا.

ونظر الملك في وجوه رجاله قليلًا ثمّ استطرد:

ـ وقد رأيت أن أبدأ كفاح السلام باختيار أعواني المخلصين؛ لذٰلك أعهد إلى حور بالوزارة.

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبّل يده، فقال الملك:

ـ وأرى أنّ سنب خير خلف لحور في قصري. أمّا ديب فهو رئيس الحرس الفرعونيّ.

ونظر الملك إلى محب وقال:

ـ وأنت يا محب قائد جيشي العامّ.

ثمّ التفت إلى أحمس أبانا وقال:

ـ وأمّا أنت فقائد الأسطول، وستُردّ إليك ضياع أبيك القائد الباسل بيبي.

ووجّه الملك كلامه إلى الجميع قائلًا:

ـ والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدّي كلّ واجبه.

وتساءل حور قلقًا:

ـ ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة؟

فقال أحمس وهو يهمّ قائمًا:

ـ بل ستقلع بي سفينتي إلى دابور لأزفّ بشرى النصر إلى أسرتي ثمّ أعود معها إلى طيبة، فندخلها جميعًا كما تركناها جميعًا...

- ٣١ -

وأقلعت السفينة الفرعونيّة في حراسة ثلاث سفن حربيّة، وكان أحمس ملازمًا المقصورة ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين في الحزن والأسى... واستغرقت الرحلة أيامًا ثمّ لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة، ورسا الأسطول على شاطئها عند الأصيل، وغادره الملك وحرسه في ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبيّين، وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم. وذاع في المدينة أنّ رسولًا فرعونيًا كبيرًا جاء يزور أسرة سيكننرع، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم، فلمّا شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونيّة في فناء القصر ينتظرون. وطلع الملك عليهم، فعقدت الدهشة والفرح ألسنتهم، وجثا رؤوم على ركبتيه، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه. وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتاري؛ فقبّل خدّيها وجبينها، ونظر فرأى أمّه الملكة ستكيموس مادّة ذراعيها، فضمّها إلى صدره وأسلم لها خدّيه تقبّلهما بحنان وكانت جدّته الملكة أحوتبي تنتظر دورها، فدنا منها وقبّل يديها وجبينها. وأخيرًا رأى توتيشيري... أخيرة القوم وأعزّهم، توتيشيري التي كلّلها المشيب وأذبل خدّيها الكبر، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول:

- أمّاه وأمّ الجميع...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهي ترفع إليه عينيها:

- دعني أنظر إلى صورة سيكننرع الحيّة.

فقال أحمس:

- اخترت يا أمّاه أن أكون الرسول الذي يبشّرك بالفوز العظيم، فاعلمي يا أمّاه أنّ جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبوفيس وقومه وطردهم إلى الصحراء التي جاءوا منها وحرّر مصر جميعًا من عبوديّتهم، فحقّ وعد آمون وطابت نفس سيكننرع وكاموس....

فتهلّل وجه توتيشيري وومضت عيناها الكليلتان وقالت بفرح:

- اليوم يفكّ أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كعهدي بها مدينة المجد والسيادة، وأجد حفيدي على عرش سيكننرع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيت المجيدة.

وجاءت وصيفة الملكة السيّدة راي تحمل وليّ العهد بين ذراعيها، فانحنت للملك وقالت:

- مولاي قبّل طفلك الصغير ووليّ عهدك أمنحتب..

فلانت نظرة عينيه ودرّت حناياه حنانًا دفّاقًا، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتّى التصقت به شفتاه المشوقتان، وابتسم أمنحتب إلى أبيه وعابثه بيديه الصغيرتين...

ثمّ دخلت الأسرة الفرعونيّة الدار تشملها السعادة والطمأنينة، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيّامهم..

- ٣٢ -

وحمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونيّة، ثمّ انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالي دابور جميعًا. وقبل أن ترفع السفينة مراسيها، دعا أحمس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله:

- أيّها الحاكم الأمين؛ أوصيك خيرًا بالنوبة وأهل النوبة، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا، ووطننا إذ لا وطن لنا، ومأوانا حين عزّ النصير ومات الصديق، ومدّخر عتادنا وجنودنا لّما دعا الداعي إلى الكفاح. فلا تنسَ صنيعها، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرمها شيئًا نتمنّاه لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها..

ثمّ أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشقّ طريقها نحو الشمال تحمل قومًا تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها.. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة، فاستقبلت استقبالًا رائعًا، وخرج إليها رجال الجنوب في سفينة الحاكم شاو، وأحاطت بها زوارق

الأهالي يهتفون ويغنّون. وصعد إلى سطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسيين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه. ثمّ انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطئان وتطوف بها القوارب ويصعد إلى سطحها عند كلّ بلدة الحكّام والقضاة والعمد والأعيان. وما زالت السفينة تجدّ في السير حتّى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح في الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدّم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق، ويتجلّى في نظراتهم الحنين والوجد، وتفيض أعينهم بدمع الشكران، وتغمغم شفاههم في صوت خافت: «طيبة.. طيبة». وقالت الملكة أحوتبي بصوت متهدّج:

ـ ربّاه... ما كنت أتصوّر أن يقع بصري مرّة أخرى على هٰذه الأسوار..

وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة في ريح مؤاتية حتّى استطاعوا أن يروا جموعًا من الجنود وكبار القوم على الشاطئ ينتظرون، فعلم أحمس أنّ طيبة تزجي أولى تحيّاتها لمخلّصها، فعاد إلى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله. وأدّى الجنود التحيّة العسكريّة للسفينة الفرعونيّة، وصعد إلى سطحها رجال طيبة، وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور، والقائدان محب وأحمس أبانا، ورئيس الحرس الفرعونيّ ديب، وكبير الحجّاب سنب، وحاكم طيبة توتي آمون. ثمّ كاهن طاعن في السنّ محترق الشعر شيبًا يتوكّأ على صولجانه ويسير بخطًى وئيدة منحني القامة. وسجد الرجال جميعًا لفرعون وقال له حور:

ـ مولاي محرّر مصر ومخلّص طيبة وقاهر الرعاة، فرعون مصر وسيّد الجنوب والشمال، إنّ طيبة جميعًا في الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحمس بن كاموس بن سيكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعًا أحرّ ما جمعت عليه صدرها من التحيّة والسلام...

فابتسم أحمس وقال:

ـ حيّاكم الربّ أيّها الرجال المخلصون، وحيّا طيبة المجيدة مبدئي وغايتي..

وأومأ حور إلى الكاهن الجليل وقال:

ـ مولاي.. ائذن لي أن أقدّم إلى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون.

فنظر إليه أحمس باهتمام، ومدّ له يده مبتسمًا وقال برقّة:

ـ يسرّني أن أراك أيّها الكاهن الأكبر..

فلثم الكاهن يده وقال:

ـ مولاي فرعون مصر وابن آمون، مجدّد حياة مصر ومحيي سير الأعظمين من ملوكها. لقد كنت يا مولاي آليت على نفسي ألّا أبرح حجرتي ما دام في مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلّوا طيبة وقتلوا سيّدها المجيد، وأهملت نفسي فغزر شعر رأسي وجسدي، وقنعت من الدنيا بلقيمات أتبلّغ بها وجرعات من الماء القراح كي أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع، ومازلت حتّى قيّض الله لمصر ابنه أحمس، فحمل على عدوّنا حملة صادقة ومزّق شمله وطرده من بلادنا، فعفوت عن نفسي وأطلقت سراحي، لأستقبل الملك المجيد وأدعو له..

فابتسم الملك إليه، واستأذن الكاهن في السلام على الأسرة فأذن له، فقصد إلى توتيشيري وسلّم عليها، وعدل إلى الملكة أحوتبي وكان من المقرّبين إليها على عهد سيكننرع، ثمّ قبّل ستكيموس ونيفرتاري، ثمّ قال حور لمولاه:

ـ مولاي، إنّ طيبة تنتظر مولاها، والجيش مصطفّ في الطرق، ولٰكنّ لكاهن آمون الأكبر رجاء.

فسأل أحمس قائلًا:

ـ وما رجاء كاهننا الأكبر؟

فقال الكاهن باحترام:

ـ أن يتفضّل مولاي بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونيّ.

فقال أحمس مبتسمًا:

ـ يا له من رجاء في تحقيقه الغنم والسعادة.

ـ ٣٣ ـ

وغادر أحمس السفينة تتبعه الملكات ورجال

مملكته، فاستقبله ضبّاط وجنود ممّن جاهدوا معه منذ اليوم الأوّل، فردّ الملك تحيّتهم. وصعد إلى هودج فرعونيّ جميل، واعتلت الملكات هوادجهنّ، ورفعت الهوادج وتقدّمتها فرقة من الحرس الملكيّ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكيّ، وتقدّم الموكب الملكيّ نحو باب طيبة الجنوبيّ الوسيط، وكان مزيّنًا بالأعلام والأزهار، يصطفّ على جانبيه الجنود الأشدّاء الذين اقتحموه بالأمس القريب. .

اجتازت الهوادج الفرعونيّة باب المدينة بين صفّين من الرماح الشاكية، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين. ونظر أحمس فيما حوله فرأى منظرًا عجبًا يذهل النفوس الرصينة، رأى أهل مصر جميعًا في نظرة واحدة، رأى أجسادًا تحجب السبل والجدران والمنازل، بل رأى أرواحًا خالصة من العبادة والحبّ والحماسة. وضجّ الجوّ بالهتاف المتصاعد من القلوب، وفتن الناس لرؤية الأمّ المقدّسة في مهابة الشيخوخة وجلال الكبر، وحفيدها الباسل في عنفوان القوّة والشباب. وشقّ الركب طريقه كأنّما يخوض بحرًا لجّيًا عبابًا، تتعلّقه الأنفس والأبصار، فقطع السبيل إلى معبد آمون في ساعات. . .

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون، ودعوا له طويلًا وساروا بين يديه إلى بهو الأعمدة، حيث قدّمت القرابين على المذبح. وأنشد الكهنة نشيد الربّ بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردّد في القلوب فترة طويلة، ثمّ قال الكاهن الأكبر للملك:

ـ مولاي ائذن لي في الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهمّ جلالتكم.

فأذن له الملك، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنًا يسيرًا، ثمّ ظهر الكاهن مرّة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتًا وعرشًا وصندوقًا من الذهب، فوضعوها جميعًا أمام الأسرة الفرعونيّة باحترام وإجلال، وتقدّم نوفر آمون حتّى وقف أمام أحمس، وقال بصوت ساحر نفّاذ:

ـ مولاي، إنّ ما أعرض على أنظاركم لهي أنفس مخلّفات المملكة المقدّسة، عهد بها إليّ لاثني عشر عامًا خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبي لتكون في مأمن من أن تصل إليها يد العدوّ الجشع. أمّا التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جثّته المحنّطة التي اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجّل كلّ جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية، وأمّا العرش فهو عرشه المجيد الذي أدّى حقّه وأعلن عليه كلمة طيبة الأبيّة التي آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون إلى ذلّ السلامة. وأمّا هذا الصندوق الذهبيّ فيحتوي على تاج مصر المزدوج، تاج تيپايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتّحدة، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبوفيس، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم، ودافع عنه الدفاع الذي يعرفه جميع أهل الوادي. . هذه يا مولاي ودائع بيبي المقدّسة، أحمد الربّ أن مدّ في عمري حتّى رددتها إلى أصحابها، داموا للمجد ودام لهم. . .

وتحوّلت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونيّ، ثمّ سجدوا جميعًا وفي مقدّمتهم الأسرة الفرعونيّة وصلّوا خاشعين. .

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به، وكان الصمت يشملهم جميعًا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم، وأحسّت توتيشيري لأوّل مرّة تخاذلًا وخورًا، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظريها التابوت المحبوب، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأمّ المقدّسة ويسكّن آلام قلبها، فقال لنوفر آمون:

ـ أيّها الكاهن الأكبر، احتفظ بهذا التابوت في قدس الأقداس حتّى يودع في مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه. .

فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثوى الربّ المعبود، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج، ودنا من أحمس في إجلال وتوّج به رأسه المجعّد، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعًا: «يعيش فرعون مصر». . .

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المثوى

المقدّس فساروا جميعًا، وكانت توتيشيري ما تزال تتوكّأ على ذراع أحمس، واجتازوا العتبة المقدّسة التي تفصل بين الدنيا والآخرة، وسجدوا للربّ المقدّس ولثموا الستائر المسدلة على تمثاله، وصلّوا صلاة الشكر والحمد أن هيّأ لهم الفوز وردّهم إلى وطنهم ظافرين. . .

وغادر الملك المعبد إلى هودجه وكذٰلك الملكات، وحمل العرش على عربة كبيرة، واستأنف الموكب سيره إلى القصر بين الجموع الهاتفة الداعية، المهلّلة المكبّرة، الملوّحة بالأغصان الناثرة الزهور، فبلغوا القصر القديم عند الأصيل، وكان التأثّر قد بلغ من نفس توتيشيري مبلغًا كبيرًا فاشتدّ خفقان قلبها واضطربت أنفاسها، فحملت في هودجها إلى جناحها الملكيّ، ولحقت بها الملكات والملك، وجلسوا بين يديها قلقين، ولٰكنّها استعادت هدوءها وعادت بقوّة إرادتها وإيمانها فاستوت جالسة ونظرت في الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت ضعيف:

ـ معذرة يا أبنائي، لقد خانني قلبي لأوّل مرّة، ولشدّ ما تحمّل هٰذا القلب ولشدّ ما صبر، فدعوني أقبّلكم جميعًا، ففي مثل سنّي يعجّل بلوغ الأمل بالنهاية. . .

ـ ٣٤ ـ

وجاء المساء وخيّم الليل وطيبة لا يعرف النوم إلى أجفانها سبيلًا، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل في طرقاتها وضواحيها، ويجتمع الناس في ميادينها ينشدون ويهتفون، وتسجع ديارها بالأغاني والألحان. في تلك الليلة لم ينم أحمس على ما به من تعب ونصب. ونبا به الفراش فخرج إلى الشرفة المطلّة على حديقة القصر الفيحاء، وجلس على أريكة وثيرة في ضوء مصباح خافت، وساحت روحه في الظلام الجاثم، وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبيّة بحنوّ وإشفاق، ينظر إليها بين الفينة والفينة كأنّما يستمدّ منها أفكاره وأحلامه. . .

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابّة نيفرتاري وكان الفرح ينفي الكرى عن عينيها، فظنّت أنّ زوجها في مثل سرورها، فجلست إلى جانبه جذلة منشرحة الصدر، وانعطف الملك إليها مبتسمًا فوقع بصرها على السلسلة في كفّه فتناولتها بدهشة وقالت:

ـ أهٰذا عقد؟. . ما أجمله!. . . ولٰكنّه مبتور.

فقال وهو يجمع أشتات فكره:

ـ نعم. . فقد قلبه.

ـ واأسفاه. . وأين فقد؟

فقال:

ـ لا أدري إلّا أنّه ضاع على غير إرادتي. .

فنظرت إليه بمودّة وسألته:

ـ أكنت تنوي أن تهديه إليّ؟

فقال:

ـ إنّي أدّخر لك ما هو أثمن منه وأجمل.

فقالت:

ـ فكيف تأسف عليه إذن؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيًّا هادئًا:

ـ إنّه يذكّرني بأيّام الكفاح الأولى، حين خرجت أطلب طيبة متخفّيًا في ثياب التجّار داعيًا نفسي اسفينيس، فكان فيها أعرض على الناس للشراء. . . فيا للذكرى الجميلة. . نيفرتاري، أودّ أن تدعوني اسفينيس، فهو اسم أحبّه وأحبّ عهده وأحبّ مَن يحبّه. .

وأدار الملك وجهه ليخفي ما ارتسم عليه من التأثّر والحنين، فابتسمت الملكة بسرور، ولاحت منها نظرة إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرّك في بطء، فقالت وهي تشير بيدها:

ـ انظر إلى هٰذا المشعل. .

فألقى أحمس بصره إلى حيث تشير، ثمّ قال:

ـ هٰذا مشعل في قارب يسبح قريبًا من الحديقة. . .

وكأنّ صاحب القارب تعمّد أن يدنو من حديقة القصر ليسمع أهله القادمين جمال صوته، فيحيّيهم وحده بعد أن حيّتهم طيبة جميعًا، فرفع عقيرته متغنّيًا في سكون الليل يردّد سجعه مزمار:

«كم رقدت في غرفتي منذ سنين»
«أعاني ألم داء وجيع»
«فعادني الأهل والجيران»

«وزارني العرّافون والأطبّاء»
«فأعيا الداء أطبّائي وجيراني»
«حتّى جئت أنت يا حبيبي»
«فبرع سحرك الطبّ والرقى»
«لأنّك أنت تعرف سرّ دائي»

وكان صوته جميلًا يأخذ بالسمع، فأنصت أحمس ونيفرتاري، وكانت الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف وحنان، وكان الملك ينظر إلى ما بين قدميه بعينين شبه مغمضتين، تنوح في قلبه الذكريات...

القاهرة الجديدة

- ١ -

مالت الشمس عن كبد السماء قليلاً، ولاح قرصها من بعيد فوق القبّة الجامعيّة الهائلة، كأنّه منبثق منها إلى السماء؛ أو عائد إليها بعد طواف، يغمر رءوس الأشجار والأرض المخضرّة وجدران الأبنية الفضّيّة والطريق الكبير الذي يشقّ حدائق الأورمان بأشعّة لطيفة: امتصّت برودة يناير لظاها، وبثّت في حناياها وداعة ورحمة. وقد قامت القبّة على رأس صفّين من الأشجار الباسقة امتدّت مع الطريق، فلاحت كإلٰه يجثو بين يديه كهنته العابدون ساعة العصر والسماء متجلّية في صفاء، مطرّزة بعض نواحيها المترامية بسحائب رقاق: والهواء يتخبّط بين الأشجار باردًا فترجع أوراقها أنينه ونحيبه.

في السماء دارت حدآت حيارى: وعلى الأرض انطلقت جماعات الطلبة. كانوا يغادرون الفناء الجامعيّ إلى الطريق مشتبكين في أحاديث شتّى، ثمّ لاحت بينهم جماعة من الطالبات لا يتجاوزن الخمس، يسرن في خفر ويخلصن نجيًّا. وكان ظهور الفتيات في الجامعة لا يزال حدثًا طريفًا يستثير الاهتمام والفضول، خاصّة للطلبة المبتدئين؛ فجعل هٰؤلاء يتبادلون النظرات ويتهامسون، وربّما علت أصواتهم فبلغت آذان زملائهم. قال طالب:

- لا يوجد وجه واحد بينهنّ يوحّد الله؟

فأجاب طالب آخر بلهجة لم تخلُ من تهكّم:

- إنّهنّ سفيرات العلم لا الهوى..

فقال ثالث بحميّة انتقاديّة، وهو يتفحّص ظهور الفتيات المهزولات:

- ولٰكنّ الله خلقهنّ ليكنّ سفيرات الهوى!

فقهقه الأوّل ضاحكًا وقال مدفوعًا بروح الاستهتار والادّعاء:

- اذكر أنّنا في الجامعة، وأنّ الجامعة مكان لا يجوز أن يذكر فيه لا الله ولا الهوى؟

- منطقيّ جدًّا ألّا يذكر الله، أمّا الهوى..؟

فقال أحدهم بلهجة تقريريّة تنمّ عن أستاذيّة ليس وراءها مطمع لعالِم:

- الجامعة عدوّ لله لا للطبيعة..

- نطقت بالحقّ. ولا يؤيسنّكم قبح هٰؤلاء الفتيات. فهنّ دفعة أولى للجنس اللطيف وسيتبعهنّ أخريات. الجامعة موضة حديثة لا تلبث أن تنتشر، وإنّ غدًا لناظره قريب..

- أتحسب أنّ فتياتنا يقبلن على الجامعة كما أقبلن على السينما مثلاً؟

- وأكثر. وسترى هنا فتيات على غير هٰذا المثال السيّئ.

- وسيزحمن الشباب بلا رحمة.

- الرحمة هنا رذيلة.

- ولن يكلّفن أنفسهنّ مشاقّ الحشمة، فالقويّ لا يحتشم!

- وربّما استعرت بين الجنسين نار!

- ما أجمل هٰذا..!

- وانظر إلى الأشجار والخمائل! إنّ الحبّ يتولّد فيها من تلقاء نفسه كما تتولّد الديدان في قدور المشّ.

- ربّاه! هل ندرك ذٰلك العصر السعيد؟!

- بيدك أن تنتظره إذا شئت..؟

ـ نحن في بدء الطريق والمستقبل باهر.

وانتهوا من الحديث العامّ: وتناولوا الفتيات ـ فتاة فتاة ـ بالتهكّم المرير، والسخرية اللاذعة..

* * *

وكان أربعة يسيرون معًا على مهل، يتحادثون أيضًا وربّما أصغوا بانتباه إلى ما يبلغ آذانهم من هذر الشباب. كانوا من طلبة الليسانس، يشارفون الرابعة والعشرين: وتلوح في وجوههم عزّة النضوج والعلم.. ولم تكن تخفى عليهم خطورة شأنهم، أو بالحريّ كانوا يشعرون بها أكثر ممّا ينبغي. قال مأمون رضوان بلهجة انتقاديّة:

ـ لا حديث للفتيان إلّا الفتيات!

فقال عليّ طه معقّبًا على انتقاد زميله:

ـ وماذا عليهم من ذلك؟ إنّهما نصفان يطلب أحدهما الآخر منذ الأزل..

وقال محجوب عبد الدّائم:

ـ اعذرهم يا أستاذ مأمون، فاليوم الخميس، والخميس عند الطلبة يوم المرأة بلا منازع.

فابتسم أحمد بدير ابتسامة خفيفة ـ وهو طالب وصحافيّ معًا ـ وقال بنبرات خطابيّة:

ـ أدعوكم أيّها الإخوان إلى إعلان آرائكم في المرأة، على ألّا يزيد البيان عن كلمات معدودات. ماذا تقول يا أستاذ مأمون رضوان؟!

فارتبك الشابّ، ثمّ ابتسم قائلًا:

ـ أتريد أن تحملني على حديث أنتقد الغير على خوضه..؟

ـ لا تحاول الهرب، هلمّ، كلمات معدودات، أنا صحافيّ والصحافيّ لا ييأس من حديث أبدًا..

وكان مأمون رضوان يعلم أنّ مراوغة أحمد بدير أمر عسير فاستسلم قائلًا:

ـ أقول ما قال ربّي، فإن رغبت في معرفة أسلوبي الخاصّ، فالمرأة طمأنينة الدنيا، وسبيل وطيء لطمأنينة الآخرة.

وتحوّل أحمد بدير إلى عليّ طه ودعاه للكلام بإيماءة من رأسه.

فقال الشابّ:

ـ المرأة شريك الرجل في حياته كما يقولون، ولكنّها شركة دعامتها ـ في نظري ـ ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات.

فالتفت أحمد بدير إلى محجوب عبد الدائم وسأله ضاحكًا:

ـ ورأي شيطاننا العزيز؟

فقال محجوب عبد الدائم باهتمام مسرحيّ:

ـ المرأة.. صِمام الأمن في خزّان البخار..

فضحكوا كما تعوّدوا أن يضحكوا عقب سماع آرائه. ثمّ سألوا أحمد بدير:

ـ وأنت ما رأيك؟

فقال الشابّ باستهانة:

ـ على الصحافيّ أن يسمع لا أن يتكلّم، خاصّة في عهدنا الحاضر.

ـ ٢ ـ

وانعطفوا مع أوّل طريق مقاطع لطريق الجامعة، وساروا في اتّجاه المديريّة. كان مأمون رضوان أطولهم قامة، ومحجوب عبد الدائم في مثل طوله تقريبًا. أمّا عليّ طه فربعة متين البنيان، وأمّا أحمد بدير فقصير جدًّا كبير الرأس جدًّا. وكان مأمون رضوان يريد أن يختم ساعات العمل أجمل ختام قبل أن يستقبل يوم اللهو فقال بصوته المتهدّج الصاعد من قلبه:

ـ أنسانا حديث المرأة ما نحن بصدده، فما تعليقكم النهائيّ على المناظرة التي شهدناها..؟

دارت المناظرة حول «المبادئ» وهل هي ضروريّة للإنسان أو الأوْلى أن يتحرّر منها.؟

فقال عليّ طه مخاطبًا مأمون رضوان:

ـ نحن متّفقان على ضرورة المبادئ للإنسان، هي البوصلة التي تهتدي بها السفينة وسط المحيط..

فقال محجوب عبد الدائم بهدوء ورزانة:

ـ طظ..

ولكن عليّ طه لم يلق إليه بالًا واستدرك مخاطبًا مأمون:

ـ بَيْد أنّنا مختلفان في ماهيّة المبادئ. .

فقال أحمد بدير وهو يهزّ كتفيه:

ـ كالعادة دائمًا. . !

فقال مأمون وقد تألّقت عيناه بنور خاطف شأنه عند الاهتمام:

ـ حسبنا المبادئ التي أنشأها الله عزّ وجلّ.

فقال محجوب عبد الدائم كالمتعجِّب:

ـ لَشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير. .

فاستطرد عليّ طه قائلًا:

ـ أومن بالمجتمع، الخليّة الحيّة للإنسانيّة، فلنَزِعَ مبادئه، على شرط ألّا نقدّسها لأنّه ينبغي أن تتجدّد جيلًا بعد جيل، بالعلماء والمربّين.

فسأله أحمد بدير:

ـ ماذا يحتاج جيلنا من مبادئ؟

فقال عليّ بحماس:

ـ الإيمان بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنّة، والاشتراكيّة بدل المنافسة. .

فعلّق محجوب عبد الدائم على كلامه قائلًا:

ـ طظ. . طظ. . طظ. .

فسأله أحمد بدير:

ـ وأنت يا أستاذ محجوب ما رأيك في المناظرة؟

فأجابه بهدوء:

ـ طظ. .

ـ هل المبادئ ضروريّة؟

ـ طظ. .

ـ غير ضروريّة إذًا؟

ـ طظ. .

ـ الدين أم العلم؟؟

ـ طظ. .

ـ في أيّهما؟!

ـ طظ. .

ـ أليس لك رأي ما؟

ـ طظ. .

ـ وهل طظ هٰذه رأي يُرى؟

فقال محجوب بهدوئه المصطنع:

ـ هي المثل الأعلى. .

والتفت مأمون رضوان إلى عليّ طه وقال، وجلّ همّه أن يذكر رأيه لا أن يجذب أحدًا إلى عقيدته:

ـ الله في السماء، والإسلام على الأرض، هاكم مبادئي. .

فابتسم عليّ طه وقال بدوره كما قال محجوب عبد الدائم من قبل:

ـ لَشدّ ما يدهشني أن يؤمن إنسان مثلك بالأساطير. .

فقهقه محجوب قائلًا:

ـ طظ. .

وألقى عليهم نظرة سريعة وهم آخذون في مسيرهم وقال:

ـ يا عجبًا! كيف تجمعنا دار واحدة؟. . أنا رأسي هواء، والأستاذ مأمون قمقم مغلق على أساطير قديمة، وعليّ طه معرض أساطير حديثة.

ولم يلقيا بالًا إلى قوله، لأنّه طالما أعْيَتهما معرفة الحدّ بين جدّه وهزله ولأنّ مناقشته متعبة فهو يروغ من التطويق بالتهريج.

وكانوا شارفوا دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا، فودّعهم أحمد بدير وذهب إلى الجريدة التي يعمل بها مساء، ومضوا ثلاثتهم إلى الدار، ليأخذوا أهبتهم لسهرة الخميس.

ـ ٣ ـ

تقع دار الطلبة على ناصية شارع رشاد باشا. هي قلعة هائلة ذات فناء مستدير واسع، يقوم بنيانها على محيطه في شكل دائرة، مكوّنة من طباق ثلاثة، يتركّب كلّ واحد منها من سلسلة دائريّة من الغرف المتلاصقة، تفتح أبوابها على ردهة ضيّقة تطلّ على الفناء. كان الأصدقاء الثلاثة يسكنون ثلاث حجرات متجاورة في الطابق الثاني. وقد صعد مأمون رضوان إلى حجرته الصغيرة، وأخذ في تغيير ملابسه، وكانت الحجرة مؤثّثة بفراش صغير، يقابله صوان، يتوسّطها

وراء النافذة الصغيرة مكتب متوسّط وضعت عليه الكتب والمراجع. وكان الشابّ ممّن يحبّون الكتب حبًّا بالغًا، فما إن وقعت عيناه على معجم «لالاند» حتّى لاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة وشت بحبّه وولعه. بيْد أنّه لم يضع وقتًا، فتوضّأ وصلّى العصر، ثمّ ارتدى «ملابس العطلة» وغادر الحجرة إلى الطريق، ومضى يرسم جسمه الرشيق هيئة عسكريّة جذّابة في مسيره، وكان ذا قوام ممشوق، نحيفًا في غير هزال، أبيض الوجه مشربًا بحمرة، أجمل ما فيه عينان سوداوان نجلاوان. تلوح فيهما نظرة لامعة، تذكي ضياء وجمالًا وذكاء. وكان يتقدّم في مسيره لا يلوي على شيء، لقدميه وقع شديد، ولعينيه هدف لا تحيدان عنه، كان هدفه ذلك اليوم بيت خطيبته بمصر الجديدة. وكان مأمون يعالج أمور قلبه بنفس النزاهة والاستقامة اللتين يعالج بهما جميع أمور حياته.. خطب الفتاة - وهي كريمة قريب له من ضبّاط الجيش العظام - بعد مشورة أبيه، وتمّ الاتّفاق على أن يعقد عليها عقب الانتهاء من دراسته، وصار يتردّد على بيتها كلّ خميس، فيجالس الأسرة مجتمعة، ويمضي بضع ساعات في سمر لذيذ. ولم يخطر له على بال قطّ أن يدعو فتاته إلى السينما، أو أن يدبّر حيلة للانفراد بها، ذلك أنّه كان من الكافرين بالبِدَع الحديثة - على حدّ تعبيره - الثائرين عليها، فلقي سلوكه من أسرة الفتاة - أسرة حافظت على تمسّكها بالتقاليد القديمة - كلّ إعجاب وتقدير. بيْد أنّ ذلك لم يمنع قلبه من الخفقان وهو آخذ في طريقه المعهود، فبلغ طريق الجيزة بعد دقائق واستقلّ الترام. وبدا في جلسته المعتادة، ونظرته الصافية، وقامته العالية، شخصيّة غنيّة بعناصر الجمال والجلال. فلو أراد أن يكون عمر بن أبي ربيعة لكان، ولكنّه كان ذا عفّة واستقامة وطهر لم يجتمع مثلها لشابّ. كان ضميرًا نقيًّا، وسريرة صافية، كان قلبًا مخلصًا ينشد الدين الحقّ والإيمان الراسخ والخلق القويم، وقد نشأ في طنطا، وكان والده مدرّسًا بالمعاهد الدينيّة - رجل ذو دين وخلق - فشبّ في بيئة أقرب إلى البداوة بساطة ودينًا وخلقًا وقوّة، وعرض له في صباه عارض ترك في حياته أثرًا قويًّا. ذلك أنّه أصيب بمرض أقعده عن اللحاق بالمدارس حتّى الرابعة عشرة، فذاق مرارة العزلة، وعرف الألم، وانصهر في أتون تجربة قاسية، ولكنّه استطاع أن يدرس الدين على والده فتفقّه فيه غلامًا يافعًا. ولمّا دخل المدرسة الابتدائيّة دخلها فتًى مراهقًا وقلبًا كبيرًا وروحًا حيًّا وذكاء وقّادًا.. على أنّه لم يخْلُ من تعصّب وحدّة، بل كانت تعتريه لحظات قسوة جنونيّة، تنضب فيها خصوبة نفسه، فينطلق كلسان من لهب يلقف ما يلقاه ويلتهم ما يتصدّى له فيضاعف العمل إن كان يعمل، أو يستغرق في العبادة إن كان يعبد، أو يحتدّ في النقاش إن كان يناقش، أو تعلوه الكآبة والانقباض إن كان يعتزل، وفي تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلًا إلى تحقيق ذاته إلّا في العمل، فبزّ الأقران جميعًا. وكان في قدرته أن يتعبّد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله، وكان يذاكر في الأيّام الأخيرة من العام الدراسيّ عشرين ساعة في اليوم، فكان أوّل الناجحين في البكالوريا، كما ينتظر أن يكون أوّلهم في الليسانس، فصار التفوّق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة، ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه في تفوّقه، ولكنْ لم ترسب للمنافسة في صدره أبخرة خبيثة، بفضل قوّته الخارقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وإيمانه الراسخ بالله. فسما بإنسانيّته إلى أعلى المراتب، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلًا إلى الزهد العاجز أو الفناء في الغير، فكان يقول: إنّ الإيمان امتلاء بالقوّة الربّانيّة لتحقيق مُثُل الله العليا على الأرض. فكان شابًّا عظيمًا، وإن أخفق أن يكون محبوبًا، لأنّ تفوّقه مثار لحسد الحاسدين، وسلوكه احتقار صامت لحياة الآخرين، ثمّ إنّه لم ينْجُ من ميل للوحدة تأصّل في طبعه منذ عهد مرضه العصبيّ الطويل، هذا إلى جهل بأصول اللباقة الاجتماعيّة، ونكران لروح الفكاهة، وولع بالصراحة جعلت من حديثه أحيانًا سوط عذاب، فسمّاه منتقدوه تارة بالجامعيّ الريفيّ، وتارة بالمهدي غير المنتظَر. وقال عنه طالب مرّة: «الأستاذ مأمون رضوان إمام الإسلام في عصرنا هذا، وقديمًا أدخل عمرو بن العاص

الإسلام في مصر بدهائه، وغدًا يخرجه منها مأمون رضوان بثقل دمّه». وظلّ الشابّ على ولائه للتفوّق وإن خافه ومقته في أحايين كثيرة، أجل كان يخاف ذاك الشعور بالتعالي والتفوّق ويستعيذ بالله من شرّه، ولكنّه عجز عن قهره، ولذلك لم يرمق عظيمًا بعين الإعجاب الحقّ، وأعلن في صراحته يوم افتتح الملك الجامعة استهانته برجال الدولة الذين حضروا الاحتفال، ولذلك أيضًا جعل يهزّ منكبيه استهانة كلّما رأى الطلبة يتحمّسون لمن يدعونهم بالزعماء، وكان ينكر الأحزاب جميعًا، ويأبى الاعتراف «بالقضيّة المصريّة» ويقول بحماسه المعهود: إنّ هناك قضيّة واحدة هي قضيّة الإسلام عامّة والعروبة خاصّة. ومن عجب حقًّا أنه لم يتأثّر بموضة الإلحاد التي كانت ذائعة بين طلبة الجامعة على عهده بها وإنّما مردّ ذلك إلى أنّه التحق بالجامعة في الثالثة والعشرين وقد آمن إيمانًا راسخًا بثلاثة أشياء لم ينكرها بعد ذلك طوال حياته: الله، الفضيلة، قضيّة الإسلام. فلم يزُغْ بصره حيال نور الجامعة الجديد، ولبثت صخرة إيمانه القائمة تتكسّر عليها أمواج السيكولوجي والسسيولوجي والميتافيزيقا. تحدّى بإيمانه العلم والفلسفة جميعًا وجعلها من ذرائعه ومقوّماته، وسَرّه أيّما سرور أن يجد أعلام الفلاسفة في ظلّ الله دائمًا: أفلاطون وديكارت وبسكال وبرجسون. كما رحّب قلبه المخلص بالوفاق الذي بشّر به القرن العشرون بين العلم والدين والفلسفة، فاليوم تنحلّ المادّة إلى شحنات كهربيّة أشبه بالروح منها بالمادّة، واليوم تستردّ الروحيّة عرشها المسلوب، واليوم يشغل العلماء بالتفكير الدينيّ ويردّ رجال الدين شرائع العلم والفلسفة، فطوبى للشابّ الفيلسوف المؤمن! غير أنّ شابّ الجيزة تغيّر عمّا كان عليه فتى طنطا المصاب، صار أوسع صدرًا وأرحب فهمًا، أمكنه أن يصغي إلى مُجون محجوب عبد الدائم مبتسمًا، وأن يناقش عليّ طه في قيمة الدين والإلحاد، وأن يتلقّى صابرًا سهام الناقدين والساخرين، إلّا إذا احتدّ واتّقدت عيناه وعزّته تلك اللحظة الرهيبة، فهناك يرتدّ عنه البصر وهو حسير! وكان الشابّ يجد بين زملائه مؤمنين صادقين، فلم يشعر في إيمانه بعزلة، ولكنّه لم يظفر بواحد يشاركه حماسه في الدعوة إلى الإسلام والعروبة، فقد استغرقت الأذهانَ أمورٌ أخرى في ذلك الوقت كالقضيّة المصريّة ودستور سنة ١٩٢٣ ومقاطعة البضائع الأجنبيّة، ولكنّ الفتى لم ييأس في وحدته، ولا كان من الممكن أن يخالط اليأس قلبًا كقلبه.

عاش مشغولًا بالآمال الكبار، إلّا أنّ قلبه استطاع أيضًا أن يتنسّم الحياة، وأن يخفّ مسرورًا إلى استقبالها... بل جعل ينظر من نافذة الترام إلى الخارج في شبه جزَع، يودّ لو يطوي الترام في غمضة عين الطرق إلى مصر الجديدة...

- ٤ -

ولبث عليّ طه في حجرته حتّى مالت الشمس إلى المغيب، وكان يجلس إلى النافذة وعيناه إلى شرفة دار صغيرة قديمة، تقع عند مدخلها دكّان سجائر، تقوم على ناصية شارع العزبة ـ امتداد شارع رشاد باشا من ناحية عزبة الدقّي ـ فيما يواجه دار الطلبة. كان مرتديًا ملابسه إلّا طربوشه، متأنّقًا كعادته، يحسب الناظر إلى منكبيه العريضين أنّه من هواة الرياضة البدنيّة، وكان فتًى جميلًا ذا عينين خضراوين، وشعر ضارب لصفرة ذهبيّة، ودلالة واضحة على النبل، لبث ينظر إلى شرفة الدار الصغيرة القديمة بعينين تتحيَّر فيهما نظرة انتظار ولهفة حتّى دبّت فيهما حياة ويقظة بدخول فتاة إلى الشرفة، فنهض ملوِّحًا بيديه، فابتسمت إليه وأوْمأت إلى الطريق، فلبس طربوشه وغادر الحجرة ثمّ الدار، وانطلق إلى شارع رشاد باشا، ومضى يتمشّى متمهّلًا في الشارع الكبير قامت على جانبيه الأشجار الباسِقة تقبع وراءها القصور والفيلّات، وجعل يرسل الطرْف فيما وراءه بين لحظة وأخرى، حتّى رأى ـ على ضوء الغروب الهادئ ـ صاحبة الشرفة قادمة تخطر. فدار على عقبيه خافق الفؤاد من السرور، واتّجه نحوها مورّد الوجه، حتّى التقت أيديهما، فاشتبكت اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى وغمغم الفتى:

ـ أهلًا . .

فغمغمَتْ ووجهها يشرق بابتسامة لطيفة:

ـ مساء الخير. .

واستخلصت يديها برفق، وتأبّطت ذراعه، واستأنفا السير إلى شارع الجيزة يمشيان مشية المتمهّل الذي ليس له وراء المشي من غاية. هي فتاة في الثامنة عشرة، تضيء محيّاها بشرة عاجيّة، وعينان سوداوان يجري السحر في حوَرهما والأهداب، أمّا شعرها الفاحم وما يحدثه تجاوب سواده مع بياض البشرة فيخطف الأبصار. وقد حوى معطفها الرماديّ جسمًا لدنًا ناضجًا ينتشر سحرًا ووهجًا. سارا متمهّلين يبهج منظرهما الشباب والحياة. وجعل عليّ طٰه يرقب أنحاء الطريق بطرف حذر كأنّما يطلب غِرّة، والفتاة تلحظه بطرف خفيّ منتظرة على شوق وسرور، حتّى اطمأنّ الفتى إلى غفلة العيون، فضمّ أصابعه تحت ذقنها، وأدار وجهها إليه وألصق شفتيه بشفتيها حتّى رطبتا برضابها، ثمّ رفع وجهه متنهّدًا من الأعماق وتتابع خطوهما صامتين، ورأته يلقي عليها نظرات فاحصة، فذكرت ـ على سحر الموقف وفتنته ـ معطفها الذي كاد يبلى، ففتر سرورها، وقالت بالرغم عنها:

ـ أيسوؤك أن ترى دائمًا هٰذا المعطف العتيق؟

فلاح الإنكار في وجه الشابّ وقال مؤنّبًا:

ـ كيف تلقين بالًا إلى هٰذه الصغائر؟ إنّ في المعطف كنزًا جعله الحظّ السعيد من نصيبي. !

ولم توافقه على أنّ المعطف من «الصغائر» بل كانت تقول لنفسها مرّات متأسّفة: إنّ العيش السعيد شباب وثياب! ولحظت بذلته الصوفيّة الأنيقة فرغبت في لومه. وقالت:

ـ يا لك من مُراءٍ! أتعدّ اللباس من الصغائر وأنت تتأنّق مزهوًّا. .

فتورّد وجهه حياء، وبدا كالطفل المرتبك، ثمّ قال كالمعتذر:

ـ البدلة جديدة. . وليس من الممكن ابتياع بدلة قديمة. ولٰكنّ الملابس أعراض تافهة. أليس كذٰلك يا حبيبتي؟

بيْد أنّها خافت مناقشته، لأنّه كان يتوثّب للمناقشة باهتمام، ويقف منها موقف المعلّم، ولم تكن ترتاح إلى ذٰلك. والواقع أنّه لم يكن يخلو من تناقض. كان كثيرًا ما يستهين بالملابس والمآكل ونظام الطبقات، ولٰكنّه كان يلبس فيتأنّق، ويأكل لذيذ الطعام حتّى يشبع، وينفق عن سَعة. أمّا إحسان شحاتة فكان لديها ما تقوله، وما تعلم أنّه ينتظر رأيها فيه، فقالت بصوتها الرخيم الذي يعابث الغرائز:

ـ كدْتُ أتمّ الكتاب الذي أعرتَنيه.

فبدا الاهتمام على وجهه، لأنّه كان يرغب أن يحبّ عقلها كما يحبّ شخصها، وسألها:

ـ ورأيك؟

فقالت بصراحة:

ـ فهمت أقلّه، ولم أفز من هٰذا القليل بطائل.

فشعر بخيبة وسألها:

ـ ولِـمَهْ؟

فابتسمت إليه لتخفّف من وقع كلامها واستدركت:

ـ محور الكتاب ـ الذي تسمّيه قصّة ـ أفكار وآراء، وأنا أرتاد في الكتب الحياة والعاطفة!

ـ ولٰكنّ الحياة فكر وعاطفة!

فلمّت أطراف شجاعتها وقالت:

ـ لا تطوّقني بمنطقك، فربّما لا أستطيع دفعه، ولٰكنّه لن يغيّر من ذوقي، الموسيقى مقياس الفنّ الحقيقيّ في نظري، فما تجاوز مادّة الموسيقى في الكتاب لا ينبغي أن يعدّ من الفنّ في شيء.

فهاله رأيها، وابتسم ابتسامة باهتة، وقال بأسف:

ـ إنّك تحرّمين على نفسك أشهى ثمار الفنّ الحقيقيّ. .

فقالت ضاحكة:

ـ مجدولين، آلام فرتر، آلام رفائيل، تلك آيات الفنّ الذي أحبّه.

قالت ذٰلك بلهجة مَن يقول «لكم دينكم ولي ديني». فأمسك الشابّ عن الكلام، وتساءل هل ييأس حقًّا من تغيير رأيها؟. . إنّه يريد صادقًا أن يتحابّا بقلبيهما وعقليهما، وأن تكون شركة حياتهما تامّة

منسّقة، وأن يجد فيها الحبيبة والزميلة والندّ المحترم. إنّه يحبّها حبًّا يملك عليه قلبه ونفسه، ولكنّه يرجو أن يجعل منها في المستقبل زوجًا غير الزوج التي تعرفها البيوت الشرقيّة. وانتهى بهما المسير إلى شارع الجيزة، فانعطفا إلى يسارها، وتنهّد الشابّ بارتياح، فالشارع كالمقفر، وجوّه كالمظلم، ورفع راحتها إلى فمه، ولثمها بشغف، ثمّ مال نحوها فأخذ قبلة مطمئنّة لذيذة الطعم، من شفتين ممتلئتين طريّتين. ولمحها تسبل جفنيها لوقع القبلة، فانتفض جسمه القويّ، وشاعت في روحه شرارة سرور مكهربة، وقال وهو يزدرد ريقه:

ـ ما ألطفك.. ما أجملك!

ومضت فترة سكون لذيذة ساحرة، ثمّ تنهّد وقال في شبه حسرة:

ـ بيني وبين الامتحان النهائيّ أشهر معدودات، أمّا أنت.!

فقالت:

ـ امتحان البكالوريا في يونيه. ماذا تختار لي؟

فقال الشابّ بحماس:

ـ كلّيّتي..

وهي، وإن كانت الضرورة تحتّم عليها أن تتمّ دراستها، إلّا أنها ودّت لو قال لها مثلًا: «حسْبك دراسة وهلمّي إلى عشّنا!» فشعرت بشيء من الاستياء وسألته:

ـ لماذا أختار كلّيّتك؟

ـ لنكون عقلًا واحدًا وفنًّا واحدًا ومهنة واحدة..

ـ مهنة واحدة؟

فقال بحماسه الذي لا ينضب:

ـ أجل يا حبيبتي وظيفة المرأة أخطر شأنًا من عمل الجارية. محال أن أخون مبادئي، أو أن أرضى بحرمان المجتمع عضوًا جميلًا نافعًا مثلك!

وكانت مقتنعة برأيه على وجه آخر، لأنّ الضرورة تملي عليها أن تختار مهنة يومًا ما. بَيْد أنّه ضايقها ـ وإن لم تدْرِ لماذا ـ حماسه لرأيه، وودّت لو كانت هي التي حملته على قبوله على تمنّع وتردّد منه.

ومضيا في الطريق المقفر يستلهمان آمالها الحديث، ويفصلان حديثهما بالقُبَل.

كانت إحسان شحاته عظيمة الشعور بأمرين: جمالها وفقرها. كان جمالها فائقًا. وقد استأسر سكّان دار الطلبة، وجعل سكّان الحجرات يرسلون شواظ أنفسهم فتلتقي جميعًا في شرفة الدار الصغيرة البالية، وترتمي عند قدم الفتاة الحسناء الفخور. ولكن لم توجد بالدار مرآة حقيقة بأن تعكس ذاك الجمال الصبيح، فالفقر حقيقة ماثلة كذلك، وقوّى شعورها به إخوتها السبعة الصغار، وأن لا مورد لهم إلّا دكّان سجائر مساحتها متر مربّع وجلّ زبائنها من الطلبة! وطالما خافت على جمالها عوادي الفقر، وسوء التغذية. والواقع أنّه لولا وصفات أمّها ـ كانت الأمّ من قيان شارع محمّد عليّ قبل أن يتزوّجها المعلّم شحاتة تركي ـ لَهُزَلَ جسمها، ولَـذَبُل ردفاها اللذان مدحهما أحد شعراء كلّيّة الطبّ بمعلّقة رنّانة. وقد عرفت عليّ طٰه، اختاره قلبها من دار الطلبة جميعًا، وحظيَ بإعجابها شبابه وجماله ونبله ومستقبله، بَيْد أنّ أمرين هامّين جعلا يتنازعان قلبها من أوّل لحظة: حياة قلبها وحياة أسرتها، أو بمعنًى آخر عليّ طٰه والإخوة السبعة الصغار، وكانت عرفت ـ قبل عليّ طٰه ـ شابًّا موسرًا من طلّاب القانون. وقد أدركت من سلوكه أنّه يطمع فيها متعة لقلبه ولهوًا لشبابه، فأخذت حذرها. وكان والداها يطّلعان على أسرار حياتها، فما راعها إلّا إغراء أمّها وطمع أبيها في مال الشابّ! وتنبّهت إلى حقائق حياتها المُرّة، وخوافيها المحزنة. والواقع أنّ والديها لم يضمرا للأخلاق احترامًا قطّ، وكانت شركتهما عشقًا قبل أن تصير زواجًا، وظلّ أبوها يرتزق في سوق الجمال بجماله وصفاقته حتّى تزوّجته أمّها ووهبته ما ادّخرت من مال ليتاجر به، فبدّد ما بدّد على المخدّرات والقمار، وبقيت له دكّان السجائر الصغيرة. ولكنّه كان يقول لنفسه متعزّيًا: «ضاعت حياتي حقًّا ولكن البركة في إحسان». فوجدت فيه الفتاة كما وجدت في أمّها عونًا للشيطان والسقوط. ولكنّها لم تسارع إلى السقوط، فقد تلقّت إهانة عن غير قصد فثار كبرياؤها

وأنقذها، إذ رأت الشابّ صديقها يجالس أباها يومًا في الدكّان، فأدركت أنّه يساومه على عرضها. وثار غضبها، وشعرت بالخزي والعار، ثمّ قطعت الشابّ بقسوة لم تَدَعْ له أملًا! خرجت من التجربة ظافرة، ولكن بعد أن علمت أنّها تعيش في بؤرة. ثمّ إنّها شعرت في قرارة نفسها بأنّها تخلّصت فجأة من الرقابة والقيود، وأنّها صارت حرّة تفعل ما تشاء بغير حساب. وأحدث شعورها بتلك الحرّيّة المطلقة في نفسها ثورة، لبثت حينًا بغير هدف ولا وازع أيضًا. ولكنّ يقظة جنونيّة دبّت في عواطفها فتمطّت ترتاد مُتنفّسًا، وإنْ عقلَها الحياء والتردّد، كان الجوّ خانقًا والرئتان سليمتين، فدلّت الظواهر على أنّ النهاية محتومة ما منها مَناص. وجعل أبوها الفاجر يقول لها متأسّفًا على ضياع الشابّ الموسر: «إنّك مسئولة عنّا جميعًا، وخصوصًا إخوتك السبعة». ربّاه، هل تستطيع أن تعتصم بإرادتها حيال تلك الدوافع الفاجرة؟ ألا يمكن أن يتواصَوْا بالصبر حتّى تُتِمّ تعلّمها بمعهد التربية وتجد مهنة شريفة ترتزق منها؟! واستسلمت للمقادير في غير ثقة ولا إيمان شأن ضعاف الإرادة.. حتّى جاء عليّ طه. وجدت في عليّ ودًّا صادقًا، وإخلاصًا قويًّا، ومقصدًا نبيلًا، فدعم إرادتها المزعزعة. وأنقذها من غمرة الحيرة والخوف، وأعاد إليها شعور الاحترام والكبرياء: فأحبّته وناطت به آمالها. ورمق عمّ شحاته تركي الشابّ الجديد باستياء وقال عنه: «إنّه شابّ فقير، حتّى السجائر لا يدخّنها!» وقال للفتاة مرّة ساخرًا: «مبارك عليك الشابّ الجميل الذي بعثه الله ليجوّعنا!» ولكنّها أعرضت عنه، ووضعت أملها في المستقبل: فهو كفيل بأن يهيّئ لها مهنة محترمة وأن يحقّق لها أحلام قلبها...

أمّا عليّ طه فكان شابًّا ذا مزايا حسنة كثيرة. كان مثالًا طيّبًا للروح الاجتماعيّة الحقّة، ففي عهد دراسته الأوّل كان عضوًا بارزًا في القسم المخصوص، وجمعيّة الرحلات المدرسيّة، وجماعة الخطابة والصحافة، يُجيد الحديث والخطابة وطهي الطعام والغناء، مع ميل محمود للاطّلاع والثقافة واستمساك مخلص بالفضيلة.

وبانتقاله إلى الجامعة ضاق ميدان نشاطه، ولكنّه عمق وارتفع، فصار «الأستاذ» عليّ رئيسًا لجماعة المناظرات، وتميّز على الأقران بقوّته الخطابيّة وثقافته العامّة وحضور بديهته وكان يهتمّ بالمُثُل العليا ويتحدّث بحماس وإيمان عن المدينة الفاضلة، فصدّقه عارفوه، ولكنّ بعض المغرمين بالنقد أشاعوا عنه أنّه داهية لا يشقّ له غبار، وأنّه يغزو الأوساط جميعًا ملثّمًا بالفضيلة، فيصيد الحسان باسم العلم والفضيلة. وأنّه يتحدّث عن الأخلاق كما تتحدّث الخاطبة عن عروس لم ترَها؛ لكنّهم غالَوْا وكذبوا، والحقيقة أنّ الشابّ كان صادقًا مخلصًا، وأنّه إذا كان يحبّ الجمال فقد أحبّه بنزاهة وإخلاص. بَيْد أنّ حياته لم تَخْلُ من أزمات عنيفة، فقد تزعزعت عقيدته منذ مستهلّ حياته الجامعيّة، وتعرّض لآلام التحوّل الفتّاكة ولكنّه كان شجاعًا صادقًا. فاستقبل الحياة الجديدة بإرادة متوثّبة وعقل شغوف بالحقّ. ولم يكن من الهازئين الماجنين، ولم يكتم إعجابه بمأمون رضوان لصدقه وشجاعته، ولكنّه ارتمى بين أحضان الفلسفة المادّيّة: هيجل وستولد وماخ، وآمن بالتفسير المادّيّ للحياة، وارتاح أيّما ارتياح للقول بأنّ الوجود مادّة، وأنّ الحياة والروح تفاعلات مادّيّة معقّدة، وأنّ الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذي يلازم دورانها دون أن يكون له فيه أيّ أثر. وطالما قال له مأمون رضوان: إنّ الفلسفة المادّيّة فلسفة سهلة ولكنّها لا تحلّ مسألة واحدة حلًّا مقبولًا. ولكن عليّ طه كان شابًّا اجتماعيًّا، لا يصبر على التأمّل طويلًا، ويذاكر في أسبوع ما ربّما ذاكره مأمون في يومين، فإلى جانب وقت القراءة هناك وقت للرياضة وآخر للمناظرة وثالث للرحلة ورابع للحبّ إلخ.. فحسْبُه من الفلسفة هذا التفسير الجامع وليستأنف سيره في الحياة ولكن هنالك عقبة كأداء تُنذر بأن تصير هاوية جارفة: الأخلاق؟.. نهضت أخلاقه فيما مضى على دعامة من الدين، فعلام تنهض اليوم؟!.. ما الذي يمسك على الفضائل قيمتها بعد الله؟! أم تُراه يزدريها كما ازدرى عقيدته من قبل، ثمّ يلقي بنفسه في تيّار الحياة الجارف بلا وازع ولا ضمير؟! إنّ المنطق واضح، والنهاية

محتومة، ولٰكنّه تردّد وتماسك واتّقى بقوّة القصور الذاتيّ، وتساءل: ألا يمكن أن يحيا كما حَيِيَ أبو العلاء؟ ولٰكنّ أبا العلاء كان ضريرًا مجدورًا سوداويًّا، أمّا هو فشابّ جميل مفتول العضلات، اجتماعيّ المزاج، فأنّى يكون له الزهد والتقشّف؟! ووجد نفسه في مثل الحيرة التي وجدت فيها إحسان شحاته عقب تحرّرها من ظلّ والديها. وأخيرًا ظفر بمنقذه كما ظفرت بمنقذها، التقى بأوجست كونت رجل المجتمع، وبشّره الفيلسوف بإله جديد هو المجتمع، ودين جديد هو العلم. آمن بالمجتمع البشريّ والعلم الإنسانيّ، واعتقد أنّ للملحد ـ كما للمؤمن ـ مبادئ ومثُلًا إذا شاء وشاءت له إرادته؛ وأنّ الخير أعمق أصولًا في الطبيعة البشريّة من الدين، فهو الذي خلق الدين قديمًا وليس الدين الذي أوجده كما كان يتوهّم وجعل يقول عن نفسه: «كنت فاضلًا بدين وبغير عقل، وأنا اليوم فاضل بعقل وبلا خرافة!». وثاب إلى مُثله العليا آمنًا مطمئنًّا، ممتلئًا حماسًا وقوّة. وشغف بالإصلاح الاجتماعيّ، وحلم بالجنّة الأرضيّة، فدرس المذاهب الاجتماعيّة، حتّى طاب له أن يدعو نفسه اشتراكيًّا.. وانتهى المطاف بروحه ـ التي بدأت رحلتها من مكّة ـ إلى موسكو!. وطمع يومًا أن يجذب أصدقاءه المقرّبين إلى الاشتراكيّة ولٰكنّه لم يفلح. قال له أحمد بدير معتذرًا: «إنّي صحافيّ وفْديّ. والوفد حزب رأسماليّ» وقال له مأمون رضوان بإيمانه المعروف: «للإسلام اشتراكيّته المعقولة، فيه الزكاة التي تضمن ـ لو طبّقت بدقّة ـ العدالة الاجتماعيّة دون جور على الغرائز التي يستمدّ الإنسان منها العون في كفاحه، فإذا أردت للدنيا نظامًا يهيّئ لها الأخوّة الحقّة والسعادة والعدالة فدونك والإسلام». أمّا محجوب عبد الدائم فهزّ منكبيه استهانة وقال باقتضاب: «طظ». ومهما يكن من أمر فقد عرف لحياته هدفًا أنقذه من الحيرة والفوضى والفساد. وحقّ له أن يقول على نفسه مسرورًا: «هاكم بطاقتي الشخصيّة وهي تغني عن كلّ تعريف: فقير واشتراكيّ، مُلحد وشريف، عاشق عذريّ!».

ـ ٥ ـ

انتظر محجوب عبد الدائم في حجرته كذٰلك، ولٰكن دون أن يغيّر ملابسه لأنّه لم يكن كصاحبيه يملك بدلة خاصّة ليوم الخميس وكان يرقب الطريق من نافذته، فرأى مأمون رضوان وهو يغادر الدار في مشيته العسكريّة، ولاحظ إيماءة الهوى بشرفة الدار الصغيرة القديمة، ثمّ رأى العاشقين الشابّين يوافي أحدهما الآخر إلى شارع رشاد باشا. وشيّع كلّ واحد منهم جميعًا بـ«طظ» مفعمة سخرية وحقدًا. فسخريته تضمر دائمًا حقدًا. وكان ينتظر ميعاده، إلّا أنّه يؤثر الظّلمة ويحبّ الستر، فخلت الدار تقريبًا إلّا منه. كان محجوب عبد الدائم ـ كمأمون رضوان ـ طولًا ونحافة، إلّا أنّه شاحب مقلفل الشعر، يميّز وجهه جحوظ عينيه العسليّتين وصعود شعيرات حاجبيه إلى أعلى، هٰذا إلى نظرة قلقة متقلّبة يوحي بريقها بالتحدّي والسخرية. ولم يكن به كصاحبيه ـ جمال، ولٰكن لم يكن بقسماته كذٰلك قبح منفّر. ولا يخطئ الناظر إليه ما يدلّ عليه منظره من التحدّي، فما ينفكّ في خوف من أن يقذفه بنكتة أو دعابة أو ملاحظة لاذعة. وكان يرى حياته مليئة بالمشكلات، ويضع على رأسها جميعًا مشكلته الجنسيّة، ويصفها بأنّها مشكلة عسيرة الحل كالقضيّة المصريّة سواء بسواء! وقد رأى إحسان شحاته، وطالما أثارت بركان شهوته، رآها ـ كما يرى أيّ امرأة أخرى ـ صدرًا وعجزًا وساقين، وكانت إحدى مفاتنها هٰذه كافية لإطلاق شرارة كهربائيّة في صدره، ولٰكنّ الفتاة ـ على حدّ قوله ـ أحسنت الاختيار، وآثرت الفتى الأشقر ذا العينين الخضراوين. ولبثت حياته مقفرة موحشة، فقلبه في ظلام وعقله في ثورة دائمة. كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه، وفلسفته الحرّيّة كما يفهمها هو. وطظ أصدق شعار لها. هي التحرّر من كلّ شيء، من القيَم والمُثل والعقائد والمبادئ، من التراث الاجتماعيّ عامّة! وهو القائل لنفسه ساخرًا: «إنّ أسرتي لن تورثني شيئًا أسعد به فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به!» وكان

يقول أيضًا: إنّ أصدق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ. وكان يفسّر الفلسفات بمنطق ساخر يتّسق مع هواه. فهو يعجب بقول ديكارت: «أنا أفكّر فأنا موجود». ويتّفق معه على أنّ النفس أساس الوجود، ثمّ يقول بعد ذلك إنّ نفسه أهمّ ما في الوجود وسعادتها هي كلّ ما يعنيه. ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيّون من أنّ المجتمع خالق القيم الأخلاقيّة والدينيّة جميعًا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها! وإذا كان العلم هو الذي هيّأ له التحرّر من الأوهام، فليس يعني هذا أنْ يؤمن به أو أن يهبه حياته، ولكن حسْبُه أن يستغلّه وأن يفيد منه. فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين، وإنّما غايته في دنياه: اللذّة والقوّة، بأيسر السبل والوسائل، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة. لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه، ولكن تهيّؤه لها نما معه منذ أمد بعيد. فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة، كان والداه طيّبين جاهلين، ولظروفهما الخاصّة، أتمّ تكوينه في طرق بلدة القناطر. وكان لداته صبية شطارًا ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولا تهذيب فسبّ وقذف واعتدى واعتُدي عليه وتردّى إلى الهاوية. ولّما انتقل إلى جوّ جديد ـ المدرسة ـ أخذ يدرك أنّه كان يحيا حياة قذرة، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرّد. ثمّ وجد نفسه في بيئة جديدة، طالبًا من طلّاب العلم بالجامعة، ورأى حوله شبّانًا مهذّبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية. ولكنّه عثر كذلك على نزعات وآراء لم تدُرْ له بخلد. عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التي يبشّر بها علماء النفس والاجتماع والأخلاق والظاهرات الاجتماعيّة الأخرى، وسرّ بها سرورا شيطانيًا، وجمع من نخالتها فلسفة خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعة، لقد كان وغدًا ساقطًا خاصّة اطمأنّ بها قلبه الذي نهكه الشعور بالضعة، لقد كان وغدًا ساقطًا مضمحلًّا فصار في غمضة عين فيلسوفًا! المجتمع ساحر قديم، جعل من أشياء فضائل، وجعل من أشياء رذائل، وقد وقف على سرّه وبرع في سحره وسيجعل من الفضائل رذائل ومن الرذائل فضائل؟ وفرك يديه سرورًا، وذكر ماضيه أطيب الذكر، ورمق مستقبله بعين الاستبشار، وألقى عن عاتقه شعور الضعة. بَيْد أنّه أدرك منذ اللحظة الأولى أنّ فلسفته سرّيّة، يجوز أن يدعو مأمون رضوان إلى الإسلام جهارًا، ويجوز أن يعلن عليّ طه اعتناقه لحرّيّة الفكر والاشتراكيّة، أمّا فلسفته فينبغي أن تظلّ سرّيّة ـ لا احترامًا للرأي العامّ فإنّ من مبادئها احتقار كلّ شيء ـ ولكن لأنّها لا تؤتي أكلها إلّا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده! ألا ترى أنّه إذا آمن الناس جميعًا بالرذيلة لم يتميّز بينهم بما يتيح له التفوّق عليهم؟ لذلك احتفظ بها لنفسه، ولم يعلن منها ما هو في حكم الموضة كالإلحاد وحرّيّة الفكر. إلّا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة فإنّه ينفّس عن قلبه بالمزاح والسخرية، فبدا للقوم ماجنًا لا شيطانًا مجرمًا. ومضى في سبيله فقيرًا بلا خلق يرصد الفرص ويتوثّب للانقضاض عليها بجراءة لا تعرف الحدود.

* * *

لبث في حجرته ينتظر الظلام، فلقلبه أيضًا مغامرات ولكن حبّه كفلسفته لا يحيا في النور، وما فتاته في الواقع إلّا جامعة أعقاب سجائر. ولشدّ ما أغضبه حظّه من الحبّ، ولكن ما الحيلة ونقوده لا تكاد تفي بضرورات الحياة؟ وكثيرًا ما يهزأ بنفسه فيقول: «لست خيرًا منها فهي جامعة أعقاب سجائر، وأنا جامع أعقاب فلسفة، ثمّ إنّي في نظر المجتمع شرّ منها!» وقد رَمَتْ بها المصادفات بين يديه، فلم يَدَع الفرصة تفلت، وقال متعزّيًا: مَن تواضَعَ لله رفَعَه. رآها ذات مساء ـ وكان يتمشّى في طريق العزبة المقفر ـ وراء شجرة تين مع أحد بوّابي شارع رشاد باشا. فتربّص بها حتّى رآها تسير بمفردها بعد أن عاد النوبيّ إلى الشارع الآخر، واقترب منها بجراءته ولمس منكبها وهو يقول مبتسمًا:

ـ رأيت كلّ شيء.

فتوقّفت الفتاة عن المسير، ورمقته بعين داهشة، وتبيّنها على ضوء الطريق فوجدها شديدة السمرة كاعب

الشديين فاضطربت أنفاسه، وحدجها بعين نمر مفترس.. وأفاقت الفتاة من دهشتها فسألته باستهانة:

- ماذا رأيت؟

فأجاب محجوب وعيناه تقولان لها «بَرِحَ الخفاء»:

- شجرة التين.. البوّاب..

فسألته بنفس اللهجة الدالّة على الاستهانة:

- وماذا تريد؟

فقال بصوت مضطرب:

- مثله.

- أين؟

- ليكن نفس المكان.

فدارت على عقبيها، ولكنّها قالت قبل أن تهمّ بالمسير، وبصوت يدلّ على الإنذار:

- ثلاثة قروش!

فغمغم بارتياح:

- جميل.

ثمن زهيد لا تنوء به ميزانيّته والفتاة لا تخلو من ثدي كاعب. بيْد أنّه يرجو أن تكون سمرتها القاتمة لونًا طبيعيًا لا ترابًا متلبّدًا، وما عليه بعد ذلك إلّا أنْ يتحمّل الرائحة الكريهة المنبعثة من جسدها، لا بأس، فشيء خير من لا شيء، وهل ينسى أنّه نفسه لم يكن يستحمّ - في القناطر - إلّا في المواسم؟. بل إنّه لَيتساءل: ألا يسوّي الظلام بين النساء جميعًا؟! وسألها وهما عائدان:

- ألَكِ عهد طويل بالبوّاب؟

- كلّا. هذه أوّل ليلة.

- ألم تتواعدا مرّة أخرى؟

- كلّا.

فقال محجوب بارتياح:

- ولكن لن تكون الليلة آخر ليالينا.

فتمتمت وهي تثبت الخمار على رأسها:

- وَجَب.

* * *

وكان الظلام يبتلع الكون، وما زال بموقفه من النافذة ينتظر موعد صاحبته، ثمّ سمع نقرًا على الباب، فدلف منه وفتحه، فرأى بوّاب الدار يلوّح له بخطاب. وأخذ الخطاب وردّ الباب، وألقى على الظرف نظرة سريعة فرأى ختم القناطر، ثمّ لاحظ بسهولة أنّ الخطّ غير خطّ أبيه فمن عسى أن يكون كاتبه؟! إنّه يرى ذلك الخطّ أوّل مرّة..

- ٦ -

وفضّ الغلاف متعجّبًا وقرأ ما يأتي:

حضرة الشابّ الفاضل محجوب أفندي عبد الدائم:

السلام عليكم ورحمة الله، وبعد فإنّه يؤسفنا أن نخبركم بأنّ والدكم العزيز مريض وملازم الفراش، ونسأل الله أن يجعل العواقب سالمة، ولكن لا بدّ من حضورك في أقرب وقت لتطمئنّ عليه بنفسك، وقد طلبوا إليّ أن أكتب هذا إليك فلا تتأخّر والسلام.

شلبي العفش (صاحب بقالة القناطر الخيريّة)

هذا يعني أنّ أباه في حالة عجز تمنعه من أن يمسك بالقلم فماذا أصابه؟ وقرأ الكتاب للمرّة الثانية وقد لاح الوجوم في وجهه الشاحب وجعل يشدّ حاجبه الأيسر بأنامله. ومن عجب أنّه لا يذكر أنّ أباه شكا المرض يومًا ما، كان دائمًا متين البنيان ثقيل الخطوات، فلا شكّ أنّ مرضًا خطيرًا غدر به وأعجزه. تُرى ما الذي يخبّئه الغيب؟.. وماذا يدّخر له ولوالدته؟

ولكن لا يجوز أن يضيع الوقت سدًى، أو أن يؤخّر سفره دقيقة. وكتب كلمة لمأمون رضوان يشرح سبب سفره المفاجئ، ولفّ جلبابه في جريدة قديمة، ثمّ غادر الدار. لم يمض إلى شارع العزبة كما كان يرجو منذ دقائق، ولكنّه أخذ في شارع رشاد باشا أو شارع عليّ وإحسان كما يدعوه ساخرًا. ومضى يحدّث نفسه قائلًا: «لو انتهى أجل الرجل لَوُئدت آمالي جميعًا... ربّاه! أيمكن أن يحدث هذا وما عاد بيني وبين الامتحان النهائيّ سوى أربعة أشهر!» وجدَّ في الطريق المقفرة الغارقة قصورها في جلال الصمت لا يسمع إلّا وقع قدميه، حتّى بلغ الجيزة، واستقلّ الترام، تظلّل الكآبة وجهه وعينيه، وفي جلسته المحزونة سرح به فكره إلى صاحبيه المقرّبين: مأمون رضوان وعليّ طه، فنَفِسَ عليهما ما يتمتّعان به من طمأنينة وثقة: مأمون رضوان أبوه مدرّس بالمعاهد، ذو مرتّب حسن فلا تعيش أسرته في ظلّ الخوف، وهو يعطي الشابّ ما يكفيه

وأكثر ولولا حُمْق مأمون الذي جعله يوقف حياته على العلم والعبادة لكانت لـه لذّات الحيـاة ولٰكنّه أحمق، والحمقى دائمًا مجدودون. أمّا عليّ طه فأبوه مترجم ببلديّة الإسكندريّة ذو مرتّب ضخم، والشـابّ يقبل على التمتّع بالحياة في حدود مثله، فهو شابّ سعيد، وحسْبه إحسان كي يكون سعيدًا، ولعلّ إنسانًا ما لم يثر حسده كما يثيره هٰذا الشابّ الجميل الموفّق، هو هـو البائس!.. أبوه ـ تُرى ألا يزال أباه ـ كاتب بشركـة الألبان اليونانيّة بالقناطر، خدمة خمسة وعشرين عامًا ومرتّب ثمانية جنيهات. وإذا انقطع عن العمل فمكافأة أشهر معدودات. وكان الرجل يبذل له من مرتّبه ثلاثة جنيهـات شهـريًّـا أثنـاء السنـة الـدراسيّـة، فنهضت بـالضرورات من مسكن ومأكـل وملبس، ورضي بها الشابّ رضاء المتمرّد المغلوب على أمره وجعل يـرمق ملاذّ القاهرة من بعيد، ويسترق السمع إلى أخبـارها بنهم وألم. كان ينطوي على شهوة جامحة بقدر ما يضيق بطموح جشع. تواردت عليه هٰذه الخواطر فساءته تلك الساعة أكثر من أيّ وقت مضى. ثمّ فكّر في العلاقة التي تربطه بهما، وفيما يسمّونه بالصداقة، غافـلًا عن مشـاهد الحقـول والمياه التي يـطويها الـترام في جريـه السريع. أله صديق حقًّا؟ كـلّا، وما الصـداقة إلّا إحدى الفضائل التي كفر بها؟!. حقًّا إنّه يميل إليهما كثيرًا، فنقاش مأمون يستهويه، وروح عليّ تجذبه إليه، ويلذّه أن يجتمع بهما يتحادثون ويتحـاورون ولٰكن ما شأن ذٰلك كلّه بما هو معروف عن الصداقة؟!. إنّه مع ذلك يحسدهما ويمقتهما؟ ولا يتردّد عن إبادتهما لو وجد في ذٰلك نفعًا. ومضى يقول لنفسه بلهجة التحريض: «الحرّيّة المطلقة.. طظ المطلقة.. ليكن لي أسوة حسنة في إبليس. الرمز الكامل للكمال المطلق.. هو التمرّد الحقّ، والكبرياء الحقّ، والطموح الحقّ، والثورة على جميـع المبادئ!. وانتهى الـترام إلى محطّة الإسعـاف، فتركه واستقلّ ترامًا آخر إلى ميدان المحطّة، ومن ثَمّ إلى المحطّة نفسها، ثمّ انطلق إلى شبّاك تذاكر الدرجة الثالثة وابتاع تذكرة. ولمّا تحوّل عن الشبّاك وجد نفسه أمام شابّ في الثلاثين، متوسّط القامـة مع ميـل إلى القصر والبدانة، مثلّث الوجه كبيره، كثيف الحاجبين، حادّ البصر، مستدير العينين، يلقي على ما حوله نظرة متعالية كلّها ثقة وزهو، فعرفه، ودنا منه مادًّا إليه يده باحترام هاتفًا:

ـ الأستاذ سالم الإخشيدي!.. السلام عليكم..

فالتفت إليه دون أن تتغيّر ملامح وجهه، ونادرًا ما يتغيّر وجهه، فهو لا يندهش ولا ينزعج ولا يبدو عليه سرور ولا حزن، فإذا أراد أن يعلن غضبه ـ وكثيرًا ما يفعـل ـ استعان بنـبرات صوتـه الغليظ. التفت نحو محجوب وقال بهدوء ورزانة:

ـ كيف أنت يا محجوب؟

ـ شكرًا لك والحمـد لله.. ولٰكن ما الـذي جاء بالأستاذ إلى المحطّة؟

فقال الإخشيدي بصوته الرزين:

ـ مسافر إلى بلدتنا القناطر لزيارة والدي، ولٰكن ما الذي جاء بك أنت وليس الوقت بموسم إجازات؟

فقال محجوب بأسف ظاهر:

ـ إلى القناطر أيضًا لعيادة والدي المريض.

ـ عبـد الدائم أفنـدي مـريض؟.. كتب الله لـه السلامة. بلّغْه تحيّاتي.

ثمّ سارا جنبًا لجنب في اتّجاه موقف القطار. وكانت أخبار الإخشيدي انقطعت عن محجوب فـترة يسيرة، فسأله:

ـ ألا تزال يا أستاذ سكرتيرًا لقاسم بك فهمي؟

فلاحت شبه ابتسامة في عيني الإخشيدي وقال:

ـ أنا مرشّح الآن لوظيفة مدير مكتبه. المذكّرة في المستخدمين.

فقال بسرور ظاهر لا ظلّ له في نفسه:

ـ مبارك.. مبارك يا أستاذ!

فرفع الرجل حاجبيه بزهو، وقال باقتضاب:

ـ درجة خامسة.

فهتف محجوب:

ـ مبارك.. مبارك، العقبى للرابعة.

فقال الإخشيدي متفلسفًا:

ـ بلدنا منهوب مسلوب، مسئوليّاته بيد الضعفـاء الأغبياء، ومهما نرتق فلا نزال دون ما نستحقّ!

فآمن محجوب على قوله قائلًا:

ـ صدقت يا أستاذ.

ثمّ استأذن الإخشيدي واتّجه نحو عربة الدرجة الأولى، وأتبعه الشابّ عينيه حتّى اختفى، ثمّ سار إلى الدرجة الثالثة تعلو وجهه الكآبة والأحلام. واتّخذ مجلسه من العربة ورأسه لا يني عن التفكير، والإخشيدي لا يبرح خياله. منذ عامين كان الإخشيدي طالب ليسانس مثله ـ محجوب ـ الآن، ولعلّه كان مثله أيضًا يكفر بالمبادئ ولكن دون جلبة أو ضوضاء.. وربّما كانا لا يختلفان اختلافًا جوهريًّا في شيء فهما في الذكاء سواء، وهما في الأخلاق ـ أو عدم الأخلاق ـ سواء. ولكنّهما جدّ مختلفين في الأعصاب: فسالم الإخشيدي يزن كلامه وزنًا دقيقًا، ولم يعرف عنه أنّه مسّ مبدأً من المبادئ أو خلقًا من الأخلاق بكلمة سوء، أمّا محجوب فعلى حذره سخر من كلّ شيء، وممّا يذكره محجوب ولا ينساه أنّ صاحبه عرف آخر عهده بالكلّيّة كزعيم خطير من زعماء الطلبة، وكان من أبطال لجان المقاطعة وموزّعي المنشورات ضدّ الدستور الجديد. وممّا يذكره ولا ينساه كذلك أنّ الإخشيدي دُعي يومًا لمقابلة الوزير، فذاعت عن المقابلة الأقاويل، وتوقّع كثيرون أن يقع اضطهاد أو بغي، ولكنّ الفتى انقلب فجأة وبغير تدرّج. انسحب من ميدان السياسة كلّه، وتوقّف نشاطه الذي لم يكن يعرف الحدود، ولم يعد يُرى إلّا في حجرات المحاضرات. ولكن إذا واجهه أحد بسؤال عن سرّ انقلابه أجابه ببروده المعهود: «ميدان الجهاد الحقيقيّ للطلبة: العلم!» ثمّ حصل على الليسانس، وعيِّن ـ قبل أوائل الطلَبة ـ سكرتيرًا لقاسم بك فهمي، وكان واسطته الوزير نفسه. بل وُضع في السادسة ـ وهي وقتذاك فردوس مفقود ـ وها هو يرشّح للخامسة قبل أن يمضي على تعيينه سنتان، وبعد أن استقال بمدّة كبيرة الوزير الذي عيّنه، ممّا يدلّ على أنّه حاز ثقة قاسم بك نفسه وأنّه يسير قُدُمًا. يا له من مثال يُحتذى! يا له من رجل يستحقّ من الإعجاب قدر ما يستوجب من الحسد!.. لكم يبدو عليه جاه المنصب، وإقبال الحياة!.. ماذا يضيره إذا احتقره مأمون رضوان أو عليّ طه؟!.. طظ..

وكان القطار يطوي الأرض طيًّا، والبرودة تنفذ إلى الداخل على الرغم من إحكام غلق النوافذ، ولكنّه لم يشعر بالبرودة تمامًا إلّا حين كفّ عن التفكير فزرّر الجاكتّة واعتدل في جلسته. سرعان ما عاد إلى تذكّر أبيه المريض، فأدرك أنّه يغرق في الأحلام متغافلًا عن الهاوية تحت قدميه. وعاد إلى وجومه، مرسلًا نظرة حزينة كئيبة، حتّى وقف القطار في القناطر، فأخذ لفافته وغادره. ثمّ ترك المحطّة إلى الطريق العامّ، وألقى على المدينة نظرة شاملة وهتف: «يا قناطر يا بلدنا.. وزّعي الحظّ بين أبنائك بالعدل!».

ـ ٧ ـ

ولم تمضِ سوى دقائق معدودات حتّى وجد نفسه أمام البيت الصغير الذي ولد فيه، بيت من طابق واحد، يتقدّمه فناء ترابيّ مسوَّر بدرابزين خشبيّ، يدلّ مظهره على البساطة والتقشّف.

وكان يواجه المحطّة في الجانب الآخر من الطريق، ويطلّ سطحه على الحقول فيما وراء السكّة الحديديّة. وبدا البيت مظلمًا غير بصيص نور يلوح من خصاص نافذة أبيه. فخفق قلبه خفقانًا متداركًا، وصرخ به الخوف والرجاء. واجتاز الفناء إلى المدخل وطرقه بخفّة، فسمع وقّع قبقاب، وعرف صاحبته وفتح الباب، وبدا شبحها وراءه، فأقبل نحوها قائلًا:

ـ مساء الخير يا أمّاه.

فسمع صوتًا يقول متنهّدًا: «أنت!» ثمّ أخذت يده بين يديها، وقالت بنفس الصوت المتعَب:

ـ كيف أنت يا بنيّ؟ حدّثني قلبي بأنّك الطارق.

وكان الدهليز مظلمًا فلم يتبيّن ملامح وجهها، فردّ الباب وهو يتساءل بلهفة:

ـ أمّاه.. ماذا حدث؟.. كيف حال أبي؟

فقالت المرأة بصوت محزون:

ـ ربّنا يأخذ بيده.

ووضع لفافة الجلباب على خوان، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين، وسبقته عيناه إلى الراقد على

الفراش، واقترب منه، وكان رأس الرجل مائلًا نحو الجدار. غمغم بصوت خافت:

ـ مساء الخير يا أبي.. كيف حالك؟

ولم يَبْدُ على الأب أنّه سمع حسًّا أو أدرك شيئًا، فانحنت الأمّ على رأسه وقالت:

ـ محجوب يمسّي عليك..

واعتدل رأس الرجل ببطء، وتحرّك جفناه، ثمّ أبرز يسراه، فأخذها محجوب بين يديه وقبّلها، وبدا الرجل مريضًا جدًّا وبدت عيناه مظلمتين كأنّهما تقطران من ماء آسن، وفمه معوجًّا؛ قال محجوب:

ـ أبي.. كيف أنت؟.. لا حول ولا قوّة إلّا بالله..

وثبّت الرجل عينيه عليه، وتكلّم بصوت متحشرج، متقطّع المخارج قائلًا:

ـ لم يعاودني النطق إلّا ظهر اليوم!

فارتاع محجوب وسأل أمّه:

ـ هل عجز وقتًا عن النطق؟

فقالت المرأة المتعَبة:

ـ أجل يا بنيّ. كان في عمله عصر الثلاثاء الماضي كالعادة، فسقط فجأة فاقد النطق، وجاءوا به محمولًا، ودعوا بالطبيب. وأتى الطبيب فحجمه وحقنه، ولا يزال يعوده كلّ صباح، ولكن لم يعاوده النطق إلّا قبل ظهر اليوم.

ـ ماذا قال الطبيب؟

فلاحت في عينيها نظرة حَيْرى، وتحرّكت شفتاها دون أن يسمع لها صوت، فقال أبوه:

ـ قال إنّه شَلَل.. شلل.. جزئيّ..

وارتاع الشابّ لفظاعة الاسم، وإن كان يجهل حقيقته كلّ الجهل.

وأرادت أمّه أن تفرخ روعه فقالت:

ـ ولكنّه أكّد صباح اليوم زوال الخطر..

فاستطرد الأب بصوته المتقطّع الغامض:

ـ إنّي.. أفهم.. ما يقال.. لن أعود كما كنت أبدًا..

فعضّ محجوب على شفتيه وسأل والدته:

ـ هل وقع الأمر بغتة؟

ـ كلّا يا بنيّ، كان أبوك كعهدنا به صحّة وعافية، بَيْد أنّ ثقلًا اعْتَوَر ساقه اليمنى، وصداعًا شقّ عليه مساء الاثنين..

وساد الصمت، فأغمض المريض جفنيه، ولبث بلا حراك، كأنّما راح في سبات عميق. وعطف الشابّ رأسه إلى أمّه، فأيقن أوّل وهلة أنّها لم تذق للنوم طعمًا منذ مساء الثلاثاء، عيناها محمرّتان ذابلتان، تطوّقهما هالتان زرقاوان، وبشرتها شديدة الصفرة، وامتلأ حزنًا وكمدًا ولاح والداه لعينيه مخلوقين بائسين مثله تمامًا. وجلس على كرسيّ قريبًا من الفراش ثمّ أطرق متفكّرًا: هذه أسرة يتعلّق مصيرها بحياة رجل مهدّم، فماذا تحت الجفنين المطبقين؟.. أحياة أم موت؟.. أنجاح أم تشرّد؟! لماذا لم يتأخّر هذا الشلل عامًا آخر؟! وذكر شارع رشاد باشا الصامت الجليل، والقصور القائمة على جانبيه، والباشوات والبكوات تحملهم السيّارات منه وإليه، والنساء اللاتي يلُحنَ وراء ستائره وبين خمائله. فأين من أولئك والداه البائسان؟!. وهذا البيت المتداعي!! وجعل يقول لنفسه: إنّه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه ـ الباشا ـ على الموت لانتظر موته بفارغ الصبر. وتنهّد من قلب مكلوم وقد احتدم الغيظ في قلبه ثمّ تساءل وهو لا يتحوّل عن إطراقه: تُرى كيف تنتهي هذه المأساة؟!

* * *

واسترق النظر إلى أمّه، وكانت تجلس مطرقة عند قدميه، فرآها غارقة في السواد الذي حلفت ألّا تخلعه مدى الحياة منذ ماتت له أختان بالتيفود، ذابلة الوجه، تبدو أكبر من سنّها الذي جاوز الخمسين بقليل، تنوء بأثقال عمر أنفقته أمام لهب الكانون ووهج الفرن، تعجن وتخبز وتغسل وتكنس، فتحجّرت أصابع يديها وبرزت عروق ظاهر كفّيها، لم تجد في حياتها وقتًا للثرثرة، كانت كالبترول الذي يحرّك آلة كبيرة دون أن تدركه الحواسّ. وكانت تحبّ ابنها حبّ عبادة، وقد تضاعف هذا الحبّ بعد وفاة شقيقتيه في ميعة الصبا،

ولكنّها لم تترك أثرًا يذكر في تكوينه وتربيته، وكانت لا تجد في حياتها مَن تكلّمه فعاشت كالبُكم في صمت وجهالة. وقد أقسرت الظروف أباه على الاختفاء من حياته كذٰلك، فكان يواصل العمل في الشركة من الصباح حتّى ما بعد العشاء، ثمّ يهرع بعد ذٰلك إلى حلقات الأذكار حتّى منتصف الليل، فكان لا يكاد يرى ابنه. وكان رجلًا مجدًّا دءوبًا، مخلصًا لبيئته، وصورة منها، لا يشذّ عنها في شيء، يفاخر كثيرًا بقرابته لأحد كبار الموظّفين ـ قريب زوجه ـ وكان كزوجه لا يعرف الراحة، فلم يهنأ بحياته الزوجيّة، واقتصرت رعايته لابنه على إلزامه بالقيام ببعض فروض دينه مستعينًا بالعصا في أحايين كثيرة، لذٰلك جميعه، نشأ محجوب على خوف من أبيه، وانطلق إلى الشارع الذي أتمّ تربيته وتكوينه، ولذٰلك كانت صلته بوالديه واهية باهتة. كان يحبّ أمّه أكثر من أبيه، ولكنّه بات على استعداد دائمًا لأن يخضع صلته بهما لفلسفته المدمّرة التي لا تُبقي على شيء، فلم يكن حزنه حزنًا على والده بقدر ما كان إشفاقًا على الرجل الذي ينفق عليه ثلاثة جنيهات كلّ شهر.

ـ ٨ ـ

في صباح اليوم الثاني جاء الطبيب وفحص المريض وحقنه بالكافور، ثمّ صرّح بارتياحه للحالة مؤكّدًا أنّ الخطر زال تمامًا. وغادر الرجل الحجرة يتبعه محجوب حتّى أدركه في الفناء، والتفت الطبيب إليه وقد أدرك الباعث الذي حمله على اللحاق به:

ـ الحقيقة ما قلت لأبيك، الإصابة جزئيّة وإلّا كانت القاضية. بَيْد أنّي صارحته كذٰلك بأنّه لن يعود إلى عمله، وسيلازم الفراش بضعة أشهر، ولٰكنّه سيحرّك جنبه المشلول. بل ربّما عاود المشي.

ووقف انتباهه عند «لن يعود إلى عمله» فلم يَدْرِ شيئًا ممّا قال بعد ذٰلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، وعاد إلى الحجرة ذاهلًا، وكان أبوه ذا طبيعة عمليّة، لا يدَع أمرًا معلّقًا إذا أمكن أن يبتّ فيه برأي، فدعا ابنه إلى الاقتراب من الفراش، وقال بلسان ثقيل:

ـ أصغِ إليّ يا بنيّ، لن أعود إلى عملي بالشركة، هٰذه هي الحقيقة فماذا ترى؟

فازداد صدر محجوب انقباضًا، ولازم الصمت في انتظار النطق بالحكم، فاستدرك الرجل:

ـ ربّما منحتني الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا ريب قبل مضيّ أشهر قلائل، بل المؤكّد أنّه لن يبقى منها شيء بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولٰكن لن أعدَم نصيرًا يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعًا. .

فقال محجوب بتوسّل، وقد نطقت عيناه بالألم والقنوط:

ـ الامتحان يا أبي على الأبواب، نحن في يناير وهو في مايو، أمّا إذا وظّفت الآن فسأعدّ كحامل البكالوريا، وفي ذٰلك ضياع لمستقبلي عظيم. .

فقال الأب بحزن:

ـ أعلم ذٰلك، ولٰكن ما الحيلة؟ أخاف أن نتعرّض للفضيحة أو نهلك جوعًا!

فقال الشابّ بتوسّل حارّ، وبصوت ملأه حماسًا وقوّة:

ـ أربعة أشهر، أربعة أشهر فقط بيني وبين ثمرة كدّ خمسة عشر عامًا. . أمهلني قليلًا يا أبتي، ستكفينا المكافأة حتّى أنهض على قدميّ، لن نجوع، ولن نتعرّض للفضيحة بإذن الله.

ـ وماذا يكون من أمرنا إذا أخطأ تقديرك؟. . إذا خاب سعيك لا قدّر الله؟ إنّ حياتنا بيديك؟!.

فقال محجوب وهو يعضّ بنواجذه على أهداب الأمل:

ـ أنت لا تدري يا أبي كيف سيكون اجتهادي! لن يحول بيني وبين النجاح حائل!

وتردّد الشابّ لحظة ثمّ قال:

ـ وهناك قريب والدتي أحمد بك حمديس!

ولٰكن والده رفع يسراه محتجًّا، وقطّب استياء، فخاف الشابّ أن يفقد عطفه، وأن يذهب ما بذل في إقناعه هباء، فقال بسرعة:

ـ لا حاجة بنا إلى معونة أحد، وستسير الأمور بإذن الله وفق آمالي.

وأدرك أنّه أخطأ بذكر قريبهم العظيم الذي تناساهم واحتقر صلته بهم منذ تبوّأ مركزه الرفيع. أجل إنّ والده يفاخر جهارًا ـ على مسمع من الغرباء ـ بقرابته. ولكن طالما أنحى عليه باللائمة أمام والدته، وطالما أضمر له الاستياء واللوم. أدرك محجوب ذلك نادمًا، وعاد يقول:

ـ لا حاجة بنا إلى معونة أحد، ولكن ينبغي أن نستوصي بالصبر وأن نطمئنّ إلى رحمة الله، أربعة أشهر فحسْب وبعدها الفرج!..

وكان أبوه يعلم أنّ المكافأة تكفيهم ـ مع التقتير ـ خمسة أشهر أو ستّة، فتفكّر مليًّا ثمّ سأله:

ـ تستطيع أن تعيش بجنيه واحد في الشهر؟

جنيه واحد! أو ما يساوي إيجار حجرة بدار الطلبة؟.. ربّاه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقته ثلاثة جنيهات، فماذا هو صانع غدًا بجنيه واحد؟! ولم يمهله الرجل طويلًا فاستدرك قائلًا:

ـ لا حيلة لي والخيار بين يديك!

هل يملك خيارًا حقًّا؟! كلّا، إنّ أباه مُكره، وما عليه إلّا الإذعان والتسليم، قال:

ـ لتكن مشيئتك.

فقال الشيخ:

ـ لتكن مشيئة الله، والله مسئول أن يوفّقك لما فيه الخير، وأن يصل بك جناحنا المهيض.

واقترح الرجل على ابنه أن يرحل مساء حتّى لا يضيّع وقتًا هو في أشدّ الحاجة إليه. وعند المساء ودّع الشابّ والديه، فقبّل يد والده، واستسلم لأمّه تقبّله وتباركه. وحين همّ بمغادرة الحجرة سمع والده يقول له:

ـ الله معك اجتهد وتوكّل على الله، ولا تنسَ أنّك أملنا الوحيد..

ومضى إلى المحطّة، ومهما يكن من أمر فقد استنقذ من الحيرة التي نهكته عند مجيئه. وعلم الآن أنّ أمله لا يزال معلّقًا بخيط لم يقطع بعد. أمّا ما يُنذر به المستقبل من متاعب فسيعرف كيف يعالجها مهما كلّفه الأمر. وودّع البلد وداعًا فاترًا. واتّخذ مكانه بالقطار، وسرعان ما تناسى البيت والأسرة فلم يعد يذكر إلّا نفسه، تساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر: لماذا قُدّر له أن يولد في ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة؟ أليس من الظلم أن يرسف في هٰذه الأغلال قبل أن يرى النور؟ ولو كان ابن حمديس بك مثلًا لكان له جسم غير هٰذا الجسم ووجه غير هٰذا الوجه وحظّ غير هٰذا الحظّ، ولذاق الطمأنينة والسلام، ولاقتنى سيّارة. وتفكّر محزونًا في الفقر الذي يتربّص به، فرآه يبتسم إليه هازئًا كأنّما يقول له: «ما استطعت دفعي بثلاثة جنيهات، فهل تدفعني غدًا بجنيه واحد!». أين يسكن؟.. كيف يأكل؟.. وهزّ رأسه في كمد، ولكنّه لم يشعر بخوَر أو تخاذل. كان عظيم الثقة بنفسه، جريئًا إلى أقصى حدّ، بَيْد أنّه تميّز غيظًا وحنقًا.

ـ ٩ ـ

وشارف شارع رشاد باشا والشمس تذوب في بحيرة الشفق الدامية، والسمرة تلوّن حواشي الآفاق. ولاحت منه التفاتة وهو ينعطف إلى الشارع فرأى عليّ طٰه قادمًا من ناحية الجامعة، فوقف ينتظره، وتصافحا ثمّ قال عليّ باهتمام:

ـ حدّثني الأستاذ مأمون عن مرض والدك، فأسفت لذلك غاية الأسف. وإنّه لَيسرّني أن أستدلّ بسرعة عودتك على اطمئنانك!

وكره أن يطلع مخلوقًا على أحزانه، فقال باقتضاب مبتسمًا:

ـ شكرًا لك..

ـ أليس هو بخير؟

ـ بلى.. شكرًا.

وسارا جنبًا لجنب على مهل كأنّهما يتنزّهان، وتساءل محجوب تُرى آتٍ صاحبه من موعد غرام أم ذاهب إليه؟!. هٰذا الشابّ الذي يجد في محضره من دواعي السرور قدر ما يجد من دواعي الألم، واسترق إليه النظر فرآه يسير حالمًا يضيء الابتسام وجهه ويقبس جبينه من نور البشر والبشاشة، ويهتزّ طربًا من نشوة

الحبّ. أليس توفيق العاشق كظفر المحارب لذّة وخيلاء؟!.. وشعر برغبة لا تقاوم في استدراجه إلى هٰذا الحديث الجميل، فقال مشيرًا إلى مغارس الشجر مبتسمًا ابتسامة لها معناها:

ـ آه لو ينطق هذا الشجر!

ففطن عليّ طه إلى مرمى إشارته، وكان وجدانه من اليقظة بحيث ألحّت عليه الإبانة والحاجة إلى التعبير، فقال بتأثّر:

ـ أستاذ محجوب، هو ما تظنّ، ولكن لا تنظر إلى الأمر بعين السخرية، كلّا، ما هو بالهزل. إنّ هزّة قلب خطير له من المغزى في هذا الوجود ما لحركة الأفلاك في السموات؛ فلا تذكر أبدًا خزّان البخار وصمام الأمن.

وشعر محجوب نحو محدّثه باحتقار شديد، ضاعفه ما نمّت عليه نبراته من التأثّر، وضاعفه أيضًا ما يكنّه له من الحسد، وقال في نفسه ساخرًا: حتّى وظيفة التناسل يريد الأحمق أن يجعل منها محرابًا مقدّسًا، ثمّ قال بهدوء وبرود:

ـ يا أيّها العاشقون، لا أعبد ما تعبدون!

فابتسم عليّ قائلًا:

ـ ولا نحن عابدون ما تعبد.

وخاف محجوب أن تعيد سخريته الشابّ إلى رشاده، فندم على ما فرط منه وأراد أن يداريه، فغيّر لهجته وتساءل باهتمام ظاهريّ:

ـ غريب أمر هٰذا الحبّ!.. بيْد أنّ فتاتك متفوّقة حقًّا!

فقال عليّ بحماس:

ـ ليس الجمال فضيلتها الوحيدة: روحها لطيف، وفؤادها ذكيّ، ويعجزني وأيم الحقّ أن أعبّر لك عن امتزاج روحينا. هذه إحسان!..

واضطربت نفس الآخر لدى سماع الاسم، فامتلأ حنقًا فجأة. تُرى أهذه هي الغيرة التي يقولون عنها؟.. يا لَلعار! كيف يقع في ذلّ الغيرة من يطمح إلى تحطيم الأغلال جميعًا؟! وعاد يقول بلهجة جديدة يخفي بها سخرية جديدة:

ـ أظنّ كمال هذا الامتزاج يوجب أن تكون فتاتك محرّرة من الدّين، مؤمنة بالمجتمع والمثُل العليا والاشتراكيّة!

فقال عليّ برزانة:

ـ حسْبنا أن نحيا حياة وجدانيّة روحيّة واحدة، وسوف يتّحد عقلانا بالاختلاط، فنكوّن أسرة سعيدة يومًا ما..

فقال محجوب باستغراب:

ـ أبَلغتما هذا الحدّ؟

ـ نعم.

ـ هل تكاشفتما؟

ـ نعم. سأنتظر حتّى تنتهي من دراستها العليا..

ـ مبارك يا أستاذ.

وعزّ عليه أن يهنّئ وهو أحقّ إنسان بالعزاء، وامتلأ شجنًا وانقباضًا، فاز عليّ بأجمل مليحة في القاهرة، وغدا الجسد اللّدِن الطريّ من نصيبه واندفع إلى السؤال بغير رويّة:

ـ كيف عرفتها؟.. في الطريق؟..

فقال عليّ بدهشة:

ـ كلّا.. من النافذة!

ـ ولكن غيرك نظر أيضًا؟

أفلتت منه الجملة بغير رويّة أيضًا، فندم عليها أشدّ الندم، وخاف أن يفهمها صاحبه على حقيقتها فاستدرك يضلّله:

ـ جيراننا الطلبة ينظرون كذٰلك..

فصمت عليّ مبتسمًا، وسكت محجوب أن يورده لسانه عثرة جديدة. وشارفا دار الطلبة: بدت كالثكنة العسكريّة، ببنائها الضخم ونوافذها العديدة الصغيرة، ورأيا في مقابلها ـ عند ناصية شارع العزبة ـ دار عمّ شحاته تركي، كان الرجل واقفًا أمام دكّانه، كان في الخمسين، أبيض البشرة، حسن الوجه فقال محجوب لنفسه ساخرًا: «نِعْم الصهر». ودخلا الدار الكبيرة، أسعد الناس وأشقاهم.

- ١٠ -

واجتمع الأصدقاء الثلاثة في حجرة مأمون رضوان، وكانت النافذة مغلقة والمدفأة وسط الحجرة يعلوها غشاء من الرماد. وكان مأمون ينتقد خطبة الجمعة التي استمع إليها ظهرًا، وجعل يقول إنّ خُطَب الجمعة في حاجة ماسّة إلى التجديد، وإنّها بحالتها الراهنة دعوة صريحة للجهل والخرافة.

ولم تكن خطبة الجمعة ممّا يأبه له صاحباه، بَيْد أنّ عليّ طٰه قال:

- الحاجة ماسّة حقًّا إلى وُعّاظ من نوع جديد، من كلّيتنا لا من الأزهر يبيّنون للشعب أنّه مسلوب الحقوق، ويدلُّونه على سبيل الخلاص..

وكان من عادة محجوب عبد الدائم أن يشترك في أحاديث صاحبيه، لا عن إيمان برأي - فلم يكن له رأي يؤمن به - ولكن حبًّا في الجدل والسخرية. ولكنّه شعر ذٰلك المساء - أكثر من ذي قبل - أنّه من الشعب البائس الذي يعنيه عليّ، فأراد أن ينفّس عن صدره المحزون بالكلام، ولم يكن الشعب شيئًا يهمّه، ولكنّه لم يستطع أن يطرق همومه الخاصّة إلّا عن سبيله، فقال:

- جميل.. إنَّ علّتنا الفقر.

فقال عليّ طٰه بحماس:

- هو الحقّ، الفقر الذي يختنق في جوّه الفاسد، العلم والصحّة والفضيلة، إنّ من يرضى بحال الفلاّح حيوان أو شيطان!

فقال محجوب في نفسه: أو عاقل مثلي على شرط أن يكون غنيًّا. ثمّ تساءل بصوت مسموع:

- عرفنا الداء، وهذا شيء ميسور، ولكن ما العلاج؟

فقال مأمون رضوان وهو يثبّت طاقيّته:

- الدين، الإسلام بلسم لجميع آلامنا..

ومدَّ عليّ طٰه ساقيه حتّى كادتا تمسّان المدفأة، وقال دون مبالاة لما قال صاحب الحجرة:

- الحكومة والبرلمان..

فقال محجوب:

- الحكومة.. أي الأغنياء أو الأُسر. والحكومة أسرة واحدة. الوزراء يعيّنون الوكلاء من الأقارب، الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب، المديرون ينتخبون الرؤساء من الأقارب، الرؤساء يختارون الموظّفين من الأقارب، حتّى الخدَم يُختارون من خدم البيوت الكبيرة. فالحكومة أسرة واحدة، أو طبقة واحدة متعدّدة الأسر، وهي حقيقة بأن تضحّي بمصلحة الشعب إذا تعارضت مع مصلحتها.

- والبرلمان؟

فقال محجوب مبتسمًا بخبث:

- النائب الذي ينفق مئات الجنيهات قبل أن يُنتخب لا يمكن أن يمثّل الشعب الفقير، والبرلمان في ذٰلك شأنه شأن المؤسّسات الأخرى، انظر إلى قصر العيني مثلاً، فبالاسم مستشفى الشعب الفقير، وبالفعل حقل تجارب لإجراء اختبارات الموت على الفقراء..

فقال عليّ طه بهدوء:

- السخط شعور مقدّس، أمّا اليأس فمرض، ومهما يكن من أمر فالبرلمان بحيرة تلتقي فيها جداول متباينة المصادر، لا محيد عن أن تمتزج أمواهها، وينشأ عنها نبع جديد..

فابتسم محجوب ابتسامة مُرّة وتمتم:

- تعجبني هذه الأسماء: أحمس والهكسوس، منفتاح واليهود، عرابي والجراكسة!

فقال مأمون رضوان ضاحكًا:

- أعجب شيء أنّ طه شيوعيّ بَنّاء بينما أنت مدمِّر.. أنت أحقّ الناس بلقب فوضويّ.

فقهقه محجوب حتّى سعل وقال:

- نحن نشقّ على أنفسنا أكثر ممّا ينبغي، كأنّ هذه الحجرة مسئولة عن رفاهية الدنيا..

فقال عليّ طه:

- سوف تصغي جدرانها إلى آمال الأجيال المتعاقبة ما دامت حجرة للطلبة..

فقال مأمون رضوان باهتمام متسائلًا:

- هذه الحجرة معمل تفريخ، فما الخطوة التالية؟

فقال محجوب بسرور شرّير:

ـ السجن إن كنّا من الصادقين!

ثمّ ذكر الهموم التي جاء بها من القناطر ففقد حماسه للحديث، ونهض مستأذنًا في الانصراف بتعَب السفر، ومضى إلى حجرته، وجلس إلى مكتبه الصغير محزونًا متفكّرًا: إذا انتهى يناير انتهت معه «رفاهية» حياته الراهنة! أجل بدت له هذه الحياة فيما مضى جحيمًا، ولٰكنّها إلى ما ينتظره من حياة الغد نعيم مفقود! ولا شكّ أنّ الأشهر الثلاثة القادمة تحمل في طيّاتها ألوانًا من الشقاء لم يحلم بها قطّ، فماذا هو صانع؟ ومضى يشدّ حاجبه الأيسر مقطّبًا، يلوح في وجهه الشاحب العزم والتحدّي..

ـ ١١ ـ

ونشط في الأيّام الباقية من يناير للبحث عن حجرة رخيصة ولم يظفر بحاجته بسهولة لأنّ الحيّ من الأحياء المأهولة، ولأنّه مكتظّ بالطلبة، وهؤلاء يتقاتلون على الحجرات المنعزلة فوق الأسطح، ثمّ عثر في النهاية على حجرة سطحيّة بعمارة جديدة بشارع جركس ـ على مقربة من ميدان الجيزة ـ ولٰكنّ جدّتها كانت طامة عليه لأنّ صاحب العمارة أبى أن يُكري الحجرة بأقلّ من أربعين قرشًا، فاضطُرّ محجوب إلى القبول مغلوبًا على أمره. وأخبر أصحابه بأنّه سينتقل إلى حجرة بعمارة جديدة، وقال لهم ـ وهو يغمز بعينه ـ إنّ أسبابًا خاصّة دعت إلى ذٰلك. قال ذٰلك وهو يعلم أنّه سيعجزه غدًا وصال جامعة الأعقاب، ولٰكنّه آثر كذبًا من هذا النوع على إذلال كبريائه. ووجد نفسه في حاجة إلى نفقات النقل وابتياع مصباح غازيّ، فنظر في أثاثه البسيط فلم يجد شيئًا يمكن الاستغناء عنه، سوى صوان الثياب الصغير ـ أشبه بصندوق منه بصوان ـ باعه سرًّا بمساعدة البوّاب بثلاثين قرشًا. وفي أوّل يوم من فبراير حزم متاعه وودّع صِحابه وانتقل إلى الحجرة الجديدة. وأدّى الإيجار مقدّمًا فلم يبْقَ معه من نفقته الجديدة إلّا ستّون قرشًا هي جماع ما يملك طوال الشهر. قرشان لليوم الواحد، للغذاء والغاز، وهناك الغسل ضرورة لا محيص عنها ـ وليترك الكنس جانبًا ـ ثمّ الحلاقة، أمّا فنجان القهوة فمن الكماليّات المحرّمة. وليس فيما بقي من أثاثه الحقير ما يمكن الاستغناء عنه أو ما يطمع أن يأتيه بثمن يذكر، فالفراش ـ وهو أهمّ ما لديه ـ لا يكاد يساوي نصف جنيه، ونفعه مع ذٰلك لا يقدّر: فعليه يرقد وتحت حشيّته يحفظ ثيابه. وهزّ رأسه ذا الشعر المفلفل وغمغم: «ستكرّ الأشهر الثلاثة كما يكرّ غيرها من الأيّام، ولن أموت جوعًا على أيّ حال». وبات ليلته الأولى بالمسكن الجديد.

وفي صباح اليوم الثاني غادر الحجرة بعد أن أغلقها، وأراد البوّاب أن ينظّفها له ولٰكنّه ردّه مشكورًا، وكان في الحقيقة يهرب لأنّه لا يستطيع أن يتنازل له عن ملّيم واحد. وبلغ ميدان الجيزة، وجال ببصره حتّى استقرّ على دكّان فول مدمّس فتوجّه إليه واجمًا. ووجد جماعات العمّال يقتعدون الإفريز أمام الدكّان يلتهمون طعامهم ويتحادثون ويتضاحكون فقال لنفسه: «أصبحت واحدًا من هؤلاء العمّال الذين يرثي لهم عليّ طه..» وطلب نصف رغيف وانتحى جانبًا يأكله بشهيّة، فانتهى ولمّا يشبع. وكان بطبعه عظيم الشهيّة يتناول في إفطاره صحفة فول ورغيفًا غير البصل والمخلّل، ولكنّه لا يستطيع أن يأكل أكثر من وجبتين صغيرتين في اليوم. وهزّ منكبه ومضى في سبيل الجامعة وهو يقول: «لَشدّ ما أنا في حاجة إلى صفاء الذهن، فإمّا النجاح وإمّا الانتحار!» ومضى وقت الدراسة كالعادة، وقابل أصحابه جميعًا، وأنفقوا في حديقة الأورمان وقتًا غير يسير يتناقشون في المحاضرات. وعندما أزف وقت الغداء انفصل عنهم فذهبوا إلى المقصف، وعاد هو إلى ميدان الجيزة، بالأمس فقط تناول غداءه بالمقصف مع عليّ، ومأمون، وأحمد بدير، وكان مكوّنًا من صحفة سبانخ باللحم الضانيّ وأرزّ وبرتقالة، أمّا اليوم...!، وأقبل على دكّان الفول وقد استقبله صاحبها بابتسامة وهو يقول: «أهلًا وسهلًا». فآذته تحيّته ونالت من كبريائه. وكان إلى جانب دكّان الفول دكّان كباب فحمل الهواء دخان الشواء إلى أنفه. فسال لعابه وتوجّعت معدته، ثمّ أخذ

الرغيف ـ ومضى فارًّا من الرائحة الشهيّة. وعاد إلى حجرته وفتح بابها، فشمّ رائحة هواء فاسد لأنّه كان قد ترك النافذة مغلقة، ورأى الغبار يعلو المكتب والكتب، والبطّانيّة مكوّمة على الفراش، فأدرك أنّ عليه منذ الساعة أن يكون طالبًا وخادمًا وربّما «غسّالة» أيضًا، وشرع في القيام بوظائفه الجديدة ممتعضًا ثائرًا، الحياة الجديدة شاقّة متعبة، سيواصل دراسته بلا ريب، وسيواصلها بعزم وعناد، ولكن لن يسكت له جوع أو يطمئنّ له جانب، وسيسهر الليالي طاويًا، يجلس إلى مكتبه الساعات الطوال مثلّج الأطراف مقوّس الظهر، وربّما فضحه مظهره وعرّضه للهزء والسخرية، وربّما نال منه الجوع فأسقمه.

ولكن ليس له إلّا أن يكافح بصلابة وعناد، وأن يتحدّى الناس والحظّ والدنيا جميعًا وأن يغضب وأن يحقد وأن يجنّ جنونًا. استمرّ في عمله حتّى انتصف الليل، ثمّ ترك مكتبه إلى فراشه، ورقد عليه منهوك القوى، وهو يغمغم:

ـ انتهت أولى ليالي محنتي!..

ـ ١٢ ـ

وفي صباح اليوم الثاني استيقظ متعبًا موجع الرأس، ومن عجب أنّه لم يكن جائعًا، ولكنّه ذكر آلام جوع الليلة الماضية، فإنّ رغيف الفول لم يصمد بعد العشيّ، وتركه لجوع قاسٍ أليم، وقد خطر له أن يضرب عن طعام الإفطار على أن يتناول في غدائه رغيفًا ونصفًا، فيضمن راحة الليل ويذاكر رخيّ البال، أمّا ساعات النصف الأوّل من النهار فالدروس كفيلة بأن تشغله عن معدته في أثنائها. فكرة طيّبة جديرة حقًّا برأس فقير معدم والعادة كفيلة بأن تجعل الألم غير أليم، بيْد أنّه ما كاد يكرع كرعة رويّة ويستروح نسائم الصباح في الطريق حتّى تمطّى وحْش معدته، فانهارت عزيمته، وهرول إلى دكّان الفول لا يلوي على شيء. وراح ـ وهو يتناول طعامه ـ يذكر ما يقال عن سِيَر متصوّفي الهنود، وعجب كيف يقاومون الجوع تلك المقاومة الخارقة، وكيف يصبرون على الألم ذٰلك الصبر المرّ، ويجدون في هٰذا وذاك لذّة عالية!.. ربّاه.. لَشدّ ما احتارت هٰذه الكلمة البديعة «اللذّة» بين أمزجة البشر. أمّا هو فلذّاته بيِّنة، وحرمانه بيِّن كذلك، حتّى جامعة الأعقاب أمست عزيزة المنال!.

وذهب إلى الكلّيّة، وحضر الدرس الأوّل، ثمّ مضى إلى الحديقة ينتظر الدرس الثاني الذي يبدأ بعد ساعتين وجلس على أريكة وسط جمع من الطلبة يستمتعون بأشعّة الشمس اللطيفة التي يجود بها فبراير جود مقتّر شحيح. وكانوا يتحادثون بحميّة الشباب وينتقلون من موضوع إلى موضوع كيفما شاءوا: تلك الآنسة البدينة التي تضطرب نبراتها ويتهدّج صوتها إذا نهضت لقراءة نصّ من النصوص، ومستر أرفنج مدرّس اللاتينيّ ذو الشعر الذهبيّ.. ألم يكن من الإنصاف لو خلق أنثى، وخُلقت آنسة درّيّة ذَكَرًا؟! السينما وتهديدها للثقافة الحقّة والفنّ الرفيع، والويسكي والحشيش وأيّهما أمتع، هل يعود دستور سنة ١٩٢٣؟، من صاحب الفضل الأكبر في إنشاء الجامعة؟ الملك أم المغفور له سعد زغلول؟ جماعة مصر الفتاة هل هم مخلصون أم دسيسة؟ من أحقّ بالفضل في نهضة المسرح يوسف وهبي أم فاطمة رشدي؟ أيّهما خير للوطن، أن يُتمّ الأمير فاروق دراسته في إيطاليا كما يريد والده، أم في إنجلترا كما يريد الإنجليز؟. امتلأ الجوّ آراء وملاحظات، وضجّ بالضحكات والصياح، واشترك محجوب في الكلام بقدر، وأصغى لما يقال بسخريته كالعادة، ثمّ نهض يتمشّى في أرجاء الحديقة الواسعة، حتّى أزف وقت الدرس فانطلق إلى الكلّيّة، وبعد انتهاء الدرس خرج متأبّطًا ذراع أحمد بدير، وقد قال له الشابّ الصحافيّ:

ـ مبارك عليك السكن الجديد.

فقال محجوب مبتسمًا:

ـ بارك الله فيك.

فسأله الشابّ وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

ـ من أسرة أم من بنات الهوى؟

فأدرك محجوب في الحال عمّا يتساءل صاحبه، وارتاح لذٰلك، وأجابه بابتسامة غامضة قائلًا:

- هذا سرّ لا يذاع!

- هل تقيم معك في الحجرة أم توافيك إليها الليلة بعد الليلة؟

فقال محجوب بزهو:

- الإقامة مجلبة للشبهات كما تعلم!

فهزّ الصحافيّ رأسه وهو يمصمص بفمه وقال:

- يا حظّك!..

وتتابعت أيام فبراير ومتاعب الحياة تصكّه صكًّا، ولاحقه شبح الجوع ليلًا نهارًا، فلم تطمئنّ معدته إلّا سويعات معدودات في اليوم الطويل. وكان إلى عمله الدراسيّ يكنس حجرته وينظّف مكتبه ويرتّب فراشه ويغسل مناديله وجواربه وقمصانه. ولم يدْرِ كيف يقتني الحوائج التي يعدّها غيره تافهة كابتياع قطعة من الصابون أو غاز المصباح أو حاجته من الورق، فاضطرّ أيّامًا أن يقتصر على وجبة واحدة. وطحنه الجوع طحنًا، واشتدّ هزاله، وشحوب وجهه، حتّى خاف على نفسه، نفسه التي يحبّها أكثر من الدنيا جميعًا أو التي يحبّها وحدها دون الدنيا جميعًا، لبث جائعًا وحيدًا في الحجرة التي يحسب بعض صحبه أنّها مهد غرام مستعر. لماذا لا يسأل إخوانه أن يطعموه؟ لو سأل عليّ طه ما تأخّر أو تردّد، ولو سأل مأمون رضوان لنزل له عن طعامه ولو كان كسرة خبز. فما الذي يمنعه؟ الكرامة؟.. الكبرياء؟!.. تبًّا له! ألم يكفر بكلّ شيء؟! ألم يستهزئ بالقيَم؟ فما له يأبه للكرامة والكبرياء؟! تبًّا له. لا تزال فلسفته كلامًا وهراء، متى يصير رجلًا حقًّا؟ متى يفرّط في كرامته وعرضه كأنّه ينفض ترابًا عن حذائه؟!

وبلغ الكرب ذروته حين طالبته الكلّيّة باقتناء كتاب في اللغة اللاتينيّة ثمنه خمسة وعشرون قرشًا، فأسقط في يده، ولم يجد من ثمنه مليمًا واحدًا. وقد بات الامتحان قريبًا! ماذا يصنع؟ أمّا اللجوء إلى أحد من أصحابه فحلّ بغيض مقيت، خصوصًا وهو يعلم أنّه لن يقضي دينه إذا استدان، فماذا يصنع؟! ومضى يوم ويوم، واضطربت حياته أيّما اضطراب، وأوشك أن يدركه القنوط لولا أن ذكر قريب والدته الكبير أحمد بك حمديس!.. أيجوز أن يقنط وله مثل هذا القريب الكبير؟!. أجل إنّ والده يجد عليه وجدًا عظيمًا، ويقول إنّه رجل جحود، نسي أهله، وتنكّر لهم. هذا هو الواقع حقًّا، ولكنّ والده مخطئ في غضبه وليس البك مخطئًا في سلوكه. إذا كان قريبه يتكبّر فجميع أمثاله يتكبّرون، ومن حقّهم التكبّر ولولا آداب الريف الحمقاء لما غضب والده. بيْد أنّ تكبّر البك لن يمنعه من أن ينظر إلى مسألته بعين العطف، ويمدّ له يد المعونة، فليقصد إليه آمنًا، وسوف يكفيه شرّ اللجوء إلى البغضاء!

- ١٣ -

وغادر حجرته وقد صدقت نيّته على زيارة قريبه وتجربة حظّه، ولم يقتصد في تهيئة نفسه، فكوى طربوشه، ولّمع حذاءه بقرش كامل أو بثمن وجبة كاملة، ولكنّه بدا رغم ذلك كالعليل شحوب وجه وهزال جسم، وبحث في دفتر التليفون عن عنوان قريبه: شارع الفسطاط بالزمالك، وحثّ إليه الخطى..

وحلّق به الخيال - في مسيره - في عالم الذكريات المنطوية، فأضاءت فترة بعيدة من الزمن إذ هو في الثامنة، وإذ قريبه لا يزال أحمد أفندي حمديس المهندس بالقناطر، وكانت أسرة المهندس مكوّنة من زوجه الحسناء وتحيّة ابنتها - في الرابعة - وطفل في الثانية من عمره. كانت أسرة سعيدة تزيّنها ربّة مفرطة في الحسن. وفي ذلك الوقت لم يكن آل حمديس يترفّعون عن مخالطة آل عبد الدائم، ولم يألُ عبد الدائم أفندي جهدًا في إكرام الأسرة العزيزة. ولكم جاب الأسواق يبتاع الدجاج والحمام يهيّئ لهم مائدة شهيّة. ولقد فاز هو بعطف حرم حمديس بك فكانت تثني على ذكائه وتعجب بشطارته، وتترك له تحيّة يلاعبها في فناء الدار وفي الطريق. ترى كيف صارت تحيّة الآن؟.. وهل تذكره؟. لقد انطوى ذاك العهد منذ خمسة عشر عامًا، فنسي واندثر وانتهى، وذهب بذكراه الزمن والإهمال. ولو كانوا شيئًا ذا بال لرسبت

منهم آثار في باطن الذاكرة، ولكن آل حمديس كبروا وعظموا ولبثوا هم على ضآلتهم وتفاهتهم، فامّحت القناطر من سجلّ الحياة، وغاصت ذكرياتها في غياهب الماضي، ونبذ عبد الدائم أفندي موظفًا بالشركة اليونانيّة. تُرى كيف صارت تحيّة؟.. ألا يمكن أن تتذكّره؟. ذلك الغلام الذي كان يحملها بين يديه ويجري بها ما بين البيت والمحطّة!.. أمّا حمديس بك فلا يمكن أن ينسى، وإن تناسى سيذكره بمجرّد أن يقع عليه بصره، ولن يقبض دونه يده.

وبلغ الزمالك، واهتدى ـ بعد سؤال ـ إلى شارع الفسطاط. كان كشارع رشاد باشا ضخامة وسكونًا، وتحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة، وتشتبك أغصانها من الجهتين، فتجعل فوق أديمه ظلّة من الأزهار الحمر. فرمق القصور بنظرة غريبة من عينيه الجاحظتين، نظرة يقول لسان حالها متسائلًا: «هل يمكن أن ينفذ الشقاء من هذه الجدران الغليظة؟ أحقّ ما يقول مُدَّعو الحكمة أم أنّهم يخدّرون القلوب الملتاعة؟!» واقترب بقدمين ثابتتين من الفيلّا رقم ١٤، وسأل البوّاب بلهجة رفيعة ونبرات رزينة عن البك، وأخبره أنّه قريبه وأنّه جاء لمقابلته، فدعاه النوبيّ إلى السلاملك، ودخل حجرة كبيرة فاخرة الأثاث، لم يسبق له أن دخل بيتًا كهذا البيت، أو وُجد في حجرة كهٰذه الحجرة، فألقى على ما حوله نظرة متفحّصة مقرونة بالدهشة والإعجاب والحسرة؟ وتطلّع بناظريه من نافذة قريبة فرأى ناحية من حديقة حافلة بآي الجمال المعطّر. تُرى كيف يكون استقبال البك له؟ هل تدعوه حرمه لترى كيف صار الغلام شابًّا يافعًا؟! هل يتذاكرون عهد القناطر ويسألون بشوق عن عبد الدائم أفندي الصديق القديم؟.. هل يتأثّرون لمرضه ويدركون الباعث الذي حمله على طرق بابهم فيمدّون له يد المعونة عن طيب خاطر؟.. يا لها من حجرة نفيسة!.. ألا يمكن أن يملك يومًا قصرًا كهٰذا يقصد إليه ذوو الحاجات؟..

وسمع وقع أقدام، فاتّجه بصره نحو الباب ثمّ رأى البك ـ وقد عرفه من النظرة الأولى على تغيّر صورته وتقدّم عمره ـ قادمًا، فنهض قائمًا وتقدّم منه في أدب مادًّا يده، فتصافحا والبك يمعن فيه النظر، ثمّ قال مبتسمًا:

ـ هو أنت إذًا!.. بدا الاسم غريبًا بادئ الأمر ثمّ أسعفتني الذاكرة، الآن صرت رجلًا، كيف حال والديك؟.

بدا الاسم غريبًا بادئ الأمر!.. هو أنت إذًا!.. وتناسى محجوب ذلك كلّه وقال بإجلال:

ـ والدتي بخير، ولكن والدي مريض، بل في حالة خطرة!

وعند ذلك جلسا، وكان البك يرتدي معطفه يدلّ مظهره على أنّه متأهّب لمغادرة البيت، وقال الرجل وهو يسند ظهره إلى مقعده:

ـ لا بأس عليه، ماذا به؟

فقال محجوب بعناية وبصوت واضح:

ـ أصيب والدي بشلل ألزمه الفراش، فانقطع عن عمله، وساءت الحال.

وناط أمله بالعبارة الأخيرة «ساءت الحال» فاسترق إلى البك النظر على أثر النطق بها، ولكنّه لم يجد لها أثرًا يذكر، وقال البك دون أن تتغيّر ملامح وجهه الباردة:

ـ أمر محزن، أرجو أن تبلّغه تحيّاتي، وأنت يا محجوب هل انتهيت من الدراسة؟

وأحنقه تغيّر مجرى الحديث، وأثاره برود محدّثه، ولكنّه لم يجد بدًّا من أن يجيبه قائلًا:

ـ امتحان الليسانس في مايو القادم.

ـ عظيم.. مبارك مقدّمًا..

ثمّ نهض وهو يقول:

ـ آسف جدًّا أن أتركك الآن لأنّي على موعد هامّ.

فنهض الشابّ قانطًا حانقًا يلعن في سرّه المقابلة التي لم تستغرق دقيقتين بعد فراق خمسة عشر عامًا! ألم يدرك الباعث الذي رمى به إلى بيته؟ ألم تدلّه «ساءت الحال» على ما جاء من أجله؟! وتبعه إلى الخارج في حيرة شديدة، هل يمسك بذراعه ويهتف به: «إنّي فقير معدم وفي شدّة الحاجة إلى معونتك فمدّ إليّ يدك!» وتوثّب للعمل مجازفًا بكلّ شيء، ولكنّه رأى على بعد

قريب فتاة شابّة وفتًى يافعًا يرقيان السلّم في هدوء، فانهار توثّبه وجمد بصره على القادمين. عرف تحيّة من النظرة الأولى على رغم التفاوت الكبير بين الصورة الماثلة للحسن والصورة الثاوية في الذاكرة، وعرف من أوجه الشبه بينها وبين الفتى أنّه شقيقها. نسي عزمته، وانقلب إلى حالة من الجمود.. والكبرياء. ونظر البك إلى ابنيه مبتسمًا، ثمّ أومأ إلى محجوب قائلًا:

- الأستاذ محجوب قريبي.. تحيّة ابنتي وشقيقها فاضل.

وتصافحوا. وقال محجوب مبتسمًا:

- إنّي أذكرهما جيّدًا.

فقال البك وهو يتحرّك نحو السيّارة التي تنتظره:

- إذًا امكث معهما بعض الوقت.

هل يمكث معهما؟. وتبادلوا النظرات في تطلّع وابتسام. أمّا فاضل فشابّ جميل نبيل المنظر فكَرِهَه من النظرة الأولى لأناقته وجماله ونبله، وأمّا تحيّة ففتاة حسناء فائقة الحسن، ربّما كانت إحسان شحاته أفتن منها حسنًا، ولكن تحيّة مثال كامل للتعبير عن الأناقة والكبرياء، وأنموذج حيّ للأرستقراطيّة، فسرعان ما بهرت حواسّه، وسرعان ما وجد فيها الرمز الحيّ للحياة العالية التي يتآكل قلبه حسرة عليها، وقد سعّرت عواطفه وهيّجت طموحه، بَيْد أنها لم تُثِر شهوته كما فعلت إحسان، ولا أيقظت بنفسه عاطفة سامية - فلا عهد له بالعواطف السامية - ولكن حرّكت به إعجابًا مقرونًا بالحنق، ورغبة ممتزجة بالتحدّي، فشعر في أعماقه بنزوع إلى السيطرة عليها والبطش بها! وقرّ عزمه في الحال على أن يمكث معهما! وجلس ثلاثتهم في الثويّ الفخم، وأيقن أنّه لن تخفى عليهما رثاثة هيئته، ولكنّه تلقّى هذه الحقيقة بالاستهانة، والواقع أنّه كان يتمتّع بقدرة عجيبة على قهر الحياء والارتباك، وعلى الادّراع باستهانة لا تعرف الحدود!. وقال فاضل مبتسمًا:

- هل تذكرنا حقًّا يا أستاذ؟

فقال محجوب بهدوء:

- عشنا معًا في بلدة واحدة منذ خمسة عشر عامًا، كان البك مهندسًا بالقناطر وكنّا نلعب معًا في «حديقة» بيتنا.

فقال له الشابّ بدهشة:

- لا أذكر شيئًا عن هذا العهد.

وقالت تحيّة بصوت مهذّب كمنظرها سواء:

- ولا أنا تقريبًا..

فآلمه ذلك، وقال مداريًا عواطفه بالابتسام:

- كنتما صغيرين، أمّا أنا فكنت في الثامنة..

فهزّ فاضل رأسه مبتسمًا وسأله:

- وهل انتهيت من الدراسة؟

تُرى هٰذا السؤال من تقاليد الأسر الأرستقراطيّة؟! وأجاب:

- سأنتهي في مايو.

- أيّة كلّيّة؟

- الآداب..

فقال فاضل بلهجته الرفيعة:

- نحن سعداء إذ وجدنا قريبًا مثلك.

فقال على الفور:

- وأنا أسعد لأنّي وجدت قريبين.

وكانت تحيّة تتفحّصه بعينين أنثويّتين، فقالت لمجرّد الرغبة في الحديث كما يقضي الأدب:

- لم نَزُر القناطر منذ تركناها.

وارتبك محجوب على غير عادته، هل يدعوهما لزيارة القناطر ومشاهدة البيت ذي «الحديقة» التي كانوا يلعبون فيها؟! بَيْد أنّ فاضل أنقذه من ورطته بأن قال موجّهًا خطابه لشقيقته بلهجة ساخرة:

- وهل زرت القاهرة التي تعيشين فيها؟ أنت لا تعرفين إلّا الصالونات والسينما؟

فابتسمت تحيّة وقد تورَّد وجهها وقالت:

- يا لك من مُغالٍ ساخرًا! ألا تعلم أنّي أعرف القاهرة جميعًا، حتّى دار الآثار والأهرام زرتها كالسائحين..؟!

فخطر لمحجوب خاطر بديع فقال على الفور وقد خلص من ارتباكه:

- دار الآثار والأهرام باتت مناظر مملولة، هل زرت الحفريّات الجديدة؟!

فتساءلت تحيّة ملتفتة إلى المتكلّم:

ـ الحفريّات الجديدة؟!

فأشار إلى صدره كأنّه هو الذي اكتشفها وقال:

ـ حفريّات الجامعة: بعد سير دقائق من الهرم الأكبر، دنيا غريبة محاطة بالأسلاك الشائكة، وجميع مفتّشيها من أصدقائي وزملائي فمتى نذهب معًا لمشاهدتها؟

فقالت بسرور:

ـ لا أدري، ولكنّني سأذهب يومًا ما.. أليس كذلك يا فاضل؟

فقال فاضل بلا وعي منه وقد أخذ يعتوره الفتور:

ـ طبعًا.. طبعًا..

وشعر محجوب عبد الدائم وهو يعبر حديقة الفيلّا بعد انتهاء الزيارة أنّه من الممكن أن ينشأ بينه وبينها نوع ممّا يسمّيه الناس بالصداقة. وتفكّر فيما يمكن أن يفيده من هذه الصداقة إذا حدثت، أم يخرج منها كما خرج من زيارة البك صفر اليدين..

ـ ١٤ ـ

ووجد نفسه في شارع الفسطاط مرّة أخرى ولفحته ريح باردة عاتية لم يدْرِ متى هبّت، تهزّ الأغصان فيضجّ الطريق بحفيفها، وتصفر بين الجدران فيصمّ الآذان زفيفها. فسرت إلى جسمه المتعب رعدة تمشّت في مفاصله، فالمشي أقسى من أن يحتمله ضعيف جائع. بيْد أنّ أفكاره شغلته عمّا حوله فاقتحم طريقه نصف شاعر بقساوة الجوّ. ذكر فاضل، وقارن بينه وبين نفسه، هنالك الصحّة والجمال والغنى وهنا المرض والدمامة والفقر، ومع ذلك فهما قريبان! أمّا تحيّة ففتاة أرستقراطيّة، صورة حيّة للدنيا التي يطمح إليها. تُرى هل يذهب بها يومًا إلى الأهرام؟! إنّ فتاة مثلها لحقيقة بأن تكون مفتاحًا سحريًّا يفتح الأبواب المغلقة ويصنع المعجزات. تفكّر في ذلك طويلًا، ولكن يا أسفا. أيجوز أن يغرق في تلك الأحلام وينسى همومه الراهنة؟ من أين له النقود ليبتاع كتاب اللاتينيّ؟. وكيف له بمقاومة الجوع الذي بات يهدّد جسده وعقله!.. يا عجبًا!.. هل من دليل على حقارة الإنسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته؟! أيكون هذا الطعام الذي يقتلع من الطين ويسمّد بالقاذورات زبدة الحياة وقوامها؟ وعماد التفكير؟ والمبدع الحقّ للمُثُل العليا؟ أليس هذا دليلًا على أنّ جوهر الإنسان قذارة وحقارة؟!. وحثّ خطاه. وكانت الرياح لا تزال تزمجر كاسرة. والسماء تتلبّد بالسحاب المظلم، ومياه النيل الزمُرّديّة تصطخب وتعربد، فألقى على ما حوله نظرة غاضبة، وبصق على الأرض باحتقار كأنّما يناصب الدنيا العداء؟.. ألا يحسن به أن يقترض؟.. ممّن؟.. وكيف يقضي دينه؟ لن يكون الشهر القادم بخير من سابقه، بل لعلّه أسوأ، فما العمل؟ لو كان يعرف فنّ النشل؟.. النشل فنّ سحريّ، والنشّال يملك ما في جيوب الناس جميعًا، وقد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة. ولكن ما العمل؟ هل يعيد على حمديس بك الكرّة؟ أيقابله في الوزارة ويسأله صراحة المعونة؟ واعترضت سبيل أفكاره صورة تحيّة. تحيّة بنبلها وأرستقراطيّتها. أيرضى أن تعلم أنّه بائس شحّاذ!.. هذه الفتاة تحرّك مشاعره. ليس مجنونًا فيهذي كما هذى عليّ طه، فهي شهوة جديدة كتلك التي علّقت إحسان لا أفلاطون ولا هيام، ومن عجب أنّه كان عظيم الثقة بنفسه لحدّ غير معقول، ربّما كان مبعث هذا ما طبع عليه من جسارة وجراءة، وفضلًا عن ذلك كان يشارك العامّة اعتقادهم في التفوّق الجنسيّ على الأغنياء، فاعتقد صادقًا أنّ تحيّة ليست بمنأى عن طموحه. كانت أحلامه لا توقفها السماوات، وزادها الجوع جنونًا، ذلك الجوع الذي جعل من دراسته كفاحًا مريرًا ومن لياليه عذابًا أليمًا. وكتاب اللاتينيّ؟ تبًّا له. كيف يحصل على النقود؟!

ـ ١٥ ـ

واستيقظ في صباح اليوم التالي أهدأ نفسًا، فهمدت الأخيلة التي بعثتها في عقله زيارة آل حمديس. ولذلك أمكنه أن يثوب إلى رأي، وأن يقرّر أن يقصد إلى حمديس بك في الوزارة مادًّا يده بالسؤال، مضحّيًا

بصداقة تحيّة وفاضل. ولم يَرَ بدًّا من العدول عن الذهاب إلى الكلّيّة، وامتنع عن تناول الإفطار ليوفّر ما يركب به الترام في الذهاب والإياب، ومضى إلى حال سبيله فبلغ وزارة الأشغال في تمام العاشرة وعرف السبيل إلى سكرتير قريبه، فوجده رجلاً في الأربعين، فحيّاه بأدب وقال له:

ـ أريد مقابلة سعادة البك.

ـ من حضرتك؟

ـ قريب البك.. محجوب عبد الدائم.

فاستنظره الرجل لحظة وغاب عن عينيه، ولبث محجوب يفكّر فيما عسى أن يقوله البك، ويرتّب الكلام ترتيبًا مؤثّرًا. وعاد الرجل بعد قليل، وجلس إلى مكتبه وهو يقول:

ـ البك يرأس المجلس الاستشاريّ فيحسن أن تعود يومًا آخر.

وبغته ذاك الجواب، وكبر عليه، فشعر بضربة تهوي على أمّ رأسه، وقال برجاء:

ـ ولكنّي أريده لأمر هامّ جدًّا.

ـ لا شكّ في هذا، إن شاء الله، ولكن يومًا آخر.

ـ أستطيع أن أنتظر ساعة أو ساعتين.

فقال الرجل بلهجة من يريد أن يفرغ إلى شيء آخر:

ـ تعال مساء إذا شئت.

وغادر المكان مغيظًا محنقًا، هل يبتلع الترام ما تبقّى من نقوده؟ ألا فليذهب البك ومجلسه الاستشاريّ إلى الجحيم. وأدرك أوّل وهلة أنّه ينبغي أن ينتظر في المدينة حتّى العصر ـ إذا أراد أن يقابل البك ـ توفيرًا لنفقات الانتقال، ثمّ لم يعد يقاوم الجوع الذي ينهش معدته، فمضى إلى ميدان الأزهار باحثًا عن دكّان فول! وتناول الطعام الذي داوم على تناوله لثلاثة أسابيع مضت وانطلق في طريق قصر النيل ليقضي وقت انتظاره الطويل في حدائقه. وكان الجوّ باردًا، والسماء ملبّدة بالغيوم!. وكان يسير مطرقًا مردّدًا بحقد وغضب: «أهانني الرجل المجرم. أهانني المجرم!» ومع ذلك فهو مرغم على الجري وراءه مرّة أخرى!.. هو عدوّ ما من صداقته بُدّ، وهو بعض الألم الذي تمتحنه به الدنيا. وأمرّ أصابعه على جبينه المحترق وقال: «لن أبكي.. سأحافظ على جبَروتي، ومهما بلغ منّي الجوع فلن أصرخ مع الجبناء هاتفًا يا ربّ!» وانتهت به قدماه إلى الحديقة. وراح يمضي الوقت ما بين الجلوس والمشي ضجِرًا مملولًا. وبردت أطرافه، وأحسّ تعبًا في معدته، وتساءل خوفًا وفزعًا: «ألا يمكن أن تترك هذه الأيّام السود آثارًا لا تزول أبد العمر؟!» وتجهّم وجهه الشاحب، ولاحت في عينيه نظرة قلق محزنة. ومرّ على انتظاره نصف ساعة، وكان يتمشّى في الطريق المحاذي للنيل، لا يدري كيف يؤاتيه الصبر حتّى يأزف الموعد، وعلى مقربة من باب الحديقة الأندلسيّة الخلفيّ رأى فتاتين تدنوان منهمكتين في الحديث والابتسام، فألقى عليهما نظرة عابرة، فعرف إحداهما كانت تحيّة حمديس دون سواها! كانت في شغل عنه بصاحبتها! أمّا هو فقد أحدث ظهورها المفاجئ في نفسه أثرًا أيّ أثر، انقطع حبل أفكاره: نسي أباها ومجلسه الاستشاريّ، تناسى آلامه وجوعه: وتركّز همّه في شيء واحد أن يلقاها، ولم يحفل بمظهره، ولا بوجود الفتاة الغريبة. ولم تتحوّل عيناه عنها في معطفها السنجابيّ الملتفّ حولها في أناقة أرستقراطيّة: ولعلّها شعرت بعينيه فنظرت نحوه، وكانت أصبحت على بعد أذرع منه، فاعترض سبيلها وحنى رأسه تحيّة. ولاحت الدهشة في وجهها: ثمّ تورّد، وألقت عليه نظرة سريعة، ثمّ مدّت إليه يدها، وقدّمت إليه صديقتها، وقدّمته إليها، ثمّ وقفوا ثلاثتهم في شبه ارتباك، لقد اندفع إلى تنفيذ غرضه، ثمّ لم يجد ما يقوله، ثمّ عمد إلى الأحاديث التقليديّة فسألها:

ـ كيف حال الأسرة الكريمة؟

فقالت برقّتها الطبيعيّة:

ـ بخير شكرًا لك.

وأنقذه عقله من ارتباكه فذكّره بحفريّات الجامعة، فسرّ لعثوره على موضوع للحديث وقال:

ـ هذه فرصة سعيدة تهيّأت لي لأذكّرك.. أنجز حرّ ما وعد؟ فقالت مقطّبة دهشة:

ـ لا أفهم شيئًا.

فقال بلهجة تنمّ عن العتاب:

ـ الحفريّات.. حفريّات الجامعة.

ـ آه.. كلاّ لم أنسَ.

ـ متى؟

ـ متى!

ـ نعم. لنكن عمليّين: ما رأيك في عصر الجمعة القادم؟

فتردّدت قليلاً ثمّ قالت وقد راق لها الاقتراح:

ـ حسن.

ـ وفاضل بك؟

ـ سأخبره...

ـ لنتّفق على موعد.

ـ لا نريد أن نتعبك، فسمّ موعدك.

ـ الساعة الرابعة مساء، أمام محطّة الأتوبيس بميدان الجيزة.

وسلّموا وافترقوا. واستأنف مسيره. نجاح باهر فاق كلّ ما تمنّى، فصار الحلم موعدًا. أجل لاحظ أنّ صاحبتها تفحّصت منظره بدقّة، ولكن ماذا يهمّ المنظر، أليس أحقر رجل بامرأتين؟ فما بالك إذا كان الرجل محجوب عبد الدائم! إذًا محتمل جدًّا أن تمسي العلاقات وثيقة، وليس هذا بالأمر الهيّن، فتحيّة من ذرائع الحظّ التي يرفع بها المجدودين، وهي بعد شيء نفيس أنيق، ومن يعلم..؟! بيْد أنّه أدرك أنّه لم يعد من الممكن استجداء حمديس بك، إذ ليس من المنطق في شيء أن يمدّ يده اليوم إلى الأب سائلاً، وأن يلقى كريمته غدًا لقاء المودّة والاحترام. ولو فعل لأبى الرجل عل كريمته أن تذهب إلى موعد فتى بائس مثله، ولأبَتْ ذلك عليها نفسها الغالية، فإمّا الاستجداء وإمّا اللقاء: ولٰكنّ لم يعد هناك اختيار، أو أنّه اندفع إلى الاختيار وهو لا يدري، لقد سدّ هذا الباب في وجهه..! ووجد نفسه بعد كلّ ما بذل من جهد يتساءل متحيّرًا: ما العمل؟.. كيف أحصل على النقود؟. وكان يحثّ الخطى مرتبكًا مهمومًا، ويعمل فكره دون توقّف، فذكر الأستاذ سالم الإخشيدي، ولمعت عيناه الجاحظتان فجأة!.. أجل، هذا جار قديم، وهو غير مأمون رضوان أو عليّ طه، ولن يجد غضاضة في أن يمدّ له يده، فلماذا لا يقصد إليه؟!.. يا لها من فكرة، واليوم لم يكد ينتصف بعد، وبينه وبين الوزارة مسير نصف ساعة على الأكثر، فليذهب بغير تردّد. وقد ذهب.

ـ ١٦ ـ

وسأل عن مكتب الأستاذ سالم الإخشيدي سكرتير قاسم بك فهمي، فقيل له بل مدير مكتبه، ودلّوه عليه ووقف على الباب ساعٍ طويل القامة عريض المنكبين، غزير الشارب، فطلب أن يؤذن له عليه، فغاب الرجل لحظة وعاد يقول بصوت غليظ «تفضّل». ووجد الحجرة مكتظّة بالجالسين نساء ورجالاً، وغاب الإخشيدي ومكتبه وراء نصف دائرة من الموظّفين يعرضون أوراقهم. ونظر الشابّ فيما حوله وتساءل: متى ينفضّ هذا الحشد من الخلق؟.. متى تتهيّأ له فرصة للكلام؟ وعلا صوت الإخشيدي في الحجرة، ورنّت نبراته الدالّة على الأمر والسلطان، تلاحظ وتنتقد وتعنّف، وأصوات الموظّفين تئنّ بالشرح والتفسير والأعذار، وجعل الموظّفون يحملون أوراقهم ويغادرون المكان واحدًا إثر واحد حتّى فرغ المدير منهم فانتبه إلى وجود الشابّ، ومدّ يده ودعاه إلى الجلوس ثمّ التفت إلى الزوّار، وأشعل سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا ونفخ الدخان في لذّة وارتياح، وقد لاح في وجهه السرور والخيلاء، واختلس محجوب إليه نظرات خاطفة: إنّه شبعان وسعيد. ولا شكّ أنّه أفطر زبدة وقشدة وعسلاً، تبدو عليه آي الصحّة، والاطمئنان إلى كرسيّه الكبير. وأحسّ نحوه مقتًا وتساءل في سرّه ساخرًا، لماذا لا يعلّق في حجرته الكبيرة صورة صاحبة العصمة ستّ أمّ سالم بجلبابها الأسود الملوّث بالتبن؟!. وكان الزوّار أصحاب حاجات كالعادة، فقدّم بعضهم طلبات إعفاء من المصروفات المدرسيّة، واستشفعته سيّدة في ترقية ابنتها إلى الدرجة الخامسة، ورجاه آخر أن ينقل له قريبه إلى القاهرة وقد قضى في

الأرياف عشرين عامًا من سني خدمته، وسأل شابّ أن يؤذن له في مقابلة البك ليهدي إليه مؤلّفه عن حياة الطفل حتّى الخامسة، وسمع الجميع يدعونه بإجلال واحترام: «سعادة البك» وهو يجيبهم بتؤدة وكبرياء وغطرسة. وتصبّر محجوب في قلق وعذاب حتّى يفرغ البك المدير له. وحدثت المعجزة فخلت الحجرة. وتحوّل الإخشيدي إليه وقال:

ـ هكذا أقضي نهاري، ثمّ أستأنف ليلاً في قصر البك!

وتساءل محجوب في سرّه حانقًا: هل تريدني أن أدعو الله أن يريحك من عملك؟ ثمّ قال بتملّق مبتسمًا:

ـ على قدر أهل العزم تأتي العزائم!

فهزّ الإخشيدي رأسه الكبير، وكان لا يني عن الإشادة بعظمته، والهزء بفضل الغير. وقد عرف بحدّة اللسان ومهاجمة أعدائه وأصدقائه على السواء. وقد قيل عنه بحقّ إنّه شيّد حياته على العمل المتواصل، والدعاية لنفسه، والتشهير بمنافسيه. على أنّ أنانيّته كانت تصوّر له أكثريّة المتّصلين به كمنافسين، ولذلك قلّ مَن نجا من شرّه. ولم يكن يأبه رأي الناس فيه، وكأنّه يؤثر في باطنه أن يقال عنه ما أفظعه عن أن يقال ما أطيبه. وكان إذا بلغه قول سوء عنه يقول باحتقار «كلّ عاشق حقّ مكروه». هزّ رأسه الكبير وقال للشابّ:

ـ عمل متّصل. لكن هل كفاني شرّ الألسنة؟.. هيهات.. ولن يفتأ قوم قائلين رُقّي الإخشيدي إلى الخامسة وما مضى في السادسة عامين!

فتظاهر محجوب بالإنكار وقال:

ـ وهل وُضع نظام الأقدميّة لقتل الكفاءات؟!

ـ الظاهر أنّي في وزارة، والحقيقة أنّي في مزبلة. والآن يا عزيزي ما حاجتك؟

فازدرد محجوب ريقه، واعتدل في جلسته، ثمّ قال بلهجة تنمّ عن الرجاء:

ـ سالم بك، إنّك جار قديم وزميل قديم، وملاذنا وقت الشدّة. يا سعادة البك والدي طريح الفراش، ونحن في بأساء، وأنا في أزمة مؤيسة، وقد نفدت نقودي: فدعني أسألك بعض المعونة..

وتفحّصه الإخشيدي بعينيه المستديرتين، فأدرك أنّه جائع! ولٰكنّه لم يتعوّد على أن يعطي أبدًا، ولا عهد له بفنّ الإحسان، ولا كان من «الضعفاء» الذين تلين مظاهر البؤس من قلوبهم: فاعتبر الشابّ وحاجته عائقًا سخيفًا اعتاق تيّار أفكاره، فتوثّب لمحْوه، ولٰكن ماذا يجمل به أن يفعل؟ يعتذر له؟ ولٰكنّه يكره الاعتذار خاصّة لمن لا حول له. ثمّ تذكّر أمرًا فسأل الشابّ:

ـ هل تجيد الفرنسيّة والإنجليزيّة؟

وشعر محجوب بخيبة رجاء، لأنّه كان يتوقّع شيئًا آخر غير هذا السؤال؟ ولم يدرِ ما حكمة توجيهه إليه! ولٰكنّه أجاب قائلاً:

ـ نعم أجيدهما..

ـ حسنًا.. أتعرف مجلّة النجمة؟.. صاحبها صديقي وزميلي وربّما رحّب بك إكرامًا لي..

ـ هل أكلّف بترجمة بعض الموضوعات؟

ـ نعم.. مقالات.. فكاهات. خذ بطاقتي هذه واذهب إليه! وسأحدّثه عنك بالتليفون. ولا تؤاخذني فأنا ذاهب لمقابلة البك وعرْض أوراقي عليه.. أليس هذا أكرم بك وأنفع!

ونهض الإخشيدي قائمًا، وأخذ ملفًّا في يسراه، ومدّ يده للشابّ، فمدّ له الشابّ البائس يده وهو يسأله:

ـ أيدرّ هٰذا العمل ربحًا معقولاً؟

فضحك الإخشيدي ـ ولَشدّ ما بدا لعينيه بغيضًا ـ وقال:

ـ لعلّك سمعت عن ثراء الصحفيّين! على أنّك ستجد ما أنت في مسيس الحاجة إليه.. وتقدّمه الإخشيدي نحو الباب، فجزع جزعًا شديدًا وأوشك أن يهتف به سائلاً بضعة قروش، ولٰكنّ الباب فتح قبل ذٰلك، وبدا الساعي بجسمه الضخم الطويل، فغادر الحجرة حاملاً البطاقة. وغادر الوزارة واجمًا متحيّرًا. ما زالت أزمته قائمة، ومجلّة النجمة على فرض نجاح مسعاه إليها علاج آجل فما العمل؟.. وكيف يحصل على النقود؟.. وكانت الساعة تدور في الثالثة. والجوّ بارد كما كان في الصباح فخبط في الطريق على غير هدًى، مثقل الرأس قانطًا، وضاقت الدنيا في وجهه، حتّى كوّر قبضته مهدّدًا، وقال حانقًا

غاضبًا بصوت أشبه بالنحيب: «سيدفع العالم ثمن هذه الآلام؟!». وقد أدرك أنّه لم يَبْقَ إلّا عليّ طه أو مأمون رضوان!.. لكم كره أن يمدّ لهما يدًا، ولكنّه لم يعد يملك حيلة، ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ. ومضى إلى الترام متسائلًا: أيّهما يفضّل؟! كلاهما شابّ نبيل، ولكنّه لا يحبّ عليّ، بينما لا يكره مأمون، وفضلًا عن ذلك فمأمون رجل دين وورع، فهو حقيق بأن يصون سرّه، ويحفظه بالغيب، جدير بأن يغضي عنه إذا تأخّر عن قضاء دينه.

ومضى إلى دار الطلبة، وقصد إلى حجرة مأمون رضوان، واستقبله الشابّ بسرور وسأله:

ـ لماذا تغيّبت اليوم عن الكلّيّة؟

فقال محجوب:

ـ مُكره أخاك، لَشدّ ما أعاني من الاضطراب؟

وتفرّس مأمون في وجهه بعينيه النجلاوين السوداوين فهاله ما يرى من الهزال والقنوط، وسأله باهتمام وإشفاق:

ـ ما بك يا أستاذ محجوب!.

فقال دون تردّد:

ـ ظروف قاسية، فقدت آخر مليم من نقودي، لا أملك من ثمن كتاب اللاتيني مليمًا واحدًا..

ونهض مأمون قائمًا دون كلمة، واقترب من المشجب، ودسّ يده في جيب جاكتّه، وأخرج ثلاث ورقات من ذات العشرة، وأتى بها إلى الشابّ، فأخذها محجوب وهو لا يصدّق، وفتح فمه ليشكر صاحبه، ولكنّ صاحبه سارع بوضع إصبعه على شفتيه متمتمًا «هس».

وغادر دار الطلبة لا يلوي على شيء. حتّى دار إحسان لم يلق عليها نظرة عابرة. وكان راضيًا وساخطًا معًا، راضيًا لحصوله على النقود، ساخطًا لأنّه بات مدينًا لمأمون رضوان.

ـ ١٧ ـ

وجاء يوم الجمعة الموعود، فذهب إلى محطّة الأتوبيس قبيل الميعاد بزمن يسير ومضى يسأل نفسه: تُرى هل يفيان بوعدهما؟.. وفي الموعد المضروب جاءت سيّارة فخمة وقفت أمام المحطّة، وأطلّ من نافذتها الوجه الجميل. فخفق فؤاده وهرع نحوها، وفتح له الباب واتّخذ مكانه، ثمّ أدرك وقتئذ فقط أنّ تحيّة جاءت بمفردها. وعجب لذلك، ولكن لم يطل عجبه، وغمره سرور شامل، وإن سأل بإنكار متكلّف:

ـ أين فاضل بك؟

فأمرت الفتاة السائق بالمسير، ثمّ التفتت إلى محجوب وقالت بلهجة انتقاديّة:

ـ ركبنا معًا، ثمّ رأى في الطريق «بعض الناس» فتخلّف عن الرحلة وحمّلني اعتذاره إليك.

فأطرق محجوب ليخفي سروره، وسألها بأدب:

ـ وكيف الوالدان الكريمان؟

ـ الحمد لله.. وهما يشكران لك هذه الرحلة الجميلة.

ـ عفوًا.. عفوًا..

فقالت بصوت ينمّ عن الرجاء:

ـ سنرى أشياء لذيذة.. أليس كذلك!

فقال بيقين وإن كان في الحقيقة يذهب إلى هنالك أوّل مرّة:

ـ بكلّ تأكيد..

وساد الصمت. وراحت الفتاة ترسل ببصرها من النافذة، وراح هو يسترق إليها النظر. هذه أوّل مرّة يخلو فيها إلى أنثى تستحقّ أن توصف بالأنوثة حقًّا. وأين؟.. في سيّارة فخمة تحزن الحاسدين ـ فضّل هذا التعبير عن تَسرّ الناظرين ـ فأسكرت أنفه رائحة ذكيّة، لا رائحة العرق الملبّد بالتراب، فدخله شعور المختنق إذا حمل إلى حجرة مليئة بالأكسجين، ولم تكن به ذرّة استعداد لخلق الصور السامية الطاهرة. فتركّزت رغبته في تخيّل صورة واحدة: أن يلقي بنفسه عليها!.. وشعر بدبيب الرغبة يسري في دمه. فألقى ببصره إلى الخارج. وتساءل لماذا تخلّف فاضل؟.. هل رأى فتاة حسناء فجرى وراءها؟. أم أنّ تحيّة نفسها عملت على التخلّص منه؟ وداعبه غروره الجنسيّ فقال: إنّها (هو

وهي) من دم واحد، وكما يقولون «فالدم يحنّ»، ليس شيء بمستحيل. أمّا لو صدق حدسه فسترى أشياء لذيذة كما تحبّ!.. والسائق؟!.. لا يهمّ.. فهو لا يستطيع أن يتصوّر الثراء والعفاف في كائن بشريّ معًا، ولا شكّ أنّ هؤلاء السائقين مدرّبون على التغاضي..! أجل.. أجل.. أو فما الداعي إذًا لمجيئها منفردة؟!، إنّ أجمل حكمة هي التي تقول: «إذا خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما» فأين هذا الشيطان ليجثو بين يديه، ويلثم قدميه؟ طالما كان للشيطان تابعًا ومريدًا أفلا يجزيه الشيطان عطفًا بإخلاص؟!. واستردّ بصره من الخارج، وشعر برغبة إلى جرّها إلى الحديث، فسألها:

ـ والآنسة في الجامعة؟

فهزّت رأسها نفيًا وقالت مبتسمة:

ـ كلّيّة بنات الأشراف.

فقال بسرور:

ـ جميل.. جميل جدًّا..

وسألته تحيّة:

ـ ماذا تنوي أن تعمل بعد الليسانس؟

وبغته السؤال. إنّ أقرانه يتحدّثون عن المستقبل بحزن ويأس والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب في الوزارات يروّحون بالشهادة على وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة.. ولكنّه بجسارته المعهودة تخلّص من ارتباكه. وقال بثقة ويقين معًا، وإن كان يعلم أنّه من الكاذبين:

ـ عليّ أن أختار بين طريقين، فإمّا الانخراط في السلك السياسيّ، وإمّا التحضير للدكتوراه فالتدريس في الجامعة..

فقالت مبتسمة:

ـ جميل..

لماذا استعملت تعبيره الخاصّ؟.. أتسخر منه الشيطانة أم تجهل هذه الأمور؟.. وأراد أن يسبرها فسألها:

ـ أيّهما تفضّلين!

ـ أنا؟.. هٰذا شأن يعنيك..

فقال بمكر ودهاء:

ـ يعنيك أيضًا ما دام يعني قريبك.

فتورّد وجهها وقالت:

ـ السلك السياسيّ أجمل..

وتمثّل له حمديس بك ذاهبًا إلى الخارجيّة للتوسّط في تعيينه ثمّ قال:

ـ هذا رأيي.. ما أجمل أن تمضي الحياة كلّها ما بين بروكسل وباريس وفيينّا.

فاستضحكت قائلة:

ـ أو ما بين دمشق وأنقرة وأديس أبابا؟

فجاراها في ضحكها، ولكنّه قال بدهاء:

ـ هذه عواصم لا يذهب إليها من كان حمديس بك قريبه!

وابتسما معًا. وقال لنفسه راضيًا إنّ اللبيب بالإشارة يفهم، وحسبه ذلك الآن. أمّا عن المستقبل فقلبه يحدّثه بأنّ هذه الفتاة لن تذهب من حياته كأنّها شيء لم يكن. ومن يعلم؟ إنّ الجسارة لا تنقصه، بل لعلّ عيبه أنّه جسور أكثر ممّا ينبغي. واستسلم لتيّار أفكاره، حتّى انتبه إلى السيّارة وهي ترقى الطريق الملتوي الصاعد إلى هضبة الأهرام. ونزلا عند سفح الهرم الأكبر وهو يقول:

ـ الحفائر وراء أبو الهول بفراسخ معدودات.

وسارا سيرًا غير يسير، وجعلت أقدامهما تنغرس في الرمال وتقلع بقوّة. وكان الوقت أصيلًا، والجوّ باردًا، ولكنّ السماء صفت، وأشرقت الشمس دون حجاب. بدت ملابسه في وضح النهار غير ذات أناقة أو جمال، فقلق، وقال لنفسه ساخرًا: «لعلّها تسأل نفسها لماذا لا يرتدي حضرة السفير معطفًا؟». وبعد مسير ثلث ساعة لاحت منطقة الحفائر تحيط بها الأسلاك الشائكة، فتمتم محجوب:

ـ وصلنا.

واقترب الشابّ من الخفير وأرسله بورقة إلى مفتّش المنطقة، وعاد الرجل وأذن لهما بالدخول، فدخلا، ثمّ قابلهما المفتّش وهو شابّ دون الثلاثين، وكان من أصحاب محجوب، فرحّب بهما وقال لهما معتذرًا:

- ستريان الأماكن المسموح بزيارتها، وهي التي تمّ الكشف عنها، ولكنّي لن أرافقكما إليهـا لأنّي مشغول جدًّا، ولا أظنّكما في حاجة إلى دليل (وهنا هزّ محجوب رأسه موافقًا) حسنًا. هاكما معبد الشمس وهو تـابع للمعبد القديم المعروف بمعبد أبي الهول، وإلى جانبه الجزء الخلفيّ لمقبرة الأمير سنفر. . .

وقال محجوب لنفسه: «قضى الله لحكمة يعلمها أن نظلّ اليوم منفردين. وإذا كانت حكمة الله كلّها على هٰذا المنوال فأنا من المؤمنين!»، وأخذ كنزه النفيس إلى معبد الشمس. وهبط أدراجًا صنعت حديثًا، فوجدا نفسيهما في بهو أرضه من الصوّان، وعلى جانبيه صفّان من الأعمدة، ولا سقف له ولم يكن به شيء يروع أو يثير العجب، فألقت الفتاة على ما حولها نظرة تنطق بعدم الاكتراث، ولم يكن محجـوب أقلّ خيبـة منها، ولكنّه تعمّد أن يكبّر من شأن رحلته فقال:

- انظري إلى هذه الأعمدة وكيف قاومت الدهور!

فابتسمت كالهازئة وقالت:

- وماذا كان عليها لو أنّها اندثرت؟

فأشار إلى النقوش على الأعمدة وقال:

- لـو كنّا نقـرأ الهيروغليفيّـة لعرفنـا أمورًا تستثير الإعجاب والدهشة.

- حقًّا!

- بكلّ تأكيد، ألم تُلِمّي بتاريخ الفراعنة؟!

فهـزّت رأسها نفيًـا. وبذلك انتهت زيارة الأثـر الأوّل. وفيما هما يدنوان من المقبرة وراء المعبد سألته تحيّة:

- ألا توجد آثار أخرى غير هذه المقبرة؟

وأحسّ ما وراء التساؤل من ملل، فارتبك وقال:

- توجد آثار كثيرة ولٰكن لم يصرّح بزيارتها. .

وهبـطا أدراجًا فـوجدا نفسيهـما في حجرة صغـيرة مستطيلة، تتحلّى جدرانها بالنقوش والصور، ولا يكاد يعلو سقفها كثيرًا على طول الهامة، وألقيا على المكان نظرة عامّة، ثمّ تعلّق الشابّ بالصور، فقـال بصوت خافت:

- فلنشاهد الصور، انظري إلى ألوانها الزاهية. .

وبدآ بالحائط القريب من المدخل، وقد حلّي بصور تمثّل صاحب المقبرة وعلى يساره زوجه، بينهما أطفال، ويحيط بهم جميعًا خدم وحشم، وعلى الحائط الذي يليه شاهدا منظر حقل مترامي الأطراف، تحـرثه محـاريث تجرّها الثيران. ووقف هنا وهنـاك فلّاحـون عرايـا. وتحوّلت تحيّة من المنظر بلا ريث، وانتقلت إلى الحائط الثـالث. وأدرك محجوب أنّها مـرّت خجلة من صور العرايا، وتفحّص الصور بعينيه الجاحظتين فجرت على شفتيه ابتسامة خبيثة، واضطرب مجرى دمـه، وقوي شعوره بأنّهما منفردان. ولم يتحوّل عن منظر الحقل، ولا حوّل عينيه عن صور العرايا، حتّى ملأت عليه نفسـه تلك الحقيقة الـرائعة وهي أنّهما منفـردان أمام العـرايا. وخيّـل إليه من إدمـان النـظر، أنّ الصـور تتجسّم لعينيه، وأنّ الحياة تدبّ فيها، والدماء تتدفّق في عروقها، فتكتسي بشرتها بذاك اللون الخمريّ ذي الـوهج، وتلتمـع في محاجـرها نـظرات خاطفـة. ثمّ تشرئبّ أعناقها نحو. . الفتاة الهاربة، مورّدة الخدّين من الخجل. وخفق فؤاده بعنف والتهبت جوارحه من قوّة العاطفة، وعبثًا حاول أن يملك زمام نفسه. وذكر مجيئها بمفردها، وحديثهما في السيّارة، ورقّة حاشيتها، وانفرادهما معًا، ثمّ وجودهما في هذه المقـبرة تغشاهمـا وحشة الأجيال، فخال الثمرة دانية القطوف، وعنف هياجه حتّى صار وحشًا فاقد العقل والإرادة. وازدرد ريقه بصوت غريب وعيناه ثابتتان على العرايا وإن باتا لا يريان شيئًا:

- هلّا نظرت إلى هذا الحقل الحافل. .

فقالت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل:

- ليس به ما يستحقّ الرؤية. .

فعطف رأسه وقال بصوت كالهمس:

- لَشدّ ما أنت ملولة يا آنسة.

ودنا منها خطوة فحاذاهـا، وجعل ينـظر معها إلى صورة خادم تعجن، وانحنى قليلًا كأنّما ليعاين جزءًا من الصورة، فلامس كتفها ويمناها، ثمّ اعتدل ونظر في عينيها وقال بصوت متهدّج:

ـ ألم يعجبك شيء؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت بصراحة:

ـ الحقّ أنّنا لم نجد ما يستحقّ عناء الرحلة..

فقال محجوب بصوته المتهدّج وعيناه تثقبان عينيها:

ـ ولكن المكان جميل وهادئ..

وانتبهت إلى تهدّج صوته، وشعرت بحدّة نظرته النارية، فاختلج بصرها، ونظرت إلى الأرض، ثمّ قطّبت في حيرة وقالت:

ـ آن لنا أن نذهب..

فهزّ رأسه، وهمّ أن يقول شيئًا، ولكن أعياه القول، فأمسك بيدها، ولكنّها سحبت يدها بسرعة، وألقت عليه نظرة إنكار، فلم يُبالِها، واستردّ يدها بقوّة، وقال وصفحة وجهه تموج بعاصفة: «دعينا نمكث قليلًا».. وتملّكه شيطان الشهوة، فجذبها نحوه بعنف، وأحاطها بذراعيه، وأهوى إليها بفم يحترق إلى التهامها. ولكنّها صدّته بيمناها، وباعدت رأسها عنه، ولاح في وجهها الجميل الغضب، وصاحت به صوتًا رنّ رنينًا مزعجًا في المقبرة الصامتة:

ـ أجننت!.. دعني.. اترك يدي..

فاستصرخها قائلًا يكاد يجنّ من العذاب:

ـ لا تغضبي... أرجوك... تعالي... تعالي إلى صدري..

ولكنّها تخلّصت من ذراعيه بقوّة جنونيّة لا تدري كيف أتتها، وصاحت بعزم وقسوة:

ـ مكانك.. إيّاك أن تلمسني.. إيّاك أن تعترض سبيلي..

واتّجهت نحو الباب، فتنحّى لها، وتبعها مطرقًا، صامتًا، مثقلًا بشعور الخزي والخجل. وسارا صامتين يقطعان الطريق الذي جاءا منه صديقين سعيدين، وقد اكتسى وجهها الجميل بلون الغضب القاني، وارتفع رأسها كبرياء وصلفًا، ولم يدرِ كيف يصلح من خطئه، وكلّما طال الصمت يئس وغلب على أمره، حتّى تساءل نادمًا: أما كان ينبغي أن يمدّ حبل الصبر؟ وقال لنفسه متأسّفًا: الظاهر أنّ فتاة مثل تحيّة لا تؤخذ كما تؤخذ جامعة الأعقاب.. لعلّه لم يوفّها حقّها من اللباقة والغزل، ولو أنّه اصطنع معها التريّث والأناة لربّما فاز بها. تبًّا للشهوة الجامحة. لقد ضيّعت عليه فرصة سانحة. وبلغا السيّارة، وقالت تحيّة بلهجة آمرة دون أن تنظر إليه:

ـ مكانك.

وصعدت إلى السيّارة، وأغلقت الباب، وأمرت السائق بالمسير. وأتبعها عينيه حتّى هبطت تحت مستوى البصر وغابت عن ناظريه تاركة إيّاه وحيدًا عند سفح الهرم. ولبث هنيهة مكانه ـ كما أمرته ـ واجمًا ـ ثمّ هزّ منكبيه، وأخذت روح الاستهانة تعاوده حتّى أوشك أن يضحك من نفسه، ونظر إلى الهرم طويلًا، ثمّ غمغم ساخرًا: «إنّ أربعين قرنًا تنظر إلى مأساتي من فوق هٰذا الهرم!». ثمّ غلبته موجة غضب مفاجئة ـ فاحمرّ وجهه الشاحب، واضطربت أرنبة أنفه، فودّ لو يستطيع أن يقذف القاهرة بأحجار الأهرام الهائلة، وتحرّكت قدماه وما يزال يأكله الغضب. علام الحزن؟.. ما هي إلّا أنثى!.. ولن تزيد على فتاته ـ جامعة الأعقاب ـ شيئًا!.. أجل. بيّد أنّه أضاع فرصة، وخسر تحيّة وأباها إلى الأبد! وتذكّر لحظة، ثمّ غمغم وهو يهزّ كتفيه استهانة: طظ.

ـ ١٨ ـ

وجاءت فترة استقرار نسبيًّا..

تناسى محجوب إخفاقه وتوثّب للعمل فقابل رئيس تحرير «النجمة» وكلّفه الرجل بترجمة بعض المختارات نظير خمسين قرشًا في الشهر، فصار دخله مائة وخمسين قرشًا، واستطاع أن يتّقي به ويلات الموت جوعًا وأن يجعل الحياة محتملة على أيّة حال. وانبرى للعمل يواصله ليلًا ونهارًا، ما بين دراسته الجامعيّة وعمله الصحفيّ البسيط. وخلت حياته من الفراغ فندر تفكيره في نفسه، واجتراره الهموم، ومضت أيّام كاملة لا يكوّر فيها قبضته غضبًا أو يهتف ساخطًا ساخرًا قائلًا: طظ. أجل كانت توجد أويقات غيظ ما منها بدّ، إذا تهيّأ لتناول طعامه الحقير مثلًا، أو رأى عليّ طه بجسمه الرياضيّ وابتسامته السعيدة، أو ذكر طرقه

الأبواب التماسًا لبضعة قروش، ولكن فيما عدا ذلك سارت الحياة سيرًا هونًا محتملًا.

وولّى مارس بجوّه اللطيف ورياحه الطيّبة وسمائه الآخذة في خلع أردية الشتاء لاستقبال حرارة الربيع وشذاه، وتبعه على الأثر إبريل بشمسه المزهوّة ـ شأن كلّ حديث نعمة ـ ورياحه المغبّرة وجوّه الأصفر الكدر. وجاءه في أوّل مايو كتاب والده الشهريّ المعهود قال له فيه: إنّه أرسل إليه آخر جنيه يستطيع الاستغناء عنه، ودعا له بالتوفيق والنجاح، ثمّ قال له: إنّه سينتظر من الآن فصاعدًا معونته التي بات في أشدّ الحاجة إليها، وبشّره بأنّه سيستطيع إن شاء الله أن يتحرّك قريبًا، وربّما أمكنه المشي متوكّئًا. لم يكن في الرسالة شيء لم يسبق الاتّفاق عليه، بيْد أنّه لم يستطع مدافعة الغيظ الذي هاجمه، وعاودته ذكريات الليالي السود، ليالي الجوع والهذيان وعاد يقول عن والديه لو كانا لكنت، ولو كانا لكنت..

ثمّ كان الامتحان في أوّل مايو، وظهرت النتيجة قبل الثلث الأخير منه، ونجح الصحاب الأربعة الذين تزاملوا أربعة أعوام كاملة. ولم يكن الامتحان ـ بالنسبة لمحجوب ـ مجرّد امتحان مدرسيّ. كانت في الواقع الفرصة الوحيدة والأخيرة كي يجني ثمار كفاح خمسة عشر عامًا، فسرّ سرورًا مضاعفًا، وتنهّد ارتياحًا من الأعماق. ولكن سرور الطالب المتخرّج بالنجاح سرور قصير المدى، بل هو سرور لا يُجاوز ليلة ظهور النتيجة، فإذا أدركه الصباح غشيه بهموم من نوع جديد، هموم شابّ يطرح عنه رداء التلمذة ليلقى منفردًا ـ خصوصًا إذا كان حاله كحال محجوب ـ ذلك الجبّار المقنّع المشتمل على جميع فرص السعادة وجميع عثرات الشقاء الذي يسمّونه المستقبل. ومضى الصحاب يجتمعون كلّ مساء تقريبًا بنادي الجامعة، وكانت تترامى إليهم أخبار الزملاء ذوي الحسب والنسب، ممّن تفتح لهم أبواب الحكومة بقدرة قادر، وتناولوا مستقبلهم بالكلام والنقد، متفائلين أو متشائمين، واعتاد أحمد بدير أن يقول باطمئنان: «لن يتغيّر مجرى حياتي، فلن أبحث عن مهنة جديدة، بالأمس كنت طالبًا وصحافيًّا، فالآن أتفرّغ لعملي في الصحافة». ولم يكن مأمون رضوان يدري إن كان يبعث إلى فرنسا أم يبقى في مصر، ولكن هدفه بقي واحدًا في الحالتين، وهو الإسلام، وقد تساءل مرّة قائلًا: «ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقيّ في جمعيّة الشبّان المسلمين؟ فنطهّر الإسلام من غبار الوثنيّات، ونردّ إليه روحه الفتيّة، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربيّ جميعًا ثمّ بلاد المسلمين!». أمّا عليّ طه فلم يكن ذا هدف واضح، ولكن اختلطت عليه الوسائل. كان مهيّأ للاشتغال بالسياسة، ولكن السياسة كما يعرفها هو لا كما يعرفها الناس. ولو وجد حزبًا ذا مبادئ اجتماعيّة لاشترك فيه بلا تردّد، ولكن أين هذا الحزب؟.. فهل ينتظر حتّى تنشأ الأحزاب الاجتماعيّة ثمّ يشترك فيها، أم يأخذ هو في الدعوة إليها منذ الآن؟ لا شكّ أنّ الانتظار أسهل، وأحكم، إذ ما جدوى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ في بلد لا يشغله شاغل عن الدستور والمعاهدة، ولعلّه من الخير أن ينتظر قليلًا ليستكمل عدّته من العلم والمعرفة، وغير ذلك، فلم ينط أمله في الوظيفة، ولا كان يرفضها لو أتيحت له.

محجوب عبد الدائم وحده أدركه الجزع: الإسلام، السياسة، الإصلاح الاجتماعيّ، كلّ أولئك مسائل لا يكترث لها، أمّا شغله الشاغل فهو اتّقاء الموت جوعًا، أو هو وظيفة توفّر له الرغيف!، وإذا أخفق في الحصول على وظيفة فالجوع لن يتهدّده وحده هذه المرّة، ولكن يتهدّد والديه معه، وهو لا يشفق عليهما بقدر ما يشفق من مضايقتهما له، فما العمل؟.. كان في الحقيقة بلا معين، والحكومة لا يدخلها أحد بلا معين. وتفكّر طويلًا، ولكنّه لم يفعل شيئًا إلّا أن كتب لوالده كتابًا قال فيه: إنّه بصدد البحث عن وظيفة، وإنّه يرجو أن يتمكّن قريبًا من تأدية واجبه نحو أسرته؛ وشرح له الصعاب التي تعترضه. وفي ذلك الوقت رشّح أستاذ الفلسفة الفرنسيّ مأمون رضوان لبعثة السوربون، ووصّى بتعيين عليّ طه في المكتبة ليتهيّأ له جوّ حسن لتحضير رسالته. سمع محجوب بهذه

الأنباء، وقارن بين حظّه وحظّ زميليه.. غدًا ينتقل مأمون ربيب أحقر قرية في الغربيّة إلى باريس.. وغدًا يطمئنّ عليّ إلى كرسيّه في المكتبة فيحضّر الماجستير ويعقد على إحسان!.. مرحى.. مرحى.. وماذا هو فاعل؟.. هل تعود أيّام فبراير السود؟. وذهب لمقابلة عليّ طه في المكتبة، وقد مرّ على تعيينه أسبوع، وكان يتوقّع أن يجده فرحًا مسرورًا، وقابله الشابّ بابتسامته المعهودة، فلم يقرأ في وجهه ذلك السرور الذي توقّعه، بل خال أنّه يرى مكانه فتورًا لم يتعوّده صاحبه، وعجب لذلك أيّما عجب، وغمضت عليه أسبابه، حتّى حسب أنّ الشابّ يداري فرحه بهذا المظهر الفاتر. وتجاذبا الحديث طويلًا، وأعرب له عن نيّته في عدم الاستمرار في الوظيفة، قال:

ـ هذه فترة انتظار وتفكير ريثما أجد سبيلًا للاشتغال بالحياة العامّة.. وربّما اخترت الصحافة في الوقت المناسب..

وذكر محجوب عمله في النجمة وما يدرّ عليه من رزق واسع! فجرت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وعاد عليّ طه يقول:

ـ إنّي أتهيّأ لكتابة موضوع عن توزيع الثروة في مصر..

وضاق محجوب صدرًا بآمال صاحبه، وسأله صراحة عمّا إذا كان في الإمكان أن يجد وظيفة في المكتبة؟ ومضى به الشابّ إلى موظّف المستخدمين يستفتيانه، وكان الرجل صريحًا جدًّا، فأمسك بيد محجوب وقال له بحدّة:

ـ اسمع يا بنيّ: تناسَ مؤهّلاتك، ولا تُضِعْ ثمن طلب الاستخدام، المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها: هل لديك شفيع؟ أأنت قريب أحد ممّن بيدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب يد كريمة أحد من رجال الدولة؟. إن أجبت بنعم فمبارك مقدّمًا، وإن أجبت بكلّا فلْتُوَلِّ وجهك وجهة أخرى..

وغادر المكتبة مظلم العينين من اليأس ومرارة الإخفاق. ولم يكن شيء ممّا سمع بالجديد عليه، ولكنّه أحنقه كأنّما سمعه أوّل مرّة، ومضى يخبط في حديقة الأورمان، واجمًا مكتئبًا. آه لو كان أبقى على علاقته الحسنة بآل حمديس، آه لو لم يقطع تلك العلاقة بوحشيّة يوم الهرم؟. تُرى لماذا لا يستقيم له أمر؟ لماذا لا ينال حظّه من السعادة والطمأنينة؟.. لماذا يرصده الجوع كأنّما لا يجد فريسة سواه؟.. الدنيا جميعًا فرحة لا تأبه له. هذا الربيع يجري في خضرة الغصون وحمرة الأزهار، ويطير مع العصافير والأطيار، ويرقص على الشفاه المورّدة الغارقة في النجوى عن يمين وشمال. الدنيا كلّها فرحة مطمئنّة، والوجوه مشرقة. هذه حديقة الأورمان مجمع أفراح الإنسان والحيوان والنبات، والأرض نفسها والسماء تشملها غبطة صامتة فوق كلّ كلام. أيموت جوعًا في هذه الدنيا؟. وبدا له سؤاله غريبًا نافرًا، وضحك هزءًا وسخرية وتحدّيًا، وقال متحدّيًا: «أأموت جوعًا؟.. فلا نزل القطر.. فلا نزل القطر».. كيف يموت جوعًا ثائرًا على جميع القيود؟.. كيف يموت جوعًا كافرًا بالضمير والعفّة والدين والوطنيّة والفضيلة جميعًا؟.. وهل جاع في هٰذه الدنيا أحد ممّن يتّصفون بالرذيلة؟.. بل هل كانت الشكوى إلّا من أنّهم يستأثرون بكلّ طيّب في هذه الحياة؟ ماذا عليه لو نشر في الإعلانات المبوّبة بالأهرام يقول: «شابّ في الرابعة والعشرين، ليسانسيه، طَوْع أمر كلّ رذيلة، عن طيب خاطر يبذل كرامته وعفّته وضميره نظير إشباع طموحه». ألا يقتتل عليه العظماء؟ ولكن من له بنشر هذا الإعلان؟.. من عسى أن يأخذ بيده؟.. لا فائدة من السعي لدى الزملاء، ولا الأساتذة، ولا حمديس بك.. إلّا واحدًا كان يجب أن يفكّر فيه دون سواه.. سالم الإخشيدي.. ليس بذي مروءة ولا نجدة، ولكن هل لديه سواه؟!..

ـ ١٩ ـ

ورأى عن حكمة أن يزور الإخشيدي في بيته، لأنّ حجرته بالوزارة لا يتهيّأ لها الجوّ الهادئ، فمضى إلى المنيرة حيث يقطن الأستاذ في شقّة بشارع السيّد المفضال، واختار يوم الجمعة صباحًا ليضمن وجوده.

واستقبله الأستاذ في حجرة استقبال صغيرة أنيقة، وكان يقيم في القاهرة بمفرده ومعه طاهية.. وأدرك الأستاذ الباعث على الزيارة بداهة، ولكنّه ترك القادم يفصح عن رغبته، دون مبالاة، وقال محجوب:

- معذرة عن مجيئي إلى البيت، فإنّني أعلم أنّ عملك بالوزارة لا يسمح لك بسماع الأحاديث الخاصّة.

فقال الإخشيدي ببرود:

- الواقع أنّني لا أترك العمل إلّا فترة قصيرة يوم الجمعة!

وفطن محجوب إلى ما في إجابته من مغزًى، ولكنّه تغاضى عنه بجسارته المعهودة، وقال:

- حصلت على الليسانس.

فابتسم الإخشيدي ابتسامة تشجيع فاترة، وتمتم قائلًا:

- مبارك..

فشكره الشابّ بحماس وقال:

- يا سالم بك، أنت جار قديم، وزميل قديم، وأستاذنا في العلم والوطنيّة على السواء، ولن أنسى ما حييت أنّ توصيتك لدى رئيس تحرير النجمة أنقذت حياتي ومستقبلي من الضياع. لهذا أقصد إليك كبير الرجاء، يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورق اللحم، فهل آمل أن تلحقني بوظيفة ما؟

أصغى الإخشيدي بلا تأثّر، لأنّه تعوّد سماع هذه الخطب الحارّة. وكان يحتقر الشابّ ويستهين به لفقره وعوزه، فلم يتحمّس لمساعدته. وكان يوجد بالوزارة وظيفتان خاليتان، ولكنّه وعد شخصًا إحداهما، وتقبّل نظير الأخرى هديّة فاخرة، وقد يصير محجوب ذا فائدة يومًا ما، ولكنّ العاجلة خير من الآجلة. وجعل محجوب يرمقه بعينين تنطقان بالخوف والرجاء، ويشعر أنّه بات تحت رحمة إنسان لا يراعي إلّا مصلحته الذاتيّة. ولمّا وجد منه صمتًا قال بصوت مؤثّر:

- إنّي أمّلتُك وكفى.

فأشعل الإخشيدي سيجارة، وهزّ رأسه كالآسف وإن لم تدلّ عيناه على شيء، وقال بهدوء:

- لا توجد وظائف خالية عندنا الآن.

فلاح اليأس في وجه الشابّ وتساءل:

- أما من فائدة ترجى؟

- لا داعي لليأس المطلق، ليس عندنا وظائف، ولكن توجد في الدولة وظائف كثيرة، ويمكن أن أدلّك على سبيل الخير.

ولم يجد في قوله ما يبعث على الأمل، ولكنّه لم يَرَ بدًّا من أن يقول:

- شكرًا لك يا بك، شكرًا لك.

فنظر إليه الإخشيدي نظرة غامضة قويّة وقال:

- أرجو أن تكون رجلًا عمليًّا، وأن تحسن فهم الدنيا، وأن تعلم أنّ كلّ فائدة بثمن.. لست أسألك شيئًا لنفسي، فما أنا إلّا دليل.

- عفوًا، عفوًا.. أستغفر الله..

فابتسم الإخشيدي وقال:

- إذا أخذت بقولي فهنالك أناس قادرون يستطيعون أن ينفعوا أمثالك!

وسكت الإخشيدي لحظات ثمّ استدرك:

- هناك مثلًا عبد العزيز بك رضوان.. ألم تسمع عنه؟!

- بلى.. أظنّه من رجال الأعمال المعروفين.

- هو ذلك.. وله كلمة نافذة في العهد الحاضر.. ودائرة اختصاصه وزارة الداخليّة.

فسأله الشابّ متحيّرًا:

- ومن لي بمعونته؟

- الطريق ميسور، ولكن ينبغي أن تعلم أنّه يأخذ ممّن يعيّنه نصف مرتّبه لمدّة عامين بضمان!

وهال الثمن الشابّ المعدم، ونظر إلى صاحبه بخوف، ثمّ سأله بعد تردّد:

- أليس يوجد من هو أيسر شرطًا؟

فقال الإخشيدي فورًا، كأنّه نادل يقرأ ثبتًا:

- المطربة المعروفة الآنسة دَوْلَت..

فلاحت الدهشة في وجه الشابّ الشاحب، فلم

يباله الآخر واستدرك:

- منطقة نفوذها السكك الحديديّة ووزارة الحربيّة وبعض الدوائر الكبرى..

وأخذ الإخشيدي نفسًا عميقًا من سيجارته، واستطرد قائلًا:

- والأسعار كما يأتي: الدرجة الثامنة ثلاثون جنيهًا، والسابعة أربعون، والسادسة مائة جنيه. والدفع فورًا.

وتنهّد محجوب يائسًا، ثمّ تفكر قليلًا وقال:

- أظنّ شرط عبد العزيز بك رضوان أرفق، فإنّي لا أملك ممّا تطلبه المطربة مليّمًا، ولكنّي أستطيع أن أتنازل عن نصف مرتّبي إذا صار لي مرتّب، فكيف أتّصل به؟

- ليس الآن.. ليس قبل شهر ونصف، بعد عودته من أداء فريضة الحجّ..

تبًّا له! ولكنّ الجوع لن يُبقي عليه حتّى يعود الحاجّ. وقال بصوت خافت وهو يخشى أن يضيق به صاحبه ذرعًا:

- الانتظار معناه الجوع.. فما عسى أن أصنع؟

فقال الإخشيدي ضاحكًا لأوّل مرّة:

- لست بالفتى الأمرد، ولا أمّك بالفاتنة اللعوب، فما عسى أن أصنع أنا؟!

وساد الصمت، وبات في حكم المقرّر أن يُنهي الإخشيدي المقابلة، لولا أن خطر له خاطر. وتفكّر سريعًا ثمّ قال لنفسه إنّ استفادة محجوب محتملة، أمّا استفادته هو - إذا حقّق هٰذا الخاطر - فمؤكّدة!. ثمّ قال:

- هنالك السيّدة إكرام نيروز.

- منشئة جمعيّة «الضريرات»؟

- نعم.

- ولٰكنّها مثرية جدًّا، ويضرب بثرائها المثل..

- نعم.. نعم.. السيّدة لا تطلب مالًا، ولكنّها مغرمة بالشهرة والثناء. ويمكن أن أقدّمها إليك في إحدى المناسبات، وعليك بعد ذٰلك بقلمك ومجلّة النجمة، فإذا وُفّقت إلى رضاها ضمنت مستقبلك، إنّها صاحبة نفوذ واسع يمتدّ إلى وزارات كثيرة، وأحزاب كثيرة.

وكان يرمي إلى استغلال الشابّ في الدعاية لها، بعد أن يقدّمه كأحد تابعيه الذين يأتمرون بأمره، فقال:

- ستقيم السيّدة نيروز حفلة خيريّة يوم الأحد القادم بدار «الضريرات» فاحضر الحفلة وسأقدّمك للسيّدة؟ واكتب عن الحفلة وصاحبتها، ولننتظر، ولننتظر.

- أيبلغني هذا ما أريد؟

- ربّما توقّف هٰذا على قلمك!.. وعليك أن تبتاع تذكرة بخمسين قرشًا؛ لأنّك لست صحافيًّا محترفًا، وربّما عرفت فيما بعد أنّ هذا المبلغ الزهيد أجلّ فائدة من ستّين جنيهًا تؤدّيها للآنسة دولت.. فهلمّ دون تردّد.

وعلى جسارته لم تؤاته شجاعته على أن يستلف منه ثمن التذكرة، فنهض قائمًا وصافحه شاكرًا وغادر الحجرة.

- ٢٠ -

خمسون قرشًا!. مبلغ زهيد حقًّا، ولكن كيف يحصل عليه؟ حقًّا إنّه يدّخر مكتبه وكتبه لينتفع بثمنها في الشهر الذي يسبق صرف أوّل مرتّب إليه - ترى هل ينتظر يومًا حقًّا هٰذا المرتّب؟ - فمن يعطيه ثمن التذكرة؟.. مأمون رضوان ارتحل إلى طنطا ليودّع أسرته قبل السفر إلى أوربّا، فلم يَبْقَ إلّا عليّ طٰه. ولا بدّ ممّا ليس منه بدّ.

وذهب إلى مكتبة الجامعة صباح السبت، واستقبله عليّ بالابتسامة المعهودة، ولكن محجوب أدرك من أوّل نظرة أنّ صاحبه حزين!. ليس هٰذا عليّ طٰه الذي يعرفه، انطفأ نور عينيه البهيج، وهمدت روحه المتوثّبة الحيّة، وكلّ هذا حقيق بأن يوليه سرورًا لو وجده في ظروف غير هذه. أمّا اليوم فهو يشفق من أن يُلقي هذا الحزن عثرة في سبيل الغرض الذي تجشّم من

أجله هذه الزيارة! وتعامى عمّا قرأه في وجه صاحبه وسأله:

- أين بلغ بك موضوع بحثك؟

فنفخ عليّ طٰه ضجرًا وقال بيأس ملموس:

- لا أدري، إنّي الآن مهيض الجناح.

فقطّب محجوب متظاهرًا بالإشفاق، وقال وهو يلعن في سرّه نحسه الملازم:

- كفى الله الشرّ، ماذا تقول؟

وكان عليّ عصبيّ المزاج، لا يكاد يطوي سرًّا فقال:

- كما ترى.. الأمر يتعلّق بإحسان!

وكأنّ ماء باردًا رشّ على وجهه، فثار اهتمامه، وغمغم متسائلًا:

- خطيبتك!

فتنهّد عليّ وقال بانكسار وحسرة:

- خطيبتي!

فازدادت دهشة محجوب وقال بلهجة من يودّ معرفة كلّ شيء:

- لا أفهم شيئًا..

وتردّد عليّ ثانية، أيبوح بسرّه؟.. وكان بطبعه غير كتوم، وكان محجوب من أصحابه الذين أفضى إليهم بقصّة حبّه، وكان إلى هٰذا وذاك في أشدّ الحاجة إلى الترويح عن نفسه، فقال بصوت أبان عن تأثّره العميق ويأسه:

- ولا أنا، لشدّ ما أنا ذاهل حائر، ولشدّ ما أسائل نفسي، ما الذي حدث؟! ما البواعث الخفيّة الأسيفة التي تنفث سمومها في الظلام؟.. كانت الحياة تسير سيرًا جميلًا. كنّا متحابّين ونزداد على الأيّام حبًّا. وكنّا متفاهمين ونزداد على الأيّام تفاهمًا. عرفنا ماضينا وأحببناه. وخبرنا حاضرنا ورضينا به، وأملنا مستقبلنا وانتظرناه، وتتابع اللقاء، وتمّت الألفة، ورسخت المودّة..

وسكت عليّ لحظة، وعينا صاحبه لا تفارقان وجهه المتجهّم، ثمّ اندفع يقول مسحورًا بحرارة الحديث:

- ما الذي بثّ الفساد في حياتنا؟. إنّه شيء لا يصدّق، ولٰكنّه الحقيقة دون زيادة، كيف حدث هٰذا؟!. بدأت تتغيّر! وكان التغيّر طفيفًا بادئ الأمر، ولكنّه لم يخْفَ عن قلبي اليقظ الساهر. رأيت في عينيها نظرة قلقة حائرة، تناوبها الشرود وفترت ابتسامتها، ومضت تتجافى عن حديث الحبّ، وتتّقي ذكر آمالنا وعهودنا. فأخذت نفسي بالصبر عهدًا عرفت فيه مرارة الحيرة وعذاب الشكّ، ولٰكن دون جدوى فلم يتغيّر الحال، وكاشفتها بوساوسي، وقلت لها ما أجدر حبّنا بأن يكون هباء إذا طوت دوني سرّها! ولكنّها اتّهمتني بالمبالغة واعتذرت عن تغيّرها بتوعّك مزاجها فتضاعف عذابي وألمي.. كيف أصدّق أنّ حبًّا كحبّنا يموت فجأة وبغير نذير؟ وجدّدت بها، فصارت اللقيا جحيمًا، ثمّ انقطعت عنّي، أتصدّق؟ لقد جننت، فرصدتها في كلّ مكان، وراسلتها، وثابرت على مطاردتها بعناد، فجاءت لمقابلتي، جاءت تتعثّر بالحزن والخجل، فصحت بها أنّ تحوّلها سيورثني الجنون.

وأمسك الشابّ، وكان محجوب يتابعه بحواسّ مرهفة، ويوليه اهتمامًا كاد ينسيه غرضه من الزيارة، وتظاهر بالتأثّر الشديد ليشجّع صاحبه على الاسترسال، فقال عليّ:

- قلت لها إنّ تحوّلها سيورثني الجنون، فقالت لي إنّ لقاءنا أورثها الجنون بالفعل، وقالت لي إنّ آمالنا مقضيّ عليها بالفناء، فينبغي أن نعالج حزننا بالحكمة وأن نرضى بالنهاية المحتومة. هل أرضى بالشقاء دون دفاع؟! أأفرّط في سعادتي دون سؤال؟!. قالت لي إنّها رغبة والديها، وإنّها يئست من إقناعهما، وإنّها لم تَدَعْ وسيلة، وضرعت إليّ في النهاية أن نفترق وألّا أضاعف لها العذاب.

ونظر الشابّ إلى محجوب طويلًا، حتّى أفاق قليلًا من سكرة الحديث، فتورّد وجهه وقال:

- لماذا أطيل عليك؟.. لقد انتهى كلّ شيء: تحطّمت آمالي. إنّ دراسة الحكمة لا تغني عنّي شيئًا.

وعجب محجوب أيّما عجب: لماذا يرفض عمّ شحاته تركي بائع السجائر الأستاذ عليّ طٰه؟ أيراه غير أهْل لنسَبه!.. أم يطمع الرجل أن تتمّ كريمته دراستها.

لتنفق على أسرته؟! ثمّ خطر له خاطر فسأل صاحبه:

ـ ألا يجوز أنّ مثريًا كبيرًا طمع في الفتاة فأراد أبوها أن يزوّجها له؟!

فرفع عليّ حاجبيه حيرة ولم ينبس بكلمة. وكان محجوب قد ذكر غرضه الأوّل من هٰذه الزيارة، فأراد أن يمهّد له، وكان اعتراف عليّ قد أحدث في نفسه لذّة كبيرة، فسالت نفسه نشاطًا وحبورًا، ولكنّه قال لصاحبه بلسان الواعظ:

ـ لا يجمل بك على أيّة حال أن تستسلم للحزن، والحقّ أقول إنّه مهما يكن السبب الحقيقيّ لهذه القطيعة فلا شكّ في تبعة فتاتك، فهَبْها كشيء لم يكن، وأودع العلّة والمعلول سلّة المهملات..

فقال عليّ بحزن:

ـ لم يلتئم الجرح بعد!

ـ هذا جزاء من يهيم بنظريّتك في الحبّ، ألا ترى أنّ الكلاب تعالج الحبّ بطريقة أدعى إلى السعادة والراحة؟.. نحن المسئولون عن شقائنا دائمًا..

فلازم عليّ الصمت، واستطرد الواعظ:

ـ النسيان.. النسيان.. أترضى أن تكون من المجانين الذين يُفسد الحبّ حياتهم؟

وساد الصمت. وفي تلك اللحظة امّحى سبب قويّ ممّا كان يبغّض عليّ طه إليه، فلم يعد يمقته كما كان. خفّت وطأة البغضاء، ومضى يقول لنفسه: ما يضيره لو فقد إحسان؟. فلا يزال ذا وظيفة وشباب وجمال! إحسان التي طالما أصلته نارًا، فمن الراحة ألّا يفوز بها منافسه وإن فاز بها ثالث غيرهما!. ثمّ نهض قائمًا، متوثّبًا للهجوم على غرضه، فمال نحو صاحبه وهو يصافحه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أستاذ عليّ.. أخوك في حاجة إلى خمسين قرشًا حتّى آخر الشهر؟

ودسّ عليّ يده في جيبه ومدّها إليه بما يريد، فتناولها محجوب قائلًا:

ـ شكرًا لك.. شكرًا لك أيّها الصديق الكريم.

وغادر المكتبة راضيًا، وتساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر: متى يمتلئ جيبي بنقود الحكومة؟!

ـ ٢١ ـ

وأخذ أهبته. استحمّ، وكوى البدلة والقميص والطربوش، ولمّع الحذاء، وحلق ذقنه ورجّل شعره، فبدا شخصًا جديدًا، وإن لم يزايله الهزال ولا الشحوب.

ذهب إلى دار جمعيّة الضريرات مبكّرًا. ووجدها دارًا كبيرة، أنيقة، تحيط بها حديقة غنّاء وارفة الظلال، فسار إلى بهو عظيم مستطيل، يتصدّره مسرح كبير، وقد تراصّت به صفوف المقاعد الخضر، وعلى الجانبين أبواب الشرفات المطلّة على الحديقة. ولم يكن سبقه إلى المكان إلّا نفر قليل فاتّخذ مجلسه هادئًا، ومضى يتفحّص المكان بعينيه الساخرتين، ويتساءل: تُرى هل يمكن حقًّا أن تنتهي به رحلته في هٰذه الدار إلى الحكومة؟!. وكان تيّار القادمين لا ينقطع، وكان في استقبالهم جماعة من الأوانس الحور. وبعد ثلث ساعة من جلوسه تكاثر عددهم، وتزاحموا نساء ورجالًا. في أبهى الثياب وفاخر الحلل، فشاع الحسن في كلّ موضع، وتطاير في الجوّ شذا العطور، وزاغ بصر محجوب، وتردّدت عيناه الجاحظتان بين الوجوه الصبيحة، والنحور المتألّقة، والظهور العالية، والصدور الناهدة. وجرى دمه بحيويّة فائضة، وسرى القلق في أعصابه. وعجب لهذه الدنيا الباهرة، أين كانت خافية؟.. هذه الثياب الفاخرة، وتلك الحليّ النفيسة. إنّ واحدة منها تكفي للإنفاق على طلبة الجامعة جميعًا. وهؤلاء النسوة، ما أكثرهنّ وما أجملهنّ ولٰكن من المؤسف حقًّا أنّ كلّ امرأة يحوم حولها رجل أو أكثر. وأكثرهنّ يتكلّمن الفرنسيّة بطلاقة، وهنّ المسلمات الظوالم!. كأنّ الفرنسيّة لغة الدار الرسميّة، تُرى كيف يتفاهمن مع الضريرات؟! واجتاحته موجة من السخرية مفعمة حقدًا، لا لغيرة على لغة البلاد، ولكن تلمّسًا لأسباب الكراهية. وتساءل أين صاحب السعادة ابن الستّ أم سالم؟ وأرسل بصره ناحية المدخل فصادف مجيء سيّدة باهرة المنظر، عرفها من النظرة الأولى، فذكر القناطر لعهد خلا، وذكر مهندس القناطر الشابّ وزوجه الحسناء، أجل كانت حرم

حمديس بك دون غيرها، وقد جاء وراءها البك نفسه، وتبعته تحيّة وفاضل! وعلق بصره بالأسرة وهي تمضي إلى مقاعدها من الصفّ الأوّل، وتورّد وجهه الشاحب، وعادت إلى ذاكرته رحلة الأهرام، فخال أنّه يسمع صفقة باب السيّارة وهو يغلق دونه!.. وقرض أسنانه وشعر برغبة جهنّميّة إلى البطش بهٰذه الفتاة الأنيقة المتعجرفة!.. آه لو تأبّطت ذراعه حسناء من هؤلاء الحسان فسار بها أمام أسرة «قريبه»!. تلك الأسرة الكريمة التي تجشّمت المجيء إلى هذا البهو في سبيل الإحسان والرحمة!. ينبغي أن يسود بلا قيد ولا شرط، فلا ضمير ولا خلق، ولٰكن متى يجلس معهم في الصفوف الأماميّة! في لباس السهرة الفاخر لا في بدلة الصحافة هذه!!؟. وقبل أن يفيق من أفكاره رأى عن بُعد الأستاذ سالم الإخشيدي يشقّ طريقه إلى الأمام في مشيته المتمهّلة، ورزانته المعهودة، كأنّ البهو لا يحوي سواه.. وكان يحيّي برأسه كثيرًا من الطبقة العالية نساء ورجالًا، فظلّ يتابعه بناظريه حتّى جلس، وقد ملأه إعجابًا وحسدًا. هٰذه هي الحياة الحقّة، الحياة الممتعة، الحياة التي ترضي الغرائز جميعًا. الإخشيدي مثله الأعلى. ونعم المثل الأعلى هو. وشعر عند ذاك بيَدٍ توضع على كتفه، فالتفت إلى يمينه فرأى الأستاذ أحمد بدير يجلس في المقعد الملاصق، فتصافحا بحرارة، وسأل محجوب قائلًا:

ـ ما الذي جاء بك يا أستاذ؟

فنظر إليه الشابّ نظرة كأنّما يقول له ما الذي جاء بك أنت؟.

وأجابه كالداهش:

ـ عملي!.. ألست مندوب الجريدة؟

فقال محجوب:

ـ وأنا مندوب مجلّة النجمة!

وضحكا معًا. وهمَّ أحمد بدير أن يسأل صاحبه عمّا إذا كان ينوي الاشتغال بالصحافة، لولا أن رفعت الستارة، وبدت على المسرح سيّدة جليلة، ذات جبين وضّاح، ووجه مستدير مهيب، لم يذهب كلّ جماله على اقترابها من الستّين، وقوبلت بتصفيق حادّ متواصل، فتلقّته برزانة من يألفه، وحنت رأسها تحيّة للمعجبين، وبسطت بين يديها ورقة. ونظر محجوب إليها طويلًا، ثمّ سمع أحمد بدير يقول بصوت منخفض:

ـ السيّدة إكرام نيروز منشئة الدار..

أجل. عرف ذٰلك بداهة، تُرى أيّ دور ستلعبه في حياته؟.

واستدرك أحمد بدير قائلًا:

ـ إنّها عجوز ولٰكنّها مغرمة بالشباب!

وأدرك أنّ أحمد بدير لن يمسك ـ كعادته ـ وسرّ لذٰلك أيّما سرور، لأنّه من المحنق أن يقتحم الإنسان دنيا جديدة بغير دليل. أمّا السيّدة إكرام نيروز فراحت تلقي كلمة الافتتاح بصوت هادئ متّزن جميل. رحّبت بالحاضرين، وأثنت على عواطف الخير التي تعمر صدورهم، ثمّ تكلّمت عن جمعيّة الضريرات وهدفها السامي. ألقت كلمتها بالعربيّة، فلم تكد تنجو كلمة من خطأ نحويّ ولحن. وتبادل الصاحبان الابتسام، وقال أحمد:

ـ لا تحزن فالدار خالية ممّن قد يفطن إلى الخطأ..

فقال محجوب كالمعتذر:

ـ مغفور لها الخطأ، أليست تخطب بلغة أجنبيّة؟

ثمّ شاهد الحاضرون فصلًا من مسرحيّة لموليير. وغنّت مدام تارد أغنية فرنسيّة عالميّة، وتركت في النفوس أبلغ الأثر، ثمّ دعي الجميع إلى بهو آخر مستدير، أعدَّ للرقص، فتصدّرته فرقة موسيقيّة إيطاليّة، ورصّت إلى جوانبه الموائد، وعزفت الموسيقى، ورقص الراقصون: ودارت الكئوس مترعات. ووقف الصديقان عند مدخل إحدى الشرفات يشاهدان الرقص ويتحدّثان. كان محجوب يرى الرقص لأوّل مرّة، فأثار دهشته وإعجابه، رأى الصدور تكاد تلمس الصدور، والأذرع تحيط بالخصور، فعجب كيف يتمالك هؤلاء أنفسهم! وتمنّى لو كان من الراقصين. وتفحّص الوجوه بعينيه الجاحظتين القلقتين، وهمس لنفسه: «المال. المال هو السيادة وهو القوّة، هو كلّ شيء في الدنيا!» وعثرت عيناه بثدي ناهد تكاد حلمته تثقب الفستان الأبيض

الشفّاف، فحمي دمه، ورفع بصره ليرى وجه صاحبته، فرأى عجوزًا دميمة على فرط تهتّكها، فلكز صاحبه ولفته إلى السيّدة هامسًا:

ـ كيف يكون هٰذا الثدي لهٰذه العجوز؟

فألقى أحمد بدير على المرأة نظرة شاملة: وابتسم كالساخر، ثمّ قال:

ـ وكيف تكون هٰذه الحفلة الخيريّة في حانة؟!

فقطّب محجوب غاضبًا، أو متظاهرًا بالغضب وقال:

ـ لتذهب الضريرات إلى الجحيم.. الحانة خير وأبقى!

وجال ببصره مرّة أخرى فرأى تحيّة حمديس! رآها تراقص شابًا جميلًا مفتول العضلات، له طول مأمون رضوان، ومتانة بنيان عليّ طٰه: فشعر أنّه ـ الشابّ ـ يستطيع أن يقبره بضربة واحدة. وتجهّم وجهه، وسأل أحمد بدير عنه، فقال الشابّ:

ـ وكيل نيابة وأحد أبطال التنس المعدودين..

وتنهّد محجوب. ولو أمكنه ـ في تلك اللحظة ـ أن يصير عظيمًا ولو بجريمة ترمي به إلى حبال المشنقة لما تردّد. ما الذي منع من أن يكون أحد هٰؤلاء الشبّان؟! الدنيا جميعًا! القوى الكَوْنيّة التي خلقت التاريخ، وصنعت الطبقات، وقسمت الحظ، وجعلت عبد الدائم أفندي أباه، والقناطر مسقط رأسه. وهنا سمع أحمد بدير يهمس إليه متعجّلًا: «انظر إلى الشرفة» وأدار رأسه إلى داخل الشرفة: فرأى سيّدة تكاد تخفي وجهها بمروحة من ريش النعام، وعلى يدها ينحني رجل متقدّم في السنّ، فلمّا استوى واقفًا، عرفه من الصورة التي تنشرها له الجرائد من آنٍ لآخر، قال أحمد بدير:

ـ هٰذه حرم أنيس بك إبراهيم، والباشا من المعجبين بها، ويقال إنّها تسعى لمنح زوجها الباشويّة!

وكفّت الموسيقى، وهرع كثيرون إلى الشرفات والحديقة، فتحوّل الشابّان إلى الشرفة، دخلا معًا، قال أحمد بدير:

ـ في أوّل عهدي بحياة المجتمعات كان يكلّفني موقفنا هذا عناء ما بعده عناء: كنت إخال الناس جميعًا وكأنّ لا عمل لهم إلّا تفحّصي من الرأس إلى القدم. وأنت؟

فذكر محجوب ملابسه، ووجهه الذابل الشاحب، فتصاعد الدم إلى خدّيه، ولٰكن سرعان ما استعدى جسارته واستهانته فقال بصوت هادئ:

ـ في موقفنا هٰذا يداخلني شعور بأنّي رجل يجول بين ماشية!.

ولم يكد يتمّ كلامه حتّى وجد نفسه أمام حمديس بك، وجهًا لوجه. وخفق قلبه بعنف. ونظر إليه نظرة حاول ما استطاع أن ينقّيها من آي الخوف والاضطراب، وتساءل ترى كيف يواجهني؟.. ما عسى أن يقول؟ ما عسى أن يفعل؟.. أمّا حمديس بك فقد عرفه، ولاحت في وجهه ابتسامة، ومدّ له يده قائلًا:

ـ كيف حالك يا محجوب؟

وتصافحا، وافترقا بسلام!.. وتولّته الدهشة.. إذن أخفت تحيّة الأمر!.. ولم يَدُرْ له هٰذا بخلد.. وتنبّه إلى أحمد بدير يسأله للمرّة الثانية:

ـ أتعرف حمديس بك؟

فأجابه بزهو:

ـ طبعًا.. طبعًا. ابن عمّ والدتي!

ـ وكيف لم تحدّثنا عن هٰذه القرابة العظيمة؟.

فأجابه محجوب بنفس اللهجة، وكان لا يزال متأثرًا بسرور النجاة:

ـ ططظ!..

وهبطا الأدراج إلى الحديقة، ومضت عيناه تبحثان عن سالم الإخشيدي، ومتى يقدّمه إلى السيّدة؟.. وهل من فائدة ترجى؟.. ومرّ بجماعات النساء والرجال، وشاهد نخبة من الرجال المعروفين، منهم المتحفّظون، ومنهم من أطلقوا لأنفسهم العنان. ولفت نظره شخص غريب المنظر، ضخم الجسم في غير تناسق، مكرّش، كأنّه مادّة حيوانيّة لم تسوّ بعد، يمشي منفرج الساقين كأنّه ذو داء. بَيْد أنّه بدا أثيرًا محبوبًا مكرّمًا، يحادث العظام بغير كلفة، ويمازحهم ويعلو

صوته بينهم بغير مبالاة، ويقهقه عاليًا . وعجب محجوب لشأنه، وسأل صاحبه عنه قائلاً:

ـ ومن هذا أيّها العارف بأمر الناس؟

فضحك أحمد بدير وقال:

ـ كيف لا تعرفه؟ . . عزّوز ضارم. كان يومًا موظّفًا محترمًا، ثمّ اضطرّ إلى الاستقالة لأسباب خلقيّة، فاشتغل بالأعمال الحرّة، وعرفه أناس من ذوي النفوذ ، فأعيد إلى الخدمة وسار قُدُمًا. . ولكنّه لم يهجر أعماله الحرّة!

ـ وكيف يجمع بين الاثنين؟

ـ عمله الحرّ شقّته الأنيقة، فيها مائدة للقمار، وفيها الحسان الكواعب الحور! . .

وتفكّر محجوب مليًا، وانقبض صدره، وتكدّر صفوه، كيف يتاح له التفوّق في مثل هٰذا المجتمع؟! إنّهم يعملون بمبادئه بغير حاجة إلى تفلسف، ولن يمتاز دونهم باستهتار أو جرأة. فما الفائدة؟! أليس من الأفضل أن ينقلب مصلحًا كمأمون رضوان أو كعليّ طه؟! وقطع أفكاره ظهور شابّ كالقمر، ممشوق القوام، بديع الحسن، ناعم البشرة، فاتن العينين، أخّاذ الملامح، لامع الشعر، يخطر كالغزال نافثًا سحر الأنوثة والذكورة معًا. فما تمالك أن تمتم قائلًا:

ـ لله ما أجمله! . . أتعرفه؟

فقال أحمد بدير مبتسمًا:

ـ أحمد مدحت. أشهر من نار على علم، يدعونه بحقّ كوكب الشرق!

ـ موظّف ؟!

ـ ببنك مصر. متخرّج في الحقوق منذ عام. مرتّب ثلاثون جنيهًا.

ـ ثلاثون جنيهًا! ومن كان شفيعه؟

فضحك بدير قائلاً:

ـ هو شفيع نفسه يا أحمق!

ورنّ جرس يدعو المبعثرين في جوانب الحديقة إلى بهو التمثيل. فعادوا جميعًا وأخذوا مجالسهم بهدوء ونظام. ورفعت الستارة بعد قليل عن مجموعة من بنات الطبقة الراقية في أردية فرعونيّة رائعة، ورقصن جميعًا رقصة فاتنة التصوير، دقيقة التعبير، أخذت بمجامع القلوب، حتّى همس أحمد بدير بأغنية سيّد درويش «دا بأُف مين اللي يألّس على بنت مصر بأنّه وش» وصفّق الجمهور للراقصات بحماس وإعجاب.

وأعلن بعد ذلك عن مسابقة الجمال، فسرت في الحاضرين هزّة شوق واهتمام، وشملهم سرور عجيب. وظهرت على المسرح هيئة المحكّمين. كانت المسابقة أمتع ما في السهرة، بل كانت المشهد الوحيد الذي أجمع الحاضرون على الاهتمام به. وقد تفحّص أحمد بدير المحكّمين بإمعان. ثمّ جرت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة، وأبرز من جيبه بطاقة كتب عليها كلمة أو كلمتين وطواها حتّى صارت كالعويد، ودسّها في جيب محجوب وهو يقول:

ـ دع هذه البطاقة حيث هي حتّى تعلن النتيجة، ثمّ ابسطها تجد اسم ملكة الجمال! .

فسأله محجوب بدهشة:

ـ وكيف عرفته؟

ـ صه. . انتباه!

وتركّز انتباه الجميع في مكان واحد، ودعا الداعي أولى المتسابقات، فطلعت في سماء المسرح كالكوكب النيّر في بهاء وأناقة. وكانت ترفل في ثوب من الحرير الأبيض، وتبسم ابتسامة توحي بالهدوء واللطف، بيْد أنّها أخفقت في إخفاء ارتباكها، وقال أحمد بدير بأسف:

ـ في أوربّا تبدو المتسابقات عرايا! أمّا نحن فنقتنع بالحكم على الظواهر. .

فتساءل محجوب ساخرًا كعادته:

ـ ولماذا لا يختارون المحكّمين من المطّلعين ؟!

وحملقت الأعين، وأمسك كثيرون بالنظّارات المكبّرة، وأثبت البعض ملاحظاتهم في مذكّرات. واستمرّ العرض والفحص بلا سأم ولا ملال. وتتابعت الوجوه كالأقمار. ثمّ اختفت هيأة المحكّمين للمداولة فتصاعد اللغط، وعلا النقاش، وتراهن كثيرون. وعادت اللجنة بعد قليل وأعلنت اسم الفائزة: آنسة هدى حيدر، فصفّق الجميع، وصفّق والدها في مقدّمة

الجميع. وأبرز محجوب البطاقة من جيبه، وبسطها، فوجد فيها اسم الفائزة «هدى حيدر» بخطّ واضح، فلاحت الدهشة في وجهه وسأل رفيقه:

ـ ما معنى هذا؟

فابتسم أحمد بدير فخورًا بفراسته وحسن اطّلاعه على البواطن، ورغب أن يترك صاحبه لحيرته، ولكنّ الآخر ألحّ عليه، فلم يَرَ بدًّا من إسكاته، فقال بصوت لا أثر للفخر فيه:

ـ عرفته بطريق المصادفة! رأيت الفائزة منذ يومين مع الأعضاء الصحافيّين من لجنة التحكيم عند سفح الهرم، أيدهشك هذا؟!

وكره محجوب عبد الدائم أن يدهش حقًّا، فتمالك نفسه، وقال بضجر:

ـ كلّا لا يدهشني شيء. اختيار الموظّفين تزييف، رسوّ العطاءات تزييف، الانتخابات نفسها تزييف، فلماذا لا يكون انتخاب ملكة الجمال تزييفًا؟

* * *

وأوشك الجمع أن ينفضّ، فذكر محجوب غرضه: ورأى الأستاذ سالم الإخشيدي يتّجه نحو أحد الأبواب، فودّع صاحبه ومضى نحوه. وكان الأستاذ قد نسيه تمامًا، فتصافحا،وسارا معًا إلى الباب المقصود، ودخلا حجرة كبيرة فاخرة الأثاث جلست السيّدة نيروز في صدارتها مع نفر قليل من أصحابها. وأهاب محجوب بجسارته أن يخونه الارتباك. واقترب مع صاحبه من السيّدة الجليلة، وانحنى الإخشيدي على يدها مسلّمًا، وقدّمه إليها بصوته الرزين الهادئ: «الأستاذ محجوب عبد الدائم، مندوب النجمة!، من خرّيجي الجامعة المعجبين بما أحدثت عصمتك من نهضة رائعة». وانحنى لها محجوب فمدّت له يدها قائلة:

ـ إنّي فخور بالجيل الجديد.. (وأتمّت بالفرنسيّة) فقد طفح الإناء بالماء القذر، ولا بدّ من تطهيره وملْئه من جديد..

فقال محجوب بالفرنسيّة:

ـ هٰذا حقّ يا سيّدتي..

وكان الإخشيدي يقوم لها بدعاية في بعض الصحف إمّا بنفسه أو بواسطة بعض أصدقائه: فرجا أن تضيف ما عسى أن يؤدّيه محجوب إلى أفضاله السابقة. وألقت السيّدة على الشابّ أسئلة تتعلّق بثقافته وتخصّصه وآماله، فأجاب محجوب بلباقة، وجرى الحديث مجرًى جديدًا، فاستأذن الإخشيدي وصاحبه، وغادر المكان وهو يقول له مودّعًا:

ـ الشيء الكثير يتوقّف على قلمك..

حقًّا؟.. أتحقيق أمله رهن بمقاله عن حفلة اليوم؟.. وعاد إلى الجيزة متفكّرًا تستأثر به الأحلام. وأرق تلك الليلة كما كان يؤرّقه الجوع في ليالي فبراير، تاه في وادي الأحلام والآمال، ثمّ ذكر طويلًا السهرة التي عاش فيها نصف الليل كلّه: جمال الرفاهيّة، ومشاهد النعيم، ومجالي الحسن، وروعة العشق، وجنون الإباحيّة، تلك الحياة الباهرة التي تذوب روحه شوقًا إليها..

- ٢٢ -

وعند ضحى اليوم الثاني كان يقطع حجرته الصغيرة ذهابًا وجيئة مفكّرًا في المقال الخطير. ماذا يقول؟ كيف يبدأ؟ وبِمَ يختم؟ ثمّ ركّز ذهنه في حصر النقط الهامّة: ثمّ هداه منطقه إلى طريقة لبقة في كشف النقط الخطيرة، فبسط صفحة، وشطرها نصفين بخطّ رأسيّ، وجعل لكلّ شطر عنوانًا:

الحقيقة	ما ينبغي أن يكتب
١ ـ إكرام نيروز كريمة رجل من صنائع الاحتلال.	١ ـ أسرة إكرام نيروز وعراقتها في الوطنيّة.
٢ ـ غرامها بالشبّان.	٢ ـ زوج وفيّة وأمّ بارّة.
٣ ـ تفوّقها في الفرنسيّة وعجزها في العربيّة.	٣ ـ اغترافها من الثقافتين العربيّة والفرنسيّة.
٤ ـ دار الضريرات حانة.	٤ ـ مشروعاتها الخيريّة.
٥ ـ مدعوّوها على مثالها.	٥ ـ مدعوّوها على مثالها.
٦ ـ المدعوّون يهتمّون بكلّ شيء إلّا الضريرات.	٦ ـ عاطفة الخير.

هكذا استخرج نقط الموضوع الخطير، ثمّ جلس إلى مكتبه يتهيّأ للكتابة، ولكنّه لم يكد يمسك بالقلم حتّى سمع طرقًا على باب حجرته ـ لأوّل مرّة منذ انتقاله من دار الطلبة ـ فنهض منزعجًا ساخطًا وفتح الباب. رأى جسمًا ضخمًا يملأ عليه الفراغ، فتذكّره وخفق قلبه خفقة مروّعة، كان ساعي سالم الإخشيدي دون غيره. ورفع عينيه إلى الرجل في تساؤل ولهفة، فقال الرجل مبتسمًا ولكن بصوت غليظ:

ـ سعادة البك يريدك على أن تقابله الآن.

ـ سالم بك؟

ـ نعم!

ـ أين؟

ـ في مكتبه بالوزارة!

ثمّ قصّ عليه الرجل كيف قصد إلى دار الطلبة كما أمره سيّده، وكيف وصف له البوّاب مسكنه الجديد. ولكن محجوب لم يسمع شيئًا، كان يرتدي ثيابه بسرعة وهو يقول لنفسه: ماذا هنالك؟!.. أيمكن..؟! ولكن بهذه السرعة!.. إنّه لسحر مبين! هذه المرأة إمبراطورة.. بل شيطانة.. بل إلهة.. آه.. لَشدّ ما أخاف أن تكون الدعوة لسبب آخر فيضيع هذا السرور الجنونيّ سدًى!.. ولكن لأيّ سبب يدعوه إن لم يكن لهذا؟..

وذهبا إلى الوزارة فبلغاها في منصف الثانية عشرة، وقصد إلى حجرة الإخشيدي، فاستقبله هذا بلطف لم يعهد مثله من قبل. وأمر الساعي ألّا يأذن لأحد حتّى يأمره. وجلس محجوب على كثب منه، فالتفت إليه الرجل بوجهه المثلّث الهادئ، ولكن كان الهدوء هذه المرّة قناعًا يخفي انفعالات عارمة، وقال مبتسمًا:

ـ دعوتك لأمر خاصّ بمستقبلك!

هي الكلمة المرجوّة!.. لن يضيع السرور سدًى..

وغلبه الانفعال فقال بصوت متهدّج:

ـ لم أفرغ من المقال بعد!

ـ دع المقال الآن، وانس إكرام نيروز. سنحت فرصة أجلّ فائدة، كالثمرة الدانية تروم من يقطفها..

فتساءلت عيناه المحملقتان، وقال وهو يزدرد ريقه:

ـ بعونك أقطفها!

فتريّث الإخشيدي متفرّسًا في وجهه بدهاء، لم يلاحظ الآخر ـ لم يلاحظ شيئًا ـ ثمّ قال:

ـ وجدت وظيفة.

وساد صمت وقد تورّد الوجه الشاحب، فاستدرك الإخشيدي:

ـ درجة سادسة!

ـ سادسة!!

ـ سكرتير.

فتساءل لاهثًا وهو لا يصدّق أذنيه:

ـ سكرتير من؟

فأشعل الإخشيدي سيجارة، غير راحم لهفة صاحبه، وقال متغافلاً عن سؤاله:

ـ الفرصة الجميلة كنز لمن يهتبلها، حسرة للمتردّد. أتذكر كيف كان فيضان المسيسبّي من سنوات بركة على قطن بلادنا البائر؟

فاحترق الشابّ لهفة وقال بعزم أكيد:

ـ محال أن أتردّد يا سعادة البك.

فسرّ الإخشيدي لتلهّفه، واطمأنّت نفسه القلقة بعض الشيء، ثمّ قال:

ـ سبق أن أفهمتك أنّك يمكن أن تأخذ إذا رضيت أن تعطي!

أن تعطي؟! ماذا يملك لكي يعطي؟.. وغصّ بخيبة لم يتوقّعها، فانطفأ بريق عينيه، وقال بصوت كسير متسائلًا:

ـ ولكن.. ولكن كيف أعطي؟.

ـ ليس المال بالعملة الوحيدة المطلوبة في سوق الفرص «وتنهّد محجوب بصوت مسموع» ومن سجايا الإنسان ما لا يقوم بمال. المسألة لا تعدو هذا: أأنت جسور ذكيّ حقيق بالطيّبات، أم أنت ممّن تلقي بهم الأوهام على شاطئ الحياة فتطؤهم النعال كالتراب؟.

فلاحت الحيرة في العينين الجاحظتين، حتّى خلع الشابّ طربوشه ومسح على شعره المفلفل، ثمّ لبسه بسرعة، وقال:

ـ أرجو أن أكون عند حسن ظنّك..

ـ لهذا دعوتك، وما خابت فراستي قطّ.

ونظر إلى محجوب بعينيه المستديرتين وسأله:

ـ أتقبل أن تتزوّج؟

فتولّته الدهشة. لم يخطر له الزواج على بال، فلم ينبس بكلمة. وكان الإخشيدي لا يزال مصوّبًا إليه عينيه. فقال بلهجة ساخرة:

ـ جاء دوري لاستحثاثك.

ـ ألا يمكن أن أعطى مهلة للتفكير؟

فهزّ الإخشيدي منكبيه استهانة وقال:

ـ ظننتك أشدّ رغبة. لماذا أنتظر؟ يوجد ألف عروس وعروس ولا بدّ من اختيار واحد اليوم..

ـ اليوم؟.

ـ بل الساعة.

فتنهّد محجوب، وواتته جسارته المعهودة فقال بتسليم:

ـ إذا قبلت..

فابتسم الإخشيدي ابتسامة ماكرة وقال:

ـ بداية حسنة ولكنّها ليست كلّ شيء.

ماذا يريد الشيطان؟.. ليس الأمر كما حسب أوّل وهلة. ليس الزواج كلّ شيء، فماذا تحوي «كلّ شيء» هذه؟.. وسمعه يقول بصوته البغيض:

ـ ولكنّي متفائل بجسارتك وبسرعة بتّك في الأمور، الوظيفة في مكتبنا هذا، وكنت شاغلها لأسابيع خلت وظيفة سكرتير قاسم بك فهمي.

يا للعجب. أيصدّق هذا؟. أيمكن حقًّا أن يجود الدهر بكلّ هذه السعادة؟. ولماذا يختاره الإخشيدي وما يعهده ذا مروءة أو أريحيّة؟ إنّه يطالبه ـ نظير هذه الوظيفة ـ بالزواج، فأيّ زواج هذا؟. أجل أيّ زواج هذا.. وأخفى حيرته وقال بسرور:

ـ يا لها من سعادة كالحلم. جزاك الله عنّي خيرًا.

فابتسم الإخشيدي وقال وقد ازداد اطمئنانًا وجسأة:

ـ دعني أتكلّم عن الزوجة.

فأحدث لفظ «الزوجة» في نفس الشابّ هزّة، وتطلّع إلى الإخشيدي بعينين متسائلتين كأنّهما تسألانه: «من هي؟.. ما صورتها؟... ما معنى زواجي بها؟» فقال الإخشيدي:

ـ فتاة كريمة من «دائرة» قاسم بك فهمي.

دائرة. وتساءل الشابّ بارتياع:

ـ قريبته؟

ـ قاربت الحقيقة... هي من معارفه!

فتغابى محجوب وتساءل مزدردًا ريقه:

ـ معرفة جوار، صداقة والدين؟

فقال الإخشيدي ببساطة واستهانة:

ـ قاربت الحقيقة، سعادته صديقها هي بالذات!

وبدت الحقيقة سافرة. وأدرك ما يراد به. وعرف ثمن الوظيفة الفاخرة. إنّ الإخشيدي لا يرسل الساعي في طلبه حبًّا في سواد عينيه، ولكن ليستغلّ

بؤسه. وإنّه ليمقت الإخشيدي ولكن ليس هذا بيت القصيد. لقد تضرّج وجهه بالاحمرار، وأحسّ الحرارة تسري في رأسه، فجعل يستصرخ ما جُبل عليه من جسارة وفجور. أجل ما الذي يخجله؟.. ما الذي يؤلمه؟.. أيؤمن بالزواج؟. أيؤمن بالعفّة؟. أيشعر بإهانة في تصريح صاحبه؟. إنّ الحياة تنبري لامتحان فلسفته، لتثبت بالتجربة المحسوسة إن كانت سفسطة وجدلًا أو عقيدة وعملًا، فيا أيّها الاضطراب زُل، ويا أيّها الغضب اسكت، وليتحدّث عن الزوجة الساقطة كما لو كان يتحدّث عن درجة حرارة الجوّ في البرازيل. فدعا استهانته وسخريته، وسأل صاحبه:

- عذراء؟!

فقال الإخشيدي مبتسمًا:

- كانت!

ولاذ بالصمت هنيهة، وكان الوجه الشاحب لا يزال متورّدًا. واستدرك الإخشيدي:

- لا تحسبَنَّ عظماء الرجال بمعصومين، والبك جادّ في إصلاح خطئه. فإذا شاطرته مقصده النبيل، ظفرت برضاه، وهيّأت لنفسك مستقبلًا حسنًا. ومثل هٰذا العمل يتطلّب قلبًا كبيرًا وعقلًا واسعًا، وثقافة عميقة، أمّا إذا تناولت الأمور بمعيار العوامّ فهٰذا فراق بيني وبينك، ولا تتوهّمَنَّ أنّي أجري وراءك، فالذين يرضون بما يعرض عليك لا حصر لهم، بَيْد أنّي أوثر أن تعمل معي أنت في هذا المكتب لما أعهده فيك من الذكاء والإخلاص. ثمّ إنّنا جيرة من قديم، ودرجة سادسة كنز..!

إنّه يدرك البواعث الخلفيّة التي جعلت الإخشيدي يرسل إليه ساعيه. إنّه يروم خدمة مولاه واكتساب رضاه. ولعلّه إن لم يظفر بزوج طيّب للفتاة التي اعتدى البك عليها اضطرّ أن يقدّم نفسه كبشًا للتضحية. هذا واضح ومفهوم. ولٰكن هناك حقائق أخرى أولى بها أن تذكر. هنالك وظيفة سكرتير، وهنالك الدرجة السادسة، أفيجوز أن يضحّي بها؟ ولماذا؟.. أيشعر بما يدعونه غيرة على العِرض؟.. حاشاه. أيصدّق فيما يسمّونه الشرف؟.. تبًّا له. لقد قال كلمته الأخيرة في كلّ هذه الأشياء، فينبغي أن يختار دون تردّد. التردّد معناه أنّه لا يزال غير أهل لفلسفته الجسور. تبًّا له. أينسى ليالي الجوع؟ أينسى الفول المدمّس؟ أينسى التخبّط في شوارع القاهرة شحّاذًا متسوّلًا؟. عليّ طٰه في المكتبة ومأمون رضوان في طريق باريس ويتردّد؟! حمديس بك لا يكلّف نفسه مجالسته خمس دقائق ويتردّد؟!. وتحيّة - وهنا تميّز غيظًا - أغلقت باب السيّارة في وجهه ويتردّد؟!. ونتف حاجبه الأيسر، ورفع عينيه إلى صاحبه وسأله:

- من هي؟ أريد أن أعرف كلّ شيء؟

فقال الإخشيدي:

- ستعرف كلّ شيء في حينه، ولن تكون من الآسفين.

فرفع محجوب حاجبه استهانة وقال:

- ليكن. فمتى يكون التعيين؟

- ٢٣ -

فتنهّد سالم الإخشيدي بارتياح، وقال وهو ينهض قائمًا:

- تعال أقدّمك إلى البك.

وتبعه على الفور باذلًا جهده لضبط عواطفه. ودخلا حجرة فاخرة، رأى في صدرها مكتبًا كبيرا يجلس إليه البك. واقتربا من المكتب في احترام حتّى كادا يلمساه. ورأى الإخشيدي يتنازل مرّة واحدة عن جلاله، وينحني على يد البك في خشوع، ففعل مثله، ولمّا اعتدل في وقفته ألقى على الجالس نظرة خاطفة. كان في الأربعين، معتدل القامة، جميل المحيّا، أنيق الملبس والهندام، صغير الشارب جميله، يدلّ مظهره على أنّه إمام من أئمّة مدرسة الغزل. وقد قدّمه الإخشيدي إليه، وأثنى عليه، فرحّب به في تحفّظ مقصود، وسأله:

- هل أنت من متخرّجي هذا العام؟

فأجاب محجوب بالإيجاب، فقال له البك:

- أرجو أن تكون عند حسن ظنّ الأستاذ الإخشيدي بك.

ثمّ مدّ له يده إيذانًا بانتهاء المقابلة! وقد تعمّد أن يجعلها مقابلة رسميّة حتّى لا يلعب الغرور برأس

الشابّ، وعاد إلى حجرة الإخشيدي، ورآه محجوب مختالاً فخورًا، فامتلأ حنقًا عليه، ولكنّ حنقه لم يدم طويلاً، لأنّه ـ رغم كلّ شيء ـ كان راضيًا، وسأل بأدب:

ـ متى يتمّ التعيين؟

ـ هذا عليّ هيّن. ستكتب اليوم مذكّرة تعيينك، فجهّز مسوّغات التعيين، ويتمّ كلّ شيء إن شاء الله في بحر أيّام. أمّا الآن فدعنا ننجز الأمر الآخر... (وسكت لحظات) تكرّم بالحضور إلى بيتي عصر اليوم...

فتساءل محجوب بدهشة:

ـ لماذا؟

فقال الآخر بهدوء:

ـ لتعقد زواجك.

فقال محجوب بانزعاج:

ـ أليس من الأفضل أن تؤجّل هٰذا إلى ما بعد إتمام التعيين؟

ـ ولِمَ؟

فقال الشابّ مبتسمًا:

ـ حتّى أتريّش...

ـ أستاذ محجوب خير البرّ عاجله، سيدفع لك بمبلغ محترم تستعين به على الزواج حتّى تقبض أوّل مرتّب، ولن يكلّفك الزواج شيئًا، شقّة العروس في انتظارك، وما عليك إلّا تجديد ملابسك!

فاستولت الدهشة على الشابّ الذي لم يكن يتصوّر أنّ كلّ شيء مهيّأ على هذا الوجه. كانت المصيدة مجهّزة تنتظر فأرًا. ووقع الفأر. ترى أبها عسل أم سمّ؟

ـ ألا تعطيني مهلة، أسبوعًا؟

ـ العقد اليوم ليطمئنّ قلب والدي العروس، أمّا الزفاف فبعد التعيين.

فتنهّد محجوب مستسلمًا، وسأله:

ـ وأين شقّة... العريس...؟

ـ شارع ناجي، عمارة شليخر شقّة رقم٤.

فقال الشابّ بدهشة:

ـ هذا حيّ إفرنجيّ، إيجاره مرتفع بغير شكّ!

ـ لا تكترث لهذا...

فتساءل الآخر بانزعاج:

ـ كيف يمكن هٰذا!

ـ أنت كثير الأسئلة، قليل الصبر. اعلمْ يا أستاذ أنّ البك قد اكترى هذه الشقّة لمدّة عام!

فتبلبل فكر الشابّ، وسأل بمكر:

ـ لو ترك لي الخيار لاخترت مسكنًا مصريًّا.

وابتسم الإخشيدي ابتسامة دلّت على احتقاره لمكر صاحبه، وقال باستهانة:

ـ المساكن الإفرنجيّة ينعدم فيها التطفّل، فإذا رأى البك أن يزورك، زارك في أمن من المتطفّلين.

وصوّب بصره نحو المتكلّم فوجده يتظاهر بالنظر في بعض الأوراق وشعر مرّة أخرى بالدم يتصاعد إلى رأسه، وخفق قلبه بعنف، وذكر ـ لا يدري كيف ـ زميله أحمد بدير وحفلة السيّدة إكرام نيروز، وتخيّل نفسه جالسًا في الحفلة، وصاحبه الصحافيّ يومئ إليه خفية من بعيد ويحدّث!. دائمًا الناس، الناس دائمًا.. أيترك الناس يحطّمون سعادته؟

أيّهما يفضّل؟ أن يكون من المجدودين وليَقُلْ أحمد بدير ما يشاء، أم يكون من البائسين ولا يجد الصحافيّ ما يقوله عنه؟... وقطّب غاضبًا، ألا يزال متردّدًا؟.. كيف نسي «طظ» العزيزة؟ يا له من جبان حقير. واشتدّ غضبه. ثمّ نظر إلى صاحبه وقال بحدّة:

ـ ليكن..

فقال الإخشيدي:

ـ سأنتظرك عصر اليوم.

وفيما هو يغادر حجرة المدير وقع نظره على حجرة تقابلها كتب على لافتتها «السكرتير الخاصّ» فخفق فؤاده. ومضى إلى الخارج. وجعل يحدّث نفسه: قرنان في الرأس، يراهما الجاهل عارًا، وأراهما حلية نفيسة. قرنان في الرأس لا يؤذيان. أمّا الجوع... سأكون أيّ شيء، ولكن لن أكون أحمق أبدًا. أحمق من يرفض وظيفة غضبًا لما يسمّونه كرامة. أحمق من يقتل نفسه في سبيل ما يسمّونه وطنًا.. أحمق من يضيّع على نفسه لذّة لأيّ وهم من الأوهام التي ابتدعتها الإنسانيّة. كلّ

هذا حقّ وجميل. بَيْد أنّي منفعل هائج. لماذا؟! ذٰلك أنّ العقل لا ينفرد بتوجيه سلوكنا. وبينما يحدث العقل حكمة، يخلّف الشعور حماقة. فعلى الحكمة أن تمحق الحماقة وليكن لي أسوة حسنة في الإخشيدي، ذلك الأريب؛ ظفر بوظيفته لأنّه خائن، ورقّي لأنّه قوّاد. فإلى الأمام.. إلى الأمام.

وكوّر قبضة يمناه ولوّح بها، وحثّ خطاه وقد انبعث من عينيه الجاحظتين نور خاطف..

- ٢٤ -

وغادر حجرته عصرًا بعد أن ارتدى بدلته بعناية وأخذ حظّه من التأنّق والزينة! ومضى إلى طريق المنيرة إلى بيت الإخشيدي. لبث طوال يومه متفكّرًا. وكان يقطع تفكيره بالتعجّب. ثمّ يقول لنفسه وكأنّه لا يصدّق «سأتزوّج اليوم». وكانت الورقة التي يثبت بها نقط الموضوع الخاصّ بحفلة جمعيّة الضريرات لا تزال على مكتبه! فكيف قطعت الأمور هٰذا الشوط البعيد؟! تفتّحت أبواب الوظيفة وها هو ذاهب لأداء الثّمن، الزواج؟!.. لا ينبغي أن يدع اسمًا يهوله، فما هو إلّا اسم!.. وكثير ممّا نحسبه حقائق أو قيمًا ما هي إلّا أسماء. هو عادة اجتماعيّة. وفي بعض البلاد يتعدّد الأزواج كما تتعدّد الزوجات في بلاد أخرى، وقد يباح الزنا في بلاد، وكانت الإباحيّة قانونًا في بعض المجتمعات. فليس هناك قانون مطلق للزواج، وليتحلّ بما أثِرَ عنه من شجاعة وجسارة. هكذا مضى يحادث نفسه ثمّ ذكر في طريقه والديه!.. وانقبض صدره على رغمه. وفرق. وتفصّد جبينه عرقًا. تمثّلت له والدته التي تؤمن بأنّه لا يخطئ أبدًا. وتمثّل له والده الريفيّ، بطيبته وتقواه وغيرته. إنّه يتزوّج دون علمهما. ولا يدري متى يعلمان، ولٰكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطيعة أن تجعله يواجه مثل هٰذا التحدّي!.. إنّ ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيّلته. ما أحوجه الآن إلى صفاء الذهن وحضور البديهة ورباطة الجأش. أليست عروسه في انتظاره؟!.. يا لها من حقيقة بالخيال أشبه. تُرى من عروسه؟... ما صورتها؟ ما أسرتها؟ ما أخلاقها وأحوالها؟! قلبه يحدّثه بأنّها جميلة وإلّا ما جذبت شخصًا كقاسم بك. ولكن لا شكّ كذٰلك في أنّها فقيرة كما يدلّ اختياره زوجًا لها، والفتاة الغنيّة لا يعوقها عن الزواج عائق. والشرف قيد لا يغلّ إلّا أعناق الفقراء. ترى ماذا تخبّئ له هذه الحياة الزوجيّة؟ كيف يكون شعوره نحو زوجه غدًا؟ وكيف يكون شعورها نحوه؟ وما هي حقيقة الرابطة التي ستربطهما معًا؟! وكيف يستقبل البك إذا جاء لزيارته!. يا لها من حياة، ويا لها من تجربة. غدًا تمتحن فلسفته وقوّته. إنّه يسير نحو هدفه لا يلوي على شيء. ولا يستطيع عقله الآن أن يجد حلًّا لجميع المشكلات التي ينطوي عليها الغد. ولٰكنّه إذا واجهها فسيعرف كيف يقهرها، وينتصر عليها كما انتصر على كلّ عقبة في ماضيه. وداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء، فسار بقدمين ثابتتين وانتهى إلى بيت الإخشيدي، وفتح له الرجل بنفسه، ثمّ مضى به إلى حجرة نومه وسأله:

ـ أأنت مستعدّ؟

فقال محجوب وهو يبتسم ليستبقي ثقته بنفسه:

ـ كما ترى يا بك.

ونظر إلى الإخشيدي فلم ير ما اضطرّه قديمًا إلى إجلاله، وشعر في أعماقه برغبة في تحدّيه والاستهانة به. قال الرجل:

ـ سيأتي المأذون عمّا قليل...

فابتسم محجوب وقال بغرابة:

ـ المأذون!

فقال الإخشيدي مبتسمًا أيضًا:

ـ ستدخل دنيا يا عمّ. والآن دعني أقدّمك إلى العروس ووالديها.

وتبع الإخشيدي خافق الفؤاد، تلوح في عينيه نظرة تطلّع وما يشبه الخجل والتردّد، وكان لا يكفّ عن دعاء جراءته وقحته، ويرسل ناظريه لرؤية حياته ومستقبله.. وسبقه الإخشيدي إلى الدخول وهو يقول:

ـ هاكم عضوًا جديدًا في أسرتكم المحترمة...

ودخل وراءه، فوقعت عيناه على وجه غريب، رأى

إحسان شحاته، إحسان شحاته تركي دون غيرها، والتقت عيناهما. .

ـ ٢٥ ـ

كانت إحسان شحاته دون غيرها. ولكن غير الفتاة الطاهرة التي أحبّها عليّ طٰه فتعاهدا على الحبّ والزواج. حدث تاريخ جديد، بدأ بنظرة عين ثمّ أعقبتها أمور. حدث ذٰلك وهي عائدة عصرًا من المدرسة، عند رأس شارع رشاد باشا فيما يلي شارع الجيزة، أمام القصر المعروف بالفيلّا الخضراء. ولكم مرّت بهٰذه الفيلّا ذهابًا وإيابًا منذ أعوام، ولٰكن في ذٰلك اليوم وقعت عليها عينان جميلتان خبيرتان، مغرمتان بكلّ حسن صبيح وشعرت الفتاة بالنظرة الثاقبة فلم يَخْلُ وقعها من أثر. رأت رجلًا جليل الشأن، إن لم يكن باشا فهو بك، أنيق المنظر، جميل المحيّا، ذا شارب صغير فاتن، يكتنفه جلال وجمال على دقّة جسمه وميله إلى القِصَر نوعًا. ولعلّ ذٰلك وحده ما جعلها تلتفت إلى الوراء بعد أن ابتعدت أذرعًا، فوجدته مصوّبًا نحوها عينين أحسّت ـ في حياء ـ نفاذهما وحرارتهما!. كانت الفيلّا ملكًا لمدير شركة إيطاليّ، باعها إلى هٰذا البك منذ أشهر، وقيل يومئذ إنّه موظّف خطير، ونوّه البعض باسمه، ولٰكنّها نسيت ذٰلك جميعه. وما بلغت دارها الباهتة حتّى كادت تنسى البك ونظرته. في عصر اليوم الثاني ـ وعند عودتها من المدرسة أيضًا ـ رأته بموقف الأمس. التهمتها العينان الجميلتان وهي مقبلة نحوه، وتبعاها بعد أن جازته. وتساءلت تُرى هل وجد ذٰلك الوقت مصادفة كالأمس أم أنّه انتظر اليوم على عمد؟!. وسارت دون أن تلتفت وراءها، وإن ظلّ ذهنها متفكّرًا. وعند منتصف الطريق شعرت بدنوّ سيّارة من الطُّوار الذي تمشي عليه، فعطفت رأسها إلى يسارها فرأت سيّارة تكاد توازيها، سيّارة رائعة كأنّها فيلّا متحرّكة، ولمحت وراء نافذتها عيني البك ترسلان إليها بنظرة غريبة، فيها ابتسام مستتر، وإعجاب ظاهر، وفجر فاضح. وبطؤت حركة السيّارة حتّى سارت تسايرها، فتولّاها الحياء والارتباك، وحثّت خطاها، وابتعدت داخل الطّوار. ولـمّا اقتربت من دار الطلبة اندفعت السيّارة مسرعة ودارت إلى طريق الجامعة، واختفت عن الأنظار. قطع الشكّ، فهٰذا غزل. وخالط فؤادها شعور بالسرور والخيلاء، وغلبتها خفّة ودلال ورثتهما عن أمّها فترنّمت بصوت خفيض بأغنية: «التاكسي على الباب مستنّيني» ثمّ قالت لنفسها: «ليس تاكسي، ولٰكنّها سيّارة ولا سيّارات عابدين!». بيْد أنّه كان شعورًا بريئًا أحدثه زهو الصبا. أمّا الرجل العظيم الجميل فلم يمسك، بل تمادى في غزله يومًا بعد يوم. فلم تَرَ بدًّا من الاستياء والتجهّم له وقالت له عيناها: «هٰذا سلوك لا يليق». ولٰكنّه لم يأبه لإنذارها. ويومًا رأت إلى جانبه في السيّارة شخصًا جديدًا مثلّث الوجه مستدير العينين، ثمّ استمرّت المطاردة وعنفت، حتّى باتت الفتاة في حيرة. كانت تحبّ عليّ طٰه فرأت أنّ من المنطق أن تنتهي هٰذه المطاردة الملحّة. ومن ناحية أخرى لم يترك البك الجميل في نفسها أثرًا سيّئًا، وعلى العكس من ذٰلك أبهج نفسها ولوعه ونظرة عينيه الجذّابتين. وقالت لنفسها متأمّلة: إنّه على كهولته أجمل من عليّ وأروع منظرًا، ولولا أنّ قلبي قال كلمته لما دريت كيف أصدّه عن صاحب السيّارة العظيم!. وجعلت تتساءل مغيظة: هل أرعوي؟. متى يغيب عن ناظريّ؟ متى يبعد عن سبيلي؟!. ولٰكن هل كانت صادقة في تساؤلها؟ أو لأيّ درجة كانت صادقة؟. فلم تجد لذلك جوابًا صريحًا. باتت في حيرة من أمر نفسها. وراحت تقول لنفسها كالمعتذرة. . إن كانت تسرّ لمطاردته. . فما ذلك إلّا إرضاء لغرورها الأنثويّ وتأثّرًا بمقامه الكبير. وما تدري يومًا إلّا وأبوها يقول لها بلهجة ذات معنًى ـ وكانت راجعة من المدرسة ـ «ألم تثوبي إلى رشدك بعد؟!». واضطرب فؤادها، وتورّدت وجنتاها. هل يعلم الرجل بما يحدث في شارع رشاد باشا؟!، ربّاه، أدائمًا هو بالمرصاد لها؟! ونظرت إليه نظرة المتسائلة المتجاهلة، فقال وكانت أمّها لحقت به: «رجل لا يقلّ مقامًا عن وزير وأعظم جاهًا وثروة، ألا ترين سيّارته؟، ألا ترين قصره؟. فماذا تريدين؟!»،

فسألته الفتاة بحدّة: «ماذا يريد هو؟» فقال المعلّم شحاته تركي بصوت غليظ أخافها على غير عادته: «يريد بك خيرًا، ويريد بنا خيرًا، يريد الله أن يرفعك إلى طبقة السادة وأن يزقّق إخوتك الجياع. كلّمني مدير مكتبه الذي أعرفه منذ عهد تلمذته. سيتزوّج منك. نعم. لِمَ لا؟. أنت جميلة، وأنا رجل من صلب كريم. لعن الله الزمن. فحتّامَ تلوي بوزك؟. افتحي عينيك. أبوك يستغيث بك. وأمّك تستغيث بك. وإخوتك يستصرخونك!». واستفاض الحديث. واشتركت فيه أمّها. في تلك الليلة لم يغمض لها جفن حتّى مطلع الفجر. قضت الليلة تتقلّب على جنبيها وتفكّر. وعند عصر اليوم الثاني، في الموعد المعهود، اقتربت السيّارة منها وفتح الباب. وتردّدت قليلاً ثمّ صعدت إليها..

كيف وقع هذا؟!. ألم تكن تحبّ عليّ طه؟ بلى كانت. ولكنّه ليس الحبّ الذي يعمي ويصمّ ليس الحبّ الذي يصمد للتجارب الشديدة والمغريات العنيفة. كانت تحبّ الجاه كذلك وتكره الفقر. كانت تئنّ تحت حمل أسرتها الثقيل. كانت الفيلاّ منظرًا بديعًا، والسيّارة كنزًا نفيسًا، والبك إلهًا من آلهة الذهب والسلطان. لقد قاومت أوّل مرّة الشابّ الحقوقيّ لأنّها كانت أوّل مرّة. ثمّ راح والداها لا يسكتان عن الإلحاح، وقد جعلاها منذ التجربة الأولى في حلّ من كلّ استهتار، بل جعلا عصمتها بيدها، ولولا عليّ لهوت وانتهت من زمن بعيد. بَيْد أنّها لم تُرِدْ فيما بينها وبين نفسها أن تعترف بضعفها. تجاذبتها في ليلتها المسهّدة عهود كثيرة وعواطف متباينة. تردّدت بين البك وعليّ طه. بين زوج اليوم وزوج الغد البعيد، بين الراحة والتعب، بين حياة الدعة والاطمئنان وحياة الكدّ والكفاح، بين عيش رغيد لها ولأسرتها وحياة جلّها مغالبة لفقر لا يغلب وضَنْك لا يزول. ثمّ اختارت دامعة العينين، خافقة الفؤاد. وأوهمت نفسها أنّها تضحّي بسعادتها في سبيل الآخرين، وأنّ الليل استقبلها فتاة معذّبة، وطلع عليها شهيدة من الشهداء. قالت لنفسها: «إنّي أحبّ عليّ، ولكنّي أحبّ إخوتي كذلك. ولا يجوز أن يذهب إخوتي ضحيّة لأنانيّتي. لذلك ـ لا لشيء آخر ـ ينبغي أن أذعن لأبي. أنا لا أحبّ البك، ولا أحبّ الجاه، والله يعلم بذلك!». وهكذا صعدت إلى السيّارة التي ظلّت تطاردها بعناد وإصرار. كانت السيّارة سحرًا، وكان صاحبها ساحرًا كذلك. كان عليّ طه عاشقًا وناقدًا في آن واحد، يحبّ ولكنّه ينقد ويعلّم ويرشد أيضًا، أمّا البك فرجل فاتن، منظره جميل، وكلامه لذيذ، ودعاباته جنون وفتون، كانت عيناه بأعين المنوّمين أشبه، وكان إذا نظر في عينيها الجميلتين وعاطاها الحديث شعرت بتخدير عامّ واستسلام حالم. وجزى الله صبر المعلّم شحاته تركي خيرًا، فجاءته يومًا سيّارة شيكوريل وأفرغت حمولتها من الثياب الفاخرة!. وحرّكت أمّ إحسان رأسها على طريقة العوالم وغنّت: «حوّد من هنا وتعال عندنا»، ولاح السرور في عيني إحسان وهي تقلّبها في ألوان الحرير لتختار ما يروقها، وهكذا بدأ تاريخ جديد. ثمّ كانت نزهة الهرم بعد ذلك بأسابيع. انطلقت السيّارة بالبك الجليل، إلى يمينه فلقة قمر تبعث الجنون، والحقّ أنّ إحسان بعد أن تريّشت وأخذت زينتها وصار شيكوريل ومدام جريكور الخيّاطة في خدمتها أصبحت، على حدّ قول البك، جنونًا رسميًّا. في ذلك اليوم بُيّت أمر. تعطّلت السيّارة في الطريق فتركها الراكبان. وقال البك إنّ له فيلّا على مقربة من المكان واقترح أن يستريحا فيها حتّى يتمّ إصلاح السيّارة. ومضيا إلى فيلّا جميلة تحيط بها حديقة غنّاء. ثمّ قال البك إنّها وقد شرّفت بيته الخلويّ فينبغي أن يحتفل بزيارتها الميمونة. وأمر خادما فهيّئت لها مائدة من التفّاح والشمبانيا. وقشّر لها تفّاحة وقدّم لها كأسا من الشمبانيا وهو يقول لها إنّها شراب غير مسكر ولذيذ. كان الوقت أصيلاً والحياة في أطيب أحوالها. كانت النافذة تشرف على خضرة يانعة يتيه فيها البصر، والسماء مورّدة الوجنات بحمرة الشفق، والحداة تولّي مودّعة ضاربة بجناحيها، ووسائد الكرسيّ الكبير تتلقّاها وكأنّها تضمّها بحنوّ، وقدماها منغرستين في

سجّادة وثيرة. وبعثت الشمبانيا الدفء في العقل، والعقل إذا أحسّ دفئًا تهيّأت له قوّة سحريّة يحوّل بها عالم المحسوس إلى عالم أطياف روحيّة، خالٍ من الخوف والهمّ والأحزان. وتصاعد همس محبوب أشهى من نفثات الأماني ونقرت على معصمها أصابع مسحورة، تدغدغ حواسّها وتحمّل دمها رسائل الاستفزاز، ونفذت أنفاس حارّة متردّدة كشكّات الإبر من جيب فستانها إلى ثغرة صدرها وما بين ثدييها. وجعلت تدافع بساعدين مخذولتين، حتّى يئست، فضمّت بها.

* * *

ونطقت عيناها بالفزع والارتباك والحياء، فقال لها البك بلهجة مطمئنة:

ـ لا تحسبي أنّي غدرت بك. إنّ مستقبلك أمانة بين يديّ والله على ما أقول شهيد...

ـ ٢٦ ـ

التقت عيناهما ـ محجوب وإحسان ـ في صمت وذهول. وذكر كلاهما صاحبه فتولّته الدهشة والانزعاج واضطرب أيّما اضطراب، ذكرها محجوب فكاد يفقد رشاده. وذكرته إحسان فتولّاها الذهول، وذكرت عليّ طه، ودار الطلبة، والماضي الذي تودّ أن تفرّ منه فرارًا. ونظر محجوب فيما حوله فرأى عمّ شحاته تركي في معطف جديد، وسيّدة بدينة أدرك أنّها زوجه. وفطن الإخشيدي إلى ارتباك الجماعة، فقال مبتسمًا:

ـ لعلّكم لا تحتاجون إلى تعارف..

فقال عمّ شحاته:

ـ محجوب أفندي جارنا منذ أربع سنوات..

ولم يكن الإخشيدي يجهل هذا ـ وهو ما جعله يحرص على ألّا يعرّف أحد الطرفين بالآخر قبل مفاجأة اللقاء ـ قال:

ـ مصادفة جميلة، والناس تقول: «اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش» سلّم واجلس يا أستاذ محجوب.

وأفاق الشابّ من ذهوله، فاقترب من آله الجدد وسلّم عليهم واحدًا واحدًا، ومدّت له إحسان يدها، خافضة العينين، بوجه كالجمان. كانت تريد أن تسدل على الماضي ستارًا كثيفًا، وأن تفرّ منه إلى الأبد، فرمى بها الحظّ بين يدي واحد من صميم ذاك الماضي، وكأنّه ـ الحظّ ـ لم يشبع بها تنكيلًا! وأراد الإخشيدي أن يعالج توتّر الجوّ بالحديث، ولكن محجوب لم يُلْقِ إليه بالًا. وكيف له بأن يغفل ثانية عن العجيبة الماثلة أمامه؟!. هٰذه إحسان شحاته بلحمها ودمها!. أهٰذا سرّ مأساة عليّ طه؟!. يا عجبًا، كيف غوت؟! كيف استولى البك عليها؟! كانت ثقة عليّ بها عمياء!.. أهٰكذا تقع إحسان؟!.. أمّا هو فلا يعرف الثقة العمياء أبدًا، ومع ذلك فلم يذهب به سوء الظنّ يومًا إلى التنبّؤ بما وقع!.. انتهت إحسان التي أحبّها عليّ طه، وانتهى ذاك الحبّ القديم، وها هي إحسان أخرى جديدة تمدّ إليه يدًا ليرتبطا بميثاق الزواج... إحسان التي طالما تمنّاها معذّبًا محسورًا!. أفليست الحقيقة أغرب من الخيال؟ وتنبّه إلى صوت الإخشيدي يقول له معاتبًا:

ـ أما تستفيق؟

فنظر إليه بعينين ذاهلتين وتمتم قائلًا:

ـ إنّي أعجب لهٰذه المصادفة.

فسأله الإخشيدي مبتسمًا:

ـ كيف ترى هٰذه المصادفة؟

فقال محجوب بلا تردّد:

ـ مصادفة سعيدة بلا جدال!

وجعل الإخشيدي يتكلّم عن المصادفة متفلسفًا، وقالت أمّ إحسان كلمة أو كلمتين، وظنّ عمّ شحاته أنّه أحاط بالموضوع حين قال: إنّ المصادفة من صنع الله وبأمره سبحانه. ولكن بالرغم من هذا كلّه ظلّ العروسان غارقين في أفكارهما، وغلب الوجوم والارتباك على جوّ الجلسة. ثمّ رنّ الجرس، فنهض الإخشيدي ظافرًا بالخلاص من التوتّر الشائع حوله، ومضى إلى الخارج وهو يقول:

ـ لعلّه المأذون يا سادة..

وخفقت القلوب جميعًا، ثمّ دخل الحجرة شيخ يتبعه الإخشيدي، وسلّم على الحاضرين، ثمّ دعا الله

أن يجعل محضره مباركًا. وجلس الشيخ إلى نضد، شمّر عن ساعديه، وأخذ في عمله البسيط الخطير. وجرت يده المغطّاة بالشعر الغزير على القرطاس، وتابعه عمّ شحاته والإخشيدي، أمّا محجوب فقطّب قليلًا وأحدّ بصره ليركّز انتباهه ويطرد أفكاره، وخفضت إحسان عينيها الساجيتين وقد امتقع لونها. وجاءت الدقيقة الفاصلة، فالتفت المأذون إلى محجوب عبد الدائم وقال له: «كرّر ما أقوله: الآن قبلت زواج الستّ إحسان كريمة السيّد شحاته تركي، البِكر البالغ الرشيد إلخ . .» وكرّر محجوب قوله بنبرات هادئة، وصوت واضح، لم يعتوره اضطراب حتّى نطقه كلمة «البكر» بيْد أنّها وقعت من مسمعه موقعًا غريبًا أثار سخريته الكامنة، وحقده الراسخ. وذكر إجابة الإخشيدي حين سأله عن العروس: عذراء؟! فأجاب الفاجر باستهانة: كانت؟! . . أجل كانت، فلماذا لا يكتب المأذون: التي كانت البكر؟!. تزوير في أوراق رسميّة! . . زواجه تزوير، حياته تزوير، الدنيا كلّها تزوير . .

ومضى المأذون يلقي الخطبة: الحمد لله الذي أحلّ النكاح وحرّم السفاح. واستمرّ في محفوظاته واستمرّ محجوب في تأمّلاته. وقال لنفسه: ولكنّ البك حرّم النكاح وأحلّ السفاح!، وجاراه هو على اعتقاده فوقّع على عقد نكاح في الواقع هو عقد سفاح! وصارا زوجين أمام الله والناس! . . واسترق الشابّ إلى عروسه نظرة فرأى عينيها محمرّتين تنذران بالدموع، فقال لنفسه ساخرًا: أوّل الغيث قطر. وتبودلت التهاني، ودارت أكواب الشربات. كان زواجًا غريبًا، شعر كلّ من شارك فيه بأنّه يؤدّي واجبًا ثقيلًا يودّ الفراغ منه في أقصر وقت: ارتاح الوالدان دون أن يستخفّهما فرح أو سرور، وغرق العروسان في وجوم وتفكّر، وغلبهما شعور بالقلق والخجل. قد عجبت إحسان في أوّل الأمر، حين علمت أنّه يراد تزويجها، وتساءلت حيرى: أين الذي يرضى بعروس مثلها؟ ثمّ ذكرت والدها المحترم فلم تستبعد شيئًا؟ والدها الذي تعامى عن سقوطها، والذي وصّاها بعشيقها ولم يوصّها بزوجها: فلماذا لا يوجد أناس على شاكلته؟ وقد وجد بالفعل واحد، وها هو يجلس إلى جانبها كزوجها، وإنّها لتذكره، وتذكر كيف صدّت هواه حين كانت تملك الصدّ عن هواه. وخالطها شعور نحوه بالاحتقار، ولكنّها لم تتمادَ فيه، وقالت لنفسها ممتعضة: ألسْتُ مثله أو أضلّ سبيلًا؟! كلانا باع نفسه للجاه والمال.

أجل، صارا زوجين . .

- ٢٧ -

وقعت التجربة إذًا وتلقّتها فلسفته بساعدين شديدتين، إلّا أنّ نفسه لم تَخْلُ من قلق. بيْد أنّ هذا القلق لم يقعده عن العمل بل على العكس جعله أشدّ رغبة فيه، فلم يَنْسَ غرضه لحظة واحدة، ولم يُضِعْ ثانية بلا نشاط، وكأنّما وجد في العمل ملهاة عن وساوسه. راح يعدّ مسوّغات تعيينه، وكانت أعجبها شأنًا بأنّه «حسن السير والسلوك»، ووقّع عليها الإخشيدي وزميل له ممّا جعل محجوب يقول ساخرًا: «من يشهد للعروس؟؟».

وتسلّم عشرين جنيهًا ليستعين بها على إصلاح شأنه فأخذ الأوراق ذاهلًا لأنّه لم يكن رأى شيئًا كهذا من قبل. وجعل يعبث بها باهتمام، ويتفرّس فيها بغرابة وإنكار. هٰذا ثمن القرنين اللذين يحلّي بهما رأسه، كلّ قرن بعشرة جنيهات! ورأى على إحدى الورقات صورة الفلّاح، فجرت على فمه ابتسامة خفيفة، وذكر أباه طريح الفراش، المهدّد بالجوع، وتساءل لماذا لم يصوّروا أحد الباشوات؟ . . أو العلم التركيّ؟!. وقال لنفسه ساخرًا: إنّ هٰذه الصورة شبيهة بإمضائه على عقد الزواج. ومضى بجيبه المنتفخ إلى الخيّاط وابتاع قماشًا لبدلتين، فأدرك الرجل أنّ الطالب صار موظّفًا، ولم يكن فصّل له سوى بدلة واحدة في مدى أربع سنوات الدراسة. ثمّ ذهب إلى الموسكي، واشترى بيجامتين، وقمصانًا، وفانلّات وجوارب، وحذاء وطربوشًا، كما ينبغي لعروس! وحزم ثيابه الجديدة في

حقيبة كبيرة وقد تورّد وجهه سرورًا وحياة. وألقى على حجرته الصغيرة نظرة شامتة، وذكر ليالي فبراير البشعة، ودكّان الفول بميدان الجيزة، تبًّا لهاتيك الأيّام السود؟. لن تعود أبدًا مهما كان الثمن!.. ينبغي أن يتورّد هذا الإهاب الشاحب، وأن يمتلئ ما بين هٰذا الجلد وهذا العظم، وأن يصفو هٰذا الذكاء الجبّار، وأن يهلك شبح الجوع المقيت. إنّ النعامة لكي تعيش جعلت رقبتها كالثعبان طولًا، والأسد لكي يعيش جعل قبضته كالقنبلة فتكًا، والحرباء لكي تعيش اصطنعت كلّ لون. وهذا ما فعله هو على اختلاف الوسائل! أجل، وليكن طموحه لا نهائيًّا، وطمعه لا حدّ له، فقد غُرّم ثمنًا باهظًا ويجب أن يكون الجزاء كالعمل. وتفكّر مليًّا، ثمّ وصّى نفسه قائلًا: الحذر؟ ليفعل ما يشاء، ولٰكن لا يجوز أن يقول إلّا ما يشاء الناس. وقد فطن إلى هٰذه الحقيقة منذ البدء، فإذا امتدح الفضيلة بكلمة أو كلمتين لم يُعدَم من يسبغ عليه لقب الفاضل، أمّا إذا صارحها العداء فسينقلب عليه الناس جميعًا وعلى رأسهم الملوّثون. وليكن له أسوة في الإخشيدي الذي يُرى في كلّ حفلة خيريّة!.. بل لماذا لا يفكّر جدّيًّا في الاشتراك في بعض الجمعيّات الخيريّة؟!. ثمّ ذكر زواجه! وعاد يتساءل كيف هان عليّ طٰه على إحسان؟ كيف زلّت قدمها؟! وما عسى أن يفعل عليّ إذا علم غدًا أنّ إحسان صارت زوجه؟ سيسقط في يده، ويتشتّت ذهنه حيرة، ولا يصدّق أنّه ـ محجوب ـ كان سبب شقائه، فإذا لم يجد بدًّا من التسليم بهٰذه الحقيقة الغريبة اتّهمه حاقدًا ثائرًا بكلّ خسّة ودناءة وغدر ذميم. ليكن. فليتّهمه كيف شاء، وليحقد عليه ما وسعه الحقد. بيْد أنّه ذكر دينه الذي لم يقضه، الخمسين قرشًا، فصدق عزمه على ردّها إليه في يومه، وكره أن يواجهه بنفسه لشعوره بذنبه، فأرسلها بالبريد. وارتاح لذٰلك أيّما ارتياح، وشعر بأنّه قطع آخر خيط يربطه بعليّ طه، وأنّه لا يجوز له بعد الآن أن يعبأ بما يتوهّمه الآخر أو بما يحسّه أو بما قد يفعله. ودعا البوّاب وكلّفه ببيع أثاث حجرته، ووعده بالتنازل عن ثلث ثمنه نظير أن يحتفظ له بما قد يصله من خطابات باسمه، وكان يفكّر وقت ذاك في والديه. ولعلّها كانت أوّل مرّة يذكرهما بلا سخط أو تذمّر أو غضب، وقد بات في نيّته أن يرسل لوالده جنيهين كلّ شهر، بل يزيدهما إلى ثلاثة إن أمكن.

أمّا غدًا، فصباحًا يذهب إلى الوزارة، ومساء يأخذ عروسه إلى عشّها الجديد.

ـ ٢٨ ـ

واستيقظ مبكّرًا، ومضى إلى الوزارة، وانتظر الإخشيدي في حجرته، وجاء المدير عند تمام التاسعة، فتصافحا بمودّة ظاهرة، وشربا القهوة معًا، وقال له الإخشيدي وهو يهيّئ مكتبه:

ـ لا شيء يصدق! أتعلم أنّ أكثريّة طلبات الإعفاء من المصروفات مقدّمة من ذوي اليسار؟

ولم يكن محجوب ـ في ذٰلك الوقت على الأقلّ ـ ليهتمّ بأمثال هذه الأمور، ولكنّه لم يَرَ بدًّا من التظاهر بالدهشة، وقال:

ـ شيء لا يصدّق حقًّا!.. وكيف يسوّغون التماساتهم؟

وقال الإخشيدي:

ـ لا حاجة ماسّة إلى التسويغ، حسْب أحدهم أن يقهقه ضاحكًا، وأن يقول لقاسم بك: «ألا يكفينا هبوط أسعار القطن؟» ثمّ مزاح فمداعبة فموافقة!

ثمّ جعل كعادته يتهكّم من أحوال البلد وتصرّفات كبار الموظّفين وصغارهم، فلم يسلم من لسانه سوى قاسم بك، ولعلّ ذٰلك إلى حين.. والتفت إلى محجوب قائلًا:

ـ لا تنْسَ أنّ عملك يحتاج إلى لباقة وحسن تصريف للأمور. (ثمّ غلبه طبعه في التهوين من شأن الغير وأعمالهم) فقال: هو سهل في ذاته، بل هو لعب. لا يحتاج بطبيعة الحال إلى فلسفة أو علم، ولٰكن إلى لباقة..

فقال محجوب باهتمام:

- أرجو أن أنتفع بإرشادك. .

- يسرّني أن أجد مساعدًا مخلصًا لي، ولذلك احتفظت لك بهٰذه الوظيفة على كثرة المتقاتلين عليها، ولذلك أيضًا ينبغي أن نكون يدًا واحدة لأنّ أعداءنا كثيرون. لا يغرّنّك ما تلقى من بشاشة. فالعادة أنّ الموظّفين يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه، فإذا أفَلَ نجمه فأكْرَمَهُم من يُدبِر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره: فلنكن يدًا واحدة.

وتحدّث الإخشيدي طويلًا على غير عادته. وفكّر محجوب طويلًا فيما يدعو إليه الآخر من أن يكونا يدًا واحدة، فقال مخاطبًا صاحبه في سرّه: وقعت في شرّ منك، وساقك الحظّ إلى مساعد من طينتك، يفهم الإخلاص كما تفهمه، ولكلّ شيء آفة من جنسه، وليست منزلتي عند البك دون منزلتك، فإذا كنت مهرّجه أو قوّاده فأنا زوج عشيقته.

وجاء الساعي الضخم وأعلن حضور قاسم بك، فنهض الإخشيدي واصطحب محجوب إلى حجرته، وصافحهما البك بسرور، وهنّأ الشابّ على تسلّمه العمل، وقال له برقّة:

- أرجو لك التوفيق، والمستقبل الباهر. .

ومضى الإخشيدي يعرض عليه بعض الأوراق، أمّا محجوب فوقف انتباهه عند «المستقبل الباهر». يقولون: «يا بَخْت مَن كان النقيب خاله» والنقيب أقرب إليه من خاله! واختلس من البك نظرات، ليملأ عينيه من الرجل الذي صاد إحسان، وأفقدها رشدها. نظر إليه بغرابة كأنّما ينقّب عن سرّه السحريّ، أيوجد في محاسنه؟ أم جاهه؟ أم في مكان اكتشفته إحسان لحسن حظّها أم لسوء حظّها! أعجب بهؤلاء الرجال ذوي السلطان إنّهم يأتون الكبائر باستهانة، ويتجاهلون ما يسمّيه السذّج ورطة أو مشكلة، ويخلقون الحلّ اليسير للأمر في غمضة عين، وكان هو الحلّ اليسير!. . كيف غوت إحسان؟ سيظلّ متحيّرًا حتّى يعرف الحقيقة. ليس عليّ طه دون البك جمالًا، وهو يفوقه بشبابه. فكيف غوت؟. . ولو كانت تزوّجته لقال آثرته لماله، ولكنّها. . ربّاه. . تبًّا لهؤلاء الرجال الأقوياء، إنّهم لا يعرفون المستحيل. أم تكون إحسان خدعة كبرى جازت على المصلح الاجتماعيّ الأحمق، وما هي إلّا. . لا بدّ أن يعرف الحقيقة.

وغادرا حجرة البك، وسار به الإخشيدي إلى حجرة «السكرتير الخاصّ» وقد قام ببابها ساع طاعن في السنّ، وكانت حجرة مستطيلة اصطفّت على جانبيها المقاعد الجلديّة وتصدّرها مكتب كبير. قال الإخشيدي:

- أستودعك الله، سأبلّغ المستخدمين أنّك تسلّمت عملك اليوم.

وكان الإخشيدي يقول لنفسه: أما كان الأحكم أن يلحق الشابّ بوظيفة بعيدة عن المكتب؟ فليس ممّا يرتاح إليه أن يوجد في نفس المكتب شخص له هذه العلاقة الوثيقة بالبك! ولٰكن ماذا كان بيده أن يفعل؟ كانت الحالة حرجة، والبك مضطربًا خائفًا، والوظيفة خالية، ولو لم يعثر على محجوب لربّما كان هو الزوج! ولعلّ الأيّام تثبت أنّ الشابّ أهل لصنيعه!

وترك محجوب وحده في الحجرة، استخفّه سرور عجيب كاد يرقص له. وجلس على الكرسيّ المتحرّك ضاحك الثغر، ووضع يده على سمّاعة التليفون، ولم يكن استعمل التليفون قطّ! وجعل يحرّك الكرسيّ ذات اليمين وذات الشمال. موظّف خطير بغير شكّ. وغدًا يمتلئ بطنه باللحوم والفواكه. تبًّا للفلاسفة الذين يقولون: إنّ السعادة في البساطة، أليست أمراض البطنة بخير من عذاب الجوع؟

واليوم والغد، أمّا الماضي فسحقًا له. .

* * *

ولبث ساعة وحيدًا حتّى ضاق بوحدته، ورغب أن يفعل شيئًا أيًّا كان. فضغط على زرّ الجرس، وفتح الباب وجاء الساعي العجوز وقال بأدب: «أفندم يا سعادة البك». وتورّد وجهه! ووقعت الرتبة الجديدة من أذنيه موقعًا موسيقيًّا مطربًا، وإن تظاهر بعدم المبالاة، ثمّ قال باقتضاب: «قهوة» وما كاد الباب يغلق مرّة أخرى حتّى رنّ جرس التليفون، فرنّت أوتار قلبه،

ورفع السمّاعة بقلق ووضعها على أذنه، ثمّ قال بصوت هيّاب:

ـ أفندم.

ـ سكرتير قاسم بك فهمي؟

ـ نعم يا فندم.

ـ البك موجود؟

ـ نعم يا فندم.

ـ دعني أكلّمه... قل له محمّد رشاد.

وظنّ أنّه ينبغي أن يذهب إلى حجرة البك ليخبره، فأعاد السمّاعة إلى موضعها الأوّل ـ فأقفل السكّة وهو لا يدري ـ ومضى إلى حجرة البك وقال باحترام:

ـ محمّد رشاد.. بك، يريد أن يكلّم سعادتك.

ـ خلّه يدخل..

ـ إنّه يتكلّم في التليفون.

فسأله البك بدهشة:

ـ ولماذا لم تحوّل السكّة إليّ..؟

فلم يحر جوابًا ولاح في وجهه الارتباك على غير عادته، فضحك البك وقال:

ـ حوّل السكّة عليّ، استعمل الموصل في مثل هذه الأحوال.

وغادر الحجرة مرتبكًا، وقد أدرك أنّه أخطأ. كيف تحوّل السكّة؟ وأيّ شيء هذا الموصل؟ وعاد إلى مكتبه ورفع السمّاعة إلى أذنه فسمع نقيقًا متّصلاً فقال:

ـ يا سعادة البك...

فلم يجبه أحد مع معاودة الدعاء، ولم يسمع إلاّ النقيق المستمرّ، فاشتدّ ارتباكه، وخاف أن يكون قد ارتكب خطأ جديدًا، ولبث ممتعضًا. ما كان يعلم أنّ للتليفون ثقافة خاصّة ينبغي أن يعلمها، ودعا الساعي على مضض ليلقّنه سرّ التليفون. ودوّن بعض الملاحظات على ورقة كي لا ينسى ما يجب ذكره في المستقبل. ثمّ دبّت الحياة في الحجرة فتوارد عليها أناس مختلفون من طبقات متباينة يستأذنون في مقابلة قاسم بك فهمي، فاستقبلهم دون ارتباك، وعاونته جسارته الطبيعيّة على تمالك أعصابه، والظهور بمظهر الرزانة والثبات. واستقبل أحد الباشوات المعروفين، الذين لم يكن يراهم إلاّ من بعيد، فسلّم عليه، واستأذن له، ودعاه إلى مقابلة البك. وعلى رغم تظاهره بالهدوء كان يكتم بعنف انفعال السرور والفرح. ومضى نهار العمل في حركة دائبة ونشاط متّصل وسرور لا مزيد عليه. وبهذا النشاط غير المنقطع نسي أفكاره ووساوسه، فارتاح باطنه وهو لا يدري، وغادر الوزارة معافًى كأنّما ينهض من نوم عميق.

وكان غير الفتى الذي جاء الصبح ساعيًا، فقد عرف بكوات وباشوات، وثقف فنّ التليفون. ودعي «محجوب بك» عشرات المرّات، فكان أعظم ثقة وخيلاء، بل أوشكت أن تتغيّر مشيته ونظرة عينيه. وذكر ـ في نشوة المجد المباغت ـ قريبه أحمد بك حمديس، فودّ لو يأتي يومًا لمقابلة قاسم بك ليجيء حجرته مستأذنًا، فأيّ دهشة تتولاّه! وكيف يتصافحان تصافح الأنداد ثمّ يقصّ ما رأى على أسرته فتسمع تحيّة، وتعلم أنّها أغلقت باب سيّارتها دون فتًى ذي نباهة ومجد!.. ولكم يودّ أن تراه تحيّة مع زوجه الحسناء! فزوجه تفوقها حسنًا وفتنة، وإنّه ليودّ أن يتفرّس في وجهها وهي تنظر شزرًا إلى زوجته وقد أدركت مدى حسنها الفتّان!

صبرًا صبرًا، إنّ الحياة بدأت تبتسم...

ـ ٢٩ ـ

وفي ذلك اليوم نفسه ذهب محجوب عبد الدائم إلى الإخشيدي ـ كوعد سابق ـ ومضى به الرجل إلى الشقّة ليسلّمها له، وحمل محجوب معه حقيبة ثيابه وكتبه القلائل وأعطاه الإخشيدي مفتاح الشقّة وهو يقول:

ـ الشقّة ـ وما تحتوي ـ لكما إلاّ صوانًا صغيرًا في حجرة النوم.

أدرك محجوب أنّ الصوان خاصّ بقاسم بك فهمي، وتورّد وجهه، وشعر محجوب برغبة قويّة في أن يركله بما أوتي من قوّة!. وقال الإخشيدي:

ـ يحسن أن يجدّد العقد باسمك.

ـ أهو الآن باسم قاسم بك؟

فقال الإخشيدي ببرود:

- باسمي أنا...

فأحسّ محجوب ارتياحًا وسأله:

- وكم إيجار الشقّة؟

- عشرة جنيهات!

فابتسم محجوب قائلاً:

- ما يعادل ماهيّتي تقريبًا...

- سيؤدّيها البك، كما سيؤدّي عنك أجر الطاهية... وغير ذلك...

ودارا معًا في الشقّة دورة استكشافيّة، وكانت على صغرها آية في جمال البناء ونفاسة الأثاث. فتولّته الدهشة، وأدرك أنّه يرى كثيرًا من قطع الأثاث لأوّل مرّة، ولم يَدْرِ لها أسماء. كانت الشقّة مكوّنة من ثلاث حجرات وصالة، فعلى يمين الداخل تقع حجرة الاستقبال، وهي تفتح على دهليز يؤدّي إلى صالة معدّة للجلوس وبها جهاز الراديو، وعلى جانبها الأيمن بابان، أحدهما لحجرة النوم، والآخر لحجرة السفرة، ولحجرتي النوم والسفرة شرفة طويلة واحدة تطلّ على شارع ناجي. وذكر في موقفه بسرعة بيت القناطر، ودار الطلبة، وحجرة السطح بعمارة شارع جركس. أدرك في موقفه ذاك أنّ الحقائق قد تفوق الأحلام سحرًا وجمالاً. والواقع أنّ مادّة الأحلام مستمدّة في العادة من محسوسات الحالم ومدركاته، وها هو ذا يرى أدوات ترف لأوّل مرّة في حياته، لم تكن من محسوساته ولا من مدركاته! الفرق بين هٰذا البيت وبيت القناطر هو الفرق بين إحسان وجامعة الأعقاب، كلتاهما امرأة، أجل، ولٰكن شتّان بين هٰذه وتلك. ونسي في تلك اللحظة ما كان يقوله لنفسه دائمًا من أنّه لا يوجد ثَمّة فرق بين امرأة وامرأة، وأنّ إحسان وتحيّة وجامعة الأعقاب كلّهنّ سواء!..

وقال له الإخشيدي وهو يودّعه:

- غدًا مساء تجد عروسك في انتظارك!

وذهب الرجل والشابّ يرمقه شزرًا.

وعند أصيل اليوم الثاني انطلق إلى الجيزة، وذكر في الحال عليّ طه. تُرى في أيّ موقع يقيم؟ كان يعلم أنّه في الجيزة ولٰكنّه جهل عنوانه. فهل ما يزال الشابّ مقيمًا على عهده واهتماماته بالفتاة؟ أيدعوه هواه إلى ربوعها وهل نما إليه خبر زواجها؟ أيمكن أن يلتقي به وهي متأبّطة ذراعه؟. ساوره قلق، وإن كان لا يبالي شيئًا، بل ودّ في تلك اللحظة لو يلقاه عليّ ويعلم كلّ شيء. ومضى إلى بيت عمّ شحاته تركي، فوجد الأسرة في انتظاره - ما عدا إحسان - فأيقن أنّ تعليمات الإخشيدي سبقته إلى آله الكرام. وكان الجميع - عمّ شحاته وزوجه والأبناء الستّة الصغار - يرفلون في الثياب الجديدة الناطقة بكرم قاسم بك وحدبه!. وسلّم وسلّموا بحرارة، فقبّله عم شحاته في جبينه، وقبّل يد حماته، وداعب الصغار وقبّل أصغرهم في خدّيه. وفي جلسته أنعم نظره في الوجوه تتطلّع إليه، فأقرّ لتوّه بأنّ بيت عروسه حافل بالحسن. أبوها حسن القسمات، وأمّها حسناء، وإخوتها لآلئ منثورة. وقال لنفسه إنّ الجمال سلاح نافع حقًّا في يد الفقير. واستفاض الحديث، وساهم فيه الشابّ كما ينبغي وإن ودّ لو يغادر البيت في أقرب وقت، وتكلّم عمّ شحاته عن دار الطلبة، وعن الطالب محجوب عبد الدائم المهذّب المجتهد، وكيف أنّه لم يكن من عملائه لأنّه لا يدخّن، وكيف أنّه - عمّ شحاته - يحترم الطلبة الذين لا يدخّنون وإن (وقد ضحك عند ذاك) لم ينتفع باستقامتهم، وقال إنّه لم يحيي حفلاً لعرس ابنته لأنّ الزوج الطيّب هو الفرح الحقيقيّ، وإنّه لم يَدْعُ أحدًا من أقربائه وآله - وهم ريفيّون - حتّى لا يجشّمهم مشقّة السفر. وغلب على ظنّ محجوب أنّ الرجل يكذب كما يكذب المولعون بالفخر الزائف، ولٰكنّه ذكر والديه بامتعاض، وقال إنّه طيّر نبأ زواجه إلى والديه، ولولا أنّ أباه - وهو مزارع ذو شأن - بالقناطر وهو مريض، لشهد يومه وباركه بنفسه. وتحدّثت أمّ إحسان عن أبنائها، وعن إحسان خاصّة، وأدرك محجوب من حديث حماته، من لهجتها، وحركات رقبتها وحاجبيها وعينيها أنّها امرأة ذات دلال وأنوثة ودعابة ومكر - وكان يجهل تاريخها بشارع محمّد عليّ - وقد سألته عن وظيفته، واقترحت عليه أن تقرأ كفّه، وتنبّأت له بذرّيّة

صالحة ومركز حكوميّ ممتاز، وكان محجوب يتكلّم ويستمع، ويسترق النظر إلى باب الحجرة الموارب، وعيناه تتساءلان «حَتّامَ الانتظار؟». وأخيرًا جاءت إحسان. جاءت في ثوب العرس الأبيض الشفّاف، وقد عقصت شعرها وجعلته على هيئة عمامة، فتجلّى سواده اللّامع وأكسب بشرتها صفاء، وجاء في صحبتها نسوة أربع، ـ قيل إنهنّ قريبات أمّها ـ ولٰكنّه لم يُلْقِ بالاً إلى أحد، جذب حسنها عينيه فأطاح باستهتاره المعهود، حتّى تمشّت شرارة الكهرباء في صدره، وقرض على أسنانه، والتقت عيناهما وهما يسلّمان، فامتلأ بالسحر الجاري في لحظيها، وشعر بأنّه ثمل يترنّح، وعاودته ذكريات عذابه القديم، ومآسي شهوته المضطرمة، فلم يصدّق ـ على استهانته وجسارته ـ أنّها صارت ملكًا له، أو حتّى ملكًا له على المشاع كما يقولون. وذكر الشريك، وكيف سبقه، فتألّم، وعاود النظر إلى الجسد البضّ الذي يشفّ عنه فستان العرس الأبيض وما يزداد إلّا تألّمًا. وكان عمّ شحاته قد هيّأ للحاضرين عشاء فاخرًا كلّفه ثمنًا غاليًا، فدعاهم إلى المائدة، ونهضوا تسبقهم ضجّة الصبيان. وكانت أمّ إحسان على مرحها مستاءة في أعماقها، وكانت تودّ من كلّ قلبها أن تحتفل بيوم إحسان السعيد، وأن تجعل منه يوم سرور للحيّ جميعًا، ولكنّ الإخشيدي صارحها بأنّ محجوب أعجز من أن يحقّق لها رغبتها، وكانت تعلم أنّ زوجها أعجز من زوج كريمتها، فطوت نفسها على رغبتها الحانقة: وقد أكلوا مريئًا وعادوا إلى جلستهم هانئين، ولم يكن يوجد ثمّة داعٍ إلى بقاء العروسين، فنهضا يودّعان الحاضرين. وجيء بتاكسي حملت إليه ثياب العروس في حقيبة كبيرة، وأخذ محجوب إحسان من يدها وسار بها وسط نصف دائرة من المودّعين، وهبط السلّم على مهل، وكأنّ أمّ إحسان قد نفد صبرها فأطلقت زغرودة رنّت بين الحيطان رنينًا نفّاذًا، خفق له فؤاد الفتى، وارتجّ جفناه. وتلقّت النسوة تلك الزغرودة كما يتلقّى الجنود علامة الهجوم، فأطلقن الزغاريد، تتجاوب أصداؤها، ويشتدّ صفيرها المتقطّع يهتزّ له صدور الحسان. واحتوى التاكسي العروسين، وقد نسيا في شدو الزغاريد نفسيهما فابتسما في بشاشة وحياء، وظلّا ينظران إلى الواقفات بالباب حتّى جاوزت السيّارة دار الطلبة إلى شارع رشاد باشا.

ـ ٣٠ ـ

وأراد أن يتكلّم، ولكنّه لم يَدْرِ ماذا يقول، وكان كلّما طال صمته طال حصره، فعدل عن رغبته وهو كظيم. وتفحّصها بعناية. رآها تنظر إلى الطريق من النافذة، مولية إيّاه مؤخّر رأسها. ولم يشكّ في أنّ أعينًا كثيرة في الطريق ستنفس عليه هذا الحسن البديع الذي يستأثر به. وسرّ لذٰلك أيّما سرور. ليت آل حمديس يرونه في جلسته هٰذه، وخصوصًا تحيّة حمديس!.. وخطر له في تلك اللحظة ـ وقد اطمأنّ إلى أنّ تحيّة تكتّمت فضيحته ـ أن يمضي يومًا إلى زيارة قريبه العظيم ليقدّم له عروسه كما جرت العادة. وداعب هٰذا الخاطر فؤاده حتّى أسكره. وكانت لا تزال عاطفة رأسها إلى الخارج، فألقى بنظره الجائع إلى جسمها اللدن، فجرى على الجيد فالمنكب فالثدي الناهد ثمّ الخاصرة الخميصة وأخيرًا الفخذ اللفّاء. وتنهّد من أعماق صدره، وقال لنفسه: ما أشدّ جوعه، واضطرام دمه. ووقف التاكسي أمام عمارة شليخر، ونزل ونزلت مستندة إلى يده، وسارا إلى المصعد، ودخلا الشقّة يتبعهما البوّاب بالحقيبة. ودلّها على حجرة النوم فتقدّمت إليها وردّت الباب! ووقف متردّدًا: ثمّ تراجع إلى مقعد في الصالة وارتمى عليه. لم يَرْتَحْ أوّل وهلة لإغلاق الباب، وذكر باب السيّارة في الهرم! ولٰكنّه سرعان ما أقام العذر بالارتباك الذي يحدثه الموقف بَيْد أنّه لم يَنْجُ من مرارة طبعه الساخر فقال لنفسه: يا له من حياء هو بالأبكار الساذَجات أولى! ثمّ قطّب وتساءل: تُرى ماذا تخبّئ له حياته الجديدة؟ أسعادة أم شقاء؟! إنّه لا يطمع أن تنظر إليه كزوج بالمعنى المفهوم لأنّه هو نفسه لا يستطيع أن ينظر إليها هذه النظرة وحتّم أن تراه في قرارة نفسها قوّادًا، كما يراها في قرارة نفسه عاهرة. فهل يمكن أن يسعد قوّاد وعاهرة معًا؟؟ هذه هي مسألته دون زيادة ولا نقصان. إنّه لا

يروم من حياته الزوجيّة معنًى اجتماعيًّا، ولا ذرّيّة صالحة، ولا احترامًا متبادلاً، كلّ ما يريده رغبة متبادلة، ميل يعادل ميله، شهوة بشهوة، وحسْبه هذا من زواج هو وسيلة لا غاية، إنّه يروم حبًّا بلا غيرة، يرد ماءها الحين بعد الحين، دون قلق أو فكر أو همّ. وتوكّله أوّلاً وأخيرًا على نفسه الجسور التي حطّمت القيود ومزّقت الأغلال. كان يفكّر ونظره عالق بالباب المغلق. أينتظر حتّى يفتح؟ وإذا ظلّ مغلقًا، فهل يلبث مكانه حتّى الصباح؟ ونهض قائمًا، ودنا من الباب ونقره بخفّة، فلم يجبه صوت ولا حركة، فأدار الأكرة ودفعه. وجد الظلام يوشك أن يبتلع الحجرة إلّا نورًا خافتًا من ناحية الشرفة، فأدرك أنّها في الشرفة، تستجمّ، فمضى إليها في خطًى رقيقة، ورآها جالسة في ناحية مسندة ذراعها إلى حافّتها ملقية بنظرها إلى الطريق. ولم تُبْدِ حركة لدخوله، فوقف ينعم فيها النظر على ضوء مصباح الشرفة، ثمّ قال:

ـ فعلت خيرًا بدخولك الشرفة، فهٰذه الليلة من ليالي يوليه الحارّة؟

فحوّلت رأسها إليه، وقالت بعد تردّد:

ـ أجل هٰذه ليلة حارّة..

سرّ لمبادلتها إيّاه الحديث، فأتى بمقعد، وجلس عليه على كثب منها، وألقى عليها نظرة، فراعته صورتها، وحرقه تكوين جسمها البديع المشتهى، وذكر أنّه سيتمتّع بهٰذا الجسد الفاتن هذه الليلة، بل هذه الساعة، فجنّ جنونه، وأسكرته هٰذه الحقيقة الماثلة بين يديه، كأنّه يكتشفها لأوّل مرّة. ولم تعد تحتمل عرامة نظرته فأطرقت، فمدّ يده إلى ذقنها، ورفع رأسها إليه، وهو يقول بصوت متهدّج:

ـ دعيني أطالع وجهك الجميل...

والتقت عيناهما لحظة، فامتلأ حماسًا وقال بحرارة:

ـ تآلفت حياتنا بمعجزة. وما كنت أحسب قبل اليوم أنّ المصادفة تلعب هٰذا الدور الخطير في حياة الإنسان، فما أحقّها أن تسخر من منطقنا ومن سنن الوجود جميعًا، ولعلّك تجدين وحشة، ولكنّك ستتغلّبين بذكائك وثقافتك. وكما أنّ الحبّ يكون مقدّمة للزواج، فالزواج يكون مقدّمة للحبّ، والمعاشرة كفيلة بمزج النفوس وتوحيد الآمال... أليس كذٰلك؟؟

فتحرّكت شفتاها كأنّما لتتكلّم، ثمّ جمدتا ارتباكًا، وارتسمت عليهما شبه ابتسامة. وازداد حماسًا فقال:

ـ ستدركين معنى قولي هٰذا، وستعملين على تحقيقه، لنَعْمَلَنْ معًا على تحقيقه، وسنرى..

وقال لنفسه: إنّ النساء لا يعشن بلا حبّ ـ حقيقة تعلّمها من القراءة ـ فهي لا شكّ تحبّ، ولكن من المحبوب المجدود؟!.. حسِبَه يومًا عليّ طه، ثمّ ظنّه قاسم بك فهمي، وقد يكون المال دون غيره، فعلى هٰذه الحقيقة تتوقّف سعادته. وقد يكون صادقًا في قوله لها «ولعلّك تجدين وحشة؟» فالحقيقة أنّها كانت تجد هذه الوحشة، وقد أدرك ذلك من أوّل نظرة، بل أدرك أنّه لو أعتقها هٰذه الليلة لكان ذلك أدنى إلى التهذيب والرقّة، ولٰكنّه نبذ هٰذا الخاطر، موقنًا أنّ الحيوان الهائج في باطنه لا يعرف التسويف ولا التأجيل؛ ولا يقدر على انتظار مهما كان الثمن. ثمّ كفّ عن التفكير وقد عاودته جسارته الطبيعيّة:

ـ هلمّي ندخل...

وأمسك بمعصمها برفق ونهض، فنهضت طائعة، ثمّ أحاط خصرها بذراعه، ودخلا معًا..

ـ ٣١ ـ

وفتح عينيه في الصباح الباكر فوقعتا على مرآة الصوان الفاخر، فرأى صورته وإلى جانبه يرقد الكنز النفيس. وارتفق ساعديه، ثمّ ثبّت عينيه وقد غمرته ذكريات الليل التي لم تمْحُ آثارها من نفسه وجسده وكانت لا تزال مستغرقة في النوم مبعثرة الخصلات على الوسادة الحريريّة، ما أجمل صفاء هذه البشرة، ما أعمق سواد هٰذا الشعر، واهتزّ صدره طربًا فهوى بشفتيه الممتلئتين على خدّها الأسيل..

ومضى الأسبوع الأوّل من هذه الحياة الجديدة، وقد أقبل ينهل من الشراب العذب المبذول بشراهة

جنونيّة، وسرعان ما أدرك منذ اللحظة الأولى أنّ لذّته ـ لذّتها ـ لن تتمّ إلّا بشيء جديد ضروريّ جدًّا كي ينسى هو ما ينبغي أن ينساه، وكي تنسى هي ما يحسن أن تنساه، فيصفو الجوّ، ويستمتعا بحياتهما أجمل استمتاع. وجرّب بالفعل ذلك الشيء الضروريّ الذي سمع عنه كثيرًا: الشراب! وقليل منه كفاهما، ولكنّه نفعهما نفعًا سحريًّا، بفضله وجدها تذوب رقّة، وتنفث سحرًا، وسكن بين ذراعيها يرشف من طيّبات رزقه. كانت الحياة في ظاهرها ثملة باللذّة مخمورة بالشهوة أمّا في الأعماق فاضطربت تيّارات خفيّة. فلم يفتأ محجوب يتساءل عن عليّ طٰه وقاسم فهمي وقلب إحسان. وربّما ثار شكّه، وراح يؤنّب نفسه ويعنّفها، ويقول إنّه الحمق ولا شيء غيره، الذي يوسوس له فيوقظه من لذّته ليصلي نار الفكر. وحاول مرّات أن يعوذ بسخريته، وجعل يوصي نفسه قائلًا: «اقتل الشكّ، امحُ الكرامة من قاموسك، احذر الغيرة، أفرغ شهوتك، توثّب للطموح، واذكر أنّ ما أنت فيه هو الامتحان الأوّل والأخير لفلسفتك، فقل الآن طظ، قلها بلسانك وبقلبك وبإرادتك..».

ولم تخلُ إحسان كذلك من خواطر تضطرب في أعماقها. عرفت أخيرًا المصير واستقرّ بها المُستقرّ. أسدل الستار على أحلام الحياة الأولى، وخاب الرجاء فيما طمعت فيه من أن تصير زوجًا للبك العظيم. ووجدت نفسها ربّة هٰذا البيت العجيب الذي يتنازعه صاحبان. لم تعد تقول لا. فما خوف الغريق من البلل؟؟ ورأت من الحكمة أن تنظر فيما بين يديها. إنّ القلب الذي أيقظه عليّ طٰه اندثر وذهب. والأمن الذي لوّح لها به قاسم فهمي خاب وانطفأ. فلم يبْقَ لها إلّا تلك الغريزة الحيوانيّة التي أطلقها والدها من عقالها منذ البدء. ربّما حنّت إلى عليّ طٰه أو حقدت على قاسم بك أو عافت نفسها محجوب عبد الدائم، ولكنّها لم تسمح لإحدى هٰذه المشاعر بالتمادي والتضخّم، ومالت بمزاجها وبالدوافع التي تحيط بها إلى الاستسلام التامّ. ما من فائدة ترجى من التحسّر على ماضٍ لن يعود، وأولى بها أن تولي الحاضر والمستقبل عنايتها، فلتستمتع باللذّة، ولتستأثر بالقوّة، ولتنفق عن سَعة، ولتغمر أسرتها بكلّ خير عميم، وبذلك وحده لا تذهب التضحية عبثًا، وزوجها أولى الجميع بتفكيرها، لقد همّت بأن تحتقره أكثر من مرّة، ولكن لماذا؟؟ لأنّه..؟ ولكنّها هي أيضًا..؟؟ فلا تعيّره ولا يعيّرها؟. بل هنالك وجه آخر يقرّب بينهما، فهو فيما يبدو ضحيّة مثلها للعوز والطمع. وكلاهما ضحيّة لشرّ واحد فما أجدرهما بالتصافي والتعاون. كان كلاهما يعالج همومه بالحكمة، ويحاول ما استطاع أن ينفي عن نفسه نوازع الشقاء. واطّردت الحياة في لذّة يهيّئها الشراب والرغبة في السعادة. وكان محجوب أقدر منها على التغلّب على أمثال هٰذه الهموم لاستهانته المعروفة، أمّا هي فكانت حديثة عهد بالشذوذ، فربّما تولّتها الكآبة إذا خلت إلى نفسها، وربّما وجدت حنينًا إلى الآمال المشرقة الأولى في الحبّ والحياة الشريفة، مثلها مثل النازح إلى بلد غريب إذا احتواه بيته الجديد في أوّل لياليه، ولكنّها كانت تتغلّب على مرضها ـ والحنين مرض ـ بتلك الواقعيّة التي اشتهرت بها النساء، وبتلك الرغبة الصادقة في طيب الحياة. ولهٰذا السبب سألها محجوب يومًا ـ من أيّام الأسبوع الأوّل ـ وهو يقرصها في خدّها:

ـ أنت سعيدة؟

أجابته من فورها:

ـ نعم، والحمد لله..

فقال لها الشابّ بسرور:

ـ الحياة أمامنا منبسطة، والفرص دانية، فلنَثِبْ بين الأزهار، ولنَجْنِ الثمار..

فقالت مبتسمة عن درّها النضيد:

ـ نثب.. ونجني.

ـ لا تصدّقي الحكم الجامدة التي يعرّفون بها السعادة. السعادة ليست في الحياة، وجميع ظروف الحياة لديها سواء، هي حقًّا في الإرادة فمن يُرِدْها إرادة تأته طوعًا أو كرهًا..

فحدجته بنظرة متفكّرة بعينيها السوداوين البديعتين، فقال بحذر وتواضع:

- إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.. !

فقالت بهدوء:

- لا داعي لهذا.. (وهنا ذكرت شطر بيت للمتنبّي) فقالت. كلّ مكان ينبت العزّ طيّب..

فأخذ يدها في يده كأنّه يعاهدها، تريّث قليلًا، ثمّ قال وقد غيّر لهجته:

- وثمّة شيء آخر، لا ينبغي أن نعيش في عزلة. لنقتحم الحياة العريضة ولنأخذ من مظاهرها بأوفى نصيب.

كان يريد أن يتمتّع بحياته الاجتماعيّة على أكمل وجه، وأن يقدّس مظاهرها الكاذبة التي يكبرها الناس جميعًا، واشتدّت إليها حاجته ليخفي بها ما في حياته من شذوذ. ولذلك فكّر جدّيًا أن يذهب وعروسه إلى آل حمديس، ليبرئ جرحًا قديمًا، وليشبع شهوته إلى الظهور، ولكن ألا توجد ثمّة عقبة حقيقيّة؟؟

- ٣٢ -

ولم يَنْثَنِ عن رغبته الجريئة، وأراد أن يجعل منها أولى خطاه في غزو المجتمع الراقي. ورأى عن حكمة أن يمهّد للزيارة بمحادثة حمديس بك بالتليفون، وسيعلم من إجابته إن كانت حكاية الهرم قد بلغته أم أنّ الفتاة الأريبة أخفتها عنهم. وحادثه، ووجد منه خطابًا رقيقًا، فأخبره بزواجه، وكاشفه برغبته في تقديم زوجه إليه فرحّب بها البك أيّما ترحيب. وهرع محجوب إلى زوجه وقال لها بسرور وخيلاء:

- دعيني أقدّمك إلى أقربائي العظام..

وعند عصر اليوم العاشر من حياته في البيت الجديد أخذا أهبتهما للزيارة الخطيرة. فارتدت إحسان ثوبًا جميلًا من ثيابها الجديدة، وتجلّت صورتها الفاتنة، وتهيّأ سحرها باجتماع الشعر الأسود الفاحم والبشرة العاجيّة الصافية والشفتين الورديّتين وبدا الشابّ في منظر حسن قد أخذ يستعيد عافيته ورونقه. واستقلّا تاكسي إلى الزمالك. لم تكن إحسان تخلو من قلق ووحشة، أمّا محجوب فكان يبتسم ابتسامة هادئة مطمئنّة كأنّه ذاهب إلى بيته الذي شبّ وترعرع فيه. وقد عبرا الحديقة إلى سلاملك الاستقبال، وهما على تلك الحال، فما راعهما إلّا منظر الأسرة الكريمة في انتظارهما عند مدخل السلاملك. وقفوا الأربعة صفًّا: أحمد بك حمديس، حرمه، تحيّة، فاضل. وسرّ محجوب لنجاح الاستقبال، وقد اطمأنّ إلى نجاحه من قبل لما هو معهود في النساء كافّة من الميل إلى تفحّص بنات جنسهنّ ونقدهنّ، وتبادلوا التحيّة والسلام، ولم يَخْفَ عن عينيه الجاحظتين الأثر الذي أحدثته زوجه في المستقبلين، فأحسّ ارتياحًا وغبطة. وجلسوا، وما زالوا يتبادلون ألفاظ الترحيب والمجاملة، وجعلت عيناه القلقتان تدوران في جميع الأنحاء وتتفرّس في الوجوه. ووجد نفسه وهو لا يدري يقارن بين زوجه الحسناء وتحيّة حمديس. إنّ لتحيّة جمالها، ولها إلى جمالها سمْت أناقة ورفعة، ولٰكن هيهات أن تبلغ مدى هذا الحسن الرائع. إنّ زوجه أجمل من تحيّة، بل أجمل من أمّ تحيّة في صباها، وأعينهم لا تنكر هٰذا ولا تماري فيه. وطرب لذٰلك أيّما طرب وقال لنفسه بشماتة: «لقد هزمت في المقبرة يوم الرحلة وتمّ لي الانتقام اليوم». وأراد أن يعرّفهم بزوجه كما ينبغي، فقال بجسارته المعهودة وهو يشير إلى فتاته:

- إحسان كريمة شحاته بك تركي من كبار تجّار الدخّان. ألا تعرفه يا سعادة البك؟

وتورّد وجه إحسان، وأطرقت لتخفي ارتباكها. أمّا أحمد بك حمديس فزوى ما بين حاجبيه باحثًا في ذاكرته، ثمّ قال بلهجة الاعتذار:

- لا أذكر للأسف (والتفت إلى إحسان). لنا عظيم الشرف!

فقال الشابّ ضاحكًا وهو يشير إلى زوجه مرّة أخرى:

- زميلة قديمة، عرفتها في الجامعة..

فابتسم البك وابتسمت زوجه، وابتسمت إحسان أيضًا وقد هالها اندفاع محجوب، ولم تَدْرِ أين يقف. وكان فاضل ينظر إلى العروس بفتور، أمّا تحيّة فلم تحوّل عنها عينين ثاقبتين، وقد فطنت ببداهتها إلى البواعث الحقيقيّة التي أغرت الشابّ بهٰذه الزيارة،

فازدادت له احتقارًا وتجلّى في نظراتها إلى العروس الاستهانة والسخرية. وراحت حرم حمديس بك تتحدّث عن فتيات الجامعة، فقالت:

ـ إنّ الجامعة تمهيد للوظيفة، وإنّها لذلك اختارت لتحيّة سبيلاً آخر، (وسألت العروس):

ـ ألم تخامرك فكرة التوظّف وأنت تلتحقين بالجامعة؟

وكانت إحسان برمة بالحديث، مشفقة من مغبّة الكذب، ولٰكنّها لم تَرَ بدًّا من الإجابة فقالت:

ـ بلى يا هانم، ولكن كلّ شيء قسمة ونصيب كما يقولون.

فسألتها تحيّة بمكر:

ـ ألم تأسفي لتغيّر مجرى حياتك؟

وابتسموا جميعًا، وضحك محجوب كأنّما راقته دعابتها وقال:

ـ سامحني الله. كانت إحسان طالبة بارعة، وطالما أثارت إعجاب المسيو ليشو أستاذ الفلسفة بذكائها، وقد اعترض طويلاً على انقطاعها عن المدرسة..

ونظر إلى تحيّة ليرى ما ترك من أثر في عينيها، فوجدها تنظر إليه باحتقار وسخرية، فلم يغضب، بل سرّ سرورًا خفيًّا. ودخل عند ذاك خادم نوبيّ بالمرطّبات. فشربوا هنيئًا وسادت فترة سكون كالاستراحة.

وطرقت حرم حمديس بك الحديث مرّة أخرى، فنادت الذكريات البعيدة، وذكرت الغلام الصغير الذي يطالعها الآن زوجًا رشيدًا وربّ أسرة ناشئة، وتكلّمت عن الزمن وسرعته العجيبة، ثمّ سألت الشابّ قائلة:

ـ كيف حال والديك؟

ـ الحمد لله.

أجاب محجوب بسرعة، وسرعان ما انقبض صدره، فسألته السيّدة مرّة أخرى:

ـ ألم يحضرا زفافك؟

ـ لم يمكنهما ذٰلك لمرض والدي..

فدعت السيّدة للرجل بالشفاء واستدركت سائلة أيضًا:

ـ وكيف القناطر؟

ـ جميلة كعهدك بها..

ـ يا عجبًا، لم نعاودها منذ فارقناها.

وسأله أحمد بك مبتسمًا:

ـ هل تقضيان شهر العسل في القاهرة؟

فسرّ محجوب بالسؤال لأنّه فتح له أبوابًا للحديث، فقال:

ـ عملي كسكرتير لقاسم بك فهمي لا يَدَعُ لي فراغًا في الوقت الحاضر...!

وهنا قالت تحيّة لتشرح للشابّ أسباب وجودهم في القاهرة في يوليه إذا كانت غابت عنه:

ـ والدي يقوم عادة بإجازته في أغسطس فنسافر جميعًا إلى أوروبّا..! ثمّ غيّرت لهجتها وسألته باهتمام:

ـ ألم تأخذ إحسان هانم إلى حفريّات الجامعة؟

واضطرب فؤاده، وجرى بصره بحذر على وجوه الجالسين، فوجدهم مبتسمين لا تدلّ وجوههم على شيء ممّا أثاره الخوف في نفسه من سوء الظنّ فتنهّد ارتياحًا وقال وقد تمالك نفسه:

ـ كلّا...

ثمّ قال بخبث:

ـ سنذهب بلا شكّ عندما نبتاع سيّارة قريبًا..

فقالت بخبث أيضًا:

ـ المشي في الرحلات ألذّ..

وسأله حمديس بك عن قاسم بك فهمي، وقال له إنّه كان زميله في البعثة، ووعده أن يوصيه به خيرًا. وضايقته هٰذه الصلة التي لم يتوقّعها، ماذا يحدث لو وقف حمديس بك على سرّ زواجه؟؟ وشعر بيد ثلجيّة تقبض على قلبه. ولمّا كانت الزيارة للتعارف فأحبّ ألّا تطول أكثر ممّا طالت، ونهض مستأذنًا في الانصراف..

* * *

وفي طريق العودة قالت له إحسان وهي تنفخ:

ـ أعوذ بالله منك..

فقهقه ضاحكًا، وقال بسخرية:

ـ كوني جسورة. الكذب كلام كالصدق سواء بسواء إلّا أنّه ذو فوائد.

ـ وإذا انكشفنا؟؟

فقال بضجر:

ـ وإذا.. وإذا.. دائمًا وإذا.. إذا هٰذه حرف خيبة إذا دخل على جملة ذهب بفائدتها وثبّط همّة الفاعل، لا تقولي وإذا..

فضحكت إحسان وقالت:

ـ حرم البك قريبك سيّدة لطيفة!

فاختلس إليها نظرة ماكرة وقال بخبث وشيطنة:

ـ وتحيّة؟.. يا لها من فتاة كاملة!

فصمتت لا تدري ما تقول. ثمّ غمغمت:

ـ أجل..

وكان يلحظها بخبث. وسرّ سرورًا كبيرًا. وعاد إلى الشقّة يخامره شعور الظافر المنتصر. وظلّ ذاك المساء مغتبطًا حتّى ناداه جرس التليفون، وما وضع السمّاعة على أذنه حتّى تجهّم وجهه وفتر حماسه، كأنّما ألقي على لهيب قلبه الفرح الراقص ماء بارد. كان المتكلّم سالم الإخشيدي، وقد أخبره أنّ البك سيزور الشقّة مساء الغد..

ـ ٣٣ ـ

ما لجرح بميّت إيلام.

جعل يردّد هٰذا الشعر قبيل مساء اليوم الثاني وهو يتأهّب لمغادرة البيت ثمّ تساءل متى يموت جرحه إذًا؟! كان عظيم الثقة بنفسه وبفلسفته، ولٰكنّه شعر في اضطرابه وألمه بأنّ الفلسفة إذا خرجت من الدماغ إلى دنيا الحقائق قد يحدث لها ما يحدث للقذيفة إذا انطلقت من المدفع: تتفجّر وتتناثر. حاول أن يستعيد رباطة جأشه وبروده. حاول أن يقول «طظ» ولٰكنّه أخفق، أو أخفق مؤقّتًا على حدّ تعبيره. وجعل يتساءل تُرى هل علمت؟. ثمّ نظر إلى التليفون فرجّح أن يكون طيّر إليها النبأ السعيد! فالتليفون هو القوّاد الثاني في هٰذه الشقّة؟ تُرى ما حقيقة شعورها؟! أمسرورة هي بذاك اللقاء المرتقب؟؟.. أتنتظر على لهفة أم بغير مبالاة؟؟.. أيحطّم هذا الرأس الجميل كما تحطّم جوزة الهند ليرى ما فيه؟؟ وتلوّت حيّة الغيرة في قلبه نافثة سمّها القتّال، وغادر البيت. وسار في شارع ناجي على غير هدًى، وقصارى ما يطمح إليه أن يمسك زمام عقله، أو أن يثوب إلى رشده. ووجد نفسه أمام حانة «لاروز» فمال إليها بلا تردّد، كأنّها هي هدفه المطلوب، وكان طلّاب الجعة يتقاطرون عليها فرارًا من جوّ يوليو القائظ، متهافتين على الجزء التابع لها من الطوار، ولٰكنّه كره الازدحام، وانتبذ مكانًا داخلها، فلم يَلْقَ حوله إلّا شابًّا يجلس إلى مائدة غير بعيدة منفردًا بكأسه، وقبل فوات خمس دقائق على جلوسه كان يرفع الكأس إلى شفتيه الممتلئتين، ويفرغها حتّى الثمالة، ثمّ صفّق يطلب أخرى. شرب بشراهة لا عهد له بها، وإن كان يوجد في حانة لأوّل مرّة في حياته. وما انفكّ عقله متفكّرًا مشغولًا لا يغيب به عمّا حوله. ولم يكن غضبه لاضطرابه بأقلّ من اضطراب نفسه، كبر عليه أن يأسى على معنًى تافه من المعاني التي ثار عليها وكفر بها. أغضبه حقًّا لعرضه؟.. وما عرضه؟؟. ألم يتحرّر من هاتيك الأغلال جميعًا؟؟ كلّا إنّه لا يغضب لعرضه. ولا عرضه بالشيء الذي يستحقّ الغضب، ولٰكنّه يعاني الغيرة. وتفكّر مليًّا، ثمّ عاد يحادث نفسه: هل الغيرة طبيعيّة أو تقليد اجتماعيّ كالعرض؟؟. بل صفة طبيعيّة بلا مراء. إنّ الحيوان يعاني لأواءها كالإنسان سواء بسواء، فنحن نغار ما دمنا نحبّ، وما دمنا نرى أنفسنا جديرين بأن نحبّ كذلك. هكذا حدّث نفسه ولٰكنّه لم يقتنع كلّ الاقتناع، ولا ارتاح الارتياح كلّه، بقي في النفس شيء. ألا ترى أنّ هٰذه الغيرة توشك أن تفسد عليه جميع ما أفاد من فلسفته وتحرّره؟؟. إنّه ينتقد ويحلّل ويحطّم، ولٰكن وراء ذٰلك تتخايل لعينيه أشباح مخيفة: سيّارة تقف أمام عمارة شليخر، ينزل منها البك الأنيق، المصعد، الجرس، باب الشقّة يفتح، مساء الخير أيّها العروس.. جاء زوجك الطبيعيّ، ثمّ.. كيف تلقاه؟. في نفس الحجرة وعلى نفس الفراش... وصفّق بشدّة يطلب كأسًا جديدة ولاحت منه عند ذاك التفاتة إلى الشابّ المنفرد بكأسه ـ

بكئوسه ـ فوجده يحدّق فيه بدهشة وسرور، فقد راقبه الشابّ منذ حضوره، وراح ينظر إلى اضطرابه وحركاته غير الإراديّة، ويتساءل عمّا يقلقه، ولكن في سرور ولذّة شأن المنتشي الثمل. ولمّا التقت عيناهما ابتسم فابتسم له محجوب والسكارى سريعو التعارف إلى بعض، وإن كانت مودّتهم سطحيّة، فتبودلت التحيّة، وبدا الشابّ الغريب وكأنّه يلوذ بصاحبه من وحدته التي جعلها السكر أفظع من أن تحتمل، وعاذ به محجوب من أفكاره وآلامه فدعاه إلى مائدته، وسرعان ما جلسا وجهًا لوجه، شابّين ثملين لا يقيمان لشيء وزنًا. وتعارفا. ثمّ قال الشابّ الغريب:

ـ رأيتك آخذًا في حديث عنيف مع نفسك، فوددت لو حملت عنك بعض هٰذا العناء..

فضحك محجوب ضحكة عالية جدًّا دلّت على انفلات الزمام من يده، وسأله:

ـ أحقًّا كنت أحادث نفسي؟

ـ أجل. وكنت محتدًّا.. بل حانقًا..

وكان لا بدّ أن يتكلّم، لأنّه دعا بمتكلّم، ولأنّه أراد أن يروّح عن نفسه، ولم يجد في ذٰلك من بأس، فحالته وحالة صاحبه آذنتا بحديث أهوج ماجن لا يعرف الحدود. سأله:

ـ ومتى يحادث الإنسان نفسه؟

ـ في أحوال نادرة..

ـ اضرب مثلًا.

ـ في السرور الفائض والحزن البالغ أو في حالات لا هي إلى السرور الفائض ولا الحزن البالغ!

ـ وماذا يبقى من الحالات غير ما ذكرت؟؟

ـ الحالات التي يحادث الإنسان فيها غيره..

فقال محجوب متحيّرًا وهو يقبض على كأسه:

ـ لا أكاد أفهم شيئًا...

ـ ولا أنا! في مجلس الأنس، كما في مجلس النوّاب، ليس بالمهمّ أن تفهم ما يقال، ولكن المهمّ أن تتكلّم.

ـ كيفما اتّفق؟؟

ـ وكيفما أحببت...!

ولذّه الاقتراح، فطرح التفكير ظهريًّا، وراح يقول وقد احمرّت عيناه الجاحظتان من الشراب:

ـ أنا في الحجرة والكبش في الحقل..

ـ كتب محمّد الدرس..

ـ اعمل لدنياك كأنّك تموت غدًا، واعمل لآخرتك كأنّك تعيش أبدًا.

ـ ولكنّك لن تعيش أبدًا، وربّما لم تعِش حتّى مطلع الصباح، لأنّك تفرط في الشراب..

ـ إذًا نطلب كأسًا أخرى..

ـ عَلامَ يدلّ امتلاء الحانات بالواردين؟

ـ يدلّ على أنّ دستور ١٩٢٣ أفضل من دستور ١٩٣٠.

ـ أتحسب أنّ دستور ١٩٢٣ يعود؟

ـ أين هو الآن؟

ـ في ضريح سعد مع جثث الفراعنة.

ـ فليحفظوه هنالك حتّى نستحقّه.

ـ هل أنت وفديّ؟

ـ كلّا... أنا حنبليّ!

ـ وأيّ فرق بين الاثنين؟

ـ الحنبليّ ينقض وضوءه خيال الكلب.

ـ والوفديّ؟

ـ ينقض وضوءه خيال الظلّ.

ـ إذًا أنت حرّ دستوريّ!

ـ أنا؟.. أنا في الحقل..!

ـ أنت كبش إذًا ذو قرنين!

واضطرب محجوب، وبهت، وكأنّه يستيقظ من هذيانه على مطرقة، وحدج صاحبه بنظرة ملتهبة، لكن وجده يبتسم منشرح الصدر، متأهّبًا لتلقّي كلّ ما يقذفه به، فحمل نفسه على السرور حملًا، وسأل الشابّ الغريب:

ـ خبّرني. أحقّ أنّ القوّاد في نعيم؟

وتضاحك الشابّ، ورأى محجوب يرمي في الموقد حطبًا، فرغب أن يعاونه وقال:

ـ حالك خير دليل!

فضحك محجوب ضحكة عالية ارتجّ لها المكان وقال:

ـ حدّثني بما لك من خبرة عن أنواع القيادة.

ـ قيادة عمياء لا يدري بها ضحيّتها، من النوع الذي ابتلي به زوج عشيقتي...

ـ واحد.

ـ وقيادة يعلم بها الزوج ويتجاهلها إيثارًا للسلامة، وهي موضة منتشرة في بعض الأوساط.

ـ اثنان.

ـ وقيادة يختارها الزوج للذّة أو لفائدة. هل أنت متزوّج؟

فعاوده الضحك، وأغرق فيه ليخفي توتّر أعصابه، ثمّ قال بحقد خفيّ:

ـ يوجد نوع رابع يجمع ميزات الثلاثة معًا وهو وقف عليك: كنت أوّل الأمر تجهل ما أنت مبتلًى به، ثمّ تكشّف لك فتجاهلته إيثارًا للسلامة، ثمّ تعوّدته فاستلذذته.

وأغرقا في الضحك معًا. ثمّ قال الشابّ الغريب بلهجة ظاهرها الجدّ وباطنها المزاح:

ـ الواقع أنّ القيادة من أعقد مشكلات الزواج في العصر الحديث.

ـ الحقيقة أنّ الزواج من أعقد مشكلات القيادة..

ـ صدقت، ألا ترى كيف يضرب الشبّان عن الزواج؟؟ ولكنّهم يشتركون في الأسر من منازلهم..

ـ الانتساب ألذّ بلا تكاليف..

وهذيا طويلًا، بلا ملل ولا تعب حتّى أوشك الليل أن ينتصف...

* * *

وطاب له أن يخبط في الشوارع على غير هدًى قبل أن يعود إلى البيت. وغمغم كالمترنّم: «أنا في الحجرة والكبش في الحقل» ثمّ راح يقول: «أنا في الحانة والبك في الحجرة» ولكنّه كان في منتهى النشوة والسرور، فارتفعت حرارة غبطته لدرجة تذوب فيها جميع الأحزان. وبدا له وكأنّ شيئًا في الدنيا لا يساوي مثقال ذرّة من الكآبة، وآتته قدرة يمكنه أن يحقّق بها فلسفته إذا شاء بلا تردّد ولا تفكّر ولا انفعال. وقد أدرك في تلك اللحظة أنّ فلسفته والخمر كلتيهما من جوهر واحد! وعاد إلى البيت، ودخل الحجرة، كان كلّ شيء هادئًا ساكنًا، وهي مستغرقة في نوم عميق. ووقف في وسط الحجرة يحدّق في وجهها بعينين محمرّتين ذابلتين ولبث واقفًا حتّى خال الأرض تدور به. وخطر له خاطر فسرّ به دون أن يتدبّره، ونفّذه بأسرع ممّا خطر له. دنا من الفراش، ثمّ ارتمى عليها بجسمه كلّه كأنّه يلعب حركة سويديّة. واستيقظت إحسان فزعة، وفرّت من فيها صرخة، وحملقت في وجهه بعينين مرتعبتين، ثمّ دفعته بعيدًا عنها وقد أخذت تدرك حقيقة الحال. دفعته بغيظ وحنق، وصاحت به:

ـ أنت سكران.. كدت تقتلني.. ابعد..

فجعل ينظر إليها بذهول مالئًا عينيه من وجهها الساخط الغاضب، ثمّ ابتسم، ابتسم ابتسامة لا معنى لها، أو ابتسم سرورًا بما أحدث فيها من ألم وغيظ. وزاد حنقها وتضاعف، وقالت بحدّة:

ـ كسرت أضلعي بجنونك، فابعد عنّي.. أنت سكران، لا تَنَمْ في هذه الحجرة..

وظلّ الابتسام مرتسمًا على شفتيه، ثمّ فرّت من فيه ضحكة خفيفة، ولمّا تضاعف غضبها أغرق في الضحك حتّى زلزل كيانه..

- ٣٤ -

في صباح اليوم الثاني استيقظ في ساعة متأخّرة، ونهض متعبًا مصدّع الرأس، وكان نام ليلته على الشيزلنج، فنظر في الفراش بعينين خائفتين، ولكنّه وجده خاليًا، وتذكّر ليلة الأمس، فهالته الذكرى، ثمّ هزّ منكبيه استهانة ومضى خارجًا، والتقى بها في الصالة فطالعته بوجه مقطّب فارتبك حينًا، وابتسم غاضًا من بصره، وسألها بلهجة لطيفة:

ـ لا زلت غاضبة؟

فقالت بحدّة:

ـ السكر يجعل منك وحشًا مجنونًا، لا تسكر أبدًا،

شرب كأس.. كأسين كما نفعل شيء محتمل، أمّا أن تعود بعد انتصاف الليل ثملًا تترنّح وتسلك مثل ذاك السلوك الشائن فشيء لا يحتمل..

وانتقلا إلى حجرة السفرة، وتناولا فطورهما، في سكون بادئ الأمر، ثمّ تبادلا بعض الكلمات، وغادرا الحجرة في حالة طيّبة. وذهب إلى الوزارة قبيل الظهر، وكان البك قد سافر إلى الإسكندريّة ذلك اليوم يمضي بضعة أيّام في بولكلى. فجلس في حجرته يطالع الجرائد، وبعد مضيّ برهة وجيزة استقبل زائرًا لم يتوقّع حضوره، فتح الباب، فرفع رأسه عن الجريدة، فرأى مأمون رضوان قادمًا نحوه، ولاحت الدهشة في وجهه، ثمّ نهض هاشًّا باشًّا، وتصافح الصاحبان بحرارة، وجلس مأمون وهو يقول:

- مبارك.. مبارك..

فأدرك محجوب أنّه يهنّئه على الوظيفة، وسرّ لذلك أيّما سرور، وقال:

- الله يبارك فيك، حسبتك في طنطا..

- عدت من يومين لشئون خاصّة، وقابلت ليلة عودتي الأستاذ أحمد بدير في نادي الجامعة فأنبأني بتعيينك، وسررت لذلك سرورًا عظيمًا..

أحمد بدير.. انقبض صدره لذكر هذا الاسم الخطير، وتساءل في نفسه: ترى ماذا يعلم هذا الصحافيّ المحيط بفضائح المجتمع؟.. ماذا قال لمأمون رضوان؟. وحدج صاحبه بنظرة عميقة، ولكنّه وجده هادئًا صافي النظرة كالعهد به، يشفّ منظره عن باطن نقيّ طاهر لا تقربه أخبار السوء. واصطنع ابتسامة وقال متسائلًا:

- وكيف حال الأستاذ؟.. لم أقابله منذ عهد ليس بالقصير، ولم يأتِ لتهنئتي.

فابتسم مأمون وقال:

- غابت عنك أشياء، لقد نشر خبر تعيينك - كما قال لي - في جريدته، وهو يعتبرك مدينًا له بالشكر.

وتحدّثا عن البعثة، والوظائف الإداريّة والفنّيّة، ومهنة التدريس في الجامعة والمدارس الثانويّة، وانتقد مأمون النظام الجائر الذي يحرم المتخصّصين الاشتغال بفنّهم الذي تخصّصوا فيه، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإداريّة، وقال لصاحبه: إنّها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر، ولكنّهما أدليا بآرائهما في يسر وتسامح وجرّ الحديث بعض الشئون الخاصّة فاعترف مأمون أنّه جاء إلى القاهرة لأسباب تتعلّق بزواجه. وعندئذٍ أخبره محجوب بأنّه تزوّج!. وهنّأه الشابّ مرّة أخرى، ودعا له بالتوفيق، ثمّ قال:

- قابلت صديقنا عليّ طه أمس ومكثت معه مدّة طويلة...

وخفق قلب محجوب لهذا الانتقال المفاجئ، وساوره القلق، تُرى هل أدّى الحديث إلى عليّ طه كيفما اتّفق؟ أم علم عليّ بزواجه وحدّث به مأمون؟ لم يكن من الممكن أن يظلّ زواجه سرًّا، وكان حتمًا أن يعلم به عليّ طه يومًا ما، ولكن كيف انتهى إليه؟ وكيف فسّره؟ ونظر إلى مأمون، فالتقت عيناهما، وقرأ في العينين السوداوين الصافيتين الارتباك والريب، فلم يعد يخالجه الشكّ، أنّ عيني مأمون مرآة صافية لا تعرف المكر ولا الخداع، وهما تسألانه بلسان فصيح: «أحقًّا ما يقال؟ هل خنت صديقك حقًّا؟». ولم يجد فائدة من حمل صديقه على البدء بالسؤال، فقال متسائلًا:

- وكيف حاله؟

فقال مأمون برزانة:

- على ما يرام..

وساد الصمت برهة، وأطرق محجوب. لقد صدق حدسه ما في ذلك شكّ. ولكن لأيّ مدًى عرفت الحقيقة؟. إنّ الذين يعرفون الحقيقة - آل إحسان والبك والإخشيدي - لا يمكن أن يبوحوا بها لمخلوق، لأنّ البوح بها ضارّ بهم. ولو عرف مأمون الحقيقة لأبى أن يزوره، فليس من طبعه أن يتظاهر باحترام شخص يراه أهلًا لاحتقاره، وهو ما جاءه إلّا ليسمع دفاعه عن تهمة صديقه - تهمة الخيانة فقط لا تهمة الزواج من فتاة صفاتها كيت وكيت طمعًا في وظيفة - هذا هو الحقّ المبين. وقد ارتاح لمنطقه فلم يكن يعبأ بحزن عليّ، ولا

هو يعبأ برأي مأمون فيه. ونظر إلى زائره بجسارته المعهودة وسأله:

- ماذا يسوؤه؟

ولم يَدْرِ مأمون ماذا يقول، فعضّ على شفته مرتبكًا ولاذ بالصمت. فضحك محجوب ضحكة فاترة كأنّه يجيب نفسه:

- زواجي.

فتساءل مأمون بلهفة:

- هل حقًّا...؟

فقال محجوب باقتضاب:

- تزوّجت حقًّا من جارتنا القديمة إحسان شحاته تركي..

فلاحت في وجه الآخر دهشة ممزوجة بانزعاج، فابتسم محجوب وقال:

- ولكنّي لم آتِ نكرًا...

وقصّ عليه كيف فترت العلاقة بين عليّ وإحسان حتّى انقطعت، وأكّد له أنّه لم يتقدّم لطلب يدها إلّا بعد ذلك.

وسأله مأمون بصراحته المعروفة:

- لست مسئولًا عن فتور العلاقة وانقطاعها؟.

فقال له محجوب بلهجة التأكيد:

- مطلقًا.

وانتهت الزيارة عقب ذلك. وشعر محجوب وهو يصافح مأمون أنّ الشابّ يودّعه الوداع الأخير، وما إن سمع صفقة الباب وهو يغلق حتّى بصق باحتقار وغضب، وغمغم بحقد شديد «طظ».

- ٣٥ -

واستلقى بعد الغداء في فراشه دون أن يغمض له جفن. ونامت هي كالعادة إلى جانبه فجعل يستمع إلى تنفّسها المنتظم الذي ألفه. ثمّ استسلم لتيّار أفكاره العارم الذي حرمه لذّة النوم. اليوم هجره مأمون، وبالأمس هجر هو عليّ طه، فانقطعت صلته بأقرب الناس إليه.

ولم تكن الصداقة يومًا بالشيء الذي يحرص عليه، ولكنّه يشعر بالغربة والوحدة، وبأنّه في وادٍ والدنيا كلّها في وادٍ. أجل لم يَرْعَ صداقة إنسان، ولكن أكثر من إنسان رعى صداقته فهيّأ له شعور الأنس بالناس. أمّا الآن فالخيوط الواهية التي تصله بالناس تنقصف واحدًا إثر واحد، ويهوي هو إلى وحدة عميقة. ومن قبل كانت غرابة آرائه سببًا فيما يعتريه الحين بعد الحين من شعور الوحشة، فلمّا جازف بتحقيق بعض آرائه تضاعف شعور الوحشة، وأحسّ أنّه في وادٍ والدنيا كلّها في وادٍ، وتساءل في جزع: كيف يطرد سحائب الوحشة عن صدره؟.. ليس في عالمه فرد واحد يودّه. هؤلاء الموظّفون الذين يتّصل بهم لا يقرّون إلّا نوعًا من الزمالة الإجباريّة. وسالم الإخشيدي لا يبالي شيئًا غير منفعته. فأين يجد الدواء؟. وألقى ببصره إلى جانبه فرأى الوجه النائم، وسمع التنفّس المنتظم. أجل، هي العزاء، وهي السلوى، خلاصة ما بقي له من دنياه، ولو ظفر بها ما اشتكى شيئًا. وحقيقة قلقه اليوم ليست ناجمة عن قطيعة مأمون له، بقدر ما هي ناجمة عن تذكّر عليّ طه وهواه. غدا قلبه فريسة للغيرة، ولم يعد يؤمن بأنّ الأمر مجرّد رفع الصمام عن خزانة البخار كما كان يحلو له أن يقول كلّما سئل عن الحبّ أو المرأة. كان شعوره بالحاجة إلى زوجة عنيفًا قويًّا، فلعلّه كان نتيجة للشعور بالوحشة، أو لعلّه كان سببًا فيه. ولم يكن - حتّى في حالته تلك - يؤمن بالحبّ كما عرفه عليّ طه. ولم يعرّج ببصره إلى السماء قطّ، ولا حلم بالمثال والأوهام. بَيْد أنّه شعر بحاجته إلى الفتاة كقوّة مستبدّة غشوم. لا تقع بمجرّد بلوغ الجسد، ولكنّها تطمع في أن تستبدّ كذلك برغبته وميوله وهواه، فتكون رغبة متبادلة، وحنينًا متبادلًا، وبغير ذلك لا يمكن أن يشعر بأنّه بدّد الوحشة وفاز بالعزاء. هذه القوّة المستبدّة الغشوم تهزأ بالعقول الراجحة والنفوس المتعجرفة والفلسفات الساخرة. وابتسم ابتسامة المتهكّم وجعل يقول تبًّا لهذه الغيرة الحقيرة.. ما جدوى غرور هذه الحياة إذا كانت الدنيا تفقد طعمها لمجرّد إغضاءة من هذا الحيوان اللطيف.. ولم تَخْفَ

عنه حقيقة مشاعره الجديدة. لقد قبل الزواج بادئ الأمر على أنّه مساومة نفعيّة، وأراد أن يتغلّب على وضعه الشاذّ بحرّيّته المطلقة وطموحه اللانهائيّ، ولٰكنّه يطمع الآن في أكثر من جسد زوجه، يطمع في عواطفها ولو أنّ حظّه كان جمعه بغير إحسان ـ الفتاة التي أحبّها قديمًا ـ لربّما كان الحال غير الحال. أمّا إحسان فلا يملك إلّا أن يحبّها؛ وقد تكدّر صفوه بهٰذه الأفكار. رأى فيها نذيرًا يهدّد كيانه وحياته، وقال لنفسه محزونًا: عسى أن تكون آثار مرض وقتيّ أحدثته الوحشة المخيفة.

* * *

وحين العصر جلسا معًا في الشرفة يشربان القهوة. ولم يكن انقطع عن أفكاره لحظة واحدة حتّى بدا تعبًا قلقًا. وجعل يتفرّس في وجهها بعينيه الجاحظتين حتّى لاحظت ذٰلك، كما لاحظت تعبه وقلقه وحدست أسباب ذٰلك، وظنّت أنّها ترجع جميعًا لليلة أمس. فلم تنبس بكلمة، ولٰكنّها ألقت عليه نظرة متسائلة. وأراد هو أن يشرح لها حالته فقال:

ـ لم أنم ظهرًا..

فسألته وهي تتظاهر بعدم المبالاة:

ـ ولِمَ؟..

ولٰكنّه لم يجب سؤالها، وشعر بقوّة تدفعه إلى اقتحام الغموض الذي يغشاه ويحيّره، فثبّت عليها عينيه وقال:

ـ أنت سرّ يجب أن أعرفه..

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل الذي لم يكن أفاق تمامًا من أثر النعاس. وتمتمت:

ـ سرًا.

ـ أجل. يجدر بنا أن نتكاشف.

ـ نتكاشف!..

فلم يعبأ بدهشتها وحسبها تظاهرًا، ثمّ قال:

ـ حياتك تثير في النفس أسئلة محيّرة..

فأغضت دون أن تتكلّم وبدا على وجهها الوجوم، ولٰكنّ قوّة مهما بلغت من الشدّة لم تكن لتثنيه عمّا اعتزم، فقال:

ـ التكاشف في حالتنا لا يقدّر بثمن. ينبغي أن يفهم كلٌّ منّا صاحبه لنستطيع أن نتعاون على ما فيه سعادة حياتنا المشتركة، اذكري دائمًا أنّنا شريكان، وأنّ كلّ شيء ما خلا هذه الشركة زائل..

فأخذت آخر رشفة من فنجان القهوة وأعادته إلى نضد بينهما دون أن تنبس بكلمة أو تبدي رغبة في الكلام. فاستطرد متسائلًا بجرأته:

ـ لماذا فعلت ما فعلت..؟

فاحمرّ وجهها وقالت بحدّة:

ـ ولماذا قبلت؟..

فقال بسرعة وبلهجة ليّنة توحي بالاعتذار:

ـ أنا لا أحاسبك، ولٰكنّي أريد أن أفهم.. لماذا؟.. ألم..؟

وأغلق فمه مرغمًا وقد تورّد وجهه، ثمّ استدرك قائلًا:

ـ عليّ طه..؟

وطعنته وبسرعة اللهجة الحادّة الغاضبة:

ـ لا محلّ لذكره..

فسألها بصوت خافت:

ـ وقاسم بك.؟

وقطّبت، وجعلت تقرض ظفرها بانفعال، ثمّ قالت بحدّة:

ـ حملني على معرفته ما حملك على قبول هذا الزواج..

وأحسّ ارتياحًا لهذا الجواب، وقال بلين:

ـ لا تغضبي. أنا لا أحاسبك كما قلت لك، بيْد أنّي أريد أن أعرف، ألا.. أعني هل..، أعني قلبك، أجل قلبك!..

ـ قلبي!.. إنّ هٰذا التكاشف لن ينتهي بشيء، أو هو لن ينتهي بخير. قلبي؟!.. عمَّ تتساءل؟!.. ألسنا... سعداء!

ـ بلى.. بلى..

قال ذلك بسرعة، وتفكّر مليًّا. ثمّ سألها بجرأة عجيبة:

ـ وإذا منعتك عن البك؟.

فنفخت باستياء، وقالت:

- أطيع زوجي..

وشعر بما في إجابتها من تهكّم فأدماه جرح عميق، وتساءل عمّا جناه من تحقيقه الجريء. فوجد نفسه حيث بدأ في حيرة وقلق، وأدرك أنّ عليّ طه لا يزال مبعث غضبه وحنقه.. «لا محلّ لذكره» ما معنى هذا، وقد قالتها بغضب!

غضب لحالة التدهور العامّة التي انتابته، لماذا لا يقاتل هذه العواطف الخبيثة حتّى يقتلها؟ أيستسلم لما يستسلم له الحمقى من بني آدم؟!.. فلتحبّ عليّ طه أو فلتحبّ قاسم بك. وليأتِ البك كلّ ليلة إذا أراد، وليلقَيَنَّ كلّ ذلك بما هو فوق طاقة البشر من الاستهانة والعبث. هذه هي مسألته بلا زيادة ولا نقصان. بَيْد أنّ طموحه لا يجوز أن يقف عند حدّ: لكلّ داء دواء، ودواء العزلة التي يعانيها المجد والخمر! يُسطى عليه فينبغي أن يسطو على الناس!. وغدًا يلتمس بيوت الفجور ويعشق النساء ألوانًا!. فإذا انكشف سرّ زوجه يومًا طمع أن يقال: إنّ زوجها أفسدها باستهتاره، وإنّه شابّ فاجر لا شيء آخر!. وتنهّد في شبه ارتياح لما انتهى إليه تفكيره، غير أنّه لم يطمئنّ إلى الارتياح طويلًا. ذكر - متجهّمًا - أنّه يخاف الناس دائمًا، وأنّه يخافهم أكثر ممّا ينبغي، وأنّه يخافهم على الخصوص خلاف ما تقضي به فلسفته، فَفيمَ التخبّط والحيرة؟! ومتى يبلغ بحياته أقصى الكمال الذي ينشد؟..

- ٣٦ -

ولم يعد لمثل ذلك الحديث مرّة أخرى، وبذل قصاراه في تجنّب ما يعكّر الصفو ويبلبل الخاطر. وكان إذا قاتل عن سعادته قاتل بعنف ويأس غير مُبْقٍ على شيء. وإذا كانت الحياة الزوجيّة لم تُتِحْ له، فقد قام بدوره خير قيام، كما يقوم الممثّل بدوره خير قيام حتّى لينسى نفسه فيضحك حقًّا ويبكي حقًّا. ظهرا أمام الناس كزوجين سعيدين، فلم تعوز أحدهما الرغبة في التوفيق والتلهّف على السعادة، أمّا حين يشعران جفوة أو برودة فكأس أو كأسان يصلحان ما يوشك أن يفسد. وقد صدق عزمه على أن يشغل وقته كلّه بحياته الجديدة حتّى لا تجد الوساوس فرجة إلى قلبه. وكانت وظيفته تستغرق جلّ نهاره، ففكّر أن يقتحم الحياة الاجتماعيّة التي بدأها بزيارة آل حمديس - ليشغل ما يبقى من وقته، وليجني من متع مظاهرها ما تجود به على مثله. وحادث في ذلك إحسان، وانتهز فرصة سانحة يومًا فقال لها:

- عرفت جماعة من صفوة الموظّفين الشباب وبعض الأعيان وقد دعاني أحدهم - دعانا معًا - إلى حفل سيقيمه لعيد ميلاد ابنه، فقبلت الدعوة بسرور..!

فرفعت عينيها الدعجاوين ولم تَدْرِ ماذا تقول، فعاد يقول بحماس:

- لا ينبغي أن نقبع في دارنا، انظري إلى الإخشيدي كيف يعرف وجوه المجتمع العالي جميعًا، وكيف تدعم هاتيك الصلات بنيان حياته وأسس مستقبله؟

وكانت في أعماقها تتوق إلى التسلية والعزاء والسرور، وترغب في أن ترى وأن تعرف وأن تتناسى، فرحّبت بالاقتراح، وقالت وقد سبقتها ابتسامتها إلى الموافقة:

- لنذهب..

فسرّ الشابّ، كان يهوى دائمًا أن تشاركه اهتمامه وآماله. وكان يشعر دائمًا بغريزته بأنّه إن نجح في جذبها إلى محيط أطماعه فقد ضمن فوزًا عظيمًا. لذلك سُرّ، وقال:

- إنّ مقتحم هذه الحياة البديعة كالرحّالة الجسور لا يمكن أن يعود خالي اليدين.. وإنّ لي من وظيفتي لمركزًا ممتازًا، وإنّ لك من جمالك لمكانة سامية..

وذهبا معًا إلى حفل الميلاد. وأحدثت إحسان بجمالها الفاتن أثرًا بالغًا واستعان محجوب بجسارته على تمثيل دوره، ولم يعجز عن خلق الفرصة المناسبة لإعلان قرابته بأحمد بك حمديس. وعاد وقد ظفرت إحسان بإعجاب شابّ وجيه يدعى عليّ عفّت، وقد دعاهما الشابّ بعد يومين إلى بنوار بمسرح الفانتزيو..

وتقضّت الأيّام الباقية من يوليه في حياة مرحة حارّة، فارتادا السينما والصالات الصيفيّة. ودعي هو إلى البوديجا وجروبي وصولت. وأفضى بسروره يومًا إلى الإخشيدي، فقال وهو يمطّ بوزه استهانة:

ـ الطبقة العالية الآن خارج القطر. وستعود الحياة الحقيقيّة إلى القاهرة في أواسط أكتوبر..

وقد هاله الأمر، ولٰكنّه قنع بمعارفه الجدد، ولعلّهم أن يكونوا أدنى إليه ـ أو لعلّه أن يكون أدنى إليهم ـ من أولٰئك السائحين في بطون القارّات الحيّة. بيْد أنّ أمرًا واحدًا أزعجه، هو تكاليف هذه الحياة المرحة الممتعة. هذه الحياة تفرض عليه العناية بلباسه كالنساء سواء بسواء، وأن يقتني الأنواع النفيسة، ويختار الألوان الجميلة، مع ملاحظة الوفرة حتّى لا تقع العين الناقدة على شيء واحد مرّتين، ولم يَلْقَ بين أولٰئك الشبّان من يتحدّث عن العروبة، ولا من يناقش الاشتراكيّة أو أجست كونت. ومن بينهم جامعيّون كثيرون ولٰكنّهم متأقلمون، فلا كلمة واحدة تذكّر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة. ووجد نفسه يهوي إلى التدخين ومشاهدة ألعاب القمار.

ولٰكن كيف يواجه هٰذه الحياة بمرتّبه الصغير؟!..

أجل إنّ قاسم بك يقوم بنفقات البيت والزوجة! ولكن تبقى وجوه إنفاقه هو، وهي تتّسع يومًا بعد يوم وتتنوّع ساعة بعد ساعة!. وقد تفكّر في ذلك طويلًا ثمّ قال لنفسه: «أمثالي يرتقون سريعًا في الحكومة، فلا يجوز أن أتخلّف عنهم!».

* * *

وطابت حياة المجتمع لإحسان. استهوتها بما فيها من تسلية ومرح وفرص للظهور والمباهاة واستثارات للإعجاب. وجذبت اهتمامها نحو أمور جديدة فبثّت في حياتها روح العناية والحماس، وأنقذتها من تأمّل حياتها ـ ماضيها وحاضرها ومستقبلها ـ والاستسلام للفكر. سرورها ما صادفها من نجاح ووداد. وكان قاسم بك فهمي مغرمًا بها غرامًا جنونيًّا ملك عليه نفسه، فجرى وراء هواها غير عابئ بمركزه أو أسرته أو أبنائه. وأنفق عليها عن سَعة حتّى صارت زينة كلّ مجلس بفضل جمالها ولباسها. تلك حياة، أمّا القبوع في البيت تنتظر أحد رجليها فهو فوق ما تحتمل. بيْد أنّها رغم كلّ ذلك ما انفكّت تشعر بفراغ وملل شأن فتاة خلا من الحبّ قلبها. لم تكن تحبّ البك، ولم يعد لسحره العجيب من سلطان عليها، والأرجح أنّ سحره زال مذ آنست غدره. ولعلّها انطوت له عن موجدة وحقد، إلّا أنّها حرصت عليه حتّى لا تذهب «تضحيتها» هباء. وكانت فتاة ذات طبيعة عمليّة فأودعت الماضي مدارج النسيان، وولّته ظهرها، غير عابئة بغمزه على قلبها الحين بعد الحين! فالماضي المولّي ورمزه الجميل ـ عليّ طه ـ شيئان لا يعودان. وركّزت اهتمامها في زوجها، فهو شريك حياتها، وهو قرين حاضرها ومستقبلها، وقد استأدته الحياة ـ مثلها ـ تضحية فظيعة! وإنّه ليهدف ـ مثلها أيضًا ـ إلى غاية واحدة، ثمّ إنّه بعد هٰذا وذاك شابّ يمكن أن يحبّ، وأن يهب الحياة الزوجيّة السعيدة، فكانت تشجّع محاولاته في سبيل سعادتها المشتركة، تشاربه وتبادله القبلات وترجو أن ينتهي التمثيل بحياة حقيقيّة، ولو كان مزاج إحسان حيوانيًّا بحتًا لبلغت ما تحبّ من سعادة، ولٰكن ما زال قلبها متشوّقًا إلى حنان ومودّة لا يجدهما فيما تتيح لها حياتها من لذّة وترف. لذلك ما انفكّت تشعر بفراغ وملل، وكلّما ألحّ عليها هٰذا الشعور تمادت في التهالك على حياة المرح والتّرف حتّى فاقت زوجها في طموحه.

وكانت تغادر بيتها عادة كلّ صباح عقب خروج زوجها إلى عمله، إذ كانت تضمر للبيت نفورًا جعلها أعجز من أن تستطيع البقاء فيه بمفردها. وكانت المحالّ التجاريّة الكبرى هدفها المختار، تنتقل بين معارضها، وتضرب في طرقاتها المزدحمة، وربّما ابتاعت حاجة ممّا يلزمها، غير ملقية بالًا إلى الشبّان الذين قد يتعرّضون لمغازلتها. وما حاجتها إلى رجل جديد وفي بيتها رجلان؟.. وفضلًا عن ذلك فقلبها كان يحدّثها دائمًا بأنّها ستألف زوجها يومًا ما وتحبّه وتخلص من حيرتها جميعًا. أمّا إذا تمكّن منها الملل وأدركتها السآمة فربّما خرجت عن حكمتها، وذكرت مثالب حياتها ـ

والديها وزلّتها وحياتها الراهنة ـ فاجتاحتها موجة تمرّد ثائرة وحدّثتها نفسها بالجري وراء اللذّة حتّى قرارة بؤرتها، ولكنّها لم تفعل. كما أنها لم تتّخذ قرارًا نهائيًا كما فعل محجوب في مثل ظروفها تلك. كانت تتسكّع كلّ صباح كالمتعطّلين وربّما استقلّت الترام أو الأوتوبيس إلى بعض النواحي النائية ذهابًا وإيابًا. وعلمت يومًا أنّ إحدى صديقاتها ستنتقل يومًا مع زوجها إلى مفوّضيّة روما؛ فأثّر فيها الخبر تأثيرًا عجيبًا، وتمنّت لو تستطيع أن تجوب بلدان الأرض جميعًا. فما أجدر مثل هٰذه الحياة النشيطة أن تُنسي كلّ ذي همّ همّه، وأن تسدل على تفاهة الحياة ستارًا كثيفًا. وقالت لمحجوب وكان قد علم الخبر:

ـ ما أمتع أن يسافر الإنسان إلى روما..!

فسألها بدهشة:

ـ هل ترغبين في السفر حقًّا؟

ـ أجل.. لِمَ لا؟

فقال وقد ابتسمت شفتاه:

ـ والبك؟

ـ عسى أن يكرمني بهٰذه الخدمة فيما بعد..

وأدرك ما تعنيه بقولها «فيما بعد»، فهزّ كتفيه وقال:

ـ إذا فتر هواه يومًا فلن يفعل شيئًا مطلقًا..

والتقت عيناهما في نظرة ذات معنى، وأراد أن يستغلّ الفرصة السانحة أبعد استغلال فقال:

ـ إنّه الآن يذعن لرغباتك فلا تفلتَنَّ من بين يديك هذه الفرصة الجميلة. الفرصة السعيدة لا تسنح في عمر مرّتين: تناسي هٰذه الرغبة الفجائيّة في السفر فهي رغبة خياليّة، واعلمي أنّك إذا فقدت حبّه يومًا فستلقي الحياة عابسة متجهّمة. إذا لم نحسن الاستفادة من ظروفنا فسنضطرّ غدًا إلى مغادرة حيّنا هذا إلى حيّ فقير. وليغلقنّ المجتمع الراقي أبوابه في وجوهنا، ولنكوننّ أضحوكة المتندّرين، فينبغي أن نحتاط للمستقبل البعيد..

وتفكّر في كلامه قليلًا فوجد أنّه يتكلّم كما يتكلّم القوّادون بيسر وبغير مبالاة. وسرّ لمقدرته، وعدّها فورًا مبينًا لفلسفته وإرادته. وتفكّرت إحسان في كلامه طويلًا، فلم تلبث أن اقتنعت بما فيه من حكمة وبعد نظر..

- ٣٧ -

وجاء أوّل أغسطس، وقبض أوّل مرتّب له من الحكومة، وهو مرتّب لم يكن ليحلم به أيّام الجوع، فمن عجب حقًّا أنّه لم يسرّ به!. توزّعته المطامع وتعدّدت رغائبه فباتت حياته كالنار لا تشبع ولا تقنع. وذكّره المرتّب بوالديه اللذين ينتظران على لهفة نصيبهما من مرتّبه، لا شكّ أنّ مكافأة والده نفدت، ولعلّه يبيع الآن أثاث البيت كما فعل هو في فبراير الماضي، وسيعجز حتمًا عن أداء إيجارة المسكن، وربّما وجد والداه نفسيهما بلا مأوى وبلا طعام. ما عسى أن يفعل؟

كان حكيمًا بلا ريب حين قرّر أن يخفي عن والده تعيينه، وقد احتاط للأمر فرجا الإخشيدي ألّا يذيع الخبر في القناطر حتّى لا يعلم به أحد قبل الوقت المناسب، ولٰكن متى يجيء الوقت المناسب؟. إنّ مرتّبه لا يفي بتكاليف هٰذه الحياة الراقية، فهو يدرك قصوره عن الظهور كما ينبغي، فإذا تنازل لوالديه عن جنيهين أو ثلاثة اختلّ ميزانه وافتضح أمره وانهارت آماله! فكيف يواجه هٰذه الصعاب؟! وتولّاه الغضب. كان دأبه الغضب إذا تحيّر أو ارتبك، كأنّما يعتقد في قرارة نفسه أن لا شيء يستحقّ الحيرة أو الارتباك، ولٰكنّه ذكر على رغمه والديه، وتماثلت له صورتهما، أبوه على فراش المرض ـ ولم تحرّك هٰذه الصورة نفسه إلّا بقدر يسير ـ وصورة أمّه بعينيها الضعيفتين وصمتها الرهيب وإيمانها العميق به وبمستقبله، وقد حاول أن يهرب منها أو يطردها عن مخيّلته فلم يفلح، فأجمع على أن يقهر ما توقظه في نفسه من عاطفة بقوّة وصرامة. لم يكن حبّه والديه دافعه الأوّل إلى التفكير فيهما، ولٰكن شعوره بالتبعيّة نحوهما كان الدافع، وفطن إلى هٰذه الحقيقة منذ البدء، فكانت من أسباب مضاعفة غضبه. ألا يزال يعلق بنفسه شيء من الأوهام؟. ما البنوّة؟

أليست عـادة سخيفة لاحقـة بظاهـرة الأسرة؟ بـلى، وسيكفر بها كما كفر بأخوات لها من قبل، ولن يراعي إلّا ذاته ومجده ولـذّته. . وتسـاءل لماذا يعيشـان؟ وما فائدتهما في هذه الحياة؟ وما معنى الحياة لهما؟ لماذا لا يموتان فيستريحان ويُريحان؟ البرّ بالوالدين شرّ إذا عاق سعادة الابن، بل كلّ ما يعوق سعادة الفرد شرّ. هذا واضح بيّن، وهو يؤمن به إيمانًا عميقًا، ولٰكن ماذا هو فاعل؟ أيقطع كلّ صلة لـه بالقنـاطر ويـترك والديـه يلاقيان مصيرهما وحدهما؟ وكيف يدبّر لهما النقود التي يحتاجان إليها؟ الواقع أنّه لا يستطيع الإنفاق عليهما. والظاهر أنّه لا يستطيع كذٰلك أن ينساهما!

* * *

وظلّ مغتمًّا متفكّرًا حتّى غادر الوزارة، ولم يكن بتّ في الأمر برأي وإن كان شعوره بأنانيّته لا يغلب. وعند شارع قصر العيني التقى بالأستاذ أحمد بدير خارجًا من إدارة الجريدة، وتصافحا بحرارة، وما لبث أن عاوده شعـور الخوف الـذي ينتابـه كلّما ذكر هٰـذا الصـديق المخيف. ومشّيـا جنبًا إلى جنب يتحـادثان كعـادتهـا القديمة في طريق الجامعة وحديقـة الأورمان. وسـأله الشابّ الصحافيّ عن حاله وعن عمله وعن قاسم بك، وحدّثه عن مشاقّ حياته الصحافيّة. وكأنّما أراد محجوب أن يجامله فقال:

ـ الصحافة فنّ خطير، والوظيفة الحكوميّة بالنسبة إليها لهو ولعب. .

فقال أحمد بدير بسرور:

ـ صدقت أيّها الصـديق العزيـز، ولذٰلك فـإنّـه يـدهشني أن يزهـد شابّ مثلنـا في العمل الحكـوميّ ويهجر وظيفة محترمة ليجاهد في ميدان الصحافة. .

فلاح التساؤل في وجه محجوب وتمتم:

ـ حقًّا؟!

ـ أجل. هو صديقنا الأستاذ عليّ طه. .

وقلقت عينـاه الجـاحـظتـان، ولاحت فيهـا نـظرة متجهّمة، ثمّ داراها بالدهشة وقال متعجّبًا:

ـ عليّ طه!

فقال أحمد بدير:

ـ إنّه شابّ جسور مثاليّ، فسرعان ما ضاق ذرعًا بمكتبة الجامعة، واتّفق مع بعض زملائنا على إصدار مجلّة أسبوعيّة للدعوة إلى الإصلاح الاجتماعيّ. .

ـ والماجستير؟

فقال أحمد بدير:

ـ قال لي: لِنَدَع البحث للباحثين، ولنركّز همّنا فيما هو أجلّ، وليكن جهادنا كلّه لمصر وكيف تُحوّل من أمّة عبيد إلى أمّة من الأحرار. .

فتفكّر محجوب عبد الدائم مليًّا دون أن يبدو على وجهه شيء، ثمّ قال:

ـ الواقع أنّ الأستاذ عليّ طه ذو طبيعة عمليّة، فهو لا يصلح للتفكير العلميّ النظريّ. .

فلحظه الصحافيّ بنظرة حادّة، وقال:

ـ هذا لا يعيبه. الطبيعتان على اختلافهما جليلتان. والحقّ أنّ صديقنا شابّ مخلص متحمّس، ولقد ركل الحياة المطمئنّة ليدعو إلى مثله العليا على ما في ذٰلك من مشقّة وخطورة، فليست مبادئ صاحبنا بالمبـادئ التي يأمن معها الصحافيّ على نفسه، وربّما تعرّض لسفاهة السفهاء، وتهجّم الجهلاء المتعصّبين، وربّما سيق إلى ما هو أخطر من ذٰلك جميعًا، ما عسى أن ينتظر من يدعو إلى الإيمان بالعلم والمجتمع والاشتراكيّة؟

ولم يجب محجوب، ولٰكنّه تساءل:

ـ وهل صدرت المجلّة؟

ـ تصدر في أوائل هٰذا الشهر.

فقال محجوب بعد تردّد:

ـ وكيف جاء بالمال اللّازم لمثل هٰذا المشروع؟

ـ أعطاه والده مائة جنيه. .

فتساءل محجوب كالساخر:

ـ وهل يؤمن ذٰلك الوالد الموسر بالاشتراكيّة؟

فضحك بدير وقال:

ـ لعلّ الرجل يعدّ مشروع المجلّة عمـلًا تجاريًّـا، فأعانه بما في وسعه وهو وشأنه بعد ذٰلك. .

فهـزّ محجـوب رأسـه وقـال بلهجـة لا تخلو من الاحـتقار:

ـ طالما حدّثنا عليّ طه في دار الطلبة عن مبـادئه،

والحديث لون من ألوان السمر الجميل. أمّا أن يهجر الإنسان عمله، ويتّخذ من الحديث عن مبادئه عملًا قد يؤدّي به إلى غيابات السجون فسلوك أقلّ ما يقال فيه إنّه جنون، وما صاحبنا بمجنون، فكيف فعل هٰذا؟.. انظر إلى صاحبنا مأمون رضوان!. وكيف حدّثنا طويلًا عن الإسلام؟.. ثمّ انظر إليه وقد جمح لسفر إلى باريس ليتأهّل لوظيفة الأستاذيّة العظيمة.. هٰذا شابّ حكيم..

فقال بدير بسرعة وبلهجة تَمّت عن الدهشة:

ـ مأمون رضوان شابّ مخلص أيضًا. وأؤكّد لك أنّه سيتمّ تعلّمه بتفوّق كالعهد به، وأنّه سيكون إمامًا من أئمّة المسلمين هٰذا أمر لا شكّ فيه..

ـ أو فيه شكّ كبير..

فهزّ بدير منكبيه، ولكنّه لم يجادل صاحبه لأنّهما كانا اقتربا من ميدان الإسماعيليّة حيث ينبغي أن يفارقه، واكتفى بأن قال:

ـ لقد عقد الأستاذ مأمون بالأمس زواجه، وسيسافر الزوجان إلى الخارج في نهاية هٰذا الشهر..

ها هي ذي الخطوط الأولى لهٰذه الحيوات المتناثرة ترسم في صحيفة الدنيا الواسعة، ولا يدري أحد كيف تصير في الغد القريب أو البعيد، ولا ماذا ينتظر أصحابها من حظوظ ومقادير، وكلّ ما يدريه أنّ حياة أيّ منهم يمكن أن يذيعها راوية كأحمد بدير إلّا حياته، فإنّها إذا ذاعت على حقيقتها اعتبرت فضيحة!. وما يعنيه ذلك في كثير أو قليل، ولٰكن ينبغي أن يخاف سوء العاقبة، كما ينبغي لعاقل يعيش بين حمقى ومجانين!. ولم يستطع أن يستشعر الطمأنينة، ولا أن يستهين بالكآبة التي تولّته. ومن عجب أنّه وعليّ طه نقيضان، ومع ذٰلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع إلى أعماق السجون غير مفرّق بين عابده والكافر به!.. وبلغا الميدان. وسمعا باعة الجرائد ينادون عليها منوّهين باجتماع حزب الحكومة. وتذكّر الأستاذ بدير أمرًا فقال وهو يصافح صاحبه مودّعًا:

ـ على فكرة. لقد فقد رئيس الحكومة عطف السراي!

فاضطرب محجوب، وذكر أنّ قاسم بك فهمي من رجال العهد الحاضر المعروفين وتساءل:

ـ والإنجليز؟

فمطّ الشابّ بوزه وقال:

ـ قَلْب المندوب السامي قُلّب..

وافترق الشابّان: واتّجه محجوب إلى شارع سليمان باشا متجهّمًا مكتئبًا. ولٰكن أنقذه هٰذا الاضطراب الجديد من الحيرة التي لازمته منذ قبض مرتّبه، ولم يعد إزاء الخطر الماثل يتردّد في الحكم على والديه، فكانا أولى ضحايا الأزمة السياسيّة..

ـ ٣٨ ـ

ونقل الخبر إلى زوجه، فكان حديثهما على المائدة، وفي الشرفة، وتساءلا معًا: هل يبقى قاسم فهمي أو يذهب بذهاب الحكم؟. وكان البك من رجال العهد القائم المعروفين بعداوتهم الحزبيّة، فلم يكن ثمّة أمل في بقائه إذا استقالت الوزارة، وقال محجوب:

ـ إذا أحيل البك إلى المعاش نقلت حتمًا إلى وظيفة مغمورة ـ إن لم يقذف بي إلى أقاصي الريف ـ وفقدت آمالي البعيدة إن لم أفقد وظيفتي نفسها..

أكان كافح ما كافح ليجني هذه النهاية المحزنة؟! أهٰذه خاتمة الجسارة والمغامرة والاستهانة بكلّ شيء؟.. لقد امتلأ غمًّا وكمدًا، وجعل ينظر إلى زوجه بعينين مظلمتين لا تريان شيئًا. ولم تكن إحسان دونه غمًّا أو كمدًا. فكّرت مثله فيما يمكن أن يتكشّف عنه الغد، وتخايل لعينيها المصير المنتظر. لم يَعْنِها كثيرًا فقدان الآمال البعيدة، ولٰكن كَرَبَها تزعزع الطمأنينة الحاضرة. هل تحرم هٰذه الحياة الناعمة الراغدة؟.. هل ينضب النبع الذي يروي أسرتها العطشى؟ لتجد نفسها يومًا في إحدى مدن الريف ربّة لبيت باهت تقف حياتها على خدمته ورعاية صاحبه؟. هٰذه الخواطر بالأحلام المزعجة أشبه. ولم تَدْرِ كيف تواجهها غدًا إذا صارت حقائق واقعة!. ولكنّ الظاهر أنّ الخبر كان سابقًا لأوانه، ولم يجدا صدًى في الجرائد التي عكفا على قراءتها بعناية. وأكّد لهما كثيرون من

الأصدقاء أنّه لم يئنِ الأوان بعد. وتتابعت آيّام أغسطس في هدوء حتّى ألفا الطمأنينة مرّة أخرى، بل عاد محجوب يذكر والديه ويتساءل عمّا ينبغي أن يصنع بهما. وكان هٰذه المرّة ذا عزيمة صادقة فكتب خطابًا لأبيه يعرب له عن أسفه لعجزه عن معاونته، وذكر له أنّه لا يني عن البحث عن عمل، ووعده بفرج قريب، وقال لنفسه، يسكّن خاطرها: إنّ الرجل يستطيع أن يصبر شهرًا آخر أو شهرين حتّى يدركه بالمعونة في ظروف أنسب؟.. ولٰكنّ الطمأنينة لم تدم. وبُعث الخبر الذي أعلنه أحمد بدير أوّل الشهر من جديد. وتطايرت الإشاعات حتّى ملأت الجوّ. وبات الأفق ينذر بِشرّ مستطير. وعاد الزوجان إلى أفكارهما، وساورتهما المخاوف. وقد قابل محجوب مديره سالم الإخشيدي في مكتبه يومًا ليسأله عمّا هنالك؟ ووجده كما عهده دائمًا هادئًا رزينًا. ولٰكنّه لم يتأثّر بهدوئه ولا برزانته لأنّه يعلم حقّ العلم أنّه لا يخرج عنهما حتّى في أحرج الأوقات. ورفع إليه الرجل عينيه المستديرتين متسائلًا، فسأله الشابّ وقد ظلّ واقفًا:

ـ ما حقيقة هٰذه الإشاعات التي تتناقلها الألسن؟

فسأله الإخشيدي بصوت لم يفقد أيّة رنّة من رنّات الرياسة:

ـ أيّة إشاعات؟

ـ سقوط الوزارة. ماذا وراء الأكمة؟.

فابتسم الإخشيدي وقال:

ـ وراء الأكمة ما وراءها!.

ـ هل حقًّا يمكن أن يزول هٰذا العهد؟

فقال الإخشيدي وقد تملّكته رغبة عابثة في تعذيبه:

ـ كلّ شيء زائل..

فملأه بروده حنقًا وغيظًا حتّى اضطرّ إلى مداراتها بالابتسام وقال:

ـ سعادتك تعلم أشياء وأشياء بلا ريب..

وأبت عليه نفسه أن يقول إنّه لا يعلم شيئًا، فابتسم ابتسامة غامضة وقال بثقة:

ـ انتظر. إنّ غدًا لِناظره قريب..

ـ أما مِن كلمة مطمئنة؟

وعاودته الرغبة في تعذيبه فسأله متجاهلًا:

ـ ماذا يخيفك؟

فاتّسعت عينا الشابّ الجاحظتان دهشة ورفع حاجبيه، ثمّ قال:

ـ ما أجمل أسوان في أغسطس!

فهزّ الإخشيدي كتفيه استهانة وقال:

ـ كلّ مكان ينبت العزّ طيّب.

ـ الإشاعات صادقة إذن...

فصمت الإخشيدي لحظة منقّبًا عن إجابة لا تكشف جهله غدًا أو بعد غد، ثمّ قال:

ـ لا يعلم أحد حتّى هذه اللحظة، أمّا بعد ذلك فالسياسة مجنونة..

وعاد إلى حجرته مغيظًا محنقًا يقول لنفسه: «ابن الستّ أمّ سالم يريد أن يوهمني بأنّه سياسيّ داهية، تبًّا له!».

وعند الظهر ملأت الوزارة إشاعة بأنّ الوزارة قدّمت استقالتها بالفعل، وقال قائل: إنّه اتّصل ببولكلي بالتليفون فأكّد له الخبر. وعمّت الموظّفين حركة عنيفة لا تظهر إلّا إبّان الاستقالات، فانطلقوا في الردهات يتحدّثون بأصوات مرتفعة عن الوزراء الجدد. واضطرب الشابّ أيّما اضطراب ولاح في عينيه الوجوم. وجاءه الساعي وأخبره بأنّ قاسم بك غادر الوزارة، فاتّصل بالإخشيدي بالتليفون وسأله عن الجهة التي ذهب إليها البك، فأجابه بأنّه لا يدري. وخاطب ـ بالتليفون ـ جمهرة من صحبه في الوزارات المختلفة وتلقّى الإجابات: ماذا عندك من الأخبار يا فلان؟ ـ الحالة حرجة، ما آخر الأخبار يا أستاذ؟ قطران، هل من جديد يا فلان؟ ـ ضربوا الأعور على عينه، أسمعت الإشاعات الغريبة يا عزيزي؟ عن الوزارة؟ إلى الجحيم يا سيّدي! وهكذا حتّى أيقن أنّ الوزارة في النزع الأخير. ورنّ جرس تليفونه، وإذا بالمتكلّم إحسان زوجه فأوجس خيفة:

ـ هل جاءك النبأ؟

ـ الوزارة؟

ـ نعم. استقالت..

ـ كيف علمت هٰذا؟..

ـ ملحق الجرائد..

ـ إذاً..

ـ إنّي أكلّمك لأطمئنك.

ـ كيف؟.. هٰذا كلام غير معقول..

ـ بل معقول جدًّا. سأحدّثك بالتفصيل عند عودتك، اعلم الآن أنّ البك قال لي إنّ الوزارة ستتغيّر، أمّا العهد فباقٍ كما كان..

ـ أمتأكّدة أنت؟

ـ ولَديَّ أخبار تسرّك غير هٰذه ستعلمها حين عودتك..

وأغلقت التليفون فنهض الشابّ من فوره وغادر الحجرة. وفي الطريق سمع باعة الصحف ينادون بأعلى أصواتهم على استقالة الوزارة، وآنس الاهتمام والسرور يجريان مع الهواء في كلّ مكان. ذهب الطاغية، غار سفّاك الدماء. وانفكّ حبل الاستبداد عن أعناق المصريّين أو كاد. لم يشاركه أحد سروره، ولولا ما بشّرته به زوجه لانتحب باكيًا. ووجد إحسان في انتظاره، فاستقبلته بابتسامة عذبة، وأقبلت عليه تحدّثه بما عندها من أخبار، وأعادت على مسمعيه ما قالته في التليفون، ثمّ سألته:

ـ أتدري من وزيرك الجديد؟

فسألها متعجّبًا:

ـ من؟

ـ قاسم بك فهمي..

رمقها بنظرة ذاهلة وقد تورّد وجهه، وسألها:

ـ أقال لك هٰذا؟

ـ أجل..

غمره شعور ارتياح وسرور، ولٰكنّه لم يطمئنّ به طويلًا، وما لبث أن نتف حاجبه الأيسر وهو يقول:

ـ وزيرًا!... ليته ظلّ كما كان!.. الوزارة تقليد لا تخليد، فمَنْ لنا غدًا؟..

ولٰكنّ ريبه لم يؤثّر فيها، فقد خالت أنّ الوزارة آلت إليها هي، وقالت بإنكار:

ـ إنّه الوزير، ألا تفهم؟..

ـ بلى يا عزيزتي، هي فرصة سعيدة، بيْد أنّ الوزارة قصيرة الأجل كالأحلام السعيدة، وسيستقيل غدًا أو بعد غد، ونجد أنفسنا بلا نصير، أو تحت رحمة أعداء لا يرحمون...!

فلم تحر جوابًا، ومضت تنتقل إليها عدوى القلق حتّى لعنته في سرّها. وجعل الشابّ يزن الأمور واحتمالاتها بفكر سريع نافذ ثمّ قال:

ـ هٰذه هي فرصتنا الأخيرة، فإمّا نحسن انتهازها فنحن في عيشة راضية، وإمّا ندعها تفلت من أيدينا فالعاقبة الهوان.

والتقت عيناهما، وأدركت ما يرمي إليه، ولٰكنّها انتظرت حتّى يفصح عن رأيه. واستدرك محجوب قائلًا:

ـ إذا استقال ونحن في مركز «معقول» فلن نأسف على ذهابه..!

واستأنف الكلام بعد صمت قليل:

ـ ينبغي أن ألحق بمكتبه..

ـ سكرتيرًا له؟

فهزّ رأسه كأنّه يقول: «هٰذا لا طائل تحته» واستدرك:

ـ سكرتيره درجة سادسة فلا فائدة فيها، أمّا مدير مكتبه فدرجة رابعة!

ـ أيمكن القفز من السادسة إلى الرابعة؟

ـ يمكن ترقيتي إلى الخامسة خصمًا على الرابعة، وفي الكادر تأويلات تتّسع لكلّ شيء، فما رأيك؟

وعضّت على شفتيها لتخفي ابتسامة خيلاء، وكانت تدرك أنّ أيّة درجة يرقى إليها فكأنّما ترقى إليها هي، ولم يداخلها شكّ في أنّ الدرجة الرابعة المرجوّة تستطيع أن تحتفظ لها بمستوى الحياة الذي تتمتّع به الآن، فبادلته شعوره بإخلاص، وتمتمت قائلة بصوت خفيض:

ـ لا أظنّه يرفض لي رجاء...

فقال بحماس وإيمان:

ـ همّتك، همّتك يا بطلة! فعلى نتيجة سعيك يتوقّف مصيرنا.

وفي صباح اليوم الثاني تناول الأهرام باهتمام، ونظر في الصفحة الأولى، فجرى بصره على عمود من الصور، صور الوزراء الجدد. ووجد في وسطه مبتغاه، صورة قاسم بك فهمي، فاستقرّت عليها عيناه، وتنهّد من الأعماق. تُرى هل يتحقّق هذا الأمل!.. هل تستطيع قبلة أو رنوة أو تنهّدة أن تنقله من حال إلى حال، وأن تدفعه من طبقة إلى طبقة؟

ـ ٣٩ ـ

ومضت أيّام قلائل وجعل الوزير الجديد إقامته في القاهرة ـ لا في بولكلى ـ لحالة ربو يعانيها منذ سنوات. وفي اليوم الرابع لتولّيه الوزارة علم محجوب أنّه قد استقرّ الرأي على اختياره لوظيفة مدير المكتب. استقبلته إحسان بابتسامة وقالت بخيلاء «مبارك..» فاهتزّ فؤاده سرورًا، واضطرب اضطراب المفاجأة كأنّه لم يركّز كلّ اهتمامه في هٰذا الأمل طوال الأيّام الأربعة الماضية. صار الأمل حقيقة رائعة. وسيصبح من كبار الموظّفين. ليست الدرجة الخامسة بالحظّ الذي يستهان به، فما بالك إذا كانت خطوة قصيرة إلى الرابعة؟! وتخايلت الرابعة لعينيه مرسومة بألفاظ واضحة، ثمّ تحوّلت إلى صور ذهنيّة على هيئة كرسيّ كبير، وأحاط بالكرسيّ سعاة، ومثل أمامه خلق كثيرون من جميع الطبقات. ولم يَرَ نفسه وهو يتخيّل هذا المجد وإلّا لسخر منه كعادته، فقد قطّب متكبّرًا وألقى على ما أمامه نظرة مرتفعة من رأس شامخ. ولذّ له في تلك الساعة أن يَفِرَ صفحات الماضي القريب: ليالي فبراير، دكّان الفول بميدان الجيزة، رحلة الأهرام، تردّده بين الجيزة وشارع الفسطاط والإخشيدي مادًّا يده بالسؤال، زواجه، ثمّ هذه النهاية!... ولاح له رأسه المفعم جسارة وفلسفة كمصباح يهدي سواء السبيل، فطاب نفسًا، وفرك يديه حبورًا.

وذهب إلى الوزارة مبكّرًا في اليوم الثاني. وجلس إلى مكتبه الذي يوشك أن يهجره، وقد بدا لعينيه حقيرًا، ولكنّه لم يكن أوّل المبكّرين. فتح الباب وبدا عند عتبته الأستاذ سالم الإخشيدي!.. وانقبض صدره انقباضًا لم يَبْدُ على وجهه بطبيعة الحال، ووقف مبتسمًا يستقبل القادم وهو يتساءل في نفسه ما الذي دعاه إلى التنازل عن كبريائه والقدوم إلى مكتبه؟!. ومدّ له يده بسرور وهو يقول:

ـ أهلًا بسعادة البك. تفضّل بالجلوس!.

وجلسا معًا. وجاد الإخشيدي بابتسامة من ابتساماته النادرة، وتكلّم كلامًا عامًّا عن الوزارة الجديدة، والبك الذي ينتظر أن يخلف قاسم بك ثمّ قال بهدوئه المعهود:

ـ لديّ ما أحبّ أن أكاشفك به، وقد أمرت ساعيك بأن لا يأذن لأحد بالدخول..

وحدس الشابّ ما يريد قوله، وأحسّ استياء وحنقًا، ولكنّه قال بلهجته الدالّة على الترحيب والسرور:

ـ حسنًا فعلت، وهأنذا رهن أمرك..

فصوّب الإخشيدي نحوه عينيه المستديرتين وقال:

ـ الأمر جدّ خطير ما دام يتعلّق بمستقبلنا، وسنجني من ورائه نفعًا مؤكّدًا متبادلًا. ولكنّي أحبّ أن أسألك سؤالًا قبل كلّ شيء: ألم تجدني صديقًا مخلصًا؟

ـ بل خير الأصدقاء جميعًا..

قال محجوب ذلك وهو يعجب لهذه اللهجة الليّنة اللطيفة التي لم يتعوّد الإخشيدي الكلام بمثلها من قبل. أين الأمر والنهي والزجر؟ أين البرود والتعالي؟ وقد شعر في أعماقه بدبيب الحنق والسخرية، ثمّ استمع إليه وهو يقول:

ـ شكرًا لك. صداقتنا هذه كنز نفيس. وبفضلها نستطيع أن نقتحم الصعاب يدًا واحدة...

ـ نطقت بالحكمة كعادتك يا بك...

وجعل يقول في سرّه: تكلّم عن الصداقة كيف شاء لك الخداع. فأنا أعرفك كما تعرف نفسك أيّها الشيطان الماكر. وحسبي أن أعرف نفسي كي أعرفك حقّ المعرفة، ولكلّ شيء آفة من جنسه!.

وحدجه الإخشيدي بنظرة ثاقبة وقال:

ـ علمت أنّ مذكّرة تكتب لندبك مديرًا لمكتب الوزير...؟

هذه هي النقطة الجوهريّة. أيريد أن يتنازل له عن الوظيفة!!.. يا له من أحمق. كيف غاب عنه أنّه تلميذه!. إنّ الدين والأخلاق والتقاليد لم تستطع أن تحول بينه وبين هذه الوظيفة، فهل يظنّ أنّ «صداقته» تنجح فيما أخفقت فيه جميع القوى!. قال بهدوء:

ـ أجل. علمت ذلك بالأمس فقط...

فقال الإخشيدي:

ـ إنّ ذلك يسرّني بقدر ما يسرّك، بيْد أنّي أحبّ أن ألفت نظرك إلى أنّ درجة مدير مكتب رابعة وأنت في السادسة، فإذا وجدت درجة خامسة خالية فقد بلغت مرادك. خذ وظيفتي ودع لي وظيفتك الجديدة يتحقّق أملنا جميعًا.

وتساءل محجوب في سرّه أغبيّ هو أم يتغابى؟! فلم يدرك أنّه يطمع في الرابعة نفسها؟ وهب القفز إلى الرابعة تعذّر عليه فهل من شكّ في أنّه يفضّل أن يكونا في الخامسة معًا عن أن يمهّد له سبل التفوّق عليه؟. ونظر إليه متظاهرًا بالاهتمام وتساءل:

ـ وماذا تريدني على أن أفعل؟

فقال الإخشيدي:

ـ صارح الوزير بأنّك قانع بوظيفتي..

وجاءت الدقيقة الفاصلة!. وكان يدرك بلا ريب أنّ أسطورة الصداقة التي تغنّيا بها معًا رهينة بكلمة واحدة، فتردّد قائلًا، وذكر أنّ عداوة الإخشيدي شيء لا يستهان به فليس الرجل بعليّ طه أو مأمون رضوان اللذين لهما من شرفهما وازع. هذا رجل ـ مثله ـ بلا خلق ولا مبدأ، وهو يعرف كلّ شيء، فماذا يصنع؟!... وتفكّر مليًّا. قال إنّ سرّه سيعرف يومًا بلا ريب، إن لم يكن عرفه بالفعل أمثال أحمد بدير، وماذا نال تهكّم بدير من أبطال حفلة جمعيّة الضريرات؟!... طظ؟!. كلّا ثمّ لا ينبغي أن يتردّد، وليذهب الإخشيدي وصداقته إلى الجحيم!. واجتاحته عاصفة استهانة، فقال:

ـ ألا ترى يا سالم بك أنّ هذا معناه رفض شرف آثرني به الوزير؟!

فرمقه الإخشيدي بنظرة غريبة كأنّها تقول له: «يا بن اللئيمة!». ولكنّه حافظ على هدوئه بقدرة عجيبة، وصمت برهة، وقد همّ بمراجعته، وأوشك أن يرسم ابتسامة من ابتساماته، وانتظمت على لسانه عبارات لطيفة، وكاد يذكر كلامًا عن الصداقة والتعاون، ولكن إرادته منعت ذلك كلّه، فظلّ صامتًا جامد الوجه والنظرة، واكتفى بأن تساءل بلهجة لا تدلّ على شيء:

ـ أهذا رأيك؟!

فقال محجوب بغير مبالاة وقد تلبّسه شيطانه:

ـ أجل. ألا تشاركني رأيي؟!

فتمتم الإخشيدي وهو يحوّل عنه عينيه:

ـ معقول. لك حقّ. أشكرك. مبارك!

وغادر الحجرة بخطاه الوئيدة وقد عاوده كبرياؤه. وارتفق محجوب مكتبه متفكّرًا!. سبق أن خسر عليّ طه ومأمون رضوان وكان ينسى سريعًا. أمّا هذه المرّة فقد ساوره الخوف، وقد ثار بخوفه، وكوّر قبضته غاضبًا، وكأنّما أراد أن يتناسى همّه فنهض قائمًا، وغادر الحجرة إلى إدارة المستخدمين ليطّلع بنفسه على مذكّرة ندبه...

ـ ٤٠ ـ

واحتلّ الأستاذ محجوب عبد الدائم ـ أو محجوب بك عبد الدائم من الآن فصاعدًا ـ حجرة مدير مكتب الوزير. ووفد عليه كبار موظّفي الوزارة مهنّئين. فكان يومًا عظيمًا ومجدًا مشهودًا. وهنّأه البعض بالدرجة الرابعة «مقدّمًا» كأنّها باتت أمرًا مفروغًا منه!. أمّا سالم الإخشيدي فلم يهنّئه. وأعلن بذلك عداوته صراحة. وقد ذاع خبر في الوزارة بأنّ الإخشيدي سينقل إلى الخارجيّة وبأنّه سيرقّى هناك إلى الرابعة. فلم يغب عنه المصدر الذي خرج منه الخبر، ولكنّه لم يستبعد صحّته، لأنّه كان يعلم بصلات الرجل بكبار رجال الدولة، وقد قال لنفسه: «الإخشيدي قويّ بلا

جدال، ولولا زوجي ما تغلّبت عليه ولكان اليوم في مكاني هذا...». وداخله سرور. فإذا نقل الإخشيدي حقًّا خلا له الجوّ وصار رجل الوزير الأوّل، كما صارت زوجه من قبل امرأة الوزير الأولى؟ سرّ لذلك بلا ريب، بيْد أنّ سروره لم يدم طويلًا. عاد يفكّر في غضب الإخشيدي وانتقامه وفيما عسى أن ينجم عن هذا وذاك. وسرعان ما أدركته روح الاستهانة فاستردّ مرحه وجعل يقول لنفسه: إنّ الناس يحبّون المظاهر ويخدعون بالرياء، فإذا اضطرّ للدفاع عن نفسه عاطاهم ما يشتهون من تظاهر ورياء، ولو بلغ به الأمر أن يشترك في جمعيّة الشبّان المسلمين مثلًا!. فطظ في كلّ شيء إلّا الناس، على الأقلّ في العلانية. ولكنّه لم ينتبه عند ذاك من الإخشيدي وغضبه، خطر له خاطر أزعجه أيّما إزعاج وقد عجب كيف أنّه لم يخطر له من قبل؟ الإخشيدي جار قديم من القناطر ألا يجوز أن تبلغ به الرغبة في الانتقام أن يفشي سرّه بطريقة ما إلى والديه؟ ازدرد ريقه بصعوبة وقد علت وجهه صفرة باهتة، وجعل ينتف حاجبه متفكّرًا مغتمًّا. ولبث متفكّرًا مغتمًّا حتّى كبر عليه أن يذهب سروره - يوم مجده - ضحيّة وساوس قد لا يكون لها أثر من الحقيقة، فنفخ مغيظًا محنقًا، وكوّر قبضته غاضبًا، وقال لنفسه: قضي الأمر، وكان ما كان، فليكن ما يكون. وبعيد جدًّا أن يبلّغ الإخشيدي حقيقة زواجه فإنّه هو أيضًا يعرف عنه حقائق ليست دون زواجه خطورة. ثمّ إنّ الإخشيدي أحكم من أن يفشي سرًّا يتعرّض به لغضب قاسم بك، ولكنّه من ناحية أخرى ينبغي أن يتوقّع أن يعلم أبوه بنبأ تعيينه فيحسن به أن يدبّر للرجل ما يقيم أوده ويصون كرامته. وأراد أن يطرد همّه، فبسط ورقة على مكتبه، ورسم رقم مرتّبه الجديد: ٢٥ جنيهًا؟ وثبّت عليه عينيه الجاحظتين حتّى ابتسمت أساريره. سيقبضه أوّل أكتوبر، وما أوّل أكتوبر ببعيد، فهل يمكن أن يتصوّر ذلك بائع الفول بميدان الجيزة؟. بل مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتّبه بعد عودته من البعثة - بعد ثمانية أعوام - على مرتّبه هذا!. نجحت طظ نجاحًا باهرًا! وقد ارتاح لذلك ارتياحًا عزّاه عن كلّ ما لاقى من ألم ونصب وقلق وأحزان. وسرّ سرورًا خالصًا ببراءته من ذلك المرض الوهميّ الخبيث الذي يسمّونه الضمير أو الندم. حقًّا خاف أحيانًا الناس، وعذّبته الغيرة أحيانًا أخرى، ولكن هذا شيء والندم شيء آخر. كان كفره بالقيم والمجتمع كاملًا باهرًا، وإنّه ليؤمن بأنّه سيظلّ قويًّا حرًّا، ما امتدّ به العمر؛ وأنّه لن يلين أو يضعف إذا أقعده مرض أو ردّ إلى أرذل العمر، وما أجمل أن يستهين بالموت - إذا حضره الموت - وأن يرمق العدم بعين التسليم بالواقع دون فزع إلى قوّة وهميّة أو إله باطل. هذا هو انتصار العقل الحرّ على الغرائز العمياء والأوهام الباطلة!. وتذكّر قاسم بك فهمي والإخشيدي وعشرات ممّن اتّصل بهم في حياته الجديدة، كلّ أولئك يبدون كأنّهم من مدرسته. كلّا. إنّه يرفض ذلك رفضًا متعجرفًا! أولئك يفعلون الشرّ وهم يعرفون أنّه شرّ، ومنهم من يفعله وهو لا يميّز الخير من الشرّ، ومنهم من لا يحمّل نفسه مشقّة التفكير بتاتًا، ومنهم من يفعله وهو يؤمن بالخير. هو غير هؤلاء جميعًا. إنّه ينكر الخير والشرّ معًا. ويكفر بالمجتمع الذي صنعهما، ويؤمن بنفسه فقط: يوجد لذيذ ومؤلم، ونافع وضارّ، أمّا خير وشرّ فمحض وهم باطل. وربّ قائل يقول: «لو آمن كلّ بهذا لهلك الناس جميعًا». هذا حقّ لا جدال فيه. ولكنّه ليس أحمق كي يدعو لرأيه هذا. إنّه يحتفظ به لنفسه، وإذا قال تكلّم غيره، فرزق أمثاله من الأحرار على الحمقى من المؤمنين!. والمجتمع متسامح مع أمثاله إذا أحسنوا التخفّي، فالمجتمع لا يعنيه إلّا أن يحافظ على ذاته، ويعادي في ذلك حتّى عشّاقه الذين ينشدون له الكمال أمثال: عليّ طه ومأمون رضوان. فهو كالمرأة المغرورة إذا آنست من عاشق انتقادًا نبذته، ولذلك فنصيب هؤلاء التعب والكفاح وربّما السجن!.

طابت الحياة إذًا. ثمّ ذكر أمرًا فاستدرك قائلًا: «إلّا شيئًا واحدًا»، هي إحسان!. أو هي تلك العاطفة المستبدّة التي لا تقع بغير الحبّ. وأين الحبّ؟ الفتاة تشاركه آماله، وتحسن معاشرته، ولكنّه يشعر بأنّها

تؤدّي واجبًا بإخلاص. إنّها كالموظّف الذي يحبّ الوظيفة دون عمله بالذات. أو هو لا يحبّه ولا يكرهه. ارتبط مصيرها بمصيره، هي تحبّ الحياة كما يحبّها، وتهوى الترف كما يهواه، ولٰكن ينقصه شيء كي يكمل هٰذا الامتزاج حقًّا، شيء يروعه افتقاده حتّى في تلك الأويقات التي يبدوان فيها سعيدين ثملين، والشفة على الشفة والصدر ملتصق بالصدر. وليس هٰذا بالشيء الذي يهون وإن قال عنه ـ في غمرة اليأس ـ طظ. بل إنّه لَيحدث في نفسه ثورة شبيهة بتلك الثورة التي أحدثها الجوع من قبل. ولذٰلك فكّر جدّيًّا في أن يسطو كما يُسطى عليه، بل عابثته فكرة اكتراء حجرة وتأثيثها استعدادًا للطوارئ، ومن يدري؟.. فلا يبعد أن يقصد إليها غدًا أو بعد غد ذوو الحاجات، وكما أعطى ينبغي أن يأخذ!

* * *

وعند مساء ذٰلك اليوم ـ يوم مجده ـ وفد الأصدقاء على الشقّة الأنيقة بعمارة شليخر ليقدّموا التهاني لزوج مدير المكتب، وجرى الحديث في مرح وسرور، وقد اقترح البعض أن يحتفلوا جميعًا بترقية محجوب. وقال أحدهم مخاطبًا إحسان:

ـ في يوم الخميس القادم ينتصف الشهر العربيّ، ويتربّع البدر في كبد السماء، وتمسي القناطر قبلة الواردين، فما رأيك في رحلة قَمَريّة؟... (وهنا لحظ عفّت بطرف خفيّ واستدرك غامزًا بعينيه) وعفّت بك يملك يختًا صغيرًا جميلًا...؟!

وسرّ عفّت سرورًا كبيرًا، وكان إعجابه بإحسان يزداد يومًا بعد يوم. وقال بسرعة دلّت على حماسة للقبول:

ـ اليخت وصاحبه رهن أمركم!

وممّا سمع اسم القناطر حتّى سرت في جسده قُشَعْريرة باردة، وكان يعلم أنّ حماس الصِحاب ليس لشخصه هو، فقال معترضًا:

ـ هٰذه النزهة القمريّة لا توافق جوّ سبتمبر الرطب البارد..

فضحك عفّت وقد أشفق من أن تفلت من يده الفرصة السانحة وقال:

ـ لا شكّ أنّ وظيفتك الكبيرة قد بثّت في نفسك شيئًا من الشيخوخة فبتّ ترجف من الجوّ اللطيف..!

وكان هٰذا «المدح في قالب الذمّ» جديرًا بأن يلذّ محجوب في ظروف أخرى، ولٰكنّه لم يستطع أن يتذوّقه في رعبه، وقال بحميّة:

ـ الدنيا واسعة، اختاروا أيّ مكان تحبّون، أمّا القناطر..

واعترض عليه كثيرون فضاعت بقيّة كلامه، ولم يَدْرِ كيف يقنعهم ويحوّلهم عن رأيهم، ولبث حيال احتجاجهم مقهورًا، بينما راح عفّت يقول:

ـ ليس ثمّة فائدة ترجى من الاعتراض، والأَوْلى بك أن تصغي إليّ... سينتظر اليخت عند قصر النيل في الساعة التي تتّفقون عليها.. أطعمة جافّة لطيفة... زجاجة ويسكي لكلّ ثلاثة... دعوني أحصيكم...

وعلا ضجيج الاستحسان، وشاركتهم إحسان سرورهم، وجعل محجوب يقلّب عينيه في وجوههم حائرًا وعلى شفتيه ابتسامة لا معنًى لها. لن يجد من رحلة القناطر مهربًا، سيقطع حدائقها ذهابًا وإيابًا في ضوء القمر، أليس من المحتمل أن يلقى أحدًا من أهلها الذين يعرفونه؟.. بلى، هٰذا محتمل، ويحسن به والحال كذٰلك ألّا يبرح اليخت منتحلًا عذرًا، أجل لن يستطيع مقاومة العربيدين العنيدين، فليذهب إذا لم يكن من الذهاب بدّ، والحدائق على أيّة حال بعيدة عن المحطّة، بعيدة عن البيت البائس الباهت...

ـ ٤١ ـ

ومضت أيّام تمتّع فيها بوظيفته الخطيرة متعة صافية. وقد شعر جميع الذين يتّصلون به من الموظّفين ـ صغارًا وكبارًا ـ بأنّه موظّف متعجرف ينبغي أن تؤدّي إليه حقوقه كاملة، ولا يعفو عن زلل ولا يتكلّم إلّا آمرًا. وكان كلّما لان الموظّفون ـ ولا بدّ أن يلينوا ـ تمادى

وطغى، واستلذّ تماديه وطغيانه، حتّى ودَّ في أحايين لو يمضي يومه كلّه في الوزارة آمرًا زاجرًا. . . !

وجاء يوم الخميس، موعد النزهة. فغادر الزوجان بيتهما ومضيا في طريق قصر النيل، وقالت إحسان بتأفّف وهما يقطعان طريقهما:

ـ لعلّك الوحيد في الجماعة الذي لا يملك سيّارة. . !

فضحك محجوب قائلًا:

ـ في التأنّي السلامة. . . !

ولكن ملاحظتها حملته على أن ينادي على تاكسي فيستقلّانه على قرب المسافة. وذكر لهجتها المتأفّفة فقال لنفسه ساخرًا: «عيب كبير ألّا يكون لكريمة عمّ شحاته تركي سيّارة خاصّة!»، ثمّ ذكر الأعباء التي تواجهه بها الحياة الجديدة كرغبته في اكتراء حجرة وتأثيثها، واقتطاع بضعة جنيهات من ماهيّته لوالده، وغير هٰذه وتلك من وجوه الترف والإنفاق، فهاله الأمر. وحدّث نفسه قائلًا: «سأظلّ ما حييت فقيرًا إلى المال!». وبلغا مرسى اليخت بعد قليل. فغادرا التاكسي وأقبلا نحو الأصدقاء المنتظرين وقد غشي الظلام الآفاق. واستقبلا استقبالًا جميلًا، وتقدّم عفّت بك من الزوجين وصافحهما، وأعطى ذراعه لإحسان فتأبّطته وسارا في الطليعة إلى اليخت. ولم يكن محجوب يحبّ صاحب اليخت، وقد بدأ يخامره النفور نحوه منذ لبّى دعوته إلى الفانتزيو. قرأ في عينيه الجميلتين آي الإعجاب بزوجه فامتعض وتميّز من الغيظ، ورمق شعره الأحمر وبشرته البيضاء وجسمه الرياضيّ بعين المقت والغضب. . .

وكان اليخت صغيرًا، ولٰكنّه جميل أنيق. وكان مكوّنًا من طابقين، بالأوّل المقصورات، والثاني سطح مسوّر اصطفّت به المقاعد الوثيرة على هيئة دائرة، وفي المقدّمة منه امتدّت الموائد حافلة بما لذّ وطاب. وقد أمر عفّت بك بالإبحار فرفعت المرساة، وأبحر اليخت ميمّمًا شطر الشمال، في هداية نور القمر البهيج وسط الأفق الشرقيّ صاعدًا من وراء النخيل. هكذا بدأت الرحلة. . .

وجلس الأصدقاء على المقاعد متقابلين، وراحوا يسمرون في جوّ لطيف رطيب. وجعل محجوب يردّد ناظريه بين الوجوه المشرقة والقامات الهيف فبهره الشباب والجمال ورأى زوجه بعيدًا عنه في هالة من الإعجاب والمعجبين، فذكر أيّام كان يطالعها عن بعد من نافذة حجرته بدار الطلبة بَيْد أنّه رآها الآن أبهى ما تكون جمالًا وسحرًا، واستشعر الهوّة العميقة التي تفصل بينهما! وجرت أمام مخيّلته صور سريعة مضطربة، فرأى عليّ طه ـ في حالتي سروره وحزنه ـ وعمّ شحاته تركي، والوزير، وسالم الإخشيدي، ومخدعه بعمارة شليخر!. ووجد نفسه يتساءل أيفضّل لو كانت إحسان له قلبًا وجسدًا في بيت زوجيّ هادئ «شريف» ولو كان موظّفًا صغيرًا بلا مجد؟!. ولم يجد الجواب حاضرًا، أجل كان طموحه قويًّا كعاطفته، بل لعلّ طموحه أقوى. ولٰكن ما جدوى المفاضلة؟!، وألقى بنظره إلى النيل يتسلّى، ثمّ رفع بصره إلى البدر الآخذ في الصعود والصفاء، كلّما امتدّت ظلمة الليل أذكت نوره وبهاءه، ولٰكنّه لم يكن من الذين تفتنهم الطبيعة بمحاسنها، وكان يلذّ له أن يقول: إنّ الهيام بالطبيعة مفسدة للعقل، ومصدر منذ الأزل لجهالات لا نزال نرسف في أغلالها. وذكر صاحبه مأمون رضوان وكيف كان يستيقظ في الفجر للصلاة والعبادة، وكيف كان يقلّب وجهه بين النجوم الساهرة ويتلو: «والليل إذا يغشى»، «والسماء والطارق» بصوت حنان، وعيناه الصافيتان تلمعان لمعان النجوم الزاهرة. ولٰكن هل يوجد بين هٰؤلاء الشبّان والشوابّ من يعشق الطبيعة؟، وألقى عليهم نظرة شاملة فوجدهم في شغل عن الدنيا بأنفسهم.

وسمع آنسة فيفي تتساءل في إغراء:

ـ لماذا لا نرقص. . !

فقال عليّ عفّت من فوره:

ـ ارقصوا إذا شئتم، ولكن هل ترقصون بلا موسيقى؟

فقال أحمد عاصم:

ـ أبشروا لقد أحضرت معي موسيقى اليد.

وتصاعدت أصوات الاستحسان، ودارت العيون تتصيّد الأحباب، وتناول أحمد عاصم آلته ولعب بها وهو يتمايل على مقعده مع أنغامها الراقصة، ونهض الجميع للرقص إلّا إحسان ومحجوب اللذين يجهلانه وعفّت بك الذي آثر أن يجلس إليهما. وجعلوا يشاهدون الراقصين في صمت وإعجاب. ثمّ أعلن عفّت بك إنكاره لجهلها الرقص، وقال لإحسان:

ـ سأعلّمك الرقص، فإنّه لا يجوز أن تجهليه، . . ما رأيك؟

فتمتمت وعيناها لا تفارقان الراقصين:

ـ لا أدري . .

ـ غريب من يجهل الرقص في الحفلة الرائعة، أليس هٰذا رأيك يا محجوب بك؟

فشعر محجوب بالخطر المحدق به، وأراد أن يزوغ منه، فقال بعدم اكتراث:

ـ لا أظنّ . .

فضحك عفّت ضحكة عالية وقال:

ـ يا لها من أسرة من صميم القرن التاسع عشر . .

وضحكت إحسان لضحكه وقالت:

ـ قد نتتلمذ لك يومًا ما . .

فلاح الحماس في وجه الشابّ وقال بسرور فيّاض:

ـ في أيّ وقت تشائين . .

ولازم محجوب الصمت متظاهرًا بالاهتمام بمراقبة الراقصين، وهو يكظم حنقه وثورته. إنّ الشابّ الأحمق التيّاه بجماله يتحفّز للانقضاض على عرضه، وإنّه لفاعل إذا وجد غرّة، ولٰكن هيهات أن ينهزه فرصة، فليس لأحمق مثله أن يُنبت في رأسه قرنًا جديدًا، . . لقد وهب رأسه للقرون الذهبيّة، قرون المجد والسلطان. ولٰكن تُرى هل تستجيب لغزله؟ هل تلين هٰذه الفتاة الغامضة الفاتنة؟ وأحسّ أنياب الغيرة السامّة تنهش صدره.

ورقص الراقصون حتّى أدرك أحمد عاصم التعب ـ أو الملل ـ فكفّ عن اللعب، وانفرط عقد المتجاذبين، فعادوا إلى جلستهم الأولى مشرقة وجوههم بالابتسام. وكان البدر قد علا في السماء وانسكب نوره إلى مياه النيل المتموّجة فتقاذفته ونثرته كاللؤلؤ يخطف الأبصار.

وتساءل البعض:

ـ متى نفتح البوفيه؟

فردّ عليه قرين:

ـ ليس قبل أن يرسو اليخت إلى شاطئ الحديقة يا جائع؟

فقال آخر:

ـ هل لكم في لعب الورق؟

ولٰكن اعترض كثيرون على الاقتراح أن يلهيهم عن صفوهم، وعادوا إلى السمر، وانتبه محجوب من أفكاره على صوت الأستاذ حسني شوكت وهو يقول:

ـ كيف لا يكون أمرًا خطيرًا؟! . . إنّ نجاح الحزب النازيّ في الوصول إلى الحكم أمر جدّ خطير.

فقال أحمد عاصم:

ـ ولٰكن شخص الرئيس هندنبرج حقيق بأن يبتلع هتلر.

ـ انظر إلى الأفق، ألا ترى أنّ هتلر في عنفوان الشباب والرئيس في نهاية العمر؟

ـ إذًا سيتمخّض الغد عن حرب ضروس . .

ـ كلام معقول، بَيْد أنّ فرنسا لا تتريّث حتّى تستعيد ألمانيا قوّتها وتتجمّع للانقضاض عليها، وهنالك حلقة محكمة حول ألمانيا من البلدان الموالية لفرنسا كبولندا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان، ولا تَنْسَ أنّ إيطاليا العظيمة تعدّ نفسها حامية النمسا، فما هو إلّا أن تتصافح هٰذه البلدان، وربّما انضمّت إليها روسيّا فتضيق الحلقة الفولاذيّة رويدًا رويدًا حتّى تخنق ألمانيا في النهاية وتقضي عليها القضاء الأخير.

ـ وإنجلترا؟ . . هل تتغاضى عن خنق ألمانيا؟؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ إنجلترا أمكر من أن تترك فرنسا ـ أو غيرها ـ تسيطر على القارّة الأوربيّة.

أصغى محجوب إلى الحديث باهتمام، وكان على اطّلاعه الواسع على السياسة الداخليّة عظيم الجهل بالسياسة العالميّة، فاقترح على نفسه أن يُعنى بمعرفة الأخبار الخارجيّة حتّى لا يفوته الكلام فيها إذا لزم

الأمر، وتظاهر بتأمّل القمر والغياب عمّا حوله حتّى لا يلاحظ أحد صمته. فغاب حقًّا عن الحديث دقائق، ولـمّا عاد بوعيه إلى الجلوس، وجد الحديث قد طرق الأحوال الداخليّة دون أن يدري كيف. وسمع بعضهم يقول:

ـ أمّا مصر فيستطيع أيّ حاكم أن يستبدّ بها دون كبير خطر.

ـ الواقع أنّ أيّ نظام من أنظمة الحكم يستحيل ديكتاتوريّة إذا طُبّق في مصر.

ـ هذا وطن «ضربك شرف يا أفندينا»...

وقال أحمد عاصم بلهجة اليقين:

ـ لن تظفر مصر باستقلالها أبدًا...

ـ استبدّت بها عادة الحكم الأجنبيّ!

فضحك عفّت وقال:

ـ وما حاجة مصر إلى الاستقلال؟. أمّا الزعماء فيتعاركون على الحكم، وأمّا الشعب فغير أهل للاستقلال.

ووجد محجوب الفرصة سانحة ليقول قولًا «أخلاقيًّا» وليُحْدِث لنفسه سمعة إيجابيّة، الأمر الذي اجمع على تحقيقه حين فكّر في الاشتراك في جمعيّة الإخوان المسلمين، فقال مبتسمًا:

ـ ألا يسوؤك أن تقول هذا القول عن قومك..!

فضحك عفّت مرّة أخرى وقال بصوت مرتفع:

ـ لا تجري في عروقي نقطة دم مصريّة واحدة.

وأحدث قوله عاصفة من الضحك، أمّا محجوب فتضاعف مقته له، لا غضبًا لوظيفته، ولكن ثورة لكبريائه، وذكر خطبة رنّانة ألقاها والد عفّت في مجلس الشيوخ فظنّ أنّه قبض على عنق الشابّ، وقال بلهجة الظافر:

ـ فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ، عند مناقشة الميزانيّة، التي دافع بها عن الفلّاح دفاعًا وطنيًّا مجيدًا؟!

فقهقه عفّت وقال كالساخر:

ـ هٰذا في مجلس الشيوخ، أمّا في البيت فكلانا متّفق ـ أنا ووالدي ـ على أنّ أنجع سياسة مع الفلّاح هي: السوط.

وضحك الحاضرون ـ من الجنسين ـ ضحكًا عاليًا. وابتسم محجوب يداري هزيمته، وقد أفرخ روعه، وارتاح إلى تفرّده بالدفاع عن «القوميّة المصريّة»، وقال لنفسه: «إنّ بدلة التشريفة الحقيقيّة هي ثوب الرياء فلا يفوتني ذلك!» وتساءل ساخرًا: تُرى كيف يصلح عليّ طه هذا الشعب الكريم؟ وكيف يحقّق مثله العليا؟

ومضى الوقت واليخت يشقّ الأمواج وكأنّه يسبح في النور السنيّ، وانتبه محجوب مرّة ثالثة على قول شابّ:

ـ .. فما من شكّ أنّ الزوجة أجبرت الباشا زوجها على الإقامة في فندق إبقاءً على سائق السيّارة.

فسألت إحدى الفتيات باهتمام:

ـ وهل حقًّا خيّرَها الباشا بين بقائه هو أو السائق؟

ـ نعم.

ـ وماذا كان جوابها؟

ـ السائق..؟

ولبث يلتقط الأحاديث من هنا وهنالك، طورًا في يقظة وانتباه، وطورًا شاردًا ذاهلًا، حتّى لاحت الحدائق ساهرة في ضوء القمر كأعذب الأحلام. ونهض الصحاب مهتمّين. ثمّ دعاهم عفّت بك إلى البوفيه.

ـ ٤٢ ـ

استبقوا إلى الموائد، واتّخذوا مجالسهم، وأترعت الكئوس، وملأ عفّت كأس إحسان، وكانت أوّل مرّة تشرب في جماعة، فقالت بصوت خفيض:

ـ حسْبي كأس واحدة.

فقال الشابّ ضاحكًا:

ـ هلّا تلفّعت بخمار التقوى وذهبت إلى «السيّدة» للوعظ والإرشاد؟!

ثمّ همس في أذنها:

ـ انظري إلى حكمت، إنّها تشرب زجاجة كاملة دون أن يبوح لسانها بسِرّ.

ورأت إحسان الجميع ينظرون إليها لتبدأ بافتتاح

الحفل، فرفعت كأسها في شيء من الارتباك، فارتفعت الأيادي بالكئوس، وهتفوا جميعًا باسم مدير المكتب، ثمّ أفرغوا كئوسهم حتّى الثمالة. وسرعان ما مزّقت السكاكين اللحوم، ثمّ التقطتها الشوكات وسلّمتها إلى الأفواه النهمة، وتحوّل المقصف إلى ميدان، دارت به معركة بالغة في عنفها، بالغة في لذّتها، وتعدّدت ضحاياها من الأطعمة والأشربة. وتنبّهت إحسان إلى أنّ عفّت بك يتعمّد أن يلمسها وهو يميل نحوها ليملأ كأسها، وأنّ حذاءه مسّ حذاءها أكثر من مرّة، ولٰكنّها لم تشجّعه. وأكل محجوب وشرب بنَهَم، لا طلبًا للذّة، ولٰكن هربًا من مشاعره، لأنّه ما انفكّ يفكّر في البيت القائم أمام المحطّة مُذ رسا اليخت إلى شاطئ الحديقة، تولّاه شعور بالكآبة والخوف لم يستطع منه فكاكًا، تُرى ماذا يفعل والده في هٰذه اللحظة؟، ألا يزال والده طريح الفراش؟ وما عسى أن تفعل أمّه؟.. هل نفدت النقود؟.. هل باعا بعض الأثاث القديم؟ ألا يحتاجان لشيء من فُتات هذه المائدة؟.. كيف يتخلّص من شعور الضيق والكآبة؟! من له بمَن يخضع شعوره لقسوة عقله الحرّ؟! وقد أفرط في الشراب، وثرثر بغير حساب، ولم يألُ جهدًا في الهرب من باطنه، والارتماء بين أيدي المحيطين به واختلط الحديث أيّما اختلاط، وسأل سائل جماعة المتزوّجين: هل حقّق الزواج أحلامهم؟ وتبادل الأزواج نظرات الحيرة وضجّوا ضاحكين. وسأل آخر عن أمتع ما في الزواج؟ فقال شابّ متزوّج: إنّه الحبّ، وقال آخر: إنّه الخلاص من الحبّ!، وقال ثالث: إنّه تحديد النسل!، وأجاب محجوب في سرّه: «بل هو القرن الذهبيّ!» وقال حسني شوكت بلا مناسبة:

- خسرت في الأسبوع الماضي خمسة عشر جنيهًا.

فقالت له خطيبته:

- البقيّة في الأسبوع القادم!

وقال أحمد عاصم:

- يقولون إنّ سيّئ الحظّ في القمار سعيد في الحبّ.

فقالت فتاة مبتسمة:

- ذٰلك لأنّ سيّئ الحظّ في القمار لا يعرف الغشّ!

وقال شوكت مرّة أخرى:

- إنّ أعجب مقامرة شاهدتها في حياتي كانت مقامرة شابّ بعشيقته!

فلاح الاهتمام في وجوه الجميع وسأله كثيرون:

- حقًّا؟.. وكيف كان ذٰلك؟

فأجاب الشابّ الثمل قائلًا:

- إنّه صديق حميم، وقد اصطحب يومًا عشيقته إلى نادٍ خاصّ من أندية القمار، فخسر جميع نقوده، وكانت الخمر قد لعبت برءوس الجميع فاقترح عليه سكران أن يقامر بعشيقته على كلّ خسارته، فإمّا استردّ نقوده وإمّا خسر عشيقته، فقبل الاقتراح وقامر عليه وخسر عشيقته..

- وهل رضيت المرأة؟!.

- كانت في حالة سكر بيّن، وقد انتقلت ملكيّتها إلى الرابح، أو - وهو الأصحّ - انتقلت ملكيّته إليها.

- مَن عسى أن يكون ذٰلك الصديق؟.

- أمّا هٰذا فلا، لأنّ أحد الطرفين موجود بيننا.

وتبادلت الأعين نظرات الإنكار، وابتسمت الثغور في ريب، ولاح الفضول في جميع الوجوه خاصّة النساء، وسألت إحسان عفّت بك:

- من هٰذا المقامر يا تُرى؟

فسرَّ الشابّ بسؤالها وفسّره على هواه، ثمّ قال:

- لا يدري ذٰلك إلّا الأستاذ شوكت، ولعلّه لا يدريه أيضًا.

- أيعجبك هٰذا النوع من القمار؟

فقال كالساخط:

- أنا لا أقامر بمن أحبّ..

وأدركت أنّها تكلّمت أكثر ممّا ينبغي، وأجمعت على ألّا تشرب غير كأسها الثالثة، ودارت رءوس ورءوس، فتشاحن زوجان علانية وتبادلا السباب، وكاد الأستاذ حسني شوكت يفقد صوابه، وانتشى محجوب عبد الدائم ولعبت الخمر بعقله فتناسى همومه وأكبّ على الحديث والضحك.

ولـمّا فرغت الصحاف والزجاجات هتف بهم عفّت قائلاً:

ـ هلمّوا إلى الحديقة . .

وردّدوا قوله: «إلى الحديقة . . إلى الحديقة» ومضوا أزواجًا وأفرادًا. وأراد محجوب أن يتخلّف في اليخت كما كان اعتزم، وتنحّى جانبًا، بالرغم من سكره الشديد، ولٰكن لاحت منه نظرة فرأى زوجه متأبّطة ذراع عفّت بك في مقدّمة الراحلين، فهاج دمه، وقرض أسنانه بحنق، وعثر به بعض الإخوان فتأبّط ذراعه ودعاه إلى المسير معه، فلم يقاوم، ونسي عزمه ومخاوفه. وكانت الحديقة تموج بجماعات المرتادين نساء ورجالًا، بين سائرين يتضاحكون، وجالسين يأكلون ويشربون، وهٰؤلاء وأولٰئك ينفثون المرح في كلّ مكان، وقد ألّفت بينهم جميعًا دواعي الغبطة وأواصر الشباب والسرور وحبّ الفكاهة والمزاح، فاشتبكوا في الحديث على غير سابق معرفة، وتراشقوا بالنكات بغير استئذان، صاعدين هضبة معشوشبة أو هابطين مسيلًا بين الزهور، معتصمين بخميلة من اللبلاب والياسمين أو عابرين قنطرة على جدول يسيل بلجين القمر، والبدر يطلّ عليهم من علياء السماء في موكبه الأبديّ تحفّ به الكواكب والنجوم، غامرًا الدنيا بنوره البهيّ، وطابت النفوس وصفت، فراح ذوو الأصوات الجميلة يسجعون الأغاني. وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار. وكان أصحاب اليخت يمضون في المماشي باعثين ضجيجًا صاخبًا، وكان الأستاذ حسني شوكت يعربد بلا مبالاة، فلفت نحوهم الأبصار. وسار محجوب إلى يمين زوجه ـ وعفّت بك إلى جوارها ـ وقد بلغ به السكر. وكان يتكلّم ويضحك ولٰكنّه كان متغيّظًا على الفتى الذي يلازم زوجه كظلّها، وعلى سكره ومرحه لم يستطع أن ينسى أنّه في القناطر، في بلده، على كثب من والديه البائسين، فجعل ينظر فيما حوله بحذر، ويقاوم جهده شعور القلق الذي يساوره. وفكّر أكثر من مرّة أن يقفل إلى اليخت، ولٰكنّه ظلّ مستسلمًا لتيّار الرفاق. وحدث أن أوقفهم حسني شوكت عند بائع تين ليبتاع منه، وكان البائع عجوزًا يتوكّأ على عصًا من كبَر وعجز، تذكّر محجوب أباه في غمضة عين، وجدُوا في طريقهم وصورة الرجل لا تفارقه، فأبوه إذا قدّر له أن يترك الفراش فلن يكون إلّا صورة من هٰذا الرجل، ولن يخطو خطوة بغير عصًا يتوكّأ عليها. وتفكّر مليًّا ثمّ قال لنفسه: ولا يبعد إذا تحطّمت وسائله أن يرفع سلّة تين ويسرح بها!. ومن يدريه فلعلّه يسرح الآن بسلّة تين في موضع ما من البلد؟ وألقى بطرفه ناحية المحطّة وهو يمشي كالمترنّح وقد انقبض صدره انقباضًا شديدًا. لم يعد يشارك الرفاق لهوهم وسرورهم، وولّى عنه الصفاء والسرور، وغلبه القلق والحزن والخوف. كان مجيئه خطأً كبيرًا، ولٰكن هل كان تخلّفه يغيّر من واقع الأمر شيئًا؟ . . إذا كان تقدير أبيه صادقًا فقد مضى عليه الآن ثلاثة أشهر وهو بلا عون، فماذا صنع بنفسه وبأمّه . .؟ وكيف واجه عبوس الحياة في عجزه ومرضه؟! ثلاثة أشهر أو يزيد: يونيه ويوليه وأغسطس، وهٰذا الأسبوع من سبتمبر، أي ذٰلك الزمن الذي ذاق فيه حلاوة العيش وطيب الحياة، وثقل رأسه، وخمدت نشوته مخلّفة خمارًا مصدّعًا، وخانته جراءته التي تستهين بكلّ شيء، حتّى تساءل فزعًا: أهٰذه يقظة ما يسمّونه بالضمير؟ أبَعْد تلك الثورة المدمّرة التي شملت حياته الجامعيّة كلّها، وبعد مواجهة التجربة الخطيرة ثلاثة أشهر كاملة والظفر بالنجاح المطلق، يجد نفسه في هٰذه الحالة الزريّة من الجبن والألم؟ وكوّر قبضته بعنف، ورفض بعناد أن يعترف بضيعته وخوفه، أو بأنّ الذي يئنّ في صدره ضمير، أو بأنّه لا يزال يتأثّر بعاطفة البنوّة، رفض ذٰلك رفضًا عنيدًا مغيظًا، وقال يعزّي نفسه ويشجّعها: إنْ هو إلّا الخوف من فضيحة قد تهدّد مركزه الاجتماعيّ، إنّه لا يأسى على والديه ولٰكنّه يخاف أن يدفعهما البؤس إلى إزعاج حياته وتكدير صفو مجده. وموعدهما أوّل أكتوبر فإذا تسلّم ماهيّته الجديدة اشترى طمأنينته ببضعة جنيهات يرسلها إلى أبيه وانتهى من هٰذا العذاب. وردّد هٰذا الرأي في نفسه وأكّده له تأكيدًا شديدًا، وحاول أن يستعيد شجاعته وطربه. ولمّا عاوده شعوره بما حوله وجد نفسه يخبط منفردًا، فنظر فيما حوله ذاهلًا فلم يجد إلّا الأستاذ أحمد عاصم، وسأله عن الرفاق، فهزّ كتفيه قائلًا: «لا أدري» فادرك أنّه ضلّ الجميع. وشعر بتعب، وغثيان مباغت، ثمّ انقلب يقيء . . ! وأخذه صاحبه من يده إلى اليخت،

وهناك مضى به إلى مقصورة، فاستلقى على أريكة وراح في سبات. ولم يدرِ كم لبث، ولكنّه كان يرى في مخيّلته دائمًا بائع التين حتّى خاله أباه بالذات. وقد قهره الشقاء على ذلّ السؤال.

- ٤٣ -

وعادوا إلى اليخت وقد نال منهم التعب وبحّت منهم الأصوات. وأبحر اليخت قبل منتصف الليل بقليل. وسألت إحسان عن زوجها فأخبرها أحمد عاصم بأنّه نائم في مقصورة، ودعاها لاصطحابها إليه، ولكن عفّت تطوّع بالمسير بين يديها، وهبطا معًا إلى باطن اليخت، وتقدّمها في ردهة جانبيّة إلى باب مقصورة وفتحه وأوسع لها فدخلت وتبعها على الأثر وردّ الباب، ووجدت المقصورة خالية، وطالعتها في وسطها صورة لعليّ عفّت على نضد، فتحوّلت إلى الوراء فرأت صاحبها يقف وراء الباب يبتسم إليها بعينين تنطقان بالهيام والظفر، فأدركت أنّه استدرجها إلى مقصورته، وخامرها الخوف فسألته متجاهلة مقاصده:

- أين محجوب..؟

فقال والابتسامة لا تزال على شفتيه، وقد احمرّت عيناه الجميلتان من أثر الخمار:

- سنذهب إليه بعد استراحة قصيرة..

فسألته بلهجة رزينة:

- لماذا أتيت بي إلى هنا؟

كانت ثقته بنفسه لا حدّ لها، فكان جوابه أن جثا على ركبتيه عند قدميها وأحاط ساقيها بذراعيه وضمّها إلى صدره، وقال لها رافعًا إليها وجهه:

- لا تسأليني يا إحسان، أنت تعرفين كلّ شيء، والكلام في مثل حالتي تحصيل حاصل، ألم يتكلّم قلبي منذ أوّل لقاء بيننا؟ ألم يصرخ هٰذه الليلة حتّى خفت أن تصكّ نجواه آذان الحافّين بنا..!.

وتولّاها الاضطراب والاستياء، وأمسكت بساعديه لتفكّ السلسلة التي تطوّقها، ودفعته بعنف، وصاحت به بصوت خشن، غاضب:

- دعني من فضلك.. دعني..

ثمّ اربدّ وجهها وعبس، فقرأ فيه الجدّ والنفور، وتورّد وجهه خجلًا، وأرخى ذراعيه، ونهض واجمًا دون أن ينبس بكلمة. وفتح الباب حتّى غادرت المقصورة، ثمّ دلّها على مكان زوجها وعاد أدراجه. ووجدت محجوب نائمًا أو كالنائم، وكان في حالة إعياء شديد وقد علت وجهه صفرة شديدة..

* * *

ورسا اليخت إلى قصر النيل حوالى الساعة الثانية صباحًا. وعاد الزوجان إلى عمارة شليخر في سيّارة أحمد عاصم، وكان محجوب أفاق قليلًا ولكنّه لبث متعبًا منهوك القوى، وما اعتوَر روحه وحالته المعنويّة كان أدهى وأمرّ. تركت نكسة السكر في روحه آثارها فانقبض صدره، وخمدت نشوته، وامتعضت نفسه، وأحسّ الدنيا بحواسّ المريض، وغابت إحسان قليلًا وجاءته بفنجان قهوة، وجلست قبالته على الشيزلنج، قالت له:

- أفرطت في الشراب..

فأحنى رأسه بالإيجاب وإنْ ذكر الأسباب الأخرى التي كدّرت صفوه وقال بسخط:

- لقد قبلت الدعوة إلى هٰذه الرحلة على غير إرادتي..

فقالت تدافع عن الرحلة:

- وما ذنب الرحلة؟.. كانت رحلة جميلة طيّبة..

فقال بحدّة:

- يا له مِن صفيق سي عفّت بك هٰذا!

فابتسمت إحسان، وتردّدت مليًّا، ثمّ غمغمت:

- انتهى.. أوقفته عند حدّه.

فثبّت عليها عينيه الجاحظتين الذابلتين المحمرّتين متسائلًا، فأوجزت له ما حدث ولكنّه أبى إلّا أن تسهب ولا تترك كبيرة ولا صغيرة، فروت له الحادثة بحذافيرها، حتّى انفجر قائلًا:

- صفيق.. وقح، ولكنّك أحسنت كلّ الإحسان، يا لهم من أرذال جميعًا!..

واتّقدت عيناه، بيْد أنّه تساءل بأيّ حقّ يعيب أيّ

إنسان في هٰذه الدنيا وهو ما هو رأيًا وفعلاً؟.. وقال وكأنّه يجيب نفسه:

ـ نستغفل الناس إذا شئنا، ولٰكن لا نسمح لمخلوق بأن يستغفلنا.

فتفكّرت في قوله وعلى شفتيها ابتسامة غامضة، وعاد يفكّر في والديه فصدقت نيّته على مدّ يد المعونة إليهما حتّى ينفض عن حياته أيّ ظلّ للكدر، ثمّ عجب كيف أنّ تغيّرًا هيّنًا في الجسم قد يُذهب بهجة الدنيا في غمضة عين، ويُحيل لذّاتها وصفاءها ألمًا وكدرًا يزهقان النفس. واقترحت عليه إحسان أن ينام، ولٰكنّه أراد أن يرتاح قليلاً بمكانه من المقعد، فمضت هي إلى الفراش. وعاد يتساءل ماذا يحدث لو لازمه هٰذا التغيّر فدأب على تناول الحياة بحواسّ المرض والامتعاض؟! واقشعرّ بدنه!.. ولم يجد سوى جواب واحد: الانتحار!. هٰكذا قد يقضي على نفسه مَن كرّس نفسه للأنانيّة! ومع ذٰلك يوجد في هٰذه الدنيا أناس يؤثرون التعب والأهوال على السلامة، كصاحبه القديم عليّ طه، ولا يمكن أن يسلّم مخلوق بأنّه ليس لهم لذّاتهم الخاصّة بهم في نضالهم وكفاحهم، فأيّة لذّة هٰذه؟! أحقًّا للإيثار لذّة كلذّة الأثرة؟ إنّه يجلّ هٰذه اللذّة ويحتقرها. وتمثّل له عليّ طه بوجهه الجميل وحماسه المتّقد، وذكر عهد دار الطلبة ومأمون رضوان، فتحوّل رأسه وهو لا يدري إلى الفراش، ورَنَتْ عيناه إلى إحسان وقد غطّت في سبات عميق. فبدت له الذكريات في إطار من الدهشة والأحلام..

ـ ٤٤ ـ

واستيقظ في ضحى اليوم الثاني ـ الجمعة ـ وعاودته في الحال ذكريات الليلة الماضية مقرونة بإحساساتها المحزنة. وغادر الفراش بهمّة متوثّبة، واستحمّ بالماء البارد لينعش جسمه ونفسه، وعاد إلى الصالة، فالتقى بزوجه، وقد سألته برقّة:

ـ كيف أنت الآن؟

فغمغم وقد ابتسم ابتسامة دلّت على الخجل والارتباك:

ـ عال.. شكرًا لك..

وارتدى ثيابه وانطلق إلى الخارج، ومضى إلى حديقة صولت حيث اجتمع ببعض الزملاء من الموظّفين، وشرب كوبة من عصير الليمون، ولبث ساعة بينهم يتحادثون هونًا، ثمّ غادر المكان، تاركًا قدميه للطريق ينقله من شارع إلى شارع مستسلمًا للذّة المشي. فذكر الليلة الماضية فعبس وجهه، وهاله ما بثّته في نفسه من مشاعر الألم واليأس، وما أشاعته فيها من أفكار سود وخواطر ضعف واستكانة. وتولّاه خجل لما اعتوره من خور في الجسم والنفس، وقال لنفسه: «لقد ظفرت حتّى الآن بفضل حرّيّة عقلي وقوّة إرادتي وتلك الحكمة العالية: طظ.. فلا يجوز أن أفرّط في كنز من كنوزي الغالية!».. أجل، هنالك وظيفة سامية وطموح وجاه وخمر ونساء ومال وطعام وترف، فكيف يسمح بأن ينغّص عليه هٰذه اللذّات أب مشلول، وخواطر مرض، وغيرة جنونيّة؟!. وسرعان ما استردّ نشاطه وحيويّته، وعقليّته الصارمة الساخرة، واستقبل الحياة مرّة أخرى بجسارته المعهودة وطموحه الذي لا يعرف الحدود. وبدا كلّ شيء كأنّما يسير في مجراه الطبيعيّ، وكأنّ الحياة ستظلّ مذعنة لمنطقه أبد الدهر. وجاء يوم السبت وقد انتصف سبتمبر، فأثبتت له حوادثه أنّه إذا كان يستطيع أن يتحكّم في نفسه فإنّه أعجز من أن يدّعي القدرة على التحكّم في الحوادث..

كان السبت يوم قاسم بك فهمي، وكان محجوب يغادر الشقّة في تمام السابعة مساء ليهيّئ للرجل الخلوة المنشودة. ولٰكن كانت الساعة السادسة حين رنّ الجرس، ولم يكن الشابّ يتوقّع قدوم أحد في تلك الساعة، فدلف إلى الردهة الخارجيّة ليرى القادم، وفتحت الطاهية الباب فرآه كما أراد. لم يصدّق عينيه، وجعل يحملق بذهول جنونيّ. رأى أباه، أباه دون غيره من البشر، وقد وقف الرجل على عتبة الباب متوكّئًا على عصاه، ملقيًا إليه ببصر جامد مكفهرّ. سمّر كلاهما في مكانه. وجمدت عيناهما لا تتحوّلان. وكابد

محجوب في تلك اللحظة الرهيبة شعورًا بالخوف والقنوط والهزيمة لم يشعر بمثله من قبل، ثمّ مزّق الأب السكون الأليم فقال بصوت ضعيف ولكنّه واضح ينمّ عن الألم والتهكّم المرير:

ـ ألم تعرفني بعد.. لماذا لا تهرع إلى استقبالي؟!

وأفاق الشابّ من ذهوله فاقترب من أبيه في خطّى متهالكة ومدّ إليه يده، ولكنّ الرجل تجاهلها. فقال محجوب بارتباك وتلعثم:

ـ تفضّل يا والدي... تفضّل..

فتحرّك الرجل متوكّئًا على عصاه يسير في خطوات ثقيلة، وقد تقوّس ظهره، وتهدّم بنيانه، وجعل يتفحّص الأثاث والجدران بعين ملؤها الإعجاب الهازئ، ويقول:

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله.. لَشدّ ما تعاني يا بنيّ مرارة البؤس والفقر!؟

فاشتدّ ارتباك محجوب وحصر، فما استطاع أن ينبس بكلمة، ها هو ذا والده يملأ الشقّة بالفزع وعمّا قليل يأتي قاسم بك، حقيقتان لا يدري كيف يمكن أن يجتمعا، ومع ذلك فهما واقعتان لا محالة وإن أشفق من التفكير في عقباهما. تُرى كيف يذكر غدًا هذا اليوم الخطير؟! أيذكره كما يذكر مأزقًا خطيرًا نجا منه بأعجوبة؟. أم يذكره يومًا أسود انهارت فيه آماله جميعًا؟، ولم يستطع في انفعاله الأوّل أن يحسن التفكير ولا التدبير. وفتح عند ذاك باب حجرة النوم وبرزت منه إحسان، ولعلّه بعثها للخروج ما سمعت من صوت وحركة غير عاديّة، فعجبت لوجود الشيخ الغريب، وألقت على هيئته الرثّة نظرة إنكار. وحوّل عبد الدائم أفندي إليها رأسه، فلاحت على شفتيه ابتسامة حزينة، وقال بغير مبالاة ملتفتًا إلى ابنه:

ـ زوجتك؟!. (ثمّ حوّل رأسه إليها) أهلًا بزوج ابني، أنا حموك يا عروس!؟.

وحدجت إحسان في وجه زوجها فهالها جموده وارتباكه وكآبته، وآنست في عينيه نظرة منكسرة لم ترها من قبل، فلم تشكّ في صدق الرجل، ولم تكن تعلم شيئًا عمّا بين الرجلين ممّا يستوجب الموقف الذي يقفه زوجها، ولكنّها لم تتردّد عن القيام بواجبها، فاقتربت من القادم ومدّت له يدها باحترام ودعته إلى الجلوس. وكان محجوب يرى ما يقع أمامه بعينيه الذاهلتين، ولكنّه كان انتقل من ذهول سلبيّ إلى ذهول إيجابيّ، فجعل يستصرخ إرادته وعقله لينتشلاه من ورطته وأخذ يفيق من وقع المباغتة فلم يرتَحْ لوجود زوجه، وأومأ لها إيماءة خفيّة بالانسحاب، فلم تلبث أن تراجعت بلطف. وتوثّب بجامع قوّته ليمتلك زمام الموقف ويستردّ عقله وإرادته، وأعانه على ذلك الخطر الذي يتهدّده باقتراب موعد الوزير. أجل ينبغي أن يخفي أباه عن عيني القادم عمّا قليل ويعالج أمره في خلوة وهدوء، هو أبوه على أيّة حال وليس شيطانًا ولا قضاء وقدرًا، وقال له بصوت رقيق ليّن:

ـ تفضّل معي يا أبتي..

وأعطاه ذراعه، فلم يرفض الرجل، وأدرك أنّه يريد أن يحادثه على انفراد، فنهض بمعونته، وسار به محجوب إلى حجرة الاستقبال على يمين الداخل، ثمّ أغلق الباب، وكان عقله لا يني عن التفكير: ما الذي دلّه على مسكنه؟ ما الذي جاء به؟ وهل من المصادفات أن يجيء في يوم الوزير وقبل موعده بقليل، وشمّ في الجوّ رائحة مؤامرة نتنة، وتخايل لعينيه شبح الإخشيدي بوجهه المثلّث وعينيه المستديرتين، فسرت في جسده رعدة، وامتلأت نفسه حنقًا وكراهية. ترى هل أفشى سرّه كلّه؟.. ربّاه أيّ كارثة ترصده؟.. ولكن كلّا.. أبوه لا يعلم بسرّه الخطير، وإلّا ما استطاع ـ وهو الريفيّ الغيور ـ أن يتمالك أعصابه، ولكنّ البغيض جاء به في الوقت المناسب لعلّه أن يكتشف الحقيقة بنفسه لتكون الصدمة أفظع، وتفصّد جبينه عرقًا باردًا..

وصوّب الرجل نحوه نظرة ملتهبة وقال:

ـ لماذا تقف أمامي هكذا؟، لماذا لا ترحّب بي؟.. وكيف لا تهنّئني بالشفاء؟

وسكت الرجل الغاضب حتّى تمالك أنفاسه ثمّ استدرك بلهجة ساخرة قاسية:

ـ لشدّ ما آلمني ما علمت من فقرك وبؤسك وسعيك

عبثًا في سبيل الحصول على وظيفة، فحفزني ذٰلك على ترك أمّك وحدها في القناطر، والحضور بنفسي لمواساتك، أعانك الله يا مسكين!.

واستطاع محجوب أن يتكلّم بعد أن أغلق الباب واطمأنّ بعض الاطمئنان:

ـ أبتي.. لا تتهكّم بي.. أنا أعلم أنّي أستحقّ غضبك ولٰكن دعني أشرح لك ما التبس عليك فهمه، والحكم لك..

ـ وهل من حاجة إلى الشرح يا بنيّ؟.. حسْبي أن أنظر فيما حولي لأدرك في أيّ شقاء تعيش!..

فعضّ محجوب على شفتيه وقال:

ـ أبي...، والله ما غفلت عنك قطّ، ووالله ما سنحت فرصة لمساعدتك فأهملتها، ولٰكن ظروفي قاسية رغم هٰذه المظاهر الخدّاعة، لذٰلك لم يَرْتَحْ لي جنب، وما كان ليقرّ لي قرار قبل أن أطمئنّ عليك وعلى والدتي..

فاشتدّ اكفهرار وجه الشيخ وقال بحدّة وحنق:

ـ ظروفك قاسية أيّها الابن البارّ؟!.. ماذا تنتظر حتّى تتفضّل علينا بجنيهين؟ أتنتظر الوزارة؟!، إنّي أعجب كيف طابت لك الحياة وأنت تعلم أنّ والديك يعانيان الفاقة والجوع والتشريد! لقد استصرختك باكيًا ولٰكنّي علمت فيما بعد أنّي خاطبت ضميرًا ميتًا. تركتنا للعجز والفقر حتّى بعنا أثاث بيتنا، وها أنت تنعم بالوظيفة العالية، والماهيّة الكبيرة، والمسكن الوثير، ولٰكنّك لا تجد في ذٰلك كلّه إلّا ظروفًا قاسية لا تسمح لك بأن تنقذنا من التسوّل، أليس كذٰلك أيّها الشابّ الهُمام؟.

امتقع وجه محجوب حتّى حاكى وجوه الموتى، شعر كالمختنق الذي ينتفض ويقتتل عبثًا لاستنشاق نفس واحد. ولم يكن كلام أبيه قد حرّك قلبه ولٰكنّه أربكه وكرّبه وأوقعه في ضيق شديد، فقال:

ـ لَشدّ ما يؤلمني كلامك يا والدي، أصغ ِ إليّ، سأكاشفك بالحقيقة وأصلح خطئي، وأكفّر عمّا تتّهمني به من عُقوق. يعلم الله أنّي كنت سأزفّ إليك أنباء توفيقي وأمدُّك بالمعونة أوّل الشهر القادم. لقد وفِّقت إلى وظيفتي منذ شهرين وكنت مُعدمًا فكان عليَّ أن أهيّئ نفسي بالمظهر اللائق، وإلّا ضيّعت على نفسي فرصة لا تسنح في حياة مرّتين، فاقترضت مبلغًا كبيرًا ما زلت مدينًا به، هٰكذا فزت بالوظيفة ولٰكن لا زلت أكابد الارتباك والفاقة، هٰذه هي الحقيقة.

فهزّ الرجل رأسه في ريبة وقال بامتعاض:

ـ إنّك تُعْنَى أكثر ممّا ينبغي بالمظهر اللائق، والمسكن الأنيق، والمآدب الفاخرة!..

فأدرك محجوب أنّ الإخشيدي وَفَى وشايته حقّها، وقال وهو يغالب عواطف الحنق والغضب:

ـ هٰذه المظاهر وإن بدت كماليّة إلّا أنّها من ضرورات وظيفتي..

ـ وهل من ضرورات هٰذه الوظيفة المجيدة أن نتضوّر جوعًا؟!

فقال الشابّ وهو يبذل جهد المستميت ليداري غضبه وحنقه:

ـ كلّا يا أبي. لقد أبَنْتُ لك عن حسن مقصدي فلا تثبّط همّتي بنقمتك ودعني أتمّ بنجاحي..

ـ أحسبه لا يتمّ إلّا بقتلنا..

ـ بل سيتمّ بما فيه سعادتنا جميعًا..

وسكت عبد الدائم أفندي مليًّا وهو يرنو إليه بنظرة مليئة بالريبة وسوء الظنّ، ثمّ قال متسائلًا:

ـ إذا كانت هٰذه حالتك فكيف تزوّجت؟!.. لماذا لم تؤجّل الزواج إلى ميسرة؟! وكيف تتزوّج دون إخبارنا فضلًا عن الرجوع إلى رأينا؟..

وارتاح محجوب لتساؤل والده هذا الذي أكّد له جهله بالسرّ الخطير، وقال بصوت خفيض:

ـ كانت الزيجة ثمن الوظيفة كما يحدث في أيّامنا هذه كثيرًا، لقد صاهرت أسرة محترمة تمتّ إلى الوزير بصلة القربى وكانت الزيجة من أسباب ارتباكي، ولعلّك أحطت الآن بالظروف القاسية التي اكتنفت حياتي في الشهرين الماضيين.

بيْد أنّ الرجل لم يكن مطمئنًّا، واشتدّت بالشابّ حالة التوتّر والاستياء، وشعر كلاهما بأنّ لديه ما يقوله، ولكن جرس الباب الخارجيّ رنّ بغتة، وفُتح

الباب ثمّ أغلق: وسمعا وقع أقدام ثقيلة في الدهليز يعرفها محجوب حقّ المعرفة..

ـ ٤٥ ـ

وخفق قلبه بعنف، وسرت في جوارحه رعدة خوف لم يجد عليها من سلطان، وتخايلت لعينيه مرّة أخرى صورة الإخشيدي البغيضة. تُرى كيف تنتهي هٰذه الليلة؟ أيذكرها في المستقبل وهو يضحك أم وهو يبكي؟. وسمع أبوه وقع أقدام القادم فسأله:

ـ هل كنت تنتظر ضيفًا؟

فقال بلا تردّد وهو يتظاهر بالهدوء:

ـ نعم.. هٰذا حمي جاء لزيارة كريمته..

ـ ألا تذهب للقائه؟

فتلجلج لحظات ثمّ قال بحزم:

ـ كلّا، ستجد زوجي عذرًا تنتحله لغيابي، وسأقدّمك إليه في وقت آخر..!

وساد الصمت، وقد شعر الشيخ بأنّ ابنه يتأفّف من تقديمه إلى حميه فنكس ذقنه في سكون وحزن. وجلس محجوب قريبًا من الباب يحاول جهده أن يضبط عواطفه، واختلس من والده نظرات غاضبة تنمّ عن حنقه وحقده. ينبغي أن تنتهي الليلة بسلام. أحسّ في باطنه بأنّه إذا انتهت الليلة بسلام فقد نجا بحياته وآماله إلى الأبد. ولٰكن ما الذي يدعوه إلى الخوف؟! قد بلغ الوزير المكان الذي يريده بسلام، ونمّت حالة والده على أنّه يجهل سرّه الخطير، فما عليه إلّا أن يأخذ نفسه بالصبر والانتظار حتّى يذهب البك ـ كما جاء ـ بسلام. بَيْد أنّه لبث ـ على رغم ما تبشّر به الحوادث ـ قلقًا مغتمًّا. وزاد من توتّر أعصابه أنّ والده عاد يقول بنبراته الدالّة على الإنكار والمرارة:

ـ لو كان قلبك حنونًا يا بنيّ لاستهان بضرورات الوظيفة التي تعتذر بها، ولشقّ عليك أن تترك والديك يتضوّران جوعًا. وأعجب لوالدتك ما برحت تدفع عنك جاهدة الظنون، ونبذت ما نُقل إلينا عنك، وقالت لي: «ستُبدي لك الأيّام أنّي أعرَف بابننا منك» فليتها جاءت معي لترى بعينيها..!

وشعر محجوب بضجر، وضاق بالرجل الذي لولا وجوده لم يكن في المأزق الذي هو فيه، وتوثّب للردّ عليه، ولٰكنّ الجرس دقّ مؤذنًا بقادم جديد، فوجب قلب محجوب وجيبًا مؤلماً. من يكون الطارق؟ هل من جديد؟! وفتحت الطاهية ثمّ سُمع صوت يتكلّم بحدّة، فتميّز الشابّ غيظًا ومضى إلى باب الحجرة وفتحه، فرأى سيّدة تزيح الطاهية من طريقها وتدخل في حالة هياج عصبيّ شديد، كانت السيّدة أرستقراطيّة المظهر، أنيقة الزيّ، فتولّته الدهشة والانزعاج، ثمّ ارتاع وذُعر وأعيا عليه القول، ورأته المرأة فأقبلت نحوه بهيئة متعجرفة، تقدح عيناها شررًا، حتّى وقفت أمامه وسألته بازدراء:

ـ أأنت المدعوّ محجوب عبد الدائم؟

وكان محجوب في حالة جعلته مهيّأ للذعر والتشاؤم، وحدّثته نفسه المضطربة بأنّه ضحيّة مؤامرة غادرة، أبوه أداة من أدواتها القتّالة، وغلبه القنوط، وأيقن أنّ مجده بات معلّقًا بخيط وشيك الانقصاف. نظر إلى المرأة بإنكار وقال بصوت منخفض مشفقًا من صوتها المرتفع الذي يصكّ أذني أبيه:

ـ نعم يا سيّدتي أنا هو.

فعبست حانقة ولوت شفتيها اشمئزازًا وقالت بلهجة قاسية:

ـ هلّا دلّلتني على الحجرة التي ينفرد فيها زوجي بالسيّدة المصون زوجك؟

فنفذ الكلام إلى قلبه فشقّه شطرين، وخارت قواه، وأوشك أن يذهل عمّا حوله، وتحوّلت المرأة عنه كالمجنونة إلى باب المخدع، وأدارت الأكرة، ولٰكنّها وجدت الباب مغلقًا، فدقّته براحة يدها بشدّة صائحة بغضب جنونيّ:

ـ افتحا الباب، افتح أيّها الرجل والوزير الخطير، لقد برح الخفاء ورأيتك بعيني داخلًا هٰذا الماخور. افتح وإلّا حطّمت الباب.

وبلغ اليأس بالشابّ نهايته، فوقف مكانه لا يُبدي حراكًا، وكأنّه يرى فاجعة خطيرة لا تعنيه ولا يناط بها مصيره، وكأنّه كبر عليه أن يصدّق أنّ مجده الذي حشد

له ما حشد من قوّة وفكر، وبنى عليه ما بنى من آمال، يمكن أن يصير في بعض الدقيقة أثرًا بعد عين. وشعر بوالده يقترب منه ويسأله بصوته الذي بات يمقته مقتًا:

- ماذا هنالك؟.. ماذا تقول هذه السيّدة؟

ولكن لم يكلّف الشابّ نفسه مئونة الردّ عليه، وكأنّه لم يسمع قوله، فلم يعد يُبالِه، ولم تكفّ المرأة عن دقّ الباب، وصاحت حانقة:

- إنّي أنذرك بأنّك إذا لم تفتح الباب طوعًا فتحته كرهًا بقوّة الشرطة.

فاستجمع محجوب قواه المشتّتة ودنا من السيّدة، وقال لها بصوت ينمّ على الرجاء:

- سيّدتي..

ولكنّها لم تتركه يتمّ كلامه، فتحوّلت إليه ولطمته على وجهه بشدّة وغلّ، وصاحت به:

- لا تنبس بكلمة أيّها القوّاد الخسيس..

فتراجع محجوب مروّعًا إلى موقف أبيه وهو لا يدري به. وانفتح عند ذاك الباب وبرز منه قاسم بك فهمي ثمّ أغلقه وراءه، وسمع صرير المفتاح من الداخل، وكان الرجل يحاول أن يتظاهر بالثبات، ولكنّ ارتباكه كان أعظم ممّا تنفع فيه المُداراة، وقال لزوجه بسرعة:

- هلمّي معي إلى الخارج من فضلك..

فصاحت به وقد جُنّت غضبًا:

- افتح هذا الباب، لا بدّ من فتحه.

فقال لها بصوت خفيض:

- خفّضي من صوتك يا هانم.. هذا لا يليق بك.. فصاحت به بتهكّم:

- حدّثني عمّا يليق وعمّا لا يليق يا معالي البك. هل من اللائق يا تُرى أن أضبطك في مخدع زوج هذا القوّاد الصفيق!، وهل يسرّك أن يطّلع ابنك وابنتك على سيرتك المحمودة؟!

- كفى.. كفى، هلمّي معي ولْنُسَوِّيَنْ خلافنا في بيتنا.

وحاول أن يمسك بساعدها، ولكنّها نترت ساعدها من يده باحتقار وصاحت به:

- سأغادر هذا البيت الملوّث، ولكن لا تُمَنِّ نفسك بتسوية الخلاف. لقد فاض الإناء، فلا تفاهُم بعد اليوم، ولأنْتقمنّ منك انتقامًا يكون الدهر عظة لأمثالك من المستهترين.

ومضت المرأة نحو الباب الخارجيّ، والبك في أعقابها، وذهبا معًا.

* * *

وتمتم محجوب بصوت مبحوح:

- انتهى كلّ شيء.

أعْجِبْ بها من حقيقة! أيخفق ذاك الكفاح الجبّار ولمّا يتسلّم ماهيّته الجديدة؟.

أتصاب الحظوظ كالأعمار بالسكتة القلبيّة؟!

وقطع عليه تفكيره صوت أبيه وهو يسأل محزونًا:

- ما معنى هذا يا بنيّ؟.

وكأنّ هذه الجملة نفط ألقي على صدره الملتهب، فالتفت نحوه هائجًا تقدح عيناه شررًا، وقال بحنق وحقد:

- انتهى كلّ شيء، انتهت الوظيفة والماهيّة. هلمَّ نتسوّل معًا...

وارتسمت في عيني الرجل الذابلتين نظرة زائغة ذاهلة، وبدا في حيرة قتّالة وكرب عظيم. لم يصدّق ما رأت عيناه ولا ما سمعت أذناه. كابد الألم المُمِضّ والغضب المختنق. ولولا ما آنس من قنوط ابنه وهذيانه لانفجر بركانه. لم تنتهِ الوظيفة والماهيّة فحسْب، ولكنّ ابنه نفسه انتهى، ولم يَعُدْ ذا مال ولا ولد وسيقول لامرأته إذا عاد إلى بلده: لا تسألي عن محجوب، فقد انتهى محجوب وغدا ذكرى من الذكريات. وشعر عند ذاك بإعياء وخَوَر، وبأنّه يسقط إن لم يطمئنّ إلى مجلس، فولّى الشابّ ظهره، وعاد أدراجه في خطوات ثقيلة، متوكّئًا على عصاه يكاد يقع على وجهه.

وارتمى محجوب على مقعده في الصالة، مرتفقًا يد المقعد، مسندًا رأسه إلى راحته. وكان السكون شاملًا كأنّه بيت مهجور، وكلّ شيء بموضعه كأنّ أمورًا خطيرة لم تنقلب رأسًا على عقب. هل تستطيع روحه الثائرة أن تصمد لهذا الشلّال العارم من الحظّ العاثر؟!

هل يمكن أن ينبري لمواجهة هٰذه الأزمة الخطيرة بدرعه المعهود: طظ؟ وما الحيلة إذا لم يستطع؟.. ما عسى أن يصنع أنانيّ مثله، لا يهمّه في الدنيا شيء إلّا نفسه، إذا تألّب الشقاء على سعادته؟ أمامه سبيل واحد هو الموت!. تبًّا لحظّه! كيف انتهى مجده بهٰذه السرعة الجنونيّة؟! ألا تكتظّ الدنيا بأمثاله من المغامرين الذين تترفّق بهم حتّى النهاية؟! وتنبّه من تأمّلاته على وقع أقدام خفيفة، فرفع رأسه المثقل فرأى إحسان أمامه تطالعه بوجه تعلوه صفرة الموت. التقت عيناهما في صمت أليم وكأنّ كلاهما يقول لصاحبه: «أهٰذه نهاية الكفاح والتعب!».

وخرجت عن صمتها أخيرًا فسألته بنبرات متضعضعة:

ـ هل ذهبوا؟

فأجابها في مثل نبراتها:

ـ أجل.. كما ترين.

فتردّدت هنيهة ثمّ سألت:

ـ ما عسى أن ينتظرنا؟

وكيف يدري هو! بَيْد أنّه هزّ رأسه وقد أخذت يسراه تشدّ حاجبه، وقال:

ـ لا أعلم الغيب. يُحتمل حدوث أيّ شيء، ولٰكن لا مفرّ من التشاؤم، فالأمر المؤكّد أنّ أحلامنا تبدّدت. هٰذه هي الحقيقة.

وساد صمت ثقيل. ولاحت في عينيها نظرة غائبة، وجعلت تستحضر من الماضي ما أودعته من ذكريات، ذكرت آمالها وكيف خابت واحدًا بعد آخر، فاعتلج بصدرها الألم والحسرة حتّى اغرورقت عيناها، وأغرق محجوب في أفكاره مرّة أخرى، ولٰكنّه لم يستشعر الندم ولا أقرّ بالخطأ، كلّا ولا عدل عن رأي، وراح يتساءل هل يتكشّف الغد عن حياة جديدة أو لم يَبْقَ له إلّا الموت؟! بَيْد أنّه غُلب على أمره هٰذه المرّة فاستسلم لليأس والقنوط، وغشيت عينيه سحابة مظلمة، وحاول جهده أن يهيب بروحه المتمرّدة، وغمغم بصوت لا يكاد يُسمع هامسًا: «طظ» ولٰكنّها نمّت ـ على خلاف عادتها ـ عمّا يكنّه فؤاده من اليأس والاستسلام.

ـ ٤٦ ـ

اجتمع الرفاق الثلاثة ـ عليّ طه وأحمد بدير ومأمون رضوان ـ بإدارة مجلّة النور الجديد التي يصدرها عليّ طه وكان مأمون رضوان يكثر من اجتماعه بصاحبيه ليتزوّد منهما قبل سفره الوشيك. ولم يكن للناس من حديث في تلك الأيّام إلّا حديث الفضيحة الكبرى التي لاكتها الألسن في كلّ مكان. قيل: إنّ حرم قاسم بك فهمي همّت بنشر بيان في الصحف عن الأسباب التي أدّت إلى طلاقها من زوجها. وقيل: إنّ بعض الجهات تدخّلت في الأمر وأقنعتها بالعدول عمّا كانت أجمعت عليه وانتهت المسألة باستقالة الوزير، وسحب مذكّرة ترقية مدير مكتبه من مجلس الوزراء ونقله إلى أسوان. استبعدت الفضيحة من أعمدة الصحف ولٰكنّها لم تعد تخفى على أحد. وقد خاض فيها الرفاق بأسف شديد، لأنّهم لم ينسوا زميلهم القديم، ولا نسوا عهد الزمالة والجيرة بالجامعة ودار الطلبة. وكان عليّ طه أشدّهم ألمًا، ولٰكنّه لبث ألمًا دفينًا يعتلج مع بواعثه الباطنة. وقد قال أحمد بدير:

ـ أتذكرون أحاديث صاحبنا البائس المستهترة؟. أتذكرون طظ المشهورة؟.. لطالما حسبت ذٰلك لغوًا وسخرية وفكاهة لا شأن لها بالعقيدة والعمل..

فقال مأمون رضوان بنبرات تنمّ عن الأسى:

ـ إذا تزعزع إيمان الإنسان بالله غدا صيدًا سهلًا لكلّ شرّ.

فابتسم عليّ طه على حزنه وشجنه، وقال:

ـ اسمح لي أن أحتجّ على هٰذا الاتّهام!

فقال مأمون رضوان مستدركًا:

ـ أنت لك إيمانك الخاصّ وإن كنت أراه دون الكفاية..!

وابتسمت عيناه النجلاوان وتساءل قبل أن ينبس أحد بكلمة:

ـ تُرى أنَصيرُ في المستقبل عدوّين لدودين؟

فقهقه أحمد بدير ضاحكًا وقال:

ـ لا شكّ في هذا. ستهاجمك هذه المجلّة التي تباركها الآن بتمنّياتك وستتّهمك غدًا بالرجعيّة والجمود، وستتّهم أنت صاحبها ـ صديقك ـ بالزيغ والكفر والإباحيّة، ومن يعش يَرَهْ!.

وابتسم الأصدقاء الأعداء. ثمّ قال مأمون رضوان بثقة وإيمان:

ـ مأساة اليوم هي مأساة الزيغ!

فهزّ عليّ طه رأسه في شكّ وقال:

ـ كم في المؤمنين من أوغاد. فليست الحقيقة ما ترى. وصاحبنا البائس وحش وفريسة معًا، فلا تنس نصيب المجتمع من جريرته. وهنالك مئات من المؤمنين يشقى الملايين لإسعادهم، فليست جريمتهم دون جريمة صاحبنا التعس. فالمجتمع الذي نعيش فيه يغري بالجريمة، بَيْد أنّه يحمي طائفة المجرمين الأقوياء وينهال على الضعفاء. أحبّ أن أسألكما: هل يكفي أن يستقيل ذلك الوزير؟

فقال مأمون رضوان:

ـ ما كان عمر بن الخطّاب يتردّد عن رجمه!

فقال أحمد بدير ساخرًا:

ـ دعْنا من عمر. إنّ مجتمعنا يستطيع أن يهضم هذا الوزير وأمثاله إذا أساغه بشيء من النسيان. وسوف يقبع عامًا أو عامين أو أكثر من نادي محمّد عليّ، وعسى أن تخرجه غدًا المظاهرات الوطنيّة عن عزلته وتحمله كالأبطال إلى الوزارة مرّة أخرى، فيعيد سيرته الأولى، أو يلعب دورًا جديدًا، ومن يعش يَرَهْ.

فقال مأمون رضوان ممتعضًا:

ـ حقيقة المسألة أنّي أرى الخير متعلّقًا بجوهر الروح، وتريانه، أو يراه الأستاذ تابعًا للرغيف. فإذا حسن توزيع الرغيف محق الشرّ..!

فقال عليّ بلهجة لم تخْلُ من حدّة:

ـ إنّي لا أوافق على هذا الوضع للمسألة، وإنّك لتعلم بأنّي أهيم بلذّات الروح. وليس المجتمع الذي نحلم به بِخالٍ من الشرّ، فلا خير في مجتمع يخلو من نقص يحثّ على الكمال، ولكنّ المجتمع الذي نحلم به يمحو شرورًا نراها في وضعنا الحاليّ ضربًا من القضاء والقدر.

وهنا ضحك أحمد بدير ضحكًا عاليًا وقال:

ـ لماذا تتعجّلان المعركة ولمّا يأزف موعدها؟!

وابتسم الرفاق، الأصدقاء الأعداء وتبادلوا نظرة ذات معنًى، وكأنّهم يتساءلون معًا: «ماذا تخبّئ لنا أيّها الغد؟!».

خان الخليلي

- ١ -

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١، موعد انصراف الدواوين، حين تنطلق جماعات الموظّفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم، وقد نهكها الجوع والملل، ثمّ تنتشر في الأرض تطاردها أشعّة الشمس الموقدة. انطلق أحمد عاكف - الموظّف بالأشغال - مع المنطلقين. وكان من عادته أن يتّخذ سبيله في مثل تلك الساعة من كلّ يوم إلى السكاكيني، أمّا اليوم فوجهته تتغيّر فتصير الأزهر لأوّل مرّة. حدث هٰذا التغيّر بعد إقامة في السكاكيني طويلة امتدّت أعوامًا مديدة، واستغرقت عقودًا من العمر كاملة، وادّخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة. وأعجب شيء أنّه لم يفصل بين التفكير في الانتقال وحدوثه إلّا أيّام معدودات؛ كانوا مطمئنّين إلى مسكنهم القديم، يخال إليهم أنّهم لن يفارقوه مدى العمر، وما هي إلّا عشيّة أو ضحاها حتّى صرخت الخناجر: «تبًّا لهٰذا الحيّ المخيف» وغلب الخوف والجزع، ولم تعد ثمّة فائدة ترجى من مراجعة الأنفس المذعورة، وإذا بالبيت القديم يضحي ذكرى الأمس الدابر، وإذا بالبيت الجديد في خان الخليلي حقيقة اليوم والغد، فحقّ لأحمد عاكف أن يقول متعجّبًا: «سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر!». كان الرجل من أمر هٰذا الانتقال المفاجئ في حيرة. كان قلبه ينازعه إلى المقام القديم الحبيب، ويمتلئ حسرة كلّما ذكر أنّه قذف به إلى حيّ بلديّ عتيق، إلّا أنّه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنّه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المُبين، ولعلّه أن ينعم الليلة بأوّل رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانيّة التي زلزلت أفئدة القاهرة زلزالًا شديدًا. وبين الحزن والتعزّي، والأسى والتأسّي، مضى يذرع الطوار في انتظار ترام يوصله إلى ميدان الملكة فريدة، وقد ابتلّ جبينه عرقًا، وكانت الحال لا تخلو من لذّة طريفة، ذٰلك أنّه مقبل على استجلاء جديد، واستقبال تغيير: مرقد جديد ومنظر جديد وجوّ جديد وجيران جدد، فلعلّ الطالع أن يتبدّل، ولعلّ الحظّ أن يتجدّد، ولعلّ مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد. هٰذه لذّة الاستطلاع ولذّة المقامرة ولذّة الجري وراء الأمل، بل هي لذّة استعلاء خفيّة ناشئة من انتقاله إلى حيّ دون حيّه القديم منزلة وعلمًا. ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد، إذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو في وزارته، وها هو ذا يقصد إليه كما وصف له. وجعل يقول لنفسه: إنّه مسكن مؤقّت وإنّه ينبغي أن يحتملوه مدّة الحرب وبعدها يأتي الفرج. وهل كان في الإمكان خير ممّا كان؟ وهل من الحكمة أن يلبثوا في الحيّ القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف؟. مضى يذرع الطوار لأنّه لم يكن يحتمل الجمود طويلًا، وكأنّما سُوّيت أعصابه من قلق، وكان يدخّن سيجارة بعجلة دلّت على انشغاله، فبدا في اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلًا متعبًا ضيّق الصدر تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عمّا حوله، كان يدنو من ختام الأربعين، عَسِيًّا أن يسترعي الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطرابًا يستدرّ الرثاء، والواقع أنّ تكسّر بنطلونه وانحسار ذراعي الجاكتّة عن رسغيه، وتلبّد العرق على حرف طربوشه، وتقبّض القميص ورثاثة رباط الرقبة، وصلعته البيضاويّة، وسعي المشيب إلى قذاله وفوديه، كلّ أولئك أوْهَم بتكبير سنّه، وفيما عدا ذٰلك فوجهه نحيل مستطيل، شاحب اللون، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحدارًا خفيفًا إلى جبهة تميل إلى الضيق، يحدّها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان، يُظلّان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما، فهما تكادان أن تملآ صفحة الوجه الضيّقة، فإذا ضيّقها ليحدّ بصره أو

ليتّقي شعاع الشمس بدتا مغمضتين واختفى لونهما العسليّ العميق، وقد تساقطت أهدابهما واحمرّت أشفارهما احمرارًا خفيفًا؛ يتوسّطهما أنف دقيق وفم رشيق الشفتين وذقن صغير مدبّب. ومن عجب أنّه عُدّ يومًا ممّن يُعنون بحسن هندامهم وأناقتهم، وبدا إذ ذاك في صورة مقبولة، ولٰكنّ اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذٰلك من داء التشبّه بالمفكّرين نزع به عن أيّة عناية بنفسه أو بلباسه.

استقلّ الترام رقم «١٥» وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنان مصفرّة من فعل التدخين. ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم «١٩». وقد ارتكب خطأ سهوًا، فرمى بحكم العادة بالتذكرة التي قطعها في الترام الأوّل وكانت توصله إلى الأزهر، واضطرّ أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكًا من نفسه في غيظ، وآلمه حرصه على تفاهة الغرم. والحقّ أنّه تعوّد منذ زمن بعيد أن يكون ربّ أسرة، وإن بقي لحدّ الآن أعزب، بيْد أنّه لا ينفق مليًّا بغير تململ، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الإنفاق، ولٰكنّه لا يعفيه أبدًا من التألّم كلّما وجب الإنفاق.

وانتهى إلى ميدان الأزهر، واتّجه إلى خان الخليلي يَتسمَّتُ هدفه الجديد، فعبر عطفة ضيّقة إلى الحيّ المنشود، حيث رأى عن كثب العمارات الجديدة تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، تفصل بينها طرقات وممرّات لا تحصى، فكأنّها ثكنات هائلة يضلّ فيها البصر. وشاهد فيما حوله مقاهي عامرة ودكاكين متباينة ـ ما بين دكّان طعميّة ودكّان تحف وجواهر ـ ورأى تيّارات من الخلق لا تنقطع، ما بين معمَّم ومطربَش ومقبَّع، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصابًا قلقة كأعصابه؛ فتولّاه الارتباك واضطربت حواسّه، ولم يدرِ أيّانَ يسير، فدنا من بوّاب نوبيّ اقتعد كرسيًّا على كثب من أحد الأبواب وحيّاه ثمّ سأله قائلًا:

ـ من أين الطريق إلى العمارة رقم «٧» من فضلك؟

فنهض البوّاب بأدب وقال مستعينًا بالإشارة:

ـ لعلّك تسأل عن الشقّة رقم «١٢» التي سكنت اليوم؟.. انظر إلى هٰذا الممرّ، سر به إلى ثاني عطفة إلى يمينك فتصير في شارع إبراهيم باشا، ثمّ إلى ثالث باب إلى يسارك فتجد العمارة رقم «٧».

فشكره وانطلق إلى الممرّ مغمغمًا «ثاني عطفة إلى اليمين».. حسنًا ها هي ذي.. وها هو ثالث باب إلى اليسار، العمارة رقم «٧». وتريّث قليلًا ليلقي نظرة على ما حوله. كان الشارع طويلًا في ضيق، تقوم على جانبيه عمارات مربّعة القوائم تصل بينها ممرّات جانبيّة تقاطع الشارع الأصليّ، وتزحم جوانب الممرّات والشارع نفسه بالحوانيت؛ فحانوت ساعاتيّ وخطّاط وآخر للشاي ورابع للسجّاد وخامس رفّاء وسادس للتحف وسابع وثامن إلخ إلخ. وتقع هنا وهناك مقاهٍ لا يزيد حجم الواحدة على حجم حانوت. وقد لزم البوّابون أبواب العمارات بوجوه كالقطران وعمائم كالحليب وأعين حالمة كأنّما خدّرتها الروائح العطريّة وذرّات البخور الهائمة في الفضاء، والجوّ متلفّع بغلالة سمراء كأنّ الحيّ في مكان لا تشرق عليه الشمس، وذٰلك أنّ سماءه في نواحٍ كثيرة منها محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات، وقد جلس الصنّاع أمام الحوانيت يكبّون على فنونهم في صبر وأناة ويبدعون آيات بيّنات من أفانين الصناعة، فالحيّ العتيق ما يزال يحتفظ باليد البشريّة بقديم سمعتها في المهارة والإبداع، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقى سرعتها الجنونيّة بحكمته الهادئة وآليّتها المعقّدة، بفنّه البسيط وواقعيّتها الصارمة، بخياله الحالم ونورها الوهّاج بسمرته الناعسة. قلّب فيما حوله طرْفًا حائرًا وتساءل هل يستطيع أن يحفظ هٰذا الحيّ الجديد كما كان يحفظ حيّه القديم؟! وهل يمكن أن يشقّ سبيله يومًا وسط هٰذا التيه تقوده قدماه وقد انشغل بما ينشغل به من أمور دنياه؟.. ثمّ اقتحم الباب مغمغمًا: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وارتقى درجات سلّم حلزونيّ إلى الطابق الثاني حيث عثر بالشقّة رقم «١٢». وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنّه قديم عهد به وآنس إليه في وحشته، ودقّ الجرس، فانفتح الباب، وظهرت أمّه على عتبته تلوح في ثغرها ابتسامة ترحيب، وأوسعت له

مستضحكة وهي تقول: «أرأيت إلى هٰذه الدنيا العجيبة!» فجاز الباب وهو يقول مبتسمًا: «مبارك عليك البيت الجديد!». فضحكت عن أسنان مصفرّة لأنّها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر:

ـ قُصارى ما وسعنا اليوم أن نفرش حجرتك وحجرتنا... وكان يومًا مُتعبًا حقًّا، ولقد كسرت قائمة أحد الكراسي على ما بذلنا من حرص، وتقشّر مسند سريرك في بعض المواضع..

ووجد أحمد نفسه في صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الأثاث، وضعت السفرة في وسطها وحمّلت بالآنية ولفّات الأبسطة، وكان بها بابان على يمين الداخل وفي مواجهته، فنظر فيما حوله في صمت، أمّا الأمّ فراحت تقول:

ـ الله يعلم أنّي لم أذق للراحة طعمًا في يومي هٰذا، فيا لشقاء الأمّ التي لم تنجب أنثى تستعين بها عند الحاجة، ولقد هربت أنت إلى وزارتك وقبع أبوك في حجرته كعادته، ولم يتورّع ـ غفر الله له ـ أن سألني منذ هنيهة عمّا هيّأت لكم من طعام؟ كأنّما يسأل ساحرة تقدر على كلّ شيء؟ ولكن من حسن الحظّ أنّ حيّنا الجديد غنيّ بمأكولاته السوقيّة، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعميّة وسلطة وباذنجانًا..

فتحلّب ريق أحمد لسماع اسم الطعميّة ولاح الرضاء في بريق عينيه، ثمّ سأل أمّه:

ـ وهل ارتاح أبي واطمأنّ؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لطيفة دلّت على أنّ بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كلّ ما كان لها من دلال أنثويّ، وقالت:

ـ ارتاح واطمأنّ والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه، ولكنّ الشقّة صغيرة والحجرات ضيّقات، فحشرنا الأثاث فيها حشرًا «واللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين»!.

وجعل يصغي إلى أمّه ويتفحّص ما حوله، فرأى ردهة تمتدّ على يسار القادم، على يمينها تقع حجرتان، وفي الناحية المقابلة المطبخ والحمّام. وقد أشارت أمّه إلى الحجرة التي تواجه باب الشقّة الخارجيّ وقالت له: «حجرتك»، أمّا حجرتا الردهة فقد أعدّت أولاهما لنوم والديه، وقالت أمّه عن الأخرى: «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها خالية على ذمّته» ومضى الرجل إلى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعدًا سريره تلوح في عينيه نظرة هدوء واستسلام. وكان عاكف أفندي أحمد ـ كابنه ـ طويلًا نحيفًا ذا لحية كثّة بيضاء، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة بعثت في نظرته الذابلة بريقًا خدّاعًا، وقد حدج ابنه بحذر وريبة وتوثّب لردّ العدوان إذا حدّثت الرجل نفسه بالتهكّم بسبب النقل إلى البيت الجديد، وحيّاه أحمد وقال له:

ـ مبارك يا أبتي!

فقال الشيخ بهدوء:

ـ الله يبارك فيك، كلّ شيء بأمره!

فهزّ أحمد رأسه وقال:

ـ ولكنّنا بالغنا في خوفنا مبالغة تنكّبت بنا عن جادّة الصواب. ألا ترى يا أبتي أنّ ما بين السكاكيني وخان الخليلي أدقّ من أن يدركه الطيّار المحلّق في السماء؟!.

فقال الأب بحزم:

ـ هٰذا الحيّ في حمى الحسين رضوان الله عليه، وهو حيّ الدين والمساجد، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ودّ المسلمين؟.

فابتسم أحمد وقال:

ـ وإذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكيني خطأ من قبل؟!.

فقال الرجل وقد ضاق صدره:

ـ لا تجادل في الحقّ، إنّي متفائل بهٰذا المكان خيرًا، وأمّك به راضية، وإن كانت ثرثارة لا تعرف الحمد والشكر، وأنت نفسك مطمئنّ راضٍ، ولكنّك تدّعي حكمة زائفة، وتتظاهر بشجاعة كاذبة، هلمّ فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا!.

فابتسم أحمد وتراجع إلى حجرته وهو يقول لنفسه: «صدق أبي» وألقى على حجرته نظرة فاحصة فوجدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محا ما كان لها من تناسق؛ فعلى الشمال الفراش، وعلى اليمين صوان الملابس،

تليه المكتبة كدّست على كثب منها الكتب، وكان بها نافذتان فرغب أن يلقي نظرة عجلى من كلّ منهما، فدلف من اليمنى وفتحها، وكانت تطلّ على الطريق الذي جاء منه، ومنها استطاع أن يتبيّن معالم الحيّ من عَلُ، فرأى أنّ العمارات شيّدت على أضلاع مربّع كبير المساحة، وأقيمت في ساحة المربّع التي تحيط بها العمارات مربّعات صغيرة من الحوانيت تلتفّ بها الممرّات الضيّقة، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها الأماميّة تطلّ على أسطح الحوانيت، وتأخذ نصيبها من الهواء والشمس، ولا يحجب عنها بقيّة العمارات حجاب، فكان الناظر من إحدى النوافذ الأماميّة يرى مربّعًا كبيرًا من العمارات ينظر هو من نقطة في أحد أضلاعه، ويرى في أسفله مربّعات كثيرة من أسطح الحوانيت، تخترقها شبكة معقّدة من الممرّات والطرقات، ورأى فيما وراء ذٰلك مئذنة الحسين في علوّها السامق تُبارِك ما حولها. فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء أمامه لأنّ أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا يرى إلّا جدرانًا صمّاء، ثمّ تحوّل إلى النافذة الأخرى التي تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظرًا مختلفًا، ففي أسفل طريق ضيّق يوصل إلى خان الخليلي القديم مغلقة حوانيته فبدا مهجورًا، وعلى الجانب الآخر من الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب، ثمّ تبيّن له أنّ سطحي العمارتين متّصلان في أكثر من نقطة وأنّ أطباقهما المتقابلة متّصلة كذٰلك بالشرفات ممّا جعله يحسب أنّهما عمارة واحدة ذات جناحين، وفي الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان الخليلي القديم، وقد رآه الرجل من نافذته أسطحًا بالية، ونوافذ متداعية، وأسقفًا من القماش والأخشاب تُظلّ الطرق المتشابكة، وفيما وراء ذٰلك تملأ الفضاء المآذن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها، تعرض جميعًا صورة من الجوّ للقاهرة المُعِزّيّة. وكان يرى ذٰلك المنظر لأوّل مرّة، فأكبره على نفوره من الحيّ الجديد، ومضى يسرّح الطرْف في مشاهده الغريبة المترامية، وهي مشاهد حقيقة بأن تدهش عينين لم تألفا غير الورق، ولا عهد لهما بآيات الطبيعة أو الآثار، على أنّه لم يجد من الوقت متّسعًا، فما لبث أن سمع نقرًا على الباب وصوت أمّه يدعوه قائلًا:

ـ الطعميّة جاهزة يا سعادة البيك..

فأغلق النافذتين وخلع بذلته، ثمّ ارتدى جلبابه وطاقيّته، وهو يدعو ربّه قائلًا: «اللّهُمَّ اجعله سَكَنًا مباركًا» إلّا أنّه ـ في نفس اللحظة وقبل أن يفارق الحجرة ـ جاءه صوت أجشّ من الطريق يصيح غاضبًا: «الله يخرب بيتك ويحرق قلبك يابن..» فردّ صوت آخر بأقبح ممّا قذف به، ممّا دلّ على أنّ اثنين يتقاذفان بالسباب كعادة أهل البلد، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطًا وغمغم قائلًا: «أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم»، ثمّ غادر الحجرة..

ـ ٢ ـ

وأكل ألذّ طعميّة ذاقها في حياته، وأطراها بغير تحفّظ، فسرّ أبوه وعدّ ذٰلك الإطراء إطراء للحيّ الجديد، فقال بحماس كبير:

ـ أنت لا تدري عن حيّ الحسين شيئًا، فها هنا ألذّ طعميّة وأشهى فول مدمّس، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمة رأس، هنا الشاي المنعدم النظير والقهوة النادرة المثال، هنا نهار دائم وحياة متّصلة ليلًا ونهارًا.. هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جارًا ومُجيرًا!.

ورجع بعد الغداء إلى حجرته، واستلقى على الفراش ينشد قسطًا من الراحة، وقد أقرّ فيما بينه وبين نفسه بأنّ دواعي سروره بالحيّ الجديد لا تقلّ عن بواعث ضيقه به. وقلّب عينيه في أنحاء الحجرة حتّى استقرّتا على أكداس الكتب المتراصّة على كثب من المكتبة لم يُهيّأ لها التنظيم بعد، فثبّت عليها بصره في ارتياح وسخرية، هٰذه كتبه المحبوبة، وجميعها باللغة العربيّة؛ لأنّه ـ على عهد الدراسة ـ لم يصب تفوّقًا في الإنجليزيّة فأهملها مضطرًّا بعد ذٰلك وأُنْسيها أو كاد، وأكثر من ثلثها كتب مدرسيّة في الجغرافيا والتاريخ والرياضة والعلوم، وبها عدد لا بأس به من مراجع القانون ومثله من كتب المنفلوطي والمويلحي وشوقي

وحافظ ومطران، ومجموعة من الكتب الأزهريّة الصفراء في الدين والمنطق تاهَ بصفرتها عجبًا واعتبرها آية العلم العسير الذي لا ينفذ إلى حقائقه إلّا الأقلّون، وهي لا تخلو كذلك من بعض مؤلّفات المعاصرين التي يعدّ اقتناءها تفضّلًا منه. هذه هي مكتبته المحبوبة أو هي جلّ حياته جميعًا. كان قارئًا نهمًا لا تروي له غلّة، وقد أدمن على القراءة إدمانًا قاتلًا، وأكبّ عليها عشرين عامًا كاملة من عام ١٩٢١ ـ تاريخ حصوله على البكالوريا ـ إلى عام ١٩٤١، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة، وتركّزت فيها مشاعره ونوازعه وآماله جميعًا، بَيْد أنّها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عامًا، وهي أنّها قراءة عامّة لا تعرف التخصّص ولا العمق، نزّاعة إلى المعارف القديمة، سريعة مضطربة، ولعلّ السبب في عدم تركيزها ما كان من اضطراره إلى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا، ممّا لم يهيّئ له فرصة منظّمة للتخصّص.

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته الاجتماعيّة والنفسيّة، لم ينْجُ من شرّها مدى الحياة، أمّا سببه فهو أنّ أباه أحيل على المعاش في ذلك الوقت ـ وكان يشارف الأربعين ـ لإضاعته عهدة مصلحيّة بإهماله، وتطاوله على المحقّقين الإداريّين، فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسيّة والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطّمة ويربّي أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثاني موظّفًا ببنك مصر. وكان أحمد طالبًا مجدًّا طموحًا واسع الآمال، رغب من أوّل الأمر في دراسة القانون، وطمع في أن تنتهي به دراسته إلى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه؛ وطوّحت به الأحلام والأماني، فلمّا أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتّالة دامية، ترنّح من هولها، واجتاحته ثورة عنيفة جنونيّة حطّمت كيانه، فامتلأت نفسه مرارة وكمدًا. ووَقَرَ في أعماقه أنّه شهيد مضطهد، وعبقريّة مقبورة، وضحيّة مظلومة للحظّ العاثر. وما انفكّ بعد ذلك يرثي عبقريّته الشهيدة ويحتفل بذكراها لمناسبة وغير مناسبة، ويشكو حظّه العاثر ويعدّد آثامه، حتّى انقلبت شكواه فصارت هوَسًا مرَضيًّا، واعتاد زملاؤه أن يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدّج: «لو أتممت دراستي ـ وكان نجاحي مضمونًا ـ لكنت الآن كَيْتًا وكيْتًا!» أو يقول متحسّرًا: «إنّي أدنو الآن من الأربعين، فتصوّر يا صاحِ لو أنّ الحياة سارت كما ينبغي، فلم يعترض مجراها الحظّ العاثر، أما كنت أكون محاميًا قديمًا يعتزّ بخدمة في القضاء تناهز العشرين عامًا؟!. وماذا كان ينتظر من رجل في مثل جدّي في غضون عشرين عامًا؟!» وربّما قال متأسّفًا: «فاتتنا ظلمًا أخصب فترة في تاريخ مصر، تلك الفترة التي تستهين باعتبارات السنّ والجاه الموروث، ويقفز فيها الشبّان إلى كراسي الوزارة!». ولم يكن يفوته تتبّع خطى المتفوّقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادرًا أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار: «أتعرفون فلانًا الذين يقولون عنه ويعيدون؟.. زامَلني عهد الدراسة فصلًا فصلًا، وكان تلميذًا خاملاً لا يطمع أن يدركني يومًا ما؟» أو يهتف متهكّمًا: «يا ألطاف الله؟.. وكيل وزارة؟.. ذلك الغلام القذر الذي لم يكن يعي ممّا يلقى عليه شيئًا؟! هي الدنيا!» ثمّ يروح محدّثًا إخوانه بآي نبوغه المدرسيّ، وما تنبّأ له به المدرّسون. هكذا تلوّثت عواطفه بتمرّد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق، واعتداد كاذب بمواهبه، ممّا جعل حياته عذابًا متّصلًا وشقاء مقيمًا. ثمّ وجدت هذه العبقريّة المزعومة نفسها مهملة في الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال، ولكنّها لم تسكن، ولم تستسلم، ولم تيأس، ومضت تلتمس السبل إلى تحطيم الأغلال، وشقّ الطريق إلى الحرّيّة، والمجد والسلطان، وكابدت التجارب، وتوثّبت بمحاولة تلو المحاولة. وقد فكّر أوّل ما فكّر في التحضير ـ من بيته ـ لشهادة القانون، فهو العلم الذي انجذبت إليه آماله من بادئ الأمر، ولم يكن عن الشهادة محيد، لأنّ المحاماة لم تعد اجتهادًا كما كانت على عهد سعد والهلباوي، فراح يقتني الكتب القانونيّة، ويستعير المذكّرات، وأكبّ على الدراسة عامًا مدرسيًّا كاملًا تقدّم في نهايته إلى الامتحان، ولكنّه

سقط في مادّتين. وطعن كبرياؤه طعنة نجلاء، وأحرج أمام الذين تتبّعوا أنباء عبقريّته باهتمام، وجعل يعتذر عن إخفاقه بوظيفته، وبادّعاء مرض وهميّ أقعده عن مواصلة الدرس، ولم ينثنِ عن ادّعاء المرض بعد ذٰلك على سبيل الاحتياط والحذر. وخاف أن يجرّب الامتحان مرّة أخرى، وأشفق من تعريض عبقريّته للتجارب الظاهرة التي يطّلع الناس على نتائجها فمال إلى العلم الحرّ، وبادر بإعلان احتقاره للامتحانات والشهادات، ثمّ أقنع نفسه بأنّ إخفاقه في امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له ـ لا لتقصير أو لقلّة كفاية، وعدل عند ذاك عن دراسته ليجد المجال الطبيعيّ الذي خلقت له عبقريّته الشهيدة، وهٰكذا خسر عامًا وربحت مكتبته عددًا لا يستهان به من كتب القانون. ثمّ فكّر في تكريس حياته للعلم، وتحيّر بين الأبحاث النظريّة والاختراعات العلميّة أيّها يختار؟ ثمّ أقلع عن فكرة الاختراع بحجّة أنّ البلد خالٍ من المصانع والمعامل، وهي ميادين التجارب، ومهبط الوحي الإبداعيّ، وركّز آماله في العلم النظريّ، وطمع في أن يكتشف نظريّة يومًا يغيّر بها آفاق العلم الحديث، ويقفز إلى سماء الخلود بين نيوتن وأينشتين. وتوثّبت به الهمّة، فراح يبتاع ما وقعت عليه يداه من ملخّصات الطبيعة والكيمياء، ويطالعها باهتمام وشغف. وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حيث بدأ لم يتقدّم خطوة نحو هدفه البعيد، ثمّ اقتنع بأنّ التعمّق في العلم يتطلّب دراسة تحضيريّة لم تُتَحْ له.

وغلبه الجزع وكثيرًا ما يغلبه، فيئس من الدراسة العلميّة النظريّة، وسوّغ يأسه نفسه بأنّ البحث النظريّ ليس دون الاختراع حاجة إلى المعامل ومعاهد الأبحاث، وأنّ جوّ مصر بصفة عامّة لم يتهيّأ بعد للعلم، ولم يجد ضرورة للاعتذار هٰذه المرّة عن إخفاقه للغير، لأنّه كان تعلّم أن يخفي أهدافه عن الناس جميعًا، بَيْد أنّ ذٰلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنّه يكرّس وقت فراغه للمعرفة والاطّلاع.. المعرفة الحرّة التي تسمو على الدراسة المدرسيّة والشهادات الحكوميّة، والاطّلاع العميق الذي يجعل من صاحبه عالـمًا بعيد الغَوْر. وضاع عام ثانٍ زادت فيه المكتبة صنفًا جديدًا من كتب العلم، ثمّ تساءل متعبًا متحيّرًا: تُرى لأيّ شيء خلقت مواهبه على وجه التحقيق..؟ لا شكّ أنّه لم يعرف نفسه بعد، ولو عرف نفسه لحفظ وقتًا ـ أحقّ به أن يحفظ ـ من الضياع هدرًا بغير ثمرة. فما حقيقة ميوله؟ لقد انتهى من القانون والعلم ولٰكن ليس القانون والعلم بكلّ شيء. هنالك ما يضارعهما جلالًا وجمالًا فما سرّ ولعه بشوقي والمنفلوطي؟ ما طربه للبيان الساحر؟ ألا يجوز أن يكون استعداده الحقّ للأدب؟ وأَجْمِلْ به من فنّ لا يستوجب التمرّس به شهادة ولا دراسة مدرسيّة. فما عليه إلّا أن يقرأ كما قرأ شوقي وحافظ ومطران من قبل. وما عتم أن استقبلت مكتبته ضيوفًا جددًا من أزاهر الشعر والنثر أكبّ عليها بشغف وحماس بلغ حدّ الغضب؛ ووقع في رحلاته على قول ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول فنّ الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي: كتاب الكامل للمبرّد، وأدب الكاتب لابن قُتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغداديّ. وما سوى هٰذه الأربعة فتبّع لها وفروع منها» فتنهّد كأنّما وقع على كنز واقتنى الأركان الأربعة، وقرأها جميعًا بما طبع عليه من حماس وسرعة، فلمّا أن فرغ منها تساءل مسرورًا: «هل صرت الآن أديبًا؟»، وأمسك بالقلم وصدقت عزيمته على أن يكتب، وكتب موضوعًا سمّاه: «على شاطئ النيل» أفرغ فيه فنّه وإلهامه؛ وأرسله بالبريد إلى إحدى المجلّات، ومضى يتخيّل ما عسى أن يستقبله به القرّاء من الإكبار والإعجاب، وكيف أنّه قد يكون أوّل درجات الشهرة والمجد، وحسْبه هٰذا فما يطمع في أجر غير المجد الأدبيّ. وظهرت المجلّة وفتّش عن مقاله فما وجد له أثرًا، ففتر حماسه وتعثّرت أمانيه في الخجل، ولٰكنّه لم ييأس فناجى نفسه يستنظرها أسبوعًا آخر، ومضت أسابيع دون أن تتاح للمقال فرصة الظهور. لقد قرأ أركان الأدب الأربعة التي يعدّ ما سواها تبَعًا لها وفروعًا منها، فهو أديب بحكم ابن خلدون، وما أدراك ما ابن

خلدون؟. فكيف لم ينشر مقاله؟. هل أهمل القوم نشره لأنّ كاتبه غير معروف؟ أو لأنّه لم يستشفع إليهم بشفيع؟ أو تُراهم عجزوا عن فهمه؟!.. وفكّر في أن يذهب إلى المجلّة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر، ولٰكنّه لم يستطع لأنّ خجله كان يقف له بالمرصاد دائمًا. ثمّ تناسى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالًا ثانيًا عن العدالة فلم يكن حظّه أحسن من الأوّل، فكتب ثالثًا عن «جناية الفقر على النبوغ» فلم يكن خيرًا من سابقيه. وتوثّب للكتابة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير فحطّمت محاولاته جميعًا على صخرة الإهمال الباردة، وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها إلى مجلّات مختلفة، فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذّب، وتنقذه من هاوية القنوط. وكان آخر مقال كتبه عن «تفاهة الأدب» فضاع كما ضاع إخوته. وانكسر عن محاولاته محطّم النفس مطعون الفؤاد. لقد تآمر عليه سوء الحظّ - عدوّه القديم - وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع. فلم يساوره شكّ في قيمة مقالاته الأدبيّة، بل ظنّها خيرًا ممّا بدأ به المنفلوطي نفسه وما يتيه به كثير من المعاصرين ولٰكنّه سوء النيّة وفساد الطويّة!.. وتبدّدت الأحلام جميعًا. ألا ما أضيق العيش وما أظلمه!. ورمى بالقلم، وتضاعف ما به من حقد وتمرُّد وألم، ويئس أخيرًا من المجد والسلطان، وامتلأت نفسه سخطًا وغضبًا على الدنيا والناس، والعظمة والعظماء خاصّة!. وما العظمة؟.. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟.. أجاب على ذٰلك بكلمة واحدة: «الظروف المواتية»، بل قال عن سعد نفسه على حبّه: «لقد مهّد له صهره سبل النجاح، ولولا صهره ما كان سعدًا الذي نعرفه». وكان يردّد كثيرًا: «إنّ الوظائف الكبرى في مصر وراثيّة» أو يقول: «إذا أردت التفوّق في مجتمعنا فعليك بالقحة والكذب والرياء، ولا تَنْسَ نصيبك من الغباء والجهل» أو يقول ساخرًا: «ما هٰؤلاء الأدباء الذين يملئون الصحف والمجلّات؟. أمن الأدب الحقّ أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبيّة؟، وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب إلّا كريم؟»، أو يقول محتدًّا غاضبًا: «والله لو أردت أن أكون عظيمًا في مصر ما عجزت.. ولٰكن قاتل الله الكرامة!» وحرق الغضب نفسه حتّى تركها شعلة من لهب غير مقدّس وحطامًا من رماد، ولٰكنّ الحياة لا تحتمل الغضب في كلّ حين، فما من مَعْدًى عن سُويعات راحة وإن تكن راحة القنوط، فكان يستريح إلى اليأس كلّما لجّ به الغضب أو الحقد، وفي تلك السويعات كان يقول لنفسه: ألا ما جدوى العناد في هٰذه الدنيا؟.. إذا كنّا نموت كالسوائم ونتتن فلماذا نفكّر كالملائكة؟.. هَبْني ملأت الدنيا مؤلّفات ومخترعات فهل تحترمني ديدان القبر أو تلتهمني كما التهمت جثّتي ريّا وسكينة؟؟.. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد إلّا رأس الأكاذيب والأباطيل. وسلّم نفسه إلى عزلة عقليّة وقلبيّة مريرة. يئس من الحياة فهرب منها، ولٰكنّه خالَ وهو يدبر عنها يائسًا عاجزًا، أنّه يزهد فيها متعاليًا متكبّرًا ولذٰلك لم يهجر عادة القراءة، لأنّ الكتب تهيّئ للإنسان الحياة التي يهواها، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا، وظفر منها ببلسم لآلام كبريائه، واستعار ما بها من قوّة، فخالها قوّة ذاتيّة، وكأنّ أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده، وقد عدل - بعد إخفاقه المتواصل - عن القراءة المنظّمة المحدّدة الهدف، واندفع يقرأ ما تقع عليه يداه، وعُني عناية خاصّة بالكتب الصفراء لأنّها في نظره عسيرة وعزيزة المنال، وانكبّ على القراءة بسرعة وشراهة وأعصاب متوتّرة فلم يتمتّع بقراءة مجدية ولا نافعة، وأصابه سوء هضم عقليّ، فكان يعرف أشياء وأشياء ولٰكنّه لم يتقن شيئًا أبدًا، ولم يتعوّد عقله التفكير مطلقًا ولٰكن كانت الكتب تفكّر له وتتأمّل بدلًا منه. ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمّل وإنّما كان همّه الحقيقيّ أن يحدّث الغد بما قرأ بالأمس، وأن يحاضر الزملاء من الموظّفين والصحاب - بلهجة الفيلسوف المعلّم - فيما وعته الذاكرة وحفظته، ولذٰلك سمّاه موظّفو المحفوظات بالأشغال «الفيلسوف» فسرّ بالتسمية وإن كان ما بها من التوقير يعادل ما بها من التحقير. ولم يكن للفيلسوف رأي يستقرّ عليه لأنّه كان يقرأ ولا يفكّر، وعسى أن ينسى اليوم ما قاله بالأمس القريب، وعسى

أن يقول غدًا ما يناقض قوليه جميعًا. وهو سبّاق إلى رأي ما دام فيه رضاء لكبريائه وغروره وولعه بالظهور، فلهَج بالمعارضة واللجاج، فإذا قال محدّثه يمين قال شمال، وإن قال أبيض قال أسود، ثمّ يندفع في النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتّى ليوشك أن يأخذ بتلابيب مُناظِره! وليس يعني هٰذا حتمًا أنّه غبيّ، والحقيقة أنّه كان عاديّ الذكاء.

فلم يهبط عقله إلى البلادة والغباء ولم يَعْلُ للنبوغ فضلًا عن العبقريّة، ولٰكن خدعَه عن حقيقة نفسه طموحه للمجد وهيامه بالعبقريّة فضلّ ضلالًا بعيدًا. وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسيّة مرهفة مضطربة فقتلت فيه روح الصبر والمثابرة، والتأمّل والتفكير، فصار دماغه وعاء لخليط من معارف شتّى بدلًا من أن يكون رأسًا مفكّرًا، ولا شكّ أنّ الأرق الذي مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الأسباب التي عقم بها عقله، وقد أشفى به على الجنون والموت، وسهر الليالي ذاهلًا أو هاذيًا، ثمّ أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس. ويرجع السبب المباشر لمرضه إلى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها، ذٰلك أنّه كان يؤمن بالسحر ولا يشكّ فيما يلقى على سمعه من أساطير، وعثر يومًا بموظّف قديم راسخ الاعتقاد في السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام، وبعد أن توطّدت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان، والقُمقم، ويا أسيادي. وطار بها الشابّ سرورًا وعدّها أجلّ ما بلغته يداه من زبد العلم والحقيقة، وعكف عليها بحماس ويقين يحلّ رموزها ويفقه أسرارها، ويتحرّق شوقًا إلى وقت يُتاح له فيه السيطرة على القوى الكونيّة والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوّة والسلطان!. أوشك أن يُجنّ لهفة وأن يذوب هيامًا. متى يدين له عرش النفوذ اللانهائيّ فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، ويعبث بمن يشاء، فيرفع ويخفض ويُغني ويفقر ويُحيي ويميت؟ ولٰكن لم تحتمل أعصابه الجهاد طويلًا ولا قدر على قضاء الليالي الطوال مختليًا بأرواح الشياطين فاضطرب حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقّفه المرض وأوشك أن يسلّمه للجنون أو الموت!. ولم يَرَ بدًّا من العدول عن سعيه والنزول عن أطماعه فأعاد الكتب إلى صاحبها ويئس من المجد للمرّة الأخيرة بعد أن جرَّب جميع السبل والمسالك المفضية إليه. وجعل يتساءل في حزن بالغ: ماذا بي؟ هل حلّ فيَّ روح نجس؟، لماذا أصرع دائمًا إذ لا يفصل بيني وبين ما أريد سوى ذراع؟!. وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة؟!. واطّرد مجرى الأيّام وتقدّم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ، بل جعل يجد لألمه لذّة غامضة، وكان يتوهّم حدوث الظلم بداعٍ وبغير داعٍ ويتلقّى ما يُقضى به عليه من ألم ممتزج بتلك اللذّة الخفيّة. وعسى أن يتساءل متحدّيًا ساخرًا: أليس جليلًا أن ينهض العالم جميعه لمقاتلة إنسان فرد؟!.. أليس ممّا يطيب به الغرور أن يتوفّر له سوء الحظّ ذٰلك التوفّر الذي إن دلّ على شيء فعلى الحسد والخوف؟!. بلى فقد قُضي لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذّة في هٰذه الدنيا..

وقد كان لالتذاذه بالألم هٰذا أثر في توجيه ميوله السياسيّة المتقلّبة، فمال دائمًا إلى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسيّة، وسرعان ما يتمثّل نفسه في موقف زعيمه يتلقّى ما يتلقّى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات، يجد في هٰذا وذاك ألمًا لا حصر له ولذّة لا شبهة فيها.

والواقع أنّ خلقه هٰذا لم يكن اتّفاقًا ولا تحت تأثير الإخفاق فحسْب ولٰكن له أصول بعيدة ترجع إلى عهد نشأته الأولى، حين كان الأوّل لوالدَيه، فدرج على الرعاية والحبّ والتدليل، ولٰكنّه كان ـ كذٰلك ـ الطفل الذي ادّخره حظّه لكي ينهض بأعباء أسرة محطّمة وهو دون العشرين، فلم تتلطّف معه الدنيا ـ فضلًا عن أنّ تدلّله ـ ساعة واحدة!..

★ ★ ★

لبث مستلقيًا في الفراش دون أن يغمض له جفن، وجعل يقلّب عينيه في سقف الحجرة وجدرانها وأرضها، وتساءل قلقًا: تُرى هل تطيب له الحياة في هٰذا الحيّ العجيب؟! . ونازعه الحنين إلى شارع قمر وحيّ السكاكيني والبيت القديم، وعلى أنّه لم يفارقه كذٰلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضّاء بالتطلّع، ثمّ ملأت البيتَ حركةٌ متّصلة وأتاه صَوتا أمّه والخادم فأدرك أنهما يستأنفان نشاطهما لفرش الشقّة وإعداد الحجرات. وتصاعدت إليه من الطريق ضجّة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى إليها بانتباه فتبيّن له أنّها أصوات أطفال يلعبون ويغنّون، وكأنّه ضاق برقاده ذرعًا فنهض إلى النافذة المطلّة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها إلى الطريق، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملئون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقًا أكبّ كلّ فريق على رياضة، فبدا الطريق وكأنّه نادٍ رياضيّ ساذج فهٰذه جماعة تلعب بالحديد وتلهب الأكفّ بالطرّة، وهٰذه جماعة تلعب بالبِلى، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع، واقتعد الصغار الطوار يرقصون ويغنّون ويصفّقون. اضطربت الأرض وضجّ الجوّ وثار الغبار فأيقن ألّا قيلولة منذ اليوم! وسمع أناشيد عجيبة «يا عمّ يا جمّال..» و«يا أولاد حارتنا توت توت» و«الجبل ده عالي يا عمّي» إلخ إلخ. فحار بين الدهشة والحنق والسرور! ثمّ تصاعد صوت جَهْوَريّ أجشّ غليظ النبرات يصيح كالرعد القاصف «ملعون أبو الدنيا!» وكرّر صياحه بصوت منغوم على إيقاع كفّين شديدتين!.. وكان الصوت صاعدًا على الأرجح من دكّان تحت النافذة مباشرة ولٰكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذٰلك الذي يتغنّى بسبّ الدنيا ولٰكنّه لم يتمالك نفسه فأغرق في الضحك حتّى تورّد وجهه الشاحب، واشرأبّ بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكّان وقد نقش عليها بخطّ جميل «نونو الخطّاط».. تُرى هل يكتب الرجل لوحات في سبّ الدنيا ويبيعها المتذمّرين والساخطين؟.. ألا ما أجدر أن يبتاع منها ما يشفي غليله!..

- ٣ -

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارات التي تواجه نافذته، فأدرك أنّ الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المُعِزّيّة بالجهة الخلفيّة، وصَعّد بصره إلى مئذنة الحسين السامقة تنطلق بجلال في غلالة من ظلال المغيب فهزّت مشاعره وأيقظت قلبه. ثمّ ارتفق حافّة النافذة يردّد ناظريه ما بين أسطح الدكاكين التي تتوسّط العمارات، والنوافذ والشرفات المطلّة من واجهات المباني، والممرّات المتقاطعة، رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسعى فيها ربّات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلَل، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنّما أفزعها دنوّ الليل، وكان يرغب أن ينطلق إلى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحيّ الجديد، ويكتشف طرقاته ومسالكه، ولٰكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد في تنظيم مكتبته، هٰذا إلى تعوّده لزوم البيت حتّى ندر أن يفارقه بعد عودته من الوزارة، فأجّل تنفيذ رغبته. وترك النافذة فتربّع على شلتة - وهي جلسته المختارة إذا تهيّأ للقراءة - واستخرج من المكتبة كتابًا يقرأ فيه حتّى يأزف ميعاد النوم.

وكان والده في تلك الأثناء يتربّع على سجّادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسّر منه في صوت مسموع، غير منتبه إلى أخطاء القراءة العديدة التي يتتابع عثوره بها. كان عاكف أفندي أحمد في الستّين من عمره، وقد أرسل لحية بيضاء أكسبت وجهه النحيل وقارًا، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو في أواسط العمر ومشرق الآمال، وبدا كأنّه كرّس حياته للعبادة وتلاوة القرآن، ولم يكن يفارق البيت إلّا فترات متباعدة للترييّض المنفرد أو زيارة الأضرحة. وربّما كان لعسره المالي - إذ لم يجاوز معاشه ستّة جنيهات - الأثر الأوّل فيما اتّخذ في حياته من نظام، ولٰكنّه رضي أخيرًا عن طيب خاطر بحياته وألفها بل وأحبّها أيضًا شاكرًا حامدًا. وكانت أقسى أيّام حياته وآلمها تلك التي أعقبت إحالته على

المعاش، فقد انقطع مورد رزقه أو كاد، وتهدّدت الفاقة أسرته البائسة، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط، وأقصي عن الوظيفة وجاهها، وهبّ كالمجنون للذود عن كيانه، فسعى واستشفع بكلّ شفيع، ولٰكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح. قدّم العريضة تلو العريضة، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء، حتّى علم أخيرًا بالحقيقة المحزنة وهي أنّ باب الحكومة قد أغلق دونه إلى الأبد. وكان في الحقيقة طاهر اليد إلّا أنّه ثبت إهماله وجاء تطاوله على المحقّقين فزاد الطين بلّة، ثمّ لم يسكت بعد ذٰلك عن شكوى الظلم والظالمين، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين، وراح تحت تأثير الغضب والحنق واليأس يتهكّم بالحكومة والموظّفين، ويقول إنّه أحيل على المعاش لأنّه أبى أن تمسّ كرامته، وأنّ الوظيفة أضيق من أن تتّسع لإنسان يحترم نفسه، وبعد أن كان ينكر تطاوله على هيئة المحقّقين، جعل يفاخر به ويبالغ فيه، ولم يعد له حديث سواه، فصار ضحكة المتغامزين، وفقد عطف الصحاب والأقارب، وحافظ بادئ الأمر على صلته بالناس، فتردّد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد، ولٰكن خُلُقه ساء بعد فاجعته، فأصبح ضيّق الصدر سريع الغضب، فاحتدّ يومًا على لاعب فانفجر الآخر هائجًا وصاح به: «يا طريد الحكومة!» فلم تطأ قدمه قهوة بعد ذٰلك، وانزوى بعيدًا عن الناس والدنيا، واختار العبادة ملاذًا وسكنًا، ولم يعد للماضي أثر في نفسه، وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة، وكان الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه!

على أنّه لا ينبغي أن نهمل عاملًا هامًّا في شفاء الأب، وهو الأمّ. حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها في حساب السعادة العائليّة، فتمتّعت بنصيب موفور من الحسن الذي رمقته القاهرة على أيّام شبابها بعين الإكبار والإعجاب، وما زالت ـ وقد شارفت الخامسة والخمسين ـ على وسامة وقسامة، وولع بالصبغ والألوان، وذوق في الأزياء، وما زالت لحيمة جسيمة وإن اعتورها الاسترخاء، خبيرة بوصفات السمن والتجميل، مشهورة بخفّة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة، لا تضاهيها امرأة في قدرتها على أن تألف وتُؤلف، فكثرت صويحباتها، وتعدّدت البيوت التي تزورها وتستزيرها، واستقبلها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذٰلك لم تتأثّر بالضائقة التي نزلت ببيتها، فلمّا انقبضت يد بعلها عنها انبسطت لها أيادي الصديقات الحبيبات بالهدايا، فحافظت على مستواها المعهود من الأناقة والتجميل. وكانت لها على زوجها دالّة، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها، وكانت تقول له ضاحكة: «لقد انتهيت يا عاكف أفندي من الحكومة فافرغ لي!»، أو تداعب لحيته قائلة: «من أجل الورد ينسقي العلّيق!»، ولٰكن كان صدرها يضيق إذا رأت بعلها مكبًّا على القرآن، وبكرها عاكفًا على مكتبه، فتصيح بهما: «هلّا علّمتماني القراءة لأجاور معكما؟!». ولشدّ ما أحنقها أحمد بإهماله نفسه، فكانت تروّح على خدّيها كأنّما تلطمهما وتهتف مؤنّبة: «كبّرت أمّك وجعلت سمعتها كالطين!. هاك الكوّاء فما لبذلتك مسترخية متقبّضة؟!.. وهاك الحلّاق فما لذقنك مخضرًّا؟!.. والدنيا بالأفراح حافلة، فما انزواؤك بين الكتب الصفراء؟! كيف تركت رأسك يصلع وقذالك يشيب؟!.. كبّرْتني.. كبّرتني.. كبّرتني!..» فكان أحمد يبتسم إليها ساخرًا ويغيظها قائلًا: «الطمي كيف شئت ألسْتُ في الأربعين؟!» فيهولها التصريح بالحقيقة الفظيعة، وتنهره قائلة: «اخرس قطع لسانك الطويل.. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابنًا يدّعي عمر أمّه؟!».

ومع ذٰلك فلم تخْلُ حياتها من الحزن، كانت مريضة، أو هٰكذا توهّمت، ولٰكن لم يَأْسَ على مرضها أحد ممّن حولها، وقد اقتنعت على مرّ السنين بأنّ عليها أسيادًا، وبأنّ لا شفاء لها إلّا بالزار، وطالما توسّلت إلى بعلها ليسمح لها بإقامة حفلة زار، ولٰكنّ الرجل لم يُصْغِ إلى توسّلاتها. واستقبح أحمد الفكرة وإن لم يساوره شكّ في وجود العفاريت، وكان قريب عهد ـ وقتذاك ـ بالتجربة التي أوشكت أن تنتهي بجنونه،

فيئست المرأة من استمالتها، وقنعت بشهود حفلات الزار إذا اتّفقت في بيوت الصديقات، حتّى قال أحمد يومًا متعجّبًا: «حقًّا إنّ أسرتنا ضحيّة الشيطان.. ألم يُغْرِ والدي بتحدٍّ لكلب حقير من الموظّفين ففقد وظيفته؟!.. وألم يحضّني على تعلّم السحر فأشفيت على الجنون؟! وها هو ذا يركب أمّي ويهيّئ لها خرابنا!».

ولكنّ الله سلّم، فقد غلب مرح الستّ دَوْلت ـ أمّ أحمد ـ على حزنها، كما غلبت الحنّاء على وميض الشيب بمفرقها..

★★★

لم يستطع أحمد أن يركّز انتباهه في القراءة لما أحدثه تغيّر المكان في نفسه من اليقظة والقلق، فمضى في مطالعة فاترة متقطّعة ومضى من الليل ساعة فسكنت ضوضاء النهار، ولكن لتحلّ محلّها ضوضاء أشدّ وأفظع سرعان ما جعلت الحيّ جميعه كمسرح من مسارح رَوْض الفرج الشعبيّة. أمّا مصدرها فالقهاوي العديدة المنتشرة في جوانب الحيّ، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوّة وعنف فكأنّه يذيع في كلّ شقّة، والنُدُل لا يكفّون عن النداء والطلب في أصوات ممطوطة ملحّنة «واحد سادة.. شاي أخضر.. تعميرة على الجوزة.. وشيشة جمّي..» ودقّ قطع النرد والدمينو وأصوات اللاعبين! فخال نفسه في طريق مزدحم بالمارّة لا في شقّة، وعجب كيف يحتمل أهل الحيّ ضوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن؟!.

ولم يزل ملازمًا الشلشلة حتّى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام، وأطفأ المصباح ورقد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتدوّي في أذنه، فذكر سكون السكاكيني في مثل هذه الساعة من اليوم وتأسّف من الأعماق، ثمّ لعن الغارات التي أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادئ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنّميّة التي زلزلت القاهرة زلزالًا مخيفًا، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتّى لم يعد يحسّ من ضوضاء الطريق رِكزًا ولا همسًا.

كانت الدنيا نائمة ـ تلك الليلة المفزعة ـ يستقبل ليلها هزيعه الأخير وكما تعوّدت القاهرة في مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفّارات الإنذار نعيرها المتقطّع الذميم، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لإطفاء المصباح الساهر في الصالة الخارجيّة ثمّ عاد إلى رقاده ليغطّ في النوم مرّة أخرى شأنه كلّ ليلة، إذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة إلّا الغارات الاستكشافيّة ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادّة للطائرات، ولكنّه لم يسكن إلى النوم، وراح يرهف أذنيه رافعًا رأسه عن الوسادة في دهشة وانزعاج، فقد سمع بوضوح أزيز طيّارات، ما في ذلك من شكّ، اتّصل وقعه لا يغيب ولا يَهِن، بل جعل يزيد وضوحًا ويعلو شدّة فضاق به صدرًا وامتلأ منه رعبًا، ولكنّ خاطرًا طمأنه بعض الاطمئنان، فلم يفصل بين سكوت الصفّارة وسماع الأزيز إلّا دقيقة أو بعض دقيقة وهي مدّة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطيّارات المعادية حيث يسبق الإنذار وصول الطيّارات بربع ساعة على الأقلّ، فبات مرجّحًا أن تكون الطيّارات إنجليزيّة حلّقت للمطاردة. وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنّه اتّصل اتّصالًا مرهقًا للأعصاب وكأنّ الطيّارات اختارت بيتهم مركزًا تدور من حوله، ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمّس طريقه في الظلام إلى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع: «هل أنتما مستيقظان؟» فجاءه صوت أمّه قائلًا: «لم ننم بعد، أما تسمع شيئًا؟» فأجاب أحمد: «بلى أزيز طيّارات.. وقد سمعته عقب الإنذار مباشرة!» فقال والده: «الأغلب أن تكون إنجليزيّة» فقال أحمد: «لعلّها»، وطمأنه اتّفاق الظنّ بينه وبين أبيه فعاد إلى حجرته، وقبل أن يمسّ جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب آتٍ من الفضاء أعقبه صفير مبحوح انتهى بانفجار شديد دوّى في سماء القاهرة دويًّا شديدًا مزعجًا، فانتفض رعبًا وتولّاه فزع جنونيّ وقفز نحو الباب لا يلوي على شيء، وضاعف من رعبه أنّ الحجرة لم تزل مضاءة بذلك النور الوهّاج الذي اخترق نوافذها من الخارج داعيًا القذائف إلى أهدافها،

وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجّرها بذاك الصفير المبحوح الممقوت، فارتجّت الأرض ارتجاجًا وزلزل البيت زلزالًا، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأنّ السماء ستظلّ تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانيّة في ذلك العناد الشيطانيّ الجبّار. ووجد والديه في الصالة، الأب معتمدًا ذراع الأمّ يوشك أن يسقط صريع الفزع والإرهاق، فهرع إليهما وتأبّط ذراع والده وصاح بهما «هلمّا إلى مخبأ العمارة» ومضوا مسرعين تتقدّمهم الخادم، وتساءل بصوت متهدّج مضطرب: «ما هذا النور؟. هل شبّ حريق في الخارج؟» فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبيّن مواقع قدميه من السلّم: «هي مصابيح المغنسيوم التي قرأنا عنها في الجرائد» فقال الرجل: «ربّنا يلطف بنا». وكان السلّم مكتظًّا بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة، وكلّما حدث انفجار ارتجّت الجدران وتعالى صراخ يصمّ الآذان وصوّتت النسوة وأعوَل الأطفال. وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب في عنفوانه والموت في حوَمانه فسادَ الظلام، وحدث هرج ومرج فزلّت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك، ثمّ بلغوا مخبأ العمارة ـ البدروم ـ بعد جهد جهيد ـ وكان مُضاء بمصباح خافت، مغطّاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء، واعتمد سقفه على عُمُد أفقيّة قامت على عمد حديديّة رأسيّة، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل، وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها، هاذية ألسنتها، ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لهفة أن يكفّ الضرب لحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلّوا ريقهم، ولكنّ الضرب اشتدّ وبدا من اشتدادات الانفجارات أنّه أخذ يقترب منهم! . وهنا حرّك ساقيه في الفراش فزعًا من هول الذكرى وهو يغمغم: «تبًّا لها من ليلة!» وتنهّد من أعماق صدره وفتح جفنيه، فعادت ضوضاء الحيّ إلى وعيه، وذكر أنّه رقد لينام لا ليستذكر آلام أفظع ليلة في حياته، ولكن هيهات. . . لقد هجمت عليه الذكرى بقوّة لا تقاوم، أجل، أخذ الضرب يقترب، بل انفجرت قذيفة خالَ القوم الفزعون أنّها انفجرت في صدورهم ورءوسهم، فرفعوا أيديهم كأنّما ليتّقوا بها السقف إذا انهار عليهم، واشتدّ الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كلّ لسان، وقوي شعور مفزع بأنّ القذيفة الثانية ستسقط على رءوسهم!، وهَوَت القذيفة التالية! . . ربّاه هل يمكن أن ينسى ذلك الصفير المبحوح ـ صفير الموت ـ وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفرّ؟ . . وكيف تقلقلت العمارة وطقطقت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض! . . ثمّ كيف دوّى الانفجار فصكّ الأسماع وصمّ الآذان ورجّ الأمخاخ ومزّق الأعصاب وخنق الأنفاس! . . لقد تقوّست الظهور في انتظار المقدور. . وقبض اليأس القلوب. . وتعجّلت النفوس النهاية مختارة الموت على انتظاره. . أجل لم يعد بينهم وبينَ الموت إلّا قذيفة لعلّها تغادر في تلك اللحظة مكمنها من الطيّارة. . . ولكن القذيفة ـ وهنا ابتسم ابتسامة حزينة ـ لم تسقط! . . أو سقطت بعيدًا، فقد ابتعد الضرب سريعًا كما جاء سريعًا، لم يجئهم الموت كما أوهمهم. . أراهم وجهه ولكن لم يُذقهم طعمه. . أو أجّل ذلك لليلة أخرى، فباعد الضرب، ثمّ خفّ عن ذي قبل، وبات متقطّعًا ثمّ انقطع فلم يعد يُسمع إلّا طلقات المدافع، ثمّ ساد السكوت! . . واستردّ التعساء أنفاسهم، وتبادلوا نظرات الشكّ والرجاء، وانفكّت عقد ألسنتهم فهذَوْا كالمجانين، ومضت ربع ساعة رهيبة ثمّ انطلقت صفّارات الأمان! . . يا رحمة الله! . . هل ذهب الموت حقًّا؟ . . هل يدركهم نور الصباح؟ . ودبّت الحركة وأضيئت الأنوار وانطلق أناس إلى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة، وانتقلت روايات، قالوا العبّاسيّة خراب. . أمّا مصر الجديدة فَقُلْ عليها السلام، وقصر النيل أمست أثرًا بعد عين، ومخازن الترام دمّرت وجُثث العمّال أكوام! . .

وصعدوا إلى شقّتهم يغمر صدورهم سرور عصبيّ، سرور مَن نجا من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة في صدره، ومضوا بقيّة الليل أيقاظًا يتكلّمون. وفي نهار اليوم الثاني بدا الحيّ وكأنّه أزمع الهجرة، وتتابعت

عربات النقل تحمل المتاع الضروريّ إلى الأحياء التي حسب الناس أنّها آمنة أو إلى القرى المتاخمة للعاصمة حتّى خلت عمارات من ساكنيها، وضاعفت مناظر الهجرة من خوف الأسرة خصوصًا الأب الذي تضعضع قلبه الضعيف من عنف الغارة، فنشأت في رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين، وإذا كان من المتأثرين بدعاية المِحْور الإسلاميّة فقد اعتقد اعتقادًا راسخًا في أنّ حيًّا دينيًّا كحيّ الحسين لا يمكن أن يقصده المغيرون بسوء، فجدّ في البحث عن مسكن فيه، فاهتدى إلى هٰذه الشقّة، وكان النقل.. وإنْ يَنْسَ لا ينسى اليوم الذي أعقب ليلة الغارة، فلم يكن للقاهرة حديث إلّا حديث الليلة الماضية، واستفاض الناس في الكلام بأعصاب متوتّرة ونفوس قلقة، وضحكوا جميعًا ضحكًا فيه سرور النجاة وتوتّر الخوف، وشعر أحمد بدنوّ الموت دنوًّا جعله يحسّ تردُّد أنفاسه على وجهه، بل هنالك ما هو أفظع من الموت نفسه، كأن يُلقى به على قارعة الطريق مقطّع الأوصال أو مشطور الرأس، وربّما أُلحِق بعد ذٰلك بذوي العاهات المستديمة، أو كأن ينجو من الموت ويدكّ البيت بمن فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوًى وبلا أثاث وبلا لباس!. وجعل يدعو ربّه ويستشفع بنبيّه، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة بائسة، وأعجب من هٰذا أنّه مال إلى الترفيه عن نفسه وتهيئة السرور لها ما أمكن، فغلب حرصه الطبيعيّ وابتاع لدى عودته إلى البيت صندوق بسكوت بالشيكولاتة وهو طالما اشتهته نفسه وحرمها إيّاه حرصا على القليل من النقود التي تعوّد أنْ يودعها صندوق التوفير كلّ شهر، ولٰكن عندما أتى المساء غشي القلوب همّ وكآبة، وبات الكلّ في ذعر عظيم، ولم يغمض لإنسان جفن، وتيقّظت ذكريات الليلة المفترسة، واختلّت الحواسّ، فصار كلّ نفير صفّارة إنذار، وكلّ صفقة باب انفجار قنبلة، وكلّ خشخشة أزيز طيّارة..؟ وها هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئنّ قلوبهم حقًّا؟! العمارات حديثة البناء متينة، ولها مخبأ يضرب بقوّته المثل وهٰذا جوار الحسين.. ولٰكن ألم تدكّ حصون وتخرب جوامع؟! آه لَكَمْ يعذّبنا حبّ الحياة، ولكم يقتلنا الخوف، ومع ذٰلك فالموت لا يرحم، وبالتفكير فيه يبدو أيّ جليل تافهًا. كم حمّل نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب.. ففيمَ كان ذاك؟. وسمع عند ذاك الراديو يذيع السلام الملكيّ، فأدرك أنّ ساعتين مضتا في أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة الأفكار، ولٰكنّه لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هي به فغمره سيل الذكريات الزاخر، فذكر كيف اقترح على والديه أن يسافرا إلى أخيه الأصغر في أسيوط ـ مقرّ عمله ـ فيبتعدا عن الخطر حقًّا، وكيف قالت له أمّه: «بل نبقى إلى جوارك فإمّا أن نعيش معًا وإمّا..» ثمّ استضحكت مستعيذة بالله!.. ماذا كان يفعل لو وافقها على السفر؟.. كان أسهل الحلول أن ينزل في بنسيون، والحقّ أنّه رحّب بالفكرة في أعماقه لأنّه يروم التغيير وهو لا يدري، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عامًا في بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشيّة؟!.. فمهما ألف هٰذه الحياة وتعوّدها لا بدّ أن تنزع به النفس ـ ولو في خفاء ـ إلى التغيير.. والتغيير الكامل!.. إلّا أنّه لم يستسلم هٰذه المرّة طويلًا إلى أفكاره فقد طرقت أنفه رائحة غريبة أوقفت تيّار أحلامه!.. ذابت في خيشومه فجأة كأنّما حملتها إليه هبّة نسيم كان من قبل راقدًا، ونبّهه إليها أنّه كان يشمّها لأوّل مرّة في حياته، وتحيّر كيف يصفها، فما كانت رديئة ولا كانت زكيّة، ولٰكن تطيب بها النفس، وفيها هدوء وعمق، وإلّا فما نفاذها إلى قرارة الإحساس؟!.. وما كانت تنقطع إلّا لتعود.. فهل بخور يحترق في مثل هٰذه الساعة من الليل؟!. أم يكون لهٰذا الحيّ الغريب أنفاس تتردّد في أعماق السكون؟!..

وغاب به التفكير في الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهيّأ للنوم وهو لا يدري.. وما لبث أن استرق الكَرى خطاه إلى جفنيه فأخذ بمَعاقِدهما.

ـ ٤ ـ

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثاني كان

جالسًا إلى السفرة يتناول فطوره الذي يتكوّن عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقيمات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون. وغادر الشقّة فصار في الردهة الخارجيّة التي تفصل بين الشقق، وقبل أن يبلغ السلّم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة في أولى سني الشباب مرتدية مريلة مدرسيّة زرقاء ومتأبّطة حقيبة الكتب، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثمّ أعاد رأسه وقد تولّاه ارتباك، والارتباك طبيعته إذا التقت عيناه بعيني أنثى!. ولم يَدْرِ هل الأليَق أن يسبقها إلى الطريق أو أن يتنحّى لها جانبًا فزاد ارتباكه وتورّد وجهه الشاحب وبدا فيلسوف إدارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغرير يتعثّر حياء وخجلًا!.. وتوقّفت الفتاة كالداهشة وانتقلت إليها عدوى ارتباكه، فلم يجد بدًّا من أن يتنحّى جانبًا وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع: «تفضّلي!». فمضت الفتاة إلى حال سبيلها وتبعها متثاقلًا متسائلًا أأصاب يا تُرى أم أخطأ؟.. وبِمَ حدّثت نفسها عن تردّده وارتباكه؟!.. وعند باب العمارة أيقظه صوت جَهْوريّ من أفكاره يصيح «ملعون أبو الدنيا» فالتفت إلى يسراه فرأى نونو ـ كما ظنّ ـ يفتح دكّانه، فسُرِّي عنه وابتسمت أساريره وغمغم «يا فتّاح يا عليم!» ثمّ سار في طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتّى بلغت السكّة الجديدة فانعطفت إلى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره إلى محطّة الترام. ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها. استقرّت عليهما عيناه لحظة حين التفاته إليها. عينان نجلاوان ذواتا مُقلتين صافيتين وحدَقتين عسليّتين، وبدتا لغزارة أهدابهما مكحّلتين، تقطران خفّة وجاذبيّة، فحرّكتا مشاعره. وكانت الفتاة تتخطّى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة، بينما هو في الأربعين، فأكثر من عشرين عامًا تفصل بينهما! ولو أنّه تزوّج في الرابعة والعشرين ـ وهي سنّ زواج معقول ـ لكان من المحتمل أن يكون أبًا لفتاة في مثل عمرها ونضارتها!. وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصوّر تلك الأبوّة التي لم تتحقّق.

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين، وفتر حماس الحنين إلى الأبوّة، واجتاح صدره انفعال عنيف قاتم شأنه إذا اقترب من أنثى أو اقتربت أنثى منه، ذلك أنّه يحبّ النساء حبّ كهل محروم، ويخافهنّ خوف غرير خجول، ويمقتهنّ مقت عاجز بائس. فأيّة أنثى جميلة تترك في وجدانه انفعالًا شديدًا، يضرب في أعماقه الحبّ والخوف والمقت. وقد كان لنشأته الأولى أكبر الأثر في تكييف طبيعته الشاذّة، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمّه، صرامة ترى القهر عنوان الحنان، وتدليل محبّة ومَغْرَم لو ترك الأمر له ما علّمه المشي خوفًا عليه من العثار. فنشأ على الخوف والدلال، يخاف أباه والناس والدنيا، ويأوي من خوفه إلى ظلّ أمّه الحنون، فتنهض بما كان ينبغي أن ينهض به وحده. فبلغ الأربعين ولم يزل طفلًا، يخاف الدنيا وييأس لأقلّ إخفاق، وينكص لدى أوّل صدمة، وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس، ولكن لم يعد يُجدي هذا السلاح، لأنّ الدنيا ليست أمّه الحنون، فلن ترقّ له إذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه إذا بكى، بل أعرضت عنه بغير مبالاة، وتركته يمعن في العزلة ويجترّ العذاب، فهل يصدّق الوالدان أنّ ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيّتهما؟!.

ومع ذلك كلّه سجّل قلبه تاريخًا في حياة القلوب.

سطّر أولى كلماته وهو في السنة الأولى من المدرسة الثانويّة، وما يعنينا من سرده إلّا دلالته على طبعه. كان غلامًا ناضرًا متأنّقًا، ولعلّه ورث الأناقة من والدته، فجذب إليه يهوديّة صغيرة حسناء من بنات الجيران!. فأحمد عاكف ـ كما ترى ـ كان يومًا ما جذّابًا!. كانت تلعب في طريقه وترقب مرجعه من المدرسة في نافذتها، ولا تضنّ على عينيه بملاحتها ودلال أنوثتها فأصْلَت وجدانه نيرانًا ولكنّها لم تستطع أن تبعث في قلبه الجسارة أو الشجاعة. ألهبت قلبه وجدًا ولكنّ قُصارى ما كانت تدفعه إليه شجاعته أن يرمقها بلحاظ مغرم وجل سرعان ما يرتدّ أمام نظرتها وهو كليل، ولكنّه على رغم خجله طارحها الغرام

صراحة بفضل جسارتها هي. كانت جسورًا لعوبًا لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها، وتبعته ذات أصيل حتّى أدركته ثمّ نادته فالتفت إليها بوجه كالجمان، فابتسمت إليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة في حياء وخفر فقالت له «هلمّ نتمشّى في شارع عبّاس!» فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنبًا إلى جنب والشمس تتقدّمهما نحو المغيب، وتعمّدت أن تدنو منه وأن تلامسه في رفق فجعل يبتعد كأنّما يخاف أن تحسب أنّه المتعمّد وهو يذوب شوقًا إلى اللمس الذي بجانبه، ثمّ تأبّطت يمناه وهي تضحك ضحكة لم تَخْلُ من الارتباك، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته في دعابة: «أتخاف؟!» فقال بصوت رقيق: «أخاف أن يرانا أحد من بيتك!» فهزّت كتفها استهانة وقالت: «لا تُبالِ هذا» فلاحت في عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة «أما تزال خائفًا؟!» فقال بعد تردّد «أخاف أن يرانا أحد من بيتنا!» فأغرقت في الضحك وعرّجت به إلى بستان وهي تغمغم: «نحن الآن في أمن من الرقباء!» وتمشّيا في سكون والشمس تذوب في الشفق، وظلال المغيب تمتدّ في الأفق فتجعل منه سُرادقًا قاتمًا لاستقبال الليل الزاحف، ثمّ قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه: «حلمت حلمًا يا له من حلم؟» فقال وقد أخذ يأنس بها: «خيرًا إن شاء الله» فقالت «حلمت أنّك قابلتني وقلت لي أريد... ثمّ ذكرْتَ كلمة لن أعطيها لك حتّى تقولها بنفسك، فحزّر ما هي؟!» فاشتدّ عليه الارتباك وقال بلسان ملعثم: «لا أدري» فقالت بصوت عذب «بل تدري وتداري.. قل!» فحلف لها بسذاجة أنّه لا يدري، فقالت: «لا فائدة من الكذب عليّ.. أولى بك أن تتذكّر. كلمة أوّل حروفها ق!» فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت: «والحرف الثاني ب!» فلزم صمته وغضّ بصره فاستطردت تقول: والثالث ل.. قل ما الحرف الأخير!» فابتسم مرتبكًا ولكنّه لم يدْرِ كيف يتكلّم، فقرصته في ذراعه وهمست في أذنه «إذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلّمك أبدًا!» وفعل التهديد فعله فرسم بأصبعه في الهواء تاء مربوطة! فضحكت بسرور وقالت: «الآن اعترفت بما تريد ولن أضنّ به عليك!» ثمّ أدنت منه وجهها وقد أيأسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقًا إلى مثلها. وهكذا كان دائمًا: إحساسًا عنيفًا وخجلًا مؤنسًا. وكان يحلو لتلك اليهوديّة الحسناء أن تداعبه بالسخرية من قسمات وجهه، فآمن بسخريتها، واستقبح وجهه أكثر ممّا ينبغي، ووجد سببًا جديدًا يقوّي به خجله الطبيعيّ فتضاعف، ولو أمكن رجلًا أن يسدل على وجهه نقابًا لكان ذاك الرجل، وكان ذلك من بواعث المبالغة في تأنّقه حينًا التي انقلبت فصارت إهمالًا زريًا حين أدركه اليأس..

واختفت اليهوديّة الحسناء من حياته فجأة، فما هو إلّا أن خطبها شابّ من بني جنسها حتّى هجرت لعبتها لتستقبل حياة الجدّ، غير عابئة بالجرح الدامي الذي أحدثته في قلب غضّ. بيْد أنّ القلوب الغضّة سريعًا ما تندمل جروحها. وفي الفترة النهائيّة من المرحلة الثانويّة دانت أسباب الجوار أيضًا بينه وبين صبيّة حسناء هي صغرى بنات أرملة من صديقات والدته، فألّفت بينهما المودّة وتشجيع الأمّين اللتين ما برحتا تدعوانهما بالعروسين. ولم يكن ذاك الحبّ الثاني كالأوّل الذي كان أوّل يقظة لقلب مفطور على الإحساس، ولكن حوَت الصبيّة مزايا نادرة من رجاحة العقل ومتانة الخلق ممّا جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكثر الأسف. وكثيرًا ما كان يحدّث نفسه قائلًا: إنّه لو تزوّج من فتاته كما أرادت أمّه وأمّها لتمتّع بحياة زوجيّة سعيدة قليلة الأشباه. ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلّت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه إلى المعاش ودُفع به هو إلى مواجهة الشدّة فانتُزع من نعيم الآمال ورمي به إلى جحيم اليأس، وأصبح حتمًا على الفتاة إذا أرادت أن تبقى عليه أن تنتظر عشرة أعوام ريثما ينتهي من تربية أخيه. والظاهر أنّ أمّها لم تشجّع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل، وغلبت حكمة الفتاة ـ نفسها ـ على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبدّدت الأحلام، وكفر أحمد

بالحبّ وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعًا. فالحبّ الذي ثمل به قلبه بين يدي اليهوديّة وهْم ضالّ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوعّك التسنين للطفل. وقد قضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد امرأة.. سواء أكانت كخطيبته عقلًا وفضلًا أو كاليهوديّة التي علّقته ما شاء لها الهوى ثمّ هجرته كما يهجر الإنسان حجرته، في فندق بميدان المحطّة..

وانقضت بعد ذلك عشرون عامًا من حياته وقلبه من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة حقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيّقة بالأمل. ولو سكنت ثائرته لأمكنه أن يجد في حياته من لذّات التضحية والقيام بالواجب ما يعزّيه عن خيبة آماله جميعًا، ولكنّ غضبه لم يسكت وحدّته لم تَلِنْ فلم يزل ساخطًا متبرّمًا حاقدًا، لأنّ إنسانًا ألف أن يكون المعبود الذي يُقدّم على مذبحه القربان لا يحتمل أن يصير كبش التضحية. وشُغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنّما رمى بقلبه ـ الذي لبث طوال أربعة أعوام كقيثارة دائمة الترنيم ـ إلى بئر آسنة فاختنق وعاش بلا أمل بلا حبيب، وبلا قلب، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها، فدفعه القنوط من النجاح إلى العزلة، ودفعه القنوط من الحبّ إلى البغاء. وكأنّه لم يكْفِه ما اعتنق من سوء ظنّ بالمرأة فألقى به سوء حظّه بين يدي الأنوثة التعسة المشوّهة ليزداد إيمانًا بعقيدته المريضة. فأقنع نفسه ـ بسوء نيّة ـ بأنّ المرأة الحقيقيّة هي البغيّ!.. فهي المرأة الحقيقيّة وقد جَلَتْ عن وجهها قناع الرياء، فلم تعد تشعر بضرورة ادّعاء الحبّ والوفاء والطهر. على أنّ البغيّ قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقيّة الباقية من ثقته بجدارته كرجل، إذ أنّه اعتقد أنّ البغيّ إذا أحبّت رجلًا فإنّما تحبّه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيّته الطبيعيّة بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعيّة وظروف التربّي والجوار، فعسى أن تكون اليهوديّة أحبّته لأنّها لم تظفر بسواه، أو أنّ خطيبته أحبّته لدواعي الجوار وإيحاء الأمّهات. أمّا البغيّ فلا تختار حبيبًا من بين عشرات الرجال الذين يتردّدون عليها لداعٍ من هذه الدواعي،

فإذا كان لم يستطع أن يجذب إليه بغيًا طوال هذا الدهر فما ذلك إلّا لأنّه عاطل من جاذبيّة الجنس.. وهكذا عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من قبل..

ولـمّا أتمّ أخوه رشدي دراسته وحصل على بكالوريوس كلّيّة التجارة وتوظّف ببنك مصر منذ عامين ـ وكان أخوه الآخر قد توفّي منذ أمد بعيد ـ شعر بحقّ بأنّ مهمّته قد انتهت بل وكلّلت بالنجاح، وساوره أمل ـ وهل ينعدم من الحياة الأمل؟ ـ أن يراود السعادة، فقد يظفر بالسعادة وإن يئس يأسًا نهائيًّا من الجاه والسلطان، وسعى إلى أن يخطب كريمة أحد التجّار المقيمين في غمرة، ولكنّ والدها ردّه ردًّا جميلًا. وعلم الكهل أنّ أمّها قالت عنه «إنّ مرتّبه صغير وعمره كبير!». وترنّح من هول الضربة التي هَوَتْ على كبريائه، وثار ثورة عنيفة، وكبر عليه ـ وهو العبقريّ الذي حشد الكون ما به من سوء حظّ لمكافحة عبقريّته ـ كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حوّاء، بل أن ترفضه خاصّة لأنّه حقير!.. أيقال عنه حقير؟!. فمَن العظيم إذن؟!.. وكوّر قبضته متوعّدًا الدنيا بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه. بالأمس هجرته حبيبته لأنّه صغير لا ترجى منه فائدة، واليوم ترفضه فتاة لأنّه كبير لا ترجى منه فائدة، فمتى كان ذا فائدة؟!.. أذهب العمر هباء؟!.. أضاع المجد وعزّت السعادة وانتهى كلّ شيء؟!.. وصار دأبه بعد ذلك ذمّ النساء ورميهنّ بكلّ نقيصة، فهنّ حيوانات ماكرة ومكرهنّ سيّئ قوامه الطمع والكذب والتفاهة، إنّهنّ أجساد بلا روح، إنّهنّ مصدر آلام الإنسان وويلات البشريّة، وما أخْذهنّ بظاهر العلم والفنّ إلّا خدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن في شباكهنّ الضحايا، ولولا شهوة خبيثة ألقيت في غرائزنا ما ظفرن برجاء ولا مودّة.. وهنّ.. وهنّ.. وكثيرًا ما يقول لزملائه «شرّعت لنفسي ـ والحمد لله ـ ألّا أتزوّج على كثرة ما واتتني الفرص، لأنّي آبى أن يتنهبني حيوان قذر لا روح له ولا عقل!» لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدوًّا للدنيا، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوًّا

للمرأة!.. ولكنّ أعماقه اضطربت بالرغبة والعاطفة المنهومة المحرومة.

إنّ انفعاله لامرأة عابرة ـ كما حدث اليوم ـ حقيق بإهاجة أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيثور، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح بالحبّ والخوف والمقت..!

ـ ٥ ـ

وعاد ظهرًا إلى الحيّ الجديد، وغمغم مبتسمًا وهو يدنو منه: «ثاني عطفة على اليمين ثمّ ثالث باب على اليسار!»، وذكر وهو يرتقي السلّم الحلزونيّ فتاة الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسليّتين النجلاوين، تُرى هل يراها مرّة أخرى؟.. وفي أيّه شقّة وفي أيّ طابق من هٰذه العمارة تقيم؟! ولبث في البيت ـ وقد أكملت أمّه فرشه وتنظيمه ـ حتّى العصر، ثمّ بدا له أن يجول في طرقات الحيّ الجديد مستطلعًا ومستكشفًا، فارتدى ملابسه وانطلق إلى الخارج. وتريّث قليلًا أمام باب العمارة، وجعل ينظر فيما حوله كأنّما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه. ولٰكنّه قبل أن يجمع على رأي شعر بشخص يدنو منه فالتفت إليه فرأى الرجل الذي حسب صباح اليوم أنّه المعلّم نونو، وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسمًا ابتسامة ترحاب وسرور، ومدّ له راحة غليظة كخفّ الجمل وقال:

ـ أهلًا وسهلًا بالجار الجديد!.. ويا ألف نهار أبيض!.

وسلّم الجار الجديد.. ولم يكن يتوقّع تلك المفاجأة من صاحب «ملعون أبو الدنيا!»، وقال وقد ابتسمت أساريره:

ـ أهلا وسهلًا بك يا معلّم!..

فأشار المعلّم إلى كرسيّ موضوع أمام دكّانه وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه الغليظتين:

ـ شرّفْنا بالجلوس دقيقة.. دا يوم سعيد!

وتردّد أحمد ـ لا لأنّ قبول دعوة المعلّم يناقض الغرض الذي خرج من أجله ـ ولٰكن لأنّ طبعه النافر لا يستسيغ مثل هٰذه الدعوة الكريمة بغير تردّد، وقرأ الآخر تردّده في وجهه، فقال بصوته الجَهْوريّ الخشن:

ـ حلفت بالحسين ـ إن لم تكن قاصدًا غاية تستوجب العجلة ـ إلّا ما شرّفتنا.. يا ولد يا جابر هات شايًا.. وهات نارجيلة!..

وقبل أحمد ـ بسرور يعادل تردّده ـ الدعوة شاكرًا، ومضى إلى الكرسيّ بينا غاب المعلّم لحظة ثمّ عاد بكرسيّ آخر وجلسا متقابلين. كانت دكّان الخطّاط مثل بقيّة الدكاكين حجمًا وأناقة، وقد غصّت باللافتات الجميلة، وتوسّطتها طاولة رصّت عليها قنّينات الألوان والأقلام والمساطر، وأسندت إلى إحدى قوائمها لافتة كبيرة كتب في أعلاها بالألوان الزاهية «محلّ بقالة خان جعفر» وتحت ذاك العنوان لاح اسم صاحب البقالة مرسومًا بالرصاص لم يلوّن بعد. وكان الرجل يرتدي جلبابًا ومعطفًا أبيض وطاقيّة. في الخمسين أو نحو ذٰلك، رَبْع القامة متين البنيان، كبير الوجه والرأس واضح القسمات، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع، وشفتين ممتلئتين، ولون قمحيّ مشرب بحمرة. وقد جلس وهو يقول:

ـ محسوبك نونو الخطّاط.

فرفع أحمد يده إلى رأسه وقال:

ـ تشرّفنا يا معلّم، محسوبك أحمد عاكف بوزارة الأشغال!

وكان لا يحبّ ذكر وظيفته إرضاء لكبريائه، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب، بَيْد أنّه لم يتألّم هٰذه المرّة كعادته لإيقانه بما يكنّه أمثال المعلّم نونو للموظّفين من احترام. وقد رفع الرجل يديه إلى رأسه احترامًا ثمّ ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال بما طبع عليه من صراحة:

ـ أنتم شرّفتم حيّنا يا سادة ولٰكن هل جئتم حقًّا إلى هنا خوفًا من الغارات؟

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولـمّا يمْضِ عليهم في الحيّ الجديد سوى ليلة واحدة!. فحدج الرجل بنظرة إنكار وتساءل:

ـ من قال لك ذٰلك؟

فقال المعلّم ببساطة:

ـ الحوذيّ الذي نقل أثاثكم، الناس جميعًا تهاجر

هٰذه الأيّام!

فقال أحمد عاكف يدافع عن «شجاعة» أسرته:

ـ الواقع أنّ أحياءنا المعرّضة للخطر كادت تخلو، وقد حملنا مرض والدي بالقلب وخوفنا عليه على هجر بيتنا القديم آسفين!

وعند ذاك جاء غلام المعلّم بالشاي والنارجيلة، فوضع النارجيلة أمام المعلّم، ثمّ أتى بكرسيّ من الدكّان وضعه أمام الضيف ووضع الإبريق عليه. وعزم على ضيفه أن يحسو الشاي وأقبل على النارجيلة بلذّة وشهوة، وأخذ نفسًا طويلًا روى به غلّة خيشومه ثمّ استدرك قائلًا:

ـ حسن أن يلتمس الإنسان سبيل الطمأنينة وإن كان العمر واحدًا والربّ واحدًا والمكتوب حتمًا تشوفه العين. إنّي يا عاكف أفندي من المتوكّلين على الله، وما عرفت حتّى الآن طريق المخبأ. أيّ مخبأ يا سعادة البيك؟!.. هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر، أو يؤجّل قضاء الله؟!.. ألم تسمع صالح عبد الحيّ وهو يغنّي «نصيبك في الحياة لازم يصيبك»؟!. بيْد أنّي أدعو الله أن يكفينا شرّ الأيّام، وأعود فأقول إنّ حظّنا حلو، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهٰذا الجوار السعيد!

ولاحظ أحمد أنّ كلام الرجل حوى أوّله سخرية به ـ وإن كانت سخرية غير مقصودة ـ بينما حوى آخره ما يستوجب الشكر!.. فابتسم قائلًا:

ـ شكرًا يا معلّم، فلطالما قال لنا الحكماء إنّ حيّ الحسين آمن!..

فأخذ الرجل نفسًا عميقًا ثمّ زفره سحابة من الدخان كثيفة وقال:

ـ صدّقوا ثمّ صدّقوا، إنّه حيّ مبارك محبوب، مكرّم من أجل صاحبه، وسوف ترى فيما يقبل من الأيّام أنّك لن تستطيع السلوّ عنه أو الزهد فيه، وسوف يدعوك شيء من الأعماق إليه.. تفضّل خذ نفَسًا من النارجيلة..

فشكره أحمد معتذرًا، وكان يحتسي الشاي بلذّة مصغيًا لصاحبه، وكأنّما أراد أن يجاريه في التدخين ولٰكن على طريقته فاستخرج سيجارة من علبته وأشعلها مبتسمًا. وقد أحسّ نحو محدّثه بارتياح لما وجده فيه من غرابة لم يعهدها في أحد من الناس قبله، وأعجبته بساطته وصراحته وقوّته، وأهمّ من هٰذا جميعه أنّه شعر نحوه باستعلاء تملّق غروره المعذّب فمال إليه.

أمّا المعلّم نونو فاستدرك قائلًا:

ـ لماذا ترغب عن النارجيلة؟! إنْ هي إلّا سيجارة بماء، أو دخان مكرّر مطهّر، وفوق ذٰلك فلحضرتها سلطنة، وقرقرتها موسيقى، وفي شكلها «سكس أبيّل».

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكة رفيعة ضاعت في جلجلة ضحكة المعلّم التي تصاعدت كخوار عالٍ متّصل انتهى بسعال متقطّع استمرّ حتّى انقطع نفسه، ثمّ قال وأساريره ما تزال ضاحكة:

ـ أتحسب أنّ البلديّ جاهل؟، ألم تعلم أنّ زوّار هٰذا الحيّ من الإنجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من أولاد العرب؟.. ودين الحسين وربّ الحسين لتُسَرَّنَّ بحيّنا سرورًا لا مزيد عليه، وليكن جوارًا سعيدًا وأيّامًا سعيدة رغم هتلر وموسوليني!..

ـ بإذن الله.. إن شاء الله!

وقال المعلّم بلغة الإغراء:

ـ وفينا أفنديّة محترمون كحضرتك!

فقال أحمد بسرعة:

ـ أستغفر الله يا معلّم، أستغفر الله..

ـ والحسين وجَدُّه.. بل إنّ جلّ أصدقائي أفنديّة من خيرة هٰذا الحيّ، فالعمارات الجديدة جذبت أُسَرًا طيّبة كثيرة، يوجد هنا كلّ ما تريد.. القهوة والراديو واللطف والنارجيلة، بل هنا متّسع لمرضية الله ومعصيته على السواء!

فضحك أحمد قائلًا:

ـ أعوذ بالله من معصية الله!

فحملق المعلّم في وجهه، ثمّ قال مستدركًا بصراحته الغريبة كأنّه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ دقائق:

ـ المرضية والمعصية كالنهار والليل لا ينفصلان،

وفوقهما مغفرة الله ورحمته.. أحَنْبليّ أنت؟!

ـ كلّا.. كلّا..

ـ تعجبني!

ـ ولٰكن كيف يتّسع هٰذا الحيّ لمعصية الله؟.

ـ أوه.. يا ما تحت الساهي دواهي.. فصبرًا حتّى يأتيك اليقين، ومع ذٰلك فليس الذنب بذنب حيّنا، الذنب ذنب الأحياء الأخرى، لقد ضاقت بالفساد، فصدَّرت ما يزيد عن حاجتها إلينا، على حدّ قول الراديو عن التجارة العالميّة. هنا نحن نصدّر الموادّ الأوّليّة والأحياء الاخرى نورّدها مصنوعة، فمن بعض أطراف هٰذا الحيّ تصدّر الخادمات فتحوّلها الأحياء الأخرى إلى غانيات، في هٰذه الحرب قُلبت الدنيا رأسًا على عقِب، تصوّر يا إنسان أنّي سمعت بالأمس بنت بائعة فجل تدعو أختها فتقول «تعالي يا دارلنج»!..

وضحك أحمد بسرور، وانبسط وانشرح صدره، وقال وغرضه الأوّل أن يستدرج محدّثه إلى الكلام:

ـ حيّكم طاهر يا معلّم رغم هٰذا كلّه، فالفساد هناك فوق ما يصوّره العقل!..

ـ اللّهم احفظنا. إلّا أنّه من الحكمة ألّا نُركب الهمّ أنفسنا، دع الهموم واضحك واعبد الله، الدنيا دنيا الله، والفعل فعله، والأمر أمره، والنهاية له. فعَلامَ التفكير والحزن؟!.. ملعون أبو الدنيا!..

ـ هٰذا شعارك المحبوب يا معلّم طالما صعد إلى حجرتي ترديدك له.

ـ أجل ملعون أبو الدنيا، هٰذا شعار الاستهانة لا اللعن أو السبّ. ولٰكن هل تستطيع أن تلعنها بالفعل كما تلعنها باللسان؟ هل تستطيع أن تستهين بها وتضحك منها إذا أفقرتك؟. وإذا أعرتك؟، وإذا كرّبتك؟، وإذا أجاعتك؟، صدّقني أنّ الدنيا كالمرأة تدبر عمّن يجثو بين يديها، وتقبل على من يضربها ويلعنها، فسياستي مع الدنيا ومع النساء واحدة، واتّكالي من قبل ومن بعد على الله سبحانه، ورُبّ يوم يستدبر لـمّا يفتح الله علينا بمليم، ولا يدري أحد ماذا يأكل العيال وما أملك ثمن النارجيلة، فما أزال آخذًا في الغناء واللعن والتنكيت، وكأنّ العيال عيال جاري والفقر راكب عدوّي، ثمّ تُفرج، فيطلب منّا عمل وأقبض مقدّم الأتعاب، افرَحْ يا نونو، اشكر الله يا نونو، خذي يا زينب اشتري لحمة وأنت يا حسن هات فجلًا، اجري يا عائشة ابتاعي بطّيخة. املأ بطنك يا نونو، كلوا يا أبناء نونو، واشكرْنَ يا زوجات نونو..

ولفت سمع أحمد قوله «زوجات نونو» فتساءل تُرى كم زوجة يضمّ حريم نونو؟!.. وهل يحدّثه بأسراره الداخليّة بمثل صراحته هٰذه عن فلسفته العامّة؟!.. ولم يجد سبيلًا إلى غرضه إلّا بالحيلة، فسأله:

ـ كان الله في العون، الظاهر أنّ أسرتك كبيرة..

فقال الرجل ببساطة:

ـ أحد عشر كوكبًا، وأربع شموس.

ـ ثمّ أشار إلى نفسه وكمّل قائلًا:

ـ وقمر واحد!

فتردّد عاكف لحظات، ثمّ قال:

ـ أزواج أربع؟

ـ كما شاء الله..

ـ وإن خفتم ألّا تعدلوا؟..

ـ ومن قال عنّي إنّي ظالم؟

ـ وهل تستأجر تبعًا لذٰلك بيوتًا أربعة؟

ـ بل شقّة واحدة كشقّة حضرتك، مكوّنة من حجرات أربع في كلّ حجرة أمّ وأبناؤها!.

فلاحت الدهشة في وجه الرجل ونظر إلى محدّثه بإنكار، فضحك المعلّم ضحكته العظيمة بفخار، وقال:

ـ ما الداعي للدهشة يا أحمد أفندي؟

فآتت أحمد جراءة ليست من طبعه، وسأله:

ـ لماذا لم تقنع بواحدة؟

ـ واحدة؟!.. أنا خطّاط، والنساء كالخطّ أنواع لا يُغني نوع عن نوع، فهٰذه نسخ، وتلك رقعة، وثالثة ثلث، ورابعة فارسيّ، أنا لا أوحّد إلّا الله.

ـ ولٰكن أليس الأربع بأكثر ممّا ينبغي!

ـ ليتهنّ كفينني، أنا والحمد لله أكفي مدينة من النساء، أنا المعلّم نونو والأجر على الله!

ـ وكيف تجمعهنّ في شقّة واحدة! . ألم تعلم بما يقال عن غيرة النساء؟

فهزّ المعلّم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض، ثمّ قال:

ـ هل تصدّق ما يقال عن النساء وغيرتهنّ ومكرهنّ؟! . . كلّ أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل. المرأة في الأصل عجينة طريّة، وعليك أن تشكّلها كما تشاء، واعلم أنّها حيوان ناقص العقل والدين فكمّلْها بأمرين: بالسياسة والعصا! فما من واحدة من نسائي إلّا مطمئنّة إلى أنّها الأثيرة المفضّلة، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقة واحدة، ولن تجد مثل بيتي سعادة وهدوءًا، ولا مثل زوجاتي حشمة وتنافسًا في إرضائي ولذلك لم يجرؤن على مغاضبتي حين علمن بأنّ لي خليلة! . .

فصاح أحمد عاكف:

ـ خليلة!

ـ سبحان الله ربّي!، ما لك تدهش لأتفه الأشياء؟، أقول إنّ طعميّة البيت لذيذة، ولكن ما رأيك في طعميّة السوق؟

ـ وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك؟

ـ الرضا يساوي التعوّد على الرضا، وأنت برجولتك تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء، وتؤمن بما تشاء، والرجل القويّ لا يلجأ إلى الطلاق إلّا إذا وافق هواه.

فابتسم أحمد وقال:

ـ عوفيت يا معلّم! . .

وأخذ المعلّم أنفاسًا متتابعة، ثمّ سأل ضيفه:

ـ هل أنت متزوّج يا أحمد أفندي؟.

فأجاب باقتضاب وقد امتعضت نفسه:

ـ كلّا . .

ـ ولا واحدة؟.

ـ ولا نصف واحدة.

فضحك الرجل، وقال بصراحته المعهودة:

ـ أنت بغير شكّ نطّاط كبير! . .

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة، ولم يعرض لقوله بنفي أو إثبات، فقال نونو ضاحكًا:

ـ عوفيت . . عوفيت!

وبلغ المعلّم نونو من نفسه ما لم يبلغه سواه، فأحدث فيها يقظة عنيفة، كأنّ شيئًا يناقضه قوّة وصحّة وابتسامًا، وإقبالًا على الحياة، وفوزًا وسعادة، فأعجب به إعجابًا استمدّه من عجزه عن مجاراته، وحقد عليه لتفوّقه وسعادته، إلّا أنّه كان حقدًا خفيفًا لا يقاس بما أحدثه في نفسه من شعور بالاستعلاء، فغلب ميلُه إليه حقدَه عليه، واستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيّه العجيب.

وعندما استأذن في الانصراف، قال له المعلّم:

ـ عليك بقهوة الزهرة هي قهوة صغيرة، ولكنّها تجمع أفنديّة هذا الحيّ المحترمين، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك، هلّا حضرت هذا المساء؟! . .

فقال أحمد وهو يودّعه:

ـ إن لم يكن هذا المساء، فمساء الغد إن شاء الله.

وسلّم عليه شاكرًا، ثمّ مضى إلى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء الحيّ الجديد . .

ـ ٦ ـ

وعند مساء اليوم الثاني غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة، فوجدها عند مدخل شارع محمّد عليّ الكبير، وهو السابق لشارع إبراهيم باشا. وكانت في حجم الدكّان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمّد عليّ والثاني على الممرّ الطويل الذي يؤدّي إلى السكّة الجديدة. وقد وجد في الحيّ من أمثال هذه القهوة عشرات حتّى قدّر قهوات الحيّ بمعدّل قهوة لكلّ عشرة من السكّان. وأقبل على القهوة متمهّلًا متردّدًا لأنّه لم يتعوّد ارتياد المقاهي ولا ألف جوّها. وما كاد يعبر بابها حتّى رأى المعلّم نونو يتوسّط جماعة من الأفنديّة بينهم واحد من أهل البلد. ورآه المعلّم فنهض قائمًا مبتسمًا وقال بصوته الجهْوَريّ الخشن:

ـ أهلًا وسهلًا تفضّل يا أحمد أفندي! . .

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفتيه ابتسامة ارتباك وحياء، مادًّا يده بالسلام، فتلقّاها

براحته الغليظة، ثمّ التفت إلى الجماعة قائلًا:

ـ جارنا الجديد أحمد أفندي عاكف الموظّف بوزارة الأشغال.

فنهض الرجال نهضة واحدة في لطف واحترام زاد من ارتباكه وحيائه، ومضى يسلّم عليهم واحدًا فواحدًا والمعلّم يقدمّهم قائلًا:

ـ سليمان بك عتّة مفتّش بالتعليم الأوّلي، سيّد أفندي عارف بالمساحة، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضًا، الأستاذ أحمد راشد المحامي، المعلّم عبّاس شفة من الأعيان.

وأوسعوا له مكانًا بينهم ورحّبوا به أيّما ترحيب، فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء. وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزّة والاستعلاء أحسن إخفاءه بابتسامة حلوة ونظرة حييّة.

لم يخامره شكّ قطّ في تفوّقه على هٰؤلاء الناس من جميع الاعتبارات والوجوه، فهو من أهل السكاكيني وهم من أبناء الدراسة أو الجماليّة!، وهو المفكّر والعقل الكامل وهم لا شيء من هٰذا جميعه. بل خالَ أنّ وجوده بينهم تعطّف جميل وتواضع محبوب، بَيْد أنّه تساءل متحيّرًا تُرى كيف السبيل إلى تفهيم هٰذه الجماعة حقيقة قدره واطلاعهم على مزاياه العقليّة والثقافيّة؟.. كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم إلى احترامه!.. لا شكّ أنّ ذٰلك آت لا ريب فيه إذا اتّصلت المودّة وتكرّر اللقاء. فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين!. وتقلّب بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام. فهٰذا سليمان عتّة المفتّش رجل في الخمسين أو يزيد، قبيح الوجه لحدّ الازدراء، قميء ذو احديداب، يذكّرك وجهه بالقرد في انحدار جبهته وبروز وجنتيه واستدارة عينيه وصغرهما وكبر فكّيه وفطس أنفه، إلّا أنّه حُرم من خفّة القرد ونشاطه، فبدا وجهه ثقيلًا جامدًا متجهّمًا كأنّه سيؤخذ بجريرة قبحه، أمّا أجمل ما فيه فمسبحة قهرمانيّة لعبت أنامل يمناه بحبّاتها، ومن عجب أنّ صورته على قبحها لم تُهجْ مقته ولٰكنّها استثارت هزءه وسخريته، والمدعوّ سيّد عارف كهل في مثل سنّه على وجه التقريب، صغير الحجم رقيق الأعضاء، لبشرة وجهه نعومة وفي نظرة عينيه براءة، أمّا كمال خليل فرجل تلوح في عينيه الرزانة، كبير العناية بهندامه وأناقته، معتدل القامة يميل للبدانة، وكان أحفل القوم استقبالًا للجار الجديد. ثمّ تحوّل إلى أحمد راشد باهتمام خاصّ، فوجده شابًّا في ريعان الشباب، مستدير الوجه تمتلئه كبير الرأس تكاد تخفي صفحة وجهه نظّارة سوداء عميقة السواد. أثار هٰذا الشابّ اهتمامه لأنّه محامٍ، والمحامي رجل متعلّم، والمحاماة مهنة طمع فيها أوّل عهده بالآمال وعجز عنها وإن لم يقرّ بعجزه قطّ. فما يزال يحقد على المحامي حقده على الأديب والعالم، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوّج من فتاة يحبّها، فوجد فيه عدوًّا وتوثّب للانقضاض عليه. ولم يَبْقَ من الجماعة إلّا المعلّم عبّاس شفة، وهو شابّ ذو سحنة زنجيّة توحي ملامحه الغليظة الدميمة بالدناءة والوضاعة، قد ارتدى جلبابًا فضفاضًا وشبشبًا وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المفلفل وزاده دمامة وقبحًا وبدا شيئًا حقيرًا لا ينقصه سوى لباس السجن!. واحتلّت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة، وجلس القهوجي إلى صندوق الماركات على كثب منها وكأنّه ـ لاشتراكه في أحاديثها ـ واحد منها! وبينا أقبل المعلّم نونو وكمال خليل أفندي على أحمد عاكف أيّما إقبال ثابر سليمان عتّة على جموده وتجهّمه كأنّما نسيه نسيانًا تامًّا! أمّا الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصت إلى حديث يذيعه الراديو...

ووجّه كمال خليل الخطاب إلى عاكف قائلًا:

ـ علمنا أنّ حضرتك آتٍ من السكاكيني!

فحنى أحمد رأسه قائلًا:

ـ أجل يا أستاذ!.

فسأله الرجل باهتمام:

ـ أحقًّا لم يَنْجُ من بيوت الحيّ إلّا عدد قليل؟

فضحك أحمد قائلًا:

ـ الحقيقة أنّه لم يهدم سوى بيت واحد.

ـ يا للناس من الإشاعات!.. فماذا فعلت تلك الفرقعة الهائلة التي خلناها في بيوتنا؟.

ـ كانت فرقعة في الهواء!.

فتحوّل الأستاذ أحمد راشد عن الراديو ـ ممّا دلّ على أنّه لم يستغرق كلّ انتباهه ـ وسأل الجار الجديد:

ـ وهل سقط طوربيد حقًّا ولم ينفجر؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحوّل الشابّ إليه:

ـ وقيل طوربيدان ولٰكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء.

فقال أحمد راشد:

ـ من لنا بذاك الخبير الكنديّ الذي قرأنا عنه في أنباء الحرب؟. يقال إنّه أنقذ أحياء كاملة في لندن!..

فتساءل سيّد عارف كالمتهكّم وكان من محبّي الألمان:

ـ أما تزال توجد أحياء كاملة في لندن؟

فابتسم أحمد راشد وقال عاكف:

ـ صاحبنا من أنصار الألمان!.

وضحك المعلّم نونو قائلًا مكمّلًا قول المحامي:

ـ لأسباب طبّيّة!..

وتورّد وجه سيّد عارف، ولٰكن المعلّم نونو لم يرحمه فأرسل ضحكته العظيمة مرّة أخرى وقال:

ـ يحسب أنّ الطبّ الألمانيّ يستطيع أن يعيد الشباب!..

وقطّب سيّد عارف جبينه مستاء، والظاهر أنّه كبر عليه أن يصارح بمثل هٰذا الكلام أمام رجل ما زال جديدًا في جماعتهم، وأدرك أحمد عاكف أنّ وراء ملاحظة نونو ما وراءها، ولٰكنّه لم يَبْدُ على وجهه أنّه سمع شيئًا، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدّث الضيف عن الحيّ الجديد مثنيًا عليه بما يعلم حتّى علّق أحمد راشد على كلامه قائلًا:

ـ هٰذا الحيّ هو القاهرة القديمة، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهزّ الخيال وتوقظ الحنان وتثير الرثاء، فإذا نظرت إليها بعين العقل لم ترَ إلّا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر، وما أجدر أن نمحوها لنتيح للناس التمتّع بالحياة الصحّيّة السعيدة!..

وتنبّه أحمد إلى ما في قول صاحبه من جدّة عسى أن تنزله من القوم منزلة المحدّث الماهر والمفكّر الذكيّ، خاصّة وأنّ لشهادته الحكوميّة ـ ليسانسيه القانون ـ مكانة يدين لها الجهلاء والسذّج، فخاف أن يمتاز عليه، فوثب للنضال، وأجمع على معارضته بأيّ ثمن، فقال:

ـ ليس القديم من البقاع مجرّد قذارة، فهو ذكرى قد تكون أجلّ من حقائق الواقع، فتبعث في النفوس فضائل شتّى!... إنّ القاهرة التي تريد أن تمحوها من الوجود هي القاهرة المعزّيّة ذات المجد المُؤَثَّل. أين منها هٰذه القاهرة الجديدة المستعبدة؟

ووقع هٰذا الكلام من نفوس القوم موقعًا حسنًا قرأه في أعينهم، فسرّ به، وأراد أن يهتبل الفرصة ليعلن عن علمه فقال:

ـ معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلّدات جعلت تعلّقي به أمرًا مقضيًّا!

فقال سيّد عارف:

ـ الظاهر أنّ أحمد أفندي من عشّاق التاريخ!

فسُرَّ أحمد بما هيّأه كلام الرجل من فرصة أطيب للحديث عن معارفه، فقال مبتسمًا:

ـ الواقع أنّي لا أعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة، والحقيقة أنّي أنفقت أكثر من عشرين عامًا في تحصيل المعارف المختلفة!

فولّاه القوم نظرات دلّت على الاهتمام، وفسّر هو ذٰلك الاهتمام بأنّه إكبار فرقص قلبه طربًا، ولكم ودّ لو يستطيع أن ينفذ إلى عيني أحمد راشد خلال عويناته السود ليقرأهما. وقد سأله كمال خليل:

ـ ولماذا تدرس هٰذه المعارف يا «أستاذ»؟! أتحضّر لشهادة ما؟

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غصّ ببقيّة السؤال فقال باستكبار:

ـ أيّة شهادة تستوجب هٰذه الدراسة الطويلة الشاملة؟!... ما الشهادة إلّا لعبة يستبق إليها الشبّان، أمّا دراستي فلا غاية لها إلّا العلم الحقّ، وربّما مهّدت بها يومًا إلى التأليف المنتج.

فسأله أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحنقته:

ـ ما معنى أنّ الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظمًا حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

- أهي دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتّى أجهده أن يكتمه، ثمّ استدرك قائلًا:

- أعني أنّ الشهادة هي الدليل على أنّ شابًّا حفظ بعض الموادّ بضع سنين، والعلم الحقّ شيء غير هٰذا البتّة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف على رأي محدّثه في الشهادات. بل إنّه لم يغب عنه الحدّة التي يسوق بها رأيه، ممّا جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذاك الرأي غير التي أعلنها. ورحّب أحمد عاكف بصمته لأنّه يرجّح كفّته عليه أمام «العوامّ» الذين يجالسونهما!. وساد الصمت برهة، وجعل المعلّم نونو يفرغ الشاي في أكواب الجلوس. ودار عاكف ببصره في المكان، فلاحظ لأوّل مرّة أنّ غلامًا يجلس على كرسيّ جنب كمال خليل أفندي، ولم يدْرِ أكان موجودًا قبل مجيئه أم أنّه جاء في أثناء اشتغاله بالحديث، ولٰكنّه أيقن من أوّل وهلة أنّه ابنه، لِمشابِهَ لا تخفى عن النظر العابر، وتركه بصره إلى غيره ولٰكنّه عاد إليه سريعًا، فقد استوقف انتباهه «شيء» في وجه الغلام لم يَدْرِ ما هو على وجه التحقيق. ولم يستطع أن يرمي إليه بطرفه طويلًا، فجعل يختلس من وجهه نظرات حائرة من وراء كوب الشاي وهو يحتسي منه رشفة بعد أخرى. ما الذي جذب انتباهه إلى ذٰلك الوجه فكاد أن ينسى آثار المعركة التي خاض غمارها؟!. لعلّه شعور غامض بأنّه رآه من قبل، بأنّه رأى هاتين العينين الواسعتين ونظراتهما الحلوة الساذجة. ومثل هٰذا الشعور لا يريح صاحبه حتّى يتّضح الغامض من الذكريات على ضوء التذكّر والعرفان، وإن كان في الغالب لا يفيد شيئًا ذا بال. ولذٰلك ألحّ عليه هٰذا السؤال «أين رأيت هٰذا الوجه؟ ومتى كان ذٰلك؟. في السكاكيني؟.. في الترام؟.. في الوزارة؟». وردّت ذاكرته على عناده وإلحاحه بعبث ساخر معذّب، فجعلت تُدني إلى وعيه الصورة وترميه بأطياف الزمان والمكان حتّى خال أنّه ظفر بها أو كاد، ثمّ لا تلبث أن تبتلع الأطياف في ظلمة عميقة، وتتراجع بالصورة عن الوعي المشوّق، فيعود الغموض والإبهام والحيرة إلى ما كانت عليه. ورغب أخيرًا أن يُعرض عن تذكّر شيء ليست معرفته بالمطلب الهامّ، ولٰكنّ الحقيقة أنّ ذاكرته لم تَعُد الشيء الوحيد الذي يحيّره ويلحّ عليه!، الحقيقة أنّ رغبة صادقة أو شعورًا عميقًا راح ينزع بقلبه إلى العينين النجلاوين ونظرتهما الحلوة الساذجة!! فكلّما اختلس نظرة استثار في أعماقه حنانًا ووِدادًا وانجذابًا!! وتملّكته الحيرة. وتولّاه الحياء، وحذر أعين الجلوس حذر مريب مذنب!! فأطرق ممسكًا بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان. وأبى خياله أن يفارق الغلام، فعلّق وجهه وتمثّل نظرة عينيه، ودار قلبه عطفًا ووِدادًا وهيامًا. وهمّت عيناه أن تخونا إرادته ولٰكنّه شدّ عليهما بخوف وغضب، وتساءل متحيّرًا عمّا دهاه!؟.. بَيْد أنّ المعلّم نونو انتشله منن خلوته النفسيّة المحيّرة فسأله:

- ألا تحبّ أن تتسلّى بلعب شيء؟

فنظر إليه كمن تنبّه من سبات بغتة وقال ببساطة:

- لا أدري عن الألعاب شيئًا!

فضحك كمال خليل قائلًا:

- إليك الأستاذ أحمد راشد قرينًا وشبيهًا في ذٰلك، فتسامرا معًا ريثما نلعب ساعة..

ثمّ التفت الرجل إلى ابنه، وقال له:

- هلمّ إلى البيت يا محمّد.

فخفق قلب عاكف، وأرسل نحوه ناظريه، فتبعاه وهو يسير بخطًى لطيفة حتّى غيّبه الباب. فعاد يقول لنفسه متحسّرًا: «هلّا ذكرت متى عرفت هٰذا الغلام؟.» وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين، فلعب المعلّم نونو وكمال خليل الدومينو، ولعب سليمان عتّة وسيّد عارف النرد. أمّا عبّاس شفة فتزحزح بكرسيّه إلى مجلس المعلّم «القهوجي»، وتنحّى أحمد راشد ليوسع للاعبين، فصار جنب أحمد عاكف. وشعر الرجل باقترابه فتغيّر شعوره العجيب وتوثّب مرّة أخرى للنضال والعراك. وذهب الهيام وجاء الغضب

والحقد!... والتفت الشابّ نحوه قائلاً برقّة:

- كيف حالك يا أستاذ؟!. لا تحْسَبَنَّ أنّي قديم عهد بخان الخليلي لقد سبقتك إلى هنا بشهرين!

فابتسم عاكف مسرورًا بتودّد الآخر إليه، وقال كالمتسائل:

- الغارات أيضًا؟!.

- تقريبًا!.. الواقع أنّ مسكننا القديم في حلوان أُخلي لأغراض عسكريّة فرأيت أن أنتقل إلى القاهرة قريبًا من مكان عملي، ووجدت مشقّة في البحث عن شقّة خالية حتّى أرشدني صديق إلى هنا!.

فقال أحمد عاكف وقد أخفض صوته:

- يا له من حيّ مزعج!.

- أجل!. ولٰكنّه مسلٍّ وغريب وحافل بالفنون والنماذج البشريّة المدهشة. انظر إلى القهوجي الذي يحدّثه عبّاس شفة، انظر إلى عينيه الذاهلتين!.. إنّه يزدرد نصف درهم من الأفيون كلّ أربع ساعات، ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق.

- وهل تطيب الحياة على هٰذا النحو؟!.

- لا أدري!... المؤكّد فقط أنّ اليقظة التي نحبّها ونستزيد منها بالقهوة والشاي يمقتها الرجل وكثيرون أمثاله: وتراه إذا أُجبر بسبب ما على البقاء فيها مدّة، متثائبًا، دامع العينين، شرس الخلق، ولا تسكن ثائرته، ويصفو مزاجه حتّى يغيب عن الوجود، ويهيم في عوالم الذهول: أهي لذّة عصبيّة تكتسب بالعادة؟!... أم سعادة وهميّة تهرب إليها النفس من شقاء الواقع؟!. علم هٰذا عند المعلّم نفسه!.

إنّه يخاف شقاء الواقع، كواحد من هٰؤلاء المدمنين، ويهرب منه أيضًا لائذًا بعزلته وبكتبه، فهل هو أسعد حالاً منهم؟!. ورغب عن الاسترسال في ذٰلك الموضوع، فسأل محدّثه وقد غيّر لهجته:

- هل أستطيع أن أكبّ على دراستي في مثل هٰذه الضوضاء؟

- ولِمَ لا؟.. الضوضاء قويّة حقًّا، ولٰكنّ العادة أقوى، وسوف تألف الضوضاء حتّى ليزعجك سكونها. وقد كنت بادئ الأمر ألقاها متجهّمًا متكدّرًا يائسًا، أمّا الآن فتراني أكتب مرافعاتي وأراجع موادّ القانون هادئًا مطمئنًّا وسط هٰذا الدويّ الذي لا ينقطع. ألا ترى أنّ العادة أمضى سلاح نواجه به غِيَر الدهر؟!.

فهزّ رأسه موافقًا، وقال كأنّه يستكثر أن ينفرد الآخر ولو بهٰذا القول المبتذل:

- ولذٰلك قال ابن المعتزّ:

إنّ للمكروه لذعة همّ   فإذا دام على المرء هانا

فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة. وكان لا يحفظ الشعر ويحتقر الاستشهاد به فتساءل في رفق:

- أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر؟

فتساءل عاكف بإنكار:

- وماذا ترى في ذٰلك؟

- لا شيء البتّة إلّا أنّني أعلم أنّ الناس عادة لا يعدلون بالشعر القديم شعرًا حديثًا، ممّا يوجب أن يكثر استشهادهم - إذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر - بالقديم، وأنا أكره النظر إلى الماضي!

- لا أكاد أفهم!

- أريد أن أقول إنّني أكره الاستشهاد بالشعر لأنّني أكره الرجوع إلى الماضي. أريد أن أعيش في الحال وللمستقبل وحسْبي ما في الماضي من حكماء هم أهل للإرشاد والتوجيه!

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أنّ الماضي انطوى على العظمة الحقيقيّة، أو أنّه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدري شيئًا عن عظماء «عصرنا» فثارت ثائرته وقال منكرًا:

- وفيمَ إنكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل!

- لعصرنا رسله كذٰلك!

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولٰكنّه كان أحرص من أن يُبدي - في حديث - دهشته إلّا إذا أوجب ذٰلك جهل محدّثه - لا علمه طبعًا - فتساءل في هدوء:

- ومَن رسل العصر الحاضر؟

ـ أضرب مثلًا بهٰذين العبقريّين: فرويد وكارل ماركس!

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه، بل شعر بجرح عميق في كرامته، لأنّه لم يسمع قبل الآن بهٰذين الاسمين، وأضمر لصاحبه غضبًا جنونيًّا. ولٰكن لم يسعه إظهار جهله فهزّ رأسه هزّة العارف العالم وتساءل:

ـ أتراهما يضارعان العباقرة الأوّلين؟

وكان سرور المحامي الشابّ بعثوره على إنسان مثقّف لا يعادله سرور فرغب في المناظرة رغبة قويّة، وأدنى كرسيّه إلى كرسيّ صاحبه حتّى لم يعد يفصل بينهما شيء وقال بصوت لا يسمعه سواه:

ـ لقد هيّأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسيّة التي تلعب في حياتنا الدور الجوهريّ. ونهج له كارل ماركس سبل التحرّر من الشقاء الاجتماعيّ، أليس كذٰلك؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب، ولم يَدْرِ هٰذه المرّة كيف يعارض فضلًا على أن ينتصر، فراغ عن مواجهته إلى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلي:

ـ مهلًا.. مهلًا يا أستاذ، لقد كنّا مثلك متحمّسين، ولٰكن تقدّم العمر ومداومة الفكر حقيقان بإلزام الإنسان حدًّا من الاعتدال.

فقال أحمد راشد بلهجة لم تَخْلُ من حدّة:

ـ ولٰكنّي أحسن التفكير فيما أطّلع عليه؟

ـ بغير شكّ إلّا أنّك شابّ وستكسب بالعمر حكمة حقيقيّة، ألم تسمعهم يقولون «أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة!»

ـ مثَل قديم أيضًا!

ـ وحكيم!

ـ لا حكمة في الماضي!

ـ ربّاه!

ـ لو وجدت في الماضي حكمة حقيقيّة لما صار ماضيًا قطّ!

ـ وديننا؟

فرفع الشابّ حاجبيه دهشة، ولو استطاع عاكف أن يستشفّ ما وراء النظّارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورث الجنون. وغمغم الشابّ:

ـ يا لَلسذاجة!

وكان عاكف قرأ فلسفة إخوان الصفا الدينيّة فرغب أن يلخّصها في كلمات لمحدّثه البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأي العوامّ في الدين من ناحية وليغمض على صاحبه كما غمض عليه، فقال:

ـ إنّ في الدين ظاهرًا حسّيًّا للعوامّ وجوهرًا عقليًّا للمفكّرين، فهناك حقائق لا يضيق المثقّف بالإيمان بها مثل الله والناموس الإلٰهيّ والعقل الفعّال!

فهزّ الشابّ منكبيه استهانة وقال:

ـ إنّ العلماء المعاصرين يعلمون بما في الذرّة من عناصر، وبما وراء عالمنا الشمسيّ من ملايين العوالم، فأين الله، وما أساطير الديانات؟! وما جدوى التفكير في مسائل لا يمكن أن تحلّ، وبين أيدينا مسائل لا حصر لها يمكن أن تحلّ وينبغي أن نجد لها حلًّا؟

ثمّ ابتسم الشابّ ابتسامة سريعة وقال وقد غيّر لهجته المتدفّقة:

ـ لا يجوز أن نُشرك ثالثًا من جماعتنا في هٰذا الحديث!

ـ طبعًا... طبعًا يا أستاذ، ولٰكن لا تنسَ أنّ أوّل العلم كفر دائمًا...

وقطع عليهما الحديث ارتفاع صوت سليمان عتّة بالغضب، والظاهر أنّ مُلاعبه سيّد عارف أغاظه بهذره فتهيّج القرد وصاح به:

ـ إنّ الله الذي سلبك قواك عادل حكيم!

وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيّد عارف منذ ساعة فنظر إلى أحمد راشد مبتسمًا فردّ الشابّ على ابتسامته بابتسامة ذات معنًى وقال:

ـ صاحبنا يجرّب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقًا!

ولفت انتباههما جماعة من لابسي الجلاليب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضى كلّ منهم يعدّ رزمة ضخمة من الأوراق الماليّة، وكان منظرًا يستدعي الدهشة لما فيه من أوجه التناقض، فقال أحمد عاكف:

ـ لعلّهم من أغنياء الحرب!

فقال الآخر موافقًا:

ـ سيهجرون طبقة ويلحقون بأخرى!

ـ إنّ الحرب ترفع كثيرين من السفلة!

ـ السفلة!.. هٰذا صحيح ولٰكن لا يوجد حدّ فاصل بين السفلة والطبقة العالية، فأرستقراطيّو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أنّ رعاع الغزاة انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؟.. وها هم أولاء يكوّنون طبقة عالية ممتّعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التي لا حصر لها.

ولأوّل مرّة يميل إلى موافقته دون نزوع إلى المعارضة، فقال:

ـ هٰذا رأيي!.

فاستدرك الشابّ قائلًا:

ـ ويرى كارل ماركس أنّ العمّال سيظفرون بالنصر النهائيّ فيصير العالم طبقة واحدة ممتّعة بالضرورات الحيويّة والكمالات الإنسانيّة، هٰذه هي الاشتراكيّة!.

ولزما الصمت كأنّما أجهدهما التعب، فجعل عاكف يفكّر متألّمًا: يا لها من آراء!.. فرويد وماركس، الذرّات وملايين العوالم، الاشتراكيّة! واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق. فما كان يظنّ قطّ أنّه سيعثر في خان الخليلي على من يتحدّى ثقافته، ويجبره على التسليم بأنّ فوق كلّ ذي علم عليمًا!. أفلا يظفر بالراحة في هٰذه الدنيا؟!.

وعند ذاك خلع الشابّ نظّارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أنّ عينه اليسرى زجاجيّة!، ودهش أوّل وهلة، ثمّ غمره شعور بالارتياح خبيث، لأنّه وجد في عوره وجهًا للاستعلاء عليه أيًّا كان هٰذا الوجه!..

ولبث فترة قصيرة، ثمّ غادر القهوة عائدًا إلى البيت هائج النفس ثائر الكرامة، ولحسن حظّه ذكر فجأة الغلام!.. وسرعان ما تغيّرت حاله ورقّت على حواسّه الملتهبة نسمة رطيبة أذهبت رياح الحقد والغضب، وتمثّلت لخياله العينان النجلاوان، والنظرة الفاتنة، فتنهّد متحيّرًا، وهمس لفؤاده «سأراه حتمًا مرّة أخرى!».

ـ ٧ ـ

ونهض في الصباح المبكّر نشيطًا، ففتح النافذة وأطلّ منها على الحيّ العجيب فوجد الحيّ يتمطّى مستيقظًا فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشقق تُفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون إلى الطرق المتشابكة مُنادين بغير انقطاع. وجذب انتباهه قدوم جماعات من «مشايخ» المعاهد الأوّليّة الغلمان يسيرون زرافات نحو معاهدهم في جبب سوداء وعمم بيضاء فذكّروه «بالفشار» في المقلى وأنصت إليهم مستلذًّا وهم يرتّلون معًا «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا» وجعل رأسه يروح معهم ويجيء حتّى ختموها «يُدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابًا أليمًا» فذكر لتوّه أحمد راشد المحامي فهو من الذين أعدّ لهم العذاب الأليم!.. وإنّه به لحقيق!.

وعند عصر ذاك اليوم وقد جلس وأمّه في الصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور:

ـ زارني اليوم نساء الحيّ من الجيران للترحيب بي والتعرّف إليّ كما جرت العادة..

فابتسم أحمد الذي يقدّر سرور أمّه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة وقال لها:

ـ هنيئًا لك!..

فضحكت وهي تتناول منه سيجارة، ثمّ أشعلتها وهي تقول:

ـ فيهنّ نساء لطيفات سيملأن غربتنا حرارة وحبورًا!.

ـ لعلّك أن تنسي بهنّ الصديقات القديمات من نساء السكاكيني والظاهر والعبّاسيّة!..

فكبر عليها قوله وصاحت به:

ـ أينسى الكريم أحبابه؟!.. هنّ روحي وحياتي، ولن يفرّق بيننا البعد مهما امتدّ وطال..

ـ ونساء الحيّ من أيّ نوع هنّ؟

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبري للدفاع:

ـ لَسْنَ من السفلة ولا من الغجر كما ظننت،

وبعض الظنّ إثم، وكان بين اللائي زرنني زوج موظّف بالمساحة يُدعى كمال خليل، وزوج آخر بالمساحة أيضًا يدعى سيّد عارف، وجاءتني أيضًا زوج صاحب مقهى الزهرة وشقيقته، والزوجة امرأة طيّبة القلب، أمّا شقيقة زوجها فينطلق في عينيها المكر والشرّ، وإن سترت ذٰلك كلّه بغلالة شفّافة من الرقّة والابتسام!

- داريها هي وأمثالها باللطف، فإنّه إن يبلغها شيء عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا!.

- لا سمح الله يا بنيّ، أمّا أعجب ما صادفت اليوم فهو أنّ الستّ توحيدة حرَم كمال أفندي خليل - وهي جسيمة كالمحمل أو كأمّك أيّام شبابها - صديقة قديمة.. عرفتها في دكّان بهلة العطّار بالتربيعة..

- وأنتما تسعيان معًا إلى وصفات السمن!

- هو ذٰلك.. وتبادلنا التحيّة هناك مرّات، ولكنّنا لم نتقدّم وراء ذٰلك في سبيل التعارف!

- ها هي ذي الأيّام تعارف بينكما!

ثمّ ذكر أنّ هٰذه السيّدة أمّ الغلام محمّد!.. ولم يكن ذكره في نهاره إلّا حين جاء ذكر أمّه، فعجب كيف نسيه طوال ذٰلك الزمن، وقد كان قبل عشرين ساعة ملء القلب والخيال!. ولٰكن أمّه لم تدعه لأفكاره فضحكت ضحكة عالية وقالت:

- وأخذنا في كذب النساء طويلًا وكذب النساء لذيذ، فهٰذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه، وتلك كريمة تاجر واسع الثروة، والثالثة قريبة مدير حسابات الداخليّة، والرابعة مرضت مرضًا أنفقت على علاجه عشرات الجنيهات!

وضحكا معًا، ثمّ سألها الكهل وما زال ضاحكًا:

- وكيف كان كذبك؟

فقالت وهي تحدجه بنظرة ضاحكة:

- يسيرًا لا تثريب عليه يوم الحساب، فأبوك أُحيل على المعاش منذ زمن يسير، وكان مفتّشًا بالأوقاف، وأمّا أبي - جدّك - فكان تاجرًا وأنت يا نور عيني رئيس قلم بوزارة الأشغال، ولك من العمر اثنان وثلاثون عامًا لا غير فتذكّر!.

- يا خبر!..

- لا فائدة من الاعتراض، وإيّاك وتكذيب الكذب!. وأنا أكبرك بثلاثة عشر عامًا، فأنا في الخامسة والأربعين.

- هل ولدتني وأنت طفلة؟

- الأنثى تلد في الثانية عشرة من عمرها!.

- هٰذه أخت وليست بأمّ!.

- صدقت فالولد الأكبر أخو والديه، أمّا أخوك فوكيل بنك مصر بأسيوط!

فهزّ الرجل رأسه عجبًا وقال:

- كيف تؤاتيكنّ الجرأة على تزييف حقائق لن تخفى طويلًا عن أعين الجار، ولا بدّ أن تنكشف حقيقتها يومًا ما؟

فقالت ببساطة:

- غدًا تؤلّف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة رويدًا رويدًا بلا سخرية ولا تعيير، ولو أنّني قلت الحقيقة بغير زيادة، لما صدّقنني كما لا يصدّقنني الآن، ولانتقصن من رأس المال بدلًا من أن ينتقصن من الفائدة!

- يا لَكنّ من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار!

- وماذا عليك من هٰذا؟!. طوبى لكذب غايته الرفعة والفخر. إنّ كذب النساء بلسم لجراح دامية، متّعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشهاه!

فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكرّر قوله السابق قائلًا:

- يا لَكنّ من كاذبات لا يشقّ لهنّ غبار!

ولحظته غامزة بعينيها وسألته:

- وأنتم يا بنيّ ألا تكذبون؟

وصمت قليلًا، لا لأنّ الجواب غائب، ولٰكن لأنّه تفكّر قليلًا فيما تنوء به حياته من ألوان الكذب، ثمّ قال:

- نكذب، ولٰكن في أمور أجلّ!

- عسى أن يكون تافهًا عندنا ما هو جليل عندكم، ولٰكن هل تعدّ العمر والفخر بالجاه والسؤدد أمورًا تافهة؟

ـ كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها!. فأين أنتنّ من كذب التجّار والساسة ورجال الدين؟!. كذب الرجال محْوَر هٰذه الحياة الجليلة التي تشاهدين آثارها في معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد، بل هو محور هٰذه الحرب الهائلة التي رمت بنا إلى هٰذا الحيّ الغريب.

وعلم أنّها لم تفهم من قوله إلّا أقلّه، فسرّ لذٰلك سرورًا مضاعفًا، ثمّ ذكر أمرًا فسألها:

ـ ألم تزرك زوجة من حريم المعلّم نونو؟

ـ ملعون أبو الدنيا؟!.. لقد حدّثتني بسيرته طويلًا، ولٰكنّ الرجل يحرّم على أزواجه الخروج أو النظر من النوافذ، وربّما انقضى العام في إثر العام وهنّ قابعات في دارهنّ راضيات قانعات!

ـ حقيق بمن يتغنّى بلعن الدنيا ألّا يأمن إليها!

ـ والله يا بنيّ المرأة مظلومة كالدنيا، ولٰكن ما علينا من هٰذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عتّة؟

ـ المفتّش؟

ـ تدعوه توحيدة هانم بالقرد!

ولعلّ قولها هٰذا أوّل صدق تقع فيه!

ـ وقالت عنه ضاحكة إنّه يفكّر في الزواج!

ـ وأيّة فتاة ترضى بهٰذا القرد العجوز بعلًا؟

ـ كثيرات لا حصر لهنّ، فالمال نصف الجمال على الأقلّ، فالفتاة هي التي تتصيّده وتجدّ في طلبه حتّى لا يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين..

فسألها ضاحكًا:

ـ وهل ينتهي الرجل عند هٰذه السنّ؟

ـ لا قدّر الله، ولٰكنّها لا تستحقّ في معاشه إذا تزوّجت منه بعدها.

ـ فهي ترغب في الزواج منه وتُراهن على موته!، فمن عسى أن تكون هٰذه العروس الحكيمة؟

ـ قالت الستّ توحيدة هانم إنّها كريمة يوسف بهلة العطّار، وإنّها الجمال عينه، فقد جمعت الحسن من طرفيه: الطبيعيّ والصناعيّ!

فتمثّل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز، وعجب كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من إقبال الحسان! ألم تنبذ يده امرأة ـ ليست بحال الجمال عينه ـ قائلة: إنّ عمره كبير؟!. وأراد أن يتخيّل صورة كريمة العطّار، فذكر فجأة وهو لا يدري السمراء الحسناء ذات العينين النجلاوين التي التقى بها في الردهة الخارجيّة! فانقبض صدره وسأل أمّه:

ـ هل يقيم العطار في عمارتنا؟

فقالت:

ـ كلّا بل يسكن في بيت القاضي!

فتنهّد ارتياحًا!، ثمّ تساءل تُرى لأيّ أسرة تنتمي الفتاة؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من شفتيه!!.. فقد ذكر في تلك اللحظة عيني الغلام محمّد، وذكر أين رآهما أوّل مرّة في وجه السمراء الحسناء في الردهة الخارجيّة!.. وهٰذا ما حاول تذكّره فعزّ عليه ساعتئذ وأضناه! فالغلام شقيق الفتاة بغير شكّ، وخفق فؤاده، ولٰكنّه شعر بارتياح عميق وسرور لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله!. وكان سروره باكتشافه من القوّة بحيث لم يعد يُلقي بالًا إلى حديث أمّه!، فما زالت تتكلّم وما زال يتيه في أحلامه..

ـ ٨ ـ

وعندما أتى المساء مضى إلى الزهرة، ولم يمض دون تردّد، فإنّ ارتياد المقاهي حدث جديد عليه لم يتعوّده ولم يألفه، وكان حرصه على عزلته الثقافيّة يعادل تباهيه بها، فلولا ما يدعوه إلى هناك من مصاولة أحمد راشد والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزلته أمرًا ميسورًا. ولم يلْتَقِ في الزهرة بأحمد راشد؛ وسأل عنه فقيل له إنّه كثيرًا ما يمنعه العمل عن الحضور إلى القهوة. على أنّ الجلسة لم تَصِرْ ـ رغم ذٰلك ـ فاترة، وأحياها المعلّم نونو والمعلّم زفتة «القهوجي» بظرفهما الجميل. وتكلّم أحمد عاكف كثيرًا وضحك طويلًا، وقد أخذ يستهويه الاجتماع بالناس أو بالظرفاء من الناس خاصّة. ويجد في الأنس بهم ما يجد التَّعِب المنهوك أسلم جنبه للرقاد. وعاد إلى البيت في العاشرة، فعكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطياف الحياة الجديدة تتراقص أمام عينيه بين السطور ـ وما عهد قطّ

الاستغراق في القراءة ـ ثمّ نهض إلى فراشه وراح في النوم. ولم يَدْرِ أطال به النوم أو قصر، ولكنّه استيقظ على صوت منكر لم يتنبّه إلى حقيقته في الثانية الأولى من استيقاظه، ثمّ أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة، وقفز إلى أرض الحجرة بسرعة جنونيّة، وتحسّس شبشبه بقدميه فوضعهما فيه ثمّ اندفع إلى الصالة الخارجيّة فالتقى بشبحي والديه تتقدّمهما الخادم الصغيرة، وسأله أبوه بصوت متهدّج:

ـ هل تعرف الطريق إلى المخبأ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة:

ـ أنا أعرفه يا سيّدي..

وسبقت الأسرة إلى الباب في ظلمة حالكة، وخرجوا جميعًا إلى الردهة الخارجيّة متحسّسين الحائط إلى السلّم الحلزونيّ، وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التي شملت الدور جميعًا، ومزّق السكون صفقات الأبواب وهي تغلق، ووقع أقدام المهرولين على السلّم، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبيّة. وهبطت القافلة مهتدية إلى الدرابزين تخوض بحار الظلمات، ويسوقها الخوف والفزع، وفي الطريق أرشدتهم أشباح السكّان وأصواتهم إلى الطريق فلم يحتاجوا إلى الاستدلال بخادمهم، وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كداخل البيوت مظلمة، أمّا الأُخَر فيخفّف شعاع النجوم الشاحب من شدّة ظلمتها. وعاد بهم الخوف إلى ذكريات تلك الليلة الجهنّميّة فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلّبون وجوههم في السماء كلّما لاحت لهم. ثمّ بلغوا مدخل المخبأ في تيّار من القوم غير منقطع، وهبطوا مع سلّمه في باطن الأرض حتّى وجدوا أنفسهم في مكان متّسع بهر أعينهم ـ المخدّرة بالظلام ـ بمصابيحه الكهربائيّة القويّة، وكان سقفه وجدرانه تترك في نفس المشاهد أثرًا عميقًا بصلابتها وشدّة مراسها، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبيّة مستطيلة، وبعثرت في وسطه كثبان من الرمل. ومضت الأسرة إلى أحد الأركان واتّخذت مجالسها وتفرّق القاعدون إلى الأركان والمقاعد، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ ممّن ضاقت عنهم المقاعد. وشاع الخوف أوّل الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران في تلطيف حدّته، ومضت فترة انتظار مؤلمة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور، ونظر أبوه في ساعته ثمّ غمغم قائلًا:

ـ الساعة الثانية صباحًا!.. نفس ميعاد الليلة الفظيعة!.

وكان أحمد يعاني ما يعانيه أبوه وأكثر، ولكنّه قال بلهجة هادئة ما استطاع:

ـ كان الضرب خطأ فلن يتكرّر إن شاء الله!.

ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرّب إلى الجوانب الخافقة، وشاع الهمس والكلام، وعلا ضحك كثير، ثمّ طمأن القوم بعضهم بعضًا، ونظر أحمد في الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استبقوا إلى الحديث في جلبة، قال رجل منهم:

ـ لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين.

فقال له الآخر:

ـ قل إن شاء الله!

ـ كلّ شيء بمشيئة الله.

ـ وهتلر ينطوي على احترام عميق للبقاع الإسلاميّة!

ـ بل يقال إنّه يبطّن الإيمان بالإسلام!

ـ ليس هذا عليه ببعيد، ألم يقل الشيخ لبيب التقيّ النقيّ إنّه رأى فيما يرى يرى النائم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقلّده سيف الإسلام؟!

ـ فكيف ضربت القاهرة في منتصف هذا الشهر؟

ـ ضربت السكاكيني وهو حيّ غالبيّة سكّانه من اليهود!

ـ تُرى ماذا ينتظر الأمم الإسلاميّة على يديه؟

ـ سوف يعيد ـ بعد فروغه من الحرب ـ إلى الإسلام مجده الأوّل، وينشئ من الأمم الإسلاميّة اتحادًا كبيرًا، ثمّ يوثق بينه وبين ألمانيا بعهود الصداقة والتحالف!

ـ لذلك يؤيّده الله في حروبه!.

ـ وما كان لينصره لولا جميل طويّته، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى!

استمع الكهل إلى المتحاورين بلذّة وإنكار، وكانت غالبيّتهم من أهل البلد ولٰكنّه لم يكن يتصوّر أن تبلغ بهم سذاجة التفكير هٰذا الحدّ من الأوهام!.. أو أن تؤثّر فيهم الدعاية ـ إن كان هناك دعاية ـ هٰذا التأثير المضحك، ولٰكنّه لم ينكر على حوارهم لذّته وفكاهته غير المقصودة، وما كان ليحرم نفسه من متعته لولا أن وقع بصره اتّفاقًا على غريمه الأستاذ أحمد راشد متمشّيًا على كثب منه، فنهض إليه فورًا فتصافحا ثمّ قال له عاكف:

ـ لم نَرَكَ اليوم.

فقال الشابّ ذو المنظار الأسود:

ـ شغلت بدراسة قضيّة!.

واستأثر القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامي يقول ملقيًا نظرة شاملة على ما حوله:

ـ رأيت جميع الإخوان هنا معنا إلاّ المعلّم نونو طبعًا!

فابتسم عاكف قائلًا:

ـ أَعْجِبْ به من رجل غريب الأطوار!

ـ يتلخّص في الكلمات الآتية «ملعون أبو الدنيا».

ـ هٰذا شعاره أو قُلْ إنّه نشيده.

ـ ما كان أجدره أن يُعْيِي الموت لولا قضاء الهرم.

ـ هو الإيمان!

ـ إنّه يشعر بالله شعورًا عميقًا، ويحسبه في كلّ مكان يحلّه ويتوكّل عليه بكلّ قلبه، ويطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى أنّه لن يتخلّى عنه، وتراه يلمّ بالمعصية دون أدنى شكّ في غفرانه ورحمته.

فتنهّد عاكف وقال:

ـ هٰذا رجل سعيد كما علمت!

فهزّ الشابّ رأسه بما يشبه الاحتقار وقال:

ـ سعادة عجماوات، سعادة الجهل والإيمان الأعمى، السعادة التي يعيش الطغاة بفضل تملّكها رقاب البلهاء، ومن المضحك أن تجد هٰذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء؟! فتّش عن السعادة الحقّة على ضوء العلم والعرفان، فإذا وجدت مكانها قلقًا وسخطًا وشقاء فتلك آيات الحياة الإنسانيّة الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوهامها، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقّة، إنّ سعادة نونو لا تفضُل شقاءنا ـ نحن دعاة العلم والإصلاح ـ إلّا كما يمكن أن يفضل الموت براحته المزعومة نعمة الحياة بمتاعبها وكفاحها!

ولم يجد عاكف من نفسه لتوتّر أعصابه بجوّ المخبأ قوّة يتوثّب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسمًا:

ـ ألا ترى أنّه ينعم الآن بفضل سعادته العمياء برقاد لذيذ بينما نشقى نحن جميعًا برطوبة الليل؟

فضحك الشابّ وكان أمْلَكَ لجنانه من الآخر وقال:

ـ لا شكّ أنّه ينعم الآن برقاد لذيذ لا شريك له فيه إلّا معشوقة الأزواج!

فبدا على وجه عاكف ما يشهد له بأنّه لم يفهم شيئًا، فابتسم المحامي واستدرك قائلًا:

ـ ألم تسمع عنها بعد؟!.. إنّها امرأة هائلة، وظيفتها الرسميّة «زوج عبّاس شفة»، أما تذكره؟.. أمّا بيتها فيستقبل كلّ مساء جمهرة أرباب البيوت بهٰذا الحيّ، فسمّاها المعلّم زفتة القهوجي «معشوقة الأزواج»! فلاح في وجه عاكف الاهتمام الذي يثيره هٰذا الحديث، وتساءل:

ـ أتعني...؟!

ـ نعم.

ـ وعبّاس شفة؟!

ـ زوج رسميّ، زوج وجد في الزوجيّة مهنة ومرتزقًا!

ـ ألذٰلك تحتفون به على حقارته وقبحه؟

ـ إنّه عزيز ذو مقام عظيم!!

وتمثّل عاكف وجه الرجل الدنيء وشعره المنفوش باحتقار شديد، وتحرّك في تلك اللحظة الشابّ فتحرّك معه، يسيران في بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين، حتّى رأيا سيّد عارف جالسًا إلى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلًا، فغمغم الشابّ:

ـ صاحبنا سيّد عارف وحرمه!.

فسأله عاكف باهتمام واستحياء:

ـ وحرمه؟!.. وكيف تزوّج؟!

ـ كما يتزوّج الناس، وهو رجل عاديّ لولا حالة طارئة غير ميئوس منها، ورجاؤه كبير في الأقراص الألمانيّة، ولنْ..

ولم يتمّ أحمد راشد كلامه فقد قطعه دويّ طلقة شديدة، تابعتها طلقات متقاربة، وارتجف عاكف وخال أنّ جسمه كلّه ارتجف فخاف أن يكون غريمه قد اطّلع على رجفته. وساد سكون عميق وحارت في العيون نظرة قلق وخوف، وقال أناس: «هٰذه طلقات مدافع مضادّة» يطمئنون أنفسهم ويطمئنون الآخرين، ولٰكنّ الكلام ـ أيًّا كانت مقاصده ـ أحدث في النفوس القلقة المنصتة جزعًا وحنقًا، وجاء رجل من الخارج مهرولًا وقال وهو يلهث: «السماء ملأى بالأنوار الكاشفة» فاشتدّ الخوف بالأفئدة، ثمّ سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرّت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرّة أخرى، وطالت فترة السكون وامتدّت فعادت الطمأنينة إلى النفوس، وتعالى الهمس ثمّ ضجّ المكان بالكلام:

ـ لن تعاد مأساة الضرب الأعمى..

ـ لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر!

ـ كانت غارة إيطاليّة فالألمان لا يخطئون!.

فابتسم أحمد راشد ـ استطاع أن يبتسم ثانية ـ وقال لصاحبه:

ـ أرأيت إلى هٰؤلاء المتعصّبين للألمان؟!.. وأنت؟!.. هل أنت كهٰؤلاء؟

وكان عاكف يتلذّذ ـ كعادته ـ بمشاركة المغلوبين عواطفهم، ولـمّا كانت الغلبة للألمان في ذاك الوقت فقد قال بغير تردّد:

ـ كلّا.. إنّي مع الحلفاء قلبًا وقالبًا، وأنت؟!

فسوّى المنظار الأسود على عينيه وقال:

ـ لي أمل واحد: أن ينتصر الروس ويحرّروا الدنيا من الأغلال والأوهام!

وابتعدا قليلًا عن جماعة المتحدّثين فرأيا في نهاية الجناح الآخر من المخبأ على يمين الداخل ـ صاحبهما كمال خليل وأسرته!. ورمى عاكف نحوه بناظريه باهتمام شديد فرأى سيّدة مفرطة في السمن، والغلام محمّد في بيجامة، والفتاة السمراء ذات العينين النجلاوين الساذجتين، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه في غير موضعه، وجاءت الحقيقة مطابقة لما سرّ باكتشافه منذ ساعات معدودات، ولم يسعه إدامة النظر فردّ الطرف متمليًّا ممتلئًا، ثمّ سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت:

ـ كمال خليل وأسرته!

فسأله:

ـ أهٰذه الفتاة كريمته؟

ـ نعم. له محمّد ونوال وفتاة كبرى متزوّجة!

واختلس منها نظرات ليملأ عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفّة. وكانت ملتفّة في معطف شتويّ وقد أرسلت شعرها الأسود في ضفيرة غليظة، ومضت تتثاءب مرسلة نظرة ناعسة، ورآهما كمال خليل فأقبل نحوهما مبتسمًا ووقفوا معًا يتحدّثون، وأدرك عاكف أنّ إقبال الرجل عليهم لا بدّ ملفت أعين أسرته إليهم وأنّه لا يبعد أن تتفحّصه العينان النجلاوان ـ إن لم تكونا تفحّصتاه بالفعل ـ في جلبابه الفضفاض، وطاقيّته البيضاء، فتورّد وجهه حياءً وقلقًا وتساءل تُرى هل تذكره؟.. ولم يطل المطال بوقوفهم معًا فانطلقت صفّارة الأمان ودبّت في المخبأ حركة عامّة شاملة، فحيّا عاكف صاحبيه ومضى إلى والديه، وانتهره أبوه قائلًا بحدّة:

ـ أتتخلّى عنّا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند الأمان؟

فقالت أمّه ضاحكة:

ـ الله معنا في جميع الأوقات!

واندسّوا في التيّار المتّجه نحو الباب يسيرون في بطء شديد حتّى ارتقوا السلّم إلى الطريق، وعادوا إلى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث إليها من نور النوافذ، وصعدوا إلى شقّتهم في جمع من السكّان عرف أحمد صوت كمال خليل بين أصواتهم. وسارع الرجل إلى فراشه يراود النوم كرّة أخرى، ولٰكن فرّقت بينهما

طويلًا صورة ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة. .

- ٩ -

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيّام قلائل. ولكن رمضان لا يأتي على غرّة أبدًا، وتسبقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدّسة، ولم تغفل أمّ أحمد عن ذلك - وكانت في الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله - فجعلت منه يومًا حديث الأسرة قائلة: إنّه شهر له حقوقه كما له واجباته. وكان قولها موجّهًا لأحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعًا عن نفسه:

- رمضان له حقوقه ما في ذلك في شك ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق!

فقالت الأمّ بلهجة دلّت على عدم الارتياح:

- لا قطع الله لنا من عادة!

فاستيقظ بُخْله وقال بشيء من الحدّة:

- لِيَمْضِ رمضان كما مضى غيره من الشهور، وسنعوّض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيّام السلم!

- والنقل والكنافة والقطائف؟!

ووقعت هذه الأشياء من نفسه موقعًا ساحرًا - على استيائه - لا لاشتهائها فحسب، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصّة، بيْد أنّ الذكريات الحنونة لم تغن عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلطّف من حدّة حرصه، فقال بلهجة حازمة رغم تحرّك الحنان في قلبه:

- لندع الكماليّات في ظروفنا الحاضرة القاسية ولندع الله الكريم أن يعيننا على ضرورات الحياة.

وأصغى الوالد باهتمام إلى أقوال ابنه وإن تظاهر بعدم الاكتراث، ومال إلى تأييد الأمّ فيما تقول ولكن شجاعته لم تُواتِه، فلمّا صاغ الابن رأيه في تلك اللهجة الحازمة، قال الوالد بصوت هادئ:

- ولا تَغْلُلْ يدك إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط.

وأدرك أحمد أنّ أباه من حزب أمّه، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحته في مخاطبة أمّه، لتعوّده مهابته منذ نعومة أظافره، وأشفق - كما أشفق دائمًا - من أن يُعرض عن يده إذا امتدّت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه، فسكت مرتبكًا متحيّرًا حتّى قال عاكف أفندي أحمد الأب:

- حسْبُنا قليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما في الحشو، ونصف لفّة قمر الدين لتغيير الريق، ولنقنع من الكنافة بمرّة واحدة، ومن القطائف - وهذه لا تقلى في السمن - بمرّتين، وليس هذا عليك بكثير.

فهاله الأمر، وأيقن أنّه سينفق في هذا الشهر ما اعتاد توفيره كلّ شهر من النقود القلائل، ربّما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير، الأمر الذي ينغّص عليه صفوه، ثمّ ذكر شيئًا آخر لا يقلّ خطورة عن الكنافة والنقل فقال:

- واللحوم؟!

فقالت أمّه بما لها عليه من دالّة:

- سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم، وما ذلك إلّا لأنّ قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك!

فقال أحمد معترضًا:

- ولكنّ ميزانيّتنا أصغر من أن تقوم بابتياع رطل لحم كلّ يوم مع الحاجيّات الأخرى!

فقال الوالد مستعينًا بقليل من الدهاء:

- صدقت والأفضل أن نمتنع عن اللحوم مرّة كلّ ثلاثة أيام!

وانشغلت الأمّ في الأيّام الباقية بتهيئة المطبخ، وتبييض الأواني وتخزين ما تيسّر من النقل والسكّر والبصل والتوابل. وكان لمقدم رمضان في نفسها فرحة وسرور، ولو أنّها لم تؤدّ فريضة الصيام إلّا منذ سنوات قلائل، إذ إنّه شهر المطبخ كما أنّه شهر الصيام - أو لأنّه شهر الصيام -، وأجمل من هذا أنّه شهر الليالي الساهرة والزيارات الممتعة، حيث تُدار الأحاديث على قزقزة اللبّ والجوز والفستق. ومن حسن الحظّ أنّ رمضان وافق ذلك العام شهر أكتوبر، وهو شهر معتدل، وغالبًا ما يصفو جوّه ويطيب فيلذّ فيه السهر حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون، وعند العشيّ أضاءت مئذنة الحسين إيذانًا بشهود الرؤية ـ وقد اجتزأوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لظروف الطوارئ ـ وازّيّنت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألاء، فطاف بالحيّ وما حوله جماعات مهلّلة هاتفة «صيام صيام كما أمر قاضي الإسلام» فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور في الحيّ كأنّما حمله الهواء الساري، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول:

ـ أين من رمضان شارع قمر هٰذا الرمضان البهيج؟!

فابتسم الوالد وقال:

ـ وماذا رأيت ممّا رأيت يا غلام؟!.. أشهدت رمضان في حيّنا الجديد هنا قبل اندلاع الحرب؟.. إنّه النور والسرور، إنّه الليل المنار اليقظان، إنّه الليل العامر بالسمّار والمنشدين واللهو البريء، وفي أيّام الفتوّة والصحّة كنت أسري قبل السحور في جمع من الإخوان من السكاكيني إلى حيّنا هٰذا نتسحّر كوارع ولحم الرأس وندخّن البوري في مقهى الحسين ونستمع إلى أذان الشيخ عليّ محمود ثمّ نعود مع الصباح الباكر..

فسأله أحمد:

ـ متى كان ذٰلك؟

فقال الرجل بلا جهد:

ـ وأنت في العاشرة!

آه.. تلك الأيّام العذاب، أيّام السرور والمرح والتدليل، لقد اتّفق له ولوالده عهد واحد يبكيانه معًا. ومضى أحمد ذاك المساء ـ كعادته الجديدة ـ إلى مقهى الزهرة. وقد استسلم لهٰذه العادة الجديدة التي استأثرت بنصف الوقت المخصّص للمطالعة، ووجد في المعاشرة لذّة ليست دون لذّة القراءة والعزلة.

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه، ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها. فقال عبّاس شفة ـ زوج معشوقة الأزواج ـ بصوته المبحوح:

ـ لا تتعبوا أنفسكم في التفكير فلنا في سهرات رمضان الماضية أسوة: نحن نجيء إلى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتّى منتصف الليل ثمّ ننتقل إلى «هناك» لنصل سهرتنا بالسحور.

وتنبّه أحمد إلى «هناك» هٰذه وتساءل تُرى هل يستبيحون المُنكر في شهر التوبة؟! على أنّ سبيله كان واضحًا فسيلبث بينهم ما لبثوا في المقهى ثمّ يعود إلى بيته فيطالع حتّى السحور وهٰكذا حتّى يختم الشهر.

ـ ١٠ ـ

وفي اليوم الأوّل من الصيام كابد أحمد عاكف تعبًا مرهقًا، فشقّ عليه ألّا يشرب قهوته ويدخّن سيجارته على الريق، ومضى إلى الوزارة متوجّع الرأس متثائبًا، وغالب تعبه مغالبة يائسة حتّى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه. وذكر أنّ أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبًا ولا حرمانًا فسرّه أن يحتقره ويتعالى عليه. وعاد إلى البيت ظهرًا وقد نهكه التعب، فاستلقى على فراشه وراح في نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة. وذهب إلى الحمّام فرطّب وجهه وأطرافه، وفي طريق عودته رأى والده في حجرته متربّعًا على سجّادة الصلاة يقرأ في الكتاب، فمرّ به ساكنًا، وعطف رأسه إلى المطبخ فرأى أمّه مشمّرة عن ساعديها، ودعاه المطبخ إلى الوقوف بعض الوقت عند عتبته، فأجال بصره فيه متشمّمًا فطاف بطبق كبير حفل بموادّ السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم، خضرة يانعة وحمرة فاقعة، فانشرح صدره وتحلّب ريقه، وانتقل إلى سلطانيّة الفول فلم يستطع صبرًا وزايل مكانه. وفي الصالة مرّ بالسفرة وقد هيّئت فوضع على ركن منها العيش وفرّقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسّطها طبق ملآن بالفجل، فهرع إلى حجرته وأغلق الباب. وكان أبقى الأهرام بغير قراءة ليتسلّى بمطالعته في الساعة الأخيرة المعروفة بشدّتها وثقلها فأكبّ عليه حتّى فرغ منه، ونظر في الساعة فعلم أنّه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى!.. وتجهّم وجهه، ثمّ لم يرَ بدًّا من فتح النافذة المشرفة على العمارات ليقطع

الوقت بالنظر، ورأى المعلّم نونو يغلق دكّانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدّون الطريق سدًّا، ثمّ مضى يحفّون به ويتعلّق الصغار بساقيه ويصيحون جميعًا في جلبة تحسده عليها محطّة الإذاعة. وقد أوشك الطريق أن يخلو إلّا من باعة الزبادي، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلّص عن أسوار العمارات التي تواجهه من وراء مربّع الحوانيت العظيم، والنوافذ المفتوحة تعلن عن السُّفَر الحافلة، وعلى الشرفات انتصبت القُلَل لتبرد وانتثرت أطباق الخُشاف المكلّلة بغلالات بيض، وأتى الهواء بروائح التقلية ونشيش المقليّات فتاه في دنيا الطعام الساحرة... ثمّ تحوّل عن هٰذه النافذة إلى النافذة الأخرى المطلّة من جنب على خان الخليلي القديم ففتحها وارتفق حافّتها، ورمى بطرفه إلى الحيّ القديم فوجده صامتًا ساكنًا تلوح قبابه المعزّيّة كأنّها تسجد تحيّة للشمس المولّية، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الأيسر بنوافذ مغلقة، ولٰكنّه سمع حركة خفيفة هفّت من عل، فرفع بصره فرأى شرفة الجيران ـ التي تواجه نافذته ولٰكن في الطابق الأعلى من العمارة ـ ورأى في الشرفة فتاة مكبّة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهي جالسة على كرسيّ ملتفّة الساقين، وعرفها من أوّل نظرة ـ حتّى قبل أن ترفع إليه عينيها ـ فاهتزّ صدره، فما كان يحسب أنّ شقّة كمال خليل في هٰذا الجناح الذي يواجهه، ولا أنّ فتاته دانية إلى هٰذا الحدّ، فشعر بارتياح وسرور. ورفعت الفتاة عينيها إليه ثمّ ردّتهما بسرعة إلى إبرتها فنظر في العينين العسليّتين النجلاوين لثالث مرّة، وفي تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولّاه الحياء فتورّد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدْرِ ماذا يصنع ولا كيف يتخلّص من موقفه. ونكس رأسه الأصلع وهو يودّ لو يختفي من النافذة ريثما يأخذ أنفاسه، تُرى هل عادت إلى النظر إليه؟.. هل ترنو الآن إلى صلعته؟.. وشعر بأنّ موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة تحت أشعّة الشمس المتجمّعة في بؤرة. ومضى وقت طويل أو قصير حتّى تنبّه على طقطقة الكرسيّ فرفع رأسه فرآها قد نهضت لتذهب إلى الداخل، وخال أنّه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهي تتحوّل لتدخل. وعاد إلى النافذة الأخرى متسائلًا ما معنى هٰذه الابتسامة؟.. لماذا ابتسمت الصبيّة؟. هل تسخر من صلعته؟.. أو تضحك من نظرته الوجلة الخجول؟.. أم تعجب لما حسبته غزل كهل في سنّ أبيها؟. إي والله في سنّ أبيها؟... فلو تيسّر له الزواج في إبّانه لأنجب فتاة في مثل سنّها، ولـمّا أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة في أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء، ولٰكن قضي أن يفقد جنانه لدى أيّ صبيّة، وأن تستثير جوعه وحياءه أبرأ النظرات! وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترّت شفتاه عن أسنان صفر! ودوّى المدفع، وتصايح الأطفال فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير في الجوع أو العطش، وهتف المؤذّن بصوته الجميل «الله أكبر.. الله أكبر» فأجاب أحمد بصوت مسموع «لا إله إلّا الله». ثمّ تحوّل عن النافذة ذاهبًا إلى الصالة. والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة، ثمّ غيّروا ريقهم على عصير قمر الدين حتّى رووا ظمأهم، وأتت الأمّ بطبق الفول المدمّس فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء:

ـ أظنّ الأوفق أن نؤخّر الفول حتّى نصيب من أنواع الطعام الأخرى وإلّا امتلأنا به وحده.

فقالت الأمّ ضاحكة:

ـ هٰذا ما تقوله كلّ عام ولٰكنّك لا تذكره إلّا عقب الفراغ من الفول؟

ولٰكن لم يزل في البطون متّسع فجيء باللوبيا والفلفل المحشوّ واللحم المحمّر وتعاونت الأيدي والأعين والأسنان في عزم وسكون. ولم يكن الطعام الشيء الوحيد الذي يلذّ أحمد، فهناك خواطر سارّة زحمت رأسه الصغير الأصلع، حدّت من شهوة الطعام نفسها، من هٰذه الخواطر: أنّ الفتاة جارته، وأنّ شقّتها تشرف على شقّته، فاللقاء منتظر، والتقاء العينين مرتقب، والتفاعل محتمل، والانفعال مؤكّد. ومن يدري بعد ذٰلك ماذا يحدث؟ سيرمي بالقلب في

بحر لجّيّ يعلو به أمل ويسفل به قنوط، ويذهب به رجاء ويجيء به يأس، ويخيفه أفق مظلم ويطمئنه شاطئ آمن، فما يدري أين المستقرّ ولا أيّان المنتهى، وحسْبه من السرور يقظة دبّت في قلب مَوات، وليقظة القلوب فرحة وإن أدّى الإنسان ثمنها من دمه وراحة باله، وهل ينكر أنّ قلبه جمد من البرد وبرم بالنوم وضاق بالراحة؟ فها هي ذي يقظة تدبّ، وتبشّر الشرفة بدوامها، ما عُقباها؟ ما غايتها؟ لا يبالي في سروره الراهن ما ينطوي عليه غده، فليشرق الأفق أو فليغرب، وليبتسم الحظّ أو فليتجهّم، فبِحَسْبه أنّ قلبه صحا، وأنّه منذ أيّام ينتفض في اضطراب، ويضطرب في سرور، ويسرّ في حيرة، ويتحيّر في رجاء، ويرجو في خوف، ويخاف في لذّة. هٰذه هي الحياة، والحياة أجمل من الموت، مهما كابد الحيّ من تعب ووَجَد الميت من راحة. . .

- ١١ -

وغادر البيت قبل العشاء إلى «الزهرة» فاجتمع بالصحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاي ودار الحديث حول الصيام، وكيف أنّ كثيرين - من أهل القاهرة خاصّة - لا يؤدّون فريضته لأوْهى الأسباب.

وشهّر سيّد عارف بالمعلّم زفتة وعبّاس شفة فقال ضاحكًا:

- قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب، أمّا «الكيف» فأمر يهون دونه الدين!

فقال عبّاس شفة متهكّمًا:

- ألا تفضّل أن تصير «رجلًا» مثلنا، ولو قارفت المعاصي؟؟

فاصطنع سيّد عارف لهجته قائلًا:

- دائي له دواء أمّا داؤك يا سيّد الأزواج فلا دواء له؟!

فهزّ عبّاس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو يتورّد وجهه:

- لا تعيّرني ولا أعيّرك!

- بل نحتكم إلى المعلّم نونو. يا معلّم نونو أيّهما تفضّل أن تكون: عبّاس شفة أم سيّد عارف؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال:

- لا خُيِّرْتُ بين أن أكون أحدكما قطّ!

فقال سيّد عارف بإيمان:

- سبحان من يُحيي العظام وهي رميم، وغدًا تردّ الأقراص كيد الحاسدين إلى نحرهم!

فضحك عبّاس شفة ضحكة داعرة وقال:

- وقتذاك نهنّئ أنفسنا؟!

ونهاهم سليمان عتّة عن الإلمام بمثل ذاك الهذر علانية في شهر رمضان، ولم يكن صادقًا في نهيه لهم ولا غاضبًا حقًّا للشهر الكريم، ولكن «قافية» الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل، فيئس من أن يأتي قائل بجديد. ثمّ راح كمال خليل يحدّث عن ليالي رمضان منذ أقلّ من ربع قرن، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينيّة المؤثّلة، وكيف كانت بيوت السراة تظلّ مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين، وتستقرئ مشاهير المقرئين حتّى مطلع الفجر، وقال إنّ بيتهم القديم - بيت أبيه - كان ضمن تلك البيوت العامرة، وتساءل أحمد عاكف: تُرى هل يصدق الرجل فيما يقول أم يقتصّ أثر زوجه اللحيمة؟!. وتسامروا ساعة طويلة حتّى تعبت ألسنتهم فأمسكوا عن السمر وأخذوا في اللعب. ووجد أحمد عاكف نفسه منفردًا بالمحامي الشابّ، فأدرك أن جاءت نوبة النضال والتحدّي، ولحظه بطرف لم يعلن عمّا يضطرم في باطنه من الموجدة والمقت. وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة مرّ بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوّحين بالمصابيح هاتفين بأناشيد رمضان سائلين «العادة» من النكل والملاليم فأتبعهم المحامي ناظريه حتّى اختفوا، وابتعدت أصواتهم الرفيعة، ثمّ التفت إلى صاحبه قائلًا بلهجة مُرّة:

- نحن شعب من الشحّاذين.

فأدار أحمد عاكف رأسه إليه كالمبتسم، وقد بات يوجس خيفة من الاشتباك معه في الحديث، وإن تظاهر بالاستهانة، وتوثّب للانقضاض والتحدّي. واستطرد أحمد راشد قائلًا بنفس اللهجة:

ـ شعب من الشحّاذين وحفنة من أصحاب الملايين. فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحاذة، والعمل الوضيع لا يغني عن الشحاذة!

فهزّ أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدّثه نظرة لا معنى لها ولاذ بالصمت والصمت في مثل حاله مأمون العواقب. فهو يغنيه عن خوض ما ليس له به علم، ويهيّئ جوًّا آمنًا لاهتبال الفرص السانحة. أمّا صاحبه فاستدرك يقول:

ـ ليس يوجد شرّ من نظام يقضي إلى أناس بالانحدار إلى مستوى الحيوان الأعجم.

ولست أدري كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أنّ غالبيّة قومهم جياع لا يدخل بطونهم ما يقيم أوَدهم ،جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدوابّ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة. ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلّاحين والحيوانات مثلًا؟ فإنّ للحيوان على سادة الريف حقًّا في الغذاء والمأوى والصحّة لا مَراء فيه، ولم يُقَرّ بمثله للفلّاح!

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة، وكبر عليه أن يستمرّ الشابّ في محاضرته وأن يقنع هو بالإنصات كالتلاميذ فقال:

ـ إذا كان للفلّاح حقّ فلماذا لا يطالب به؟

فقال المحامي بحدّة:

ـ الفلّاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للإنسانيّة، فلا يمكن أن يطالب بشيء، ولٰكن خليق بكلّ إنسان أهل لشرف الإنسانيّة أن يمدّ يده ليرفع عن كاهله المتهالك هٰذا الضغط، وقديمًا حارب الرقّ الأحرار لا العبيد!

وتنازعت الكهل عواطف جاءت متناقضة. فجانب من نفسه ارتاح لما يقول الشابّ، فلو اعتدل ميزان العدالة في هٰذا الوطن ما عاقه عن إتمام تعليمه عائق، ولبلغ ما يشتهي من الشرف في الحياة. واحتقر جانب آخر اهتمامه الحماسيّ بالمشكلات الاجتماعيّة، ورأى أنّها دون ما ينبغي أن يفكّر فيه «المثقّف» من أمور العقل كالمنطق والتصوّف والأدب! ثمّ ذكر عنف الشابّ في حديثه وثقته برأيه فثارت كبرياؤه، وغلبته على أمره، فقال بحدّة:

ـ لو أنّ الفلّاح يستحقّ أكثر ممّا هو متاح له لناله، والحقّ لمن يقدر عليه، وما عدا ذٰلك فهراء في هراء!

وثبّت الشابّ نظّارته على عينيه بحركة عصبيّة، وقال بلهجة غريبة:

ـ أأنت من أتباع نيتشه يا أستاذ؟!

ربّاه ومن نيتشه هٰذا؟.. ألا يمكن أن يوجد رأي ـ ولو كان من وحي الغضب والحنق ـ من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كلّ الجهل؟.. وكيف يجيب الشيطان البغيض؟!.. هداه عقله إلى سبيل واحد رأى أنّه يخلّصه من الفخاخ التي ينصبها له عدوّه، فقال وقد غيّر لهجته، وخفّف من شدّته:

ـ إنّك يا أستاذ راشد تدفعني إلى أحاديث ليست بذي بال!

ـ حياتك ليست بذي بال؟!

ـ دع الفلّاح إلى نفسه أو إلى مَن يعنيه أمره. ألم تقرأ شيئًا عن أرسطو؟.. ألم تلمّ بفلسفة إخوان الصفا الدينيّة؟.. ألم تثقّف شتّى المعارف الروحيّة؟؟

فلاح الانزعاج في وجه الشابّ وقال:

ـ إنّ مثلنا مثل ربّان السفينة تمخر عباب مضيق ثائر تهبّ عليه ريح زعزع عاصفة، فيفور زخاره ويصطخب ركامه، فتعلو السفينة وتسفل وتميل ذات اليمين وذات الشمال، مضطربة البنيان مزلزلة الأركان، فهل يجوز للربّان ـ وتلك حال السفينة ـ أن يولي آلة القيادة ظهره ليرمي بطرْفه إلى الأفق متأمّلًا ومنشدًا؟!. نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كلّ جانب. فلنأخذ من الآلام ذخيرة لتأمّلاتنا. حقًّا إنّ للأبراج العاجيّة لذّاتها، ولٰكن ينبغي أن نقاوم أنانيّتنا إلى حين.

ـ فأنت، في سبيل أن تنقذ البائسين من وهدة الحيوانيّة، تضحّي بإنسانيّة المثقّفين وتقتل أرواحهم!

ـ قلت إلى حين.. ألم تَرَ إلى فترة الحرب وكيف تحوّل العلماء ـ وهم أشرف الخلق ـ إلى نوع من المجرمين!

ـ ومع ذٰلك فلك نصيبك من التأمّلات البعيدة كالفلك والذرّة!

فضحك أحمد راشد ـ لأوّل مرّة ـ بصوت مرتفع فلفت إليه جماعة اللاعبين وجعل المعلّم نونو يقول له:

ـ إن ضحكتم فأعلمونا!

فسكت المتحاوران حتّى شغل عنهم اللاعبون ثمّ قال المحامي:

ـ لا غنى عن التسلّح بالعلم للمُكافِح الحقّ، لا للاستغراق في تأمّلاته ولٰكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترّهات، فكما أنقذنا الديانات من الوثنيّة ينبغي أن ينقذنا العلم من الديانات!!

وهنا احتدّ سليمان بك عتّة كعادته إذا خسر «عشرة» واشتبك معه سيّد عارف في مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثّبين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الأوّل.

* * *

وعند منتصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلّم نونو وهو يقول:

ـ سأذهب إلى البيت لأحضر معطفي لأنّ الجوّ تشتدّ برودته عند الفجر.

ومضيا معًا. وفي الطريق سأل المعلّم صاحبه:

ـ لماذا لا تمدّ السهرة حتّى السحور؟

فقال الكهل بلهجة فاترة:

ـ إنّي أمضي الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور في القراءة!

ـ أتقرأ كتبًا؟!

ـ أجل. وما يقرأ غير الكتب؟!

ـ وفيمَ هٰذا التعب؟

فابتسم أحمد عاكف وقال:

ـ هواية يا معلّم نونو!

ـ ولٰكنّ الهواية ينبغي أن تكون ذات فائدة ما: فهل تطيل الكتب العمر؟! تدفع المرض؟! تمنع المقدور؟! تُجنّب الشقاء؟! تملأ الجيب؟!

فقال أحمد وما زال يبتسم وقد عاوده شعور الاستعلاء والسرور:

ـ بل أريد أن أكتب كتابًا أيضًا!.

ـ هٰذا أنكى وأمرّ، هل أنت صحفيّ؟

ـ هَبْني أجبت بالإيجاب؟

ـ مستحيل.

ـ ولِـمَه؟

ـ أنت ابن ناس طيّبين!

فضحك أحمد ضحكة قذفت بحنق الليل خارج صدره وقال:

ـ ولٰكنّي سأكتب كتابًا..

ـ الكتب في الدنيا أكثر من بني آدم. ألم تَرَ إلى مكتبة الحلبيّ تحت الكلوب المصريّ؟!.. فيها كتب ـ يا دين محمّد ـ لو صفّت جنبًا إلى جنب لكاثرت طلبة الأزهر، فهل تبذل ما تبذل من جهد لتضيف إليها كتابًا جديدًا؟!

نعم.. نعم.. فلكلّ كتاب فائدته..

ـ إليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدًا..

ـ ما عسى أن تكون؟..

ـ أما تعرفها؟. حزّر..

ـ لا علم لي يا معلّم..

ـ يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان..

ـ فما اسمها؟

ـ في الأصل من التراب ولٰكن مرعاها فوق السحاب.

ـ عجبًا.

ـ واردها إمّا في الليمان أو على كرسيّ السلطان!

ـ ليس في الدنيا شيء كهٰذا...

ـ يهواها الفقير والوزير...

ـ لحدّ هٰذا؟!

ـ عزاء الحزنان وشرب الفرحان!

ـ ما أشوقني إلى معرفتها!.

ـ قدّ النبقة وتنفع في كلّ زنقة.

ـ هٰذا سحر!

ـ أحضروها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل!..

ـ هل تجدّ فيما تقول؟

ـ ألم تسمع عن الحشيش؟!

وارتاع الكهل لوقع الكلمة، فضحك المعلّم وقال يغويه:

ـ تعال طاوعني، الحياة ملأى بما هو ألذّ من الكتب..

وأغراه حبّ الاستطلاع بأن يسأله:

ـ أين؟

ـ المكان تحت أمرك إذا وافقت وشرّفتنا.

ـ ألا تخاف الشرطة؟

ـ أعرف كيف أتّقي شرّها!.. فماذا قلت؟..

فابتسم أحمد وقال له:

ـ لا شأن لي بهٰذه الهواية الساحرة. شكرًا لك يا معلّم.

* * *

ولـمّا خلا إلى نفسه في حجرته تناسى حديث نونو وظرفه، ولاحت لعينيه صورة أحمد راشد بكآبتها وحماسها وعنف حركاتها، فاستثارت حنقه وغروره ومقته، وتساءل محزونًا كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة؟. وكيف يستكمل ما فاته منها؟!، ومتى يحاضر في فرويد وماركس كما يستطيع أن يحاضر في إخوان الصفا وابن ميمون؟!. وفكّر في هٰذه الأمور طويلًا فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركّز ذهنه فيها، ولٰكنّه ظلّ عاكفًا على كتابه لا يحوّل عنه رأسه لأنّ عكوفه على الكتاب ـ ولو في حال شروده ـ يقنعه بأنّ يومه لم يمض بغير ثقافة يتزوّد منها، الأمر الذي يحرص عليه كلّ الحرص. وانسلّ الوقت وما تزال كبرياؤه تتجرّع غصص العذاب، ثمّ خطرت على قلبه فكرة، هفّت على قلبه كنسمة رطيبة لطيفة فأثلجت صدره الفائر بالحنق والغضب، فصفا وطاب، وابتسمت أساريره. كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو أنّ ما يلقاه من حظّ ونصيب، ومصادفات واتّفاقات، وأناس وأخلاق، كان في مثل هاتين العينين النجلاوين يقطران سذاجة وخفّة؟!. ثمّ ذكر ـ فيما يشبه الدهشة ـ أنّ شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه، ففي شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحبّ الأولى، وهي ـ كرؤية نور الدنيا لأوّل مرّة ـ إحساس عجيب لا يتأتّى الشعور بجدّته مرّة أخرى. وفيه رأى الفتاة التي رغب صادقًا أن يشاطرها حياته وأخفق، وها هو ذا رمضان من جديد، وها هو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعًا دافئًا منعشًا، وكان عقله من العقول التي ترى دائمًا وراء المصادفات حكمة تدقّ على الألباب، فإذا رأى غيره من المصادفة مجرّد حادثة لا معنى لها، التمس هو فيها حكمة خفيّة، لذٰلك نظر أمامه حالـمًا وقد غاب بصره، وارتفع حاجباه الخفيفان المتباعدان، وفغر فاه، وغمغم في حيرة وسرور «ماذا وراءك يا رمضان»؟!

ـ ١٢ ـ

وعند أصيل اليوم الثاني نهض نشيطًا إلى المرآة ليحلق ذقنه، وكان يحلقها عادة مرّتين في الأسبوع، ولا يبالي أن يبدو للناس وذقنه نابتة، فعزم على الإقلاع عن عادته هٰذه، وأن يحلق ذقنه يومًا بعد يوم من الآن فصاعدًا.

ولـمّا فرغ ارتدى جلبابًا نظيفًا وطاقيّة ناصعة البياض ـ مجبرًا ليخفي صلعته ـ ثمّ جلس على حافّة الفراش يرمق النافذة بعينين متردّدتين، ليست المسألة مجرّد حلق ذقن أو لبس طاقيّة بيضاء، إنّما ينبغي أن يسأل نفسه عن معنى هٰذه اللهفة ومغزى هٰذا التغيّر. هل ينطلق بغير تفكير أو تروٍّ؟ ماذا يريد على وجه التحقيق؟ فعسى ما يكون اليوم لعبًا يكون غدًا جدًّا. وما ينبغي له أن ينسى حظّه العاثر وتاريخه المحزن، أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها؟ على أنّ الحياة لا تنصت لمثل هٰذا المنطق، ولا تكاد تتأثّر بحكمته ومخاوفه، فقد أحرقه الظمأ وألهبته اللهفة، ونهض مرّة أخرى يلوح في وجهه العزم ودلف من النافذة ثمّ فتحها، وارتفق حافّتها وعيناه إلى أسفل، ثمّ مضى يرفعهما ببطء وحذر حتّى بلغتا أرض الشرفة، فرأى قوائم الكرسيّ وحاشية الشال ـ الذي كانت تطرّزه مساء الأمس ـ مدلّاة بينها، ثمّ غلبه خجله فأطرق كالأطفال! ولبث مطرقًا وهو

يشعر بعينيها تثقبان رأسه. وخاف أن تذهب الفرصة قبل أن يتملّى برؤيتها، فرفع رأسه متغلّبًا على حيائه، فرأى الكرسيّ خاليًا والشال موضوعًا عليه! تُرى أكانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها إلى الذهاب داعٍ؟ أم غابت قبل ذلك؟، ومهما يكن من أمر فقد أحسّ امتعاضًا وفتر حماسة، وخاف - أكثر من قبل - أن يغيب اليوم دون أن يراها، ولم تكن احتمالات رؤيتها في الغد لتنسيه خسارة اليوم، فقد تهيّأ بكلّ عناية لتراه في أحسن صورة ممكنة، ولن تكون ذقنه ولا طاقيّته ولا جلبابه غدًا كما هي اليوم، وإذن فهذا رجاء خاب، وذاك تعب ضاع، وأطرق مرّة أخرى كاليائس، إلاّ أنّه سمع - في اللحظات الأخيرة قبل المدفع - حركة خفيفة في الشرفة، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة، ثمّ رآها تنحني على الكرسيّ لتأخذ الشال فالتقت عيناهما لحظة، ثمّ استوت قائمة فولّته ظهرها وجرت إلى الداخل. وما طمع في أكثر من ذلك، ولو أنّها أدامت النظر إليه لأربكته وأوقعته في الحيرة والحياء، أمّا وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التي خطفت بها روحه، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقّة. ثمّ صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المُنى، هي خلاصة اليوم وهدفه ومعناه، حسْبه أن يملأ عينيه من معاني السذاجة والخفّة تسكبها عيناها النجلاوان، وأن يدّخر منها لبقيّة يومه ما يشيع فيها السرور والأحلام. وتواترت أصيلًا بعد أصيل، والتقت العينان يومًا بعد يوم، فألف منظرها المحبوب ولعلّها ألفت منظره، بَيْد أنّه لبث على خجله وارتباكه، يطالعها - إذا جاءت اللحظة السعيدة - بنظرة تفيض بإحساس الجدّ والرزانة والوَجَل كأنّما يتحفّز صاحبها للفرار!. ووضحت صورتها في مخيّلته بعينيها النجلاوين ذواتي الصفاء والسذاجة والخفّة، عينان تنطق نظراتها بالتساؤل والاستسلام، إلّا أنّ خفّتها تضفي عليها غلالة من الفطنة والحرارة.

وكان ذات مساء يغادر حجرته - بعد العشاء - إلى المقهى. فدقّ جرس الباب الخارجيّ وهو يقترب منه، ففتح الباب بنفسه، فرأى أمامه الستّ توحيدة وكريمتها نوال! وجعل ينظر إليهما بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما بغته من سرور، ثمّ انتبه إلى نفسه فتنحّى عن سبيلهما قائلًا متلعثمًا:

- تفضّلا. .

ودعا أمّه لتلقّي الزائرتين، وذهب لا يلوي على شيء، وأدركت أمّ نوال ارتباكه، ولم تكن تتصوّر أنّ رجلًا في سنّه يرتبك ارتباكه، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنّه قابل امرأتين. وهبط أحمد السلّم نشوان لأنّه يذكر جيّدًا - كما أكّد لشكوكه التي لا تنتهي - أنّ فتاته ابتسمت إليه وهو يستقبلها ابتسامة خفيفة برّاقة، لعلّها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله، أو ابتسامة الارتباك والحياء، أو لعلّها جادت بالابتسامة للرجل، جزاء حرصه ومثابرته على التطلّع إليها بعينيه كلّ غروب أسبوعًا كاملًا أو يزيد، فمهما كان الباعث فهي ابتسامة حلوة، تلهّف قلبه على مثلها عشرين عامًا. ورغب عن الذهاب توًّا للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمّل، وكان من الذين يستحبّون المشي إذا شغلهم شاغل من الفكر. فحثّ خطاه إلى السكّة الجديدة، وسار معها مبتهجًا مسرورًا، وتمتّع ما شاء بالسرور في صفاء ورضا، وما كان غرًّا ولا حسن الحظّ بالدنيا - وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظ وعثاره؟! - ولكنّه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه، وأراد أيضًا أن يسبر حظّه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة، وليرى إن كان في الإمكان أن يعاود التجربة من جديد. فقد بدا له أنّه أصبح حرًّا بعد أن أدّى واجبه كاملًا، ألم يتلقّ عن والده العبء عند اندحاره؟، ألم ينهض بأسرته المهدّدة بالشقاء؟ ألم يكفل أخاه حتّى صار رجلًا؟ فما عليه من حرج بعد ذلك إذا شغل بسعادته مخلّفًا أعباءه لشقيقه الأصغر، ولا يكره ذلك أحد من ذويه، فهل في العمر متّسع؟!. . وتمادى في التأمّل والتخيّل يحثّه شعور السرور والظفر الذي غمره منذ حين، فقال إنّه يملك في صندوق توفير البريد مبلغًا لا بأس به في ذاته، وإن عُدّ تافهًا إذا قيس إلى مدّة خدمته الطويلة، وأمّا عن شكله فليس ممّا يعيب الرجل ألا يكون جميلًا! وإنّه

ليستطيع بالعناية ـ كما فعل اليوم ـ أن يبدو مقبولًا على نحول وجهه وشحوبه وصلعته. ويا حبَّذا لو فصّل بذلة جديدة، وابتاع طربوشًا غير طربوشه الباهت المتقبّض. بيْد أنّه كهل! فهو في الأربعين والصبيّة دون العشرين! وفارق العمر حاجز لا تقتحمه إلّا المعجزات فمن أين له بالمعجزات؟! وانقبض صدره لأوّل مرّة منذ فتح باب الشقّة للزائرتين، وذكر شكّه في جاذبيّته الجنسيّة، فتجهّم وجهه وأفاق من نشوة السرور وتمثّلت لعينيه ـ في ظلمة الطريق ـ صورة الفتاة الباسمة، فغمغم قائلًا: «يا لها من غرّة جاهلة!»، إلّا أنّ شيئًا واحدًا لم يخطر له ببال، وهو أن يتطوّع بمدّ يده إلى الحياة التي دبّت في قلبه فيخنقها لواذًا بطمأنينة الموت، فليتركها تنبض وتترعرع ولينتظر المخبّأ وراء حجاب الغيب، وهو لن يكون بحال أسوأ ممّا عركته به الأيّام. وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحبّ شيء غير ما يعاني؟.. هل هو شيء غير هٰذا الشوق الغامض النابع من الحنايا؟.. هل هو شيء غير هٰذا الحنين الذي تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد؟.. هل هو شيء غير هٰذا الفرح السماويّ تطرب له النفس والدنيا جميعًا؟.. هل هو شيء غير هٰذا الألم المشفق من الإخفاق والعودة إلى الوحدة والوحشة؟.. هل هو شيء غير أن تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هٰذا الصدر فتصير زاد أحلامه ومبعث آماله وآلامه؟.. بلى هو الحبّ، وإنّه به لخبير!

وعاد إلى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون ويحتسون الشاي، ورأى الغلام محمّد جالسًا جنب والده يقلّب في المكان عينيه النجلاوين، فسرّ لمرآه ـ وهو سفير هواه ـ وانجذبت نحوه روحه ـ واتّخذ مجلسه المعتاد جنب الأستاذ أحمد راشد، وراح ينصت لسيّد عارف الذي كان يقول بحماس:

ـ وسينتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطئ إنجلترا وينهون الحرب!

فتساءل كمال خليل ضاحكًا، وفي هدوء لا يهيّج الأعصاب:

ـ كما هبط هيس؟!

فاستطرد سيّد عارف غير ملقٍ بالًا إلى قوله:

ـ وستخرّ إنجلترا المتعجرفة صريعة قبل أن تفيق من هول الضربة.

فسأله أحمد راشد:

ـ كيف تغزو ألمانيا إنجلترا وجنودها مشتبكة في ذاك الصراع المخيف في روسيا؟

ـ أعدّ الفوهرر جيشًا خاصًّا لغزو إنجلترا، وأرجّح أن تسقط إنجلترا قبل روسيا إن لم تسقطا معًا!

فقال أحمد راشد:

ـ الظاهر أنّك تجهل حقيقة روسيا، روسيا الاشتراكيّة غير روسيا القيصريّة، الشعب الاشتراكيّ كتلة من الصلب والإيمان والعزيمة، وهو ربّما تقهقر ريثما يأخذ أنفاسه، ولٰكنّه لن يلقي السلاح أبدًا، ولن يسلّم لدواعي الهزيمة..

ـ والمخزن رقم ١٣؟!

فقال المعلّم نونو وهو يفرك كفّيه:

ـ هٰذا مخزن الأقراص التي تريدها..

وسأله أحمد عاكف:

ـ لماذا لا يستعمل هٰذا المخزن إن صحّ ما يقال عنه؟

ـ رحمة بالإنسانيّة، الفوهرر لن يلجأ إلى استعمال مخزنه المخيف إلّا إذا يئس من النصر بالفنّ الحربيّ المعتاد لا قدّر الله!

وهنا صفّق المعلّم نونو للنادل أن يحضر الدومينو وهو يقول كمَن ضاق صدره بالحديث:

ـ ملعون أبو هٰؤلاء وهٰؤلاء، فلا الألمان أمّنا ولا الإنجليز أبونا، وليذهب بهم الشيطان جميعًا إلى الجحيم..

وفصل المعلّم نونو بصيحته بين السمر واللعب، وما لبث عاكف أن وجد نفسه ـ كالعادة ـ منفردًا بالمحامي. ورغب عن الحديث، وحدّثته نفسه بالرجوع إلى البيت حيث توجد الآن نوال وأمّها.. ولٰكن ما عسى أن يفعل هناك إلّا أن يحبس نفسه في حجرته؟.. وإنّه لفي حديثه مع نفسه إذ سمع المحامي يقول للغلام محمّد بلهجة الأمر:

ـ يا محمّد آن لك أن ترجع إلى البيت لتذاكر!

ونهض الغلام قائمًا، وقد علت شفتيه ابتسامة دلّت على ارتباكه، وغادر المقهى وثبًا!، وعجب أحمد عاكف للهجة الشابّ الآمرة وإذعان الغلام لها، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودّد إلى الأب..

وأحسّ الشابّ بعجب الرجل فقال:

ـ البنات يتفوّقن على الصبيان بدرجة تدعو للدهشة، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة، أمّا هو فيتجرّع دروسه كالعلقم ويعتلّ على التهرّب منها بالعلل!

كيف يتكلّم الأعور عن الفتاة بهٰذه الحرّيّة؟ وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله:

ـ هل تعطيها دروسًا خصوصيّة؟

فحنى الشابّ رأسه بالإيجاب!، وامتعض الآخر امتعاضًا شديدًا جعله يتكلّف الابتسام حتّى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه. أيجلس هٰذا «الأعور» من فتاته مجلس الأستاذ المعلّم؟ أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربّما تصنّع الجدّ فانتهرها؟.. ألا ينفرد بها أحيانًا؟.. ألم ينظر إليها مرّة بغير عين الأستاذ؟. كيف تراه هي؟.. إنّه شابّ مثقّف ذو مستقبل حسن، ولن يضرّه شكله المتجهّم ولا عينه الزجاجيّة، بل لن يُعَدّ ـ أي عاكف ـ خيرًا منه بحال إن لم يعدّ أسوأ درجات ـ على الأقلّ في نظر العوامّ والأمّيّين ـ فهل يولّي الأدبار ولـمّا تبدأ المعركة؟، وما كان في مثل هٰذه المعركة ممّن تتملّكهم روح الإقدام والمنافسة، وعلى العكس من ذٰلك تراه ينكمش ويسلّم ساقيه للريح حياء واستكبارًا وجبنًا.. ولن يزال في كلّ شدّة يلتمس التدلّل الذي نشأ في أحضانه فإذا أخطأه ـ ولا بدّ أن يخطئه ـ انطوى على نفسه دامي القلب مجترًّا آلامه مكيلًا التهم لسوء الحظّ الذي يلاحقه! ولو كان دور الذكر في الغزل أن يُطارَد لا أن يطارِد وأن يُطلَب لا أن يطلُب لهان الأمر وطاب له الغرام، أمّا والأمر غير ذٰلك أو عكس ذٰلك ـ أمّا والأمر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع في الظفر؟ ولو أنّ السجايا رهن مشيئة الإنسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقليّة ـ المزعومة ـ لقاء أن يصير غزلًا ماهرًا ورجلًا جذّابًا!، ولٰكن هيهات أن يبلغ ما يشاء، وليس أمامه إلّا أن يحتقر الغزل ويمقت المرأة ويستمرئ العزلة الوحشيّة!

وتجنّب أن يشتبك في حديث مع الشابّ البغيض، وتصنّع الإنصات للراديو ليصرفه عن محادثته، فمضى الوقت وهما صامتان، والسكون قائم إلّا أن يمزّقه احتداد سليمان عتّة إذا استثاره سيّد عارف. وأوردته أفكاره المحمومة ـ في صمته ـ مَناهِل سامّة استقى منها خياله المحزون، فاستسلم لأمانيّ شيطانيّة مرعبة، تمنّى في صمته غارة جنونيّة تقذف القاهرة بالحمم فتدكّ مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها إلّا خرائب وآثار، وشخصان حيّان لا غير، هو وهي!! هنالك تصفو له بلا خوف ولا يأس ولا غيرة ولا جهد!.. وتمثّلت لعينيه المظلمتين القاهرة المهدّمة المحطّمة، والشخصان الشريدان، يفزع أحدهما إلى الآخر لائذًا بجناحه ساكنًا إلى ذراعيه، والآخر سعيد ـ على ما يكتنفه من الخراب ـ بصاحبه، متلذّذًا بانفراده به، انبعثت هٰذه الأمنيّة الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغٍ بالاضطهاد والقهر والعذاب.

ـ ١٣ ـ

ولـمّا خلا إلى نفسه في حجرته بعد منتصف الليل ـ تساءل ممتعضًا ألّا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التي يسير الألم بين يديها؟ أليس الموت مع السلامة خيرًا من حياة القلق والعذاب؟ بَيْد أنّه تناسى مخاوفه في اليوم التالي وما بعده وصار بين النافذة والشرفة ميعاد يتجدّد كلّ أصيل. ولم يعد شكّ في أنّ الفتاة أدركت أنّ جارها الجديد يتعمّد الظهور في النافذة ـ أصيل كلّ يوم ـ ليبعث إليها بتلك النظرة الحييّة الوجلة. ترى كيف تحدّثها نفسها عنه؟ أتهزأ بشكله؟ أتضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله وجموده؟ فمن عجب أن تتواتر الأيّام وما يزال حريصًا على ميعاده مترقّبًا لساعته ثمّ لا يستطيع شيئًا إلّا أن يرسل هٰذه النظرة

الخائفة ما إن تلتقي بنظرتها حتّى ترتدّ في خفر وقد اختلجت الأجفان، وما انفكّ شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه، وما انفكّ يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضًا بمثل هٰذه النظرة الحلوة أم تدّخر له ما هو أجمل وأفتن؟! بيْد أنّ لحظات الأصيل السعيدة كانت تنتشله دائمًا من هاوية الشكّ والقنوط. وجعل يهدّئ روعه ويقول لنفسه إنّها لو كانت تهوى الشابّ البغيض لما منحته نظرتها الحنون مساء بعد مساء، فعاوده الأمل وراجعه الرجاء. ولٰكن لم يكن طبيعيًّا أن يقنع بهٰذه النظرة، وأدرك أنّه ينبغي أن يخطو خطوة جديدة، ولٰكن هل يستطيع؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عامًا كاملة؟ هلّا أدام إليها النظر حتّى تطرق هي حياء ولو مرّة!.. هلّا حيّاها بابتسامة؟ وتخيّل أنّه يديم إليها نظره ثمّ تخيّل أنّه يبتسم لها فتورّد وجهه واضطرب اضطرابًا عنيفًا وغلبه الحياء والعجز على أمره! ربّاه أتجفل الكهولة من الطفولة؟.. أتفرّ الأربعون من السادسة عشرة؟ لَكَمْ حسب فيما مضى أنّ الخجل داء يزول مع تقادم العهد ولٰكنّه تشبّث بطبعه حتّى أدركه داء جديد هو داء الكهولة، فلماذا يخلق الله قومًا مثله لا يقدرون على الحياة؟!.. والتمس في يأسه سبيلًا جديدًا فقال لنفسه إنّ الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شكّ أن يكتبوا، فلماذا لا يجرّب وسيلة الكتابة إليها؟. وراقه هٰذا الخاطر وفكّر فيه تفكيرًا جدّيًّا، فالأمر لا يقتضيه إلّا أن يكتب كلمات في ورقة ثمّ يطويها بعناية ويرمي بها إلى الشرفة، هٰذا حسن. فكيف يبدأ خطابه؟ أيقول مثلًا حبيبتي نوال.. هٰذا تصوير وقح. عزيزتي نوال؟.. ما يزال ذكر الاسم وقاحة. عزيزتي فحسب، فهٰذا أليَق بأدبه، ثمّ ماذا؟.. إنّ الرسائل تبدأ عادة بالتحيّات، فليكتب لها تحيّة وسلامًا، ثمّ ماذا؟.. هل يصارحها بحبّه؟.. كلّا هٰذا ما ينبغي أن يختم به، وإذا بدأ فليبدأ بالإعجاب والثناء، ولٰكن كيف ينشئ عباراته؟.. وكيف يتخيّر ألفاظه؟.. أيّ الأساليب يعجبها؟ وأيّ الألفاظ يحسن وقعها من نفسها؟.. وهَبْهُ فرغ من حلّ هٰذه المشكلات جميعًا فماذا يسألها؟.. أن تجيبه؟.. أن تقابله؟.. بل هناك ما هو أهمّ من كلّ ذٰلك. ما الذي يدعوه إلى الظنّ بأنّها ستحسن استقبال رسالته؟. مَن يدريه أنّها لا تمزّقها وتقذف بها في وجهه.. أو يغلبها السخط فتفضح سرّه وتشهّر بكرامته؟.. وعقله التردّد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لائذًا بالسلامة. على أنّ النافذة لبثت على ولائها للشرفة. وأوفت كلتاهما بعهد لم يرتبطا به. فتلاقت العيون حتّى تآلفت وتعارفت، وتجاذبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحياء، وبات يظنّ ـ لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاء ـ أنّه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأنّ الشابّ ـ المشغول بالاشتراكيّة ومحو العقائد البالية ـ لا يفزع للغزل والحبّ، فذاق رحيق الأمل صافيًا، ثمّ أدناه الحظّ من الأمل والثقة بمصادفة: إذ شغله أبوه عصر يوم من أيّام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون أن يستطيع الظهور في موعده من النافذة، وانتظر في اليوم التالي بصبر نافد ولٰكنّه وجد الشرفة مغلقة!.. وانتظر عبثًا أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولٰكن على غير جدوى!.. وظنّ أنّه عاقها عن الظهور مثل الذي عاقه بالأمس، لولا أن عثر بشبحها وراء خصاص باب الشرفة!.. فلم يشكّ في أنّها تعمّدت إغلاق الشرفة دونه كما فعل هو بالنافذة في أمسه ومعنى هٰذا ـ إن صدق حدسه ـ أنّها أحسّت غيابه أمس. بل لعلّها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه وها هي ذي تحقّق إرادتها، ومال إلى تصديق ظنّه، ولٰكنّه لم يجد للعقاب ألمًا، وعلى العكس شعر له بلذّة لا عهد له بها، فطرب طربًا استخفّه وجعله يفرقع بأصابعه ويذهب ويجيء في الغرفة ذاهلًا عمّا حوله. وفي اليوم التالي أقبل على النافذة بروح جديد ممتلئًا ثقة وأملًا، فشعر بوجودها قبل أن يرفع إليها عينيه المستطيلتين، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام وعتاب كأنّما يسألها «لماذا اختفيت أمس؟»، فالآن جاء وقت التنفيذ!.. رفع رأسه الصغير فالتقت العينان! ونادى شجاعته ليرفع حاجبيه ويحرّك رأسه مستفهمًا مفكّرًا، أجمع عزيمته كمَن يتوثّب لإلقاء نفسه إلى

حوض السباحة لأوّل مرّة، ودفع نفسه للقفز، ولٰكنّه جمد لحظة أكثر ممّا ينبغي فانتهز عقله الفرصة ورمى في طريقه بخاطر من خواطر الشكّ والخوف فخاف أن يعثر به فاستطارت إرادته وانتثر عزمه وجفل متراجعًا!. وفي تلك الليلة أنّب نفسه تأنيبًا قاسيًا، وطرق صلعته بشيء من الحدّة وصاح غاضبًا: «أما من ذرّة رجولة!!» وهٰكذا أحبّها. أحبّها لعينيها النجلاوين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفّة روحها. أحبّها لأنّ أحلامه ـ والأحلام هي الفنّ الوحيد الذي أتقنه في دنياه ـ أبت أن تغيّبها ساعة عنه، ولأنّه جائع ـ جائع في الأربعين ـ والجوع من بواعث الأحلام!..

ـ ١٤ ـ

ثمّ كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الأسرة احتفالًا بدا في الدجاجة المحمّرة التي ازدانت بها سفرة الإفطار وصينيّة الكنافة، وعند العشاء راحت الستّ دولت تدعو لبعلها بالصحّة ولولديها بطول العمر والسعادة، أمّا عاكف أفندي ـ الأب ـ فذهب إلى مسجد سيّدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القرّاء بالليلة المفضّلة، فكانت ليلة سعيدة؛ وقبل أن يأووا إلى أسرّتهم قبيل الفجر أطلقت صفّارات الإنذار فارتدوا معاطفهم وهرعوا بين جموع السكّان إلى المخبأ الذي باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة إلى إرشاد الخادم، وامتزج انزعاج أحمد بسرور خفيّ لأنّ المخبأ يدنيه من نوال ويمتّع ناظريه باجتلاء محيّاها المحبوب. ورأى في المخبأ أحمد راشد وسيّد عارف واقفين يتحدّثان فانضمّ إليهما ـ وكان موقفهما قريبًا من الركن المرموق ـ وما إن رآه المحامي حتّى قال له:

ـ أما سمعت ما يقول سيّد أفندي؟، يقول إنّ خطوبة سليمان عتّة لكريمة العطّار تمّت اليوم!

فقال سيّد عارف مبتسمًا:

ـ نعم يا سيّدي.. فرح «ميمون».

وعاد أحمد راشد يقول بحدّة:

ـ انظر إلى المال كيف يستذلّ الحسن! إنّ أقبح ما في عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضرورات الحيوانيّة، فكيف سامت الحسناء نفسها قبول يد هٰذا القرد الدميم؟!. ولن يكون اجتماعهما زواجًا ولٰكنّه جريمة مزدوجة تعدّ من ناحية سرقة ومن الأخرى اغتصابًا، ولن يزال جمالها فاضحًا لقبحه، وقبحه فاضحًا لجشعها..

ثمّ ابتسم ابتسامة خفيفة واستدرك قائلًا:

ـ لا يمكن أن تقترف هٰذه الجريمة في ظلّ الاشتراكيّة!

وهنا علا صوت رجل يقول متذمّرًا:

ـ ألم يقولوا إنّ الألمان لن يُغيروا على مصر في شهر الصيام؟

فتحوّل إليه سيّد عارف وقال:

ـ ولٰكنّ الإنجليز يغيرون على طرابلس وهي بلاد مسلمين كذٰلك!

ثمّ قال لصاحبه بلهجة اليقين:

ـ الإنجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربيّة ولٰكن ليجبروا الألمان على ضرب القاهرة!

ولم يُعْنَ أحمد بالمناقشة لأنّه كان يتلقّى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة، ولٰكنّه لم يهنأ بها طويلًا فإنّ صوتًا غليظًا صاح بقوّة: «صه.. أزيز طيّارة!» وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الآذان حتّى صاح صوت آخر: «كلّا.. هٰذه سيّارة الشرطة» فقال الأوّل: «بل أزيز طيّارة.. اسمع!» وأنصتوا جميعًا فترامى إلى الآذان أزيز طيّارة حقًّا يهبط من جوّ سحيق، فاضطرب قلب أحمد وتحوّل بصره نحو والديه فرأى أمّه مصوّبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرقًا، ثمّ سمعوا طلقة مدفع مضادّ بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطّعة. وسكت الضرب لحظة ثمّ عاد أشدّ ممّا كان، واتّصلت الطلقات واختلطت، فانتشر الذعر وثرثرت الألسنة في هذيان، وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة: «هٰذا الضرب في الماظة مؤكّد».. فارتاح كثيرون إلى تأكيده وآمنوا على قوله بغير وعي. وذهب إلى والديه وسأل أباه، وإن كان في مثل حاله من الذعر والاضطراب: «كيف الحال يا أبتي؟» فأجابه الرجل بصوت متهدّج: «ربّنا موجود»

واستمرّ إطلاق المدافع وتعدّدت مصادره، وجعل سيّد عارف ـ على أثر كلّ طلقة مدفع ـ يذكر اسم الناحية التي أطلق منها كأنّه الخبير العليم فيقول: «مدفع العبّاسيّة.. الماظة.. بولاق.. وهٰذا مدفع القلعة إلخ إلخ» ولـمّا انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدّة قال الرجل: «هٰذا مدفع ألمانيّ ابتاعته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب!». ولٰكن أخذ كثيرون يضيقون بالمتكلّمين وينتهرونهم فاشتدّ اللغط، ثمّ جاءت لحظات أخرى عنف فيها إطلاق المدافع واتّصل اتّصالًا مخيفًا فارتجّت الأعصاب ووجبت القلوب. تلك لحظات قصار ولٰكن يقاس زمانها الثقيل بتردّد الأنفاس وخفقان القلوب فكأنّ المرء يحمل الدهر على عاتقيه، ثمّ خفّ عنف الإطلاق رويدًا، ثمّ لم يعد يُسمع إلّا في ناحية واحدة، ثمّ سكت آخر مدفع وأخلف السكون، ولم يدرِ أحد هل يستأنف الإطلاق أو انتهت عقوبة الليلة، إلّا أنّ الأنفاس أخذت تستردّ من الراحة ما تبلّ به جوانح احترقت أو كادت. ومضت فترة وجيزة في سكون ثمّ انطلقت صفّارات الأمان، فنهض القوم متشهّدين، وأرسل أحمد عاكف ناظريه إلى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بها له، فسرّ بها سرورًا مسح عن صدره الضيّق آثار القلق والخوف، ورآها تسبق أسرتها نحو باب المخبأ حتّى إذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معانٍ ثمّ ارتقت السلّم على عجل، فشعر الرجل ـ بقلبه الجذلان ـ أنّها تدعوه إلى اللحاق بها، وللأعين كيا للغرائز لغة سرّيّة صامتة، فتولّاه التردّد والحياء، إلّا أنّ مروقها إلى الخارج بثّ فيه شجاعة وقتيّة تغلّب بها على تردّده وحيائه فاتّجه نحو الباب سابقًا والديه والخادم، وارتقى السلّم متسائلًا ترى هل يجدها أمام الباب؟ وما عسى أن يقول أو يفعل؟ ولٰكنّه رأى شبحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ أذرعًا في طريق البيت، ولم يكن في الطريق غيرهما فهما أوّل اثنين غادرا المخبأ، فإذا أوسع خطاه أدركها في أقلّ من الثانية وأمكنه أن يسايرها شارع إبراهيم باشا، وأن يرتقيا معًا ـ منفردين ـ سلّم العمارة. تخيّل ذٰلك بسرعة ولٰكنّه لم يكد يبدي حراكًا، أو تحرّك بالأحرى خطوات معدودة، فاتّسع ما يفصل بينهما من مسافة حتّى باتت قريبة من مدخل العمارة، وغلّ الحياء والارتباك إرادته فجعل يتلفّت خلفه كأنّه يدعو والديه إلى اللحاق به لينقذاه من ورطته، وعبثًا حاول أن يقاوم حياءه أو ارتباكه أو أن يجمع إرادته على اللحاق بها فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف والرغبة، ثمّ اختفت الفتاة داخل العمارة، وانتهى الخوف والتردّد والرغبة والأمل!، ثمّ سار مع والديه يعالج في صمت حسرة أليمة منتزعة من صميم الضلوع، وطفق ينظر إلى السلّم ـ وهم يرتقونه ـ بأسف ذاكرًا أنّه لو قهر خوفه لانفرد بها فيه ـ على أنّه سأل نفسه «ماذا كنت أقول لها؟».. هَبْهُ كان تشجّع وحيّاها وردّت هي تحيّته بابتسامة أو كلمة أو إيماءة ـ بصرف النظر عن أنّ التحيّة في ذاتها مشكلة فلم يكن يدري ما الأوفق أن يقول: صباح الخير.. سعيدة.. السلام عليك إلخ ـ هَبْه حيّاها وردّت تحيّته فماذا كان يقول بعد ذٰلك؟!.. أيصمت حتّى يفترقا عند شقّته؟. أم ماذا يقول العاشقون في أمثال هٰذا الموقف؟. ألا ما أكثر العاشقين!. ولشدّ ما يتهامسون ويتناجَوْن في الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة؟.. وعاد إلى حجرته ممتلئًا أسفًا، بَيْد أنّه كان على هٰذا فرحًا مسرورًا، بل كان ثملًا بنشوة سرور لم تعهد القلوب ألذّ منه، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنّها رمته بنظرة نداء ـ وهي من معجزات السرور في شريعة العاطفة ـ وهي خليقة بأن يسرّ لها سرورًا خالصًا لا شأن له بحيائه ولا بحسرته!، ولاحت منه نظرة إلى النافذة ـ وقد غدا يدعوها نافذة نوال ـ فحنّ قلبه المنتشي إلى أن يرسل بنظرة إلى الشرفة، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحًا ومصباح الحجرة مضاء والفتاة واقفة على عتبة الباب!.. ما الذي دعاها إلى باب الشرفة في تلك الساعة من الفجر؟.. وكان يرى شبحًا من غير أن يميّز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها، وكذٰلك كان مصباح حجرته فأيقن أنّها لا ترى سوى شبحه ـ وشجّعه ذٰلك على الثبات والتحديق فيها ـ ولم يمتدّ به الوقوف طويلًا

حتّى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته: فأومأت له برأسها تحيّة!.. وغمره الذهول، ولٰكنّه لم يغلب على أمره هٰذه المرّة فحنى رأسه ردًّا على تحيّتها!.. وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة ـ وهو ينظر ـ ثمّ أطفأ النور، ولبث الكهل بموقفه مدّة من الزمن لا يدريها، ولا يدري بنفسه، ثمّ أغلق النافذة، وجثا على ركبتيه واضعًا راحتيه على صدره، وهمس بصوت منخفض «اللّهمّ حمدًا وشكرًا!»...

ـ ١٥ ـ

واستيقظ في صباح اليوم الثاني متعبًا لأنّ السرور ـ كالحزن ـ عدوّ للنوم قديم. بيْد أنّه استهان بتعبه لنشوة صدره وفرحة قلبه، وهل ظفر بمثل ذاك الصباح السعيد منذ عشرين عامًا؟ فغادر البيت منشرح الصدر، بسّام الثغر، خفّاق الشباب النضير، بعد أن أصبح أخيرًا من الزمرة التي طالما رمقها بعين الحسد والغيرة. زمرة المحبّين المحبوبين!، وصفا فؤاده ذاك الصباح فلم تنهشه آفة من آفات البغضاء، واستراح ـ ولو إلى حين ـ من أطياف إخفاقه الجاثمة في ظلمة ذكرياته كالخفافيش، فلم يتوثّب لجدال ولا تحفّز لمعارضة ولا تشاجر مع أحد من الموظّفين، وغمرت مستنقع المرارة الآسن المستقرّ في أعماقه موجة راقصة من الحبور.

وعند عودته ظهرًا وجد خطابًا في انتظاره، عرف خطّ صاحبه من أوّل نظرة ألقاها على الظرف، وهو خطّ صغير جميل يشبه خطّه من جميع الوجوه، فابتسمت أساريره، وفضّ الخطاب ثمّ قرأه حتّى فرغ وقال:

ـ سيأتي رشدي أخي صباح نهار الوقفة.

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال، وإن كانا يعلمان من قبل ـ بالبداهة ـ أنّ الشابّ لا بدّ أن يمضي إجازة العيد في القاهرة إلّا أنّ الخطاب حوى أنباء أجمل ممّا توقّع الوالدان فاستدرك أحمد يقول:

ـ ويقول رشدي إنّه صدر أمر بنقله من أسيوط إلى المركز الرئيسيّ بالقاهرة وسيتسلّم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة!

وسرّ الوالدان سرورًا كبيرًا وقالت الستّ دولت:

ـ سنستقبل عيدين. لهفي على الغلام العزيز، كيف قضى ذاك العام في أسيوط؟

فابتسم أحمد قائلًا:

ـ ادعي الله أن يكون تعوّد حياة غير التي أدمن عليها في القاهرة من قبل!

ثمّ أوى الكهل إلى حجرته وخلع ملابسه واستلقى على الفراش كعادته ليقيل حتّى الأصيل أو حتّى ميعاد الحبّ ـ كما ينبغي أن يُسمّى منذ اليوم ـ فشغله الخطاب ردحًا من الزمن عن النوم وعن إحساسات اليوم السعيدة، وامتلأت نفسه بذكريات شقيقه الأصغر.

يندر أن يستثير إنسان من العواطف المتباينة ما استثاره رشدي عاكف في صدره أخيه الأكبر من علل السخط ودواعي الحبّ. فإنّه طالما استوجب سخطه منذ أجبره واجب كفالته على التضحية بمستقبله (وعبقريّته!)، ثمّ أسخطه في فتوّته بتكالبه على الشهوات وإقامته على اللذّات وإعراضه عن النصح. ولٰكنّه من ناحية أخرى أحبّه أكثر من أيّ شيء في الدنيا. أحبّه لأنّ الشابّ آثره بحبّ فاق ما يكنّه لوالديه من الحبّ والإجلال، وذكر له دائمًا رعايته وكفالته أجمل الذكر، وأحبّه لأنه صنعه بيديه. غذّاه بروحه وربّاه بماله فكان الشقيق الأكبر وكان الوالد الحنون، تمتّع بطفولته ورعى صباه ووجّه تعليمه ثمّ عدّ تجاحه بعد ذٰلك ـ بعد تعب ولأي وعثرات ـ ثمرة كفاحه، ومفخرة جهاده، ومذكّرًا دائمًا بتضحياته. وفضلًا عن هٰذا جميعه، كان الشابّ ذا شخصيّة خليقة بأن تحبّ، كان لطيفًا خفيفًا مرحًا، ورث عن أمّه تلك المقدرة التي تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلّف، لما طبع عليه ـ كلاهما ـ من الجمال والصفاء والوفاء وحبّ العشرة والألفة. ولكن واأسفاه أخطأه الاعتدال والرزانة والحكمة، وجرت الحياة في أعصابه زاخرة جامحة، فاستأدته غرائزه الجهد الجهيد، ودفعته قفزًا

ووثبًا بغير رادع. وقد كان منذ البدء جسورًا مقتحمًا متمرّسًا بالحياة. ذٰلك أنّ الذي وكل برعايته، أخاه، ظلّ دائمًا مصفّدًا بأغلال التدلّل والخوف، فمال إلى الاعتماد على الطفل الذي يربّيه - فيمن يعتمد عليه - في قضاء حاجاته، وابتياع لوازمه واستعارة كتبه، فاكتسب الصبيّ خبرة بالدنيا واعتمادًا على النفس وجسارة ورجولة، وصارت حاجة راعيه إليه لا تقلّ عن حاجته هو إلى راعيه. ولٰكنّه عرف الدنيا وجال فيها بغير المبادئ الحقيقة بأن تعصمه من زلّاتها، فمنذ أن أحيل عاكف أفندي على المعاش انطوى على نفسه تاركًا أمر أسرته لابنه وزوجه، ولم يجد رشدي في هٰذين العزيزين الحزم الذي يرشده ويعصمه، فضلّ السبيل وتخبّط على غير هُدًى، ولولا دماثة خلقه، ورقّة طبعه، لربّما جاوز مفاسد الشهوات إلى مهالك الجرائم . . .

ولكم بشّرت حياته المدرسيّة - في عهديها الأوّل والثاني - بالنجاح، حتّى قال أحمد عاكف إنّ أخاه ورث عنه بعض صفاته العقليّة! ولٰكنّ الحال تغيّر بعد أن صار طالبًا بكلّيّة التجارة. هنالك اعتوره الفساد. فانجذب نحو زمرة من الشبّان ولهجوا جميعًا بمعاقرة الخمر ولعب القمار والتخبّط في بؤر التهتّك، واندفع مع التيّار في جنون. فاستدان مرّات، وأهمل حياته الدراسيّة حتّى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه، ثمّ بلغ ذروة جنونه حين فكّر جدّيًّا أن يقطع حياته الجامعيّة ليتوفّر على تعلّم الموسيقى والاشتغال بالغناء - لا لشيء - إلّا لما بلغه من بوهيميّة المغنّين وحظّهم من ولع النساء، وما عهِدَه في نفسه من رخامة الصوت وحلاوته. ونفد صبر أحمد عاكف فأنذره بالكفّ عن الإنفاق عليه إذا لم يمسك عمّا هو آخذ فيه من المجون والاستهتار، وبلغ منه الغضب أحيانًا أن شعر بأنّه يمقته مقتًا، بل حقد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو عن الأخذ بأسبابها، ويتلهّف حسرة على ألوان منها!. ورغم ذٰلك كلّه لم تنقطع صلات المودّة بين الشقيقين بفضل مواهب الأصغر، فكان إذا شدّ أخوه أرخى، وإذا قطّب ابتسم، وإذا سبّ ولعن تضاحك وقبّل يده أو لثم كتفه، وإذا كوّر له قبضته مازحه في أدب ولين.

ثمّ انتهت تلك الحياة بمعجزة، أجل انتهت بمعجزة والبكالوريوس، ممّا دعا أحمد على أن يقول متهكّمًا: «هٰكذا يحصل الطالب على الشهادة التي تفضّل الحكومة حامليها على أمثالي!؟» بيْد أنّه تنفّس الصعداء، وأيقن أنّ مهمّته قد انتهت، ولم يعد يشغل نفسه - أكثر ممّا ينبغي - باستهتار الفتى بعد أن صار المسئول الأوّل عن حياة نفسه، فصفا بينهما الجوّ، وعاد الحبّ الذي لا تشوبه شائبة كما كانا من قبل - على عهد طفولة رشدي وصباه - بل رفعت الكلفة بينهما فربّما قصّ الفتى على شقيقه المحبوب ما يلقى من تجارب الهوى والحبّ. وكانت له في الهوى أهواء، وفي العشق فنون فعرف الحبّ الآثم والحبّ الطاهر! وتقلّب في مظانّ السوء كما جرى وراء الحسان في السبل والميادين. وضمّ «ألبومه» صورًا لفتيات حسان وقّعن عليها بخطوطهنّ القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة: «إلى خطيبي العزيز رشدي»!». ولم يكن يقصد العذارى بسوء، ولا كان يسيغ الغدر بيسر وسهولة. وحقيقة الحال أنّه كان يقع سريعًا فريسة لعواطفه المشبوبة، فليس أيسر من أن يصير عاشقًا، بل وعاشقًا بصدق وإخلاص، ولٰكن في الساعة التي هو فيها، فلم يحلف كذبًا قطّ، ولٰكنّه حنث بأيمانه مرّات!

فحدث كثيرًا - في هيجان العاطفة - أن بذل وعده صادقًا مخلصًا فكانت خطوبة! ثمّ لم يدُمْ ذٰلك إلّا ريثما تهدأ العاطفة أو يجدّ النوى أو يحدث أمر ما؛ فلم تعرف حياته الهدوء ولا السكينة ولا الراحة، وباتت مرعًى خصيبًا للشهوات والملاذّ. فنالت منه حتّى أعيته ونهكته، فنحف وهزل وصار - على حدّ تعبير والدته - كالعود. وكان أحمد - الذي يحبّه ويشفق عليه - يرمقه بعينين قلقتين ويقول له: «ارحم نفسك» فيجيبه بمرحه المألوف «يرحمنا الله وإيّاكم!». منذ عام انتدبه البنك للعمل في فرع أسيوط فسرّ أهله - على أسفهم وحزنهم - وتعلّقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى في المقام الجديد - مقام غربته - حياة معتدلة غير حياته الأولى تردّ عليه بعض صحّته، وتمسك عليه بعض نقوده،

ولذلك تلقّوا خبر نقله إلى القاهرة بسرور ورجاء، ينطويان على إشفاق...

- ١٦ -

ولم يبق من رمضان إلّا ثلاثة أيّام. وأسف أحمد على اقتراب نهاية الشهر المكرّم، وهل ينسى فضله ورحمته؟.. وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولّى عثار حظّه ووحشة قلبه مع شمسه الغاربة؟ وبات يسائل نفسه تُرى أين يكون الموعد غدًا وماذا تخبّئ الأيّام؟. أمّا الستّ دولت فنشطت هي والخادم لتعدّا حجرة الشابّ القادم من أسيوط. وكانت الحجرة تلي حجرة الوالدين، وتطلّ نافذتها الوحيدة على الطريق المؤدّي إلى خان الخليلي القديم - كإحدى نافذتي حجرة أحمد - فكنست الحجرة وغسلت ثمّ فرشت وباتت تنتظر القادم في أجمل صورة. ثمّ أخذت المرأة أُهبتها لخوض غمار معركة موسيقيّة - لغزو ابنها أحمد كالمعتاد - لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يحلو لها أن تسمّيه، فانتهزت فرصة انفرادها بالرّجل بعد الإفطار وراحت تودّع رمضان بكلام طيّب مترحّمة على عهده وختمت كلامها قائلة:

- لم يَبْقَ إلّا يومان، وبات الإنسان يشمّ رائحة الكعك الطيّبة في الجوّ!

وكان يتوقّع مثل ذاك الكلام، ويعلم أنّ المعركة آتية لا ريب فيها، وأنّه مغلوب على أمره مهما قال وتشكّى، ولكنّه لم يتعوّد أن يضحّي بقرش قبل أن يريح ضميره بالدفاع عنه فقال متذمّرًا:

- في مثل هذا الزمان لا يتشمّم الناس رائحة الكعك، ولكنّهم يسألون الله الستر، وأن ييسّر لهم ضرورات الحياة. أمّا أنتِ يا نينة فلن تزالي متلهّفة على الكماليّات التافهة غير راحمة جيبي، يا هوه ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء!

فحدجته بنظرة تأنيب وإغراء، ثمّ أرعشت حاجبيها المزجّجين في ابتسام وقالت:

- آه منك آه. لكم تغضب على أمّك بغير سبب كأنّها غير التي أحبّتك ودلّلتك. أتدّعي الفقر وأنت الخير والبركة.. أتتناسى أنّه جاءت نوبتك لتدلّل أمّك؟ ولن أشقّ عليك يا زين الرجال فنحن نرضى بالقليل إكرامًا لك!

وعلم أنّها لن تيأس أبدًا! ولن تني حتّى تظفر بسؤالها فتأوّه قائلًا:

- أف... أف..

- أف لعيد بغير كعك. أنستقبل العيد بلا كعك وأنت رجلنا!؟

- الكعك فرحة الأطفال.

- والرجال والنساء، والعيد عيد الناس جميعًا. ألم ترَ إلى أبيك كيف جهّز نفسه بعباءة جديدة يصلّي بها العيد؟.. وكيف ابتعت أنت بدلة وطربوشًا وحذاء مباركة عليك باسم الرحمٰن؟.. أمّا سروري أنا بالعيد ففي العجن والنقش ورشّ السكّر والحشو بالعجميّة.

* * *

وفي الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سمته إلى محطّة مصر ليكون في انتظار الشابّ القادم. وكان الجوّ رطبًا ولكنّه محتمل البرودة فجلس على أريكة على «رصيف الصعيد» ولم يَبْقَ على قدوم القطار سوى دقائق. وتولّاه ما يتولّاه عادة من القلق إذا وجد بمحضر القطر المردة فرآها تنفث الدخان وتطلق الصفير الحادّ. ولم يكن استقلّ قطارًا قطّ ولا غادر حدود القاهرة، ولا هزّته رغبة في يوم ما إلى الارتحال والسفر، فتخيّل السجن أخفّ على نفسه من الإقامة في بلد نازح. ولا شكّ أنّ جفوله من ملاقاة العالم الخارجيّ هو الذي بثّ في روحه كراهية الأسفار، ولكنّه كان يفسّر تلك الكراهية - كعادته في تفسير كلّ ما له شأن بسلوكه وطباعه - بأنّها سجيّة المفكّر الذي يحبّ المعنويّات ويزهد في المحسوسات، ألم يعش أبو العلاء رهين المحبسين؟. وخفّف من غلواء قلقه سروره بمقدم رشدي، شقيقه وابنه! وما ينتظر من معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده، وما يحدثه محضره من ألوان التسلية والبهجة. وما لبث أن رأى الرءوس تتطلّع نحو الجنوب، والنشاط والحركة يشملان المكان فنظر مع الناظرين فرأى القطار قادمًا

متمهّلًا، وما عتّم أن ذاع ضجيجه فاهتزّت له جوانح الأرض، وملأ منظره الأعين. وأخذ يقترب رويدًا رويدًا وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلّعة حتّى وقف شاغلًا الرصيف الطويل وهرع نحوه المنتظرون. وجرت عينا الكهل على النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتّى ظفر بضالّته في مقدّمة عربة من عربات الدرجة الثانية، وكان الشابّ القادم يعطي حقيبته لأحد الحمّالين، فهتف أحمد باسمه ولوّح له بيده وهو يدنو من العربة. فالتفت الشابّ إليه، ثمّ قفز إلى الأرض فصار تلقاء شقيقه. وسلّم الأخوان بحرارة، وشدّ أحمد على ذراع الشابّ قائلًا:

ـ حمدًا لله على السلامة. كيف حالك يا رجل؟!

فقال الشابّ بسرور وقد تورّد وجهه المتعب من وعثاء السفر:

ـ الحمد لله يا أخي.. كيف أنت؟.. كيف الوالدان؟

وسارا جنبًا لجنب نحو الخارج يعلوهما البِشر. كانا ذَوَيْ طول واحد ونحافة متشابهة، ولا يخطئ الناظر إليهما أنّهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر، فملامحهما متقاربة. إلّا أنّها بلغت في وجه رشدي مداها من الحسن، وحال بينها وبين ذٰلك في وجه الآخر إمّا انحراف أو تجهّم أو إعياء. فلرشدي أيضًا ذاك الوجه الطويل النحيل ولٰكن ليس له خدًّا أحمد الذابلان، وسمرته ـ وإن اعتورَها شحوب ـ صافية يجري فيها ماء الشباب، وعيناه مستطيلتان متباعدتان إلّا أنّ حدقتاهما أوسع، ونظراتهما أنفذ، والتماعهما خاطف يدلّ على حدّة المزاج وروح الفكاهة والجسارة. سارا متكاتفين، وسرعان ما شعرا بدبيب الرغبة في الكلام يتحرّك في أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان. ثمّ اهتدى الشابّ إلى حديث فسأل أخاه:

ـ قبل كلّ شيء كيف حال نينة؟

ـ كما تحبّ أن تكون. وما زالت تجري وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بإرهاقي، فتقدّم يا بطل وخذ نصيبك!

ـ لم أنسَ نصيبي وأنا في أسيوط فابتعت لها حليًا عاجيّة وطباقًا فاخرة وبخورًا لطيفًا أرجو أن يوافق «أسيادها» (وضحك ضحكة عالية)... وأبي؟.. كيف حاله؟

ـ كعهدك به.. عبادة في البيت، وزيارات لبيوت الله، وها قد أدنتنا الظروف من سيّدنا الحسين فطوبى له!

فقال رشدي مبتسمًا:

ـ لَكَمْ أدهشني انتقالكم إلى الحسين!

وهنا بلغا فناء المحطّة ريثما استقلّا عربة، ونقد الشابّ الحمّال أجرته ثمّ سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تخترق ميدان المحطّة المترامي الأطراف فأجال الشابّ فيه عينيه العسليّتين الجميلتين، فتخاطفت السيّارات والعربات والترامات والمارّة ناظريه، فنقر بإصبعه على جبهته وقال:

ـ يكاد رأسي يدور، وكأنّي أرى الترام والمترو لأوّل مرّة. أتذكر نادرة الريفيّ الذي جاء مصر لأوّل مرّة فلمّا أشرف على هٰذا الميدان ريع وفزع، ثمّ تراجع إلى القطار وهو يقول متأسّفًا: «جئت متأخّرًا فأهل البلد يرتحلون!».

فضحك أحمد الذي تلذّه فكاهة الشابّ ونوادره وبساطته. ومن حسن الحظّ أنّ رشدي لم يكن «جامعيًّا» بالمعنى العميق ـ فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته ـ وإلّا لوجد فيه نوعًا من «أحمد راشد»، وأجمل من هٰذا أنّ الشابّ كان من المخدوعين في ثقافة أخيه فظنّه عالـمًا متفقّهًا وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر. أمّا أحمد فسرّ بإيمان شقيقه به، ورأى فيه رمزًا حيًّا لإيمان الجامعة المصريّة بعبقريّته العصاميّة!. قال الشابّ بحماس:

ـ القاهرة نعمة من نعم الله، هي الدنيا والدين، الليل والنهار، الجحيم والجنّة، والغرب والشرق. كان النقل معجزة!

ـ لا بدّ أنّك ضقت ذرعًا بأسيوط!

ـ كما ينبغي أن أضيق ذرعًا بأيّ مكان غير القاهرة!

فتفحّصه بنظرة ثاقبة وقال:

ـ السجن مفيد لأمثالك، ومع ذلك فإنّي لا أرى آي الراحة في وجهك!

فابتسم الشابّ عن أسنان بيضاء منتظمة وقال كالساحر:

ـ إذا اجتمع موظّفان في بلدة كانت مائدة القمار ثالثهما!

فتنهّد أحمد قائلًا:

ـ أقُضي أن تُحرم من نعمة النوم أبدًا؟!

ـ نعمة النوم؟!.. النوم في الحقيقة نقمة!.. إنّه اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة!

ـ أنت لا تدري ممّا تقول شيئًا!

ـ أنت يا أخي رجل حكيم، وأنا شابّ مجنون، وهٰذه هي فلسفة المجانين.

ـ إذًا ستعود إلى...

ـ بإذنه تعالى!... قابلت في أسيوط رجلًا مولعًا بالضحك كان يقول إنّ غذاء الصحّة الحقيقيّ هو المرح، فإذا صحّ ذٰلك فالعربدة من أنفس الفيتامينات!

ـ وإذا لم يصحّ؟!

ـ فلنَدْعُ الله أن يكون صحيحًا. ولٰكن قل لي متى كنت سمينًا؟!

ـ أنت تَعلم أنّي لا أكفّ عن التفكير والدراسة!

ـ هٰذا حقّ. وربّما كانت النحافة ـ أيضًا ـ طبيعة في أسرتنا!

ـ ووالدتك؟!

فضحك رشدي حتّى بدت نواجذه، وخلع طربوشه عن شعر لامع ينشقّ وسطه عن مفرق أبيض جميل، وقال وقد رقّق الحنان نبراته:

ـ ولٰكنّها صناعة العطّار! كم شاقتني رؤيتها! أما تزال تذكر الزار؟

فقال أحمد بتأفّف:

ـ كفّت عن ذكره صراحة، ولٰكنّها ربّما شكت ـ عرضًا ـ قسوة مَن حالوا بينها وبينه!

ـ أمّنا لطيفة كالملائكة لأنّها لا تغضب، ولا أكاد أذكرها إلّا راضية أو ضاحكة.

فابتسم أحمد، واستطرد رشدي:

ـ والعفاريت عقيدة وإن لم يتّفق لي رؤية أحدها على طول عهدي بالطرقات المقفرة في الهزيع الأخير من الليل.

ـ الإنسان هو شرّ العفاريت. انظر إلى الحرب!

فضحك رشدي، وذكّرته الحرب بأمر الانتقال من السكاكيني، فقال:

ـ هٰكذا أجبرنا الإنسان العفريت على هجر حيّنا القديم، يا عجبًا.. ألا تعلم يا أخي بأنّه لم يسبق لي أن رأيت خان الخليلي هٰذا!

فنبّه ذكر «خان الخليلي» في قلب الكهل سرورًا عميقًا، وهزّ نفسه حنانًا فقال:

ـ ستراه صباح مساء!

ـ أكان الحال خطيرًا لحدّ أوجب الهجرة؟

ـ نعم كان. وحسب كثيرون أنّ الغارات ستستمرّ بوحشيّة تودي بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام ووارسو، ولٰكنّ الله سلّم. وكان الوالد في إعياء خطير فلُذْنا بالفرار!

فهزّ الشابّ رأسه أسفًا، ولاحت منه التفاتة إلى الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه إلى شارع الأزهر! فدعا منظره مواعيد غرام لا تنسى، هفّت على قلبه كما تنسّمت ريح على جمرات ناعمة، فابتسمت أساريره وهزّه الطرب. ثمّ استطرد متسائلًا:

ـ وكيف وجدتم المقام الجديد؟

لو طرح عليه هٰذا السؤال قبل لما وسعه الكلام ذمًّا وقدحًا، أمّا الآن!!

ـ انتظر حتّى تراه بنفسك يا رشدي، وستألفه ولو بعد حين.

ـ والجيران؟!

ـ أوه... غالبيّتهم من أهل البلد ولٰكنّ كثيرين من سكّان العمارات الجديدة من طبقتنا!

ـ وهل وجدت فيه مكانًا صالحًا للتفكير والدراسة؟

فسرّه السؤال، كما ينبغي أن يسرّه كلّ ما يذكّره بأنّه «مفكّر». وقال:

ـ يقول المثل «البس لكلّ حال لبوسها» ولذٰلك تجدني أفضّل أن أمضي أوّل الليل في القهوة مع بعض

الصحاب الجدد حتّى إذا كفّ الراديو أو سكتت الضوضاء عدت إلى حجرة الدراسة!

فضحك رشدي قائلاً:

ـ أعرفت أخيرًا الطريق إلى المقاهي؟

فقال الأخ مبتسمًا:

ـ تلك مقتضيات المقام الجديد!

ووقفت العربة عند مدخل خان الخليلي، فغادرها الرجلان وتبعهما الحوذيّ حاملاً الحقيبة. ولـمّا ولجا التيه قال أحمد:

ـ انتبه جيّدًا إلى ما يحيط بك، واحفظ المسارب عن ظهر قلب وإلّا ضللت في معارجها!

واقتربا من العمارة، ورأى أحمد أمّه تطلّ من نافذة حجرته فلكز شقيقه في ذراعه مشيرًا إلى النافذة، فرفع الشابّ رأسه فوجد أمّه وقد عصّبت رأسها بمنديل بنّيّ وأخذت زينتها كأنّما هي عروس تتصدّى لعريسها، وما إن التقت عيناهما حتّى فتحت له ذراعيها لتدعوه إلى حضنها. وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البضّتين في عناق حارّ.

ـ ١٧ ـ

وجلسوا جميعًا حول المائدة ـ وقد جاء أبوه أيضًا ولثم الفتى ظاهر يده ـ وأخذوا بأسباب الحديث في شوق ولذّة، فتكلّم الشابّ عن أسيوط وأهلها والغربة والحنين إلى الأهل والوطن، وتكلّم الأب عن الغارة والمشاعل التي أسقطتها الطائرات، وحدّثته أمّه عن جاراتها والمعلّم نونو وأزواجه الأربع، ثمّ لاحظت المرأة أنّ وزنه لم يزد رطلاً واحدًا، وانتقلت إلى الكعك فبشّرته بأنّه سيأكل كعكًا لذيذًا لن يذوق مثله أحد في مصر جميعًا، ثمّ سارت أخيرًا بين يديه إلى حجرته. وعندما خلا الشابّ إلى نفسه لم يعد يحاول إخفاء استيائه فلاحت أماراته في وجهه الجميل، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلي، فلمّا دخل الشقّة هاله ضيقها، وأيقن أنّه لن يطمئنّ له جانب في هٰذا المقام الجديد، وضاعف من سخطه أنّ أصحابه جميعًا في السكاكيني وما حوله وأنّه سيرغم ـ بعد قضاء سهرته بينهم ـ على قطع طريق طويل إلى هٰذا الحيّ ثمّ التخبّط في طرقاته ليلاً وهو ثمل! ونفخ من الغيظ، ووطّن نفسه على حمل آله على العودة إلى بيتهم القديم أو إلى آخر قريب منه مهما كلّفه ذٰلك. ثمّ فتح حقيبته واستخرج ما فيها، ومضى يهيّئ صوان ملابسه مترنّمًا ـ كعادته ـ بإحدى أغنيات عبد الوهاب، وغيّر ملابسه ثمّ غادر الحجرة إلى الحمّام ـ وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيّقة ـ فاستحمّ بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصَبه، وعاد إلى حجرته أجمل منظرًا وأطيب نفسًا، وأغلق الباب وراءه ـ ليعلو صوته بالغناء إذا أراد ـ وفتح النافذة ودهن شعره بالفزلين وسرّحه بعناية فائقة، وتعطّر بعطر البنفسج الأثير لديه فصار في أحسن حال. وانجذب نحو النافذة فدلف منها ليرى على أيّ منظر تطلّ. فرأى الممرّ الضيّق في أسفل يؤدّي إلى خان الخليلي القديم، واعترض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثاني، فضاق صدره وخال أنّه رُمي به إلى أعماق سجن. أين من هٰذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكيني حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب ظباء اليهود، وتنهّد محزونًا، ثمّ أجال بصره في ما حوله، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من عل ـ على جناح العمارة المواجهة له ـ انفتحت على مصراعيها، وظهر فيها وجه فتاة، وجه حسن تزيّنه عينان تقطران خفّة وسذاجة، فالتقت عيناهما، وفي نظرة إنكار من ناحيتها ونظرة تفحّص ـ تفحّص الصائد لصيد اعترضه ـ من ناحيته، ثمّ شقّ عليها تفحّصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت في استحياء فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسطت أسارير وجهه متأثّرًا بملاحة محيّاها وتحيّر نظرتها العذبة، ولم يزايل مكانه ولا حوّل عينيه عن النافذة منتظرًا عودتها، لأنّه من الطبيعيّ ـ في نظره ـ أن تحاول معاودة النظر إلى جارها الجديد ذي النظر العارم بغير تردّد ولا حياء. ولبث على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد، حتّى ظهر رأس الفتاة مرّة أخرى في حذر، فالتقت العينان خطفًا، ثمّ

تراجعت الفتاة فيما يشبه الضجر، فضحك ضحكة خافتة وتحوّل عن النافذة مبتسمًا راضيًا، ثمّ جلس على كرسيّ مكتبه الصغير مغمغمًا «هٰذا أوّل شيء حسن نصادفه في حيّنا البائس!» وتفكّر قليلًا وهو ينقر بأصابعه على مكتبه وقال لنفسه «هي جارتنا بغير شكّ. . . . وحجرتها جارة لحجرتي!» واستدعى صورتها فأقرّ لها بالحسن والخفّة، وسرّ بها سرور إنسان بشيء نفيس صارت ملكيّته إليه. وكان في الحبّ ذا ثقة بنفسه لا حدّ لها، ثقة مرجعها السير من فوز إلى فوز، وبطانتها صبر طويل وإرادة لا تلين ولباقة في الطبع والصنعة، فربّما صبر ـ دون أن يكفّ عن الإلحاح والسعي والمطاردة ـ يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر وعامًا ـ إن شئت ـ بعد عام حتّى يظفر ببغيته. ومن أقواله المأثورة في الغزل «لا يجوز لمن يتصدّى للحبّ أن يعرقل (جهاده) بالحياء أو بالجزع أو بالخوف، انْسَ كرامتك إذا كنت في أثر امرأة. لا تغضب إذا عنّفتك ولا تحزن إذا سبّتك، فالتعنيف والسبّ من وقود الحبّ. وإذا ضربتك امرأة على خدّك الأيسر فأدِرْ لها خدّك الأيمن وأنت السيّد في النهاية!» وقد حمله الهوى يومًا على مغازلة فتاة شموس ذات صون وإباء فلمّا أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء «أنا رذل سمج بارد لحوح، هيهات أن تقصيني نظرات التأديب أو كلمات التأنيب، كلّا ولا الضرب ولا الشرطة، وسأرغمك على تكليمي اليوم أو غدًا أو بعد عام أو بعد قرن، فاختصري الطريق ما دامت النهاية محتومة!» هٰكذا كان. وقد جلس متفكّرًا يسائل نفسه: تُرى أيّ نوع من الحِسان هي؟. . أجسورة مستهترة يشقّ على المغرم ترويضها؟. أم محنّكة مجرّبة يستحيل اللعب بها؟. . أم ساذجة حييّة تجشّم الصبر محبّها؟. وما من شكّ في أنّ خان الخليلي يغدو محتملًا لطيفًا بفضل هٰذه الأنثى وشبيهاتها. ثمّ وضع راحتيه حول قذاله كمَن ينوي الصلاة وتمتم قائلًا: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، نويت الحبّ، والله المستعان!».

واعتزم الحبّ حقًّا، ولٰكنّه لم يَدُرْ له بخلد أيّ طعنة وجّهها ـ باعتزامه ـ إلى سعادة شقيقه الأكبر الذي يحبّه ويجلّه.

ـ ١٨ ـ

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقّة ـ قضاها في القطار ـ فلم يطرق النوم فيها جفنيه إلّا لمامًا. واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساء، فجلس في الفراش متثائبًا مفتّحًا عينيه ـ لأوّل مرّة منذ عام ـ على نور القاهرة الضاحك. تذكّر أمر نقله من أسيوط فطاب نفسًا واستلذّ الذكر. وكانت تغشى الحجرة سمرة قاتمة فنهض إلى النافذة وفتحها، وذكر لتوّه الفتاة السمراء المليحة، فصعد بصره إلى نافذتها، ولٰكنّه وجدها مغلقة، فغادر الحجرة إلى الخارج وكان أبوه نائمًا، وأمّه تنظّف السمك تهيئة لقليه، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلًا، ثمّ مضى إلى حجرة أخيه. وكان الكهل واقفًا وراء النافذة فلمّا شعر بمجيء أخيه تحوّل عنها بسرعة ـ ولم يدْرِ الآخر كم كلّفه ذٰلك ـ وتلقّاه بابتسامة حلوة، ثمّ جلسا معًا، أحمد على الشلتة ورشدي على الكرسيّ.

وتحادثا حديث أخوين متحابّين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتيتَيْن. ذكر رشدي ما علم قديمًا من رغبة شقيقه في التأليف فسأله:

ـ ألم تشرع في التأليف يا أخي؟

فوخزه السؤال، ولٰكنّه لم يَعْيَ بالجواب فقال:

ـ رأسي مترع بالمعارف، فأيّها أختار وأيّها أدع!. والحقيقة أنّني لو أردت التأليف ففي وسعي أن أملأ مكتبة كاملة؟. ولٰكن ما الداعي لمثل هٰذا الجهد؟. . هل يستأهل هٰذا الشعب التأليف بمعناه الحقّ؟. . هل يمكن أن يهضمه؟ ألا إنّهم رعاع يقرءون رعاعًا!

فقال رشدي وكان يؤمن بما يقول أخوه دائمًا:

ـ خسارة أن تضيع أفكارك القيّمة!

فقال أحمد وكان يؤمن كذٰلك بما يقول، كأنّه نسي ما يدور بينه وبين أحمد راشد من نقاش:

ـ أنا من السابقين لزمنهم، فلا يرجى لي أيّ تفاهم مع الناس، فلكلّ شيء في الدنيا عيوب حتّى التعمّق في العلم!

ـ ولٰكن هل ترضى يا أخي أن يضيع هٰذا الجهد العظيم بلا أثر ينتفع به الناس؟!.

فسرّ الكهل بكلامه سرورًا عوّضه عن ترك النافذة منذ حين، وقال:

ـ مَنْ يعلم يا رشدي؟ فعسى أن أعدل عن استهانتي يومًا ما!

ولبثا يتحدّثان حتّى انطلق آخر مدفع إفطار، ثمّ جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة فقدّمت صحاف السمك التقليديّ وأكلوا هنيئًا وشربوا مريئًا. وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدي بدلته وغادر البيت لا يلوي على شيء. وقد أراد أن يصل إلى كازينو غمرة في الوقت المناسب، أو بمعنى آخر يبلغه قبل أن يتحلّق أصحابه ـ وهم يجتمعون بالكازينو كلّ مساء للشراب ولعب الورق ـ المائدة الخضراء وفي التعجيل حكمة لا تخفى على مَن كان مثله، فليس من شأنه أن يجد مكانًا حول المائدة فحسب، ولٰكنّ اللاعبين ـ كذٰلك ـ إذا انهمكوا في اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل! وأجمل ما يجودون به تحيّة مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق، فإذا اضطرّوا إلى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضمائرهم وسخط سرائرهم. وفضلًا عن هٰذا فالداخل على لاعبين ـ أثناء لعبهم ـ يعدّ يُمنًا على الفائزين وشؤمًا على الخاسرين، فلن يخلو الحال قطّ من أن يجد فريقًا يرمقه شزرًا. وقد اكتسب بعض إخوانه ـ بسوء المصادفات ـ سمعة سيّئة، منهم محامٍ شابّ يقول عنه الصحاب إنّه إذا وجد بقربة من لاعبين خسروا جميعًا ولم يربح أحد!! والمقامرون شديدو الحساسيّة، كثيرو الوساوس، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظّ. وقد استقلّ ترام الأزهر والذكرى ترجع به إلى زمان تلقينه مبادئ المقامرة. كان ذٰلك وهو في أولى سني دراسته بكلّيّة التجارة، فدُعي إلى اللعب على أنّه تسلية بريئة للفراغ. ثمّ رُئي أن يراهنوا على ملاليم، لا لمطمع في ربح، لأنّ الملّيم عملة تافهة، ولٰكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام، وسرعان ما صعدت الأرقام حتّى أتت على ما في جيوبهم جميعًا، واستبدّت بهم شهوة اللعب استبدادًا نسّاهم الوقت والواجب والمستقبل. فالقمار تسلية مخيفة ولذّة أليمة وشهوة مجنونة. هو معابثة الغيب، ومراودة الحظّ، وطرق باب المجهول، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلّع والمجازفة والطمع. ثمّ إنّه بعد ذٰلك صدًى لذاك الشعور ـ شعور كفاحنا اليوميّ ـ المستمدّ ممّا نبذله من قوّة وتقدير في معالجة الحياة، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا، وما نرجوه من الحظّ والظروف الملابسة لنا، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران. ولَكَمْ تمنّى في أحايين كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره!. ومن عجب أنّه ما من مرّة فصل عن المائدة ـ في ختام ليلة متعبة مرهقة ـ إلّا وتمنّى لو يتوب الله عليه، فإذا أزف الميعاد في اليوم الثاني هرع إلى الكازينو لا يلوي على شيء. وهٰكذا تمكّن الداء العضال منهم جميعًا وانقلب القاتلون للوقت ضحايا! وصار واحدًا من المقامرين في عبادة الحظّ والخضوع للطيرة، فربّما قال لنفسه وهو يهمّ بفتح النافذة في الصباح: «إذا لقيت عددًا زوجيًّا من السابلة فالحظّ معي أمّا إذا كان فرديًّا فاليوم خسارة!» أو ربّما حادث نفسه وهو ماض إلى مائدة الإفطار: «إذا وجد فولًا بسمن فاليوم رابح أو فولًا بزيت فاليوم خاسر!». وانقطع تيّار الذكريات عندما غادر الترام، ثمّ استقلّ الترام رقم ١٠، فجرى به في الطرق المؤدّية إلى حيّه القديم، فاستثار حنانه، ولـمّا شارف السكاكيني شعر بألم نبيل ووجد شريف يقرضان في شغاف قلبه، وغادر الترام واتّجه إلى الكازينو، وفي المكان المعهود من الحديقة رأى الأصدقاء ـ أو رأى أشباحهم لأنّ الإظلام كان تامًّا ـ فأدرك أنّه وصل في الوقت المناسب ـ قبل أن يذهبوا إلى بهو اللعب ـ وأخذ يقترب منهم مبتسمًا حتّى صار في وسطهم، فعرفوه وصاحوا معًا:

ـ رشدي عاكف؟. أهلًا بقلب الأسد!

وسرّ بسماع لقبه العزيز ـ وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته ـ وتعانقوا عناقًا حارًّا. وكانوا جميعًا ـ مثله ـ في منتصف العقد الثالث، منهم من زامله في المدرسة أو مَن نشأ معه في السكاكيني، وكانوا جميعًا في المجون والإباحيّة والعربدة شخصًا واحدًا. قال أحدهم:

ـ أهٰكذا لا نراك إلّا مع العيد وقد كنّا لا نفترق ليل نهار!

فقال رشدي ضاحكًا وهو يتّخذ مجلسه:

ـ ستراني منذ الليلة كلّ يوم، أو منذ اليوم كلّ ليلة على الأصحّ!

فسأله آخر:

ـ وكيف كان ذٰلك؟

ـ صدر أمر بنقلي إلى القاهرة!

ـ ولن ترجع إلى أسيوط؟

ـ لا.

ـ الله لا يرجعك!

وسأله ثالث:

ـ وكيف سلوت عن المائدة عامًا طويلًا؟!.. لَكَمْ أوحشتنا نقودك!

ـ لأسيوط موائدها، أمّا عن الأخرى فالشوق متبادل!

ودار الحديث عن أسيوط، حتّى سألهم بلهفة:

ـ كيف تسهرون هٰذه الليلة؟

ـ كالليالي التي سبقتها، سننتقل عمّا قريب إلى البهو الداخليّ..

ـ هٰذا جميل، ولٰكن ماذا تقولون في كأسَيْ كونياك أو ثلاثة؟

ـ أو أربعة أو خمسة؟

ـ أو ستّة أو سبعة؟

ولٰكنّ واحدًا منهم قال مقترحًا:

ـ العيد غدًا فلنؤجّل السكر إلى غد!

ـ لا نؤجّل عمل اليوم إلى غد!

وسأله سائل:

ـ وكيف الفسق في أسيوط؟

فقال رشدي:

ـ أمّا عن هٰذا فلا، هناك عفّة بالإكراه؟

ـ الحال هنا بات قريبًا من الريف، فجنود الحلفاء يلتهمون اللّحوم والفاكهة والنساء!

وقال آخر:

ـ واليهوديّات عرفن أخيرًا مزايا اللغة الإنجليزيّة!

ـ تراهنّ يرفلن في الحرير فإذا اعترضت سبيل إحداهنّ رمتك بنظرة شزراء وقالت لك بلهجة اسكتلنديّة صميمة:

Behave like a gentlman, please,

ـ الخادمات يا سيّد رشدي، سقيًا لعهودهنّ، هجرن المطابخ إلى الكباريهات!

ـ كانت الحرب فرصة طيّبة لاكتشاف مواهبهنّ الفنّيّة!

قال رشدي ـ كالمتحيّر ـ مبتسمًا:

ـ والعمل؟!... هل نشرع في الزواج؟!

ـ إذا طالت الحرب، وازدادت الحال سوءًا على سوء، فلن يبقى أعزب. غير أنا وأنت!

ـ يا إخواني لقد ظلمتم بعض اليهوديّات وبعض الخوادم، والحقيقة أنّهنّ هالهنّ ما رأين من عدم اشتراك الأمّة في الحرب فساهمن في قضيّة الحلفاء بأعراضهنّ!

ـ وبذٰلك صارت المرأة أغلى من السماد!

ـ بل أعزّ من الفحم!

ـ وغدًا إذا وضعت الحرب أوزارها، فماذا يفعلن؟!

ـ تصير المرأة أرخص من اليابانيّة!

ـ ويصير العشق بالجملة، فيصيد الشابّ في ليلة واحدة ثلاث نساء ـ مثلًا ـ واحدة للقبل وأخرى للنجوى وثالثة للمداعبة إلخ...

ـ إلّا إذا تدخّلت الحكومة في سوقهنّ للمحافظة على الأسعار!

وضحك رشدي ضحك إنسان حرم شهود هٰذا المجلس عامًا بغير نقصان. ولبثوا يشربون ويتسامرون حتّى وافت التاسعة فنهضوا إلى بهو اللعب المحبوب. في تلك الليلة ربح رشدي مبلغًا كبيرًا ـ أو هٰكذا يعدّ بينهم ـ فبلغ ربحه في منتصف الثانية عشرة، ثلاثة جنيهات، وأضاف إليها ثلاثين قرشًا حين شارفت الثانية عشرة ـ وهو موعد انتهاء السهر ـ ثمّ انفضّوا من حول المائدة. وبدأ اللعب فرحًا مسرورًا، لأنّه ممّن تقرأ سرائرهم على صفحات وجوههم. وجعل يترنّم بصوت حنون كالمناجاة، ولم يمسك عن الترنّم حتّى حين صاح به أحد الخاسرين: «اصمت يا أخي

فصوتك يهيّج أعصابي!». وعلى أثر انطلاقهم في الطريق اقترح أحدهم قائلًا:

- ما رأيكم في أن نكمل اللعب في بيتنا؟

فقالوا في صوت واحد:

- هو كذلك!

فسأل المقترح رشدي قائلًا:

- وأنت؟

فقال الشابّ ضاحكًا:

- أوافق تحت شرط أن تطلقوا لي حرّيّة الغناء!

ومضوا إلى بيت الداعي في شارع أبو خوذة، وهيّئوا المائدة، واستأنفوا اللعب بنهم لا يشبع. ودفئت الحجرة المغلقة النوافذ بأنفاسهم، والتهب الكحول بأفئدتهم، فتصبّبوا عرقًا، وعندما دقّت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم:

- حسْبكم لعبًا وإلّا قضينا نهار العيد الأوّل نائمين!

فكفّوا عن اللعب، وقد خسر رشدي ربحه جميعًا وثلاثين قرشًا أخرى!

وقال له أحدهم متهكّمًا:

- كيف لم تتمتّع بما منحناك من حرّيّة الغناء؟!

وضحكوا جميعًا، فدارى بكياسته غضبه وجاراهم في ضحكهم. وودّعهم عند ذاك ومضى إلى العبّاسيّة، وقد انقطعت المواصلات جميعًا، مدلجًا من طريق الحسينيّة، ووجد الطريق خاليًا والسكون مطبقًا والظلام جاثمًا. وكان جسده ساخنًا مبتلًّا بالعرق وحلقه يابسًا، فاصطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة - خاصّة - في الهزيع الأخير من الليل. وما عتّم أن سرت في أطرافه قشعريرة باردة، ولسعت البرودة صدره، وزكم منخره. وكانت ليلة السرار وقد احلولك غبشها، وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر النجوم الساهرة، فلاحت المنازل القديمة على جانبي الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة في سبات عميق. وجعل يحدّث نفسه: أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضيّ معهم إلى البيت؟ ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يومًا ما! بيْد أنّ أسفه كان ضعيفًا كإرادته سواء بسواء، فالمقامر المدمن يلقى الخسارة عادة بهدوء ولن يعدو الأمر في نظره التسليم في يومه وعقد الرجاء بغده. وتنبّه إلى طول الطريق وقذارته فتأوّه مغيظًا محنقًا. ولـمّا بلغ مدخل خان الخليلي ذكر وصف شقيقه للطريق «ثاني ممرّ على اليمين وثالث باب على اليسار» وتلمّس سبيله في الظلمة حتّى انتهى إلى العمارة، ومضى إلى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح، وما إن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتّى تذكّر النافذة التي تشرف عليها من عل، وجاد ثغره بأوّل ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل، وطاف بمخيّلته الوجه الأسمر المليح، فتأسّى عن هموم الليلة جميعًا، وتمتم قائلًا: «إذا كان سوء الحظّ مؤلًما فحسنه غير منكور» وغيّر ملابسه، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجه كشكول مذكّراته، جلس ليدوّن خاطرة، قبل النوم....

- ١٩ -

وكان الأب أوّل المستيقظين، فتوضّأ، ثمّ غادر البيت حين الفجر ميمّمًا المسجد لصلاة العيد. فاستقبل أوّل نسمة من نسمات اليوم الجديد، ورأى الفجر الجميل يضجّ بجموع القاصدين، يخوضون أمواجه البنفسجيّة الحالمة مسبّحين بحمد الله العليّ.

وكان أحمد ثاني المستيقظين، فنهض نشيطًا حبورًا، وحلق ذقنه بعناية، وارتدى جلبابًا جديدًا وطاقيّة جديدة. ثمّ وافته أمّه إلى حجرته وقد مشّطت شعرها وأخذت زينتها، فقبّل يدها، وقبّل خدّها، وقبّلت خدّيه، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهيّة، ومضيا معًا إلى الصالة وجلسا جنبًا إلى جنب يتحدّثان وينتظران بقيّة الأسرة، مَن انطلق منها يبتغي مرضاة الله، ومَن يغطّ في نومه غطيطًا. وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل، فدخل عليهم يرفل في عباءته الفضفاضة، وما يزال يبسمل ويحوقل. فمثلا بين يديه، ولثمت الزوجة يده، وفعل أحمد مثلها. فهنّأهما الرجل بالعيد، وجلسوا جميعًا وهو يقول:

ـ كلّ عام وأنتم بخير. ربّنا يجعله عيدًا سعيدًا لنا وللمسلمين كافّة.

ورمى ببصره الذابل إلى آخر حجرة في الشقّة وقال كالمتهكّم:

ـ هل استيقظ الغلام أو أنّه لم ينم بعد؟!

فبادرت المرأة للدفاع ـ كعادتها ـ قائلة:

ـ تأخّر الغلام أمس لأنّه لقي إخوانه بعد فراق عام، ولأنّه عاد بطبيعة الحال ماشيًا على قدميه..

على أنّه لم يطل بهم الانتظار، فانفتح باب الحجرة الأخيرة ومرق منه الشابّ إلى الحمّام الذي يقابله، وأقبل نحوهم ـ قبل مضيّ ربع ساعة ـ يخطر في بيجامته وقد سرّح شعره الأسود، وتعطّر بشذا البنفسج، وبدا وجهه مائلًا للشحوب إلّا أنّه يقطر منه حسن الشباب ورواؤه، وتألّق ثغره بابتسامة حلوة لا يضيء بمثلها في الأسرة إلّا ثغر والدته الطروب. وتجاهل الشابّ ما ينطوي عليه والده من الانتقاد فاقترب منه، وانحنى على يده، وقبّلها باحترام، وانثنى إلى والدته فقبّل يدها وخدّها، ثمّ لثم جبين شقيقه، وبسطت الأمّ راحتها وقالت ضاحكة:

ـ عيديّتي يا سادة وكلّ عام وأنتم بخير!

وقد تعوّد كلّ منهم أن يعطيها نصف جنيه عيديّة. فكانت تفرح بعيديّتها فرح الأطفال، بل تنفقها كما ينفقها الأطفال، فتبتاع ما تشتهيه نفسها من الشيكولاتة والملبّس.

ثمّ أحضرت فطار العيد ـ كعكًا وحليبًا ـ فأقبلوا عليه في غبطة. والصائم يشعر عادة بغرابة وإنكار وحذر وهو يتناول أوّل لقمة صباح العيد، ثمّ يصيب من طعامه جذلًا مسرورًا، فليس أجمل وقعًا في النفس من لحظة سعيدة بين واجب قامت بحقّه وتصبّرت على أدائه وبين تمتّعها بلذّة الجزاء وراحة الضمير. وتناولوا الكعك بأناملهم، وقضموه بلذّة حتّى رسم دوائر من السكّر حول أفواههم، ثمّ أساغوه بالحليب، وما زالوا حتّى شبعوا، وقالت الأمّ بلهجة أسيفة، تكلّفتها لتستوهبهم الثناء والإطراء:

ـ يا حسرتاه على أيّام السلم حين السمن سمن والدقيق دقيق والكعك كعك!

وأدرك رشدي ما ترمي إليه والدته فقال بلباقته المعهودة:

ـ كعكنا لذيذ فلا يَدَعْ لنا حاجة للتحسّر على سواه؟

وتفرّقوا في الحجرات. وعاد أحمد عاكف إلى حجرته وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان، بل كان كذلك منذ كاشفته بتحيّة الوداد ليلة القدر فلم تغب عن مخيّلته قطّ صورة شبحها الرقيق وهي تجود بإيماءة السلام، ولا خمدت بعد ذلك العواطف التي بعثتها تلك الإيماءة الساحرة. فرح الكهل، واستخفّه الطرب، وهيّأ له مرحه وطربه أنّه سيستردّ شبابه الريّان فيخضرّ غصنه الباهت ويجري فيه ماء الحياة الدافق، ويسودّ فوداه، وتغشى صلعته لِمّة فَيْنانة، وتغزر أهداب عينيه فتُكحّل أشفارهما المشربة بالاحمرار بَيْدَ أنّه لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة، وتغيّبت عن موعدها المألوف المحبوب، فلم يشكّ في أنّه الخجل الذي يتشجّع بالظلمة ويفرّ من ضوء النهار، فدرّت أضلعه حنانًا وعطفًا ـ ومَن أدرى به منه بأهوال الخجل ـ وسرّ سرورًا كبيرًا إذ وجد أخيرًا مَن يستتر عنه ـ هو ـ حياء! ولكن هٰذا صباح العيد وقلبه يحدّثه بأنّها لن تبخل عليه بنظرة تسرّ الروح وتحيي الأمل. وها هو يرفع رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعيها والشمس تغمرها فيشي لألاؤها بالوجه الذي أطلّ منها، ولبث ينتظر مُجيلًا بصره في الحيّ الفرحان بالعيد. وقد بثّت روح العيد في كلّ شيء فتراها في الألوان وتسمعها في الجوّ وتشمّها في الهواء، وغدا ذٰلك التيه ـ الذي تحدّه العمارات ـ يرقص فرحًا ويغنّي طربًا ويبعث بحرارة اللذّات. جرى الأطفال هنا وهناك بثيابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة، وتطايرت وراءها الضفائر والشرائط، وهتفت الزمّارات، وفرقعت قنابل السلام ولاكت الأفواه الحلوى والنعناع، وملأت الأناشيد والأغاني الأسماع، واكتظّت المقاهي بأهل المدن والريف، فازدهت الأرض عيدًا والسماء. وتصفّحت عيناه المناظر والوجوه بعقل غائب، حتّى جوزي على صبره أجمل الجزاء، فرأى

فتاته تبرز من باب الشرفة في أبهى حلل، فصعّد إلى وجهها الأسمر الجميل ناظريه. وتشجّع على غير مألوفه فلم يُطرق، وابتسم وفؤاده يغلي من شدّة الخفقان، وأحنى رأسه إحناءة خفيفة، وكانت ترنو إليه بعينيها النجلاوين، فابتسمت ابتسامة حلوة ردًّا على تحيّته، ولم تحوّل عينيها عن عينيه فتولّاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجاعته، ولٰكنّها ابتسمت إليه مرّة أخرى وتراجعت في خفّة حتى اختفت عن ناظريه، فتنهّد بارتياح وسرور. ومنّاه الأمل أن يراها مرّة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولٰكنّ خادمًا جاء متعجّلًا وأغلق باب الشرفة، فشعر بخيبة وأسف. ثمّ ابتعد عن النافذة، وكانت الساعة تقترب من التاسعة فذكر أنّه على موعد مع الصحاب في الزهرة ـ صار أخيرًا من أصحاب المواعيد في القهوات ـ فارتدى ملابسه الجديدة ـ البدلة والطربوش والحذاء والقميص ـ ونظر إلى صورته في المرآة فأعجبته جدّته وأناقته وذكر أيّام شبابه الغابر ـ قبل أن يعبس له الزمان ـ حين عرف دهرًا بالأناقة!. وغادر البيت جذلًا طروبًا، فسار متمهّلًا ثملًا بخمر الأمل والأحلام، يسائل نفسه في حيرة الفرحان: «وماذا بعد الابتسام؟... ماذا بعد يا دهر؟!».

- ٢٠ -

ورجع رشدي إلى حجرته، فأشعل سيجارة وراح يدخّنها وراء النافذة مصوّبًا بصره نحو النافذة المرموقة، متوقّعًا بين آن وآخر أن يلمح جارته الحسناء. وصدقه الأمل فلاحت الفتاة في النافذة بفستانها الجديد وعلى كتفيها معطف رماديّ، إلّا أنّها تراجعت في غير إبطاء كأنّما تفرّ من نظرته الثاقبة. ولمح الشابّ المعطف فخطر له أنّها متهيّئة للخروج، فدلف إلى المشجب بغير تردّد وأخذ في ارتداء ملابسه. وغادر البيت بعد دقائق معدودات وساءل نفسه أين يحسن أن ينتظر؟... وذكر لتوّه الممرّ الضيّق الموصل بالسكّة الجديدة، وسار نحوه مسرعًا، ثمّ توقّف، عند موضع اتّصاله بالطريق، على الطوار. وكان الشارع يضطرب بتيّارات السابلة وقد انحدرت من الدراسة والعربات الكارّو غاصّة بالغلمان والبنات يغنّون ويرقصون ويطبّلون، فلبث في مكانه عينًا على الشارع المائج تنظر في ابتسام وعينًا على الممرّ تترقّب في رجاء. وكان خبيرًا بأمثال ذاك الموقف فلم يساوره الجزع، بيْدَ أنّ الحال لم يقتضيه صبرًا طويلًا فما عَتَّم أن رأى فتاته تبدو في أوّل الممرّ يسير لصقها غلام عظيم الشبه بها. فتشاغل عن النظر إليها بإشعال سيجارة وهو لا يشكّ في أنّها تراه، ولٰكن هل أدركت يا تُرى أنّه ينتظرها؟. ثمّ تبعها عن بعد قريب في طريقها إلى الأزهر فرآها جملة لأوّل مرّة وبدت في السادسة عشرة على أكبر تقدير، متوسّطة القوام رشيقة اللفتات، بيْدَ أنّ وجهها أجمل ما فيها حقًّا، وأجمل ما في وجهها عيناها النجلاوان. ولم يستطع أن ينعم النظر لأنّها بلغت المحطّة مسرعة وصعدت إلى حجرة السيّدات ومعها أخوها ـ على الأرجح ـ فاستقلّ الترام وراء الحجرة مباشرة ليتمكّن من رصد نزولها، وتحرّك الترام وهو لا يدري أين تنتهي به المطاردة!. وجعل يحدّث نفسه: شابّة صغيرة، وجهها ٧،٥ على ١٠ وجسمها ٦،٥ على ١٠، سنعلم بعد حين أيسيرة هي أم عسيرة، وهل تلهو بالحبّ أم تحلم بخاتم الخطوبة؟ سنعلم كلّ شيء في حينه، ولٰكنّها إذا كانت من الحالمات بالخاتم فسيغدو الأمر شاقًّا وربّما مضجرًا أيضًا، على أنّه ينبغي أن نركّز اهتمامنا في شيء واحد قبل أيّ شيء وهو أن نستدرجها إلى الكلام وَلْتَرَ ما يكون!. ووصل الترام إلى ميدان الملكة فريدة فغادروه جميعًا ـ هي وأخوها أوّلًا ثمّ هو ـ ولاحت منها التفاتة على الطوار فرأته على بعد ذراع منها يديم إليها نظراته الجسورة الثاقبة، فحوّلت عنه وجهها، وتظاهرت بالانهماك في محادثة الغلام، ولم يخالجه شكّ هٰذه المرّة في أنّها أدركت أنّه يتابعها عن عمد. ثمّ رآهما يستقلّان أوّل ترام قادم ـ وكان ترام الجيزة ـ فصعد إليه بغير تردّد متسائلًا: «ترى هل يقصدان إلى قريب في الجيزة ليعيّدا عليه؟!» وقرّر في تلك اللحظة أن يهبها اليوم جميعًا عن طيب خاطر ولٰكنّهما غادرا المركبة عند محطّة عماد الدين، فغادرها

مسرورًا وقد أيقن أنّهما ذاهبان إلى سينما. وعبروا الطريق إلى شارع عماد الدين، الاثنان أوّلًا وهو في أثرهما متحفزًا لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرته ما يريد من المعاني إذا هي التفتت وراءها، ولكنّها مضت لا تلوي على شيء ممسكة بيد الغلام الذي هرول ليسير في حذائها، وجعل لا يحوّل عينيه عن ظهرها وساقيها، ويتبيّن حال مشيتها ومواقع قدميها، فوجد من السرور برؤيتها من وراء مثلما وجد لرؤيتها من أمام، وأعطى صورتها الخلفيّة جملة ٨ على ١٠، وتنهّد عند ذلك متذكّرًا وجوهًا أبي الحسن أن تُنسى وقال لنفسه: «حقًّا فشا الحسن في مصر هذا الزمان الحديث». ولـمّا بلغوا ريتز التفتت وراءها فرأت عينيه محدّقتين بها فاستردّت عينيها بسرعة - وفوجئ فلم يسعه أن يضمّن نظرته شيئًا - وحثّت خطاها في اتّجاه استوديو مصر، وأسف على ما فاته من حديث العيون ولكنّه سرّ بالسينما التي اختارتها فتاته - لأنّها كانت تعرض فيلم دنانير - وأدرك أنّ هذه المطاردة أتاحت له لذّتين عزيزتين. وأراد أن يجلس جنبها في الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة في الصفّ الممتدّ أمام شبّاك التذاكر ليتمكّن من اختيار مقعد لصق مقعدها، بينما تنحّى الغلام جانبًا ينتظر متفرّجًا على الصور، وصار منها على قيد خطوة. فخال أنفاسه تمسّ ضفيرتها. فاستثار قربها من صدره إحساسًا شبيهًا بما تستثيره رائحة زكيّة عميقة، وتتبّع أنملتها وهي تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة، فرأى إلى يمين الكرسيّين مقعدًا شاغرًا وإلى يسارهما ثلاثة، وتساءل تُرى إلى أيّ ناحية تجلس الفتاة؟.. وأجرى في سرّه على الناحيتين القرعة المعروفة: «حطّة يا بطّة يا ذقن القطّة عمّي حسن... إلخ». فرست «حداه» على المقعد الأيمن فاختاره فيما يشبه الاطمئنان. وتحوّل عن الشبّاك وأجال بصره فيما حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثرًا، بيد أنّه لم ينزعج فالتذكرة في يده، وهي خليقة بأن توصله إليها مهما ضلّ عنها، ولا يدري كيف ذكّره هذا - قوّة التذكرة - بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهتزّ صدره الرقيق، ودخل السينما منفعلًا. ومضى به الدليل إلى مقعده وهو يرجو أن تكون «حداه» قد صدقته الهداية، ولكنّه رأى الغلام يجلس بينه وبين أخته! ورأته الفتاة قادمًا فطرفت عيناها ارتباكًا وتجنّبت أن تحوّلها إلى جهته! وجلس الشابّ في ثقة وسرور، واسترق إليها النظر مرّة ومرّة فوجدها في المرّتين شاخصة إلى ما أمامها، واستشفّ من تورّد خدّها وارتباك هيئتها ما يخامرها من حياء واضطراب، فأشفق عليها، ورأى عن حكمة ألّا يشقّ عليها، فجعل يتسلّى بإحالة بصره بين البناوير والألواج والمقاعد مزجيًا تحيّات المودّة إلى الصدور والنحور والثغور والمعاصم ولم يَطُلْ به المطال فدقّ الجرس ثمّ أطفئت الأنوار، وانحسرت الشاشة عن دنيا الأحلام. وطاب له المجلس في الظلمة على كثب من الفتاة التي أضمر لها غزلًا - وإن لم يخفق لها فؤاده بعاطفة بعد - حتّى غرّد الصوت الإلهيّ بأغنية النبع «طاب النسيم العليل» فغفل عن الوجود. وكان يحبّ الغناء حبًّا خيّل إليه يومًا أنّه خلق ليكون موسيقيًّا، فتسلسل الفيلم وهو هائم في نغمة روحيّة عالية. وانتهى العرض وأضيئت الأنوار ونهض النظّارة. والتفت رشدي نحو الفتاة فرآها واقفة مغمضة العينين تفاديًا لتأثير النور الباهر بعد طول الاستسلام للظلمة، فانتظر حتّى فتحتهما على نظرته العارمة! وعُني خارج السينما بملاحظة أصابع يديها فعلم أنّها ليست مخطوبة، وابتسم لذلك ابتسامة ارتياح. ثمّ تعقّبها في العودة بنفس العناد الذي تعقّبها به في الذهاب، إلّا أنّه تثاقل عن متابعتها في الأزهر كيلا يشي بسرّه لأحد من أهل حيّه الجديد. وعاد إلى البيت فوجد الأسرة في انتظاره للغداء. وما عتّمت أن دعتهم أمّهم قائلة بلهجتها المرحة:

- هلمّوا إلى طاجن العيد....

- ٢١ -

وعادت نوال إلى البيت وقد بلغ منها التأثّر، راحت تسائل نفسها: ما لهذا الفتى الجسور لا يكفّ عن مطاردتها مذ وقعت عليها عيناه غداة الوقفة؟

جاوزت نوال في ذاك الوقت السادسة عشرة بقليل.

وكانت ذات حسن يستحقّ الإعجاب. وتحلّى حسنها بميزتين لا يُستهان بهما: السذاجة والخفّة ولكن أيّة سذاجة، وأيّة خفّة؟ السذاجة التي توحي بها بساطة الجمال، والتي تطالعها في الحدقة الصافية الواسعة ـ في غير مبالغة ـ والنظرة المستقيمة، بَيْد أنّها ليست سذاجة الغفلة أو البلاهة. وخفّة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح، فلا هي إلى الطيش والرعونة تنتسب، ولا من حدّة الذكاء وبراعته تستمدّ. وهي سمراء، وكثيرًا ما تقول أمّها إنّ السمرة روح الجمال ومصدر الخفّة، ولكنّها كانت في الحقيقة من عشّاق اللون الأبيض. ولذلك أخذت تعالج نحافة ابنتها بعقاقير السمن لاعتقادها بأنّ السمن يكسب البشرة إشراقًا. وقد تقدّمت الفتاة في دراستها الثانويّة تقدّمًا يبشّر بالنجاح، ولكنّها انضمّت في الواقع إلى قافلة العلم، وليس العلم ما تنشد، ولا المدرسة بالمأوى الذي يهفو إليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعدّ أمّها أستاذتها الأولى تتلقّى عنها فنون الحياة المنزليّة من طهي وحياكة وتطريز، وما رأت في العلم يومًا إلّا زينة تحلّي بها أنوثتها وحلية تُغلي من مهرها. فتركّزت حياتها في هدف واحد: القلب أو البيت أو الزواج. أليست أوّل دعاء دعيت به «العروس»!.. وأنّه لأجمل دعاء، وأنّها لتتلهّف على أن تكونه، وترقب حظّها في صبر ورجاء. ولذلك قدّست الزواج قبل أهليّتها له بدهر طويل، وأحبّت «الرجل» وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد مَن يجنيها. وكان الأستاذ أحمد راشد المحامي أوّل رجل ـ من غير محارمها ـ يتّصل بها عن كثب لإعطائها الدروس. وتلقّته منذ أوّل مقابلة باستحياء، ورمقته بعين ملؤها التطلّع والرجاء، فلم يتمثّل لعينيها «أستاذًا» بقدر ما تمثّل لها رجلًا! ولان قلبها وأوشكت الحياة تنبض به. بَيْد أنّ الشابّ المحامي كان صارمًا رزينًا أكثر ممّا ينبغي، وعجزت كلّ العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقيّة وراء عويناته السوداء. ولـمّا تعقّب تهاونها بالتأنيب بدا لعينيها مكفهرًّا مخيفًا فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه. وكثيرًا ما كان يحدّثها بكلام لا تفقه له معنًى ولا تجد له طعمًا مثل قوله لها مرّة: «يخيّل إليّ أنّك لا تحبّين العلم كما يجب وإن لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبّيه كما تحبّين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الإنسان، وينبغي أن يتغذّى به عقلك ويتمثّله كما يتغذّى جسمك بالطعام ويتمثّله. أين الشوق إلى أسرار الوجود؟.. أين اللهفة على المعرفة؟.. لا يجوز أن يتخلّف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول..» وفي مرّة أخرى سألها: «عَلامَ نويت بعد البكالوريا؟.. أما عرفت بعد العلم الذي ترغبين في دراسته في الجامعة؟» وهالتها كلمة «الجامعة». أيمتدّ بها عهد الدراسة حتّى الجامعة؟! وأجابته باقتضاب: «لا أدري». فقال لها الشابّ ممتعضًا: «أما زلت عند موقفك السلبيّ من العلم؟!» ولم تفطن إلى أنّه يريد أن يصوغها على المثال الذي يحبّ فحسبت أنّه يحتقرها ويزدريها فاشتدّت منه جفولًا.

ثمّ جاء أحمد عاكف الجديد. وقالت الأنباء إنّه أعزب. وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أنّ عينيه تسترقان إليها النظر فتحرّك قلبها نحوه كما تتحرّك الراحتان نحو مجمرة في ليلة شديدة البرد والزمهرير. وقالت لنفسها: إنّه رجل جاوز حدود الشباب. ولكنّه ما يزال في عنفوان الكهولة. ولا بدّ أن يكون موظّفًا محترمًا لأنّه غالبًا ما يصير الموظّف ـ في مثل عمره ـ محترمًا وأيّما كان فلن يسعها أن تغضي عن نظراته الحييّة التي يرسلها إليها في أدب وتردّد، ولا أن تجد لذلك من معنًى غير الوداد، وإلّا ففيمَ يثابر على الانتظار والنظر أصيلًا بعد أصيل؟! على أنّها تساءلت في حيرة: لماذا لا يخطو خطوة جديدة؟. هلّا ابتسم إليها؟.. هلّا أومأ بتحيّة؟!. تُرى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء؟!.. وإذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباها في الأمر؟ أو لماذا لا يكلّف أمّه بمهمّة خطبتها؟!. وكانت نوال حييّة وفي حاجة إلى مَن يطاردها، فأوقعها حظّها على كهل في أشدّ الحاجة إلى مَن تطارده!. إلّا أنّ شجاعتها لم تخُنْها ـ خاصّة بعد أن يئست من شجاعته ـ فبدأته بالتحيّة من شرفتها وتلقّت ردّه

الجميل، وحدّثها قلبها بأنّ الأمل المرموق قد بات قريب المنال. . . .

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقّة، بل من الحجرة التي تواجه حجرة نومها، وأدركت من النظرة الأولى أنّ الشابّ الجديد أخو صاحبها الكهل، ولكن أين كان قبل اليوم؟. . وما باله يرميها بتلك النظرة القويّة الجسورة التي دعت الدم من جميع أطرافها إلى خدّيها وحملتها على الفرار؟!. يا له من شابّ نضير جمّ المحاسن جذّاب المنظر! ويا لها من نظرة ثاقبة ترعش القلب!، ولكن يا تُرى أهذا شأنه مع كلّ حسناء؟. . أم جذبه إلى وجهها شيء لا عهد له به؟. . . وهل يقيم في هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يختفي فجأة كما ظهر فجأة. . وقال لها قلبها إنّ مثل هذا الشابّ خير من ذاك الكهل بغير جدال، ولكنّ الكهل لم يعد غريبًا، فبينها وبينه تحيّة متبادلة، وهو المفضّل إذا طلب يدها، وما ينبغي أن تنسى أنّ بينهما عهدًا صامتًا لا يلبث أن يصير ـ إن شاء الله ـ زمرًا وطبلًا وثريّات لألاءة ورملًا فاقعًا يسرّ الناظرين؛ وفي صباح العيد ارتدت ملابسها الجديدة، ودعاها قلبها إلى الظهور بالشرفة ليراها الكهل في أبهى حال وأجمل منظر، ووجدته في النافذة في أحسن صورة ممكنة، فذكّرها جلبابه وطاقيّته بأبيها، وتبادلا التحيّة، ثمّ عادت إلى حجرتها، ونازعتها مشاعرها إلى إلقاء نظرة على النافذة الأخرى، فوجدت الشابّ الجميل وكأنّه ينتظرها، فتراجعت أمام نظرته العارمة، وحسبت أنّه لن يتخطّى بجسارته نافذتها، فما راعها إلّا أن تجده بانتظارها في السكّة الجديدة! وتساءلت في الترام ترى هل تبعها أم أنّه وهم ما رأت؟. . ولكنّها علمت بعد حين أنّه يتعقّبها عامدًا، وأنّه ممّن لا ينثنون عن غاية، ومن عجب أنّه نسي وجودها في السينما بترنيم أمّ كلثوم!، أمّا هي فلبثت تشعر بوجوده على كثب منها طوال الوقت!، وعادت إلى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة: «لو أنّ جميع الشبّان في مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج؟» ووجدت قلبها يؤنّبها على تسرّعها ببذل التحيّة للآخر، ولكن هل كانت تعلم الغيب؟ وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا لسمكه طعمًا!. .

* * *

وغادرت الشقّة عصرًا بقصد زيارة حرم سيّد أفندي عارف، وخطر لها أن تصعد إلى السطح ـ قبل القيام بالزيارة ـ لتجول جولة فيه مسرّحة الطرف بين المآذن والقباب، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذّر عليها مشاركة البنات لعبهنّ في الطرقات. ودارت مع السور على مهل متصفّحة المناظر مقلّبة وجهها في الآفاق، وشعرت فجأة بداعٍ يدعوها إلى النظر نحو مدخل السطح، فما راعها إلّا أن تراه هنالك يملأ طوله فراغ الباب وينظر نحوها في هدوء وفي عينيه الجميلتين شبه ابتسام!. واضطرب قلبها لمرآه اضطرابة عنيفة زلزلت صدرها الصغير، وشعرت بخوف وقلق، ثمّ استعادت رباطة جأشها موقنة بأنّ الموقف أحرج من أن تلقاه بالحياء فحسْب، وتعلّقت عيناها وهما تنظران إليه بالإنكار والذهول.

ـ ٢٢ ـ

ثمّ حوّلت عنه عينيها، وولّته ظهرها، وألقت ببصرها إلى الأفق البعيد دون أن ترى شيئًا، وقال لها عقلها إنّه ينبغي أن تزايل المكان إذا أرادت ولكنّها لم تحرّك ساكنًا، وأهاب بها شعور باطنيّ بأن تتجاهل وجوده، وبألّا تعجل بذهابها، فلبثت هي لا تريم، وتولّاها إحساس بالحياء والقلق. وتنهّد رشدي ارتياحًا لما رآه من تفضيلها البقاء على الرحيل، وقال لنفسه جذلًا: «أصابت سنّ الشص مرماها، ولكن ينبغي معالجة البُلطيّة بحكمة ومهارة!». وكان علم بصعودها إلى السطح اتّفاقًا، إذ كان ينظر إلى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحت منه التفاتة على سور السطح، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادًا للخروج إلى سهرته، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص إلى الصعود إلى السطح من فوره، ولـمّا اطمأنّ إلى بقائها تفحّص المكان بهدوء

حتّى أدرك خلوّه، ثمّ سار متمهّلاً إلى موقف قريب منها، ولم تكن تخونه الجرأة الجنونيّة، ولكنّه آثر معها الأناة لما عهده بها من حياء، ورأى على السور ـ في موقع وسط بينه وبينها ـ عمودًا خشبيًّا شدّ إليه حبل الغسيل، ووقعت عليه يمامة، فرفع رأسه إلى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه: «مساء الخير يا يمامتي!» ورآها تلحظ اليمامة بطرف خفيّ فابتسم واستدرك: «ما أجمل سمرتك! السمرة حلية الجمال وروح الخفّة، هلاّ سمعت بأغنية السمرة: يا أسمر اللون حياتي الأسمراني»؟ وأنصتت الفتاة إليه ـ وإن تظاهرت بعدم المبالاة ـ بأذنين مرهفتين، وطاب لها صوته، فابتسمت ابتسامة باطنيّة لم ترسمها شفتاها، ثمّ غلبها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها، وجعل هو يقول محدّثًا اليمامة: «كيف لا تردّين تحيّتي؟.. كيف تعرضين عنّي؟.. بل كيف اندسّت القسوة إلى هذا الحسن الرقيق؟!». وتساءلت أما ينبغي أن تمضي إلى حال سبيلها؟ ألا تخاف أن يصعد البوّاب أو بعض السكّان إلى السطح فيريبه من موقفها ما يريبه؟ أيها مسّ يشدّ قدميها إلى الأرض؟! واستدرك رشدي قائلاً: «ألا تعلمين يا يمامة أنّي جارك؟.. وأنّ السماء الرحيمة لن تستطيع أن تغيّبك بعد اليوم عنّي؟ وأنّي سأكون دائمًا حيث تكونين!». وعطفت نوال رأسها قليلاً كأنّما لترى اليمامة فوجدتها قد طارت! وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة، ولم تعد تجدي مخاطبة اليمامة، فقال لها بهدوء:

ـ سعيدة...

فأشاحت عنه بوجهها مرّة أخرى، وحرّكت قدميها ببطء شديد نحو الباب، فدنا منها جزعًا وقال:

ـ ألا تردّين عليّ؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورّد خدّاها واختلج جفناها، فاقترب منها أكثر من قبل وقال:

ـ أما تجودين بكلمة واحدة؟.. كلمة واحدة، لتكن عذلاً إن شئت، بل لتكن نهرًا!.

ولكنّها حثّت خطاها فهمّ باعتراض سبيلها فقالت له بحدّة مصطنعة:

ـ إليك عن سبيلي!.. واخجلتاه لسلوك الجار!..

ـ هل يعيب الجار أن يتودّد إلى جارته الحسناء!.

ـ أجل..

ـ وإذا أجبره حسنها على أن يتودّد إليها فمن الملوم؟

ـ لا تستدرجني إلى الكلام، وإيّاك وأن تعترض سبيلي..

ولكنّه اعترض سبيلها غير مبالٍ تحذيرها، فتملّكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعه، فلم يسعه اللحاق بها. ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقّة سيّد عارف. لم تكن غضبى ولا مستاءة، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء، وجلست في الشرفة تنتظر ربّة البيت فلم تفارق مخيّلتها صورة محيّاه الجميل، ولا غاب عن سمعها رجع صوته الحنون. وجعلت تستذكر أحاديث أترابها في المدرسة عن جِيَل الشبّان ورسائل الغرام ونوادر الغزل، ثمّ تساءلت تُرى هل تدلي بدلوها منذ الغد في حديث الحبّ الذي لا يملّ؟.. ولكن أيّ أنواع من الشبّان يكون؟!. ونزل رشدي بعد قليل مبتسمًا مسرورًا. ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد، فكأنّما كان يقوم بتمثيل دور محبوب، بيْد أنّه كان كذلك من أولئك الممثّلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجًا يوري القلب ويقدح شرره فإذا هم ضاحكون أو باكون. ثمّ انطلق إلى الكازينو بشهيّة متفتّحة للسرور والشراب والطرب...

- ٢٣ -

ومضت أيّام العيد فلم تقع عينا أحمد عاكف عليها مرّة أخرى، وحسب أنّها في شغل بالعيد وملاهيه فدعا لها قلبه بالسرور، وكان كلّ مطمعه أن تراه في البدلة الجديدة التي فصّلها خاصّة إكرامًا لها، فقال لنفسه: إنّ البدلة لا تبلى في أيّام وسوف تراه يومًا ما حتمًا وهو يرفل فيها. وشغل هو كذلك بعطلة العيد وإن كان أنفقها جميعًا في قهوة الزهرة بين الصحاب، ما عدا سليمان بك عتّة الذي سافر ليعيّد في قريته، ومن عجب حقًّا ألّا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام

العشرة والصحبة، وذلك لأنه كان يتطلّب في الصديق سجيّتين لا تجتمعان: أن يدين له - هو - بالتفوّق والأستاذيّة، وأن يكون مثقفًا - ولو لحدّ ما - ليتمتّع بصداقته، ولكنّه غالبًا ما يجد نفسه بين اثنين: واحد عامّيّ - أو في حكم العوامّ - يعجب بشخصه ويؤمن بعقليّته، وآخر مثقّف لا يذعن لمشيئته ويجادله جدل المعتدّ بنفسه المتحدّي غيره، ولعلّه أن يحبّ الأوّل كما يمقت الثاني، ولكن لا هٰذا ولا ذاك بالصديق المنشود. وقد أحبّ المعلّم نونو، وكمال خليل، وسيّد عارف، ومقت أحمد راشد، ولكنّه ظلّ بغير صديق، أو كان شقيقه رشدي الصديق الوحيد في دنياه المحبوبة..

مضت إذًا أيّام العيد دون أن تقع عليها عيناه. ولكنّه لم يكفّ لحظة عن التفكير فيها، ولا انقطع عن إدامة النظر في ما جدّ في حياته من أمور. ألم تحدث عاطفة، ويستيقظ قلب، ويبتسم أمل؟! ألم تحدث عاطفتان، ويستيقظ قلبان، ويبتسم أملان؟!. لقد أحبّ بعد أن حُرم من الحبّ زهاء ثلاثين عامًا، وأحبّ بقلب آذن شبابه بوداع، فهو يستمسك بالحبّ كآخر أمل مُرَجًّى في سعادة الدنيا، وجاء الحبّ عفوًا بعد أن أشفى على اليأس، ورجّع فؤاده النغم القديم فتيًّا نديًّا عذبًا كأنّه بعث من جديد. فوجب أن يفكّر في أمره، ويقبل على تدبير شأنه. ومضت أيّام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير، فهٰذي الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيبها، وتجود له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظّه، فلن يحجم ولن يتردّد، وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم في وحدته: «الزواج!» أجل، ولكنّه في الأربعين وهي دون العشرين، فهو في سنّ أبيها، ولكن ما وجه الإنكار في ذاك؟.. ألم تعلن له بميلها إليه - وقد خفق فؤاده للذكرى - ألم يختره قلبها؟.. وأمّا صديقه كمال خليل فيرجّح أن يرحّب بيده، وإنْ لم يَخْلُ الأمر من دهشة، وتخيّل أنّ القوم راحوا يتحرّون عنه فعلموا أنّه (في الأربعين، كاتب بمحفوظات الأشغال، درجة ثامنة - فهو من المنسيّين في الحكومة كما أنّه من المنسيّين في الدنيا - مرتّب خمسة عشر جنيهًا!) ألا ينزعج كمال خليل الذي يحسب أنّه من رؤساء الأقلام؟.. ألا تقول الستّ توحيدة - أمّ نوال - إنّ عمره كبير ومرتّبه صغير؟!.. وعضّ عند ذاك على شفته، وعاوده شعور الأسى واليأس: وأوشك أن يثور به الغضب، وأن يقول كما قال مرّة في مثل هٰذه المناسبة: «إنّ الدنيا جميعًا لا تساوي زنتها قذارة إذا سوّلت نفس لصاحبها أن يستهين بي؟». ولكنّ توثّبه لتجربة حظّه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب، فطرد عن فكره خواطر اليأس، واستعاد سروره ودواعي الأمل والسعادة من حياته الجديدة.

وانقضت أيّام العيد الثلاثة وهو يفكّر التفكير الذي يسبق العمل مباشرة، وجاء يوم الجمعة الأوّل بعد العيد ولـمّا يحقّق شيئًا من أفكاره، بَيْد أنّه رآها صباح ذٰلك اليوم لأوّل مرّة، بعد مرّة أوّل أيّام العيد، وسرّ فؤاده المشوق. كان اليوم من أيّام نوفمبر الأولى، والجوّ رقيق منعش تسري في تضاعيفه من آن لآن هبّات نسيم بارد، والسماء تغشاها غلالة من سحاب ناصع البياض ينضح بنور الشمس المتوهّج، ففتح النافذة - نافذة نوال - ورفع رأسه، وما يدري إلّا وفتاته تطلّ عليه كالأمل النضير والحلم السعيد، وحيّاها بابتسامة وإيماءة، فردّت تحيّته مبتسمة، ولَكَمْ عشق ابتسامتها، ولبث يملأ عينيه عن سمرتها الصافية. وخطر له وقتذاك أن يحاول تفهيمها بالإشارة - وعلى قدر المستطاع - أنّه يوشك أن يحدّث والدها بشأنها، ولكنّها سبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنّما تقول له إنّها ترغب أن تنام، وأشارت على رأسها وقطّبت ثمّ لوت شفتيها تعني أنّ رأسها موجع، ثمّ حنت له رأسها وتراجعت مولّية. وأسف على فوات الفرصة، ولكنّ تصميمه تضاعف، وأراد أن يدخّن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة، فمضى إلى حجرة رشدي ليأخذ منه سيجارة، وكان الباب مواربًا فدفعه بهدوء ودخل، ورأى شقيقه مرتفقًا النافذة شاخصًا إلى أعلى، مستغرقًا حتّى إنّه بلغ نصف الحجرة قبل أن ينتبه الشابّ لمجيئه، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التي يتطلّع إليها أخوه، وأن يلمح حال توسّطه الحجرة

رأس نوال ـ دون غيرها ـ وهو يرتدّ بسرعة البرق! وانتبه رشدي إلى مجيء شقيقه ـ باختفاء الفتاة الذي هو بالفرار أشبه ـ فالتفت وراءه، ثمّ ابتسم للقادم بترحاب وبوغت أحمد مباغتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعًا عليه من انفجار القنابل ليلة الغارة، فزلزلت صدره ـ الذي جاء به مثلجًا مطمئنًّا ـ قلقلة جنونيّة صدّعته كما ينصدع السحاب بشرارة البرق القويّة الخاطفة، ولٰكن لم يغب عنه تحوّل الشابّ إليه، فأغضى بصره ـ ببداهة الغريزة وسرعتها ـ ليخفي عينيه، وأهاب بقوّته الكامنة ليحافظ على هدوء مظهره، وتكلّف ابتسامة، ثمّ نظر إلى الشابّ الذي أقبل نحوه مبتسمًا ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء:

ـ سيجارة من فضلك!.

واستخرج رشدي علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدّمها لأخيه، فتناول الرجل سيجارة شاكرًا، وحيّاه برفع يده إلى جبينه، ثمّ قفل راجعًا..

- ٢٤ -

وردّ باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئًا من الذهول، ورمى بالسيجارة إلى فراشه، ثمّ اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية، ثمّ أطرق مقطّبًا وأغلق النافذة بشدّة طقطق لها الزجاج، وعاد إلى الفراش وجلس على حافّته مغمغمًا: «غاب عنّي أنّ هناك نافذة تطلّ مثل نافذتي على هٰذه الشرفة، حقًّا غاب عنّي ذٰلك!» وكأنّ دمه استحال نفطًا يمدّ قلبه بألسنة من لهيب. ألم يَرَها وهي ترتدّ فزعة لدى ظهوره؟، فهل غير الشعور بالإثم أفزعها؟ أو ما الذي دعاها إلى النافذة بعد أن أوهمته أنّها ذاهبة لتنام؟ فليس وراء ذٰلك كلّه سوى معنًى خبيث يتخايل خلفه البشع خلف خداع الآمال الباطلة، ومن عجب أنّه لم يمض على حضور شقيقه إلّا عشرة أيّام، ففي أيّام معدودات تغيّر كلّ شيء ـ وشعر عند ذاك بصفعة ـ فكفر قلبه بهواه، وصارت ابتسامة الترحاب خدعة رياء، تُرى كيف تحدث هٰذه الانقلابات؟ أتقع في يسر وهوادة كأنّها لا تعرك ضحاياها؟ أمّ أنّها تلقى ما هو خليق بها من التردّد والألم؟ أكانت تلعب بهما؟ أيمكن أن تنكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيّئ وخبث وعِر؟! ولماذا إذًا بادلته التحيّة منذ دقائق؟ أهو الحياء والحرج أو أنّه المكر والحيطة؟».

أمّا الشابّ فلا يدري من الأمر شيئًا، إنّه بريء من دمه، ولعلّ أنّه رآها فراقته فغازلها كعادته فاستمالها فهويته، بنظرة وإشارة نسيته، وهل خطره أكبر من ذٰلك؟! نسيت الكهل الأصلع الفاني، فلا يلومنّ إلّا نفسه، ألم يكن له في ما اكتسب من معرفة بحظّه وسوء ظنّه بدنياه، وبالمرأة خاصّة، ما يحرز به نفسه من غوائل الأمل وومضات السعادة والكواذب؟. ونهض قائمًا وقد اشتدّ شحوب وجهه ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق، وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابًا ما بين الفراش والمكتبة حتّى عراه دُوار فعاد إلى مجلسه من الفراش، وراح يتساءل: أيرضى أن يستبقا ـ هو وأخوه ـ في مضمار منافسة واحد؟ وثار كبرياؤه وشمخ بأنفه، مُحال أن يتنازل لمنافسة إنسان، فالمنافسة الحقّة لا تثور إلّا بين أكفاء! ومحال كذٰلك أن يطلع شقيقه على سرّه فكبرياؤه تأبى عليه أن يستجدي السعادة أو يستوهب الحبّ. وخليق بمَن كان مثله أن يترفّع عن هٰذه الصغائر ـ الحبّ والفتاة والظافر بهما ـ فهو أكبر من هٰذا جميعه، ولٰكن ما بال الألم لا يرحم كبيرًا؟!، لماذا لا يعرف هٰذا الألم القتّال قدره فيتوارى؟!، كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب؟. وإلامَ يئنّ ويتوجّع!، الحقيقة أنّه مدّ يده ليجلو عروسه فتكشّف له قناعها الموشّى عن جمجمة ميت!. ورأى بعين خياله صورتها المزدوجة، هو بشبابه الريّان وهي بعينيها النجلاوين، فوجد ألمًا وإباء وعجرفة قاسية، تُرى لماذا يحول رشدي دائمًا بينه وبين سعادته وما أحبّ إنسانًا مثله قطّ؟ فهو الذي أجبره ـ قبل عشرين عامًا ـ على التضحية بمستقبله ليقف حياته على تربيته، وها هو الآن يجني ثمرة سعادته ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة!. واستولى عليه الغضب وتقيّحت نفسه بالسخط والحنق، وثار

بركانه في عنف ودويّ، ولٰكنّ الكراهية لم تجد سبيلًا إلى نفسه، لم يكره أخاه لحظة واحدة، حتّى وهو فريسة الثورة في عنفوانها. إنّ حبّه له أصيب بنوبة وقتيّة أفقدته وعيه، فأغمي عليه ولٰكنّه لم يمت، بل لا يشعر نحوها ـ وهي الخليقة بالاتّهام ـ بكراهية أو مقت، وإن بدا سخطه كأنّه لا نهاية له. ثمّ خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقًّا، فولّت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة، مخلّفة وراءها حزنًا عميقًا لا يتزحزح ويأسًا خانقًا لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة، لم يتحسّر عليها ولم يأسف، ولٰكنّه شعر بهوان وخجل؟.

وأنشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنّه يحدّث نفسه: «برح الخفاء ولا مفرّ من الحقيقة، أنت رجل سيّئ الحظّ، بل هٰذا قول دون الواقع بكثير، فالحقّ أنّ الدهر نصبك هدفًا لسهام الخيبة والإخفاق، ووكل بك قوّة شيطانيّة فظيعة تلقف من سبيلك كلّ فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة إذا أنت تحسب أنّه لم يعد بينك وبين الرجاء إلّا كلمة تقال أو راحة تبسط، وما تكاد أن تمدّ حجرك لتلقّي ثمرة دانية حتّى ينقضّ عليها طائر الشؤم الكاسر، فيلتقطها بمنقاره ويطير بها، وتوشك أن تصعد قمّة هرم من المحاولات فيندكّ عاليه سافله ويلقي بك إلى غور سحيق. آفاقك تلتمع ببروق الأمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عابس، هل يوجد في الدنيا إنسان مبتلًى بمثل عناد حظّك العاثر!! الناس يخطون الخطى باسمي الثغور ما بين ممتّع بصحّته، وهانئ بأسرته، وراضٍ بمكانته، وسعيد بماله، فأين أنت من هٰؤلاء جميعًا؟!

لا صحّة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال!، في البدء قصم ظهرك عثار أبيك، وبدّد آمالك حدبك على شقيقك ثمّ أعقم مواهبك العقليّة ببيئتك الجاهلة؟، ماذا يتبقّى لك من أحلام دنياك؟، ذهب الشباب فلم ينجب حتّى ذكرى جميلة تتفيّأ ظلّها في هجيرة العمر، وها هي الكهولة تطعن بك في ما وراء مشارف الشيخوخة، فكيف تحتمل هٰذه الحياة العقيمة؟ إنّ الرجل ليطلّق الزوجة الوفيّة إذا عقمت، ففيمَ احتمالك دنيا، لم تعقم فحسب، ولٰكن تورث الألم والضنى؟! . . لماذا وجدت في هٰذه الدنيا؟ أما من نهاية لهٰذا الألم الممضّ وذاك الملل المسقم؟ . . ثمّ ماذا أجدى عليك هٰذا العقل؟ وماذا أفدت من المعرفة؟ حلّقتك بهٰذه الآلام جميعًا إلّا ما أغلقت الكتاب إلى الأبد وحرقت هٰذه المكتبة العاتية، ولخير لك أن تدمن على مخدّر يذهل العقل عن الوجود حتّى يتداركك الذهول الأكبر. الحياة مأساة والدنيا مسرح مملّ، ومن عجب أنّ الرواية مفجعة ولٰكنّ الممثّلين مهرّجون، من عجب أنّ المغزى محزن، لا لأنّه محزن في ذاته ولٰكن لأنّه أريد به الجدّ فأحدث الهزل، ولمّا كنّا لا نستطيع في الغالب أن نضحك من إخفاق آمالنا فإنّنا نبكي عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة، ونتوهّم أنّ الرواية مأساة والحقيقة أنّها مهزلة كبرى!» وصمت قليلًا متفكّرًا، متجهّم الوجه، منقبض الصدر، ثمّ نهض قائمًا في وثبة عنيفة وقال بشيء من الحدّة: «إلى الكهف المظلم، كهف الوحدة والوحشة، إلى القبر البارد، قبر اليأس والقنوط، لقد ركلتني الدنيا وهي الدنيّة ولأركلنّها وأنا المتعالي، إن الخصيّ أزهد حيوان في المرأة فإذا استأصلت من نفسي كوادب الآمال سُدْت باليأس الدنيا جميعًا، فإلى كهف الوحشة نتزوّد من ظلمته غشاوة تحجب عن أعيننا خدع الحياة!!».

والتفت بعنف نحو النافذة ـ نافذة نوال ـ التي أغلقها منذ حين وقال بغضب:

ـ غلقًا إلى الأبد . . غلقًا إلى الأبد!

ـ ٢٥ ـ

ورأى أن يذهب ـ كعادته صباح الجمعة ـ إلى الزهرة، ووجد حزنه حافزًا يدعوه للذهاب إلى هناك ابتغاء الوسيلة إلى التسلّي عن حظّه. وأخذ يرتدي بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فصّلها ولماذا تكلّف ثمنها فنفخ من الغيظ والحنق. وغادر الشقّة. ولدى نزوله السلّم تذكّر الصباح الأوّل له في العمارة وكيف التفت وراءه فرأى عيني نوال لأوّل مرّة، فكيف يمكن اتّقاء الشقاء المقدّر ما دام يبدو في حلل آمال مشرقة وألوان ناضرة؟ على أنّه لم يغب عنه أنّ ما يعانيه من أحاسيس

الألم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذّة، لذّة دفينة غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها. وسار في الطريق بقدمين متثاقلتين متفكرًا في ما يجلبه إعراض بنت قاصر على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكبر عليه، وجعل يقول لنفسه كالساخر: «واخِزْياه، كيف أمكن هذا؟!.. بنت مقمّطة تفعل بي كلّ هذا.؟! كيف سَمَتْ بي إلى نضرة النعيم ثمّ ردّتني إلى أسفل الجحيم! وما جدوى الحكمة إذا عبثت بها جراثيم الشهوة هذا العبث المُزري؟! ألم يكن من الأفضل ـ غفرانك اللّهمّ ـ أن نخلق خيرًا من هذا؟. وإذا كانت الدنيا جميعًا تمسي ظلامًا ويبابًا لمحض أنّ جرثومة ـ تنقض الوضوء ـ استاءت أو أخفق لها أمل، أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها؟!».
ثمّ انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله إلى القهوة، ووجد الصحاب جميعًا قد سبقوه إلى هناك ـ إلّا سليمان بك عتّة الذي لم يعد بعد من بلدته ـ ووجد معهم المعلّم نونو وكان من عادته أن يغلق دكّانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة إلى ما بعد صلاة الجمعة. أمّا عبّاس شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلّم زفته غير بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الأسطوانات بينما أخذ الرجال في الحديث. وأراد كمال خليل أن يُشرك القادم في الحديث فقال له متسائلًا:

ـ وما رأي الأستاذ أحمد عاكف في الغناء، أيفضّل القديم أم الحديث؟!

ويل الشجيّ من الخليّ! ولكن ألم يجئهم ملتمسًا العزاء في لغوهم؟! بلى. وإذًا فليدلِ بدلوه وليكوننّ من الشاكرين، وكان مغرمًا بالغناء ـ وهل تلد أمّه إلّا مغرمًا بالغناء؟ ـ إلّا أنّه يفضّل القديم وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة وبوحي النشأة الأولى. فقد سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحيّ والمنيلاوي فاختلس نظرة من خصمه أحمد راشد المخبّأة معارفه وراء نظّارته السوداء، ثمّ قال:

ـ الغناء القديم هو الطرب الذي يأسر نفوسنا بغير عناء!

فصاح المعلّم زفته بسرور «الله أكبر» وصفّق المعلّم نونو ثلاثًا، أمّا سيّد عارف فتساءل:

ـ وأمّ كلثوم وعبد الوهاب؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى:

ـ عظيمان في ما يردّدان من وحي القديم تافهان في ما عداه!

فقال سيّد عارف:

ـ أمّ كلثوم عظيمة ولو نادت ريّان فجل!

فقال أحمد عاكف:

ـ أمّا صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنّيّة!

فقال كمال خليل:

ـ الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقى الإفرنجيّة!

والظاهر أنّ الشابّ المحامي كان راغبًا عن الجدل فقال بغير اكتراث:

ـ رأيي في الغناء رأي غير خبير، والحقّ أنّي قليل الاهتمام بالغناء!

وأبى المعلّم نونو إلّا أن يناقش رأيه، فقال بصوته العريض الأجشّ:

ـ يا إخواننا، أمّة محمّد ما تزال بخير. هل سمعتم ولو مرّة إنجليزيًّا ـ وهم بين ظهرانينا أكثر من نصف قرن ـ يغنّي يا ليل يا عين؟!. والحقيقة أنّ مَن يفضّل أغنية إفرنجيّة كمَن يشتهي لحم الخنزير مثلًا!

وكان المعلّم زفته قليل الكلام لانشغاله في الغالب بعمله، ولكنّ الموضوع استفزّ اهتمامه فقال بصوت دلّت مخارجه على أنّ صاحبه قد فقد ثنيتيه على الأقلّ:

ـ اسمعوا القول الفصل: أجمل ما تسمع الأذن سي عبده إذا غنّى يا ليل وعليّ محمود إذا أذّن الفجر، وأمّ كلثوم في إمتى الهوى. وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب!

وأشفق أحمد عاكف من أن يتغيّر موضوع الحديث من غير أن يتفلسف فقال:

ـ إنّ الإعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسيقى الإفرنجيّة وحي من تقليد المحكومين للحاكمين كما

يقول ابن خلدون!

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته، ولم يستثره هجوم أحمد عاكف، فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحدّ. ثمّ تحوّل مجراه إلى سليمان بك عتّة بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أنّ الرجل تأخّر بالبلد أكثر من المعتاد، فقال سيّد عارف متضاحكًا:

ـ أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه.

فقال عبّاس شفة بإنكار:

ـ عمّا قريب يصير عروسًا يا هوه!

فاستدرك سيّد عارف قائلًا بأسف:

ـ أمّا العروس كريمة يوسف بهلة فوالله ما رأت عيني أجمل منها قطّ!

فتساءل أحمد عاكف:

ـ أما يُدرك صاحبكم أنّه لولا الطمع في ماله ما رضي به أحد زوجًا؟!

فقال عبّاس شفة:

ـ بغير شكّ. فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق!

وامتعض أحمد من هٰذا الوصف، وشعر بأنّه ينطبق عليه من أكثر من وجه، لا شباب ولا جمال ولا أخلاق. وأضاف عليها من عنده «ولا مال!». ثمّ أطرق هنيهة غارقًا في الكآبة التي كان انتشله منها لغو الحديث. وخاف أن يستأثر به الحزن فخاض الحديث مرّة أخرى متسائلًا:

ـ وما الذي يحمله على الاستسلام لطمع الطامعين؟

وهنا التفت أحمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قلّ أن يصطنعها في حديثه:

ـ وما الداعي إلى العجب في ذٰلك؟ أليس المال كالشباب والجمال من المزايا التي تحبّب الرجل إلى المرأة؟ لعلّ المال أن يكون أبقى على الدهر من الآخرين!

وسرعان ما أقلع الشابّ عن السخرية وقال بلهجته الجدّيّة:

ـ إنّ شيخًا في سنّ عتّة بك لا يطمع في الحبّ الذي يستأثر به الشباب، لٰكنّه إذا ضمّ إليه عروسًا نفيسة أرضى بها غريزة الحبّ المضمحلّة، وغريزة الملكيّة المسيطرة.

فقال عبّاس شفة:

ـ الشباب ينتقل بالعدوى، فالشيخ خليق بأن يكتسب من عروسه روحًا من نضارة الشباب، فلا يبعد والحال كذٰلك أن يتحوّل البيك في القريب العاجل من قرد إلى حمار مثلًا!

فتساءل المعلّم زفته:

ـ هل نفهم من هٰذا أنّ أصله قرد؟!

ولم يوافق المعلّم نونو على التهكّم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال:

ـ العبرة في السنّ بالصحّة لا بالسنين، فأبي تزوّج في الستّين وخلّف وهاكم سيّد عارف أفندي على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فماذا صنع له شبابه؟

وضحك الجميع ـ وعاكف معهم ـ ممّا جعل سيّد عارف يقول:

ـ لا تضحك يا معلّم نونو فعمّا قريب يتغيّر الحال، وقد علمت بأقراص جيّدة تجرّب، وسترى!

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذٰلك، فكان كالسابح الذي تخور قواه وتوهي مقاومته فيغوص تحت سطح الماء. فلم يَدْرِ كيف انتقل بهم الحديث إلى أخبار الحرب، ولا كيف راح سيّد عارف يعدِّد انتصارات الألمان في روسيا، ويذكر بالفخار سقوط فيازما وبريانسك وأوريل وأوديسا وخركوف، واقتحام شبه جزيرة القرم. ثمّ نهض المعلّم نونو للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعًا إلى البيت. ووقف في الصالة هنيهة متسائلًا تُرى أما يزال رشدي ملازمًا حجرته؟. وسار في الدهليز متمهّلًا حتّى دنا من باب الحجرة فشمّ رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب، ثمّ قفل راجعًا إلى حجرته. لأوّل مرّة يمضي رشدي يوم عطلته في البيت! بل الأوفق أن يقول يوم عطلتها، والمرجّح أنّه لم يفارق حجرته وأنّها لم تزايل النافذة، والله يعلم كم تحيّات تبودلت، وكم من بسمات ومضت، وكم من آمال أشرقت. وخلع ملابسه وارتدى الجلباب والطاقيّة، وجلس على الشلتة القريبة من المكتبة. كان مترعًا بالكآبة، ولٰكن خلا قلبه من الغيرة ـ أو الغيرة السافرة على الأقلّ ـ وقال لنفسه إنّ

ما يحدث في الناحية الأخرى من الشقّة لهو أطفال غير حقيق باهتمامه، أهٰذا شعور وقتيّ؟ لا يدري، ولٰكن خيّل إليه أنّه شُفي. وتساءل كيف حدث هٰذا بمثل هٰذه السرعة؟ أكانت عاطفته سطحيّة توهّم أنّها الحبّ؟. واستراح إلى شعوره، ومدّ يده إلى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للإمام الغزالي، فهٰذا أحقّ بتفكيره، وهو من الكنوز التي لا يدري أحمد راشد عنها شيئًا، وفتح الكتاب عن فصل الإلٰهيّات، وحاول مطالعة مقدّمة تقسيم العلوم، ولٰكنّه أدرك بعد برهة قصيرة أنّه يبذل من الجهد في تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذٰلك لذّة متابعة القراءة، فأغلق الكتاب وأعاده إلى مكانه وقال إنّه لا بأس من أن يعفي عقله اليوم مكافأة له على الجهد ـ أيًّا ما كان هٰذا الجهد ـ الذي بذله في سبيل النسيان. كانت عاطفة تافهة، بل كيف كان يمكن أن تسعده تلك الفتاة وهو على ما هو عليه من عقل ومعرفة، وهي على ما هي عليه من بساطة وسذاجة؟! حقًّا أنقذه شقيقه من ورطة كادت تودي به. ومنذ الآن ينبغي أن يفتح عينيه، وأن يقلع بصفة نهائيّة عن التفكير في الزواج، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له!! بيْد أنّ الخيانة ذميمة شوهاء، ألم تغازله؟ ألم ترْضَ به حبيبًا؟ فكيف تغيّرت بمثل هٰذه السرعة التي لا تصدّق؟ ولٰكن هل خلق الله أقبح منظرًا من فتاة ذات وجهين؟! شفي والله ونسي، ولٰكن ما أتفه الدنيا إذا كانت القلوب تنقلب في غمضة عين!! وقطع عليه أفكاره المحمومة صوت دوّى يصيح: «ملعون أبو الدنيا»، فأدرك أنّ المعلّم قد عاد من صلاة الجمعة إلى دكّانه، ونهض مسرورًا بالتخلّص من أفكاره إلى النافذة المطلّة على الحيّ الجديد ففتحها، ووقف وراءها يسرّح الطرف في مناظر الحيّ التي ألفها وملّها، ليتهم ما غادروا السكاكيني، بل وجد نفسه يتمنّى في أعماقه لو أنّ أخاه لم ينقل من أسيوط! فلو لم يحضر لما عكّر صفوه معكّر. وما لبث أن تألّم لتمنّيه هٰذا غاية الألم، إنّه يحبّه ما في ذٰلك من شكّ، ولا يمكن أن يفتر حبّه لأخيه وابنه وربيبه.. ولٰكنّ الغريب المنكر أنّه يحبّه ويكره وجوده معًا؟. لو لم ينقل إلى القاهرة لكان ـ أحمد ـ الآن في عداد الخاطبين.

وما يدري إلّا ونفسه تسكب حنانًا للحياة الزوجيّة غافلة عن هواجسها السالفة! فبدا له أنّ العدد اثنين هو العدد المقدّس. ليس العدد الواحد بالمقدّس كما يقول الفيثاغوريّون ولٰكنّه الاثنان: الإنسان يفقد نفسه في الجماعة، ويغرق في الكآبة في الوحدة، ولٰكنّه يجدها عند أليفه، فالتكاشف الصريح، والحبّ العميق، والألفة الممتزجة، وفرحة القلب بالقلب، والطمأنينة اللانهائيّة لذّات عميقة لا تحدث إلّا بين اثنين. وكم ملّ من الكآبة، وضجر من الوحشة، وكره الفراغ، وهٰذه نفسه تنازعه مشوقة متلهّفة إلى الحبّ والحنان والألفة والمودّة. أين ثغر يبسم إليه مشرقًا بالعطف؟ أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة؟ أين صدر يرضع منه قطرات الطمأنينة ويعهد إليه بطويّته؟ وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع إلى الفراش محسورًا وهو يحرّك رأسه بعنف، كأنّما ليصدّ عنه أحاسيس الحزن والخور، وليستردّ حقده وصرامته وغضبه وإيمانه الوحشيّ بالوحدة والعجرفة والتعالي عن العواطف البشريّة. وقد تبرد الغيرة، وتخمد العاطفة، أمّا ما يمسّ كبرياءه فيحدث حتمًا قرحة لا تندمل، وكيف تندمل وكلّما التأمت قشرها غروره الأعمى؟! ولذٰلك جعل يقول قارضًا أسنانه: «ينبغي أن تدرك ـ الفتاة ـ أنّني تنازلت عنها بغير مبالاة ألبتّة!».

ـ ٢٦ ـ

واستيقظ غداة السبت متعبًا بعد ليلة مسهّدة، فهو يؤدّي ثمن اليقظة التي فرح بها قلبه، وإن كانت يقظة قصيرة، وأيًّا ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مُرَجًّى، أين اليهوديّة الحسناء وحبّها المثاليّ؟! فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضي ويبلع الذكريات، ولٰكن لا ريب أنّه ممّا تطيب به نفسه ألّا يعبأ شيئًا، أو أن يتظاهر بذٰلك على الأقلّ، وأن يريها أنّه لم يكد يشعر بأنّ فتاة هجرته. ومضى إلى الحمّام فوجد باب حجرة شقيقه مواربًا، ولمحه يستكمل ارتداء ملابسه ـ وقد عجب لذٰلك لأنّ الشابّ يستيقظ عادة متأخّرًا عنه ـ بل رآه رافعًا رأسه إلى النافذة الأخرى، فتقبّض قلبه كأنّما أصابته شكّة إبرة، وأسلم

رأسه للماء البارد طويلًا لينعش أعصابه المحطّمة، ثمّ عاد إلى حجرته وارتدى بذلته، وخرج إلى السفرة ليحسو قهوته ويدخّن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة، وكان وطّن النفس على لقاء الشابّ بما يعهده من الأنس به مستعينًا بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه. وأقبل رشدي مرتديًا البذلة والطربوش وابتسم إليه ابتسامته المحبوبة فقال:

- صباح الخير.

- صباح النور.

وعجب أحمد من لبسه الطربوش إذ كان يفطر عادة عاري الرأس فسأله:

- لماذا عجّلت بلبس الطربوش؟

فقال رشدي والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- سأتناول فطوري في الخارج لأنّ لديَّ أعمالًا مستعجلة.

- وما الذي دعا إلى هٰذه العجلة؟

- إنجاز بعض الأعمال المتعلّقة بوظيفتي!

وحيّاه الشابّ - كما حيّا والدته التي كانت تعدّ الطعام - ومضى بقوامه الرشيق وابتسامته المشرقة. ولم يصدّق أحمد أسطورة «بعض الأعمال» فارتاب فيها لأوّل وهلة، وبدا له كاليقين أنّ رشدي بكّر في الاستيقاظ على غير عادته بالخروج من البيت ليلتقي بنوال في مكان ما من طريق المدرسة. هٰذا ما حدسه قلبه المحزون، فهل اتّفقا على ذٰلك حقًّا؟.. وذكر ممتعضًا كيف لبث مرتبكًا جامدًا - مدّة علاقته بها - لا يدري ماذا يفعل؟ أمّا هٰذا الشابّ الجسور فليس في مذهبه بين التحيّة واللقاء سوى غمضة عين. وأعجب بجسارته حقًّا كما أعجب به يخطر أمام عينيه بشبابه الريّان وقدّه الممشوق منذ دقيقتين، إلّا أنّه إعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرّد فلم يَخْلُ من حنق وغضب. فكان كمَن يسبّح بخلود الخالق وهو يرثي فناء المخلوق. وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقّة، ومال إلى قطع شارع الأزهر مشيًا على الأقدام تخفيفًا عن أعصابه المتوتّرة، فالتزم الطوار الأيسر وحثّ خطاه، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحي إليها بالحكمة: «دع بواعث هٰذا الحزن العميق لا تستحضرها إلى وعيك، اقذف بها إلى هاوية النسيان، وإذا كانت القراءة لم ترشدك إلى الحكمة بعد فخُذْها من شخص سعيد كالمعلّم نونو»!. وتمثّل نونو لعينيه بصحّته ومرحه فتأوّه من الأعماق: لماذا يحمّل نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنّه الثور الذي يقولون إنّه يحمل الكرة على قرنه؟! كيف جهل فنّ السعادة هٰذا الجهل المزري؟ ولماذا لا يقصد الضاحكين ويسترشد بهم إلى طريق الضحك والسرور؟ ينبغي أن يفوز فؤاده الكسير بحظّه من السعادة لأنّه من العبث أن تمضي الحياة هٰكذا في كآبة وحزن. وردّد هٰذه الخواطر حتّى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقلّ الترام مكتظًّا فاضطرّ أن يقف بين الواقفين مضغوطًا وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل، وخطر له خاطر غريب مخيف، فتمنّى لو كان من الممكن أن تخلو الدنيا من بني آدم! ولم يَدْرِ إن كانت وقفته هي التي أوحت إليه بذٰلك الخاطر المخيف أم أنّ هناك بواعث أخرى. فقد تمنّى من قبل أو تخيّل أنّه يتمنّى لو تقفر القاهرة إثر غارة! فخجل من خواطره الجهنّميّة التي تحلم أحيانًا بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس!. على أنّه عاد يقول لنفسه متأفّفًا: أليس الغدر ذميمًا كالدمار؟!

- ٢٧ -

خرج رشدي عاكف مبكّرًا على غير عادته، ودون أن يتناول فطوره، يدفعه ما هو خليق بتغيير العادات وتأخير الفطور. ولـمّا انتهى إلى السكّة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة إلى الطريق الصحراويّ المؤدّي إلى العبّاسيّة، فتباطأ قليلًا حتّى اتّسعت المسافة بينهما ثمّ تبعها عن بعد، وكانت على علم سابق باتّباعه لها - كما أنذرها به بالإشارة في النافذة - وكانت أيضًا على رضًى بذٰلك أخفى أكثره الدلال والحياء، وفضح أقلّه - وكان به الكفاية - الابتسام أو مغالبة الابتسام. وكان الزمن المتاح لرشدي قصيرًا حقًّا، ولٰكن زمنه من ذهب وماس،

فلم يكفّ منذ مقابلة السطح ـ بل منذ رآها أوّل مرّة ـ عن رصدها وموالاتها بالمطاردة والغزل حاشدًا لتصيّدها هباته جميعًا من أفانين الشباب والحسن والدعابة والصبر، حتّى ظنّته قطعة من النافذة. ولم يشكّ الفتى في ظفره من بادئ الأمر، ولا شكّت هي فيه!، أو فما معنى مجيئها إلى النافذة كأنّها على موعد، واستسلامها لنظراته، وتصدّيها لبسماته وإشاراته!! فإن كان هناك ظلّ من الشكّ فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضي الأمر!، على أنّها لم تستسلم بغير تردّد، بل كانت خائفة ممّا تنزع بها النفس إليه، وكانت تلوح لها صورة الآخر ـ أحمد ـ فيتولّاها الخجل ويساورها القلق. إلّا أنّها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد المشرق، فتساءلت لماذا يلوح الخوف في عينيه دائمًا؟ لماذا يبدو كالفأر ما إن يسمع حسًّا حتّى يفرّ إلى جحره؟! إلامَ يظلّ جامدًا لا يتحرّك ولا يفعل شيئًا! وإنّها لَعَلى مثل حيائه فتحتاج بطبيعة الحال إلى جَسور يقتحم حياءها، فلم تجد فيه طلبتها أو أنّها أدركت ذٰلك حين وجدت طلبتها الحقيقيّة. هٰذا إلى بَوْن شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة، وجمال صبيح وخلقة قلقة غامضة، ومرح باسم وكآبة موحشة، والحقّ أنّها مالت إلى أحمد لأنّه كان الرجل الموجود، أمّا رشدي فحرّك قلبها المشبوب وأهاج عاطفتها. هٰكذا جازت صبره بابتسامة، وهٰكذا كتبت بهٰذه الابتسامة أوّل كلمة في القصّة الجديدة.

صعدا طريق الدراسة، وانعطفا إلى الطريق الصحراويّ ـ هي سابقة وهو لاحق ـ كان الصباح نديًّا رطيبًا مائلًا إلى البرودة يعابثه نسيم رقيق يهبّ بأنفاس نوفمبر التي تنعي الأزاهر إلى المحبّين، أمّا السماء فسمْتها محمّل سحابًا ناصعًا، يتّصل حينًا، ثمّ يتفرّق في المشرق فيحدث بحيرات ثلجيّة تنضح شطآنها بالشعاع الصاعد من الأفق فتتوهّج أهدابها وتخطف الأبصار. منظر تطمئنّ النفوس إليه إلّا نفسين تفانتا معًا! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها إليه، ولٰكنّ أثر اقترابه بلغ خدّيها فتورّدا، وعينيها الكبيرتين الصافيتين فابتسمتا وهي لا تدري، ثمّ حاذاها حتّى أوشك أن يلامسها، وقال برقّة:

ـ صباح الخير..

فمال رأسها إليه قليلًا ولحظته بطرف متردّد وقالت بصوت خافت:

ـ صباح الخير.

وكانت متأبّطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسمًا:

ـ أتأذنين لي أن أحمل عنك هٰذه الحقيبة؟

فابتسمت بدورها وقالت:

ـ كلّا، لا داعي لذٰلك، فهي خفيفة على كبرها، ولا ضير من حملها ألبتّة.

ـ لا بدّ أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك!

ـ بل يداي تثقلان عليها، لا تعوّدني على الترف من فضلك!

فضحك بسرور صادق وقال:

ـ أليس ممّا يخجل حقًّا أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هٰذه الحقيبة الكبيرة؟!

وأخذ الارتباك يزايلها ويحلّ محلّه الأنس به، فسألته معترضة:

ـ ولماذا تخجل؟ إنّي أحملها كلّ يوم بكرة وعشيًّا!

ـ الظاهر أنّك تخافين أن أخطفها!

ـ ليتك تقدر على هٰذا حقًّا، فإنّها تحوي واجبات ثقيلة أخفّها الحساب!

فضحك مرّة أخرى وقال:

ـ لعن الله علمًا يثقّل عليك!

فابتسمت متشجّعة وقالت:

ـ أتلعن العلم إكرامًا لي حقًّا. أم لعداوة قديمة؟!

ـ بل إكرامًا لك وإن لم يَخْلُ الحال من عداوات قديمة، تُرى ما أحبّ العلوم إليك؟

ـ التاريخ واللغات!

وكان على عكسها يحبّ العلوم والرياضة، ولٰكنّه أبدى سرورًا طافحًا وصاح بعزم:

ـ اتّفقنا والحمد لله!

فعجبت لسروره وسألته:

ـ وما عبرة السرور لذلك؟

فقال بلباقته المعهودة.

ـ كيف غاب عنك هٰذا يا عزيزتي؟. ألم يكن ذٰلك الاتّفاق في الميول العقليّة أصلًا وبشيرًا باتّفاقنا «الروحيّ» الذي نلتقي عنده الآن؟

فتورّد وجهها وطرفت عيناها ـ وهي عادتها إذا تولّاها الحياء ـ ولم تنبس بكلمة، فسألها بإغراء:

ـ ألا توافقينني على رأيي؟

فلازمت الصمت، أو لازمها الصمت على الأرجح، وعاد يقول برفق:

ـ هل أجد في صمتك جوابي المُرَجّى؟

ولحظها، فخالها تبتسم، فخامره الحماس وقال بصوت خافت:

ـ عرفت ذٰلك من أوّل نظرة!

فلم تتمالك أن قالت وفي عينيها ابتسامة صريحة:

ـ أوّل نظرة!

ـ أجل.

ـ شيء لا يصدّق!

ـ ألا تؤمنين بالنظرة الأولى؟

ـ ألا تغالي؟.. أحقًّا ما يقال عن النظرة الأولى؟

فقال بحماس تألّقت له عيناه العسليّتان الجميلتان:

ـ هو الحقّ الذي لا مراء فيه!

فقالت وقد غيّرت لهجتها:

ـ نحن لم نتعارف بعد!!

فأدرك أنّها تحاول الإفلات من الطوق الذهبيّ الذي طوّق جيدها به، ولٰكنّه لم يمكّنها من مأربها وقال:

ـ لا تغيبي عن الحديث، سنتعارف حتمًا بعد حين، أو سنتمّ تعارفنا فلم يَبْقَ منه إلّا اسمي. ولٰكنّي أريد أن أقول إنّه إذا لم يكن حبّ (وتعمّد أن يذكر هٰذا اللفظ كأنّما جاء عفوًا) من أوّل نظرة فلا حبّ على الإطلاق!.

وتعوّذت بالصمت مرّة أخرى وهو يلحظها مبتسمًا، ثمّ استدرك:

ـ لا أعني أنّ الحبّ يحدث حتمًا من أوّل نظرة، ولٰكنّ النظرة الأولى تكفي لاكتشاف مَن تربطهم بنا صلة روحيّة عسيّة أن تصير الحبّ نفسه! أليس يقولون إنّ الأرواح تتخاطب بغير إحساس ألبتّة؟! فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريد.. أمّا الحبّ الذي تلده الأيّام وتنبّهه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة أو المنفعة، أو غيرهما من القيم التي لا تُدرك إلّا بالرويّة والإمهال، فماذا ترَيْن؟

فتردّدت هنيهة ثمّ سألته كالمتحيّرة:

ـ أتقول إنّه لا يوجد.... (ولم تنطق بكلمة الحبّ) إلّا من أوّل نظرة!

فأدرك أنّه ثرثر أكثر ممّا ينبغي، وخاف مغبّة تفسير كلامه فقال باهتمام:

ـ كلّا ليس هٰذا ما أعنيه، وإنّما أعني أنّ النظرة الأولى خليقة بالدلالة على الغاية التي عسى أن تهدف إليها العاطفة.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

ـ فلسفتك عسيرة، فلا هي من التاريخ ولا هي من اللغات!

واستغرق الشابّ ضاحكًا بسرور أخذ بمجامع قلبه، وودّ في تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم الصغير الذي تسيل جوانبه بهٰذه الحلاوة المشتهاة، وقال:

ـ بل هي أسهل من التاريخ أو اللغات لأنّها فلسفة الفطرة الصادقة وأصدق دليل على ما أقول أنّنا التقينا بوَحْيها ولن نفترق إلى الأبد إن شاء الله.

وكانا قد بلغا عند ذٰلك منتصف الطريق، فلاحت على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها الأبديّة، ينبعث من قوائمها هدوء شامل عميق، وصمت مخيّم ثقيل، فرمقتها بعينيها النجلاوين، ثمّ قالت لتداري الخجل الذي سعّره حديثه المطرب:

ـ قُضي عليَّ أن أستصبح كلّ يوم برؤية هٰذه القبور، فيا له من منظر لا يسرّ!

وتساءل الشابّ عمّا اضطرّها إلى قطع هٰذا الطريق الطويل مشيًا على الأقدام في الذهاب إلى العبّاسيّة وفي الإياب منها، ولماذا لا تستقلّ الترام عن طريق الخليج، ثمّ ابتده الحقيقة فأدرك أنّها ترضى بهٰذا التعب ـ أو

رضي لها به أبوها ـ توفيرًا لنفقاتها، فكمال خليل أفندي يُعتبر من صغار الموظّفين، وممّن يكافحون بعزيمة صادقة ـ في ظروف دقيقة ـ للنهوض بأُسَرهم، وذكر أنّ أسرته اجتازت يومًا مثل هٰذه الشدّة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأساء بصبر وجلد، فتندّى قلبه عطفًا ومحبّة وتقديرًا، ثمّ قال لها مبتسمًا:

ـ لن تريها بعد اليوم!

فرمته بنظرة إنكار وتساءلت:

ـ كيف؟ هل أسير معصوبة العينين؟

ـ بل سيشغلنا الحديث عن النظر إليها!

فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه، وقالت:

ـ ولٰكنّه سفر شاقّ لن تحتمله طويلًا، خصوصًا والشتاء قريب!

ـ سنرى!

وأوغلا في السير فلم يعودا يريان إلّا صحراء على اليمين وقبورًا على الشمال. ومرّا بطريق يشقّ القبور ويمتدّ غربًا، فأشار رشدي إلى مقبرة خشبيّة ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

ـ مقبرتنا!

فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة:

ـ فلنقرأ إذن الفاتحة!

فقرءا الفاتحة معًا، ثمّ قال رشدي:

ـ هنا يرقد الأجداد، وآخرهم جدّاي لوالدي، وأخي الصغير.

ـ ومتى توفّي أخوك هذا؟

ـ من زمن بعيد ونحن بعد أطفال!

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهريهما، واستعادا الصفاء والسرور، دون التفات إلى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحبّ وحديث القبر، ولا كدّرا صفوهما بأن يتساءلا مثلًا عمّا يتبقّى لهما من عمر يقضيانه في الدنيا، أو عمّا ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا في تلك المقبرة أو في أخت لها، لم يلتفتا لشيء من هٰذا ولٰكنّها قالت مستوصية بشيء من الشجاعة:

ـ ولٰكنّنا لم نتعارف بعد!

ـ ألسنا جيرانًا!

ـ بلى، ولٰكنّي لا أعرف اسمك.

ـ سامحك الله. اسمي رشدي. رشدي عاكف!

ـ كيف يسيئك هٰذا وأنت تجهل اسمي أيضًا؟

ـ معاذ الله!

ـ أعرفته من أوّل نظرة أيضًا؟

فضحك رشدي بسرور، وحنى رأسه أنْ نَعَمْ، فسألته:

ـ فما اسمي؟

ـ إحسان!

فضحكت بصوت مسموع وقالت بإنكار:

ـ أهٰكذا تختلق الأسماء!

ـ بل هو اسمك!

ـ أخطأت يا سيّدي ولعلّك رُمْتَ غيري فارجع بسلام!

ـ ولٰكنّي سمعت والدتي تتحدّث عن والدتك مرّة فتدعوها «ستّ أمّ إحسان».

ـ فحسبت أنّ إحسان هي أنا!!

ـ نعم...

فضحكت مرّة أخرى حتّى تورّد وجهها الأسمر وقالت:

ـ هٰذا اسم أختي الكبرى، وقد تزوّجت منذ عامين!

فابتسم رشدي كالخجل وقال:

ـ لا تؤاخذيني، فما اسمك إذًا؟

ـ نوال...

ـ عاشت الأسماء!

فتردّدت لحظة ثمّ رمقته بنظرة ماكرة وتساءلت:

ـ أنت تلميذ؟

ـ نعم بمدرسة العبّاسيّة للبنات.

ـ موظّف إذًا؟

ـ ببنك مصر!

فابتسمت قائلة:

- أمّا أنا فموظّفة بوزارة المعارف!

وضحكا معًا. ثمّ رأيا أنّهما يشارفان العبّاسيّة، فأدرك رشدي أنّ أوّل لقاء لحبّه الجديد يؤذن بالانتهاء، أمّا هي فقالت:

- حسْبك هٰذا فينبغي أن نفترق ها هنا.

فتوقّفا عن السير، وأخذ راحتها في يده، وضغط عليها بحنوّ وهو يقول:

- مع السلامة وإلى اللقاء غدًا صباحًا.

فحيّته بإحناءة من رأسها وغمغمت:

- إلى اللقاء...

وحثّت الخطى، ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه في سرور ونشوة محدّثًا نفسه: «كانت في البدء متعثّرة بحيائها، ثمّ أنست بي فصارت ألطف من نسمة عبقة، طاهرة خفيفة والله، وقاها الله شرّ الشياطين جميعًا بما فيهم شيطاني أنا».

وكان شأنه المعهود أن يغازل ثمّ يتعارف ثمّ يحبّ، وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت في صمت الطريق إلى أوّل خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى. أمّا نوال فانحدرت في طريق المدرسة وهي تقول لنفسها: «ما ألطفه، ما أجمله، ما أعذب حديثه، فآه لو تصدق الأحلام!».

- ٢٨ -

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الأصغر من تغيّر بعين متيقّظة. رآه بعد ظهر ذاك اليوم - يوم السبت - نشوان بالسرور، فكأنّما بات من سروره في سكرة ذاهلة، ورآه يغيّر عادته من النوم ما بين الظهر والمغرب - موعد انطلاقه إلى السكاكيني - فيقيل ساعة واحدة ثمّ يستيقظ مثقل الجفنين فيمشّط شعره ويتعطّر ويتصدّى للنافذة المحبوبة!، ولبث الكهل في حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يأزف موعد ذهابه إلى القهوة - تلك العادة الجديدة على حياته - وقد ركّز آماله جميعًا في النسيان المرتقب، ينتظره صابرًا كما ينتظر اليائس النهاية، وما برحت تتقاذف قلبه أحاسيس الحبّ والخيبة، والأنفة والغيرة، وحبّه رشدي ونفوره منه، فتحيّر بينها لا يقرّ له قرار حتّى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير. وبعد العصر بقليل اقتحم رشدي عليه وحدته! ولم يكن في ذاك غرابة فرفع إليه رأسه مبتسمًا باذلًا جهده ألّا يلوح في وجهه وجوم أو سهوم. فحيّاه الشابّ بابتسامته الحلوة وقدّم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معًا:

- لا تؤاخذني على إزعاجك ولٰكنّني أزفّ إليك خبرًا سارًّا.

فخفق فؤاد أحمد وقال:

- خير إن شاء الله!

- أخبرني صديق من الموظّفين أنّ الحكومة تفكّر في إنصاف الموظّفين المنسيّين.

فقال أحمد بارتياح لم يَدْرِ الآخر بواعثه الحقيقيّة:

- بشّرك الله بالخير!

- إنّ بقاء رجل مثلك عشرين عامًا في الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيّئة ذميمة.

فهزّ أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال:

- أنت تعلم أنّي لا أعبأ الدرجة ولا الوظيفة شيئًا.

وتحادثا مليًّا، ثمّ انصرف رشدي كيلا يضيع وقت أخيه الثمين... وتفكّر الرجل بعد انصرافه في ما يساوره نحوه من نفور فامتعض، وتألّم فؤاده غاية الألم، وهل ينسى أنّه أحبّه مذ كان في المهد؟ وهل يجهل أنّ الشابّ يحبّه حبًّا لا يحبّه والديه؟!

وهرع إلى الزهرة قبيل المغرب مرتاحًا إلى مغادرة البيت، وجالس الصحاب ساعتين ملقيًا بنفسه في تيّار الحديث لائذًا بشجونه من نفسه وأفكاره، ثمّ تراجع إلى البيت وكان رشدي ما يزال في الخارج - طبعًا - يسهر ليلته في الكازينو، فكأنّ فتاته استأثرت بالوقت القصير - من الظهر للمغرب - الذي كان يخلد فيه إلى الراحة وجعلت من يومه وحدة متّصلة من اليقظة والتعب. وألقى الرجل على النافذة - التي عاهد نفسه ألّا تفتح أثناء وجوده بالبيت - نظرة غاضبة، وتساءل وهو يخلع ملابسه تُرى ألم تلاحظ تغيّبه عن النافذة؟.

ألم يُرِبْها من الأمر ما ينبغي أن يريبها؟ لَكَمْ يودّ لو تعلم باحتقاره غدرها، فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف، ونفسه مكتوية بنار حامية.

ونام قبل موعده لصدود نفسه عن القراءة، ثمّ استيقظ على صفّارة الإنذار، فنهض مسرعًا وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه في الصالة، وكانت أمّه قلقة لأنّ رشدي لم يكن عاد من سهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء، وفي الطريق وجدوا الجوّ باردًا رطبًا فقال والده: «ما ينتظرنا في الشتاء أدهى وأمرّ» ومضوا إلى المخبأ واتّخذوا أماكنهم المعهودة. ونظر الأب في ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل، فقال باستياء وتهكّم:

ـ أليس الأرحم برشدي أن يبيت في الخارج حتّى لا يكلّف نفسه مشقّة الرجوع إلى البيت في مثل هٰذه الساعة؟

وحدّثت أحمد نفسه باستراق النظر! ولٰكنّه رأى رشدي يهبط أدراج المخبأ متعجّلًا ويدور بعينيه في المكان باحثًا عنهم، ولمّا عثر بهم اتّجه نحوهم مبتسمًا متشجّعًا ببقيّة حميّا الشراب على مواجهتهم ـ ومواجهة أبيه خاصّة ـ وحيّاهم ثمّ قال لأحمد:

ـ أطلقت صفّارة الإنذار ونحن في الجماليّة فعدوت في الظلام كالشياطين!

فانتهره أبوه قائلًا:

ـ أنت كالشياطين بغير جدال، ألا تريد أن تخفّف من غلوائك في هٰذا الوقت العصيب!

ولم يتجاسر أحمد على استراق النظر في حضرة الشابّ! ولٰكنّ رشدي ضاق بالجلوس ذرعًا فقام يتمشّى في المخبأ، وأطلق الكهل لعينيه العنان فانطلقت نظرتها القلقة إلى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل، ورآها، كانت جالسة جنب أمّها مطرقة، فرأى جانب وجهها الأيمن. هل رأته يا تُرى؟.. ألا تزال تحسب أنّه يجهل أمرها؟، أم تعاني شيئًا من القلق والعذاب؟، أم أنّه المقضيّ عليه بالقلق والعذاب وحده؟!.. وطافت برأسه في تلك اللحظة تمنّياته الجهنّميّة عن الغارة المدمّرة فارتجف قلبه ورفع رأسه إلى سقف المخبأ داعيًا في سرّه: «اللّهمّ رحمتك يا أرحم الراحمين» ثمّ وقع بصره على كمال خليل وسيّد عارف واقفين على كثب من مجلس أسرة أوّلهما يحادثان شقيقه!! فتولّته الدهشة، كيف تعرّف الشابّ بهما؟ ومتى حدث ذٰلك؟ وهل رمى الشابّ من وراء ذٰلك إلى غرض معيّن؟!.. حقًّا إنّه شابّ جسور يعجز خياله ـ هو ـ عن مجاراة أفعاله! وخامره نحوه شعور بالإعجاب ممتزجًا بالحنق، بَيْد أنّه انقطع عن التمادي في مشاعره لدويّ انفجار انتشر فجأة فملأ الأسماع، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادّة بسرعة فائقة، فحلّق الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة منهومة تنقضّ على أفراخ مذعورة، ولم يتكرّر الانفجار ولٰكن استمرّت طلقات المدافع المضادّة فترة وجيزة. ثمّ عاد السكون إلى نصابه، فأخذ القوم أنفاسهم، ومضت ربع ساعة أخرى ثمّ انطلقت صفّارة الأمان. وفتّش أحمد على أخيه فلم يجده، وكان الناس يخرجون أفواجًا، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة، فبحثت عيناه عن أسرة كمال خليل فرآها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخفّ التزاحم على باب المخبأ إلّا أنّه لم يرَ نوال! وذكر ليلة دعته إلى اللحاق بها وكيف تردّد وجبن! أمّا رشدي فلا يمكن أن يتردّد أو يجبن!..

ـ ٢٩ ـ

واطّرد مجرى الحياة، فتوطّدت أسباب الصداقة بين رشدي وكمال خليل على حداثة عهدهما بالتعارف، وتفاوت ما بين عمريهما، بفضل لباقة الشابّ وكياسته، ودعاه الرجل إلى قهوة الزهرة فلبّى دعوته وجالس صحاب شقيقه ـ والكهل بينهم ـ ونال إعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخلق وإشراق الوجه.

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين، ثمّ دعاه الرجل إلى زيارة بيته فمضى إليه فرحًا مسرورًا، وتوثّقت عُرى المودّة بينهما، واكتسب الشابّ ثقة الرجل لحدّ أن قدّمه إلى زوجته وكريمته، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته، وهي خطوة لم يتوقّعها

رشدي قطّ، ولا دار له بخلد أن تتّخذها أسرة بحيّ الحسين خاصّة حيث تسود روح المحافظة، بل إنّ أسرته لتعتبر من هٰذه الناحية أشدّ محافظة على خلوِّها من الفتيات، فما يجرؤ هو ولا أخوه - فضلًا عن أبيه - على أن يقدّما رجلًا غريبًا إلى أمّهما. على أنّه سرّ بذٰلك سرورًا لا يدانيه سرور، وسعد بتلك الثقة الغالية، واصطبغ تفكيره بلون الجدّ فاستشعر الرزانة والتبعة، وتبع ذٰلك أن حلّ رشدي محلّ الأستاذ أحمد راشد المحامي في التدريس لنوال ومحمّد. ولـمّا اتّصل نبأ ذٰلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه، ولم يَدْرِ كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث، فأخوه صار كأنّه عضو في أسرة الجيران، ولو أنّه وطّن النفس يومًا على أن يبلغ هٰذه المنزلة التي بلغها رشدي في أيّام لما كفته عشرون عامًا، ولٰكنْ رمقه بعين الإعجاب المقرون بالحسد، ولٰكنّه نجح في التظاهر بالجهل المطبق، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه، واستسلم للصبر الذي استمرأه لطول ما عاناه. أمّا الأمّ فلم يغب عنها شيء من بادئ الأمر، فلم يكن رشدي من الذين يُعنون بإخفاء أسرارهم. كان يلازم نافذته إذا وُجد بالبيت، ويهرع إلى بيت الجيران في ساعات الدروس، وكان يغشى روحه هيمان بدت آثاره في عنايته المتضاعفة بأناقته، وفي الحنان الذي اكتسبه صوته وهو يغنّي، وفي خروجه الباكر كلّ صباح الذي لم يعد تخفى حقيقته على أحد، بل ما من شكّ أنّ أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم، وتعقد عليه من الأمل ما يثلج صدرها بالسعادة، لم يغب شيء من هٰذا عن الستّ دولت، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه إباء ولا نفورًا، وكان من عادتها أن تقول أحيانًا كالمتحسّرة: «متى يا ربّ أفرح بالعرائس كالأمّهات السعيدات؟!». ولٰكن هل نوال جديرة بابنها؟!. لِمَ لا؟! هي عروس حسناء متعلّمة، من أسرة طيّبة، ووالدها موظّف، فكلّ شيء مناسب، اللّهمّ إلّا خاطرًا واحدًا أحزنها وأكربها، أيجوز أن يتزوّج رشدي قبل أحمد؟! ولٰكن ما حيلتها؟! فلتنتظر ما تلد الأيّام من أحداث تقضي بها مشيئة الله الحكيمة!.

وفات رشدي طور اللعب، فهو يبدأ بمعابثة الغزل ولٰكنّه ينتهي دائمًا بالحبّ الحقيقيّ! فأحبّ نوال واستعرت لها في قلبه عاطفة صادقة. أليست بجارة النافذة المحبوبة، ورفيقة طريق الجبل المكلّلة هامته بالسحاب الرقيق، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة، وجليسته في السينما صباح الجُمَع؟.. علق الهوى على قلبين طريّين، ولصق نفسين توّاقتين للحبّ والسعادة. وصارت حياته نشاطًا متّصلًا يشقّ على الجسد والأعصاب، فهو إمّا مكبّ على عمله في المصرف أو هائم في غراميّاته، أو ساهر في كازينو غمرة، فلم يخلد إلى الراحة إلّا في الهزيع الأخير من الليل. فلم ينتشله حبّه من داء المقامرة أو معاقرة الشراب ولا حتّى من الحبّ الفاجر وعالج هاتيك اللذّات في يسر، وأنسته العادة أنّها خطايا فأنس بها بلا تردّد، ولم يتخيّل أنّ الحياة حياة بغيرها، فعبد الورق والكأس والحبّ، وعسى أن يهوله ما تستوجبه هٰذه الحياة من مال ومشقّة فيقول متأسّيًا: «غدًا أودّع حتمًا كلّ شيء إذا تزوّجت!».

وكان حريًّا أن يفكّر في نسيان ذاك العبث ليأخذ أهبته للزواج إن كان من الصادقين، ولٰكن هوّن عليه الأمر أنّه أودع المصرف يومًا مبلغ خمسين جنيهًا ربحها من السباق، ففي بحر عام واحد يستطيع أن يقتصد من مرتّبه ما لو أضافه إلى ذٰلك المبلغ لقام بنفقات الزواج، ولٰكن متى يبدأ هٰذا العام؟ هٰذا ما كان يؤجّل التفكير فيه، مستسلمًا لتيّار الشهوات العارم، فلم يتعوّد قطّ أن يروّض من جماح شهوته، أو أن يحدّ من رغباته، أو أن يشدّ من إرادته، إلّا أنّه تردّد أخيرًا متحيّرًا، عينًا على الحياة التي يلبّي نداءها، وعينًا على الفتاة التي يهواها....

- ٣٠ -

وانصرم شهر نوفمبر، فاشتدّ البرد اشتدادًا لم تعهده القاهرة إلّا في النادر، وأصيب رشدي عاكف

بالإنفلونزا، ولعلّها أصابته أثناء عودته إلى خان الخليلي في الهزيع الأخير من الليل، ولم يكن يعبأ بوعكات البرد مكتفيًا ببلع أقراص الأسبرين إذا اشتدّ عليه وجع الرأس، فزاول نشاطه المعهود لا يعبأ بشيء، إلّا أنّ حالة المرض اشتدّت عليه في اليوم الثاني في المصرف فتناوبته قشعريرة، ثمّ شملته رعشة حتّى اصطكّت أسنانه، وعراه خَوَر أظلمت منه عيناه فغادر المصرف واستقلّ تاكسي إلى البيت، ورقد في إعياء شديد، ومنحه طبيب المصرف أسبوعًا، واشتدّت الحالة، وتدهورت صحّته بسرعة مخيفة، وغيّره هزال فبدا كإنسان لازمه المرض شهرًا طويلًا؛ وأدرك أحمد أنّ أخاه فقد مناعته الأولى التي طالما قاوم بها التوعّكات فلم يملك أن قال له:

ـ صرت كالخيال، لأنّ جسمك لم يعد يقاوم لما تكلّفه به ممّا ليس في وسعه.

وكان الفتى معتادًا أمثال هٰذه الملاحظة من أخيه، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال:

ـ هٰذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول!

فقال أحمد باستياء:

ـ ولٰكنّه ما كان يتمكّن منك لولا تفريطك في صحّتك!

ولم يكن شيء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال:

ـ ألا ترى أنّي لا أسهر وحدي! وأنّ صحبي جميعًا كالبغال صحّة وعافية!، ولٰكنّها أعراض البرد وسوف تزول بإذن الله.

وكان يعلم أنّه يستميت في الدفاع عن حياته لحدّ اللجاج والمكابرة فانكسر عن لومه، وكان يعوده كثيرًا، ويواسيه ويشجّعه، وبالغ في ذٰلك مبالغة مردُّها إلى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور. فكأنّه كان يغطّي المشاعر التي تخجله وتحزنه بالمبالغة في إظهار العطف والمحافظة على مظاهر الحبّ، وكثيرًا ما كان يحدّث نفسه بصوت مسموع قائلًا: «إنّي أحبّه كعهدي دائمًا، وما يستحقّ منّي غير هٰذا الحبّ، ولو أنّه علم بطويّتي ما أقدم على ما أقدم عليه فهو بريء، وهو يحبّني وأنا أحبّه». ولٰكن كيف يغفل عمّا يثور بنفسه أحيانًا من الغضب والثورة؟.. وكيف ينسى أنّه تمنّى لو أنّ الشابّ لم ينقل إلى القاهرة؟.. بل كيف ينسى أنّه تمنّى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشابّ فيها طبعًا؟! فهٰذه الخواطر وغيرها كانت ترهقه بالحزن وترديه في الوساوس. وفي آخر ليلة من ليالي اشتداد الحمّى على الشابّ، حلم أحمد حلمًا غريبًا. وكان نام بعد جهد ناصب من عذاب الفكر، فرأى في ما يرى النائم أنّه جالس على فراشه مرسلا الطرف إلى شرفة نوال في إشفاق ورجاء، فما يدري إلّا ورشدي يقعد على كرسيّ بينه وبين النافذة مبتسمًا ابتسامته اللطيفة، فشعر باستحياء وحوّل ناظريه عن الشرفة إلى وجه أخيه، وأراد رشدي أن يسرّي عنه بتظاهرة بأنّه لم يفطن لشيء فلم يفلح، ثمّ رآه ينتفخ رويدًا رويدًا حتّى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء، ثمّ أخذ منه العجب كلّ مأخذ حتّى لم يتمالك نفسه من الصراخ إذ رأى شقيقه ـ وهو كالكرة الضخمة ـ يرتفع ببطء طائرًا كأنّما يلتمس سبيلاً إلى الفضاء خَلَلَ النافذة، ولٰكنّ النافذة ضاقت عنه فانحشر بين جانبيها وحجب عن عينيه النور، وزايلته الدهشة وحلّ محلّها الرعب، ولٰكنّ الفتى، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولّاه الغضب، وظنّ الشابّ يسخر منه بخدعة فنهره ولٰكنّه لم يعبأ به واستمرّ في ضحكه الساخر، ففزع أحمد إلى مكتبه وأتى بريشته وغرسها في بطنه فانقصفت فيها، واندفع من البطن بخار ملأ الحجرة بالغبار فأخذ جسم الفتى يتقلّص بسرعة حتّى عاد إلى حجمه الطبيعيّ ثمّ سقط عند قدميه، وجعل يتلوّى كالسليم، ويعضّ من الألم قوائم الكرسيّ ويصرخ صراخًا موجعًا ويسعل حتّى تجحظ عيناه ويسيل من محجريها الدم، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضني ويميت، ثمّ... ثمّ استيقظ عند ذاك، وأدرك أنّه كان يحلم، ربّاه، تبًّا للأحلام، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتّى بلغ مسمعيه صوت كالأنين يأتيه من عقب بابه المغلق، فأرهف السمع فتبيّن له أنّه صوت أخيه وأنّه حقًّا يتأوّه

ويتوجّع، فقفز من فراشه وانتعل شبشبه ومضى على عجل إلى حجرته. وهناك وجد الشابّ يتأوّه وأمّه إلى جانبه تدلّك ظهره بينا يجلس الأب على كرسيّ قريبًا من الفراش، فتساءل أحمد مروَّعًا:

ـ ماذا به؟

فقالت أمّه:

ـ لا تنزعج يا بنيّ، إنّه ألم الحمّى وهي تفارق البدن!.

وتنبّه رشدي إلى مجيء أحمد فكظم ألمه قليلًا وقال متأسّفًا:

ـ واخجلتاه!. أزعجت منامكم جميعًا..

ولكنّهم شجّعوه ودعوا له، وجلس أحمد جنب أمّه، وأخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يدلّكها بحنوّ، وكأنّه يكفّر بذلك عن إساءته إليه في الحلم، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء المريض، فلبثوا إلى جانب فراشه حتّى مطلع الفجر...

ـ ٣١ ـ

وبرأ رشدي ممّا ألمّ به، وغادر فراش المرض، ولم يكن هيّنًا عليه أن يلزم الفراش أسبوعًا كاملًا وهو الذي لا تطيب له الحياة إلّا في تجارب اللّهو واللعب واللذّات، ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء في البيت والإخلاد إلى الراحة ريثما يستردّ قوّته، فضحك كعادته وقال كالآسف:

ـ حسْبي أن ضاع من العمر أسبوع هدرًا!

فاحتدّ الذي ضاع عمره كلّه وقال:

ـ أحذّرك الاندفاع في ما أنت آخذ فيه، فإنّك تستحلّ شبابك للعدم كأنّه معين لا ينفد، ولا تعبأ أبدًا أن تنال حقّك من الراحة، فأيّ جنون هٰذا الذي تطيع؟!

ولمس رشدي في لهجة أخيه غيرته على صحّته، فابتسم ممتنًّا وقال:

ـ دمت من أخٍ كريم، متّعني الله بقلبه الكبير.

ـ إنّي أرشدك لما فيه صلاحك!

فقال الشابّ الشكور المحبّ:

ـ وهل داخلني في ذاك شكّ؟!

ولكنّه لم يُعنَ باتّباع الإرشاد الذي لا يداخله فيه شكّ، وفي صباح اليوم التالي رآه أحمد يستجمع لخروجه الباكر، فتولّته الدهشة وقال بإنكار:

ـ ماذا أنت فاعل؟

فقال بشيء من الارتباك:

ـ إلى المصرف.

ـ وما الموجب للعجلة؟

فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة:

ـ أخي، لا أكتمك أنّ البيت يُسقمني!

وعلم أحمد بما يغريه حتمًا بالاستهانة بصحّته، فانقبض صدره وأخفى بصره في فنجان القهوة، ومضى الآخر إلى سبيله، وأرادت الأمّ ـ وكانت جالسة إلى السفرة ـ أن تخفّف من وقع ما خلّفه الشابّ لنصح أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه:

ـ شفاء أخيك في الدنيا الواسعة لا في البيت، فلا تؤاخذه!

ولـمّا لم ينبس بكلمة ظنّته غاضبًا فقالت تستوهبه ابتسامة:

ـ أليس هو ابن أمّه؟ ومَن شابه أمّه فما ظلم، ألا ترى إليّ كيف يركبني الهمّ إذا لزمت البيت وحِيل بيني وبين زيارات الأحباب!. فكلانا عدوّ البيت..

وضحكت ضحكتها الرنّانة فابتسم الكهل ابتسامة لا لون لها. وما كان شيء يُثني الشابّ عن حياته المحبوبة، فارتمى مرّة أخرى بين أحضان الحبّ والقمار والشراب والتدخين والنساء!. استردّ نشاطه المعهود ولكنّه لم يستردّ صحّته، فلم يزايله الهزال، واشتدّ لون وجهه شحوبًا وبَدا وكأنّه بقي من مرضه شيء لا يفارقه، وإذا كان أحمد منشغلًا بنصحه كان الشابّ منشغلًا بالتفكير في أمور أخرى، فدخل على أخيه عصر يوم ـ قبل موعد خروج الرجل إلى القهوة بقليل ـ حيّاه بابتسامته المطيعة وقال:

ـ هل تأذن لي بالتحدّث إليك قليلًا؟

فرفع أحمد رأسه إليه وقال:

ـ تفضّل يا رشدي!.

وقرأ في وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته، فعجب لأمره، وتساءل عمّا دعا السادر اللاهي إلى الجدّ والاهتمام. وذكر أنّه لم يره في مثل تلك الحالة إلّا السويعات الحرجة التي تلقّى فيها أنباء سقوطه في بعض الامتحانات على عهد دراسته. وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلاً، فقعد رشدي على الكرسيّ وقال:

ـ أريد أن أجدّ في الأمر فليست الحياة كلّها لعبًا!

ولو أنّه سمع كلامه هٰذا في غير الظروف التي يعانيها لما تمالك أن يضحك ويقهقه، ولٰكنّ صدره انقبض، وحدس قلِقًا ما الشابّ ماضٍ إلى خوضه، فقال بهدوء:

ـ الحياة ليست كلّها لعبًا. هٰذا حقّ..

فقال الشابّ:

ـ أنت مرجعي عند المشورة، وقد جئتك سائلاً هل توافق على زواجي؟!.

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغتة لم تدُرْ له بخلد، ولٰكنّه لم يسمح لوجهه بالإفصاح عن كآبته، وتظاهر بالدهشة البريئة، بل وبالسرور، وقال:

ـ أجئت تتحدّث أخيرًا عن الزواج! مرحى مرحى!

فضحك رشدي بسرور وقال:

ـ هي الحقيقة يا أخي، فهل يسرّك ذٰلك؟

ـ يسرّني طبعًا، لعلّنا سررنا بشيء واحد معًا لأوّل مرّة!

وتبع ذٰلك صمت، وأدرك أحمد أنّه من الطبيعيّ أن يسأل عن العروس، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة إلى سؤاله، ولٰكنّه لازم الصمت، فلم يجد مناصًا من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلاً:

ـ وهل اهتديت إلى بنت الحلال؟

فاعتدل الشابّ في جلسته وقال:

ـ أجل يا أخي، كريمة جارنا الطيّب كمال خليل أفندي صديقي وصديقك!

ولم يفلح ما سلف من تأهّب في تحمّل الطعنة إلّا قليلاً، فيأس المتّهم من النجاة لا يهوّن على نفسه وقع النطق بالحكم عليه، ولٰكنّه لاذ بكبريائه وقال بهدوئه:

ـ وفّقك الله لما فيه سعادتك.

ـ شكرًا لك يا أخي.

ـ بيْد أنّي أريد أن أسألك سؤالاً على سبيل الاحتياط، فهل زوِّدت بالمعلومات الضروريّة عن الأسرة التي ستصبح واحدًا منها؟

ـ خبرت الأسرة عن كثب، وعرفت الفتاة معرفة شخصيّة!

ونكأ تصريحه جرحه فضاعف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهريّ، وقال:

ـ أذكّرك بأنّه إذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة!

فضحك رشدي قائلاً بثقة:

ـ انتهى التقلّب واستقرّ الرأي!.

ـ هل فاتحت أحدًا بهٰذا الشأن؟

ـ كلّا فيما عداها هي!

فخفق فؤاده خفقة عنيفة، وشرع خياله في استحضار صورة انفرادهما معًا، وتهامسهما بهٰذا الشأن الخطير الجميل، ثمّ قطع تخيّله بقوّة، وقال بنبرات تنطق بالرضى:

ـ على بركة الله...

ـ إذًا أكِلُ إليك تبليغ والدي بالأمر، ومن ثَمَّ نأخذ في الخطوات المتّبعة.

فتريّث أحمد قليلاً ثمّ قال:

ـ سأخبر أبي، أمّا الخطوات الأخرى فتحت شرط!

ـ سمعًا وطاعة..

ـ ألّا نشرع فيها قبل أن تستردّ صحّتك، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الأقلّ!.

فقال رشدي ضاحكًا:

ـ هٰذا عليَّ هيّن، ولن يطول انتظارنا.

ثمّ نهض قائمًا وهو يقول:

ـ أشكر لك والعُقبى لك (ثمّ غيّر لهجته كمَن تذكّر شيئًا جديدًا).. على فكرة! لماذا لا تفكّر أنت أيضًا في الزواج، أما كان ينبغي أن أبارك لك قبل أن تبارك لي؟!

أيصارحه بما حال بينه وبين التفكير في الزواج؟! . . الفتى لا يدري ممّا يقول شيئًا، ولذلك فهو يرميه بسهام مسمومة في غفلة وصفاء! وقد امتعض لتساؤله، وخاله لسان القدر يتهكّم من شقائه بعد أن قضي به عليه، وقال كالمتهكّم:

ـ مضى زمن الزواج!

ـ مضى؟!

ـ دع هٰذا يا رشدي، فأنت تعلم أنّي امرؤ مشغول! والله لم يجعل لامرئ من قلبين في جوفه!

ومضى الشابّ يهزّ رأسه أسفًا، وأطرق الرجل، ولاحت في عينيه نظرة حزن عميق، واستسلام للقدر واليأس، سيتولّى ـ هو ـ أمر زواج الشابّ، فلا مناص من أن يحيك كفنه بيديه، وفي ذٰلك ما فيه من ضروب الألم وفيه كذٰلك ما فيه من ألوان اللذّة والعزاء. لن يخلو على الأقلّ من تلك اللذّة الغامضة التي تؤلّف بينه وبين الألم كما تؤلّف بين الفراشة والنور، وفيه لذّة الاستسلام إلى القضاء القهّار، وفيه لذّة التكفير عن مشاعره الباطنيّة التي لم يرتح إليها، وفيه أخيرًا لذّة لكبريائه الجريح . .

ـ ٣٢ ـ

وارتدى على أثر ذٰلك ملابسه، ومضى إلى الزهرة وقد فارقه ذٰلك الشعور بالأسف الذي كان يخامره كلّما همّ بالخروج عن عادة وحدته، واشترك في أحاديث الصحاب أكثر من ذي قبل ـ إذ كان جلّ حواره مع أحمد راشد وحده ـ واستسلم للضحك طويلًا على غير عادته. وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى التي سمع عنها دون أن يشهدها. وبدا له الخاطر مغريًا فمال إليه بكلّ قلبه، بيْد أنّه تردّد كالخائف ولم يَدْرِ كيف يقدّم نفسه، ولم يغادره هٰذا الخاطر حتّى نهض القوم للذهاب إلى حال سبيلهم، وكان من عادة نونو أن يمضي إلى بيته أوّلًا ومن ثمّ يلحق بالصحاب في ندوتهم، فاتّخذ منه رفيقًا، وآتته شجاعته في الطريق فقال باستحياء:

ـ يا معلّم، هلّا اصطحبتني إلى الإخوان؟

فصفّق الرجل بسرور وصاح به:

ـ هداك الله أخيرًا!

فقال بصوت خافت:

ـ ولٰكنّي في هٰذا الأمر أجهل من دابّة!

فقال المعلّم بزهو وخيلاء:

ـ اجعلني دليلك، وأيًّا ما كان فهٰذا الأمر أسهل من كتبك وأجلّ فائدة!.

وعادا معًا يخبطان في الممرّات الملتوية يشملها ظلام دامس، ودخلا عمارة وارتقيا السلّم إلى الطابق الثالث، وضغط الرجل زرّ الجرس الكهربائيّ وهو يقول:

ـ إذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فآيتك أن تضغط الزرّ خمس دفعات متتابعات ثمّ تذكّر كلمة السرّ التي سأقولها الآن.

وسمعا صوت عبّاس شفة يسأل عن القادم فقال المعلّم:

ـ ملعون أبو الدنيا!

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هيّاب وتبعه المعلّم، وعبرا صالة إلى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة بنور أزرق هادئ كنور الفجر العليل، ينبعث من مصباح ملفوف بغلالة زرقاء، فاتّجهت الأنظار نحو القادمين، واستقرّت على الجديد حتّى تعثّر بالارتباك والحياء. وقد تربّعوا على شلت تراصّت على صورة دائرة، ووضع في وسطها «العدد» كالمجمرة والجوزة والطباق. فتبادلا التحيّة مع الحاضرين وجلسا جنبًا إلى جنب، واستطاع أحمد أن يلقي نظرة عامّة على المكان، ويرى إخوان قهوة الزهرة ـ في ما عدا أحمد راشد ـ بين الموجودين. ثمّ استرعى صدر المكان انتباهه حيث جلست امرأة «هائلة» على شلتة ضخمة، وإنّها لهائلة حقًّا، ففي جلستها كانت تطاول شخصًا قائمًا، عريضة المنكبين، طويلة الجيد، مستديرة الوجه في امتلاء وضخامة، واضحة القسمات، يراوح لونها بين المصريّ والحبشيّ، أمّا شعرها فكستنائيّ مجعّد شدّ إلى ضفيرة غليظة قصيرة، وأعجب ما في وجهها عينان كبيرتان بارزتان بروزًا لا يبلغ القبح، لنظرتها حدّة ولحَوَرهما

التماع، ويوحي منظرها بالهيبة لضخامتها وقوّتها، وبالشهوة لأمارات الحيوانيّة البادية في ملامحها، والإغراء المنعكس عن خلاعتها. وقد وضعت على كتفيها شالاً مجملاً منمنمًا وجعلت تتفرّس في وجهه بعينيها القادحتين.

وأدرك أحمد عاكف أنّها عليّات الفائزة التي يدعونها بمعشوقة الأزواج، وقد جلس زوجها عبّاس شفة إلى يمينها بينا جلس إلى يسارها المعلّم زفتة القهوجي. وسفر المعلّم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدّت له راحتها المخضّبة بالحنّاء ورحّبت به. وحدجه المعلّم زفتة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكًا:

ـ وأخيرًا عرفت أنّ الله حقّ؟ لكم أنفقت من عمر في حجرتك وعلام ذلك التعذيب؟؟!.. لا أنت متزوّج ولا أنت رجل عجوز، ولكنّه ظلم الإنسان لنفسه!

فقال المعلّم نونو يزكّي صاحبه ويعتذر عن «غفلته»:

ـ يا إخواني، إنّ نظري لا يخيب وفراستي تصدقني دائمًا، وقد اقتنعت من أوّل نظرة بأنّ صاحبنا أحمد أفندي «ابن حظّ» ولكن أضلّته الظروف عن منهله العذب حينًا وإنّا لهادوه بإذن الله!

وخاف كمال خليل أن يضيق صاحبه ـ الذي جدّت دواعٍ جديدة تحمله على إرضائه ـ بكثرة المداعبات فقال:

ـ الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطّلع، ولكن لا ضير من أن يأخذ حظًّا من السرور، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متّصلاً..

فلوّح المعلّم زفتة بيده كالساخط وقال:

ـ ولماذا نقضي على أنفسنا، وبمحض اختيارنا، بعناء متّصل أو منفصل؟! الأستاذ موظّف ذو مقام، فماذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخذة؟! عاهدنا على ألّا تغيب عنّا ليلة بعد اليوم!.

فابتسم أحمد كالمرتبك، وزاد من ارتباكه أن قالت عليّات الفائزة تخاطب زفتة وهي تلحظ الكهل:

ـ رويدًا يا معلّم، كيف يعاهدك على ذلك وقد لا يطيب بنا نفسًا؟!

فتورّد وجه أحمد وقال مسرعًا:

ـ العفو يا هانم!..

وكانوا يدعونها عادة بستّ عليّات فوقعت... «هانم» من آذانهم موقعًا غريبًا، أمّا الستّ فقالت:

ـ أهلاً بك في كلّ وقت.

وكان عبّاس شفة مكبًّا على تعبئة «الكراسي» ثمّ رصّ الجمرات على كرسيّ منها، وركّبها على الجوزة وقدّمها إلى الستّ. واستقرّت عينا أحمد على الجوزة في اهتمام مشوب بقلق وإشفاق، ثمّ مال نحو نونو، وهمس في أذنه:

ـ ألا يحقّ لي أن أخاف هذه الجوزة؟

فعاتبه المعلّم قائلاً بصوت منخفض:

ـ إذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا؟

وتوسّط عبّاس شفة الدائرة، وجعل يدير الجوزة من رجل إلى رجل، مقتربًا منه، حتّى بلغت المعلّم نونو، فوضع الغاب في فيه وأخذ نفسًا طويلاً، اتّصلت قرقرته حتّى ملأت الأسماع، وزفره من خيشومه قطعًا من سحاب داكن!، وأخيرًا رأى الغاب يدنو من شفتيه والأنظار تتحوّل إليه، فأطبقهما عليه وأخذ نفسًا قصيرًا كالخائف ونونو يهتف به: «شدّ... شدّ» ثمّ قال له بلهجة الآمر: «ازدرد الدخان!» فازدرده ثمّ زفره بسرعة وقد شعر كأنّ يدًا تكتم أنفاسه، ثمّ سعل سعلة اضطرب لها جسمه النحيل ودمعت عيناه، وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لـمّا أفاق:

ـ كيف الحال؟

فقال وهو يتنهّد:

ـ أَوْلى بي أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة، ألا ترى أنّك مدرّس قاسٍ يا معلّم؟!

فقهقه المعلّم قائلاً:

ـ كما تشاء ففي التأنّي السلامة!

ودار عبّاس شفة بالجوزة خمس مرّات متعاقبة، وتصاعد الدخان من كلّ جانب وانعقد سحبًا، وشمّ أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة، بل هي نفسها دون غيرها، فأين

شمّها ومتى؟! ولم يَطُلْ به عذاب التذكّر، فذكر أوّل لياليه بخان الخليلي، ليلة التسهيد إذ تسرّبت هٰذه الرائحة الغريبة العميقة إلى حجرته فحيّرته، فلم تكن إلّا رائحة هٰذا المخدّر العجيب المخيف، ولعلّها انطلقت ليلتئذ من هٰذه الحجرة نفسها أو من ذاك الحيّ العجيب الذي لا يبعد أن تكون جميع الأنفاس المتردّدة في جوّه من هٰذه الأنفاس. وسرّ للذكر وارتاح إليها أيّما ارتياح لأنّ التخدير كان قد أخذ يسري في أعصابه المتوتّرة فيليّنها، فابتسمت أساريره. وعاد عبّاس شفة إلى مجلسه يستريح قليلًا، بينا مضى المعلّم زفتة في تعبئة الكراسي من جديد استعدادًا للدورة الثانية وقالت الستّ عليّات الفائزة:

ـ أما هنّأتم سيّد عارف أفندي!

فالتفت إليها القوم، وقال نونو:

ـ خير إن شاء الله!

فقالت المرأة الهائلة مبتسمة:

ـ أرشده طبيب ماهر إلى أقراص جديدة وأكّد له أنّها مضمونة النجاح!

فعلا ضحك الجميع ـ أصحاب قهوة الزهرة والآخرون ـ وقال المعلّم نونو موجّهًا خطابه لسيّد أفندي:

ـ أمنية قلبي أن أراك يومًا مثلنا!

فقال سيّد عارف كالمحتدّ:

ـ هٰذا يدلّ على سوء نيّتك!

وسألوه عن الأقراص الجديدة، ولٰكنّه أبى أن يذكر عنها شيئًا خشية أن تصيبها نفس!

فقال المعلّم زفتة:

ـ إنّما الأعمال بالنيّات!

وكان كثيرًا ما يستشهد في أحاديثه بالحكم والأمثال أو الأحاديث الشريفة كيفما اتّفق دون مبالاة بمطابقتها لمقتضى الحال، ودون أن يفطن إلى شذوذ الاستشهاد عن معنى كلامه، على أنّه لم يكن يتنبّه إلى غفلته تلك إلّا قلّة من الحاضرين!، وضاق سليمان بك عتّة بالضجيج ذرعًا واشتدّ وجهه القبيح كآبة فقال بحنق وعنف كعادته إذا استاء أو غضب:

ـ الهدوء... يا هوه!... للغرزة آدابها!..

ولاحت الدهشة في وجه كمال خليل فسأله باهتمام:

ـ وما آداب الغرز؟!

فقال القرد باستياء:

ـ هٰذه الضجّة خليقة بالحانات حيث يفقد السكارى عقولهم. الغرز على عكس ذٰلك جديرة بالهدوء والصمت، فالحشيش سلطان يوجب على مواليه الخشوع والسكون، بالهدوء والصمت يبلغ التخدير مداه فيصفو المزاج وتنثال على الخيال الأحلام فيظفر الإنسان بمشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير فيها وحلّها واحدة بعد أخرى!

ـ ولٰكنّنا نجيء هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا لنفكّر فيها!

ـ بئس الرأي، إنّ الهروب من المتاعب لا يذهبها ولٰكنّه يُنسي عذابها إلى حين كي تعود أفظع ممّا كانت، حكمة الحشيش تهبنا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر على الاستهانة وتهوين خطبها فتذوب في بالوعة النسيان وتمّحي من الوجود!..

فقال سيّد عارف ضاحكًا:

ـ فليس هٰذا بكرسيّ حشيش، ولٰكنّه كرسيّ الاعتراف!.

وقال المعلّم زفتة:

ـ صدقت، هٰذا حشيش القسّيس! وصدق مَن قال يا جحا عدّ غنمك؟!

ثمّ قال المعلّم نونو مستنكرًا وموجّهًا خطابه لسليمان بك:

ـ وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب؟

ـ وهي يخلو من المتاعب إلّا حيوان!

ـ فكيف شعرت بها؟!

فأجابه سيّد عارف:

ـ لعلّه مالك الحزين!

ونهض عبّاس شفة بشعره المنتفش كالشيطان فدارت الجوزة دورتها الثانية، ومحت القرقرة لغط الحديث، وأخذ أحمد أنفاسًا أشدّ من المرّة الأولى مستوصيًا بشجاعة لا عهد له بها، وبرغبة قويّة في

الذهول، وقد أعجبته فلسفة سليمان عتّة على مقته له، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذي أورده هٰذا المكان الخانق على طريقته لعلّه أن يبرأ، لكنّه تسلّط عليه التخدير فثقلت جفونه واحمرّت عيناه ومال عنقه قليلاً، ثمّ ساوره خوف مفاجئ فأدنى رأسه من أذن المعلّم نونو وسأله:

ـ ألا يُخشى علينا من الشرطة؟.. هبْ شرطيًا تسلّل إلى الباب وقال ملعون أبو الدنيا؟!

فضحك نونو وقال:

ـ نقول له ملعون أبوك!.

وبعد انتهاء الدورة جلس عبّاس شفة جنب زوجه الهائلة مرّة أخرى وتحرّكت الألسن من جديد.

فقال المعلّم زفتة القهوجي وهو لا يمسك عن العمل:

ـ أبشّركم يا إخوان بأنّ هتلر ـ حين يفتح الله له مصر ـ سيلغي أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكي الإنجليزيّ!

فقال المعلّم نونو:

ـ هتلر رجل حكيم ولا يداخلني شكّ أنّ الفضل الأوّل في مهارة خططه راجع للحشيش!

فسأله كمال خليل أفندي:

ـ وكيف أوصله إليه عبّاس شفة؟

فقال نونو بلهجة جدّيّة:

ـ لا حاجة به إلى عبّاس شفة، فالمخزن رقم ١٣ ملآن بالحشيش النقيّ!

ثمّ هزّ المعلّم رأسه كالأسف وقال بحسرة ظاهرة:

ـ ألم تسمعوا بما يقال من أنّ اليابانيّين ينشرون المخدّرات بين الأمم التي يغزونها!

فقال المعلّم زفتة بنفس اللهجة:

ـ ليت الإنجليز كانوا حشّاشين!

ـ ضاعت خمسون عامًا من الاحتلال هدرًا!

وهنا نهض سيّد عارف بغتة وقد ارتسم على وجهه آي الاهتمام الشديد، ولبس طربوشه كأنّما يتأهّب لمغادرة المكان، فعجب القوم له وسألته الستّ عليّات:

ـ إلى أين يا أخانا؟

فتخطّى محيط دائرة الجلوس وهرول نحو الباب متعجّلاً وهو يقول:

ـ الأقراص نجحت..

وغاب عن الأنظار في لمح البصر، فانفجر القوم ضاحكين، وتساءل كمال خليل وهو يسعل:

ـ هل حقًّا ما يقول؟!

فقال سليمان عتّة بسخرية:

ـ دعاية كاذبة كدعاية أصحابه الألمان..

فقال نونو:

ـ سنعلم الحقيقة بعد تسعة أشهر!

فقالت عليّات الفائزة:

ـ عِلْم هٰذا عليَّ هيّن!..

وواصلوا الهزل حتّى قام عبّاس شفة ممسكًا بالجوزة فكان نذير الصمت، وفي هٰذه الدورة أخلد أحمد لتخدير غريب ـ وكان طول الوقت صامتًا راغبًا عن الكلام أو عاجزًا عنه ـ وشعر بأنّ إرادته فقدت سلطانها على أعضائه، وقد أراد أن يحرّك ذراعيه ليطمئنّ إلى أنّه ما زال متمالكًا زمامه، ولٰكنّ شعورًا عميقًا قويًّا أغراه بالعدول عن التجربة، وهيّأ له أنّه لا يوجد في الدنيا جميعًا ما يستحقّ التعب أو الحركة، وأنّ الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا، ورأى القوم خَلَل نفثات الدخان فخالهم أشباح دنيا غريبة أو سكّان كوكب آخر، ولا يدري كيف ملأه ذاك الإحساس بالغرابة، فلذّ له أن يضحك، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابَهَ مطلعُها التأوّه وحاكى ختامها قرقرة الجوزة، فما تمالك الجالسون أن ضجّوا ضاحكين! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله، فاعتدل في جلسته ليستعيد ـ ما أمكن ـ شيئًا من يقظته، وحدث عند ذاك شيء عجيب. حدث أن نهضت عليّات الفائزة قائمة، استطال ذاك الجسم الهائل في الفضاء، وامتدّ طولاً وعرضا فملأ الأعين، وكانت مرتدية روبا شدّ إلى جسمها ليبرز محاسن مقاطعه، ثمّ تحرّك موكبها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مختفيًا وراء الأساور الذهبيّة، ولـمّا مرّت أمامه ارتاع الكهل على ذهوله، رأى الروب بتّسع بعد

خاصرتيها ليكتنف عجيزة لم يَرَ مثلها في حياته، ريّانة ناهضة مترجرجة تبرز فوق الفخذين كالمشربيّة، فما صدّق عينيه، ولاحظ المعلّم نونو دهشته فقال له هامسًا:

ـ انتبه فالستّ تطلعك على السرّ الذي أشقى أزواج الحيّ، ما هذه بعجيزة ولكنّها كنز!.

فقال أحمد بصوت لا يكاد يسمع:

ـ هٰذا شيء فوق ما يتصوّره العقل!

ـ وأكثر من هٰذا أنّها تحوي فضيلتين لا تجتمعان، فهي من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة، ومن ناحية أخرى تسوخ فيها الأصابع لينًا!

ـ هٰذه لغز!

ـ نسأل الله السلامة!.

فقال الكهل وهو لا يدري:

ـ آمين...

وكان عبّاس شفة يسترق إليهما النظر فسأل المعلّم نونو متكلّفًا لهجة الوعيد:

ـ فيمَ تتحدّثان؟

فضحك المعلّم ضحكته المجلجلة وقال:

ـ نتآمر على أنفس أثاث البيت!.

وكفّوا عن الكلام فسمع صوت المعلّم زفتة وهو يتحدّث في الجانب الآخر من الحلقة يقول لبعض المستمعين الأغراب بلهجة الناصح:

ـ ثلاثة أشياء أشير عليكم بالإكثار من اقتنائها: الذهب والنحاس والسجّاد الفارسيّ فقيمتها ثابتة، تبيعونها وقت الشدّة أو تنتفعون بها في تجهيز البنات...

فقال رجل معهم يدعى المعلّم شمبكي:

ـ تبًّا للبنات وللأزواج وللأمّهات!..

فأومأ عبّاس شفة إلى المتحدّث وقال:

ـ أما علمتم بأنّ حرم المعلّم شمبكي هجرت بيته غاضبة؟!

فتأسّف الحاضرون، وهنا عادت الستّ عليّات إلى جلستها فسمعت العبارة الأخيرة وقالت:

ـ لماذا يا معلّم؟ أرجو ألّا أكون السبب...!

كلّا يا ستّ.. زواج ابني سنقر هو السبب، أردت أن يتمّ في هدوء مراعاة للظروف، وتأبى إلّا أن تزفّه القيان، فقالت لي بوقاحة: مالك عليّ وعلى أبنائي حرام، أمّا هناك فحلال!

فقالت الستّ عليّات ضاحكة:

ـ هناك هٰذه هي أنا!

فاستدرك الرجل يقول مغيظًا متأسّفًا:

ـ وقالت لي وهي تشدّ أطراف بقجة ثيابها: «سأذكّرك دائمًا بأنّك الرجل الذي لم يسعدني يومًا واحدًا من حياتي!».. اسمعوا يا هوه.. أهٰذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عامًا؟!

فقالت عليّات بلهجة الانتقاد المرّ:

ـ تبًّا لها، وارحمتا لشبابك الذي أنفقته عليها، اصغ إليّ يا معلّم، كِدْ لها وتزوّج من غيرها...!

فهزّ الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه ثمّ قال مغمغمًا:

ـ وهل تبقّت في العمر ذخيرة؟

ـ استغفر الله يا معلّم، أنت قدّ الدنيا!

فقال المعلّم نونو متحمّسًا للفكرة:

ـ نِعْم الرأي. إنّه لا يؤدّب المرأة إلّا الزواج بغيرها، وربّنا أمر الزواج من أربع!.

ـ أستغفر الله العظيم، لم يأمر الله بذٰلك ولٰكنّه أباحه على أن نعدل!

ـ ومن قال لك اظلم؟

ـ صلّوا على النبيّ، أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجى!

ـ تزوّج على بركة الأقراص الجديدة التي اكتشفها سيّد عارف أخيرًا!

وهنا قال المعلّم زفتة متمّمًا الحديث الذي قطعه المعلّم شمبكي بشكواه العائليّة:

ـ واقتنوا خاصّة السجاجيد الفارسيّة، فالذهب ربّما انخفض سعره، وكذٰلك النحاس، أمّا السجاجيد الفارسيّة فتزيد نفاسة مع الزمن، المرأة القديمة لا تساوي مليّمًا أمّا السجادة..

وعاجلته الستّ بلطمة على صدره فصاح:

- الضرس الباقي وقع. . .

فقالت له:

- يا حشّاش يا مجنون نحن نتكلّم في الزواج، فما دخل السجّاد؟!

- لا تغضبي يا ستّ فالصبر مفتاح الفرج، وما دمت ترغبين في حمل المعلّم شمبكي على الزواج مرّة أخرى فسأقصّ عليه نادرة تغريه بالزواج (والتفت شمبكي) واستمرّ يقول: عاد شيخ إلى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها، وكانت تتيه عليه إدلالًا بحسنها حتّى كفّرت عن سيّئاته، فمرّ بها إلى فراشه وهو يقول بصوت منخفض: «الفتنة نائمة!» فما كان منها إلّا أن أمسكت بطرف الجبّة وهي تقول: «لعن الله مَن أيقظها!».

وشعر أحمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جوّ الحجرة، ونفد صبره، فنهض قائمًا كالمترنّح، وجذبت حركته الأنظار، فسأله المعلّم نونو:

- إلى أين؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- حسْبي هٰذا!

- هٰذه نهاية البداية!، وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقيّ. .

ولٰكنّ الرجل أصرّ على الاعتذار، وتحرّك في بطء وتثاقل، فقال المعلّم زفتة:

- أأقراصك نجحت أنت أيضًا؟!

وغادر الشقّة؛ وأمسك بالدرابزين ونزل متثاقلًا وما زال يهبط ثمّ يهبط حتّى خال السلّم مفضيًا إلى مركز الأرض، ولٰكنّه انتهى إلى الطريق وخبط راجعًا إلى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة في حياته، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه في إعياء، وأطفأ النور واستلقى على الفراش. ولم يسارع إليه النوم كما توقّع، وتبيّن له أنّ تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة، وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قويّة مضطربة خالها تشيل الغطاء وتحطّه، وتزاحمت الصور بمخيّلته فالتبست وغرقت في غموض، إلّا صورة واحدة غلبت ما عداها، تلك المرأة الهائلة، فهل يلتمس وصالها كالآخرين؟ ولٰكن مهلًا، ماذا يفعل بها، إنّها إذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث في إبط الفيل، كلّا ما تلك بامرأة، إنْ هي إلّا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التي انغرست قدماه في شاطئها وحلقت عيناه في عبابها، وتضاعفت ضربات قلبه فجفّ ريقه، وتهيّأ له أنّه يهوي من عل في فضاء لا نهائيّ ففزع جالسًا في فراشه، وداخله شعور بالخوف واليأس. . ولبث حتّى مطلع الفجر يعاني آلامًا فظيعة، جسميّة ونفسيّة. . .

- ٣٣ -

ولم يفكّر بعد ذٰلك في معاودة المغامرة. ولم يجد فيه دفاع المعلّم نونو وتأكيده أنّ ما حدث له إنّما كان مرجعه إلى أنّه لم يطعم حلوًا بعد التدخين مباشرة، فأعرض عن إغراء الرجل وقال لنفسه يتأسّى كعادته: «الظاهر أنّ الطبائع العقليّة ليست بذات استعداد للتمتّع بهٰذه الشهوات». على أنّه لن يمسي بحاجة إلى هٰذا المخدّر كي ينسى شجونه، فغدًا إذا تمّ زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسي. بَيْد أنّ رشدي ما زال يخبط في سبيله على غير هدًى، ولم يخفّف من غلواء عبثه واستهتاره، فلم يستردّ عافيته بل وساءت حالته، ولم يعد يخفى على عين إنسان هزاله، واستحال شحوب وجهه صفرة، وجعل يتناوبه سعال شديد ثمّ فترت شهوته للطعام. فهال أحمد أمره، وقال له بلهجة حازمة:

- كأنّك لإهمالك صحّتك قد عدلت عن آمالك! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتّى تستردّ صحّتك؟ لذٰلك استعصى شفاؤك من مرضك الأوّل وأصابك هٰذا السعال الشديد، وما ينبغي لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب، فماذا أنت فاعل؟!

ولم يكابر رشدي كعادته، لأنّ وطأة السعال كانت شديدة عليه، فقال بتسليم ليس من دأبه:

- سمعًا وطاعة!

قال المغرم بتعذيب نفسه:

ـ تعجَّل الشفاء يا رشدي قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة!

وأبدى الشابّ المريض عزيمة صادقة، فانقطع عن كازينو غمرة، ولم يغادر البيت مساء إلّا لإعطاء تلميذيه الدرس الخصوصيّ ـ وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذّة ـ ولأوّل مرّة مذ فارق صباه حاول أن يأوي إلى فراشه في الساعة العاشرة، ممّا دعا أحمد إلى الإعجاب المطلق بصنع الحبّ الساحر. إلّا أنّ الشابّ لم يضحِّ برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدّة البرد القارص! لأنّها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه. وصبر على تلك الحياة المستقيمة أيّامًا دون أن يطرأ على حالته ما يبشّر بالشفاء. بل نال السعال من حنجرته فاخشوشنت وبُحَّ أخيرًا صوته، فتعذّر عليه ترديد أغانيه المحبوبة. وكان عيد الأضحى قد أصبح على الأبواب، وأخذت له الأسرة أهبتها ككلّ عام، فجيء بكبش التضحية وشدّ من عنقه إلى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكانًا سواه في الشقّة، ومضت الستّ دولت تصنع الرقاق. وقد تشكّى أحمد ـ كعادته ـ ارتفاع ثمن الخراف، وقال إنّه ربّما تعذّر عليهم ابتياع كبش في العام القادم، فهال أمّه القول وقالت له ضاحكة:

ـ ابصق هٰذه النيّة وطهّر فاك الشريف!

وجاء العيد في الأيّام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢، واستقبلته الأسرة ـ والحيّ جميعًا ـ بالبشر والفرح، وحفلت المائدة باللحوم أشكالًا وألوانًا. ومن عجب أنّ رشدي لم يخرج عن نظامه الجديد في العيد، والحقّ أنّ إعياءه لم يمكّنه من إشباع رغباته، أمّا أحمد فأمضى عطلة العيد في قهوة الزهرة، ولكنّه لم يذعن لإغراء المعلّم نونو فخاب سعي الرجل لاستدراجه مرّة أخرى إلى بيت عليّات الفائزة، وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنّميّة؟ ثمّ كان صباح اليوم الرابع من أيّام العيد. وفي ذاك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام، وقد استيقظ في منتصف التاسعة ومضى إلى الحمّام كعادته، فوجد رشدي مكبًّا على الحوض يسعل سعالًا شديدًا يضطرب له جسمه الهزيل، فاقترب منه حتّى صار لصقه، ومدّ يده ليربّت على منكبه فلاحت منه التفاتة إلى الحوض فرأى بقعة حمراء!.. فتصلّبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت متهدّج:

ـ ربّاه!..

ثمّ نظر نحو شقيقه في ارتياع، وكان كفّ عن السعال ولكنّه لم يزل في غيبوبة منه، يعلو صدره وينخفض، ويتنفّس بصعوبة، وقد احمرّت عيناه، فتريّث الرجل حتّى استعاد الفتى أنفاسه، وقال بلهفة منزعجًا وهو يشير إلى البقعة الحمراء:

ـ ما هٰذا يا رشدي؟!

فرفع إليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح:

ـ هٰذا دم!

ـ ربّاه!.

فتجلّى الحزن في عيني الشابّ، ثمّ أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ أصبت وانتهيت!

فقال أحمد وكأنّه يتوسّل إليه:

ـ لا تَقُلْ هٰذا!.

فقال الشابّ بقنوط:

ـ هي الحقيقة يا أخي!

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض، وتأبّط ذراع الشابّ، وسار به إلى حجرته ـ حجرة الشابّ ـ ومضى إلى النافذة فأغلقها، وجلس رشدي على الفراش فأتى الآخر بكرسيّ وجلس أمامه، ثمّ سأله بعد أن ازدرد ريقه:

ـ ماذا تقول يا رشدي؟ صارحني بكلّ شيء!..

فقال الشابّ بهدوء:

ـ ذهبت أخيرًا إلى طبيب فقال لي إنّ بالرئة اليسرى مبادئ سلّ!

- ٣٤ -

والحقيقة أنّه ظلّ يعاني آلامًا بارحة منذ منتصف ديسمبر، وحدث أن اشتدّت عليه نوبة السعال في

المصرف مرّة فاستخرج منديله ليبصق فيه فما روّعه إلّا أن بصق فيه دمًا! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياع، ثمّ دسّ المنديل في جيبه خشية افتضاح أمره. وغادر المصرف إلى عيادة طبيب اختصاصيّ في الأمراض الصدريّة، وجلس بين المنتظرين يقلّب بصره الزائغ في الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين، واستولى عليه القلق والانزعاج، وتساءل هل يقع فريسة لذاك المرض الخطير الذي تقشعرّ لذكره الأبدان؟، وكان سمع مرّة صاحبًا يقول إنّ السلّ داء لا برء منه، فذكر قوله خافق الفؤاد. ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال، فأشفق من أن يكون ذاك الداء الوبيل أولى تجاربه القاسية. واشتدّ به القلق في جلسته حتّى تهيّأ له أن يقتحم حجرة الكشف، ولٰكنّه تصبّر حتّى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهدًا اضطرابه وانزعاجه. وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والآلات وأخيرًا الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه، ثمّ انتظر واقفًا، وجفّف الدكتور يديه والتفت نحوه. كان قصيرًا نحيفًا دقيق الأعضاء، إلّا أنّه كبير الرأس أصلعه، واسع العينين جاحظ الحدقتين، حادّ النظرة؛ فحيّاه الشابّ برفع يده إلى رأسه، فقال له الرجل بصوت رفيع:

ـ أهلًا وسهلًا. تفضّل بالجلوس.

فجلس رشدي على مقعد كبير، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضًا وراءه واستخرج كرّاسة ضخمة وفتحها وسأل الشابّ عن اسمه وصناعته وعمره ورشدي يجيب. ثمّ حدجه بنظرة الاستفهام التقليديّة فأشار رشدي إلى صدره قائلًا:

ـ أريد أن أكشف على صدري.

وما كاد يتمّ قوله حتّى انتابه سعال عنيف، فانتظر الدكتور حتّى أمسك واستردّ أنفاسه وسأله:

ـ هل أصابك برد؟.. متى؟..

ـ أصبت بالإنفلونزا منذ أكثر من أسبوعين، وكانت حادّة، والظاهر أنّي استأنفت عملي قبل أن أبرأ تمامًا، فلم يفارقني الإعياء، ثمّ كان هٰذا السعال العنيف فتدهورت صحّتي..

وأسهب الشابّ في وصف السعال وآلامه وعمّا فقد من وزنه، فقاطعه الدكتور متسائلًا:

ـ ومتى بُحّ صوتك؟

فأجاب الشابّ:

ـ منذ أسبوع على الأقلّ.

فأمره أن يعرّي نصفه الأعلى، فقام الشابّ، وأخذ في فكّ رباط رقبته ثمّ خلع السترة والقميص والفانلّة، وتصدّى للطبيب نضوًا مهزولًا، ووضع الرجل السمّاعة على أذنه وجعل يتلقّى بها آثار نقر سبّابته على الصدر والظهر. ولاحظ رشدي أنّه كرّر ذٰلك كثيرًا على موضع في أعلى النصف الأيسر من الصدر، وطلب إليه أن يرتدي ملابسه، ثمّ سأله:

ـ هل بصقت دمًا؟

فانخلع قلب الشابّ، وتريّث قليلًا، ثمّ قال بصوت منخفض:

ـ نعم... لاحظت ذٰلك مرّتين أو ثلاثًا!

فجاء الطبيب بقنّينة زرقاء وأمره أن يتنحنح بشدّة ويبصق فيها، ثمّ مضت فترة وجيزة ورشدي منتصب القامة، ثقيل الأنفاس كمَن ينتظر النطق بالحكم، وقال الدكتور:

ـ إنّي أشكّ في وجود حالة ما في الرئة اليسرى، ولبس من الحكمة الجزم بشيء الآن، ولٰكن اذهب توًّا إلى الدكتور (...) ليصوّر صدرك بالأشعّة وعد إليّ بالنتيجة.

وحذّره من أن يشقّ على نفسه بأيّ مجهود!، ولٰكنّ رشدي لم يبرح موقفه وقد تجهّم وجهه وغشيته كآبة ثقيلة. فاستطرد الدكتور قائلًا:

ـ عسى أن أكون مخطئًا! ولٰكن حتّى لو صحّ ظنّي فالإصابة بسيطة.

ومضى إلى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعّة، وانتظر أيّامًا يعاني آلامًا نفسيّة مروّعة إلى جانب آلام السعال. ولم يكن في الحقيقة مطبوعًا على الخوف أو الوساوس والأوهام، ولٰكنّه وجد نفسه فجأة تحت رحمة أفتك الأمراض، وأثّر فيه اسم المرض تأثيرًا بالغًا. ثمّ رجع إلى الدكتور الأوّل ومعه صورة الأشعّة، وفحصها

الرجل بعناية ثمّ تحوّل إليه قائلًا:

- كـظّني تمامًـا!.. سمِّه خـدشًا خفيفًـا أو قذارة سطحيّة إن شئت.

وغاض الأمل، ولاح القنوط في العينين العسليّتين وهما ترمقان صورة الأشعّة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئًا. خدش خفيف أو قذارة سطحيّة!.. هل تُضْحي الحياة رهينة بهاتيك التّوافه!

وقال للدكتور بصوت حزين:

- فلنسمّه بما تشاء، فهل يعني هٰذا إلّا أنّه سلّ لا يرجى له شفاء؟!

فحدجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع:

- لا يهولنّك هٰذا الاسم، واطرح جانبًا المخاوف التي لا أساس لها من الحقّ أو العلم، واعلم أنّ حالتك مضمونة الشفاء إذا اتّبعت ما أنا موصيك به..

وأمسك قليلًا كالمتفكّر، فقال الشابّ بإشفاق:

- يقولون إنّ هٰذا الداء لا شفاء منه!

فهزّ الرجل منكبيه باستهانة وقال:

- انبذ هٰذه الآراء، واعلم أنّي كنت يومًا من ضحاياه، بَيْد أنّه يلزمك الغذاء الجيّد جدًّا والراحة التامّة والهواء الجافّ النقيّ، وكلّ أولٰئك متوفّر في المصحّة، فإلى حلوان دون تردّد.

- وكم يستغرق العلاج من الزمن؟

- ستّة أشهر على أكثر تقدير!

فانقبض صدر الشابّ، وأيقن أنّ هٰذه المدّة تقضي عليه حتمًا بفقد وظيفته، وغدًا إذا ذاعت الحقيقة وعلم بها «الجيران» فقدَ فتاته كذٰلك! فنفر من اقتراح المصحّة، وقال للدكتور:

- وإذا كانت هٰذه الشروط متوفّرة في البيت؟

- أين تقطن؟

- في خان الخليلي...

- هٰذا مكان رطب فيما أعلم، والمصحّة خير مأوًى لك، ولا تَنْسَ العناية الطبّيّة هنالك!.

وقوي أمله في أن يستشفى في البيت دون أن يعلم بسرّه إنسان فيطمئنّ على وظيفته وفتاته، فقال:

- وإذا تعذّر عليَّ الانتقال إلى المصحّة؟

فهزّ منكبيه تارة أخرى وقال:

- هنالك ينبغي لك مضاعفة العناية في البيت، خصوصًا الراحة والغذاء، فإيّاك أن تفارق فراشك، وسأصف لك العلاج الطبّيّ.

وفي أثناء انشغال الدكتور بكتابة «الروشتة» خطر له - أي الشابّ - خاطر هامّ، فتردّد لحظة ثمّ قال متسائلًا:

- ثمّة سؤال آخر: هل يمكن.. أعني متى يمكن أن يتزوّج مَن كان مريضًا مثلي؟!

فابتسم الطبيب لأوّل مرّة ثمّ قال:

- أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستّة أشهر، ومن الضروريّ بعد ذٰلك أن تبقى عامًا كاملًا تحت الاختبار، ويا حبّذا لو صبرت نصف عام آخر...!

ونصحه مرّة أخرى بالانتقال إلى المصحّة إذا وسعه ذٰلك، ثمّ وصّاه - إذا لم يسعه الانتقال - بزيارته من حين لآخر. وعاد رشدي ينوء بكمده وكربه، وكان كلّ شيء يبدو كحلم مزعج، وامتلأت أذناه بل دنياه جميعًا بذلك اللفظ المرعب «السلّ»، فهل يصدّق ما يقوله الناس، أو يطمئنّ بما قاله الدكتور؟ وهل قرّر الدكتور - بما قال - الحقيقة أو أراد أن يُفْرخ روعه؟. ولٰكنّه صارحه أيضًا أنّه كان من ضحايا المرض، ولا يجد مسوّغًا لتكذيبه. أجل إنّ ستّة أشهر زمن طويل، فليتحلّ بجميل الصبر وليتوكّل على الله. ولو كان حرًّا يفعل ما يشاء لفضّل الاستشفاء في المصحّة، ولٰكن دون ذٰلك فقدان وظيفته، وحبيبته!. فما العمل؟!.. إنّ صحّته مهدّدة، صحّته التي لم يقدّرها حقّ قدرها إلّا الساعة. فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحسّرًا متأوّهًا قبل اليوم، ولا سبق إلى ظنّه أنّ الصحّة شيء يزول أو يتغيّر. ولٰكن ما قيمة الصحّة إذا فقد عمله؟ وما جدواها إذا حيل بينه وبين الفتاة التي شغف بها حبًّا؟ فمن الحكمة ألّا يبرح البيت، وأن يتعهّد نفسه بالعناية والدواء دون أن يطّلع أحد على سرّه. وبذٰلك يستردّ صحّته محتفظًا بسرّه ووظيفته وحبيبته. هٰكذا تسلسلت أفكاره، ويسّر له الاقتناع بها أنّ قواه كانت

وما تزال متماسكة، وقدرته على النشاط والحركة متوفّرة. وشرع في العلاج منطويًا على سرّه حتّى شاءت المصادفة أن تُطْلع أخاه عليه، فرح الخفاء! والواقع أنّه لم يأسف لذلك كثيرًا، لا لأنّ أخاه قطعة من نفسه فحسب، ولكن لأنّ صدره بات يتصدّع بسرّه الخطير، فوجد في البوح لشقيقه ارتياحًا وسلامًا، فأفضى إليه بكلّ آلامه، ما عدا ما يتعلّق منها بالمصحّة مستوصيًا بالحذر. . . .

ـ ٣٥ ـ

وأصغى الكهل إليه في صمت وذهول وحزن عميق، وزايلته الحالة المضطربة التي كانت تعتور مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألوانًا متضادّة من الميل والنفور، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا يقاوم، ودرَّت حناياه له حبًّا خالصًا وإشفاقًا شديدًا وحزنًا مبرّحًا.

بَيْد أنّ ذكرى خطرت من الماضي القريب الأسيف، ولكنّه ذبّها عن مخيّلته بقسوة خجلًا ثائرًا وامتلأ صدره حنقًا على الفتاة التي استثارتها!

وانتهى رشدي من قصّته فتبادلا نظرة أسى وحزن وكآبة.

ثمّ قال أحمد:

ـ هذا أمر الله، لن نيأس من رحمته، فينبغي أن نصدّق الطبيب فيما يقول فليس العهد بالأطبّاء أن يكذبوا رحمة بمرضاهم. فالإصابة إذن بسيطة ولكن ينبغي أن نحتشد لها كلّ ما في وسعنا من عناية وحكمة، وإن كان يدهشني أنّك لم تفض إليّ بالحقيقة في وقتها. . !

فقال الشابّ بسرعة وإن خالف الواقع:

ـ عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن أزعج أحدًا، ولكنّي كنت أتحيّن الوقت الذي أفضي إليك بالأمر وحدك!

فقال أحمد بحزن شديد:

ـ هي إرادة الله، فلنصبر على حكمه حتّى يمنّ علينا بالشفاء، وهو أرحم بنا من أنفسنا، والآن فأخبرني عمّا عزمت عليه.

فساور رشدي القلق، ورمق أخاه بحذر وهو يقول:

ـ سأنفّذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال، وقد أوصاني بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن!

فبدا على وجه الرجل كأنّه لم يقتنع بما سمع وقال:

ـ ولكنّ المصابين بهذا المرض يقصدون عادة إلى المصحّة!

فكذب رشدي مرّة أخرى قائلًا:

ـ لم يجد الدكتور ضرورة للمصحّة!

فلاح الأمل في نظرة الكهل الواجم وقال:

ـ لعلّها إصابة تافهة يا رشدي!

ـ أجل. . أجل. . هذا ما أكّده لي!

ـ عسى ألّا تطول إجازتك!

فعاد القلق يساوره، وقال بصوت منخفض:

ـ ولكنّي لن أطلب إجازة!

فانزعج الرجل وقال بإنكار:

ـ فكيف يتمّ استشفاؤك؟!. . إيّاك وأن تستهتر بالمرض مهما قيل عن بساطة الإصابة وحسبك استهتارًا يا رشدي!

ـ معاذ الله أن أستهين بحياتي يا أخي، وسترى بنفسك منذ اليوم أنّي سآخذ نفسي بالراحة المطلقة في ما عدا أوقات العمل، وسأعوّض ما أبذله من قواي لعملي بالغذاء المختار والأدوية المقوّية. أمّا طلب إجازة مرضيّة فمخاطرة بوظيفتي ومستقبلي!

ـ ألا تغالي في تقديرك؟!

ـ كلّا يا أخي، فإذا عرف طبيب المصرف مرضي استحال عليّ العودة إلى العمل قبل الشفاء التامّ، وقد يقتضي ذلك زمنًا طويلًا لا آمن معه أن أفصل من وظيفتي! بل الفصل محتوم في تلك الحال نظرًا لما منحته من إجازات مرضيّة هنا وفي أسيوط من قبل. . .

فتجهّم وجه الكهل واشتدّ عليه الضيق، ثمّ قال بتألّم:

ـ ربّاه!. الصحّة فوق الوظيفة، كيف يتاح لك الشفاء وأنت جاهد في عملك!.

فقال رشدي برجاء وانفعال:

ـ لقد استأذنت الدكتور في ذلك فأذن لي، وهو أدرى، وسيتمّ الشفاء بإذن الله بغير ضياع مستقبلي، وبغير «فضيحة».

فاشتدّ التأثّر بأحمد وقال مستنكرًا:

ـ فضيحة!.. ليس في الأمر فضيحة، هٰذا بلاء من الله، وكلّ إنسان عرضة للأمراض إلّا من أمر الله له بالسلامة، ولٰكنّي أخاف..

ـ لا تخَفْ، وادعُ لي ربّك، وستجد منّي ما يطمئن خاطرك!

فسكت أحمد مغلوبًا على أمره. وتنهّد الشابّ بارتياح، وراح يحدّث أخاه بما سوف يتّخذ من تدابير الوقاية، فقال له: إنّه سيحضر حامض فنيك لتطهير الحمّام والحوض كلّ صباح، وإنّه سيقتني أواني خاصّة لطعامه وشرابه متعلّلًا بأنّها هديّة من شخص عزيز، وأنصت الرجل إليه بانتباه. ولأوّل مرّة خامره الخوف والقلق، وخشي العدوى، وكان بطبعه هيّابًا موسوسًا. أمّا رشدي فكان يتحفّز لضراعة جديدة لا تقلّ خطرًا في نظره عمّا سواها إن لم تزد، فقال:

ـ وهنالك يا أخي أمر عظيم الأهمّيّة أرجو أن ترعاه بالعناية التي أرعاه بها، وهو أن يبقى ما دار بيننا سرًّا دفينًا..

فدهش أحمد، وذكر ما قاله منذ لحظات من أنّه سيقتني أواني خاصّة متعلّلًا بأنّها هديّة، فغمغم قائلًا:

ـ ووالدانا؟!

فقال رشدي بحزم:

ـ لا ينبغي أن يعلما بشيء، فلا داعي لإزعاجهما، ثمّ إنّ فزع أمّي كفيل بافتضاح السرّ!

فارتبك الرجل، وأيقن أنّه مقبل على حياة مؤلمة غريبة، فتنهّد قائلًا:

ـ بيَدك الأمر يا رشدي، فإذا توثّبت للشفاء حقًّا أمكن أن يظلّ السرّ سرًّا، أمّا...

ـ لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم..

وأدرك بسهولة ما يحمل الشابّ على إخفاء مرضه حتّى عن والديه، فإنّه ليخاف أن ينمو الخبر إلى مسامع أسرة فتاته فيهون عليهم بمرضه. وتأثّر لذٰلك غاية التأثّر، وتغلغل الحزن في أعماق قلبه، بَيْد أنّه خشي أن يكون الشابّ قد شقّ على نفسه بالاستمرار في عمله ـ على مرضه ـ ليبدو أمام الفتاة وأسرتها كالسليم المعافى، خشي أن يؤذي نفسه في سبيل حرصه على الفتاة، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالهمس:

ـ رشدي إذا كنت ترغب عن طلب الإجازة كي يبقى الأمر سرًّا، فيمكن أن نختلق سببًا نعتلّ به على طلب الإجازة غير هٰذا المرض!

ولٰكنّ رشدي هزّ رأسه بحدّة وقال بلهجة دلّت على البرم:

ـ لا تَعُدْ إلى ما انتهينا منه!

فسكت أحمد، ثمّ نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول:

ـ تشدّد وكن رجلًا كعهدي بك دائمًا، واعلم أنّ الشفاء رهن بإرادتك، حفظك الله ورعاك.

ورجع إلى حجرته محزونا ضيّق الصدر، وقد ستثار الداء الخطير مخاوفه فاهتزّ فؤاده عطفًا على شقيقه المحبوب، نسي في تلك الساعة أنّه كان الآلة التي طعن الغدر بها آماله، أو أنّه الشخص الذي جرح كبرياءه وداس غروره، ورآه على حقيقته الأخ المحبوب الذي نشأ بين ذراعيه وغذّى عواطف الأبوّة من نفسه عشرين عامًا، ولـمّا حانت منه التفاتة إلى النافذة المغلقة التي سمّاها يومًا بنافذة نوال تحوّل عنها كالغاضب، وأبى قلبه أن يذكر الفتاة كأنّ استدعاءها إلى رأسه جريمة لا تغتفر في حقّ الشابّ المريض، فينبغي أن تقطع هٰذه الكارثة المحزنة ما تخلّف من أسباب الذكريات، وقال لنفسه: «ذاك شيء انتهى وانقضى، والتأسّف عليه وخز لعواطف الحبّ التي يكنّها قلبي لشقيقي» وكان يتكلّم بحدّة دلّت على السخط والاستياء، والحقّ أنّه كان ساخطًا على نفسه، فلم يَنْسَ أمنيته الآثمة أن تبيد القاهرة، ولا حلمه المخيف الذي استيقظ منه على تأوّهات الشابّ ليلة اشتداد الحمّى عليه، ربّاه أيّ شيطان مقيت في أعماقه ينفث هاتيك الأخيلة!..

ـ ٣٦ ـ

وتوثّب رشدي عاكف بحماس لمقاومة مرضه

الخطير، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية، وخصّ نفسه ـ فوق طعام البيت المعتاد ـ بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام، وأنفق في ذٰلك عن سعة، وكان يُطلع أخاه على خطى كفاحه أوّلًا بأوّل ليطمئنّ فؤاده المحبّ. ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارص على حال تبشّر بالخير. فقنع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين، ثمّ لا تأتي الساعة العاشرة مساءً حتّى يكون قد راح في نوم هادئ عميق. وزايلت البحّة صوته وخفّ السعال فأوشك أن يزول، وراعه ذٰلك وأيقن فرحًا جذلًا أنّه يتماثل للشفاء، ولٰكنّ هزاله لم يزل ولونه لم يستردّ. وكان يزور الطبيب كلّ عشرة أيّام فوالاه بالنصح ووصّاه بمضاعفة العناية.

وقد كانت أيّام المرض الأولى سودًا؛ فوقع فريسة للأوهام والمخاوف، وخامره شعور مفزع بالقنوط، وتهيّأ له أنّ حياته تؤذن بالوداع، حياته التي يكنّ لها حبًّا لا يكنُّه لها أحد من بنيها المخلصين، كلّما ذكر أنّه في القاهرة حيثما كان ينبغي أن يكون في حلوان، وأنّه في عمل بينما كان ينبغي أن يكون في إجازة، اشتدّ خوفه وفزعه، بيْد أنّ أولٰئك الانفعاليّين لا يعرفون التردّد في ما تدعو إليه أهواؤهم، ويتّخذون من عقولهم ما يتّخذه الآثم من المحامي الماهر، فاستطاع أن يقنع نفسه ـ حتّى في ساعات خوفه ـ بوجاهة الرأي الذي ارتآه ونفّذه. ولـمّا زايلت صوته البحّة وسكت فيه السعال أو كاد، غمره الارتياح، واستردّ ثقته بنفسه، وشعوره بالأمان وتعلّقه بالأمل، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروّع قطرات من السكينة والرحمة. ولم يمْضِ على ذٰلك أمد طويل حتّى عاوده شعوره بالجسارة ونزوعه إلى الاستهتار، وألحّ عليه حبّه العميق لمسرّات الحياة، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل. ورمق صبره وقوّة إرادته بعين الإعجاب، وذكر شهر يناير ـ الذي أذعن فيه لـما عاهد عليه نفسه أمام أخيه ـ بالدهشة والإكبار، وكأنّه لا يصدّق أنّه استطاع حقًّا أن ينزوي ويستقيم شهرًا كاملًا. ومن فرجة الأمل الباسم سمع مسرّات الحياة ـ مسرّات حياته ـ تناغيه بهمساتها الساحرة كتغاريد البلابل في الصباح الباكر، فذكر في وحدته الإخوان وكازينو غمرة والليالي الصاخبة. فتخايلت لعينيه وجوههم المرحة، ورنّت في أذنيه أصداء ضحكاتهم المجلجلة، ودعاؤهم له بقلب الأسد، كنيته التي يحبّها ويطرب لها ويخاف عليها عوادي النسيان. يا لهم من إخوان لا تطيب الحياة إلّا بهم، ما أظرفهم وما ألطفهم!، وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون في المصرف حين انقطع عنهم!؟، أين أنت يا عمّ رشدي؟، ما هٰذه الغيبة الطويلة؟، لقد كنت في أسيوط أقرب إلينا منك وأنت في القاهرة! إلامَ يبقى كرسيّ قلب الأسد شاغرًا؟، أوحشتنا نقودك!. ولَكَمْ ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامّة!، وأهاجه الحنين إلى الصحاب واستفزّه الشوق إلى المرح، واستهامته اللهفة على اللذّات، وجعل يقول لنفسه هل في لقاء ليلة حرج؟! هل تقتل سهرة أو تميت؟!، والحقّ أنّ هيامه بالحياة لم يفتر بسبب الداء، بل بالأرجح أنّه غدا أرهف حسًّا وأعنف نشاطًا وأضرم حبًّا وولعًا، ثمّ استحرّ الإغراء فانعدم التردّد، ووجد لخلاصه من عذاب الحيرة ارتياحًا فراح يدندن بصوت رخيم «ما اقدرش أنساك»، ولم يكن ترنّم بغناء منذ شهر ونصف. وعندما أتى المساء تلفّع بمعطفه وأحكم الكوفيّة حول عنقه ومضى إلى السكاكيني، وما إن لاحت لعينيه حديقة كازينو غمرة حتّى هتف من أعماق الفؤاد «أهلًا وسهلًا ومرحبًا». وتلقّاه الإخوان بالسرور، فاستسلم لتيّارهم الجارف، وأخذوا في الحديث الماجن كعادتهم طويلًا، ثمّ انتقلوا إلى البهو الداخليّ يدخّنون ويشربون ويقامرون، وخاف أن يمتنع عن لذّة فيثير الظنون، ورغب من ناحية أخرى أن يتناسى ـ في يقظة الأمل ـ أنّه يطوي في رئته اليسرى ما تقشعرّ الأبدان لذكر اسمه، فدخّن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثا الدفء إلى جسده البارد، وقامر أيضًا وإن تردّد قليلًا لأنّ تكاليف الدواء أرهقت ميزانيّته، ولٰكنّ الحظّ ابتسم فربح زهاء الجنيهين،

وآب مسرورًا وإن شعر بحرارة تلتهم أنسجته، وأجهده المشي في الجوّ القارص، وبلغ البيت في حالة مضعضعة من الإعياء، وما إن أغلق الباب في هدوء حتّى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه، فدعاه إلى حجرته، ومضى إليها مرتبكًا يمشي على استحياء، وهتف به أخوه:

ـ ماذا فعلت؟.. هل جننت؟.. أهٰذا ما اتّفقنا عليه؟!

فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة تدلّ على الارتياح والحرج فاستدرك أحمد:

ـ هٰذا فوق التصديق، وما دريت به حتّى نبا بي الفراش، وظلّ نومي خفيفًا قلقًا حتّى أيقظتني صفقة الباب، أهٰذا ما اتّفقنا عليه؟

وخرج رشدي عن صمته بأن قال بصوت منخفض:

ـ أنت تعلم يا أخي أنّي حافظت على الاتّفاق شهرًا كاملًا، ثمّ نازعتني نفسي أن أروّح عنها قليلًا..

ـ هٰذا كلام إنسان يجهل الحقيقة أو يتجاهلها، ألا تعلم أنّ استهتار ليلة واحدة يهدر ما بنيته في شهر كامل؟!

ـ ولٰكنّي في الواقع أشعر بتحسّن كبير!

فقال أحمد بحدّة:

ـ أنت تخدع نفسك، وتقسو عليها بجهلك، وتركك حرًّا خطأ كبير، ولو كان الدكتور يعلم بما فطرت عليه من استهتار لحتّم عليك أن تنتقل إلى المصحّة غداة الكشف عليك.

فتجلّى الحزن في عيني الشابّ، وتكدّر صفوه، وكان الجهد قد أعياه، فقال كالمعاتب:

ـ لا تكن قاسيًا على غير عهدك.

ـ ها أنت ذا لا تفرّق بين الحنان والقسوة، فتدعوني قاسيًا جزاء قلقي وسهادي وإشفاقي، فلكم تقسو على نفسك وعليّ!

واشتدّ بالشابّ الإعياء والتأثّر، فاغرورقت عيناه، ممّا أسكت غضب أحمد وحوّله إلى إشفاق وتألّم وعدم ارتياح، فوضع يده على كتف الشابّ وقال بهدوء:

ـ حسْبك تعبًا وحسْبي ألـمًا فلا تبْكِ، لا بكيتَ أبدًا، ولن أزيدك فالله وحده كفيل بأن يلهمك الصواب، إنّ قلبي يخاف عليك ويدعو لك فامْضِ إلى فراشك واتّقِ الله في صحّتك!

وجعل يتساءل منزعجًا تُرى هل يستعيد الشابّ سيرته الأولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير؟!

ـ ٣٧ ـ

واستقبلت الدنيا أيّام فبراير الأولى مشفقة من رياحه العاصفة وزوابعه الباردة المزمجرة، وقد تلفّعت السماء بأردية ثقيلة داكنة من السحاب الجون، فأمست الأرض كفرخ في بيضة، ترقب الربيع لتشقّ حجاب الظلماء عن بهجة النور وعبير الأزاهر، وظلّ رشدي جسدًا مهزولًا في قرارته ضرام لا يخمد من العواطف والأحاسيس وفي قلبه تمرّد ثائر على الأغلال التي صفّده بها المرض الخطير. وكان الطبيب أعاد عليه الكشف أخيرًا وقال له إنّ حالة الصدر لم تتحسّن! فخاب أمله، وتنغّص عليه سروره السابق بشفاء صوته وسعاله، لقد صبر طويلًا، وهجر الحياة التي يعشقها، وكان يرجو ويأمل، فمتى تتحسّن إذًا، والأدهى من ذٰلك أنّ الطبيب ألحّ عليه أن يجد سبيلًا إلى حلوان، فهل أيس الرجل من أن يسعى الشفاء إليه في القاهرة؟! وما جدوى العذاب والصبر إذًا؟ وفضلًا عن هٰذا فأخوه لا يخفي عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه، فبات ساخطًا متبرّمًا.

وكان ذات مساء يلقي درسًا على تلميذته، فكلّفت نوال أخاها أن يحضر كوبًا من الماء، ولـمّا خلا لهما المكان قالت للشابّ بسرعة متسائلة: «ألا تستطيع أن تقابلني صباحًا كما كنت تفعل؟.. ولو مرّة واحدة!» فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردّد، متعاميًا عن العقبات جميعًا: «غدًا صباحًا!». ثمّ ذكر أخاه الذي صار سجّانه فقال لنفسه: «إنّه سلّم بضرورة خروجي صباحًا الساعة الثامنة، فما يضيره لو قدّمت الميعاد ثلاثة أرباع ساعة؟». ونهض مبكّرًا في اليوم الثاني، وتناول فطوره الدسم، ورصد أخاه حتّى دخل الحمّام فانطلق

إلى الخارج كالهارب، ورأى في الممرّ المفضي إلى السكّة الجديدة حبيبته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها الرماديّ، متأبّطة حقيبتها، فطرب قلبه طربا أنساه شجونه، ثمّ صعد في أثرها طريق الدراسة، فذكر كيف كان يصعد هٰذا الطريق في أعقابها صحيحًا معافًى صافي أديم الفؤاد، وتنهّد من أعماق فؤاده متحسّرا مغمغمًا: «ما أنفس كنز الصحّة!». ورفع بصره إلى جبل المقطّم وقد أطبقت السحب على قمّته، وكانت السماء تذكّره دائما بربّه، فدعا الله أن يأخذ بيده!

ولحق بها بعد المنعطف، وأخذ يمناها بيسراه، فعطفت رأسها نحوه وعلى ثغرها ابتسامة، وقالت تداعبه بلهجة لم تَخْلُ من عتاب:

ـ أهانَ عليك طريقنا هٰذا أيّها الغادر؟

فهزّ رأسه متأسّفًا وتمتم:

ـ لعن الله البرد!

ـ كان ينبغي أن تبرأ منذ أمد طويل، فما هٰذا التلكّؤ؟!

فامنعض قليلًا وقال:

ـ أجل، وما بقي فهو هيّن.. والحقّ أنّ إهمالي هو المسئول الأوّل!.

وكانت تعلم طبعًا أنّه انقطع عن لقاء الصباح بسبب السعال، فلمّا زايله السعال تشجّعت ودعته إلى مرافقتها شوقًا إلى الانفراد به، وقد اختلست نظرة من وجهه الشاحب النحيل وقالت له:

ـ ألا تدري ماذا تقول عنك نينة؟

فخفق فؤاده، وخشي أن يسمع تلميحا لبقًا إلى مسألة «الخطوبة» وسألها:

ـ ماذا تقول يا تُرى؟

ـ قالت لي ضاحكة: ما بال أستاذك نحيفا كالخيال؟!.. هلّا تقبّل منّي وصفة للسمن؟!

وضحكت نوال ضحكة رقيقة، فجاراها في ضحكها، ليجاري شعورا بالحزن غشي صدره، وساوره القلق، ولٰكنّه لم يرَ بدًّا من أن يقول بلهجة تكلّف بها السرور:

ـ وما حاجتي إلى السمن والنحافة موضة؟! أبلغيها شكري وقولي لها إنّي طامع في المزيد من النحافة..

وقطّبت فجأة كأنّما ذكرت أمرًا ذا خطر وقالت بلهجة التعنيف:

ـ على فكرة يا ماكر!.. يحلو لك أحيانًا ونحن حول مائدة الدرس أن تداعب قدمي بقدمك متجاهلًا أنّ قدميك منتعلتان وقدميّ عاريتان!.

فضحك رشدي، وقد تورّد وجهه، وقال:

ـ نفسي فداء لقدميك العزيزتين!

ومرّا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادي الصحراء، فقالت له وهي تومئ إلى النادل وكان يتناول فطوره:

ـ ألم تدْرِ أنّ هٰذا النادل الخبيث فطن إلى تواعدنا كلّ صباح؟! فلمّا رآني أسير وحدي الأيّام الماضية جعل يصفّق بيديه كلّما مررت به ويموّل وكأنّه يحدّث نفسه: «أين أليفك يا بلبل؟.. كلّ الأحبّة اثنين اثنين!».. ربّاه!.. لكمْ تولّاني الحياء حتّى كدت يُغمى عليّ!.

واسترسلا في الضحك مرّة أخرى وكانا يقتربان من منعطف الطريق الذي توجد على جانبيه مقبرة عاكف الخشبيّة، ولمحتها الفتاة فقالت:

ـ أنتم مدنون لي بمائة رحمة على الأقلّ، لأنّي أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كلّ صباح!

فقال لها مبتسما:

ـ أنت يا نوال رحمة للجدّ وعذاب للحفيد!

ثمّ امتدّ بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنّه شيطان انشقّت عنه أرض الموتى، هل يجري القضاء غدا بأن تقرأ فتاته ـ وهي آخذة طريقها هٰذا ـ الفاتحة على روحه هو؟! وانقبض صدره، ثمّ استرق إلى وجهها الأسمر نظرة غريبة، فشعر بأنّها كلّ أمله في الوجود، وبأنّه إذا جاز لشيء أن يسخر من الموت ويستهين بمخاوفه فهو اتّحاد قلبين متفانيين، ووجد دافعا قويًّا يدعوه إلى التعلّق بها، وضمّها إلى قلبه، بل إلى شغاف قلبه إذا أمكن. ولاحت منها التفاتة إليه فطالعت نظرته الحالمة، فلاح في وجهها الجدّ، وسألته:

ـ لماذا تنظر إليّ هٰكذا؟

فقال بصوت متهدّج:

ـ لأنّي أحبّك يا نوال. . . لقد أدركت ـ وأنا أنظر إلى القبور على ضوء عينيك ـ معنى القول إنّ الحياة الحبّ، وقالت لي القبور إنّ كلّ ساعة نرضى بأن تفرّق بيننا جريمة عقابها ظلمة القبر، وسمعت صوتًا يهتف بي: لله ما أحمقكم تضنّون بالتافه من الأشياء عن العبث وتعبثون جزافا بنعمة الحياة!. .

فتورّد خدّاها وأضاءت عيناها الصافيتان بنور الوجد، فلم يعودا (هو وهي) يشعران بهبّات الهواء البارد المندفع من الصحراء، وشدّ على راحتها وسارا صامتين. ومضى يتساءل تُرى كيف يسوّغ أن يمسك عن ذكر «الخطبة» بعد كلّ ما قال! وكانت تتوقّع من ناحيتها أن يطرق الموضوع المحبوب قبل كلّ خطوة تخطوها، ولٰكنّه لزم الصمت حتّى شارفا نهاية الطريق، وتوادعا ثمّ افترقا، فبطؤت حركته وهو يتابع مسيرها بنظرة استجمعت في حنانها جميع ما في قلبه من حبّ ووجد وحزن، حتّى انعطفت مع الطريق إلى العبّاسيّة، وأخذ في طريقه إلى محطّة الترام، وعند ذاك فحسب شعر بالإعياء واضطراب الأنفاس ودوار يوشك أن يصير غثيانا. .

* * *

ولذٰلك لم يفتْه أن يحدّث أخاه عن الخطبة وعمّا عسى أن يحدثه إمساكهم عن فتح موضوعها من سوء الظنّ في نفوس أهل الفتاة، ولٰكنّ أخاه ـ وكان غاضبا لعودنه إلى الخروج المبكّر ـ لم يوافق على مفاتحة كمال خليل أفندي بهٰذا الشأن قبل الشفاء الكامل، فقال للشابّ:

ـ اعتلّ بما تشاء من المعاذير فأنت أستاذ في اللباقة، ولٰكن لا يجوز أن نتكلّم رسميًّا قبل أن تشفى تمامًا إن شاء الله، سيكون إعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همّتك!

وعجز الرجل عن إقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرّض لأذى البرد، فأيس منه وسلّم إلى الله سائلًا إيّاه اللطف والرحمة، وكان ممّن يشقون بآلام الأقربين، فتجد الأوهام والمخاوف من صدورهم الضعيفة مرعًى خصيبًا للهواجس والأحزان، فصار مرض شقيقه ـ منذ اللحظة الأولى ـ شغله الشاغل وهمّه اللازم وشوكة سامّة في جانب طمأنينته

وامتدّ خوفه إلى نواح أخرى حتّى ألقى به في النهاية في مواجهة مشكلة من أدقّ المشكلات الخلقيّة، لم تكن لتخطر له على بال. فلم يغب عن ذهنه أنّ شقيقه يلتقي بالفتاة كلّ صباح، وربّما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ، فإذا أغراه الهوى ـ شأن المحبّين ـ بقبلة، أفلا تتعرّض الفتاة لأذًى بعيد الغور؟! ألا يدرك رشدي خطورة الأمر؟!. . . ألا يجد من ضميره وازعًا؟! ولٰكن كيف ممّن يستهين بحياته أن يعرف لحياة الآخرين قيمة؟. . وتفكّر في الأمر طويلًا، متكدّرًا مغتمًّا، لا يدري كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقيّة صافية، ولم يداخله شكّ في أنّها كذٰلك ولا كانت تخلو في الواقع من شعور أخلاقيّ عميق، ولٰكنّه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعيّ إلى تفحّص نفسه، أو أنّ العين في أحايين كثيرة لا ترى إلّا ما تحبّ أن تراه، فتكدّر واغتمّ، وأفضى به الكدر والغمّ إلى حيرة شديدة، فلا هو يستطيع أن ينمي الحقيقة إلى كمال خليل لأنّ خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها، ولا هو يستطيع أن يكاشف الشابّ بمخاوفه أن يصيب مقتلًا من نفسه الحسّاسة الرقيقة، وعذّبه القلق والتردّد والإشفاق، ولم يكن أبدًا ذا عزيمة أو إرادة، فنكص على عقبيه بقلب حائر وفكر مشتّت، وظلّت المخاوف تطارده، وتلحّ على ضميره حتّى بلغ منه الإعياء والكلال، فتساءل في يأس وقنوط: «أليست غيبوبة المعلّم زفتة خيرًا من هٰذه الحياة؟!».

ـ ٣٨ ـ

وزادت حال رشدي سوءًا، فاشتدّ هزاله وشحوبه، ولٰكنّه بدا مستهترًا سادرًا كأنّ الأمر لا يعنيه، ولم يعد يقنع برحلات الصباح في طريق الجبل فكان كلّما نازعه الشوق إلى كازينو غمرة انطلق إلى الإخوان يعربد

معهم حتّى مطلع الفجر. وكان أحمد يقول له مبكّتًا: «أتروم الانتحار؟!». والحقّ أنّه انحدر في سبيل الانتحار بلا قصد، وعجز عن مقاومة ميله الطبيعيّ للّذّات، وأذعن للحساسيّة المرهفة الجديدة التي أحدثها المرض في نفسه، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسور المتفائلة، فلم يفقد الأمل قطّ، أو لم يفقده إلّا لحظات عابرة، وظلّ على عهده من الجسارة والاستهانة والابتسام. ولٰكنّه فوجئ بعودة السعال بل عاد أعنف ممّا كان في أسوأ حالاته، ثمّ تتابعت عليه نوباته، وتلوّث بصاقه مرّة أخرى بالدم، ولفتت نوبات السعال الموظّفين إليه في المصرف، فساورتهم الشكوك، وأمسى عمله عديم الجدوى، وتنبّه الوالدان للخطر الذي يهدّد ابنهما ونصحا له بالانقطاع عن عمله حتّى يستردّ صحّته، ولٰكنّه بالرغم من ذٰلك كلّه ظلّ يكافح متعلّقًا في جنون بمظاهر الأصحّاء المعافَيْن. ولم يستطع أحمد صبرًا فدعاه يومًا إلى حجرته وقال له بحزم:

ـ إلامَ تتغاضى عن خطورة الحال؟

فسأله الشابّ في استسلام لم يتوقّعه:

ـ بِمَ تشير عليّ؟

ـ لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلًا عن السهر والعربدة!

ـ وإذا انفضح سرّي؟!

قال أحمد بتأثّر شديد:

ـ ليس المرض بالفضيحة، وللضرورة أحكام!

فأطرق رشدي وقد خارت عزيمته وتنهّد من فؤاد مكلوم قائلًا:

ـ الأمر لله!..

ونجم استسلامه المفاجئ عن الإعياء ـ لا الاقتناع ـ ولذٰلك ما كاد يقرّر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقيّ ويمنحه أولى إجازاته المرضيّة حتّى خارت قواه، ورقد على الفراش صريع الضعف والسعال، وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه، ولٰكنّ الحالة اشتدّت اشتدادًا مخيفًا، ورأت الأمّ البصاق الدامي وعلم به الوالد، ففزعا فزعاً شديدًا، وروّع قلباهما الضعيفان. ودعت الحالة إلى استشارة الطبيب، فاقترح أحمد أن يدعوه إلى البيت ولٰكنّ رشدي اختار أن يذهبا إليه معًا، فارتدى بذلته بمساعدة أمّه، وقد اتّسعت عليه أيّما اتّساع، واستقلّا عربة إلى عيادة الطبيب، وصحبه أحمد إلى حجرة الكشف، ولـمّا وقع بصر الطبيب، ولم يكن رآه من أسبوعين، قال بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام:

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

فابتسم رشدي ابتسامة باهتة وتمتم قائلًا:

ـ السعال وضعف شديد!

وأجرى الدكتور الفحص، فساد الصمت برهة غير قصيرة، ثمّ قال بعد الانتهاء:

ـ كلمة واحدة لا أزيد عليها: المصحّة!...

فتجهّم الوجه المصفرّ، وتساءل صاحبه بصوت خافت:

ـ هل زادت الحالة سوءًا؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال:

ـ هي الحقيقة، ولا شكّ أنّك لم تتبع نصحي، ولٰكن لا داعي للخوف إذا بادرت بالذهاب إلى حلوان. سافر اليوم إن أمكن، وستجدني هناك إلى جانبك!..

وسأله أحمد:

ـ هل تطول إقامته في حلوان؟

فقال الرجل:

ـ علم هٰذا عند الله، ولست متشائمًا، ولٰكن لا يجوز الإبطاء!

ورجعا إلى البيت فوجدا الوالدين ينتظران فارغي الصبر، وبادر الوالد أحمد قائلًا:

ـ ماذا به؟

وعلم أحمد أنّ الكذب لن يجدي فقال واجمًا، وباقتضاب ذي مغزًى:

ـ المصحّة!

وساد الصمت، واحمرّت عينا الستّ دولت منذرة بالبكاء، وتمتم الوالد:

ـ ربّنا يلطف بنا! . .

فقال أحمد متصنّعًا السكينة:

ـ ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن لا محيد عن المصحّة!

وكان رشدي لا يزال نافرًا من المصحّة ولكنّه لا يجرؤ على قول «لا» بعد ما صار إليه حاله، فدعا أخاه إلى جانبه وقال له بتوسّل وعلى مسمع من أمّه:

ـ لتكن المصحّة إذا شئت، ولكن. .

وأومأ إلى النافذة، واستدرك:

ـ ولكن لا أحبّ أن يعرفوا الحقيقة! .

فاشتدّ التأثّر بالرجل، وخفق فؤاده بحزن عميق، وقال:

ـ لا تَخَفْ. . . من السهل أن نقول إنّك مصاب بماء في الرئة أوجب سفرك إلى المصحّة! .

فتساءل رشدي محزونًا:

ـ وهل يجوز هذا عليهم؟

فقال أحمد:

ـ إنّ التداوي من ماء الرئة يستدعي زمنًا طويلاً، ومهما يكن من أمر فالعناية بصحّتك أولى بالاهتمام ممّا عداها. . .

ـ ٣٩ ـ

ولم يضع أحمد وقتًا، فقام بالإجراءات المتّبعة لإلحاق شقيقه بالمصحّة، مستعينًا بتوصية من الطبيب المداوي، ووجد أنّ سريرًا سيُخلى في أوّل مارس لانتهاء مدّة علاج صاحبه، فقرّر انتقال رشدي من ذاك التاريخ، وفي المدّة القصيرة التي سبقت السفر عانت الأسرة آلامًا برحاء، وكان رشدي يكابد من السعال عذابًا مضنيًا وسهادًا متقطّعًا. وغرق الوالدان في حزن ذاهل، وتكدّر صفوهما، ولاحت في أعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف. ووقع أحمد فريسة لهواجسه، فانقلبت حياته غمًّا وجزعًا، وعاد كمال أفندي خليل الشابّ وأكّد له أنّ «ماء الرئة» لا خطر منه ألبتّة مع العناية! . ثمّ زارته الستّ توحيدة ونوال ـ ولم يكن أحمد بالبيت ـ وقالت له إنّ غرامه بالنحافة هو الذي أدّى به إلى المرض، وتعهّدت له ضاحكة، بأن تتولّى تسمينه بعد الشفاء، ولم تَدْرِ نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدتين، ولم يستطع الشابّ أن يديم إليها النظر، ولكنّ عينيه التقتا بعينيها في لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحبّ والشكر والحزن الصامتة، وسرّ رشدي بالزيارة سرورًا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد. وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لأمّه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه، ولكنّ المرأة المحزونة طمأنته قائلة إنّ مرضه سرّ مطويّ في صدور محبّيه.

وفي صباح اليوم الأوّل من مارس حملت عربة الشقيقين إلى محطّة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدي في البيت، وكانت دموع الأمّ آخر ما رأى، وفي الطريق قال الشابّ لشقيقه:

ـ إذا طالت مدّة التداوي فصلت من عملي حتمًا!

فقال له أحمد بثقة:

ـ وحتّى لو حدث هذا ـ لا قدّر الله ـ فعودتك إلى عملك مرّة أخرى أمر يسير، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء!

ثمّ انتقلا إلى الديزل، فانطلقت بهما في طريق حلوان، وجلسا جنبًا إلى جنب، وكان أحمد صامتًا يلوح في وجهه النحيل الهمّ والفكر، وكان رشدي يسعل من حين لآخر. وعجب أحمد لسوء الحظّ الذي يلاحق أسرته، فقد فقدت غلامًا. وها هو رشدي يصاب بالداء الخطير، أمّا هو فقد نصبه الدهر هدفًا للعثرات والإخفاق! ولو قنع الدهر به فدية لكفاه ولكنّه لا يقنع! واختلس من الشابّ نظرة فهاله هزاله، وضمور رقبته، وذبول عينيه، وغياب النظرة اللامعة الساخرة منهما، فتنهّد وقال لنفسه متحسّرًا «ربّاه. . متى تنكشف الغمّة؟. . متى أفتح عينيّ فلا أجد من هذا الشقاء الماثل إلاّ أطياف ذكريات منقضية!». ونظر إلى الخارج خَلَل زجاج النافذة فجرت أمام ناظريه الأبنية والفيلاّت في حشد طويل، ثمّ انسابت القاطرة بين حقول ممتدّة من النضرة والخضرة والمناظر الريفيّة الفاتنة، ثمّ أقبلت الصحراء اللانهائيّة الجرداء يحفّ

بأفقها الجبل الشامخ. فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كئيبة في صدره، فامتلأ شجنًا وأسًى.

وبلغت القاطرة حلوان، فتركا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشابّ المريض، واستقلّا عربة إلى المصحّة، وسارت بهما تتهادى في طريق مقفر. وتراءت لهما المصحّة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة، فرنا إليها الشقيقان بقلبين خافقين، وقال أحمد:

ـ الفاتحة إنّ ربّنا يأخذ بيدك ويمنّ عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر..

وانتهيا إلى المصحّة، واستقلّا المصعد إلى الطابق الثالث، ودلّتهما ممرّضة على الحجرة التي يقصدانها، وكان بالحجرة سريران، يرقد على أحدهما شابّ في مثل سنّ رشدي وفي مثل هزاله وصفرته فتبادلوا التحيّة باسمين. واستراح رشدي حتّى استردّ أنفاسه، ثمّ غيّر ملابسه بمعونة شقيقه، واستلقى على الفراش، وجلس أحمد أمامه على كرسيّ مريح، وأومأ الرجل إلى الشابّ المريض الغريب، وقال مخاطبًا شقيقه:

ـ ستجد في صاحبك خير رفيق، فتعاونا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحدة، حتّى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين!

ومضى يتحدّث مع شقيقه حينًا، ومع صاحب السرير المجاور حينًا آخر ـ وقد علم أنّ اسمه أنيس بشارة وأنّه طالب في السنة النهائيّة بكلّيّة الهندسة ـ والظاهر أنّ الرحلة أعيت رشدي فاعتراه تعب شديد، واستلقى في خَوَر وخمود، ومكث أحمد معهما حتّى اطمأنّ على الشابّ، ثمّ نهض لينصرف، وقد شعر وهو يضغط على راحة الشابّ مودّعًا بدمعة تتحرّك في مجرى الدموع من قلبه، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود إلى محجريه، وغادر الحجرة. وخال في الخارج أنّه رأى عيني الشابّ كالمنذرتين بالبكاء وهو يسلّم عليه، فنازعه قلبه إلى العودة إليه مرّة أخرى، ولكنّه قاوم عاطفته ومضى في سبيله، واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى، ورأى الأشباح الآدميّة في الثياب البيض الفضفاضة، فاقشعرّ بدنه ووجف قلبه. وظلّ وهو آخذ في الطريق إلى المحطّة يعاود النظر وراء ظهره إلى بناء المصحّة الشاهق ويتمتم بالدعاء.

وفي مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف في وجوم وكآبة وقد لاحت في عيني الأب نظرة شاردة، وبكت الأمّ حتّى دميت عيناها، وحاول أحمد أن يخفّف عنها بحديث الرجاء والأمل، ولكنّه كان في الحقيقة في حاجة إلى مَن يخفّف عنه..

ـ ٤٠ ـ

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة ـ يوم الزيارة في المصحّة ـ بصبر فارغ، وقرّ رأي كمال خليل أفندي على أن يصحبهم هو وأسرته، وأخذت الأسرتان للزيارة أهبتهما فابتاع أحمد لأخيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة، وأعدّت الستّ توحيدة ـ والدة نوال ـ له كعكًا عرفت بإتقان صنعته. وعند الضحى ذهبوا جميعًا ـ الرجال الثلاثة والسيّدتان ونوال ـ إلى محطّة باب اللوق، واستقلّوا قاطرة الديزل، وجلسوا متقابلين، الرجال في ناحية والنساء في الأخرى، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه!، وتجنّب، منذ اللحظة الأولى، أن ينظر إليها، ولم يكن رآها منذ ذلك اليوم الذي كشف له عمّا كشف، بيْد أنّ وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرّك الأشجان، وخاف مغبّة الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة، وبقراءة الأهرام تارة أخرى، والواقع أنّه لم ينجح إلّا في تجنّب النظر إليها، ولكنّه غلب على أمره إزاء سيل خواطره الجارف، وأنّى له أن ينسى أمله الخائب! أو سخطه المرّ القديم على شقيقه! أو مرض شقيقه الذي جعل من سخطه القديم عليه جرحًا في ضميره لا يلتئم! وهل ينسى أنّه خاف يومًا على الفتاة من العدوى! وأنّه حام حول اتّهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك؟ كلّ أولئك آلام جعلت من حياته مرتعًا للنار، حتّى صدّق قوله لنفسه مرّة «لقد أصيب رشدي في صدره وأصبت أنا في عقلي!». ثمّ تساءل تُرى ماذا يخطر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه

أمامها؟! هل يثير ألماً؟! خجلاً؟! ألا يجوز أن تأسف أن لحقت العلّة بحبيبها متعامية عن هٰذا الكهل؟! ولو فعلت ما جاوزت القصد ولا حادت عن الإنصاف، فما فائدة حياته؟ وما وجه الانتفاع بصحّته؟ ووجد لتوّه ذاك الشعور بالاضطهاد، المؤلم اللذيذ معًا!، وحقيقة أخرى لم تغب عنه، وهي أنّه مرتاح إلى وجودها رغم تجنّبه النظر إليها!، لماذا يا تُرى؟ هل يرغب أن يمتحن قدرته على النسيان والتأسّي؟! أو يريد أن يشبع رغبته القديمة في أن يريها قوّته على تجاهلها والترفّع عنها؟! ثمّ أفاق لنفسه قليلاً، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماضٍ لعيادة العزيز المريض! وبلغ منه الألم حدًّا تمنّى لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس، كما تبتر الفاسد من الأعضاء!

وانتهت الرحلة، وساروا في الطريق وأبصارهم عالقة بالمصحّة، وقوي أمل أحمد أن يجد الشابّ أحسن حالاً ـ وإن لم يمْضِ في المصحّة سوى ثلاثة أيّام ـ لإخلاده الإجباريّ إلى الراحة ووجوده في الجوّ الموافق. وتقدّمهم جميعًا نحو الحجرة، وسبقته عيناه إلى السرير، كان رشدي راقدًا، وقد شعر بحضورهم، ولٰكنّه لم يحرّك ساكنًا، إلّا ابتسامة خفيفة باهتة ارتسمت على شفتيه الذابلتين وهو يتلقّى تحيّات القادمين الذين أحاطوا بفراشه. وخاب أمل الرجل، ورُوِّع لما رأى من تدهور الشابّ، فلم يشكّ أنّ حالته ساءت عمّا كانت عليه يوم أتى به. وحار في تفسير ذٰلك وانقبض صدره. وجلس الزوّار، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير، ولـمّا رآهما رشدي قال بصوت ضعيف:

ـ أنا لا أكاد أتناول طعامًا... لا شهيّة ألبتّة...

فسألته أمّه بقلق وهي تتفحّصه بعينين حاولت ألّا يلوح فيهما شيء من الانزعاج المستولي عليها:

ـ ألا يعجبك طعام المصحّة يا رشدي؟!

ـ الطعام جيّد، ولٰكنّي فقدت شهيّتي!

فقالت الستّ توحيدة:

ـ لا تخف فهٰذا شأن المرض أوّل عهده، وغدًا تلتهم الطعام التهامًا بفضل هٰذا الهواء الجافّ.

فابتسم الشابّ إليها ـ وإلى نوال بالتالي لأنّها كانت لصقها ـ ثمّ قال موجّهًا الخطاب لأحمد:

ـ كانت الليالي الثلاث الماضيه شديدة الوطأة عليّ، اضطرب فيها نومي وتقطّع، واشتدّ عليَّ الألم، ولم يكفّ عنّي..

ولم يتمّ جملته، فأدرك أخوه أنّه أمسك حذرًا عن ذكر «السعال»، فأيقن في تلك اللحظة أنّ اصطحابهم أسرة كمال خليل ـ على ما فيه من سرور ـ كان خطأ كبيرًا، ولٰكنّه أراد أن يشجّع الشابّ فقال:

ـ على رأي تيزتك فهٰذا شأن المرض أوّل عهده، وستجتاز هٰذه الشدّة بعون الله، وتخرج منها سالـمًا!

ولٰكنّ رشدي قال بلهجة دلّت على التوسّل:

ـ أليس الأفضل أن أعود إلى بيتنا؟

ورأى أحمد أمّه تهمّ بالموافقة على رغبته فبادر بقوله:

ـ سامحك الله! بل قل إنّك لن تبرح حجرتك حتّى تستردّ صحّتك وفتوّتك، ثمّ تقفل إلى القاهرة مشيًا على الأقدام! ومن حسن الحظّ أنّي أراك متحسّنًا تحسّنًا محسوسًا!..

وقال كمال خليل يساهم في تلك الكذبة المفيدة:

ـ أجل يا رشدي أفندي أنت... اليوم أحسن حالاً بلا شكّ!

وحدّت الأمّ بصرها لعلّها تصدّق ما يقولان، بينا راح أبوه يقول بصوته الهادئ المنكسر:

ـ الصبر... الصبر يا رشدي، وربّنا يرعاك ويأخذ بيدك!..

فسكت رشدي، ولٰكن على رغمه، ولم يغب ذٰلك عن أخيه الذي يحسن فهمه، وكان يعلم أنّه لا يقتنع بغير رأي نفسه، ولا يعمل إلّا بمشورتها، فأيقن أنّه إذا كره المصحّة فلن يصبر عليها، ولن تعود عليه إقامته فيها بنفع يذكر، وازداد حزنًا على حزن، واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الآخر، فنظر إليه، ورأى زميل أخيه جالسًا في فراشه، فتولّاه الخجل لأنّه نسي ـ في غمرة حزنه ـ أن يحيّيه، فقال له وهو يرفع يده له بالتحيّة:

ـ كيف حالك يا أنيس أفندي؟.. لا تؤاخذنا!..

فضحك الشابّ قائلاً:

ـ العفو يا بك، الظاهر أنّ رشدي يرغب في هجرنا!

فقال رشدي متأسّفًا:

ـ لكم أزعجت نومك!.

فقال الشابّ مبتسمًا:

ـ لا داعي للأسف على ذلك، فسهر الليل لا يضايقني بتاتًا.

فابتسم أحمد وقال:

ـ الظاهر أنّك من عشّاق الليل كرشدي!

ـ نطقت بالصواب يا سيّدي، وها نحن أولاء يعلّمنا الدهر أنّه ينبغي أن نقلع عمّا كنّا نعشق..

ودعوا لهما بالشفاء، ونهضت أمّ أحمد إلى الخوان، وأتت بصندوق البسكوت، ووضعته إلى جانب رشدي وفي متناول يده، وقالت برجاء:

ـ هلّا تناولت واحدة يا رشدي؟!

ولكنّه هزّ رأسه على المُخدّة وقال بسرعة وبلهجة حازمة:

ـ ليس الآن... في ما بعد!

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وإن كانت تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة، ولم تَنْس ـ حتّى في تلك الساعة ـ واجبات اللياقة، فدلفت من سرير أنيس بشارة وقدّمت له بعض البسكوت. وكان أحمد يتفحّص أخاه بعينين كئيبتين، فإذا أرسل الشابّ إليه بطرفه تبسّم مداريًا حزنه. وقد هاله ذبول أخيه، واصفرار لونه، وخوَره، وأمارات التعب التي تعتوره. هاله أن يراه مستسلمًا للرقاد، سجينًا، وما كانت الدنيا تسعه حركة واضطرابًا ولهوًا. وخُيّل إليه أنّه يقرأ في نظرة عينيه حيرة وقلقًا، إلى ما بهما من ألم واستسلام، فأوحيا إليه أنّ الشابّ ينطوي على شيء يريد أن يفضي به إليه وقوي شعوره بذلك حتّى خطر له أن ينفرد به دقائق بعد انصراف عوّاده، ولكنّه خاف أن يضرع إليه أن يعيده إلى البيت، فعدل عن رأيه، وجعل يكوّر له قبضة يده متشجّعًا متظاهرًا بالمزاح والاطمئنان...

وآذن الوقت بالعودة، فسلّموا بحرارة، ولهجت ألسنتهم بالدعاء، وغادروا الحجرة، وكانت الستّ دولت آخر من غادرها بعد أن قبّلت الشابّ في خدّيه وجبينه، وفي الطريق لم تعد تملك أعصابها فامتلأت عيناها بالدموع. وكانت نوال تعالج دمعة لا تدري كيف تخفيها. وظلّ أحمد منقبض الصدر حتّى أوى إلى حجرته، ومضى يعلّل نفسه بالأمل ويقول إنّه سيجده في الزيارة القادمة أحسن حالاً حتمًا ممّا وجده اليوم. ربّاه... متى يردّ إلى ما كان عليه من القوّة والنشاط والنضارة؟! متى يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته اللطيفة وضحكته الرنّانة؟!

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد كنومها ليلة الفراق!.

ثمّ استيقظوا جميعًا في الهزيع الأخير من الليل على رنين الجرس.. وجلس أحمد في الفراش مرهف الأذنين، فسمع الرنين متّصلاً كأنّه يصرخ في الغافلين. وانقضّ عليه خاطر جعل قلبه يرجف كإبرة الجرس فقفز من الفراش وجرى إلى الخارج، التقى بوالديه في الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدوًا نحو الباب. ولم ينبس أحدهم فقد تولّاهم استسلام يائس للأقدار، ودلف أحمد من الباب مزدردًا ريقه وأضاء المصباح الخارجيّ وفتح الباب، ونظر في الردهة الخارجيّة فلم تقع عيناه على إنسان، وكان الرنين لا يزال متّصلاً... والتفت الرجل إلى والديه مندهشًا مغمغمًا: «لا أحد في الخارج». واقترب من «بطّاريّة الجرس»، ورفع غطاءها وفصل بين الأسلاك فسكت الجرس المزعج! وأغلق الباب والدموع توشك أن تطفر من عينيه، وتبادلوا جميعًا نظرات حائرات، ثمّ هتف الأب قائلاً:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

وقالت الأمّ وهي تتنهّد من أعماق قلبها:

ـ أليس الأوفق أن نأتي برشدي ما دامت هذه رغبته؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه:

ـ يا شيخة وحّدي الله!...

- ٤١ -

وعند عصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعًا بوالديه يحتسون قهوة العصر، جاء البريد بكتاب ما إن رأى الظرف حتّى تمتم بغرابة:

ـ هٰذا خطّ رشدي. .

وتنبّه الوالدان، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفضّ الغلاف. وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص، وبخطّ رديء ـ على غير عهد صاحب الخطاب ـ وكان به ما يأتي:

٨ ـ ٣ ـ ١٩٤٢

أخي العزيز:

تحيّاتي إليك وإلى والديّ، أكتب كتابي هٰذا وقد مضى على انتصاف الليل ساعتان. . ولا تدهش يا أخي فقد حرمت نعمة النوم إلى الأبد وما عاد لأيّ منوِّم من تأثير فيَّ. تصوّر أنّي تناولت بالأمس جرعة من منوّم معروف، فلمّا لم تُجْدِ شيئًا عاطاني الدكتور برشامة مخدّرة وبشّرني بنوم ثقيل، وها هو الليل ينتصف وتمضي على انتصافه ساعتان وأنا متيقّظ مسهّد، ولا نهاية لعذابي بل لا أزال جالسًا لأنّ الرقاد ـ أو ضغط ظهري على حشيّة الفراش ـ يهيّج السعال الذي اشتدّت نوباته عليّ، فلا مَعدى لي عن الجلوس في فراشي، وقُصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحة أن أكسر مخدّة وأضعها على حجري ثمّ أسند رأسي إليها. . .

أخي:

يؤسفني أن أؤلمك أو أحزنك، ولٰكنّها الحقيقة المرّة، ولا حيلة لي فيها، ولا مفرّ من أن أفضي إليك بالحقيقة فأنت ملاذي أوّلًا وأخيرًا، فاعلم يا أخي أنّي اطّلعت على نتيجة الأشعّة التي صوَّرت صدري غداة وصولي إلى المصحّة، وقد كشفت إصابة جديدة في الرئة اليمنى، أمّا اليسرى فقد حفرت الإصابة القديمة لي كهفًا في حجم نصف الريال، والحالة العامّة خطيرة، وإليك تقرير الطبيب النوبتجي: «عدم قابليّة للأكل مطلقًا، عدم النوم مطلقًا، سعال نظيف، ونَفَس مكروش دائمًا. . .» فلا شكّ أنّي في طريق النهاية، لا شكّ في ذٰلك مطلقًا، إنّي أكتب إليك ودموعي تنهمر فتخفي عن ناظريّ الألفاظ التي أنعي بها نفسي إليك، وكلّما ذكرتكم غلبني البكاء. . .

هٰذه هي الحالة، فأستحلفك بالله يا أخي إلّا ما وافقت على عودتي إليكم لأقضي بينكم أيّامي الأخيرة حتّى يوافيني الأجل. . . فلا تُعرض عن توسّلاتي هٰذه المرّة، وأكرّر أسفي لإيلامك ولٰكن ما حيلتي؟!. . وعليك ألّا تخبر والديّ بالحقيقة، والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك المخلص

رشدي

قرأ الخطاب ذاهلًا، وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرّة، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار، وإنكار، وغرابة، ولٰكنّه لم يرفع عنه ناظريه حتّى يستعيد رباطة جأشه، فيواجه أمّه بشيء من السكينة يمكّنه من الكذب عليها، واستطاع بفضل تفكيره في أمّه، ووجودها على كثب منه، أن ينسى نفسه إلى حين فيمتلك أعصابه، ثمّ نظر إلى والديه فرآهما ينتظران كلمته بعينين معذّبتين كمَن ينتظر ـ غير معصوب العينين ـ إطلاق النار عليه، فتكلّم قائلًا متصنّعًا لهجة السخط والتبرّم:

ـ رشدي يلحّ في العودة إلى البيت، فماذا دهاه؟!

فسألته الأمّ بلهفة:

ـ ولٰكنّه بخير!!

ـ بخير والحمد لله إلّا أنّه كاره للمصحّة!

ـ أَعِدْه إليَّ يا أحمد، فلا فائدة ترجى من تركه في المصحّة على رغمه.

فنهض أحمد وهو يقول:

ـ سأسافر اليوم إلى حلوان وآتي به. .

وأعطى الخطاب إلى والده ومضى إلى حجرته وأمّه في أثره.

وسافر إلى حلوان دون تردّد أو تأخير، وظلّ طوال الطريق مشتّت الفكر موزّع الفؤاد مضطرب النفس،

ولأوّل مرّة ـ منذ أمد بعيد ـ يفكّر في الموت كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقة من الألم والخوف والقنوط، وتخيّل المقبرة النائية التي ابتلعت شقيقه الأصغر، فخالها ننفض عن ثغرها تراب الأرض وتفغر فاها لابتلاع رشدي الحبيب الذي لا يدري كيف تكون الدنيا بدونه!، وكان كلّما قصرت المسافة بينه وبين المصحّة اشتدّ انقباض صدره، وثقلت وطأة الخوف على قلبه. ربّاه!.. كيف يجده الآن؟!. وما فعل السهاد به؟!. وغادر القطار على عجل والشمس تميل نحو المغيب. وأخذ العربة إلى المصحّة، ثمّ صعد إلى الطابق الثالث لا يلوي إلى شيء، واشتدّت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة، ودخلها وقد تركّز وعيه في الفراش أمامه. رأى رشدي أمامه. رأى رشدي كما وصف نفسه في رسالته جالسًا في فراشه مسند الرأس إلى مخدّة منكسرة على حجره! وازدرد ريقه وهتف به:

ـ رشدي!

فرفع الشابّ رأسه عن المخدّة بسرعة، وطالع أخاه بوجهه الضامر الشاحب، وصدره المضطرب، وسرعان ما لاح السرور في عينيه، وقال بصوت متهدّج:

ـ أجئت؟.. خذني.. خذني.

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه:

ـ هٰذا جئت يا رشدي..

ثمّ التفت إلى أنيس بشارة فحيّاه فردّ الشابّ تحيّته وقال بلهجة جدّيّة دلّت على تأثّره:

ـ مسكين رشدي! إنّه لا يذوق للنوم طعمًا، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة! الأوفق حقًّا أن يمضي هٰذا الأسبوع في البيت، على أن يعود إلى المصحّة في ما بعد!

فأومأ أحمد برأسه موافقًا وسأل الشابّ:

ـ أتدري ما هي إجراءات الاستئذان لخروجه؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدّيّة:

ـ اسْعَ إلى الطبيب بلا إبطاء!

ولم يَلْقَ الرجل صعوبة ما، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه.

وعاد إلى أخيه، وحزم متاعه، وعجز رشدي عن خلع بيجامته وارتداء البذلة، فاكتفى بلبس الروب، وجاءوا بنقّالة لحمله إلى المصعد. وسار أنيس بشارة في وداعه حتّى الباب الخارجيّ للمصحّه، وشدّ على يده بحرارة، ودعا له مخلصًا بالشفاء والصحّة. ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدي حامليه بلا حول وبلا قوّة وقد زاغ بصره، وبدا للعين هزاله، فذكر نضارته وحسنه، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناءه، ثمّ لم يملك أن يعضّ على شفته متوجّعًا متحسّرًا وقد شعر بقلبه ينتحب في أعماق صدره.

- ٤٢ -

ووجدا في انتظارهما في البيت الوالدين وأسرة كمال خليل أفندي. وكانت الستّ توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أمّ الشابّ المريض، فلمّا علمتا بأنّ شقيقه سافر ليأتي به لبثتا في انتظار وصوله. وأحدث ظهور رشدي أثرًا عميقًا في النفوس فلم يحاول أحد إخفاء انزعاجه. ولٰكنّ الشابّ لم يَبْدُ عليه أنّه أدرك شيئًا ممّا حوله، أو أنّه فطن إلى وجود أحد. وأُجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض، مغمض العينين، والأعين محدّقة به. وقد انعقدت الألسنة، واصفرّ وجه الستّ دولت، وجلست وراء ظهره لتسنده بصدرها المضطرب. وفتح رشدي عينيه بعد برهة وأجالهما في الحجرة والوجوه، فلاح فيهما نور العرفان واليقظة، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة، وقال بصوت متهدّج خفيض كأنّما يتصاعد من أعماق صدره:

ـ الحمد لله... الحمد لله... أنا مسرور بعودتي إلى حجرتي..

فدعا له الجميع، وكرّرت الستّ توحيدة الدعاء، فابتسم الشابّ وقال:

ـ سأشفى هنا بإذن الله.. لا تبرحي مكانك يا نينة!..

فقبّلته المرأة في منكبه وقالت:

ـ لن أبرحه يا رشدي ـ بإذن الله ـ إنّ قلبي لا يمكن أن يكذّبني!.

والتقت عيناه بعيني نوال مرّات، وتلقّى في كلّ مرّة ابسامة حلوة ضمّنتها عيناها ما تكنّه جوانحها من الدعاء والرجاء والإشفاق. وتنحّى أحمد جانبًا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه، وكلّما طالع في عينيه نظرتهما الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه: «أللّهمّ رحمتك!».

وقال عاكف أفندي أحمد ـ الأب ـ عن حكمة:

ـ الأوفق أن نتركه حتّى يستردّ أنفاسه ويستريح!

فخرجوا جميعًا ما عدا أمّه. وانصرفت الزائرتان. وخلا أحمد إلى نفسه في حجرته قليلًا. ولكن لم يستطع صبرًا فعاد إلى حجرة الشابّ، ووجد رشدي لا يزال فرحًا بالعودة ويحادث أمّه قائلًا بصوته المتهدّج الخافت:

ـ لشدّ ما يطمئنّ قلبي فرحًا وسرورًا، ولشدّ ما آلمني جوّ المصحّة الموحش، لم أذق فيها النوم ولا الطعام، ورأيت مريضا ينزف حتّى غرق في دمه، ومرّوا بحجرتنا حاملين مريضًا آخر إلى حجرة «العزلة» حيث يودعون المرضى المُشفين على النهاية.. ومن المؤسف حقًّا أنّ سوء حالتي آلم زميلي أنيس نشارة، ويغلب على ظنّي أنّه استثار مخاوفه فجعل يبكي حزنًا وفرقًا. الآن عاودتني الطمأنينة..

وحوّل ناظريه إلى أحمد، وسكت قليلًا وصدره يعلو وينخفض ثمّ استطرد:

ـ أتعبتك كثيرًا يا أخي، معذرة. لا تجدْ عليّ لعصياني نصحك، أعدك بأنّي سأرعى منذ اليوم صحّتي، وأنّي لن أخالف لك نصيحة، وإذا منّ الله عليّ بالشفاء فلن أستهين يومًا بحياتي.

فعضّ أحمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة، وقال مبتسمًا:

ـ لا محلّ للوم يا رشدي، فكلّ شيء بأمر الله، وغدًا ستردّ إلى صحّتك بأمر الله، وستذكر هٰذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس...

فابتسم الشابّ إلى أخيه ارتياحًا لقوله، وسأله أن يدني الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء. وأتى أحمد بالخوان، وجعله في متناول يد الشابّ، ورصّ علبة الكالسيوم، وحقّ المنوّم، والكارومين. فشكره رشدي، ثمّ قال:

ـ سأحتاج إلى ممرّضة لحقني بالكالسيوم يومًا بعد يوم..

فقال أحمد:

ـ سأوصي الصيدليّ بإحضار واحدة والاتّفاق معها... ويحسن بك أن تسكت كي لا تشقّ على نفسك، وربّنا يرعاك ويحفظك..

تناول الشابّ جرعه من المنوّم، فاسترخت أعصابه ـ وقد نال منه أرق الليالي السابقة ـ وأخلد للنوم، إلّا أنّ السعال انتابه مرّات فمزّق نومه شرّ ممزّق...

ـ ٤٣ ـ

وجاءت أيّام شدّة وألم. فغرق الشابّ المريض في غمرة العذاب، وتقطّع قلب الأمّ الذي يسند ظهره المهزول، واستبدّ به الأرق فلم يغمض له جفن ـ مع تناوله المنوّم ـ إلّا ساعات معدودات في الهزيع الأخير من الليل، وكثيرًا ما أدركه الصباح وهو قاعد في فراشه وقد حطّم السعال أضلعه، وصدفت نفسه عن الطعام، فإذا تجلّد وتناول لقيمات تقيّأها في نوبات السعال واجتاحته بعنف فما إن تسكت عنه واحدة إلّا وقد أشفى نفسه على الانقطاع، وأنذرت عروق عنقه بالانفجار، وسالت عيناه دمًا. فظنّ به الهلاك وأيست من شفائه القلوب. إلّا أنّه بدا وكأنّه يجتاز مفازة الهلاك بسلام، لا لتحسّن طرأ عليه، ولكن لأنّ الأيّام تتابعت وهو يقاوم ويجالد دون أن يسقط، ثمّ مضت تخفّ ثورة السعال، وتنتظم ساعات نومه، وتتقبّل معدته القليل من الطعام، واستطاع أخيرًا أن يرقد على جنبه. وآذن كلّ أولٰئك بتحسّن قريب في صحّته، ولٰكن مضى مارس جميعًا وهو على حاله من الضعف والإعياء. لم يكن بستطيع مفارقة الفراش بتاتًا، وهزل هزالًا محزنًا حتّى لم يعد في بُرده سوى جلد ذابل وعظم معْروق. وبعث منظر ساقيه القشعريرة في النفوس، وضمر وجهه، وتقلّص خدّاه، وغارت عيناه، وعلت محيّاه صفرة باهتة، وبدا رأسه أكبر من الواقع وعنقه رفيعًا يكاد أن ينقصف من حمله. ولاحت في عينيه نظرة عميقة متجهّمة تدلّ على التصبّر والتجلّد، والتألّم

والاستسلام، فلم تزل تعذّب أحمد حتّى أضنته، كان يطالعها في عينيه كلّما عاده فلا تمّحي من ذاكرته أبدًا، وكانت تحمّل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التألّم والتصبّر. كانت تترك في قلبه جروحًا لا تندمل، كان يطّلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس. ربّاه لَكَمْ قطّعت فؤاده وفتّتت كبده، ولكم أهاجت مجاري دموعه.

وفي مرّة دخل حجرته فوجده قد استوى جالسًا في الفراش، وأدلى ساقيه إلى الأرض، ولم تكن أمّه في الحجرة، فخاف أن يكون ذٰلك مقدّمة لمحاولات تشقّ عليه، فقال له بتوسّل:

ـ أليس الأوفق أن تلزم الرقاد!

فغاضت من عينيه نظرة التألّم العميقة، وحلّت محلّها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخْلُ من حدّة.

ـ أخي. ألا ترى كيف تمضي الأيّام وأنا بمكاني هٰذا لا أبدي حراكًا! هٰكذا ألقى على الفراش بلا حول ولا قوّة، طوال النهار وأكثر من نصف الليل، حتّى يغلبني ذهول المخدّر الذي نسمّيه نومًا!.. أوّاه، ما أضيق الحياة... لقد سئمت هٰذا الفراش، وضقت به ذرعًا..

فلم يَدْرِ الآخر ماذا يقول، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارًا من الكدر، فقال برقّة:

ـ صبرًا يا رشدي، وما وراء الصبر إلّا الفرج!..

ولا مَعدى عن الصبر أيضًا. كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلّات، والحديث إلى أمّه ـ ولم تكن تفارقه إلّا للضرورة ـ وأبيه وشقيقه. وكان على ألمه ومللِه قد نجا من ساعات اليأس القاتل التي أوحت إليه مرّة بالرسالة التي بعثها من المصحّة إلى شقيقه، نجا من اليأس، وعاوده الأمل في الحياة، والرجاء في الشفاء، ولٰكنّ الألم الذي رسم في عينيه تلك النظرة العميقة المتجهّمة لقّنه حقيقة الشقاء التي ينطوي عليها قلب الدنيا، فذاق العذاب، وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردّد على وجهه، والأرجح أنّ الحياة تحرص على أن يعرفها أبناؤها جميعًا، إلّا أنّها تقطر حقيقتها على المعمّرين وتسكبها في أفواه المتعجّلين.

ومن عجيب أنّه لم يَنْسَ قلبه!، فالمرض لا يمحو الحبّ، ربّما لم يعد يضطرب به دمه، ولٰكنّه يحسّه بروحه ويخفق به قلبه، ولَكَمْ ترفّ عليه الذكريات فتضيء مخيّلته بنور وهّاج، وتدندن أذنيه كسجع الألحان، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه، وتتخايل لعينيه بروق البسمات وطريق الصحراء والعينان النجلاوان، وتطنّ في مسمعيه العهود والمواثيق. تُرى ما مصير كلّ أولٰئك؟.. ماذا يخبّئ له الغيب؟.. هل يمكن أن يعود الشباب والقوّة والأمل والحبّ؟.. هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متبخترًا في رشاقة وخيلاء؟.. وأن يضحك ملء قلبه دون أن يهيج سعالًا قتّالًا؟.. وأن يذهب رأسه ويجيء بالترنيم والتجويد؟.. وأن يراه الإخوان فيتصايحوا «جاء قلب الأسد»؟.. وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعا معًا طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيهما عن الأعين؟.. هل ما يزال ثَمّة أمل في أن يبتاع خاتم الخطوبة ويزفّ كالعرائس؟.. وكانت نوال تعوده مع والديها، فيتبادلان نظرات خاطفة مشوّقة لم يشعر بوقدتها إلّا هما، ربّاه لماذا لا يتركانها وحدهما ولو لحظة؟ إنّه يذوب شوقًا إلى كلمة وداد ترطّب حرارة فؤاده المحموم. وهٰكذا مضى شهر مارس. ولـمّا جاء إبريل تغيّر الحال، فلم يعد يرى نوال! مضى أسبوع دون أن تزوره وانتصف الشهر فلم تحضر، وعاده والداها بمفرديهما، وانتهى إبريل دون أن يراها أو تراه! عاده إخوان قهوة الزهرة وأسرهم وأصحاب السكاكيني وجمهور من الأقارب والجيران القدماء، فالبيت لا يفرغ حتّى يمتلئ، إلّا نوال، اختفت من حياته فجأة كأنّها لم تكن حقيقة محسوسة وأملًا مشوّقًا! ولا شكّ أنّ والديه وشقيقه يشاركونه ألمه وإنكاره ولكنّهم لا يفصحون عن مشاعرهم رأفة به، وأبى عليه كبرياؤه أن يسأل والديها، لماذا انقطعت نوال عن زيارته؟

هل عرفوا حقيقة دائه وأيسوا منه؟ هل منعها من عيادته الخوف من العدوى؟.. هل أمسى شرًّا وأذًى بعد أن كان حبيبًا محبوبًا؟.. أكذب الحبّ وعده؟!.

وجعل يجترّ آلامه في صمت، حتّى ضاق بها فقال يومًا لأحمد وقد خلت لهما الحجرة..

ـ ألم تَرَ كيف انقطعت عن زيارتي؟

عرف أحمد مَن يعنيها بقوله، وتظاهر بعدم الاكتراث وقال:

ـ حَذارِ من الفكر! أنت في نضال من أجل الصحّة فلا تضعف مقاومتك بنفسك!

فاستطرد قائلًا وكأنّه لم يَعِ ما قال الرجل:

ـ أبشع شيء في هٰذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب، أو أن يكون ذنبه أنّ الصحّة جفته!

ـ لا تبالِ شيئًا ولا تستسلم للأفكار السود!

فتمتم الشابّ بصوت حزين:

ـ لن أبالي شيئًا ولٰكنّ الخيانة قبيحة!

وسرت في الرجل رعدة لأنّه ذكر أنّه فاه يومًا بمثل هٰذه الجملة، وقال يداري عواطفه:

ـ حسْبك قلوبنا فهي تحبّك ولا تجفوك أبدًا:

فابتسم رشدي وقال:

ـ لا أدري متى حفظت هٰذين البيتين:

ما لي أرى الأبصار بي جافية
لم تلتفت منّي إلى ناحية
لا ينظر الناس إلى المُبتلى
وإنّما الناس مع العافية

فقطّب أحمد تألّمًا وهتف به:

ـ أترغب أن تقتلني غمًّا وكمدًا !

فقال بأسف صادق:

ـ معاذ الله، أنت أحبّ إليّ من الشفاء!

وعاد أحمد إلى حجرته وهو يقول لنفسه محزونًا: «ربّاه.. كيف جفته وقد راح ضحيّة لها؟!».

ـ ٤٤ ـ

والحقيقة أنّ كمال خليل أخذ يساوره الشكّ في ما قالوا عن مرض الشابّ، وما لبث أن أفضى بشكّه إلى امرأته. ولكي يقطع الشكّ باليقين زار صديقًا له في بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدي، فأطلعه الرجل على الحقيقة، وحزن كمال خليل حزنًا بالغًا، لأنّه أحبّ رشدي حبًّا صادقًا، ووجد فيه خير زوج يمكن أن يرجوه لابنته. وهوى الخبر على الستّ توحيدة كالصاعقة، وخيّب أملها في سعادة نوال، وخلا الرجل بزوجه وقال لها متجهّمًا:

ـ ماذا ترين؟

فلاذت المرأة بالصمت إشفاقًا من الجهر بالحقّ المؤلم، فقال كمال أفندي:

ـ لا أظنّ أنّ رشدي بناجٍ من مرضه الخطير!

فقالت المرأة بامتعاض:

ـ ربّنا يلطف به..

ـ وحتّى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة الزوجيّة..

ـ فماذا ترى أنت؟

ـ أرى طبعًا أن أصون صحّة ابنتي، فهي شباب غضّ، ودخولها حجرته كما حدث مرّات استهتار شديد الخطورة سيّئ العاقبة، فينبغي أن تعرف الحقيقة حتّى لا تعيش على الأوهام أو تتعرّض لعدوى مرض خبيث ندرت النجاة منه...

فقالت المرأة بلهجة دلّت على الأسف والاستسلام:

ـ الأمر لله!

ودَعَوا بنوال، وجاءت الفتاة غافلة عمّا يضمرانه لها، وكان ينبعث من عينيها نظرة وديعة تلوح فيها الكآبة، فطلب الرجل إليها أن تجلس قبالته على كرسيّ ثمّ راح يقول بصوت رزين:

ـ نوال، دعوتك لأفضي إليك بسرّ هامّ، وعهدي بك فتاة عاقلة، والسلوك الحكيم هو ما أتوقّعه منك دائمًا، فاعلمي أنّ جارنا العزيز رشدي أفندي مريض مرضًا خطيرًا أفظع ممّا يقولون..

فاصفرّ وجه الفتاة، ونفذت لهجة والدها إلى قلبها فانقبض خوفًا، وتساءلت بإشفاق:

ـ أيّ مرض يا أبتي؟

ـ يؤسفني أن أصارحك أنّ الشابّ مصاب بالسلّ، وهو مرض كما تعلمين فظيع، ورحمة الله واسعة، بَيْد

أنّ على الإنسان واجبًا نحو نفسه لا يجوز أن يفرّط فيه أو يستهين به لأيّ داعٍ مهما جلّ شأنه، فلنَدْعُ لصديقنا العزيز بالشفاء، ولنذكر قوله تعالى: ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلُكة﴾.

السلّ!.. يا ربّ السماوات!.. ماذا يقول أبوها؟.. هل أضحى رشدي العزيز شيئًا واجبًا اجتنابه؟! هل أوى حقًّا ذاك الداء الخطير إلى صدره الحنون؟.. هل ضاعت الآمال وتبدّدت الأحلام؟!.

وردّدت بين والديها نظرة حائرة تستحقّ الرثاء، فأدركت أمّها ما تعاني من ألم أجبرها وجود أبيها على مداراته، فقالت:

ـ الله عالم بشدّة حزننا وأسفنا، وهو القادر على جبْر كسْرنا، ولكن صدق والدك يا نوال، فحداثة سنّك تجعلك صيدا سهلًا لعدوى هٰذا الداء، فدعينا نحن نَقُمْ بالواجب عنّا وعنك، ولْنَدْعُ له جميعًا بالسلامة والشفاء إنّه سميع مجيب...

وجعل أبوها يتفرّس في وجهها من تحت حاجبيه، ويقرأ ما تُظهر وما تُبطن، ثمّ قال مستطردا:

ـ الآن أدركت ولا شكّ الباعث الذي دعانا إلى مخاطبتك في هٰذا الشأن، ولا شكّ أنّك تقدّرين رأيي حقّ قدره، فأنا أبوك وأخاف عليك أكثر ممّا تخافين على نفسك، لهٰذا أقول لك إنّه لا يجوز بعد اليوم أن تعودي المريض العزيز، ولا عليك من هٰذا، ولن يلومك عليه إنسان عاقل منصف، ومهما يكن من الأمر فما أبالي كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنًا إذا جاء مخالفا للعقل، فما رأيك؟!

ولم تكن تملك من الجسار... ستطيع معه أن تصارحه بما يدور في خلدها، و... له من المهابة في نفسها ما يمنعها من مشافهته بما يخالف رأيه، فلاذت بالصمت حتّى استحثّها على الجواب، فقالت بصوت خفيض:

ـ أمرك مُطاع يا أبتي!..

ولم يكن يطمع في أكثر من هٰذا، وخافة إن أطال الحوار أن يشجّعها على الإفصاح عن حقيقة مشاعرها، فنهض قائمًا كالمقتنع المرتاح، وقال:

ـ لا خيّبت لي رجاء أبدا.

وما إن غيّبه الباب حتّى أحدقت في وجه أمّها وهتفت بها:

ـ كيف يكون هٰذا يا أمّاه؟!

فقالت المرأة بحزن واستسلام:

ـ لا معدى عنه يا نوال!..

فقالت بصوت متهدّج مرتعش:

ـ كيف لا أعوده.. كيف أتجنّبه؟. هل يقوم خوف الإنسان على نفسه عذرا مقبولا لهجر أصدقائه في أوقات محنتهم؟!، وما جدوى الصداقة والمروءة في هٰذه الدنيا؟!

ولم تتمّ حديثها فخنقتها العبرات، وأوشكت الأمّ أن تتأثّر لها، ولكنّها تداركت عواطفها أن ترقّ لها فتندفع بها إلى الهلاك. فقالت بلهجة لا تدلّ على ذات نفسها:

ـ وما جدوى أن يصاب إنسان بداء وبيل من أجل صديق لن ينتفع بمرضه فتيلا؟! إنّ أباك حريص على صون شبابك الغضّ وله الحقّ في ذٰلك كلّ الحقّ.

ـ أوّاه يا أمّاه!. ولكنّي إذا ضلّت نفسي بهٰذا الغدر القبيح فلن أنتفع بها. ليس المرض بالشرّ الوحيد في هٰذه الدنيا، فالغدر شرّ من المرض، ماذا يظنّ بي؟ بل كيف أدفع عن نفسي أمامه وأمام الناس؟

ـ تقولين إنّ أباك أخبرك على الامتناع عن عيادته، فعلى أبيك التبعة وعليك الطاعة، ولن يجادلك إنسان في حقّ والد على ابنته..

ـ ما أقساك يا أمّاه!.. سأموت كمدا..

ـ أفضّل ألف مرّة أن يلعنني الناس على أن ألقي بفلذة كبدي إلى التهلكة!..

فقالت الفتاة وما تزال عيناها تسحّان دمعا ساخنا حتّى سدّت خياشيمها وتغيّرت نبرات صوتها:

ـ سيمقتني ويحتقرني، وغدا إذا برئ؟!.

وخنقتها العبرات مرّة أخرى، فقالت الأمّ وهي تتنهّد:

ـ هٰذا هو حظّك فما حيلتنا؟!.. بيْد أنّك ما زلت على عتبة الشباب، والفرص أمامك كثيرة، والله قادر

على جبر خاطرك، فلندعه أن يصون للشابّ المسكين شبابه وأن يعوّضك عنه خيرًا! . .

فهتفت بها منتحبة:

ـ ما أقساك . . ! ما أقساك . . !

وفرّت إلى حجرتها، وكان الوقت مساء، فدلفت من الشبّاك محمرّة العينين ورمت ببصرها إلى النافذة المحبوبة، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصاصها نور خافت. وتمثّل لها راقدا على جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهّمة ثمّ تمثّل لها وهو يسعل ذلك السعال القتّال الوحشيّ: لهفي عليك يا حبيبي. وأسفي على رقادك بلا حول وبلا قوّة . . ونظرتك التي تنمّ عن أفظع الآلام البشريّة؟ . أين نضارتك؟ أين شبابك؟ أين حديثك؟ أين آمالك؟ بل أين نضارتنا؟ أين شبابنا؟ . أين حديثنا؟ . أين آمالنا؟ ربّاه ما أتعس حظّي . . وما أحلك دنياي . . !

وارتمت على مفعد تكفكف دمعها وتتنهّد من الأعماق، وأوهنها التأثّر فانطلقت خواطرها بلا ضابط، مرّت حياتها مع رشدي أمام ناظريها في مثل لمح البصر فأيقنت أنّها فتاة تعيسة الحظّ. ولم يغب عنها ما في حديث والديها عن مرض الشابّ من يأس وقنوط، فتولّاها الذعر، وما كانت تعرف عن الموت إلّا لفظه، فكيف وقد تمثّل لها وحشًا كاسرًا يتوثّب للانقضاض على قلبها؟ ربّاه! ويأمرانها بألّا تعوده! ويحولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة!، وتجهّم وجهها الباكي وشعرت برعدة تسري في أطرافها، فتحسّست راحتُها صدرها! . . شعرت في أعماقها بأنّها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها! الرقاد، والسعال، والهزال، والعذاب، ثمّ أحسّت تعاسة وقنوطًا وحزنًا وخوفًا، ومزّقتها الحيرة إربًا إربًا بين حبيبها وصحّتها وسعادتها! ربّاه. ألم تكن تحيا في دعه وطمأنينة وأمل مشرق؟! فما الذى أوجب هذا الشقاء وهذه التعاسة؟!

ولدى عصر اليوم التالي عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها إلى حجرة أخرى بعيدا عن نافذته، وأنّه حيل بينها وبين رؤية ذلك البصيص من النور . . .

ـ ٤٥ ـ

ولم يعد رشدي إلى ذكر نوال، وعجب أحمد لصمته وتساءل أيُعاني آلامه وحده أم يتناسى باستهانة واحتقار، ودعا له مخلصًا ـ وهو المبتلى ـ بالنسيان وراحة القلب. ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشابّ من محيّاه، لجمود ملامحه وتجهّم نظرة عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالًا من الكآبة لا تكاد تزايله، فظلّ أحمد متحيّرًا مشفقًا. وشاركه الوالدان حيرته وإشفاقه، ولم يكن الأمر يعنيهم من ناحيته العاطفيّة، ولكنّهم خافوه على الصحّة المتهالكة التي تجاهد في سبيل الحياة، خصوصًا وأنّ مضيّ الأيّام قد بعث في النفوس الأمل بعد أن أوشكت أن تشفى على اليأس، ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيّام وتعوّد الحال، أمّا رشدي فلبث عاجزًا عن مغادرة الفراش، ونِضْو هزال يستثير الذعر والإشفاق، وظلّ لونه مصفرًّا مشربًا بزرقة، ولم يخفّ عنه السعال إلّا قليلًا.

وفي النصف الأوّل من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدّد له الإجازة حسبما يرى، وفحصه الرجل فحصًا سطحيًّا ثمّ قال:

ـ أظنّك تعلم أنّ إجازتك القانونيّة تنتهي في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢!

أجل كان يعلم ذلك، ولكنّه كان كأنّه يسمع به لأوّل مرّة، فقال بصوت خفيض:

ـ حقًّا؟! . . نعم . . أعلم ذلك . .

فقال الطبيب بغير مبالاة:

ـ فأيّامك الباقية من الإجازة منتهية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل، وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢.

وكان صوت الدكتور يقع من مسمعه موقعًا غريبًا، فتساءل بصوت أشدّ ضعفًا:

ـ ألا يوجد ثمّة أمل في الشفاء قبل انقضاء المدّة الباقية من أجازتي؟

فهال الطبيب السؤال وقال بإنكار:

ـ هل تتصوّر أنّه من المستطاع أن تبرأ وتستردّ قوّتك ووزنك الطبيعيّ فتستأنف عملك في بحر عشرين

يومًا؟! هٰذا محال. أمامك عام استشفاء على أقلّ تقدير..

فسهم رشدي كالشارد، ثمّ أطرق كئيبًا محزونًا، أمّا الدكتور فأعطاه «استمارة» نصّ بها على انتهاء إجازته في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢، إذا لم يعد إلى عمله قبل ذٰلك، وقال له بلهجة دلّت على أنّه يريد الانصراف سريعًا:

ـ وقّع من فضلك بإمضائك على هٰذه الاستمارة للعلم..

وذكر أخاه أحمد كأنّه يستغيث به في تلك الساعة الحرجة!.. وردّد عينيه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاد الصبر، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقّع بإمضائه بيد مرتعشة. وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمّه متطلّعة إليه بوجهها الذي نال منه الإعياء والهمّ كلّ منال، فقال لها بصوت مبحوح متهدّج:

ـ وقّعت اليوم بإمضائي على أمر فصلي من عملي!

فخفق قلب المرأة خفقة عنيفة، بَيْد أنّها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تضاعف من أشجانه، وقالت باستهانة:

ـ أهٰذا ما جعلك تتكلّم بهٰذه اللهجة الحزينة؟!. يا بنيّ، إنّ الله أكرمنا بإنقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغي أن نغفل عن ذكره وشكره، وليَهُنْ بعد ذٰلك كلّ شيء، فلا يحزنك الأمر، فإنّك إن فقدت عملك اليوم واجده غدًا إن شاء الله..

ولٰكنّه قال بالصوت المتهدّج المبحوح نفسه وكأنّه لم يَعِ شيئًا ممّا قالت:

ـ قضي الأمر وخسرت وظيفتي، وضاع الماضي والمستقبل.

فقالت المرأة وهي تعضّ على نواجذها دافعة دموعها:

ـ رشدي لا تأسَ ولا تحزن، وغدًا تنكشف الغمّة بأمر الله ورحمته، فتردّ إلى وظيفتك أو إلى خير منها، والله لَتَبْسَمَنَّ بعد عبوس ولَيَصْدُقَنَّ قلبي..

ولٰكنّه لم يكن يصغي إليها، وتاهت عيناه في آفاق مجهولة، فغابت أمّه عن ناظريه وراح يقول وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ ما أفظع المرض!.. حقًّا إنّ ألمه لشديد، وعذابه لمروّع، يجعل القوّة عجزًا، والشباب شيخوخة، والأمل قنوطًا يقعد الناهض، ويعطّل العامل، ويقبّح الحبيب. أضاع مستقبلي، وأطفأ نوري، وأوهن عظامي، وأفقر يدي، اللّهمّ اكفهم شرّ المرض.. اللّهمّ اكفهم شرّ المرض..

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت في البكاء، وقالت بصوتها الباكي:

ـ هلّا رحمتني يا رشدي!

فقال بحدّة:

ـ الله لا يريد أن يرحمنا..

وبعد ظهر ذاك اليوم ـ وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد من الوزارة ـ حدَّث الرجلان رشدي حديثًا طويلًا يهوّنان به من أثر ما وقع، ويؤمّلانه خيرًا منه، حتّى بدا في النهاية أنّه يعيرهما أذنًا واعية ويتأسّى بما يقولان. ورأى أحمد أنّ نفقات التداوي ستضحي، بل أضحت بالفعل، أكثر ممّا تتحمّله نقود الشابّ التي انكمشت إلى ربع مرتّب وستنقطع بعد حين، وأنّه لن يغني عنه ما عسى أن يعينه من مرتّبه المثقل، فقال له:

ـ رشدي، أنت الآن خير حالًا ممّا كنت في الماضي القريب، وأظنّك تحتمل البقاء في المصحّة، أفلا يحسن بك أن تنتقل إليها لتظفر بجوّ وعناية، لا يتوافران لك ها هنا..؟

فقال الشابّ وقد اقشعرّ بدنه لتذكّر المصحّة وعهدها:

ـ ليس في طوقي الآن أن أعود إلى الدرجة الثانية، ومحال أن أرضى بالانتقال إلى عنابر الدرجة الثالثة.

ـ أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هٰذه هواء ودواء؟

فهزّ رأسه الذي بدا كبيرًا جدًّا بالنسبة إلى عنقه الرفيع وقال:

ـ الحياة هناك فظيعة، وأحوال المرضى مخيفة، كفاك الله شرّ المرض..

فلم يزد أحمد كلمة واحدة، وعند المساء، وكان رشدي وأمّه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع الراديو المترامي إليهما من المقاهي المحيطة، قدّم المذيع طبيبه الذي كشف عليه أوّل مرّة - إلى الجمهور «.. يلقي عليكم محاضرته الأولى عن السلّ» فارتعشت أمّه لسماع الاسم الذي يقضّ مضجعها، أمّا رشدي فانتبه بعناية وأرهف أذنيه، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهفان أذنيهما في تلك الساعة، فالأب في حجرته رفع رأسه عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة، وغاب أحمد عن حديث الصحاب في الزهرة ليلقي بانتباهه كلّه إلى الراديو خافق الفؤاد. وتكلّم الدكتور عن تاريخ كشف ميكروب المرض، والأدوار التي يمرّ بها، ووصف كلّ دور بإسهاب، ثمّ تكلّم عن مسألة زواج الناجين من الداء، وما ينبغي أن ينتظره أصحاب كلّ دور من أعوام، واقترح في النهاية أن تنشئ الحكومة للناجين من الدور الثالث قرًى في صحراء حلوان تكون بمثابة معازل يقضون فيها شطرًا من أعمارهم أو العمر كلّه. أصغت الأسرة متفرّقة إلى المحاضرة، فأخفت الأمّ عينيها الدامعتين، وتنهّد الأب وعاد إلى كتابه، أمّا أحمد فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلّم نونو. ولازم رشدي الصمت، ومضى يستعيد ما سمع، فغمرته فجأة ذكريات حياته، الشباب الطروب واللهو العابث والحبّ الساحر، وصور سريعة متزاحمة من الوجوه والأماكن والربوع، فتآكل صدره حسرة، وهوى من ربوة الأمل إلى هاوية القنوط، ونسي وجود أمّه فهتف يائسًا: «ربّاه إذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهي بهذا الداء أجلي، فأسألك الرحمة بالتعجيل به». وارتاعت أمّه، ونظرت إليه بعتاب وهي تقول:

- رشدي!..

فنظر إليها مبتسمًا ابتسامة حزينة وقال بلهجة تهكّميّة:

- الغالب أنّك لن تفرحي بعرسي كما تودّين!

ولـمّا رآها تجهش في البكاء، غلبه التأثّر، فوجم.. وقال بأسف:

- معذرة يا أمّاه.. لشدّ ما أقسو عليك يا مسكينة. حرّمت عليك النوم والطعام وسوّدت أيّامك، وهأنذا أعذّبك بهذياني، فاللّهمّ غفرانك.

- ٤٦ -

واستيقظ في صباح اليوم الثاني أهدأ نفسًا وأهدأ قلبًا. ولـمّا جاء أحمد يصبّح عليه طلب إليه أن يعيره القرآن. وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشابّ بسرور، وسأله:

- أليس من الحرام أن ألمسه ولـمّا أستحمّ منذ أشهر؟!

فقال له مبتسمًا:

- عذرك مقبول عند الله..

ومضى يقرأ الكتاب، ولولا خوف السعال، لتلاه بصوته العذب. ووجد في القراءة لذّة وسلامًا، واطمأنّ بذكر الله قلبه، ونسي به الحنين إلى الماضي السعيد، والحسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط منه فيه، بل نسي به التوجّع الدائم لما صار إليه حاله، واليأس من الشفاء الذي قبض قلبه منذ أمس، والخوف من النهاية التي تتخايل لعينيه، وفرّ أخيرًا من آلامه ومخاوفه لائذًا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكّل على الله. ووجد ارتياحًا في الإذعان المطمئنّ إلى إرادة الله وقضائه، ورأى تلك الإرادة الشاملة التي تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم إليها آمنًا مطمئنًّا كما يستسلم إلى صدر أمّه إثر نوبة السعال. ومرّت أيّام وهو هادئ رزين، صابر متصبّر، باشّ مسالم، لا يثور ولا يغضب، لا يشكو ولا يتذمّر، ولا يتمرّد ولا يسخر. وفي المرّات القلائل التي أطلقت فيها زمّارات الإنذار لم يفارق الشقّة منهم أحد، فكانوا يتحسّسون طريقهم إلى حجرته في الظلماء، ويلتفّون حوله بقلوب خافقة وأعصاب متوتّرة. واطّرد الزمان في هدوء حتّى وقع حادث هامّ!. كان مايو قد انتصف، والوقت أصيلًا، والأب قد انتقل كعادته إلى مسجد الحسين لصلاة المغرب، وجلس أحمد في حجرة الشابّ يحادثه بوجود والدتهما، فدقّ الجرس وفتح الباب، واقتربت أقدام خفيفة، ثمّ دخلت الحجرة امرأتان: الستّ

توحيدة ونوال! وحدثت دهشة لاحت أماراتها في الأعين، وخفق قلب الشقيقين بعنف. لماذا جاءت نوال بعد هٰذا الغياب الطويل؟!. وإنّ ظهورها مرّة أخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذي أوشك أن يندمل. ونهض أحمد وتنحّى جانبًا حتّى ارتفق النافذة، ورفع رشدي عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان، ونطقت عيناه بالإنكار، ثمّ زايلته الدهشة وحلّ محلّها امتعاض شديد فتنغّص عليه هدوؤه البديع. وحدّثته الستّ توحيدة بلهجتها المرحة، وأكّدت له أنّه يتحسّن تحسّنًا محسوسًا، أمّا نوال فرنت إليه بعينين مروّعتين وقد أفزعها ما صار إليه من الهزال والضعف، وغُلبت على أمرها فلم تدرِ ماذا تقول. ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كيف حالك؟!»، ولم يرغب في الردّ عليها فاكتفى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنّه يقول لها «كما ترين!» ولم يعد يخفى على أحد أنّ الشابّ تغيّر، وأنّه اعتراه اضطراب واستياء، وأنّه يعاني ألمًا باطنيًّا حادًّا. وأرادت الستّ توحيدة بلباقتها أن تخفّف من توتّر الجوّ فراحت تتحدّث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة، ثمّ قالت:

ـ أبْشِر يا رشدي أفندي!. رأيتك في الحلم حاملاً أثقالاً عابرًا بها قنطرة طويلة، فبلغت نهايتها بسلام، وتفسيره أنّك ستبرأ عمّا قريب إن شاء الله!..

فقال رشدي بلهجة لم تَخْلُ من خشونة:

ـ فسّر الدكتور قبلك هٰذا الحلم فأكّد لي أنّي لن أفارق فراشي قبل عام طويل؟

فقالت المرأة بلهجة عتاب:

ـ سامحك الله يا رشدي أفندي، هٰكذا أنت متطيّر دائمًا.. (وأومأت إلى ابنتها واستأنفت الكلام) هٰذه نوال جاءت لتراك، وما منعها عنك إلّا انشغالها بدروسها، ومرضها في الأيّام الأخيرة، وستؤدّي الامتحان في نهاية هٰذا الشهر!.

فقال الشابّ بلا تردّد:

ـ نفس التاريخ الذي أفصل فيه من عملي..

فاصفرّ وجه نوال التي أدركت حقيقة غضبه، وبادرت المرأة تقول بامتعاض:

ـ بعد الشرّ.. بعد الشرّ. كلّ شدّة إلى انتهاء تسير..

ولٰكنّه بسط راحتيه على صدره وقال بحدّة:

ـ إلّا هٰذه الشدّة، فلا انتهاء لها حتّى تقضي على الحياة..

ـ مرضك يا رشدي أفندي ليس بالخطير، وستبرأ قريبًا بإذن الله..

فهزّ منكبيه استهانة، وعاد يقول بحدّة وراحتاه على صدره:

ـ أيّ مرض تعنين؟!.. ها هنا سلّ!، أما سمعت به؟!.. سلّ سلّ، إنّه يأكل صدري، ويسيل مع ريقي دمًا.. إنّه مرض خطير فظيع، شديد العدوى، فحَذار..!

واشتدّ به التأثّر، وغلبه الانفعال، فضرعت إليه أمّه أن يسكت، ورجت الضيفتين أن يصحباها إلى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدّة الشابّ بمرضه. ولـمّا خلت الحجرة إلّا من الشقيقين، قال أحمد بحزن:

ـ ليتك لم تستسلم للغضب!.

ولٰكنّه قال له بانفعال شديد:

ـ والله ما تستحقّ إشفاقك يا أخي!، إنّ الخيانة قبيحة، وهٰذه الفتاة هي سبب الكارثة التي حلّت بي كما تعلم يا أخي، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتي، ولٰكنّ تعلّقي بها هيّأ لي مداراة المرض حتّى انتهيت إلى ما ترى...

واستوى جالسًا وقال وما يزال منفعلاً:

ـ لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها إليّ؟.. المرأة الماكرة ترمي بنظرها إلى بعيد، فترى الشفاء محتملاً كالموت، وتأخذ الحيطة لكلّ احتمال، ولٰكنّي يا أخي لن أفكّر في الزواج، وإذا كتب الله لي الشفاء فسوف أتعهّد بنياني المتهالك بالعناية الواجبة، فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمري إلّا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة. أخي: لي في المصرف مقدار من النقود كنت ادّخرته لزواجي فسأستردّه وأشدّ الرجال إلى حلوان، وهناك أضع نفسي تحت رحمة المقادير حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. غدًا اسحبْ

لي النقود بنفسك، وابتع لي ثيابًا ولوازم، وسأكون بالمصحّة قبل نهاية هٰذا الشهر، وعلى الله الجبر. . . .

- ٤٧ -

وفي ضحى اليوم الثاني - الجمعة - نفّذ أحمد مشيئة أخيه، فاستردّ وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثيابًا داخليّة وبعض اللوازم الثانويّة، وعاد إلى البيت ظهرًا مسرورًا بما قرّ رأي المريض عليه من الانتقال إلى حلوان، ولـمّا دخل حجرة الشابّ رآه يدخّن سيجارة، فانزعج انزعاجًا شديدًا، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض، فارتبك لمرأى القادم، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل. وهتف به أحمد وقد نسي المشتريات الجديدة:

- مَن أعطاك هٰذه السيجارة؟. . ماذا تفعل بنفسك؟!

وألقى على أمّه نظرة ملؤها الاتّهام، فقالت المرأة تدافع عن نفسها:

- ألحّ عليّ يا أحمد ولم ينفع اعتراضي، فما سكت حتّى فاز بطلبته. .

وقال رشدي دون أن يترك السيجارة:

- لا تؤاخذني يا أخي. . نازعتني نفسي إلى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها.

فقال أحمد بامتعاض شديد:

- ولٰكن هٰذا هو الجنون عينه!.

فقال الشابّ كالمعتذر:

- سيجارة واحدة لا تؤذي، لكَمْ هي لذيذة! دعني اخذ أنفاسها في طمأنينة. .

ودخّن سيجارته في سرور عجيب، ثمّ قال:

- لا تغضب يا أخي فهي آخر سيجارة، والآن هات ما عندك من الثياب الجديدة. . .

وبعد الغداء بقليل اعتراه إعياء شديد ولم يطمئنّ إلى الاضطجاع، فجلس في الفراش مادًّا ساقيه مسندًا ظهره إلى وسادة منكسرة، فبدا ساقاه كخطّين، واشتدّ اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة، ولاحت عيناه متّسعتين مكتحلتين بهالتين سوداوين، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة، غير نظرة الحزن الأولى، كأنّها ترمي إلى شيء لا تراه الأعين. وجاء أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضي إلى قهوة الزهرة، فقال له رشدي:

- أذاهب إلى الزهرة؟!. . سلامي إلى الصحاب، لكم يشوقني أن أسهر ليلة في السكاكيني بين إخواني.

فقال أحمد بتأثّر:

- ستبرأ إن شاء الله وتعود إلى إخوانك ولياليك!

فقال الشابّ بانكسار:

- هل يمكن أن أبرأ حقًّا؟!. . انظر إلى ساقيّ! هل تعودان مرّة أخرى إلى هيئة السيقان البشريّة؟!

- وما يكون هٰذا في قدرة الله العظيمة؟

فهزّ رأسه، ثمّ قال لأخيه بلهجة الناصح الأمين على غير مألوفه:

- ارْعَ صحّتك دائمًا بعين اليقظة ولا تتهاون بها أبدًا. .

ثمّ أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلًا وقد تغيّرت نبرات صوته:

- المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدّد الأمال. .

وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلّم هٰكذا؟!.

ونظر إليه بانكسار، فاستدرك الآخر:

- وميكروبه يعمل في الخفاء حتّى إذا تمكّن من فريسته قضى عليها.

- رشدي!. ماذا تقول؟.

- أجلو لك الحقّ قبل الفراق، فعسى ألّا أراك بعد اليوم.

فقال الرجل بانزعاج:

- كيف لا أراك يا رشدي؟

فتنبّه قليلًا وقال كأنّما عاودته سخريته المرّة:

- أليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف المرض أو تنشغل بدروسك فتنساني في حلوان؟!

فهتف به أحمد متألّـمًا:

- سامحك الله. . سامحك الله. .

فحدجه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله:

ـ لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم؟

فصاح به الرجل:

ـ رشدي! كيف تتكلّم؟!

فلزم الصمت لحظة قصيرة، ثمّ قال بأسف:

ـ لعن الله المرض، الله يكفيكم شرّ المرض!..

وانزعج أحمد انزعاجًا كبيرًا، وعادت أمّه بالقهوة فاحتسى قهوته في سكون، وخاف أن يعود الشابّ إلى كلامه المزعج، ولٰكنّه لم ينبس بكلمة، فارتاح ارتياحًا خفيفًا، وحسب أنّه استردّ حالته الطبيعيّة. وجعل يسترق إليه النظر، فهاله تراخيه، ولون وجهه، ومنظر ساقيه. وحدّث نفسه متأثّرًا: أهٰذا أنت يا رشدي؟! تبًّا للمرض!!.

وذهب الرجل إلى القهوة متأخّرًا عن موعده، وكان يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوتّرة، ونفسه المحزونة، فمكث بها حتّى منتصف العاشرة، ثمّ عاد إلى البيت، ومرّ بحجرة أخيه، فوجده قد تعاطى المنوّم واضطجع في طلّاب النوم، ولٰكنّه لم يكن نام بعد فردّ تحيّة القادم قائلًا:

ـ مساء الخير.. هل عدت؟

فقال أحمد وهو يتفحّصه بعينيه:

ـ أجل.. كيف حالك؟

ـ الحمد لله.. كيف شاي الزهرة؟

ـ كعهدك به.

فقال بصوت لم يكد يسمع:

ـ هنيئًا!..

وتركه لينام ومضى إلى حجرته، وخلع ملابسه. كان منقبض الصدر متوتّر الأعصاب. وترامت إلى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضًا وأعصابه توتّرًا، ترى هل للهواجس التي تضطرب بها أعماق النفس رائحة تشمّ؟! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة. ثمّ نهض لينام. فلم يغمض له جفن حتّى مضت ساعة طويلة من الأفكار والوساوس، واستيقظ في الصباح الباكر على حركة في البيت فتنبّهت حواسّه، ونظر في الساعة فوجدها الخامسة. فتساءل ما الذي أيقظهم في هٰذا الوقت المبكّر؟! وغادر الفراش، وانطلق إلى الخارج يساوره قلق وخوف، وقبل أن يخطو خطوتين في الدهليز المفضي إلى حجرة رشدي انفتح باب الحجرة بقوّة وبدت أمّه على عتبته وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمَن يستغيث، ثمّ هوت على خدّيها تلطمهما بعنف وجنون.

ـ ٤٨ ـ

وكان يومًا فظيعًا مروّعًا، سارت قافلته في هول من الألم والعذاب والشجن. وإنّ أحمد ليذكره ساعة ساعة لأنّ ذكرياته السود حفرت في فؤاده كما حفرت في فؤادي الوالدين البائسين. فساعة دخوله الحجرة: سار متثاقلًا بقلب كسير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه، ومدّ بصره نحو الفراش فرأى رشدي راقدًا وقد سجّته أمّه بالغطاء ووالده واقفًا على كثب منه دامع العينين منكّس الرأس، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالنائم لم يتغيّر منه هيئة ولا لون، وهل ترك المرض للموت شيئًا يغيّره؟! وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثمّ أعاد الغطاء كما كان، واستسلم لبكاء غزير تجمّعت أبخرته في قلبه يومًا بعد يوم تنفثها الآلام حتّى تكاثفت في برودة الموت فسحّت دمعًا فيّاضًا..

وموقفه في حانوت بالغوريّة: يبتاع كفنًا، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا. انتقى له أجمل الألوان لما عهده فيه من حبّ الأناقة وجعل ينظر إلى يدي البائع، وهو يقيس القماش ويقطعه ثمّ يلفّه، بإنكار وذهول.

ثمّ ذهابه إلى مركز الصحّة لاستخراج تصريح بالدفن. سأله موظّف بعدم اكتراث: «اسم المتوفّى؟» فأجابه وهو يودّ ألّا يسمع صوت نفسه: «رشدي عاكف» ثمّ قال لنفسه بذهول: «رشدي عاكف مات! أَفْظِعْ بها من حقيقة» وسأله باللهجة الباردة نفسها: «عمره؟» فأجابه «ستّة وعشرون عامًا» فسأله «المرض؟» فسمّاه والغضب يضطرب في جوانحه، وهل ينسى ما فعل بالشابّ المنكود؟ هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق؟ لون البشرة؟.. قسوة السعال؟. ثمّ تسلّم الورقة التي لا يمكن أن يغيّب رشدي في باطن

الأرض إلى الأبد إلّا بها ومضى شاكرًا!! وقد أحدث عدم اكتراث الموظّف والدكتور ثورة في صدره على وشائج الإنسانيّة جميعًا، كيف يُلقى الموت بعدم اكتراث وهو أفظع حدث في الدنيا؟! هل يمرّ يوم دون أن يُرى نعش محمولاً على الأعناق؟!، فكيف يمرّون به مرّ الكرام كأنّ الأمر لا يعنيهم؟! كيف لا يرى كلّ فرد نفسه محمولاً على هٰذا النعش؟!

ثمّ مرتزقة الموت، جاءوا تباعًا يحملون أدوات الغسل والنعش، برّاقة أعينهم، قويّة سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالربح المرتقب، فلم يَروْا في جثمان رشدي العزيز إلّا سلعة..

ثمّ النعش يتهادى على الأعناق في حلّة الشباب البيضاء، وملأ عينيه منه وهو يسير في انحرافه المعروف تتبادله الأيدي والمناكب، ووضع الطربوش عليه مستويًا وكان صاحبه يُميله إلى اليمين فيوشك أن يمسّ حاجبيه فعل المختال بشبابه المدلّ بجماله، لله ما أوفى أصحابه، لقد بكوا حتّى احمرّت أعينهم، وبكى كمال خليل أفندي، أمّا أحمد راشد فقد جمد وجهه ولم يُبِنْ ولم يرتح أحمد لمنظره ولا لوجوده بين المشيّعين، كذٰلك تجنّب النظر إلى المعلّم نونو الذي أيقن أنّه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب، وسار الأب وراء النعش مباشرة في حزن حفظ الإيمان عليه وقاره، وبلغ التأثّر بأحمد منتهاه حين بلغت الجنازة طريق الجبل، الذي يعلم من أمره ما يعلم، الطريق الذي شهد رشدي عاشقًا صباحًا بعد صباح، والذي جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينًا بمرضه الخطير، فاشترى قلبه بصدره، ثمّ خسر الاثنين معًا. ربّاه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق؟..

هل يفضي إليه بأنّ التي رأى الفتى المسكين ينتحر من أجل حبّها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة؟! ثمّ بدت المقبرة في ثوب قشيب!. فرشت أرضها بالرمل، واصطفّت عند مدخلها الكراسيّ، ودار بها السقاة، وفغر القبر فاه كأنّه يتثاءب ضجرًا من المأساة المعادة، ووضع النعش على الأرض وكشف الغطاء، ورفع رشدي ملفوفًا في الكفن الذي اختاره له بنفسه، وأطبقت عليه الأيدي، وغابوا به في جوف الأرض، ثمّ صعدوا بعد قليل من دونه، وبلا رحمة حثوا عليه التراب، فاختفى في القبر في دقائق معدودات، واستوى بالأرض، ونضحوا الماء عليه كأنّ غلّته لم تُروَّ بعد، وهٰكذا غاب عزيز وانتهت حياة! بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب إلى الأبد فلا تغني عنه الدموع ولا الحسرات. ورجعوا جميعًا وقلوبهم شتّى، الحكمة التي أوجبت بالأمس أن يكون رشدي محبوبًا توجب اليوم أن يصير نسيًا منسيًّا!. البيت كئيب، والوالدان ذاهلان، وقد كوِّم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها. ولـمّا أوى عند منتصف الليل إلى حجرته، انثالت عليه الفكر، حتّى تنبّه إلى شيء في الجوّ. يا عجبًا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه.. رائحة الموت المخيفة؟ وفي صباح اليوم الثاني وجد أنّها ما تزال تنبعث في الجوّ، فتهيّأ له أنّها ربّما كانت متصاعدة من الممرّ المفضي إلى خان الخليلي القديم، ففتح النافذة ونظر منها، فرأى على الطوار كلبًا ميتًا وقد انتفخ بطنه وتشنّجت أطرافه، فصار كالقربة، وأكبّ عليه الذباب. وأدام النظر قليلاً، ثمّ تحوّل عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع..

ثمّ كانت أيّام قاسية مرّة. أمّا عاكف أفندي الأب فقد راح يداوي بالإيمان جرحًا داميًا، وأمّا الأمّ فقد ذهلت في حزنها عن كلّ شيء حتّى الإيمان، بل قالت تخاطب ربّها في وقدة الألم: «ما ضرّ دنياك لو تركت لي ابني!» ثمّ قالت لزوجها بحدّة: «هٰذا حيّ شؤم، جئته على كره منّي وما أحببته قطّ، وفيه مرض ابني وفيه قضى. فدعنا نهجره بغير أسف!» ثمّ انثنت إلى أحمد قائلة: «إذا أردت أن ترحم أمّك حقًّا فابحث لنا عن مقام جديد». كرهت الحيّ وأهله جميعًا. وضاق أحمد به صدرًا كذٰلك، ولٰكن كيف السبيل إلى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكّانها! ولم يَأْلُ جهدًا فوصّى زملاءه جميعًا بالبحث عن مسكن في أيّ موقع من القاهرة، بل جعل يروض حزنه الأليم بالاضطراب في الشوارع القريبة والبعيدة بحجّة البحث عن مسكن

خال. وقد لاحظ المعلّم نونو سهومه وكآبته فأكثر من ممازحته وجذبه إلى أحاديثهم حتّى دعاه مرّة إلى بيت الستّ عليّات، ولكنّ الكهل أبى وظلّ مغبرّ الجبين.

- ٤٩ -

وتلا وقت حافل بالأحداث الحربيّة الهائلة، فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان، وفي النصف الثاني من يونيو سقطت طبرق في يد الألمان، وتهامس الناس بخطر الغزو. وتناول الصحاب، في الزهرة، الأخبار بتعليقاتهم المعتادة، فقال سيّد عارف بسرور:

- لن يقف زحف رومل هٰذه المرّة..

فسأله الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهكّم:

- يا مَن تحبّون الألمان، هل تحسبون أنّهم إذا دخلوا مصر يدخلون بسلام، أو أنّ دون ذٰلك حربًا ضروسًا تقتلع كلّ قائم؟!

فأجابه المعلّم زفتة باستهانة:

- وماذا لنا في البلد ممّا يُخاف عليه؟! فليحزن السادة الذين لا يعرفون أنّ الدنيا فانية!.

وقال المعلّم نونو:

- لا أملك إلّا روحي وأرواح أبنائي وهي جميعًا ملك الله تعالى ولا سبيل لرومل عليها إلّا بأمره، وقد وقّت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين!..

ثمّ ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلًا:

- نذرت إلى الله، لو جاء رومل وأنا على قيد الحياة، لأدعونّه إلى سهرة بيت الستّ عليّات، ليشهد أنّ المدفع المصريّ فوق المدفع الألمانيّ...

وجعل أحمد ينقل إلى والديه ما يقوله الناس، ويحدّثهما بأخطار الغزو وما يتوقّعه الكثيرون من اشتداد الغارات الجوّيّة، وكأنّما أراد أن يلهيهما عن حزنهما ولو بإثارة مخاوفهما!

وعاد أحمد ذات مساء إلى البيت، وكان انقضى على وفاة رشدي أربعة أسابيع فوجد أمّه بانتظاره، وبادرته قائلة:

- زارتني نوال بعد عصر اليوم!

وخفق قلبه لذكر الاسم، وأمسكت يداه عن فكّ رباط الرقبة، وسألها مندهشًا:

- ولماذا جاءت؟

فقالت الأمّ:

- قابلتني في ارتباك شديد، وما إن التقت عينانا حتّى انتحبت باكية، وقالت لي بصوت متقطّع ونبرات مختنقة: «أنا أعلم بسخطك عليّ، بل بسخطكم عليّ، ولكم العذر، ولكنّي مظلومة، والله يا تيزة، منعوني من زيارته، وحالوا بيني وبين رؤيته، وفرضوا عليّ رقابة شديدة، وأبوا أن يصغوا إلى توسّلاتي أو يرحموا دموعي، وما كنت لأفعل هٰذا بنفسي أبدًا، ومع ذٰلك لم أذعن ولم آيس حتّى اضطرّت أمّي تحت ضغطي الشديد أن تصطحبني معها في غياب أبي، فجئنا معًا ذاك اليوم الذي لا أنساه ولن أنساه ما امتدّ بي عمر. آه يا تيزة!، ألقى عليَّ يومئذ نظرة واحدة، تنطق بالاحتقار والزراية فقطّعت قلبي المكلوم البريء. أدركت أنّه ناقم عليّ، كاره لي، لَكَمْ تألّمت، ولكَمْ أتألّم.. ولكنّه سيعلم الحقيقة يومًا ما، ويعلم أنّي ما بغيت عليه ولا خنت عهده...».

أصغى أحمد إليها بفؤاد خافق وصدر هائج جيّاش، ثمّ سألها:

- أتقول الحقّ يا تُرى؟

فتفكّرت المرأة قليلًا ثمّ قالت على مهل:

- سمعتها تتكلّم بإخلاص، ولا أدري لماذا تحمّل نفسها عناء الكذب بعد أن انتهى كلّ شيء، فيغلب على ظنّي أنّها صادقة، بيْد أنّ مقتي تضاعف لأهلها الدون.

وخلع الرجل ملابسه متفكّرًا، وقد مال إلى تصديق الفتاة كأمّه، وارتاح لذٰلك، ولكن وأسفاه قضى رشدي نحبه يائسًا من حبّه يأسه من الشفاء! فيا لهما من حبيبين تعيسين الميت منهما والحيّ!. وأهاجته الذكريات فاستثارت أحزانه ومضى يقول لنفسه: «اللّهمّ غفرانك، ألم يكن الأوفق أن تختارني وتعفو عن أخي؟ فحياتي الخائبة لا تستحقّ الوجود، وحياته الناجحة كانت أهلًا للدوام، اللّهمّ غفرانك!» وأحسّ

في تلك اللحظة داعيًا باطنيًا يدعوه إلى ارتياد حجرة الفقيد المغلقة، وكانت نفسه نازعته إلى ذٰلك مرّات ثمّ يعدل إشفاقًا، أمّا هٰذه المرّة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعي، وهزّه الشوق والحزن، وما عتم أن مضى إليها والسكون شامل وقد أخلد والداه إلى النوم. ولّما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن. ثمّ أدار الأكرة، وعبر مدخلها متثاقلًا، وأضاء المصباح الكهربائيّ، وألقى على الحجرة المهجورة نظرة شاردة، وقد ملأت رائحة التراب أنفه، فرأى كومًا من الأثاث ومكتبًا تراكم عليه الغبار فأحاله، وكلّ شيء يدلّ على الوداع. ربّاه لماذا ولج هٰذه الحجرة وما جفّت دموعه بعد؟! وأجال عينيه بها في حزن بالغ فجذبهما درج المكتب الأوسط، فذكر أنّ هٰذا الدرج يحوي مذكّرات رشدي و«ألبوم» صوره!، وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بهما في حجرته ما دام الأثاث عرضة للبيع اليوم أو غدًا، ففتح الدرج واستخرج كرّاسة المذكّرات والألبوم، ونفخ عنهما الغبار، ثمّ ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرها كأنّما ما جاء إلّا ليأخذ الألبوم والمذكّرات. ووضعهما على مكتبه، وطفق يديم النظر إليهما باهتمام وحزن. وفتح الألبوم عن أولى صحائفه، فرأى صورة كبيرة لرشدي تمثّله واقفًا ويداه في جيبي بنطلونه، ما أجمله وما أنضره!.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذي كدّر جوّه يومين كاملين! فتآكلت نفسه حسرات! ولم يَمْضِ في استعراض الصحائف احترامًا لأسرارها، وتناول كرّاسة المذكّرات دون أن تحدّثه نفسه بالتطفّل على مكنونها، بَيْد أنّه لم يقاوم رغبة في فرّ صفحاتها الأخيرة، فجرى بصره على بعض رؤوس النبذ التي تكوّن خاتمة المذكّرات.. فقرأ «حبّ جديد».. «طريق الجبل».. «حديث غرام».. «آمالنا» حتّى مرّ بصره بهٰذا العنوان «القبلة القاتلة!» فخفق فؤاده بعنف شديد، ما معنى هٰذا العنوان؟!.. ألم يردّده في بعض هواجس حزنه يومًا؟! وكان مؤرّخًا في ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أي أوّل عهده بالمرض، فلم تكن ثمّة قوّة تستطيع أن تعدل به عن قراءته فقرأ وصدره يضطرب ويجيش بالعاطفة:

الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢:

«ربّاه!. أنا من اليوم وحتّى يشاء الله شخص غريب، في صدره أذًى للناس، أنفاسه تهدّد العباد، برج متداعٍ من الميكروبات الفتّاكة، لعبت لعبة خطيرة كيلا تضيع نوال من يدي، اللقاء مبذول، ولٰكن حَذارِ، نوال محرّمة عليك، محال لمسها! قبلتها التي كانت شفاء للنفس حرام حرام، لشدّ ما تنكرني وتعجب لشأني ولعلّها تسائل نفسها ما له لا ينتهز فرصة خلوّ الطريق كما كان يفعل؟ هل شبع من شفتيّ؟ أترى فتر حبّه؟.. كلّا يا حبيبتي لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبّه، ولٰكنّه يخاف عليك، ويصون فاك من الهلاك المبين، ليس الذنب ذنبي، فقلبي كعهدك به ولٰكنّ دونه صدرًا عشّش فيه عدوّ شرّير أخافه عليك وأعيذك منه..».

أغلق أحمد الكرّاسة، وجعل يذرع الحجرة وكأنّه يترنّح من شدّة الصدمة، ثمّ ارتمى على الفراش وهو يصكّ جبينه براحته ويهتف: «ربّاه! لَكَمْ ظلمته.. ولكم اتّهمته بالباطل!»، وأحسّ كما لو أنّ منشارًا ينشر قلبه فأنّ أنينًا موجعًا..

- ٥٠ -

وتصرّمت الأيّام الباقية من يونيو، وجاء يوليو بقيظه الفائر..

وظلّت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الثاكل، ولم تفتر همّة أحمد عاكف في التنقيب عن مسكن جديد، رحمة بوالدته، ولأنّه هو أيضًا، ضاق بالحيّ صدرًا. وقد خلّفت الصدمة في أعصابه الرقيقة آثارًا عميقة، فعاوده بعض أرقه القديم، وتلبّسته حال من القلق النفسيّ بات معها سريع الانفعال، سريع التأثّر، كثير المخاوف مستسلمًا للحزن. وألقت في صدره الجيّاش أحزان الماضي والحاضر، وتوجّس خيفة ممّا يخبّئه المستقبل وممّا عسى أن يلده من الأحزان والآلام، وقال لنفسه، وهو يذكر والديه: إنّ سعادتنا بأحبّائنا اليوم مرتهنة بالدموع التي نسكبها على فراقهم غدًا، وطفق

يردّد بيت أبي العلاء:

ومَن لم تبيّته الخطوب فإنّه
سيصبحه من حادث الدهر صابح

فلم تكن أعصابه ممّا يعين على تحمُّل غِيَر الدهر وآلام الحياة، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم، ولذلك صدقت رغبته في هجر الحيّ. وفي ذلك الوقت كثر إطلاق صفّارات الإنذار ليلًا ونهارًا ولكن لم تضرب المدينة كما حدث في سبتمبر، ثمّ تحرّجت الحالة الحربيّة بتوالي تقدّم قوّات المحْور، فعبرت الحدود المصريّة، وتوغّلت فيها، حتّى جاوزت مرسى مطروح التي كانت تعدّ أهمّ خطّ دفاعيّ عن مصر، ثمّ استولت على فوكة والضبعة، وبلغ التحرّج منتهاه بتقدّم القوّات المعادية إلى العلمين!.. تخايلت الإسكندريّة لأعين الغزاة وتهامس الناس بأنّ الضرورات الحربيّة تنذر بتحويل الوطن إلى خرائب تنعق فيها البوم، ومستنقعات يرعاها البعوض.

وفي مساء اليوم الذي بلغت فيه قوّات المحور العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم، فتلاقوا بالبشر والسرور، وملأوا الجوّ برنين ضحكاتهم، لم يفكّر أحد منهم في الهجرة أو في تخزين بعض الموادّ الغذائيّة، ولا شغل أحد نفسه بتقدير الحالة التي تنشأ عن الغزو والحرب في المدن، أو كانوا يتمثّلون هٰذه الحالة مازحين ضاحكين كأنّ الأمر لا يعنيهم، ولسان حالهم يقول: «الأمر لله وليحدث لنا ما يحدث للناس جميعًا!» ولم يختلف أحمد عاكف عنهم في شيء، بَيْد أنّه وجد في الاجتماع بهم ـ ذلك اليوم ـ لذّة مضاعفة، كأنّه وجد في مجتمعهم الصغير ملاذًا من القلق العامّ الذي أخذ يساور النفوس، لم يَخْلُ قلبه من خوف وقلق ولم يَخْلُ من سرور، كان يفكّر في ما يحتمل أن يحدث فينقبض صدره، ثمّ تتمثّل له تلك الحالة التي يختلط فيها الحابل بالنابل وتُمحى التبعات وتنهار القيم فيجد في أعماقه شعورًا بلذّة خفيّة تعكسها أعصابه المتوتّرة، كأنّ ذلك الغزو المرتقب سيبيد في ما يبيد أحزانه وآلامه، وسيمحو في ما يمحو من آثار الماضي آثار ماضيه..

قال سيّد عارف بلهجة المتثبّت ممّا يقول:

ـ اسمعوا آخر الأخبار. قسم رومل جيشه جناحين، وجّه الأوّل نحو الإسكندرية وهبط بالثاني صوب الفيّوم..

وقال أحمد راشد:

ـ سمعت أنّ الإسكندريّة تضرب بالقنابل من الجوّ ومن البرّ حتّى هجرها أهلوها إلى دمنهور.

ـ هل انتهى الإنجليز حقًّا؟

ـ إنّهم يحرقون أوراقهم ويرحّلون نساءهم!

ـ متى يبلغ الألمان القاهرة؟

ـ غدًا أو بعد غد..

ـ إلّا إذا ساروا بجيشهم المظفّر شرقًا إلى السويس...

ـ سمعت من ثقة أنّ جنود الباراشوت يهبطون جماعات في الحقول...

وتساءل المعلّم نونو:

ـ ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جنديّ من أولئك الجنود وأمره أن يدلّه على موقع حربيّ...؟!

فأجابه سيّد عارف فورًا:

ـ أمضي به إلى شقّة سليمان بك عتّة وأقول له: «هاك السفير البريطانيّ»!

فهتف به سليمان بك محنقًا:

ـ أوْلى بك أن تستوهبه بعض الأقراص لمرضك!

وقال المعلّم زفتة:

ـ أمّا أنا فأسوقه إلى شقّة عبّاس شفة وأريه أضخم «طابية» في مصر...

فقال أحمد عاكف داهشًا:

ـ أليس لهٰذا المزاح من نهاية؟! ألا تعلمون بأنّنا مهدّدون بهجر ديارنا وربّما قذفوا بنا إلى بعض القرى القذرة!.

فصاح نونو:

ـ ما أحلاها عيشة الفلّاح!

فسأل أحمد راشد:

ـ ألا تخافون الموت؟!

فقال المعلّم زفتة:

ـ أعطني عمرًا وارمني على رومل!

وقال المعلّم نونو باهتمام مصطنع:

ـ الحقّ في ما قال أحمد أفندي، الألمان شياطين، وهم إذا هجموا على بلد انتشروا في كلّ مكان، وتخفّوا في كلّ زيّ، فلا يبعد أن نرى غدًا ألمانًا معمّمين أو في ملاءات لفّ.. والله إنّي أخاف أن أفتح الصنبور لأتوضّأ فيخرج لي مع الماء غوّاص ألمانيّ.

وبغتة أطلقت صفّارات الإنذار!!

كانت الساعة السابعة مساء، فهبّوا جميعًا قائمين واختفت البسمات من وجوههم، وهرعوا إلى طريق المخبأ. وخاف كثيرون أن تحدث غارة عنيفة مدمّرة كالتي تسبق الهجوم، وذكروا الإسكندريّة والسويس وبورسعيد، بل ذكروا وارسو وروتردام؟. وبعد دقائق قلائل عجّ المخبأ باللاجئين. وجلس أحمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق وخوف، وكأنّ الأمّ قد كبر عليها ذاك الحرص على الحياة منها فدمعت عيناها. ومرّ ثلث ساعة في ذعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينه، ثمّ انطلقت صفّارة الأمان! ودهش الناس، ثمّ لاح في أعينهم السرور والارتياح، وهتف بعضهم: «استكشاف.. استكشاف!» وهتف آخرون: «اقتربت الطيّارة من حدود منطقة القاهرة ثمّ عادت وغيّرت اتّجاهها!». وتحرّك التيّار صوب باب المخبأ، وخرج مع الخارجين، وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ رأى نوال متأبّطة ذراع شقيقها الصغير محمّد!. والاثنان يضحكان ويوسعان الخطى نحو العمارة!. خفق قلبه لمرآهما كما تعوّد أن يخفق لمرآها أو لذكراها، وظلّ هنيهة يتبعها مقلتيه حتّى غيّبها المنعطف، ثمّ انقبض صدره ورانت عليه كآبة، وأحنقه ضحكها وأغضبه فكأنّه فاجأها متلبّسة بجريمة نكراء! وبلغ منه التأثّر مبلغًا لم يستطع معه العودة إلى القهوة قبل أن يروّح عن نفسه قليلًا بالمشي، فمضى إلى شارع الأزهر على مهل، وأخذت نفسه تسكن وتهدأ، حتّى عاودته حالته العاديّة بأسرع ممّا كان ينتظر، بل أنحى على نفسه باللائمة لغضبه، وأنكره. ما الذي أوجب غضبه؟! ماذا أثار ثائرته؟!، أوَضحكها؟! يا عجبًا! هل حسب أنّها تظلّ باكية إلى الأبد؟! ألم يضحك هو مرّات سواء في الوزارة أم في القهوة؟!.. ألم يَجْرِ الابتسام على شفتي أمّه نفسها في بعض الأحيان؟! فلماذا لا تضحك نوال؟ وماذا يُغضب من ضحكها؟! حقًّا إنّه النسيان، ذاك الدواء المرّ الذي يعقب العزاء ويستوجب الحسرة، العزاء عن آلامنا والحسرة على أنفسنا. نقول نسينا والحمد لله وهي سنّة الحياة! وتنهّد من الأعماق. ثمّ خطر له خاطر ليس بالجديد عليه، ولكنّه كان يروغ منه، يشفق من مواجهته، بيْد أنّه قال لنفسه هٰذه المرّة: «حتّام أهرب وأتجاهل؟! ألا يخلق بي أن أواجه الحقيقة وأمعن النظر! أما زلت أحبّ نوال؟ لماذا يخفق فؤادي لمرآها ولذكراها؟».

وتفكّر مليًّا ـ وهو آخذ في مشيه المتمهّل ـ ثمّ حدّث نفسه مرّة أخرى وقد تورّد وجهه الشاحب خجلًا كأنّما اطّلع على سرّه الناس جميعًا: «حبّ، فوقه غضب، فوقه حزن، فوقه ذكرى مروّعة. فلكي أخلص إلى هٰذا الحبّ ينبغي أن أدوس كرامتي وذكرى أخي وهو المحال.. بيني وبين الحبّ أخي وكبريائي، والحياة أهون من أن أمتهن في سبيلها هٰذين العزيزين!». كلّ هٰذا حقّ فهو يحبّ نوال، ولم يزايله حبّها أبدًا وإن حجبته الآلام كثيرًا، ولٰكن محال أن يعترف لهٰذا الحبّ بغاية، فدون ذٰلك ما هو أقوى من الحبّ نفسه، ولٰكن حتّامَ يمكث على كثب من النار وهو محموم؟!

ـ ٥١ ـ

وفي أواخر أغسطس اهتدى أحمد عاكف إلى شقّة خالية بضاحية الزيتون، في بيت يملكه موظّف بإدارة الحسابات بالأشغال ممّن كانوا يعلمون برغبته الملحّة في الانتقال، وكان يسكنها موظّف اضطرّ إلى فسخ عقدها لنقله إلى إحدى البلدان، فدعا صاحب البيت أحمد وحدّثه بشأنها وتمّ الاتّفاق بينهما سريعًا على أن يتمّ الانتقال في أوّل سبتمبر موعد إخلائها. وسرّت الأسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلي وذكرياته السود، على رغم أنّها ترحل عنه مهيضة الجناح، وقد ألمّ بالأب ضغط دم نغّص عليه عزلته، ونال الحزن من الأمّ

فأصابها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكِبَر، بَيْد أنّ أحمد ـ على حزنه ـ رأى في الأفق نجومًا تخفق. تحدّثوا في تلك الأيّام عن إنصاف المنسيّين من الموظّفين، وباتت الدرجة السابعة قريبة المنال، وكان دائمًا يستهين بالوظيفة والموظّفين، ولٰكنّه سرّ في باطنه بالترقية المنتظرة، وسرّه أيضًا أنّه سيصير رئيسًا على أربعة غير ساعي بريد الوارد، ونوى صادقًا أن يجعل من عهد «رئاسته» فتحًا جديدًا في حياة الإدارة الحكوميّة يضرب فيها المثل الأعلى للرئيس «العالِم الحكيم»!، ثمّ مَن يدري بعد ذٰلك بما يخبّئه الغيب؟ فأمامه في الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عامًا، وعسى أن يرقّى درجات أخرى؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيرًا!!، وليس هٰذا كلّ شيء، فقد حدث أن اصطحب أمّه إلى المسكن الجديد ليعايناه، وهنالك دعاهما صاحب البيت إلى شقّته فاحتسى معه القهوة في حجرة الاستقبال، ودعيت والدته إلى حريم الرجل، وعند عودتهما معًا أثنت أمّه على زوج صاحبه وشقيقته، وقالت عن الأخيرة: إنّها أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال. ونشط خياله!. أرملة في الخامسة والثلاثين على أدب وجمال يحويهما بيت واحد وهو أعزب في الأربعين، وزميل شقيقها، ولا فارق في السنّ من ناحيته ينفّر، ولا شباب غضّ من ناحيتها تتيه به عليه. والظاهر أنّ الحياة لا تريح من الأمل، هل يعلم الغيب كلّه إلّا الله؟، بَيْد أنّ هٰذه الأحلام لا تتّفق ورباط رقبته الأسود! ربّاه!، ما لأحلامه تحلّق في غير حياء؟ ولا يبعد في تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر إلى أحمد راشد مثلًا. وهٰكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوي على شيء كأنّها لم تفقد بالأمس القريب مَن كان يحلّ منها بالمكان المرموق. حياة صمّاء قاسية كالتراب، ولٰكنّها تُنبت الأمل كما يُنبت التراب الزهرة اليانعة. حزن أحمد حزنًا شديدًا، ولٰكن لم يكن من الأمل مفرّ.

وأخذوا للرحيل أهبتهم، فلُفّت الأبسطة، وفكّت الدواليب والأسرّة، وجُمعت الأواني والكتب وقطع الأثاث، واعتزم السير غدًا . . .

وعند عصر ذٰلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة، وكان أحمد لا يزال في حجرته، وجاء فيمن جاء منهنّ الستّ توحيدة ونوال، وجلسن جميعًا في الصالة الخارجيّة لأنّها المكان الوحيد في البيت الذي كان صالحًا للجلوس وقتذاك. ولبثت الستّ توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات. وجاء موعد ذهاب أحمد إلى القهوة ليودّع صحابه، فلم يجد بدًّا من المرور أمام الزائرتين، ولٰكنّ السيّدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدّت له يدها وهي تقول:

ـ كيف أنت يا أحمد أفندي؟

فسلّم عليها في ارتباكه المعهود وهو يقول بصوت خفيض:

ـ الحمد لله يا سيّدتي، شكرًا لك.

ونهضت نوال لنهوض أمّها، فتحوّل إليها مادًّا يده كذٰلك، والتقت يداهما لأوّل مرّة، فسرت في بدنه رعشة، فلم ينبس بكلمة، ولم يرفع عينيه. .

وقالت السيّدة:

ـ ما زلت أعتذر لوالدتك عن سلوكنا، ولعلّك تقيم لنا العذر يا أحمد أفندي، ووالله لقد كان المرحوم عزيزًا علينا أثيرًا لدينا وربّنا يعلم. . .

فقال الرجل المرتبك المضطرب:

ـ كلّنا نقيم لكم العذر، وللضرورة أحكام يا سيّدتي. .

ودارت المرأة بلباقة حول الموضوع، وشكرت أحمد لأدبه وحسن تقديره للأمور. ثمّ استأذن الرجل في الانصراف وسلّم على السيّدة ومدّ يده لنوال مرّة أخرى، وفي هٰذه المرّة، واليدان مجتمعتان، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين، ثمّ اتّجه نحو الباب. كانت أوّل مرّة تلتقي العينان عن قرب، ولم يكن نظر فيهما منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الأمل الأوّل، فخال أنّه طالع فيهما ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلّع. فدقّ قلبه وهو يحثّ خطاه وطرفت عيناه في هياج عصبيّ. ربّما كان موقف الوداع هو المسئول وحده عن كلّ ذٰلك، فالوداع يستثير حتّى عطف أولٰئك الذين لا يعطفون في غيره من المواقف،

وهٰكذا اعتذر لضميره، بسيكلوجيّة الوداع هٰذه، عن انفعاله وتأثّره وخطفه النظرة، خاصّة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدي ولاحت لعينيه صورته المحبوبة وكأنّها تبتسم إليه في عتاب، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثّرة: «معذرة يا رشدي، إنّه الوداع وأنت أعلم بالوداع، وإنّه الألم وأنت أخبر بالألم، ولن تجد منّي بعد الآن ما يستحقّ عتابك». وبلغ قهوة الزهرة، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة أخرى، واستقبله الصحاب استقبالًا حافلًا يليق باللقاء الأخير، وأمسكوا عمّا كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز، وقال له المعلّم نونو متسائلًا:

ـ أتنسانا يا تُرى؟!

فقال أحمد وهو لا يدري إن كان يصدق في قوله أو يكذب:

ـ معاذ الله يا معلّم!

وقال المعلّم زفتة:

ـ ولٰكنّ الزيتون هٰذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها إلّا بالقطار!

فقال أحمد مبتسمًا:

ـ ما كان لِقطار أن يمنع صاحبًا عن صحبه!

ثمّ قال عبّاس شفة وهو يرفع حاجبيه كمَن يذكر أمرًا هامًّا:

ـ أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلي. مضى زمن كنت أسافر إليها مرّة على الأقلّ في كلّ أسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش.

فابتسم أحمد متسائلًا:

ـ فهل أرجو أن أراك كثيرًا؟

فقال عبّاس شفة بلهجة دلّت على الأسف الشديد:

ـ تلك أيّام خلت؛ لقد زجّوا بالتاجر في السجن ومات فيه.

وأعربوا جميعًا عن أسفهم لفراقه، وأثنوا على أسرته أجمل الثناء، وترحّموا على فقيدها، حتّى سليمان عتّة نفسه قال كلمة طيّبة. وفاض قلب أحمد بمودّتهم في تلك الساعة، سواء مَن يحبّه منهم كالمعلّم نونو أم مَن يمقته كالأستاذ أحمد راشد، وعجب لقلبه الذي يأسف على ترك أيّ شيء ـ وإن طال برمه به ـ ساعة الوداع. ثمّ عاودوا حديث الحرب كعادتهم، وذكروا توقّف الهجوم الألمانيّ عند العلمين.

وكان مِن رأي أحمد راشد أنّ المحور خسر موقعة مصر، أمّا سيّد عارف فقال بلهجة اليقين: إنّ هتلر أمر رومل بالتوقّف ليجنّب مصر ـ قلب الإسلام النابض ـ ويلات الغزو، وإنّه لولا رحمة الفوهرر لكان الألمان في القاهرة منذ شهر. ولبث بينهم مستمتعًا بسمرهم ومزاحهم حتّى انتصفت العاشرة فودّعهم الوداع الأخير، وسلّم عليهم واحدًا واحدًا، وتقبّل تحيّاتهم شاكرًا. ثمّ قفل إلى البيت...

وفتح النافذة وأطلّ على الحيّ. كان البدر ـ بدر نصف شعبان ـ يتألّق نوره السَّنيّ في سماء أغسطس الصافية، والنجوم من حوله تزهر باسمات في إشفاق كأنّما يرثي لإدلاله بشبابه الذي علمت منذ الأزل أنّه لا يدوم. وقد اكتسى الحيّ بغلالة فضّيّة بدّدت وحشة الليل، وأضفت على الأركان والممرّات سحرًا.

الليلة نصف شعبان، ودعاء شعبان يتصاعد من النوافذ القريبة، وذاك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع: «اللّهمّ يا ذا المنّ ولا يُمَنُّ عليه يا ذا الجلال والإكرام» والأسرة تردّد الدعاء وراءه. بينهم صامت وحده! وتساءل عمّا عسى أن يتوجّه به من دعاء إلى ربّه؟.. وتفكّر مليًّا، ثمّ رفع رأسه إلى البدر المنير، وبسط راحتيه، وغمغم بخشوع: «اللّهمّ يا خالق الخلق، ومدبّر كلّ شيء، تغمّده برحمتك الواسعة، وأسكنه فسيح جنّاتك، وألْهِمْ والديه الحزينين الصبر والسلوان، وأنزل على قلبي السكينة والسلام، واكتب لي في ما يستقبل من الأيّام عزاء عمّا سلف (وهنا وضع يده على قلبه) فلشدّ ما تحمّل هٰذا القلب من ألم، ولشدّ ما تجرّع من خيبة!».

هل يذكر يوم أقبل على هٰذا الحيّ وفي النفس شوق إلى التغيير؟ لقد حدث التغيير وأحدث دمعًا وحسرة، وها هو ذا رمضان مقبل فيا للذكرى!. أيذكر كيف استقبل رمضان الماضي؟ أيذكر موقفه من النافذة

الأخرى في انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر فرأى؟!.

وجرى أمام ناظريه التاريخ الذي كتبته الليالي متتابعات حتّى هٰذه الليلة بمداد الأمل والحبّ والألم والحزن.

وهٰذه الليلة الأخيرة. وغدًا يبيت في دار جديدة، في حيّ جديد، موليًا الماضي ظهره..

الماضي بما أحدث من أمل وما خيّب من رجاء..

فالوداع يا خان الخليلي..

زقاق المدق

- ١ -

تنطق شواهد كثيرة بأنّ زقاق المدقّ كان من تحف العهود الغابرة، وأنّه تألّق يومًا في تاريخ القاهرة المعزّيّة كالكوكب الدرّيّ. أيّ قاهرة أعني؟.. الفاطميّة؟.. المماليك؟ السلاطين؟، عِلْم ذٰلك عند الله وعند علماء الآثار، ولٰكنّه على أيّة حال أثر، وأثر نفيس. كيف لا وطريقه المبلّط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقيّة، تلك العطفة التاريخيّة، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك، هٰذا إلى قِدَم بادٍ، وتهدُّم وتخلخل، وروائح قويّة من طبّ الزمان القديم الذي صار مع كرور الزمن عطّارة اليوم والغد...!

ومع أنّ هٰذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عمّا يحدق به من مسارب الدنيا، إلّا أنّه على رغم ذٰلك يضجّ بحياته الخاصّة، حياة تتّصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة، وتحتفظ ـ إلى ذٰلك ـ بقدر من أسرار العالم المنطوي.

* * *

آذنت الشمس بالمغيب، والتفّ زقاق المدقّ في غلالة سمراء من شفق الغروب، زاد من سمرتها عمقًا أنّه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقيّة، ثمّ يصعد صعودًا في غير انتظام، تحفّ بجانب منه دكّان وقهوة وفرن، وتحفّ بالجانب الآخر دكّان ووكالة، ثمّ ينتهي سريعًا ـ كما انتهى مجده الغابر ـ ببيتين متلاصقين، يتكوّن كلاهما من طوابق ثلاثة.

سكنت حياة النهار، وسرى دبيب حياة المساء. همسة هنا وهمهمة هناك: يا ربّ يا معين. يا رزّاق يا كريم. حسن الختام يا ربّ. كلّ شيء بأمره. مساء الخير يا جماعة. تفضّلوا جاء وقت السمر. اصْحَ يا عمّ كامل واغلق الدكّان. غيّر يا سنقر ماء الجوز. أطفئ الفرن يا جعدة. الفصّ كبس على قلبي. إذا كنّا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهٰذا من شرّ أنفسنا.

بيد أنّ دكّانين ـ دكّان عمّ كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره ـ يظلّان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل. ومن عادة عمّ كامل أن يقتعد كرسيًّا على عتبة دكّانه ـ أو حقّه على الأصحّ ـ يغطّ في نومه والمذبّة في حجره، لا يصحو إلّا إذا ناداه زبون أو داعبه عبّاس الحلو الحلّاق. هو كتلة بشريّة جسيمة، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين، وتتدلّى خلفه عجيزة كالقبّة، مركزها على الكرسيّ ومحيطها في الهواء، ذو بطن كالبرميل، وصدر يكاد يتكوّر ثدياه، لا ترى له رقبة، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم، أخفى انتفاخه معالم قسماته. فلا تكاد ترى في صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان، وقمّة ذٰلك كلّه رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرّة. لا يزال يلهث ويشخر كأنّه قطع شوطًا عَدْوًا، ولا ينتهي من بيع قطعة بسبوسة حتّى يغلبه النعاس. قالوا له مرّات ستموت بغتة، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك، وراح يقول ذٰلك مع القائلين، ولٰكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متّصل؟!

أمّا صالون الحلو فدكّان صغير، يُعَدّ في الزقاق أنيقًا، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفنّ. وصاحبه شابّ متوسّط القامة، ميّال للبدانة، بيضاويّ الوجه، بارز

العينين، ذو شعر مرجّل ضارب للصفرة على سمرة بشرته، يرتدي بدلة، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات!

لبث هذان الشخصان في دكّانيهما في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمّالها، وكان آخر من غادرها السيّد سليم علوان، يرفل في جبّته وقفطانه، فاتّجه صوب الحانطور الذي ينتظره على باب الزقاق، وصعد إليه في وقار، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدّمه شاربان شركسيّان. ودقّ الحوذيّ الجرس بقدمه فرنّ بقوّة، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد إلى الغوريّة في طريقها إلى الحلميّة. وأغلق البيتان في الصدر نوافذهما اتّقاء البرد، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها، وكاد المدقّ يغرق في الصمت، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائيّة، عشّش الذباب بأسلاكها، وراح يؤمّها السمّار. هي حجرة مربّعة الشكل، في حكم البالية، ولٰكنّها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك، فليس لها من مطارح المجد إلّا تاريخها، وعدّة أرائك تحيط بها. وعند مدخلها كان يكبّ عامل على تركيب مذياع نصف عُمْر بجدارها. وتفرّق نفر قليل بين مقاعدها يدخّنون الجوز ويشربون الشاي. وعلى كثب من المدخل تربّع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدي جلبابًا ذا بَنيقة موصول بها رباط رقبة ممّا يلبسه الأفنديّة ويضع على عينيه المضعضعتين نظّارة ذهبيّة ثمينة! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه، وجلس جامدًا كالتمثال، صامتًا كالأموات، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، كأنّه في دنيا وحده. ثمّ أقبل على القهوة عجوز مهدّم، لم يترك له الدهر عضوًا سالـمًا، يجرّه غلام بيسراه، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابًا. فسلّم الشيخ على الحاضرين، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى في صدر المكان، واعتلاها بمعونة الغلام، ثمّ صعد الغلام إلى جانبه، ووضع بينهما الربابة والكتاب. وأخذ الرجل يهيّئ نفسه، وهو يتفرّس في وجوه الحاضرين كأنّما ليمتحن أثر حضوره في نفوسهم، ثمّ استقرّت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبيّ القهوة سنقر في انتظار وقلق. ولـمّا طال انتظاره، ولمس تجاهُل الغلام له، خرج عن صمته قائلًا بصوت غليظ:

ـ القهوة يا سنقر. . !

والتفت الغلام نحوه قليلًا، ثمّ ولّاه ظهره بعد تردّد دون أن ينبس بكلمة، ضاربًا عن طلبه صفحًا. وأدرك العجوز إهمال الغلام له، ولم يكن يتوقّع غير ذٰلك. ولٰكن جاءت نجدة من السماء، إذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبيّ، فقال للغلام بلهجة الآمر:

ـ هات قهوة الشاعر يا ولد. .

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان، وقال بلهجة لم تخل من أسى:

ـ شكرًا لله يا دكتور بوشي. . .

فسلّم الدكتور عليه، وجلس قريبًا منه. وكان الدكتور يرتدي جلبابًا وطاقيّة وقبقابًا! هو دكتور أسنان، إلّا أنّه أخذ فنّه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطبّ أو أيّة مدرسة أخرى. اشتغل في بدء حياته تمورجيًّا لطبيب أسنان في الجماليّة، ففقه فنّه بحذقه وبرع فيه! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة، وإن كان يفضّل الخلع غالبًا كأحسن علاج. وربّما كان خلع الضرس في عيادته المتنقّلة أليمًا موجعًا، إلّا أنّه رخيص، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدقّ طبعًا)، فإذا حدث نزيف ـ وليس هٰذا بالأمر النادر ـ اعتُبر عادة من عند الله؛ وترك منعه أيضًا لله! وقد ركّب للمعلّم كرشة صاحب القهوة طقمًا ذهبيًّا بجنيهين بغير زيادة. وهو يُدعى في الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور، ولعلّه أوّل طبيب يأخذ لقبه من مرضاه.

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتّى أتى عليه، ثمّ نحّاه جانبًا. وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبيّ القهوة معه، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطًا:

ـ قليل الأدب. .

ثمّ تناول الربابة يجرّب أوتارها، متحاميًا نظرات

الغضب التي أطلقها عليه سنقر، وراح يعزف مَطْلعًا، لبثت قهوة كرشة تسمعه كلّ مساء عشرين عامًا أو يزيد من حياتها، وأخذ جسمه المهزول يهتزّ مع الربابة، ثمّ تنحنح وبصق وبسمل، ثمّ صاح بصوته الغليظ:

أوّل ما نبتدي اليوم نصلّي على النبيّ.

نبيّ عربيّ صفوة ولد عدنان.

يقول أبو سعدة الزناتيّ. .

وقاطعه صوت أجشّ دخل صاحبه القهوة عند ذٰلك يقول:

ـ هس! . . . ولا كلمة أخرى.

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلّم كرشة، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين، فنظر إليه واجمًا. وتردّد قليلاً كأنّه لا يصدّق ما سمعت أذناه. وأراد أن يتجاهل شرّه، فاستدرك منشدًا:

يقول أبو سعدة الزناتيّ. . .

ولٰكنّ المعلّم صاح به مغيظًا محنقًا:

ـ بالقوّة تنشد؟! . . انتهى. . انتهى! ألم أنذرك من أسبوع مضى؟!

فلاح الأستياء في وجه الشاعر، وقال بلهجة ملؤها العتاب:

ـ أراك تكثر من «الكيف»، ثمّ لا تجد من ضحيّة سواي!

فصاح المعلّم في غضب وحنق:

ـ رأسي صاحٍ يا مخرّف، وأنا أعلم ما أريد أتحسب أنّي آذن لك بالإنشاد في قهوتي إذا ما سلقتني بلسانك القذر؟!

فخفّف الشاعر من لهجته مستوهبًا عطف الرجل الغاضب، وراح يقول:

ـ هٰذه قهوتي أيضًا. ألست شاعرها لعشرين عامًا خلونَ؟!

فقال المعلّم كرشة وهو يتّخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات:

ـ عرفنا القصص جميعًا وحفظناها، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد. والناس في أيّامنا هٰذه لا يريدون الشاعر، وطالما طالبوني بالراديو، وها هو ذا الراديو يركّب، فدعنا ورزقك على الله. . .

فاكفهرّ وجه الشاعر، وذكر محسورًا أنّ قهوة «كرشة» آخر ما تبقّى له من القهوات، أو من أسباب الرزق في دنياه، بعد جاهٍ عريض قديم. وبالأمس القريب استغنت عنه كذٰلك قهوة القلعة. عمر طويل ورزق منقطع، فماذا يفعل بحياته؟! وما جدوى تلقين ابنه البائس هٰذا الفنّ وقد بارَ وكسد؟! وماذا يخبّئ له المستقبل وماذا يضمر لغلامه؟! اشتدّ به القنوط، وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلّم من الجزع والإصرار، فقال:

ـ رويدك يا معلّم كرشة، إنّ للهلاليّ لجِدّة لا تزول، ولا يغني عنها الراديو أبدًا. .

ولٰكنّ المعلّم قال بلهجة قاطعة:

ـ هٰذا قولك، ولٰكنّه قول لا يقرّه الزبائن فلا تخرب بيتي. لقد تغيّر كلّ شيء!

فقال الشاعر في قنوط:

ـ ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هٰذه القصص من عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام؟

فضرب المعلّم كرشة على صندوق المركات بقوّة وصاح به:

ـ قلت لقد تغيّر كلّ شيء!

وتحرّك عند ذٰلك ـ لأوّل مرّة ـ الرجل الجامد الذاهل ـ ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظّارة الذهبيّة فصعّد بصره إلى سقف القهوة، وتنهّد من الأعماق حتّى خال المستمعون أنّه يزفر فتات كبده، وقال بصوت كالمناجاة:

ـ آه تغيّر كلّ شيء. أجل كلّ شيء يا ستّي! كلّ شيء تغيّر إلّا قلبي فهو يحبّ آل البيت عامر. .

وطامن رأسه ببطء، وهو يحرّكه ذات اليمين وذات اليسار، في حركات أخذت في الضيق رويدًا رويدًا حتّى عاد إلى موضعه الأوّل من الجمود، وغرق مرّة أخرى في غيبوبة. ولم يلتفت إليه أحد ممّن اعتاد أحواله إلّا الشاعر فقد توجّه إليه كالمستغيث وقال له برجاء:

ـ يا شيخ درويش أيرضيك هٰذا؟

ولكنّه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة. وهنا قدم شخص جديد تعلّقت به الأنظار في إجلال ومودّة، وردّوا تحيّته بأحسن منها. كان السيّد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبة، تمتدّ طولًا وعرضًا، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة، ذو لحية صهباء، يشعّ النور من غرّة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيمانًا. سار متمهّلًا خافض الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة تشي بحبّه للناس وللدنيا جميعًا، واختار مجلسه على المقعد التالي لأريكة الشاعر. وسرعان ما رحّب به الشاعر وبثّه شكواه. ومنحه السيّد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه، وكان حاول مرارًا أن يثني المعلّم «كرشة» عمّا اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى. ولـمّا انتهى الشاعر من شكواه طيّب خاطره، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه، ثمّ غمر كفّه بما جادت به نفسه وهو يهمس في أذنه «كلّنا أبناء آدم، فإذا ألحّت عليك الحاجة فاقصد أخاك، والرزق رزق الله والفضل فضله». وزاد وجهه الجميل بعد هٰذا القول تألّقًا، شأن الكريم الفاضل يحبّ الخير ويصنعه، ويزداد بصنعه رضًا وجمالًا. كان يحرص دائمًا على ألّا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل، أو ينقلب إلى بيته ملومًا محسورًا. وإنّه ليبدو لحبّه الخيّر ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع، وإن كان في الواقع لا يملك إلّا البيت الأيمن من الزقاق وبضعة أفدنة بالمرج. وقد وجد فيه سكّان بيته ـ المعلّم كرشة في الطابق الثالث، وعمّ كامل والحلو في الطابق الأوّل ـ مالكًا طيّب القلب والمعاملة، حتّى إنّه تنازل عن حقّه في الزيادة التي قرّرها الأمر العسكريّ الخاصّ بالسكن فيما يتعلّق بالطابق الأوّل رحمة بساكنيه البسيطين، فكان رحمة حيث حلّ وحيث يقيم. وقد كانت حياته ـ وبخاصّة في مدارجها الأولى ـ مرتعًا للخيبة والألم. فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل، وقطع بين أروقته شوطًا طويلًا من عمره دون أن يظفر بالعالميّة، وابتُلِيَ ـ إلى ذٰلك ـ بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلّف من الأطفال. ذاق مرارة الخيبة حتّى أترع قلبه باليأس أو كاد، وتجرّع غصص الألم حتّى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم، وانطوى على نفسه طويلًا في ظلمة غاشية. ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحبّ، فلم يعد يعرف قلبه كربًا ولا همًّا. انقلب حبًّا شاملًا وخيرًا عميمًا وصبرًا جميلاً. وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبّه على الناس جميعًا، وكان كلّما نكد الزمان عنتًا ازداد صبرًا وحبًّا، رآه الناس يومًا يشيّع ابنًا من أبنائه إلى مقرّه الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه، فأحاطوا به مواسين معزّين، لكنّه ابتسم لهم، وأشار إلى السماء وهو يقول: «أعطى وأخذ، كلّ شيء بأمره وكلّ شيء له، والحزن كفر» فكان هو العزاء. ولذٰلك قال عنه الدكتور بوشي: «إذا كنت مريضًا فالمس السيّد الحسيني يأتك الشفاء. وإذا كنت يائسًا فطالع نور غرّته يدركك الرجاء، أو محزونًا فاستمع إليه يبادرك الهناء». وكان وجهه صورة من نفسه، فهو الجمال الجليل في أبهى صوره.

أمّا الشاعر فقد رضي بعض الرضا، ووجد شيئًا من العزاء، وتزحزح تاركًا الأريكة، وتبعه الغلام وهو يلمّ الربابة والكتاب. وشدّ الرجل على يد السيّد رضوان الحسيني، وحيّا الجلوس متجاهلًا المعلّم كرشة، ثمّ ألقى نظرة ازدراء على المذياع الذي كاد العامل يفرغ من تثبيته، وأعطى يده للغلام فجرّه إلى الخارج، وغابا عن الأنظار. ودبّت الحياة مرّة أخرى في الشيخ درويش، فأدار رأسه نحو الجهة التي اختفى فيها الذاهبان، وتأوّه قائلًا:

ـ ذهب الشاعر وجاء المذياع. هٰذه سنّة الله في خلقه. وقديمًا ذُكرت في التاريخ وهو ما يسمّى بالإنجليزيّة (History) وتهجيتها. . (h i s t o r y).

وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عمّ كامل وعبّاس الحلو بعد أن أغلقا دكّانيهما. ظهر الحلو أوّلًا، وقد غسل وجهه ورَجَّل شعرَه الضارب للصفرة، وتبعه عمّ كامل يتبختر كالمحمل، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعًا. وسلّما على الحاضرين، وجلسا جنبًا لجنب،

وطلبا الشاي، ولم يكونا يحلّان بمكان حتّى يملآه ثرثرة.
قال عبّاس الحلو:
ـ يا قوم اسمعوا: شكا إليّ صديقي عمّ كامل قال إنّه عرضة للموت في أيّة لحظة، وإنّه إذا مات فلن يترك ما يدفن به...
فقال بعض الحاضرين متهكّمًا:
ـ أمّة محمّد بخير.
وقال البعض الآخر:
ـ إنّ له لتركة من البسبوسة تكفي لدفن أمّة بأسرها.
وضحك الدكتور بوشي وخاطب عمّ كامل قائلًا:
ـ لا تفتأ تذكر الموت. وتالله لتدفننا جميعًا بيديك...
فقال عمّ كامل بصوت بريء كالأطفال:
ـ اتّق الله يا شيخ أنا رجل مسكين...
واستطرد عبّاس الحلو قائلًا:
ـ يا قوم: عَزَّتْ عليّ شكاة عمّ كامل، ولبسبوسته فضل علينا جميعًا غير منكور. فابتعت له كفنًا احتياطيًّا، واحتفظت به في مكان حريز لساعة لا مفرّ منها، (والتفت إلى عمّ كامل قائلًا) هٰذا سرّ أخفيته عنك، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا عليّ شهودًا.
فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم، متصنّعين الجدّ، ليجوز الكلام على عمّ كامل المشهور بسرعة تصديقه، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه، وقالوا: إنّ هٰذا صنيع خليق به نحو الرجل الذي يحبّه ويساكنه شقّة واحدة، ويشاطره العيش كأنّه من لحمه ودمه. حتّى السيّد رضوان الحسيني ابتسم راضيًا، ممّا جعل عمّ كامل ينظر إلى الشابّ في سذاجة ودهشة ويقول متسائلًا:
ـ أحقّ ما تقول يا عبّاس؟!
فقال الدكتور بوشي:
ـ لا يداخلك الشكّ يا عمّ كامل. لقد علمت بما يقول صاحبك، ورأيت الكفن بعينيْ رأسي، وهو كفن قيّم وددت لو يكون لي مثله..
وتحرّك الشيخ درويش للمرّة الثالثة فقال:
ـ حظّ سعيد. الكفن سترة الآخرة. يا كامل تمتّع بكفنك قبل أن يتمتّع بك. ستكون طعامًا مريئًا للدود، فيرعى في لحمك الهشّ مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة. ومعناها بالإنجليزيّ (Frog) وتهجيتها (f r o g).
وصدّق عمّ كامل، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه، ثمّ دعا له طويلًا، وانبسط وحمد الله. وارتفع عند ذاك صوت فتيّ آتيًا من الطريق يقول:
ـ مساء الخير.
واتّجه صاحبه إلى بيت السيّد رضوان الحسيني. كان القادم حسين كرشة ابن المعلّم كرشة صاحب القهوة. فتى في العشرين في مثل لون أبيه الضارب إلى السواد، ولٰكنّه ممشوق القوام، تدلّ ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوّة والنشاط، كان يرتدي قميصًا من الصوف الأزرق وبنطلونًا خاكيًّا وقبّعة وحذاء ثقيلًا، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانيّ. وكان ذاك ميعاد عودته من «الأرنس» كما يسمّونه، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة، ولٰكنّه شكره ومضى إلى حال سبيله.

* * *

ساد الظلام الزقاق إلّا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربّعًا من نور تتكسّر بعض أضلاعه على جدار الوكالة. ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدًا في إثر واحد. وأكبّ سمّار القهوة على الدومينو والكومي، إلّا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله، وعمّ كامل مال رأسه على ثدييه وراح في سبات. وظلّ سنقر على نشاطه، يحمل الطلبات ويرمي بالماركات في الصندوق، والمعلّم «كرشة» يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفصّ في جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة. وتقدّمت جحافل الليل، فغادر السيّد رضوان الحسيني القهوة إلى بيته. وتبعه بعد قليل الدكتور بوشي إلى شقّته في الدور الأوّل من البيت الثاني. ثمّ لحق بهما الحلو وعمّ كامل. وأخذت المقاعد تخلو تباعًا، حتّى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة إلّا

ثلاثة: المعلّم والصبيّ والشيخ درويش. وجاء نفر من المعلّمين أقران المعلّم «كرشة». وصعدوا جميعًا إلى حجرة خشبيّة على سطح بيت السيّد رضوان، وتحلّقوا المجمرة، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهي حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلًا برقّة:

ـ انتصف الليل يا شيخ درويش...

فانتبه الشيخ إلى صوته، وخلع نظّارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه، ثمّ لبسها من جديد وسوّى رباط رقبته ونهض قائمًا واضعًا قدميه في القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق. كان السكون شاملًا، والظلمة ثقيلة، والطرق والدروب خالية مقفرة، فترك لقدميه مقوده، حيث لا دار له ولا غاية، وغاب في الظلمة.

* * *

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرّسًا في إحدى مدارس الأوقاف، بل كان مدرّس لغة إنجليزيّة! وقد عُرف بالاجتهاد والنشاط، وأسعفه الحظّ أيضًا فكان ربّ أسرة سعيدة. ولـمّا أن انضمّت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سُوِّيت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوي المؤهّلات العالية، فاستحال كاتبًا بالأوقاف، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة، وعُدِّل مرتّبه على هٰذا الأساس. كان من الطبيعيّ أن يحزن الرجل لمصيره حزنًا عميقًا وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حينًا، ويكتمها ـ مقسورًا مغلوبًا على أمره ـ أحيانًا. ولقد سعى كلّ مسعى، وقدّم الالتماسات، واستشفع الرؤساء، وشكا الحال وكثرة العيال، دون جدوى. ثمّ سلّم للقنوط بعد أن تحطّمت أعصابه أو كادت. واشتهر أمره في الوزارة كموظّف كثير التبرّم والشكوى، عظيم اللجاج والعناد، سريع التأثّر، لا يكاد يمضي يوم من حياته دون شجار أو اصطدام، كبير الاعتداد بنفسه والتحدّي للآخرين. وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف ـ وكثيرًا ما يحدث ـ تعالى استكبارًا، وخاطب خصمه بالإنجليزيّة، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبيّة دون موجب، صاح به في ازدراء شديد «تعلّم أوّلًا ثمّ خاطبني!». وكانت أنباء شجاره وعناده تتّصل برؤسائه أوّلًا فأوّل، وكانوا يتسامحون معه، عطفًا عليه من ناحية، وتحاميًا لشرّه من ناحية أخرى، ولذلك اطّردت حياته دون عقاب يذكر إلّا بعض الإنذارات، وخَصْم يوم أو يومين. ولٰكنّه ازداد بكرور الأيّام صلفًا، حتّى تراءى له يومًا أن يحرّر خطاباته المصلحيّة باللغة الإنجليزيّة ففعل. وكان يقول في تسويغ ذٰلك إنّه موظّف فنّيّ لا كغيره من الكتّاب. وتعطّل عمله ممّا دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة، ولٰكنّ المقدّر كان أسرع من حزم المدير، فطلب الرجل يومًا مقابلة وكيل الوزارة، ودخل درويش أفندي ـ كما كان وقتذاك ـ حجرة الوكيل في تؤدة ووقار، وحيّاه تحيّة الندّ للندّ، وبادره قائلًا بثقة ويقين:

ـ يا سعادة الوكيل لقد اختار الله رَجُله.

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عمّا يريد، فاستدرك قائلًا بوقار وجلال:

ـ أنا رسول الله إليك بكادر جديد.

هٰكذا خُتمت حياته بالأوقاف. وهٰكذا قُطعت صلته بالهيئة الاجتماعيّة التي كان واحدًا منها. هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسمّيها، ولم يستبقِ من آثار الماضي جميعًا إلّا نظّارته الذهبيّة. ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى. ودلّت حياته على أنّ بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هٰذه الدنيا المتقيّحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين، ثمّ لا يجدون همًّا ولا كربًا ولا حاجة. لا جاع يومًا ولا تعرّى ولا شرد. وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها. وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعًا صارت بيتًا له، وإذا كان قد حُرم مرتّبه فالتعلّق بالمال قد انقطع عنه، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعًا انقلبوا له أهلًا. يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد، ويتمزّق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد، ولا يحلّ مكانًا حتّى يرحّب به ناسه. وبحسبه أن يفتقده المعلّم كرشة نفسه ـ على

ذهوله ـ إذا غاب عن القهوة يومًا. ومع ذلك فلم يكن يأتي شيئًا ممّا يعتقد فيه العامّة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب. فهو إمّا ذاهل صامت، أو مرسل القول كما يحبّ لا يدري أنّى يكون موقعه من النفوس. بيد أنّه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرًا، ويقولون عنه إنّه وليّ من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحي باللغتين العربيّة والإنجليزيّة..

ـ ٢ ـ

نظرتْ إلى المرآة بعين غير ناقدة، أو بالأحرى بعين تتلمّس مواضع الرضا، فعكست المرآة وجهًا نحيلًا مستطيلًا فَعَل الزواق بخدّيه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب. وجعلت تعطفه يمنة، وتعطفه يسرة، وأصابعها تنسّق ضفيرتها، مغمغمة بصوت لا يكاد يُسمع «لا بأس، جميل، وأيم الله جميل». والحقّ أنّ هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عامًا، والدنيا لا تَدَع وجهًا سالمًا نصف قرن من الزمان. أمّا جسمها فنحيل، أو جافّ كما تصفه نسوة الزقاق، وأمّا الصدر فامسح، بيد أنّ فستانًا حسنًا يستره. هذه هي الستّ سنيّة عفيفي صاحبة البيت الثاني بالزقاق، حيث يسكن الدكتور بوشي طابقه الأوّل، وفي ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها لزيارة الشقّة الوسطى التي تقيم بها أمّ حميدة. ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد، وربّما لم تكن تدخل هذه الشقّة إلّا أوّل كلّ شهر لتحصيل الأجرة، إلّا أنّ باعثًا جديدًا دبّ في أعماق نفسها جعل زيارة أمّ حميدة من الواجبات الهامّة. وهكذا غادرت شقّتها، ونزلت السلالم، متمتمة برجاء «اللّهمّ حقّق الآمال» ودقّت بكفّها المعروقة ففتحت لها حميدة. واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنّعة، وقادتها إلى حجرة الضيوف، ثمّ ذهبت تدعو أمّها. كانت الحجرة صغيرة، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين، وفي الوسط خوان باهت عليه نافضة سجاير، وأمّا أرضها فمفروشة بحصيرة. ولم يطل بالمرأة الانتظار، فسرعان ما جاءت أمّ حميدة مهرولة وقد غيّرت جلباب البيت، فسلّمتا بشوق، وتبادلتا قبلتين، وجلستا جنبًا لجنب، وأمّ حميدة تقول:

ـ أهلًا... أهلًا... زارنا النبيّ يا ستّ سنيّة.

كانت أمّ حميدة ربعة ممتلئة في الستّين، ولكنّها معافاة قويّة، جاحظة العينين، مجدورة الخدّين، ذات صوت غليظ قويّ النبرات، فإذا تحدّثت فكأنّها تزعق، وهو سلاحها الأوّل فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزال. ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال، لأنّ زيارة تقوم بها صاحبة الملك أمر قد تسوء عواقبه، وقد ينذر بالخطر. ولكنّها وطّنت النفس على أن تلبس لكلّ حال لبوسها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، وإنّها على كلتا الحالتين لقادرة. وكانت بحكم وظيفتها ـ خاطبة وبلّانة ـ عميقة الملاحظة كثيرة الكلام. بل كانت لسانًا لا يكفّ ولا يُمسك، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحيّ أو بيت من بيوته، فهي مؤرّخة راوية لأخبار السوء ـ على الغالب ـ ومعجم للمنكرات. وأرادت كعادتها أن تتسلّى بالكلام فراحت ترحّب بالضيفة، وتطنب في الثناء عليها، وتروي لها نتفًا من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة: أما علمت بفضيحة المعلّم كرشة الجديدة؟ هي كسابقاتها، وقد اتّصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزّقت جبّته. وحسنيّة الفرّانة ضربت زوجها جعدة أمس حتّى بضّ الدم من جبينه. والسيّد رضوان الحسيني الطيّب الورع زجر زوجه زجرًا شديدًا، لماذا يعاملها هذه المعاملة ـ وهو الرجل الطيّب ـ إن لم تكن شرّيرة خبيثة! الدكتور البوشي احتكّ بفتاة صغيرة في المخبأ في آخر غارة وضربه رجل محترم. كريمة الماوردي تاجر الخشب فرّت مع خادمها وبلّغ أبوها القسم. طابونة الكفراوي تبيع عيشًا مخلوط سرًّا، ألخ ألخ.

أصغت الستّ سنيّة عفيفي بأذن غير واعية لأنّها كانت مشغولة بالأمر الذي جاءت من أجله. وقد صدقت نيّتها على أن تطرق الموضوع الذي طال اختباره بنفسها مهما كلّفها الأمر. بيد أنّها نازعت المرأة الحديث حتّى تتهيّأ لها فرصة مواتية. وقد تهيّأت هذه الفرصة حين سألتها أمّ حميدة قائلة:

ـ وكيف الحال يا ستّ سنيّة؟

فعبست قليلًا وقالت:

ـ الحقّ أنّي تعبة! يا ستّ أمّ حميدة.

فرفعت أمّ حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت:

ـ تعبة؟! كفى الله الشرّ!

وأمسكت ستّ سنيّة ريثما تضع حميدة ـ وكانت دخلت الحجرة في هٰذه اللحظة ـ صينيّة القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت، ثمّ قالت بامتعاض:

ـ تعبة يا ستّ أمّ حميدة. أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين؟ تصوّري وقوف امرأة مثلي أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة..

وقد خفق قلب أمّ حميدة لسيرة الأجور ولٰكنّها قالت بنبرات أسيفة:

ـ صدقت يا ستّي. كان الله في عونك.

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت: لماذا تكثر المرأة من ترداد هٰذه الشكوى؟ وذكرت أنّها أعادتها على سمعها مرّات! بل ذكرت أنّ هٰذه ثاني أو ثالث مرّة تزورها في غير أوّل الشهر. وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها، وكانت في أمثال هٰذه المسائل خاصّة ذات فراسة لا تجارى، فصمّمت أن تسبر الزائرة من وراء وراء، فقالت بخبث:

ـ هٰذه إحدى شرور الوحدة. أنتِ امرأة وحيدة يا ستّ سنيّة. في البيت وحدك، وفي الطريق وحدك، وفي «الفراش» وحدك، ألا قطعت الوحدة..

وسُرّت الستّ سنيّة بحديث المرأة الذي كأنّه يلبّي خواطرها، وقالت وهي تخفي سرورها به:

ـ وما عسى أن أصنع؟ أقاربي ذوو أُسَر، وأنا لا أرتاح إلّا في بيتي. والحمد لله الذي أغناني عن الناس جميعًا..

وكانت أمّ حميدة تلحظها بمكر، فقالت فاتحة آخر الأبواب:

ـ الحمد لله ألف مرّة، ولٰكن بالله خبّريني لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هٰذا الدهر الطويل...؟!

فخفق فؤاد الستّ سنيّة، ووجدت نفسها وجهًا لوجه حيال ما تريد، ولٰكنّها تنهّدت بإنكار وقالت بتأفّف متكلّف:

ـ حسبي ما ذقت من مرارة الزواج..!

كانت الستّ سنيّة عفيفي قد تزوّجت في شبابها من صاحب دكّان روائح عطريّة، ولٰكنه كان زواجًا لم يصادفه التوفيق، فأساء الرجل معاملتها، وأشقى حياتها، ونهب مالها، ثمّ تركها أرملة منذ عشرة أعوام. ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنّها ـ على حدّ قولها ـ كرهت حياتها الزوجيّة.

ولم يكن هٰذا القول مجرّد كذب تداري به إهمال الجنس الآخر لها، فقد كرهت الحياة الزوجيّة حقًّا، وفرحت باسترداد حرّيّتها وأمنها، وظلّت على نفورها من الزواج وفرحها بحرّيّتها عهدًا طويلًا، ثمّ أنسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ولم تكن تتردّد عن تجربة حظّها من جديد لو تقدّم لطلب يدها طالب. وجعلت تراود الأمل حينًا بعد حين، حتّى طال به الأمد، فغلبها القنوط، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب، ووطّنت النفس على الرضا بحياتها كما هي. ولـمّا كان من الضروريّ أن يوجد في حياة الإنسان شيء تنعقد حوله آماله، شيء يقرّر لحياته قيمة ولو وهميّة أو سخيفة، فقد وجدت ضالّتها كذٰلك. ومن حسن الطالع أنّها لم تكن ممّا ينتقص امرأة عازبة مثلها، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق الماليّة الجديدة. وقد كانت في الأصل تميل قليلًا نحو الحرص، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير، فجاءت الهواية الجديدة تؤكّد ذاك الميل القديم وتقوّيه وتتقوّى به. وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في صندوق عاجيّ صغير أخفته في أعماق صوان ملابسها، ووزّعتها رزمًا من ذوات الخمس والعشر، تتسلّى بمشاهدتها ومعاودة عدّها وترتيبها. ولّما كانت الأوراق خرساء لا كالنقود المعدنيّة فقد أمنت الأخطار، ولم يدرِ بها أحد من شطّار المدقّ على شدّة حساسيّتهم. وجدت في حياتها الماليّة عزاء. وانتحلت منها اعتذارًا لعزوبتها، وقالت لنفسها إنّ أيّ زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم، وبأن يضيّع عليها في

غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال، ومع ذلك فما كاد يتسرّب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتّى تناست الأعذار والمخاوف جميعًا. وكانت أمّ حميدة المسئولة عن هذا التحوّل العجيب، سواء عن قصد أو عن غير قصد، بما قصّته عليها مرّة من تزويجها لأرملة عجوز. ففكّرت في الأمر على أنّه ممكن التحقيق، وسرعان ما استولى على إرادتها، فتدافعت إلى طاعته لا تلوي على شيء. ظنّت يومًا أنّها نسيت الزواج. فإذا بالزواج أملها المنشود الذي لا يغني عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق ماليّة جديدة. وجعلت تتساءل في جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء؟ كيف قطعت عشرة أعوام حتّى شارفت الخمسين وحيدة؟! وقالت إنّ هذا هو الجنون، وحمّلت زوجها المرحوم تبعته، وصمّمت على أن تكفّر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن.

وأصغت الخاطبة إلى تأفّفها المتصنّع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها: «لا يجوز عليّ مكرك يا مَرَة». ثمّ خاطبتها بلهجة تنمّ عن لوم:

ـ لا تغالي يا ستّ سنيّة. إذا كان حظّك الأوّل قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب. . .

فقالت الستّ سنيّة وهي تعيد قدح القهوة إلى الصينيّة شاكرة:

ـ لا ينبغي لعاقل أن يعاند الحظّ إذا تجهّم.

فاعترضتها أمّ حميدة قائلة:

ـ ما هذا الكلام يا ستّ العاقلات! كفاك وحدة كفاك.

فدقّت المرأة صدرها الأمسح بباطن يسراها وقالت بإنكار مصطنع:

ـ يا خبر. أتريدين الناس على أن يرموني بالجنون؟!

ـ أيّ أناس تعنين؟ إنّ أكبر منك يتزوّجن كلّ يوم.

فتضايقت من «أكبر منك» وقالت بصوت منخفض:

ـ لست من الكبر كما تظنّين. . لعن الله الهمّ.

ـ ما قصدت هذا يا ستّ سنيّة. وما أشكّ في أنّك ما زلت في حدود الشباب، ولكنه الهمّ الذي تلتحفين به مختارة.

فارتاحت الستّ، ولكنّها كانت لا تزال مصرّة على تمثيل دور مَن يُساق إلى قبول الزواج بلا تعمّد ولا رغبة، فتساءلت بعد تردّد:

ـ ألا يعيبني أن أُقْدِم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة؟

فخاطبت أمّ حميدة نفسها قائلة: «لماذا قصدتيني إذًا يا مرة؟». ثمّ خاطبت الستّ قائلة:

ـ كيف يعيبك ما هو شرع وحقّ! أنت ستّ عاقلة شريفة، والكلّ يشهد لك بذلك. والزواج نصف الدين يا حبيبتي، وربّنا شرّعه حكمة، وأمر به النبيّ عليه الصلاة والسلام. .

فقالت سنيّة بإيمان:

ـ صلّى الله عليه وسلّم.

ـ كيف لا يا حبيبتي! نبيّ عربيّ ويحبّ عبيده!

وكان وجه الستّ سنيّة قد تورّد تحت قناع الأحمر، وثمل فؤادها سرورًا، فقالت وهي تستخرج سيجارتين من علبتها:

ـ ومَن يرضى بالزواج منّي؟

فثنت أمّ حميدة سبّابة يسراها، ولصقتها بحاجبها، وقالت باستنكار:

ـ ألف رجل ورجل.

فضحكت الستّ بمجامع قلبها وقالت:

ـ رجل واحد يكفي. .

فقالت حميدة بيقين:

ـ الرجال جميعًا يحبّون الزواج في أعماقهم. ولا يكاد يشكر الزواج إلّا المتزوّجون. وكم من رجل عازب راغب عن الزواج، ما إن أقول له: «عندي عروس لك!» حتّى تدبّ في عينيه اليقظة، ويغلبه الابتسام، ويسألني في لهفة لا تخفى: «حقًّا. . مَن! . . مَن؟». الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح، وهذه حكمة ربّنا.

فهزّت الستّ سنيّة رأسها في ارتياح وقالت:

ـ جلّت حكمته!

ـ نعم يا ستّ سنيّة، لذلك خلق الله الدنيا. كان في وسعه أن يملأها رجالًا فحسب، أو نساء فحسب،

ولْكن خلق الله الذكر والأنثى، ومنحنا العقل كي نفهم مراده، فلا محيد عن الزواج.

فابتسمت الستّ سنيّة عفيفي وقالت برقّة:

ـ كلامك كالسكّر يا ستّ أمّ حميدة!

ـ حلّى الله دنياك، وآنس قلبك بالزواج الكامل.

فتشجّعت الستّ وقالت:

ـ إن شاء الله، وبفضلك.

ـ أنا امرأة ـ بحمد الله ـ مباركة. زيجاتي لا انفصام لها. ياما عمّرت بيوتًا، وأنجبت أطفالًا، وأسعدت قلوبًا. فليكن اعتمادك على الله وعليّ. .

ـ جزاؤك لن يقدّر بمال.

فقالت أمّ حميدة في سرّها: «لا. . لا يا مرة، ينبغي أن يقدّر بمال، وبمال كثير. هلمّي إلى صندوق التوفير وأعطيني، وكفاك تقتيرًا. .» ثمّ قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدّمات وطرقوا الهامّ من الأمور:

ـ أظنّك تفضّلين رجلًا متقدّمًا في السنّ؟!

لم تَدْرِ الأخرى بماذا تجيب. لم تكن تطمع في الزواج من شابّ، ولا كان الشابّ بالزوج الذي يناسبها، ولْكنها لم ترتح إلى «متقدّم في السنّ» هٰذه، وكان تدرّج الحديث قد خلطها بأمّ حميدة فأنست إليها، واستطاعت أن تقول وهي تضحك لتداري ارتباكها:

ـ أصوم وأفطر على بصلة!

فضحكت أمّ حميدة ضحكة عالية رنّت رنينًا مزعجًا، وازدادت اطمئنانًا إلى نفاسة الصفقة التي هي بصدد عقدها، ثمّ قالت بخبث:

ـ صدقت يا ستّ. والحقّ أنّ التجارب دلّتني على أنّ أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج، ولكم يناسبك رجل في الثلاثين أو يزيد قليلًا.

فتساءلت المرأة في قلق:

ـ وهل يوافق؟

ـ يوافق ويوافق! أنت سيّدة جميلة وغنيّة!

ـ سلمتِ من كلّ سوء!

فقالت أمّ حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجدّ والاهتمام:

ـ أقول له سيّدة نَصَف، ولا ولد لها ولا حماة، أدب وكمال، صاحبة دكّانين بالحمزاوي وبيت ذي طابقين بالمدقّ. .

فابتسمت الستّ وقالت تصحّح لها ما حسبته هفوة:

ـ بل ذٰلك ثلاثة طوابق.

ولْكنّ الأخرى قالت معترضة:

ـ اثنان فحسب، لأنّ الطابق الثالث الذي أسكنه لن تقبضي إيجاره مدى حياتي!

فقالت ستّ سنيّة في سرور:

ـ لك عيناي يا ستّ أمّ حميدة!

ـ سلمت عيناك. ربّنا يهيّئ ما فيه الخير.

فهزّت رأسها الأخرى كالمتعجّبة وقالت:

ـ يا للعجب! جئتك لمجرّد الزيارة فانظري كيف انتهى بنا الحديث؟ وكيف أغادرك في حكم المتزوّجات؟!

فجارتها أمّ حميدة في ضحكها كالمتعجّبة أيضًا، وإن راحت تقول لنفسها: «يا مرة احتشمي، أتحسبين أنّ مكرك يجوز عليّ؟!» ثمّ قالت:

ـ إرادة ربّنا! أليس كلّ شيء بأمره؟!

وعادت الستّ سنيّة عفيفي إلى شقّتها مسرورة فرحة، بيد أنّها حادثت نفسها قائلة: «إيجار شقّة مدى الحياة! يا لها من امرأة جشعة».

ـ ٣ ـ

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الستّ سنيّة لها. كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين. فنظرت أمّ حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتي الفتاة، وقالت بأسف:

ـ واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هٰذا الشعر الجميل!

فبرقت عينان سوداوان مكحّلتان بأهدابٍ وُطفٍ، ولاحت فيهما نظرة حادّة صارمة، وقالت الفتاة بحدّة:

ـ قمل؟! والنبيّ ما وجد المشط إلّا قملتين اثنتين!

ـ أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة؟

فقالت بغير مبالاة:

ـ كان مضى على رأسي شهران بلا غسيل..

ثمّ اشتدّ ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمّها. كانت في العشرين، متوسّطة القامة، رشيقة القوام، نحاسيّة البشرة، يميل وجهها للطول، في نقاء ورواء، وأميز ما يميّزها عينان سوداوان جميلتان، لهما حور بديع فاتن، ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدّت بصرها تلبّستها حالة من القوّة والصرامة لا عهد للنساء بها! وقد كان غضبها دائمًا ممّا لا يستهان به حتّى في زقاق المدقّ نفسه. وأمّها على ما اشتهرت به من القوّة تتحاماها ما استطاعت. قالت لها يومًا وهما تتسابّان: «لن يلمّ الله شعثك برجل، فأيّ رجل يرضى بأن يضمّ إلى صدره جمرة موقدة!». وكانت تقول في مرّات أخرى: إنّ جنونًا لا شكّ فيه ينتاب ابنتها حين الغضب، وسمّتها لذلك الخمسين باسم الرياح المعروفة. ومع ذلك كانت تحبّها كثيرًا وإن كانت في الحقيقة أمّها بالتبنّي. كانت الأمّ الحقيقيّة شريكة لها في الاتّجار بالمفتّقة والموغات، ثمّ شاطرتها شقّتها بالزقاق في ظروف سيّئة، وأخيرًا ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سنّ الرضاع، فتبنّتها أمّ حميدة، وعهدت بها إلى زوج المعلّم كرشة القهوجي فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة، فهي أخته بالرضاعة.

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلّق أمّها على الزيارة والزائرة، ولـمّا طال الصمت قالت الفتاة:

ـ طالت الزيارة، فيم كنتما تتحدّثان؟

فضحكت أمّها في سخرية وتمتمت:

ـ خمّني!

فقالت الفتاة وقد اشتدّ اهتمامها:

ـ طلبت رفع الإيجار.

ـ لو فعلت لخرجت محمولة على أيدي رجال الإسعاف، ولكنها طلبت خفضه؟

فصاحت حميدة:

ـ هل جنّت؟

ـ أجل جنّت، ولكن خمّني..

فنفخت الفتاة وهي تقول:

ـ أتعبتني!

فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهي تغمز بعينها:

ـ صاحبتك تروم الزواج!

فتولّت الفتاة الدهشة وقالت:

ـ الزواج!

ـ أجل. وتريد شابًا. أسفي عليك من شابّة عاثرة الحظّ لا تجد مَن يطلب يدها!

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهي تضفر شعرها:

ـ بل أجد كثيرين، ولكنّك خاطبة فاشلة تريدين أن تداري فشلك. وماذا بي ممّا يعيب؟ ولكنّك كما قلت امرأة فاشلة، يصدق عليك المثل القائل «باب النجّار مخلّع»..

فابتسمت أمّ حميدة قائلة:

ـ إذا تزوّجت الستّ سنيّة عفيفي فلا يصحّ لامرأة أن تيأس...

ولكنّ الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدّة:

ـ لست أجري وراء الزواج، ولكنّه يجري ورائي أنا، وسأنبذه كثيرًا..

ـ طبعًا! أميرة بنت أمراء!

فتغاضت الفتاة عن سخرية أمّها وقالت بنفس اللهجة الحادّة:

ـ أفي هذا الزقاق أحد يستحقّ الاعتبار؟

ولم تكن الأمّ في الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار، ولا تشكّ في جمالها، ولكنّها كانت كثيرًا ما تثور بعجبها وغرورها. فقالت باستياء:

ـ لا تسلقي الزقاق بلسانك، إنّ أهله سادة الدنيا!

ـ سادة دنياك أنت. كلّهم كعدمهم، اللّهمّ إلّا واحدًا به رمق جعلتموه أخي!

وكانت تعني حسين كرشة أخاها بالرضاعة، فهال أمّها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء:

ـ كيف تقولين هذا؟ ما جعلناه أخًا، وما نملك أن

نصنع أخًا ولا أختًا، ولٰكنّه أخوك بالرضاعة كما أمر الله. .

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة:

ـ ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدي ورضعت أنا من الآخر؟

فلكمتها أمّها في ظهرها وصاحت بها:

ـ قاتلك الله. .

فغمغمت الفتاة بازدراء:

ـ زقاق العدم!

ـ أنت تستحقّين موظّفًا قدّ الدنيا!

فتساءلت بتحدٍّ:

ـ هل الموظّف إله؟

فتنهّدت الأمّ قائلة:

ـ آه لو تخفّفين من غلوائك. . .!

فقلّدت لهجة أمّها قائلة:

ـ آه لو تنصفين ولو مرّة في العمر!

ـ آكلة شاربة ثمّ لا تشكرين. أتذكرين كيف أطلقت عليّ لسانك الطويل بسبب جلباب!

فقالت حميدة بدهشة:

ـ وهل الجلباب شيء يهون؟!. . . ما قيمة هٰذه الدنيا بغير الملابس الجديدة؟! ألا ترين أنّ الأولى بالفتاة التي لا تجد ما تتزيّن به من جميل الثياب أن تدفن حيّة؟!

ثمّ امتلأ صوتها أسفًا وهي تقول مستدركة:

ـ آه لو رأيت بنات المشغل! آه لو رأيت اليهوديّات العاملات! كلّهنّ يرفلن في الثياب الجميلة. أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتدِ ما نحبّ؟!

فقالت الأمّ باستياء:

ـ أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديّات عقلك، وهيهات أن يهدأ لك بال. .

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها. فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة، ثبّتتها على مسند الكنبة، ثمّ وقفت أمامها منحنية قليلًا لترى صورتها، ثمّ غمغمت بلهجة تنمّ عن الإعجاب:

ـ آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدين في هٰذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمّك هٰذه المرأة التي لا تميّز بين التبر والتراب؟!

ثمّ دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطلّ على الزقاق، ومدّت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتّى لم يعد يفرج بينهما إلّا مقدار قيراطين من الفراغ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق، متنقّلة به من مكان إلى مكان، قائلة وكأنّما تخاطب نفسها في سخرية:

ـ مرحبًا يا زقاق الهنا والسعادة. دمت ودام أهلك الأجلّاء. يا لحسن هٰذا المنظر، ويا لجمال هٰؤلاء الناس. ماذا أرى؟! هٰذه حسنيّة الفرّانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عينًا على الأرغفة وعينًا على جعدة زوجها، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها. وهٰذا المعلّم كرشة القهوجي متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم. وعمّ كامل يغطّ في نومه، والذباب يرقص على صينيّة البسبوسة بلا رقيب. آه. وهٰذا عبّاس الحلو يسترق النظر إلى النافذة في جمال ودلال، ولعلّه لا يشكّ في أنّ هٰذه النظرة سترميني عند قدمه أسيرة لهواه، أدركوني يا هوه قبل التلف. أمّا هٰذا فالسيّد سليم علوان صاحب الوكالة، رفع عينيه يا أمّاه وغضّهما، ثمّ رفعهما ثانية،. . قلنا الأولى مصادفة، والثانية يا سليم بك؟! ربّاه هٰذه نظرة ثالثة!. ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء؟!. . مصادفة كلّ يوم في مثل هٰذه الساعة؟! ليتك لم تكن زوجًا وأبًا إذًا لبادلتك نظرة بنظرة، ولقلت لك أهلًا وسهلًا ومرحبًا. هٰذا كلّ شيء، هٰذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتّى يقمل؟!. . أوه. . . ها هو ذا الشيخ درويش قادمًا يضرب الأرض بقبقابه. . .

وهنا قاطعتها أمّها في سخرية:

ـ ما أحقّ الشيخ درويش أن يكون زوجًا لك!

فلم تلتفت إليها، ورقّصت لها عجيزتها وهي تقول:

ـ يا له من رجل مقتدر. يقول إنّه أنفق في حبّ السيّدة زينب مائة ألف، فهل يبخل بعشرة آلاف؟!

ثمّ تراجعت فجأة كأنّها ملّت موقفها، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظرًا فاحصًا، وتنهّدت وهي تقول:

ـ يا خسارتك يا حميدة. . .

ـ ٤ ـ

في الثلث الأوّل من النهار يكتنف الزقاق جوّ رطب بارد ظليل، لا تزوره الشمس إلّا حين تشارف كبد السماء فتتخطّى الحصار المضروب حوله. بيد أنّ النشاط يدبّ في الأركان منذ الصباح الباكر، يفتتحه سنقر صبيّ القهوة فيهيّئ المقاعد ويشعل الوابور، ثمّ يتوافد عمّال الوكالة أزواجًا وأفرادًا، ثمّ يلوح جعدة حاملًا خشبة العجين، حتّى عمّ كامل نفسه يشغل في هٰذه الساعة بفتح الدكّان وتناول الإفطار عن النعاس! وكان عمّ كامل وعبّاس الحلو يتناولان إفطارهما معًا، فتوضع بينهما صينيّة عليها طبق المدمّس والبصل الأخضر والخيار المخلّل. وكان مزاجاهما في الأكل مختلفين، فالحلو سريع يلتهم رغيفه في دقائق معدودات، أمّا عمّ كامل فبطيء يمضغ اللقمة في أناة حتّى يكاد يذيبها في فمه، وكثيرًا ما يقول: إنّ الطعام المفيد يُهضم في الفم أوّلًا، ولذلك فالحلو ينتهي من طعامه، ثمّ من احتساء الشاي وتدخين الجوزة، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل، ولذلك أيضًا فلكي يأمن تعدّي الحلو على نصيبه يشقّ الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشابّ بتجاوز حدّه! وعمّ كامل ـ رغم جسامته وضخامته ـ لا يُعَدّ أكولًا وإن كان يلتهم الحلوى بشراهة. وهو حلوانيّ ماهر، ولكنّه لا يفرغ ما يتمتّع به من فنّ إلّا في الطلبات الخاصّة التي يوصي عليها أمثال السيّد سليم علوان والسيّد رضوان الحسيني والمعلّم كرشة. وطار في ذٰلك صيته حتّى جاوز المدقّ إلى الصنادقيّة والغوريّة والصاغة. ولكنّ رزقه على قدّ عيشته البسيطة دون زيادة، فلم يكن كاذبًا حين شكا إلى عبّاس الحلو أنّهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به. وقد قال ـ ذٰلك الصباح ـ مخاطبًا الحلو بعد أن فرغا من طعامهما:

ـ قلت إنّك ابتعت لي كفنًا، وهو صنيع تستحقّ عليه الشكر والدعاء، ولٰكن ما قولك في أن تتنزل لي عنه الآن. . ؟

فتعجّب عبّاس الحلو الذي كاد ينسى الكفن كما تُنسى عادة الأكاذيب، وسأله:

ـ وماذا تريد أن تفعل به؟!

فقال الرجل بصوته الرفيع الذي يحاكي أصوات الغلمان:

ـ أنتفع بثمنه! ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأقمشة؟

فضحك الحلو وقال:

ـ أنت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة. بالأمس شكوت أنّك لن تجد ما تكفَّن به بعد موتك، فلمّا أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمنه! ولٰكن هيهات أن تنال ما تريد، لقد ابتعت الكفن لأكرّم به جثّتك بعد عمر طويل إن شاء الله. .

فابتسم عمّ كامل في ارتباك وقال:

ـ هب أنّ العمر قد امتدّ بي حتّى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالي؟!

ـ وهبك تموت غدًا؟!

فقطّب عمّ كامل وقال:

ـ لا قدّر الله!

فقهقه الحلو ضاحكًا وقال:

ـ عبثًا تحاول أن تثنيني عمّا اعتزمت. سيبقى الكفن في حرز حريز حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. .

وعاوده الضحك فضحك طويلًا حتّى شاطره الرجل ضحكه. ثمّ قال الشابّ معاتبًا:

ـ يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة! هل استفدت منك مليّمًا واحدًا في حياتي؟! مطلقًا. ذقنك جرداء لا تنبت، وكذٰلك شاربك. رأسك أصلع. وليس بهٰذه الدنيا الواسعة التي تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها. سامحك الله. .

فابتسم عمّ كامل قائلًا:

ـ جسم نظيف طاهر لن يشقّ على أحد غسله. .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء، فنظرا إلى

داخل الزقاق فرأيا المعلّمة حسنيّة الفرّانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفعًا، وصراخه يعلو حتّى طبّق الآفاق، فضحك الرجلان وصاح عبّاس الحلو مخاطبًا المرأة:

ـ العفو والرحمة يا معلّمة..

ولٰكنّ المرأة لم تمسك حتّى ارتمى جعدة عند قدميها باكيًا مستعطفًا. ولبث عبّاس ضاحكًا وهو يقول لعمّ كامل:

ـ ما أخلق جسمك بهٰذا الشبشب حتّى يذوب شحمه!

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادمًا من البيت في سرواله وقميصه وقبّعته. كان ينظر في ساعة معصمه، تيّاهًا فخورًا، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمتلئان زهوًا. وقد حيّا صديقه الحلّاق، ومضى إلى الكرسيّ داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره في يوم عطلته. وقد نشأ الصديقان معًا في زقاق المدقّ، كما رأيا نور الدنيا في بيت واحد، بيت السيّد رضوان الحسيني، بيد أنّ عبّاس الحلو رأى هٰذا النور الدنيويّ قبل صاحبه بثلاثة أعوام. وكان الحلو في ذٰلك الوقت يعيش في حضانة والديه، قبل أن يعرفه عمّ كامل ويشاطره شقّته بخمسة عشر عامًا. وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معًا. وآخى بينهما الحبّ والمودّة، وظلّا على صداقتهما حتّى بعد أن فرّق بينهما العمل، فاشتغل عبّاس صبيّ حلّاق بالسكّة الجديدة، وعمل حسين صبيًّا في دكّان درّاجات بالجماليّة. وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء، ولٰكن لعلّ تباينهما هٰذا كان من أهمّ الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودّتهما. كان عبّاس الحلو ـ ولا يزال ـ شخصًا وديعًا، دمث الأخلاق، طيّب القلب، ميّالًا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو اللعب السلميّ، أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومي، مع نفور من اللجاج والشجار، ودراية في اتّقائهما بالابتسامة الحلوة «والله يسامحك يا عمّ». وكان يحافظ على صلاته وصومه، ولا تفوته صلاة الجمعة في سيّدنا الحسين. أجل أهمل الآن بعض هٰذه الفرائض، لا عن استهتار ولٰكن عن كسل، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان. ولم يكن من النادر أن يتحرّش به صاحبه حسين كرشة، ولٰكنّه كان إذا شدّ صاحبه أرخى، فلم تصلْهُ قبضته القاسية قطّ. وعُرف إلى ذٰلك بالقناعة والرضا، حتّى إنّه واصل عمله «صبيًّا» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكّانه الصغير إلّا منذ خمسة أعوام، ومنذ ذٰلك التاريخ وهو يحسب أنّه نال أرفع ما يطمح إليه: وقد ملأت هٰذه الروح القنوعة الراضية نفسه، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان، وجسمه البدين، وطابع المرح الذي لا يفارقه. أمّا حسن كرشة فكان من شطّار الزقاق، مشتهرًا بالنشاط والحذق والجراءة، بل هو معتدٍ أثيم إذا دعا الداعي. وقد اشتغل بادئ أمره في قهوة أبيه، ولٰكنّهما لم يتّفقا، فهجرها وعمل بدكّان الدرّاجات، ولبث بها حتّى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانيّة، وبلغت يوميّته بها ثلاثين قرشًا ـ نظير ثلاثة قروش في عمله الأوّل ـ غير ما يسميه «أكل العيش يحبّ خفّة اليد» فارتفعت حاله، وامتلأ جيبه. ورفّه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود فتمتّع بالثياب الجديدة، وغشي المطاعم، وأكثر من أكل اللحوم التي هي في حسبانه طعام المحظوظين، وارتاد السينمات والملاهي، وعاقر الخمر، ورافق النساء، وربّما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدّم لهم الطعام والنبيذ والحشيش. وفي نشوة من نشواته ـ كما يحكى عنه ـ قال لبعض مدعوّيه: «في بلاد الإنجليز يسمّون من كان مثلي في بحبوحة العيش باللارج (Large) ولمّا كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج، ثمّ حُرّفت فيما بعد إلى حسين كرشة الجراج!».

أمسك عبّاس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمّة ونشاط، يصلح من أطرافها، دون مساس بالشعر المفلفل الذي يكاد يقفّ من فظاظته وخشونته. ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلّما التقى بذٰلك الصديق القديم. أجل ما زالا صديقين، ولٰكنّ الحياة تغيّرت بطبيعة الحال، فلم يعد حسين كرشة

يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل في الأيّام الخالية، ممّا دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين. ولم يخل الأمر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الحلّاق كلّما ذكر الهوّة الواسعة التي تفصل بينهما. بيد أنّه في حسده ـ كما هو في حياته ـ وديع عاقل لا يتهوّر ولا يتورّط في خطأ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء، وكأنّه يغبطه ولا يحسده، وربّما قال لنفسه معزّيًا: «سوف تنتهي الحرب يومًا، ويعود حسين إلى الزقاق معدمًا كما خرج منه».

وجعل حسين كرشة ـ بثرثرته المعهودة ـ يحدّث صاحبه عن حياة «الأورنس» والعمّال والمرتّبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات! وعمّا يكنّه الجنود لشخصه من الحبّ والإعجاب، قال:

ـ قال لي الأونباشي جوليان مرّة إنّي لا أفترق عن الإنجليز إلّا في اللون!.. وكثيرًا ما نصحني بالاقتصاد، ولٰكنّ الساعد (وهناك حرّك ساعده في زهو) الذي يربح النقود في أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها في زمان السلم. ومتى تظنّ الحرب تنتهي؟! لا يغرّنّك هزيمة الطليان فأولئك لا حساب لهم في الحرب، ولسوف يحارب هتلر عشرين عامًا! والأونباشي جوليان من المعجبين بشجاعتي، ويثق فيّ ثقة عمياء، وبفضل هٰذه الثقة يسرّحني في تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشُوَك وسكاكين وملاءات أسرّة وجوارب وأحذية!.. دنيا!

فتمتم عبّاس الحلو متفكّرًا:

ـ دنيا!

فألقى حسين على صورته في المرآة نظرة متفحّصة وقال:

ـ أتدري أين أذهب الآن؟.. إلى حديقة الحيوان. أو تدري مع مَن؟.. مع بنت كالقشدة والشهد (وقبّل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنطلق بها هناك إلى أقفاص القرود.

وقهقه عاليًا ثمّ استدرك:

ـ أراهن على أنّك تتساءل: لماذا القرود؟ وهٰذا طبيعيّ من إنسان مثلك لم ير إلّا قرد القرداتي. فاعلم يا حمار أنّ القرود في حديقة الحيوان تعيش جماعات في أقفاص. وهي كبيرة الشبه بالإنسان في صورته وسوء أدبه، تراها تتغازل وتتحابّ في علانية مكشوفة، فإذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتّحت لي الأبواب!

فتمتم الحلو وهو يكبّ على عمله:

ـ دنيا!

ـ النساء علم واسع لا تحذقه بمجرّد شعرك المرجّل.

فضحك الحلو ونظر إلى شعره في المرآة، وقال بصوت منكسر:

ـ أنا رجل مسكين!

فحدج صورته في المرآة بنظرة حادّة وتساءل متهكّمًا:

ـ وحميدة؟!

فخفق قلب الحلو بعنف لأنّه لم يكن يتوقّع سماع هٰذا الاسم المحبوب، وتمثّلت لعينيه صورتها، فتورّد وجهه، وغمغم وهو لا يدري:

ـ حميدة...!

ـ أجل حميدة بنت أمّ حميدة!

ولاذ الحلّاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك، وراح الآخر يقول بحدّة:

ـ يا لك من رجل خامل معدوم الحياة. عيناك نائمتان، دكّانك نائم، حياتك نوم وخمول. أعياني إيقاظك يا ميت. أتحسب أنّ هٰذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك؟! هيهات، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك.

فلاح التفكير في العينين الهادئتين وقال متكدّرًا بعض الكدر:

ـ الخيرة فيما اختاره الله...

فقال الشابّ ساخرًا:

ـ عمّ كامل، قهوة كرشة، الجوزة، الكومي؟!

فقال الحلو في حيرة:

ـ لماذا تهزأ بهٰذه الحياة؟

ـ أهي حياة حقًّا؟.. هٰذا الزقاق لا يحوي إلّا موتًا. وما دمت فيه فلن تحتاج يومًا للدفن. عليك رحمة الله.

فسأله الحلو بعد تردّد وإن كان يدري ما الآخر قائله:

ـ وماذا تريدني على أن أفعل؟

فصاح به الفتى:

ـ طالما أخبرتك. طالما نصحتك. اخلع رداء هٰذه الحياة القذرة الحقيرة. أغلق هٰذا الدكّان. اهجر هٰذا الزقاق. أرح عينيك من جثّة عمّ كامل. وعليك بالجيش الإنجليزيّ. الجيش الإنجليزيّ كنز لا يفنى. هو كنز الحسن البصريّ، ليست هٰذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء، ولٰكنّها نعمة النعم، لقد بعثها ربّنا لينتشلنا من وهدة الشقاء والعوز. على الرحب والسعة ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب. ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش؟ وما زلت أقول لك إنّ الفرصة سانحة. حقًّا هزمت إيطاليا ولٰكنّ ألمانيا باقية، ووراءها اليابان، وسوف تطول الحرب عشرين عامًا. أقول لك للمرّة الأخيرة إنّه توجد أماكن شاغرة في التلّ الكبير. سافِرْ!

واستيقظ خيال الحلو، واضطرمت عواطفه حتّى وجد صعوبة في امتلاك عنانه وإتقان عمله. لم يكن ذٰلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولٰكنّه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلّما قابله. كان بطبعه قنوعًا، عزوفًا عن الحركة، هيّابًا لكلّ جديد، مبغضًا للأسفار ولو تُرك وشأنه ما اختار عن المدقّ بديلاً، ولو لبث فيه مدى الحياة لما ملّه ولا فتر حبّه له. ولٰكنّ طموحه صحا بعد سبات، وكان كلّما دبّت فيه الحياة امتزج في نفسه بصورة حميدة، أو لعلّ حميدة هي التي أيقظته وبعثته بعثًا جديدًا، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئًا واحدًا لا يتجزّأ. وعلى رغم هٰذا كلّه خاف أن يبوح بذات نفسه، وكأنّما أراد أن يفسح لنفسه وقتًا للتدبّر والتفكير، فقال متظاهرًا بالإحجام والإباء:

ـ السفر ابن كلب!

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به:

ـ أنت ابن ستّين كلبًا. السفر خير من زقاق المدقّ، وخير من عمّ كامل؟ سافر وتوكّل على الله. أنت لم تولد بعد. ماذا أكلت؟ ماذا شربت؟ ماذا لبست؟ ماذا رأيت؟ صدّقني أنّك لم تولد بعد...

فقال عبّاس متأسّفًا:

ـ من المحزن أنّي لم أولد غنيًّا.

ـ من المحزن أنّك لم تولد بنتًا! لو ولدت بنتًا لكنت من بنات الدقّة القديمة، حياتك في البيت وللبيت، لا سينما ولا حديقة الحيوان، حتّى ولا الموسكي الذي ترتاده حميدة في العصارى..

فضاعف ذكر هٰذا الاسم من ارتباكه، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهينًا ساخرًا كأنّه لفظ تافه لا يثير مكامن القلوب، وقال مدافعًا عن فتاته:

ـ أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق، ولا يعيبها أن تروّح نفسها بالمشي في الموسكي.

ـ أجل ولٰكنّها فتاة طموح ما في ذٰلك من شكّ، ولن تحظى بها حتّى تغيّر ما بنفسك...

وعاوده قلبه الخفقان العنيف، والتهب وجهه احمرارًا، وذابت نفسه وجدًا وقلقًا وانفعالًا. وكان انتهى من حلق رأس الشابّ، فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة، وفكره لا يستريح من اضطرابه. ثمّ نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده. وقبل أن يغادر الدكّان اكتشف أنّه نسي منديله فرجع مسرعًا إلى البيت. وجعل يتابعه بعينيه من موقفه، فلاح لعينيه مرحًا نشيطًا سعيدًا، وكأنّه يرى فيه هٰذه الصفات لأوّل مرّة. «لن تحظى بها حتّى تغيّر ما بنفسك». صدق حسين بلا ريب، إنّه يعيش عيشة الكفاف، ولا يكاد يتمخّض كدح يومه عن رزق ذٰلك اليوم، فإذا أراد أن يبني عشّه في هٰذه الأيّام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد. إلامَ يقنع بالأحلام والتمنّي وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة؟ لماذا لا يجرّب حظّه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون؟! «فتاة طموح» هٰكذا يقول حسين، وإن كان هو لا يدري شيئًا على وجه التحقيق، وربّما كان حسين أدرى بها، لأنّه ـ عبّاس ـ اعتاد أن يراها بعين الحبّ الحالمة الخالقة. وإذا كانت فتاته طموحًا فلا معدى له عن أن يكون طموحًا كذٰلك. ولعلّ حسين يحسب غدًا ـ وقد ابتسم لهٰذا الخاطر ـ أنّه أيقظه من سباته وخلقه خلقًا جديدًا، ولٰكنّه يعلم دون الناس جميعًا أنّه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شيء أن ينزعه من قناعته الوديعة

المستسلمة. وشعر عبّاس في هٰذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوّة الحبّ وسلطانه وسحره العجيب. ولعلّه أحسّ ـ إحساسًا غامضًا لا يرتقي لمرتبة الوعي والفكر ـ بقدرة الحبّ على الخلق والتعمير، فموضع الحبّ من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد. ولذٰلك خلق الله الإنسان محبًّا، وترك مهمّة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحبّ. وقد تساءل الفتى في وجده وانفعاله لماذا لا يسافر؟ ألم يعش في هٰذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان؟! فماذا أفاده؟ إنّه زقاق لا يعدل بين أهله، ولا يجزيهم على قدر حبّهم له. وربّما ابتسم لمن يتجهّمه وتجهّم لمن يبتسم له، فهو يقتّر عليه الرزق تقتيرًا، ويغدقه على السيّد سليم غدقًا، وعلى كثب منه تتكدّس رزم الأوراق الماليّة حتّى ليكاد يشمّ عرفها الساحر، في حين أنّ راحته لا تقبض إلّا على ثمن الرغيف، فليكن سفر، وليتغيّرنّ وجه الحياة.

جرى فكره هٰذا الشوط البعيد، ولبث واقفًا أمام دكّانه ينظر إلى عمّ كامل وقد مضى يغطّ غطيطًا والمذبّة في حجره، ثمّ سمع وقع أقدام خفيفة آتيًا من أعلى الزقاق، فتحوّل إليه فرأى حسين كرشة عائدًا في خطوات واسعة. واستمرّ به الانفعال والقلق، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة، حتّى حاذاه وأوشك أن يفوته، فوضع يده على كتفه وقال له بقوّة وعزم:

ـ حسين، أريد أن أحدّثك في أمر هامّ...

ـ ٥ ـ

العصر...

عاد الزقاق رويدًا رويدًا إلى عالم الظلال: والتفّت حميدة في ملاءتها، ومضت تستمع إلى دقّات شبشبها على السلّم في طريقها إلى الخارج. وقطعت الزقاق في عناية بمشيتها وهيئتها لأنّها تعلم أنّ أعينًا أربعًا تتبعها متفحّصة ثاقبة، عينَي السيّد سليم علوان صاحب الوكالة، وعينَي عبّاس الحلو الحلّاق. ولم تكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رقّ نعلاه، بيد أنّها تلفّ الملاءة لفّة تنمّ بحسن قوامها الرشيق، وتصوّر عجيزتها الملمومة أحسن تصوير، وتبرز ثدييها الكاعبين، وتكشف عن نصف ساقيها المدملجتين، ثمّ تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزيّ الفاتن القسمات، وكانت تتعمّد ألّا تلوي على شيء فتنحدر من الصنادقيّة إلى الغوريّة ثمّ إلى السكّة الجديدة فالموسكي.. حتّى إذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفتيها ابتسامة، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينيها الجميلتين. هي فتاة مقطوعة النسب، معدمة اليد، ولٰكنّها لم تفقد قطّ روح الثقة والاطمئنان. ربّما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بثّ هٰذه الروح القويّة في طواياها، ولٰكنّ حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده، كانت بطبعها قويّة، لا يخذلها الشعور بالقوّة لحظة من حياتها. وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحيانًا بهٰذا الشعور نطقًا يذهب بجمالها في رأي البعض ويضاعفه في رأي البعض الآخر. فلم تفتأ أسيرة لإحساس عنيف يتلهّف على الغلبة والقهر، يتبدّى في حرصها على فتنة الرجال، كما يتبدّى في محاولتها التحكّم في أمّها، ويتعرّى في أسوأ مظاهره في ما يشتجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك، حتّى أبغضنها جميعًا، ورمينها بكلّ سوء. وربّما كان من أغرب ما رُميت به أنّها تبغض الأطفال، وأنّها بالتالي متوحّشة محرومة من نعمة الأنوثة، وهٰذا ما جعل امرأة المعلّم كرشة القهوجيّ ـ أمّها بالرضاعة ـ تتمنّى على الله أن تراها أمًّا تُرضع الأطفال في كنف زوج جبّار يبيّتها بالضرب ويصبّحها بالضرب! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليوميّة، مردّدة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة. كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية، فتثير في نفسها الطُّموح المتلهّفة على القوّة والسيطرة أحلامًا ساحرة. ولذٰلك تركّزت عبادتها للقوّة في حبّ المال على اعتبار أنّه المفتاح السحريّ للدنيا، المسخّر لجميع قواها المذخورة. فجُلّ ما كانت تعرفه عن نفسها أنّها تحلم بالمال، المال الذي يأتي بالثياب وبكلّ ما تشتهيه الأنفس. وعسى أن تتساءل: أيمكن يا ترى أن تبلغ

يومًا ما تتمنّى؟! لم تكن الحقائق لتغيب عنها، ومع ذٰلك فهي لا تنسى قصّة فتاة من بنات الصنادقيّة، كانت فقيرة في الأصل مثلها، ثمّ أسعفها الحظّ بزوج ثريّ من المقاولين فانتشلها من وهدتها، ونقلها من حال إلى حال. فماذا يمنع القصّة أن تتكرّر، والحظّ أن يتبسم مرّتين في هٰذا الحيّ؟! ليست دون صاحبتها جمالًا، والحظّ الذي لعب دوره في حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرّات ومرّات دون عناء أو خسارة. بيد أنّ هٰذا الطموح كان يضطرب في دنيا ضيّقة تنتهي عند حدود ميدان الملكة فريدة، لا يدري عمّا وراءها شيئًا، ولا عمّا تحويه هٰذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ، ولا كم منهم يلقى خيرًا وسعدًا، وكم منهم يتردّد مثلها حائرًا لا يعلم لنفسه مرسى. فعلى كثب من هٰذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات، فهرعت نحوهنّ وقد تخلّصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها، وسرعان ما سلّمن وأخذن في تافه الأحاديث، وهي تتفحّص وجوههنّ وثيابهنّ بأعين ناقدة، ذاهبة نفسها حسرات على ما يتمتّعن به من حرّيّة وجاه. أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة، خرجن بحكم ظروفهنّ الخاصّة البائسة وظروف الحرب عامّة عن تقاليدهنّ الموروثة. واشتغلن بالمحالّ العامّة مقتديات باليهوديّات. ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات، وسرعان ما أدركهنّ تبدّل وتغيّر في ردح قصير من الزمن، شبعن بعد جوع، وكسين بعد عري، وامتلأن بعد هزال، ومضين على أثر اليهوديّات في العناية بالمظهر وتكلّف الرشاقة، ومنهنّ مَن يرطنّ بكلمات، ولا يتورّعن عن تأبّط الأذرع والتخبّط في الشوارع الغراميّة. تعلّمن شيئًا واقتحمن الحياة. أمّا هي فقد فوّت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص. وها هي تتمسّح بهنّ والحسرة ملء حناياها، غابطة حياتهنّ المرهفة وثيابهنّ المزركشة وجيوبهنّ العامرة. كانت تضاحكهنّ في صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها، ثمّ لا تتردّد عن نهشهنّ ـ ولو على سبيل الدعابة الساخرة ـ لأقلّ هفوة، فهٰذه فستانها قصير معدوم الحياء، وهٰذه ذوقها سقيم، وتلك عيناها تزوغان من التحديق في الرجال، والرابعة كأنّها نسيت أيّام كان القملُ يزحف على رقبتها كالنمل؟ كان هٰذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمرّدها الدائم، ولٰكنّه كان كذٰلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المفعم تبرّمًا وعراكًا. ولذٰلك قالت يومًا لأمّها وهي تتنهّد:

ـ حياة اليهوديّات هي الحياة حقًّا!

فانزعجت أمّها وقالت:

ـ إنّك من نبع أبالسة ودمي بريء منك. .

فقالت الفتاة إمعانًا في إغاظتها:

ـ ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام؟!

فهزّت المرأة رأسها وقالت ساخرة:

ـ رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش. .

سارت وسط صويحباتها تيّاهة بجمالها، مدرّعة بلسانها الطويل، يلذّها أنّ الأعين تمرّ بهنّ مَرّ الكرام وتستقرّ عليها دونهنّ. ولـمّا انتصف الموسكي أو كاد لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عبّاس الحلو يسير متأخِّرًا عنهنّ قليلًا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة، وتساءلت عمّا دعاه إلى ترك دكّانه في هٰذه الساعة على غير عادة. هل تبعها عمدًا؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر؟ كان على فقره متأنّقًا كأكثريّة أهل فنّه، فلم يضايقها ظهوره. وقالت لنفسها إنّ أيّة واحدة من صاحباتها لا تطمع في زوج خير منه، وكانت تجد نحوه شعورًا غريبًا معقّدًا، فهو من ناحية الشابّ الوحيد في الزقاق الذي يصلح لها زوجًا، وهي من ناحية أخرى تحلم بزوج على مثال المقاول الغنيّ الذي حظيت به جارتها في الصنادقيّة فهي لا تحبّه ولا تتمنّاه، وفي الوقت نفسه لا تقطعه، ولعلّها تسرّها نظراته المشوّقة! وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتّى نهاية الدراسة ثمّ تعود بمفردها إلى الزقاق، فسارت بينهنّ وهي تسترق النظر. فلم تعد تشكّ في أنّه يتبعها عامدًا، وأنّه ينوي أن يخرج عن صمته أخيرًا. ولم تخطئ ظنونها فما كادت تودّع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتّى انحدر نحوها من الطوار، في خطوات مضطربة ووجهه ينطق بالانفعال، وقاربها حتّى حاذاها، ثمّ قال

بصوت متهدّج:

ـ مساء الخير يا حميدة..

فالتفتت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغتة، ثمّ قطّبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة، فتورّد وجهه. ولكنّه عاد يقول بصوت يتمّ عن العتاب:

ـ مساء الخير يا حميدة.

وخافت إن هي لازمت الصمت مع هذا الخطو الحثيث أن ينتهيا إلى الميدان المأهول قبل أن يقول ما يريد، وكانت راغبة في سماعه، فقالت في لهجة تنطق بالاستياء:

ـ يا للعار! جار وتفعل كالغريب!

فقال عبّاس بلهفة:

ـ بل جار حقًّا، ولا أفعل كالغريب، أحَرام على الجار أن يتكلّم؟

فقالت عابسة:

ـ نعم، الجار يحمي جارته، لا أن يهاجمها...

فقال الشابّ بصدق حارّ:

ـ أنا جار أعلم واجبات الجار. ولم يخطر ببالي قطّ أن أهاجمك ـ لا سمح الله ـ بيد أنّي أريد أن أحدّثك، ولا عيب أن يحدّث الجار جارته...

ـ كيف تقول هذا؟! أليس من العيب أن تتعرّض لي في الطريق، وتعرّضني للفضيحة..

فهاله قولها. وقال بأسف:

ـ الفضيحة؟.. معاذ الله يا حميدة. صدري طاهر، ولا يكنّ لك إلّا الطهر وحياة الحسين. وستعلمين أنّ كلّ شيء سينتهي بما أمر به الله لا بالفضيحة، فأصغي إليّ قليلًا، أريد أن أحدّثك عن أمر هامّ. ميلي بنا إلى شارع الأزهر بعيدًا عن أعين الذين يعرفوننا..

فقالت باستياء متصنّع:

ـ بعيدًا عن أعين الناس؟! ما شاء الله..! دمت من جار طيّب حقًّا!

وكان قد تشجّع بمنازعتها إيّاه الحديث فقال بحرارة:

ـ ما ذنب الجار؟!.. أيموت قبل أن يبوح بذات نفسه!

فقالت بسخرية:

ـ ما أطهر كلامك..!

فقال عبّاس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول:

ـ طاهر النيّة وسيّدنا الحسين. لا تسرعي هكذا يا حميدة. ميلي بنا إلى شارع الأزهر. أريد أن أقول لك كلمة هامّة. ينبغي أن تصغي إليّ. أنت تعلمين ولا شكّ بما أريد أن أقوله. ألا تعلمين؟ ألا تشعرين؟ قلب المؤمن دليله..

فقالت كالغاضبة:

ـ لقد جاوزت حدّك. كلّا.. كلّا.. دعني..

ـ حميدة.. أنا أريد أن.. أنا أريدك..

ـ يا للعار! دعني وإلّا فضحتني أمام الخلق..

وكانا قد بلغا ميدان الحسين، فمرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثّت خطاها على عجل، ثمّ انعطفت إلى الغوريّة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة. كانت تعلم ما يريد قوله كما قال، ولم تنس أنّه الفتى الوحيد الصالح لها في الزقاق، وقد قرأت في عينيه البارزتين آي الحبّ كما قرأتها مرارًا من نافذتها في الماضي القريب، ولكن هل حرّك ذلك جميعه قلبها الجحود؟ أمّا حالته الماليّة التي تعلم عنها الشيء الكثير فلا يمكن أن تحرّك فيها ساكنًا، وأمّا شخصه فوديع تنمّ عيناه عن القناعة والخضوع، ممّا يجعله خليقًا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة، بيد أنّها وجدت نحوه ـ رغم ذلك ـ نفورًا لم تدرِ له سببًا. ماذا تريد إذًا؟ ومَن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيّب؟! لم تهتدِ لجواب بطبيعة الحال، وقد عَزَتْ نفورها منه إلى فقره! والظاهر أنّ حبّها السيطرة كان تابعًا لحبّها العراك لا العكس، فلم تهشّ للمسالمة، ولم تفرح بظفر هيّن سهل المنال. وكان قلبها ما يزال في غفوته لم يستبن بعد رغائبه، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقًا.

ونكص عبّاس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين، فتراجع مفعم الفؤاد خيبة وحسرة، ولكنّه كان أبعد ما يكون عن اليأس. قال لنفسه وهو يسير متمهّلًا غافلًا عمّا حوله: إنّها بادلته الكلام طويلًا. ولو قصدت صدّه

ونبذه ما منعها ولا أعيتها الحيلة، فهي لا تكرهه، ولعلّها تدلّل شأن الفتيات جميعًا، ولعلّه الحياء الذي جعلها تقطع عليه سبيل التودّد بالفرار. فكان أبعد الناس عن اليأس، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل وتوثّب للكرّة التالية. وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل. كان محبًّا صادقًا ملتهب العاطفة، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلّيّ، ولذّة لا حدّ لها، وحبّ لا يبيد. أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعًا بالنساء عامّة، ولكنّه كان كالحمام يحلّق في السماء ويطوّف بأطرافها ثمّ يقع في النهاية على برجه ملبّيًا صفير صاحبه، فهي دون النساء جميعًا أمله المنشود. أجل لم تعد مخاطرته خائبة، وتفتّحت له أكمام الأحلام عن زهر الآمال، فعاد منتشيًا مسرورًا بحبّه وبشبابه. ولمّا عرّج إلى الصنادقيّة صادف الشيخ درويش قادمًا من ناحية الحسين، فالتقيا عند مطلع الزقاق، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبرّكًا، ولكنّ الشيخ أشار نحوه بسبّابته محذّرًا، وحملق في وجهه بعينيه الذابلتين وراء نظّارته الذهبيّة وقال:

ـ لا تمشِ بلا طربوش! احذر أن تعرّي رأسك في مثل هٰذا الجوّ، في مثل هٰذه الدنيا. فمخّ الفتى يتبخّر ويطير، وهٰذا أمر معروف في المأساة ومعناه بالإنجليزيّة Tragedy وتهجيتها tragedy.

ـ ٦ ـ

وكان المعلّم كرشة قد شغل بأمر هامّ، ومن النادر أن ينصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هٰذا الأمر، على ما يسبّبه له من الكدر والتنغيص، بيد أنّه كان رجلًا مسلوب الإرادة، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعًا. ومع ذٰلك كان على خلاف الأكثريّة من تجّار هٰذا الصنف في حكم الفقراء، لا لأنّ تجارته غير نافقة، ولكن لأنّه كان مبذّرًا ـ في غير بيته ـ يبعثر ما يربحه، وينثر المال بلا حساب، جاريًا وراء شهواته، خصوصًا هٰذا الداء الوبيل.

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبئ سنقر عن طيّته، مرتديًا عباءته السوداء، متوكّئًا على عصاه العجراء، ينقّل على مهل خطواته الثقيلة! ولا تكاد تدلّ عيناه المظلمتان المختفيتان تقريبًا وراء جفنيه الغليظين على أنّه يحسن رؤية طريقه، وكان قلبه يخفق! والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين، ومن عجب أنّ المعلّم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذّة، حتّى خال لطول تمرّغه في ترابها أنّها الحياة الطبيعيّة. هو تاجر مخدّرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعيّة وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حدّ له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه. بل إنّه ليظلم الحكومة في تعقّبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثارًا للازدراء والاحتقار، فيقول عن الحكومة: «إنّها تحلّل الخمر التي حرّمها الله، وتحرّم الحشيش الذي أباحه! وترعى الحانات الناشرة للسموم، في حين تكبس (الغرز) وهي طبّ النفوس والعقول». وربّما هزّ رأسه آسفًا وقال: «ماله الحشيش»! «راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هٰذا وذاك فهو مدرّ للنسل!» وأمّا شهوته الأخرى فيقول بقحته المعهودة: «لكم دينكم ولي دين!» ولكنّ إيلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كلّ مطلع هوى جديد. وقد سار متمهّلًا في الغوريّة ومستسلمًا لخواطره، يتساءل والأمل ملء فؤاده: «ماذا يا ترى وراءك أيّها المساء؟» وعلى رغم انهماكه في خواطره كان يحسّ بالدكاكين على الصفّين إحساسًا غامضًا، ويردّ بين الفينة والفينة تحيّات بعض أصحابها من معارفه. وكان يسيء الظنّ بهٰذه التحيّات وأمثالها، ولا يدري إن كانت لمحض السلام أم أنّ وراءها من الغمز واللمز. فالناس لا يُريحون ولا يستريحون، ويتلقّفون المثالب بأفواه نهمة جشعة. ولطالما قالوا فيه وأعادوا، فماذا أفادهم التشهير؟ لا شيء! وكأنّه وُلع بتحدّيهم فراح يجهر بما كان يسرّه، وهٰكذا مضى في سبيله حتّى اقترب من آخر دكّان على يساره فيما يلي الأزهر، فاشتدّ خفقان قلبه وتناسى تحيّات الناس التي أثارت سوء ظنّه، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شرير.

وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلّية، وجاز عتبته. دكّان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير، ويستند إلى أحد رفوفه المكدّسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع. ما إن رأى القادم حتّى استقام ظهره، وتلقّاه بابتسامة البائع اللبق. وارتفع الجفنان الثقيلان لأوّل مرّة، واستقرّت العينان على الشابّ، ثمّ حيّا برقّة. وردّ الشابّ التحيّة في لطف، وقد أدرك لأوّل وهلة أنّه يرى هٰذا الرجل للمرّة الثالثة في ثلاثة أيّام متتابعات. وقد تساءل: لماذا لا يبتاع ما يريد مرّة واحدة؟!

وقال المعلّم:

- أرني ما عندك من جوارب..

فأحضر الشابّ أنواعًا منها وبسطها على «طاولة» المحلّ، وأخذ المعلّم يتفحّصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشابّ، والشابّ لا يخفي أمره عليه، وقد دارى ابتسامة كادت ترتسم على ثغره. وتعمّد أن يطيل الفحص والتقصّي، ثمّ قال للشابّ بصوت منخفض:

- لا تؤاخذني يا بنيّ فبصري ضعيف، هلّا اخترت لي لونًا مناسبًا بذوقك الجميل...

وسكت لحظات يتفرّس في وجهه، ثمّ أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلّية:

- كوجهك الجميل..

فأراه الشابّ الجميل نوعًا متجاهلًا إطراءه، فاستدرك الرجل قائلًا:

- لفّ لي ستّة..

وتريّث حتّى مضى الشابّ يلفّ الجوارب، ثمّ قال:

- الأفضل أن تلفّ لي اثني عشر... أنا رجل لا ينقصني المال والحمد لله!!

ولفّ الشابّ له ما أراد صامتًا، ثمّ غمغم وهو يناوله اللفيفة:

- مبارك..

فابتسم المعلّم كرشة، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آليّة قصيرة يرافقها اضطراب خفيف في جفنيه، وقال بخبث:

- شكرًا لك يا بنيّ (ثمّ بصوت خفيض) الحمد لله!

وغادر الدكّان بعد أداء الثمن منفعلًا كما دخله. واتّجه نحو شارع الأزهر، ثمّ عبره مهرولًا إلى الناحية الأخرى، ووقف لصق شجرة في مقابل الدكّان مستظلًّا بالظلمة الآخذة في الانتشار. وقف يدًا متوكّئة على العصا ويدًا قابضة على اللفيفة، وعيناه لا تتحوّلان عن الدكّان من بعيد. كان الشابّ بموقفه حين دخل الدكّان وقد شبك ذراعيه على صدره، فجعل ينظر نحوه، لا يكاد يرى منه إلّا صورة غامضة المعالم، ولٰكنّ ذاكرته وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل. وراح يقول لنفسه: «أدرك المراد بلا ريب!» ثمّ ذكر كيف كان رقيقًا لطيفًا مؤدّبًا. ورجّعت أذناه صوته وهو يغمغم: «مبارك» فأثلج صدره وتنهّد من الأعماق. لبث في مكانه سويعة مضطرمًا بالقلق والتوتّر، حتّى رأى الدكّان يغلق أبوابه، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذي اتّجه صوب الصاغة، والشابّ الذي سار نحو شارع الأزهر. وابتعد المعلّم عن الشجرة رويدًا رويدًا، وسار في الاتّجاه الذي يتسمّته الشابّ. فرآه هٰذا بعد أن عبر ثلثي الطريق ولٰكنّه لم يُبْدِ اهتمامًا، وأوشك أن يمرّ به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلّم وقال برقّة:

- مساء الخير يا بنيّ.

فنظر الشابّ وقد نمّت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم:

- مساء الخير يا سيّدي.

فسأله بمحض الرغبة في مجاذبته الحديث:

- أغلقت الدكّان؟

ولاحظ الشابّ أنّ الرجل يتثاقل كأنّما يدعوه إلى التريّث، ولٰكنّه ثابر على مشيته وهو يقول:

- أجل يا سيّدي..

فاضطرّ الرجل إلى مسايرته، فسارا معًا على الطوار والمعلّم لا يحوّل عنه رأسه، ثمّ قال:

- ساعات عملك طويلة، كان الله في عونك..

فنفخ الشابّ قائلًا:

- ما الحيلة؟ أكل العيش يحبّ التعب..!

فسرّ المعلّم بإقبال الفتى على محادثته، واستبشر خيرًا

برقّته وقال:

ـ رَزَقك الله بتعبك يا بنيّ..

ـ أشكر لك يا سيّدي..

فقال الرجل بحماسة:

ـ تعب كلّها الحياة حقًّا، ولٰكن من النادر جدًّا أن ينال التعب الجزاء الذي يستحقّه، فما أكثر العاملين المظلومين في هٰذه الدنيا..

فشدّ هٰذا الكلام على وتر حسّاس في قلب الفتى وقال بتبرّم:

ـ صدقت يا سيّدي، ما أكثر العاملين المظلومين في هٰذه الدنيا..!

ـ الصبر مفتاح الفرج. أجل ما أكثر المظلومين، ومعنى هٰذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين. ولٰكن من لطف الله أنّ الدنيا لا تخلو من رُحَماء كذٰلك..

فتساءل الفتى:

ـ أين هٰؤلاء الرحماء؟

وكاد يجيبه: «ها أنذا واحدًا منهم»، ولٰكنّه أمسك عن ذلك، وقال بلهجة العاتب:

ـ لا تكن متشائمًا يا بنيّ فأمّة محمّد بخير، (ثمّ غيّر لهجته قائلًا) علامَ تُسْرِع؟ أمستعجل أنت؟؟

ـ ينبغي أن أذهب إلى البيت لأغيّر ملابسي..

فسأله باهتمام:

ـ وبعد ذٰلك؟

ـ أنطلق للقهوة.

ـ أيّة قهوة؟

ـ قهوة رمضان.

فابتسم المعلّم ابتسامته الآليّة حتّى لمعت أسنانه الذهبيّة في الظلمة، وتساءل في إغراء:

ـ لماذا لا تشرّف قهوتنا؟

ـ أيّة قهوة يا سيّدي..؟

فاخشوشن صوت المعلّم وهو يقول:

ـ قهوة كرشة بالمدقّ، محسوبك المعلّم كرشة!

فقال الفتى بامتنان:

ـ تشرّفنا يا معلّم، هٰذه قهوة ذائعة الصيت..

فسُرَّ المعلّم، وسأله بلهجة تشي بالرجاء:

ـ أتأتي؟

ـ إن شاء الله..

فقال المعلّم كمَن نفد صبره:

ـ كلّ شيء بمشيئة الله. ولٰكن أتنوي الحضور حقًّا أم تقول ذٰلك تملّصًا منّي؟

فضحك الشابّ ضحكة رقيقة وقال:

ـ بل أنوي الحضور حقًّا..

ـ الليلة إذًا!

ولـمّا لم ينبس الفتى بكلمة، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربًا:

ـ لا بدّ..

فغمغم الشابّ:

ـ بإذن الله..!

فتنهّد الرجل بصوت مسموع ثمّ سأله:

ـ أين تقيم؟

ـ عطفة الوكالة..

ـ نحن جيران تقريبًا. متزوّج؟

ـ كلّا.. مع أهلي..

ففال برقّة:

ـ أنت ابن ناس طيّبين كما يبدو لي. الإناء الطيّب ينضح ماء طيّبًا. وينبغي أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام. إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملًا بسيطًا في دكّان..

فلاح الاهتمام والطموح في الوجه الجميل، وتساءل الشابّ في خبث:

ـ وهل لمثلي أن يطمع في أكثر من هٰذا؟!

فقال المعلّم كرشة باستهانة:

ـ هل ضاقت «بنا» الحيل! ألم يكن جميع الكبار صغارًا!

ـ بلى كانوا، ولٰكن ليس من المحتّم أن ينقلب الصغير كبيرًا..

فأردف المعلّم يتمّ كلام الفتى:

ـ إلّا إذا صادفه التوفيق! فلنذكر هٰذا اليوم الذي تعارفنا فيه على أنّه توفيق عظيم. أنتظرك الليلة؟!

فتردّد الفتى قليلًا، ثمّ قال مبتسمًا:

ـ لا يأبى الكرامة إلّا لئيم..!

وتصافحا عند بوّابة المتولّي، ثمّ رجع المعلّم يخبط في الظلماء. صحا الرجل الذاهل وسرى في صدره دفء السرور. ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التي يغطّ فيها إلّا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة، ومرّ في طريقه بالدكّان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق. وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، وكانت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة. وكان جوّ القهوة ـ على خلاف الجوّ البارد في الخارج ـ دفئًا يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمّار ووهج «النصبة»، وقد تربّع الحاضرون على الأرائك يتحدّثون ويحتسون الشاي والقهوة، والراديو يذيع ما في جوفه فلا يلقى إلّا الإعراض والإهمال كأنّه خطيب ثقيل يخطب صمًّا، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكفّ عن الصياح. واتّفق عند حضوره أن كان عمّ كامل يسأل أصحابه أن يُقنعوا عبّاس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به، ولٰكنّهم أبوا عليه ذٰلك وأنكروا غرضه، وقال له الدكتور البوشي:

ـ لا تفرّط في كسوة الآخرة. إنّ الإنسان ليعيش كثيرًا في دنياه عاريًا، أمّا عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عاريًا مهما كان فقره...

وتكرّر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كلّ مرّة بالرفض والسخرية، حتّى كفّ الرجل يائسًا. وراح الحلو بعد ذٰلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل في الجيش البريطانيّ، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم، وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه، وتمنّوا له النجاح والثراء. وكان السيّد رضوان الحسيني منهمكًا في حديث طويل من أحاديثه المليئة بالوعظ والإرشاد، وقد مال على محدّثه وأنشأ يقول:

ـ ... فلا تقل مللت! الملل كفر. الملل مرض يعتور الإيمان. وهل معناه إلّا الضيق بالحياة! ولٰكنّ الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى، فكيف لمؤمن أن يملّها أو يضيق بها! ستقول ضقت بكيت وكيت، فأسألك من أين جاءت كيت وكيت هٰذه؟ أليس من الله ذي الجلال؟ فعالج الأمور بالحسنى، ولا تتمرّد على صنع الخالق. لكلّ حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها، بيد أنّ مرارة النفس الأمّارة بالسوء تفسد الطعوم الشهيّة. صدّقني إنّ للألم غبطته وللبأس لذّته وللموت عظته، فكلّ شيء جميل وكلّ شيء لذيذ! كيف نضجر وللسماء هٰذه الزرقة، وللأرض هٰذه الخضرة، وللورد هٰذا الشذا، وللقلب هٰذه القدرة العجيبة على الحبّ، وللروح هٰذه الطاقة اللانهائيّة على الإيمان. كيف نضجر وفي الدنيا مَن نحبّهم، ومَن نعجب بهم، ومَن يحبّوننا، ومَن يعجبون بنا. استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت..

وحسا حسوة من قدح القرفة، ثمّ أردف وكأنّه يعبّر عن خلجات ضميره:

ـ أمّا المصائب فلنصمد لها بالحبّ، وسنقهرها به. الحبّ أشفى علاج. وفي مطاوي المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس في بطون المناجم الصخريّة، فلنلقّنْ أنفسنا حكمة الحبّ.

كان وجهه الأبيض الورديّ يفيض بشرًا ونورًا، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر. وكان كلّ شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلقًا مضطربًا. وكان نور عينيه صافيًا نقيًّا ينطق بالإيمان والخير والحبّ والترفّع عن الأغراض. ربّما قيل إنّه رجل خسر الجاه يوم أخفق في دراسته الأزهريّة، وإنّه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء، ففزعت نفسه إلى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحبّ والجود! ولٰكن كم من المصابين مثله مَن سلك سبيله، وكم منهم مَن سقط فريسة الجنون، وكم منهم مَن صبّ جامّ غضبه على الدنيا والدين؟! ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شكّ في إخلاصه، كان مؤمنًا صادقًا، ومحبًّا صادقًا، وجوّادًا صادقًا، ومن عجب أن يكون هٰذا الرجل ـ الذي طار صيته في الخير والحبّ والجود كلّ مطار ـ حازمًا حاسمًا وعلى فظاظة وحرص في بيته! ربّما قيل إنّه وقد آيس من كلّ سلطان حقيقيّ في هٰذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يذعن لإرادته، ألا وهو زوجه! وإنّه

يُشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها. ولٰكن ينبغي ألّا نُسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان، وما تسنّه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها، وما تراه أكثريّة أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقًا لسعادتها هي نفسها قبل كلّ شيء. على أنّ زوجه نفسها لم يكن لديها ما تشكوه نحوه، ولولا الجروح التي تركها الأبناء تذكارًا خالدًا في قلبها، لعدَّت نفسها امرأة سعيدة، فخورًا بزوجها وحياتها.

أمّا المعلّم كرشة فكان حاضرًا غائبًا، لم يطمئنّ به المجلس لحظة واحدة، وعانى مرارة الانتظار في صمت كئيب. وكلّما مرّت دقائق لوى عنقه واشرأبّ به نحو مطلع الزقاق، ثمّ يعود إلى صندوق الماركات متصبّرًا متجلّدًا قائلًا لنفسه: «سيأتي حتمًا، سيأتي كما أتى إخوان له من قبل...». وتمثّل له وجهه، ثمّ نظر إلى الكرسيّ القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئنّ إليه، لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد أمثال هٰذا الشابّ إلى قهوته تسترًا أو حياء، ثمّ افتضح أمره، وذاعت فضيحته، فكشف وجهه وارتاد الإثم جهارًا. وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسي ما يبقى حديثًا فاضحًا تتناقله الألسن، ويتلقّفه بشغف أمثال الدكتور بوشي وأمّ حميدة، ولٰكنّه لم يعبأ شيئًا. وما تكاد النار تخمد إلى حين حتّى يصبّ عليها نفطًا بسوء سيرته فيضرمها إضرامًا، وكأنّه وجد أخيرًا في الجهر لذّة فلهج بها. وهٰكذا جلس قلقًا لا تعرف السكينة سبيلًا إلى نفسه الملوّثة، كأنّه يجلس على مشواة، يكاد ينبري عنقه من كثرة ليّه، حتّى لاحظ الدكتور بوشي اضطرابه وقال للحلو في خبث:

ـ هٰذه علامات الساعة!

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة، وأنشد يقول:

حننت إلى ريّا ونفسك باعدت
مزارك من ريّا وشعباكما معا
فما حَسَن أن تأتي الأمر طائعًا
وتجزع إنْ داعي الصبابة أسمعا

ـ آه يا ستّ. الحبّ يساوي الملايين.. أنفقت في حبّك يا ستّ مائة ألف جنيه، وإنّه لقدر زهيد...

وأخيرًا رأى الدكتور بوشي المعلّم كرشة يحدّق باهتمام شديد في مطلع الزقاق، ورآه يستوي جالسًا وقد ابتسمت أساريره، فنظر إلى مدخل القهوة مترقّبًا، وما لبث أن طالعه وجه الشابّ، وقد ألقى على السمّار نظرة المتردّد من عينيه الساجيتين...

ـ ٧ ـ

تقع الفرن فيما يلي قهوة كرشة، لصق بيت الستّ سنيّة عفيفي. بناء مربّع على وجه التقريب، غير منتظم الأضلاع، تحتلّ الفرن جانبه الأيسر، وتشغل الرفوف جدرانه: وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبا الدار: المعلّمة حسنيّة وزوجها جعدة. وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن. وفي الجدار المواجه للمدخل يُرى باب خشبيّ قصير يُفتح على خرابة، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة، إذ ليس بها إلّا كوّة في الجدار المواجه للمدخل تطلّ على فناء بيت قديم. وعلى بعد ذراع من الكوّة، وعلى رفّ ممتدّ، مصباح يشتعل، يلقي على المكان ضوءًا خفيفًا يفضح أرضه المتربة المغطّاة بأنواع لا يحصيها العدّ من القاذورات المتنوّعة، كأنّها مزبلة. أمّا الرفّ الذي يحمل المصباح فطويل ممتدّ بطول الجدار قد رُصّت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة، كأنّه رفّ صيدليّ لولا قذارته النادرة. وعلى الأرض ـ تحت الكوّة مباشرة ـ كان يوجد شيء مكوّم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولونًا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحقّ ـ على رغم كلّ شيء ـ في لقب إنسان؟ ذٰلك هو زيطة مستأجر هٰذه الخرابة من المعلّمة حسنيّة الفرّانة. وحسبه أن يُرى مرّة واحدة كيلا يُنسى بعد ذٰلك أبدًا، لبساطته المتناهية، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود، سواد فوقه سواد، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان. ولم يكن زيطة ـ على ذلك ـ زنجيًّا، بل إنّه مصريّ أسمر اللون في الأصل، ولٰكنّ

القذارة الملبّدة بعرق العمر كوّنت على جثّته طبقة سوداء. كذلك جلبابه لم يكن في البدء أسود، ولكنّ السواد مصير كلّ شيء في هٰذه الخرابة. وهو لا يكاد يمتّ بسبب للزقاق الذي يعيش فيه، فلا يزور ولا يزار، لا نفع فيه لأحد ولا نفع في أحد له، اللّهمّ إلّا الدكتور بوشي، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم. وأمّا صناعته فمعروفة لدى الجميع، وهي صناعة تحوّل له لقب دكتور وإن لم يتّخذه إكرامًا لبوشي. كان يصنع العاهات، ليست هٰذه العاهات الطبيعيّة المعروفة، ولٰكن عاهات صناعيّة من نوع جديد. يقصده الراغبون في احتراف الشحاذة، فبفنّه العجيب ـ الذي يحشد أدواته على الرفّ ـ يصنع لكلّ ما يوافق جسمه من العاهات. يجيئونه صحاحًا ويغادرونه عميانًا وكسحانًا وأحدابًا وقعسانًا ومبتوري الأذرع أو الأرجل. وقد اكتسب البراعة في فنّه من تجارب الحياة التي صادفته، وعلى رأسها جميعًا اشتغاله عهدًا طويلًا في سرك متجوّل، ولاتّصاله بأوساط الشحّاذين ـ اتّصالًا يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش في كنف والدين شحّاذين ـ فكّر في تطبيق فنّ «الماكياج» الذي تلقّنه في السرك على بعض الشحّاذين، في بادئ الأمر على سبيل الهواية، ثمّ على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش. ومن مشاقّ عمله أنّه يبدأ في الليل، أو عند منتصف الليل على الأصحّ، ولٰكنّها مشقّة غدت بالعادة مألوفة ميسّرة، أمّا في أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخّن، أو يتسلّى بالتجسّس على الفرّان والفرّانة، ولكم كان يلذّه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء، حتّى إذا أتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء وقد أقبلت المعلّمة على زوجها القرد تمازحه وتباسطه السمر. وكان زيطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح وجهه! وفضلًا عن ذٰلك كلّه كان يحسده على ما حباه الله به من زوج «كاملة الجسم» أو على حدّ تعبيره «امرأة بقريّ!». وكان كثيرًا ما يقول عنها إنّها في دنيا النساء تقابل عمّ كامل في دنيا الرجال! وكان من أهمّ الأسباب التي دعت أهل الزقاق إلى تجنّبه رائحته المنتنة، فلم يكن الماء يعرف سبيلًا إلى وجهه أو جسده. وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام! وبادل الناس مقتًا بمقت عن طيب خاطر، فكان يرقص طربًا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت، ويقول وكأنّه يخاطب الميت: «جاء دورك لتذوق التراب الذي يؤذيك لونه ورائحته على جسدي!». وربّما قطع وقت فراغه الطويل في تخيّل صنوف التعذيب التي يتمنّاها للناس واجدًا في ذٰلك لذّة لا تعادلها لذّة، يتصوّر جعدة الفرّان هدفًا لعشرات الفؤوس تضربه حتّى تتركه كتلة مهشّمة كلّها ثقوب!.. أو يتخيّل السيّد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجيء ودمه يجري نحو الصنادقيّة.. أو يتمثّل له السيّد رضوان الحسيني تجرّه الأيدي من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثمّ يستخرجونه منها زكيبة من الفحم.. أو يرى المعلّم كرشة مطروحًا تحت عجلات الترام يمزّق أوصاله ثمّ يلمّون أشلاءه في مقطف ما يستحقّ الناس. وكان إذا باشر عمله وأخذ في صنع العاهة لطالبها، اشتدّ عليه في قسوة مقصودة مستخفيًا وراء سرّ المهنة، حتّى إذا ندّت التأوّهات عن فريسته لمعت عيناه المخيفتان بنور جنونيّ. ومع ذلك كان الشحّاذون أحبّ البشر إلى نفسه، وتمنّى كثيرًا لو كان الشحّاذون أكثريّة أهل الأرض.

هكذا جلس زيطة غارقًا في أخيلته يترقّب وقت العمل. وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائمًا، ونفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل. ثمّ تلمّس طريقه إلى الباب وفتحه في هدوء بالغ، ثمّ اخترق الفرن إلى الزقاق. والتقى في سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة، وكثيرًا ما يلتقيان في منتصف الليالي دون أن يتبادلا كلمة واحدة، ولذلك كان للشيخ حظّ موفور في محكمة التفتيش التي ينصبها زيطة في خياله للبشر. وانعطف صانع العاهات إلى سيّدنا الحسين في خطوات قصيرة وئيدة، وكان يقترب في سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة ـ كانت بعض

قيود الإضاءة ما تزال موجودة ـ فلا يراه المقبل في الطريق حتّى يصطدم بعينيه البرّاقتين يلمعان في الظلام لمعان القطعة المعدنيّة في حزام الشرطيّ. وفي الطريق، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور، فهو لا يشقّه إلّا حين يكاد ينقطع إلّا من الشحّاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة. وشقّ ميدان الحسين منعطفًا صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم، وجعل يردّد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحّاذين على جانبيه، فملأه الارتياح... ارتياح السيّد إلى قوّته، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة. ودنا من أقرب الشحّاذين إليه، وكان جالسًا القرفصاء معتمدًا رأسه على ركبتيه ويغطّ غطيطًا، فوقف حياله لحظة متفرّسًا كأنّما يسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهُر بالنوم، ثمّ ركله في رأسه الأشعث، فانتبه الرجل من نومه ـ غير مذعور ـ كأنّما أيقظته أنامل ناعمة، ورفع رأسه متثاقلًا وهو يحكّ جنبيه وظهره بأظافره، فوقع بصره على الشبح المشرف عليه، وحملق فيه لحظة، فعرفه ـ على عماه ـ لأوّل وهلة. وتنهّد الرجل فندّ عن صدره صوت كالوحوحة، ثمّ دسّ يده في صدره واستخرج مليّمًا غمر به كفّ الرجل. وانتقل زيطة إلى مَن يليه، ثمّ إلى مَن يليهما، حتّى إذا فرغ من جناح القبو جميعًا اتّجه نحو الجناح الآخر، ثمّ مضى إلى الأزقّة والحواري المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحّاذ واحد. ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميّته لينسيه واجب رعاية العاهات التي صنعها، وربّما سأل هذا أو ذاك «كيف عماك يا فلان؟» أو «كيف كساحك يا فلان؟» فيجيبونه «الحمد لله.. الحمد لله». ثمّ دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع في طريقه رغيفًا وحلاوة طحينيّة وتبغًا ورجع إلى الزقاق. كان الصمت شاملًا يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيّد رضوان الحسيني حيث تجتمع غرزة المعلّم كرشة. وجاز الرجل عتبة الفرن في هدوء بالِغ أن يوقظ الزوجين، ودفع بابه الخشبيّ في حذر وردّه في سكون.. لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها، ولم تكن خالية. كان المصباح مشتعلًا، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة. ودلف الرجل بينهم في هدوء لأنّ وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه، وعاينهم بعينيه البرّاقتين فعرف منهم الدكتور بوشي. ووقفوا له جميعًا، وقال له الدكتور بوشي بعد أن حيّاه تحيّة طيّبة:

ـ هاك رجلين مسكينين يستشفعان بي إليك..

فتظاهر زيطة بعدم المبالاة، وقال متظاهرًا بالملل:

ـ في مثل هذه الساعة يا دكتور؟!

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له:

ـ الليل ستّار وربّنا أمر بالستر!

فقال زيطة وهو ينفخ:

ـ ولكنّي متعب الآن..!

فقال البوشي برجاء:

ـ لا رددت لي يدًا.

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له، فتظاهر بإذعان مرغمًا، ووضع الطعام والتبغ على الرفّ ووقف حيالهما متفرّسًا في أناة وهدوء، ثمّ ثبتت عيناه على أطولهما، كان عملاقًا قويًّا فدهش زيطة لمنظره وسأله:

ـ أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان، فلماذا تروم احتراف الشحاذة؟!

فقال الرجل بصوت منكسر:

ـ لم أفلح في عمل أبدًا، حاولت أعمالًا كثيرة، حتّى الشحاذة نفسها، ولكن لم يقدّر لي التوفيق، حظّي أسود، وعقلي وسخ لا أفهم شيئًا ولا أتقن شيئًا..

فقال زيطة بحقد:

ـ كان ينبغي إذًا أن تولد غنيًّا..

ولم يفطن الرجل لمرماه، وراح يستعطفه بتصنّع البكاء قائلًا بصوت كالخوار:

ـ أخفقت في كلّ شيء، حتّى الشحاذة لم تجذب لي رحيمًا واحدًا. كلّ الناس يقولون أنت قويّ ويجب أن تشتغل، هذا إذا لم يشتموني وينهروني، لا أدري لماذا!

فقال زيطة وهو يدلك رأسه:

ـ يا سلام، حتّى هذا لا تدركه.

ـ الله يخلّيك ويجبر بخاطرك..

وكان زيطة لا يكفّ عن فحصه متفكّرًا، فقال بحزم وهو يغمز أعضاءه:

ـ أنت قويّ حقًّا. أعضاؤك سليمة. إنّي أعجب ماذا تأكل؟

ـ الخبز إذا وُجد ولا شيء غيره.

ـ هذا جسم شيطانيّ بلا ريب. ترى ماذا تكون لو أكلت كما تأكل حيوانات الله التي يؤثرها بخيره ونعمته؟!

فقال الرجل ببساطة:

ـ لا أدري. .

ـ طبعًا طبعًا. . أنت لا تدري شيئًا، فهمنا هذا، وخير ما فعلت، فلو كنت تدري لانقلبت واحدًا منّا. اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه أعضائك. . .

ولاح الانقباض في الوجه الثور، وأوشك أن يتباكى كرّة أخرى لولا أن بادره زيطة قائلًا:

ـ عسير أن أكسر لك رِجْلًا أو ذراعًا، ومهما صنعت بك فلن تستثير عطف أحد. إنّ البغال أمثالك يُثيرون الحنق أينما يحلّون. ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشي ينتظر هذه العبارة بصبر نافد) فهناك طرق شتّى، أعلّمك فنّ العَتَهِ مثلًا. وأنت لا ينقصك منه شيء ذو بال، أجل العته، وأحفظك بعضًا من مدائح الرسول. . .

فتهلّل وجه الرجل ودعا له كثيرًا، حتّى قاطعه زيطة متسائلًا:

ـ لماذا لم تشتغل قطّاع طرق؟

فقال الرجل بانكسار:

ـ أنا رجل طيّب مسكين، لا أقصد إنسانًا بسوء، وأحبّ آل البيت.

فقال زيطة باحتقار:

ـ أتبدءوني أنا بهذه البوليتيكا. . ؟

ثمّ التفت إلى الرجل الآخر، كان قصيرًا هزيلًا، فقال زيطة بارتياح:

ـ استعداد طيّب. .

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتنًّا شاكرًا:

ـ الحمد لله كثيرًا. . .

ـ خُلقت لتكون أعمى مقعدًا.

فقال الرجل بسرور:

ـ هذا من فضل ربّي.

فهزّ زيطة رأسه وقال ببطء:

ـ العمليّة دقيقة وخطيرة. ودعني أسألك عن أسوأ الاحتمالات، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فماذا تفعل؟

فتردّد الرجل لحظة، ثمّ قال بغير مبالاة:

ـ نعمة من الله! وهل أفدت من بصري شيئًا حتّى آسف على ضياعه؟

فقال زيطة بارتياح:

ـ بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقًّا. .

ـ بإذن الله يا سيّدي. ستكون روحي ملك يدك. سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون. .

ـ هذا كلام لا يجوز عليّ، حسبي مليمين غير أجر العمليّة، وإنّي أعرف كيف أستخلص حقّي إذا سوّلت لك نفسك المماطلة. .

وهنا قال البوشي محذّرًا:

ـ لم تذكر نصيبك من الخبز.

فاستدرك زيطة قائلًا:

ـ طبعًا. طبعًا. . والآن فلنشرع في العمل، العمليّة شاقّة، ولسوف نمتحن قوّة احتمالك، فاكتم الألم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

وتصوّر ما سوف يكابده هذا الجسم الهزيل من هرس يديه القاسيتين، فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانيّة. . .

ـ ٨ ـ

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع في الزقاق طول النهار. عمّال كثيرون لا يكفّون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطّرد في تتابع متواصل، وعدد من سيّارات العمل الضخمة يجعجع أزيزها فيطبق على الصنادقيّة وما يتاخمها من الغوريّة والأزهر، وتيّار زاخر من الزبائن والعملاء. هي وكالة عطارة بالجملة والتجزئة، وليس

من شكّ في أنّ انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث في سوقها أثرًا ملحوظًا، ولكنّ الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها. وفضلًا عن هٰذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيّد سليم بالاتّجار بموادّ لم يكن يلقي إليها بالًا كالشاي، فغامر في السوق السوداء، وربح أرباحًا طائلة. وكان السيّد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخليّ التي تحدق به المخازن، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها، وييسّر له مراقبة العمّال والحمّالين والزبائن جميعًا. لذلك كلّه فضّل هٰذا المركز على الانفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجّار، ولأنّ التاجر الحقّ ـ على حدّ تعبيره ـ «ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائمًا». وكان الرجل في الواقع من النماذج العمليّة الموفّقة، خبيرًا في مهنته، قادرًا على النهوض بأعبائها. ولم يكن من حديثي النعمة الذين أنجبتهم الحرب، لأنّه على حدّ تعبيره أيضًا «تاجر ابن تاجر»، بيد أنّه لم يكن في البدء معدودًا من الأغنياء، ثمّ خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتّى أتخمتها بالثراء. على أنّ الرجل لم يخلُ من الهموم، وبحسبه أن يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير. أجل كان ما يتمتّع به من صحّة جيّدة وحيويّة فائضة خليقًا بأن يهوّن عليه همومه، ولكن لم يكن بدّ من التفكير في الغد، القريب أو البعيد، إذا انصرف العمر أو كاد، وافتقدت الوكالة مَن يديرها. فمن المؤسف حقًّا أنّ أحدًا من أبنائه الثلاثة لم يقع له في خاطر أن يتقدّم لمعاونة أبيه في عمله، وكانوا جميعًا سواء في الإعراض عن التجارة، وضاعت محاولاته في ثنيهم عن إعراضهم كلّها سدى، فلم يجد مناصًا ـ على بلوغه الخمسين ـ من النهوض بالأمر كلّه. وليس من شكّ في أنّه كان المسئول عن هذا الختام المرهق، فقد كان على رغم عقليّته التجاريّة ـ جوّادًا كريمًا، أو كان كذٰلك على الأقلّ في بيته وبين أهله، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة أثاث وكثرة خدم وحشم. وفضلًا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجماليّة إلى قصر منيف بالحلميّة، فترعرع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجّار وأوساطهم، وسط يضمر بلا ريب نوعًا من الاحتقار للمهن الحرّة جميعًا، فتعلّقوا بمُثُل عليا جديدة. بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته. وحين جدّ الجدّ تمرّدوا على نصحه وأبوا الالتحاق بمدرسة التجارة أن تكون فخًّا لهم، وشقّوا سبيلهم إلى الحقوق والطبّ، فهم قاضٍ ومحامٍ بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني. ومع ذلك كانت الحياة سعيدة، وقد بدت آثارها الطيّبة في جسمه البدين المتين، ووجهه الممتلئ المورّد، وحيويّته الشابّة المتوثّبة سعادة منشؤها أنّ كلّ شيء في موضعه المأمول، تجارة رابحة، صحّة جيّدة، أسرة سعيدة، أبناء موفّقون قد عرف كلّ منهم وجهته واطمأنّ إليها. وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع، تزوّجن جميعًا وبارك الله في زيجاتهنّ. فبدا كلّ شيء باسمًا منبسطًا لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة. وبكرور الأيّام تنبّه الأبناء إلى متاعب الأب، ولكنّهم قدّروها من ناحية أخرى، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يومًا من يد الدهم. أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون. وكان أن اقترح عليه أحدهم ـ محمّد سليم علوان القاضي أن يصفّي تجارته ليتفرّغ لحقّه المشروع من الراحة بعد ذاك النضال الطويل. بيد أنّ السيّد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه، واستاء استياء لم يحاول إخفاءه، فقال له «أتريد أن ترثني حيًّا!» ودهمه قوله هٰذا وهاله، لأنّه وإخوته يحبّون أباهم حبًّا صادقًا، فلم يعد أحد منهم إلى طَرْق هذا الموضوع الخطير. ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحدّ فراحوا يقولون ـ واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرّة ـ إنّ شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال في المصارف. وفطن إلى بواعث هٰذا القول الحقيقيّة بعقله الذي يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرّع عنها، فهو يعلم حقّ العلم أنّ التجارة التي تدرّ المال بلا حساب

قد تبتلعه أيضًا في ساعة نحس واحدة، وأنّ التاجر الذي يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلًا حقيق إذا وقعت هذه الساعة - خاصّة إذا سجّل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلًا أو زوجه - أن يخرج من شدّته ببعض المال، وعسى أن يكون مالًا كثيرًا، لا صفر اليدين. وهو إلى ذلك يعرف حقّ المعرفة سِيَر تجّار كبار ممّن ربحوا أموالًا طائلة، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع، أو إلى شرّ من ذلك كالانتحار أو الموت كمدًا. أجل إنّه يعلم ذلك كلّه، ويعلم أنّ أبناءه على حقّ في ما يريدون، ولعلّ التفكير في هذا الذي يريدون لم يكن جديدًا عليه، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل؟! كلّا، هذا بيّن بلا ريب. وإذًا فليؤجّل إلى حين، وليطوِ في نفسه حتّى يتيسّر تحقيقه ولم يكد يحسب أنّه فرغ من هذا الهمّ حتّى اقترح عليه ابنه القاضي أيضًا أن يسعى للحصول على رتبة البكويّة. قال له: كيف لا تكون بيكًا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالًا وجاهًا ومقامًا.

وسرّه هذا الإطراء. وكان في الحقّ - وعلى خلاف التجّار الحصفاء - مغرمًا بالجاه والجلال، ولٰكنّه تساءل في سذاجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة، وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل، وتحمّسوا له جميعًا وإن اختلفوا في الوسيلة. فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلي فيها بدلوه! حقًّا كان السيّد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئًا - فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عبّاس الحلو مثلًا، فكان مثله يضرع خاشعًا إلى ضريح الحسين، وكان مثله يبجّل الشيخ درويش ويتبرّك به. كان بإيجاز معدة قويّة وجبّة زاهية. بيد أنّ السياسة لا تحتاج في كثير من الأحايين إلى أكثر من هٰذا، وقد مضى يفكّر في الأمر تفكيرًا قويًّا، لولا أن اعترضه ابنه المحامي - عارف سليم علوان - فقال له محذّرًا:

- السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا. ستجد نفسك ملزمًا بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك. وعسى أن ترشّح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافًا من أموالك دون جدوى ثمنًا لكرسيّ غير مضمون، وهل البرلمان في بلادنا إلّا كمريض بالقلب تهدّده السكتة في أيّة لحظة! ثمّ أيّ حزب تختار؟ إذا اخترت حزبًا غير الوفد أضعفت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقي باشا يجعل تجارتك هشيمًا تذروه الرياح.

وتأثّر السيّد بقول ابنه، وكان يثق في أبنائه «المتعلّمين» ثقة كبيرة، وزاده انحيازًا إلى طرح السياسة جانبًا جهله التامّ بشئونها، وبروده حيالها، فلم يكن يعلم من أمورها إلّا أسماء ورث حبّها أو بغضها عن عهد سعد زغلول.

واقترح عليه البعض أن يتبرّع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيريّة لعلّه أن يجزى عليه بالرتبة. ولم يرقه الاقتراح من بادئ الأمر، لأنّ غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفورًا طبيعيًّا من البذل والعطاء، ولا يتعارض هٰذا مع كرمه المعروف، لأنّه في الواقع كان كرمًا لنفسه وبيته، على أنّه لم يقطع بالرفض، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة، وما زال يطمع فيها ويريدها. وقد أدرك أنّها تقتضيه قدرًا من المال لا يقلّ عن الخمسة الآلاف جنيه، فما عسى أن يصنع؟ لم يبتّ برأي قاطع، وإن قال لأبنائه «كلّا» بيد أنّه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القائمة بلا فضّ كإدارة الوكالة وشراء العقار، تاركًا أمر الجميع للمستقبل وللظروف.

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهي ليست بالخطر الذي ينغّص صفو الحياة وخصوصًا حياة رجل يستغرقه العمل نهارًا، والغريزة ليلًا. والحقّ أنّه إذا شغله العمل لم يعد يفكّر في شيء سواه، وقد جلس إلى مكتبه مركّزًا انتباهه كلّه في كلام سمسار يهوديّ، مستجمعًا يقظته، مستحضرًا حذره، يعجب لرقّة محدّثه ولطفه، حتّى ليحسبه الجاهل صديقًا ودودًا، وهو في الحقيقة نمر يتوثّب، يَتَمَسْكَنُ ويَتَمَسْكَنُ حتّى يتمكّن، والويل لمن يتمكّن منه. وقد علّمته التجارب

أنّ هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بدّ، أو أنّه ـ على حدّ تعبيره ـ شيطان مفيد. وكان يساومه بصفقة شاي مضمونة الربح غزيرته، فجعل السيّد يفتل شاربه الضخم ويتجشّأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاي أن يعرض عليه شراء عقار صالح ـ وكان على علم برغبته في الشراء ـ ولكنّ السيّد كان قد صمّم على تأجيل الشروع في ذلك إلى ما بعد الحرب، وأبى أن يصغي إليه، فغادر الرجل الوكالة قانعًا بصفقة واحدة. وجاء غير هذا الخواجا آخرون. وواصل السيّد العمل بما عُرف عنه من مقدرة وهمّة. وعند منتصف النهار نهض للغداء، وكان يتناول غداءه في حجرة أنيقة أعدّ بها فراشًا للمقيل. وكان غداؤه يتكوّن عادة من خضر وبطاطس وصينيّة فريك. ولـمّا انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجمّ ساعة أو ساعتين. وفي أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة، فيسود السكون الزقاق جميعًا. وكان لصينيّة الفريك قصّة يعرفها أهل الزقاق جميعًا. هي طعام ووصفة في آن واحد، وقد برع في تهيئتها أحد عمّاله المقرّبين، فظلّت حقيقتها سرًّا بينهما لولا أنّه لا يؤمن على سرّ في زقاق المدقّ. هي صينيّة فريك محشوّ بالحمام، ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب، يلتهمها في الغداء، ويحتسي بعدها شايًا مرّتين أو ثلاث مرّات، قدحًا كلّ ساعتين، فتحدث مفعولها ليلًا، ويستمرّ تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة! وقد ظلّت الصينيّة سرًّا لا يدريه إلّا الرجلان والمعلّمة حسنيّة الفرّانة. وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنّها غذاء خالص، فيقول البعض: «بالهنا والشفا» ويغمغم البعض: «يطفحها سمًّا بإذن الله!». ثمّ لعب الطمع يومًا بقلب المعلّمة حسنيّة، فسوّلت لها نفسها أن تجرّب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفرّان، واختلست من الصينيّة قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص. ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنّة إلى غفلة السيّد، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ! بيد أنّ السيّد سليم لم يغفل عن الأمر طويلًا، ولاحظ بسهولة ما طرأ من تغيّر على لياليه، وعاد باللائمة بادئ الأمر على العامل الذي يهيّئ الوصفة. فلمّا أن أبرأ الرجل ذمّته داخله الشكّ في الفرّانة، واكتشف السرقة بغير صعوبة، فدعا الفرّانة ووبّخها، وعدل عن إرسال الصينيّة إلى فرنها، مستبدلًا بها الفرن الإفرنجيّ بالسكّة الجديدة. وبدأ السرّ ينكشف ويذيع فعلمت به أمّ حميدة، وكان في ذٰلك الكفاية كلّ الكفاية، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعًا، وراحوا يتلقّون الصينيّة بالغمز واللمز. وأدرك السيّد غاضبًا أنّ سرّه قد افتضح، ولكنّه لم يعبأ ذٰلك طويلًا! أجل. قطع أكثر عمره في الزقاق، ولكنّه لم يكن يومًا من أهله، ولم يعمل لواحد منهم حسابًا، ولولا السيّد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما عني برفع يده تحيّة. وكادت الصينيّة تصبح في وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعًا، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد. فجرّبها المعلّم كرشة والدكتور بوشي، حتّى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكّد أنّها لا تحوي مادّة يحرّمها الشرع الحنيف! أمّا السيّد سليم فكان يواظب عليها إلّا فيما ندر، والواقع أنّه كان يضطرب من الحياة في مضطرَب ضيّق، نهاره نَهْب للوكالة، وليله خالٍ ممّا يتسلّى به أمثاله من الناس، فلا قهوة ولا نادٍ ولا ملهى، ولا شيء مطلقًا إلّا زوجه، ولذلك تفنّن في مسرّاته الزوجيّة تفنّنًا شذّ بها عن جادّة الاعتدال.

* * *

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضّأ وصلّى، وارتدى قفطانه وجبّته، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثاني مهيّأ، فاحتساه بتلذّذ وهو يتجشّأ جشآت مجعجعة يدوّي صداها في الفناء الداخليّ، وأقبل على عمله بنفس الهمّة التي استقبله بها في الصباح ولكنّه كان يبدو في فترات وكأنّ قلقًا ينتابه. كان يتلفّت نحو الزقاق، وكان ينظر في ساعته الذهبيّة الضخمة، وكان يعبث بأنفه على غير شعور منه. وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق، أدار مقعده اللولبيّ وجعل وجهه للطريق ومرّت دقائق ثقيلة لم تتحوّل فيها عيناه عن الطريق. ثمّ أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع

شبشب على أحجار الطريق المنحدر، ثمّ مرّت حميدة أمام باب الوكالة في ثوانٍ معدودات، وفتل شاربيه بعناية، ودار بكرسيّه إلى المكتب وقد لاح في عينيه السرور، وإن وجد شعورًا بعدم الارتياح! من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق. ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلّا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها في أويقات نادرة كلّما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنّما يريح أعصابه بالمشي. كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونًا لمنزلته وكرامته، فهو السيّد سليم، وهي فتاة مسكينة، والزقاق زخّار بالألسن الحداد والأعين المتطفّلة. وتوقّف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبّابته متفكّرًا. أجل، هي مسكينة وفقيرة ولكنّ الرغبة لا ترحم وأسفاه، والنفس أمّارة بالسوء! مسكينة وفقيرة ولكنّ وجهها البرنزيّ ونظرة عينيها وقدّها الممشوق، كلّ أولئك مزايا تستهين حقًّا بفوارق الطبقات! وما جدوى المكابرة؟ إنّه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح، والجسم الذي يقطر إغراء، وهذه العجيزة الأنيقة التي تزري بورع الشيوخ. إنّها أنفَس من وارد الهند جميعًا. ولقد عرفها منذ كانت صبيّة صغيرة تتردّد على الوكالة لابتياع ما تحتاجه أمّها من الحنّاء ومواد المفتقة والمغات. رأى ثدييها وهما نبقتان ثمّ وهما دومتان، حتّى استوتا رمّانتين. وعاين عجيزتها وهي أساس أملس لم ينهض عليه بناء، ثمّ وهي تكوّر رقيق يتمطّى به النضج، وأخيرًا وهي كرة تنضح أناقة وأنوثة. وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتّى أفرخ في النهاية رغبة عازمة. إنّه يعلم ذلك، ولم يعد يحاول إنكاره. ولطالما قال لنفسه: «ليتها كانت أرملة كالستّ سنيّة عفيفي!» لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجًا. أمّا وهي عذراء فينبغي أن يطيل التفكير في أمره. وتساءل كما اعتاد أن يتساءل: ماذا يروم؟ وذكر وهو لا يدري زوجه وأسرته. كانت زوجه امرأة فاضلة، تتحلّى بكلّ ما يحبّ الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة في شئون البيت، وكانت على شبابها مليحة ولودًا. فهو لا يأخذ عليها نقيصة واحدة، وفضلًا عن ذلك كلّه كانت من أسرة كريمة تتفوّق عليه كثيرًا في الأصل والمحتد. وهو يقرّ بفضلها جميعًا، ويضمر لها ودًّا صادقًا، ولا يضايقه إلّا أنّها استوفت شبابها وحيويّتها، فقصّرت عن مجاراته، وعجزت عن احتماله، فبدا بالقياس إليها - وبسبب حيويّته الخارقة - شابًّا نهمًا لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع! والحقّ أنّه لا يدري إن كان ذلك ما علّقه بحميدة، أم أنّ هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الأليم! ومهما يكن الأمر فقد أحسّ رغبة لا تقاوم إلى دم جديد! وقال لنفسه صراحة: «ما لي أحرّم على نفسي ما أحلّ الله لها!». على أنّه كان رجلًا محترمًا، حريصًا جدًّا على أن يقرّ له كلّ إنسان بالاحترام، ويكربه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه. كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كلّ حساب، وكان يقول مع القائلين: «كُلْ ما يعجبك والبَسْ ما يعجب الناس». وإنّه ليأكل صينيّة الفريك، أمّا حميدة...! ربّاه! لو كانت من أسرة كريمة ما تردّد لحظة في طلب يدها. ولكن كيف تصير حميدة ضرّة للسيّدة عفّت!؟ وكيف تصبح أمّ حميدة الخاطبة حماته كما كانت يومًا المرحومة ألفت هانم؟! وعلى أيّ وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمّد سليم القاضي وعارف سليم المحامي والدكتور حسّان سليم؟! وهناك أمور أخرى - لا تقلّ عن هذه خطورة - ينبغي تقديرها حقّ قدرها. هنالك بيت جديد لا بدّ - في هذه الحالة - أن يتهيّأ، ونفقات جديدة ربّما ضاعفت من نفقاته القديمة، وورثة جدد خليقون أن يمزّقوا وحدة أسرته المتماسكة، وأن يلوّثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء. وفي سبيل أيّ شيء كلّ هذه المتاعب؟... ميل رجل - بل زوج أب - في الخمسين لفتاة في العشرين! لم يغب عنه شيء من هذا، لأنّه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التي تتّصل بالمال وأحوال المعيشة. ومضى يراجع نفسه حائرًا متردّدًا لا يقرّ له قرار. وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلّقة في حياته، وانتظمتها سلسلة مشاكله التي لم تفضّ كإدارة الوكالة ومستقبلها، وشراء العقار وتشييد العمارات، ورتبة البكويّة، بيد أنّها كانت

أشدّ إلحاحًا وأبعث شجنًا.

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومدّ له حبل التفكير، أمّا إذا خطرت حميدة أمام عينيه، أو لاحت لها في النافذة، فلم يكن يفكّر إلّا في أمر واحد...

- ٩ -

أصبحت أمّ حسين - امرأة المعلّم كرشة - في همّ مقيم. فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمرّ دون تساؤل، خصوصًا إذا كان انقطاعها في الماضي يقترن دائمًا بشرّ مستطير. وقد قطع المعلّم كرشة عادة محبوبة لا يصحّ أن تقطع لغير سبب خطير، فراح يمضي سهرته الليليّة بعيدًا عن البيت، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كلّ منتصف ليل فيمتدّ بهم السهر حتّى مطلع الفجر. وطافت بالمرأة الذكريّات المحزنة فعاودها الألم الذي ينغّص عليها صفو الحياة. ما الذي يدعوه إلى قضاء الليل خارج داره؟ أيكون ذاك السبب القديم؟ ذاك الداء الوبيل؟ سيقول الفاجر إنّه مجرّد تغيير يراد به دفع الملل، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء، ولكن هيهات تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة، وإنّها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعًا. لذلك أصبحت المرأة في همّ مقيم، وباتت تتحرّق على فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه. وكانت امرأة قويّة - على دنوّها من الخمسين - لا تنقصها أسباب الجراءة التي تجاوز الحدّ في كثير من الأحايين. وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس - كحسنيّة الفرّانة وأمّ حميدة - واشتهرت بوجه خاصّ لما يقع بينها وبين زوجها من دواعي الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل! كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفطس. وكانت زوجًا ولودًا، أنجبت بناتًا ستًّا وذكرًا واحدًا هو حسين كرشة وجميع بناتها متزوّجات، وجميعهنّ يحيين حياة زوجيّة مقلقلة، لا تخلو من نكد وإن كانت تسير ولا تنقطع. وقد حدثت لصغراهنّ مأساة كانت حديث الزقاق يومًا، إذ اختفت بغتة في عامها الأوّل من الزواج، ثمّ ضبطت في بيت عامل ببولاق، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن. كانت مأساة الفتاة كربًا شديدًا للأسرة، ولكنّها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت بها، فللمعلّم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء. وكانت أمّ حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفي عليها من الأمر، فراحت تستخبر عمّ كامل وتستنطق سنقر صبيّ القهوة حتّى علمت بالشابّ الذي أخذ يتردّد في عهده الأخير على القهوة فيحتفي به المعلّم كلّ احتفاء ويقدّم له الشاي بنفسه! وأخذت تراقب القهوة خفية حتّى رأت الشابّ بنفسها وشاهدت مجلسه إلى يمين المعلّم، ولمست احتفاءه به. وجنّ جنونها ونكأ الجديد القديم من جروحها، فباتت ليلة جهنّميّة، وأصبحت على شرّ حال وأسوأ نفس. ولم يكن رأيها قد استقرّ على حال، كانت تغلي غليانًا ولكنّها لا تدري أيّ سبيل تسلك. ولطالما جرّبت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردّد عن إعادة الكرّة، بيد أنّها تريّثت قليلًا - لا تأفّفًا منه - ولكن دفعًا لشماتة الشامتين. وكان حسين كرشة يتهيّأ للخروج إلى عمله فقصدته هائجة النفس ثائرتها، وقالت له بانفعال شديد:

- يا بنيّ أما علمت أنّ أباك يعدّ لنا فضيحة جديدة؟

وأدرك حسين لتوّه ما تعنيه! فلا يمكن أن يعني قولها إلّا معنًى واحدًا معروفًا مشهورًا. وامتلأ حنقًا، واتّقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منها الشرر. ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يومًا من المتاعب والفضائح. ولم تكن دواعي السخط لتنقصه حتّى بدون هذه الفضائح. كان بَرِمًا بكلّ شيء ممّا حوله. ولعلّ برمه هذا الذي دفعه إلى الارتماء بين أحضان الجيش البريطانيّ. ثمّ ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكّنه وتطامنه، فضاق بآله وببيته وبالزقاق جميعًا. وجاء أخيرًا قول أمّه نفطًا على لهيب، فقال غاضبًا:

- ماذا تريدين؟ وما حيلتي في هذا كلّه! لقد تدخّلت فيها سلف وحاولت الإصلاح، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب، فهل تريدينني على أن

أمسك بتلابيب أبي؟!

لم يكن يعنيه الإثم في ذاته، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسة، وما يشعله في البيت من نيران السباب والشتائم والعراك. أمّا الإثم ذاته فلم يكن يهمّه على الإطلاق، بل إنّه حين تناهى إليه خبره أوّل مرّة هزّ منكبيه استهانة وقال دون مبالاة «إنّه رجل والرجل لا يعيبه شيء!». ثمّ سخط مع الساخطين ونقم على والده، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندّرين. وكانت علاقته بأبيه في الأصل متوتّرة، ذلك التوتّر الذي ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين، فكلاهما فظّ شرس غضوب، ثمّ جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقهما حتّى أصبحا كعدوّين، يتحاربان حينًا، ويتهادنان حينًا، ولا يسكت عنهما السخط أبدًا.

ولم تدرِ أمّ حسين ماذا تقول، ولكنّها لم تراجعه أن تكون السبب في إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه. وتركته يغادر الشقّة وهو يهدر غاضبًا شاتمًا، وقطعت نهارها على أسوأ حال. ولم تكن تذعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الأثم ولو عرّضها ذلك لشماتة الشامتين. بيد أنّها رأت أن تقدّم إنذارها بين يدي بأسها، فانتظرت حتّى انتصف الليل، وتفرّق السمّار، وتأهّب زوجها لإغلاق القهوة، ثمّ نادته من النافذة! فصعّد الرجل رأسه منزعجًا وعلا صوته متسائلًا:

ـ ماذا تريدين يا أمّ حسين؟

فجاءه صوتها يقول:

ـ اصعد يا معلّم لأمر هامّ..

وأومأ المعلّم لفتاه أن ينتظر حيث هو، وراح يرتقي السلاليم متثاقلًا، ووقف على عتبة باب شقّته لاهثًا، ثمّ سألها بصوته الغليظ:

ـ ماذا تريدين؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتّى الصباح؟

رأته المرأة وقد تسمّرت قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايلها كأنّه يتحاشى أن يخرق حرمة بيت غريب، فتميّزت غيظًا، وحدجته بعينين محمّرتين من السهر والغضب، ولكنّها لم ترد أن تبادره بالغضب، فقالت وهي تغالب انفعالها:

ـ تفضّل بالدخول يا معلّم.

وتساءل المعلّم كرشة لماذا لا تتكلّم إذا كان لديها حقًّا ما تريد أن تقوله ثمّ سألها بخشونة:

ـ ماذا تريدين؟.. انطقي!

يا له من رجل نافد الصبر! يقطع الليالي الطوال خارج البيت دون ملل، ولكنّه يضيق ذرعًا بحديث دقيقتين معها. ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس، وأبو أبنائها جميعًا، ومن عجب أنّها لم تستطع ـ على إساءته إليها ـ أن تبغضه أو تهمل شأنه. فهو رَجُلها وسيّدها الذي لا تني عن الاستئثار به، واسترداده كلّما مدّ الإثم يدًا لاختطافه. بل إنّها لفخور به حقًّا، فخور بفحولته ومكانته في الزقاق وسيطرته على المعلّمين من أقرانه، ولولا هذه النقيصة المنكرة لما وجدت له ضريعًا في الدنيا. ها هو يستجيب لداعي الشيطان، ويودّ لو أعفته من حديثها لينطلق إليه من توّه! واشتدّ بها الغيظ فقالت بحدّة:

ـ ادخل أوّلًا.. لماذا تقف على العتبة كالأغراب؟!

فنفخ المعلّم مغيظًا محنقًا، وجاز العتبة إلى الدهليز برمًا ساخطًا وهو يتساءل بصوته الأجشّ:

ـ ماذا وراءك؟

قالت وهي تردّ الباب:

ـ استرح قليلًا... لديّ كلمة قصيرة...

ونظر إليها مستريبًا! ماذا تريد المرأة؟ هل تعترض سبيله مرّة أخرى؟! وصاح بها:

ـ تكلّمي لماذا تضيّعين الوقت سدى؟

فسألته بحنق:

ـ أمتعجّل أنت يا معلّم؟

ـ أتجهلين هذا؟

ـ ما الذي يدعو لهذه العجلة؟

فازدادت ريبته، وامتلأ صدره حنقًا، وتساءل إلامَ يحتمل هذه المرأة؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة. كان يكرهها حينًا ويحبّها حينًا آخر. ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جرّه الإثم إلى هاويته،

ويزيد الأمر وبالًا إذا توثّبت المرأة للانقضاض عليه.

وكان يتمنّى في قرارة نفسه لو كانت امرأته «عاقلة» فتركته وشأنه. ومن عجب أنّه كان يرى نفسه على حقّ دائمًا، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرّر! أليس من حقّه أن يفعل ما يشاء؟ وأليس من واجبها أن تطيع، وأن ترضى ما دامت حاجاتها مقضيّة ورزقها موفورًا؟! وقد أمست من ضرورات حياته، كالنوم والحشيش والبيت بخيرها وبشرّها، فلم يفكّر جادًّا في التخلّص منها، ولو أراد ما منعه مانع، ولكنّها كانت تملأ فراغًا، وتقوم على العناية بأمره، ويريدها ـ على أيّة حال ـ زوجًا له! ولكنّه تساءل على رغم هٰذا كلّه ـ في حنقه ـ إلامَ يحتمل هذه المرأة؟ وصاح بها:

ـ لا تكوني حمقاء وتكلّمي أو دعيني أذهب لحال سبيلي...

سألته باستياء وحنق:

ـ ألا تجد قولًا أفضل من هذا تخاطبني به؟

فزمجر المعلّم قائلًا:

ـ الآن علمت أنّه ليس لديك ما تقولينه: والأفضل أن تنامي شأن النساء العاقلات...

ـ ليتك تنام أيضًا شأن الرجال العقلاء!

فضرب المعلّم كفًّا بكفّ وصاح:

ـ كيف لي بالنوم في هذه الساعة؟

ـ فلماذا خلق الله الليل؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ:

ـ ومتى كنت أنام الليل؟ هل أنا مريض يا مره؟!

فقالت بلهجة ذات معنى خاصّ علمت أنّه سيدركه من فوره:

ـ تبْ إلى الله يا معلّم وادعُ الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخّرة!

وأدرك ما تريد، وقطع الشكّ باليقين، ولكنّه قال متجاهلًا وهو يتميّز غيظًا:

ـ ما في السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه.

فزادها تجاهله لها حنقًا وقالت:

ـ تب عن الليل وعمّا في الليل..!

فقال المعلّم بخبث:

ـ أتريدنني أن أهجر حياتي!

فصاحت به وقد غلبها الغضب:

ـ حياتك!

فقال بخبث:

ـ أجل. الحشيش حياتي!

فتطاير الشرر من عينيها وهي تقول وقد حدّثتها نفسها بأن تصكّ خدّيه السوداوين:

ـ والحشيش الآخر؟!

فقال متهكّمًا:

ـ أنا لا أحرق إلّا صنفًا واحدًا.

ـ أنت لا تحرق إلّاي. لماذا لا تسهر في مكانك المعتاد من السطح!

ـ ولماذا لا أسهر حيث يروقني السهر؟ على السطح، في المحافظة، في قسم الجماليّة؟ ما شأنك أنت؟

ـ لماذا غيّرت مكان سهرتك؟

فصعّد الرجل رأسه وصاح:

ـ اللّهمّ فاشهد. أعفيتني حتّى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لي محكمة دائمة في بيتي (ثمّ طامن رأسه كرّة أخرى واستدرك) ألا فاعلمي أنّ بيتنا قد أصبح مشبوهًا. والمخبرون يجوسون حوله.

فسألته بسخرية مُرّة:

ـ ترى هل هٰذا الشابّ المتهتّك من بين هٰؤلاء المخبرين الذين أطاروك عن عشّك.

آه، صار التلميح تصريحًا! واربدّ وجهه الضارب للسواد، وسألها بصوت ينمّ عن الضجر:

ـ أيّ شابّ هذا؟

ـ الفاجر الذي تقدّم له الشاي بنفسك كأنّك رُددت صبيًّا كسنقر!

ـ ما في ذٰلك من عيب، فالمعلّم يخدم زبائنه كالصبيّ سواء بسواء.

فسألته متهكّمة بصوت متهدّج من الغضب:

ـ لماذا لا تخدم عمّ كامل مثلًا؟ لماذا لا تخدم إلّا الفاجر؟

ـ الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد!

ـ الكلام سهل على مَن يريده، ولكنّ فعلك فاضح فاجر.

فأومأ إليها بيده منذرًا وهو يقول:

ـ أمسكي لسانك يا مجنونة.

ـ الناس جميعًا يكبرون فيعقلون..

فقرض أسنانه وسبّ ولعن، ولكنّها لم تباله واستطردت تقول:

ـ أناس يكبرون فيعقلون، أمّا أنت فكلّما كبرت قلّ عقلك.

ـ خرفتِ يا مره! خرفتِ وحياة الحسين! عليه العوض!

فصاحت بصوت غليظ مرتعش النبرات:

ـ الرجال أمثالك يستأهلون العذاب. هلّا كفيتنا شرّ الفضائح! هلّا كفيتنا ذلّ الشماتة!

ـ عليه العوض! عليه العوض!

وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة:

ـ اليوم تسمعني أربعة جدران، غدًا تسمعني الحارة كلّها؟

فرفع جفنيه الثقيلين وسألها بقوّة:

ـ تهدّدينني؟!

ـ أهدّدك، وأهدّد أهلك! أنت تعرف مَن أنا!

ـ يبدو أنّي سأهشّم هٰذا الرأس الخرف!

ـ هئ.. هئ، والله ما ترك الحشيش والفجر قوّة في ساعِدَيْك، والله ما تستطيع أن ترفع يدًا!.. انتهيت، انتهيت يا معلّم..

ـ انتهيت بفضلك. وهل يُنهي الرجال إلّا النساء...!

ـ أسفي على مَن دون النساء جميعًا!

ـ لمه؟... خلّفت بناتًا ستًّا ورَجُلًا.. غير حالات الإجهاض والسقط.

فصاحت في غضب جنونيّ:

ـ ألا تستحي من ذكر الأبناء؟ ألا يزجرك ذٰلك عمّا تتردّى فيه من الفجور!

فضرب الجدار بقبضته، وتحوّل عن موقفه متّجهًا نحو الباب، وهو يقول:

ـ امرأة مجنونة خرفة..

فصرخت وراءه:

ـ هل نفد صبرك حقًّا؟.. أتشفق عليه من طول الانتظار؟.. سترى عاقبة فجرك يا داعر..؟

وأغلق المعلّم الباب بعنف، فرنّت صفقته رنينًا مدوّيًا مزّق سكون الليل، وجعلت أمّ حسين تكوّر يدها في غضب وحنق، وقد امتلأت نفسها رغبة في الانتقام.

ـ ١٠ ـ

ألقى عبّاس الحلو على صورته في المرآة نظرة فاحصة ناقدة حتّى لاحت في عينيه البارزتين نظرة ارتياح: وكان قد رجّل شعره بأناة، ونفض الغبار عن بدلته بعناية، ثمّ دلف من باب دكّانه ووقف ينتظر. هي ساعة الأصيل المحبوبة، والسماء صافية عميقة الزرقة، والجوّ ملطّف بدفء طارئ جادت به الطبيعة غبّ رذاذ اتّصل يومًا كاملًا، وقد اغتسلت أرض الزقاق التي لا تستحمّ إلّا مرّتين أو ثلاثًا في العام، وظلّت بعض منخفضات الصنادقيّة مغمورة بالماء ملبّدة بالطين. وكان عمّ كامل داخل دكّانه الصغير يهوّم على كرسيّه، فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة، وما لبث أن دبّ الوجد في أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض:

هلبت يا قلبي على طول الزمن ترتاح
وتنول وصال اللي تهوى، وفيه ترتاح
مصير جروحك على طول الزمن تبرى
ويجيلك الطبّ. لا تعلم ولا تدرى
مثل سمعناه منقول عن ذوي الخبرة
الصبر يا مبتلي، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عمّ كامل عينيه وتثاءب، ثمّ نظر إلى الشابّ الواقف على باب دكّانه، فضحك هذا وعبر الطريق إليه وقرصه في ثديه الهشّ، وقال بسرور:

ـ عشقنا وستضحك لنا الدنيا..

فتنهّد عمّ كامل وقال بصوته الرفيع:

ـ مبارك يا عمّ، ولكن هل سلّمتني الكفن قبل أن

تبعه لتحصل على المهر!

فضحك عبّاس الحلو ضحكة عالية، وغادر الزقاق متمهّلًا. كان يرتدي بدلته الرماديّة، وهي الوحيدة أيضًا، وكان قد قلّبها منذ عام، ثمّ رفأ الرفّاء بعض أطرافها، ولكنّه كان يعنى بتنظيفها وكيّها، فبدا - على نحو ما - أنيقًا! وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة، ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذي يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد. كان في تلك الفترة يحيا بالحبّ، للحبّ، ويدور بجناحيه الملائكيّين في سماء السرور. وكان حبّه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة، يهوى الثديين كما يهوى العينين ويلتمس وراء الثديين حرارة الجسد، كما يتلمّس في العينين نشوة غامضة ساحرة. وقد سرّ سرور الظفر يوم تعرّض للفتاة في الدراسة، وصوّر له خياله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السلبيّ الذي تلبّي به النساء نداء الهوى. واستأثرت به النشوة أيّامًا، ثمّ مضت حماسته تفتر ونشوته تخبو، لا لجديد جدّ، ولكن لتيقّظ الشكّ وفعله. وراح يتساءل لماذا يظنّ الإعراض دلالًا؟؟ ولِمَ لا يكون إعراضًا حقًّا!؟ ألأنّها صدّته في غير قسوة ولا فظاظة؟ ولكن هل يتوقّع الإنسان من جارة العمر أقلّ من هذه المجاملة؟.. حقًّا لقد غالى في سروره، وإنّها لنشوة كاذبة. بيد أنّه لم ينكص على عقبيه، وكان كلّما لسعه الشكّ اندفع في سبيله ذائدًا عن سعادته. كان عند الضحى يبرز أمام دكّانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمّس الشقّة، وفي المساء يجلس بكرسيّه على عتبة القهوة تحت نافذتها، يدخّن الجوزة، ويخطف النظرة تلو النظرة من الشبّاك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب. ولم يقنع بهذا فتعرّض لها مرّة ثانية في الدراسة، ولكنّها صدّته كما صدّته أوّل مرّة، وأعاد الكرّة فأفلتت منه أيضًا. ولكنّه رجع وقد عاوده الأمل وأظلّه الفرح والسرور. وقال لنفسه إنّ السعادة مهيّأة له ولا تقتضيه إلّا مزيدًا من الشجاعة والصبر. وهكذا انطلق هذه المرّة ممتلئًا شجاعة وثقة وهيامًا، ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانتحى جانبًا حتّى مررن به، ثمّ تبعهنّ متمهّلًا. وقد لاحظ أنّ أعين البنات يثقبنه بخبث مريب فداخله سرور وزهو، وتابع سيره حتّى انفرط عقدهنّ عند نهاية الدراسة، فحثّ خطاه حتّى صار منها على مرمى ذراع، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعثّرة بالارتباك، وغمغم بتحيّته المحفوظة:

- مساء الخير يا حميدة..

كانت تنتظره بلا ريب، ولكنّها كانت في حيرة من أمر نفسها. لم تكن تحبّه ولم تكن تكرهه، ولعلّ كونه الفتى الوحيد الذي يصلح لها في الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صدّه بحزم وفظاظة. فأغضت عن تعرّضه لسبيلها مرّة أخرى، مكتفية بزجر ليّن، وإفلات لطيف، ولو شاءت أن تصعقه لصعقته، وكانت على رغم تجربتها المحدودة في الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذي يضرمه نزوعها الغريزيّ إلى القوّة والجموح والسيطرة والعراك! حقًّا كانت تهيج جنونًا إذا قرأت في نظرة عين معنى للتحدّي أو الثقة، ولكن لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديعة الطيّبة التي تلوح دوامًا في عينَي الحلو، وتولّاها شعور بالحيرة والقلق لتردّدها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها في الزقاق، والنفور منه لا ينهض على أسباب واضحة يُطمأنّ إليها. فلا ميل صريح ولا نفور صريح. ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعيّة محتومة لما تردّدت في نبذه والقسوة عليه. لذلك أحبّت مجاراته، وسبر غوره، واستخراج مكنون لسانه، لعلّها تجد في ذلك كلّه أو في بعضه مخرجًا لها من حيرتها المؤسية. وخاف الفتى أن يمتدّ صمتها حتّى ينطوي الطريق، فغمغم كالضارع:

- مساء الخير...

وانبسط وجهها البرنزيّ الجميل، وتمهّلت في مشيتها وهي تنفخ في ضجر مصطنع قائلة:

- ماذا تريد!

ولمح انبساط وجهها فلم يعبأ بضجرها، وقال بأمل ورجاء:

- ميلي بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك..

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة إلى الأزهر،

فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحًا. ورجّع رأسها صدى هذه الكلمات «طريق مأمون.. الظلام وشيك»، فأدركت أنّها تقارف فعلًا تحاذر عليه أعين الرقباء، وابتسمت بجانب ثغرها في تحدّ! كانت «الأخلاق» أهون شيء على نفسها المتمرّدة، وقد نشأت في جوّ لا يكاد يتفيّأ ظلّها، أو يتقيّد بأغلالها. وزادها استهانة طَبْع جموح وأمّ مهملة قليلًا ما تستكنّ في بيتها، فانطلقت على سجيّتها تخاصم هذه وتعارك تلك فلا تعمل لشيء حسابًا، ولا تقيم لفضيلة وزنًا. وأمّا عبّاس الحلو فقد لحق بها، وسار لصقها وهو يقول بصوت ينمّ عن الفرح والسرور:

- دمت من فتاة كريمة..!

ولكنّها قالت له في شبه ضجر:

- ماذا تريد منّي؟

فقال الفتى وهو يتمالك أنفاسه المضطربة:

- الصبر طيّب يا حميدة، تلطّفي معي ولا تكوني قاسية عليّ..

فعطفت نحوه رأسها وهي تغطّيه بطرف ملاءتها وقالت بحدّة:

- هلّا قلت لي ماذا تريد!

- الصبر طيّب.. أريد.. أريد كلّ شيء طيّب..

فقالت بتأفّف:

- لا تريد أن تقول شيئًا، ونحن نجدّ في السير فنبتعد عن طريقنا، والوقت يمضي، وأنا لا أستطيع أن أتأخّر عن موعد عودتي..

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة:

- سنعود في وقت قريب فلا تخافي ولا تجزعي. وسنجد عذرًا تنتحلينه لأمّك، إنّك تفكّرين كثيرًا في الدقائق أمّا أنا فأفكّر في العمر كلّه، في حياتنا جميعًا، هذا هو شغلي الشاغل. ألا تصدّقينني؟ إنّه جلّ تفكيري وهمّي وحياة الحسين الذي يبارك هذا الحيّ الطاهر..!

كان يتكلّم في بساطة وصدق فشعرت بحرارة حديثه، ووجدت لذّة في الإصغاء إليه، وإن لم يتحرّك قلبها الجامد، فتناست حيرتها المعذّبة، وألقت إليه بانتباهها، ولكنّها لم تدرِ ماذا تقول فلاذت بالصمت، وتشجّع الفتى فاستدرك قائلًا في انفعال:

- لا تعدّي عليّ الدقائق ولا تلقي عليّ هذا السؤال الغريب. تسألينني يا حميدة عمّا أريد، أتجهلين حقًّا ما أريد قوله؟! لماذا أتعرّض لك في الطريق؟ لماذا أُتبع عينيّ ظلّك حيث تكونين؟ لك ما تشائين يا حميدة. ألم تقرئي شيئًا في عينيّ؟ يقولون إنّ قلب المؤمن دليله؟ فماذا علمت؟ اسألي نفسك. اسألي أهل الزقاق جميعًا، كلّهم يعرفون.

وقطّبت الفتاة وتمتمت وهي لا تدري:

- فضحتني...!

فهاله قولها، وهتف متأثّرًا:

- لا فضيحة في حياتنا وما أكنّ لك إلّا الخير، وهذا الحسين يشهد قولي ويعلم بسريرتي. أنا أحبّك، ولطالما أحببتك، أحبّك أكثر ممّا تحبّك أمّك، وأحلف لك على صدقي بالحسين، وجدّ الحسين وربّ الحسين..

وشعرت بسرور ولذّة، ودخلها زهو تملّق نزوعها الجامح إلى القوّة والسيطرة. والحقّ أنّ كلمات الحبّ الحارّة خليقة بأن تطرب الآذان ولو لم ترجّع القلوب أنغامها، فهي كالأفاويه للنفس المسدودة! بيد أنّ خيالها وثب وثبة قويّة عبر بها قنطرة الحاضر إلى المستقبل، فتساءلت ترى كيف تكون حياتها في كنفه لو صدقت الأيّام أمله؟ إنّه فقير، رزقه كفاف يومه، ولسوف يأخذها من الطابق الثاني لبيت الستّ سنيّة عفيفي إلى الطابق الأرضيّ في بيت السيّد رضوان الحسيني. وأحسن ما يمكن أن تجهّزها أمّها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأواني النحاسيّة. ولا يدّخر لها بعد ذلك إلّا الكنس والطبخ والغسل والإرضاع. وربّما قطعت طريقها حافية في جلباب مرقّع. وريعت كأنّما اطّلعت على مشهد مخيف. وتحرّك في أعماقها هيامها المفرط بالثياب، وتيقّظ ذلك النفور الوحشيّ من الأطفال الذي تعيّرها به نسوة الزقاق. وعاودتها حيرتها المعذّبة، فلم تدرِ أأصابت أم أخطأت في مطاوعتها له وسيرها معه. وكان عبّاس ينعم إليها النظر في افتتان وهيام وأمل، فأوّل صمتها وتفكيرها

على هواه، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده:

ـ لماذا تصمتين يا حميدة!.. كلمة واحدة تشفي الفؤاد وتغيّر الدنيا. كلمة واحدة تكفيني. تكلّمي يا حميدة. اخرجي عن هذا الصمت...

ولكنّها لم تنبس بكلمة، وظلّت فريسة للحيرة، فاستطرد عبّاس قائلًا:

ـ كلمة واحدة تملأ روحي أملًا وسعادة. لعلّك لا تدرين ما فعله حبّك بي! إنّه يبعث فيّ روحًا جديدة لا عهد لي بها! إنّه يخلقني خلقًا جديدًا، ويدفعني لاقتحام الدنيا غير هيّاب. أما علمت هٰذا؟.. لقد استيقظتُ من سباتي، وغدًا ترينني شخصًا جديدًا...

ماذا يعني؟ وانعطف رأسها كالمتسائل. فانشرح صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار:

ـ أجل. توكّلت على الله وسأجرّب حظّي كالآخرين. سألتحق بخدمة الجيش البريطانيّ، وعسى أن يصادفني من التوفيق ما صادف أخاك حسين.

فلاح الاهتمام في عينيها وسألته على غير وعي منها:

ـ حقًّا.. متى يكون ذلك؟

كان يؤثر بلا شكّ أن تحدّثه حديثًا آخر، وأن يلمس انفعالها قبل أن يستثير اهتمامها. أن يسمع هٰذه الكلمة العذبة التي تذوب نفسه شوقًا لسماعها، ولٰكنّه ظنّ هٰذا الاهتمام قناعًا نسجه الحياء ليستر به عاطفة مشبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرّها. واهتزّ صدره فرحًا، وقال مفترّ الثغر:

ـ عمّا قريب أسافر إلى التلّ الكبير، وسأشتغل بادئ الأمر بيوميّة مقدارها خمسة وعشرون قرشًا، وقد أكّد لي جميع الذين استشرتهم في الأمر أنّ هذا المقدار قليل من كثير ممّا يصيب جميع المشتغلين في الجيش. وسأجعل همّي في أن أوفّر من يوميّتي أقصى ما أستطيع توفيره، حتّى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب ـ وهي بعيدة كما يقولون ـ فتحت صالونًا جديدًا في السكّة الجديدة أو شارع الأزهر، واستقبلت حياة رغيدة ننعم بها.. معًا.. إن شاء الله. ادعي لي يا حميدة...

هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال. وإذا كان الفتى جادًّا فقد حقّق لها كثيرًا ممّا تصبو إليه نفسها. وإنّ نفْسًا كنفسها مهما تناهى بها التمرّد والجموح حريّة بأن يروّضها المال ويستأنسها. وغمغم عبّاس معاتبًا:

ـ ألا تريدين أن تدعي لي؟

فقالت بصوت خافت وقع من أذنيه موقعًا جميلًا وإن كان صوتها نقطة ضعف في جمالها:

ـ الله يوفّق خطاك..

فتنهّد مسرورًا وقال:

ـ آمين. استجب لها يا ربّ. ستبسم لنا الدنيا بإذن الله. ارضي أنتِ عليّ ترض الدنيا جميعًا.. أنا لا أسألك شيئًا إلّا الرضا.

وأخذت تخرج من حيرتها رويدًا رويدًا، فقد وجدت في الظلمة التي كانت تتخبّط فيها بصيص نور. نور الذهب اللامع. وإذا كان شخصه لا يرضيها، ولا يحرّك أنوثتها، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذي يستهويها، ويلبّي نزوعها الصارخ إلى القوّة والجاه. وهو بعد هذا كلّه ـ وقبل هذا أيضًا ـ الفتى الوحيد الصالح في الزقاق! أجل، هٰذا حقّ لا ريب فيه. وقد خامرها شعور بالارتياح، وأنصتت إليه وهو يقول:

ـ ألا تسمعينني يا حميدة؟ أنا لا أسألك إلّا الرضا!

فارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة، وغمغمت:

ـ وفّقك الله..

فعاد يقول في ابتهاج:

ـ ليس من الضروريّ أن ننتظر حتّى نهاية الحرب!... سنكون أسعد مخلوقين في الزقاق..

وقطّبت في تقزّز، وندّت عنها هذه الكلمة بلا وعي، وفي ازدراء شديد:

ـ زقاق المدقّ!

فنظر إليها في ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذي يحبّه ويؤثره على الدنيا جميعًا. وتساءل منزعجًا: ترى هل تزدري هٰذا الزقاق الطيّب كأخيها حسن؟ حقًّا لقد رضعا من ثدي واحد! وأراد أن يمحو ما تركه فيها من أثر سيّئ فقال:

ـ نختار المكان الذي تحبين. هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضي، اختاري بيتك حيثما تشائين!

وتنبّهت لقوله في حيرة، وأدركت أنها تكلّمت أكثر ممّا ينبغي، وأنّ لسانها خانها بلا وعي منها، فعضّت على شفتها، ثمّ قالت بإنكار:

ـ بيتي؟! أيّ بيت تعني؟! ما شأني أنا في هذا الأمر!

فهتف بها في عتاب:

ـ كيف تقولين هذا القول؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب؟ ألا تدرين أيّ بيت أعني؟ سامحك الله يا حميدة. أعني البيت الذي سنختاره معًا، بل الذي تختارينه أنت وحدك، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعًا. وإنّي أهاجر في سبيل هذا البيت كما علمتِ. ولقد دعوتِ لي بالتوفيق، فلا مفرّ من الحقيقة السعيدة الرائعة. إتّفقنا يا حميدة وانتهى الأمر.

هل اتّفقا حقًّا؟ أجل اتّفقا! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض في أحلام المستقبل. وماذا يضيرها من ذلك؟ أليس هو فتاها على أيّ حال؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردّد. أحقًّا أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئًا؟ وأحسّت عند ذاك يده تتلمّس راحتها وتقبض عليها وتضفي على أناملها الباردة حرارة ودفئًا. أتنتزعها منه وتقول له «كلّا... لا شأن لي في هذا الأمر!»؟ ولكنّها لم تفعل شيئًا، ولم تنبس بكلمة، ومضيا معًا وراحتها في كفّه الساخنة. وشعرت بأصابعه تشدّ عليها بحنان، وسمعته يقول:

ـ سنتقابل دوامًا.. أليس كذلك؟

وأبت أن تنبس بكلمة، فقنع ببلغة الصمت وقال مرّة أخرى:

ـ سنتقابل كثيرًا، ونزن أمورنا جميعًا. ثمّ أقابل أمّك.. لا بدّ من الاتّفاق معها قبل السفر.

وانتزعت راحتها من يده وهي تصيح في جزع:

ـ سرقنا الوقت، وابتعدنا كثيرًا.. هلمّ إلى العودة..

ودارا على عقبيهما معًا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجّعت بعض أصداء السعادة التي يجيش بها قلبه.

واستحثّا الخطى حتّى بلغا الغوريّة في دقائق، وافترقا عندها، فمالت هي إليها، واتّجه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين...

ـ ١١ ـ

«اللّهمّ عفوك ورحمتك».

نطقت الستّ أمّ حسين بهٰذه العبارة وهي ماضية إلى مسكن السيّد رضوان الحسيني. كانت تسأل الله العفو والرحمة في يأس وغيظ وحنق ممّا تعانيه. أعياها إصلاح زوجها وعجزت عن ردعه، فلم ترَ بدًّا في النهاية من مقابلة السيّد رضوان، لعلّه أن يفلح هو ـ بصلاحه وهيبته ـ فيما أخفقت هي فيه. ولم يكن سبق أن فاتحت السيّد في مثل هٰذا الأمر الفظيع، ولكنّ يأسها من ناحية، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جاهرت بالخصومة والطعان من ناحية أخرى، دفعاها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن لعلّ وعسى! وفي البيت استقبلتها حرم السيّد رضوان فجلسا معًا بعض الوقت. وحرم السيّد في منتصف الحلقة الخامسة من عمرها، وهي حلقة يعتزّ بها نساء كثيرات، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثويّ، ولكنّ المرأة كانت مهزولة مهدّمة، تلوح في جسمها وروحها آثار السهم التي سدّدها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلًا بعد طفل. وكانت لذلك تضفي على بيتها الساكن روحًا من الحزن والكآبة لم يجدِ إيمان السيّد العميق في تبديد غشاوته. وكانت تبدو، في هزالها وحزنها، صورة مناقضة لصورة زوجها القويّ المشرق المطمئنّ البسّام. كانت امرأة ضعيفة فلم يقلْها إيمانها ـ على رسوخه ـ من عثرتها المضنية. وكانت أمّ حسين تعلم بأمرها، فأقبلت تشكو بثّها، وهمّها بقلب مطمئنّ إلى أنّه سيجد أذنًا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان. ثمّ استأذنت في مقابلة السيّد رضوان فغابت المرأة لحظات ثمّ رجعت تدعوها إلى لقائه، وقادتها إلى حجرته.

وكان السيّد يجلس على فروة مسبّحًا، المجمرة أمامه، وإبريق الشاي على يمينه. كانت حجرته الخاصّة

صغيرة أنيقة، تحدق بأركانها الكنبات، ويغطّي أرضها سجّاد شيرازيّ، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رُصّت عليها الكتب الصفر، ويتدلّى فوقها من السقف مصباح غازيّ كبير. وكان السيّد يرتدي جلبابًا رماديًا فضفاضًا، وطاقيّة صوفيّة سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير. في هٰذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيرًا، قارئًا أو مسبّحًا أو متأمّلًا. وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيّين وأئمّة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء، ولم يكن السيّد رضوان معدودًا من العلماء المتفقّهين في الدين، ولا من الأذكياء الأفذاذ، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقاتها، ولٰكنّه كان مؤمنًا صادقًا، وورعًا تقيًّا، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره المسماح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته، فكان بحقّ من أولياء الله الصالحين.

وقد استقبل أمّ حسين واقفًا، غاضًّا بصره، فأقبلت عليه في ملاءتها مبرقعة، وسلّمت عليه بيد ملتفّة بطرف الملاءة كيلا تنقض وضوءه، ورحّب بها الرجل قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا بجارتنا الفاضلة. . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنبة قبالته، وتربّع الرجل على الفروة وراحت أمّ حسين تدعو له:

ـ الله يكرمك يا حضرة السيّد ويطيل عمرك بحقّ جاه المصطفى. .

وكان يحدس ما حملها على مقابلته، فلم يسألها عن صحّة المعلّم زوجها كما تقضي بذٰلك آداب الضيافة! وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلّم كرشة، وتناهى إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة. . فأيقن أنّه أقحم في هٰذا النزاع المتجدّد على غير إرادة. وسلّم للأمر الواقع، وتلقّاه بصدره الرحب كما يتلقّى غيره ممّا يكره، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجّعها على الكلام:

ـ خير إن شاء الله.

لم تكن المرأة تعرف التردّد، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها في يوم من الأيّام، بل هي امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة، ولم تكن امرأة تفوقها مراسًا في الزقاق كلّه إلّا حسنيّة الفرّانة، لذٰلك قالت للسيّد بصوتها الغليظ:

ـ يا سيّد رضوان، أنت الخير والبركة، وأنت رجل زقاقنا الفاضل، لذلك قصدتك أسألك المعونة في شدّتي، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجي. . .

وعلا صوتها في آخر كلامها واخشوشن، فابتسم السيّد مرّة أخرى، وقال بصوت لا يخلو من رنّة الأسف:

ـ هاتي ما عندك يا ستّ أمّ حسين. إنّي مصغٍ إليك. . .

فتنهّدت المرأة وقالت:

ـ الله يرفع قدرك يا زين الرجال: الرجل يا سي السيّد لا يحتشم ولا يرعوي. وكلّما حسبت أنّه قد تاب عن غيّه طلع عليّ بفضيحة جديدة. إنّه رجل فاجر لا يردّه عن شهوة لا سنّ ولا زوجة ولا أبناء. ولعلّك علمت بأمر هٰذا الشابّ الرقيع الذي يوافيه كلّ ليلة إلى القهوة؟! هٰذه هي فضيحتنا الجديدة. .

ولاحت في العينين الصافيتين سيماء الكدر، وأطرق متفكّرًا مغتمًّا. اغتمّ الرجل الذي عجز ألم الثكل المبرّح عن أن ينال من صفاء نفسه، لبث صامتًا ساكنًا، يتعوّذ قلبه من الشيطان وعبثه. واتّخذت المرأة من حزنه مبرّرًا قويًّا لغضبها فانفعلت، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة:

ـ فضحنا الرجل المتهتّك. ووالله لولا عشرة العمر والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبدًا. أيرضيك هٰذا العار يا سي السيّد؟! أيرضيك هٰذا السلوك الشائن؟! لقد نصحته فلم ينتصح، وأنذرته فلم يَرْعَوِ، فلم أجد سبيلًا إلّاكَ. وما كنت أحبّ أن ألقي على سمعك الطاهر هٰذه الأنباء المخجلة، ولٰكن لا حيلة لي، وأنت سيّد الحيّ جميعًا، ورَجُله الفاضل، وأمرك مطاع، فلعلّك بالغ منه ما لم يبلغه كلامي ولا كلام الناس جميعًا، حتّى إذا تبيّن لي أنّ نصحك لا يجدي كان لي

معه شأن آخر. أجل إنّي أداري اليوم غضبي، ولكنّي إذا يئست من صلاحه فسأشبّ النار في الزقاق جميعًا وأجعل من جسده النجس حطامًا لها...!

فحدجها السيّد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف:

- أفرخي روعك يا ستّ أمّ حسين، ووحّدي الله، ولا تغلّبي الغضب على نفسك. أنت ستّ طيّبة! والكلّ يشهد لك بالفضل! فلا تجعلي من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الألسن. الزوجة الطيّبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر، عودي إلى دارك آمنة مطمئنّة، ودعي لي هٰذا الأمر، والله المستعان..

فقالت المرأة وهي تتمالك انفعالها:

- الله يكرمك، الله يسعدك، الله يشرّف قدرك. أنت يا سيّدي الملاذ والمأوى، وسأدع هٰذا الأمر بين يديك وأنتظر، وربّنا بيني وبين هذا الرجل الفاجر...

وسكّن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيّب، وكان كلّما ذكر كلمة طيّبة دعت له المرأة وانهالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفًا من فضائحه. حتّى أوشك صبر الرجل أن ينفد! ثمّ ودّعها مكرّمة وهو يتنهّد من الأعماق! وعاود جلسته متفكّرًا. كان يتمنّى بلا شكّ لو لم يُقحم في هذا الأمر، أمّا وقد وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده. ونادى خادمه، وأمره أن يدعو إليه المعلّم كرشة، فمضى الغلام على عجل. وانتظر ساكنًا، وذكر أنّه يدعو لحجرته - لأوّل مرّة - فاسقًا، فلم يدخلها قبل ذلك إلّا الفقهاء والصوفيّون. وتنهّد من الأعماق ثمّ قال لنفسه: «إنّ مَن يهدي فاسقًا خير ممّن يجالس مؤمنًا». ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقًّا؟ وهزّ رأسه الكبير. واستشهد بقوله تعالى «إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء». ومضى يتعجّب من غواية الشيطان للإنسان، وكيف يشذّ به عن فطرة الله السويّة. ثمّ قطع عليه حبل تأمّلاته دخول خادمه معلنًا حضور المعلّم، فأذن له، ونهض لاستقباله. وجاء المعلّم كرشة بجسمه الطويل النحيل، وألقى على السيّد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلّة واحترام، وانحنى على يده مسلّمًا. ورحّب به السيّد رضوان ودعاه للجلوس، فجلس الرجل في المكان الذي كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيهة، وملأ له قدحًا من الشاي. كان المعلّم آمنًا مطمئنًّا لا يتوجّس خيفة، ولا يدري شيئًا عمّا دعا السيّد إلى استدعائه. والحقّ أنّ من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقد كلّ قدرة على التوجّس والحيطة والحدس. وقد قرأ السيّد في عينيه نصف المغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسمًا:

- شرّفت دارنا يا معلّم.

فرفع المعلّم يديه إلى عمامته وقال:

- شرّف الله قدرك يا سي السيّد.

فقال السيّد:

- لا تؤاخذني على دعوتك في أثناء عملك، فقد رأيت أن أحادثك في أمر هامّ كما يتحادث الإخوان، ولم أجد لذلك مكانًا أنسب من البيت.

فأحنى المعلّم رأسه وقال بأدب جمّ:

- إنّي طوع أمرك يا سي السيّد...

وخاف السيّد الاسترسال في المجاملات فيضيع الوقت سدى، وتطول مدّة غياب المعلّم عن عمله، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردّد، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه الصراحة، فقال بلهجة جدّيّة:

- أحبّ أن أحدّثك كما يتحدّث الإخوان، أو كما ينبغي أن يتحادث الإخوان إذا كان رائدهم المودّة والإخلاص. والأخ المخلص مَن إذا رأى أخًا له يهوي تلقّاه بذراعيه، أو وجده يتعثّر أقاله من عثرته، أو حسبه في حاجة إلى النصح محضه النصيحة...

وفترت حماسة المعلّم، وأدرك في تلك اللحظة فحسب أنّه وقع في فخّ، فلاحت في عينيه المظلمتين نظرة ارتياب، وتمتم في ارتباك وهو لا يدري ماذا يقول:

- نطقت بالحقّ يا سي السيّد..

ولم يخفَ على السيّد شيء من ارتباكه وارتيابه، فقال بلهجة جدّيّة أيضًا لطّفتها نظرته الوديعة الصافية:

- أخي، سأصارحك بما في نفسي فلا تؤاخذني على

صراحة، فما استحقّ الموجدة مَن كان هدفه الإصلاح وباعثه المودّة والإخلاص. والحقّ يا أخي أنّي رأيت في بعض سلوكك ما ساءني، وما لا أعدّه خليقًا بك..

وقطب المعلّم كرشة منزعجًا، وجعل يخاطب السيّد في سرّه قائلًا «ما لك أنت ولهذا!». ثمّ قال متصنّعًا الدهشة:

ـ أساءك سلوكي حقًّا يا سي السيّد؟!.. معاذ الله..

ولم يعبأ السيّد دهشته المتصنّعة واستدرك قائلًا:

ـ إنّ الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتّحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فسادًا، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتّح الأبواب، ونلزمه أن يغلق أبوابه في وجه الشيطان، فماذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم؟!... هذا ما ساءني يا معلّم كرشة...

شباب شيوخ! أبواب مفاتيح! شيطان شياطين! لماذا لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون!؟ وهزّ رأسه حيرة، ثمّ قال بصوت منخفض:

ـ لا أفهم شيئًا يا سيّد رضوان..

وحدجه السيّد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب:

ـ حقًّا؟!

فغمغم المعلّم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف:

ـ حقًّا..

ـ فقال السيّد رضوان بحزم:

ـ حسبتك تعلم ما أعني. والحقّ أنّي أعني هٰذا الشابّ الرقيع.

وسُدّت المنافذ في وجهه، فاحتدم الغيظ في نفسه، ولٰكنّه كالفأر الواقع في المصيدة جعل يتخبّط وراء المنافذ المسدودة، فتساءل بصوت ينمّ عن الهزيمة:

ـ أيّ شابّ يا سي السيّد؟

فقال السيّد بلهجة وديعة متحاميًا إثارته:

ـ أنت تعرفه يا معلّم. وإنّي لم أفاتحك بأمره لأسيء إليك أو أخجلك، معاذ الله، ولكن لأرشدك لما فيه الخير. ما فائدة النكران؟ الجميع يعرفون والجميع يتكلّمون. وهذا لعمري ما آلمني أشدّ الألم، آلمني أن أجدك مضغة الأفواه..

فغلب المعلّم الغضب، وضرب فخذه بقبضة قاسية، وقال بصوت أجشّ تطايرت فظاظته مع نثار ريقه:

ـ ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون! أحقًّا تراهم يتكلّمون يا سي السيّد؟ هكذا هم أبدًا منذ خلق الله الأرض ومَن عليها. إنّهم يخوضون في الأعراض لا لقبح يستقبحون، ولٰكن لينتقصوا إخوانهم. ولو لم يجدوا نقيصة لخلقوها خلقًا ثمّ خاضوا فيها، أتحسبهم يتهامسون تأفّفًا وازدراء؟ كلّا والله. إنّه لحسد يأكل قلوبهم أكلًا...؟

وهال السيّد هذا الرأي، فقال له دهشًا:

ـ يا له من رأي خاسر! أتحسب أنّ هٰذا الفعل الشائن ممّا تُحسد عليه؟!

فتهاتف ضاحكًا وقال بحقد:

ـ لا تشكّ في قولي يا سيّد رضوان! إنّهم طغمة هالكة. وليس الخير مِن رجع في نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنّه سلّم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدري مَن هذا الشابّ؟ إنّه شابّ مسكين أداري بؤسه بالإحسان!!

فضجر السيّد من مراوغته، وحدجه بنظرة كأنّما يقول له «أيجوز هٰذا القول!» ثمّ قال:

ـ يا معلّم كرشة، الغالب أنّك لا تفهمني. أنا لا أحاكمك ولا أعيّرك، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ولٰكن لا تحاول النكران. إذا كان هذا الشابّ مسكينًا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحسانًا؟

ـ ولماذا لا يكون إحساني لهٰذا الشابّ؟ يؤسفني أنّك لا تصدّقني وأنا رجل بريء.

ونظر السيّد إلى الوجه المشرب بالسواد في استياء مكتوم، وقال بتؤدة:

ـ هذا شابّ رقيع سيّئ السمعة، ولقد أخطأت في محاولة خداعي، وكان الأخلق بك أن تقدّر نصحي،

وتواجهني صادقًا صريحًا.

وأدرك المعلّم أنّ السيّد قد استاء وإن لم يلح الاستياء في وجهه، فلاذ بالصمت كاظمًا غيظه، وأخذ يفكّر في الانصراف. ولٰكنّ السيّد استدرك قائلًا:

ـ إنّي أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك، ولست بائسًا من جذبك للخير. اهجر هذا الشابّ إنّه رجس من عمل الشيطان. وتُبْ إلى ربّك إنّه غفور رحيم. لو كنت من الصالحين لكنت الآن من الموسرين، ولٰكنّك تربح كثيرًا وتخسر في بالوعة الرجس كثيرًا، وتبقى على الأيّام فقيرًا معدمًا. فماذا قلت؟

وعدل المعلّم عن المكابرة بصفة نهائيّة، وخاطب نفسه قائلًا إنّه حرّ يفعل ما يشاء، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيّد رضوان الحسيني نفسه! ولكنّه لم يفكّر لحظة واحدة في إغضاب السيّد ولا تحدّيه، فأطبق جفنيه على عينيه المظلمتين، وقال بصوت منكر:

ـ هذا أمر الله!

فلاح الانزعاج في الوجه الصبيح وقال بحدّة:

ـ بل أمر الشيطان! حرام عليك يا شيخ.

فغمغم المعلّم قائلًا:

ـ لما يأمر الله بالهدى!

ـ لا تطع الشيطان يَهدك الله لما فيه صلاحك. اهجر هذا الشابّ أو دعني أصرفه بسلام...

فانزعج المعلّم وغلبه الجزع، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بحزم:

ـ كلّا يا سي السيّد، لا تفعل...

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء، وقال بصوت ينمّ عن الأسى:

ـ أرأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية؟!

ـ ربّنا الهادي؟

وتولّاه اليأس من هدايته، فقال متضجّرًا:

ـ أقول لك للمرّة الأخيرة اهجره أو دعني أصرفه بسلام...

فقال المعلّم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبة كأنّما يهمّ بالنهوض:

ـ كلّا يا سي السيّد. أضرع إليك أن تدع هٰذا الأمر حتّى يأمر الله بالهداية.

فتعجّب السيّد من عناده الوقح، وتساءل متقزّزًا:

ـ ألا يخجلك هٰذا الحرص على هٰذا الفعل الشائن؟!

ونهض المعلّم قائمًا وقد ضاق صدره بالسيّد ووعظه، وهو يقول:

ـ إنّ الإنسان ليقارف أفعالًا كثيرة شائنة، وهٰذا واحد منها، فادعُ لي بالهداية، ولا تغضب عليّ، وتقبّل عذري وأسفي. ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه؟

فابتسم السيّد ابتسامة حزينة، وقال وهو ينهض قائمًا كذٰلك:

ـ يملك كلّ شيء لو أراد، ولٰكنّك لن تفقه معنى لقولي، فالأمر لله.

ومدّ له يده قائلًا:

ـ مع السلامة.

وغادر المعلّم كرشة البيت مقطّبًا مدمدمًا، يسبّ الناس والزقاق والسيّد رضوان.

- ١٢ -

وانتظرت أمّ حسين متصبّرة متجلّدة يومًا ويومين. كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلّة على القهوة ترقّب مقدم الشابّ، فتراه قادمًا يخطر ثمّ تراه مرّة أخرى ـ عند انتصاف الليل ـ وزوجها منصرفين صوب الغوريّة! ابيضّت عيناها من المقت والغضب، وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيّد رضوان هباء؟ وزارت السيّد مرّة أخرى، فهزّ رأسه آسفًا وقال لها «دعيه لحاله حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا»، فرجعت إلى شقّتها تغلي غليانًا، وتتوعّد شرًّا. لم تعد تقيم وزنًا لشماتة الشامتين، وانتظرت بالنافذة حتّى أتى الليل وقدم الشابّ، فتلفّعت بملاءتها وغادرت الشقّة كالمجنونة، ونزلت السلالم وثبًا فكانت أمام القهوة في دقيقة واحدة. كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كلّ ليلة، وكان المعلّم كرشة مكبًّا على صندوق الماركات في شبه نعاس فلم ينتبه

لحضورها. واستقرّ بصرها الزائغ على الشابّ وهو يرشف الشاي من قدح في يده، فاقتربت منه مارّة أمام المعلّم الذي لم يرفع بصره إليها، وضربت القدح بكفّها فاندلق على حجر الشابّ الذي قام فزعًا صارخًا! وصاحت به بصوت كالرعد:

ـ تشرب شايًا يا بن العاهرة!

وأحدقت الأعين بالمرأة سواء مَن يعرفها من أهل الزقاق أو مَن لا يعرفها من بقيّة الجلوس. والتفت نحوها المعلّم كرشة كأنّه يستيقظ بصبّ دلو ماء على وجهه. وهَمَّ بالوقوف، ولكنّ المرأة دفعته في صدره، وهي تصرخ في وجهه وقد أخرجها الغضب عن وعيها:

ـ إيّاك وأن تتحرّك يا فاجر (والتفتت نحو الشابّ واستدركت) ماذا أفزعك يا شاطر؟ يا مرة في ثياب رجل، هلاّ أخبرتني عمّا يدعوك إلى المجيء هنا؟!

ووقف المعلّم كرشة وراء الصندوق وقد ألجم الغضب لسانه، واربدّ وجهه، ولكنّها صاحت في وجهه:

ـ إن حدّثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشّمت عظمك أمام الناس.

واندفعت نحو الشابّ الذي تقهقر حتّى التصق بالشيخ درويش وهي تصيح:

ـ أتريد أن تخرب بيتي يا رقيع يا بن الرقعاء!

فقال لها الشابّ مرتعدًا:

ـ مَن أنت يا ستّي، ماذا فعلت حتّى...

ـ مَن أنا؟ ألا تعرفني؟!... أنا ضرّتك...

وانهالت عليه ضربًا، فسقط طربوشه، وسال الدم من أنفه. ثمّ قبضت على ربطة رقبته وشدّت عليها بعنف حتّى اختنق صوته. وقد ذهل الجلوس، وحملقوا فيما يقع أمامهم بأعين دهشة، ولكنّ قلوبهم رقصت جذلًا، ومنّوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مسلٍّ. في حين دعا صراخ أمّ حسين المعلّمة حسنيّة الفرّانة فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرًا فاه. ثمّ ظهر بعد قليل زيطة صانع العاهات، ولكنّه وقف بعيدًا كأنّه شيطان انشقّت عنه الأرض. ولم تلبث نوافذ البيتين أن فتحت وأطلّت منها الرءوس تستطلع ما هنالك.

وأهاج الغضب المعلّم كرشة، ورأى فتاه يتضوّر ملتويًا، محاولًا عبثًا أن يخلّص عنقه من قبضة المرأة القويّة، فاندفع نحوهما ثائرًا وهو يرغي زبدًا كالفحول، وشدّ على ساعدَي امرأته صائحًا في وجهها:

ـ اتركيه يا مره وكفى فضيحة!

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها، فجنّ جنونها، وتعالى صراخها، وأمسكت بتلابيب المعلّم وهي تصيح:

ـ أتضربني يا فاجر دفاعًا عن رفيقك! اشهدوا يا ناس على الرجل الفاجر!

وانتهز الشابّ فرصة إفلاته فتطاير خارج القهوة، وعدا لا يلوي على شيء. واستمرّت المعركة بين المعلّم وزوجته، هي تشدّ على تلابيبه، وهو يحاول دفعها والتخلّص منها، حتّى نهض إليهما السيّد رضوان الحسيني وخلّص بينهما. وتلفّعت المرأة بملاءتها وهي تلهث، وصرخت بصوت كادت تتصدّع له أركان القهوة:

ـ يا حشّاش، يا مذهول، يا وسخ، يا بن الستّين، يا أبا الخمسة وجدّ العشرين، يا عرة، يا رطل، سفخص على وجهك الأسود...

فحدجها المعلّم بنظرة قاسية وهو ينتفض من الانفعال، وصاح بها:

ـ لِم لسانك يا مره، وسدّي هذا المرحاض الذي يقذفنا بوسخه!

اقطع لسانك، ما مرحاض إلّا أنت، يا خرع، يا مفضوح، يا ظلّ العيال..

فلوّح لها بقبضته وهو يقول:

ـ تخرّفين كعادتك. كيف سوّلت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة؟

فضحكت المرأة ضحكة مروّعة وقالت بسخرية مريرة:

ـ زبائن القهوة؟! العفو! ما قصدت زبائن القهوة بسوء، ولكنّي اعتديت على زبون المعلّم الخصوصيّ!

وتدخّل السيّد رضوان مرّة أخرى، وطلب من المرأة أن تمسك، وأن تعود إلى بيتها، ولكنّها قالت وقد غيّرت نبرات صوتها بجهد شديد:

ـ لن أعود إلى بيت الفاسق ما حييت. . .

فألحّ عليها، وتطوّع عمّ كامل لمعاونته، فقال لها بصوته الرفيع الملائكيّ:

ـ عودي إلى بيتك يا ستّ أمّ حسين. عودي ووحّدي الله واسمعي كلام السيّد رضوان. .

وحال السيّد بينها وبين مغادرة الزقاق، ولم يتركها حتّى رجعت إلى البيت مظهرة السخط والتذمّر. واختفى عند ذاك زيطة، وانسحبت حسنيّة الفرّانة يسبقها زوجها، وقد لكمته في ظهره وهي تقول له:

ـ لا تفتأ تندب حظّك وتقول ما لي أُضرب من دون الرجال جميعًا! أرأيت كيف يُضرب أسيادك وأسياد مَن خلّفوك. . !

وخلّفت جعجعة المعركة صمتًا ثقيلًا. وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة تشي بالخبث والسرور، وكان أشدّ الحاضرين سرورًا وارتياحًا الدكتور بوشي، وهو الذي هزّ رأسه آسفًا وقال في نبرات حزينة:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله، اللّهمّ أصلح الحال. . .

وكان المعلّم «كرشة» لا يزال ملازمًا مكانه ـ الذي باشر فيه المعركة ـ فتنبّه إلى فرار فتاه، وقطّب في عناد، وبدا أنّه يريد اللحاق به، ولكنّ السيّد رضوان ـ وكان غير بعيد عنه ـ وضع يده على كتفه وقال بهدوء:

ـ اقعد يا معلّم واسترح. . .

فنفخ مغيظًا محنقًا، وتراجع متثاقلًا وهو يخاطب نفسه في حقد شديد:

ـ لبؤة، فاجرة، ولكنّ الحقّ عليّ، أنا أستاهل أكثر من هذا، مغفّل مَن لا يبيت امرأته بالعصا. .

وعلا صوت عمّ كامل وهو يقول:

ـ وحّدوا الله يا هوه. .

وارتمى المعلّم كرشة على مقعده. ثمّ أخذه الغضب كرّة أخرى، فثارت ثائرته، وراح يضرب جبهته بكفّ غليظة قاسية صائحًا:

ـ أنا في الأصل مجرم قاتل. وجميع هذا الحيّ عرفني مجرمًا يرتوي بالدماء. أنا مجرم، أنا ابن كلب، أنا وحش، ولكنّي أستاهل كلّ إهانة لأنّي تبت بمحض إرادتي عن الشرّ. (ورفع رأسه) انتظريني يا مره يا وسخة، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأوّل. .

وصفّق السيّد رضوان بيديه وهو يتربّع على الأريكة وخاطب المعلّم قائلًا:

ـ وحّد الله يا معلّم كرشة. نريد أن نشرب الشاي في هدوء!

ومال البوشي على أذن عبّاس الحلو وهمس قائلًا:

ـ لا بدّ أن نصلح بينهما. .

فسأله الحلو بخبث:

ـ بين مَن ومَن؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحًا كالفحيح، وقال:

ـ أتظنّه يعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل؟

فمطّ الحلو بوزه وقال:

ـ إن لم يعد هو جاء غيره!

ثمّ شمل القهوة جوّها المألوف، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب وسمر، وكادت تُنسى المعركة وتذهب آثارها، لولا أن هاج المعلّم كرشة مرّة أخرى، وصاح مرعدًا كالوحوش الضارية:

ـ لا لا. . لا يمكن أن أذعن لإرادة امرأة. أنا رجل، حرّ، أفعل ما أشاء، لتترك البيت إذا شاءت، ولتتسكّع مع الشحّاذين، أنا مجرم. . . أنا من آكلي لحوم البشر. .

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلّم:

ـ يا معلّم، امرأتك قويّة، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال، هي ذكر وليست بأنثى، فلماذا لا تحبّها؟

وصوّب المعلّم نحوه عينين ناريّتين وصاح في وجهه:

ـ اقطع لسانك!

وصاح أكثر من واحد من الجالسين:

ـ حتّى الشيخ درويش!

وولّاه المعلّم ظهره صامتًا، وراح الشيخ درويش يقول

ـ هـذا شرّ قـديم، يسمّـونـه في الإنجليـزيّـة Homosexuality وتهجيتها h o m o s e x u a l i t y ولكنّه ليس بـالحبّ. الحبّ الحقيقيّ لآل البيت. تعـالي يـا حبيبتي.. تعالي يا ستّ.. أنا عاجز يا أمّ العواجز..

ـ ١٣ ـ

كانت مقابلة الأزهر فتحًا جديدًا في حيـاة عبّاس الحلو. عهد الحبّ، شعلة وهّاجة تضطرم في الفؤاد، نشوة سحر تُسكر العقل، شهـوة تصهر الأعصـاب. كان مرحًا مختالًا مزهوًّا، كأنّه فارس لا يشقّ له غبار، أو ثمـل قد أمن عـوادي الخمار. وتقـابلا بعـد ذلك مرّات، فلم يملّا الحديث عن مستقبلهما. أجـل بات مستقبلهما واحدًا، ولم تنكر حميدة ذلك، لا في حضوره ولا في غيابه! ولكن تساءلت: ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنات المشغل بخير منه؟.. وتعمّدت أن تسير معه وقت ظهورهنّ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهنّ الفاحصة وكأنّها ارتاحت إلى ما تركه فيهنّ من أثر. وقد سألنها يومًا عن الشابّ «الذي رأينه معها» فقالت:

ـ خطيبي.. صاحب صالون حلاقة!

وقـالت لنفسها إنّ أيّـة واحدة منهنّ لتعـدّ نفسهـا سعيدة إذا خطبها صبيّ قهوة أو صبيّ حدّاد، وهٰذا صـاحب دكّـان، أوسـطى. وأفنـدي أيضًـا! كـانت مشغولة أبدًا بالموازنة والاختبار والتفكير، فلم تنجذب إلى الدنيا السحريّة التي يهيم في سماواتها. بيد أنّه كان يبلغ بها التأثّر في لحظات منتهاه، فكأنّها كـانت ـ في تلك اللحظات ـ محبّة حقًّا. وفي إحدى هذه اللحظات استوهبها قبلة. فلم تقل لا ولم تقل نعم. أرادت أن تذوق هذه القبلة التي سمعت عنها كثيرًا وتغنّت بهـا كثيرًا. ونظر هو محاذرًا يراقب المارّة، وتحسّس ثغرها في ظلمة المساء. ثمّ وضع شفتيه على شفتيها وهو يرتعد، وغمرتها أنفاسه الملتهبة، فسالت على نحرها وطرفت عيناها.

ثمّ دنـا موعـد سفـره فـرأى أن يخـطو الخـطوات الحاسمة ـ واختار الدكتور بوشي ـ الذي تيسّر له مهنته التردّد على بيوت الزقاق ـ سفيرًا له لدى أمّ حميـدة. وسرّت المرأة بالشابّ الذي تراه الصالح الوحيد لابنتها في الزقاق، وكانت تعدّه دائمًا «صاحب صالون وقـدّ الدنيا»، ولكنّها خافت شماس ابنتها المتمرّدة، وظنّت أنّها مقبلة على معركة طاحنة، فما أدهشها بعد ذٰلك إلّا أن تتلقّى الفتاة الخبر برضا وتسليم ممّا جعلها تهزّ رأسها وتقول:

ـ هٰذا فعل النافذة وراء ظهري!

وكلّف الحلو عمّ كامل بصنع صينيّة بسبوسة فاخرة وإرسالها لأمّ حميدة، واستأذن في مقابلتها، ومضى إليها مصحوبًا بعمّ كامل شريكه في بيته وحياته، وقد وجد عمّ كـامل صعـوبة شـديدة في ارتقـاء السلّم وجعل يتوقّف كلّ درجتين لاهثًا متوكّئًا على الدرابـزين حتّى قال للحلو عند أوّل «بسطة»:

ـ هلّا أجّلت الخطبة لحين عودتك من الجيش؟!

ورحّبت بهما أمّ حميدة. وجلس ثـلاثتهم يتبادلـون طيّب المجاملات، حتّى قال عمّ كامل:

ـ هٰذا عبّاس الحلو ابن زقـاقنا، وابنـك، وابني، يطلب إليك يد حميدة..

فابتسمت المرأة وقالت:

ـ أهلًا بالحلو الذي هو حلو، ستكون ابنتي عنده وكأنّها لم تفارقني..

وتحدّث عمّ كامل عن الحلو وأخلاقه، وعن السـتّ أمّ حميدة وأخلاقها، ثمّ قال:

ـ سيغادرنا الفتى فتـح الله عليه، وقـريبًا تتحسّن حاله فيتمّ له ولنا المراد بإذنه تعالى...

ودعت أمّ حميدة له، ثمّ داعبت عمّ كامل قائلة:

ـ وأنت يا عمّ كامل متى تنوي وتتوكّل على الله!

فضحك عمّ كامل حتّى صار وجهه كالـطماطم في إبّانها، ومسح على كرشه المحيط وقال:

ـ دون ذٰلك هٰذا الحصن المنيع..!

وقرأوا الفاتحة وشربوا الشربات...

ثمّ كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهـر.

ساروا واجمين. والحلو يشعر بدموعه تدقّ أبواب صدره لتجد سبيلًا إلى مجاري عينيه. وقد سألته:

ـ هل تغيب طويلًا؟

فقال الشابّ بصوت رقيق حزين:

ـ ربّما امتدّت خدمتي عامًا أو عامين ولكن لن تفوتني فرصة مناسبة للحضور..

فغمغمت قائلة، وكانت تجد نحوه في تلك اللحظة ودًّا عميقًا:

ـ يا له من زمن!

فابتهج قلبه ـ على أساه ـ لهذه العبارة التي تنمّ عن الجزع، وقال منفعلًا:

ـ هذا آخر لقاء قبل السفر، والله وحده يدري متى يكون اللقاء التالي. وإنّي لفي حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور. أجدني محزونًا لأنّي مبتعد عنك، ثمّ أجدني مسرورًا لأنّ هٰذا الطريق الطويل الذي اخترت هو الطريق الوحيد المفضي إليك. ولكنّي سأترك قلبي ورائي في الزقاق، فتصوّري رجلًا مهاجرًا بلا قلب، رمى به السفر إلى بلد ناءٍ، وأبى قلبه أن يسافر معه. وغدًا في التلّ الكبير، وعند مطلع كلّ صباح، سأفتقد النافذة المحبوبة التي كنت أراك تكنسين حافتها، أو تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعيها، وهيهات أن أجد لها أثرًا. ولقاؤنا في الموسكي والأزهر ماذا يبقى لي منه؟ أوّاه يا حميدة، هذا ما يتقطّع له قلبي. دعيني آخذ منك كلّ ما أستطيع أخذه. ضعي راحتك في يدي، وشدّي على يدي كما أشدّ على يدك. لله ما أطيب مَسّك، إنّه يرعش قلبي، إنّه قلب كبير بين يديك، يا عزيزة، يا حبيبة، يا روح قلبي يا حميدة. ما أجمل اسمك، كأنّي إذا نطقت به أستحلب سكّرًا..

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفّق الحارّ، فلانت نظرة عينيها، وغمغمت قائلة:

ـ أنت الذي اخترت السفر...

فقال بصوت كالنواح:

ـ أنت السبب يا حميدة. أنت أنت السبب. أنا والله أحبّ زقاقنا، وأحمد الله على ما يرزقني به من كفاف. وما أحبّ أن أنأى عن الحسين الذي أقوم وأقعد باسمه. ولكنّي وأأسفاه لا أستطيع أن أهيّئ لك الحياة التي ترضينها، فلم أجد عن السفر مذهبًا. وربّنا يأخذ بيدي، ويجمعنا على أهنأ حال...

فقالت حميدة بتأثّر شديد:

ـ سأدعو لك بالتوفيق، وسأزور سيّدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح. والصبر طيّب، والحركة بركة..

فتنهّد من الأعماق وقال:

ـ أجل الحركة بركة، ولٰكن يا ويلي من بلد لا أجد لك فيه ظلًّا..

فغمغمت برقّة:

ـ لن تكون هكذا وحدك...

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها، ورفع يدها حتّى مسّت قلبه، وهمس:

ـ حقًّا؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الغائمتين على الضوء المنبعث من بعض الدكاكين. وغاب في تلك اللحظة عن كلّ شيء ما عدا وجهها المحبوب، وسالت هذه الكلمات من بين شفتيه:

ـ ما أجملك، ما أرقّك، ما أعذبك! هذا هو الحبّ. إنّه عذب جميل يا حميدة، الدنيا من غيره لا تساوي مليّمًا واحدًا..

ولم تدرِ ماذا تقول فتعوّذت بالصمت، وجرت كلماته متناغمة في أذنيها، فأخذتها نشوة الطرب، وودّت ألّا يسكت أبدًا. وكانت حرارة العاطفة قد أذهلته عن وعيه فراح يقول:

ـ هذا هو الحبّ. هو كلّ ما لنا. فيه الكفاية وفوق الكفاية. هو في القرب السرور. وفي البعد العزاء، وفي الحياة حياة فوق الحياة..

وسكت لحظة متنهّدًا، ثمّ استطرد:

ـ أسافر باسمه، وبفضله أعود وقد ربحت كثيرًا..

فتمتمت وهي لا تدري:

ـ كثيرًا إن شاء الله..

ـ بإذن الله، وببركة الحسين. وسوف يحسدك جميع أولئك الفتيات.

فابتسمت في سرور قائلة:

- آه... ما أمتع هذا!

وانطوى الطريق وهما لا يشعران، فضحكا معًا في فرح، ثمّ دارا على عقبيهما. وأحسّ في العودة أنّ اللقاء يقترب من نهايته، فعاودته أفكار الوداع والفراق، وخبت كثيرًا نشوته، واعتوره الشجن. وعند انتصاف الطريق سألها بلهفة:

- أين أودّعك؟

وأدركت ما يعنيه، وقلقت شفتاها، فقالت متسائلة:

- هنا؟!

ولكنّه اعترض قائلًا:

- لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفًا...

- أين تريد إذًا؟

- اسبقيني على البيت وانتظريني على السلّم...

وحثّت خطاها، وسار هو متمهّلًا فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكاكينه، واتّجه نحو بيت الستّ سنيّة عفيفي لا يلوي على شيء. وارتقى السلّم محاذرًا في ظلمة دامسة، كاتمًا أنفاسه، يدًا على الدرابزين، ويدًا تتحسّس الظلام. وعند «البسطة» الثانية لمست أنامله طرف الملاءة. فخفق قلبه باعثًا الشوق الحبيس في أطرافه، وقبض على ذراعها، واقترب منها في رفق، وأحاطها بذراعيه، ثمّ ضمّها إلى صدره بقوّة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوّق، وهوى إليها بفمه، فوقع على أنفها، ثمّ هبط على شفتيها، وكانتا منفرجتين لاستقباله، وأخذته سنة من ذهول الحبّ لم يستيقظ منها حتّى تخلّصت من ذراعيه بلطف، ومضت مصعّدة وهو يهمس وراءها «مع السلامة». لم يبلغ بها الانفعال يومًا ما بلغه هذا المساء على السلّم. حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة. وحسبت أنّ حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد.

* * *

وزار عبّاس الحلو أمّ حميدة، تلك الليلة، مودّعًا.. ثمّ مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره. وكان حسين يبدو مسرورًا ظافرًا لانتصار رأيه، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذي ينمّ عن التحدّي لسبب ولغير ما سبب:

- ودّع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقيّة...

فابتسم الحلو صامتًا، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة على قلبه لفراق الزقاق الذي يحبّه، والفتاة التي يهيم بها. وجلس بين رفاقه يعاني أشواقه المكتومة، ويتلقّى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء. وقد باركه السيّد رضوان الحسيني. ودعا له طويلًا، وقال له ناصحًا:

- اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتّبك، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير، ولا تنس أنّك من المدقّ، وأنّك إلى المدقّ راجع...

وقال له الدكتور بوشي ضاحكًا:

- ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين، ولا بدّ عند ذاك من خلع أسنانك المسوّسة هذه وتركيب طقم ذهبيّ يليق بالمقام...

فابتسم الحلو، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان، لأنّه هو الذي أسفر بينه وبين أمّ حميدة، ولأنّه هو أيضًا الذي باع له أدوات صالونه بثمن لا بأس به كي ينتفع به في سفره. وكان عمّ كامل واجمًا ساهمًا، يحزّ الفراق الوشيك في فؤاده، ولا يدري كيف يلقى غدًا الوحشة والوحدة، بعد أن يذهب الشابّ الذي شاطره العيش أعوامًا طويلة، والذي أحبّه كأنّه فلذة كبده. وكان كلّما أثنى أحد على الحلو أو توجّع لفراقه اغرورقت عيناه حتّى ضحكوا منه جميعًا.

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسيّ وقال له:

- أصبحت الآن من المتطوّعين في الجيوش البريطانيّة، وإذا أظهرت بسالة فليس بعيدًا أن يُقطِعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصّبك عليها نائب ملك، ومعناها بالإنجليزيّة Viceroy وتهجيتها V i c e r o y ...

* * *

وفي الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملًا بقجة

ثيابه، كان الجوّ باردًا شديد الرطوبة، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلّا الفرّانة وسنقر صبيّ القهوة، ورفع الشابّ رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة، فودّعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطلّ على خصاصها. وسار متمهّلًا مطرقًا حتّى بلغ باب دكّانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهّدًا، وعلّق بصره بلافتة ثبّتت على الباب قد كتب عليها بخطّ كبير «للإيجار» فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا. . . .

وحثّ خطاه كأنّما ليفرّ من عواطفه، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتّى شعر بأنّ قلبه يفارقه إليه. . .

- ١٤ -

كان حسين كرشة الذي أغرى عبّاس الحلو بالخدمة في الجيش البريطانيّ. ولـمّا أن سافر الشابّ إلى التلّ الكبير، وخلا منه الزقاق ـ حتّى دكّانه اكتراها حلّاق عجوز ـ جنّ حسين جنونًا واجتاحته ثورة عنيفة تفور مقتًا للزقاق وأهله. أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله، ويتطلّع لحياة جديدة، ولكنّه لم يستبن سبيله، ولم يعزم عزمة صادقة على تحقيق أحلامه، حتّى ذهب الحلو، فجنّ جنونه. وكأنّما كبر عليه أن يجدّد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القذر، وهو باقٍ فيه لا يدري كيف يتخلّص منه، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلّفه الأمر. وبفظاظته المعهودة قال لأمّه يومًا وقد امتلأ بعزمه حتّى فاض عنه:

ـ أصغي إليّ، لقد عزمت عزمًا لا رجعة فيه، فهذه حياة لا تطاق ولا داعي مطلقًا لتحمّلها قسرًا!

وكانت المرأة آلفة سخطه، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله، وكانت تراه ـ كأبيه ـ سفيهًا لا يصحّ أن تحتفي بهذيانه، فسكتت عنه وهي تغمغم:

ـ اللّهمّ تب عليّ من هذه الحياة!

ولكنّ حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين واربدّ وجهه الضارب للسواد:

ـ هذه الحياة لا تطاق، ولن أحتملها بعد اليوم. . .

ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلًا حيال هياج أحد. فنفد صبرها الرقيق وصاحت به بصوت دلّ على أنّ صوته متوارث عنها:

ـ ما لك؟! ما لك يا بن اللئيم.

فقال الشابّ بازدراء:

ـ لا بدّ من هجر هذا الزقاق.

فحدجته بحنق، وانتهرته قائلة:

ـ أجننت يا بن المجنون!

فشبك ذراعيه على صدره وقال:

ـ بل ثبتُّ إلى رشدي بعد جنون طويل. افهميني جيّدًا، فلست ألقي القول على عواهنه، ولكنّي أعني ما أقول، ولقد جمعت ثيابي في البقجة ولم يبق الآن إلّا أن أستودعك الله. بيت قذر. زقاق نتن، أناس بهائم!

وحدجته بنظرة متفحّصة لتقرأ عينيه، فخبلها عزمه المتوثّب وصاحت به:

ـ ماذا تقول؟

فعاد يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ بيت قذر، زقاق نتن، أناس بهائم. .

فهزّت رأسها ساخرة وقالت:

ـ مرحبًا بك يا بن الأماثل! يا بن كرشة باشا!

ـ كرشة قطران. كرشة المشبوه. أف أف، ألم تعلمي بأنّ فضيحتنا زكمت الأنوف جميعًا؟!. . يغمزونني في كلّ مكان. يقولون هربت أخته مع واحد، وسيهرب أبوه مع واحد آخر!

وضرب الأرض بقدمه حتّى طقطق زجاج النافذة وصرخ غاضبًا:

ـ ماذا يضطرّني إلى البقاء في هذه الحياة؟ سأحمل ثيابي وأذهب إلى غير رجعة.

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت:

ـ جننت والله. أورثك الحشّاش جنونه. ولكنّي سأدعوه ليردّك إلى عقلك.

فصاح حسين باستهانة:

ـ ادعيه. نادي أبي، نادي الحسين نفسه. أنا ذاهب. . ذاهب. . . ذاهب. .

ولـمّا وجدته المرأة جادًّا معاندًا، ذهبت إلى حجرته

فرأت البقجة منتفخة بالثياب كما قال، فتولّاها القنوط، وصمّمت على إحضار أبيه مهما تكن العواقب. كان حسين عزاءها الوحيد في حياتها، ولم تكن تتصوّر أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة، ولم تستطع مغالبة قنوطها، وأرسلت في طلب أبيه وهي تصيح نادبة حظّها «علام يحسدوننا؟... على خيبتنا القويّة!.. على فضائحنا!... على شقائنا!». وجاء المعلّم كرشة بعد قليل مكشّرًا عن أنيابه، وانتهرها قائلًا:

ـ ماذا تريدين؟ فضيحة جديدة؟ زبون جديد رأيتني أقدّم له الشاي!

فقالت المرأة ملوّحة بيدها كالنادبة:

ـ فضيحة ابنك! أدركه قبل أن يهجرنا، فقد ضاق بنا ذرعًا!

فضرب المعلّم كفًّا بكفّ وقال وهو يهزّ رأسه مغيظًا محنقًا:

ـ أمن أجل هٰذا أترك عملي يا هوه!.. أمن أجل هذا أصعد مائة درجة؟ آه يا أولاد الكلب، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم؟!

وجعل يردّد بصره بين الأمّ وابنها واستطرد قائلًا:

ـ ربّنا ابتلاني بكما ليقتصّ منّي. ما هذا الذي تقوله أمّك؟

ولزم حسين الصمت. وراحت أمّه تقول بهدوء ما وسعها الصبر:

ـ هدّئ روعك يا معلّم، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك. لقد جمع ثيابه في بقجة، وينوى مغادرتنا..

فسدّد نحوه نظرة حقد وغضب، وهو بين مصدّق ومكذّب، وقال كالمتسائل:

ـ جننت يا بن القديمة!

وكانت أعصاب المرأة متوتّرة فلم تملك أن صاحت به:

ـ دعوتك لتعقّله لا لتشتمني..

فالتفت نحوها غاضبًا وهو يقول:

ـ لولا جنونك الموروث لما شبّ ابنك مجنونًا...

ـ الله يسامحك. أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا، واسأله عمّا خالط عقله؟!

وحدج ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه:

ـ ما لك لا تتكلّم يا بن القديمة! هل تروم حقًّا مغادرتنا؟

وكان الفتى يتحامى أباه عادة، ولا يصطدم به إلّا إذا ضاقت به السبل. ولكنّه كان قد عزم عزمًا صادقًا على نبذ ماضيه مهما كلّفه الأمر، فلم يتردّد ولم يتراجع، خصوصًا وأنّه كان يرى مسألة إقامته في البيت أو مغادرته من صميم حقّه الذي لا ينازعه فيه منازع، فقال بهدوء وعزم معًا:

ـ نعم يا أبي..!

فسأله الرجل وهو يعاني خناق غيظه:

ـ ولماذا؟

فتفكّر الشابّ قليلًا ثمّ قال:

ـ أريد أن أحيا حياة أخرى...

فقبض الرجل على ذقنه، وهزّ رأسه ساخرًا وقال:

ـ فهمت.. فهمت. تريد حياة أخرى تناسب المقام! لأنّ كلبًا مثلك نشأ محرومًا جائعًا، يجنّ إذا امتلأ جيبه. وأنت الآن صاحب قرش إنجليزيّ، فمن الطبيعيّ أن ترتاد حياة أخرى، تليق بمقامك العالي يا بن قنصل الأوز!

فكظم حسين غيظه وقال:

ـ لم أكن كلبًا جائعًا قطّ، لأنّي نشأت في بيتك، وبيتك لم يعرف الجوع أبدًا والحمد لله. وكلّ ما في الأمر أنّي أريد أن أغيّر حياتي، وهذا حقّي لا مراء فيه، ولا داعي مطلقًا لغضبك وسخطك.

ولم يفهم المعلّم مراده، كان الشابّ يتمتّع بحرّيّة مطلقة، فلا يُسأل عمّا يفعل، فلماذا يريد أن ينشئ لنفسه بيتًا خاصًّا؟ وكان المعلّم، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام، يحبّه. ولكنّه حبّ لم يظفر قطّ بالجوّ الذي يستطيع أن يتنفّس فيه، وغشيته دائمًا غواشي الغيظ والحنق والسباب، ولطالما نسي كثيرًا أنّه يحبّ ابنه الوحيد. وحتّى في هذه

الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبّه وإشفاقه تحت ستار الغضب والحنق، وتمثّل له الأمر تحدّيًا وعراكًا. ولذلك سأله في تهكم مرّ:

ـ نقودك في جيبك، تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمّارون والحشّاشون والقوّادون، هل سألناك مليّمًا؟

ـ أبدًا.. أبدًا أنا لا أشكو هذا مطلقًا..

فتساءل المعلّم بنفس اللهجة المرّة:

ـ أمّك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلّا التراب، هل أخذت منك مليّمًا؟

فقطّب حسين ضجرًا وقال:

ـ قلت إنّي لا أشكو هذا. كلّ ما في الأمر أنّي أريد حياة غير هذه الحياة. إنّ كثيرين من زملائي يقطنون في بيوت فيها الكهرباء!

ـ الكهرباء!! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك؟!.. الحمد لله على أنّ أمّك بفضائحها قد جعلت بيتنا أحمى من الكهرباء..

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة:

ـ مظلومة والله يا ربّي ظلم الحسن والحسين...

واستدرك حسين قائلًا:

ـ إنّ زملائي جميعًا يحيون حياة جديدة، وقد انقلبوا جميعًا جنتلمان كما يقول الإنجليز.

ففغر المعلّم فاه، فانفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنانه الذهبيّة وقال:

ـ ماذا تقول؟

فلزم الفتى الصمت مقطّبًا، واستدرك المعلّم:

ـ جلمان؟!!. ما هذا؟.. صنف حشيش جديد؟!

فقال حسين متذمّرًا:

ـ أعني رجلًا نظيفًا..!

ـ ولكنّك وسخ، فكيف تريد أن تكون نظيفًا.. يا جلمان!

وضاق حسين بتهكّم أبيه فقال منفعلًا:

ـ أبي، أريد أن أحيا حياة جديدة، هذا كلّ ما هنالك، وسأتزوّج من بنت ناس!

ـ بنت جلمان!

ـ بنت ناس طيّبين.

ـ ولماذا لا تتزوّج بنت كلب كما فعل أبوك؟!

فتأوّهت أمّ حسين قائلة:

ـ الله يرحمك يا أبي كنت فقيهًا وقورًا.

فالتفت نحوها بوجهه المربدّ وقال:

ـ فقيه!.. كان قارئ قبور، يتلو السورة بمليمين!

فقالت المرأة متوجّعة:

ـ كان يحفظ كلام الله وكفى...

تحوّل عنها المعلّم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع، وسأله بصوت مخيف:

ـ حسبنا كلامًا، فليس لديّ من وقت أضيّعه بين مجانين. أتريد حقًّا أن تترك هذا البيت؟!

فلمّ حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب:

ـ نعم.

فأدام المعلّم النظر إليه مليًّا، ثمّ ثارت ثائرته بغتة، فضربه براحته على وجهه. ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقّاها بحنق جنونيّ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح:

ـ لا تضربني، لا تمسسني، لن تراني بعد اليوم.

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة، وتلقّت لكماته على صدرها ووجهها، حتّى كفّ الرجل وهو يصرخ:

ـ اغرب عنّي بوجهك الأسود! ولا تعد أبدًا. سأفرض أنّك متّ واندلقت في الجحيم.

جرى الفتى إلى حجرته، وتناول البقجة، ونزل السلّم وثبًا، وقطع الزقاق لا يلوي على شيء، وقبل أن يعدل إلى الصنادقيّة بصق عليه. وهتف بصوت مرتعش من الحنق:

ـ غرّ.. انجحر، لعنة الله عليك وعلى أهلك.

ـ ١٥ ـ

سمعت الستّ سنيّة عفيفي طرقًا على الباب، ففتحته، فرأت في فرح لا يوصف ـ وجه أمّ حميدة يطالعها بصفحته المجدورة، وهتفت من الأعماق:

ـ أهلًا وسهلًا بالحبيبة.

وتعانقتا عناقًا حارًا ـ أو هكذا بدا على الأقل ـ وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهي تأمر الخادم بصنع القهوة، وجلستا على كنبة متلاصقتين، واستخرجت من علبة سيجارتين، وجعلتا تدخنان في انبساط وسرور. وكانت الستّ سنيّة تكابد آلام الترقّب والانتظار مذ وعدت أمّ حميدة بالبحث لها عن زوج. ومن عجب أنّها صبرت على العزوبة أعوامًا طوالًا ولٰكنّها لم تستطع مع فترة الانتظار ـ على قصرها ـ صبرًا. واعتادت في هٰذه الفترة أن تتردّد على زيارة أمّ حميدة دون انقطاع طويل، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء، وما انفكّت تعدها وتمنّيها، حتّى أيقنت الستّ سنيّة أنّ المرأة تسوّف وتماطل حتّى تظفر منها بأكبر نفع مرجوّ. ومع ذلك كانت معها جوّادة كريمة، فأعفتها من دفع إيجار الشقّة، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيروسين، ونصيبها من الأقمشة الشعبيّة، غير صينيّة بسبوسة كلّفت عمّ كامل بصنعها لها. ثمّ آذنتها المرأة بخطبة عبّاس الحلو لابنتها حميدة! وتظاهرت الستّ سنيّة بالسرور، ولكنّ الخبر وقع من نفسها موقعًا مقلقًا، وتساءلت ترى هل تضطرّ إلى المساهمة في تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهّز نفسها؟! هٰكذا تنازعها الخوف من أمّ حميدة والتودّد إليها طوال فترة الانتظار. وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عمّا عسى تتمخّض عنه زيارتها هٰذه: وعود وأمانيّ كالعادة أم البشرى التي يتلهّف قلبها عليها؟! وراحت تداري اضطرابها بشجون الحديث، فكانت ـ على غير المألوف ـ المحدّثة وأمّ حميدة المنصتة. تكلّمت عن فضيحة المعلّم كرشة، ومغادرة ابنه حسين لبيته، وانتقدت أمّ حسين في تصرّفاتها الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذّ، ثمّ تدرّج الحديث إلى عبّاس الحلو، فأثنت عليه قائلة:

ـ أنعِمْ به من شابّ طيّب! سيفتح الله عليه ويرزقه، ويمكّنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي نستأهل كلّ خير.

وابتسمت أمّ حميدة عند ذاك وقالت:

ـ الشيء بالشيء يذكر. اعلمي أنّي حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس!

وخفق فؤادها بعنف. وذكرت كيف حدّثها قلبها بأنّ زيارة اليوم خطيرة، وبأنّ المرأة تطوي صدرها على سرّ تضنّ به إلى حين. وتورّد وجهها، وجرى في عوده الذابل ماء شباب، ولٰكنّها تمالكت نفسها وقالت في حياء مصطنع:

ـ واخجلتاه! ماذا تقولين يا ستّ أمّ حميدة!

فقالت المرأة وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح:

ـ أقول إنّي حاضرة لأخطبك يا ستّ الناس!

ـ حقًّا! يا له من أمر خطير! أجل أذكر ما تمّ الاتّفاق عليه، ولٰكن لا يسعني إلّا أن أضطرب، وأن أخجل أيضًا، واخجلتاه!

فجارتها أمّ حميدة في تمثيلها وقالت محتجّة:

ـ حاشا الله أن تخجلي لغير ما عيب أو نقيصة، ولٰكنّك تتزوّجين على شرع الله وسنّة الرسول. . .

فتنهّدت الستّ سنيّة، تنهّد مَن يُدفع إلى التسليم على غير إرادته، وقد رنّ قول الأخرى لها «ستتزوّجين» رنينًا حلوًا محبوبًا في أذنيها. أمّا أمّ حميدة فقد أخذت نَفَسًا طويلًا من سيجارتها، وهزّت رأسها هزّة الثقة والاطمئنان وقالت:

ـ موظّف. . .

ودهشت الستّ سنيّة، ونظرت إلى محدّثتها بعينين لا تكادان تصدّقان. موظّف!! إنّ الموظّف فاكهة محرّمة على زقاق المدقّ! وتساءلت قائلة:

ـ موظّف؟

ـ أي نعم موظّف!

ـ في الحكومة؟!

ـ في الحكومة!

وسكتت أمّ حميدة هنيهة لتستمع بظفرها، ثمّ استطردت:

ـ في الحكومة، وفي قسم البوليس بالذات. . !

فازداد عجب الستّ وقالت متسائلة:

ـ وماذا يوجد في القسم غير الضابط والعساكر؟!

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت:

ـ يوجد موظّفون أيضًا. اسأليني أنا. أنا أعرف الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات. هذه مهنتي، يا ستّ!

فقالت الستّ سنيّة بدهشة يخالطها سرور لا يصدّق:

ـ هو أفندي إذًا!!

ـ أفندي بسترة وبنطلون وطربوش وحذاء!

ـ الله يشرّف قدرك يا ستّ أمّ حميدة.

ـ إنّي أختار الطيّب للطيّب، وأعرف لكلّ إنسان قدره. ولو كان في أقلّ من الدرجة التاسعة ما وقع اختياري عليه..

فتمتمت الستّ سنيّة متسائلة:

ـ الدرجة التاسعة؟

ـ الحكومة درجات. ولكلّ موظّف درجة. والتاسعة إحدى هذه الدرجات. ولكنّها درجة ولا كلّ الدرجات يا حبيبتي!

فقالت الستّ وعيناها تتألّقان سرورًا:

ـ دمت من صديقة محبّة عزيزة!

فاستدركت أمّ حميدة تقول بصوتها الواشي بالظفر والثقة:

ـ يجلس إلى مكتب كبير، تتكدّس عليه الملفّات والأوراق للسقف والقهوة داخلة خارجة، هذا يرجوه وهذا يسأله، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك، العساكر تحيّيه، والضبّاط تحترمه..

فابتسمت الستّ سنيّة، ولاحت في عينيها نظرة أحلام، وواصلت أمّ حميدة الحديث قائلة:

ـ مرتّبه عشرة جنيهات لا تنقص مليّمًا.

وصدّقتها الستّ سنيّة فهتفت قائلة:

ـ عشرة جنيهات!

فقالت المرأة ببساطة:

ـ هذا قليل من كثير، وما مرتّب الموظّف إلّا بعض رزقه، وبالحذق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه، ولا تنسي علاوة الغلاء، وعلاوة الزواج، ثمّ علاوة الأطفال.

فضحكت الستّ ضحكة عصبيّة وصاحت:

ـ سامحك الله يا ستّ أمّ حميدة، ما لي أنا والأطفال!

ـ ربّك قادر على كلّ شيء...

ـ نحمده ونشكر فضله على أيّ حال.

ـ أمّا عمره فثلاثون عامًا..

فصاحت الستّ في إنكار:

ـ ربّاه! أكبره بعشرة أعوام!

ولم يخف على المرأة أنّها تناست عشرة أعوام من عمرها، ولكنّها قالت في لهجة تنمّ عن العتاب:

ـ لا زلت شابّة يا ستّ سنيّة! ومع ذلك فقد صارحته بأنّك في الأربعين ووافق مسرورًا..

ـ أرضي حقًّا؟!.. ما اسمه؟!..

ـ أحمد أفندي طلبة من أهل الخرنفش. وابن الحاجّ طلبة عيسى صاحب المقلة بأمّ الغلام، أسرة طيّبة تنحدر من صلب سيّدنا الحسين..

ـ أسرة طيّبة حقًّا، وأنا شريفة أيضًا كما تعلمين يا ستّ أمّ حميدة..

ـ أعلم هذا يا حبيبتي. وهو لا يتحرّى إلّا الأخلاق الطيّبة، ولولا هذا لتزوّج من عهد طويل، ولكنّه يزدري بنات اليوم وينقم عليهنّ قلّة الحياء. ولـمّا أن حدّثته عن أخلاقك واحتشامك، وقلت له إنّك سيّدة شريفة وصاحبة قرش، سرّ سرورًا لا مزيد عليه، وقال لي هذه طلبتي، بيد أنّه سألني شيئًا واحدًا لا يخرج عن حدود الأدب، وهو أن يرى صورتك!

فتورّد الوجه النحيل، وقالت بإشفاق:

ـ والله ما صوّرت منذ أمد بعيد..

ـ أليس لديك صورة قديمة؟

فأومأت الستّ إلى صورة على منضدة وسط الحجرة دون أن تنبس بكلمة، فانحنت المرأة قليلًا وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحّصة. كانت صورة يرجع تاريخها إلى ما قبل ستّة أعوام، وكانت صاحبتها وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة، فردّدت المرأة بصرها بين الصورة والأصل، ثمّ قالت جازمة:

ـ طبق الأصل، كأنّها صوّرت بالأمس القريب...

فتهدّج صوت المرأة وهي تقول:

ـ الله يحلّي دنياك. . .

وأودعت جيبها الصورة بإطارها، وأشعلت سيجارة أخرى قُدّمت لها، ثمّ قالت بلهجة رزينة:

ـ ولقد تحدّثنا طويلًا فعرفت أمورًا عمّا في مرجوّه. . .

ولحظتها الستّ بنظرة حذرة لأوّل مرّة، وانتظرت أن تواصل حديثها فلمّا أن طال الصمت، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة:

ـ ترى ماذا في مرجوّه؟

أتجهل حقًّا أم تظنّه يريد الزواج منها حبًّا في سواد عينيها؟ واغتاظت المرأة قليلًا، بيد أنّها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلًا:

ـ أظنّ ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك. . ؟

وفهمت الستّ سنيّة المقصود لأوّل وهلة، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقًا، ويرغب ولا شكّ في أن يترك لها وحدها عبء الجهاز، ولم يكن ذٰلك ليغيب عنها من أوّل الأمر، منذ تملّكتها الرغبة في الزواج. وسبق أن لّمحت أمّ حميدة إلى هٰذا في ثنايا أحاديثها فلم تفكّر قطّ في الاعتراض عليها. فقالت بلهجة تنمّ عن التسليم:

ـ ربّنا المعين.

فابتسمت أمّ حميدة وقالت:

ـ نسأل الله التوفيق والسعادة. . .

ونهضت المرأة تريد الانصراف، فتعانقتا عناقًا حارًّا، وسارت الستّ في توديعها حتّى الباب الخارجيّ، ووقفت مرتفقة الدرابزين وأمّ حميدة تنزل السلّم إلى شقّتها، وقبل أن تغيب عن ناظريها هتفت بها:

ـ مع ألف سلامة. قبّلي عنّي حميدة. . .

ثمّ عادت إلى حجرتها بقلب فتيّ، ابتعث حرارته الأمل الجديد. وجلست تستعيد ما قالت أمّ حميدة جملة جملة وكلمة كلمة. كانت الستّ سنيّة على شيء من الحرص ولكنّه ليس الحرص الذي يقف عثرة في سبيل سعادتها. أجل فطالما آنس المال وحدتها، سواء ذاك الذي تحفظه في صندوق التوفير أو هذا الذي تتملّاه رزمًا جديدة بديعة في صندوقها العاجيّ، ولكن لا هذا ولا ذاك بمُغْنٍ عن الرجل الخطير الذي سيصبح بإذن الله بعلًا لها. ولكن هل تعجبه الصورة؟ وتورّد وجهها حتّى أحسّت بحرارة دمها تلفح جبينها. ونهضت إلى المرآة تعاين صورتها وجعلت تحرّك وجهها يمنة ويسرة حتّى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبّتته عليه، وأنعمت في الصورة النظر، ولاح في وجهها شيء من الرضا، وغمغمت برجاء «ربّنا يستر». ثمّ عادت إلى جلستها وهي تقول «المال يغطّي العيوب» ألم تقل له المرأة إنّها صاحبة قرش؟! وإنّها لكذلك. وليست الخمسون بسنّ اليأس، فلا يزال أمامها عشرة أعوام، وكم من امرأة في الستّين تستطيع أن تتمتّع بالسعادة إذا كفاها الله شرّ الأمراض. والزواج كفيل بريّ العود الذابل، وبعث الجسد الخامد. هكذا سرحت مع أفكارها الورديّة حتّى اعترض تيّارها الصافي زبد متلبّد، فقطّبت فجأة، وتساءلت مغيظة: ترى ماذا يقول الناس غدًا؟ آه، إنّها تعرفهم حقّ المعرفة، وستكون أمّ حميدة نفسها في طليعة المتقوّلين. سيقولون لقد جنّت الستّ سنيّة، ويقولون امرأة في الخمسين تتزوّج من ابن في الثلاثين، وسوف يتحدّثون طويلًا عن المال الذي يُصلح ما أفسد الدهر، وربّما قالوا غير هذا وذاك كثيرًا ممّا لا يخطر لها ببال. فليقولوا ما شاء لهم القول. وهل كانوا أعتقوها من شرّ ألسنتهم وهي أرملة؟! وهزّت الستّ كتفيها استهانة، ثمّ دعت ربّها من الأعماق قائلة:

ـ اللّهمّ احفظني من شرّ العين. . .

ثمّ خطر لها خاطر سرعان ما رحّبت به، وصدقت نيّتها على تنفيذه، وهو أن تذهب إلى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع، وتستوهبها بعض الرقى، فما أحوجها في حالتها هٰذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع.

ـ ١٦ ـ

ـ ماذا أرى؟! إنّك لرجل وقور!

قال زيطة ذلك وهو يتفرّس وجه رجل عجوز

منتصب القامة، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة.. كان رثّ الجلباب، نحيل الجسد، ولكنّه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات، كبير الرأس أبيض الشعر، مستطيل الوجه، له عينان هادئتان خاشعتان، كأنّه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتقاعدين. وراح زيطة يتفحّصه بدهشة وأناة على ضوء المصباح الخافت، ثمّ عاد يقول:

ـ إنّك لرجل وقور، أترغب في امتهان الشحاذة حقًّا؟!

فقال الرجل بصوت هادئ النبرات:

ـ أنا شحّاذ بالفعل ولكنّي غير موفّق..

فتنحنح زيطة، وبصق على الأرض، ومسح شفتيه بكمّ جلبابه الأسود، وقال:

ـ إنّك أرقّ من أن تحتمل أيّ ضغط شديد على أعضائك. والحقّ أنّه لا يصحّ التقدّم لاتّخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء! وكلّما كان العظم طريًّا ضَمِنَ الشحّاذ عاهة في حكم المستديمة حقًّا، وأنت شيخ كبير على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك؟

ومضى يفكّر. وكان إذا اعتراه الفكر فغر فاه وأرعش لسانه فلاح في فمه كرأس أفعى. ثمّ ومضت عيناه البرّاقتان بغتة وصاح:

ـ الوقار أنفس عاهة!

فسأله الرجل متحيّرًا:

ـ ماذا تعني يا أستاذ؟!

فانكفأ وجه زيطة غضبًا وصاح به محتدًّا:

ـ أستاذ؟! أسمعتني أقرأ على القبور؟

فدهم غضبه الرجل، وبسط راحتيه مستعطفًا وقال بصوت منكسر:

ـ معاذ الله... ما قصدت إلّا تبجيلك..

فبصق زيطة مرّتين وقال منفعلًا في زهو وعجب:

ـ إنّ عملي ليعجز أعظم أطبّاء البلد لو حاولوه. ألا تعلم أنّ إحداث عاهة كاذبة أشقّ من إحداث عاهة حقيقيّة ألف مرّة؟.. إنّ عاهة حقيقيّة لا تستقضيني أكثر من أن أبصق على وجهك...

فقال الرجل بأدب جمّ:

ـ لا تؤاخذني يا سيّدي، إنّ الله غفور رحيم...

وسكت الغضب عن زيطة، وحدج الرجل بنظرة حادّة، ثمّ قال بصوت لم تمح منه بعض آثار الحدّة:

ـ قلت إنّ الوقار أنفس عاهة..

ـ كيف يا سيّدي؟

ـ الوقار كفيل بأن يكتب لك النجاح كشحّاذ نادر المثال.

ـ الوقار يا سيّدي؟!

فمدّ زيطة يده إلى كوز على الرفّ، واستخرج منه نصف سيجارة، ثمّ أعاده إلى موضعه، وأشعلها من فوهة زجاجة المصباح، وأخذ نفسًا طويلًا وهو يضيّق عينيه البرّاقتين، وقال بهدوء:

ـ ليست العاهة بمطلبك. بل أنت في حاجة إلى مزيد من التحسين والتجميل. اغسل جلبابك جيّدًا، واحصل بأيّة طريقة على طربوش نصف عمر، وامشِ بقامتك المعتدلة هذه في خشوع وأدب، واقترب في إشفاق من روّاد المقاهي، ثمّ قف في حياء، ومدّ يدك في تألّم دون أن تنبس بكلمة. وتكلّم بعينيك، ألا تعرف لغة الأعين؟.. ستحدّق فيك العيون بدهشة، سيقولون عزيز قوم ذلّ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحّاذين المحترفين. أفهمت الآن ما أريد؟ ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهاتهم...

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد، ووقف يراقبه مدخّنًا سيجارته، وتفكّر قليلًا ثمّ قال مقطّبًا:

ـ ربّما سوّلت لك نفسك أن تأكل أجري بحجّة أنّي لم أصنع لك عاهة تستحقّ الأجر، وأنت حرّ تفعل ما تشاء، على شرط أن تولي وجهك وجهة غير حيّ الحسين العامر.

فتعوّذ الرجل في إنكار وقال متألّمًا:

ـ حاشاي أن أخون صاحب الفضل عليَّ...

وانتهت المقابلة عند ذاك، فسار زيطة بين يدي الرجل ليدلّه على الطريق، ووصّله حتّى الباب الخارجيّ للفرن، وفي أثناء عودته لاحظ أنّ المعلّمة

حسنيّة متربّعة على حصيرة بمفردها، وليس لجعدة من أثـر، وكان من عـادته إذا التقى بهـا أن يخلق سببًـا لمبادلتها كلمة أو كلمتين، توددًا إليها، وإفصاحًا عن إعجابه الكمين، فقال لها:

ـ أرأيت هذا الرجل؟

فقالت المعلّمة حسنيّة بغير مبالاة:

ـ طالب عاهة، أليس كذلك؟

فضحك زيطة وراح يقصّ عليها قصّته، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته ثمّ اتّجه نحو الباب الخشبيّ القصير الذي يؤدّي إلى مأواه، وتردّد على عتبته لحظة ثمّ سألها:

ـ أين جعدة؟

فأجابته المرأة:

ـ في الحمّام..

وظنّ الرجل لأوّل وهلة أنّها تسخر منه لقذارته المعروفة، فرمقها بحذر ولكنّه وجدها جادّة. فأدرك أنّ جعدة قد ذهب إلى حمّام الجماليّة، وهو ما يفعله مرّتين في العام، وأنّه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب. فحدّثته نفسه بأن يجالس المعلّمة قليلًا، متشجّعًا بما أثارته قصّته من سرور. وجلس على عتبة بابه مستندًا إلى مصراع الباب مادًّا ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم، غير عابئ بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتها في عينيها. وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقيّة أهل الزقاق، غير كلمات يتبادلانها في ذهابه أو إيابه، بوصفها مالكة مأواه. ولم تكن تشكّ في أنّ علاقته بها تنقطع عند هذا الحدّ، ولم يَدُرْ لها بخلد أنّه يطّلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها. ولكنّ مخلوقًا كزيطة لا يعدم أن يجد منفذًا في الجدار بينه وبين الفرن يطّلع منه على ما يروي غلّته المتطفّلة، وأحلامه البهيميّة. فصار وكأنّه واحد من هذه الأسرة، يشهد عملها وراحتها، ويلذّه بوجه خاصّ أن يرى المعلّمة وهي تكيل الضرب لبعلها لأقلّ هفوة. وما أكثر هفوات جعدة التي يقع فيها كلّ يوم ويعاقب عليها كلّ يوم، حتّى بات الضرب من غذائه اليوميّ، يتلقّاه تارة في تصبّر وتجلّد، وتارة في بكاء وصراخ وعواء. وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة في أثناء خبزها، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات، أو يبتاع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي يحصّله من البيوت، ولا يتورّع عن ارتكاب هذه الجرائم يومًا بعد يوم، دون توفيق في طمس معالمها، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة. وكان زيطة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعتهه. وأعجب من هذا أنّه ـ زيطة ـ كان يستقبحه ويهزأ بصورته! كان جعدة طويل القامة لحدّ مفرط، طويل الذراعين، ممطوط الفكّ الأسفل، غائر العينين، غليظ الشفتين. ولطالما حقد عليه زيطة تمتّعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة، ولذلك مقته واحتقره، وتمنّى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصواني. ولذلك أيضًا سرّه أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلّمة قليلًا، فجلس ومدّ ساقيه، غير عابئ بما يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار. ولم تتردّد المعلّمة حسنيّة بجرأتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ:

ـ ما لك جلست هكذا؟

فقال زيطة لنفسه «اللّهمّ ارفع غضبك ومقتك عنّا» ثمّ قال لها بلطف وتودّد:

ـ أنا ضيف يا معلّمة، والضيف لا يهان...

فقالت بتقزّز:

ـ ولماذا لا تنجحر وتريحني من وجهك؟

فقال زيطة برقّة مبتسمًا عن أنيابه الوحشيّة:

ـ لا يمكن أن يقضي الإنسان حياته كلّها بين الشحاذين والقاذورات والديدان، ولا مفرّ من أن يتطلّع لمنظر أبهج وأناس أفضل.

فانتهرته بعنف قائلة:

ـ يعني لا مفرّ من أن يؤذي الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة!... أف... أف... انجحر وأغلق الباب وراءك!

فقال زيطة بخبث:

ـ ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفظع وروائح أخبث.

وأدركت المعلّمة أنّه يُلمّح إلى زوجها، فاربدّ وجهها وقالت بلهجة تنمّ عن الوعيد:

ـ ماذا تعني يا أخا الديدان!؟

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة:

ـ أخونا الفاضل جعدة. . .

فصاحت به بصوت مخيف:

ـ حذار يا بن اللئيمة. لو بلغتك يديّ شطرتك اثنين. .

ولم يتعام الرجل عن الخطر المائل أمامه فقال مستعطفًا:

ـ قلت إنّي ضيف يا معلّمة، والضيف لا يهان. ثمّ إنّي لم أعرّض بجعدة إلّا بعد أن ثبت لي ازدراؤك له، وانهيالك عليه بالضرب لأتفه الأسباب.

ـ جعدة هٰذا ظفره برقبتك!

فقال زيطة محتجًّا:

ـ ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتي، أمّا جعدة. . .

ـ أتحسب أنّك خير من جعدة؟!

فلاح الانزعاج في وجه زيطة وفغر فاه دهشة، لا لأنّه ـ في حسبانه ـ خير من جعدة فحسب، ولكن لأنّه كان يعتقد أنّ مجرّد مقارنته به سبّة لا تغتفر، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله، يُعدّ بحقّ ملكًا على دنيا برمّتها أيًّا كانت هذه الدنيا؟ وسألها بدهشة:

ـ ماذا ترين أنت يا معلّمة؟

فقالت حسنيّة بتحدّ وازدراء:

ـ أرى أنّ ظفره برقبتك. .

ـ هٰذا الحيوان. . ؟

فهتفت بصوت فظّ:

ـ هذا رجل ولا كلّ الرجال يا وجه العفريت. .

ـ هذا المخلوق الذي تعاملينه كما تعامَل الكلاب الضالّة؟

وأدركت المرأة في كلامه حنقًا وغيرة، فراقها ذٰلك على انفعالها، وعدلت عن ضربه بعد أن حدّثتها نفسها به، وراحت تقول كأنّما لتضاعف حنقه وغيرته:

ـ هذا شيء لا تفهمه، وما أجدر أن تموت حسرة على لكمة ممّا يصيبه. .

فقال زيطة حانقًا:

ـ لعلّ الضرب شرف لا أدركه. . .

ـ شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان.

وتفكّر زيطة مليًّا، ترى هل تطيب لها معاشرة هذا الحيوان حقًّا؟ وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه، ولكنّه كان يأبى أن يصدّق هذا. إنّ المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت، ولكنّها تبطّن شيئًا آخر بلا جدال. ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين ناريّة فازداد إباء وعنادًا. ونشط خياله بارعًا مجنونًا فصوّر له المستقبل في ألوان زاهية. وأوحى له خلوّ المكان بتخيّلات محمومة، فلمعت عيناه المخيفتان. أمّا حسنيّة الفرّانة فقد استلذّت غيرته، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوّتها. فقالت في تهكّم:

ـ حتّى أنت يا تراب الأرض. . استخرج جسمك من التراب الذي يغطّيه أوّلًا، ثمّ كلّم الناس بعد ذلك.

لبست المرأة غاضبة. ولو كانت غاضبة حقًّا لما دارت غضبها ولصفعته بوحشيّتها. إنّها تمازحه ولا شكّ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من يديه. قال:

ـ أنت لا تفرّقين يا معلّمة ما بين التراب والتبر.

فقالت المرأة بتحدّ:

ـ هل تستطيع أن تنكر أنّك من طين؟

فهزّ منكبيه استهانة وقال ببساطة:

ـ كلّنا طين. . .

فقالت المرأة ساخرة:

ـ خسئت! إنّك طين على طين وقذارة على قذارة. ولذلك لا عمل لك إلّا تشويه البشر، كأنّك تنبعث إلى ذلك برغبة شيطانيّة في النزول بالبشر إلى مستواك القذر.

فتضاحك زيطة وما يزداد إلّا أملًا، وقال:

ـ ولكنّي أحسن الناس ولا أقبحهم. ألا ترين أنّ الشحّاذ بغير العاهة لا يساوي مليّمًا، حتّى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهبًا؟!. والرجل يقوم بثمنه لا بصورته. أمّا أخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة. . .

فزمجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد:

- أتعود إلى هٰذا الحديث مرّة أخرى!؟

فتعامى عن وعيدها، وتجاهل الموضوع الذي طرقه متعمّدًا، وتخطّاه قائلًا:

- ومع ذٰلك فجميع زبائني من الشحّاذين المحترفين، فماذا تريدينني على أن أفعل بهم؟.. أكنت تريدين أن أحلّيهم وأزيّنهم وأسرّحهم في الطرقات لغواية المحسنين؟!

- يا لك من شيطان! لسان شيطان، وصورة شيطان.

فتنهّد بصوت مسموع، وقال باستكانة المستعطف:

- كنت مع ذٰلك مَلِكًا في يوم ما...

فهزّت رأسها متسائلة في سخرية:

- ملكًا من الأسياد والعفاريت؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسه:

- بل من البشر أنفسهم. وأيّ واحد منّا تستقبله الدنيا كملك من الملوك، ثمّ يصير بعد ذٰلك ما يشاء له نحسه. وهٰذا خداع حكيم من الحياة، وإلّا فلو أنّها أفصحت لنا عمّا في ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا أن نفارق الأرحام...!

- ما شاء الله يا بن الدائخة!

فاستدرك زيطة في حماسة وسرور:

- وهٰكذا كنت يومًا ما مولودًا سعيدًا، تلقّفته الأيدي بالسرور، وحاطته العناية والرحمة، فهل تشكّين بعد ذٰلك أنّي كنت ملكًا؟

- أبدًا يا مولانا..

وأسكرته حرارة الحديث ولذّة الأمل، فمضى قائلًا:

- وكان مولدي يمنًا وبركة أيضًا. ذٰلك أنّ والديّ كانا شحّاذين محترفين، وكانا يكتريان طفلًا تحمله أمّي في أثناء تجوالهما. فلمّا أن رزقهما الله بي أغناهما عن أطفال الناس، وفرحا بي فرحًا عظيمًا.

فلم تملك حسنيّة أن ضحكت ضحكة مجلجلة، فأزداد حماسة وحرارة، وقال مواصلًا حديثه:

- آه من ذكريات طفولتي السعيدة! لا زلت أذكر مستراحي من الطوار. كنت أزحف على أربع حتّى أبلغ حافة الطوار المطلّة على الطريق، وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة في الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رشّ أو دابّة، يتكتّل الطين في قعرها، وعلى سطحها يغنّي الذباب، وعلى شطآنها تتجمّع نفاضة الطريق. منظر ساحر يأخذ بالألباب. ماؤها مطيّن، وساحلها زبالة متعدّدة ألوانها. قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب وطين، والذباب يحوم حولها ويقع عليها، فكنت أرفع جفنيّ المثقلين بالذباب، وأسرّح طرفي في ذاك المصيف الطروب، والدنيا لا تسعني فرحًا..

فهتفت المعلّمة ساخرة:

- يا بختك.. يا حظّك..

ولذّه سرورها وإقبالها على حديثه، فقال متشجّعًا:

- هٰذا سرّ ولعي بما يسمّونه ظلمًا بالقاذورات، والإنسان خليق بأن يألف أيّ شيء مهما شذّ وغرب، ولذٰلك أخاف عليك أن تألفي ذاك الحيوان.

- أتعود أيضًا إلى هٰذا؟!

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمّته:

- طبعًا. لا قِبَل لإنسان بإغفال الحقّ..

- الظاهر أنّك زهدت في الدنيا..

- لقد ذقت الرحمة مرّة كما قلت لك في المهد.

ثمّ أومأ بيده إلى المزبلة التي تسكنها واستدرك:

- وقلبي يحدّثني بأنّ لي حظًّا أن أذوقها مرّة أخرى في مأواي هٰذا.

وأومأ برأسه إلى الداخل كأنّه يقول لها: «هلمّي» فتميّزت المرأة غيظًا، واحنقتها جرأته، فصاحت في وجهه:

- حذار يا بن الشيطان.

فقال بصوت متهدّج:

- كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه؟

- إذا هشّمت عظمك؟

- مَن يعلم.. ربّما استلذّ ذٰلك أيضًا..

ونهض الرجل بغتة، وتراجع قليلًا متقهقرًا، كان يظنّ أنّه بلغ مناه، وأنّ المعلّمة أصبحت طوع يمينه، وقد تلبّسته حال جنونيّة جعلته ينتفض انتفاضًا. وثبتت

عيناه على عيني المرأة في ذهول وبهيميّة. ثمّ مدّ يديه بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة، وتجرّد عاريًا. وبهتت المعلّمة لحظات، ثمّ امتدّت يدها إلى كوز غير بعيد، وقذفته به بسرعة وقوّة، فأصاب بطنه، وندّت عنه آهة كالخوار، وسقط يتلوّى. . .

- ١٧ -

كان السيّد سليم علوان جالسًا كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أمّ حميدة لابتياع بعض اللوازم. وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف، ولكنّه لم يقنع هٰذه المرّة بذٰلك، فدعاها إلى الجلوس على كرسيّ قريب منه وكلّف أحد العمّال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة. ونال هٰذا العطف من أمّ حميدة فلهجت بشكره والدعاء له. والحقّ أنّ هٰذا العطف لم يكن ارتجالًا، ولكنّ السيّد كان قد نوى أمرًا لا رجوع فيه لأنّه من العسير أن يعيش الإنسان موزّع النفس مضطرب الإرادة لا يقرّ له قرار. وقد ساءه كثيرًا أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلّقة التي تستوجب الحلول ثمّ لا يجد الإرادة التي تحلّها. فهٰؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم، وهٰذه الأموال المكدّسة لا يدري متى يتاح له استغلالها خصوصًا وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقديّة بعد الحرب، ورتبة البيكويّة كلّما ظنّ أنّه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلحّ عليه كأنّها دمّل كامن، وعلاقته بزوجه وهمّه الناشئ من ذبول شبابها ونضوب حيويّتها، وأخيرًا - وليس آخرًا - هٰذه العاطفة التي يعانيها ويلقى من اضطرامها ما يلقى من أشواق وآلام. لبث بين هٰذه الهموم متحيّرًا، ثمّ رأى أن يفضّ إحداها بعزم ورغبة ولٰكنّه انساق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري، فارتأى أن يسكّن هٰذه العاطفة الغشوم، وتركّز اهتمامه في ذلك، حتّى لكأنّه بالانتهاء منها إنّما ينتهي من همومه جميعًا. ولٰكنّه لم يكن بالغافل عن العواقب، ولم يكن ليغيب عنه أنّه بصدد مشكلة يعقب فضّها المزعوم مشكلات جديدة لا تقلّ خطرًا عن سابقاتها. ولٰكنّه الهوى. لقد غلبه الهوى على أمره، وتسرّب إلى أعماق نفسه فتشبّعت به جذور تفكيره وإرادته، وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه، وقال لنفسه متبرّمًا: «لقد انتهت زوجي كامرأة، ولست من الرجال الذين ينزلقون إلى الفسق في مثل هٰذه السنّ، ولا داعي مطلقًا للرضا بالعذاب والغمّ. لقد يسّر الله لنا فلماذا نعسّر على أنفسنا؟!». وهٰكذا انتهى إلى رأي لا عدول عنه، وأجمع على تحقيق رغبته. ولذٰلك دعا أمّ حميدة إلى الجلوس على كثب منه معتزمًا مفاتحتها بالأمر الخطير. ولبث السيّد متخوّفًا من الكلام قليلًا لا لأنّ تردّدًا ساوره، ولٰكن لأنّه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته العالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأمّ حميدة. وتصادف في تلك اللحظة أن دخل عامل حاملًا صينيّة الفريك المشهورة، فرآها أمّ حميدة وجرت على شفتيها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها، وابتهل هٰذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه، وتناسى تزمّته ووقاره وقال لها بلهجة تنمّ عن السخط:

- لكم تكدّرني هٰذه الصينيّة!

وخافت أمّ حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة:

- لماذا كفى الله الشرّ؟

فقال السيّد باللهجة نفسها:

- لكم تحدث لي من متاعب. .

فتساءلت المرأة وهي لا تدري ما يعنيه:

- لماذا يا سيّدنا البك؟

فقال السيّد سليم بهدوء متشجّعًا بأنّه يحادث خاطبة:

- لا يرضى عنها الطرف الآخر. .

فدهشت أمّ حميدة، وذكرت كيف تحلّب ريق أهل الزقاق يومًا على قطعة من هٰذه الصينيّة، وها هي ذي امرأة زاهدة لا ترضى عنها! وقالت المرأة لنفسها: «يعطي الحلقة لمن ليس له أذنان». ثمّ غمغمت مبتسمة، وبلا حياء:

- هٰذا شيء عجيب!!

فهزّ السيّد رأسه متأسّفًا. وكانت زوجه لا ترحّب

بالصينيّة من بادئ الأمر وهي بعد شابّة في ريعان الشباب. كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة، ولكنّها تحمّلت ما كانت تعدّه إرهاقًا إكرامًا لزوجها النهم، وإشفاقًا من تكدير صفوه. ومع ذلك لم تتردّد عن نصحه بالعدول عن أمر في المداومة عليه خطر وأيّ خطر على صحّته. ولـمّا أن تقدّم بها العمر قلّ صبرها، وتضاعف إحساسها بالأمر، وبدا تذمّرها صريحًا، حتّى كانت تهجر بيت الزوجيّة إلى بيوت أبنائها، زيارة في الظاهر وهروبًا في الحقيقة. وضاق بها السيّد ذرعًا، ورماها بالبرود والنضوب، وتكدّر صفوهما، وتنغّص عيشهما، دون أن يعدل عن هواه، أو يعطف على ضعفها الملموس. وقد اتّخذ نشوزها ـ هكذا دعاه ـ حجّة له في هواه وفيما يرتاد من حياة زوجيّة جديدة!

هزّ السيّد رأسه متأسّفًا وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أمّ حميدة:

ـ لقد أنذرتها بالزواج من أخرى. وإنّي لفاعل بإذن الله..

وثار اهتمام المرأة، وتحرّكت غريزة العمل في باطنها، وحدجته بنظرة التاجر إلى زبون نادر الوجود، ولكنّها قالت بشيء من الارتياب:

ـ لهذا الحدّ يا سي السيّد؟!

فقال الرجل باهتمام جدّيّ:

ـ لقد انتظرتك طويلًا، وكنت على وشك أن أرسل في طلبك. فما رأيك؟

فتنهّدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف. وقد قالت فيما بعد إنّها ذهبت تبتاع حنّاء فعثرت على كنز. ثمّ نظرت إليه مبتسمة وقالت:

ـ يا سي السيّد أنت رجل قدّ الدنيا، ومثلك في الرجال قليل، ويا حظّ مَن تكون نصيبك، وأنا رهن إشارتك، فعندي البكر والثيّب، والشابّة والنصف، الغنيّة والفقيرة. اختر ما تشاء..

وفتل السيّد شاربيه الغليظين، واعتراه شيء من الارتباك، قليلًا ثمّ مال نحوها، وقال بصوت منخفض، وعلى فمه ابتسامة:

ـ لا داعي للبحث والتعب. إنّ مَن أريد في بيتك أنت!

واتّسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعي:

ـ في بيتي أنا!!

فقال السيّد وقد سرّته دهشة المرأة:

ـ أجل في بيتك أنت دون سواك. ومن لحمك ودمك أعني كريمتك حميدة..!

ولم تصدّق المرأة أذنيها، وتولّاها الذهول. أجل كانت تعلم ـ عن طريق حميدة نفسها ـ أنّ السيّد يتبعها أينما ذهبت عينين برّاقتين، ولكنّ الإعجاب شيء والزواج شيء آخر. فمن عسى أن يصدّق أنّ السيّد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة؟!.

وقالت المرأة بصوت مضطرب:

ـ لسنا قدّ المقام يا سي السيّد!

فقال الرجل برقّة:

ـ إنّك سيّدة طيّبة، وقد أعجبتني كريمتك وكفى. ألا يكون الناس أهلًا للخير إلّا إذا كانوا أغنياء؟ وما حاجتي للمال وعندي منه ما فوق الكفاية!

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها. ثمّ ذكرت فجأة أمرًا غاب عنها حتّى هذه اللحظة. ذكرت أنّ حميدة مخطوبة، وقد ندّت عنها «آهة» كالمنزعجة، حملت السيّد على أن يسألها قائلًا:

ـ ما لك؟

فقالت المرأة باضطراب:

ـ ربّاه، نسيت يا سي السيّد أن أقول لك إنّ حميدة مخطوبة! خطبها عبّاس الحلو قبل سفره إلى التلّ الكبير...!

فانكفأ وجه الرجل، واصفرّ وجهه غضبًا، وقال بحدّة وكأنّه ينطق باسم حشرة قذرة:

ـ عبّاس الحلو..!

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة:

ـ ربّاه لقد قرأنا الفاتحة!

فقطّب السيّد سليم قائلًا في غضب وازدراء:

ـ ذاك الحلّاق الشحّاذ..

فقالت أمّ حميدة كالمعتذرة:

ـ قال إنّه سيشتغل في الجيش، ليجمع ثروة، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة. . .

وازداد غضب السيّد لانزلاقه بغتة ـ مع الحلو ـ إلى مضمار واحد، وقال بحدّة:

ـ أيحسب هٰذا الأحمق أنّ الجيش نعيم يدوم! ولٰكنّي أعجب لما جعلك تذكرين هٰذه «الحكاية»!

فقالت المرأة معتذرة:

ـ لقد ذكرتها فجأة، هٰذا كلّ ما في الأمر. ما كنّا نحلم بهٰذا الشرف الرفيع، ولذٰلك لم يكن لديّ حيلة في رفض يده! لا تؤاخذني يا سي السيّد. إنّ مثلك إذا طلب أمَرَ. ما كنّا نحلم بهٰذا الشرف الرفيع، فلا تؤاخذني. سأذهب الآن وأعود إليك في الحال: لا تغضب عليّ، لماذا غضبت هٰكذا؟

وبسط السيّد وجهه. وذكر أنّه غضب حقًّا أكثر ممّا ينبغي، كأنّما الحلو هو المعتدي لا المعتدى عليه. ولٰكنّه قال:

ـ ألا يحقّ لي أن أغضب؟

ثمّ توقّف بغتة كأنّه تذكّر أمرًا اربدّ له وجهه وسألها منزعجًا:

ـ وهل وافقت الفتاة؟ أعني هل تريده؟

فقالت المرأة بسرعة:

ـ لا شأن لابنتي بهٰذا الأمر! وما حدث لا يعدو أن جاءني الحلو يومًا مصحوبًا بعمّ كامل ثمّ قرأنا الفاتحة.

فقال السيّد:

ـ غريب والله أمر هٰؤلاء الشبّان! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته، ولٰكنّه لا يجد بأسًا من أن يتزوّج ويخلّف ويزحم الحارة أولادًا يلتقطون رزقهم من الزبالة، لننس هٰذه الحكاية.

ـ نِعْم الرأي يا سي السيّد. . سأذهب الآن، وسأعود دون إبطاء، وربّنا المستعان.

ونهضت المرأة واقفة، وانحنت على يده مسلّمة، ثمّ تناولت لفافة الحنّاء، وكان العامل قد وضعها على المكتب، ومضت إلى حال سبيلها. . .

ولبث السيّد متغيّرًا، متجهّم الوجه، تنطق نظرة عينيه الحادّة بالنرفزة والغضب. . أولى الخطى عثار!. حلّاق قذر لا يساوي مليّمًا، ومع ذٰلك فهو يزحمه في حلبة واحدة. وبصق على الأرض بازدراء كأنّما البصقة هي الحلو نفسه. وخال أنّه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون في هٰذا الأمر بما يحلو لهم من تهكّم وسخرية. ستقول زوجه إنّه خطف ابنة ماشطة من صالون حلّاق بالمدقّ! أجل ستقول زوجه وتعيد، وسيقول الناس ويتفنّنون في القول، وسيتناهى ذٰلك كلّه إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه. تفكّر في ذٰلك جميعه، بيد أنّ التراجع لم يخطر له ببال فقد انتهت المعركة قبل اليوم، ومدّ يده بالفعل، وتوكّل على الله. ومضى يفتل شاربه بأناة، ويهزّ رأسه استهانة، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه، وهوّنت عليه القيل والقال. وهل كفّ الناس عنه ألسنتهم من قبل؟ ألم يجعلوا من صينيّة الفريك أسطورة يتناقلونها؟ فليقولوا ما بدا لهم، وليفعل ما بدا له، وسيظلّ بلا ريب سيّد الجميع الذي يشقّ سبيله بين هامات متطامنة. أمّا أسرته فثروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعًا، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر ممّا كانت تسلبهم إيّاه رتبة البكويّة فيما لو سعى إليها: وانفثأ غضبه، وانبسطت أساريره، وارتاح إلى تفكيره ارتياحًا عظيمًا. ينبغي أن يذكر دائمًا أنّه إنسان من لحم ودم، وإلّا أغفل حقّ نفسه، وقدّمها لقمة سائغة للهموم تزدردها. ما جدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده؟! أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشريّ رهن إشارة منه؟!

ـ ١٨ ـ

ومضت أمّ حميدة مهرولة إلى شقّتها، وفي هٰذا الشوط القصير ـ ما بين الوكالة والشقّة ـ ثمل خيالها بأحلام عراض. ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها، فتفحّصتها بعينين ثاقبتين كأنّها تراها لأوّل مرّة، أو كأنّها تعاين الأنثى التي خبلت رجلًا له وقار السيّد سليم علوان وسنّه وثروته. ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد. كانت تؤمن بلا شكّ بأنّ كلّ قرش يجلبه هٰذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها

نصفه، وأنّ كلّ نعيم ستذوقه ستحظى هي بنصيبها الموفور منه، ومع ذلك لم تخل من هذا الإحساس الغريب الذي خالط سرورها وأطماعها! وقالت لنفسها «أكان القدر حقًّا يدّخر هذه السعادة لهذه الفتاة التي لا تعرف لنفسها أبًا ولا أمًّا!» وتساءلت في عجب «ألم يسمع السيّد صوتها المخيف وهي تزعق في وجوه الجيران؟ ألم يشهد معركة من معاركها؟ يا ويل الرجال من لحم النساء!» ثمّ قالت لها دون أن تحوّل عنها عينيها:

ـ مولودة في ليلة القدر والحسين!

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع، وسألتها ضاحكة:

ـ لمه؟ ماذا وراءك؟ هل من جديد؟!

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبة، ثمّ قالت بهدوء وهي تتفرّس وجهها لتمتحن أثر كلامها فيه:

ـ عروس جديد!

فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة، وتساءلت الفتاة:

ـ أتقولين حقًّا؟

ـ عروس كبير المقام، يتمنّع عن الأحلام يا بنت الكلب..

فخفق قلب حميدة بقوّة، وتألّقت عيناها حتّى بدا حورهما ساطعًا وتساءلت:

ـ مَن عساه يكون؟

ـ خمّني؟!

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون:

ـ مَن؟

فقالت أمّ حميدة وهي تهزّ رأسها وترعش حاجبيها:

ـ السيّد سليم علوان على «سنّ ورمح»!

فشدّت قبضتها على المشط حتّى كادت تنفذ أسنانه في راحتها، وهتفت:

ـ سليم علوان صاحب الوكالة؟!

ـ صاحب الوكالة، وصاحب الأموال التي لا يفنيها المحيط!

فأضاء وجه الفتاة نورًا، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور:

ـ يا خبر أسود!

ـ يا خبر أبيض، يا خبر مثل اللبن والقشدة. لم أكن لأصدّق لولا أنّه حادثني بنفسه.

غرزت الفتاة المشط في شعرها، وهرعت إلى أمّها وارتمت إلى جانبها، وسألتها وهي تشدّ على كتفها:

ـ ماذا قال لك؟ خبّريني بكلّ ما قال، كلمة كلمة.

وأنصتت إلى المرأة بانتباه عميق وهي تروي قصّتها. وخفق قلبها خفقانًا متواصلًا، وتورّد وجهها، وتألّقت عيناها بشرًا وسرورًا. هذه هي الثروة التي تحلم بها، هذا هو الجاه الذي تهيم به. وإنّها من حبّ الجاه لفي مرض، وإنّ الشغف بالقوّة لغريزة جائعة في باطنها، فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلّا بالثروة؟ لم تكن تدري دواء لهذا التشوّف الأليم يضطرم في أعماقها إلّا الثراء الكبير، فهو الجاه العريض، وهو القوّة الشاملة، وهو بالتالي السعادة الكاملة. كانت في سرورها المباغت كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة في أشدّ المواقف حرجًا. كانت كطائر مقصوص الجناحين يسفّ في يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة، ثمّ ينبت له ريش بمعجزة تدقّ على الأفهام.من محاولاته الفاشلة تحليق يسمو به إلى قنن الجبال. وكانت أمّها تنظر إليها بلحظ خفيّ فسألتها:

ـ ماذا ترين؟

لم تدرِ أمّ حميدة ماذا تقول، ولكنّها كانت مشمّرة للمعارضة أيًّا كان رأي الفتاة. فإذا قالت السيّد قالت والحلو؟ وإذا قالت الحلو قالت أَوَنُفرّط في السيّد! أمّا حميدة فقالت بإنكار شديد:

ـ ماذا أرى؟!

ـ أجل ماذا ترين، فليس الأمر ممّا يسهل الفصل فيه، أنسيت أنّك مخطوبة؟!.. وأنّي قرأت الفاتحة مع الحلو؟

فلاحت في عيني الفتاة نظرة حادّة غشّت جمالها، وقالت في انزعاج وازدراء:

ـ الحلو!!

وعجبت أمّها لسرعتها الفائقة في البتّ في مثل هٰذا الأمر الخطير، وكأنّ الحلو لم يكن قطّ، وعاودها شعورها القديم بأنّ ابنتها فتاة شاذّة مخيفة، والحقّ أنّ المرأة لم يداخلها شكّ جدّيّ في النهاية المحتومة، ولٰكنّها كانت تريد أن تبلغها بعد لأْيٍ. كانت ترغب أن تتردّد الفتاة فتتطوّع هي إلى إقناعها بالقبول، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هٰذا الازدراء الغريب. واستدركت تقول بلهجة تنمّ عن الانتقاد:

ـ أجل الحلو، أنسيت أنّه خطيبك؟!

كلّا لم تنس، ولٰكن سيّان التذكّر والنسيان، ترى هل تعترض أمّها حقًّا؟ وحدجتها بنظرة نافذة، فأيقنت أنّها كاذبة في انتقادها، وهزّت منكبيها استهانة، وقالت باستخفاف واحتقار:

ـ ذبحة. . .

ـ ماذا يقول الناس عنّا؟

ـ دعيهم يقولون ما بدا لهم. .

ـ سأستشير السيّد رضوان الحسيني.

فجفلت الفتاة من هٰذا الاسم واعترضت قائلة:

ـ ما شأنه في أمر يخصّني وحدي؟

ـ نحن أسرة لا رَجُل لها، فهو رجلنا. . .

ولم تطق المرأة انتظارًا فنهضت واقفة، وتلفّعت بملاءتها، وغادرت الحجرة وهي تقول: «لأ سأشاوره وأعود توًّا». وشيّعتها الفتاة بنظرة غيظ. ثمّ تنبّهت إلى أنّها لم تتمّ تمشيط شعرها، فمضت تمشطه بحركات آليّة وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة. ثمّ نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة، وعادت إلى جلستها.

لم يكن تحوّلها عن عبّاس الحلو بغير تمهيد كما ظنّت أمّها، أجل لقد حسبت حينًا أنّها وصلت ـ راضية ـ أسبابها بأسبابه إلى الأبد، فمنحته شفتيها يقبّلهما بما أوتي من شغف وحبّ، وجاذبته حديث المستقبل كأنّه مستقبلهما معًا، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له، وزارته بالفعل ودعت له ـ ولم تكن تزوره إلّا لتستعديه على عدوّة عقب شجار ـ وانتظرت على أمل أن تظفر بهٰذه السعادة المرموقة، وفضلًا عن ذٰلك فقد رفعها الحلو من مجرّد بنت إلى فتاة مخطوبة، فلم يعد في وسع أمّ حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة: «أحلق هٰذا لو خطبك إنسان». بيد أنّها كانت تنام على فوهة بركان. ولم تذق بادئ الأمر الطمأنينة الكاملة، ووجدت في النفس شيئًا يضطرب يرتاد متنفّسًا. حقًّا لوّح عبّاس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد، ولٰكنّ الحلو نفسه ليس بالرجل الذي تريد، وقد حيّرها أمره مذ أوّل لقاء. ولم تكن تدري كيف يكون رَجُلها على وجه التحقيق. ولٰكنّ الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أيّة حال. ومع ذٰلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة، فجعلت تقول لعلّ المعاشرة تهيّئ لها حياة لم تكن تحلم بها قطّ. ثمّ لم تكفّ عن التفكير، والتفكير فضيلة ذات حدّين، فتساءلت ترى ما هٰذه السعادة التي يمنّيها بها؟ ألا تكون مغالية في أحلامها؟ يقول الفتى إنّه سيعود بثروة، وإنّه سيفتح صالونًا في الموسكي، ولٰكن هل يضمن لها هٰذا حياة أرغد من حياتها الراهنة؟ وهل هٰذا حقًّا ما تطمح إليه نفسها المجنونة؟؟ وضاعف هٰذا التفكّر من حيرتها، وقوي شعورها بأنّ الشابّ ليس رجلها المرموق، وباتت تدرك أنّ نفورها منه أشدّ من أن تلطّفه المعاشرة. ولٰكن ما عسى أن تفعل؟ ألم ترتبط به إلى الأبد. . ربّاه، لماذا لم تتعلّم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها؟ أمّا لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتّى تتزوّج كما تشاء، أو لما تزوّجت على الإطلاق! وأخذت حماستها تفتر، وشعورها يخمد، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزّها المقابلات وتغرّها الآمال. هكذا كانت حين طلب السيّد سليم يدها، وهٰكذا نبذت خطيبها الأوّل بغير تردّد، ولٰكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل. . .

ولم يطل المطال بغياب الأمّ، فعادت من بيت السيّد رضوان بوجه تلوح فيه أمارات الجدّ، وقالت وهي تخلع ملاءتها:

ـ لم يوافق السيّد أبدًا. .

ثمّ قصّت عليها ما دار بينها وبين السيّد رضوان، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين إنّ الحلو

شابٌ والسيّد سليم شيخ، وإنّ الحلو من طبقتها والسيّد من طبقة أخرى، وإنّ زواج رجل كالسيّد من فتاة مثل ابنتها لا بدّ محدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض من رشاشها، وكيف ختم حديثه بقوله «الحلو شابٌ طيّب وقد هاجر في سبيل الرزق طامحًا لهذا الزواج، فهو رَجُلها المفضّل، وما عليك إلّا أن تنتظري فإذا عاد خائبًا لا قدّر الله كان من حقّك بلا جدال أن تزوّجيها ممّن تختارين».

وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها، ثمّ صاحت بصوت جافّ فضح الغضب قبحه:

ـ السيّد رضوان وليّ من أولياء الله، أو هذا ما يحبّ أن يتظاهر به أمام الناس، فإذا قال رأيًا لم يبالِ مصلحة الناس في سبيل اكتساب الأولياء أمثاله، فسعادتي لا تهمّه في كثير أو قليل، ولعلّه تأثّر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين، فلا تسألي السيّد عن زواجي وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة... ! أمّا والله لو كان طيّبًا كما تزعمون لما رزأه الله في أبنائه جميعًا.. !

وارتاعت المرأة، وقالت لها بإنكار وألم:

ـ أهٰذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم؟

فصاحت الفتاة بحدّة وقد أنذرت حالتها بشرّ مستطير:

ـ هو فاضل إن أردت، ووليّ من أولياء الله إن شئت، ونبيّ أيضًا إن أحببت، ولكنّه لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي..

وتألّمت المرأة للإهانة التي لحقت السيّد، لا دفاعًا عن رأيه الذي كانت لا توافق عليه في باطنها، ومع ذٰلك قالت مدفوعة برغبة في إغاظة الفتاة والانتقام من سوء خلقها:

ـ ولكنّك مخطوبة..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت:

ـ إنّ الفتاة حرّة حتّى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه إلّا كلام وصينيّة بسبوسة.. !

ـ والفاتحة؟

ـ المسامح كريم...

ـ الفاتحة ذنبها كبير.

فصاحت باستهانة:

ـ بلّيها واشربي ماءها!

فضربت المرأة صدرها وقالت:

ـ آه يا بنت الثعبان!

ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح في عينَي أمّها، فقالت ضاحكة:

ـ تزوّجيه أنت..

فضربت المرأة كفًّا بكفّ وهي تغالب الضحك، ثمّ قالت بسخرية:

ـ من حقّك أن تبيعي صينيّة البسبوسة بصينيّة الفريك...

فنظرت إليها بتحدّ وقالت بغيظ:

ـ بل رفضت شابًّا واخترت شيخًا...

فضحكت أمّ حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت «الدهن في العتاقي»، وتربّعت على الكنبة في سرور وقد تناست معارضتها الكاذبة، واستخرجت سيجارة من علبة سجائرها وأشعلتها، وراحت تدخّن بلذّة لم تشعر بمثلها من زمن بعيد، فنظرت حميدة إليها بغيظ وقالت:

ـ تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف سروري، ولكنّها المكابرة والمعاندة والرغبة في إغاظتي سامحك الله..

فحدجتها أمّها بنظرة عميقة، وقالت بلهجة ذات معنى:

ـ إذا تزوّج رجل مثل السيّد سليم من فتاة، فهو في الواقع إنّما يتزوّج من أهلها جميعًا، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد. أفهمت؟.. أم تحسبين أن تزفّي إلى قصرك الجديد وأبقى أنا ها هنا تحت رحمة الستّ سنيّة عفيفي وأمثالها من المحسنين؟!..

فهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها، وقالت بكبرياء مصطنع:

ـ تحت رحمة الستّ سنيّة عفيفي، والستّ حميدة هانم...

ـ طبعًا... طبعًا يا لقيطة السطوار، يا بنة المجهول...

فاسترسلت الفتاة في ضحكها وقالت:

ـ مجهول مجهول.. كم من أب معروف لا يساوي شيئًا...

* * *

وعند ضحى الغد ذهبت أمّ حميدة إلى الوكالة سعيدة رخيّة البال، لتقرأ الفاتحة مرّة أخرى. ولٰكنّها لم تجد السيّد سليم بمجلسه المعهود، واستعلمت عنه، فقيل لها إنّه تخلّف عن الحضور اليوم، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولّاها الجزع، ولـمّا أن انتصف النهار ذاع نبأ في الزقاق بأنّ السيّد سليم علوان أصيب ليلة أمس بذبحة صدريّة، وأنّه في فراشه بين الحياة والموت! وقد عمّ الأسف الزقاق كلّه، أمّا بيت أمّ حميدة فقد سقط عليه النبأ كالصاعقة...

ـ ١٩ ـ

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء. ورأى أهله رجالًا يقيمون سرادقًا على أرض خراب بالصنادقيّة فيما يواجه زقاق المدقّ. وانزعج عمّ كامل وظنّه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، يا فتّاح يا عليم يا ربّ» ونادى غلامًا من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفّى، ولٰكنّ الغلام قال له ضاحكًا:

ـ ليس السرادق لميت، ولٰكنّها حفلة انتخابيّة!

فهزّ عمّ كامل رأسه وغمغم «سعد وعدلي مرّة أخرى!» وكان الرجل لا يدري شيئًا على الإطلاق عن عالم السياسة، إن هو إلّا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى. أجل إنّه يعلّق في صدر محلّه صورة كبرى لمصطفى النحّاس. ولكن كان ذٰلك لأنّ عبّاس الحلو ابتاع يومًا صورتين للزعيم ثبّت إحداهما في الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه، ولم ير الرجل في تثبيتها بدكّانه من بأس، خصوصًا وأنّه يعلم أنّ هٰذه الصورة وأمثالها من تقاليد الدكاكين؟ ففي دكّان الطعميّة بالصنادقيّة صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحّاس وفي قهوة كرشة صورة للخديوي عبّاس. وراح الرجل يرمق العمّال العاكفين على عملهم بإنكار وقد توقّع يومًا صاخبًا مرهقًا. ومضى السرادق يتكوّن جزءًا جزءًا، فنصبت الأعمدة، ووُصلت بالطنب ومُدّت عليها الستائر، وفُرشت الأرض بالرمل، وصُفّت المقاعد على جانبي ممرّ ضيّق يفضي إلى مسرح أقيم في الداخل عاليًا، ورُكّبت مكبّرات الصوت على مفارق الطريق بين الحسين والغوريّة، وأجمل من هٰذا كلّه أن تُرك مدخل السرادق بلا حاجز من ستار أو ظلّة ممّا بشّر أهل المدقّ بأنّهم سيشاركون في الحفلة من منازلهم، وفي أعلى المسرح عُلّقت صورة كبرى لرئيس الحكومة، وأُلصقت بها من تحت صورة المرشّح فرحات الذي تعرفه أكثريّة أهل الحيّ لأنّه كان تاجرًا بالنحّاسين. ودار فتيان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سُطّر عليها بألوان زاهية:

انتخبوا نائبكم الحرّ إبراهيم فرحات
على مبادئ سعد الأصليّة
زهق عهد الظلم والعري
وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلانًا بدكّان عمّ كامل، ولٰكنّ الرجل الذي ترك غياب عبّاس الحلو في نفسه أسوأ الأثر تصدّى لهم ساخطًا وهو يقول:

ـ ليس هنا يا أولاد الحلال، هٰذا شؤم يقطع الرزق..

فقال له أحدهم ضاحكًا:

ـ بل تجلب الرزق. وإذا رآها حضرة المرشّح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة، وأعطاك الثمن مضاعفًا وعليه قبلة.

وانتهى العمل عند منتصف النهار، وعاود المكان هدوءه المعهود، واستمرّ هٰذا حتّى العصر حين جاء السيّد إبراهيم فرحات في هالة من حاشيته ليعاين الأمور بنفسه، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق، إلّا أنّه كان كذٰلك تاجرًا لا يفوته الاطّلاع على دقائق ميزانيّته حتّى لا يجوز عليه ما لا ينبغي أن يجوز. وقد تقدّم القوم بجسمه البدين القصير، يرفل في جبّته وقفطانه، ويقلّب فيما حوله وجهًا أسمر كرويًّا ذا عينين ساذجتين. كانت مشيته تنمّ عن الزهو

والثقة، وعيناه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامّة يشي بأنّ بطنه أهمّ كثيرًا من رأسه. وقد أحدث ظهوره اهتمامًا كبيرًا في الزقاق وما يحيط به لا لأنّهم اعتبروه عروس الليلة، وأملوا من وراء «زفّته» خيرًا كثيرًا، خصوصًا وأنّهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشّح الدائرة بالتزكية! ثمّ جاءت على أثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفنديّ مردّدة هتافات عالية، كان يصيح بصوت كالرعد «مَن نائبنا؟» .. فيجيبونه بصوت واحد «إبراهيم فرحات» فيهتف ثانية «من ابن الدائرة؟» فيهتفون «إبراهيم فرحات» وهكذا، وهكذا، حتّى امتلأ بهم الطريق، وتسرّب منهم كثيرون إلى السرادق. وجعل المرشّح يردّ الهتافات برفع يديه إلى رأسه، ثمّ اتّجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلّها من رافعي الأثقال بنادي الدراسة الرياضيّ. واقترب من الحلّاق العجوز الذي حلّ محلّ الحلو ومدّ له يده وهو يقول «السلام عليك يا أخا العرب». فانحنى الرجل على يده في استحياء وترحيب، وتحوّل عنه إلى عمّ كامل قائلًا: «لا تتجشّم مشقّة النهوض، حلّفتك بالحسين إلّا ما لزمت مكانك. كيف حالك.. الله أكبر.. الله أكبر، هذه بسبوسة فريدة، وسيعرف الناس جميعًا قدرها هذه الليلة».. وتقدّم مسلّمًا على كلّ من لاقاه، حتّى انتهى إلى قهوة كرشة، فحيّا المعلّم، وجلس ودعا رفاقه للجلوس، واستبق إلى القهوة كثيرون حتّى جعدة الفرّان وزيطة صانع العاهات. وردّد المرشّح نظره بين الحاضرين في سرور، ثمّ قال مخاطبًا المعلّم كرشة:

ـ قدّم الشاي للجميع..

وابتسم تحيّة لكلمات الشكر التي تناثرت عليه من كلّ حدب وصوب ثمّ التفت صوب المعلّم قائلًا:

ـ أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السرادق من الطلبات..

ـ فقال المعلّم كرشة بشيء من الفتور:

ـ نحن في الخدمة يا سي السيّد..

ولم يغب عن المرشّح فتوره، فقال برقّة:

ـ نحن جميعًا أبناء حيّ واحد، وكلّنا إخوان..!

والحقّ أنّ السيّد فرحات جاء القهوة خصّيصًا لاسترضاء المعلّم كرشة، ذلك أنّه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيّام ليستميله إلى جانبه فيضمن صوته وأصوات مَن يلوذ به مِن المعلّمين وعمّالهم، وقدّم له خمسة عشر جنيهًا مقدّم أتعاب ولكنّ المعلّم كرشة أبى أن يمسّها محتجًا بأنّه ليس دون الفوّال ـ صاحب قهوة الدراسة والذي ذاع أنّه أخذ عشرين جنيهًا ـ منزلة، وما زال به حتّى حمله على قبول المبلغ واعدًا إيّاه بالمزيد. ثمّ افترقا والسيّد مشفق من انقلاب المعلّم عليه: والواقع أنّ المعلّم كرشة لم يخلُ من غضب على «محدث السياسة» هذا على حدّ قوله، وأضمر له شرّ النوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه. وكان المعلّم كرشة يتيقّظ ـ على غلبة الذهول عليه ـ في المواسم السياسيّة. وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك في الأمور الأخرى! فاشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكًا فعليًّا عنيفًا، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجاريّة اليهوديّة للسجاير بميدان الحسين، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوّار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى. ولمّا أن خمدت الثورة الدمويّة وجد فيها جدّ من معارك انتخابيّة ميدانًا جديدًا على ضيقه لنشاطه وحماسته، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدًا مشكورًا، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ ـ ولو أنّه قيل وقتذاك إنّه قبل رشوة مرشّح الحكومة ولكنّه أعطى صوته لمرشّح الوفد ـ وأراد أن يلعب الدور نفسه في انتخابات صدقي ـ فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات ـ ولكنّ عيون الحكومة راقبته يوم المعركة، وحملته مع غيره في لوري إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغمًا لأوّل مرّة. وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة، فطلّقها بعد ذلك وتزوّج التجارة، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة، وانقلب نصيرًا لَمن «يدفع أكثر». وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسيّة من فساد، قائلًا إنّه

إذا كان المال غاية المتنابذين في ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين! وفضلًا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه، وغلبه الذهول، وركبته الشهوات، ولم يبق في روحه من الثورات القديمة إلّا ذكرى غامضة ربّما كرّ إليها الخيال فأشاد بها متباهيًا في بعض ساعات الصفاء حول المجمرة، ولكنّه نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة، ولم يعد يعبأ شيئًا من بعد ذلك إلّا «الكيف» و«الهوى»، وما عدا ذلك «اردم» على حدّ قوله. لم يعد يكره أحدًا، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم. ولم يعد يحبّ أحدًا كذلك، ولذلك كان من العجيب حقًّا أن تدبّ فيه حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصّب للألمان، وأن يتساءل ـ في هذه الأيّام خاصّة ـ عن موقف هتلر، أحقيقة قد أصبح مهدّدًا، وألّا يجمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد؟! ولكنّ إعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس إلّا، فكان يعدّه شيخ فتوّات الدنيا، ويتمنّى له النصر كما تمنّاه طويلًا لعنترة وأبي زيد. بيد أنّه ظلّ محافظًا على خطره في ميدان الانتخابات، لأنّه كان زعيم المعلّمين الذين يتحلّقون مجمرته كلّ ليلة ومَن يتبعهم مِن فَعَلة وصبيان وبطانات، ولذلك حرص السيّد إبراهيم فرحات على استرضائه، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها في قهوته متودّدًا مستعطفًا.

وكان يسترق إليه النظر، فمال على أذنه وسأله بصوت خافت:

ـ أراضٍ أنت يا معلّم؟

فتدلّت شفته عن ابتسامة، وقال في شيء من التحفّظ:

ـ الحمد لله، أنت الخير والبركة يا سي السيّد. .

فهمس في أذنه:

ـ سأعوّضك عمّا فاتك خيرًا كثيرًا. .

وانبسطت أساريره وهو يقلّب عينيه في وجوه الحاضرين، ثمّ قال برقّة ورجاء:

ـ إن شاء الله لن تخيّبوا لنا أملًا. .

فتعالت الأصوات في وقت واحد تقول:

ـ معاذ الله يا سيّد فرحات. أنت ابن خطّنا. .

فابتسم الرجل مطمئنًّا وأنشأ يقول:

ـ إنّي كما تعلمون مستقلّ، ولكنّي أستظلّ بمبادئ سعد الحقيقيّة. وماذا أفدنا من الأحزاب؟ ألا تسمعون مهاتراتهم؟ إنّهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى، ثمّ ذكر أنّه يخاطب بعضًا من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلًا): دعونا مِن ضَرْب الأمثال. لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتّى لا يمنعني مانع من قول الحقّ، ولن أكون عبدًا لوزير أو زعيم، وسأذكر في البرلمان إذا وفّقنا الله للنجاح أنّني إنّما أتكلّم باسم أبناء المدقّ والغوريّة والصنادقيّة. ولقد ولّى عهد الثرثرة والنفاق، وهاكم عهدًا يشغله شيء عن أموركم العاجلة، كزيادة الأقمشة الشعبيّة والسكّر، والكيروسين، والزيت، وعدم خلط الرغيف، وتخفيض أسعار اللحوم. . .

وسأله سائل باهتمام شديد:

ـ هل حقًّا تتوفّر هذه الضروريّات غدًا؟

فقال الرجل بثقة ويقين:

ـ بغير جدال. وهذا سرّ الانقلاب الحاضر. كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثمّ ذكر أنّه قال إنّه مستقلّ فاستدرك قائلًا) وهو يستقبل المرشّحين على اختلاف ألوانهم، فأكّد لنا أنّ عهده هو عهد الكساء والغذاء.

وازدرد ريقه، ثمّ استطرد:

ـ سترون العجب العجاب. ولا تنسوا الحلوان إذا فزت في الانتخابات.

فسأل الدكتور بوشي:

ـ الحلوان بعد ظهور النتيجة؟

فالتفت السيّد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق:

ـ وقبل ظهور النتيجة أيضًا.

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال:

ـ كالصداق له مقدّم ومؤخّر. إلّا أنت يا ستّ الستّات فلا صداق لك، لأنّ حبّك روحي من السماء.

فتحوّل السيّد إلى الشيخ منزعجًا، ولكنّه سرعان ما

أدرك حين وقع بصره على زيّه ـ الجلباب ورباط الرقبة والنظّارة الذهبيّة ـ أنّه من أولياء الله الصالحين. فارتسمت ابتسامة على وجهه الكرويّ وقال برقّة:

ـ أهلًا وسهلًا بسيّدنا الشيخ..

ولكنّ الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق في ذهوله. ثمّ انبرى أحد تابعي المرشّح قائلًا:

ـ لكم ما تريدون، ولنا القسم بكتاب الله، وبالطلاق..

فقال أكثر من صوت:

ـ وجب...

وأخذ السيّد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابيّة، ولـمّا أن سأل عمّ كامل أجابه:

ـ ليس لي تذكرة، ولم أشترك في أيّ انتخاب على الإطلاق..

فسأله المرشّح:

ـ أين مسقط رأسك؟

فقال بغير مبالاة:

ـ لا أدري...

وضجّ الجلوس بالضحك، وشاركهم السيّد فرحات، ولكنّه غمغم دون يأس:

ـ سأسوّي هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة.

وجاء فتى بجلباب، حاملًا مجموعة من الإعلانات الصغيرة، فانتهز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرّق فيهم إعلاناته، وظنّ كثيرون أنّها إعلانات انتخابيّة، فأقبلوا عليها باحتفاء مجاملة للسيّد المرشّح، وتناول السيّد فرحات إعلانًا وقرأه فإذا فيه:

حياتك الزوجيّة ينقصها شيء.

عليك باستعمال عنبر السنطوريّ.

عنبر السنطوريّ

مركّب بطريقة علميّة خالية من الموادّ السامّة محلّل بمعرفة وزارة الصحّة رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرفش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا في خمسين دقيقة.

طريقة الاستعمال:

خذ منه قدر القمحة على كبّاية شاي حلو كثير، فتجد عندك النشاط. ومقدار ربع الحقّ دفعة واحدة أقوى من جميع المكيّفات، يسري في العروق كالتيّار الكهربائيّ، اطلب علبة عيّنة من موزّع الإعلان، الثمن ٣٠ مليمًا يا بلاش.

سعادتك بـ ٣٠ مليمًا، والمحلّ مستعدّ للاستماع لملاحظات الجمهور.

وضجّ المكان بالضحك مرّة أخرى، وارتبك المرشّح قليلًا، وتطوّع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح:

ـ هذا فأل حسن.

ثمّ مال على أذنه وهمس قائلًا:

ـ هلمّ بنا، أمامنا أحياء وأحياء.

فنهض الرجل وهو يقول:

ـ نستودعكم الله، إلى لقاء قريب إن شاء الله، اللّهمّ حقّق الآمال.

وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهمّ بمغادرة القهوة:

ـ يا سيّدنا الشيخ ادعُ لي.

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلًا وقد بسط ذراعيه:

ـ الله يخرب بيتك..!

وما آذنت الشمس بالمغيب حتّى كان السرادق قد ضاق عن القاصدين وتناقل الحاضرون أنّ سياسيًّا كبيرًا سيلقي خطابًا هامًّا. وذاع أنّ شعراء وزجّالين سيتبارون على المسرح. ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسّر من الذكر الحكيم. وأعقبته فرقة موسيقيّة من شيوخ مهدّمين مهلهلي الثياب فعزفوا النشيد الوطنيّ، وكان لإذاعة المكبّرات لموسيقاهم أثر واضح في دعوة الغلمان والصبية من الأزقّة والحوارى حتّى سدّوا الصنادقيّة سدًّا. وتعالى الهتاف والضوضاء. وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة أماكنهم، حتّى ظُنّ أنّ الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى. ثمّ كانت المفاجأة السارّة إذ دقّ بعضهم أرض المسرح حتّى شمل الصمت الجمع المحتشد، ثمّ بدأ مونولوجست معروف في لباسه البلديّ، فما كادت تراه الأعين المحدّقة حتّى جنّ جنونهم فرحًا وسرورًا، وراحوا يهلّلون ويصفّقون، وقال المونولوجست وتفنّن.

ورقصت امرأة شبه عارية وهي تهتف المرّة تلو المرّة: «السيّد إبراهيم فرحات.. ألف مرّة.. ألف مرّة». وجعل الرجل المشرف على المكبّرات يصيح في المذياع (السيّد إبراهيم فرحات أحسن نائب. ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون). واتّصل الغناء بالرقص والهتاف، وانقلب الحيّ جميعًا إلى مولد.

ولّما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة في إبّان ازدهارها وسرورها. وكانت تظنّ كأهل الزقاق كافّة أنّها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحو) على حدّ تعبيرهم. وما إن رأت المنظر البهيج حتّى شملها السرور وتلفّتت يمنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التي نادرًا ما ترى مثلها في حياتها. ومضت تشقّ طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات حتّى بلغت مدخل المدقّ، واقتربت من جدار الصالون، وارتقت حجرًا منغرسًا لصق الحائط، وتطلّعت باهتمام وسرور إلى السرادق.

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كلّ جانب، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدي أطفالهنّ أو يحملنهم على أكتافهنّ. واختلط الغناء بالهتاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل. واستولى المنظر الخلّاب على لبّها فانجذبت روحها إليه، والتمع السرور في عينيها الغاتنتين، وفمها المفترّ عن ابتسامة لؤلؤيّة. وكانت متلفّعة بملاءتها فلا يبدو منها إلّا وجهها البرنزيّ، وأسفل ساقيها، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدّم شعرها الفاحم. ورقص قلبها سرورًا، وتنبّهت حواسّها جميعًا، وجرى دمها حارًّا دافقًا، سرّها المونولوجست سرورًا لم تشعر بمثله من قبل، حتّى شعورها المرّ القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها. وظلّت مستغرقة في ما ترى غير ملقية بالًا إلى هبوط الظلام حتّى أحسّت شيئًا ما يجذب عينيها نحو اليسار، كأنّه نداء يدعو حواسّها إليه، أو ذاك الشعور الذي يقلقنا إذا أحدقت فينا عينان ولبّته على رغمها فتحوّلت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتقت عيناها بعينين تتفرّسان فيها بقوّة وقحة! ولبثا مقدار ثانية ثمّ عادتا إلى هدفهما، ولٰكنّها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الأوّل، وظلّ شعورها منتبهًا إلى العينين العارمتين، وجعلت حدقتاها تميلان ناحية اليسار، وساورها شكّ وقلق، فالتفتت مرّة أخرى فالتقت بالعينين تتفرّسان فيها بالقحة نفسها، وقد نمّتا ـ إلى ذلك ـ عن ابتسامة غريبة. ولم تتمالك نفسها فأعادت رأسها إلى موضعه الأوّل في شيء من الحدّة وقد ملأها الحنق. أحنقتها هذه الابتسامة الغريبة لأنّها أفصحت عن ثقة وتحدٍّ لا حدّ لهما، فهيّجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجّرة، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها في شيء ما، في رقبته لو أمكن مثلًا! وصمّمت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السلبيّة في العراك، وإن ظلّ شعورها قويًّا بعينيه الوقحتين! ونغّص عليها سرورها، وركبتها روح الشرّ التي تلبّسها بسرعة جنونيّة. وكأنّ صاحب العينين لم يقنع بما فعل، أو كأنّه لا يبالي هٰذه النار التي شبّها، فراح يشقّ طريقه إلى موضع في طريق بصرها الشاخص إلى السرادق متعمّدًا بلا شكّ أن يعترض سبيلها، ووقف هناك موليًا إيّاها ظهره. كان طويل القامة، نحيفًا عريض المنكبين، حاسر الرأس، غزير الشعر، مرتديًا بدلة ذات لون ضارب للاخضرار، متأنّقًا في ملبسه ومظهره، فلاح غريبًا في هذا الوسط الذي يكتنفه، وسرعان ما أنستها الدهشة ما تولّاها من حنق وتوحّش. هٰذا أفندي وجيه، وأين من زقاقها الأفنديّة؟! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام...

ولكن لم يكن شيء ليردعه فما غتّم أن التفت وراءه مرسلًا نحوها نظرًا عارمًا. وكان وجهه نحيلًا مستطيلًا، لوزيّ العينين، كثيف الحاجبين، تنطق نظرة عينيه بالحذق والقحة. ولم يكتف بهذا التفرّس على الملأ فصوّب فيها نظره، وصعّد من شبشبها المنجرد إلى شعرها، حتّى انساقت وهي لا تدري إلى النظر إلى عينيه كأنّما لتسبر ما تركه تفحّصه من أثر، فالتقت عيناهما، ولاحت في عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحدّ وظفر، فتناست دهشتها، وعاودها الحنق والغيظ والرغبة في العراك،

فغلا دمها غليانًا، وهمّت أن تشتمه علانية. همّت أكثر من مرّة، ولكنّها لم تفعل، وتولّاها قلق وانفعال وضاقت بوقفتها، فنزلت عن الحجر، ومرقت إلى الزقاق مندفعة على عجل، فقطعته في ثوان. وعندما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة في الالتفات إلى الوراء، ولكنّه تمثّل لعينيها في وقفته مرسلًا عينيه في وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته افتضاحًا، فرغبت عن رغبتها، وارتقت السلّم متعجّلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها في تأديبه. واتّجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها، ثمّ دلفت من النافذة المغلقة، ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها، وبحثت عيناها عن ضالّتها حتّى استقرّتا عليه عند مدخل الزقاق، وكان يرمق النوافذ المطلّة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدّي وحلّ محلّها احتفال وتطلّع. وسرّها مظهره الجديد فانفثأ حنقها، ولبثت بموقفها تستلذّ حيرته، وتنتقم لغيظها وحنقها. أفندي وجيه ما في ذلك من شكّ، وغير السابقين بلا جدال، وقد أعجبته وإلّا ففيمَ هذا الاهتمام الشديد. وأمّا نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة تستوجب أعنف عراك!.. فيم هذه الثقة التي لا حدّ لها؟ أيحسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء؟ وخالط ارتياحها حنق، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدّي. ولكنّه بدأ ييأس من النوافذ، وأعياه البحث عنها، وخافت أن ينصرف عن تطلّعه ويغيب في الزحام. وتردّدت لحظة، ثمّ أدارت الأكرة، وفرّجت ما بين مصراعي النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنّما لتشاهد الحفلة. كان موليًا الزقاق ظهره، ولكنّها كانت مطمئنّة إلى أنّه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء. وقد فعل، فتلفّت رأسه مرّة أخرى وتردّد بين النوافذ، حتّى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه، ولبث لحظات كالمرتاب، ثمّ.. ثمّ ارتسمت على شفتيه الابتسامة الوقحة، وردّ إليه مظهر التيه والخيلاء بأفظع ممّا كان وأدركت أنّها انزلقت إلى خطأ لا يُغتفر بظهورها وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغيظ، ووجدت في ابتسامته تحدّيًا يدعوها للنزال! وجدت في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل، وقرأتها بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطّشة للعراك. وبدا الرجل وكأنّ شيئًا لا يمكن أن يقفه عند حدّ فتحرّك مصعّدًا في الزقاق بقدمين ثابتين حتّى خيّل إليها أنّه قادم إلى البيت. ثمّ مال إلى قهوة كرشة، واختار مجلسًا ما بين المعلّم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عبّاس الحلو في الأيّام الخوالي مستطلعًا إلى شبحها وراء الخصاص. خطا بجلوسه هذه خطوة جريئة. ولكنّها لم تتراجع، لبثت بموقفها مرسلة عينيها إلى المسرح وإن كانت لا تكاد تدري بما يدور عليه، شاعرة ببصره يصوّب نحوها من آونة لأخرى في ومضات متقطّعة كالكشّاف الكهربائيّ...

ولم يفارق الرجل مكانه حتّى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة.

وما انفكّت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليالي وعهود...

- ٢٠ -

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدقّ، فكان يجيء عند العصر ويتّخذ مجلسه المختار، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي. وقد أحدث ظهوره الطارئ - بوجاهته وأناقته - دهشة في القهوة، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال، فليس من الخوارق أن يقصد أفندي مثله قهوة مفتوحة لكلّ طارق. بيد أنّه أتعب المعلّم كرشة بما كان يقدّم عند الحساب من أوراق نقديّة ضخمة لا تقلّ في كثير من الأحيان عن الجنيه، كما أنّه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل. وراقبت حميدة مجيئه يومًا بعد يوم بعين متفتّحة ونفس متوثّبة. ولكنّها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليوميّة لرقّة ثيابها وتفاهتها، حتّى ضاقت بالبيت ضيقًا شديدًا. ثمّ أغضبها إحجامها وعدّته نوعًا من الجبن لا يسيغه طبعها الجريء، وعزّ عليها أن يقضي مخلوق عليها بالتزام شيء تستكرهه، فنشبت معركة جديدة في صدرها الذي لا يستريح من المعارك. وقد رأت

الأوراق النقديّة التي كان يتعمّد تقديمها لسنقر تحت بصرها، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها. وربّما كانت هذه لغة ساقطة في غير هذا المكان، أمّا في زقاق المدقّ فهي لغة بليغة لا يخيب لها أثر، ومع أنّ الرجل كان شديد الحرص على ألّا يبدو منه ما ينبّه أحدًا إلى الباعث الحقيقيّ لغشيانه القهوة، إلّا أنّه كان لا يعدم فرصة فيسترق النظر إلى خصاص النافذة، أو يضع مبسم النارجيلة على فيه زامًّا شفتيه كأنّه يقبّله ثمّ يرسل الدخان إلى عَلٍ كأنّما يرسل القبلة في الهواء إلى شبحها الجاثم وراء النافذة. وكانت ترى ذلك باهتمام، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذّة ولا تخلو من حنق. وقد حدّثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعليها، وأن تتلقّاه إذا سوّلت له نفسه التعرّض لها ـ الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شكّ ـ بما تعهده في نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قحته شرّ هزيمة، وأن تسلقه بلسانها سلقًا لا ينساه مدى الحياة. وإنّه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب، وابتسامته الظافرة، وتحدّيه الوقح. تبًّا له، ما الذي يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر؟! لا ارتاح لها بال حتّى تمرّغ أنفه في الرغام، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شبشبًا جديدًا؟!...

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير، إذ سقط السيّد سليم علوان بين حيّ وميت بعد أن منّاها يومًا وبعض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها، وبعد أن نبذت من أحلامها عبّاس الحلو ولفظته. وعلمت بعد ذلك أنّه لم يعد ثمّة أمل في ذاك الزواج المأمول، فرُدّت على رغمها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتًا ونفورًا. وأبت أن تسلّم بسوء حظّها، وراحت تنتهر أمّها، وتتّهمها بأنّها حسدتها وطمعت في مال الرجل فخيّب الله آمالها. على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها. وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعًا. أغضبها زهوه، وأحنقها تحدّيه، وأغرتها وجاهته، وأيقظتها فحولته وجماله. جذبتها نحوه قوّة خفيّة من غرائزها المطمورة، ووجدت فيه ما لم تجتمع لسواه ممّن عرفت من الرجال. القوّة والمال والعراك! ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء، أو تدري حاجات نفسها الملتوية، فتحيّرت بين انجذابها إليه، وبين رغبتها المضطرمة في الأخذ بتلابيبه، ثمّ وجدت في الانطلاق مهربًا من سجنها وحيرتها معًا، وفي فسحة الطريق مجالًا تسبر فيه نفسها وغرائزها. في الطريق يجوز أن يتعرّض لها، فتتاح لها فرصة أن تتحدّاه كما تحدّاها، وأن تنفّس عن غضبها وحنقها، وأن تلبّي هذا النداء الخفيّ الذي يهيب بها إلى النزال والعراك... والانجذاب!

* * *

وفي عصر يوم من تلك الأيّام، أخذت زينتها، والتحفت ملاءتها وغادرت الشقّة لا تعبأ شيئًا في الوجود. وانتهت إلى الطريق في أقلّ من دقيقة، ثمّ قطعت الزقاق لا تلوي على شيء. وخطر لها خاطر وهي تميل إلى الصنادقيّة، ألا يحقّ له أن يظنّ بخرجتها هذه الظنون؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنّها غادرت بيتها عمدًا لتلقاه في الطريق! خصوصًا وأنّه لا يدري شيئًا عن نزهتها اليوميّة المعتادة، وقد جاء أيّامًا فلم يرها يومًا تغادر البيت. فسيتبعها على الأثر، ويتعرّض لها في الطريق وقد أبت أن تقيم وزنًا لظنونه، ورحّبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور، وتوثّبت للقائه بنفس تتحرّق على التحدّي والعراك متوعّدة إيّاه بأن تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة. وبلغت في سيرها الوئيد السكّة الجديدة، فتخيّلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجّلًا حتّى لا يضلّها. ولعلّه ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغوريّة، ولعلّه يفتّش عنها بعينيه المتفرّستين الجسورتين. إنّها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل، بينما لا تكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيّارات وعربات. ترى هل أدرك بصره ما خرج في ابتغائه؟.. وهل عاودته الابتسامة المتحدّية الظافرة؟.. قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره! فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء، حذار من الالتفات، فالتفاتة واحدة شرّ من الهزيمة. إنّه وقح جريء، ولعلّه لا يفصلها الآن سوى خطوات. ترى ماذا هو فاعل! أيقنع بتأثّرها

كالكلب؟ أم يسبقها قليلًا ليريها نفسه؟ أم يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها؟ وواصلت السير متنبّهة قلقة مترقّبة متوثّبة تتوقّع في كلّ خطوة جديدًا وتتفحّص عيناها جميع الذين يلحقون بها من المارّة، وتنصت بيقظة للأقدام التي تتحرّك وراءها. أرهقها الانتظار والتربّص والتوثّب، وكادت تراود إرادتها في التلفّت. بيد أنّها استعادت عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوي على شيء، فما تدري إلّا وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات، فخرجت من غيبوبتها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة، ثمّ سلّمت، ودارت على عقبيها تسير وسطهنّ، وهنّ يسألنها عن سرّ غيابها أيّامًا على غير عادة واعتلّت بالمرض وهي تعاين الطريق لترى موقعه منه. ومضت تنازعهنّ الحديث والمزاح وعيناها تتردّدان من طوار لطوار، ترى في أيّ مكان ينزوي؟ لعلّه يراها من حيث لا تراه، ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم. كانت ترجو أن يتعرّض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه، ولٰكنّه نجا من مخالبها. ولٰكن أين يكون؟ أيمكن أن يكون متأخّرًا عنهنّ إلى الوراء؟ لم تستطع أن تقاوم رغبتها في التلفّت هذه المرّة. فالتفتت، وفحصت الطريق ببصر حادّ، ولٰكنّه لم يكن هناك، لا إلى الوراء ولا إلى الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار! لعلّه تأخّر قليلًا في الإفلات من القهوة فأضلّها، ولعلّه يتخبّط الآن في الطريق لا يدري مكانها! وسرعان ما فترت حماستها وخمد نشاطها. وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنّه ربّما بدا لها هنا فجأة كما بدا يومًا عبّاس الحلو وتجدّد الأمل، ونشطت الحماسة فودّعت آخر صويحباتها، وعادت متمهّلة تقلّب عينيها في جنبات الطريق، ولٰكنّه كان خاليًا أو كان خاليًا ممّن تبتغي. وقطعت ما تبقّى منه بقلب كسير!... تنوء بهزيمة نكراء. وصعدت مع أرض الزقاق، واتّجهت عيناها إلى القهوة، وأخذ المعلّم كرشة يبدو لها شيئًا فشيئًا ابتداء من طرف عباءته فكتفه الأيسر حتّى رأسه المتطامن، ثمّ.. ربّاه ما هذا؟.. إنّه لم يبرح مكانه، قابضًا على خرطوم نارجيلته!.. وخفق قلبها بعنف، وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها، وهرولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها، وارتقت السلّم ذاهلة من الخجل - ولو أنّ الخجل ليس من سجاياها - وما كادت الحجرة تحتويها حتّى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنونيّ، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبة. لمن إذا يجيء القهوة كلّ مساء؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينيه الفاجرتين؟.. ولمن يرسم تلك القبلة الخفيّة في الهواء؟!.. وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب. ثمّ انثالت عليها الفِكَر والخواطر: أيمكن ألّا يوجد ارتباط بين مجيئه كلّ مساء وبين أفكارها، وأن ليست هذه الأفكار إلّا أوهامًا وأحلامًا كاذبة؟... أم إنّه تعمّد أن يهملها اليوم تأديبًا لها وتعذيبًا فهو يعبث بها عبث القويّ بالضعيف؟!... أتنهض إلى القلّة وتقذفه بها فتحطّم رأسه وتروي غلّة الحنق والانتقام؟! واستولى عليها شعور ممضّ بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل، حتّى لقد تساءلت في حيرة عمّا أصابها. بيد أنّها لم تكن تجهل ما كانت تريد. كانت تريد بلا شكّ أن يتبعها وأن يتعرّض لها في الطريق.

ثمّ ماذا؟ ثمّ تقذفه بحمم الغضب، والحنق والوعيد. لماذا؟ تحدّيًا لثقته بنفسه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر. كانت ابتسامة الظفر أصل البلاء كلّه، فأدركت مغزاها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها. هي ابتسامة الصراع والعراك! وإنّها على مساجلتها لقادرة، لا بل إنّها لم تخلق إلّا لتتلقّى هذه الابتسامة ومثيلاتها فتجيب عليها. كانت تأسى على فوات معركة طالما ترقّبتها بلهفة وشغف. وكانت في أعماقها تتحرّق إلى أن تقيس قوّتها بقوّة هذا الرجل ذي الفحولة والجاه والخيلاء. هكذا تيقّظت في عنف وشدّة، وانبثّت في نفسها روح اللهفة والتمرّد والعراك والشوق..

لبثت على الكنبة فريسة لهياجها الوحشيّ، ثمّ تلفّتت إلى النافذة ترمقها شزرًا. وجعلت تتزحزح حتّى صارت وراءها، ثمّ أرسلت بناظريها من خلال الخصاص، تَرى ولا تُرى، ملتفعة بالعتمة التي غشيت

الحجرة. رأته في جلسته الهادئة، يدخّن النارجيلة في طمأنينة وسلام، تلوح في عينيه الثقة بالنفس والحذق، وكأنّه يعيش في عالم وحده منقطع عمّا حوله، وقد خلا وجهه من آثار هذه الابتسامة المثيرة. ها هو هادئ مطمئنّ بينا هي تشتعل نارًا. وتفرّست فيه بقوّة وحنق وما تزداد إلّا انفعالًا وحيرة. وظلّت ملازمة مكانها حتّى نادتها أمّها لتناول العشاء فغادرت الحجرة. وقطعت ليلة مملّة مضنية، ونهارًا كئيبًا، وانتظرت عصر اليوم الثاني في قلق متواصل. لم يكن يداخلها شكّ في مجيئه في الأيّام الماضية. أمّا اليوم فباتت تترقّب قلقة شاردة النفس. وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن أرض الزقاق ويرقى وئيدًا جدار القهوة. ومن عجب أن خامرها الخوف من عدم مجيئه، ولعلّها ابتدعت ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكَيْده. وجاء موعده دون أن يبدو له أثر، وتصرّمت دقائق، فمن المؤكّد أنّه لا يحضر اليوم. بيد أنّ هذا التخلّف قد حقّق ظنّها، فأدركت أنّه تغيّب متعمّدًا: وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتنهّدت من الأعماق ارتياحًا. لم يكن من شيء واضح يدعو للارتياح حقًّا، ولكنّ غريزتها أسرّت إليها بأنّه إذا كان اليوم قد تخلّف عن الحضور متعمّدًا فلا شكّ أنّه بالأمس تعمّد كذلك ألّا يطاردها، فليس ثمّة إهمال أو عدم مبالاة، لا بل على العكس من ذلك فإنّه يخوض غمار المعركة بمهارة وحذق، وإنّه لصامد في الميدان حتّى في هذه الساعة التي لا يُرى له أثر فيها. وارتاحت إلى سرار غريزتها، واطمأنّت إليه، وتوثّبت للنضال بعزم جديد. ونبا بها المكوث في البيت فتلفّعت بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس. ولفح الهواء البارد في الطريق وجهها فأنعشها، وذكّرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر، فغمغمت ساخطة «يا لي من مجنونة!.. كيف جشّمت نفسي هذا العذاب؟! ألا فليزدرده الموت! واستحثّت خطاها حتّى التقت بصويحباتها. ثمّ عادت معهنّ. وقد أنذرنها بأنّهنّ سيفقدن قريبًا إحداهنّ التي ستتزوّج من زنفل صبيّ دكّان طعميّة سيدهم. وقالت إحدى الفتيات:

- لقد خُطبت قبلها ولكنّها ستتزوّج قبلك..

وأثارها قولها فقالت بحدّة وخيلاء:

- إنّ خطيبي مشغول بإعداد مستقبل باهر..

تباهت بالحلو على رغمها، ثمّ ذكرت متحسّرة السيّد سليم علوان - قتله الله ككلّ شيء غير ذي نفع - فتنزّى قلبها ألمًا. وتولّاها الوجوم بقيّة الطريق. شعرت بأنّ الحياة تعاندها وتكيد لها، والحياة هي العدوّ الوحيد الذي لا تدري كيف تأخذ بتلابيبه. وسارت في رفقة الفتيات حتّى آخر الدراسة. ثمّ ودّعت أخراهن ودارت على عقبيها لتعود من حيث أتت. وعلى بعد أذرع رأته - رَجُلها دون غيره - واقفًا على الطوار كالمنتظِر! وثبّتت بصرها عليه لحظات تحت تأثّر المفاجأة التي دهمتها، واعتراها شيء من الارتباك عضّت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة، ثمّ واصلت السير في شبه ذهول. لم تكن مستعدّة لهذا اللقاء، ولم يعد يداخلها شكّ في أنّه كان يتأثّرها طوال هذا الوقت. وهكذا يحكم هو التدبير في هدوء، ويدهمها هي في كلّ مرّة الارتباك والذهول. وأخذت تنادي قواها المبعثرة وتستعدي وحشيّتها، وقد آلمها أشدّ الألم أنّها لم تجد زينتها كما ينبغي، وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق. كان الجوّ متخشّعًا تحت سمرة المغيب، والمكان كالمقفر، وكان الرجل ينتظر دنوّها في هدوء، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدّي ولا لابتسامة الظفر، فلمّا حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلًا:

- مَن يتحمّل مرارة الصبر يبلغ...

ولم تسمع تتمّة عبارته لأنّه غمغمها، فحدجته بنظرة حادّة، ولم تنبس بكلمة، وسارت لحال سبيلها، فسايرها وهو يقول بصوته الهادئ العميق:

- أهلًا وسهلًا. كدت أجنّ بالأمس لأنّي لم أستطع الجري وراءك حذر العيون. وكنت أنتظر مثل تلك الخرجة صابرًا يومًا بعد يوم، فلمّا جاءت الفرصة دون أن أستطيع انتهازها كدت أجنّ..

إنّه يطالعها بوجه وديع، غير الوجه الذي أهاجها، فلا تحدّي ولا ظفر، وكلامه أشبه بالشكوى والتوجّع

والاعتذار، وهي إنّما توثّبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن؟ أتهمل شأنه وتحثّ خطاها فينتهي كلّ شيء؟ تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت. ولكنّها لم تجد مشجّعًا من قلبها، وكأنّها تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأوّل بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها.

وكان الرجل من ناحيته يمثّل دوره بمهارة، ويحيك أكذوبة ماكرة، فلم يكن خوفه الذي أقعده أمس عن تعقّبها، ولكنّه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحتا إليه بأنّ القعود في حالته خير من العجلة، كما أوحتا إليه اليوم بأنّ يتلثّم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة. وعاد يقول لها برقّة:

ـ تمهّلي قليلًا... عندي..

فالتفتت إليه وقاطعته بحدّة:

ـ كيف سوّلت لك نفسك أن تخاطبني!.. أتعرفني يا هذا؟!

فقال بأدبه الزائف:

ـ كيف لا؟.. نحن أصدقاء قدماء.. وقد رأيتك في الأيّام الماضية أكثر ممّا رآك الجيران في أعوام طوال. وفكّرت فيك أكثر ممّا فكّر ألصق الناس بك مدى عمره، فكيف لا أعرفك بعد هذا كلّه؟!

تكلّم برقّة ولكن بلا تلعثم ولا تهدّج.. وازدادت هي تعلّقًا بكلامه ورغبة في مساجلته. وتولّاها شعور بالاستهانة، هو السلاح الوحيد الذي تستطيع أن تشهره في وجه عناد الحياة. بيد أنّها لم ترد الخروج على «سنّة التصنّع والتمثيل»، فقالت بحدّة وهي تحرص على ألّا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن:

ـ لماذا تتبعني؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة:

ـ لماذا أتبعك؟.. لماذا أهمل أعمالي وألزم القهوة تحت نافذتك؟ لماذا أهجر الدنيا جميعًا مقيمًا بزقاق المدقّ؟.. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل؟!

فقطّبت وقالت بازدراء:

ـ لست أسألك حتّى تجيبني بهذه السخافات، ولكنّي أنكر عليك أن تتبعني وتخاطبني.

فقال بلهجة جديدة تنمّ عن الثقة واللباقة:

ـ الأصل أن نتبع الحسناء أينما سارت. هذه هي القاعدة. فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للإنكار حقًّا، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة..

ومرّت عند ذاك بعطفه العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنّت أن يرينها وهذا الأفندي يغازلها! ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة:

ـ ابتعد.. هذا حيّ يعرفني!

وكان يتفحّصها بنظر ثاقب، فأيقن أنّها تجاذبه الحديث وهي لا تدري، أو وهي تدري، فارتسمت على شفتيه ابتسامة لو رأتها لأعادت إلى رأسها ذكريات وحشيّة وقال لها:

ـ لا هذا الحيّ حيّك، ولا هؤلاء الناس أهلك! أنت شيء آخر، إنّك ها هنا غريبة..!

فأمّن قلبها على قوله، وسرّت به سرورًا لم تشعر بمثله لقول قبله. واستدرك الرجل قائلًا كالساخط:

ـ كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات!.. أين هنّ منك؟ أميرة في ملاءة ورعيّة ترفل في الثياب الجديدة..

فقالت بحدّة:

ـ ما لك أنت ولهذا؟ ابتعد..

فقال محتجًا:

ـ لن أبتعد أبدًا..

فسألته بحدّة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بجرأة عجيبة:

ـ أريدك أنت، ولا شيء غيرك..

ـ ذبحة..

ـ سامحك الله. لماذا تغضبين؟.. ألست في الدنيا لتؤخذي؟.. وإنّي لآخذك..

ومرّا في طريقهما ببعض الدكاكين، فنهرته قائلة:

ـ لا تخطُ خطوة واحدة، وإلّا..

فقال مبتسمًا:

ـ الضرب..

وخفق قلبها، وتألّقت عيناها، فقالت:

- صدقت.

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

- سنرى. سأتركك الآن على رغمي، ولكنّي سأنتظرك كلّ يوم.. لن أعود إلى القهوة حتّى لا أثير الشبهات في الزقاق، ولكنّي سأنتظر كلّ يوم، مع سلامة الله يا أجمل من حملت الأرض...

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور «أنت شيء آخر».. أجل، وماذا قال أيضًا؟ «إنّك ها هنا غريبة»... «ألست في الدنيا لتؤخذي؟.. وإنّي لآخذك»... وماذا قال أيضًا؟.. «الضرب..».. داخلتها لذّة جنونيّة، وسرور وحشيّ، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئًا. ولـمّا أوت إلى غرفتها واستردّت أنفاسها، ذكرت في عجب وزهو أنّها استطاعت أن تساير رجلًا غريبًا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك!... وأنّها تستطيع أن تفعل ما تشاء بلا تردّد، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتّى أفلتت منها ضحكة عالية. ثمّ ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه!... فاستولى عليها الوجوم لحظة قصيرة، ثمّ جعلت تعتذر لنفسها بأنّه لم يَلْقَها بذاك الوجه الصفيق المتحدّي، لا بل راح يحدّثها حديثًا رقيقًا مؤدّبًا، لا عن وداعة طبيعيّة، فقلْبها يحدّثها بأنّه نمر يتحيّن فرصة للوثوب، فلتنتظر.. لتنتظر حتّى يتكشّف عن حقيقته، وهنالك؟!.

وعاودتها لذّتها الجنونيّة وسرورها الوحشيّ..

- ٢١ -

كان الدكتور بوشي يهمّ بمغادرة شقّته حين جاءته خادمة الستّ سنيّة عفيفي تدعوه لمقابلة سيّدتها. وعبس وجه الدكتور وتساءل في إنكار «ماذا تريد المرأة؟!.. زيادة إيجار؟!» ولكنّه سرعان ما نفى هذا الظنّ عن خاطره، لأنّ الستّ سنيّة لا تستطيع أن تتحدّى القوانين العسكريّة التي تحدّد أجور المساكن في أثناء الحرب. وغادر شقّته وارتقى السلّم متجهّم الوجه. كان الدكتور بوشي - كعادة السكّان - يستثقل الستّ سنيّة عفيفي، ولا يفتأ يشهّر ببخلها في كلّ زمان ومكان. وقد شنّع عليها يومًا فقال إنّها تفكّر في بناء حجرة خشبيّة على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجّر شقّتها. وضاعف حقده عليها أنّه لم يقدر - ولو مرّة واحدة - على الإفلات من أداء أجرة شقّتها إليها. إذ كانت المرأة تستعين بالسيّد رضوان الحسيني إذا حرج الأمر. فلم يُسَرّ الرجل بهذه الدعوة، ودقّ الباب وهو يتعوّذ قائلًا «لطفك يا دافع البلاء». وفتحت له الستّ بنفسها، وكانت ملتفعة بخمار، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس. ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب، ثمّ قالت له الستّ:

- دعوتك يا دكتور لتكشف على أسناني..

ولاح الاهتمام في عينَي الرجل، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التي لم يتوقّعها قطّ، وشعر نحو الستّ بمودّة لأوّل مرّة في حياته وسألها:

- وهل وجدت ألـمًا لا سمح الله..

فقالت الستّ سنيّة:

- كلّا والحمد لله، ولكنّي فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر...

وتضاعف سرور الدكتور، وذكر ما تهامس به أهل الزقاق من أنّ الستّ ستغدو عمّا قريب عروسًا، فلعب الطمع بقلبه وقال:

- الأوفق أن تركّبي طقمًا جديدًا..

فقالت الستّ:

- هذا ما فكّرت فيه، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك؟

فنهض الرجل واقفًا واقترب منها وهو يقول:

- افتحي فمك..

ففغرت المرأة فاها، وتفحّصه الرجل بعينين ضيّقتين، ولم يجد به إلّا أسنانًا معدودات، فدهش، وأحسّ ببعض الخيبة، ولكنّه حذر أن يهوّن من خطورة عمله، فقال في تؤدة:

- يلزمنا بضعة أيّام لاقتلاع هذه الأسنان، ولكن ربّما اضطررنا إلى الانتظار ستّة أشهر قبل تركيب الطقم حتّى تجفّ اللثّة وتأخذ راحتها.

ورفعت المرأة حاجبيها المزّججين في انزعاج، وكانت تتوقّع أن تزفّ إلى بعلها في بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر، وقالت بجزع:

ـ لا.. لا، أريد عملًا سريعًا، لا يتأخّر عن شهر بحال..

فقال الرجل بمكر وخبث:

ـ شهر يا ستّ سنيّة؟.. مستحيل..؟

فقالت المرأة باستياء:

ـ إذن مع السلامة..؟

فتريّث الرجل قليلًا ثمّ قال:

ـ هنالك سبيل واحد إن شئت..

فأدركت أنّ الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث، وامتلأت حنقًا عليه ولكنّها دارت حنقها لحاجتها إليه، وسألته:

ـ أن أركّب لك طقمًا ذهبيًّا، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة..

وانقبض قلبها خوفًا، وراحت تفكّر في تكاليف الطقم الذهبيّ. وكادت تنبذ اقتراح الرجل لولا أن تذكّرت العروس المرتقب، إذ كيف يمكن أن تلقّي عروسها بهذا الفم الخرب؟ كيف تؤاتيها شجاعتها على الابتسام إليه؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جميعًا أنّ أسعار الدكتور بوشي هيّنة، وأنّه يستبضع طقومه من هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الأثمان، فلا يُسأل من أين يأتي بها، ويحسبهم رخصها. ولكنّ الطقم الذهبيّ ـ على رغم هذه الحقائق جميعًا ـ شيء له خطره، فلذلك تخوّفت المرأة التي ألفت الحرص، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه:

ـ وكم يكلّفني الطقم؟

فقال الدكتور الذي لم يخدع باستخفافها الظاهريّ:

ـ عشرة جنيهات؟

وانزعجت المرأة التي تجهل الأثمان الحقيقيّة للطقوم الذهبيّة وردّدت قوله في إنكار:

ـ عشرة جنيهات!

وتميّز الرجل غيظًا وقال:

ـ إنّ ثمنه لا يقلّ عن خمسين جنيهًا عند أولئك الأطبّاء الذين يتاجرون بفنّهم ولكنّنا وأسفاه قوم سيّئو الحظّ.

وتجاذبا الثمن الذي اقترحه، هو يحاول أن يستمسك به، وهي تروم خفضه حتّى تمّ الاتّفاق على ثمانية جنيهات، وغادر الدكتور الشقّة وهو يلعن في سرّه العجوز المتصابية.

وكانت الستّ سنيّة عفيفي، تلك الأيّام، تلقى الحياة بوجه جديد، كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد كذلك. بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى، وأصبحت الوحدة ضيفًا ضعيف الظلّ يأخذ أهبته للرحيل، وأوشكت البرودة الجاثمة في روحها أن تذوب وتجري ماء دافئًا. بيد أنّ السعادة لا تنهل بغير ثمن، وبغير ثمن فادح أيضًا. ولقد عرفت هذا الثمن الفادح في تردّدها على محالّ الأثاث بشارع الأزهر، ومعارض الثياب بالموسكي. ومضت تنفق ممّا اكتنزت ذاك الدهر الطويل، بل وتنفق بغير حساب. وكانت أمّ حميدة لا تكاد تفارقها في حلّها وترحالها، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة، وبما تقدّم لها من معونة في كلّ خطوة تخطوها، أنّها كنز نفيس لا يقدّر بثمن، وإن كان باهظ التكاليف في الوقت نفسه. ولم تقبض عنها يدها معلّلة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة. على أنّ الأثاث والثياب لم تكن كلّ شيء، ولم يكن بيت العروس الشيء الوحيد الذي يستوجب التجديد، وإنّما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم، وقد قالت يومًا لأمّ حميدة وهي تضحك في غير قليل من الارتباك:

ـ يا ستّ أمّ حميدة. ألا ترين أنّ الهموم قد أشعلت الشيب في سوالفي؟!

فقالت أمّ حميدة التي كانت تعلم أنّ الهموم بريئة ممّا ترميها به:

ـ نداوي الهموم بالصبغة، وهل توجد ثمّة امرأة لا تصبغ شعرها في زماننا هذا؟!

فضحكت المرأة بسرور وقالت:

ـ بورك فيك يا ستّ النساء كلّهنّ. ترى ماذا كنت أفعل بحياتي لولاك أنت؟

وتريّثت قليلًا، ثمّ مسحت على صدرها وقالت:

ـ ربّاه هل يرضي هذا الجسد الجاف عروسك الشابّ؟. . . ولا أثداء ولا أرداف ولا شيء ممّا يجذب الرجال!

فقالت أمّ حميدة:

ـ لا تستقلّي نفسك، ألم تعلمي بأنّ النحافة موضة وأيّة موضة! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصًا عجيبة تسمّنك في وقت قصير. .

وهزّت أمّ حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة:

ـ لا تخافي شيئًا ما دامت أمّ حميدة معك. أمّ حميدة مفتاح سحريّ تفتح له جميع الأبواب المغلقة، وغدًا تلمسين قدري في الحمّام إذا حوانا معًا!

وهكذا كرّت أيّام الاستعداد في نشاط وتعب وسرور وأمل، وصبغ شعر وتحضير عقاقير. وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبيّة، وبين يدي ذلك كلّه نقود تنفق. تغلّبت على عادة الحرص، وطرحت معبودها الأصفر عند قدمي الغد المرموق، وفي سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسّر من مال وثريد للفقراء الذين يحدقون بجامعه، كما نذرت للشعراني أربعين شمعة.

وقد نال العجب من أمّ حميدة كلّ منال وهي تلحظ هذا التغيّر الكبير الذي قلب الستّ سنيّة رأسًا على عقب، فجعلت تضرب كفًّا بكفّ وتقول لنفسها:

ـ هل يستأهل الرجال كلّ هذا العناء؟! جلّت حكمتك يا ربّ فأنت الذي قضيت على النساء أن يعبدن الرجال. . !

ـ ٢٢ ـ

استيقظ عمّ كامل من إغفاءته المزمنة على رنين جرس، ففتح عينيه، وأنصت قليلًا، ثمّ اشرأبّ بعنقه حتّى برز رأسه من الدكّان، فرأى حنطورًا معروفًا يقف أمام الزقاق، فنهض في عناء وهو يقول بسرور ودهشة: «ربّاه، هل عاد السيّد سليم علوان حقًّا؟».

وكان الحوذيّ قد زايل مقعده وهرع إلى باب العربة ليعين سيّده على النزول، واعتمد السيّد على ذراعه، ثمّ ظهر جسمه مقوّسًا، ووقف أخيرًا على الأرض يصلح هندامه. حجبه المرض في أواسط الشتاء، وأعاده الشفاء في أوائل الربيع، وقد غمرت برودة الشتاء القارصة موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طربًا. ولكن أيّ شفاء هٰذا؟! لقد عاد السيّد رجلًا آخر. اختفى الكرش الذي كان يشقّ الجبّة والقفطان وتقعّر الوجه الممتلئ الدمويّ فبرزت وجنتاه وغار خدّاه ولوّح الشحوب بشرته، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس. ولم يتبيّن عمّ كامل بادئ الأمر ما طرأ على السيّد من تغيّر لضعف بصره حتّى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولّاه الانزعاج، وانحنى على يده كأنّما ليخفي انزعاجه، وصاح بصوته الرفيع:

ـ حمدًا لله على السلامة يا سي السيّد. ذا يوم أبيض. والله والحسين ما يساوي الزقاق من غيرك قشرة بصلة. . .

فقال له السيّد سليم وهو يستردّ يده:

ـ بورك فيك يا عمّ كامل. . .

وسار متمهّلًا متوكّئًا على عصاه، يتأثّره الحوذيّ عن كثب، ويتبعه عمّ كامل مترنّحًا كالفيل. والظاهر أنّ رنين الجرس قد أعلن حضوره، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمّال، وأقبل من القهوة المعلّم كرشة والدكتور بوشي، وأحاط به الجميع مهلّلين داعين، ولكنّ الحوذيّ علا صوته وهو يقول:

ـ افسحوا للسيّد من فضلكم، دعوه يجلس أوّلًا ثمّ سلّموا. . .

وأفسحت له اللمّة، فواصل مسيره عابسًا، وفؤاده يغلي حنقًا وغيظًا، وقد ودّ لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه. وما كاد يطمئنّ به مجلسه وراء المكتب حتّى أقبل عمّال الوكالة يستبقون، فلم يجد بدًّا من أن يسلّمهم يده يقبّلونها واحدًا بعد آخر، تأذّيًا من لمس شفاههم، مخاطبًا نفسه: «يا لكم من كذّابين مرائين!. . أنتم والله أصل هذا البلاء!». وتفرّق

العمّال فجاء المعلّم كرشة وشدّ على يده وهو يقول:

ـ مرحبًا بسيّد الحيّ جميعًا.. ألف حمد الله على السلامة..

فشكره السيّد. أمّا الدكتور بوشي فقد قبّل يده وقال له بلهجة خطابيّة:

ـ اليوم يحقّ لنا الفرح، واليوم تطمئنّ جنوبنا، واليوم يتحقّق لنا الدعاء..

فشكره أيضًا مداريًا تأفّفه، لأنّه كان يستكره وجهه الصغير المستدير، ولـمّا أن خلا المكان تنهّد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع: «كلاب.. كلّهم كلاب.. عضّوني بعيونهم الحاسدة!» وراح يطارد أشباحهم في مخيّلته لينقّي صدره ممّا استثاره من حنق وغيظ وتأثّر، ولم يُترك لخلوته طويلًا، فجاءه كامل أفندي إبراهيم وكيله ومثل بين يديه، وسرعان ما نسي بمجيئه كلّ شيء إلّا الحساب والمراجعة، وقال له باقتضاب:

ـ الدفاتر..

وهمّ الرجل بالتحرّك ولٰكنّه استوقفه فجأة كأنّما تذكّر أمرًا هامًّا، وقال له بلهجة آمرة:

ـ نبّه الجميع إلى أنّي من الآن فصاعدًا، لا أحبّ رائحة تدخين (كان التدخين قد حُرّم عليه بأمر الطبيب)، وخبّر إسماعيل بأنّني إذا طلبت إليه ماء أن يهيّئ لي قدحًا نصفه ماء عاديّ والنصف الآخر ماء دافئ. التدخين في الوكالة ممنوع منعًا باتًّا، والدفاتر بسرعة.

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة، متذمّرًا في باطنه لأنّه كان من مدمني التدخين. ثمّ عاد بعد قليل حاملًا الدفاتر، ولم يغب عنه ما ترك المرض في طبع السيّد من تغيّر وتبدّل، فركبه الهمّ، وأيقن أنّه مقبل على حساب عسير. وجلس كامل أفندي قبالة السيّد، وفتح الدفتر الأوّل، وبسطه بين يديه، فبدأت المراجعة، كان السيّد في عمله محيطًا ماهرًا لا تفوته فائتة وإن دقّت، فأكبّ على مراجعة الدفاتر دفترًا دفترًا بهمّة لا تكلّ ولا تملّ، غير راحم نفسه المتهالكة، وقد اتّصل في أثناء ذلك ببعض عملائه متحقّقًا من مواعيد حضورهم، مطابقًا بين أقوالهم وبين المدوّن في الدفاتر، وكامل أفندي صابر متجهّم لا يخطر له الاحتجاج على بال. ولم تكن المراجعة بالشيء الوحيد الذي يتابعه بأفكاره، فكان ينوء صامتًا بأمر تحريم التدخين الذي استصبح به على غرّة، وهو أمر لم يحرّم عليه التدخين في الوكالة فحسب، ولكنّه أضاع عليه في الوقت نفسه ما كان يتفضّل السيّد بتقديمه له من سجائر كوتاريللي الفاخرة. وقد رمق الرجل المُكِبّ على الدفاتر بنظرات غريبة، وقال لنفسه متكدّرًا ساخطًا «ربّاه. لشدّ ما تغيّر الرجل، هٰذا شخص غريب لا يعرفه!» وعجب لشاربه الذي احتفظ به رغم هٰذا التغيّر بضخامته وفخامته في وجه طمست سماته ومعالمه وعفى عليها المرض الخطير فكأنّه نخلة سامقة في صحراء جرداء... وأخرجه الحنق والاستياء عن طوره فقال مخاطبًا نفسه «مَن يدري؟.. لعلّه يستأهل ما نزل به، إنّ الله لا يظلم أحدًا». وانتهى السيّد من المراجعة في زهاء ثلاث ساعات، فردّ الدفاتر إلى الوكيل، وهو يحدجه بنظرة غريبة، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه، ومع ذلك فلا يخلو من الريب. وجعل يخاطب نفسه قائلًا: «سأعاود المراجعة مرّة أخرى لا بل مرّات، حتّى أكشف عمّا تبطن هذه الدفاتر، كلّهم كلاب... بيد أنّهم أخذوا عن الكلاب نجاستها، وزهدوا في أمانتها!» ثمّ خاطب الوكيل قائلًا:

ـ لا تنس ما نبّهتك إليه يا كامل أفندي: رائحة التدخين والماء الدافئ.

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهنّأوه بالسلامة، ثمّ خاضوا فيما لديهم من الأعمال، وقد أراد بعضهم أن يؤجّل عمله تخفيفًا عنه، ولكنّه قال باستياء:

ـ لو كنت عاجزًا عن العمل ما جئت الوكالة..

وما كاد يخلو إلى نفسه حتّى استبدّت به أفكاره الناقمة الموتورة، فراح يصبّ غضبه ـ كديدنه في هٰذه الأيّام الأخيرة ـ على الناس أجمعين. ولطالما قال عنهم إنّهم حسدوه، وإنّهم نفسوا عليه الصحّة والوكالة والخنطور وصينيّة الفريك، فلعنهم من أعماق الفؤاد.

وكثيرًا ما كان يردّد هذه الظنون في أثناء مرضه، ولم تنجُ زوجه نفسها من شرّ ظنونه، فحدجها يومًا بنظرة شزراء، وهي تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدّج ضعفًا وسخطًا:

ـ وأنت يا ستّ لك نصيبك من هذا، فطالما دوّختني بقولك إنّ أيّام الصينيّة انتهت، وكأنّك تنفسين عليّ صحّتي، فالآن كلّ شيء انتهى فقرّي عينًا. .

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلًا، ولكنّه لم يرقّ لها، ولم يلن من حدّته واستدرك يقول مغيظًا محنقًا:

ـ حسدوني. . . حسدوني حتّى زوجتي وأمّ أبنائي قد حسدتني. . . !

ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد. وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة. كان يتهيّأ للهجوع حين أحسّ بنغصة تصدّع لها صدره. وشعوره بحاجة ماسّة إلى تنفّس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير، وكان كلّما عاود المحاولة حزّه الألم وقطّعه الوجع، حتّى استسلم في قنوط وعذاب مريرين. وجاء الطبيب وتجرّع العقاقير، ولكنّه لبث أيّامًا يراوح بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت. وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائغ زوجته وبناته وأبناءه محدقين به، محمّرة أعينهم من البكاء. وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التي يفقد الإنسان فيها كلّ إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطّعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة.

وفي اللحظات القليلة التي استردّ فيها شيئًا من وعيه يتساءل في رجفة باردة «هل أموت؟!» أيموت وحوله الأهل جميعًا؟! ولكنّ الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلّا منتزَعًا من أيدي أحبّائه، فماذا أفاد الأموات تعلّق الأحبّاء بهم؟! ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وأن يتشهّد، فخانه ضعفه، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنيّة ابتلّ بها ريقه الجافّ. ولم يُنسه إيمانه ـ على رسوخه ـ أهوال تلك الساعة، فاستسلم جسمه على رغمه. أمّا روحه، فتعلّقت بأهداب الحياة في فزع وجزع، حتّى سحّت عيناه دمعًا مدرارًا ونطقت نظرتها بالاستصراخ والاستغاثة، ولكن كان في الأجل بقيّة، فجاز طور الخطر، وبلغ برّ النقاهة. ورجع إلى أحضان الحياة رويدًا رويدًا، ومنّى نفسه باسترداد صحّته وعافيته وسابق سيرته. ولكنّ تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتصرت أمنيته، وقضت على أمله، ولم تُبقِ له من الحياة إلّا على شيء يسير. أجل. أجل، نجا من الموت، ولكنّه انقلب شخصًا جديدًا ذا جسم رقيق وروح مريض. وبكرور الأيّام استفحل مرض روحه فصار ضجرًا وتمرّدًا وكراهية وعبوسًا. وقد عجب لهذه العثرة التي اعترضت سبيل حظّه، وتساءل بأيّ ذنب آخذه الله سبحانه؟ وكان ذا ضمير من هٰذه الضمائر الراضية التي تقيم الأعذار لأصحابها وتحسن مسالكهم، وتغضي عن أخطائهم، وكان يحبّ الحياة حبًّا جمًّا، فتمتّع بماله ومتّع به آله، والتزم ـ فيما يظنّ ـ حدود الله، فاطمأنّ بذلك إلى الحياة اطمئنانًا عميقًا، حتّى انتبه منه على هذه الهزّة العنيفة التي ذهبت بصحّته، وأوشكت أن تذهب بعقله. ما ذنبه؟. . . لا ذنب له، ولكنّهم الناس غرماؤه، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبديّ! وهٰكذا أمرّ من نفسه ما كان حلوًا، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم. والحقّ أنّ ما فقد الرجل من صحّته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه.

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه في الوكالة: أحقًّا لم يبق له من الحياة إلاّ أن يقبع في هذا المكان ويراجع الدفاتر؟! وتراءى له وجه الحياة أشدّ تجهّمًا من وجهه. وجمد كالتمثال، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق في أفكاره، حتّى سمع حسًّا عند مدخل الوكالة، فالتفت نحوه فرأى أمّ حميدة مقبلة بوجهها المجدور. ولاحت في عينيه نظرة غريبة، فسلّم، وأنصت بربع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها، وقد شغلته الذكريات القديمة عمّا عداها.

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنّها شيء لم يكن!؟ لقد طافت به ذكراها في نقهه مرّات، ومرّت به

دون أن تترك أثرًا. لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها، ثمّ أنسيها بعد ذلك كأنّها شيء لم يكن، أو كأنّها كانت نقطة في دم الصحّة الذي كان يجري في عروقه، فلمّا أن غاب ونضب تطايرت في الهواء. وغابت من عينيه النظرة الغريبة التي رسمتها الذكريات، وعاد بصره إلى جموده، فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعاها للجلوس. ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية، وتساءل عمّا دعاها للمجيء حقًّا، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة؟! ولكنّ المرأة لم تكن عند سوء ظنّه، لأنّها كانت آيست منه منذ أمد بعيد. ومع ذلك قال لها وكأنّه يعتذر:

ـ أردنا.. وأراد الله...

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة:

ـ لا عليك من هذا يا سي السيّد، وما نسأل الله إلّا الصحّة والعافية.

وسلّمت المرأة مرّة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالًا وأشدّ انقباضًا، وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حنّاء من بين يَدي عامل، فاشتدّ به الغضب، وانتهره بقسوة صائحًا:

ـ ستغلق عمّا قريب الوكالة أبوابها، فابحثوا عن مرتزق جديد...!

ولبث برهة ينتفض من شدّة الغضب والتأثّر. وكأنّ هذا الغضب ذكّره بما اقترحه عليه أبناؤه أخيرًا من تصفية أعماله والخلود للراحة، فتضاعف غضبه وهياجه. وجعل يقول لنفسه إنّها ليست راحته التي يبتغون، ولكنّه المال، ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقًا وهو في عنفوان قوّته؟!.. فالمال طلبتهم، لا صحّته ولا راحته. ونسي في غضبه أنّه ـ هو نفسه ـ كبر عليه أن تنحصر آماله في العمل في الوكالة، وألّا يجد لذّة في الحياة إلّا إرهاق النفس في جمع مال لا يستطيع أن يتمتّع به، ولكنّه العناد الذي أولع به أخيرًا، وسوء ظنّه بالناس جميعًا الذي لم ينجُ أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره... وقبل أن يفيق من حمّى الغضب والهياج سمع صوتًا جهيرًا يقول في عمق وحنان معًا:

ـ حمدًا لله على السلامة... السلام عليكم يا أخي...

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيّد رضوان الحسيني مقبلًا، بجسمه الطويل العريض، ووجهه المشرق المتألّق، فانبسطت أساريره لأوّل مرّة وهمّ بالوقوف، ولكنّ السيّد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول:

ـ حلّفتك بالحسين ألّا ما جلست..

وتصافحا بحرارة. وكان السيّد رضوان قد زار قصر الرجل مرّات في أثناء مرضه. ولمّا لم يمكنه مقابلته بعث له بتحيّاته ودعواته. وجلس السيّد على مقعد قريب وراحا يتحدّثان في رقّة ومودّة. قال السيّد سليم علوان بتأثّر شديد:

ـ نجوت بأعجوبة..!

فقال السيّد رضوان بصوت عميق هادئ:

ـ الحمد لله ربّ العالمين. نجوت بأعجوبة، وتعيش بأعجوبة. إنّ استمرار المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهيّة، فعمر أيّ إنسان فانٍ سلسلة من المعجزات الإلهيّة، وما بالك بأعمار الناس جميعًا، وحيوات الكائنات جميعًا؟! فلنشكر الله بكرة وأصيلًا، آناء الليل وأطراف النهار، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربّانيّة.

وأصغى إليه في جمود. ثمّ تمتم قائلاً بضجر:

ـ المرض شرّ قبيح.

فابتسم السيّد رضوان وقال:

ـ ربّما كان كذلك في ذاته، ولكنّه من ناحية أخرى امتحان إلهيّ، وهو من هذه الناحية خير.

ولم يرتح الرجل لهٰذه الفلسفة، وحنق بغتة على قائلها، فضاع الأثر الطيّب الذي أحدثه مجيئه، ولكنّه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيرًا وقال بلغة وشت بتذمّره:

ـ ماذا فعلت حتّى ينزل بي هذا العقاب؟... ألا ترى أنّي فقدت صحّتي إلى الأبد..

فعبث السيّد بلحيته الجميلة، وقال بشيء من المعاتبة:

ـ أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة؟ حقًّا إنّك رجل طيّب، بارّ، كريم، قوّام على الفرائض، ولكنّ الله امتحن عبده أيّوب وهو نبيّ، فلا تأسَ ولا تحزن، وأبشر بالإيمان خيرًا..

ولكنّ الرجل زاد انفعاله، وقال بحدّة:

ـ أرأيت إلى المعلّم كرشة كيف يحتفظ بصحّة البغال؟

ـ إنّك بمرضك خير منه بصحّته وعافيته..

وغلبه الغضب، فرمق محدّثه بنظرة ملتهبة وقال:

ـ إنّك تحدّث في سكينة وطمأنينة، وتعظ في ورع وتقوى، ولكنّك لم تذق بعض ما ذقت، ولم تخسر شيئًا ممّا خسرت.

وتطامن رأس السيّد حتّى ختم الرجل خطابه، ثمّ رفع رأسه وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين، وسرعان ما استكنّ غضبه وفتر انفعاله، وكأنّه يذكر لأوّل مرّة، أنّه يخاطب أكبر مُصاب من عباد الله. وطرفت عيناه، وتورّد وجهه الشاحب قليلًا، ثمّ قال بصوت ضعيف:

ـ اعذرني يا أخي، إنّي تعب مرهق..

فقال السيّد ولم تفارق الابتسامة شفتيه:

ـ لا عليك من هذا. قوّاك الله وسلّمك. اذكر الله كثيرًا فبذكر الله تطمئنّ القلوب، ولا تدع الأسى يغلب عليك إيمانك أبدًا، فالسعادة الحقّة ترتدّ عنّا على قدر ما نرتدّ عن إيماننا.

فقبض الرجل على ذقنه بشدّة وقال بحنق:

ـ حسدوني. نفسوا عليّ المال والجاه. حسدوني يا سيّد رضوان!

ـ الحسد شرّ من المرض. وإنّه لمن المحزن حقًّا. إنّ الذين ينفسون على إخوانهم حظّهم من المتاع الفاني كثيرون. لا تأسَ، ولا تحزن، وسلّم إلى الله ربّك الرحيم الغفور...

وتحادثا طويلًا، ثمّ ودّعه السيّد رضوان وانصرف، ولبث الرجل هنيهة كالهادئ، ثمّ أخذ يعود رويدًا رويدًا إلى عبوسه وتجهّمه، ونبا به القعود طويلًا، فنهض قائمًا، ومشى متمهّلًا إلى باب الوكالة، ووقف عند مدخلها شابكًا يديه وراء ظهره. كانت الشمس تعلو كبد السماء، والجوّ دافئًا مشرقًا. وقد بدا الزقاق كالمقفر في تلك الساعة من الظهيرة، اللّهمّ إلّا الشيخ درويش الذي جلس أمام القهوة يتشمّس. فلبث السيّد مليًّا، ثمّ تلفّت ـ بحكم عادة قديمة ـ نحو النافذة، فوجدها مفتوحة خالية، وكأنّه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهّمًا عابسًا...

ـ ٢٣ ـ

«... لن أعود إلى القهوة. حتّى لا أثير الشبهات..»، هذا ما قاله لها عند افتراقهما، وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالي لمقابلة الدراسة، ذكرته بخيال حيّ يقظ سعيد. وتساءلت أتذهب للقائه اليوم؟ فأجاب قلبها «نعم» دون خفاء. ولكنّها قالت بعناد: «كلّا.. يجب أن يعود إلى القهوة أوّلًا»، وامتنعت عن الخروج في موعدها المألوف، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون. وانصرمت ساعة المغيب، وأطبق الليل ناشرًا جناحيه، وعند ذاك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوّبًا عينيه نحو الزيق الذي انفرج عنه خصاص النافذة تلوح في وجهه ابتسامة تنمّ عن التسليم، وجلس على كرسيّه المختار. وشعرت وهي ترقبه ببهجة الانتصار، ولذّة الانتقام لعذابها يوم أعياها العثور عليه في الموسكي. والتقت عيناهما طويلًا ـ دون أن تغضي أو ترتدّ عن موقفها ـ فازداد ظلّ ابتسامته امتدادًا، ووشى وجهها بابتسامة وهي لا تدري. ماذا يبغي يا ترى؟ وبدا لها هذا السؤال غريبًا، إذ لا تدري لمثل إلحاحه في طلّابها إلّا معنى واحدًا، سعى إليه من قبل عبّاس الحلو، وطمح إليه السيّد سليم علوان قبل أن يحطّمه الدهر، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندي الوجيه؟! أوَ لم يقل لها: «ألستِ في الدنيا لتؤخذي؟... وإنّي لآخذك..»؟! فما عسى أن يعني هذا إن لم يعن الزواج؟! ولم يعق أحلامها عائق، لشدّة شعورها بقوّتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجامح. وجعلت تنظر إليه من وراء خصاصها المنفرج، وتتلقّى نظراته المسترقة باطمئنان

وثبات وبلا تردّد. وحادثتها عيناه حديثًا عميقًا يعيي اللسان والحواسّ جميعًا، فتردّد صداه في أعماق نفسها محرّكًا غرائزها. ولعلّها وجدت هذا الشعور العميق الصادق - وهي لا تدري - يوم التقت عيناهما أوّل مرّة، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدّية، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر. والحقّ أنّها عرفت قدرًا من نفسها على ضوء عينيه، فلم تعد الضالّة في متاهة الحياة، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عبّاس الحلو الوديعة وثروة السيّد علوان الطائلة، ولكنّها شعرت بأنّ هٰذا الرجل طلبتها، وأنّ ما يستثيره في صدرها.. الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذّتها التي تُجذب إليها بفطرتها، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب، وأنّه رجل من غير الحثالة التي يستعبدها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه الماليّة. وراحت ترنو إليه بعينين متألّقتين تذكيان ضياء مَن وجد وتوثّب، ولم تبرح مكانها حتّى غادر القهوة وهو يودّعها بابتسامة خفيفة، فأتبعته ناظريها وهي تقول وكأنّها تتوعّده «غدًا».

وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدّي والهيام بالحياة. وما كادت تخرج من الصنادقيّة حتّى رأته عن بعد واقفًا عند ملتقى الغوريّة بالسكّة الجديدة، فلاحت في عينيها لمعة خاطفة، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشيّة في القتال! وقدّرت أنّه سيتبعها في الذهاب والإياب حتّى يخلو لهما الجوّ في الدراسة. فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء، واقتربت منه كأنّها لا تراه، ولكن حدث - وهي تمرّ به - ما لم يقع لها في حسبان، فقد سار معها ومدّ يده بجرأة لا توصف فقبض على راحتها، وقال لها بهدوء متجاهلًا المارّة والواقفين:

- مساء الخير يا عزيزتي..

أُخذت على غرّة، فحاولت أن تستردّ يدها ولكنّها لم تفلح، وخافت إن أعادت الكرّة أن تستلفت الأنظار، فاستولى عليها الارتباك والغيظ، ووجدت نفسها بين اثنتين فإمّا غضب وفضيحة وجرسة ثمّ قطيعة، وإمّا استسلام تستكرهه لأنّه فُرض عليها فرضًا مقهرًا، فامتلأت حنقًا، وهمست بصوت منخفض متهدّج من الغضب:

- كيف تجرؤ على هٰذا؟.. دع يدي بسرعة..

فأجابها بهدوء وهو يمشي إلى جانبها كأنّهما صديقان ينطلقان معًا:

- حلمك.. حلمك، لا كلفة بين الأصدقاء..

فقالت وهي تتميّز غيظًا:

- الناس... الطريق...

فاستعطفها بابتسامة قائلًا:

- لا تبالي أناس هذا الطريق، فهم مجانين المال، ولا يرون إلّا ما في رءوسهم من حسابات. هلّا ملت إلى دكّان صائغ فانتقيَ منه حلية تليق بحسنك...؟

فاشتدّ غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد:

- أتتظاهر بأنّك لا تعبأ شيئًا؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- لست أقصد إثارتك، ولكنّي انتظرتك لنتمشّى معًا، ففيم غضبك؟

فقالت بقوّة:

- إنّي أمقت هٰذا التهجّم فاحذر أن تُخرجني عن وعيي.

وطالع نذر الشرّ في وجهها فسألها في رجاء:

- أتعدينني بأن نسير معًا؟

فهتفت به:

- لا أعد شيئًا.. دع يدي..

فأطلق يدها دون أن يبتعد عنها، وقال لها متملّقًا:

- يا لك من جبّارة عنيدة. هاك يدك، ولكنّنا لن نفترق، أليس كذلك؟

وتنهّدت في غيظ، ونظرت إليه شزرًا وهي تقول:

- يا لك من سمج مغرور!

فتقبّل الشتيمة بابتسامة وصمت، وسارا جنبًا لجنب دون أن تبتعد عنه، وذكرت كيف تربّصت له بالأمس القريب لتمثّل به في هذا الطريق، ولكنّها الآن لا تفكّر في هذا وحسبها أنّها أجبرته على إطلاق يدها، بل لعلّه

لو حاول استردادها مرّة أخرى لما مانعت، وهل كانت غادرت بيتها وفي عقلها شيء غير لقائه؟!. وفضلًا عن هذا كلّه فقد ساءها أن يبدو أشدّ طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى جانبه غير عابئة بالسابلة، متخيّلة ما سيحدثه منظره في نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد، وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجامحة في الحياة والمغامرة.. وراح الرجل يقول:

- إنّي أعتذر عمّا بدر منّي من خشونة، ولكن ما حيلتي في عنادك؟! تعمّدت تعذيبي، وما أستحقّ إلّا عطفك جزاء ما أكنّ لك من عاطفة صادقة وما أبذل في سبيلك من عناء متّصل..

ما عسى أن تقول له؟ إنّها ترغب أن تخاطبه، وأن تبادله الحديث، ولكنّها لا تدري كيف، خصوصًا وأنّ آخر ما نطقت به كان نهرًا وشتيمة، وقطع عليها تفكيرها أن رأت صويحباتها مقبلات غير بعيدات، فقالت بارتياع كاذب:

- صاحباتي...!

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركّزن عليه نظرات متفحّصة. وعادت تقول بلهجة تنمّ عن التأنيب، وهي تداري سرورها:

- فضحتني..!

فقال بازدراء، وإن سَرّه أن تلازم جانبه، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق:

- لا عليك منهنّ... فلا تباليهنّ...

واقتربت الفتيات، فبادلتهنّ نظرات ذات معانٍ، وهي تذكر بعض ما قصصن عليها من مغامرات، ثمّ مررن بهما متضاحكات متهامسات. وعاد الرجل يقول في خبث ودهاء:

- هؤلاء صاحباتك؟... كلّا، لا أنت منهنّ ولا هنّ منك، ولكنّي أعجب كيف يتمتّعن بحرّيّتهنّ بينما تقبعين أنت في البيت. وكيف يرفلن في الثياب الزاهية بينا تلتحفين أنت في هذه الملاءة السوداء! كيف حدث هذا يا مليحة؟... أهو الحظّ؟ ولكن يا لك من صابرة متجلّدة..؟!

وتورّد وجهها، وخيّل إليها أنّها تصغي إلى قلبها يتحدّث، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسًا وعاطفة، واستدرك بثقة ويقين:

- هذا حُسْن خليق بالنجوم...

وابتهلت هذه الفرصة لتبادله الحديث، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطريّة، وتساءلت وهي لا تدري ما يعنيه:

- النجوم؟!

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال:

- نعم. ألا تذهبين إلى السينما؟... يدعون الحسناوات من الممثّلات بالنجوم.

وكانت تذهب إلى سينما أوليمبيا مع أمّها في فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصريّة، فأدركت ما يعنيه، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الورديّة في خدّيها وساد الصمت خطوات ثمّ سألها برقّة:

- ترى ما اسمك؟

فقالت بلا تردّد:

- حميدة..

فقال مبتسمًا:

- أمّا الذي سحرتِ لبّه ففرج إبراهيم. في مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنّهما واحد، أليس كذلك يا ستّ الملاح؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السبّ والعراك مثلًا! إنّه يحسن الحديث ولكنّها عاجزة عن مجاراته، وقد ضايقها ذلك، ولم تقنع بالدور السلبيّ الذي يلذّ بنات جنسها، وتشوّقت بفطرتها إلى شيء آخر، غير الانتظار والسكوت والحياء. ولـمّا كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور، فقد ساورها قلق وانفعال، وحدجته بنظرة ثاقبة. وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت، ولم تر بدًّا من أن تقول وهي تدفن حسرتها في أعماقها:

- الآن نعود.

فقال بإنكار:

ـ نعود!

ـ هذه نهاية الطريق.

فقال محتجًّا:

ـ ولكنّ الدنيا لا تنتهي بانتهاء الموسكي. لماذا لا نجول في الميدان!

فقالت على رغمها:

ـ لا أريد أن أتأخّر عن موعد عودتي، أن تقلق أمّي..

فقال بإغراء:

ـ إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة في دقائق معدودات.

تاكس! رنّت الكلمة في أذنيها رنينًا عجيبًا. ولم تكن ركبت في حياتها إلّا العربة الكارو. ومضت ثوانٍ قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة، بيد أنّ الأمر لا يخلو من اعتبار آخر وهو ركوب التاكس مع رجل غريب، إلّا أنّها وجدت في هذا الاعتبار داعيًا للهجوم لا للنكوص، وتولّاها نزوع طاغٍ إلى المغامرة، كأنّما لقيت فيه ترويحًا عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذي أعياها الإفصاح عنه قبل ذاك بقليل، ولم تكن تدري أنّ بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتّى ليتعذّر القول أيّها كان أشدّ استحواذًا على مشاعرها في تلك اللحظة: الرجل الذي حرّك أعماقها أم المغامرة ذاتها، ولعلّهما كانا الاثنين معًا. ولاحت منها نظرة إليه فرأته ينظر إليها بإغراء وعلى شفتيه ظلّ الابتسامة التي طالما أهاجتها، فتغيّر شعورها وقالت:

ـ لا أريد أن أتأخّر..

فشعر بخيبة وقال متأسّفًا:

ـ أتخافين...؟

فازداد شعورها حدّة وقالت بتحدٍّ:

ـ لست أخاف شيئًا..

فأضاء وجهه، وكأنّه عرف أشياء وأشياء، وقال بسرور:

ـ سأدعو تاكس..

وكفّت عن المعارضة، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفهما حتّى وقف قبالتهما، وفتح الباب لها، فانحنت قليلًا خافقة الفؤاد وهي تقبض على مساك ملاءتها، وصعدت إليه. وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح «وفّرنا تعب يومين أو ثلاثة أيّام». ثمّ سمعته وهو يقول للسائق «شارع شريف باشا...». شريف باشا، لا المدقّ ولا الصنادقيّة ولا الغوريّة ولا حتّى الموسكي، شريف باشا!.. ولكن لماذا عيّن هذا الشارع بالذات؟!.. وسألته:

ـ أين تقصد؟

فقال، وكان كتفه يمسّ كتفها:

ـ نجول قليلًا ثمّ نعود...

وتحرّك التاكس فتناست كلّ شيء إلى حين، حتّى ذلك الرجل الذي يكاد يلتصق بها. وقلقت عيناها بين الأنوار التي تتخطّفها، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة. وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها، فانبعثت في نفسها نشوة مطربة، وتهيّأ لها أنّها تطير طيرانًا، وتحلّق في سماء الدنيا، وكأنّ وجدانها من البهجة يسجع شاديًا متجاوبًا مع انسياب الحركة وتجدّد المناظر والأنوار، حتّى تألّقت عيناها بوميض مشرق، وافترّ ثغرها عن إشراق وذهول. وجرى التاكس في خفّة، يخوض خضمًّا من العربات والسيّارات والترام والناس، وجرى معه خيالها، فاستحرّ حماسها، وسكرت مشاعرها، ورقص قلبها ودمها وخواطرها. ثمّ أفاقت إفاقة مباغتة على صوته يهمس في أذنها قائلًا: «انظري إلى الحِسان كيف يرفلن في ثيابهنّ النورانيّة.». أجل... إنّهنّ يتهايلن مبعثرات كالكواكب المنيرة... ما أجملهنّ، ما أبدعهنّ! وذكرت عند ذاك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب. وعضّت على شفتها في امتعاض، ثمّ تملّكتها مرّة أخرى روح التمرّد والثورة والعراك! وتنبّهت إلى أنّه التصق بها وهي لا تدري، فأخذت تستشعر مسّه الذي انتشر في حواسّها، وحمي به قلبها، فهفّت إليه بقوّة فوق إرادتها. ورنا إليها بلحظ كأنّما يستطلع ميولها، ثمّ تناول راحتها بلطف

وجعلها بين راحتيه، وتشجّع باستسلامها فهوى بفمه إليها. وكأنّها أرادت أن تتّقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلًا، ولكنّه لم يجد في ذلك رادعًا كافيًا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت في أعماقها رعدة، وشعرت برغبة جنونيّة تدعوها إلى أن تعضّ شفتيه حتّى تدميهما!... رغبة جنونيّة حقًّا، ركبتها كما يركبها عفريت العراك، ولكنّه ارتدّ عنها قبل أن تنفّذها! ولبثت شعلة الجنون متأجّجة في صدرها تهيب بها إلى أن ترتمي على صدره وتنشب أظافرها في رقبته، حتّى أنقذه منها صوته وهو يقول برقّة:

ـ هٰذا شارع شريف باشا... وهذا بيتي على بعد خطوات، ألا تحبّين أن تريه؟!

والتفتت متوتّرة الأعصاب إلى حيث تومئ سبّابته فرأت عمارات تناطح السحاب لم تدر أيّتها يعني. وأمر السائق بالوقوف أمام واحدة منها، وقال لها:

ـ في هذه العمارة...

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدقّ، ثمّ ارتدّ عنها طرفها في حيرتها، ثمّ سألت بصوت منخفض:

ـ في أيّ طابق..؟

فقال مبتسمًا:

ـ الأوّل. لن تتجشّمي مشقّة إذا تفضّلت بزيارتها...

فرمقته بنظرة حادّة منتقدة فاستدرك قائلًا:

ـ ما أسرع غضبك!.. ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه العيب في ذلك؟ لم أزرك دوامًا منذ وقعت عليك عيناي فلماذا لا تردّين الزيارة ولو مرّة واحدة؟

ماذا يريد الرجل؟.. أتحدّثه نفسه بأنّه وقع على صيد سهل؟.. أأطمعته القبلة التي استسلمت لها فيما هو أجلّ وأخطر؟ هل أعماه غروره وشعوره بالظفر؟!.. وهل هذا مآل الحبّ الذي أفقدها وعيها؟! واشتعل الغضب بقلبها، وتوثّبت جميع قواها للنضال والتحدّي، وتمنّت لو تطاوعها نفسها على السير معه إلى حيث يريد، لتريه من نفسها ما يجهل، ولتردّ إليه صوابه. أجل، دعاها شعورها المتمرّد الجامح إلى خوض غمار هذه المعركة. وهل كان في وسعها أن تدعى إلى النزال ثمّ تعرض عن الداعي؟! لم يكن الذي يستفزّها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهٰذه جميعها اعتبارات لم تألف الغضب لها أو الغيرة عليها، ولكنّه غَضَبٌ لكبريائها وشعورها الطاغي بقوّتها ورغبتها الجنونيّة في الملاحاة والعراك، ولم تخلُ أيضًا من جنون المغامرة الذي قذف بها إلى التاكس! وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير وسخرية معًا: «محبوبتي من النوع الخطر الذي يفرقع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر»، ثمّ قال لها برجاء ورقّة:

ـ أرجو أن أقدّم لك قدحًا من الليمون..

ورمته بنظرة قاسية متحدّية، ثمّ غمغمت:

ـ لك ما تشاء..

وفتح الباب مسرورًا، وانزلق إلى الطريق، وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة، ووقفت تتفحّص المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق. وجرت خواطرها إلى الزقاق الذي خرجت منه اليوم، وعجبت للمغامرات التي اقتحمتها غير هيّابة حتّى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة! مَن يصدّق هذا؟! وما عسى أن يقول السيّد رضوان الحسيني مثلًا لو رآها تمرق إلى هذه العمارة؟ وارتسمت ابتسامة على شفتيها، وداخلها شعور غريب بأنّ هذا اليوم هو أسعد أيّام حياتها على الإطلاق.

وهرع الرجل إليها، وأخذ يدها، فدخلا العمارة معًا. وارتقيا سلّمًا عريضًا إلى أوّل طابق، ثمّ سارا في ردهة طويلة إلى باب شقّة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحًا عالج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح «اكتسبت يومًا أو يومين آخرين!»، ثمّ دفع الباب وأوسع لها، فدخلت ودخل وراءها، ثمّ أغلقه. وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحدق به الحجرات من الجانبين، ويضيئه مصباح كهربائيّ قويّ الإشعاع. ولم تكن الشقّة خالية، ففضلًا عن المصباح الذي كان مضاء قبل مجيئها ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة، كلام وزعق وغناء! واتّجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه،

ودعاها للدخول، فانتقلت إلى حجرة متوسّطة، مؤثّثة بمقاعد جلديّة ما بين كراسيّ وكنبات، تتوسّطها سجّادة مربّعة مزركشة وفي الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف، وتنهض على منضدة مستطيلة مذهّبة الأرجل، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة في عينيها بسرور وقال لها بلطف:

ـ اخلعي ملاءتك وتفضّلي بالجلوس..

فاقتعدت كرسيًّا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريّين، وتمتمت بلهجة تنمّ عن التحذير:

ـ ينبغي ألّا أتأخّر..

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها «ترموث» وفضّ سدّادته وأفرغ منه في قدحين (شراب الليمون المثلوج)، وقدّم لها قدحًا وهو يقول:

ـ سيعود بك التاكس في دقائق..

وشربا معًا حتّى رويا، ثمّ أعاد القدحين إلى المائدة، وفي أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق. وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيّتها، كانت جميلة التكوين، رشيقته، سبطة الأنامل، توحي بالقوّة والجمال معًا، فنالها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرته من قبل. وجعل يطيل النظر إليها مبتسمًا ابتسامة رقيقة كأنّما يطمئنها ويشجّعها، ولكنّها لم يداخلها ظلّ من الخوف وإن توتّرت أعصابها قليلًا من الحذر والتوجّس والتوثّب، وذكرت الأصوات التي سمعتها حال دخولها الشقّة، فعجبت كيف نسيتها، وسألته:

ـ ما هذه الضوضاء في الشقّة؟

فأجابها قائلًا وكان لا يزال واقفًا قبالتها:

ـ بعض الأهل وسوف تعرفينهم في الوقت المناسب... لماذا لم تخلعي ملاءتك؟

وكانت ظنّته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته، فعجبت كيف يقودها إلى بيت مأهول. وتجاهلت سؤاله الأخير، ولبثت ترنو إليه بسكينة وتحدٍّ، ولم يعاود سؤاله، ولكنّه اقترب منها حتّى مسّ حذاؤه شبشبها، ومال نحوها قليلًا ثمّ مدّ يده إلى يدها فشدّ عليها، وجذبها برقّة وهو يقول:

ـ هلمّي نجلس على الكنبة.

ولم تمانع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبًا لجنب على كنبة كبيرة. وكانت تتقاسمها في تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذي تحبّه وأحاسيس التحدّي للرجل الذي قد تمنّيه نفسه بأنّه قادر على الضحك على ذقنها. واقترب الرجل منها رويدًا حتّى لاصقها، ثمّ أحاط خاصرتها بذراعه، وهي مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحقّ لها المقاومة، ومدّ يسراه إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهّلًا كأنّه ظمآن يكرع من جدول، حتّى التقت الشفاه. وطال التقاؤهما كأنّما أخذتها سنة من الغرام. وأمّا هو فكان يستجمع حرارته وقوّته في شفتيه لينفذ بهما إلى ما يريد، أمّا هي فكانت تسكر وتثمل، إلّا أنّ توثّبها أفسد عليها رقية السحر التي تحرق شفتيها فظلّت متنبّهة متربّصة. وأحسّت يده تسترخي عن خاصرتها، وترتفع إلى منكبها، ثمّ تهفو الملاءة عنه، فخفق فؤادها بعنف، وتصلّب عنقها مبتعدًا عنه، وأعادت الملاءة بحركة عصبيّة إلى موضعها وهي تقول بجفاء:

ـ كلّا...

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعناد والتحدّي، فابتسم متباهلًا وهو يقول لنفسه «هي كما ظننت متعبة، بل متعبة جدًّا».. ثمّ خاطبها قائلًا بصوت منخفض:

ـ لا تؤاخذيني يا عزيزتي فقد نسيت نفسي...

وأدارت وجهها عنه لتخفي ابتسامة ارتسمت على شفتيها سرورًا بالظفر، ولكنّ ذلك لم يطل أمده فقد وقع بصرها اتّفاقًا على يده فأدركت لأوّل وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة، وتولّاها الحياء ثمّ قالت له باستياء:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا؟... هذا شيء سخيف!

فقال معترضًا بحماس:

ـ هذا أجمل شيء فعلته في حياتي!... لماذا تستوحشين من بيتي! أليس هو بالتالي بيتك أيضًا؟!

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه

الملاءة، فأدنى رأسه ولثمه قائلًا:

ـ لله ما أجمل شعرك!... إنّه أجمل شعر رأيته في حياتي.

قال ذلك صادقًا رغم رائحة الغاز التي ذابت في أنفه، فلذّها إطراؤه بيد أنّها سألته:

ـ إلامَ نبقى هنا؟

ـ حتّى يتمّ التعارف بيننا، فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء ينبغي أن نقولها، أخائفة أنت؟.. محال!.. أراك لا تخافين شيئًا!

فغلبها السرور حتّى اشتهت أن تقبّله، ورنق الصفاء في صدرها. وكان يتفرّس في وجهها فقال لنفسه «الآن فهمتك يا ابنة اللبؤة!» ثمّ قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة:

ـ لقد اختارك قلبي، وقلبي لا يكذّبني، ومن يجمعهما الحبّ لا يفرّقهما شيء، فأنت لي وأنا لك...

وأدنى وجهه منها كالمستأذن، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا في قبلة عنيفة، واستشعر ضغط شفتيها الساحر على شفتيه يكاد يعصرهما، فهمس في أذنها:

ـ محبوبتي... محبوبتي...

وزفرت من الأعماق، ثمّ اعتدلت في جلستها لتستردّ أنفاسها. وراح يقول برقّة بالغة في صوت كالهمس:

ـ هنا مكانك، وهذا بيتك، بل هنا «وأومأ إلى صدره» مأواك... فضحكت ضحكة قصيرة وقالت:

ـ أراك تذكّرني بأنّه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت...

وكان في الواقع يستلهم خطّة مرسومة من قبل، فقال بإنكار:

ـ أيّ بيت تعنين؟.. بيت الزقاق!... آه، ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحيّ جميعًا. ماذا يعجبك في هٰذا الزقاق؟ لماذا تعودين إليه؟!

فضحكت الفتاة قائلة:

ـ كيف تسألني عن هٰذا؟! أليس هو بيتي وأهلي؟!

فقال بازدراء:

ـ لا البيت بيتك، ولا الأهل أهلك. إنّك من طينة أخرى يا محبوبتي، ومن الكفر أن يعيش جسم حيّ نضير في مقبرة مليئة بالعظام النخرة. ألم تري إلى الحسان يرفلن في الثياب الفاخرة؟ وإنّك لتفوقينهنّ جمالًا وفتنة، فكيف لا تخطرين مثلهنّ في المطارف والحليّ؟.. إنّ الله أرسلني إليك لأردّ إلى جوهرك النفيس حقّه المسلوب. وعلى ذلك أقول إنّ هٰذا بيتك وكفى...

ولعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان، فخدر شعورها، وتقارب جفناها، ولاحت في عينيها نظرة حالمة. ولكنّها تساءلت ماذا يعني يا ترى؟... هذا حقًّا ما يهفو إليه فؤادها، فما السبيل إلى تحقيق الأحلام وتقريب المنى؟.. لماذا لا يفصح عمّا يريد ويصرّح بما ينوي؟.. إنّه يعبّر أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها، إنّه ينطق بلسانها الخفيّ ويشي بأعماقها جميعًا، إنّه يجلو الغامض الخفيّ ويجسّم المعروف حتّى لكأنّما تراه رؤية العين، إلّا شيئًا واحدًا لم يمسسه صراحة، ولم يقتحم السبيل إليه، فما حكمة التردّد يا ترى؟! ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسألته:

ـ ماذا تعني..؟

فشعر الرجل بأنّه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطّته المرسومة، ورماها بنظرة منوّم بارع ثمّ قال بصوت خافت:

ـ أعني أن تبقي في البيت اللائق بك، وأن تتمتّعي بأسعد ما تجود به الحياة..

وضحكت ضحكة قصيرة في ارتباك وحيرة وتمتمت:

ـ لا أفهم شيئًا...

فمسح على مفرق شعرها بحنان، متعوّذًا بالصمت ريثما يرتّب أفكاره ثمّ قال:

ـ لعلّك تتساءلين كيف يريدني على أن أبقى في بيته؟!.. فَأْذني لي أن أسألك بدوري لماذا تعودين إلى المدقّ؟.. ألتنتظري هناك شأن الفتيات البائسات حتّى يتعطّف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوّجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغضّ ثمّ يتركك لقى في الزبالة؟! لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة وتجيء بها أخرى، ولكنّي أعلم علم اليقين أنّك

شابّة قليلة الأشباه، جمالك فتّان، ومع ذلك فهو مزيّة واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطّي عليه. أنت الجسارة نفسها، ومثلك إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون...

وانكفأ لونها، وجمدت قسماتها، فقالت بحدّة:

ـ هذا دعابة لا تجوز عليّ!.. بدأت مازحًا، وانتهيت وكأنّك جادّ..!

ـ دعابة؟!.. لا والله، لا وحقّ قدرك عندي. أنا لا أداعب حين الجدّ خاصّة شخصًا مثلك ملأني تقديرًا واحترامًا وحبًّا. وإذا صدق حدسي فأنت قلب كبير يستهين بكلّ شيء في سبيل سعادته، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة. إنّي أريد شريكًا في حياتي، وإنّك لشريكي دون الناس جميعًا...

فهتفت به في انفعال شديد:

ـ أيّ شريك؟!.. إذا كنت تجدّ حقًّا فماذا تريد؟.. الطريق بيّن. فإذا أردت...

وكادت تقول «أن تتزوّجني» ولكنّها أمسكت، وسدّدت نحوه نظرات حادّة مريبة، فلم يفته مرادها، واستشعر سخرية باطنة، ولكنّه واصل سيره حيث لم تعد ثمّة فائدة ترجى من التراجع، فقال بحماس تمثيليّ:

ـ أريد شريكًا محبوبًا نقتحم معًا حياة النور والثروة والجاه والسعادة، لا حياة البيت التعسة والحَبَل والولادة والقذارة، حياة النجوم اللاتي حدّثتك عنهنّ..

وفتحت فاها منزعجة، ثمّ انبعث من عينيها نور مخيف، واصفرّت غضبًا وحنقًا، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها:

ـ تدعوني للفساد!.. يا لك من مفسد أثيم...

هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التي دهمتها والخيبة التي أدركتها أكثر منه للفساد الذي لم تعتد أن تثور له!

وتبسّم الرجل كالهازئ وقال:

ـ إنّي رجل...

ولكنّها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامي:

ـ لست رجلًا، بل أنت قوّاد..

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك:

ـ أليس القوّاد رجلًا أيضًا؟!.. بلى... وهو رجل ـ وحقّ جمالك الفتّان ـ ولا كلّ الرجال. وهل تجدين عند الرجل العاديّ غير وجع الدماغ!؟ أمّا القوّاد فهو سمسار السعادة في هذه الدنيا! ولكن لا تنسي أنّي محبّك كذلك. لا تدعي الغضب يحطّم حبّنا. إنّي أدعوك للسعادة والحبّ والجاه. ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك، ولكنّي قدّرتك فآثرت معك الصراحة والحقّ. إنّ كلينا من معدن واحد، خلقنا الله للحبّ والتعاون، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحبّ والمال والجاه، وإذا افترقنا للشقاء والفقر والذلّ، أو افترق أحدنا ـ على الأقلّ ـ لذلك...

ولم تتحوّل عنه عيناها، وراحت تتساءل في ذهول كيف تمخّض عن هذا؟! ولبث صدرها يجيش بالهياج والانفعال، ومن عجب أنّها ثارت به ووجدت عليه وتغيّظت منه، ولكنّها لم تحتقره، ولم تنفكّ عن حبّه لحظة واحدة! لا بل لم تنس ـ حتّى في عنفوان هياجها ـ أنّها تصارع الرجل الذي لقّنها الحبّ وثبّته في أعماقها. وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة في حركة عنيفة وقالت في سخط وغيظ:

ـ لست كما تظنّ...

فتنهّد بصوت مسموع متكلّفًا الحزن، وإن لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال، وقال بصوت أسف:

ـ لا أكاد أصدّق أنّي انخدعت بك. ربّاه! أتصبحين يومًا من عرائس المدقّ؟! حَبَل وولادة، وحَبَل وولادة، إرضاع أطفال على الأرصفة، ذباب وبصّارة وفول، ذبول وترهّل؟!... كلّا، كلّا... لا أريد أن أصدّق هذا...

فصاحت به غير متمالكة نفسها:

ـ كفى...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعًا، ولحق بها وهو يقول برقّة «رويدك»، ولكنّه لم يعترضها ففتح لها الباب، وخرجا معًا. جاءت سعيدة غير هيّابة، وذهبت مهيضة ذاهلة. ووقفا أمام الباب الخارجيّ حتّى جاءهما

غـلام بتـاكس ودخـلاه كـلّ من بـاب، ومضى بهـما مسرعًا. ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا، وجعـل يسترق إليها النظر صامتًا دون أن يجد حكمة في خرق الصمت المخيِّم. وانطوى الطريق على هذا الحال حتّى بلغ التاكس منتصف الموسكي، فأمر السائق بالوقوف، وتنبّهت عـلى صوتـه فألقت ببصرهـا إلى الخـارج ثمّ تزحزحت قليلًا استعدادًا للنزول، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها، ولٰكنّه تريّث قليلًا، ثمّ مال نحوها فلثم منكبها وهو يقول:

ـ سأنتظرك غدًا. . .

فابتعدت عن الباب وهي تقول باقتضاب وحدّة:

ـ كلّا. . .

فقال ويده تدير الأكرة:

ـ سأنتظرك يا محبوبتي. . . وستعودين إليّ. . .

ثمّ قال لها وهي تغادر التاكس:

ـ لا تنسي الغد، سنبدأ حيـاة جديـدة رائعة. . . أحبّك. . . أحبّك أكثر من الحياة نفسها. . .

وراح يرقبها وهي تبتعد متعجّلة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسـه «مليحة بـلا أدنى شـكّ، وهيهـات أن يكـذّبني ظنّي، فهي مـوهـوبـة بالفطرة. . . هي عاهرة بالسليقة. . . وسـوف تكون نادرة المثال. . .».

ـ ٢٤ ـ

سألتها أمّها:

ـ لماذا تأخّرت. . . ؟

فأجابتها بلا مبالاة:

ـ دعتني زينب إلى بيتها فذهبت معها.

فبشّرتها المرأة بأنّها سيشهدان عـرس الستّ سنيّة عفيفي عمّا قريب، وأخبرتها أنّ الستّ ستهدي إليها فستانًا لحضور الزفـاف، فتظاهـرت حميدة بـالسرور، وجلست تصغي إلى ثرثرة أمّها ساعة طويلة، ثمّ تناولتا عشاءهما وأوتا إلى حجرة النوم، وكانت حميدة تنام على كنبة قديمة، أمّا أمّها فتفرش حشيّة على أرض الغرفة تستلقي عليها. ولم تكد تمضي دقائق حتّى راحت الأمّ في نوم عميق، وملأت الحجرة شخيرًا. ولبثت حميدة محملقة في النافذة المغلقة وقد نضح خصـاصها بنـور القهوة المتصاعد. استحضرت ذاكرتها حوادث يـومها العجيب فلم يفتهـا منه حـركة أو سكنـة أو كلمـة، وعاش في خيالها مرّة أخرى، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدّقها العقل، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غـير خافٍ، سرور الـزهو والفخار والجنون الكامن في غرائـزها. ولم تنس مـع ذلك أنّها قالت عن ذلك الرجل وهي راجعة إلى زقاقها «يا ليتني لم أره!». ولٰكنّه كان قول لسان لم يجد لـه صدى في قلبها. والحقّ أنّها عرفت من نفسها في ذٰلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمـرها. وكـأنّ هٰذا الرجل قد اعترض سبيلهـا ليَجلو ما خفي من ذاتهـا ويبسطه لناظريها كمرآة مصقولـة. بيد أنّها قـالت له «كلّا» وهي تفارقه، وربّما لم يكن لها عن هٰذا القول مذهب، ولكن ما معناه على وجـه التحقيق؟! أليس معناه أن تقبع في بيتها مترقّبـة عودة عبّـاس الحلو؟! ربّاه، لم يعد للحلو مكان في نفسها. امّحى أثره، وتبدّد رَجْع صداه. وليس الحلو في الواقع إلّا هـذا الزواج التعس، ومـا يعقبه من حَبَـل وولادة وإرضـاع عـلى الأرصفـة وذبـاب، إلى آخـر هـذه الصـورة البشعـة الممقوتة. أجل. لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجّر في نفسها شأن الفتيات من أترابها، ولم تكن نسوة الزقاق بمتجنّيات عليها فيا رمينها من قسـوة وشذوذ، فـماذا تبتغي إذًا؟! . . . وخفق قلبها خفقانًا متتابعًا فعضّت على شفتيها حتّى كادت تدميهما. إنّها لتعلم ما تبتغي، وبما تهفو إليه نفسها، كان يجري قبل اليوم في شعورها متقلقلاً بين النور والظلمة، ولكنّه شقّ الـيوم غشاوة الغموض وأسفر جليًّـا لا لبس فيه ولا إبهـام. ومن عجب أنّها لم تعان ـ في سهادهـا ـ تردّدًا خـطيرًا فيما ينبغي أن تختـار من سبيل، ولم تشعـر كثـيرًا بـوطـأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها، أو بين ما في حياتها من خير وما يتصدّى لها من شرّ، بل الحقّ أنّها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري، ووقع اختيارهـا عليه

وهي بين يدي ذلك الرجل، في بيته! كان لسانها يهدر غضبًا وأعماقها ترقص طربًا، كان وجهها يربّد ويعبس وأحلامها تتنفّس وتمرح!.. وفوق هذا كلّه فإنّها لم تمقته لحظة واحدة، لا بل لم تحتقره قطّ وكان - كما لم يزل - حياتها ومجدها وقوّتها وسعادتها! لم يثر حنقها إلّا إدلاله بثقته وهو يقول لها «ستعودين إليّ»!

أجل. ستعود، ولكنّه ينبغي أن يؤدّي ثمن هذه الثقة الوقحة غاليًا. فليس حبّها عبادة وخضوعًا، ولكنّه معركة يحتدم أوارها ويتطاير شررها. طالما اختنقت في هذا البيت، وهذا الزقاق، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربقة الماضي إلّا عن يد هذا الرجل الذي أوقد في خيالها نارًا؟ ولكنّها لن تهرع إليه في خشوع وإذعان هاتفة «إنّي عبد يديك فافعل بي ما تشاء» لأنّها لا تعرف هذا الحبّ. كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة «إنّي سيّدتك فتخشّع بين يديّ». فما أزهدها في الحبّ الناعم أو الحبيب الخرع. ولكنّها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات، ولسان حالها يقول: «إنّي قادمة بقوّتي فلاقني بقوّتك، ولنتناطح إلى الأبد في سعادة تجلّ عن الوصف، ثمّ متّعني بما منّيتني به من جاه وسعادة». لقد وضح السبيل بفضله هو، وهيهات أن تفرّط فيه ولو اشترته بحياتها.

ومع ذلك فلم تخلُ ليلتها من أفكار نغّصت عليها عزمتها بعض التنغيص، تساءلت «ترى ماذا يقولون عنّي غدًا؟» وجاءها الجواب في كلمة واحدة: عاهرة! وتقبّض قلبها حتّى جفّ ريقها وذكرت كيف تلاحّت مرّة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسبّتها صارخة «يا ربيبة الشوارع.. يا عاهرة!».. معيّرة إيّاها بالعمل كالرجال والتسكّع في الشوارع. فما عسى أن يقال عنها هي؟!.. وداخلها الحزن والأسى، فتململت في رقادها جزعًا وضيقًا. ولكنّ شيئًا في الوجود لم يكن ليثنيها عمّا اعتزمت، أو يلوي بها عمّا اختارت، فقد اعتزمت بقوّة أعماقها، واختارت بمجامع قلبها، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلّا ما يعوق المنحدِر إلى الهاوية من دقاق الحصا.

ثمّ انتقل تيّار أفكارها فجأة إلى أمّها، فالتفتت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذي كان غاب عنها ساعة طويلة، فتصوّرتها في غدها وقد طال انتظارها لها حتّى أشفت على اليأس. وذكرت كيف أحبّتها المرأة حبًّا صادقًا لم يترك في قلبها إحساسًا - وإن قلّ - بالحرمان من الأمومة، وكيف أحبّتها هي أيضًا على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق، وكأنّما خافت أحاسيس العطف التي أخذت تدبّ في نفسها فزفرت بقوّة وضجر وقالت لنفسها: «لا أب لي ولا أمّ، وليس لي في الدنيا سواه»، وولّت الماضي كشحها، ولم تعد تفكّر إلّا في الغد وما عسى أن يتكشّف عنه ثمّ أمضّها السهاد، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماغها، فتمنّت أن ينقذها النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما إلّا على نور الصباح. وأهابت بإرادتها أن تنشّ عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر، فنجحت في طردها إلى حين، ولكنّها تنبّهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة، ووقعت من نفسها موقعًا مثيرًا فراحت تلعنها وتتّهمها بتطيير النوم من عينيها. وجعلت تنصت إليها على رغمها، وتسبّ محدثها في حنق وغضب. «يا سنقر غيّر ماء النرجيلة».. هذا صوت الفاجر الحشّاش كرشة. «يا سيّدي ربّك يعدلها» وهذا عمّ كامل الحيوان الأعجم. «ولو.. كلّ شيء له أصل».. هذا الأعمش القذر الدكتور بوشي. وتمثّل لها حبيبها - على غرّة - بمجلسه المختار ما بين المعلّم كرشة والشيخ درويش، وتخيّلته وهو يشير إليها بقبلاته فخفق فؤادها، ثمّ استحضرت ذاكرتها صورة العمارة الماثلة، والحجرة الرائعة، وسرعان ما طنّ صوته في أذنيها وهو يهمس قائلًا: «ستعودين إليّ..». ربّاه! متى يرحمها النوم؟ «السلام عليكم يا إخوان».. هذا صوت السيّد رضوان الحسيني الذي أشار على أمّها برفض يد السيّد علوان قبل أن يهتصره المرض، ترى ماذا يقول عنها غدًا إذا تناهى إليه الخبر؟ ليقل ما يشاء، لعنة الله على الحيّ جميعًا! وانقلب الأرق صداعًا وسقمًا، ومضت تتقلّب على جنبيها وبطنها

وظهرها، ومضى الليل بطيئًا ثقيلًا مرهقًا مضنيًا. يزيده هولًا خطورة الغد المرتقب. وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى. وبادرها الصحو بأفكارها جملة كأنّما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل، ولكن لم يساورها التردّد وتساءلت في جزع: متى يأتي المغيب! وقالت لنفسها إنّها الآن زائرة عابرة في المدقّ لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب. ونهضت كعادتها ففتحت النافذة، وطوت حشيّة أمّها وكوّمتها في ركن الحجرة، ثمّ كنست الشقّة، ومسحت الردهة الخارجيّة، وتناولت فطورها على انفراد لأنّ أمّها كانت قد غادرت البيت إلى شئونها التي لا تنتهي، ثمّ مضت إلى المطبخ فوجدت عدسًا في طبق تركته أمّها لتطبخه غدًا ليومهما، فعكفت على تنقيته وغسله، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة «هٰذه آخر طبخة في هٰذا البيت، وربّما كانت آخر طبخة في حياتي... ترى متى آكل العدس مرّة أخرى؟!». ولم تكن تستكره العدس ولكنّها كانت تعلم أنّه غذاء الفقراء وشعار مائدتهم. كذلك لم تكن تعلم شيئًا عن طعام الأغنياء إلّا أنّه لحم ولحم ولحم. وأنشأ خيالها ينعم بتصوُّر غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتّى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حالمة. وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمّام تستحمّ، ثمّ مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتّى مسّت أهدابها أسفل فخذيها. وارتدت خير ما لديها من ثياب، ولٰكنّها استاءت من مظهر ملابسها الداخليّة البالي، فتورّد وجهها البرنزيّ وعجبت كيف تزفّ إليه في مثل هذه الثياب، واربدّ وجهها وهاج صدرها، فصمّمت على ألّا تسلّم إليه حتّى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة أخرى جديدة زاهية. وطاب لها هذا الرأي، وصادف من نفسها ـ التي تأبى الهوى إلّا في حومة العراك والعناد ـ هوًى ولذّة. ثمّ وقفت في النافذة تلقي على حيّها نظرات الوداع. وجعل بصرها يتردّد بين معالمه بغير توقّف: الفرن، قهوة كرشة، دكّان عمّ كامل، دكّان الحلّاق، الوكالة، بيت السيّد الحسيني، والذكريات تبعثها النظرات كأنّها الشعلات يبعثها حكّ أعواد الثقاب.

ومن عجب أنّها وقفت حيال ذلك كلّه جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودّة لا للزقاق ولا لأهله. وكانت أسباب الجوار والصداقة مقطوعة ما بينها وبين غالبيّة نسوة الحيّ كأمّ حسين ـ أمّها بالرضاعة ـ والفرّانة، حتّى امرأة السيّد رضوان الحسيني لم تسلم من لسانها، فقد بلغها يومًا أنّها وصفتها ببذاءة اللسان، فتربّصت بها حتّى رأتها يومًا على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبًا ـ وكان السطحان متلاصقين ـ واقتربت من السور وجعلت تعرّض بالمرأة قائلة بتهكّم وازدراء «أسفي عليك يا حميدة من فتاة بذيئة اللسان، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستّات المدقّ بنات الباشوات!» ولكنّ المرأة آثرت السلامة، وتعوّذت بالصمت. وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيّد سليم علوان يدها، وكيف ثملت بأحلام الثراء يومًا وبعض يوم! لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها! ولكن شتّان بين رجل ورجل!.. فإذا كان سليم علوان قد حرّك ـ بثروته ـ جانبًا من قلبها، فهذا الذي حرّك قلبها كلّه حتّى كاد يقتلعه. وعادت عيناها إلى دكّان الحلّاق فذكرت عبّاس الحلو، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يومًا من مهجره فلم يعثر لها على أثر؟! وذكرت وداعه الأخير على السلّم بقلب متحجّر وعجبت كيف منحته شفتيها يقبّلهما؟! ثمّ ولّت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنبة أشدّ ما تكون عزمًا وتصميمًا. ورجعت أمّها إلى البيت ظهرًا، فتناولتا غذاءهما معًا. وقالت لها المرأة في أثناء الطعام: «لديّ زيجة مهمّة، إذا وفّقت فيها، فتح الله علينا» فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوّة بفتور، ولم تكد تلقي لما قالت بالًا، وكثيرًا ما كانت تقول مثل ذلك ثمّ يتمخّض الرجاء عن بضع جنيهات وأكلة لحم! أو أكلة لحم فحسب بالنسبة لها. ولـمّا أن اضطجعت أمّها لتنام قليلًا، تربّعت هي على الكنبة وراحت تطيل إليها النظر. هذا يوم الوداع، وربّما لن تقع عليها عيناها

بعد الآن. ولأوّل مرّة عراها الضعف فدرّت حناياها عطفًا للمرأة التي آوتها وتبنّتها وأحبّتها ولم تعرف سواها أمًّا، وتمنّت لو تستطيع أن تقبّلها قبلة الوداع.

وجاءت ساعة الأصيل فتلفّعت بملاءتها وانتعلت شبشبها. وكانت يداها ترتعشان انفعالًا واضطرابًا، وقلبها يخفق بشدّة. ولم يكن بدّ من أن تفارق أمّها بغير وداع، فامتعضت، ثمّ رأتها آمنة لا تدري شيئًا عمّا يخبّئه لها الغد فازداد امتعاضها. وحمّ الرحيل فألقت عليها نظرة طويلة ثمّ قالت وهي تهمّ بالمسير:

ـ فتّك بعافية...

فقالت لها المرأة وهي تشعل سيجارة:

ـ مع السلامة.. لا تتأخّري...

وغادرت البيت تلوح في وجهها أمارات الجدّ والاهتمام، وقطعت المدقّ لآخر مرّة لا تلوي على شيء، وسارت من الصنادقيّة إلى الغوريّة، ثمّ انعطفت صوب السكّة الجديدة وتقدّمت في خطوات متمهّلة. وأرسلت بصرها بعد تردّد وإشفاق... فرأته بموقف الأمس ينتظر!... التهب خدّاها واجتاحتها موجة صاخبة من التمرّد والغضب وودّت من أعماقها أن تثأر من ظفره هذا ثأرًا يردّ عليها بعض سكينتها. وغضّت بصرها، ثمّ تساءلت أتراه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة؟!... ورفعت عينيها بنرفزة، ولكنّها وجدته هادئًا جادًّا رزينًا يلوح في عينيه اللوزيّتين الرجاء والاهتمام فانفثأ هياجها قليلًا. ومرّت به وهي تتوقّع أن يخاطبها، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس، ولكنّه تجاهلها، وتريّث قليلًا حتّى غيّبها المنعطف، ثمّ تبعها متمهّلًا، فأدركت أنّه بات أشدّ حذرًا، وأعظم شعورًا بخطورة الأمر. وسارت حتّى أوشكت السكّة الجديدة أن تنتهي، ثمّ توقّفت بغتة كأنّما ذكرت شيئًا جديدًا، وانفتلت راجعة، فتبعها قلقًا وهمس لها متسائلًا:

ـ ماذا أرجعك؟

فتردّدت قليلًا ثمّ قالت وقد سامها النطق عناء:

ـ بنات المشغل..

فقال بارتياح:

ـ إلى الأزهر، فلا يرانا أحد...

وشقّا طريقهما متباعدين، وسارا في شارع الأزهر في صمت ثقيل، وقد أدركت أنّها أعلنت ـ بالكلمة التي نطقت بها ـ تسليمها النهائيّ. وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجا من صمتهما الثقيل. ولم تعد تدري أين تتّجه فوقفت، وسمعته في اللحظة التالية ينادي التاكس، وجاءت السيّارة ففتح لها الباب، ورفعت قدمها لتصعد إليها، ففصلت هٰذه الحركة بين حياتين! وما كادت السيّارة تنطلق بها حتّى قال بصوت متهدّج وبمهارة فائقة:

ـ الله وحده يعلم كم تعذّبت يا حميدة!... لم أنم من ليلتي ساعة واحدة. أنت لا تدرين يا عزيزتي ما الحبّ. ولكنّي اليوم سعيد، بل أكاد أجنّ من الفرح. ربّاه كيف أصدّق عينيّ؟! شكرًا يا محبوبتي شكرًا. والله لأجعلنّ من السعادة أنهرًا تجري تحت قدميك.. ما أجمل الماس حول هذا الجيد! (ومسّ جيدها برقّة).. ما أروع الذهب في هذا الساعد! (وقبّل ساعدها).. ما أفتن الروج في هاتين الشفتين! (وهوى برأسه ليقبّل ثغرها ولكنّها تحامته فلثم خدّها).. يا لك من فاتنة نافرة..!

واستراح قليلًا ثمّ استدرك قائلًا وعلى شفتيه ابتسامة:

ـ ودّعي الآن عهد التعب، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم!... حتّى ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير..!

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمّر أو احتداد، وإن توردت وجنتاها، واستسلم جسمها للسيّارة المندفعة التي تهرب بها من الماضي كلّه.

وانتهى التاكس إلى العمارة التي صارت مأواها، فغادراه، ومضيا مسرعين إلى الشقّة، وكانت كما وجدتها بالأمس ضاجّة بالأصوات المنبعثة من الأبواب، ثمّ دخلا الحجرة الرائعة. وقال ضاحكًا:

ـ اخلعي الملاءة لنحرقها معًا.

فغمغمت تقول وقد تورّد وجهها:

ـ لم أحضر ملابسي...

فصاح بسرور:

- حسنًا فعلت... لا نريد شيئًا من الماضي.

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابًا، ثمّ اتّجه نحو باب أنيق إلى يمين المرآة العالية، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول:

- حجرتنا...

ولكنّها قالت بسرعة وحدّة:

- كلّا... كلّا... سأنام هنا...

فحدجها بنظرة ثاقبة، ثمّ قال بلهجة تنمّ عن التسليم:

- بل تنامين في الداخل وأنام أنا هنا...

وكانت تصمّم في نفسها على ألّا تؤخذ كالماشية، وألّا تسلّم حتّى تشبع رغبتها في العناد والإباء، والظاهر أنّ رغبتها هذه لم تغب عن مكره، لأنّه دارى ابتسامة ساخرة، وتظاهر بالإذعان والتسليم، ثمّ قال لها بسرور وفخار:

- بالأمس يا عزيزتي دعوتني بالقوّاد، فاسمحي لي بأن أقدّم لك نفسي على حقيقتها: محبّك ناظر مدرسة، وستعلمين كلّ شيء في حينه...

- ٢٥ -

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدقّ: «هذا وقت اجتماعهم في القهوة، وسيرونني جميعًا بلا أدنى شكّ، وسيخبرون أبي بمقدمي إذا عمي هو عنه». كان الليل قد أرخى سدوله، فأغلقت دكاكين المدقّ. وخيّم عليها السكون، وضجّت قهوة كرشة وحدها بالسمّار. كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة، منقبض الصدر، متجهّم الوجه، يتبعه على الأثر فتى في مثل سنّه وفتاة في مقتبل العمر. وكان حسين يرتدي قميصًا وبنطلونًا، ويحمل في يمناه حقيبة كبيرة، وكذلك كان الفتى الذي يتبعه، أمّا الفتاة فرفلت في فستان أنيق - بلا معطف ولا ملاءة - وقد بدت في مشيتها ذات وسامة وزشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشي بطبقتها. واتّجه حسين صوب بيت السيّد رضوان الحسيني دون أن يلتفت ناحية القهوة، ودخل البيت يتبعه رفيقاه. ثمّ رقوا السلاليم حتّى الطابق الثالث، ودقّ الفتى باب الشقّة وقد ازداد وجهه تجهّمًا، فسمع وقع أقدام تقترب، ثمّ فتح الباب وبدت أمّه وراءه تقول بصوتها الخشن «مَن؟»، ولم تعرف الشبح الماثل أمامها لشدّة الظلمة. فقال حسين بصوت منخفض:

- حسين!

وهتفت المرأة وهي لا تكاد تصدّق أذنيها:

- حسين!... ابني!!

وهرعت إليه، وأمسكت بذراعيه، وقبّلته، وهي تقول بحرارة:

- عدت يا بنيّ!... الحمد لله الذي أثابك إلى رشدك وحماك من وسوسة الشيطان، ادخل بيتك (وضحكت في انفعال). ادخل يا غادر... لكم أقضضت مضطجعي. وقطّعت قلبي...

ودخل الشابّ مستسلمًا ليديها، دون أن يخفّ تجهّمه، وكأنّ استقبالها الحارّ لم يكد يجدي شيئًا في تفريج كربه، ولـمّا أن همّت بردّ الباب حال بينها وبينه قائلًا وهو يوسع للفتاة وللفتى:

- معي أناس. ادخلي يا سيّدة، ادخل يا عبده. هذه زوجي يا أمّي، وهذا شقيقها..

وبهتت المرأة، ولاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج، وراحت تنظر إلى القادمين بذهول، ثمّ تنبّهت إلى اليد المبسوطة للسلام فتمالكت عواطفها وسلّمت وهي تخاطب ابنها بلا وعي تقريبًا:

- تزوّجت يا حسين!.. أهلًا بك يا عروس.. تزوّجت يا حسين دون أن تخبرنا!؟... كيف رضيت أن تزفّ في غياب والديك وهما على قيد الحياة؟!

فقال حسين بامتعاض:

- الشيطان شاطر!.. كنت غاضبًا ثائرًا ساخطًا.. وكلّ شيء قسمة ونصيب!

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط، وتقدّمتهم إلى حجرة الاستقبال، ووضعته على حافة النافذة المغلقة، ووقفت تتفرّس في وجه زوج ابنها، وقد قالت الفتاة

بصوت أسيف:

ـ أحزننا والله غيابكم، ولكن ما باليد حيلة...

وأبدى شقيقها كذلك أسفه، فابتسمت المرأة، ولم تكن أفاقت بعد من دهشتها، وتمتمت:

ـ أهلًا بكم جميعًا.

ثمّ التفتت صوب ابنها وقد هالها تجهّمه وجموده، وذكرت لأوّل مرّة أنّ فمه لم ينفرج عن كلمة طيّبة واحدة منذ حضوره، فقالت بعتاب:

ـ هكذا تذكّرتنا أخيرًا...

فهزّ حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب:

ـ استغنوا عنّي...

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة:

ـ استغنوا عنك؟! أتعني أنّك عاطل الآن؟!

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دقّ عنيف على الباب، فتبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى، ثمّ غادرت الحجرة فلحق بها الشابّ بعد أن أغلق الباب وراءه، وقال لها في الردهة الخارجيّة:

ـ هٰذا أبي بلا ريب...

فقالت له بقلق:

ـ أظنّ هٰذا، هل رآك... أعني رآكم وأنتم قادمون؟

ولكنّ الفتى لم يجبها، وتقدّم من الباب وفتحه، فدخل المعلّم كرشة مندفعًا، وما إن رأى ابنه حتّى قال وعيناه تحمرّان، وضباب الغضب يغشى وجهه:

ـ أهٰذا أنت؟!... قالوا لي ذٰلك فلم أصدّق.. لماذا عدت؟!

فقال حسين بصوت منخفض:

ـ يوجد في البيت غرباء، هلمّ إلى حجرتك نتكلّم...

ومضى الشابّ مسرعًا إلى حجرة أبيه، فتبعه المعلّم مزمجرًا، ولحقت بهما المرأة، ثمّ أشعلت المصباح وهي تقول لزوجها في رجاء وتحذير:

ـ في الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها...

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان في ذهول وهتف:

ـ ماذا تقولين يا مرة؟!.. أتزوّجت حقًّا؟

واستاء حسين من أمّه لأنّها ألقت عليه الخبر دون تمهيد، ولم ير بدًّا من أن يقول:

ـ نعم يا أبتي تزوّجت..

وسكت المعلّم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغيظ، ولٰكنّه لم يفكّر لحظة في معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه، لأنّ المعاتبة في نظره حال من المودّة، وصمّم في اللحظة التالية على إهمال هٰذا الخبر كأنّه لم يسمعه، وقال بغيظ وحقد:

ـ هٰذا شيء لا يعنيني ألبتّة. ولٰكن دعني أسألك لماذا عدت إلى بيتي؟.. لماذا أريتني وجهك بعد أن أراحني الله منه؟

فلاذ حسين بالصمت، ونكس ذقنه عابسًا، وانبرت المرأة تقول باستعطاف:

ـ استغنوا عنه يا معلّم.

ونقم الشابّ على أمّه تسرّعها للمرّة الثانية. أمّا المعلّم فقد ازداد حنقًا وصاح بصوته الغليظ ـ ممّا جعل المرأة تغلق الباب ـ قائلًا:

ـ استغنوا عنك؟!.. ما شاء الله!.. وهل بيتي تكيّة؟!.. ألم تنبذنا يا همّام؟.. ألم تعضّني بنابك يا بن الكلب؟.. فلماذا تعود الآن؟.. أغرب عن وجهي. عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء.. هيّا..

فقالت أمّ حسين برقّة:

ـ هدّئ روعك يا معلّم وصلّ على النبيّ..

فلوّح لها الرجل بقبضته منذرًا وصاح بها:

ـ تدافعين عنه يا بنت الأبالسة؟!.. كلّكم جنس شياطين يستأهل جلد السياط وعذاب النار. ماذا تريدين يا أمّ الشرّ كلّه؟.. أتريدينني على أن آويه وأهله؟.. هل قالوا لك إنّي قوّاد يأتيني رزقي من يمين وشمال بغير تعب ولا جهد؟!.. ألا فاعلموا بأنّ الشرطة تحوم حولنا، وبالأمس قبضوا على أربعة من رفاقي، وغدكم أسود بإذن الله..

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقّة لا عهد لها بها:

ـ صلّ على النبيّ يا معلّم ووحّد الله.

فصاح بفظاظة:

ـ سليه عمّا جاء به؟

فقالت برجاء واستعطاف:

ـ ابننا أرعن مجنون، غواه الشيطان فأضلّه، وليس له الآن من ملجأ سواك...

فقال المعلّم كرشة بحنق وسخرية:

ـ صدقت يا أمّ السوء. ليس له من ملجأ سواي. سواي أنا الذي يسبّ حين السرّاء ويلجأ إليه حين الضرّاء!

ثمّ تفحّص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية:

ـ لماذا استغنوا عنك؟

وتنهّدت الأمّ من الأعماق لأنّها أدركت بغريزتها أنّ هـذا السؤال ـ على لهجته المريرة ـ إيذان بالتفاهم المنشود. أمّا حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعاني مرارة القهر:

ـ استغنوا عن كثيرين غيري... يقولون إنّ الحرب وشيكة الانتهاء...

ـ انتهت الحرب في الميدان وستبدأ في بيتي أنا!... ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك؟

فقال الشابّ بغضاضة:

ـ ليس لها إلّا شقيقها...

ـ ولماذا لم تلجأ إليه؟

ـ استغنوا عنه أيضًا...

فضحك هازئًا وقال:

ـ أهلًا.. أهلًا.. وطبيعيّ أنّك لم تجد ملجأ لهٰذه الأسرة الكريمة التي أناخ عليها الدهر إلّا بيتي ذا الحجرتين!... مرحى. مرحى... ألم توفّر مالًا؟

فقال الشابّ باقتضاب وهو يتنهّد:

ـ كلّا...

ـ أحسنت. عشت عيشة الملوك، كهرباء وماء وصلاة، ثمّ عدت أخيرًا كما بدأت شحّاذًا..

فقال حسين بانفعال:

ـ قالوا إنّ الحرب لن تنتهي، وإنّ هتلر سيقاوم عشرات السنين ثمّ يهجم بعد ذٰلك...

ـ ولٰكنّه لم يهجم، واختفى (حتّى في تلك اللحظة لم يقل إنّه مات) تاركًا شيخ المغفّلين صفر اليدين. والبك شقيق الستّ؟

ـ الحال من بعضه.

ـ عال... عال... البركة في أبيك. هيّئي لهم البيت يا ستّ أمّ حسين ولو أنّه حقير لا يليق بالمقام، ولٰكنّي سأتدارك ذٰلك بإدخال الماء والكهرباء، وربّما ابتعت حنطور السيّد علوان ليكون تحت تصرّفكم...

فنفخ حسين قائلًا:

ـ حسبك يا أبي... حسبك...

فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية:

ـ لا تؤاخذني. أأثقلت عليك؟.. مزاج رقيق، عزّ وجاه، ارحموا عزيز قوم بال. احتشم يا معلّم كرشة ولا تحدّث السادة إلّا بحديث السادة. تفضّل بخلع ملابسك. أمّا أنت يا ستّ أمّ حسين فافتحي الكنز في المرحاض وعبّي للبيك حتّى يتريّش وينبسط...

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم، فمرّت العاصفة بسلام، وراحت المرأة تناجي نفسها: «يا ساتر استر». وكان المعلّم ـ على حنقه وسخريته ـ أبعد ما يكون عن طرده، بل لعلّه حتّى في تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته، وسرور بزواجه، لذٰلك كفّ عمّا كان آخذًا فيه، وغمغم قائلًا:

ـ الأمر لله، ربّنا يتوب عليّ منكم.

ثمّ سأل الشابّ مستدركًا:

ـ ماذا أعددت للمستقبل؟

فقال الشابّ وقد شعر بأنّه اجتاز محنته:

ـ سأجد عملًا إن شاء الله، ولا يزال لديّ حليّ زوجي.

فانتبهت أمّه إلى كلمة «حليّ» باهتمام وسألته بغير وعي:

ـ هل كنت ابتعتها لها؟

فقال حسين:

ـ أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر.

والتفت نحو أبيه مستطردًا:

ـ سوف أجد عملًا. وسيبحث عبده نسيبي عن

عمل أيضًا، وعلى أيّة حال فهو لن يقيم بيننا إلّا أيّامًا.
وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذي أعقب الزوبعة فقالت لزوجها:
ـ تعال يا معلّم سلّم على أهل ابنك.
ولحظت ابنها بطرف خفيّ وغمزت بعينها، فقال الشابّ بغضاضة مَن يستكره التودّد بطبعه:
ـ هلّا أكرمتني حيال أهلي؟
وتردّد الرجل لحظة ثمّ قال بامتعاض:
ـ كيف تريدني على الاعتراف بهٰذا الزواج الذي لم أباركه؟!
ولـمّا لم يسمع من مجيب، نهض متأفّفًا، ففتحت المرأة الباب وتقدّمته، وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعًا، وسلّموا، ورحّب المعلّم بزوج ابنه وشقيقها. انطوت الصدور عمّا بها أمّا الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة. وكان المعلّم كرشة قد سلّم بالأمر الواقع، ولٰكنّه لبث قلقًا لا يدري أأخطأ بتسليمه أم أصاب، ولم تَصْفُ نَفْسه من موجدة واستياء. ثمّ انتبهت عيناه النائمتان في أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحّصه بعناية، وما عَتَمَ أن تولّاه اهتمام مفاجئ أنساه قلقه وموجدته واستياءه!.. كان شابًّا يافعًا وسيم الطلعة خفيف الظلّ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف يقظ. وطابت نفسه وصفت، وسرت في أعماقه هزّة سرور وحماس، فتفتّح قلبه للأسرة الجديدة، ورحّب بها مرّة أخرى ولٰكن بشعور جديد، وسأل ابنه بلطف:
ـ أليس لك أثاث يا حسين؟
فقال حسين:
ـ غرفة نوم مكوّمة عند الجيران.
فقال المعلّم بلهجة آمرة:
ـ اذهب وأحضر عفشك...!

* * *

وخلا حسين إلى أمّه، وجلسا يتحدّثان ويدبّران أمورهما، وفي ختام الحديث صاحت به فجأة:
ـ ألم تعلم بما حدث؟!... اختفت حميدة.
فلاحت الدهشة في وجه الشابّ وسألها:
ـ كيف؟.
فقالت المره دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشماتة:
ـ خرجت أوّل أمس كعادتها كلّ عصر، ولٰكنّها لم تعد. ودارت أمّها على بيوت الجيران والمعارف تفتّش عنها دون جدوى. وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العيني ولا حياة لمن تنادي.
ـ ماذا حدث للبنت يا ترى؟
فهزّت أمّ حسين رأسها في ارتياب وقالت بيقين:
ـ هربت وحياتك!.. غواها رجل فأكل مخّها وطار بها. كانت جميلة ولٰكنّها لم تكن طيّبة قطّ.

- ٢٦ -

فتحت عينين محمرّتين من أثر النوم، فرأتا سقفًا أبيض، ناصع البياض، يتدلّى من وسطه مصباح كهربائيّ بارع الرونق في كرة كبيرة حمراء من البلّور الشفّاف. امتلأ بصرها دهشة، ولٰكن لم يدم ذٰلك سوى ثانية واحدة، ثمّ تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية، وذكريات الحياة الجديدة. واتّجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقًا، ثمّ رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس. نفّذت إرادتها فنامت وحدها، وقضى ليلته وحده في الحجرة الخارجيّة، وافترّ ثغرها عن ابتسامة. وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير، فبدا فستانها مستخذيًا خجلًا فيما يغمر، من مخمل وحرير. ما أعمق الهوّة التي تفصل ما بينها وبين الماضي! وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس، فينير جوّ الحجرة بضوء شاحب خفيف، فاستدلّت على الضحى بسِماته، ولٰكنّها لم تدهش لاستيقاظها المتأخّر، فقد أرّقها السهاد حتّى قبيل الفجر، وسمعت نقرًا خفيفًا على الباب، فتلفّتت صوبه في انزعاج، وجمد بصرها عليه دون أن تأتي حركة أو تنطق بحرف، ثمّ غادرت الفراش، ودلفت إلى التواليت، ووقفت بين مراياه متحيّرة مبهوتة. وعاد النقر في قوّة ملموسة فهتفت:
ـ مَن؟
وجاءها صوته العميق وهو يقول:

ـ صباح الخير.. هلّا فتحت الباب؟

ونظرت إلى المرآة فرأت شعرها متشعّثًا، وعينيها محمرّتين، وجفنيها ثقيلين.. ربّاه.. أليس ثمّة ما تغسل به وجهها؟! ألا ينتظر حتّى تتهيّأ لاستقباله؟! وعاد ينقر الباب جزعًا، ولكنّها لم تلقِ إليه بالًا، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة أوّل مرّة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها، وهي تكون اليوم أشدّ قلقًا بلا ريب! ورأت زجاجات الروائح العطريّة منضودة على التواليت، ولكنّها كانت تراها لأوّل مرّة في حياتها، فلم تهتدِ إلى وجه الانتفاع بها في مأزقها. ثمّ تناولت مشطًا عاجيًّا وسوّت شعرها في عجلة ولهوجة، ومسحت بطرف فستانها وجهها، وألقت على المرآة نظرة أخرى، وتنهّدت في قلق وغيظ، ثمّ أخذت المفتاح وسارت نحو الباب، وكأنّما ضاقت بإشفاقها، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب. التقيا وجهًا لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقّة بالغة:

ـ صباح النور يا تيتي!.. لماذا أهملتني كلّ هٰذا الوقت!.. أتريدين مواصلة النهار بالليل بعيدًا عنّي؟!

فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة، ولكنّه تأثّرها والابتسامة لا تفارق شفتيه، ثمّ سألها:

ـ لماذا لا تتكلّمين يا تيتي؟!

تيتي!! أإسم تدليل هٰذا يا ترى؟.. ولكنّ أمّها كانت تدعوها «حمدمد» إذا أرادت أن تدلّلها، فما تيتي هذا؟!.. ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت:

ـ تيتي!

فقال وهو يتناول راحتيها بين يديه ويشبعهما تقبيلًا:

ـ هٰذا اسمك الجديد، فاحفظيه عن ظهر قلب، وانسي حميدة فلم يعد لها وجود!.. ليس الاسم يا محبوبتي بالشيء التافه لا يقام له وزن، هو بالحري كلّ شيء وما الدنيا ـ لو تعلمين ـ إلّا أسماء...

وعلمت أنّه لم يعد اسمها ـ كثيابها البالية، شيئًا ينبغي انتزاعه وإيداعه مقابر النسيان، ولم تَرَ في ذٰلك من بأس، فلا يجوز أن تنادى في شريف باشا بما كانت تنادى به في المدقّ، وفضلًا عن هٰذا فهي تشعر شعورًا عميقًا لا يخلو من وسواس وقلق ـ بأنّ أسباب الماضي قد انقطعت إلى الأبد، فلماذا تُبقي على اسمها؟!.. بل ليتها تستطيع أن تستبدل بيديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو، وأن تستعيض عن صوتها ـ الذي تستغلظ نبراته العالية حتّى الفظاظة والقبح ـ صوتًا رقيقًا رخيمًا، ولٰكن ما باله اختار هٰذا الاسم الغريب؟!.. ولم تملك أن قالت باستنكار:

ـ هٰذا اسم غريب، لا معنى له..

فقال ضاحكًا:

ـ اسم جميل. ومن جماله ألّا معنى له. فالاسم الذي لا معنى له يحوي المعاني كلّها. بل هو من الأسماء الأثريّة التي تسحر ألباب الإنجليز والأمريكان، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجّة...

فجالت في عينيها نظرة حيرى، تشي بالارتياب وتتحفّز للعناد والانقضاض، فابتسم برقّة واستدرك يقول:

ـ تيتي العزيزة... رويدك، ستعلمين كلّ شيء في حينه. ألم تعلمي بأنّك ستصيرين غدًا سيّدة باهرة الجمال بعيدة الصيت؟.. هٰذه هي معجزة هٰذا البيت. أم حسبت أنّ السماء تمطر ذهبًا وماسًا؟.. كلّا يا عزيزتي، إنّ السماء في أيّامنا هٰذه لا تمطر إلّا شظايا والآن خذي أهبتك لاستقبال الخيّاطة. ولٰكن معذرة لقد ذكرت أمرًا هامًّا ذكرت أنّه ينبغي أن أصحبك لزيارة مدرستي ـ أنا ناظر يا محبوبتي ولست قوّادًا كما دعوتني بالأمس ـ فالتحفي بهٰذا الروب وانتعلي هٰذا الشبشب..

وذهب إلى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كرويّة يتّصل بفم معدنيّ فيها أنبوبة من المطّاط الأحمر، وسدّد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيمجّ في صفحة وجهها سائلًا زكيّ الشذا، وقد ارتعشت بادئ الأمر شاهقة، ثمّ استنامت إلى طيبها في دهشة وارتياح. وألبسها الروب بنفسه، وجاءها بشبشبه فانتعلته، ثمّ تأبّط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة الأخرى، ثمّ إلى الردهة الخارجيّة. وسارا معًا متّجهين صوب أوّل باب إلى اليمين وهو يقول لها محذّرًا:

ـ إيّاك وأن تَبدي خجلة أو خائفة... إنّي أعلم

أنّك جسورة لا تهابين شيئًا. . .

وأثابها تحذيره إلى رشادها، فحدجته بنظرة حادّة، ورفعت رأسها في استهانة، فابتسم قائلًا:

ـ هٰذا أوّل فصل في المدرسة. . فصل الرقص العربيّ. . .

وفتح الباب ودخلا. رأت حجرة متوسّطة، جميلة البناء، ذات أرض خشبيّة لامعة، تكاد تخلو من الأثاث اللّهمّ إلّا عددًا من المقاعد نضّدت في جناحها الأيسر، ومشجبًا كبيرًا في ركنها الأقصى، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين، ووقف في الوسط فتى في جلباب أبيض حريريّ مهفهف محزّمًا بزنّار. اتّجهت الرؤوس نحو القادمين، وجرت على الثغور بسمات التحيّة، فقال فرج إبراهيم بلهجة قويّة تنمّ عن السيادة حقًّا:

ـ صباح الخير. هٰذه صديقتي تيتي. . .

وحنت الفتاتان رأسيهما تحيّة، ثمّ قال الفتى بصوت متكسّر مخنّث:

ـ أهلًا يا أبلة. .

وردّت تيتي التحيّة في شيء من الارتباك وهي تطيل النظر إلى الفتى الغريب. كان ـ على غير ما يبدو ـ في نهاية العقد الثالث، وضيع الملامح أحول العينين، يزيّن وجهه بزواق نسائيّ من كحل وحمرة وبودرة، ويلمّع شعره الجعد بالفازلين. فابتسم فرج إبراهيم وقال يعرّفه لها:

ـ سوسو معلّم الرقص. . .

وكأنّما أراد سوسو أن يقدّم لها نفسه بطريقته الخاصّة، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزًا بعينيه، فراحتا تصفّقان على «الواحدة»، وانساب الأستاذ راقصًا كالأفعوان، في خفّة وليونة يثيران الدهشة، حتّى خالته جسمًا بلا عظام ولا مفاصل، أو أنّه قطعة من مطّاط مكهرب. كان كلّ ما فيه يرتعش بلا توقّف. ردفاه. . وسطه. . صدره. . رقبته. . حاجباه. وكان يلقي بنظرة متكسّرة متضعضعة. مبتسمًا ابتسامة فاجرة عن أسنان ذهبيّة. ثمّ اهتزّ هزّة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنّيّ، واستقام ظهره فكفّت الفتاتان عن التوقيع. لم يكن في نيّة سوسو أن يرقص ولٰكنّه رغب أن يحيّي القادمة المستجدّة تحيّة راقصة على سبيل المثال، والتفت نحو إبراهيم فرج متسائلًا:

ـ تلميذة جديدة. . ؟

فالتفت هٰذا بدوره إلى تيتي وقال:

ـ أظنّ هٰذا. .

ـ ألم ترقص فيما سلف؟

ـ كلّا.

فابتسم سوسو مسرورًا وقال:

ـ هٰذا أفضل يا سي فرج. إذا كانت تجهل الرقص فهي عجينة طريّة أصوّرها كيفما أشاء، أمّا أولٰئك اللاتي يتعلّمن الرقص على غير أصوله فما أشقّ تعليمهنّ.

ونظر إلى تيتي، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح:

ـ أم تحسبين الرقص لعبًا يا أبلتي؟!. . العفو يا حبيبتي. . هٰذا فنّ الفنون، وأستاذه له الجنّة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشّم من عناء أو مشقّة. . انظري. .

وأرعش خصره بغتة في سرعة عجيبة، ثمّ أمسك وهو يرمقها بعجب وتيه، وسألها باستعطاف:

ـ هلّا انتزعت هٰذا الروب لأطّلع على جسمك.

ولٰكنّ فرج عاجله قائلًا:

ـ ليس الآن. . ليس الآن.

فمطّ سوسو بوزه متأسّفًا وسألها:

ـ أتخجلين منّي يا تيتي. . أنا أختك سوسو!. . ألم يعجبك رقصي؟

وكانت تدافع جاهدة شعورًا بالضيق والارتباك، وتحاول في إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية، فابتسمت وقالت:

ـ رقصك بديع جدًّا يا سوسو. . .

فصفّق سوسو بيديه حبورًا وقال:

ـ دمت من فتاة كريمة. الحياة فانية يا تيتي، وأجمل ما فيها كلمة حلوة، وهل دام شيء لإنسان؟. . . الواحد منّا يشتري حقّ الفازلين ولا يدري أيكون

لشعره أم لشعر ورثته!

* * *

وغادرا الحجرة ـ أو الفصل ـ إلى الردهة، فمضى بها إلى الحجرة التي تليها، وشعر بعينيها تلحظانه ولكنّه تجاهلها عن حكمة، حتّى بلغا الباب فغمغم قائلًا:

ـ فصل الرقص الغربيّ...

فتبعته صامتة. كانت تعلم أنّ النكوص قد بات مستحيلًا، وأنّ الماضي قد عفّاه الحاضر، فلم تر بدًّا من الاستسلام للمقادير، وتساءلت هل تبلغ حقًّا السعادة المنشودة؟ وجدت هٰذه الحجرة في بنائها وصورتها كسابقتها إلّا أنّها حجرة حيّة متحرّكة صاخبة. كان الحاكي يبعث لحنًا غريبًا تلقّته أذنها في دهشة وإنكار، وكان قوم يرقصون أزواجًا، قوام كلّ زوج فتاتان، وقد انتحى شابّ أنيق البزّة جانبًا وهو يراقبهنّ بعناية، ويوليهنّ بملحوظاته، وتبادل الرجلان التحيّة، وواصل الراقصات رقصهنّ وهنّ يتفحّصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة. ودارت عيناها بالمرقص والراقصات فعجبت لثيابهنّ البديعة وزينتهنّ البارعة، وسرعان ما تناست هواجسها، واستولى عليها انفعال عارم، فعانت شعورًا مؤلمًا بالضعة، ثمّ استفزّها إحساس حادّ بالحماس والتوثّب. ولاحت منها التفاتة إلى رَجُلها فوجدته محافظًا على هدوئه ورزانته، تلوح في عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوّة. والتفت نحوها فجأة كأنّما جذبته عيناها، فانبسطت أساريره، ومال نحوها قليلًا متسائلًا:

ـ أيعجبك ما ترين؟

فقالت ببساطة وهي تقاوم انفعالها:

ـ جدًّا...

ـ أيّ الرقصين تفضّلين؟

فابتسمت ولم تجب. ولبثا قليلًا صامتين، ثمّ غادرا الحجرة، واتّجها نحو باب ثالث وقد تجلّى الاهتمام في وجهها. وما كاد يدفع الباب حتّى حملقت في دهشة وذهول. رأت في وسط الحجرة امرأة عارية منتصبة القامة. وظلّت ثواني لا تحوّل بصرها عنها فلم تر شيئًا سواها. ومن عجب أنّ المرأة العارية بقيت بموقفها كأنّها لم تشعر بمقدمها، وجعلت تنظر إليهما في هدوء واستهتار وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنّها تحيّيها أو تحيّيه هو بالأحرى. وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات، فتلفّتت يمنة ويسرة وأدركت أنّ الحجرة معمورة بالآدميّين. رأت إلى يسار الداخل صفًّا من المقاعد مشغولًا نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعرّي!... ورأت على كثب من المرأة العارية رجلًا في بدلة أنيقة قابضًا بيمناه على مؤشّر قد ركّز سنانه على مقدّم حذائه، ولاحظ فرج إبراهيم دهشتها، فرغب أن يسرّي عنها، فقال لها:

ـ هٰذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزيّة...!

فحدجته بنظرة إنكار كأنّها تقول له «لا أفهم شيئًا» فأشار لها بالتمهّل ثمّ وجّه خطابه للرجل القابض على المؤشّر وقال:

ـ استمرّ في درسك يا أستاذ...

فقال الرجل بصوت يدلّ على الطاعة:

ـ هٰذه حصّة تسميع.

ورفع المؤشّر بخفّة ولمس بسنانه شعر العارية، فنطقت المرأة بلفظ غريب «هير»، فأنزله إلى جبينها فهتفت «فرنت»، وانتقل إلى الحاجب فالعين ثمّ الفم، وشرّق وغرّب، وصعّد وصوّب، وهي تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة، لم تسمعها حميدة من قبل، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجًا، وتساءلت كيف تبدو هٰذه المرأة عارية حيال هٰذا الجمع، وكيف ينظر فرج إلى هٰذا الجسم المتجرّد بهٰذه البساطة!... وغلى دمها، والتهب خدّاها، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهزّ رأسه راضيًا عن التلميذة الذكيّة، ويتمتم «برافو.. برافو..» ثمّ خاطب الرجل قائلًا:

ـ أرني شيئًا من الغزل..

فنحّى الرجل المؤشّر جانبًا، وأقبل على المرأة مخاطبًا في لهجة إنجليزيّة وعاطته المرأة قولًا بقول، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردّد، حتّى صاح فرج إبراهيم:

ـ عظيم... عظيم... والأخريات؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات، فقال الأستاذ:

ـ في طريق التحسّن!... وإنّي أقول لهنّ دائمًا إنّ

الكلام لا يحصّل بالحفظ، ولٰكنّه يُكتسب بالتجربة، فالحانات والبنسيونات هي دور العلم الحقيقيّة، وما هٰذا الدرس إلّا تثبيت للمعلومات المهوّشة. . .

فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته:

ـ صدقت. . . صدقت. . .

وحيّاه بإيماءة من رأسه، وتأبّط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معًا، وقطعا الردهة الطويلة مرّة أخرى صوب حجرتهما. كان وجهها جامدًا، وفمها مطبقًا، وعيناها تنمّان عن الشرود والحيرة، وكانت تتلمّس سببًا للانفجار، لا لهدف ترمي إليه، ولٰكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب. ولازم الرجل الصمت حتّى حواهما المخدع، ثمّ قال بلطف:

ـ يسرّني أن أطلعتك على مدرستي، وأنّك فتّشت فصولها بنفسك. ربّما تراءت لك ذات برنامج عسير شاقّ؛ ولٰكنّك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات، وجميعهنّ بغير استثناء دونك ذكاء وجمالًا. .

فرمقته بنظرة عناد وتحدّ وسألته ببرودة:

ـ أتريدني على أن أفعل مثلهنّ. . .؟

فابتسم في رقّة، وقال بمكر ودهاء:

ـ لا سلطان لأحد عليك ولا رادّ لقضائك، وأنت وحدك صاحبة الأمر والنهي. ولٰكنّ واجبي أن أوضح لك المعالم، والخيرة لك. والحقّ أنّه لمن حسن الحظّ أنّي وجدت رفيقًا لبيبًا تكفيه الإشارة، قد حباه الله جمالًا وهمّة وبهاء. فإذا سعيت إلى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعي أنت غدًا إلى استثارتي. إنّي أعرفك حقّ المعرفة، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة، وها أنا ذا أقول لك عن عقيدة ويقين إنّك ستقبلين على تعلّم الرقص والإنجليزيّة، وإتقان كلّ شيء في أقصر فترة من الزمن. ولقد اتّبعت معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنّبت الكذب والخداع، لأنّي أحببتك حبًّا صادقًا، ولأنّي أيقنت من أوّل لحظة بأنّك لا تغلبين ولا تخدعين، فافعلي ما تشائين يا محبوبتي. جرّبي الرقص أو انبذيه، استهتري أو عفّي، ابقي أو عودي، فلا قبل لي بك على جميع الأحوال.

ولم يذهب خطابه سدى، فقد سرّي عنها، وخفّ توتّر أعصابها. واقترب منها، وأخذ راحتها بين يديه، وضغط عليها بحنوّ وهو يقول:

ـ أنت أسعد حظّ جادت به الحياة عليّ. . . ما أفتنك. . ! ما أجملك. !

وحدّق في عينيها بإمعان وافتتان، ورفع يديها ـ وهما مضمومتان ـ إلى فمه، وراح يقبّل أطراف أناملها زوجًا زوجًا، وهي مستسلمة ليديه تجد لكلّ لثمة من شفته تكهربًا في أعصابها، حتّى تندّت عيناها برقّة وهيام. وندّ عنها نَفَس حارّ في شبه تنهّدة، فأحاطها بذراعيه، وضمّها إلى صدره رويدًا حتّى شعر بمسّ ثدييها لقلبه، ثدي بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس في صدره، وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعودًا وهبوطًا، ووجهها مدفون في صدره، ثمّ همس «فمك» فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلًا، فطبع شفتيه على شفتيها في قبلة طويلة جدًّا، فأطبقت جفنيها كأنّما أخذتها سنة من نعاس. وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع، وسار بها متمهّلًا نحو الفراش، وقد هزّ ساقيها المعلّقتين هزّة أطاحت بالشبشب، ثمّ أنامها، ولبث مائلًا عليها معتمدًا على راحته، منعمًا النظر في وجهها المورّد. وفتحت عينيها فالتقتا بعينيه، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولٰكنّها ظلّت ترنو إليه بنظرة ساجية. وكان في الحقّ متهالكًا لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذٰلك، وكان فكره أنشط من قلبه، وكان قد أجمع رأيه على خطّة لا يحيد عنها، فاستوى واقفًا وهو يغالب ابتسامة ماكرة، وقال بلهجة من ينزع نفسه عن هواها:

ـ مهلًا. . مهلًا. . إنّ الضابط الأمريكيّ يدفع خمسين جنيهًا عن طيب خاطر ثمنًا لعذراء!

التفتت إليه داهشة. وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة، وحلّ محلّها نظرة صارمة قاسية قادحة. ونهضت جالسة في الفراش، ثمّ انزلقت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحيّة الهائجة، وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خدّه بقوّة وقسوة وتجاوبت أركان الحجرة رنينها. ولبث ثواني جامدًا ثمّ تمدّد جانب من فمه الأيسر في ابتسامة

هازئة. وبسرعة تفرق الفكر رفع كفّه ولطمها على خدّها الأيمن بقوّة متناهية، ثمّ رفع يسراه ـ قبل أن تفيق من اللطمة الأولى ـ وصكّ بها خدّها الأيسر بشدّة بالغة! اصفرّ وجهها، وسرت ارتعاشة في شفتيها، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانيّة، فارتمت على صدره، وأنشبت أناملها المتقبّضة في عنقه. وتلقّى الرجل هذه الهجمة بسكينة، ولم يحاول مدافعتها بل أحاطها بذراعيه وشدّ عليها حتّى كاد يهرسها، ومضت أصابعها تلين، ثمّ ارتدّت عن عنقه، وتحسّست منكبيه وعلقت بهما، ورفعت إليه وجهًا قانيًا وثغرًا مرتعشًا مشوقًا. . .

ـ ٢٧ ـ

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته سكون عميق، حتّى قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرّق سمّارها. وفي هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن شبح زيطة، صانع العاهات، ينطلق إلى تجواله الليليّ. قطع الرجل أرض الزقاق إلى الصنادقيّة، وعرّج إلى اليسار متّجهًا صوب الحسين، فكاد يصطدم بشبح قادم في منتصف الطريق، وما لبث أن تنوّر وجهه على ضوء النجوم الشاحب فهتف به:

ـ الدكتور البوشي!. . من أين أنت قادم؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة:

ـ كنت ماضيًا إليك. .

ـ أعندك طلّاب عاهات؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس:

ـ عندي ما هو أهمّ، لقد توفّي عمّ عبد الحميد الطالبي!

فأضاءت عينا زيطة في العتمة وسأله باهتمام:

ـ متى توفّي؟. . . وهل دفن؟

ـ دفن مساء اليوم.

ـ أعرفت مقبرته؟

ـ فيما بين باب النصر وطريق الجبل.

وتأبّط زيطة ذراعه وسار به في الطريق الذي كان آخذًا فيه وهو يسأله مستوثقًا:

ـ ألا يمكن أن تضلّ الطريق في الظلام؟

ـ كلّا. . . كنت في أثناء سير الجنازة منتبهًا يقظًا فحفظت علامات الطريق، وفضلًا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا، وطالما قطعناه معًا في الظلام الدامس. .

وأدواتك؟

ـ في مكان حريز أمام الجامع. . .

ـ وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة؟

ـ عند المدخل حجرة مسقوفة ولكنّ القبر في فناء مكشوف. .

فسأله بلهجة لم تخل من تهكّم:

ـ أكنت تعرف المرحوم؟

ـ معرفة بسيطة. كان بائع دقيق في المبيضة.

ـ أطقم كامل أم بضع أسنان فقط؟. .

ـ طقم كامل. .

ـ ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه؟

ـ كلّا. إنّ أهل البلد أهل تقوى، وهيهات أن يفعلوا ذلك. . .

فقال زيطة وهو يهزّ رأسه أسفًا:

ـ مضى زمن والناس يودعون القبر حليّ موتاهم.

فتنهّد الدكتور قائلًا:

ـ أين منّا ذاك الزمن!

وبلغا الجماليّة في ظلمة حالكة وصمت مخيّم، ومرّا في طريقهما بشرطيّين ثمّ أخذا يقتربان من باب النصر، واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة وأشعلها وراح يدخّن بشغف. وقد فزع الدكتور بوشي من ضوء عود الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة:

ـ بئس ما اخترت هٰذا الوقت للتدخين. . !

ولكنّ زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لا فائدة ترجى من الأحياء، وقليل من الموتى ذو نفع. . !

ومرقا معًا من باب النصر، ومالا إلى اليمين يقطعان

طريقًا ضيّقًا تحفّ به المقابر من الناحيتين، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة. وقال زيطة عند نهاية الثلث الأوّل من الطريق «هاك المسجد» فتلفّت بوشي فيها حوله، وتنصّت قليلًا في حذر، ثمّ اقترب من الجامع متحاميًا إحداث أيّ صوت، وتحسّس الأرض لصق جداره فيما يلي مدخله حتّى عثر بحجر كبير، ثمّ أزاحه عن موضعه بيديه، واستخرج من نقرة تحته فأسًا صغيرة ولفافة تحوي شمعة، وعاد إلى صاحبه، فاستطردا في مسيرهما وهو يقول همسًا «تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراويّ بخمس مقابر». وجدّا في السير وعينا الدكتور تتطلّعان إلى المقابر على يسار الطريق، وقلبه يدقّ بعنف، ثمّ تثاقل بغتة وهو يهمس «هٰذه المقبرة» ولٰكنّه لم يقف، بل حثّ صاحبه على السير وهو يقول:

ـ سور المقبرة المطلّ على هٰذا الطريق عال، والطريق نفسه غير مأمون، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء، ثمّ نتسوّر المقبرة من ناحيتها الخلفيّة حيث يوجد القبر في الفضاء المكشوف. . .

ولم يبدِ زيطة اعتراضًا، فتقدّما في صمت حتّى انتهيا إلى طريق الصحراء، واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلًا ريثما يراقبان الطريق، وجلسا جنبًا لجنب، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين. كان الظلام شاملًا، والمكان مقفرًا، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر. ومع أنّ هٰذه المخاطر لم تكن الأولى من نوعها إلّا أنّ الدكتور بوشي لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقّات قلبه المضطرب، فلبث يحملق في الظلماء، فؤاده خافق، وريقه جافّ، وأعصابه متوتّرة، في حين جلس زيطة جامدًا، رابط الجأش، لا يبالي شيئًا. ولـمّا اطمأنّ إلى خلوّ الطريق قال للدكتور:

ـ دع الأدوات واسبقني إلى سور المقبرة الخلفيّ، وانتظرني هنالك. .

ونهض الدكتور على كره، وتسلّل بين القبور مائلًا نحو الأسوار الخلفيّة للمقابر، وسار لصق الجدران متلمّسًا طريقه في ظلام دامس ليس به من بارقة نور إلّا ما تشعّه النجوم، وجعل يعدّ الأسوار حتّى بلغ خامسها، وألقى على ما حوله نظرة لصّ، ثمّ جلس القرفصاء. لم تعثر عيناه بشيء يريبه ولم يبلغ أذنه حسّ، ولٰكنّ القلق لم يزايله، واشتدّ جزعه. وبعد قليل رأى شبح زيطة على مدى أذرع منه، فنهض في حذر، وعاين الرجل السور ثمّ قال همسًا:

ـ تقوّس حتّى أصعد على ظهرك.

وتقوّس الدكتور معتمدًا راحتيه على ركبتيه، ورقي الرجل ظهره، وتحسّس الجدار حتّى قبض على حافته، ثمّ تسوّره بمهارة وخفّة، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة إلى داخل الفناء، ثمّ مدّ يده إلى الدكتور حتّى التقت بيده، وأعانه على تسلّق الحائط حتّى تسنّمه، وهويا معًا. وتوقّفا عند أصل السور يستريحان، والتقط زيطة في أثناء ذٰلك الفأس واللفافة. وكانت أعينهما قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت، فرأيا الفناء في شيء من الوضوح، وقبرين متجاورين ينهضان على كثب من موقفهما، وفي نهاية الفناء يقوم الباب المطلّ على الطريق الذي جاءا منه، وعلى جانبيها حجرتان. وسأل زيطة وهو يومئ إلى القبرين:

ـ أيّهما؟

فأجابه بصوت يكاد ينحبس في حلقه:

ـ على يمينك. .

ودنا زيطة من القبر بلا تردّد، يتبعه بوشي مرتجف الأوصال، وحنى قامته متحسّسًا أرض المنزل فوجدها طريّة نديّة ما تزال، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة مكوّمًا الثرى بين رجليه المنفرجتين. وثابر على العمل الذي لم يكن جديدًا بالنسبة إليه حتّى كشف عن السلاليم التي تسقف منزل القبر، وشمّر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه، وأقبل على طرف السلمة الأولى، ورفعها شادًّا على عضلاته حتّى انتصبت قائمة، وأخذ ينيمها بمعونة البوشي حتّى طرحها أرضًا. وفعل مثل ذٰلك بالسلمة الثانية. واكتفى بالثغرة التي فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه، ومضى إليها ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغمًا

«اتبعني». فتبعه منقبض الصدر مقشعرّ البدن. وكان الدكتور يجلس ـ في مثل هٰذا الظرف ـ على الدرجات الوسطى، ويشعل الشمعة ويثبتها في الدرجة السفلى، ثمّ يغمض عينيه ويدفنهما بين ركبتيه. وكان يدخل القبور على كره، وطالما ناشد زيطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر، ولٰكنّ الآخر أبى أن يؤدّي له هٰذه الخدمة إلّا إذا شارك في جميع خطواتها، مستلذًّا في أعماقه تعذيبه. وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر، وألقى زيطة نظرة متحجّرة على الجثث المدرجة في أكفانها مطروحة في تتابع وتوازٍ حتّى غيابات القبر، يرمز نظامها إلى تسلسل التاريخ واطّراد الزمن، وينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبديّ. ولٰكنّها لم ترجّع في صدر زيطة أيّ صدى، فسرعان ما استردّ نظرته المتحجّرة وثبّتها على الكفن الجديد عند بدء القبر. وجلس القرفصاء، ثمّ كشف عن رأس الجثّة بيدين باردتين، وحسر الشفتين، وعالج بأصابعه الطقم حتّى انتزعه، وأودعه جيبه وقد تلوّثت أنامله. ثمّ غطّى الرأس كما كان، وتحوّل عن الجثّة إلى الباب، فرأى الدكتور دافنًا رأسه بين ركبتيه والشمعة في أسفل الدرج تزهر، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم في ازدراء «اصْحَ!» فرفع الدكتور رأسه مرتعدًا، ومال نحو الشمعة فتناولها ونفخها فأطفاها، ورقي السلّم في عجلة كأنّه يفرّ. ورقي زيطة الدرج كذٰلك، ولٰكنّه قبل أن يبرز من الثغرة صكّت أذنيه صرخة داوية، وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء «في عرضكم»! تسمّرت قدماه، ثمّ تراجع نازلًا الأدراج وهو لا يدري ما يفعل وقد أثلجت أطرافه، وما زال يتراجع حتّى داس كعبه الجثّة، فتقدّم خطوة ووقف متسمّرًا لا يجد مهربًا. وخطر له أن يرقد بين الجثث، ولٰكنّه قبل أن يأتي حركة واحدة غمره نور وهّاج أغلق جفنيه قسرًا، وسمع صوتًا شديدًا يصيح به في لهجة صعيديّة:

ـ اصعد. وإلّا أطلقت عليك النار...

وطوته اليأس فاستسلم، ورقي الدرج كما أمر، وقد نسي الطقم الذهبيّ في جيبه.

* * *

ولم يتناهَ إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشي وزيطة في مقبرة الطالبي إلّا عند عصر اليوم التالي. وفشا الخبر وعُرف أسبابه، وتناقله القوم في دهشة وانزعاج. وما إن علمت به الستّ سنيّة عفيفي حتّى استحوذ عليها الفزع وولولت صارخة، وانتزعت طقمها الذهبيّ ورمت به، وأخذت تلطم خدّيها في حالة عصبيّة شديدة، ثمّ سقطت مغمى عليها. وكان زوجها في الحمّام، فلمّا أن قرع أذنيه صراخها أخذه الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول وهرع إليها لا يلوي على شيء.

ـ ٢٨ ـ

كان عمّ كامل جالسًا على كرسيّه على عتبة الدكّان، مائلًا رأسه على صدره، غارقًا في النعاس، والمنشّة في حجره. ثمّ استيقظ على دبيب شيء على صلعته فتحرّكت يده حركة آليّة ليطرد ما ظنّه حشرة، ولٰكنّها وقعت على كفّ آدميّة، فقبض عليها ساخطًا، وتأوّه متذمّرًا، ورفع رأسه ليردّ ذاك المداعب الثقيل الذي أيقظه من نعاسه اللذيذ، فوقعت عيناه على عبّاس الحلو... لم يكد يصدّق عينيه، فحملق فيه مشدوهًا، ثمّ اشتدّ احمرار وجهه المنفوخ فرحًا، وهمّ بالنهوض، ولٰكنّ الشابّ لم يمكّنه من ذٰلك، واحتضنه بذراعيه فتعانقا عناقًا حارًّا، والحلو يهتف به متأثّرًا:

ـ كيف حالك يا عمّ كامل؟

فيجيبه الرجل في لهفة وسرور:

ـ كيف أنت يا عبّاس... أهلًا وسهلًا ومرحبًا... لشدّ ما أوحشتني يا عكروت!

ووقف الحلو بين يديه مبتسمًا، والآخر يتطلّع إليه بعينين شيّقتين. وكان يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا رماديًّا، وقد حسر رأسه ورجّل شعره فبدا أنيقًا حسن المنظر موفور الصحّة مورّد الوجه، فرمقه عمّ كامل بإعجاب وقال بصوته الرفيع:

ـ ما شاء الله أنت رائع يا جوني!

فضحك عبّاس الحلو ضحكة رنّانة صاعدة من قلب جذل وقال:

ـ ثنك يو.. لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزيّة وحده بعد اليوم!

وأجال الشابّ عينيه في الزقاق المحبوب، فوقعتا على دكّانه القديم، ورأى صاحبه الجديد مكبًّا على حلق ذقن زبون، فرنا إلى الدكّان رنوة حنان وتحيّة. ثمّ طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه، فتساءل ترى أهي في الدار أم في الخارج؟ وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنّه الطارق؟ سوف تحملق في وجهه بدهشة وذهول، فيملأ عينيه من حسنها الباهر! هٰذا يوم أغرّ من الأيّام المعدودة في العمر. وانتبه إلى صوت عمّ كامل وهو يقول متسائلًا:

ـ أتركت عملك؟

ـ كلّا، ولٰكنّي أخذت إجازة قصيرة.

ـ ألم تدرِ بما حصل لصاحبك حسين كرشة؟ هجر أباه، وتزوّج، ثمّ استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجرّ وراءه زوجه وشقيقها.

فلاح الأسف في وجه الحلو وقال:

ـ يا لسوء الحظّ...! إنّهم يستغنون عن العمّال كثيرًا في هٰذه الأيّام. وكيف استقبله المعلّم كرشة؟

فمطّ عمّ كامل بوزه وقال:

ـ لا يفتأ شاكيًا متبرّمًا، أمّا الفتى وأهله فيقيمون في الدار.

وسكت الرجل نصف دقيقة ثمّ قال متعجّلًا كأنّما ذكر أمرًا هامًّا:

ـ أما علمت بأنّ الدكتور بوشي وزيطة مسجونان؟!

ثمّ قصّ عليه كيف قُبض عليهما في قبر الطالبي متلبّسين بجريمة سرقة طقمه الذهبيّ. وقد وجم الحلو وجومًا شديدًا. ولم يكن يستبعد أن يرتكب زيطة أشنع الجرائم، ولٰكنّه عجب للدكتور بوشي كيف سوّلت له نفسه اقتراف هٰذه الجريمة النكراء... وذكر كيف طلب إليه أن يركّب له طقمًا حين عودته من التلّ الكبير، فالتوت شفتاه امتعاضًا وتقزّزًا.

واستدرك عمّ كامل يقول:

ـ وقد تزوّجت الستّ سنيّة عفيفي..

وكاد يقول له «العقبى لك» ولٰكنّه أمسك فجأة وقد دقّ قلبه بعنف! ذكر عند ذاك حميدة!.. ولكم ذكر هٰذا الموقف فيما تلا ذٰلك من أيّام متعجّبًا من نسيان ما كان ينبغي أن يذكره لأوّل وهلة! ولٰكنّ الحلو لم ينتبه لتغيّره، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلًا:

ـ أستودعك الله إلى حين...

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرّة فسأله بلهوجة:

ـ أين تقصد؟

فقال الحلو وهو يهمّ بالمسير:

ـ إلى القهوة أسلّم على مَن بقي من الصحاب...

فاتّكأ عمّ كامل على ركبتيه وقام جاهدًا، وتبعه متبخترًا. وكان الوقت عصرًا فلم يجدا بالقهوة من أصحابها إلّا المعلّم كرشة والشيخ درويش. فسلّم عبّاس على المعلّم الذي لاقاه بترحيب، وشدّ على يد الشيخ درويش. فرمقه الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظّارته ولم ينبس بكلمة. وكان عمّ كامل يعاني انقباضًا ثقيلًا، وحزنًا مريرًا، ولا يدري كيف يفاتحه بالنبأ الأليم، فقال له برجاء:

ـ هلّا عدت معي إلى الدكّان قليلًا....؟

ووقف عبّاس متردّدًا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التي انتظرها جزعًا بضعة شهور، ولٰكن لم يهن عليه عمّ كامل، ولم يجد بأسًا في المكوث معه فترة قصيرة من الوقت، فرجع معه إلى دكّانه مداريًا برمه بابتسامة لطيفة، وجلسا في الداخل جنبًا لجنب، وهو يقول بسرور:

ـ الحياة في التلّ الكبير حياة عظيمة، عمل متواصل، وربح موفور. إنّي لا أبعثر نقودي قانعًا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق. حتّى الحشيش لم أذقه إلّا مرّات معدودات مع أنّه هنالك كالماء والهواء. وقد ابتعت هٰذا... انظر يا عمّ كامل العقبى لك...

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها، فبان بداخلها عقد ذهبيّ مركّب من سلسلة وقلب رقيق، ثمّ استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور:

ـ شبكة حميدة. أما علمت؟!.. سأكتب الكتاب في إجازتي هٰذه..

وتوقّع أن يقول الرجل شيئًا، ولٰكنّ عمّ كامل لاذ بصمت ثقيل وغضّ بصره كأنّه يخفيه، فنظر إليه الشابّ باهتمام، ولأوّل مرّة رأى ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار. ولم يكن عمّ كامل من الذين يفلحون في إخفاء ما يعتمل في أنفسهم، فلاح باطنه عاريًا في وجهه. وسرعان ما قطّب الحلو وساوره القلق، فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه، وأنعم في صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه. وأشفق على قلبه الجذل الحبور أن تطفئ جذوته خيبة لا يدريها ولا يتوقّعها. أشفق من ذٰلك إشفاقًا أليمًا موجعًا، ولٰكنّ نذر الكدر تخايلت لعينيه في وجه الرجل المرتبك الواجم، ولم يستطع مع جموده صبرًا، فسأله بارتياب:

ـ ما لك يا عمّ كامل؟.. لست كعهدي بك. ما الذي غيّرك؟.. لماذا لا تنظر إليّ؟!

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين، وفتح فمه ليتكلّم، ولٰكنّ لسانه خانه فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعبّاس مداه، وتنبّأ قلبه بالفاجعة، فشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه، ويخمد أنفاس أمله، فهتف بحزم قائلًا:

ـ ماذا وراءك يا عمّ؟ ما الذي تريد أن تقوله؟ عندك ما تقوله بلا ريب، بل في ضميرك أشياء وأشياء، فلا تقتلني بتردّدك. حميدة؟!... أي والله حميدة!.. قل ما تشاء. لا تعذّبني بسكوتك. هات ما عندك دفعة واحدة.

فازدرد ريقه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ ليست موجودة! لم تعد هنا اختفت. لا يدري أحد عنها شيئًا.

أنصت إليه بذهول وفزع، ونقشت الكلمات في وعيه كلمة كلمة، ولٰكن غشي فهمه ضباب وغبار، وكأنّما انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين، فقال بصوت متهدّج:

ـ لست أفهم شيئًا. ماذا قلت! لم تعد هنا، اختفت؟! ماذا تعني؟

فقال عمّ كامل بأسى:

ـ شدّ حيلك يا عبّاس. يعلم الله أنّي حزين أسيف، وأنّي حملت همّك من أوّل الأمر، ولٰكن ما باليد حيلة ـ اختفت حميدة، ولم يدر أحد عنها شيئًا. خرجت يومًا كعادتها كلّ عصر ولٰكنّها لم تعد. فتّشوا عنها في مظانّها جميعًا دون جدوى. بلّغنا قسم الجماليّة، وبحثنا في قصر العيني، ولٰكن لم نعثر لها على أثر.

لاح في وجهه سهوم، ولبث حينًا جامدًا صامتًا، لا يتكلّم ولا يتحرّك ولا يطرف. لا مذهب ولا مهرب. ألم يتنبّأ قلبه بالفاجعة؟ بلى، وها هو يصدقه. يا عجبًا.. ماذا يقول الرجل؟.. اختفت حميدة؟.. وهل يختفي البشر كما تختفي إبرة أو قطعة من النقود؟! لو أنّه قال ماتت أو تزوّجت لأمكن أن يجد اضطرابه مدى أو نهاية، فاليأس على أيّة حال أروح من الشكّ والحيرة والعذاب. ولٰكن ما عسى أن يفعل الآن؟! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال. وخرج من جموده فجأة، فاستعرت نفسه هياجًا وارتعشت أطرافه، وحدج الرجل بعينين محمرّتين وصاح به:

ـ اختفت حميدة!.. وماذا فعلتم؟.. بلّغتم قسم الجماليّة وبحثتم في قصر العيني؟.. جزاكم الله كلّ خير، ثمّ ماذا؟.. عدتم إلى أعمالكم كأنّ شيئًا لم يكن!.. يا لطف الله!.. انتهى كلّ شيء، فرجعت أنت إلى دكّانك وراحت أمّها تطرق أبواب العرائس، وانتهت حميدة، وانتهيت أنا أيضًا. ماذا تقول يا رجل؟ خبّرني عمّا تعلم؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها؟.. كيف اختفت؟ ومتى وقع ذٰلك؟!

استحوذ الاضطراب على عمّ كامل لما بدر من صاحبه من حدّة وغضب، وقال بصوته الحزين:

ـ مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بنيّ. كان حادثًا مروّعًا مفزعًا ارتجّت له القلوب. والله يعلم أنّنا لم نألُ جهدًا في البحث والاستفسار، ولٰكن ما باليد حيلة!

فضرب عبّاس كفًّا على كفّ، وقد احتقن الدم بوجهه، وازدادت عيناه جحوظًا، وقال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ زهاء شهرين!.. ربّاه.. هذا تاريخ قديم. لا أمل في العثور عليها. ماتت؟.. غرقت؟.. خُطفت؟.. مَن لي بأن أدري؟.. خبّرني بما يقول الناس؟

فقال عمّ كامل وهو يرمقه بحزن وحنان:

ـ ظنّوا ظنونًا كثيرة، ثمّ رجّحوا أنّها ذهبت ضحيّة لحادث، أمّا الآن فلا يذكرون شيئًا..

فهتف الشابّ متأوّهًا:

ـ طبعًا.. طبعًا، فلا هي ابنة لأحد منهم، ولا قريبة أحد، حتّى أمّها ليست بأمّها. ترى ماذا حدث لها؟.. كنت في هذين الشهرين أسعد الناس أحلامًا. أرأيت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقّب يقظته ساخرًا هازئًا طاويًا مصيره بيديه القاسيتين؟!.. ولعلّي كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة، أو تتخبّط في قعر النيل.. شهران يا حميدة! لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ونهض قائمًا ضاربًا الأرض بقدمه، ثمّ قال بامتعاض:

ـ أستودعك الله.

فسأله بلهفة:

ـ علام نويت؟

فقال بفتور:

ـ سأقابل أمّها...

وذكر وهو يدلف من باب الدكّان متثاقلًا كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحًا، وكيف يذهب محطّمًا مهيضًا. فعضّ على شفته، وتسمّرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه، وتحوّل نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدمع، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعي، وارتمى على صدره في قنوط، ونشج منتحبًا باكيًا كالأطفال...

ألم يداخله شكّ في حقيقة اختفائها؟... ألم يساوره ما يساور المحبّين من ارتياب وسوء ظنّ في مثل حالته؟ الحقّ أنّ طيف شكّ قد لاح بخاطره ولكنّه لم يلقِ إليه بالًا فتبدّد. كان بطبعه شديد الثقة، يجود بالظنّ الحسن بغير حساب. كان طيّب القلب جدًّا، ومن هذه القلّة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة المعاذير لغيرهم، واختيار أخفّ التأويلات لأفظع الفعال. ولم يغيّر الحبّ من طبعه هذا، بل لعلّه رسّخه وقوّاه، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهمهمة الشكّ بأذن مرهفة. وقد أحبّ حميدة حبًّا شديدًا باركته فطرته الطيّبة بثقة وطمأنينة. وآمن ـ إلى هذا كلّه ـ بأنّ فتاته أكمل فتاة في الدنيا التي لم ير منها شيئًا يذكر. فلم يداخله شكّ فيها، أو أنّ طيف الشكّ الذي لاح له لم يجد في قلبه مرتعًا يعيث فيه. وقد ذهب لمقابلة أمّها ذلك اليوم، ولكنّها لم تروِ له غلّة، وأعادت عليه ما قصّه عمّ كامل بصوت مختنق بالعبرات. وزعمت له أنّ الفتاة كانت لا تفتأ تتذكّره وتترقّب عودته بصبر فارغ فضاعفت بكذبها أحزانه، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذّب النفس. وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان، وقد زعفر الأصيل هامة النهار، تلك الساعة التي اعتاد ـ في الأيّام الخوالي ـ أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليوميّة. وقطع الطريق ذاهلًا عمّا حوله، فتمثّلت لعينيه بجسمها الملفوف في الملاءة السوداء وعينيها النجلاوين المحبوبتين، وهفّت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة، فتنهّد من الأعماق، ونفخ محزونًا قانطًا. ترى أين هي الآن؟.. ماذا تصنع؟ وماذا صنع الله بها؟... أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد في قبر من قبور الصدقة؟.. ربّاه.. كيف تحجّر قلبه طوال ذلك العهد فلا استشفّ ريبة ولا شام نذيرًا!... كيف استنام إلى طمأنينة الأحلام ولذّة المنى فأكبّ على العمل غافلًا عمّا يخبّئه له الغد؟! وأيقظه الزحام من ذهوله فتنبّه إلى الطريق، هذا الموسكي طريقها المختار بأناسه ودكاكينه، كلّ شيء فيه باقٍ على حاله، إلّا هي، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس. وألمّت به رغبة في البكاء، ولكنّه لم يستسلم لها هذه المرّة. لقد أراحه البكاء على صدر عمّ كامل، وأرخى توتّر أعصابه، وتركه لحزن عميق هادئ، فيجدر به الآن أن يتساءل عمّا هو فاعل، أيدور على الأقسام وقصر العيني... ولكن ما جدوى ذلك؟ أيدوخ في شوارع

القاهرة مناديًا باسمها؟ أيطرق أبواب البيوت بابًا بابًا؟ الله ما أعجزه وما أعجز حيلته! إذن هل يعود إلى التلّ الكبير متناسيًا ما وراء ظهره؟ ولكن لماذا يعود؟ لماذا يصرّ على تحميل نفسه آلام الغربة؟ لماذا يكدّ ويكدح ويجمع النقود؟ الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته. غاضت في قلبه مشاعرها جميعًا إلّا فتورًا يزهق الأنفاس وخمودًا يقتل الإحساس، وهوى إلى هذه الحالة المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغًا كئيبًا يحدق به سدّ هائل من القنوط. كان يعيش على الفطرة لا يدري شيئًا عمّا وراءها. مخلصًا لقوانين الحياة الأوّليّة، فوجد في الحبّ جوهر حياته وخلودها فلمّا أن فقده فقد الأسباب التي تصله بالحياة، وتردّى مزعزعًا كذرّة هائمة في الفضاء. ولولا أنّ الحياة ـ التي تجرّع غصص الآلام ـ تتفنّن في إغراء بنيها بالتعلّق بها حتّى في أحلك أوقاتها، لختم عمره وقضى. ولكنّه مضى في سبيله حائرًا قد ضلّ هدفه، بل شعر في تلك اللحظة أنّه ضلّه إلى الأبد. بيد أنّه ما زال معلّقًا بخيط يدقّ على وعيه ولمح في عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدري إلّا وهو يتّجه نحوهنّ ويعترض سبيلهنّ، فوقفن داهشات وقد تذكّرنه في غير مشقّة، وقال لهنّ بلا أدنى تردّد:

ـ مساء الخير يا بنات، لا تؤاخذنني، ألا تذكرن صاحبتكنّ حميدة؟

فقالت إحداهنّ:

ـ نذكرها جميعًا!.. ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم!

فسأل بصوت ينطق بالأسى:

ـ ألا تدرين شيئًا عن اختفائها؟

فقالت أخرى وقد لاحت في عينيها نظرة ماكرة:

ـ لا ندري شيئًا على وجه اليقين. إلّا ما قلته لأمّها حين جاءتني يوم اختفائها تسأل عنها، من أنّنا رأيناها مرّات بصحبة أفندي يسيران معًا في الموسكي..

وحملق في وجه محدّثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه، وسألها:

ـ أرأيتها بصحبة أفندي..؟!

ونال منظره من الفتيات فاختفت من أعينهنّ نظرات خبيثة ساخرة، وتكلّفن الرزانة، وقالت محدّثته برقّة:

ـ نعم يا سيّدي.

ـ وأخبرت أمّها بذلك؟

ـ نعم...

وشكرهنّ بكلمة، وسار في طريقه. ولم يداخله شكّ في أنّهنّ سيجعلن منه حديثهنّ بقيّة الطريق، ولعلّهنّ يضحكن كثيرًا من الفتى المغفّل الذي هاجر إلى التلّ الكبير ليجمع ثروة لمحبوبته، فآثرت عليه آخر وفرّت معه. يا له من مغفّل حقًّا!. ولعلّ أهل حيّه جميعًا قد لغطوا بغفلته. وقد رحمه عمّ كامل فأخفى عنه الحقيقة، كما أخفتها أمّ حميدة، وهل كان بوسعهما أن يفعلا غير ما فعلا؟ وخاطب نفسه ولـمّا يفق من ذهوله قائلًا: «هٰذا ما حدّثني به قلبي لأوّل وهلة». ولم يكن صادقًا في قوله، لأنّ الشكّ لم يلمّ به إلّا إلمامة خفيفة، ولكنّه لم يعد يذكر في محنته غير هٰذه الإلمامة الخفيفة من الشكّ، بيد أنّه تاه في اللحظة التالية وتساءل وهو يبسط أصابعه ويقبضها في حركات تشنّجيّة: «ربّاه كيف أعقل هٰذا! أهربت حميدة حقًّا مع رجل؟! مَن يصدّق هٰذا؟!». لم تمت إذن، ولم يعرض لها حادث، ولقد أخطأوا خطأ كبيرًا في البحث عنها في الأقسام وقصر العيني، وغاب عنهم أنّها تنام سعيدة رخيّة البال بين ذراعي الرجل الذي خطفها. ولكنّها وعدته ومنّته، أفكانت تخادعه؟.. أم توهّمت خطأ أنّها تميل إليه.. كيف عرفت ذٰلك الأفندي؟ ومتى أحبّته؟ وأيّ جرأة شيطانيّة أغرتها بالفرار معه!.. كان ممتقع اللون، بارد الأطراف، تلوح في عينيه نظرة ساهمة قاتمة، وتبرق فيها من آن لآن لمحة خاطفة تقدح شررًا. خطر له خاطر فصعّد رأسه إلى الدور على جانبي الطريق، ينظر إلى نوافذها ويتساءل: في أيّ دار ترقد لصق رَجُلها الآن؟ انقشع غبار الحيرة، وحلّ محلّه غضب ناريّ ومقت نهم، وتقبّض قلبه وتلوّى تحت ضغط يدَي الغيرة القاسيتين، غير أنّ شعوره بالخيبة ـ الناشئة من ذهاب الأمل وتمرّغ المعبود في التراب ـ كان أفظع من الغيرة نفسها. إنّ الغرور والكبرياء وقود

للغيرة يؤرّثان لهيبها. ولم يكن حظّه منهما ملحوظًا، ولكنّه كان شديد الأمل كبير الأحلام، فذوي أمله وتبدّد حلمه، وانفجرت نفسه غضبًا. وأفاده الغضب من حيث لا يدري، فاستنقذه من ذاك الحزن الصامت الثقيل، وعلّله بالانتقام يومًا ولو على سبيل البصق والازدراء. والواقع أنّ فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره في تلك الساعة الجهنّميّة من الغضب والقهر، فتمنّى أن يتمكّن من طعن قلبها الغادر بمدية حادّة. الآن يستطيع أن يدرك سرّ مواظبتها على الخروج في العصارى، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق! ولكنّها جنّت بغير شكّ، جنّت بهذا الأفندي، وإلّا لما آثرت العهر معه على الزواج به! وعضّ على شفته ألـمًا لـهذا الخاطر. وانتقل راجعًا قد ضاق ذرعًا بالمشي والوحدة. وتحسّست يده علبة العقد في جيبه، فانطلقت من فمه ضحكة جافّة ساخرة كأنّما صرخة غضب في رداء ضحكة. ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبيّة! وذكر كيف وقف في دكّان الصايغ يقلّب عينيه بين الحليّ وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلًا وسرورًا، وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الواني إلّا أنّها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورًا. . .

- ٢٩ -

ما إن وقّع السيّد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتّى شدّ الخواجا الجالس قبالته على يده وقال له:

- مبارك عليك يا سليم بك. هذه ثروة طائلة. . .

وعلق بصر السيّد بالخواجا وهو يمضي في سبيله حتّى توارى وراء باب الوكالة، صفقة رابحة. وبحسبه أنّه تخلّص من مخزون الشاي الذي اشتراه الخواجا جملة فربح الكثير وأمن شرّ المخاوف، خصوصًا وأنّ صحّته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء. بيد أنّه قال لنفسه ساخطًا متبرّمًا «ثروة طائلة ولٰكنّها ملعونة، لقد حلّت اللعنة بكلّ شيء في دنياي». والحقّ أنّه لم يبق من السيّد القديم إلّا شبح هزيل، وكانت أعصابه أشدّ ما يضنيه، وكأنّها تعهّدت بالقضاء عليه، فسامته تفكيرًا متواصلًا في الموت حتّى صار الموت شغله الشاغل. ولم يكن الرجل في الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان، ولٰكنّ تهافت أعصابه أنساه آداب الإيمان وألوى بشجاعته. وما انفكّ يفكّر في ساعة الاحتضار - وقد ذاق بعض مرارتها في إبّان مرضه - ويستذكر ذكرياته عنها عمّن حضرهم الموت من أقاربه، ذاك الرقاد المستسلم الأليم، وصعود الصدر وهبوطه، وهذه الحشرجة المتقطّعة، وإظلام المقلتين، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف، وتودّع الروح الجسد. أفيَقَعُ كلّ هذا في يسر؟! إنّ الإنسان ليجنّ إذا انتُزع ظفره، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته؟! ولا يدري إلّا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم، فما تستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة، أمّا صداها في الروح ورجعها في الجسد، فسِرُّ الميت الذي ينطوي عليه صدره، ويقبر معه في جدثه، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا في أفظع حالاتها وأبشعها، ولو أنّه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة في الحياة، ولمات الناس ذعرًا قبل أن تدركهم النهاية. وطالما تمنّى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممّن يموتون بالسكتة القلبيّة. ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء، إنّهم ليموتون وهم يتكلّمون أو يأكلون، أو حين يقومون أو يقعدون، كأنّهم يمكرن بالاحتضار فيتحيّنون منه غفلة ثمّ ينسلّون خفية إلى باب الأبديّة!. . ولكنّه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة، وقد ضرب له أبوه - وجدّه من قبل - مَثَل الميتة التي يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنّها ستجري عليه، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان. مَن كان يصدّق أنّ السيّد سليم علوان - الرجل القويّ السعيد - سيمسي فريسة لـهذه الأفكار والمخاوف؟. . . . هكذا كان، ولم يكن الاحتضار بفزعه الوحيد، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته! وصوّر له خياله وثقافته

المتوارثة عن الأجيال، أنّ بعض شعوره سيلازمه بعد الموت، أليس يقولون إنّ عينَي الميت تريان مَن يحدّقون به من الأهل؟ . . . فحتم أن يرى الموت جهرة، وأن يشعر بالنهاية الأبديّة وهي تشمله، وأن تتّصل حواسّه بظلمة القبر ووحشته وغربته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقه واختناقه، وما يحتمل أن يتردّد في النفس من أشواق وحنين وحبّ للدنيا وأهلها! . . . تمثّل ذلك كلّه بصدر منقبض وقلب متشنّج وأطراف باردة وجبين يتفصّد عرقًا، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب، أوّاه . . . ما أبعد الشقّة بين الموت والجنّة! . . .

لذلك تعلّق بأهداب الحياة بقوّة الخوف واليأس، على رغم أنّها حياة عاطلة من أسباب النعيم، فلم تترك له دورًا يلعبه في مسرحها إلّا المراجعة وعقد الصفقات، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه، فأكّد له الطبيب شفاءه من الذبحة وآثارها ولكنّه نصحه بالحذر والاعتدال. وشكا إليه عدّة مرّات ما يعاني من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصّائيّ في الأعصاب ومن ثمّ مضى يتردّد بين الأخصّائيّين في الأعصاب والقلب والصدر والرأس، وتفتّح له باب المرض عن عالم لا يقلّ عن عالمنا اتّساع رقعة وازدحامًا بالسكّان من الجراثيم والأعراض الخفيّة. ومن عجب أنّه لم يكن يؤمن لا بالطبّ ولا بالأطبّاء، ولكنّه آمن بهما في اضطرابه، ولعلّ إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذي ألمّ بأعصابه! . .

في هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته، وفي أوقات عمله، وأويقات السلام التي تصفو فيها نفسه وتنقى من نمش الهواجس كان كأنّه يتفرّغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر، فهو إمّا في حرب مع نفسه وإمّا في حرب مع الناس. وأدرك عمّال الوكالة من بادئ الأمر أنّ سيّدهم قد استحال شخصًا شاذًّا ملعونًا، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرّت ربع قرن من حياته، وبقي مَن بقي من العمّال على مضض وتوجّس واستكراه. وقال عنه أهل الزقاق إنّه بين العقل والجنون، وقالت حسنيّة الفرّانة بشماتة لم تحاول إخفاءها «إنّها صينيّة الفريك والعياذ بالله». ويومًا قال له عمّ كامل عن قصد حسن ونيّة سليمة:

- هلّا أمرتني يا سي السيّد أن أصنع لك صينيّة بسبوسة مخصوصة يردّ عليك ثوب العافية بإذن الله!

ولكنّ السيّد غضب غضبًا شديدًا وانفجر صائحًا فيه:

- إليك عنّي أيها الغراب. أجننت يا أعمى القلب والبصيرة! . . . إنّ أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أمعدتهم سليمة حتّى القـ . . .

ولم يعد بعدها عمّ كامل إلى التعرّض له بخير أو بشرّ.

أمّا زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه، ولم يفتأ يلقي على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله، وكان ينتهرها قائلًا:

- لشدّ ما نقمت على صحّتي وعافيتي، حتّى تحطّمت بين يديك، فهنيئًا لك الراحة يا أفعى . . .

واشتدّ به سوء الظنّ، حتّى ارتاب يومًا أن يكون نما إليها عزمه على الزواج من حميدة، لأنّ أمثال هذه الأمور تتصدّى لها أعين كثيرة فتراها في خفية من صاحبها، وتتطوّع ألسنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له «عملًا» هو الذي أودى بصحّته وعقله! . . . ولم يكن في حالة تسمح له بأن يزن ما يعرض له من فكر بميزان العقل ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينًا. فتميّز غيظًا، وامتلأ حنقًا، وتوثّب للانتقام. اشتطّ في معاملتها، ودأب على سبّها ونهرها، ولكنّها قابلت قسوته بالامتثال والصبر والأدب، فلم يُجْلِه شططه، ولبث يتحرّق إلى إثارتها، وإخراجها من التعوّد بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكّي والتذمّر وذرف الدموع، فقال لها مرّة بجفاء وازدراء:

- لقد مللت عشرتك، ولا أخفي عنك أنّي شارع في الزواج، سوف أجرّب حظّي مرّة أخرى . . .

وصدّقته المرأة، فتصدّع بنيان رزانتها المتماسك،

وفزعت إلى أبنائها فباحت لهم بما تلقاه على يديه من سوء القول والفعل. وهالهم الأمر، ودهمهم الخطب، فأيقنوا أنّ أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب، وزاروه واقترحوا عليه ـ إبقاء على صحّته ـ أن يصفّي تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه. وفطن الرجل إلى ما يساورهم من خوف غير جديد عليه، فغضب غضبة هائجة، وعنّفهم بفظاظة لا عهد لهم بها، وخاطبهم بحدّة قائلًا:

ـ حياتي ملك لي أصرفها كيفما أشاء، وسأبقى عاملًا ما راق لي العمل فاعفوني من نصحكم المغرض.

وضحك متهكّمًا ثمّ استدرك وهو يقلّب في وجوههم عينيه الذابلتين:

ـ ألم تحدّثكم أمّكم عمّا اعتزمت من الزواج مرّة أخرى؟.. هو الحقّ. لقد شرعت أمّكم في قتلي، فسآوي إلى كنف امرأة جديدة على شيء من الرحمة، وإذا تضاعف عددكم بهٰذا الزواج فثروتي كفيلة بإشباع أطماعكم جميعًا..

وأنذرهم بأنّه سيقبض يده عنهم، وأنّ على كلّ منهم أن يعتمد في حياته على موارده الخاصّة. قال بسخط وغضب:

ـ إنّي كما ترون لا أكاد أذوق غير مرّ الدواء، فلا يصحّ أن يتمتّع الآخرون بمالي.

قال كبيرهم:

ـ كيف تخاطبنا بهٰذه اللهجة المُرّة ونحن أبناؤك البررة؟

فقال السيّد ساخرًا:

ـ بل أبناء أمّكم.

ونفّذ وعيده فلم يعد يحمل شيء من طرفه إلى بيوت أبنائه، وحرم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التي اشتهر بها، والتي حُرّمت عليه هو بعد مرضه، ليشاركه الجميع ـ خصوصًا زوجه ـ فيما فرض عليه. ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجد السهم النافذ الذي تحطّمت دونه ما تدّرع به زوجه من صبر وأناة. وتشاور أبناؤه فيما بينهم، وقد ألفاهم الخطب قلبًا واحدًا في التوجّع لأبيهم، والإخلاص له في محنته، وقال كبيرهم:

ـ نتركه وشأنه حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

بيد أنّ المحامي قال بشيء من الحزم مستدركًا:

ـ اللّهمّ إلّا إذا شرع في الزواج حقًّا، فأشدّ ما نتّخذه من احتياط أهون من أن نتركه هملًا بين أيدي الطامعين.

* * *

وكان اختفاء حميدة حدثًا فظيعًا في حياته. ومع أنّه لم يعد إلى ذكرها ـ منذ مرضه ـ فتخلّفت عن تيّار شعوره، إلّا أنّ خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه، فتتبّع بقلق بحث الباحثين عنها. ولـمّا تناهى إليه ما تهامس به اللاغطون من أنّها فرّت مع رجل مجهول، انزعج انزعاجًا شديدًا، وثار غضبه ذٰلك اليوم فلم يجرؤ أحد على الدنوّ منه، فرجع مع المغيب إلى بيته مهدّم الأعصاب، وأصابه صداع شديد أرّقه حتّى مطلع الفجر. وحنق على الفتاة الهاربة حنقًا كبيرًا، وتآكل قلبه حقدًا وغضبًا، وتمنّى أن يراها يومًا متدلّية من مشنقة، مندلقة اللسان، جاحظة العينين. ولـمّا علم بعودة عبّاس الحلو من التلّ الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح، ودفعته رغبة لا تقاوم إلى استدعاء الشابّ، وقرّبه، ولاطفه في الحديث وساءله عن أحوال معيشته، متجنّبًا ذكر الفتاة، فسُرّ الشابّ بعطفه، وشكر له حدبه، وأقبل على الحديث في استفاضة مَن استنام إلى لطفه، والسيّد يسترق إليه النظر من عينيه الغائرتين.. وفي الأيّام الأولى التي أعقبت فرار حميدة وقع حادث ـ ربّما كان في ذاته تافهًا ـ ولٰكنّه ممّا يؤرّخ به في زقاق المدقّ. كان السيّد سليم علوان متّجهًا نحو الوكالة في ضحوة من النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهبًا لبعض شأنه. وكان السيّد ـ في عهده الأوّل ـ من محبّي الشيخ درويش، وكثيرًا ما تعاهده بالبرّ والإحسان والهدايا، ولٰكنّه أغفله في مرضه وأهمله وكأنّه لم يعد يشعر له بوجود. ولـمّا التقيا على كثب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ اختفت حميدة..

فبهت السيّد، وظنّه يعنيه بقوله، فما تمالك أن صاح به:

ـ ما لي أنا ولهذا!

ولكنّ الشيخ درويش واصل خطابه قائلًا:

ـ ولم تختف فحسب، ولكنها هربت، ولم تهرب فحسب ـ ولكنّها هربت مع رجل؛ ويسمّون ذلك في الإنجليزيّة Elopement وتهجيتها. . . e.

وقبل أن يتمّ الرجل تهجية الكلمة انفجر السيّد صارخًا:

ـ إنّه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون، اغرب عن وجهي عليك لعنة الله. .

وجمد الشيخ في مكانه، تسمّر في الأرض، ولاحت في عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوّح له شخص بعصًا مهدّدًا، ثمّ أعول باكيًا. ومضى السيّد لطيّته، ولبث الشيخ درويش بموقفه باكيًا، وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ، حتّى أهاب نواحه بالمعلّم كرشة وعمّ كامل والحلّاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين، وقادوه إلى القهوة، وأجلسوه على أريكته وهم يطيّبون خاطره ويسكّنون روعه. وطلب له المعلّم كرشة قدحًا من الماء، وربّت عمّ كامل على كتفه قائلًا بتوجّع:

ـ وحّد الله يا شيخ درويش، اللّهمّ اكفنا السوء. . بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب. . اللّهمّ لطفك.

ولكنّ الشيخ ازداد بكاء وعويلًا، فاضطربت أنفاسه، وارتجفت أوصاله، وأطبقت شفتاه في توتّر وتشنّج، وراح يشدّ ربطة رقبته بعنف، ويضرب الأرض بقبقابه. وفتحت نوافذ الدور وأطلّت الرءوس في دهشة وانزعاج، وجاءت حسنيّة الفرّانة. وشقّ النحيب طريقه إلى مسمعي السيّد سليم علوان في الوكالة، فأنصت إليه غاضبًا حانقًا، وظلّ ينصت إليه هائجًا، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل؟. . وعبثًا حاول أن يعيب بانتباهه عنه، فكأنّه كان يلحّ في مطاردته والتضييق عليه، حتّى خيّل إليه أنّ الدنيا جميعًا تبكي وتنوح. وسكت غضبه وسكن هياجه، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترنّ في إشفاق وألم. ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الوليّ!. . ليته لم يصادفه في طريقه! وما كان ضرّه لو أغضى عنه ومرّ به مرّ الكرام! وتأوّه نادمًا، ومضى يقول: إنّ الإنسان في مثل حالته من المرض حريّ بأن يزدلف إلى الله لا أن يُغضب وليًّا من أوليائه. وطوى كبرياءه، ونهض قائمًا، وغادر الوكالة متوجّهًا إلى قهوة كرشة. وقصد الشيخ الباكي غير عابئ بالأنظار التي سدّدت نحوه في دهشة، ووضع يده على منكبه برفق، وقال بلهجة تنمّ عن الاعتذار والأسف:

ـ يا شيخ درويش. . سامحني.

ـ ٣٠ ـ

كان عبّاس الحلو يجلس مختبئًا في شقّة عمّ كامل حين دقّ الباب بعنف، فنهض إليه وفتحه فرأى حسين كرشة مرتديًا القميص والبنطلون، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته، ثمّ بادره قائلا:

ـ كيف لم تقابلني وهذا ثاني يوم لك في المدقّ!. . كيف حالك؟

فمدّ له الحلو يده مبتسمًا ابتسامة باهتة وقال:

ـ كيف أنت يا حسين؟. . لا تؤاخذني فمتعب أخاك لا ناسٍ ولا مهمِل. هلمّ نَسِر معًا.

وخرجا معًا. وكان عبّاس الحلو قد قضى ليلته مسهّدًا، وقطع النهار متفكّرًا، فسار مصدّع الرأس، مثقل الجفون. لم يكد يبقى من ثورة الأمس أثر، سكت الغضب الجنونيّ، وبرد الهياج الحامي، وتلاشت خواطر الانتقام الدمويّ، على حين رسب في قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهمّ، وبمعنى آخر تخلّصت نفسه ممّا لا تطيقه من ألوان الانفعال، مسلّمة بكلّيّتها للحزن واليأس. وقال له حسين متسائلًا:

ـ أما علمت بأنّي كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة؟

ـ حقًّا؟

ـ وتزوّجت، وأخذت بأسباب حياة رائعة. .

فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئًا من الاهتمام الذي لا يجده:

ـ حمدًا لله. . مبارك. . عال. . عال. .

وكانا بلغا الغوريّة، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدّة:

ـ بل زفت وهباب!.. استغنوا عنّي فعدت إلى الزقاق على رغمي، وأنت هل استغنوا عنك أيضًا؟

فأجابه الشابّ بفتور:

ـ كلّا.. ولكنّي مُنحت إجازة قصيرة.

فأكلت الغيرة قلبه، وضحك ضحكة باردة ثمّ قال:

ـ أنا الذي دفعتك إلى العمل دفعًا وأنت تمانع، وها أنت ذا تنعم به على حين أتسكّع أنا متعطّلًا.

وكان عبّاس من أدرى الناس بما تنطوي عليه طبيعة صاحبه من غلّ وشرّ فقال بانكسار:

ـ نهايتنا قريبة على أيّة حال، هذا ما يؤكّدونه لنا.

فارتاح حسين قليلًا، ثمّ استدرك يقول بصوت أسيف:

ـ كيف انتهت الحرب بهذه السرعة؟! مَن كان يصدّق هذا؟!

فهزّ الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة. سيّان عنده أن تستمرّ الحرب أو تنتهي، وأن يبقى في عمله أو يُفصل منه، إنّه لا يبالي شيئًا على الإطلاق. وكاد يضجره حديث صاحبه، إلّا أنّه ألفاه أخفّ من الوحدة والفكر، ومن ناحية أخرى تحمّله ـ كما اعتاد أن يتحمّله ـ دفعًا لشرّه. واستطرد حسين قائلًا:

ـ كيف انتهت بهذه السرعة!.. كان الأمل معقودًا بهتلر أن يطيلها إلى ما لا نهاية، ولكن أنهاها حظّنا الأسود.

ـ صدقت..

فصاح حسين بشدّة:

ـ نحن تعساء. بلد تعيس وأناس تعساء.. أليس من المحزن ألّا نذوق شيئًا من السعادة إلّا إذا تطاحن العالم كلّه في حرب دامية؟! فلا يرحمنا في هذه الدنيا إلّا الشيطان!

وأمسك قليلًا وهما يشقّان طريقًا بين سابلة السكّة الجديدة، وقد أخذ ستار الظلام في الانتشار، ثمّ قال متنهّدًا في حسرة:

ـ لشدّ ما تمنّيت أن أكون جنديًّا محاربًا! تصوّر حياة جنديّ باسل، يخوض غمار الحرب، وينتقل من نصر إلى نصر، يركب الطيّارات والدبّابات، يهاجم ويقتل ويسبي النساء الفارّات، ويبذل له المال عن سخاء، فيسكر ويعربد فوق القانون. هذه هي الحياة. ألا تتمنّى أن تكون جنديًّا؟

الحقّ أنّ ركبتيه كانتا تتخلخلان إذا سمع صفّارة الإنذار، وكان من روّاد المخبأ المواظبين فكيف يتمنّى أن يكون جنديًّا من المحاربين؟ بيد أنّه تمنّى صادقًا لو كان خُلق جنديًّا فظًّا متعطّشًا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممّن آذوه وبدّدوا حلمه في السعادة والحياة الرغيدة! وقال بلهجته الفاترة:

ـ مَن لا يتمنّى ذلك؟!

وانتبه إلى الطريق، فازدحمت برأسه الخواطر، ربّاه. كيف للزمان أن يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره؟!، إنّ أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين، وإنّ هواءه لا يبرح معبقًا بأنفاسها المحبوبة، وكأنّه يراها رؤية العين وهي تخطر بقوامها المعتدل المشوق، أنّى له أن يطمع في نسيان هذا كلّه؟! وقطّب متغيّظًا على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله، وأطبق فمه فلاح وجهه صارمًا قاسيًا، وعاودته لفحة من ثورة الأمس، ينبغي أن ينبذ مَن ينبذه، وأن يطرح مَن يخونه، وألّا يحرق أضلعه حزنًا ـ ولا حتّى غضبًا ـ على مَن يرقد ناعمًا بين أحضان غريم له. تبًّا للقلب من صاحب خئون، دسيسة على الروح والجسم، يحبّ من لا يحبّها، ويحرص على مَن يفرّط فيها، فيسيم صاحبه الخسف والهوان. واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاخب وهو يلكزه هاتفًا:

ـ حارة اليهود.

وأوقفه بيده عن السير متسائلًا:

ـ ألا تعرف حانة فيتا؟.. ألم تدمن الخمر في التلّ الكبير؟

فأجابه عبّاس قائلًا باقتضاب:

ـ كلّا..

ـ كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر؟ يا لك من خروف تعس.. الخمر شراب منعش ومفيد للمخّ، تعال..

وتأبّط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود وكانت فيتا تقع على بعد يسير من مدخلها، على جانبها الأيسر، وهي أشبه بدكّان، متوسّطة، مربّعة الشكل، تمتدّ في جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخاميّ ينهض وراءها الخواجا فيتا، وقد ثبت في الجدار خلفه رفّ طويل صُفّت عليه الزجاجات، وقامت في نهايته من الداخل براميل ضخمة، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد، حوذيّة وعمّال وآخرون حفاة ونصف عراة كالشحّاذين إن كان الشحّاذون يسكرون. وبقي من الحانة غير ذٰلك موضع اتّسع لبعض المناضد الخشبيّة. فجلس إليها أعيان السوقة والعاجزون عن الوقوف لكبر أو لسكر شديد. ورأى حسين مائدة شاغرة في نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها، وجلسا حولها. وقلّب عبّاس عينيه في المكان الصاخب المدوّي في صمت وقلق، حتّى استقرّتا على غلام في الرابعة عشرة قصير مفرّط في البدانة، مطيّن الوجه والجلباب، حافي القدمين، يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع، ويتمايل رأسه سكرًا، فاتّسعت عيناه دهشة ولفت حسين إليه، ولٰكنّ هٰذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية:

- هٰذا عوكل بائع الجرائد. يبيع الجرائد في النهار ويسكر في الليل. غلام ولٰكن قلّ في الرجال مثله. أرأيت يا غشيم!

ومال برأسه نحوه قليلًا وقال:

- كأس النبيذ بقرش ونصف لذّة للمتعطّلين أمثالي. منذ شهر كنت أشرب الويسكي في بار فنش ولٰكنّها الدنيا القلب، معلهش يا زهر!

وطلب كأسين، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق ترمس. ونظر عبّاس إلى كأسه بقلق وقال مشفقًا من لسان صاحبه إشفاقه من الإقدام على التجربة الجديدة:

- يقولون إنّها مؤذية!

فقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية:

- تخاف على نفسك؟! خلّها تقتلك.. في داهية يا سيّدي، لا أنت في الزيادة ولا في النقصان، صحّتك.

وقرع كأسه بكأسه، ثمّ أفرغه في جوفه بغير مبالاة، ورفع عبّاس كأسه وكرع منه كرعة، ثمّ أبعده عن فيه متقزّزًا، وقد شعر كأنّ لسانًا من لهب اندلع في حلقه، فتقبّض وجهه وكأنّه لعبة من المطّاط ضغطته أصابع طفل، وقال متأفّفًا:

- فظيع. مُرّ. حامي.

فتضاحك حسين ساخرًا، شاعرًا بزهو واستعلاء وقال بازدراء:

- تشجّع يا طفل، الحياة أمرّ من هٰذا الشراب، وأوخم عاقبة..

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه وهو يقول «اشرب حتّى لا يندلق على قميصك» فتجرّعه الآخر حتّى الثمالة. ونفخ متقزّزًا، ثمّ أحسّ حرارة في بطنه، سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها في جوفه، فشُغل بالانتباه إليها عن تقزّزه، وتتبّع أثرها وهو يندفع مع دمه، ويجري في عروقه، حتّى إذا بلغ رأسه خفّت وطأة الدنيا عليه قليلًا، وقال حسين بسخرية:

- اكتف اليوم بكأسين ولا تزد..

وطلب كأسًا أخرى لنفسه وراح يقول:

- أقيم الآن مع أبي ومعي زوجي وشقيقها، ولٰكنّ نسيبي وجد عملًا في الترسانة وسيفارقنا اليوم أو غدًا. ويقترح أبي عليّ أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهات في الشهر، وبمعنى آخر أشتغل من الفجر حتّى نصف الليل بثلاثة جنيهات!.. ولٰكن ماذا تقول لحشّاش مجنون؟!.. وهٰكذا ترى أنّ الدنيا تناصبني العداء، وتستفزّ غضبي ومقتي، وليس عندي إلّا جواب واحد: فإمّا الحياة التي طابت لنا وإمّا حرقنا الدنيا ومَن عليها..

فسأله عبّاس، وكان أخذ يستشعر راحة وجدها عجيبة لذيذة بالنسبة لما تعنّاه طوال يومه من همّ وفكر:

- ألم توفّر مالًا؟..

فقال حسين بحدّة وسخط:

- ولا مليّمًا! كنت أسكن شقّة نظيفة بالوايليّة، فيها الكهرباء والماء، وكان عندي خادم صغيرة تقول لي

بكلّ احترام «يا سيّدي»، وكنت أرتاد السينما والفرقة القوميّة، ربحت كثيرًا، وضيّعت كثيرًا، وهذه هي الحياة. إنّ أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود؟ بيد أنّ النقود ينبغي أن تساير العمر حتّى نهايته، وإلّا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار. ليس لديّ الآن إلّا قليل من الجنيهات غير حليّ زوجي..

وصفّق طالبًا كأسًا ثالثة ثمّ قال بإشفاق:

ـ والأدهى من ذلك أنّ زوجي تقيّأت في الأسبوع الماضي...

فقال عبّاس متظاهرًا بالاهتمام:

ـ لا بأس عليها.

ـ لا بأس ولا زفت، هذه أمارات الحبَل، كما تقول أمّي، وكأنّ الجنين غثت نفسه تقزّزًا من الحياة التي تنتظره فأعدى أمّه.

ولم يطق عبّاس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته ولهوجته، ولم يعد يهتمّ بذلك، وانتابته كآبة فجائيّة بعد أن نعم ساعة بالراحة، ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء:

ـ ما لك؟.. إنّك لا تصغي إليّ..

فقال عبّاس بصوت حزين:

ـ اطلب لي كأسًا أخرى..

وحقّق حسين مشيئته بسرور، ورنا إليه بنظر مريب ثمّ قال:

ـ أنت متكدّر وأنا أعلم بسبب كدرك..

فخفق فؤاد الشابّ وقال بعجلة:

ـ لا شيء مطلقًا. هات ما عندك إنّي مصغٍ إليك..

ولكنّه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار:

ـ حميدة..

فاشتدّ وجيب قلبه، وكأنّه تجرّع كأسًا ثالثة، فهاج دمه وسرى إليه الوجد والحزن والغضب، فقال بصوت متهدّج:

ـ أجل حميدة، هربت، خطفها رجل، عار وشقاء!

ـ لا تحزن كثيرًا كالحمقى، وهل طابت حياة مَن لم تفرّ عنهم نساؤهم؟!

وتناهى الانفعال بالشابّ فقال بغير وعي:

ـ ترى ماذا تفعل الآن؟!

فضحك حسين ساخرًا وأجابه:

ـ تفعل ما عسى أن تفعله أيّة امرأة فرّت مع رجل..

ـ أنت تهزأ بألمي.

ـ ألمك سخيف، خبّرني متى علمت بفرارها؟....

مساء الأمس!... كان ينبغي أن تكون نسيتها الآن..

وهنا أحدث عوكل ـ الغلام الشرّيب بائع الجرائد ـ حركة لفتت إليه أنظار الجلوس، وكان استوفى شربه ومضى ثملًا مترنّحًا حتى إذا بلغ عتبة الحانة نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الوراء في عظمة وسلطنة وصاح بلسان ملتوٍ:

ـ أنا عوكل شاطر الشطّار وسيّد الرجال، أسكر وأنبسط، وها أنا ذاهب إلى عشيقتي، فهل لأحد منكم اعتراض؟... أهرام، مصريّ، البعكوكة...

واختفى الغلام تاركًا وراءه عاصفة من الضحك، أمّا حسين كرشة فقد عبّس غاضبًا، ولاح الشرّ في عينيه، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذي كان به الغلام، وأخذ يسبّ ويلعن. كانت أقلّ إشارة من تحدٍّ ـ وهو على سبيل المزاح ـ كافية لإشعال غضبه وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه، ولو كان الغلام بمتناول يده للكمه أو ركله أو أخذ بتلابيبه. والتفت إلى عبّاس ـ وكان يتجرّع كأسه الثانية ـ وقال بحدّة وكأنّه نسي ما كانا آخذينِ فيه من أسباب الحديث:

ـ هذه حياة وليست لعبة خشبيّة، يجب أن نعيش.. ألا تفهم؟

ولم ينتبه عبّاس إليه، كان يخاطب نفسه قائلًا: «لن تعود حميدة، اختفت من حياتي إلى الأبد، وماذا تجدي عودتها؟ ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يومًا، هذا أشدّ من القتل. أمّا ذاك الأفندي فالويل له منّي، سأدقّ عنقه..».

واستدرك حسين قائلًا:

ـ هجرت المدقّ فأعادني الشيطان إليه، سأضرم به

النار، هذه خير وسيلة للتحرّر منه..

فقال عبّاس بأسى:

- زقاقنا لطيف، وما طمعت يومًا في أكثر من حياة طيّبة فيه...

- إنّك خروف! وحلال أن تُنحر في عيد الأضحى. علام تبكي؟ إنّك عامل وفي جيبك نقود، ولتجمعنّ غدًا بتقتيرك مالًا وفيرًا فلماذا تشكو؟

فقال عبّاس بلهجة تشفّ عن الاستياء:

- إنّك أكثر منّي شكوى، وعمرك ما حمدت الله..

فحدجه الشابّ بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلًا بلين:

- لا عليك من هذا، لكم دينكم ولي دين..

فقهقه حسين بصوت ارتجّت له الحانة، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب برأسه:

- خير لي أن أشتغل خمّارًا من أن أشتغل مكان أبي في القهوة، الربح هنا موفور، وفضلًا عن هذا فالخمر مبذولة للخمّار بغير حساب...

فابتسم عبّاس ابتسامة فاترة وقد بات أشدّ حذرًا في مخاطبة صاحبه الديناميتي، وكان دبيب الخمر يسري في أعصابه، ولكنّه بدل أن ينسى شجوه تركّزت خواطره فيه. وصاح حسين مرّة أخرى:

- فكرة رائعة!.. سأتجنّس بالجنسيّة الإنجليزيّة، في بلاد الإنجليز الكلّ سواسية، لا فرق بين الباشا وابن الزبّال. فلا يبعد أن يصير ابن القهوجي رئيس وزارة...

وانبعثت نشوة مباغتة في دم الحلو فقال بحماس:

- فكرة طيّبة!... سأتجنّس أيضًا بالجنسيّة الإنجليزيّة...

ولكنّ حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية:

- مستحيل، أنت خرع، فالأنسب أن تتّخذ الجنسيّة الإيطاليّة، ومهما يكن من أمر فنسافر على سفينة واحدة... قم بنا.

ونهضا واقفين، وأدّيا حسابهما، وغادرا الحانة والحلو يتساءل:

- أين نذهب الآن؟

- ٣١ -

لعلّ الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقها إلى الخارج في الأصيل من كلّ يوم. ولكنّها الآن تطيل الوقوف أمام المرآة المصقولة، أصلها ثابت في الحوض الذهبيّ وفرعها سامق في سماء الغرفة. وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها، فبدت امرأة جديدة كأنّما ولدت في أحضان النضارة، ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم. على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوّس كالخوذة، عقص تحتها شعرها المدهون العبق، الخدّان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقيّة الوجه خلا من الأصباغ، بعد تجربة طويلة دلّت على أن بشرتها البرنزيّة أفتن للجنود الحلفاء وأحبّ إليهم، الأشفار مكحّلة والأهداب مدهونة مفصّلة تهدف إلى علٍ أطرافها الحريريّة، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطّرة من نسائم الفجر، هلالان مزجّجان خطّتهما يد ماهرة مكان الحاجبين، سلسلتان من البلاتين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدلّيان من الأذنين، غير ساعة ذهبيّة في معصمها وهلال منغرس في مقدّم العمامة. فستان أبيض يشفّ أعلاه عن قميص ورديّ وتنضح حاشيته بسمرة فخذيها، جورب رماديّ من الحرير الخالص لبسته لا لشيء إلّا غلوّ ثمنه، وقد تطاير شذًا عَبِقٌ من تحت إبطيها وراحتيها وعنقها. فلشدّ ما تغيّر كلّ شيء!

* * *

ولقد اختارت سبيلها من بادئ الأمر بمحض إرادتها، وبعد تجربة وعناء، تكشّف لها أفقه عن أفراح وضّاءة وخيبة مريرة، فوقفت على قمّة الامتحان تردّد عينيها بين اليمين والشمال متلهّفة...

علمت من أوّل يوم ما يراد بها، فثارت غاضبة هائجة، لا لتكسر إرادة عشيقها الحديديّة، ولكن استسلامًا لداعي عجرفتها وإشباعًا لغريزتها المتعطّشة للعراك، ثمّ أذعنت بعد ذلك وكأنّها تذعن بمحض مشيئتها. وأدركت بوضوح وبفضل بلاغة فرج إبراهيم، أنّها لكي تتمرّغ في التبر ينبغي أن تتمرّغ في التراب، فلم تبالِ شيئًا. وفتحت صدرها للحياة

الجديدة بحماس وسرور وهمّة، حتّى صدق عليها عشيقها يوم وصّلها بالتاكس إلى حيّها من أنّها «عاهرة بالفطرة!» وتجلّت مواهبها فبرعت في فترة قصيرة في أصول الزينة والتبرّج وإن سخروا أوّل الأمر من سوء ذوقها، فكانت سريعة التعلّم محسنة للتقليد، ولٰكنّها سيّئة الاختيار لألوان ثيابها وفي ميلها إلى الحليّ تبذّل ملموس. ولو كان تُرك الأمر على ما تشتهي وتحبّ لتبدّت وكأنّها «عالمة» في زواقها الفاقع وحليّها التي تكاد تغطّي جسمها. وفيما عدا ذٰلك فقد تعلّمت الرقص بنوعيه، ودلّت على مهارة في تعلّم المبادئ الجنسيّة للّغة الإنجليزيّة. ولم يكن النجاح الذي جاءها يجرّ أذياله بمستغرب، فتهافت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود، وانتظمت في سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير. وبدا لها أنّها فازت بكلّ شيء، وأنّها لم تخسر شيئًا، فلم تكن في عهدها الأوّل بالساذجة فتأسى للخدعة التي أطاحت بها، ولم تكن بالفتاة الطيّبة فتذهب نفسها حسرات على ما فقد من أمل في الحياة الطيّبة، ولم تكن بالفاضلة حقًّا فتبكي على شرفها المثلوم، ولم تشدّها إلى ذٰلك الماضي ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت في حاضرها المحبوب لا تلوي على شيء. وعلى العكس من ذٰلك كانت غالبيّة الفتيات اللاتي يضطربن في مضمارها. فمنهنّ جماعة يتطاحن في قلوبهنّ الأسى والطمع والشقاء واليأس. ومنهنّ بائسات يشقين ليقمن أود أسرات جائعات. ومنهنّ تعيسات يخفين تحت شفاههنّ المصبوغة قلوبًا دامية، ونفوسًا حنّانة إلى الحياة الفاضلة أمّا هي فقد طابت بحياتها نفسًا، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرّيّة والرضا والفرح، ألم تتحقّق أحلامها؟ بلى الثياب والحليّ والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذٰلك، ناهيك بهٰذه السطوة السحريّة التي دان لها المعجبون. أفمن الغريب بعد ذٰلك أن يلوح المدقّ كما يلوح السجن للآبق الطليق؟ ولقد ذكرت يومًا كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها. وتساءلت أكانت تفضّل حقًّا أن تتزوّجه؟ وجاءها الجواب بالنفي بلا تردّد. ولو تحقّق ذاك الزواج لكانت الآن قابعة في بيت، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأمّ وغير ذٰلك من الواجبات التي تدري الآن عن تجربة ويقين أنّها لم تُخلق لها. فَلِلّٰهِ ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره! ومع ذٰلك أقول حذار!.. إيّاك أن تتصوّرها امرأة شهوانيّة، تستحوذ عليها شهوة طاغية. هي أبعد ما تكون عن ذٰلك! والحقّ أنّ شذوذها لا يكمن في قوّة شهوتها. لم تكن من هٰذه الطائفة من النساء اللاتي تستأثرهنّ الشهوة وتستذلّهنّ فيجُدْنَ بكلّ غالٍ في سبيل إرضائها، كانت تتلهّف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك، وكانت ـ حتّى بين ذراعي الرجل الذي محضته الحبّ ـ تتلمّس أنامل الحبّ خلل اللكمات والصفعات، وقد باتت شاعرة بهٰذا الشذوذ في عواطفها، أو هٰذا النقص في طبيعتها، وكان ذٰلك من دواعي تماديها واستهتارها، بيد أنّه كان ذٰلك من أسباب تعلّقها بعشيقها، وعن هٰذا التعلّق نجمت الخيبة المريرة التي منيت بها.

* * *

كانت تجترّ خواطر هٰذه الخيبة وهي ماثلة أمام المرآة تأخذ زينتها، ثمّ طرق أذنيها وقع خطاه ـ ذٰلك الرجل ـ رأت صورته في المرآة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنّه لم يكن ذاك العاشق الولهان، فتحجّر بصرها وتشنّج قلبها. لم يعد الرجل الذي عرفته من قبل، وهٰذه هي الخيبة المريرة ولو طال به العهد لربّما هان الخطب بعض الشيء، ولٰكنّه دهمها في نشوة الأيّام الأولى، فلم تنعم بحبّه خالصًا في لذّة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل، إلّا زهاء عشرة أيّام! ثمّ غلب المدرّب فيه على العاشق، ومضى يتكشّف رويدًا عن التاجر، ذٰلك الرجل القاسي الفظّ الذي يتّجر بالأعراض. والواقع أنّ قلبه لم يعرف الحبّ قطّ، ولعلّه من الغريب أن تقوم حياته على هٰذه العاطفة التي لم تحرّك فؤاده أبدًا. كانت طريقته إذا أوقع فريسة في شباكه أن يمثّل معها دور العاشق ـ وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه فحولته ـ حتّى إذا استنامت إليه تمتّع بها فترة قصيرة، ومن ثمّ يطمئنّ إلى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلّق به وما يكبّلها به

من قيود ماليّة، ثمّ بما يتهدّدها عادة من رقابة القانون!.. فإذا تمّ له سعيه بدا على حقيقته، وتمخّض العاشق عن تاجر الأعراض. ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجوّ المشبع بأنفاس النساء الذي يعيش فيه، فانقلبت ولا همّ لها إلّا الاستئثار به، وصار همّها هذا شغلها الشاغل الذي نغّص عليها صفوها، فباتت فريسة للحبّ والغيرة والغضب. واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعًا وهي تنظر إلى صورته التي تطالعها على صفحة المرآة، فتحجّر بصرها وتوثّبت إرادتها وتوتّرت أعصابها. أمّا هو فقال بلهجة سريعة متظاهرًا بالعجلة:

ـ انتهيت يا عزيزتي..؟

ولكنّها لم تعبأ به، وتعمّدت ألّا تجيبه استكراهًا لما يبدي من ملاحظات عن «العمل» وتذكّرت بحسرة عهدًا لم يكن يحدّثها إلّا عن الحبّ والإعجاب، الآن لا تنفرج شفتاه إلّا عن العمل أو الربح!.. والآن لا تستطيع عنه فكاكًا بحكم هذا العمل، وبطغيان عواطفها نفسها. وإنّ الغضب ليملأ صدرها، ولكن ماذا يجدي هذا الغضب؟!.. لقد فقدت حرّيّتها التي استباحت في سبيلها كلّ منكر. وإنّها ليداخلها شعور بالقوّة والسيادة ما دامت في الطريق أو الحانة. حتّى إذا رأته أو ذكرته حلّ محلّ هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذلّ. ولو اطمأنّت إلى قلبه لهان كلّ عسير، فذلّ الحبّ في أعماقه ظفر، أمّا والحال غير ذلك فما تدري إلّا الجنون مهربًا من حيرتها، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج في صدرها، ولكنّه كان يريدها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطيعة المرتقبة. ولو كانت امرأة أخرى لهان عليه هجرها بغير عناء، ولكنّه آثر أن يجرّعها كأس القنوط نقطة فنقطة، واستوصى بالصبر والأناة شهرًا طويلًا، حتّى بات متأهّبًا للضربة الحاسمة، قال بلهجته العارية عن العاطفة:

ـ هيّا يا عزيزتي فالوقت من ذهب.

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدّة:

ـ هلّا أقلعت عن هذه العبارات السمجة؟!

ـ هلّا أقلعت أنت يا عزيزتي عن الإجابات الجافّة!

فتهدّج صوتها غضبًا وهي تقول:

ـ أهكذا يحلو لك أن تخاطبني الآن؟!

فتظاهر بالملل وقال:

ـ أوه.. أنعود مرّة أخرى إلى هذا الحديث المجوج؟! «تخاطبني بهذه اللهجة».. «أنت لا تحبّني»... «لو كنت تحبّني لما اعتبرتني مجرّد سلعة!».. ما جدوى هذا الكلام؟.. ألا أكون عاشقًا إلّا إذا ردّدت صباح مساء «أنا عاشق»؟.. ألا أكون محبًّا إلّا إذا بادرتك كلّما التقينا «أحبّك»؟.. ألا يكون حبّ إذا شغلنا بحديث الحبّ عن عملنا وواجباتنا؟.. أحبّ أن يكون عقلك كبيرًا كغضبك، وأن تكرّسي حياتك ـ كما أكرّس حياتي ـ لعملنا العظيم، وأن تجعليه فوق الحبّ نفسه وفوق كلّ شيء..

وأصغت إليه بوجه مصفرّ من الغضب. هذا كلام بارد فاتر، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة ولقد بَلَتْ مثل هذا الكلام من قبل، وكادت تألفه مذ آنست منه الفتور. وإنّها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمّدًا، فكان يفحص يديها بعناية، ويحثّها على المزيد من الاهتمام بهما قائلًا: «أطيلي أظافرك واصبغيها بالمنيكور... يداك نقطة ضعف في جمالك!» وقال لها مرّة أخرى متشفّيًا وقد طال بينهما الجدل: «حذار، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل، صوتك يا عزيزتي.. ازعقي إذا شئت من الفم لا من الحنجرة، فهذا صوت خشن فظّ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع، ولعلّه أن يذكّر السامع بالمدقّ ولو كنت في عماد الدين!» هكذا تكلّم الفاجر!.. لشدّ ما آلمها قوله وأذلّ قلبها الفخور. وظلّ يصطنع معها المراوغة والملاينة كلّما طرقت حديث الحبّ، ولكنّه بكرور الأيّام أسقط من تمثيله حتّى هذه الملاينة الكاذبة، وربّما قال لها في ملل «الحبّ لعب ونحن جادّون!» أو قال بغير مبالاة «هلمّي إلى العمل.. الحبّ كلام فارغ» تبًّا له، لشدّ ما ملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة! وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدّة:

ـ كلامك هذا لا يجوز عليّ، لماذا تذكّرني دائمًا بالعمل؟ ألاهية عنه أنا؟! إنّك لتعلم أنّي أفوق

الأخريات وأبرع عليهنّ، وإنّك لتربح من كذّي أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات، فاهجر هذا الحديث المعاد الممجوج، وخبّرني صراحة فقد ضقت باللفّ والدوران. أما زلت تحبّني؟!

وحدّثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع! ألم يمهّد له بما فيه الكفاية؟.. ونشط فكره في سرعة وقلق وعيناه اللوزيّتان لا تتحوّلان عن وجهها الغاضب، ولكنّه تردّد وآثر السلامة ولو إلى حين، فقال يداريها:

ـ عدنا كما توقّعت إلى الحديث القديم...

فانفجرت صارخة:

ـ أجبني صراحة. أحسبتني أموت أسى لو حرمتني من نعمة حبّك؟

ليس الوقت مناسبًا. لعلّه لو جابهته بهذا السؤال على أثر إيابها من الخارج، أو في الصباح ـ حين يتّسع الوقت للملاحاة والشجار ـ لكان أجابها كما يشاء، أمّا الآن فالجواب الصريح حريّ بإضاعة ثمرة اليوم هباء فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء:

ـ أحبّك يا عزيزتي...

أقبح بكلمة الحبّ إذا ندّت عن فم مملول، كالبصقة! استحوذ عليها القهر، وشعرت في قهرها بأنّها لا تتأبّى عن هوان وإن جلّ لو ضمن أن يعيده إلى أحضانها! وأحسّت لحظة أن حبّه مطلب تهون من أجله الحياة، ولكنّها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها، ثمّ امتلأ قلبها ضغينة، فاقتربت منه خطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب في عمامتها، وقالت مصمّمة على أن تشقّ طريق التحدّي حتّى نهايته:

ـ تحبّني حقًّا؟ إذن فلنتزوّج.

ونطقت عيناه بالدهشة، ونظر إليها بين مصدّق ومكذّب، ولم تكن تعني ما قالت ولكنّها أرادت سبر أغواره، فقال لها:

ـ وهل يغيّر الزواج من أمرنا شيئًا؟

ـ أجل. لنتزوّج، ولنهجر هذه الحياة.

ونفد صبره، وتولّدت في صدره عزمة صادقة، أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة، وأن يحقّق ما جال بخاطره طويلًا ولو ضاعت ثمرة الليلة، وقهقه ضاحكًا في غيظ وسخرية وقال هازئًا:

ـ نِعْم الرأي! أحسنت يا عزيزتي، نتزوّج ونعيش كما يعيش الشرفاء. إبراهيم فرج وحرمه وأبناؤهما ليمتد! ولكن خبّريني ما هو الزواج؟.. لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعًا، أو دعيني أتذكّر قليلًا... زواج؟!. شيء خطير فيما أذكر يتضمّن رجلًا وامرأة ومأذونًا ووثيقة دينيّة وطقوسًا كثيرة،.. متى عرفت هذا كلّه يا إبراهيم؟.. في الكتّاب أو المدرسة؟! ولكن لا أدري أما تزال هذه العادة متّبعة أم قد أقلع الناس عنها!.. خبّريني يا عزيزتي ألا يزال الناس يتزوّجون؟

وارتعشت أطرافها غضبًا، وأفعم قلبها يأسًا وغمًّا، ونظرت إليه فإذا به مبتسمًا هازئًا سادرًا فجنّ جنونها وارتمت عليه ناشبة أظافرها في عنقه؛ ولم تفجؤه حركتها المباغتة فتلقّاها بسكينة، وقبض على ساعديها وفرّج بينهما ثمّ تخلّص منها والابتسامة الهازئة لا تفارق شفتيه، فاشتدّ حنقها وغضبها، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكلّ ما أوتيت من قوّة وعصبيّة. وغاضت ابتسامته ولاحت في عينيه نظرة وعيد وشرّ، فردّت عليها بنظرة جريئة متحدّية، وانتظرت شبوب العاصفة بجزع وتلهّف، وكادت تنسى أسباب آلامها في لذّة العراك المرتقبة، ومنّتها أحلامها الهستيريّة بختام سعيد لهذا النضال البهيميّ. ولكنّه كان من ناحية أخرى يقدّر عواقب الاستسلام للغضب، ولا يغيب عنه أنّ دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذي يروم نقضه، ويزيد من تعلّقها به، فضبط نفسه، وكبح جماح غضبه، وصمّم على أن يكاشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع، فتراجع خطوة، وانفتل آفلًا وهو يقول بهدوء:

ـ هلمّي إلى العمل يا عزيزتي...

ولم تكد تصدّق عينيها، وألقت على الباب الذي غيّبه نظرة ساهمة رتق بها القنوط. وأدركت سرّ تقهقره بغريزتها فاستشفّ قلبها الحقيقة المفجعة. وتقلقل صدرها برغبة حارّة مباغتة في قتله! انفجرت في

صدرها بقوّة آسرة لا كأمنية الضعيف الحاقد، ولٰكنّ رغبة فتّاكة شعرت بأنّها في نطاق طاقتها. لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هٰذا الرجل وها هو يتمّ صنائعه فيكشف عن أخطر هٰذه الجوانب جميعًا. ولٰكن أيرضيها حقًّا أن تبيع الحياة من أجل الفتك به؟ إنّها استهانت بكلّ شيء في سبيل الحياة، أمّا الاستهانة بالحياة نفسها. .؟! وانقبض صدرها، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور، وبقيت رغبتها في الانتقام تتلظّى وينـدلـع لهيبهـا. ينبغي أن تغـادر البيت أوّلًا، وفي الخارج مهرب من جحيم الفكر، ومجال للأناة والتدبير وسارت متثاقلة صوب الباب، فدارت على عقبيها كأنّما لتلقي عليها نظرات الوداع. تنزّى قلبها في صدرها في تلك اللحظة الفاصلة، ربّاه. . كيف انتهى كلّ شيء بهٰذه السرعة؟!. . هٰذه المرآة كم بدت على صفحتها فـرحة مستبشرة، وهٰـذا السرير الـوثير مهـد الغـرام والأحلام، وعلى هٰذا الديوان كانت تجلس بين يديـه تصغي إلى إرشاداته بين العناق والقبل، وهٰذا الخوان يحمـل صـورتهـا معًـا في ثيـاب السهـرة! ثمّ ولّت الذكريـات ظهرهـا وفرّت من الحجـرة. وفي الطريق لفحها الهواء الـدافئ فتنسّمته في إعيـاء، وأخذت في سبيلها وهي تقول لنفسها «لن أعدم طـريقة للفتـك به!» كم يكون هٰذا شافيًا على شرط ألّا تدفع حياتها ثمنًا له، لم تخلق الحيـاة للتضحية، الحيـاة فوق كـلّ شيء، بل فوق الحبّ نفسه. حقًّا بـات الحبّ ندبًـا عميقًا في سويداء قلبها، ولٰكنّها ليست المرأة التي يفنيها الحبّ، بها جرح عميق، ولٰكنّ الجـريح يعيش وهـو ينـزف، بل يستـطيع أن يتمتّـع بحياة عـريضة فيهـا الـذهب والسرور والسـطوة والعـراك. هٰكـذا لاقت خيبتها. ورأت عربة فأشـارت إلى الحوذيّ وركبت، واستشعرت حاجة ملحّة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له:

ـ إلى ميدان الأوبرا أوّلًا، ثمّ عد من شارع فؤاد الأوّل. واحدة واحدة من فضلك.

وجلست وسط المقعد مائلة بـظهرهـا إلى الوراء، واضعة رِجْلًا على رجل، فانحسر الفستان الحـريريّ عن بـطن فخذيـها، واستخرجت من حقيبتهـا علبـة سجـائر، وأشعلت سيجـارة، وراحت تدخّن بشغف غـير عابئـة بـالأنـظار التي تتخـاطف مـا انجـلى من لحمها. . .

وغرقت في خضمّ الفكر. هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه، ومع ذٰلك فهيهات أن تسترخي يدها القابضة على حبل الحياة. وتعزّت بآمال كثيرة ومسرّات مرتقبة، ولٰكن لم يجر لها في خاطر أنّها قد تستجدّ حبًّا ينسيها هٰذا الحبّ الخائب لأنّها كانت حاقدة على الحبّ، ولأنّ الإنسان ـ إذ يفقد جوهرة الحبّ اللامعة ـ لا يتصوّر أنّه سيسعد بالعثور عليها مرّة أخرى. وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور في محيط الأوبرا، ولمحت في دورانها عن بعد ميدان الملكـة فريـدة، فطار الخيـال بها إلى الموسكي والسكّة الجديدة والصنادقيّة والمدقّ، ولاحت لعينيها أخلاط أطياف نساء ورجالًا، وتساءلت: ترى هل يعرفها أحد من هٰؤلاء إذا رآها في هٰذا الزيّ؟. . أيستطيع أحدهم أن يستشفّ حميدة وراء تيتي؟! وماذا تبالي؟! لا أب لها ولا أمّ! ونفخت دخان سيجارتها في استهـانة ورمت بـالعقب. وأخذت تتسلّى بمشـاهـدة الـطريق حتّى رجعت العربـة إلى شـارع شريف، واتّجهت نحو الحانة التي تقصدها، وفي تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنّما انشقّ عنه قبر هاتفًـا «حميدة» فالتفتت نحوه وقد تملّكها الذعر، فرأت عبّاس الحلو على بعد ذراع منها لاهثًا. .

ـ ٣٢ ـ

وهتفت وهي لا تدري:

ـ عبّاس. . .

كان الفتى يلهث مبهورًا بعد أن ركض شوطًا كبيرًا وراء العربة من ميدان الأوبرا، وقد اندفـع لا يلوي على شيء، يصطدم بالكتل البشريّة، لا يعتاقه ما ناله من دفع، ولا يثنيه ما لحقه من شتم ولعن. وكان قبل ذٰلك يسير متأبّطًا ذراع حسين كرشة، يتخبّطان عـلى غير هدى ـ عقب مغادرتهما لحانة فيتا ـ حتّى انتهى بهما التخبّط إلى ميدان الأوبرا، فالتقى بصر حسين بالعربة

التي تحمل حميدة، ورأى الجالسة بداخلها، فلم يعرفها وأرعش حاجبيه استحسانًا وهو يلفت صاحبه إليها. ونظر عبّاس إلى العربة المقبلة عليهما في طوافهما بالميدان، وعلق بصره بالفتاة الغائبة في أفكارها ولم يستطع أن يستردّ عينيه، جذبهما بقوّة سحريّة شيء في الوجه، وفي القوام، شيء كالشبه، أو هو شبه رقيق يحسّه القلب قبل أن تحسّه العينان، وتمشّت في مفاصله رعدة انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيًا، وهتف القلب «هي؟»، وكانت العربة قد ولّته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكيّة، فلم يألُ عدوًا وراءها بلا تدبّر ولا تفكير وصاحبه يزعق وراءه معربدًا صاخبًا، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأوّل ولكنّ عينيه لم تتحوّلا عن العربة، ثمّ استأنف العدو جاهدًا لا تكاد تسعفه قدرته إلّا قليلًا، حتّى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة فناداها. ولمّا أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشكّ باليقين، وأدركت حواسّه ما سبق القلب إليه، فوقف حيالها لاهثًا مبهورًا لا يدري كيف يصدّق عينيه. وغلبتها الدهشة والانزعاج أوّل وهلة واستحوذ عليها الانفعال، ثمّ شعرت بحرج موقفها وأشفقت من فضول المتسكّعين، فتمالكت مشاعرها. وأشارت إليه ومضت في عجلة إلى عطفة سابقة للحانة - وهو يتبعها - ودخلت أوّل باب إلى يسارها وكان حانوت أزهار. وحيّتها بائعة الزهور - التي عرفتها بحكم تردّدها على المكان - فردّت تحيّتها وسارت به إلى نهاية الحانوت متحامية مواقع الأنظار. وأدركت بائعة الزهور أنّها تريد أن تختلي بصاحبها فمضت إلى مقعدها وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأنّ أحدًا لم يقتحم عليها حانوتها. وقفا وجهًا لوجه، يلفّه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثّرًا. ما الذي دعاه إلى هٰذا العَدْو القاتل؟! ماذا يروم من هٰذا اللقاء المغتصب! وجد نفسه في تلك اللحظة عريًا من كلّ رأي أو عزم. ولقد كانت ذكريات الشرّ الذي هصر آماله - في أثناء عدوه - تذرّ على عينيه غبارًا فتكاد تحجب عنه الطريق، ولكنّه لم يبيّت رأيًا أو يستجدّ عزمًا، فركض ركضًا آليًّا لا يتبيّن له غاية، حتّى إذا هتفت باسمه فَقَدَ البقيّة من وعيه وتبعها إلى الحانوت كالسائر في نومه. وأخذ يفيق رويدًا رويدًا من الإعياء والجهد والانفعال، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة متلمّسًا عبثًا أن يجد فيها موضعًا للفتاة التي أحبّها، فارتدّ البصر كليلًا، وتجرّع قلبه غصص اليأس المرير. لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى، ولقد أجبرته الشائعات في المدقّ على تصديق أمر فظيع، ولٰكنّ الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة لعينيه وامتلأ قلبه المقهور شعورًا بتفاهة الحياة وعبثها، بيد أنّ غضبه الذي أصلاه نارًا حامية في ليله ونهاره، لم ينفجر، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتّى البصق عليها. وجعلت حميدة تنظر إليه في ارتباك وحيرة، واستشعر قلبها خوفًا حيال هٰذا الأثر من الماضي الذي تتحاماه، ولٰكنّه لم يحرّك بها عطفًا أو ندمًا، بل استثار ازدراءها ومقتها فلعنت في سرّها شؤم الحظّ الذي رمى به في طريقها. واشتدّ الصمت على أعصابها، ولم يعد في الوسع احتماله، فقال الحلو بصوت مبحوح متهدّج:

- حميدة! أهٰذا أنت؟ ربّاه كيف أصدّق عينيّ؟!.. كيف هجرت بيتك وأمّك وانقلبت إلى هٰذه الحال؟!

وأجابته في ارتباك غير خافٍ:

- لا تسألني عن شيء، فليس عندي ما أقوله، وهٰذا قضاء الله الذي لا يردّ.

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر. فاستفزّا غضبه وأثارا حنقه، فعلا صوته مزمجرًا حتّى ملأ الحانوت:

- كاذبة فاجرة... أغواك فاجر مثلك ففررت معه. وتركت وراءك في حيّك أسوأ الذكرى، وها هو الفجر السافر يطالعني في وجهك وتبرّجك الفاضح...

واستفزّ هٰذا الغضب المفاجئ شراستها الطبيعيّة فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف، وضاعفها ما احتملته في يومها من حنق وخيبة، فاربدّ وجهها وصرخت في جنون:

- صه... لا تزعق كالمجانين، أحسبت أنّك

تخوّفني بصراخك؟! ماذا تريد منّي يا هٰذا؟ لا حقّ لك عليّ فاغرب عن وجهي. . .

وخبا غضبه قبل أن تتمّ كلامها! قهر غضبها غضبه فأماته في صدره وكأنّه كان يشعله الماء وتطفئه النار. وحملق في وجهها ذاهلًا وغمغم بصوت مرتعش النبرات:

ـ كيف سوّلت لك نفسك أن تقولي هٰذا القول؟. . . ألست. . . ألم تكوني خطيبتي؟

وتشفّت بهزيمته، وارتاحت إلى غضبتها التي أسعفتها في الوقت المناسب وقالت بتململ:

ـ أيّ فائدة تجنى من ذكر الماضي الآن؟ لقد مضى وانقضى. . .

فقال متحيّرًا متوجّعًا:

ـ أجل مضى وانقضى، ولٰكنّي في حيرة من أمري وأمرك، ألم تقبلي يدي؟. . . ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معًا؟!

لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج، وتساءلت في جزع: متى يُمسك عن هٰذا؟ متى يفهم؟ متى يرحل؟ ثمّ قالت بلهجة لا تخلو من برم:

ـ أردت شيئًا وأرادت الأقدار سواه. .

ولم يغب عنه تململها ولٰكنّه بات أشدّ تشبّثًا بالكلام والاستفسار، واستمدّ من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس:

ـ ماذا صنعت بنفسك؟ كيف انقلبت إلى هٰذا المصير الأسود؟. . أيّ شؤم أعمى بصيرتك؟. . . ومَن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذي خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك في مزبلة الدعارة؟. .

واكفهرّ وجهها، وتناهى بها الجزع، وقالت بلهجة تشي بالملل:

ـ هٰذه حياتي، هٰذه النهاية التي لا مهرب منها، نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صاحبه، لم يعد بوسعي الرجوع، ولن تستطيع مهما قلت أن تغيّر من الواقع شيئًا، وحذار أن تغلظ لي القول فلست على حال أملك معها السماحة أو العفو، وإنّي لأقرّ بعجزي حيال حظّي ومصيري، ولٰكنّي لا أحتمل أن يضاعف لي إنسان الكرب بالغضب والزجر. انْسَني، واحتقرني كما تشاء، واتركني بسلام. .

ما هٰذه بفتاته، أين منها حميدة التي أحبّها وأحبّته؟ يا عجبًا؟ ألم تحبّه حقًّا؟ ألم تلصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلّم؟ ألم تدعُ له يوم الوداع وتعده باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء؟. . . فمَن تكون هٰذه الفتاة؟؟ ألا تستشعر ندمًا؟ ألم تلنها إثارة من حنان قديم؟ وأوشك أن يغضب مرّة أخرى لولا إشفاقه من غضبها، فتنهّد تنهّد المغيظ المقهور وقال:

ـ إنّك تحيّرينني، وكلّما أصغيت إليك تضاعفت حيرتي، لقد عدت بالأمس من التلّ الكبير فدهمني الخبر الأسود على غرّة، أتعلمين ماذا دعاني لهٰذه العودة؟!. . (وأبرز علبة القلادة وأراها إيّاها). . . عدت بهٰذه هديّة لك، وكان في نيّتي أن أعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد. .

وألقت على العلبة نظرة صامتة. وفي أثناء ذٰلك وقعت عيناه على الهلال الماسيّ والقرط اللؤلؤيّ فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه، وتناهى به الضيق فسألها بحدّة:

ـ ألا تأسفين على هٰذه النهاية؟!

ولمعت عيناها بخاطر غامض بثّ في نفسها يقظة محمومة، فقالت بلهجة حزن مصطنعة:

ـ أنت لا تدري كم أنّي شقيّة!

فاتّسعت عيناه في دهشة وريبة، وقال بألم بالغ:

ـ يا للشقاء يا حميدة!. . . لماذا أصخت لنداء الشيطان؟. . . كيف هانت عليك حياتك الشريفة؟. . . كيف نبذت الحياة الطيّبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا تحشرج صوته). . . مجرم آثم وشيطان رجيم؟!. . . هٰذه جريمة لا تغتفر. . .

وكانت حمّى ذلك الخاطر لا تزال تلهم أفكارها، فقالت بلهجتها الأسيفة الجديدة:

ـ إنّي أؤدّي ثمنها من لحمي ودمي. . .

وازدادت دهشته، وخالطها ارتياح غامض سرورًا بالشقاء المزعوم الذي اعترفت به، ولٰكنّها لم تنكسر عن حدّتها اعتباطًا، كانت أفكارها تتوارد بسرعة جنونيّة في

إلهام شيطانيّ، خطر لها أن تحرّضه على الرجل الذي هرس قلبها بقسوة وسخرية، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهي بمأمن من عوادي الشقاء، ورقّت نظرة عينيها وهي تقول بصوت ضعيف:

ـ لست إلّا شقيّة يا عبّاس. لا تؤاخذني على سوء قولي فقد أفقدني الشقاء وعيي. إنّكم جميعًا ترونني عاهرة فاجرة. والحقّ أنّي شقيّة بائسة، خدعني الشيطان الرجيم كما دعوته بحقّ، لا أدري كيف أذعنت إليه، ومع ذٰلك فلست أنتحل لنفسي عذرًا، ولا أطمع أن أسألك العفو، فإنّي أعلم أنّي مذنبة، وها أنذا أدفع ثمن جريرتي النكراء. اعفِ عن غضبي الذي أهاجته كلماتك العادلة، وابغضني واحتقرني ما شاءت لك نفسك الطاهرة الكريمة، واشمت بي فلست في حاضري إلّا ألعوبة رخيصة في يد مَن لا يرحم، يطلقني في الطرق ويستغلّ شقائي بعد أن استلبني أعزّ ما أملك. إنّي أمقته، أمقته بكلّ ما فيّ من شقاء ومهانة هما من غرسه، ولٰكن هيهات أن أجد لي منه مهربًا. .

أذهله حديثها الشاكي عن نفسه، وراعته نظرة الشقاء تغشى عينيها، فنسي المرأة المتنمّرة التي كادت تفتك به منذ برهة قصيرة، وأهابت به رجولته أن يغضب، فزمجر صائحًا:

ـ يا للشقاء يا حميدة، إنّك شقيّة، وإنّي شقيّ، كلانا شقيّ بفعل هٰذا المجرم. أجل، لا أستطيع أن أنسى أنّك أخطأت خطأ أثيمًا، وأنّ هٰذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد، ولٰكن بينا يشقى كلانا بهٰذا الخطأ، إذا بالمجرم الأوّل مطمئنّ سعيد كأنّما يسعد بشقائنا، فلا كانت الحياة إذا أنا لم أحطّم رأسه!

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها قبل أن يفضحها، وكانت سرعة انزلاقه إلى شباكها فوق مطمعها، وارتاحت بصفة خاصّة إلى قوله: «هٰذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد» فأمن قلبها أن يجرجره الانفعال إلى حدّ العفو عنها، والسعي لاستردادها، وما كانت تحلم بهٰذا كلّه. أمّا الحلو فاستدرك يقول عابسًا راغبًا:

ـ لا ارتاح لي بال قبل أن أحطّم رأسه وأهشّم عظمه! أجل، لا أستطيع أن أنسى أنّك فررت معه، ولا أنّهم رأوك تسيرين في صحبته، فلا أمل من أن نجتمع مرّة أخرى، لقد فقدت حميدة التي أحببتها إلى الأبد، ولٰكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى كلينا خبّريني أين أجده؟

فقالت وعقلها في تفكيره أسرع من لسانها في نطقه:

ـ لا سبيل لك عليه اليوم، ولٰكن تعال يوم الأحد ظهرًا إذا شئت فتجده في الحانة عند أوّل هٰذه العطفة، ولن تجد مصريًّا سواه فيها، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعينيّ. . ولٰكن ماذا تنوي أن تفعل به؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنمّ عن الإشفاق عليه من العواقب، ولٰكنّه أجاب في جنون الغضب واليأس قائلًا:

ـ سأحطّم رأس القوّاد الوضيع. .

وتساءلت وعيناها تتفرّسان في وجهه: أيستطيع الحلو أن يقتل؟!. .

ولم يغب الجواب عن فراستها، ولٰكنّها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه إلى يد القانون، فتنتقم منه وتخلص من أسره. وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبّر أو نقد، بيد أنّها لم تخلُ من رغبة صادقة في ألّا يصيب الحلو شرّ فادح من مخاطرته، وتمنّت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحيّة لفعله!. . ولذٰلك قالت تحذّره:

ـ لا تبلغنّ بك الرغبة في الانتقام منه حدّ الاستهانة بحياتك! اضربه. . افضحه. . جرّه إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه. . .

ولٰكنّه لم يكن يصغي إليها، وكان يقول وكأنّه كان يخاطب نفسه:

ـ لا يصحّ أن نشقى بلا ثمن. انتهت حميدة، وانتهى عبّاس، فكيف يروح القوّاد آمنًا ضاحكًا من تعاستنا؟ لأدقّنّ عنقه ولأكتمنّ أنفاسه، (ثمّ علا صوته موجّهًا إليها الخطاب): وأنت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نحّيت عن سبيلك هٰذا الشيطان؟

وخافت على نفسها ما عسى أن يؤدّي إليه هٰذا السؤال، وأشفقت من أن يتطرّق إلى مسارب نفسه

ضعفه القديم، فقالت بحزم وهدوء:

ـ انقطع ما بيني وبين العالم القديم، ولكنّي سأبيع ما عندي من حليّ وأجد لنفسي عملًا شريفًا في مكان بعيد. . .

وصمت صمتًا طويلًا متفكّرًا محزونًا، فعانت في صمته من القلق ألوانًا، حتّى طامن من رأسه، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لا يستطيع قلبي أن يعفو. لا يستطيع، لا يستطيع. . . ولكن لا تعجّلي بالاختفاء مرّة أخرى حتّى نرى كيف ينتهي هذا الأمر. .

ووجدت في لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام فلمعت عيناها في حذر وقلق، وآثرت في أعماق قلبها الثائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحًا ذراعيه، بيد أنّها لا تستطيع أن تفصح له عمّا يدور بخلدها، ولن يشقّ عليها الاختفاء إذا شاءته، وإذا تمّ لها الانتقام الذي تتلهّف عليه فما أيسر أن تشدّ الرحال إلى الإسكندريّة التي حدّثها عنها إبراهيم فرج كثيرًا، وهنالك تصفو لها الحياة وتطيب في حرّيّة لا يحدّها قيد، وفي أمن من المتطفّلين، ولذلك لم تجد بأسًا في أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة:

ـ لك ما تشاء يا عبّاس. .

وكان قلبه يعاني مرارة الشقاء والقنوط والتحفّز للانتقام، ولكنّه ما انفكّ ينبض بالحيرة والعطف. .

ـ ٣٣ ـ

كان يوم وداع وسرور، فدبّت في قلوب الزقاق عاطفة واحدة، ذلك أنّ للسيّد رضوان الحسيني منزلة رفيعة في القلوب جميعًا على السواء. كان السيّد قد استخار الله في أداء فريضة الحجّ هذا العام فأخاره، وعلم الجميع أنّه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمٰن إلى السويس في طريقه إلى الأراضي المقدّسة. وامتلأ بيته بالمودّعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء. . وحفّوا به في الحجرة القديمة الوديعة التي طالما أصغت جدرانها إلى سمرهم الورع اللطيف عامًا بعد عام. واستفاض حديث الحجّ، وثارت ذكرياته. ولهجت بها الألسن في أركان الغرفة حول خطّ متموّج من دخان البخور يتصاعد من المجمرة، ورووا نتفًا من أخبار الحجّ شملت المعاصرين والغابرين، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة. ورتّل ذو صوت رخيم بعض ما تيسّر من آي الذكر الحكيم، ثمّ أنصتوا جميعًا إلى فيض من كلام السيّد رضوان أفصح به فؤاده عمّا يكنّه من رقّة وطيبة. . .

وكان أحد الأصفياء قد قال له:

ـ سفر سعيد وعَوْد حميد. . .

فأشرقت في وجه السيّد ابتسامة وضّاءة كسته جمالًا على جمال، وقال بصوته الحنان:

ـ أخي لا تذكّرني بالعود. إنّ مَن يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيّب دعاءه وينفد سعادته. سأذكر العودة حقًّا إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقي إلى مصر، وأعني بها العودة إلى الحجّ مرّة ثانية إذا أذن الرحمٰن وأعان. مَن لي بمَن يقرّني ما تبقّى من العمر في البقاع الطاهرة، أمسي وأصبح فلا أرى إلّا أرضًا تطامنت يومًا للمس أقدام الرسول، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة، ومغاني أصغت للوحي الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء، هنالك لا يطوف بالخيال إلّا ذكريات الخلود، ولا يخفق الفؤاد إلّا بحبّ الله، هنالك الدواء والشفاء. أخي. . . أموت شوقًا إلى استطلاع أفق مكّة، واستجلاء سماواتها، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها، والسير في مناكبها، والانزواء في معابدها، وإرواء الغلّة من زمزمها، واستقبال الطريق الذي مهّده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلثمائة وألف عام ولا يزالون، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبويّ والصلاة في الروضة الشريفة، وإنّ بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثّه، ولديّ من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوّره. أراني يا إخوان ضاربًا في شعاب مكّة تاليًا الآيات كما أُنزلت أوّل مرّة. كأنّما أسمع درسًا للذات العليّة، أيّ سرورا! . . وأراني ساجدًا في الروضة متخيّلًا الوجه

الحبيب كما يتراءى في المنام، أيّ سعادة!... وأراني متخشّعًا لقاء المقام مستغفرًا فأيّ طمأنينة! وأراني واردًا زمزم أبلّ جوارح الشوق بندى الشفاعة فأيّ سلام! أخي لا تذكّرني بـالعودة وادعُ الله معي أن يحقّق لي المنى..

فقال له صاحبه:

- حقّق الله مناك ومتّعك بطول العمر والعافية.

فضمّ السيّد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألّقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول:

- نِعْم الدعاء، والحقّ أنّ حبّي الآخرة لا يدفعني إلى الزهد في الدنيا أو التململ من الحياة، لطالما لمستم بأنفسكم حبّي الحياة والسرور بها، كيف لا وهي من خلق الرحمن؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتفكّر ومَن شاء فليشكر، ولذلك أحبّها، أحبّ ألوانها وأصواتها، وليلها ونهارها، ومسرّاتها وآلامها، وإقبالها وإدبارها، وما يدبّ على ظهرها من حيّ أو يقيم عليه من جماد، هي خير خالص، وما الشرّ إلّا عجز مرضيّ عن إدراك الخير في بعض جوانبه الخافية، فيظنّ العاجز المريض بدنيا الله الظنون، لذلك أقول لكم إنّ حبّ الحياة نصف العبادة وحبّ الآخرة نصفها الآخر، ولذلك يهولني ما تنوء به الدنيا من دموع وأنّات وسخط وغضب وغلّ وسخيمة، وما تبتلي به فوق هٰذا كلّه من ذمّ المرضى العاجزين. أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا؟ أكانوا يحبّون لو لم تخرج من العدم؟ أتسوّل لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلٰهيّة؟ وما أبرئ نفسي، فلقد ملكني الحزن مرّة على اقتطاع فلذة من كبدي، وتساءلت في غمرة الحزن والألم لماذا لم يُبقِ الله على طفلي حتّى يتمتّع بحظّه من الحياة والسعادة، ثمّ شاء الله أن يهديني، فقلت لنفسي أليس هو - عزّ وجلّ - الذي خلقه، فلماذا لا يستردّه وقتما يشاء! ولو أراد الله له الحياة للبث في هٰذه الدنيا حتّى يشاء الله، ولٰكنّه استردّه لحكمة اقتضتها مشيئته، فهو لا يفعل شيئًا إلّا لحكمة، والحكمة خير، فقد أراد ربّي به وبي خيرًا، وسرعان ما غلبني السرور بإدراك حكمته على حزني، ولسان قلبي يقول: ربّي لقد وضعتني موضع البلاء لتختبرني وها أنا ذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان، ملهمًا حكمتك، «فاللّٰهمّ شكرًا» وسار ديدني إذا أصابتني مصيبة أن ألهج من أعماق قلبي بـالشكر والرضا، كيف لا والله يخصّني بـالامتحان والعناية، وكلّما عبرت محنة إلى برّ السلام والإيمان ازددت إدراكًا لما في مقاديره من حكمة وما فيها بالتالي من خير، وما تستحقّ بعد ذٰلك من شكر وسرور، وهٰكذا وصلت المصائب ما بيني وبين حكمته على دوام لا ينقطع، حتّى خلتني طفلًا مدلّلًا في ملكوته يقسو عليّ لأزدجر، ويخوّفني بعبوس مصطنع ليضاعف سروري بالأنس الحقيقيّ الدائم، وإنّ الحبيب ليسبر محبوبه بـالصدّ حينًا، وإن عرف المحبوب أنّ الصدّ مكر محبّ لا هجر قال، تضاعف حبّه وسروره. فما عدوت أن وقر في اعتقادي أنّ المصابين في هٰذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه، خصّهم بحبّ مقنع، ورصدهم غير بعيد، ليرى إن كانوا حقًّا أهلًا لحبّه ورحمته.. فالحمد لله كثيرًا، بفضله عزّيت من حسبوا أنّني أهل للعزاء..

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنّي إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه في سلطنة الفنّ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد:

- يذهب أناس إلى أنّ هٰذه المصائب وأمثالها ممّا يبتلي به الأبرياء عنوان عدالة انتقاميّة لا يفطن لحكمتها عامّة الناس. وتراهم يقولون إنّه لو تفكّر الأب الثاكل مثلًا لوجد أنّ ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آبائه الأوّلين، ولٰكن لعمري إنّ الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البريء بالمذنب. وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنّه عزيز ذو انتقام، ولٰكنّي أقول يا سادة أنّ الله تعالى غنيّ عن الانتقام، وأنّه إنّما أضاف هٰذه الصفة لذاته لينبّه الإنسان إلى احتذائها، وقد سبقت إرادته بألّا تستقيم أمور هٰذه الدنيا إلّا بالثواب والعقاب، أمّا ذاته العزيزة الجليلة فسنّتها الحكمة الربّانيّة والرحمة الإلٰهيّة. ولو أنّني اكتشفت تحت مصائبي عقابًا أستحقّه، أو وجدت وراء جثث أبنائي جزاء أستأهله، لاعتبرت حقًّا، ولازدجرت

حقًّا، ولٰكن كان يبقى في النفس ضنى وفي العين دموع، ربّما هتف قلبي المحترق: ضعيف أذنب وبريء هلك، فكيف العفو والرحمة؟! فأين هٰذا من مصيبة تستشفّ الحكمة والخير والسرور!

وأثار رأيه اعتراضات كثيرة، فتمسّك البعض بالنّص، وأوّل البعض التفسير، وردّ آخرون الانتقام إلى الرحمة. وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علمًا ولٰكنّه لم يكن متهيّئًا للجدل، كان متفتّحًا فحسب للتعبير عمّا يضطرم في فؤاده من الحبّ والسرور، فجعل يبتسم ببراءة الطفل، متورّد الوجه متألّق العينين، وراح يقول بصوت رقّقه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين:

ـ معذرة يا سادة فإنّي أحبّ الحياة، بل أحبّ نفسي، لا كذات تتعلّق بي، ولٰكن كفلذة من قلب البشريّة، ونبض من الحياة، وخلق للصانع الأجلّ، وتجربة للحكمة الإلٰهيّة، وأحبّ الناس جميعًا حتى المجرمين الشائهين. أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممضّ في سبيل الكمال؟.. أليسوا ظلمة تلقي عتمتها على بهاء الخير ضياء، ذروني أبح لكم بسرّ دفين، أو تعلمون ما الذي بعثني إلى الحجّ هٰذا العام؟

وصمت السيّد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج، ثمّ قال يجيب نظرات الاستطلاع التي عكستها الأعين:

ـ لا أنكر أنّ الحجّ أمنية طالما نازعني الفؤاد إليها، ولٰكن قضت إرادة الله أن أؤجّلها عامًا بعد عام، حتّى حسبتني قد بتّ أوثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه، ولأشواق العبادات لذّة كقضائها. ثمّ كان مِن أمْر زقاقنا ما تعلمون، فشدّ الشيطان على أعين رَجُلينِ وفتاة من جيراننا، أمّا الرجلان فقادهما إلى قبر ينبشانه وغادرهما في السجن. وأمّا الفتاة فاستدرجها إلى هاوية الشهوات وغاص بها في حمأة الرذيلة. هناك زلزل قلبي زلزالًا شديدًا تصدّعت له أضلعي. ولا أكتمكم يا سادة أنّ شعورًا بالذنب داخلني لأنّ أحد الرجلين كان يقتات على الفتات، وقد نبش القبر لعلّه يجد بين عظامه النخِرة لقمة يستسيغها، كالكلب الضالّ يلتقط رزقه من أكوام الزبالة. فلشدّ ما ذكّرني جوعه بجسمي المكتنز ووجهي المتورّد، حتّى استحوذ عليّ الخجل وغلبني استعبار، وقلت لنفسي معنّفًا متقزّزًا ماذا فعلت ـ وقد أتاني الله خيرًا كثيرًا ـ لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه، ألم أترك الشيطان يعبث بأهل جيرتي وأنا ذاهل عنه بسروري وطمأنينتي؟ ألا يكون الإنسان الطيّب بتقاعده عونًا للشيطان من حيث لا يدري؟.. واستصرخني الضمير المعذّب أن ألبّي النداء القديم، وأن أشدّ الرحال إلى أرض التوبة مستغفرًا، حتّى إذا شاء الله لي أن أعود عدت بقلب طاهر، وجعلت من قلبي ولساني ويدي أعوانًا للخير في مملكة الله الواسعة...

ودعا له الإخوان بصدق وحرارة، وواصلوا الحديث في سرور وحبور.

* * *

وأبى السيّد رضوان بعد أن ودّع بيته إلّا أن يزور قهوة كرشة مودّعًا فاتعد مجلسه محوطًا بالمعلّم «كرشة» وعمّ كامل والشيخ درويش وعبّاس الحلو وحسين كرشة. وجاءت المعلّمة حسنيّة الفرّانة فقبّلت يده وحمّلته السلام أمانة، وقد قال لهم السيّد:

ـ الحجّ فريضة على مَن استطاع إليه سبيلًا، يؤدّيها عن نفسه وعمّن يقعد بهم الأعذار من الصادقين.

فقال له عمّ كامل بصوت الأطفال:

ـ صحبتك السلامة في الحلّ والترحال، وعسى ألّا تنسى أن تجيئنا بسبحة من المدينة المنوّرة..

فابتسم السيّد وقال:

ـ لن أكون كمَن وهبك كفنًا ثمّ ضحك عليك.

وضحك عمّ كامل وكاد يعود إلى هٰذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عبّاس الواجم فأمسك. وقد أثار السيّد هٰذه الذكرى متعمّدًا ليدخل منها إلى نفس الشابّ التعس مدخلًا لطيفًا، والتفت إليه بحنان وقال:

ـ يا عبّاس أصغ إليّ كما ينبغي لشابّ شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللطف، عد إلى التلّ الكبير في أوّل فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت. وأعمل بما أوتيت من همّة، واقتصد من النقود ما تشقّ به حياة جديدة إن شاء الله، وإيّاك وأن تلقي برأسك في خضمّ

الفكر، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب، ولا تحسبنّ ما اعترضك من سوء الحظّ هو ختام ما قُدّر لك في الحياة. إنّك بعدُ شابٌ في نهاية الحلقة الثانية من عمرك، وما تلقاه من ألم ليس إلّا بعض ما يصيب الإنسان في حياته، وكأنّه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولفّهما، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلًا خليقًا بالرجولة، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتأسّي المؤمن. انهض مستوصيًا بالصبر متعوّذًا بالإيمان، واسعَ إلى رزقك، ولتهنأ بسرور المؤمن إذا أدرك أنّ الله قد اختاره لمصافّ المصابين من أوليائه.

ولم يحر عبّاس جوابًا، ولكنّه لّما رأى عيني السيّد لا تتحوّلان عنه، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا، وغمغم بلا وعي تقريبًا:

- سيمضي كلّ شيء كأن لم يكن.

فابتسم السيّد، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول:

- أهلًا بشاطر زقاقنا! سأدعو الله لك الهداية في أرض مستجابة الدعاء، ولأجدنّك إن شاء الله حين عودتي محتلًّا مكان أبيك كما يريد لك، ونعم ما أراد، وطوبى للمعلّم الصغير الجديد.

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقًا:

- يا سيّد رضوان، اذكرني إذا أحرمت، وذكّر أهل البيت بأنّ محبّهم تَلِفٌ وشغفه الغرام، وأنّه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حبّ لا تنفع له غلّة، واشْكُ إليهم خاصّة ما يلقى من ستّ الستّات.

* * *

وغادر السيّد رضوان القهوة يحفّ به الصحاب، ولقد لحق به من البيت قريبان اعتزما السفر معه حتّى السويس، ومال السيّد إلى الوكالة فوجد السيّد سليم علوان مكبًّا على بعض دفاتره، فابتسم قائلًا:

- تأذن الرحيل فدعني أعانقك.

ورفع الرجل وجهه الذابل في دهشة، وكان علم بميعاد الرحيل دون أن يحرّك ساكنًا. ولكنّ السيّد رضوان لم يلق بالًا إلى إهماله، وكان يعلم من سوء حالته ما يعلم الجميع، فأبى أن يغادر الحيّ قبل أن يودّعه. وكأنّما شعر الآخر بخطئه في هذه اللحظة فاعتراه ارتباك، إلّا أنّ السيّد احتواه بين ذراعيه وقبّله ودعا له طويلًا، ولبث عنده مليًّا، ثمّ قال وهو ينهض قائمًا:

- لندعُ الله أن نحجّ معًا في عامنا القادم.

فغمغم السيّد سليم وهو لا يعني ما يقول:

- إن شاء الله.

وتعانقا مرّة أخرى، ورجع السيّد إلى أصحابه، ومضوا جميعًا إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محمّلة بالحقائب، فصافح الرجل مودّعيه بحرارة وركب هو وقريباه، وانحدرت العربة صوب الغوريّة تتعلّق بها الأعين، ثمّ مالت إلى الأزهر.

- ٣٤ -

قال عمّ كامل لعبّاس الحلو:

- ليس وراء نصح السيّد رضوان مذهب لناصح، فاجمع شتات نفسك وتوكّل على الله وسافر، وسوف أنتظرك طال الزمن أو قصر، وستعود بإذن الله ظافرًا وتكون على رأس حلّاقي هذا الحيّ جميعًا.

وكان الحلو يجلس على كرسيّ أمام دكّان البسبوسة غير بعيد من عمّ كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة، ولم يكن باح لأحد بسرّه الجديد، وقد همّ حين نصحه السيّد رضوان الحسيني بالإفصاح عمّا يثقل كاهله، ولكنّه تردّد لحظة فوجّه السيّد خطابه إلى حسين كرشة، وسرعان ما عدل عمّا قام بنفسه. ولم تضع نصيحة السيّد رضوان هباء فتفكّر فيها مليًّا، بيد أنّ يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب في حانوت الورد ليلة ونهار، فقلّب وجوه الفكر في هدوء وأناة وعرف في النهاية أنّه لا يزال يحبّ الفتاة، وإن كانت أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، وأنّ رغبته في الانتقام من غريمه لا تقاوم، وقد أنصت إلى كلام عمّ كامل صامتًا، ثمّ تنهّد من الأعماق، تنهّد إنسان تعس كبّلته الأقدار بأغلال الشقاء، ووضعته على شفا جرف هاوٍ من الدمار.

وسأله عمّ كامل بقلق:

ـ خبّرني عمّا اعتزمت؟!

فنهض الشابّ قائمًا وهو يقول:

ـ سأمكث هنا بضعة أيّام أخر، على الأقلّ حتّى يوم الأحد، ثمّ أتوكّل على الله.

فقال عمّ كامل في إشفاق:

ـ ليس السلوان بالمطلب العسير إذا نشدته صادقًا.

فقال الشابّ وهو يغادر موضعه:

ـ صدقت! . . السلام عليكم.

ومضى وفي نيّته أن يقصد حانة فيتا، حيث يظنّ أنّ حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيّد رضوان مباشرة. وظلّ فكره فريسة للأفكار القلقة، وقلبه نهبًا للعواطف المضطرمة. إنّه ينتظر يوم الأحد، وما يوم الأحد ببعيد، ولٰكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين؟! أيمضي إلى الموعد حاملًا خنجرًا ليغمده في قلب غريمه؟ لعلّ هٰذا ما يتحرّق إليه بكلّ ما يتملئ به قلبه من غضب وحقد وشقاء، ولٰكن هل يسعه ارتكاب الجريمة؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة؟! وهزّ رأسه في شكّ وكمد وحقد. إنّه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام، وهٰذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسالمة، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد! وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقصّ عليه قصّة حميدة ويسأله المشورة والعون! بل العون قبل سواه، لأنّه يبدو عاجزًا بغير هٰذا العون. وفي هٰذه الحال من الإقرار بالعجز عاودته نصيحة السيّد رضوان الحسيني «. . عد إلى التلّ الكبير في أوّل فرصة، بل اليوم إن سمعت وأطعت، . . إيّاك وأن تلقي برأسك في خضمّ الفكر أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب. . » استحضر كلام السيّد الذي أوشك أن ينساه، أجل، لماذا لا يطوي الماضي بأحزانه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل؟ لماذا يحمّل نفسه ما لا طاقة لها به، لماذا يعرّض حياته لأهوال أخفّها السجن؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولٰكن دون أن يقطع برأي حاسم، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام، ولعلّ الانتقام لم يكن وحده الذي يستبدّ بشعوره، ولعلّه خاف العدول عنه لأنّ في هٰذا العدول قطعًا حاسمًا لهٰذا الخيط الواهي الذي وصله بحميدة أمس، وقد أبى أن يصدّق أنّه يستطيع العفو عمّا سلف، وقال وكرّر القول ـ بداع وبلا داع ـ إنّ أسبابها قد انقطعت إلى الأبد، ولٰكنّ هٰذا الإلحاح في القول نفسه أخفى رغبة ـ لعلّه لم يدرها في استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلًّا لتعلّقه بالمرأة التي يحبّها ولا يطيق هجرها. وبهٰذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا. وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النبيذ الأحمر ولّما تلعب الخمر برأسه، فمضى إليه وحيّاه تحيّة مقتضبة، وقال برجاء حارّ:

ـ حسبك ما شربت فإنّي أريدك لأمر هامّ. . هلمّ معي.

ورفع حسين حاجبيه منكرًا، وكأنّما كبر عليه أن يعكّر القادم صفوه، ولٰكنّ عبّاس ـ وقد أذهله الهمّ عن وعيه ـ أمسك بذراعه وشدّه حتّى أقامه وهو يقول:

ـ إنّي في مسيس الحاجة إليك.

فنفخ الشابّ مستاء، ودفع ما عليه، وغادر الحانة برفقة صاحبه، وقد أصرّ عبّاس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته. ولـمّا صار في الموسكي قال وكأنّما يزيح كابوسًا عن صدره:

ـ وجدت حميدة يا حسين. .

فلاح الاهتمام في العينين الصغيرتين وسأله:

ـ أين؟

ـ ألا تذكر امرأة العربة التي عدوت وراءها أمس وسألتني عنها اليوم دون أن تظفر منّي بجواب شافٍ؟ هي حميدة دون غيرها. .

فصاح الشابّ بدهشة وسخرية:

ـ أسكران أنت؟! ماذا قلت؟

فقال عبّاس بلهجة جدّيّة شديدة التأثّر:

ـ صدّقني فيما قلت، هٰذه المرأة هي حميدة بلحمها ودمها، وقد عرفتها من أوّل نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت، حتّى أدركتها وحادثتها.

فتساءل حسين في دهشة وإنكار:

ـ كيف تريدني على أن أكذّب عينيّ؟!

فتنهّد الحلو بأسى، وراح يروي له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفي عنه شيئًا، والآخر يصغي إليه باهتمام شديد، حتّى ختم حديثه قائلاً:

ـ هٰذا ما أردت أن أطلعك عليه، ولقد تردّت حميدة في الهاوية ولا نجاة لها، ولٰكنّني لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب.

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار في تفسيرها، وكان الفتى بطبعه مستهترًا قليل الاكتراث، فأفاق من دهشته بأسرع ممّا قدّر صاحبه، ثمّ قال بازدراء:

ـ حميدة هي المجرمة الأصليّة، ألم تفرّ معه؟.. ألم تستسلم له؟.. أمّا هو فلماذا نؤاخذه به؟.. فتاة أعجبته فغواها. ووجدها سهلة فنال منها وطره، وأراد أن يستغلّها فسرّحها في الحانات، هٰذا لعمري رجل حاذق، وبودّي لو أفعل مثله حتّى تنجاب عنّي هٰذه الأزمة التي أكابدها. حميدة هي المجرمة يا صاح.

وكان عبّاس يحسن فهم صاحبه، فلم يداخله شكّ في أنّه لا يتورّع عن شيء ممّا ارتكبه غريمه، ولذٰلك تحامى عن حكمة ذمّ الرجل في سلوكه أو خلقه، وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال:

ـ ولٰكن ألا ترى أنّ هٰذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه؟

ولم يغب عنه قوله «كرامتنا» وأدرك أنّه يشير إلى الأخوّة التي تربطه بحميدة، وذكره لتوّه شقيقته المطروحة في السجن بسبب فضيحة مماثلة، فاستشاط غضبًا وحنقًا وزأر صائحًا:

ـ هٰذا شأن لا يعنيني، ولتذهب حميدة إلى الشيطان.

ولٰكنّه لم يكن صادقًا كلّ الصدق في ما قال، ولو كان لقي ذٰلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه، ولٰكن الحلو خدع بقوله فصدّقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب:

ـ ألا يُغضبك أن يعتدي رجل على بنت من زقاقنا هٰذا الاعتداء المنكر؟ أسلّم لك بأنّ حميدة مجرمة حقًّا، وأنّ عمل الرجل في ذاته لا غبار عليه، ولكن أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشينًا يستوجب الانتقام؟!

فصاح حسين بحدّة:

ـ أنت أحمق، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهّم، ولٰكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع، ولو أنّ حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحًا. كيف لقيتها يا رطل؟! نازعتها الحديث والشكاة؟! مرحى. مرحى. حييت من رجل همّام!.. لماذا لم تقتلها؟.. لو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يديّ بالمرأة التي خانتني لخنقتها بلا تردّد، ثمّ ذبحت عشيقها. واختفيت عن الأنظار؟.. هٰذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل.

وتلبّست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانيّة، فاستدرك مزمجرًا:

ـ لست أقول هٰذا متهرّبًا، فالحقّ أنّ هٰذا الرجل ينبغي أن يدفع ثمن اعتدائه غاليًا، وليدفعنّه غاليًا، وسنمضي معًا في الموعد المضروب ونوسعه ضربًا، ثمّ نرصده بمظانّه جميعًا ونوالي ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشًا من الأعوان، ولا نكفّ عنه حتّى يفتدي نفسه بمبلغ كبير من المال، وبذٰلك ننتقم ونستفيد معًا..!

وسُرّ عبّاس بهٰذه النتيجة غير المتوقّعة، وقال بحماس:

ـ نِعْم الرأي هو.. حقًّا أنت رجل الملمّات..!

وسرّه الثناء، ومضى يفكّر في تنفيذ خطّته مدفوعًا بغضب لكرامته، وميله الطبيعيّ إلى العدوان، وطمعه في الحصول على مبلغ من النقود، ثمّ غمغم بصوت ملئه النذير «ما يوم الأحد ببعيد!» وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقّف عن المسير وهو يقول:

ـ عد بنا إلى حانة فيتا...

ولٰكن الآخر تشبّث بذراعه وهو يقول:

ـ أليس من الأفضل أن نمضي إلى الحانة التي سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك؟

وتردّد حسين لحظات، ثمّ سار معه كما أراد وقد حثّا الخطا. وكانت الشمس قد مالت للمغيب، ولم يكد يبقى من نورها إلّا ظلال خفيفة، وشمل السماء ذٰلك الهدوء الحالم الذي تخلد إليه إذا تراءت لها طلائع

الظلام. واشتعلت مصابيح الطريق واطّرد سبل السابلة لا يعبئون اختلاف الليل والنهار. ودوّى سطح الأرض على غير انقطاع، فمن جعجعة الترام إلى أزيز السيّارات، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمّارات غير همهمة البشر، فكأنّهما بخروجهما من المدقّ إلى هٰذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة. وارتاح عبّاس الحلو وانقشعت الحيرة التي غشيته طويلاً فعرف سبيله بفضل صاحبه الجريء القويّ، أمّا حميدة فقد ترك أمرها معلّقًا للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء، ولم يستطع أن يبتّ فيه برأي، أو أنّه أشفق من البتّ فيه برأي حاسم. وقد خطر له لحظة أن يفاتح صاحبه ببعض خواطره ولٰكنّه ما كاد يختلس إلى وجهه الأسود نظرة حتّى غاص الكلام في حلقه فلم ينبس بكلمة. وواصلا السير حتّى بلغا موقف الأمس الذي لا ينسى فلكز عبّاس صاحبه وهو يقول:

ـ هاك دكّان الأزهار الذي حادثتها فيه.

ونظر حسين إلى الدكّان الذي يشير إليه صامتًا، ثمّ سأله باهتمام:

ـ وأين الحانة؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم «ها هي ذي»، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحّص المكان وما يحيط به بعينيه الصغيرتين الحادّتين. ونظر عبّاس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمرّان بها فجذب عينيه منظر غريب. ندّت عنه شهقة، وتصلّبت عضلات وجهه، ثمّ جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى. رأى حميدة في جلسة شاذّة بين نفر من الجنود، كانت تجلس على كرسيّ وإلى ورائها جنديّ واقفًا يسقيها خمرًا من كأس في يده، ينحني عليها قليلاً وتميل هي برأسها إليه وقد مدّت ساقيها على حجر آخر يجلس قبالتها، وحفّ بهم آخرون يشربون ويعربدون. بهت الفتى وتسمّر في موقفه، ونسي ما كان علمه من مهنتها، وكأنّ الخطب يدهمه على غير علم به، وطمس الدم الفائر بصيرته، فلم يعد يعرف غريمًا له في دنياه سواها، واندفع إلى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد:

ـ حميدة. . . .

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسيّ، وحملقت في وجهه بعينين ملتهبتين، وغلبتها الدهشة ثواني، ثمّ ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهدّدها به حمقه من الفضيحة، فصاحت به بصوت خشن فظّ جعله الغضب كالزئير:

ـ لا تبق هنا لحظة واحدة. . . اغرب عن وجهي. . .

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجنّ جنونه، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيّب وتردّد، ووجد أخيرًا ما عاناه في الأيّام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقبًا في مرجل نفسه، فانطلق منه صارخًا، مصفرًّا مجنونًا، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة، فتناول واحدة وهو لا يدري ما يفعل وقذفها صوبها بكلّ ما يملك من قوّة وغضب وقنوط، في سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد. لا من الجنود ولا من عمّال الحانة، فأصابت الزجاجة وجهها، وتفجّر الدم غزيرًا من أنفها وفمها وذقنها، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها. واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين، وانقضّ عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات. . .

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعًا. وكلّما تلقّى ضربة هتف صارخًا: «يا حسين. . . يا حسين»، ولٰكنّ الفتى الذي لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسمّرًا لا يدري كيف يشقّ سبيله إلى صاحبه وسط أولٰئك الجنود الكواسر الفاتكين، وتملّكه الغضب، واشتعلت بصدره ثورة جائحة، وأخذ يتلفّت يمنة ويسرة علّه يجد آلة حادّة أو عصًا أو سكّينًا وبقي مقهورًا مغلوبًا على أمره، وقد مضى السابلة يتجمّعون عند مدخل الحانة متطلّعين للمعركة بأعين فزعة وأيدٍ مغلولة. . .

- ٣٥ -

أضاء الصباح بجنبات الزقاق. وألقت الشمس شعاعًا من أشعّتها على أعلى جدران الوكالة ودكّان الحلاّق. وغدا سنقر صبيّ القهوة فملأ دلوًا ورشّ الأرض. وكان المدقّ يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة، وأهله يستقبلون الصباح بهتافاتهم المحفوظة. وفي هٰذه الساعة الباكرة ينشط عمّ كامل على غير عادته فيقف أمام صينيّة البسبوسة يحفّ بـه صبية المدرسة الإلـزاميّة ويمتلئ جيبه بـالملاليم، وفي مـواجهته أكبّ الحلاّق العجوز على المواسي يشحذها، ومضى جعدة الفرّان يحمل العجين من البيوت، وأقبل العمّال عـلى الـوكالـة يفتحون أبـوابها ومخـازنها ويخرقـون السكون المخيّم بجلبتهم التي لا تنقطع طوال النهار، بينما تربّع المعلّم كرشة وراء صندوق الماركات في جلسة حـالمة يقضم شيئًا بثنيتيه ويلوكه في فمه ثمّ يعتصره بقدح من القهوة، وقد جلس على كثب منه الشيخ درويش في صمت وغيبوبة. وفي هٰذه الساعة الباكرة أيضًا تلوح الستّ سنيّة عفيفي في نافذتها، تشيّع زوجها الشابّ وهو يغادر الزقاق في طريقه إلى القسم. هٰكذا تطّرد الحياة في المدقّ على وتيرة واحدة إلّا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتياته أو ابتلاع السجن لـرجل من رجـاله، لٰكن سرعان ما تنداح هٰذه الفقّاعات في بحيرته الهادئة أو الراكدة، فلا يكاد يأتي المساء حتّى يجرّ النسيان ذيوله على ما جاء به الصباح. أضاء الصبح والزقاق يستقبل هٰذه الحياة الهادئة المطمئنّة، ولّما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهرّ الوجه ملتهب الجفـون من عدم النـوم ليلة كـاملة يضرب الأرض بخـطوات ثقـال، فمضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسيّ لقاءه، وهو يقول بصوت غليظ دون تحيّة أو سلام:

- قُتل عبّاس الحلو يا أبي...

وكان المعلّم قد أوشـك أن ينتهره لقضـائه الليـل خـارج البيت، فلم ينبس بكلمة، وحملق في وجهـه بعينين ذاهلتين، ولبث لحظات جامدًا ساهمًا كأنّـه لم يفهم ما ألقي على سمعه، ثمّ سأل بانزعاج شديد:

- ماذا قلت؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجشّ:

- قُتل عبّاس الحلو! قتله الإنجليز!..

وازدرد الفتى ريقه ثمّ أعاد على أبيه ما حدّثـه به عبّاس وهما يسـيران في الموسكي قبيـل مغيب أمس، وقال بصوت حادّ مضطرب:

- وقد مضى بي ليريني الحانة التي وعدته إيّاها الفتاة الشرّيرة، وإنّا لنمرّ ببابها إذ رأى العاهرة تعربد في جمع من الجنود، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورماها بزجاجة في وجهها قبل أن أتنبّه لقصده، وهاج الجنود وانقضّوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضربًا حتّى سقط بينهم لا حراك به.

وكوّر قبضته وقرض أسنانه قائلًا بغضب:

- يـا للشيـطان! مـا كـان بـوسعي أن أخفّ إلى نجدته!.. حالت دون ذٰلك جموع الجنود الكثيفة التي سدّت الباب سدًّا... آه لو بلغت يدي عنق جنديّ من أولٰئك الملاعين..

وكان هٰذا ما يحزّ فؤاده حزًّا، وما يشبّ في صدره نـار الغضب من غير انقـطاع، حتّى لقـد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفي من الخزي والعـار، أمّا المعلّم كرشة فقد ضرب كفًّا بكفّ وقال:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وماذا فعلتم به؟

- جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء، وضربوا حول الحانة حصارًا. وما عسى أن يفيد الحصار؟ وحملوا جثّته إلى قصر العيني، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف..

فسأل المعلّم باهتمام:

- وهل قُتلتْ؟...

فأجاب الشابّ والحقد يأكل رأسه:

- لا أظنّ... لا أظنّ الضربة كانت قاتلة..!..

ضاع الفتى هدرًا.

- والإنجليز؟

فقال الشابّ بلهجة أسيفة:

- تـركنـاهم والشرطـة تحيط بهم. ولٰكن مَن ذا يستطيع أن ينال منهم حقًّا؟

فضرب المعلّم كفًّا بكفّ مرّة أخرى وقال:

ـ إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود؟ اذهب إلى خاله عمّ حسن القباقيبي بالخرنفش وآذنه بموته. والله يفعل ما يريد.

ونهض حسين يغالب تعبه وإعياءه وغادر القهوة. وذاع الخبر، وأعاد المعلّم كرشة القصّة التي رواها ابنه مرّات ومرّات على السائلين، فتناقلتها الألسن، وزادت عليها ما شاء لها الهوى، وجاء عمّ كامل القهوة مترنّحًا وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على أريكة وراح يبكي بكاء مرًّا وينتحب كالأطفال، ولا يكاد يصدّق أنّ الفتى ـ الذي أعدّ له كفنًا ـ لم يعد من الأحياء. ونمى الخبر إلى أمّ حميدة فغادرت البيت مولولة حتّى قال بعض مَن رآها إنّها «تبكي على القاتل لا القتيل!» وكان أشدّ الناس تأثّرًا السيّد سليم علوان، لا حزنًا على الفقيد، ولٰكن فزعًا من الموت الذي اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه، فعاودته أفكاره السوداء، وتصوّراته المريضة، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التي نهكت أعصابه. واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه، وجعل يروح ويجيء في الوكالة، أو يخرج إلى الزقاق فيلقي نظرة زائغة على الدكّان الذي كان دكّان الحلو أعوامًا طوالًا. وكان أعفى نفسه ـ لشدّة الحرارة ـ من شرب الماء الدافئ. فأمر العامل المكلّف بخدمته بأن يدفّئ له ماء للشرب كما كان يفعل في الشتاء، وقضى تلك الساعة نهبًا للخوف والقلق وبكاء عمّ كامل يصكّ مسامعه صكًّا..

* * *

وانداحت هٰذه الفقّاعة أيضًا كسوابقها، واستوصى المدقّ بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث، وظلّ كدأبه يبكي صباحًا ـ إذا عرض له البكاء ـ ويقهقه ضاحكًا عند المساء. وفيما بين هٰذا وذاك تصرّ الأبواب والنوافذ وهي تفتح ثمّ تصرّ كرّة أخرى وهي تغلق. ولم يحدث في هٰذه الفترة أمر ذو بال. اللّهمّ إلّا ما كان من إصرار الستّ سنيّة عفيفي على إخلاء الشقّة التي كان يقطنها الدكتور بوشي قبل سجنه، وما كان مِن تطوّع عمّ كامل بنقل أثاثه ومعدّاته الطبّيّة إلى شقّته، وقيل في تفسير هٰذا إنّ عمّ كامل آثر إشراك الدكتور في مسكنه على الوحدة التي لم يألفها، ولم يعاتبه أحد في ذٰلك، بل لعلّهم عدّوها له من المكرمات، لأنّ السجن لم يكن ممّا يشين المرء في المدقّ.

وتحدّثوا في تلك الأيّام عن اتّصال أمّ حميدة بابنتها التي دخلت في طور النقاهة والشفاء، وعمّا تحلم به المرأة من جني بعض ثمار هٰذا الكنز المترع. ثمّ ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القصّابين شقّة الدكتور بوشي، وكانت مكوّنة من القصّاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء. قال حسين كرشة عنها إنّها كفلقة القمر. ولٰكن عندما اقترب موعد عودة الحاجّ رضوان الحسيني من الأقطار الحجازيّة لم يعد يفكّر أحد إلّا في هٰذا اليوم الموعود، وقد علّقت الثريّات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمل، ومنّى الجميع نفوسهم بليلة فرح وسرور تدوم ذكرها على الأيّام.

ويومًا رأى الشيخ درويش عمّ كامل وهو يمازح الحلّاق العجوز، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة:

وما سمّي الإنسان إلّا لنسيه
ولا القلب إلّا أنّه يتقلّب

فتجهّم وجه عم كامل، وانطفأ لونه، واغرورقت عيناه. ولٰكن الشيخ درويش هزّ منكبيه استهانة، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف:

مَن مات عشقًا فليمت كمدًا
لا خير في عشق بلا موت

ثمّ وحوح متنهّدًا واستدرك قائلًا:

ـ يا ستّ الستّات.. يا قاضية الحاجات.. الرحمة.. الرحمة يا آل البيت، والله لأصبرنّ ما حييت، أليس لكلّ شيء نهاية؟. بلى لكلّ شيء نهاية... ومعناه بالإنجليزيّة end وتهجيتها e n d...

مُؤلَّفات نجيب محفوظ
بالتَّسَلسُل التاريخيّ

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨
عبث الأقدار	رواية تاريخيّة	١٩٣٩
رادوبيس	رواية تاريخيّة	١٩٤٣
كفاح طيبة	رواية تاريخيّة	١٩٤٤
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
زقاق المدقّ	رواية	١٩٤٧
السراب	رواية	١٩٤٨
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
بين القصرين	رواية	١٩٥٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
السُّكَّريّة	رواية	١٩٥٧
اللصّ والكلاب	رواية	١٩٦١
السَّمّان والخريف	رواية	١٩٦٢

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢
الطريق	رواية	١٩٦٤
بيت سيِّئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥
الشَّحّاذ	رواية	١٩٦٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
ميرامار	رواية	١٩٦٧
خمّارة القطّ الأسود	مجموعة	١٩٦٩
تحت المظلّة	مجموعة	١٩٦٩
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١
المرايا	رواية	١٩٧٢
الحبّ تحت المطر	رواية	١٩٧٣
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣
الكرنك	رواية	١٩٧٤
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
قلب الليل	رواية	١٩٧٥
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧
الحبّ فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩
عصر الحبّ	رواية	١٩٨٠
أفراح القبّة	رواية	١٩٨١
ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢

الكتاب	نوعه	تاريخ صدوره
الباقي من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
أمام العرش	حوار بين الحكّام	١٩٨٣
رحلة ابن فطّومة	رواية	١٩٨٣
التنظيم السرِّيّ	مجموعة	١٩٨٤
العائش في الحقيقة	رواية	١٩٨٥
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧